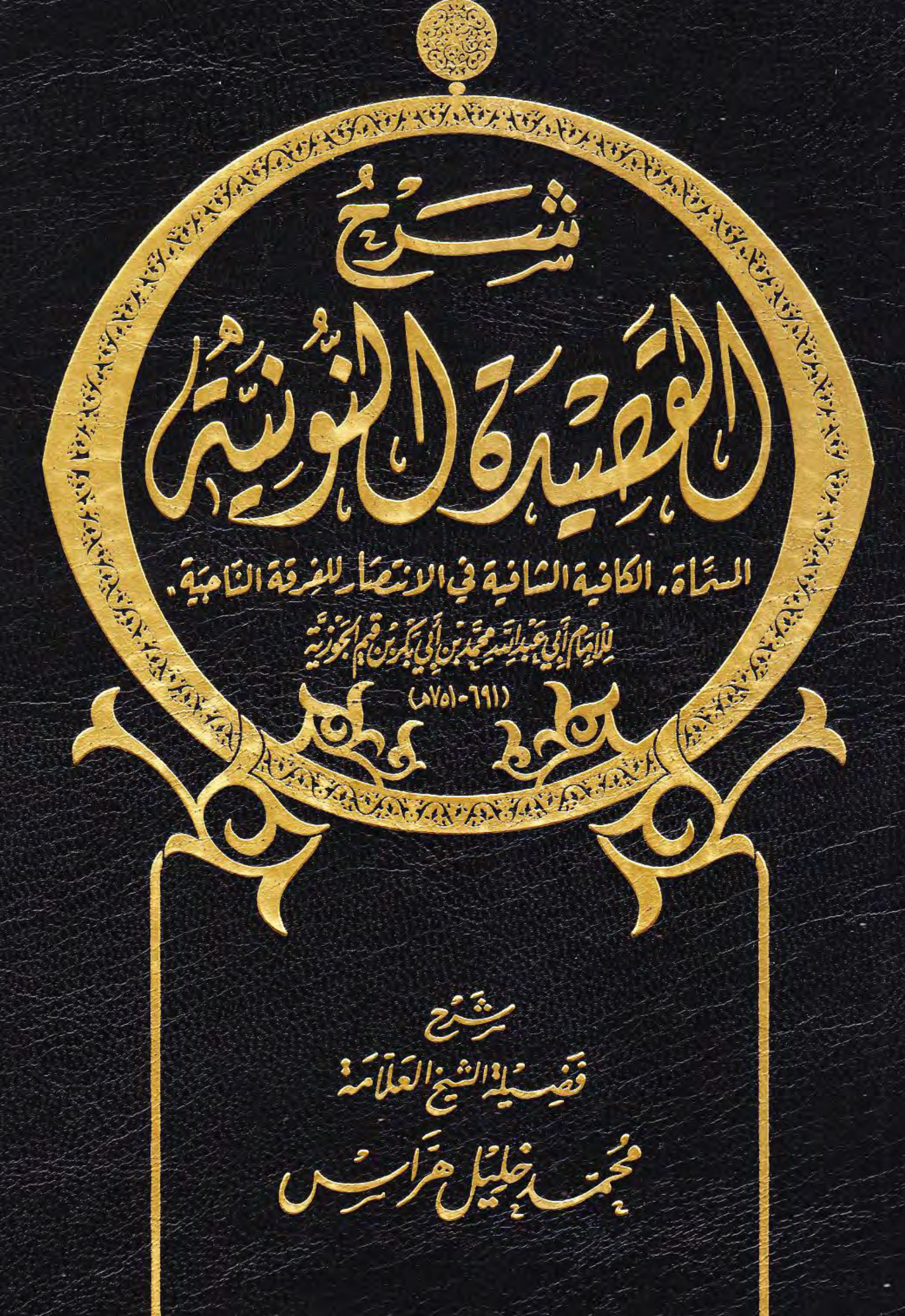


شرح القصيدة النونية

المسماة: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

(٦٩١-٧٥١هـ)

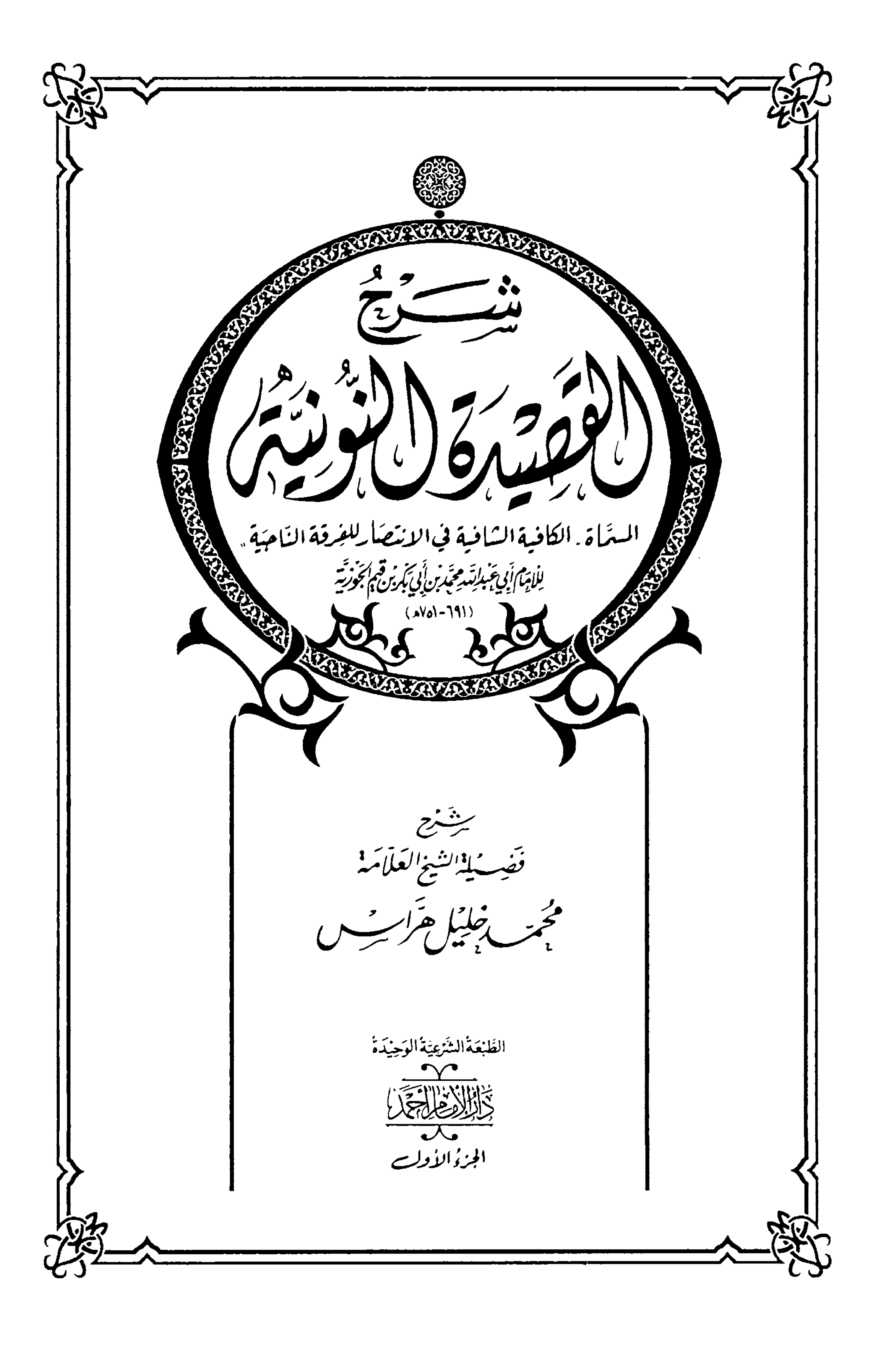
شرح

فضيلة الشيخ العلامة

محمد خليل هراس

الطبعة الشرعية الوحيدة

دار الإمام أحمد



شرح القصيدة النونية

المسماة «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

(٦٩١-٧٥١هـ)

شرح

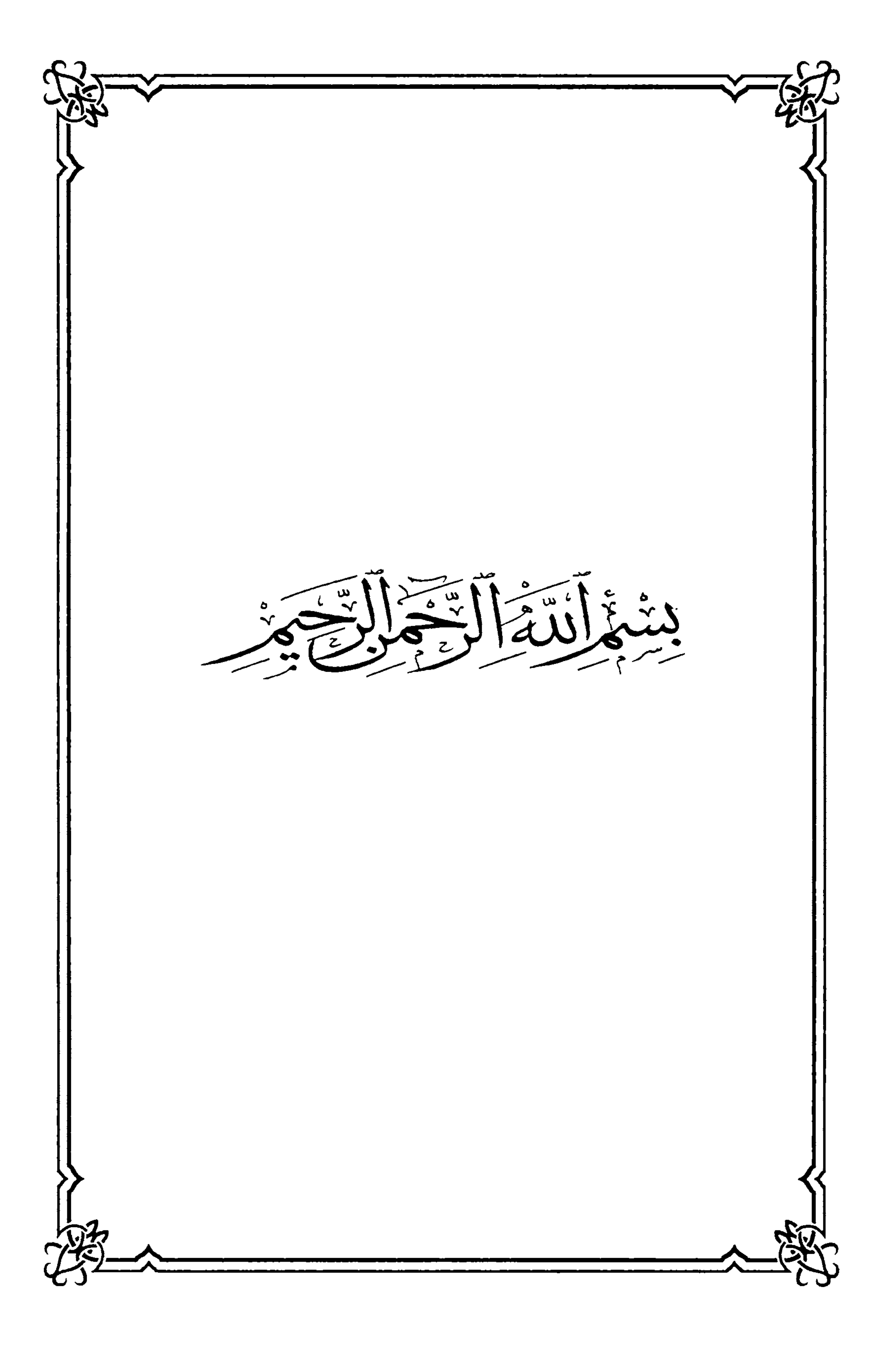
فضيلة الشيخ العلامة

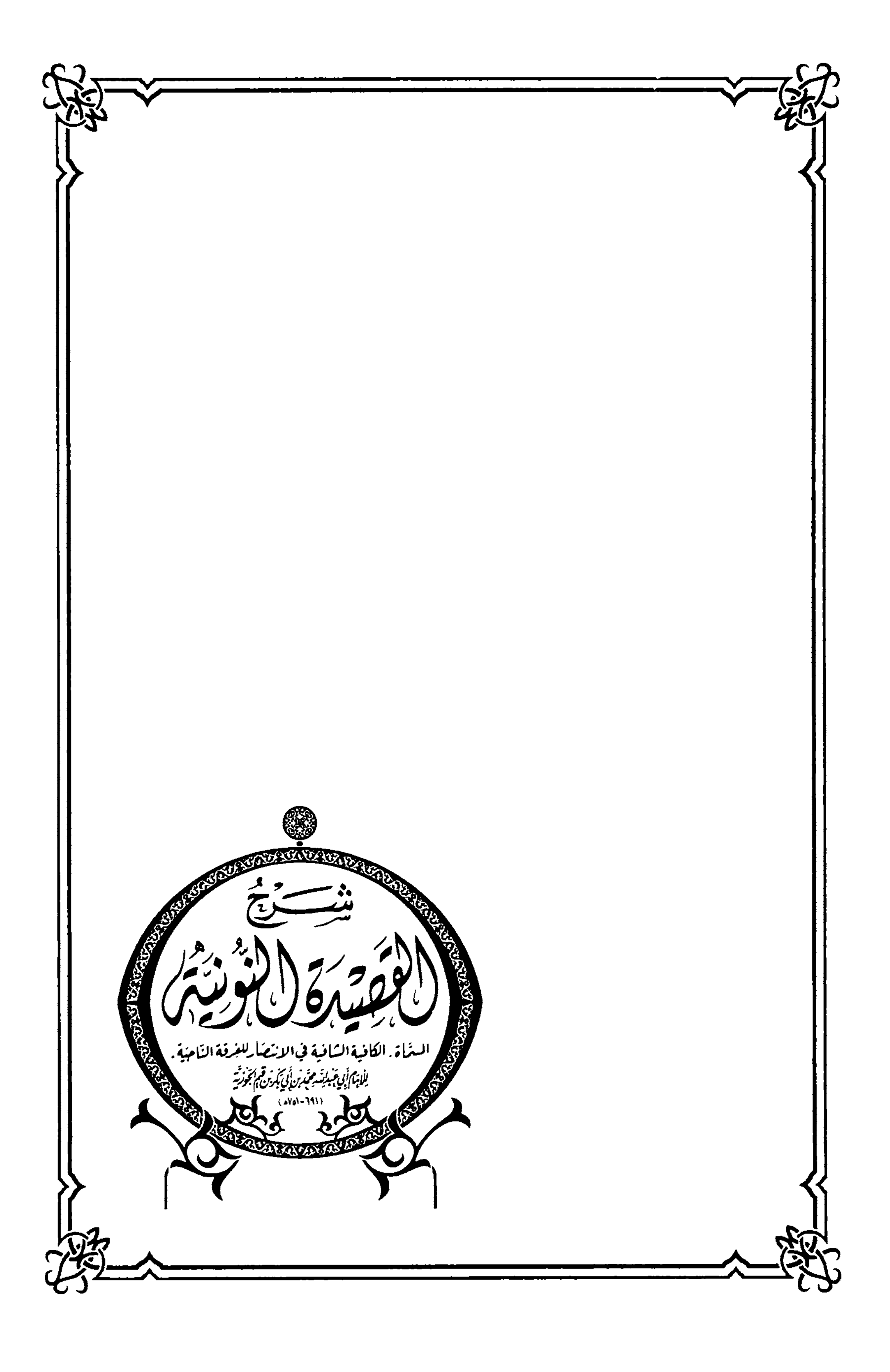
محمد خليل هراس

الطبعة الشرعية الوحيدة

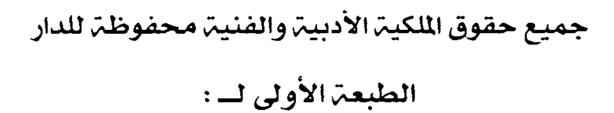
دار الإمام أحمد

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم


شرح
القصيدة النونية
المسماة. الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.
للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
(٦٩١-٧٥١هـ)

الطبعة الأولى لـ :



١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠١٣/٢٤٤١٧م

الترقيم الدولي : ٤-١٤-٦٤٢٥-٩٧٧-٩٧٨

دار الإمام أحمد

٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس : ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال : ٠٠٢/٠١٠٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال : ٠٠٢/٠١٠٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

WWW. DarAlemamAhmad.Com

ترجمة الشيخ العلامة الدكتور محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ[١]

اسمه ومولده: وهو محمد خليل هراس، ولد في بلدة الشين -كفر الشيخ- عام ١٣٣٥هـ - الموافق ١٩١٥م[٢].

نشأته وتعليمه: نشأ الدكتور محمد خليل هراس نشأة دينية إذ تلقى تعليمه الأول في المدارس الأزهرية عام ١٩٢٦م، ثم التحق بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، ودرس بها إلى أن تخرج عام ١٩٤٠م حاصلًا على الإجازة العالية.

التحق بقسم الدراسات العليا إلى أن نال شهادة الدكتوراه عام ١٩٤٥م، وكان موضوع رسالته: «ابن تيمية ورده على مذاهب المتكلمين»[٣].

ومن هنا يظهر أنه اعتنق مذهب السلف من وقت مبكر، أي قبل إكماله مراحله التعليمية.

وظائفه: عمل الشيخ محمد خليل هراس بعد تخرجه مدرسًا في المعهد الديني بالزقازيق، وبعد نيله درجة الدكتوراه شغل وظيفة التدريس بكلية أصول الدين -جامعة الأزهر- فقد كان أستاذًا للعقيدة والفلسفة بها.

تولى رئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية بالزقازيق، ثم ترأس فرع الجماعة بطنطا بعد تكوينه لها.

تم اختياره نائبًا للرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر الشيخ عبد الرحمن الوكيل، وذلك في اجتماع الجمعية العمومية المنعقدة في ١٥ محرم ١٣٨٠هـ الموافق ٩ يوليو ١٩٦٠م.

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب: «جماعة أنصار السنة المحمدية، نشأتها-أهدافها -منهجها- جهودها» إعداد/ د. أحمد محمد الطاهر، بتمامها، انظر (ص١٩٢-٢٠١)، وهو ضمن سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠) ضمن مطبوعات جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٢) انظر مجلة التوحيد، العدد الأول محرم ١٤١٧هـ، السنة الخامسة والعشرون (ص٥٧).

(٣) انظر مجلة التوحيد، العدد الأول محرم ١٤١٧هـ، السنة الخامسة والعشرون (ص٥٧).

تولى رئاسة جماعة الدعوة الإسلامية بالغربية بعد أن أسسها مع الدكتور عبد الفتاح إبراهيم سلامة[١] في عام ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م[٢].

انتدب للتدريس في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وظل سبع سنوات، وأنشأ فرع العقيدة بقسم الدراسات العليا وأصبح رئيسًا لهذا الفرع إلى حين وفاته، وقد حدثت معارضة شديدة من الأزهر عند إعارته للمملكة العربية السعودية، إلا أن الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ طلبه بإلحاح، ثم تدخل معالي الفريق عبد الرحمن أمين يومئذٍ فوافقت الدولة على إعارته.

والسبب في الاعتراض، حمله بقوة لواء السلفية ومحاربته منهج المتكلمين والفرق الضالة[٣].

مكانته العلمية: تبوأ الدكتور محمد خليل هراس مكانة علمية متميزة فقد عُرف في الأوساط العلمية بمعرفته الدقيقة للعقائد والفرق الكلامية، والمذاهب الفلسفية الغربية منها والشرقية، فقد كان منهجيًا في بحثه دقيقًا في تناوله مرتبًا في عرضه، ذا إحاطة تامة بالموضوع الذي يريد إبرازه، كان فريدًا في حل المعضلات، وتجلية الغوامض من المسائل، وتوضيح القضايا والمسائل المعقدة، كان ذا نَفَس طويل في بيان الحق وعرض الأدلة وتعميق المفاهيم وإفحام الخصوم، وقد عُرف ذلك من محاضراته التي كانت تستغرق الساعات، وكتاباته وأدائه في حجرة التدريس[٤].

قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي في مقدمته لكتاب «شرح العقيدة الواسطية»: «... فكتاب الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح وأوضحها بيانًا وأخصرها عبارة»[٥].

---

(١) عبد الفتاح إبراهيم سلامة: ولد بمدينة طنطا في ٢٢/ ٤/ ١٩٣٨م، تدرج في مراحل التعليم إلى أن حصل على الدكتوراه عام ١٣٩٩هـ، عمل في الأوقاف المصرية والليبية والجامعة الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، توفي في ٢٩ شوال ١٤١٨هـ.

انظر مجلة التوحيد، العدد الثاني عشر، ذو الحجة ١٤١٨هـ، السنة ٢٦، (ص٥٨).

(٢) انظر مجلة التوحيد، العدد الثاني عشر، ذو الحجة ١٤١٨هـ، السنة السادسة والعشرون، (ص٥٩).

(٣) انظر المرجع السابق (ص٥٧).

(٤) انظر المرجع السابق (ص٥٨).

(٥) الطبعة الرابعة، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام (ص٢).

وقال الشيخ أبو الفداء السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم الأثري في مقدمته لكتاب: «فصل المقال في نزول عيسى وقتله الدجال» تأليف الدكتور محمد خليل هراس:

«وقد أحسن المؤلف صنعًا بالرد على من قال بهذا القول -أعني: رد ما صح عن رسول الله ﷺ في ذلك- ونجد ذلك في هذه الرسالة الصغيرة الحجم؛ لكنها جمعت الأدلة وردت على الخصوم، فرحم الله مؤلفها وجزاه عن الإسلام خيرًا»[١].

وقال ناشر كتاب «دعوة التوحيد أصولها، الأطوار التي مرت بها ... مشاهير دعاتها» عبد الفتاح الزيني: «والدكتور محمد خليل هراس وهو رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر، وداعية من دعاة أنصار السنة في مصر، لجدير به أن يؤلف مثل هذا الكتاب، وكم من محاضرة وقد استمعت إليه شخصيًّا فيها، واستفدت منها الكثير...، وكان يبين التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ورأيته رحمه الله في آخر حياته ينافح عن السنة، ويرد على الذين يردون أحاديث البخاري ومسلم بما استحسنته عقولهم؛ فرحمه الله رحمة واسعة، وسائر علماء المسلمين»[٢].

وقال الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف في ترجمته للشيخ خليل هراس: «كان رحمه الله سلفي المعتقد، شديدًا في الحق، قوي الحجة والبيان، أفنى حياته في التعليم والتأليف، ونشر السنة وعقيدة أهل السنة والجماعة»[٣].

جهوده في نشر عقيدة السلف: عاش الدكتور محمد خليل هراس حياة علمية حافلة بالتضحيات والجهاد من أجل إرساء المنهج العدل والمذهب الحق، وتوطيد الدعوة السلفية، كما عمل على محاربة الشرك والبدعة، والفرق الضالة، والمذاهب الهدامة، والأفكار المنحرفة، ولقد سخر في تحقيق ذلك كل الوسائل واستفاد من كل المجالات التي أتيحت له من خلال التدريس في المعاهد والكليات، وإقامة المحاضرات العامة، والكتابة في مجلة الهدي النبوي، وإصدار الكتب والرسائل ... وغير ذلك.

---

(١) الطبعة الثانية، الدار السلفية لنشر العلم، (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م)، (ص٤).

(٢) الطبعة الأولى، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة (١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، (ص٥).

(٣) شرح العقيدة الواسطية، ضبط وتخريج: علوي عبد القادر السقاف، الطبعة الثالثة، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض (١٤١٥هـ، ١٩٩٥م) (ص٤٢).

قال الشيخ محمد عبد الحميد الشافعي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر سابقًا بعد موت الدكتور هراس: وهكذا مات خليل، فمات عالم سلفي جليل، طالما حمل على عاتقه عبء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، كان يحارب (الصنمية) بكل ما أوتي من قوة، وكان يجند كل جهده ووقته في سبيل التعريف بالسنة، والتحذير من البدعة، وكان يلاقي من عنت الجبارين وكيد المبتدعين، وزندقة الملحدين، ما لا يطيقه إلا الصابرون المحتسبون.

ولقد كان -بحق- داعية مخلصًا لا يتوانى، ولا يتكاسل، وإنما كان حركة نشاط دائبة في كل مكان؛ في القرية، وفي المدينة، وحيثما توجه من أرض الله[١].

بدأت صلة الدكتور محمد خليل هراس بجماعة أنصار السنة المحمدية حوالي عام ١٣٦٠هـ في فترة مؤسسها الشيخ محمد حامد الفقي، حينما كان مدرسًا بالمعهد الديني بالزقازيق، فقد بدأ يبث دعوة التوحيد في منابر الزقازيق، كما كان يعد في هذه الفترة رسالة الدكتوراه عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

في كلية أصول الدين بالأزهر: في عام ١٩٤٥م حصل الشيخ محمد خليل هراس على شهادة الدكتوراه، وعُين بعدها أستاذًا في كلية أصول الدين بالأزهر، فعمل جاهدًا على نشر عقيدة السلف في أروقة الأزهر، وشن حربًا شعواء على مذاهب المتكلمين، مبينًا ما فيها من انحراف عن مذهب أهل السنة والجماعة، مستقيًا معلوماته من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الحافظ العلامة ابن قيم الجوزية، وقد كان يقيم المحاضرات العلمية المستوفية المليئة بالأدلة السمعية والعقلية، ومنها محاضرته التي ألقاها في الأزهر وطبعت ضمن محاضرات الأزهر بإشراف الدكتور محمد البهي بعنوان: (الصفات الإلهية عند ابن تيمية).

ولقد كان الدكتور هراس حريصًا كل الحرص على تخريج جيل من الطلبة عارف بعقيدة السلف، قد أُشربها، وجرت منه مجرى الدم من العروق؛ ليحمل لواءها عند تخريجه، ويعلنها في قومه وبين عشيرته وفي مجتمعه، فلم يكن يلقي محاضرته مجرد معلومات محضة؛ بل كان يربطها بالجانب الروحي والاعتقادي.

---

(١) مجلة التوحيد، العددان (١٠، ١١)، شوال، ذو القعدة ١٣٩٥هـ، المجلد الثالث (ص٤).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص٥).

ومن جهده في الأزهر لإظهار المنهج السلفي، وثباته عليه، من خلال كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، أن جعل بحثه لنيل درجة الأستاذية بعنوان: «ابن تيمية السلفي».

ولقد لقي الدكتور محمد خليل هراس من جراء هذا الحماس، وهذه الغيرة لمذهب السلف عنتًا شديدًا وأذًى كبيرًا، وواجه صعوبات سواء من إدارة الأزهر، أو من بعض شيوخه وأقرانه، ومن ذلك ما ذكرناه من معارضتهم إعارته للمملكة العربية السعودية.

وأيًّا كان فقد كان للدكتور هراس دور بارز، وسعي مشكور في نشر عقيدة السلف في الأزهر[1].

مقالاته في مجلة الهدي النبوي: عمل الدكتور محمد خليل هراس على نشر مذهب السلف من خلال مقالاته المتسلسلة والمتابعة التي كان يكتبها بانتظام في مجلة جماعة أنصار السنة وقتذاك: «الهدي النبوي» والتي كانت لسان حال الجماعة، وكانت تجوب الأقطار الإسلامية ناشرة دعوة السلف حاملة لواء التوحيد رافعة شعار السنة.

كتب فيها الدكتور هراس مقالات تحت ثلاثة عناوين جلَّى فيها العقيدة، ورد على منكري بعض الأحاديث ممن تأثر بأصحاب المدرسة العقلية من قدماء ومحدَثين، وهي:

١- عقيدة القرآن والسنة: وتحت هذا العنوان قصد الشيخ هراس إلى بيان العقيدة الصحيحة المأخوذة من المنهلين الصافيين: كتاب اللَّه الكريم، وسنة المصطفى الأمين -عليه الصلاة والتسليم-.

وقد عرض فيها لموضوعات: وجود اللَّه في حلقتين، توحيد اللَّه ﷻ في أكثر من نيف وأربعين حلقة، ناقش فيها القضايا المتعلقة بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، والعبادات من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، وتوحيد الأسماء والصفات، وغير ذلك.

٢- اللَّه مستوٍ على عرشه ولو كره المعطِّلون: وهو عبارة عن رد على مقال كتب في مجلة «الاعتصام» وقد بين في هذه المقالات عقيدة أهل السنة والجماعة في استواء اللَّه على عرشه، ورد على أهل الكلام.

٣- ركن السنة.

---

(١) انظر المرجع السابق، (ص٥)، مجلة التوحيد، العدد الأول محرم ١٤١٧هـ، السنة الخامسة والعشرون، (ص٥٧، ٥٨).

محاضراته في دار المركز العام والمدن والقرى والكليات: من أساليب جماعة أنصار السنة، ووسائلها في نشر دعوة التوحيد والسنة المحمدية: المحاضرات الدورية التي كانت تلقى في دار المركز العام يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع، يحضر لها ويعلن عنها.

ولقد كان للدكتور محمد خليل هراس مشاركة فاعلة في إقامة هذه المحاضرات؛ إذ كان يركز فيها على بيان عقيدة السلف معضدًا ذلك بإيراد الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة والأعلام، فكانت محاضراته تجد رواجًا كبيرًا[١].

أما فيما يتعلق بالمدن والقرى، فقد كان المركز العام ينظم زيارات لفروع أنصار السنة في مدن مصر وقُراها لإلقاء المحاضرات والدروس العلمية، أو لحضور اجتماع الجمعية العمومية؛ لاختيار مجالس إدارة تلك الفروع، أو للمشاركة في مناسبة معينة كافتتاح مسجد، أو إشهار فرع أو غيره.

وفي هذا المضمار يضطلع الشيخ محمد خليل هراس بدور كبير، فيشارك في هذه الرحلات الدعوية والإدارية التفقدية، ويتوج تلك الجموع ويُشنِّف أسماع الحضور بإلقاء محاضرة قيمة حسب ما هو مخطط له في الزيارة[٢].

أما الكليات فقد كان يلقي بها محاضرات علمية مغتنمًا الفرصة ليعرض الدعوة السلفية للسامعين من أعضاء هيئة التدريس، وطلبة الكليات.

وكان أحيانًا يوجه نصائح ثمينة لشباب الأزهر قرب انتهاء العام الدراسي ليئوبوا إلى قراهم وأهليهم وهم مزودون بعقيدة القرآن والسنة[٣].

تكوينه جماعة أنصار السنة المحمدية بطنطا: بعد اعتناق الشيخ محمد خليل هراس مذهب السلف صدع بالدعوة إلى الله في المعاهد والكليات والمدن والقرى، ومن ذلك بلدته طنطا؛ ولكنه لما كان يعلم أن الدعوة الفردية تموت بموت أصحابها، وكان مؤمنًا بمبدأ التعاون على البر والتقوى -والعمل الجماعي شكل من أشكال التعاون- عمل على تكوين فرع لجماعة أنصار السنة المحمدية بطنطا، وتولى رئاسته، واستطاع من خلاله مع

---

(١) راجع الإعلان عن هذه المحاضرات، وبيان جدول المحاضرات في أعداد مجلة الهدي النبوي.
(٢) انظر الإعلان عن هذه الرحلات وبرامجها في أعداد مجلة الهدي النبوي.
(٣) انظر مجلة الهدي النبوي، العددان (٧، ٨)، رجب، وشعبان ١٣٧٤هـ، المجلد ١٩، (ص٣٨).

إخوته في الدعوة أن يبث التوحيد، وينشر العقيدة، وأن يحيي السنة، ويهدم الشرك والخرافة، وأن يميت البدعة، مذكرًا بكتاب اللَّه الكريم، وسنة المصطفى ﷺ.

قال الشيخ فتحي أمين عثمان: «ولما كَوَّنَ الشيخ هراس جماعة أنصار السنة المحمدية بطنطا، كان يلقي فيها محاضراته التي يحارب فيها البدعة، ويدعو إلى السنة بالحسنى، وبأدلة القرآن والسنة، وكان لها أكبر الأثر في رد كثير من الناس إلى الحق والصواب.

وكان من أثرها أيضًا أن غلى غضب أعداء الحق فتحركوا يشكونه إلى المسئولين، وذلك لتشويه مسلكه، وكانت حجتهم قائمة على أساس أنه يكره الأولياء، غير أن هذا الأمر وقع في يد رجل ذكي سرعان ما أدرك الحق، وعرف الباعث على الشكوى، فنصحهم بالكف عن ذلك؛ لأن الشيخ يدعو إلى الحق[1]؛ والتصدي لأهل الحق بمثل هذه الأساليب أمر معلوم ممن يقف في وجه الحق، وممن تعوزهم الحجة في رده، وإفحام أهله.

وكان الشيخ هراس يخطب الناس في صلاة الجمعة في المسجد، ويقيم المحاضرات في الأمسيات في فرع الجماعة، وفي غيره إذا أتيحت له الفرصة، ولقد وجدت دعوته قبولًا، وكان من أكبر مناصريه الدكتور عبد الفتاح سلامة رَحِمَهُ اللَّهُ.

تأليفه الكتب وانتصاره لمذهب السلف: يعد الشيخ محمد خليل هراس من أكثر علماء أنصار السنة عناية بالكتابة عن عقيدة السلف، فقد بدأ في هذا الاتجاه منذ تلقيه العلم، وقد كانت رسالته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان: «ابن تيمية، ونقده لمسالك المتكلمين في الإلهيات»، وكتب لدرجة الأستاذية بحثه عن شيخ الإسلام بعنوان: «ابن تيمية السلفي».

ومن أكبر جهود الدكتور محمد خليل هراس في نشر دعوة السلف: شرحه كتاب «العقيدة الواسطية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية الذي يمتاز بالوضوح، والاختصار، والاستشهاد في مواضع كثيرة بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية، وبأقوال السلف من المتقدمين والمتأخرين، وذكر مقالات الفِرق، والرد على شبههم.

---

(١) مجلة التوحيد، العدد الأول محرم ١٤١٧هـ، السنة الخامسة والعشرون، (ص٥٨).

قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي في تقديمه الكتاب كما تقدم: «فكتاب شرح العقيدة الواسطية، لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح، وأوضحها بيانًا، وأخصرها عبارة»[1].

ويعد هذا الشرح ضمن الكتب المقررة في بعض المعاهد والمدارس.

يأتي بعد ذلك تأليفه كتاب: «دعوة التوحيد» والذي يمتاز بالسهولة واليسر، وبأسلوب العصر[2] وقد تعرض فيه لأهم مسائل العقيدة من تعريف التوحيد وأقسامه وآثاره، وبيان صفات اللَّه تعالى، ودعوة الأنبياء من لدن نوح ﷺ إلى محمد ﷺ، وظهور الفرق: القدرية، والمرجئة، والجهمية، والمعتزلة، وغيرها، والكلام على المتصوفة ومفاسدها والرد عليها، وهو من الكتب المنتشرة التي بذل فيها الشيخ خليل هراس جهدًا لبيان دعوة التوحيد.

ثم كتاب: «شرح القصيدة النونية» لابن القيم، ويعتبر شرح هذه القصيدة من نشر مذهب السلف، لما فيها من بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في كل مسائل الاعتقاد، وذكر آراء مقالات الفرق والرد عليها في أسلوب شعري سَلِسٍ رصين، ويقع الشرح مع المتن في مجلدين.

ومن كتبه المهمة، كتاب: «فصل المقال في نزول عيسى ﷺ وقتله الدجال»، وهو عبارة عن رد على أصحاب المدرسة العقلية ومن نحا نحوهم وبعض من تأثر بهم، خاصة فيما يتعلق بإنكار نزول عيسى ﷺ وما من شك أن هذا يُعد من جهوده في إيقاف تلك الموجة العارمة التي تفتح المجال أمام أصحاب الأغراض والأهواء أن يتلاعبوا بمسائل العقيدة.

يقول الشيخ محمد خليل هراس في المقدمة:

أما بعد: فمنذ مطلع هذا القرن -أو قبله- وجدت جماعة تدعو إلى التحرر الفكري، وتتصدر حركة الإصلاح الديني، وتعمل لإحياء المفاهيم الدينية الصحيحة في نفوس المسلمين؛ ولكنهم في سبيل ذلك عمدوا إلى إنكار كثير من المغيبات التي وردت بها النصوص الصريحة المتواترة من الكتاب والسنة الأمر الذي يجعل ثبوتها قطعيًّا ومعلومًا

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٢).

(٢) من كلمة ناشر الكتاب الشيخ عبد الفتاح الزيني (ص٥).

من الدين بالضرورة، ولا سند لهم في هذا الإنكار إلا الجموح والغرور العقلي . . . »[١].

وكذلك كتاب: «الحركة الوهابية» الذي رد فيه على مقال للدكتور محمد البهي، وهو من الجهود المبذولة لإزاحة الشُّبه والدعايات المغرضة عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تعد من الحركات الإسلامية والتجديدية التي بثت في الأمة روح الدعوة السلفية، وفيها يقول:

«إن الحركة إنما نادت بالرجوع إلى مذهب السلف في العقائد التي هي الأصول؛ لأن السلف كانوا فيها على رأي واحد ضد أهل الأهواء من الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والجهمية، ونحوهم»[٢].

التحقيق والشرح: قام الدكتور محمد خليل هراس بتحقيق وشرح بعض كتب السلف في مجالات شتى في العقيدة والحديث والسيرة والفقه وغيرها.

فتحقيق كتب العقيدة ونشرها يعد من الجهود في خدمة مذهب السلف، إذ إن مادته محصورة في بيان العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص على ما كان عليه السلف الصالح.

وأما ما كان منها في الفنون الأخرى، فإن شرح الدكتور هراس، أو تعليقاته عليها متركزة على بيان عقيدة السلف والدعوة إلى التمسك بها.

فتاواه في مجلة الهدي النبوي: تولى الشيخ محمد خليل هراس الإجابة على أسئلة القراء في مجلة الهدي النبوي بعد وفاة الأستاذ أبي الوفاء محمد درويش رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد كانت الأسئلة تَرِد من كل بلدان العالم الإسلامي التي تصل إليها مجلة الهدي النبوي، وفي جميع مجالات وفنون العلم.

ولا شك أن الاضطلاع بهذا الدور يتطلب جهدًا كبيرًا من النظر في كتب أهل العلم لإعداد الأجوبة على هذه المسائل المتنوعة، ومنها جزء ليس بيسير يتعلق بقضايا الاعتقاد والتوحيد والسنة، وقد استمر الشيخ هراس في القيام بهذا الدور المهم؛ إذ يعتبر بيان المشاكل من ترسيخ المعلومة في نفوس القراء والسامعين، استمر في إجابة المستفتين إلى أن توقفت المجلة عام ١٣٨٧هـ[٣].

---

(١) (ص٥).

(٢) (ص٣٢).

(٣) انظر مجلة التوحيد، العدد الأول، محرم ١٤١٧هـ، (ص٥٨).

* مؤلفاته وتحقيقاته :

له مؤلفات عدة، منها :

١- دعوة التوحيد.

٢- شرح العقيدة الواسطية.

٣- ابن تيمية ونقده لمسالك المتكلمين في مسائل الإلهيات.

٤- ابن تيمية السلفي.

٥- شرح القصيدة النونية، لابن القيم.

٦- فصل المقال في نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال.

٧- شرحه الترغيب والترهيب.

٨- شرح السيرة النبوية، لابن هشام.

٩- الحركة الوهابية.

ومن تحقيقاته :

١- تحقيق كتاب الخصائص الكبرى، أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، للسيوطي.

٢- الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٣- التوحيد، لابن خزيمة.

٤- تحقيق كتاب المغني، لابن قدامة[١].

* وفاته :

توفي الدكتور الشيخ محمد خليل هراس عام ١٣٩٥هـ الموافق لشهر سبتمبر من عام ١٩٧٥م، عن عمر يناهز الستين، بعد أن عاش حياة علمية حافلة بالدعوة والتدريس والتأليف؛ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[٢].

* * *

(١) انظر المرجع السابق (ص٥٧، ٥٩).

(٢) انظر المرجع السابق (ص٥٧، ٥٩).

مقدمة الشارح

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد:

فلما كانت القصيدة النونية للعلامة «ابن قيم الجوزية» الَّتِي سماها: «الكافية الشافية فِي الانتصار للفرقة الناجية» من أعظم ما ألف فِي التعريف بمذهب السلف الصالح فِي إثبات الصفات للَّه تعالى مع تنْزيهه عن مشابَهة المخلوقات، والرد على فرق الزيغ والضلال من المعطلة النفاة أو المجسمة الغلاة، وكانت هذه القصيدة حَتَّى الآن بكرًا لَم يفتض ختامها، وحمى لَم يحم حوله أحد بالشرح والتحليل، اللَّهم إلا بعض محاولات يسيرة، ليس فيها شفاء لعليل، ولا ريٌّ من غليل، قام بِها بعض الفضلاء من علماء مذهب السلف، مثل الشيخ «ابن عيسى» والشيخ «عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي» علامة القصيم -رحمهما اللَّه تعالى وأجزل لهما المثوبة-.

لهذا استخرت اللَّه ﷻ فِي عمل شرح لَها، يجلي غوامضها ويبرز محاسنها، ويجعلها من القارئ على طرف الثمام حَتَّى ينتفع بِها عشاق الفكر ورواد البحث، ويجدوا فيها إمتاعًا لعقولهم، وصقلًا لأذهانِهم، وحتى تطمئن إليها القلوب المؤمنة الَّتِي استجابت لداعي الحق والهدى، وتجد فيها زادًا لإيمانِها، ونورًا لبصائرها، وإني إذ آخذ فيما أنا بسبيله من ذلك العمل الجليل؛ أقدر ثقل المهمة الَّتِي اضطلعت بِها، وما تقتضيه من وافر الجهد ودائب العمل؛ نظرًا لِمَا حوته هذه القصيدة من الآراء والمذاهب، وما اشتملت عليه من فنون الحجاج والجدل.

وقد رأيت أن يكون هذا الشرح وسطًا، لا غاية فِي البسط، ولا نِهاية فِي الإيجاز.

واللَّه -جلت قدرته- أسألُ أن يكون لي نعم العون على ما أنا بسبيله من ذلك، وأن يشرح لي صدري، وييسر لي أمري، إنه واهب النعم ومواليها، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الشارح

خطبة القصيدة النونية للإمام ابن القيم

الحمد للَّه الذي شهدت له بربوبيته جَميع مخلوقاته، وأقرت له بالعبودية جَميع مصنوعاته، وأدت له الشهادة جَميع الكائنات أنه اللَّه الذي لا إله إلا هو؛ بِما أودعها من لطيف صنعه وبديع آياته، وسبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، ولا إله إلا اللَّه الأحد الصمد الذي لا شريك له فِي ربوبيته، ولا شبيه له فِي أفعاله ولا فِي صفاته ولا فِي ذاته، واللَّه أكبر عدد ما أحاط به علمه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه من جَميع برياته، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، تفويض عبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هو باللَّه وإلى اللَّه فِي مبادئ أمره ونِهاياته.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا كُفُؤ له، الذي هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه أحد من جَميع برياته.

وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من بريته، وسفيره بينه وبين عباده، وحجته على خلقه، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، ودروس من الكتب، والكفر قد اضطرمت ناره، وتطايرت فِي الآفاق شراره، وقد استوجب أهل الأرض أن يحل بِهم العقاب، وقد نظر الجبار -تبارك وتعالى- إليهم فمقتهم عربَهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب.

وقد استند كل قوم إلى ظلم آرائهم، وحكموا على اللَّه ﷻ بِمقالاتِهم الباطلة وأهوائهم، وليل الكفر مدلهم ظلامه، شديد قتامه، وسبل الحق عافية آثارها، مطموسة أعلامها، ففلق اللَّه سبحانه بِمحمد ﷺ صبح الإيمان، فأضاء حَتَّى ملأ الآفاق نورًا، وأطلع به شمس الرسالة فِي حنادس الظلم سراجًا منيرًا، فهدى اللَّه به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد فِي اللَّه حق جهاده، وعبد اللَّه حَتَّى أتاه اليقين من ربه، وشرح اللَّه له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره،

وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وأقسم بحياته فِي كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه، فإذا ذكر ذكر معه كما فِي الخطب والتشهد والتأذين، فلا يصح لأحد خطبة، ولا تشهد، ولا أذان، ولا صلاة، حَتَّى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين، وصلى اللَّه وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع خلقه عليه، كما عرفنا باللَّه وهدانا إليه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن اللَّه -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه- إذا أراد أن يكرم عبده بِمعرفته، ويجمع قلبه على محبته؛ شرح صدره لقبول صفاته العلا، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها؛ قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات اللَّه تعالى، تعرف به إليه على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منْزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنْزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بِها فرحه، وعظم بِها غناؤه، وقويت بِها معرفته، واطمأنت إليها نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة فِي ميادينها، وأسام عين بصيرته فِي رياضها وبساتينها؛ لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل مِمَّن هذه صفته، وهو ذو الأسْماء الحسنى والصفات العلا، وأن شرفه -أيضًا- بحسب الحاجة إليه.

وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ومحبته، وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بِمعرفة أوصافه وأسْمائه، فكلما كان العبد بِها أعلم؛ كان باللَّه أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لَها أنكر؛ كان باللَّه أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، واللَّه تعالى ينْزل العبد من نفسه حيث ينْزله العبد من نفسه، فمن كان لذكر أسْمائه وصفاته مبغضًا، وعنها نافرًا ومنفرًا، فاللَّه له أشد بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا، حَتَّى تعود القلوب إلى قلبين:

قلبٌ: ذكر الأسْماء والصفات قوته وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك.

فلسان حاله يقول:

يُـرَادُ مِـنَ الْـقَـلْـبِ نِـسْـيَـانـكُـم ... وَتَـأْبَـى الـطِّـبَـاعُ عَـلَـى الـنَّـاقِـلِ

ويقول:

وَإِذَا تَقَاضَيت الْفُؤَاد تَنَاسِيًا ... أَلْفَيت أَحْشَائِي بِذَاكَ شِحَاحَا

ويقول:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُم ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته، نافر من سماعها، معرض بكليته عنها، زاعم أن السلامة فِي ذلك، كلا والله، إن هو إلا الجهالة والخذلان، والإعراض عن العزيز الرحيم، فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته وأفعاله وأسْمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمًى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها، والنفرة والتنفير والاشتغال بِما لو كان حقًّا؛ لَم ينفع إلا بعد معرفة الله، والإيمان به وبصفاته وأسْمائه.

والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنْزلت عليه مسدود، قد قمش شبهًا من الكلام الباطل، وارتوى من ماء آجن غير طائل، تعج منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا، وتضج منه إلى منْزلها ضجيجًا بِما يسومها تحريفًا وتعطيلًا، ويؤوّل معانيها تغييرًا وتبديلًا، قد أعد لدفعها أنواعًا من العدد، وهيأ لردها ضروبًا من القوانين، وإذا دعي إلى تحكيمها أبى واستكبر، وقال: تلك أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين.

قد أعد التأويل جُنَّة يتترس بِها من مواقع سهام السنة والقرآن، وجعل إثبات صفات ذي الجلال تجسيمًا وتشبيهًا، يصد به القلوب عن طريق العلم والإيمان، مُزجَى البضاعة من العلم النافع الموروث عن خاتم الرسل والأنبياء، لكنه مليء بالشكوك والشبه، والجدال والمراء، خلع عليه الكلام الباطل خلعة الجهل والتجهيل، فهو يتعثر بأذيال التكفير لأهل الحديث، والتبديع لهم والتضليل، قد طاف على أبواب الآراء والمذاهب يتكفف أربابَها، فانثنى بأخسر المواهب والمطالب، عدل عن الأبواب العالية الكفيلة بِنهاية المراد، وغاية الإحسان، فابتلي بالوقوف على الأبواب السافلة الملآنة بالخيبة والحرمان، وقد لبس حلة منسوجة من الجهل والتقليد والشبهة والعناد، فإذا بذلت له النصيحة، ودعي إلى الحق؛ أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم، ولبئس المهاد.

فما أعظم المصيبة بِهذا وأمثاله على الإيمان، وما أشد الجناية به على السنة والقرآن، وما أحب جهاده بالقلب واليد واللسان إلى الرحمن، وما أثقل أجر ذلك الجهاد فِي الميزان، والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان؛ ولهذا أمر به تعالى

فِي السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارًا وتعذيرًا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين فِي المقام والمسير؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق، ومن مات ولَم يغز، ولَم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من النفاق، وكفى بالعبد عمًى وخذلانًا أن يرى عساكر الإيمان وجنود السنة والقرآن، وقد لبسوا للحرب لأمته، وأعدوا له عدته، وأخذوا مصافهم، ووقفوا مواقفهم، وقد حمي الوطيس، ودارت رحى الحرب، واشتد القتال، وتنادت الأقران: النِّزال النِّزال، وهو فِي الملجأ والمغارات والمدخل مع الخوالف كمين، وإذا ساعد القدر، وعزم على الخروج؛ قعد فوق التل مع الناظرين، ينظر لمن الدائرة؛ ليكون إليهم من المتحيزين، ثُمَّ يأتيهم وهو يقسم بالله جهد أيمانه: إني كنت معكم، وكنت أتمنى أن تكونوا أنتم الغالبين.

فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألَّا يبيعها بأبخس الأثمان، وألَّا يعرضها غدًا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان، وأن يثبت قدميه فِي صفوف أهل العلم والإيمان، وأن لا يتحيز إلى مقالة سوى ما جاء فِي السنة والقرآن، فكأن قد كشف الغطاء، وانجلى الغبار، وأبان عن وجوه أهل السنة مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وعن وجوه أهل البدعة عليها غبرة، ترهقها قترة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة والضلالة».

فوالله لمفارقة أهل الأهواء والبدع فِي هذه الدار أسهل من موافقتهم إذا قيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبعده الإمام أحمد: «أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم».

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. قالوا: فيجعل صاحب الحق مع نظيره فِي درجته، وصاحب الباطل مع نظيره فِي درجته، هنالك والله يعض الظالم على يديه إذا حصلت له حقيقة ما كان فِي هذه الدار عليه، يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ

خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

فصل

وكان من قدر اللَّه وقضائه أن جمع مجلس المذاكرة بين مثبت للصفات والعلو وبين معطل لذلك، فاستطعم المعطل المثبت الحديث استطعام غير جائع إليه، ولكن غرضه عرض بضاعته عليه، فقال له: ما تقول فِي القرآن ومسألة الاستواء؟

فقال المثبت: نقول فيها ما قاله ربنا -تبارك وتعالى- وما قاله نبينا ﷺ، نَصِف اللَّه تعالى بِما وصف به نفسه، وبِما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسْماء والصفات، وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابَهة المخلوقات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنْزيهًا بلا تعطيل، فمن شبه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف اللَّه به نفسه، أو ما وصفه به رسوله تشبيهًا، فالمشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحد يعبد إلَهًا واحدًا صمدًا، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

والكلام فِي الصفات كالكلام فِي الذات، فكما أنَّا نثبت ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك نقول فِي صفاته: إنَّها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء لا فِي ذاته، ولا فِي صفاته، ولا فِي أفعاله، فلا نشبه صفات اللَّه بصفات المخلوقين، ولا نزيل عنه سبحانه صفة من صفاته لأجل تشنيع المشنعين، وتلقيب المفترين، كما أنَّا لا نبغض أصحاب رسول اللَّه ﷺ لتسمية الروافض لنا نواصب، ولا نكذب بقدر اللَّه، ولا نجحد كمال مشيئته وقدرته لتسمية القدرية لنا مجبرة. ولا نجحد صفات ربنا -تبارك وتعالى- لتسمية الجهمية والمعتزلة لنا مجسمة مشبهة حشوية.

ورحمة اللَّه على القائل:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِه ... فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّه لَهَا مُثْبِت

إلى:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِه ... لَدَيكُمْ فَإِنِّي الْيَومَ عَبْدٌ مُجسِّمُ

ورضي اللَّه عن الشافعي حيث يقول:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحمَّد ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

وقدس اللَّه روح القائل وهو شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحمَّد فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي نَاصِبِي

فصل

وأما القرآن فإني أقول: إنه كلام اللَّه، منَزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، تكلم اللَّه به صدقًا، وسمعه منه جبرائيل حقًّا، وبلغه مُحمَّدًا ﷺ وحيًا، وإن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]. و﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١-٢]. و﴿الٓر﴾ [يوسف: ١]. و﴿قٓ﴾ [ق: ١]. و﴿نٓ﴾ [القلم: ١]. عين كلام اللَّه حقيقة، وأن اللَّه تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة من النَّبي ﷺ، وأن جميعه كلام اللَّه، وليس قول البشر، ومن قال: إنه قول البشر؛ فقد كفر، واللَّه يصليه سقر، ومن قال: ليس للَّه بيننا فِي الأرض كلام. فقد جحد رسالة مُحمَّد ﷺ، فإن اللَّه بعثه يبلغ عنه كلامه، والرسول إنَّما يبلغ كلام مرسله، فإذا انتفى كلام المرسل انتفت رسالة الرسول.

ونقول: إن اللَّه فوق سمواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فِي مخلوقاته شيء من ذاته، ولا فِي ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه تعالى إليه يصعد الكلم الطيب، وتعرج الملائكة والروح إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثُمَّ يعرج إليه، وأن المسيح رفع بذاته إلى اللَّه، وأن رسول اللَّه ﷺ عرج به إلى اللَّه حقيقة، وأن أرواح المؤمنين تصعد إلى اللَّه عند الوفاة، فتعرض عليه، وتقف بين يديه، وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده، وهو العلي الأعلى، وأن المؤمنين والملائكة المقربين يخافون ربَّهم من فوقهم، وأن أيدي السائلين ترفع إليه، وحوائجهم تعرض عليه، فإنه سبحانه هو العلي الأعلى بكل اعتبار.

فلما سمع المعطل منه ذلك أمسك، ثُمَّ أسرها فِي نفسه، وخلى بشياطينه وبني جنسه، وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا وأصناف المكر والاحتيال، وراموا أمرًا يستحمدون به إلى نظرائهم من أهل البدع والضلال، وعقدوا مجلسًا يبيتون فِي مساء يومه ما لا يرضاه اللَّه من القول، واللَّه بِما يعملون محيط، وأتوا فِي مجلسهم ذلك بِما قدروا عليه من الهذيان واللغط والتخليط، وراموا استدعاء المثبت إلى مجلسهم الذي عقدوه؛ ليجعلوا نزله عند قدومه عليهم ما لفقوه من المكر وتمموه، فحبس اللَّه سبحانه عنه أيديهم وألسنتهم، فلم يتجاسروا عليه، ورد اللَّه كيدهم فِي نحورهم، فلم يصلوا بالسوء إليه، وخذلهم المطاع، فمزقوا ما كتبوه من المحاضر، وقلب اللَّه قلوب أوليائه وجنده عليهم من كل بادٍ وحاضر،

وأخرج الناس لهم من المخبآت كمائنها، ومن الجوائف والمنقلات دفائنها.

وقوى اللَّه جأش عقد المثبت، وثبت قلبه ولسانه، وشيد بالسنة المحمدية بنيانه، فسعى فِي عقد مجلس بينه وبين خصومه عند السلطان، وحكم على نفسه كتب شيوخ القوم السالفين وأئمتهم المتقدمين، وأنه لا يستنصر من أهل مذهبه بكتاب ولا إنسان، وأنه جعل بينه وبينكم أقوال من قلدتُموه، ونصوص من على غيره من الأئمة قدمتموه، وصرخ المثبت بذلك بين ظهرانيهم حَتَّى بلغه دانيهم لقاصيهم، فلم يذعنوا لذلك، واستعفوا من عقده، فطالبهم المثبت بواحدة من خلال ثلاث: مناظرة فِي مجلس عالم على شريطة العلم والإنصاف، تحضر فيه النصوص النبوية والآثار السلفية وكتب أئمتكم المتقدمين من أهل العلم والدين. فقيل لهم: لا مراكب لكم تسابقون بِها فِي هذا الميدان، وما لكم بِمقاومة فرسانه يدان. فدعاهم إلى مكاتبة بِما يدعون إليه، فإن كان حقًّا قبله وشكركم عليه، وإن كان غير ذلك سمعتم جواب المثبت، وتبين لكم حقيقة قبله وشكركم عليه، وإن كان غير ذلك سمعتم جواب المثبت، وتبين لكم حقيقة ما لديه، فأبوا ذلك أشد الإباء، واستعفوا غاية الاستعفاء، فدعاهم إلى القيام بين الركن والمقام قيامًا فِي مواقف الابتهال، حاسري الرءوس، نسأل اللَّه أن ينْزل بأسه بأهل البدع والضلال.

وظن المثبت -واللَّه- أن القوم يجيبونه إلى هذا، فوطن نفسه عليه غاية التوطين، وبات يحاسب نفسه، ويعرض ما يثبته وينفيه على كلام رب العالمين، وعلى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتجرد من كل هوى يخالف الوحي المبين، ويهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين، فلم يجيبوا إلى ذلك أيضًا، وأتوا من الاعتذار بِما دله على أن القوم ليسوا من أولي الأيدي والأبصار، فحينئذ شمر المثبت عن ساق عزمه، وعقد للَّه مجلسًا بينه وبين خصمه يشهده القريب والبعيد، ويقف على مضمونه الذكي والبليد، وجعله عقد مجلس التحكيم بين المعطل الجاحد والمثبت المرمي بالتجسيم.

وقد خاصم فِي هذا المجلس باللَّه، وحاكم إليه، وبرئ إلى اللَّه من كل هوى وبدعة وضلالة، وتحيز إلى فئة رسول اللَّه ﷺ وما كان أصحابه عليه، واللَّه سبحانه هو المسئول ألَّا يكله إلى نفسه، ولا إلى شيء مِمَّا لديه، وأن يوفقه فِي جَميع حالاته لما يحبه ويرضاه، فإن أزمة الأمور بيديه، وهو يرغب إلى من يقف على هذه الحكومة أن يقوم للَّه قيام متجرد عن هواه، قاصد لرضاء مولاه، ثُمَّ يقرؤها متفكرًا، ويعيدها، ويبديها متدبرًا، ثُمَّ يحكم فيها بِما يرضي اللَّه ورسوله وعباده المؤمنين، ولا يقابلها بالسب والشتم كفعل الجاهلين والمعاندين، فإن

رأى حقًّا تبعه وشكر عليه، وإن رأى باطلًا رده على قائله، وأهدى الصواب إليه، فإن الحق للَّه ورسوله، والقصد أن تكون كلمة السنة هي العليا جهادًا فِي اللَّه وفي سبيله، واللَّه عند لسان كل قائل وقلبه، وهو المطلع على نيته وكسبه، وما كان أهل التعطيل أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون المؤمنون المصدقون: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فصـل

وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل، والمشبه، والموحد، ذكرناها قبل الشروع فِي المقصود، فإن ضرب الأمثال مِمَّا يأنس به العقل، لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى، وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]. الآية، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلًا، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لَم يفهمه يشتد بكاؤه، ويقول: لست من العالمين. وسنفرد لَها -إن شاء اللَّه- كتابًا مستقلًّا متضمنًا لأسرارها ومعانيها وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان، واللَّه المستعان وعليه التكلان.

المثل الأول: ثياب المعطل: ملطخة بعذرة التحريف، وشرابه متغير بنجاسة التعطيل. وثياب المشبه: متضمخة بدم التشبيه، وشرابه متغير بدم التمثيل. والموحد: طاهر الثوب والقلب والبدن، يخرج شرابه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

المثل الثاني: شجرة المعطل: مغروسة على شفا جرف هار. وشجرة المشبه: قد اجتثت من فوق الأرض، ما لَها من قرار. وشجرة الموحد: أصلها ثابت وفروعها فِي السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها، ويضرب اللَّه الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

المثل الثالث: شجرة المعطل: شجرة الزقوم، فالحلوق السليمة لا تبلعها. وشجرة المشبه: شجرة الحنظل، فالنفوس المستقيمة لا تتبعها. وشجرة الموحد: طوبى، يسير الراكب فِي ظلها مائة عام لا يقطعها.

المثل الرابع: المعطل: قد أعد قلبه لوقاية الحر والبرد كبيت العنكبوت. والمشبه: قد خسف بعقله، فهو يتجلجل فِي أرض التشبيه إلى البهموت. وقلب الموحد: يطوف حول العرش ناظرًا إلى الحي الذي لا يموت.

المثل الخامس: مصباح المعطل: قد عصفت عليه أهوية التعطيل، فطفئ وما أنار. ومصباح المشبه: قد غرقت فتيلته في عسكر التشبيه، فلا تقتبس منه الأنوار. ومصباح الموحد: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[النور: ٣٥].

المثل السادس: قلب المعطل: متعلق بالعدم، فهو أحقر الحقير. وقلب المشبه: عابد للصنم الذي قد نحت بالتصوير والتقدير. والموحد: قلبه متعبد لمن ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

المثل السابع: نقود المعطل: كلها زيوف، فلا تروج علينا. وبضاعة المشبه: كاسدة، فلا تنفق لدينا. وتجارة الموحد: ينادى عليها يوم العرض على رءوس الأشهاد: هذه بضاعتنا ردت إلينا.

المثل الثامن: المعطل: كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة. والمشبه: كبائع الخمر، إما أن يسكرك، وإما أن ينجسك. والموحد: كبائع المسك، إما أن يحذيك، وإما أن يبيعك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

المثل التاسع: المعطل: قد تخلف عن سفينة النجاة، ولَم يركبها، فأدركه الطوفان. والمشبه: قد انكسرت به اللجة، فهو يشاهد الغرق بالعيان. والموحد: قد ركب سفينة نوح، وقد صاح به الربان: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

المثل العاشر: منهل المعطل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. فرجع خاسئًا حسيرًا، ومشرب المشبه: من ماء قد تغير طعمه ولونه وريحه بالنجاسة تغييرًا. ومشرب الموحد: ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

وقد سميتها بـ: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»، وهذا حين الشروع في المحاكمة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

القصيدة النونية وشرحها

فصل

حُكْمُ الْمَحَبَّةِ ثَابِتُ الأَرْكَانِ ... مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يدَانِ

أَنَّى وَقَاضِي الْحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَها ... فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْخَصْمَانِ

وأَتَتْ شُهُودُ الْوَصْلِ تَشْهَدُ أَنَّه ... حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الإِحْسَانِ

فَتَأَكَّدَ الْحُكْمُ الْعَزِيزُ فَلَمْ يجِدْ ... فَسْخُ الْوُشَاةِ إِلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَلأَجْلِ ذَا حُكْمُ الْعَذُولِ تَدَاعَتِ الْـ ... أَرْكَانُ مِنْهُ فَخَرَّ لِلأَذْقَانِ

وَأَتَى الوُشَاةُ فَصَادَفُوا الْحُكْمَ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ مُتَيَقَّنُ الْبُطْلَانِ

مَا صَادَفَ الْحُكْمُ الْمَحَلَّ وَلَا هُوَ اسْـ ... تَوْفَى الشُّرُوطَ فَصَارَ ذَا بُطْلَانِ

فَلِذَاكَ قَاضِي الْحُسْنِ أَثْبَتَ مَحْضَرًا ... بِفَسَادِ حُكْمِ الْهَجْرِ وَالسُّلْوَانِ

وَحَكَى لكَ الْحُكْمَ الْمُحَالَ ونَقْضَهُ ... فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ

حُكْمُ الْوُشَاةِ بِغَيرِ مَا بُرْهَانِ ... إِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالصُّدُودَ لِدَانِ

وَاللَّهِ مَا هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ ... أَيْنَ الْغَرَامُ وَصَدُّ ذِي هِجْرَانِ

شَتَّانَ بَينَ الْحَالَتَينِ فَإِنْ تُرِدْ ... جَمْعًا فَمَا الضِّدَّانِ يجْتَمِعَانِ

المفردات: الأركان: جمع ركن، وهو جانب الشيء الأقوى. الصدود: الهجر والتمنع. يدان: تثنية يد بمعنى القدرة. أنى: بمعنى كيف. الوشاة: جمع واشٍ، من وشى به، يشي، وشاية، إذا نم عليه، وسعى به. لدان: تثنية لدة كعدة، وهي التراب، أي: المساوي. مقسط: أي: عادل. الغرام: الحب.

الشرح: بدأ الشيخ قصيدته بالنسيب؛ جريًا على عادة الشعراء فِي ذلك، ولكن لَم يعن بالمحبة هنا إلا ما يتعلق منها بالمطالب العالية، والمعاني الشريفة الَّتِي تتعشقها القلوب الكبيرة، وتَجِدُّ فِي طلبها ووصالها، وتسهر الليالي فِي تحصيلها.

وفي هذه الأبيات: يخبر أن حكم تلك المحبة بالجد فِي طلب المحبوب، والظفر

بوصله حكم وطيد الأركان، ثابت الدعائم، لا يستطيع الصدود والإعراض فسخه وإبطاله، كيف وقاضي الحسن والجمال هو المنفذ لذلك الحكم، مِمَّا حمل كلًّا من الخصمين على الإقرار به، وجاء شهود الوصل يشهدون بحقيقة ذلك الحكم وثبوته حَتَّى تأكد غاية التأكيد، وبذلك أصبح حكم الوشاة والعاذلين حكمًا لاغيًا تَهاوت منه الأركان، فَخَرَّ صريعًا على الأذقان.

ولما أخبر أن حكم المحبة قد توفرت له كل وسائل القوة والتنفيذ، وأنه لا سبيل للوشاة إلى نقضه وإبطاله؛ بَيَّنَ حكمهم المنافي لحكم المحبة، وهو الداعي إلى الصدود والهجران، فقال: إن الوشاة أدركوا بطلان ذلك الحكم الذي حكموا به بطلانًا يقينيًّا؛ لأنه حكم لَم يصادف محله، ولا استوفى شروطه، ومن أجل ذلك حرر قاضي الحسن محضرًا بفساد حكم الهجر والسلوان، وأنكر على الوشاة زعمهم أن المحبة والصدود لدان، ثُمَّ أقسم أن هذا حكم فِي غاية الجور، وليس بحكم مقسط، فإنه يسوي بين أمرين متضادين، ومعلوم ببديهة العقل أن الضدين لا يجتمعان فِي محل واحد بحيث يتصف بهما فِي وقت معًا.

* * *

يَا وَالِهًا هَانَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ … إذْ بَاعَهَا غَبْنًا بِكُلِّ هَوَانِ

أَتَبِيعُ مَنْ تَهْوَاهُ نَفْسُكَ طَائِعًا … بِالصَّدِّ وَالتَّعْذِيبِ وَالهِجْرَانِ

أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْمَبِيعِ وَقَدْرَهُ … أَمْ كُنتَ ذَا جَهْلٍ بِذِي الأَثْمَانِ

وَاهًا لِقَلْبٍ لَا يفَارِقُ طَيرُهُ الْـ … أَغْصَانَ قَائِمَةً عَلَى الْكُثْبَانِ

وَيظَلُّ يسْجَعُ فَوْقَهَا وَلِغَيرِهِ … مِنْهَا الثِّمَارُ وَكُلُّ قِطْفٍ دَانِ

وَيبِيتُ يبْكِي وَالْمُوَاصِلُ ضَاحِكٌ … وَيظَلُّ يشْكُو وَهْوَ ذُو شُكْرَانِ

هَذَا وَلَوْ أَنَّ الْجَمَالَ مُعَلَّقٌ … بِالنَّجْمِ هَمَّ إِلَيهِ بِالطَّيرَانِ

المفردات: الواله: المتحير من شدة الوجد. الغبن فِي البيع: النقص من الثمن أو غيره. واهًا: كلمة تقال إما للتعجب من الشيء، أو للتلهُّف والحسرة. الكثبان: جمع كثيب، وهو التل من الرمل. والسجع: شدو الطير وغناؤه. قِطْف: بكسر القاف بِمعنى مقطوف.

الشرح: يخاطب المؤلف بِهذه الأبيات المحب الذي لا يرعى شروط المحبة، ولا

يعرف قدر محبوبه، فهو مع ما يكابده من الوجد والشوق قد هانت عليه نفسه، فلم يعطها حظها من وصل محبوبِها؛ لأنه باعه طائعًا بأبخس الأثمان -أعني: بالصد والتعذيب والهجران- وذلك لجهله بوصف ذلك المبيع وقدره، وما يستحقه من غالي الأثمان.

ثُمَّ يلتفت الشيخ متحسرًا على ذلك القلب الهائم الذي استبد به الهيام، فطيره لا يفارق تلك الأغصان القائمة على كثبانِها، ويديم الشدو والغناء فوقها، ومع ذلك فهو محروم من ثِمارها وقطوفها على حين يستمتع بِها غيره مِمَّن واتاهم الحظ بوصال ذلك المحبوب، وهو كذلك يبيت ليله شاكيًا باكيًا، يندب حظه، ويتجرع قسوة الحرمان، على حين يبيت ذو الوصل ضاحكًا نشوان.

ولكنه مع كل هذا الحرمان والعذاب فِي الحب فهو لا يسلو ولا يزال مفتونًا بالجمال، حَتَّى أنه لو وجده معلقًا بالثريا لما قعد عن الطيران إليه.

* * *

لِلَّهِ زَائِرَةٌ بِلَيلٍ لَمْ تَخَفْ ... عَسَسَ الأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السَّجَّانِ

قَطَعَتْ بِلَادَ الشَّامِ ثُمَّ تَيمَّمَتْ ... مِنْ أَرْضِ طيبَةَ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ ... مِيقَاتَهُ حِلًّا بِلَا نُكْرَانِ

وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الأَرَاكِ وَلَمْ يكُنْ ... قَصْدًا لَهَا فَأَلَا بِأَنْ سَتَرَانِي

وَأَتَتْ عَلَى عَرَفَاتِ ثُمَّ مُحَسِّرٍ ... وَمِنًى فَكَمْ نَحَرَتْهُ مِنْ قُرْبَانِ

وَأَتَتْ عَلَى الْجَمَرَاتِ ثُمَّ تَيمَّمَتْ ... ذَاتَ السُّتُورِ وَرَبَّةَ الأَرْكَانِ

هَذَا وَمَا طَافَتْ وَلَا اسْتَلَمَتْ وَلَا ... رَمَتِ الْجِمَارَ وَلَا سَعَتْ لِقِرَانِ

المفردات: العسس: فِي الأصل مصدر عس، إذا طاف بالليل يحرس الناس، ويكشف أهل الريبة، المراد به هنا: جماعة الحراس. المرصد: مكان الرصد. التيمم: القصد. أرض طيبة: هي المدينة، دار الهجرة، وكانت تسمى يثرب. المطلع: مكان الطلوع، وهو الظهور، ووادي العقيق: وادٍ من أودية المدينة، أهلَّ منه النَّبِي ﷺ، وفي الحديث: «أتاني آتٍ بالعقيق، فقال: صل فِي هذا الوادي المبارك، ثُمَّ قل: عمرة فِي حجة». وادي الأراك وعرفات ومحسر ومنى: كلها أمكنة مشهورة بالحجاز. ذات الستور: الكعبة المشرفة. القران: الإحرام بالعمرة والحج معًا.

الشرح: يتخيل الشيخ فِي هذه الأبيات -جريًا على عادة الشعراء- زائرة حسناء، قد

طرقته ليلًا فِي غير خوف من العيون والأرصاد، وأنَّها قبل أن تقدم عليه قد قامت برحلة طويلة، وطوفت فِي أماكن كثيرة، فاجتازت بلاد الشام قاصدة أرض طيبة الَّتِي شع منها نور الحق وصريح الإيمان.

ثُمَّ أتت على وادي العقيق، وهو ميقات أهل المدينة، فتجاوزته حلًّا بدون إحرام، ومن غير أن ينكر ذلك عليها أحد، ثُمَّ أتت على وادي الأراك، وما بعده من الأماكن الَّتِي تؤدى عندها المناسك، ولَم تكن تقصد لقائي ولا تتوقعه، فأتت على عرفات، وهو الجبل المشهور الذي يعتبر الوقوف عليه عشية التاسع من ذي الحجة أعظم أركان الحج، ثم أفاضت منه إلى وادي محسر، وهو المزدلفة ويقال له: جمع، ثم إلى منى التي ترمى عندها الجمار، وتنحر القربان، ثم قصدت بعد ذلك إلى البيت في مكة، وهي مع ذلك لم تطف، ولم تسع، ولا استلمت الحجر، ولا رمت الجمار، ولا سعت بين الصفا والمروة من أجل قران، وهو الجمع بين الحج والعمرة.

وما أشبه زائرة الشيخ هذه بما كان يسميه بعض الصحفيين هنا في مصر «بالجاسوسة الحسناء» التي تأتيه بالأخبار، وتوافيه بالأسرار، وهو مدخل لطيف يقدمه الشيخ بين يدي حكايته للمذاهب والمقالات التي كشف عوارها، وهتك أستارها فيما سيأتي من أبيات هذه القصيدة الشماء.

* * *

وَرَقَتْ إِلَى أَعْلَى الصَّفَا فَتَيَمَّمَتْ ... دَارًا هُنَالِكَ لِلْمُحِثِّ الْعَانِي
أَتَرَى الدَّلِيلَ أَعَارَهَا أَثْوَابَهُ ... وَالرِّيحَ أَعْطَتْهَا مِنَ الْخَفَقَانِ
وَاللهِ لَوْ أَنَّ الدَّلِيلَ مَكَانَهَا ... مَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي إِمْكَانِ
هَذَا وَلَوْ سَارَتْ مَسِيرَ الرِّيحِ مَا ... وَصَلَتْ بِهِ لَيلًا إِلَى نُعْمَانِ
سَارَتْ وَكَانَ دَلِيلَهَا فِي سَيرِهَا ... سَعْدُ السُّعُودَ وَلَيسَ بِالدَّبْرَانِ
وَرَدَتْ جِفَارَ الدَّمْعِ وَهْي غَزِيرَةٌ ... فَلِذَاكِ مَا احْتَاجَتْ وُرُودَ الضَّانِ
وَعَلَتْ عَلَى مَينِ الْهَوَى وَتَزَوَّدَتْ ... ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَوَصْلَهُ الْمُتَدَانِي

المفردات: الصفا: هو الجبل المعروف. الْمحِثُّ: اسم فاعل من أحثه على كذا بِمعنى نشَّطَه، ومفعوله محذوف، أي: الْمحِث راحلته. العاني: الأسير. الخفقان: الاضطراب، ومنه: خفق الطائر بجناحيه. نعمان: اسم مكان، ويقال له: نعمان الأراك.

وسعد السعود والدبران: نجمان يكنى بِهما عن الإقبال والإدبار. جفار: جمع جفر وهي البئر الواسعة. المين: الكذب.

الشرح: يقول الشيخ: إن تلك الحسناء فِي رحلتها المباركة الطويلة صعدت على أعلى الصفا، وأنَّها قصدت هناك دارًا للمحِثِّ مطاياه، المكبل بقيود هواه، ولعله يقصد بِها دار الأرقم بن أبي الأرقم الَّتِي كانت أول مدرسة فِي الإسلام، يجتمع فيها النَّبِي ﷺ بأصحابه، يقرئهم القرآن، ويعلمهم عقائد الإيمان، ثُمَّ يعجب الشيخ لشأن تلك الزائرة، كيف كانت تسير فِي هذه المتاهات بلا دليل وبسرعة الريح! حَتَّى أنَّها قد بزت الدليل فِي خبرتِها والريح فِي سرعتها، وكان اهتداؤها فِي مسيرها بذلك النجم الميمون، المسمى بسعد السعود، وليس بالدبران الذي هو علامة النحس والشؤم، وأنَّها وردت آبار الدمع غزارًا، فاكتفت بِها عن كل ورد سواها، وأنَّها ربأت بنفسها عن كذب الهوى، وكان زادها فِي رحلتها ذكر الحبيب، ووصله المتداني القريب.

* * *

وَعَـدَتْ بِـزَوْرَتِـهَـا فَـأَوْفَـتْ بِـالَّـذِي ... وَعَـدَتْ وَكَـانَ بِـمُـلْـتَـقَـى الأَجْـفَـانِ

لَـمْ يَـفْـجَـأِ الْـمُـشْـتَـاقَ إِلَّا وَهْـيَ دَا ... خِـلَـةَ الـسُّـتُـورِ بِـغَـيْـرِ مَـا اسْـتِـئْـذَانِ

قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا ... بِـالـصَّـبْـرِ لِـي عَـنْ أَنْ أَرَاكَ يَـدَانِ

وَتَـحَـدَّثَـتْ عِـنْـدِي حَـدِيـثًـا خِـلْـتُـهُ ... صِـدْقًـا وَقَـدْ كَـذَبَـتْ بِـهِ الْـعَـيْـنَـانِ

فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِي بِهِ ... طَـمَـعًـا وَلَـكِـنَّ الْـمَـنَـامَ دَهَـانِـي

إِنْ كُـنْـتِ كَـاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْـتِـنِـي ... فَـعَـلَـيْـكِ إِثْـمُ الْـكَـاذِبِ الْـفَـتَّـانِ

المفردات: الزورة: الزيارة. أوفت: أنجزت. ملتقى الأجفان: كناية عن النوم. فجأه الأمر: أخذه على غرة. النقاب: ما تنتقب به المرأة كالبرقع. دهاه الأمر: غلبه وحيره. الفتان: الشديد الفتنة، وهي خداع الناس وتضليلهم.

الشرح: يعني: أن هذه الحسناء كانت قد وعدته بزيارتِها، فأنجزت ما وعدت، ولكنها لَم تجئ إلا فِي وقت متأخر من الليل حين التقت منه الأجفان، وغلبه النعاس، ثُمَّ لَم يفجؤه إلا دخولها عليه سافرة، قد أماطت عن وجهها لثام الحسن، ولَم تراعِ فِي دخولها أدب الاستئذان؛ رفعًا للكلفة؛ وعجزًا عن الصبر، ثُمَّ صرحت له بِما يعتلج فِي قلبها من الوجد، وأنَّها لَم تعد تقوى على الصبر عنه، ثُمَّ أخذت تحدثه حديثًا ظنه صدقًا، فأخذه

العجب من حديثها وطلاوته حَتَّى قال من فرحه بذلك الحديث مع ما كان يغالبه من النوم: إن كنتِ قد كذبت فيما حدثتني به؛ فقد بؤتِ بإثم الكاذب الفتان.

* * *

جَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَشِيعَتُهُ الأُلَى جَحَدُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

بَلْ عَطَّلُوا مِنْهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَنَفَوْا كَلَامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَضَوْا لَهُ بِالْخَلْقِ وْالْحِدْثَانِ

المفردات: شيعته: أنصاره فِي مذهبه. جحدوا: أنكروا. الديان: اسم له تعالى، من الدين بِمعنى الجزاء. عطلوا: من التعطيل، بِمعنى النفي. العرش: الجسم المعروف الذي استوى ربنا عليه. الحدثان: الحدوث الذي هو سبق العدم.

الشرح: قوله: «جهم بن صفوان». بدل من الكاذب الفتان، وكان الجهم من أكذب الناس على اللَّه، وأعظمهم فتنة وضلالة فِي الدين، قال الذهبي عنه فِي الميزان: «جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، الضال، المبتدع، رأس الجهمية، هلك فِي زمان التابعين، وما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا».

وقال البخاري فِي رسالته «خلق أفعال العباد»: وحدثني أبو جعفر، حدثني يَحيى بن أيوب، قال: سمعت أبا نعيم الباغي قال: «كان رجل من أهل مرو صديقًا لجهم، ثُمَّ قطعه وجفاه، فقيل له: لِمَ جفوته؟ فقال: احتملت منه ما لا يحتمل، قرأت يومًا آية كذا وكذا -أنسيها يَحيى- فقال: ما كان أظرف مُحمَّدًا. فاحتملتها، ثُمَّ قرأ سورة طه، فلما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. قال: أما واللَّه، لو وجدت سبيلًا إلى حكها لحككتها من المصاحف. فاحتملتها، ثُمَّ قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هنا ذكر قصته فِي موضع. فلم يتمها، ثُمَّ رمى المصحف من حجره برجليه، فوثبت عليه».

ثُمَّ قال البخاري: «بلغني أن جهمًا كان يأخذ من الجعد بن درهم، وكان خالد القسري أمير العراق خطب، فقال: إني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن اللَّه لَم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولَم يكلم موسى تكليمًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فِي «الفتوى الحموية»: «فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فِي الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان

عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النَّبِي ﷺ».

وذكر الطبري فِي تاريخه فِي حوادث سنة تسع وعشرين بعد المائة أن الحارث بن سريج خرج على نصر بن سيار عامل خراسان لبني أمية وحاربه، وكان الجهم كاتبًا للحارث، فقتل الحارث فِي سنة ثمان وعشرين ومائة فِي خلافة مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وأما الجهم؛ فقيل: إنه قتل أيضًا فِي المعركة. وقيل: بل أسره نصر بن سيار، وسلمه إلى سلم بن أحوز، فقتله، وكان سالم على شرطة خراسان وقيل: إن سالمًا قتله لما بلغه فساد نحلته، وأنه ينكر أن اللَّه كلم موسى تكليمًا.

ولما كان مذهب الجهم فِي التعطيل والجبر أصلًا تفرع عنه كثير من فرق الضلال كالمعتزلة، والفلاسفة، ومتأخري الأشعرية، والقرامطة الباطنية، وملاحدة الصوفية القائلين بالحلول والوحدة، كابن عربي، وابن سبعين وأضرابِهما -بدأ المصنف ببيانه مع التفصيل والإسهاب، فأخبر أن الجهم وشيعته أنكروا صفات الخالق -جل وعلا-.

وخلاصة مذهب الجهم فِي هذا: أنه لا يجوز أن يوصف اللَّه ﷻ بصفة يوصف بِها خلقه؛ لأن ذلك يقتضي -فِي زعمه- تشبيهًا، فنفى كونه حيًّا عالِمًا مريدًا... إلخ، ولكنه أثبت كونه قادرًا فاعلًا خالقًا، لأن المخلوق عنده لا يوصف بِهذه الأشياء.

وأما شيعة الجهم من أهل النفي والتعطيل؛ فإنَّهم ليسوا فِي تجهمهم بدرجة سواء، بل منهم غالٍ كالفلاسفة أتباع مذاهب اليونان، فإنَّهم لَم يثبتوا له إلا وجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق، ولَم ينعتوه إلا بالسلوب والإضافات، ويليهم المعتزلة الذين أثبتوا الأسْماء دون الصفات، ثُمَّ متأخرو الأشعرية الذين أثبتوا بعض الصفات، ونفوا بعضها، وسيأتي فِي كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما فيه الكفاية فِي الرد عليهم.

وبعد أن ذكر مذهبهم فِي جحد الصفات إجمالًا؛ أخذ فِي تفصيل ذلك، فذكر كل واحدة من الصفات الَّتِي نفوها، فمن ذلك: استواؤه تعالى على العرش، فالجهمية كلهم -غاليهم وقاصرهم- لا يؤمنون بأن فِي السماء ربًّا، ولا فوق العرش إلَهًا، بل عطلوا منه السموات العلا، وأخلوا منه عرشه العظيم، مخالفين بذلك صريح الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، بل وإجماع الشرائع السماوية كلها الَّتِي قامت على أساس أن اللَّه ﷻ فِي السماء، وأن الوحي ينْزل من عنده على المصطفين من عباده.

وكذلك نفوا أن يكون اللَّه ﷻ متكلمًا بكلام هو صفة له، قائمة به، ولكنه متكلم

عندهم بِمعنى: أنه خالق للكلام كخلقه لسائر الأعراض والأجسام، فكلام اللَّه عندهم مخلوق، محدث، منفصل عنه كسائر مفعولاته، وإنَّما يضاف إليه على سبيل التشريف كما يقال: بيت اللَّه، وناقة اللَّه. وقضوا على كلامه سبحانه بالخلق، أي: بأنه من جملة المخلوقات الَّتِي توجد بالقدرة منفصلة عن الذات وبالحدثان، يعني: بالأولية والابتداء، فعندهم أن اللَّه صار متكلمًا، أي: خالقًا للكلام بعد أن لَم يكن كذلك، ومعنى هذا: أن القرآن وسائر الكتب المنَزلة لَم يتكلم اللَّه بِها، وإنَّما خلقها فِي اللوح أو فِي الهواء، وكذلك تكليمه تعالى لموسى ﷺ إنَّما هو بكلام خلقه فِي الشجرة ونحو ذلك.

* * *

قَالُوا وَلَيسَ لِرَبِّنَا سَمْعٌ وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ فَكَيفَ يَدَانِ

وَكَذَاكَ لَيسَ لِرَبِّنَا مِنْ قُدْرَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ وَحَنَانِ

كَلَّا وَلَا وَصْفٌ يقُومُ بِهِ سِوَى ... ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيرِ مَعَانِ

وَحَيَاتُهُ هِي نَفْسُهُ وَكَلَامُهُ ... هُوَ غَيرُهُ فَاعْجَبْ لِذَا الْبُهْتَانِ

الشرح: يعني: أن من جملة الصفات الَّتِي نفاها الجهمية المعطلة عن اللَّه ﷻ صفة السمع الَّتِي يسمع بِها الأصوات، وصفة البصر الَّتِي يرى بِها المرئيات، وصفة الوجه الَّتِي نطقت بثبوتِها الآيات.

وقوله: «فكيف يدان؟!» استفهام إنكاري معناه النفي، يعني: أنَّهم إذا كانوا قد نفوا عنه هذه الصفات المتقدمة مع اقتضاء العقل لثبوتِها؛ فكيف يعقل أن يثبتوا له صفة اليدين؟!.

وكذلك نفوا عنه صفة القدرة الَّتِي بِها الإيجاد والإعدام، وصفة الإرادة الَّتِي يقع بِها التخصيص فِي الممكنات على وفق علمه وحكمته، وكذلك نفوا عنه صفتي الرحمة والحنان وسائر ما يقوم به من المعاني الَّتِي أثبتها لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ، ولَم يثبتوا إلا ذاتًا مجردة عن كل معنًى ووصف، ونسبوا إليها آثار الصفات، فقالوا: إنه بذاته يعلم ويقدر ويريد ويسمع... إلخ.

قوله: «سوى ذات مجردة... إلخ». استثناء منقطع، إذ المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فإن الذات ليست من جنس الصفات.

وقوله: «وحياته هي نفسه... إلخ». بيان لِما يلزم مذهبهم فِي النفي من تناقض

وافتراء؛ حيث جعلوا حياته هي نفسه وذاته؛ وجعلوا كلامه مغايرًا له، منفصلًا عنه مع أنَّهما متماثلان فِي أن كلًّا منهما معنى قائم به.

* * *

وَكَذَاكَ قَالُوا مَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ... أَحَدٌ يكُونُ خَلِيلَهُ النَّفْسَانِ

وَخَلِيلُهُ الْمُحْتَاجُ عِنْدَهُمُ وَفِي ... ذَا الْوَصْفِ يدْخُلُ عَابِدُ الأَوْثَانِ

فَالْكُلُّ مُفْتَقِرٌ إِلَيهِ لِذَاتِهِ ... فِي أَسْرِ قَبْضَتِهِ ذَلِيلٌ عَانِ

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... قَسْرِيُّ يوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِ

شَكَرَ الضَّحِيةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

الشرح: أنكر الجهمية صفة الخلة الَّتِي هي كمال المحبة المستغرقة للمحب بدعوى أن المحبة لا تكون إلا لمشاكلة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ومعلوم أنه لا مناسبة بين القديم والحادث توجب ذلك، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فقالوا: إن معنَى الخليل فِي قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥]: الفقير المحتاج. ولا شك فِي فساد هذا التأويل، إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزومًا ذاتيًّا، لا يُمكن الانفكاك عنه، وبذلك يكون وصف الخلة متناولًا لجميعهم حَتَّى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن.

فقوله: «وفي ذا الوصف... إلخ». رد على الجهمية فِي تفسيرهم الخليل بالفقير المحتاج بأنه يدخل فيه عموم الخلق، ومنهم عبدة الأوثان؛ لافتقار الجميع إليه افتقارًا ذاتيًّا، لا يتصور معه استغناء فِي أي لحظة، والكل فِي قهر قبضته خاضع ذليل.

وكذلك أنكروا حقيقة التكليم الذي هو مشافهة اللَّه لبعض عباده من وراء حجاب، كما هو ثابت لموسى بالكتاب ولنبينا مُحمَّد -عليهما الصلاة والسلام- ليلة الإسراء، وزعموا أن تكليم اللَّه لموسى إنَّما هو بكلام خَلَقَهُ فِي الشجرة، أو في الهواء، ويقال: إن أول من ابتدع هذه المقالة فِي الإسلام هو الجعد بن درهم فِي أوائل المائة الثانية كما سبقت الإشارة إليه، فضحى به خالد بن عبد اللَّه القسري أمير العراق بواسط فِي يوم عيد الأضحى حيث قال:

«أيها الناس، اذهبوا إلى أضاحيكم، يتقبل اللَّه منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم،

إنه زعم أن اللَّه لَم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلم موسى تكليمًا» . ثُمَّ نزل فذبحه ، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين ، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة .

ثُمَّ أخذ هذا المذهب عن الجعد : الجهم بن صفوان الذي تقدمت ترجمته ، فأظهره ، وناظر عليه ، وعن الجهم انتقل إلى المعتزلة ، أتباع عمرو بن عبيد ، الذين ظهر أمرهم واستفحل فِي عهد المأمون وأخيه المعتصم حَتَّى امتحن أهل السنة امتحانًا شديدًا ، كان من نتيجته أن ضرب إمام أهل السنة : أبو عبد اللَّه أحمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ وطيف به .

وينبغي أن يعلم أن محبته تعالى وخلته إنَّما هما على ما يليق به كسائر صفاته ، فلا مشابَهة بين ما هو ثابت للخالق -جل وعلا- من ذلك وبين ما هو ثابت للمخلوق .

* * *

فصل

وَالْعَبدُ عِنْدَهُمْ فَلَيسَ بِفَاعِلٍ بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ
وَهُبُوبُ رِيحٍ أَوْ تَحَرُّكِ نَائِمٍ وَتَحَرُّكِ الأَشْجَارِ لِلْمَيلَانِ
وَاللهُ يُصْلِيهِ عَلَى مَا لَيسَ مِنْ أَفْعَالِهِ حَرَّ الْحَمِيمِ الآنِ
لَكِنْ يعَاقِبُهُ عَلَى أَفْعَالِهِ فِيهِ تَعَالَى اللهُ ذُو الإِحْسَانِ
وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ الْمُحَالُ لِذَاتِهِ أَنَّى ينَزَّهُ عَنْهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَيكُونُ مَدْحًا ذَلِكَ التَّنْزِيهَ مَا هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

يرى الجهم أنه لا اختيار للعبد فِي شيء من فعله ، وأن أفعاله تصدر عنه على سبيل الاضطرار ، بل هو يرى أن لا فعل للعبد أصلًا ، وأن الفعل ينسب إليه مجازًا كما يقال : سقط الجدار ، وجرى الماء .

وضرب المؤلف مثلًا لذلك بتحرك الرجفان ، وهو الخائف المرتعد وهبوب الريح ، وحركة النائم ، وتَمايل الأشجار ، ومن المعلوم أن كل هذه أفعال اضطرارية .

ويقول الجهمية : إن اللَّه يعاقب العبد على ما ليس من فعله من المعاصي والذنوب ، ويذيقه عليها العذاب الشديد ، وحر الحميم الآن : وهو الماء الحار الشديد الحرارة ، بل إن اللَّه يعاقبه على فعله هو فيه ، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا ، وقالوا : إن هذا ليس ظلمًا ؛ لأنه تصرف فِي محض ملكه وسلطانه ، وهو ممكن ، والظلم إنَّما هو المحال لذاته .

وقد رد المؤلف عليهم بأن الظلم إذا كان محالًا لذاته؛ لم يكن فِي نفيه عن اللَّه ﷻ مدح مع أن اللَّه قد مدح نفسه بنفي الظلم عنه كما فِي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]. وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**».

وذلك لا يكون إلا إذا كان الظلم فِي ذاته ممكنًا، ويكون مختارًا فِي تركه، إذ لا يعقل أن يتمدح أحد بِما لا يتصور وقوعه منه لاستحالته فِي ذاته.

* * *

وَكَذَاكَ قَالُوا مَا لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ ... هِيَ غَايَةٌ لِلأَمْرِ وَالإِتْقَانِ

مَا ثَمَّ غَيرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مَثَلًا عَلَى مَثَلٍ بِلَا رُجْحَانِ

هَذَا وَمَا تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَصْفُهُ ... بَلْ ذَاتُهُ أَوْ فِعْلُهُ قَوْلَانِ

وَكَلَامُهُ مُذْ كَانَ غَيرًا كَانَ مَخْـ ... ـلُوقًا لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ

الشرح: اختلفت مذاهب الناس فِي الحكمة بِمعنى العلة الباعثة على الخلق والأمر، وهل للَّه حكمة من أجلها يفعل ويأمر، أم ليس هناك إلا مجرد الإرادة الَّتِي ترجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح؟.

فذهب الأشاعرة والفلاسفة إلى نفي الغرض عن فعله تعالى وأمره، وقالوا: إن الفاعل لغرض مستكمل بذلك الغرض. وأما المعتزلة؛ فمع إثباتِهم الحكمة للَّه فِي خلقه وأمره، لا يجعلونَها صفة له قائمة، بل يجعلونَها مخلوقة منفصلة عنه.

وكان الجهم -قبحه اللَّه وأخزاه- على رأس النفاة الذين لا يثبتون للَّه حكمة يحبها، ويرضاها، ويفعل لأجلها، وتكون غاية للأمر وإتقان الفعل، ولا يثبتون إلا مشيئة مجردة، يزعمون أنَّها كافية فِي ترجيح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جواب أهل العلم: «فإن هذه الأقاويل أصلها مأخوذة من الجهم بن صفوان، إمام غلاة المجبرة، وكان ينكر رحمة الرب، ويخرج إلى الجذمى فيقول: أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟! يريد بذلك أنه ما ثَمَّ إلا إرادة رجح بِها أحد المتماثلين بلا مرجح، لا لحكمة، ولا لرحمة».

والجهم مع هذا لا يثبت المشيئة وصفًا للَّه قائمًا به جريًا على مذهبه فِي النفي والتعطيل، بل يجعلها تارة نفس الذات، وتارة يفسرها بِما تعلقت هي به من المفعول المراد

كما جعل كلامه مغايرًا له، منفصلًا عنه، وقال: إنه مخلوق كسائر الأكوان المخلوقة.

* * *

قَالُوا وَإِقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ ... خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الإِيمَانِ
وَالنَّاسُ فِي الإِيمَانِ شَيءٌ وَاحِدٌ ... كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الأَسْنَانِ
فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالَاهُمُ مِنْ عَابِدِي الأَوْثَانِ
وَسَلِ الْيَهُودَ وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ
وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَلْ قَبْلَهُمْ ... أَعْدَاءَ نُوحٍ أُمَّةَ الطُّوفَانِ
وَاسأَلْ أَبَا الْجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْرِفُ الْـ ... ـخَلَّاقَ أَمْ أَصْبَحْتَ ذَا نُكْرَانِ
وَاسْأَلْ شِرَارَ الْخَلْقِ أَغْلَى أُمَّةٍ ... لُوطِيَّةٍ هُم نَاكِحُو الذُّكْرَانِ
وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ ... فِرْعَوْنَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ
هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرْ ... رَبِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الأَكْوَانِ
فَلْيَبْشِرُوا مَا فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ ... هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الإِيمَانِ

الشرح: اختلف الناس في حقيقة الإيمان على أقوال شتى، أصحها ما ذهب إليه السلف من أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

وروي عن أبي حنيفة أنه تصديق وإقرار فقط، بل روي عنه أنه جعل الإقرار ركنًا زائدًا ليس بأصلي، وذهب الكرامية إلى أن الإيمان إقرار باللسان فقط، فمن أقر بلسانه فهو مؤمن عندهم، بمعنى: أنه يسمى بذلك، وإن كان مستحقًّا للوعيد.

وذهب الجهم وشيعته إلى أن الإيمان هو مجرد المعرفة بأن اللَّه هو الرب الخالق لكل شيء، والناس في هذه المعرفة متساوون كأسنان المشط، لا يزيد أحدهم فيها على غيره، ولا ينقص عنه.

وقد بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فساد هذا المذهب بأنه يلزم عليه أن يكون أبو جهل أشقى هذه الأمة، وشيعته في الكفر والعناد، ومن والاهم من عبدة الأوثان، وأن يكون اليهود الذين لعنهم اللَّه، وغضب عليهم، وأن يكون كل أقلف مشرك من النصارى الذين لا يختتنون، وأن تكون ثمود الذين عقروا الناقة، وقوم هود الذين استكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وقوم نوح الذين فسقوا عن أمر اللَّه، وأن يكون

إبليس رأس الشر، وقوم لوط ناكحو الذكران من العالمين، وفرعون وهامان وقارون -يلزم أن يكون هؤلاء جميعًا على مذهب الجهم مؤمنين كاملي الإيمان، فإن الإقرار بوجود صانع للعالم مركوز فِي الفطر، ولَم ينازع فيه أحد من العقلاء.

وأما قول فرعون على جهة التجاهل والإنكار: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. فهو مكابرة منه مع علمه بالحق؛ ولهذا قال له موسى ﷺ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وليس هناك أعظم فسادًا من قولٍ يجعل هؤلاء الذين هم أئمة الكفر والضلال أخيارًا مؤمنين، إن مجرد المعرفة بالحق لا تكفي لتحقيق الإيمان ما لَم تكن مصحوبة بالإقرار والإذعان، ولهذا قال اللَّه تعالى خبرًا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. فجمع لهم بين الجحد والاستيقان... وكان أهل الكتاب الذين فِي زمان نبينا ﷺ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل كان إبليس نفسه وهو رأس الشر فِي العالم عارفًا بربه حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

* * *

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا ... وَالْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

ثُمَّ اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ ... مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بِالدَّيَّانِ

بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ ... قَبْلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهَا سِيَّانِ

الشرح: كان الجهم يقول بحدوث العالم، بِمعنى: أنه صار موجودًا بعد أن كان معدومًا، لا فرق فِي ذلك عنده بين أنواع الحوادث وأشخاصها، وتبعه على ذلك معظم فرق المتكلمين كالمعتزلة والأشعرية والكرامية.

ويلزم على هذا القول من الفساد أن اللَّه ﷻ لَم يزل معطلًا عن الفعل، أو غير قادر عليه، ثُمَّ صار فاعلًا وقادرًا من غير تجدد سبب أصلًا أوجب له القدرة والفعل، أو أن الفعل منه كان مُمتَنعًا فِي الأزل ثُمَّ صار مُمكنًا مقدورًا من غير سبب اقتضى إمكانه، وهذا يستلزم الانقلاب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، ويلزم هؤلاء أيضًا أن الحادث إذا حدث بعد أن لَم يكن؛ فلابد أن يكون ممكنًا، والإمكان ليس له وقت محدود، فما من وقت يقدر حدوثه فيه إلا والإمكان ثابت قبله، ليس لإمكان الفعل وصحته مبدأ ينتهي إليه، فيجب أنه لَم يزل الفعل ممكنًا جائزًا، فيلزم جواز حوادث لا نِهاية لَها.

فقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقضى بأن الفعل كان معطلًا . . . إلخ**». إنَّما هو بيان لما يلزم مذهب جهم وشيعته فِي قولهم بحدوث العالم وأن له بداية فِي الزمان.

ويقابل قول هؤلاء قول الفلاسفة بقدم العالم، وأنه صدر من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ صدور المعلول عن علته بلا قصد ولا اختيار، ولا شك أن هذا القول أفسد من سابقه، وفساده من الظهور بحيث لا يحتاج إلى إطالة الكلام معه.

بقي القول الثالث: وهو ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها من أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لَم يزل حيًا، قادرًا، فعالًا لما يريد، متكلمًا إذا شاء بِما شاء، وأن الفعل والكلام من صفات كماله الَّتِي لا يجوز تعطيله عنها فِي وقت من الأوقات، وأن الفعل والكلام لَم يزل ممكنًا مقدورًا، لا يجوز القول بامتناع ذلك منه فِي وقت من الأوقات كذلك.

* * *

وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَا ... جَنَّاتُ عَدْنٍ بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيَوْمِ مَعَادِنَا ... فَهُمَا عَلَى الأَوْقَاتِ فَانِيَتَانِ

وَتَلَطَّفَ الْعَلَّافُ مِنْ أَتْبَاعِهِ ... فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ

قَالَ الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الْحَرَكَاتِ لَا ... فِي الذَّاتِ وَا عَجَبًا لِذَا الْهَذَيَانِ

الشرح: ويرى الجهم أن الجنة والنار غير موجودتين الآن، وعلى ذلك سائر المعتزلة، وكان منشأ غلطهم فِي ذلك وغيره من أمور الاعتقاد هو تحكيمهم ما يسمونه بالعقل مع وجود النص، فلما رأوا بعقولهم الفاسدة أن لا فائدة من وجود الجنة والنار الآن من حيث إنَّهما داران للجزاء على الأعمال، والجزاء لا يكون إلا فِي الدار الآخرة؛ حكموا بعدمهما مع وجود النصوص الصريحة من الكتاب والسنة على وجودهما، مثل قوله تعالى لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومثل قوله ﷺ: «**أريت الجنة والنار**». وقوله: «**لما أصيب إخوانكم بأحد؛ جعل اللَّه أرواحهم فِي حواصل طير خضر، تسرح فِي الجنة، تأكل من ثِمارها، وتشرب من أنْهارها**».

ويرى الجهم أيضًا أن الجنة والنار إذا وجدتا فِي يوم المعاد فإنَّهما لا تبقيان على سبيل التأبيد والخلود كما تدل على ذلك أيضًا نصوص الكتاب والسنة، بل يرى أنه سيأتي وقت تفنى فيه الجنة والنار وأهلهما بحيث لا يبقى مع اللَّه شيء موجود؛ لأن كل ما له ابتداء عنده

يجب أن يكون له انتهاء.

وأما أبو الهذيل العلاف؛ وهو رأس من رءوس الاعتزال، ومن أتباع جهم في المروق والضلال، فقد تلطف في الأمر، فلم يقل بالفناء المحض، ولكنه أتى بما يثير الضحك، ويبعث على السخرية به حين قال بانقطاع حركات أهل الجنة وأهل النار بحيث يبقون فيهما همودًا جمودًا ساكنين، وحينئذ لا يقدر الله ﷻ أن يزيد في لذائذ أهل الجنة لذة، ولا أن يزيد في عذاب أهل النار ألمًا، فهل رأيت أعجب مما يهذي به هذا الجاهل المأفون؟!.

* * *

أَيصِيرُ أَهْلُ الْخُلْدِ فِي جَنَّاتِهِمْ ... وَجَحِيمِهِمْ كَحِجَارَةِ الْبُنْيَانِ

مَا حَالُ مَنْ قَدْ كَانَ يَغْشَى أَهْلَهُ ... عِنْدَ انْقَضَاءِ تَحَرُّكِ الْحَيَوَانِ

وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي رَفَعَتْ يدَا ... هُ أَكْلَةً مِنْ صَحْفَةٍ وَخِوَانِ

فَتَنَاهَتِ الْحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِهَا ... لِلْفَمِّ عِنْدَ تَفَتُّحِ الأَسْنَانِ

وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي امْتَدَّتْ يدٌ ... مِنْهُ إِلَى قِنْوٍ مِنَ الْقِنْوَانِ

فَتَنَاهَتِ الْحَرَكَاتُ قَبْلَ الأَخْذِ هَلْ ... يبْقَى كَذَلِكَ سَائِرَ الأَزْمَانِ

تَبًّا لِهَاتِيكَ الْعُقُولِ فَإِنَّهَا ... وَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عَلَى الأَبْدَانِ

تَبًّا لِمَنْ أَضْحَى يقَدِّمُها عَلَى الْـ ... آثَارِ وَالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

الشرح: هذه الأبيات كلها في بيان شناعة ما ذهب إليه أبو الهذيل من انقطاع حركات أهل الجنة وأهل النار، بحيث يبقون ساكنين جامدين كحجارة البنيان الَّتِي لا حس ولا حركة، فكيف حال من كان يجامع أهله، ثُمَّ انقضت تلك الحركات قبل أن ينْزع عنها؟! أيظل على حاله تلك من الغشيان والإيلاج؟!.

وكيف حال من رفعت يده اللقمة إلى فيه، فتناهت الحركات قبل وصولها إلى فمه؟! أيظل فمه هكذا مفتوحًا في انتظار اللقمة الَّتِي لن تصل إليه؟!.

ثُمَّ ما حال هذا الذي امتدت يده إلى عذق من الرطب، ثُمَّ دخل هذا الوقت قبل تناوله؟! هل تبقى يده ممدودة هكذا سائر الأزمان؟!.

ألا تبًّا لعقل يقدم على مثل هذه الترهات والأباطيل، ويقدمها على النصوص الصريحة من الكتاب والسنة والآثار!.

وَقَضَى بأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ خَلْقَهُ	عَدَمًا وَيَقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِ
الْعَرْشُ وَالْكُرْسِي وَالأَرْوَاحُ وَالْـ	أَمْلَاكُ وَالأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ
وَالأَرْضُ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَسَائِرُ الْـ	أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ
كُلٌّ سَيفْنِيهِ الْفَنَاءَ الْمَحْضَ لَا	يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِ
وَيعِيدُ ذَا الْمَعْدُومَ أَيضًا ثَانِيًا	مَحْضَ الْوَجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

الشرح: يرى الجهم أن العالم كله -علويه وسفليه- سيفنى يوم القيامة، ويصير إلى العدم المحض، مستدلًا بمثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. زاعمًا أن الهلاك فِي الآية معناه الفناء المحض، وهذا محض افتراء، فإن لفظ «الهلاك» إنَّما يستعمل فِي اللغة بِمعنى: التحلل والفساد وتفرق الأجزاء، ولا شك أن الأشياء جميعًا قابلة للْهلاك بِهذا المعنى، على أن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. هو من العام المخصوص كما فِي قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]. والمراد به: هلاك ما على الأرض من إنسان وحيوان، كما فِي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

ويرى الجهم أيضًا أن اللَّه ﷻ يعيد هذا العالم بعد الفناء بعينه، يعني: بجميع صفاته وأعراضه، حَتَّى قال -جهلًا- بإعادة الزمان الأول الذي كان مقارنًا للوجود الأول بعينه، وهذا معنَى قول الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إعادة بزمان» يعني: إعادة مصحوبة بالزمان الذي كان مقارنًا للأشياء حَتَّى يكون الثاني عين الأول.

واعلم أن الذي أوقع الجهم وأشياعه من المتكلمين فِي مثل هذه الجهالات هو إيمانُهم بالجوهر الفرد، واعتقادهم أن العوامل كلها مركبة من هذه الجواهر الفردة الَّتِي لا تقبل القسمة، فبنوا على هذه النظرية الفاسدة كل أصول دينهم، ومنها المعاد، فصاروا على قولين فيه:

فمنهم من قال: تعدم الجواهر ثُمَّ تعاد، كما هو مذهب الجهم.

ومنهم من قال: بل تفرق الأجزاء ثُمَّ تجمع.

وقد أورد الفلاسفة على كل من القولين من الشبه ما اضطر فريقًا من المتكلمين كالحليمي والغزالي أن يدعوا أن الإعادة لا تكون لهذه الأجسام الَّتِي كانت فِي الدنيا، بل يخلق اللَّه أجسامًا جديدة، ويعيد الأرواح إليها، مع مخالفة ذلك للنصوص الصريحة الَّتِي

دلت على أن هذه الأجسام الَّتي باشرت الطاعة والمعصية هي الَّتي تعاد، وهي الَّتي يجري عليها الثواب والعقاب.

* * *

هَذَا الْمَعَادُ وَذَلِكَ الْمَبْدَا لَدَى ... جَهْمٍ وَقَدْ نَسَبُوهُ لِلْقُرْآنِ

هَذَا الَّذِي قَادَ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى ... قَالُواْ مَقَالَتَهُ إِلَى الْكُفْرَانِ

لَمْ تَقْبَلِ الأَذْهَانُ ذَا وَتَوَهَّمُوا ... أَنَّ الرَّسُولَ عَنَاهُ بِالإِيمَانِ

هَذَا كِتَابُ اللهِ أَنَّى قَالَ ذَا ... أَوْ عَبْدُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ

أَوْ صَحْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَابِعٌ ... لَهُمُ عَلَى الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

الشرح: عرفنا أن الجهم يرى أن الإعادة ستكون عن عدم محض، كما أن الإبداء كان كذلك، ويزعم أن هذا هو معنَى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. يعني: أن اللَّه كما بدأ الأشياء عن عدم محض، فكذلك يعيدها عن عدم محض، وهذا جهل منه بالبدء، فإن اللَّه لَم يبدأ هذه الأجسام من عدم محض، بل من مواد وعناصر موجودة فعلًا، أحالها من حال إلى حال، وهذه سنته سبحانه فِي الخلق أنه يحيل الأجسام بعضها إلى بعض، ويقلبها من طور إلى طور، وهكذا ستكون الإعادة.

وكانت مقالة الجهم هذه هي الَّتي حملت ابن سينا وشيعته من المتفلسفة إلى الكفر بالبعث وإنكار حشر الأجساد؛ لأنَّهم ظنوا كما ظن الجهم أن الإعادة لا تكون إلا عن عدم، وأن هذا هو الذي قصده الرسول ﷺ من الإيمان بالبعث، ولما كان لا يُمكن فِي العقل إعادة المعدوم بعينه؛ لأن ذلك يستلزم إعادته بجميع أعراضه وصفاته كلها ومنها الزمان -فقد ذهبوا إلى استحالة الإعادة؛ إذ لا يُمكن إعادة الزمان الأول بعينه.

ومعلوم أن هذا الذي قاله الجهم فِي الإعادة عن عدم، وكان سببًا لورود الإشكالات على البعث، ليس فِي شيء من كتاب اللَّه، ولا سنة رسوله ﷺ، ولا ذهب إليه أحد من الصحابة، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان -رضي اللَّه عنهم أجمعين- بل كلهم فهموا معنَى البعث كما ورد به الكتاب الكريم، وهو أبعد ما يكون عن أقوال هؤلاء الزائغين المبتدعين.

* * *

بَلْ صَرَّحَ الْوَحْيِ الْمُبِينُ بِأَنَّهُ حَقًّا مُغَيِّرُ هَذِهِ الأَكْوَانِ
فَيُبَدِّلُ اللهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضُ أَيْضًا ذَاتُ تَبْدِيلَانِ
وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْجُلُودِ لِسَاكِني النْ نِيرَانِ عِنْدَ النُّضْجِ مِنْ نِيرَانِ
وَكَذَاكَ يَقْبِضُ أَرْضَهُ وَسَمَاءَهُ بِيَدَيهِ مَا الْعَدَمَانِ مَقْبُوضَانِ
وَتُحَدِّثُ الأَرْضُ الَّتِي كُنَّا بِهَا أَخْبَارَهَا فِي الْحَشْرِ لِلرَّحْمَنِ
وَتَظَلُّ تَشْهَدُ وَهْيَ عَدْلٌ بِالَّذِي مِنْ فَوْقِهَا قَدْ أَحْدَثَ الثَّقَلَانِ
أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّذِي هُوَ كَاسْمِهِ لَا شَيءَ هَذَا لَيسَ فِي الإِمْكَانِ

الشرح: يعني: أن الذي صرحت به النصوص ليس هو إعدام هذه الأكوان كما يقول الجهم، ولكن تغييرها وتبديلها فِي الكيفية مع بقاء الذوات والأعيان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد: «**أن الناس يحشرون يوم القيامة على أرض عفراء بيضاء كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد**». وقيل: تصير خبزة واحدة، يتكفأها الجبار بيده كما فِي الحديث.

وعن علي رضي الله عنه: «تكون الأرض فضة والسموات ذهبًا». وقيل: تصير الأرض جنانًا. إلى غير ذلك من الأقوال الَّتِي لا تدل إلا على تبدل الأرض فِي الكيفية لا على انعدامها بالكلية، وهذا كتبديل جلود أهل النار إذا نضجت من حر النار، فالمقصود أن اللَّه يجددها ويحيي أعصاب الحس المنبثة فيها؛ ليكمل ذوقهم للألم وإحساسهم بالعذاب.

وكذلك صرحت النصوص بأن اللَّه يقبض الأرض والسموات بيديه كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**إن اللَّه يطوي السموات يوم القيامة، ثُمَّ يأخذهن بيده اليمنى، ثُمَّ يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثُمَّ يطوي الأرض بشماله، ثُمَّ يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**». ومعلوم أن الطي والقبض والأخذ لا يقع إلا على شيء موجود.

وصرحت النصوص أيضًا بأن الأرض الَّتِي كنا عليها بعينها تحدث اللَّه بأخبارها يوم القيامة، وتشهد عنده شهادة عدل بِما أحدثه الثقلان من الجن والإنس فوقها، كما قال

تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]. فلو كانت عدمًا كما يقول الجهم: فكيف يتأتى لَها أن تحدث أو تشهد؟! هذا ما لا يقوله عاقل أصلًا!.

* * *

لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تُشْـ	ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كَيَانِ
وَتُمَدُّ أَيْضًا مِثْلَ مَدِّ أَدِيمِنَا	مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ
وَتَقِيءُ يَوْمَ الْعَرْضِ مِنْ أَكْبَادِهَا	كَالأُسْطُوَانِ نَفَائِسَ الأَثْمَانِ
كُلٌّ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِهِ	مَا لامْرِئٍ بِالأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ
وَكَذَا الْجِبَالُ تُفَتُّ فَتًّا مُحْكَمًا	فَتَعُودُ مِثْلَ الرَّمْلِ ذِي الْكُثْبَانِ
وَتَكُونُ كَالْعِهْنِ الَّذِي أَلْوَانُهُ	وَصِبَاغُهُ مِنْ سَائِرِ الأَلْوَانِ
وَتُبَسُّ بَسًّا مِثْلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِي	مِثْلَ الْهَبَاءِ لِنَاظِرِ الإِنْسَانِ

الشرح: لكن الذي دلت عليه النصوص الصريحة أن الأرض تسوى وتصير قاعًا صفصفًا، لا ارتفاع فيها، ولا انخفاض، وتصير صعيدًا جرزًا، ليس عليها نبات، ولا شجر، قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨]. وأنَّها تبسط، وتوسع، وتمد كمد الأديم، وهو الجلد المدبوغ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٥]. وأنَّها تشهد على كل عبد أو أمة بِما عمل على ظهرها، وأنَّها تبدل كما سبق فِي الشكل والكيفية مع بقاء كيانِها.

وأما قول المؤلف: «وتقيء يوم العرض... إلخ». هذا البيت والذي بعده فهو إشارة إلى قوله ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: **«تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: فِي هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: فِي هذا قطعت رحمي. ويجيء السارق فيقول: فِي هذا قطعت يدي. ثُمَّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا»**.

وكذلك دلت النصوص الصريحة من القرآن على أن الجبال الَّتِي جعلها اللَّه أوتادًا للأرض حَتَّى لا تميد بنا تتفتت، وتصير كثيبًا مهيلًا، وأنَّها تصير كالعهن المنفوش، يعنِي: مثل الصوف المصبوغ أو المتمزق البالي، وأنَّها تبس بسًّا، فتصير هباء منبثًّا، قال علي رضي الله عنه: «هباء منبثًّا كرهج الغبار، يسطع، ثُمَّ يذهب، فلا يبقى منه شيء». وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

«الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لَم يكن شيئًا».

وبالجملة: فقد دلت النصوص على زوال الجبال من أماكنها يوم القيامة، وذهابِها، وتسييرها، ونسفها، وصيرورتِها هباء، وكالعهن المنفوش، ومعلوم أن هذه الأحوال كلها لا تجري على معدوم.

* * *

وَكَذَا الْبِحَارُ فَإِنَّهَا مَسْجُورَةٌ ... قَدْ فُجِّرَتْ تَفْجِيرَ ذِي سُلْطَانِ

وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ يَأْذَنُ رَبُّنَا ... لَهُمَا فَيَجْتَمِعَانِ يَلْتَقِيَانِ

هَذِي مُكَوَّرَةٌ وَهَذَا خَاسِفٌ ... وَكِلَاهُمَا فِي النَّارِ مَطْرُوحَانِ

وَكَوَاكِبُ الأَفْلَاكِ تُنْثَرُ كُلُّهَا ... كَلَآلِئٍ نُثِرَتْ عَلَى مَيْدَانِ

وَكَذَا السَّمَاءُ تُشَقُّ شَقًّا ظَاهِرًا ... وَتَمُورُ أَيْضًا أَيَّمَا مَوَرَانِ

وَتَصِيرُ بَعْدَ الإِنْشِقَاقِ كَمِثْلِ هَا ... ذَا الْمُهْلِ أَوْ تَكُ وَرْدَةً كَدِهَانِ

الشرح: وكذلك وردت النصوص من الكتاب العزيز بأن البحار تسجر، قيل: معناه تفجر، فيكون قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. هو فِي معنَى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]. وقيل: معناه تمتلئ نارًا، وكلا المعنيين وارد فِي اللغة، يقال: سجر البحر: فجره، وسجر التنور: أوقده، ولعل قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد فجرت... إلخ». يدل على أنه يرجح التفسير الأول.

وكذلك القمران -يعني: الشمس والقمر- يأذن اللَّه لهما فِي الالتقاء بعد أن كانت الشمس لا ينبغي لَها أن تدرك القمر، فتكور الشمس، يعني: يجمع بعضها إلى بعض، ويخسف القمر، يعني: يذهب ضوءه، ثُمَّ يطرحان فِي النار مع من عبدوهما من دون اللَّه كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وكذلك تتساقط نجوم السماء، وتنتثر، ويذهب بريقها كما فِي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢].

وتتشقق السماء، وتتفتح أبوابُها، وتمور مورانًا شديدًا، يعني: تتحرك فِي استدارة، وقيل: معنَى تمور: تتشقق وتصير بعد تشققها كالمهل، يعني: دردي الزيت، وتكون وردة كالدهان، قيل: مثل الأديم الأحمر. وقيل: مثل الفرس الورد، أي: الأحمر إلى صفرة.

وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِي لَا يفْنِيهِمَا ... أَيضًا وَإِنَّهُمَا لَمَخْلُوقَانِ
وَالْحُورُ لَا تَفْنَى كَذَلِكَ جَنَّةُ الْـ ... مَأْوَى وَمَا فِيهَا مِنَ الْوِلْدَانِ
وَلأَجْلِ هَذَا قَالَ جَهْمٌ إِنَّهَا ... عَدَمٌ وَلَمْ تُخْلَقْ إِلَى ذَا الآنِ
وَالأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ تَحْتَ الثَّرَى ... أَجْسَامُهُمْ حُفِظَتْ مِنَ الدِّيدَانِ
مَا لِلْبِلَى بِلُحُومِهِمْ وَجُسُومِهِمْ ... أَبَدًا وَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ يدَانِ
وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يبْلَى بَلَى ... مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الإِنْسَانِ
وَكَذَلِكَ الأَرْوَاحُ لَا تَبْلَى كَمَا ... تَبْلَى الْجُسُومُ وَلَا بِلَى اللُّحْمَانِ
وَلأَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يقِرَّ الْجَهْمُ مَا الْـ ... أَرْوَاحُ خَارِجَةٌ عَنِ الأَبْدَانِ
لَكِنَّهَا مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضٍ بِهَا ... قَامَتْ وَذَا فِي غَايَةِ الْبُطْلَانِ

الشرح: يريد المؤلف بهذه الأبيات أن يرد على جهم في قوله بالعدم المحض للأشياء كلها يوم القيامة، فيقول: إن العرش والكرسي -وهما من جملة المخلوقات- قد صرحت النصوص ببقائهما دون فناء، وكذلك جنة المأوى وما فيها من حور وولدان، ولأجل هذه النصوص المصرحة ببقاء الجنة ونعيمها؛ ذهب جهم إلى أنَّها لَم تخلق للآن زاعمًا أنه لا فائدة من وجودها؛ لأنَّها إنَّما جعلت دارًا للجزاء على الأعمال.

وكذلك وردت النصوص بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، ولا يصيبها ما يصيب الأجسام من البلى والتمزق، وبأن ابن آدم كله يبلى إلا عجب الذنب، وهو الذي تنبت منه الأجسام في النشأة الأخرى، وبأن الأرواح باقية كذلك لا تبلى كما تبلى اللحوم والأجسام، ولأجل هذا أنكر الجهم وجود الأرواح المستقلة عن الأبدان، وقال: ليس هناك أرواح تنْزل إلى البدن عند الولادة، وتصعد منه عند الموت. ولكن الحياة عنده عرض من الأعراض القائمة بالبدن، فإذا مات الحي بطل ذلك العرض وفني، وهذا المذهب الذي ذهب إليه جهم، وأخذه عن جالينوس الطبيب اليوناني وغيره في غاية البطلان، فإن الحياة وغيرها من الأعراض المشروطة بها، كالإحساس والحركة والإرادة وغيرها، لا بد لها من سبب خارج عن تركيب البدن ومزاجه، وذلك هو الروح الَّتِي تحل بالبدن، وقد أفاض أهل الأديان وغيرهم من الفلاسفة الروحانيين في الرد على مذاهب هؤلاء الطبيعيين، وبيان فساد مقالتهم بوجوه ليس هنا محل بسطها.

* * *

فَالشَّأْنُ لِلأَرْوَاحِ بَعْدَ فِرَاقِهَا ... أَبْدَانَهَا وَاللهِ أَعْظَمُ شَانِ
إِمَّا عَذَابٌ أَوْ نَعِيمٌ دَائِمٌ ... قَدْ نُعِّمَتْ بِالرَّوْحِ وَالرَّيحَانِ
وَتَصِيرُ طَيْرًا سَارِحًا مَعْ شَكْلِهَا ... تَجْنِي الثِّمَارَ بِجَنَّةِ الْحَيَوَانِ
وَتَظَلُّ وَارِدَةً لأَنْهَارٍ بِهَا ... حَتَّى تَعُودَ لِذَلِكَ الْجُثْمَانِ
لَكِنَّ أَرْوَاحَ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا ... فِي جَوْفِ طَيْرٍ أَخْضَرٍ رَيَّانِ
فَلَهُمْ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ فِي عَيْشِهِمْ ... وَنَعِيمُهُمْ لِلرُّوحِ وَالأَبْدَانِ
بَذَلُوا الْجُسُومَ لِرَبِّهِمْ فَأَعَاضَهُمْ ... أَجْسَامَ تِلْكَ الطَّيْرِ بِالإِحْسَانِ
وَلَهَا قَنَادِيلٌ إِلَيْهَا تَنْتَهِي ... مَأْوَى لَهَا كَمَسَاكِنِ الإِنْسَانِ

الشرح: يقسم المؤلف بأن شأنَ الأرواح بعد مفارقتها لأجسادها بالموت شأنٌ عظيم جدًّا، فهي لا تفنى بفناء الجسد؛ لأنَّها ليست عرضًا قائمًا به، بل تظل حية باقية، إما فِي عذاب مقيم إن كانت لكافر أو منافق، كما قال تعالى إخبارًا عن فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. فدلت الآية على أن عرضهم على النار بالغداة والعشي قبل قيام الساعة.

وقال إخبارًا عن قوم نوح ﷺ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. فدل العطف بالفاء على أن دخولهم النار حصل عقيب إغراقهم، وأنه قبل القيامة.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**». وأنه مر بإنسانين يعذبان فِي قبورهما، فقال: «**يعذبان وما يعذبان فِي كبير، بلى...**». الحديث.

وأما إن كانت روحًا مؤمنة؛ فإنَّها تكون فِي نعيم دائم إلى يوم البعث، تنعم فيه بالرَّوح -بفتح الراء- وهو الرحمة والفرح، والريحان، قيل: هو الرزق الحسن. وقيل: النبت المعروف الذي واحده ريحانة.

وأما قول المؤلف: «وتصير طيرًا سارحًا... إلخ». فهو إشارة إلى قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله: «**إنَّما نسمة المؤمن طائر، يعلق فِي شجر الجنة حَتَّى يرجعه اللّه إلى جسده يوم القيامة**». ولكن ليس فِي الحديث أن روح المؤمن تجني من ثمار الجنة، أو تشرب من أنْهارها كما ذكر المؤلف، وإنَّما تلك خصوصية الشهداء، فإن اللَّه عز وجل يجعل أرواحهم فِي حواصل طير خضر، تسرح فِي الجنة حيث شاءت، تأكل من ثِمارها، وتشرب من أنْهارها، ثُمَّ تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ

اللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وإنَّما استحق الشهداء هذه الكرامة؛ لأنَّهم بذلوا حياتَهم رخيصة فِي سبيل اللَّه فعوضهم اللَّه عنها هذه الحياة الكريمة، وعوضهم عن أجسامهم الَّتِي قدموها للضرب والطعان طيورًا خضرًا، تحمل أرواحهم فِي رحبات الجنان.

* * *

فَالرُّوحُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْهَا بِهَذِي الدَّارِ فِي جُثْمَانِ
وَعَذَابُ أَشْقَاهَا أَشَدُّ مِنَ الَّذِي ... قَدْ عَايَنَتْ أَبْصَارُنَا بِعِيَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهَا عَرَضٌ أَبَوْا ... ذَا كُلَّهُ تَبًّا لِذِي نُكْرَانِ

الشرح: هذا تفريع على ما ذكره من أحوال الروح بعد الموت، وأنَّها إما فِي عذاب أو نعيم، والمعنى أن الروح بعد مفارقتها للبدن بالموت تظل حية لا تموت، بل تصير أكمل حالة منها وهي حالَّة بالبدن فِي هذه الدار الدنيا، ويكون إحساسها بالعذاب إذا كانت شقية أشد مِمَّا نراه ونعاينه من أنواع العذاب المادي المحسوس.

أما القائلون بأن الروح عرض قائم بالبدن؛ فقد أنكروا ذلك كله؛ إذ ليس عندهم روح تفارق، ثُمَّ تبقى حية بعد المفارقة، ولكنها عندهم عرض يفنى بفناء البدن كسائر الأعراض، فهلاكًا لهؤلاء المنكرين لحياة الروح بعد المفارقة، وما يجري عليها من شئون بعدما نطق بذلك الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وإن يهلكون بِهذا الإنكار إلا أنفسهم، وما يشعرون.

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِخْرَاجَ الْوَرَى ... بَعْدَ الْمَمَاتِ إِلَى الْمَعَادِ الثَّانِي
أَلْقَى عَلَى الأَرْضِ الَّتِي هُمْ تَحْتَهَا ... وَاللَّهُ مُقْتَدِرٌ وَذُو سُلْطَانِ
مَطَرًا غَلِيظًا أَبْيضًا مُتَتَابِعًا ... عَشْرًا وَعَشْرًا بَعْدَهَا عَشْرَانِ
فَتَظَلُّ تَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَامُ الْوَرَى ... وَلُحُومُهُمْ كَمَنَابِتِ الرَّيْحَانِ
حَتَّى إِذَا مَا الأُمُّ حَانَ وِلَادُهَا ... وَتَمَخَّضَتْ فَنِفَاسُهَا مُتَدَانِ
أَوْحَى لَهَا رَبُّ السَّمَا فَتَشَقَّقَتْ ... فَبَدَا الْجَنِينُ كَأَكْمَلِ الشُّبَّانِ
وَتَخَلَّتِ الأُمُّ الْوَلُودُ وَأَخْرَجَتْ ... أَثْقَالَهَا أُنْثَى وَمِنْ ذُكْرَانِ

الشرح: هذا بيان لكيفية البعث بعد الموت على ما وردت به الآثار الصحيحة،

وحاصل ذلك أن الناس عندما ينفخ في الصور النفخة الأولى يصعقون، وتسوى بهم الأرض، فإذا أراد الله ﷻ إخراجهم بعد الموت للمعاد؛ ألقى على هذه الأرض الَّتي هم في بطنها -لا على أرض جديدة غيرها كما يزعم ذلك من يزعمه- مطرًا غليظًا كمني الرجال، يتتابع أربعين يومًا، فتنبت منه أجسام الناس ولحومهم من عجب الذنب، فقد ورد أن ابن آدم كله يبلى إلا عجب الذنب، منه ينبت ومنه يخلق في النشأة الأخرى، كما ينبت العود المسمى بالريحان، حَتَّى إذا ما اكتملت الأجسام، وتناهى خلقها، وحان للأم ولادها، وجاءها المخاض، فنفاسها متدانٍ قريب- أوحى إليها ربُّها، وأذن لإسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الثانية، فتنشق الأرض، وتلقي ما فيها وتتخلى، ويخرج منها الناس -ذكورهم وإناثهم- في أكمل خلقة.

وقوله: «والله مقتدر وذو سلطان». جملة معترضة أريد بها بيان أن الله كان قادرًا أن يخرج الناس من قبورهم بدون هذه الأسباب، ولكن حكمته اقتضت أن تكون النشأتان متشابهتين كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وكما قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

* * *

وَاللهُ يُنْشِئُ خَلْقَهُ فِي نَشْأَةٍ ... أُخْرَى كَمَا قَدْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ

هَذَا الَّذِي جَاءَ الْكِتَابُ وَسُنَّةُ الْـ ... ـهَادِي بِهِ فَاحْرِصْ عَلَى الإِيمَانِ

مَا قَالَ إِنَّ اللهَ يُعْدِمُ خَلْقَهُ ... طُرًّا كَقَوْلِ الْجَاهِلِ الْحَيْرَانِ

الشرح: يزعم الفلاسفة المنكرون للبعث والمعاد الجسماني أنه لابد في البعث من إعادة الأجسام الَّتي كانت في الدنيا بأعيانها، يعني: بجميع صفاتها وأعراضها الَّتي كانت لها في الدنيا، ولما كان ذلك مستحيلًا فقد أدى بهم ذلك إلى إنكار البعث.

وللرد عليهم نقول: إن الله ينشئ الخلق، ويؤلفهم تأليفًا جديدًا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]. وليس بلازم في الإعادة، ولا في كون الشخص الثاني عين الأول أن يعاد الجسم بجميع أجزائه، فإن الشخص في الدنيا يكون صغيرًا، ثُمَّ ينمو، وينتقل من طور إلى طور، وهو في كل هذه الأطوار في تجدد دائم، واستحالة مستمرة، فتخرج منه أجزاء، وتتجدد له أخرى، ومع

ذلك هو فِي كل هذه الأطوار هو، لَم يقل أحد: إنه شخص آخر. فكذلك النشأة الأخرى هي بِمثابة طور من تلك الأطوار الَّتِي تحدث للإنسان، بحيث لا يشك من يراه أنه هو ذلك الشخص الذي كان فِي الدنيا.

هذا هو ما دل عليه الكتاب الكريم، وسنة الهادي -صلوات اللَّه وسلامه عليه- ولَم يقل اللَّه قط ولا رسوله: إن اللَّه يعدم الأشياء كلها، ثُمَّ يعيدها من عدم. كما يقول هذا الجاهل الحيران جهم بن صفوان -قبحه اللَّه-.

* * *

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ
بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجُ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ
وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَينُ الْعُصَاةِ وَشِيعَةُ الشَّيطَانِ
كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ ذَا ... هُوَ فِعْلُهُمْ وَالذَّنْبُ لِلإِنْسَانِ
وَاللَّوْمَ لَا يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ
فَأَرَاحَهُمْ جَهْمٌ وَشِيعَتُهُ مِنَ الـ ... لَّوْمِ الْعَنِيفِ وَمَا قَضَوْا بِأَمَانِ
لَكِنَّهُمْ حَمَلُوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى ... رَبِّ الْعِبَادِ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ
وَتَبَرَّءُوا مِنْهَا وَقَالُوا إِنَّهَا ... أَفْعَالُهُ مَا حِيلَةُ الإِنْسَانِ

الشرح: يرى الجهم -ويشايعه فِي ذلك المعتزلة والأشاعرة الذين يقولون بحدوث العالم-: إن اللَّه ليس فاعلًا بفعل هو وصف له قائم به، بل فعله هو مفعوله الخارج عن ذاته.

أما الجهم والمعتزلة: فلأنَّهم ينفون الصفات فلا وصف عندهم قائم بالذات، بل كل من فعله وكلامه عندهم مخلوق من جملة المخلوقات.

وأما الأشاعرة: فيثبتون الأفعال، لا على أنَّها صفة له سبحانه، بل يجعلونَها متعلقات للقدرة القديمة.

وقوله: «بلا برهان» متعلق بقضى، يعني: حكم بذلك بلا حجة له عليه.

وذهب الجهم أيضًا إلى القول بأن الإنسان مجبور على ما يصدر عنه من أفعال، فلا قدرة له، ولا اختيار، فقرت بمذهبه أعين العصاة وأولياء الشيطان الذين كانوا على خوف من المعاصي والذنوب، لعلمهم بأنَّها أفعالهم الصادرة عنهم بقدرتِهم وإرادتِهم، حَتَّى

أراحهم جهم وشيعته من عودهم باللائمة على أنفسهم كلما أحدثوا ذنبًا، فأخذوا بعد مقالة جهم يحملونَها ربَّهم -جل شأنه- ويتبرءون منها، ويقولون مقالة الجاهل المغرور: إنَّها أفعاله لا أفعالنا، ولا حيلة لنا فِي دفعها؛ إذ لا قدرة لنا ولا اختيار.

* * *

مَا كَلَّفَ الْجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ

وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذَنْ جَبْرَانِ

وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ ... قَدْ كُلِّفَتْ بِالْحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا ... هَذَا وَلَيسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى ... وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

هِي عَينُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ ... فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

نَفْي لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيهَا أَوَّلًا ... وَصُدُورُهَا مِنْهُمْ بِنَفْي ثَانِ

الشرح: إذا كان الجهم يرى أن العبد لا قدرة له على الفعل، ولا اختيار له فيه، فهو عنده قد كلف بما لا يطيق، حيث إنه مجبور على كلٍّ من الطاعة والمعصية، فإذا كلف بترك المعصية، أو بفعل الطاعة؛ فقد كلف بما لا يدخل تحت قدرته، وهو عند التحقيق أشبه شيء بالنعامة، يراها الرائي فِي صورة الجمل، فيكلفها حمل الأثقال، ويرى لَها جناحين، فيكلفها الطيران، وليس لَها على هذا أو ذاك قدرة واحتمال، وإذا لَم يكن للعباد يد بشيء من الطاعات أو المعاصي، لَم تكن هي أفعالهم، بل عين فعل الرب سبحانه؛ لأنه هو الذي خلقها فيهم، وليس لهم فيها إلا أنَّهم محل فقط لظهورها، وعلى هذا فيصح أن ننفي عنهم قدرتَهم عليها، كما ننفي صدورها منهم بنفي ثانٍ.

* * *

فَيُقَالُ مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَمَا ... سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِيٌّ زَانِ

وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ ... بِالْكُفْرِ وَالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لأَنَّهَا ... قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالأَلْوَانِ

جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ ... مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيرِ مُعَانِ

الْـكُـلُّ مَـجْـبُـورٌ وَغَـيـرُ مُـيَـسَّـرٍ كَـالْـمَـيْـتِ أُدْرِجَ دَاخِـلَ الأَكْـفَـانِ

الشرح: وإذا لَم يكن للعباد قدرة على شيء من الطاعات والمعاصي، ولا هي صادرة عنهم، فيصح إذن نفيها عنهم نفيًا حقيقيًا، فيقال: إنه لَم يقع منهم صيام، ولا صلاة، ولا زكاة، ولا ذبح قرابين، ولا غيرها من أنواع الطاعات. وكذلك يقال: إنَّهم لَم يشربوا خمرًا، ولا قتلوا نفسًا، ولا فيهم من هو غويٌّ زانٍ، وأنَّهم لَم يأتوا عن اختيار منهم بشيء من الكفر والإيمان والإسلام، بل هم فِي كل ذلك مجبورون على ما شاءه خلاقهم سبحانه، فليس فيهم من يعينه اللَّه وييسره ومن لا يعينه، بل الكل سواء فِي الجبر والقهر ونفي الاختيار، كميت أدرج فِي كفنه، ولا تنسب إليهم الأفعال إلا على وجه المجاز، كما تنسب الأفعال الطبيعية إلى مصادرها، مثل قولنا: جرى النهر، وهبت الريح، وطلعت الشمس.

***

وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْمُهَيمِنِ لَمْ تَقُمْ أَيـضًـا بِـهِ خَـوْفًـا مِـنَ الْـحَـدَثَـانِ

فَـإِذَا جَـمَـعْـتَ مَـقَـالَـتَـيهِ أَنْـتَـجَـا كِـذْبًـا وَزُورًا وَاضِـحَ الْـبُـهْـتَـانِ

إِذْ لَـيـسَـتِ الأَفْـعَـالُ فِـعْـلَ إِلَـهِـنَـا وَالـرَّبُّ لَـيـسَ بِـفَـاعِـلِ الْـعِـصْـيَـانِ

فَـإِذَا انْـتَـفَـتْ صِـفَـةُ الإِلَـهِ وَفِـعْـلُـهُ وَكَـلَامُـهُ وَفَـعَـائِـلُ الإِنْـسَـانِ

فَـهُـنَـاكَ لَا خَـلْـقٌ وَلَا أَمْـرٌ وَلَا وَحْـيٌ وَلَا تَـكْـلِـيـفُ عَـبْـدٍ فَـانِ

الشرح: يعني: أن الجهم كما ينفي وقوع الفعل من العبد، كذلك ينفي قيام الفعل بالرب سبحانه؛ خوفًا من قيام الحوادث بذاته، وذلك يستلزم حدوثه -فِي زعمه- ومن العجيب أن تلك القضية الكاذبة الَّتِي نادى بِها الجهم، والتي تقول: إن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. قد تبعه عليها معظم المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، واتخذوها ذريعة لنفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه، فهو عندهم لا يتكلم متَى شاء، ولا يحب، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يسخط، ولا يجيء يوم القيامة، ولا ينْزل كل ليلة كما وردت الأخبار الصحيحة بذلك.

والمقصود: أن الجهم إذا كان ينفي صدور الفعل من العبد، وكان الفعل ليس قائمًا بالرب، فإذا جمع القولان، كل منهما إلى الآخر؛ أنتجا قضية من أكذب الكذب، فإن السلب لا ينتج إلا سلبًا، فإذا نفى صفات الرب، وفعله، وكلامه، ونفى مع ذلك فعل العبد؛ أنتج ذلك أن لا خلق، ولا أمر، ولا وحي، ولا تكليف عبد فانٍ.

وَقَضَى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ
فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ وَالأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ
مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ ... نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرانِ
لَكِنَّهُ أَبْدَى الْمَقَالَةَ هَكَذَا ... فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ
وأَتَى إِلَى الْكُفرِ الْعَظِيمِ فَصَاغَهُ ... عِجْلًا لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثِّيرَانِ
وَكَسَاهُ أَنْوَاعَ الْجَوَاهِرِ وَالْحِلَى ... مِنْ لُؤْلُؤٍ صَافٍ وَمِنْ عِقْيَانِ
فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى فَأَصَابَهُمْ ... كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ
عِجْلَانِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ ... إِحْدَاهُمَا وَبِحَرْفِهِ ذَا الثَّانِي

الشرح : كما نفى الجهم صفات الرب ﷻ وأفعاله، فهو كذلك ينفي أسماءه الحسنى الَّتي سمى بِها نفسه، والتي سَماه بِها رسوله ﷺ، ويرى أنَّها أسماء لبعض مبتدعاته، وأنَّها حادثة، وإنَّما تطلق عليه سبحانه على سبيل المجاز.

ومن العجب أن هذا الجهم مع غلوه فِي النفي والتعطيل، ومع ما يتضمنه هذا التعطيل من الكفر والإنكار والجحود، يصوغ ذلك فِي عبارات يوهم بِها الأغرار أنه إنَّما يقصد تنْزيه الرب عما لا يليق به من المشابَهة لخلقه، ويصوغ من ذلك الكفر الشنيع عجلًا ليفتِن به أمة الجهل والضلال، لا سيما وقد كساه من حلل التمويه وزخارف التحريف ما بَهر أبصارهم، ففعلوا به حين رأوه ما فعله إخوة لهم من قبل بالعجل الذي صاغه لهم السامري، فكان هناك عجلان فتن بِهما الناس: عجل فتن بصوته وخواره، وعجل فتن بتحريفه وتَمويهه، وهو العجل الذي صاغه الجهم لثيران هذه الأمة وأبقارها.

* * *

وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ ... تَبْدُو لَهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِ
فَهُمُ الْقُشُورُ وَبِالْقُشُورِ قِوَامُهُمْ ... وَاللُّبُّ حَظُّ خُلَاصَةِ الإِنْسَانِ
وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ ... وَتَوَارَثُوهُ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ
لَمْ يَنْجُ مِنْ أَقْوَالِهِ طُرًّا سِوَى ... أَهْلِ الْحَدِيثِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ
فَتَبَرَّءُوا مِنْهَا بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ ... وَبَرَاءَةَ الْمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ
مِنْ كُلِّ شِيعِيٍّ خَبِيثٍ وَصْفُهُ ... وَصْفُ الْيَهُودِ مُحَلِّلِي الْحِيتَانِ

الشرح : جازت حيلة الجهم ، وعظمت فتنته ، وانخدع بِها كثير من الناس ؛ لأن الناس معظمهم أهل ظواهر ، يغرهم بريقها ، ويخدعهم عما وراءها من كفر وباطل وسم قاتل ، وليسوا بأهل حقائق ومعان ؛ لأنَّها تحتاج فِي إدراكها إلى سلامة فطرة ، وإلى ذكاء وفطنة ، وهؤلاء أهل بله وغفلة ، فهم أشبه شيء بالقشرة الظاهرة الَّتِي تستر الثمرة وتحميها ؛ لذلك لا يدركون من الأشياء إلا قشورها ، وأما إدراك اللب ؛ فهو حظ المصطفين من عباد اللَّه ذوي الألباب السليمة والأفكار المستقيمة .

ومن أجل هذا راج مذهب الجهم ، وتقسمت أقواله طوائف أهل الكلام ، فمن آخذ بقوله فِي النفي والتعطيل ، ومن قائل برأيه فِي الجبر والتسيير ، ومن ذهب مذهبه فِي نفي العلم بالمتجددات وخلق القرآن ، ومن متأثر به فِي غير هذا وذاك من ترهاته وأباطيله الَّتِي لَم ينج من أحابيلها إلا أهل الحديث والقرآن المعتصمين بعروتهما الوثقى ، فتبرءوا من مقالة الجهم براءة حيدر ، وهو لقب علي رَحِمَهُ اللَّهُ وبراءة المولود من عثمان ، من أهل التشيع الخبثاء الذين أشبهوا فِي وصفهم اليهود ، حرم اللَّه عليهم الاصطياد فِي يوم السبت ، فتحايلوا على ذلك ، وخرجوا عن طاعة اللَّه ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «منهاج السنة» وجوه شبه كثيرة بين الشيعة واليهود ، قبح اللَّه الجميع وأذلهم وأخزاهم .

* * *

يـأَيـهَـا الـرَّجُـلُ الْـمُـرِيـدُ نَـجَـاتَـهُ ... اسْـمَـعْ مَـقَـالَـةَ نَـاصِـحٍ مِـعْـوَانِ

كُنْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَمَسِّكًا ... بِـالْـوَحْـيِ لَا بِـزَخَـارِفِ الْـهَـذَيَـانِ

وَانْصُرْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي ... جَـاءَتْ عَـنِ الْـمَـبْـعُـوثِ بِـالْـفُـرْقَـانِ

وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ... ضَـرْبَ الْـمُـجَـاهِـدِ فَـوْقَ كُـلِّ بَـنَـانِ

وَاحْمِلْ بِعَزْمِ الصِّدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ ... مُـتَـجَـرِّدٍ لِـلَّـهِ غَـيْـرَ جَـبَـانِ

وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْهُدَى ... فَـإِذَا أُصِـبْـتَ فَـفِـي رِضَـا الـرَّحْـمَـنِ

الشرح : بعد أن فرغ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من ذكر مقالات الجهم الفاسدة ، وما أغرق فيه من الضلال ؛ بسبب إعراضه عن النصوص وإبعاده فِي التأويل ، تقدم بِهذه النصائح الغالية لمن ينشد لنفسه النجاة من عذاب اللَّه الذي توعد به كل مارق ضال ، فوصاه بأن يتمسك فِي أمور دينه كلها بالوحي المبين ، معرضًا عن تَمويه المبطلين ، وأن يجتهد فِي نصر كتاب اللَّه والسنن المأثورة عمن بعثه اللَّه بالفرقان -صلوات اللَّه وسلامه عليه وآله- وأن يتخذ من

نصوص الوحيين سيفًا يضرب به أهل التعطيل والبهتان ضرب المجاهد لأعدائه فوق كل بنان، وأن يكون صادق العزم فِي حملته، مخلصًا للَّه ﷻ، غير هياب، ولا وجل، وأن يثبت تحت راية الهدى والإيمان، غير فارٍّ ولا منهزم، فإن أصابه شيء ففي رضا الرحمن، وهو غاية يرخص فِي سبيلها كل بذل، وتَهون كل تضحية.

* * *

وَاجْعَلْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي ... ثَبَتَتْ سِلَاحَكَ ثُمَّ صِحْ بِجَنَانِ

مَنْ ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نَفْسَهُ ... أَوْ مَنْ يُسَابِقُ يَبْدُ فِي الْمَيْدَانِ

وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ وَلَا تَخَفْ ... مِنْ قِلَّةِ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

فَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَاللهُ كَافٍ عَبْدَهُ بِأَمَانِ

لَا تَخْشَ مِنْ كَيدِ الْعَدُوِّ وَمَكْرِهِمْ ... فِقِتَالُهُمْ بِالْكِذْبِ وَالْبُهْتَانِ

فَجُنُودُ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ مَلَائِكٌ ... وَجُنُودُهُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيطَانِ

شَتَّانَ بَينَ الْعَسْكَرَينِ فَمَنْ يَكُنْ ... مُتَحَيِّرًا فَلْيَنْظُرِ الْفِئَتَانِ

الشرح: وأوصاه كذلك أن يجعل كتاب اللَّه والسنن الصحيحة الثابتة سلاحه وعدته فِي النِّزال، فإذا ما لبس تلك الشكة، واستكمل الأهبة، فليصح: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ فإن معه أقوى الأسلحة وأمضاها، فلا يخشى أسلحة أهل الباطل فإنَّها مفلولة مثلومة، وأن يصدع بِما قاله الرسول ﷺ، غير مستوحش من قلة الأنصار وندرة الأعوان، فإن اللَّه ناصر دينه وكتابه، وهو حسبه وكافيه، وألَّا يخشى بأس الأعداء ومكرهم، فإنَّهم يقاتلون بأسلحة الكذب والبهتان، وهو يقاتل بسلاح التوحيد والإيمان، وشتان بين السلاحين، كما أنه يحاربُهم بجند من الملائكة، وأما هم فجنودهم عساكر الشيطان، فما أبعد الفرق بين العسكرين، وما أبين التمايز بين الفئتين: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

* * *

وَاثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْهُدَى ... وَاصْبِرْ فَنَصْرُ اللهِ رَبِّكَ دَانِ

وَاذْكُر مَقَاتِلَهُمْ لِفُرْسَانِ الْهُدَى ... للهِ دَرُّ مُقَاتِلِ الْفُرْسَانِ

وَادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ فِي نَحْرِ الْعِدَا ... وَارْجُمْهُمُ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ فَهُمْ هَمَجُ الْوَرَى وَذُبَابُهُ أَتَخَافُ مِنْ ذِبَّانِ
وَاشْغَلْهُمُ عِنْدَ الْجِدَالِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ لِلْفُرْسَانِ
وَإِذَا هُمُ حَمَلُوا عَلَيكَ فَلَا تَكُنْ فَزِعًا لِحَمْلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَانِ
وَاثْبُتْ وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ فَمَا هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ

الشرح: يكرر المؤلف رحمه الله الوصية لمن يريد النجاة: بأن يثبت تحت راية الهدى معتصمًا بحبل الله عز وجل، صابرًا محتسبًا، موقنًا بأن نصر الله قريب، وأن يدل فرسان الهدى وجند الحق على مقاتل هؤلاء الأعداء -أي: المواضع الَّتِي يُقتَلون منها- وأن يدفع فِي نحورهم بألفاظ النصوص الثابتة، وأن يرميهم بشهبها الثاقبة، وألَّا يخشى كثرة عددهم، ولا شدة صخبهم وضجيجهم، فإنَّهم همج رعاع لا يثبتون عند لقاء، بل هم أهون من هذا الذبان الذي لا يقدر على شيء رغم ما له من طنين.

على أن هؤلاء الأعداء وإن كانوا إلبًا واحدًا على أهل الحق، فإنَّهم متنازعون فيما بينهم، فالحزم يقتضي بأن نصرفهم عن مناوشتنا بأن نشغل بعضهم ببعض، فنستفيد من ذلك معرفة بفساد مقالتهم جميعًا، وبالمطاعن الَّتِي يوجهها كل منهم إلى الآخرين، أما إذا تصالحوا على حربنا، وحملوا علينا، فالواجب ألَّا نحزن لحملاتِهم وألَّا نجبن عن لقائهم، وأن نحشد جنودنا لمقاتلتهم، فإن الحرب بلا جند وأعوان ليست مِمَّا يحمده الأبطال والشجعان.

* * *

فَإِذَا رأَيتَ عِصَابَةَ الإِسْلَامِ قَدْ وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ
فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُنْ بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلَا الْفَزْعَانِ
وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَينِ مَنْ يلْبَسْهُمَا يلْقَ الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وَهَوَانِ
ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوْبَانِ
وَتَحَلَّ بِالإِنْصَافِ أَفْخَرِ حُلَّةٍ زِينَتْ بِهَا الأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ
وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ
وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ

الشرح: بعد أن نَهى صاحب الحق أن يحارب وحده بلا جند وأعوان، وأن ذلك من

التهور الذي لا يليق بأهل الإيمان، أمره إذا توافدت عصابة الحق، ووافت عساكرها مع السلطان، ألَّا يكون بخائر ولا جبان، بل عليه أن يقتحم الصفوف، ويخوض غمار الردى فِي غير عجز ولا ونى، ولا فزع من العدا، ثُمَّ أمره أن يتجرد من ثوبين، طالما أوردا من لبسهما ورد الردى، وسقياه كأس المذلة والهوان، وهذان الثوبان هما: ثوب الجهل المركب، وفوقه ثوب التعصب، ما اجتمع هذان الثوبان على أحد إلا أدخلاه فِي لجج الباطل، ومتاهات الضلال، وزينا له سوء عمله وقبح اعتقاده، فرآه حسنًا، والمراد بالجهل المركب أن يعتقد الإنسان خلاف الحق مع اعتقاده أنه على الحق، فهو جاهل بالحق، ولا يدري أنه جاهل به، وهذا أشنع من الجهل البسيط الذي هو عدم العلم بالحق، بِمعنى: خلو الذهن عنه، وما أحسن قول الشاعر:

قَـالَ حِـمَـارُ الْـحَـكِـيـمِ تُـومَـا ... لَـو أَنْـصَـفَ الـدَّهْـر كُـنْـتُ أَرْكَـبُ

فَـإِنَّـنِـي جَـاهِـلٌ بَـسِـيـطٌ ... وَصَـاحِـبِـي جَـاهِـلٌ مُـرَكَّـبُ

ثُمَّ أمره بعد ذلك أن يتحلى بحلية الإنصاف، فإنَّها أبْهى حلة تزين بِها الأعطاف والكتفان، والمراد أن ينصف خصومه من نفسه، فلا يجحد ما عندهم من الحق، ولا ما تتسم به بعض حججهم من وجاهة، بل يجب أن يذكر ما لهم وما عليهم فِي غير غمط ولا إنكار، وأن يجعل شعاره فِي محاربته لهؤلاء الخصوم خشية اللَّه ﷻ؛ لأنَّها تحجزه عن الاعتداء والطغيان، ونصح الرسول له بترك المراء والجدل، فإنه صمام الأمان، وأن يعتصم بحبل اللَّه المتين ووحيه المبين، وأن يتوكل عليه حقيقة التوكل، وهو أن يفوض إليه أمره، ويستعين به على أعدائه بعد أن يكون قد بذل غاية وسعه فِي تَهيئة أسباب الغلب والنجاح.

* * *

فَالْحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَـادِي إِلَـيْـهِ لِـصَـاحِـبِ الإِيـمَـانِ

وَهْوَ الصِّرَاطُ عَلَيهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـ ... ـضًـا وَذَا قَـدْ جَـاءَ فِـي الْـقُـرْآنِ

وَالْـحَـقُّ مَـنْـصُـورٌ وَمُـمْـتَـحَـنٌ فَـلَا ... تَـعْـجَـبْ فَـهَـذِي سُـنَّـةُ الـرَّحْـمَـنِ

وَبِـذَاكَ يَـظْـهَـرُ حِـزْبُـهُ مِـنْ حَـرْبِـهِ ... وَلأَجْـلِ ذَاكَ الـنَّـاسُ طَـائِـفَـتَـانِ

وَلأَجْلِ ذَاكَ الْحَرْبُ بَينَ الرُّسْلِ وَالْـ ... ـكُـفَّـارِ مُـذْ قَـامَ الْـوَرَى سِـجْـلَانِ

لَـكِـنَّـمَا الْـعُـقْـبَى لأَهْـلِ الْـحَـقِّ إِنْ ... فَـاتَـتْ هُـنَـا كَـانَـتْ لَـدَى الـدَّيَّـانِ

الشرح: لما دعاه إلى الاستمساك بالحق، والثبات عليه، والقتال دونه؛ أراد أن يظهر شأن ذلك الحق، وأنه جد جدير بكل تضحية تبذل في سبيله، فذكر أن للحق عدة معان:

منها: أنه وصف للرب -جل شأنه- كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

ومنها: أنه صراط الله الذي يهدي إليه من يشاء من عباده من أهل الإيمان والهدى كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]. وكما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومنها: أن الحق هو الصراط الذي يخبر الله عن نفسه أنه عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. يعني: في قوله تعالى وفعله، فقوله: صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله: حكمة وعدل ورحمة ومصلحة.

ثُمَّ ذكر من شأن الحق أيضًا أنه منصور، وأن العاقبة له، ولكنه ممتحن ومبتلى بمناوأة الباطل وتشويشه، وأن سنة الله قد جرت بذلك حتى يتميز حزب الله من حزب الشيطان، وحتى تظل معركة الحق والباطل سجالًا مستمرة بين رسل الله وبين أعدائهم من الكفار، ثُمَّ تكون العاقبة للمتقين كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]. وكما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وهذه العاقبة إن فاتت أهل الحق في الدنيا فهي مدخرة لهم عند الله عز وجل، يوافيهم بها يوم الدين، وينتصف لهم من البغاة المعتدين.

* * *

وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَينِ وَلَا تَنَمْ ... فَهُمَا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضَانِ

فَالْهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

فَالْقَصْدُ وَجْهُ اللهِ بِالأَقْوَالِ وَالْـ ... أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ

فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاكِهِ ... وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ

وَالْهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْـ ... حَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

فَيَدُورُ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ ... نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلَا رَوَغَانِ

الشرح: يجب على طالب النجاة الناصح لنفسه أن يقوم بهاتين الهجرتين العظيمتين

فِي قوة وعزم، بلا كسل ولا فتور، فإنه لا صلاح للعبد، ولا نجاة إلا بِهما، فالقيام بِهما واجب حتم على كل إنسان.

أما الهجرة الأولى: فهجرته إلى اللَّه ﷻ بإخلاص العبادة له فِي السر والعلانية، وألَّا يقصد بكل ما يصدر عنه من قول وفعل وطاعة وشكر إلا وجهه سبحانه، حَتَّى يسلم من الوقوع فِي شَرَكِ الإشراك، وتقع عبادته موقعها من الصحة والقبول.

وأما الهجرة الأخرى: فهجرته إلى الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه وآله- بحسن الاقتداء والاتباع، وعدم المخالفة عن أمره والخروج على حكمه، فيدور مع قوله وفعله فِي النفي والإثبات، فلا يثبت ما نفاه الرسول، ولا ينفي ما أثبته مَيلًا مع الهوى، واعتسافًا فِي التأويل، ومتابعة للشيطان.

* * *

وَيحَكِّمُ الْوَحْيِ الْمُبِينَ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيوخُ فَعِنْدَهُ حُكْمَانِ

لَا يحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا وَكُلْ ... لُ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْحُكْمَانِ

وَهُمَا كِتَابُ اللهِ أَعْدَلُ حَاكِمٍ ... فِيهِ الشِّفَا وَهِدَايَةُ الْحَيرَانِ

وَالْحَاكِمُ الثَّانِي كَلَامُ رَسُولِهِ ... مَا ثَمَّ غَيرُهُمَا لِذِي إِيمَانِ

فَإِذَا دَعَوْكَ لِغَيرِ حُكْمِهِمَا فَلَا ... سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

قُلْ لَا كَرَامَةَ لَا وَلَا نُعْمَى وَلَا ... طَوْعًا لِمَنْ يدْعُو إِلَى طُغْيَانِ

وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَهُمْ ... سَمْعًا وَطَوْعًا لَسْتُ ذَا عِصْيَانِ

الشرح: يشير المؤلف بِهذه الأبيات إلى أصل عظيم، ضل عنه أكثر الناس، فوقع بينهم الاختلاف والتنازع، وفاتَهم من الحق بقدر إهمالهم له، ذلك هو: تحكيم الوحي المبين فِي كل مسائل الدين، أصوله وفروعه، وإيثاره على تقليد المشايخ والآباء فِي أقوالهم بلا بينة، فهناك حكمان اثنان لا يحكمان إلا بكل ما هو حق وعدل، ولا يعقل أن يصدر منهما حكم بخلاف ذلك.

فأولهما: كتاب اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، وفيه الشفاء من جَميع أمراض القلوب، وهدي كل ضال حيران.

والثاني: هو كلام رسول الله ﷺ الذي أمره الله أن يحكم بين الناس بما أنزله إليه، وأن يبلغهم البلاغ المبين، وأن يبين لهم ما نزل إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥] . فإذا دعي الإنسان لغير حكمهما فيجب أن يرفض بكل إباء، وألَّا يجيب من يدعوه إلى ذلك، قائلًا له بملء فمه: لا، ولا كرامة ولا نعمى ولا طاعة لمن يدعو إلى الكفر والطغيان، وأما إذا دعي إلى الله ورسوله؛ فليقل: على السمع والطاعة. في غير إباء ولا استكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١] .

* * *

وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْخُصُومُ وَصَيحُوا ... فَاثْبُتْ فَصَيحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ
يرْقَى إِلَى الأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ ... يهْوِي إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي
هَذَا وَإِنَّ قِتَالَ حِزْبِ اللهِ بِالْـ ... أَعْمَالِ لَا بِكَتَائِبِ الشُّجْعَانِ
وَاللهِ مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ ... أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ
وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَلْ بِالْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

الشرح: يجب على صاحب الحق، المستمسك بأهداب الوحي، ألَّا يعبأ بكثرة الخصوم، ولا يفزعه صياحهم وضجيجهم، فإن كيد الباطل ضعيف، مآله إلى التلاشي والزوال السريع، كمثل دخان تصاعد إلى طبقات الجو العليا، ثُمَّ أخذ بعد ذلك في الهبوط إلى الحضيض.

وأما أهل الحق؛ فإنَّهم لا يقاتلون أعداءهم بكثرة عددهم، ولكن بجليل أعمالهم وقويم أخلاقهم، ولو كانت المسألة مسألة عدد؛ لما استطاعوا أن يفتحوا هذه الممالك العتيدة، ويواجهوا هذه الجيوش الجرارة الَّتي كانت تفوقهم عشرات بل مئات المرات، وكذلك ما فتحوا قلوب الناس للهدى وحببوا إليها الإسلام بمثل هذه الآراء المبتدعة الَّتي يتبجح بها المتفلسفة وعلماء الكلام، وإنَّما كانت تقوم دعوتُهم على العلم والإيمان مِمَّا جمع حولهم القلوب، وحملها على الطاعة والإذعان.

وَشَجَاعَةُ الْفُرْسَانِ نَفْسُ الزُّهْدِ فِي ... نَفْسٍ وَذَا مَحْذُورُ كُلِّ جَبَانِ
وَشَجَاعَةُ الْحُكَّامِ وَالْعَلَمَاءِ زُهْـ ... دٌ فِي الثَّنَا مِنْ كُلِّ ذِي بُطْلَانِ

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِقَلْبِ صَادِقٍ ... شُدَّتْ رَكَائِبُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ
وَاقْصِدْ إِلَى الأَقْرَانِ لا أَطْرَافِهَا ... فَالْعِزُّ تَحْتَ مَقَاتِلِ الأَقْرَانِ
وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خَبَرٌ بِمَا ... عِنْدَ الْوَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْجَوَلَانِ
مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ خَيرٌ غَيرَ مَا ... أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
وَالْكُلُّ بَعْدُ فَبِدْعَةٌ أَوْ فِرْيَةٌ ... أَوْ بَحْثُ تَشْكِيكٍ وَرَأْيِ فُلَانِ

الشرح: يُقَسِّم المؤلف الشجاعة:

إلى شجاعة مادية: يتصف بها الفرسان فِي ميدان القتال، ويعرِّفُها بأنَّها الزهد فِي الحياة، واسترخاص النفوس فِي حومة الوغى، وهذا ما لا يطيقه الجبان ويتحاماه.

وإلى شجاعة معنوية: ويتصف بها العلماء والحكام الذين يقولون قولة الحق، ولا يخشون فيها أحدًا، ويعرفها بأنَّها الزهد فِي المديح والثناء الذي يزجيه أهل الباطل لمن يجاريهم على باطلهم ولا يواجههم بالحق؛ خوفًا من هياجهم عليه وذمهم له، ولا شك أن الشجاعة فِي الحق أفضل أنواع الجهاد كما قال ﷺ: «**أفضل الجهاد: كلمة حق تقال عند سلطان جائر**». فإذا اجتمعت هاتان الشجاعتان لقلب صادق العزم، بريء من الهوى والنفاق، كانا عونًا له على السير إلى اللَّه ﷻ والقرب منه، ولا ينبغي لمن توفرت له هذه الشجاعة أن يقصد من دونه من أطراف القوم وأوشابهم بالقتال، بل يقصد إلى الأقران من خصومه، فإن العز تحت مقاتلهم، ثُمَّ عليه أن يسمع لنصيحة خبير مجرب -يعني: نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ- عنده علم بكل ما عند الورى من مذاهب وآراء، وهو يقسم باللَّه أنه ليس عندهم أفضل ولا أنفع مِمَّا أخذوه عن الرسول ﷺ، وما وراءه مِمَّا يقول الناس فهو إما بدعة محدثة لا أصل لَها فِي دين اللَّه، وإما فرية مختلقة افتراها أحد الكذابين، وإما بحث يقصد منه إثارة الشكوك والشبهات حول العقائد الصحيحة المسلمة، وإما رأي مأثور عمن ليس قوله حجة، ولا له عليه دليل.

* * *

فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللهِ لَا تَخْشَ الْوَرَى ... فِي اللهِ وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ
وَاهْجُرْ وَلَوْ كُلَّ الْوَرَى فِي ذَاتِهِ ... لَا فِي هَوَاكَ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ
وَاصْبِرْ بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ ... وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ
وَاهْجُرْهُمُ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ بِلَا أَذًى ... إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْهِجْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى الأَقْدَارِ جَارِيَةً بِمَا ... قَدْ شَاءَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ إِيمَانِ

الشرح: الصدع بالأمر معناه: الجهر والإعلان، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. والمعنى: فاجهر بكلمة الحق، ولا تكتمها خشية الناس، فإن اللَّه أحق أن تخشاه، وفي خشيته الفوز بكل طمأنينة وأمان، ولو اقتضاك الجهر بكلمة الحق أن تعادي الناس جميعًا، وتَهجرهم فِي ذات اللَّه ﷻ، لا فِي سبيل هوى النفس ونفخة الشيطان؛ فلا يثقلن عليك ذلك، وتلقه بالصبر الجميل فِي غير ضجر ولا شكوى، واصفح الصفح الجميل دون عتب على من جنى عليك وآذاك، وإذا اضطررت إلى هجر الناس واجتنابِهم؛ فليكن هجرك جميلًا، غير مصحوب بأذى، وليكن نظرك إلى مجاري أقدار اللَّه ﷻ وما تعلقت به مشيئته من اختلاف الناس فِي غيٍّ وإيمان.

* * *

وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... بِالْحَقِّ فِي ذَا الْخَلْقِ نَاظِرَتَانِ
فَانْظُرْ بِعَينِ الْحُكْمِ وَارْحَمْهُمْ بِهَا ... إِذْ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ
وَانْظُرْ بِعَينِ الأَمْرِ وَاحْمِلْهُمْ عَلَى ... أَحْكَامِهِ فَهُمَا إِذَنْ نَظَرَانِ
وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ
لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَينَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

الشرح: إذا كان اللَّه ﷻ قد أجرى مقاديره على العباد، وحكم فيهم بِما شاء من كفر وإيمان، وهو مع ذلك قد أمرهم جميعًا بالإيمان والطاعة، فيجب أن ينظر الإنسان إلى الخلق تبعًا لذلك بنظرين مختلفين:

نظر بعين الحكم النافذ والقدر السابق، فيرحمهم ويرثى لهم؛ لعلمه أن حكم اللَّه وقدره لا راد له، ولا دافع.

ونظر بعين الأمر الشامل لجميع المكلفين، فيجاهدهم فِي ذلك، ويغلظ عليهم؛

حملًا لهم على أمر اللَّه ﷻ وحكمه الديني.

فهذان نظران مختلفان، ولا يلزم من ذلك الاختلاف: التناقض، فإن جهة كل منهما مخالفة للآخر، وإنَّما يكون التناقض عند الاتحاد، ويجب على العبد كذلك عند نظره إلى اختلاف الناس فِي الهدى والضلال أن يستفرغ الدمع من عينيه باكيًا من خشية اللَّه ﷻ، شاكرًا له نعمة الهداية والتوفيق، إذ لو شاء اللَّه لكان هو أيضًا مثلهم، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع اللَّه ﷻ، يقلبها كيف شاء؛ ولهذا كان النَّبِي ﷺ يكثر أن يقول فِي دعائه: «**اللَّهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**».

* * *

وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَهَا فَأَنْتَ كَمَنْ بَغَى ... طَفي الدخان بموقِدِ النيرانِ

وَاللهُ أَخْبَرَ وَهْوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ ... أَنْ سَوْفَ يَنْصُرُ عَبْدَهُ بِأَمَانِ

مَنْ يَعْمَلِ السُّوءَى سَيجْزَى مِثْلَهَا ... أَوْ يَعْمَلِ الْحُسْنَى يفُزْ بِجِنَانِ

هَذِي وَصِيةُ نَاصِحٍ وَلِنَفْسِهِ ... وَصَّى وَبَعْدَ سَائِرَ الإِخْوَانِ

الشرح: الكمائن: جمع كمينة، والمراد بكمائن النفس: غرائزها السيئة وشهواتُها الدنيا، يوصي المؤلف بأن يحذرها الإنسان، وينهض دائمًا لتأديبها كلما تمردت وخرجت عليه، وإلا هزمته هزيمة منكرة، يصبح بعدها مهانًا ذليلًا، كما يجب ألَّا ينتصر لَها يبغي شفاءها وإطفاء ثورتِها، فإن ذلك يزيدها حدة واشتعالًا، ويكون حينئذٍ كمن يريد إطفاء الدخان بموقد النيران، بل يحسن أن يصبر ويغفر، واللهﷻ قد ضمن له النصر، وأخبر بذلك فِي كتابه حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج: ٣٨]. ويقول فِي آية أخرى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر: ٥١]. كما أخبر سبحانه أن جزاء السيئة مثلها، وأن جزاء الحسنى مغفرة من اللَّه ورضوان.

وبعد: فهذه وصية المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي بِها نفسه أولًا، ثُمَّ سائر إخوانه من طالبي الهدى، أهل الصدق والتوحيد والإيمان:

فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الْحَكَمَينِ للرْ ... رَحْمَنِ لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيطَانِ

الأَوَّلُ النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

وَاحْكُمْ إِذَنْ فِي رُفْقَةٍ قَدْ سَافَرُوا ... يبْغُونَ فَاطِرَ هَذِهِ الأَكْوَانِ

فَتَرَافَقُوا فِي سَيرِهِمْ وَتَفَارَقُوا عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْحَيرَان
فَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ وَجَدْتُهُ هَذَا الْوجُودُ بِعَينِهِ وَعِيَانِ
مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ سِوَاهُ وَإِنَّمَا غَلِطَ اللِّسَانُ فَقَالَ مَوْجُودَانِ

الشرح: إذا جعل طالب النجاة من أهل الحق هذه الوصية شعاره، ووقف عند النصوص، يُحَكِّمها فِي كل مسألة من مسائل الدين؛ فقد أصبح بذلك أهلًا لأن يتصدى للحكومة بين المتنازعين، فليجلس إذن فِي مجلس الحكمين، وليكن فِي حكمه طالبًا وجه الحق، لا يصدر فِي حكمه عن هوى نفس، ولا إيحاء شيطان.

والحكمان هما: النقل الصحيح أولًا من الكتاب والسنة، ثُمَّ بعده العقل الصريح الخالي من شوائب الجهل والوهم، وفطرة اللَّه الَّتِي فطر الناس عليها، والتي لَم تفسد بالتقليد والجمود، ثُمَّ ليحكم بعد ذلك فِي جماعة من الرفقاء، قد سافروا يقصدون الوصول إلى مبدع هذه الأكوان -جل شأنه-.

والسفر هنا: كناية عن سفر الفكر والطلب بالنظر، فبدءوا السفر من نقطة واحدة، وترافقوا فِي سيرهم، ولكنهم لَم يلبثوا أن افترقوا، وذهبوا فِي ربِّهم مذاهب شتى، فذهب فريق -وهم أصحاب وحدة الوجود بزعامة ابن عربي الزنديق- أن اللَّه هو هذا الوجود بعينه وعيانه، وأنه ليس هناك إلا موجود واحد، وإنَّما يغلط اللسان فيقول: موجودان.

* * *

فَهْوَ السَّمَاءُ بِعَينِهَا وَنُجُومِهَا وَكَذَلِكَ الأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ
وَهْوَ الْغَمَامُ بِعَينِهِ وَالثَّلْجُ وَالْـ أَمْطَارُ مَعْ بَرْدٍ وَمَعْ سُحْبَانِ
وَهْوَ الْهَوَاءُ بَعَينِهِ وَالْمَاءُ وَالتْـ تُرْبُ الثَّقِيلُ وَنَفْسُ ذِي النِّيرَانِ
هَذِي بَسَائِطُهُ وَمِنْهُ تَرَكَّبَتْ هَذِي الْمَظَاهِرُ مَا هُنَا شَيئَانِ
وَهْوَ الْفَقِيرُ لَهَا لأَجْلِ ظُهُورِهِ فِيهَا كَفَقْرِ الرُّوحِ لَلأَبْدَانِ
وَهْيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيهِ لأَنَّهُ هُوَ ذَاتُهَا وَوُجُودُهَا الْحَقَّانِي

الشرح: هذا تفريع على ذلك المذهب الفاسد، القائل بأن الحق هو عين الخلق، وأنه ما ثَمَّ إلا وجود واحد، وأن هذه الكثرة الَّتِي نراها إنَّما هي مظاهر له فقط، وأثواب يلبسها ويخلعها، فهو السماء بِما فيها من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، وهو هذا السحاب الذي

نراه مسخر بين السماء والأرض بما فيه من ثلج وبرد وأمطار، وهو الهواء والماء والتراب والنار الَّتِي هي البسائط الأربعة فِي زعم الطبيعيين القدماء، ومنها تتركب سائر الموجودات، والأمر قسمة بينه وبين هذه العوالم الَّتِي هي مجال له، يظهر فيها، فكما أنَّها فقيرة ومحتاجة إليه؛ لأنه هو جوهرها ووجودها الأصيل، فكذلك هو مفتقر إليها من أجل تعينه وظهوره فيها كما تفتقر الروح فِي ظهور آثارها للأبدان.

* * *

وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ وَذَا الْـ ... إِيجَادُ وَالإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ

وَيظَلُّ يلْبَسُهَا وَيخْلَعُهَا وَذَا ... حُكْمُ الْمَظَاهِرِ كَي يرَى بِعِيَانِ

وَتُكَثِّرُ الْمَوْجُودَ كَالأَعْضَاءِ فِي الْـ ... مَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيوَانِ

أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ ... مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الأَمْرَانِ

فَيكُونُ كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ ... هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

الشرح: يعني: أن تلك المظاهر والتعينات باعتبار أن ذلك الوجود المطلق هو قوامها الحامل لَها، فهي لا تزال تتوارد عليه فِي عملية إيجاد وإعدام مستمر كلما فنت صورة وخلعت ذلك الوجود ولبست أخرى، وكذلك هو يظل يلبسها ويخلعها بلا انقطاع، وهذا حكم اقتضاه ظهور هذا الوجود، فإنه لو دام على إطلاقه؛ لما أمكن رؤيته وظهوره للعيان، ونسبة تلك الموجودات المتكثرة إلى ذلك الوجود المطلق كنسبة الأعضاء المختلفة لجسم الإنسان أو الحيوان إليه، أو كنسبة قوى النفس المختلفة إليها، أي أنَّها كنسبة الجزء إلى كله، وكما أن كلًّا من الجسم ذي الأعضاء والنفس ذات القوى له اعتباران: اعتبار أنه وحدة قائمة بذاتِها، وهو بِهذا يصح أن يقال: إنه شيء واحد. واعتبار أنه مركب من أعضاء وقوى، وهي من هذه الجهة تسمى كثيرًا، فكذلك هذا الوجود له اعتباران: اعتبار الإطلاق وعدم التقيد، وهو من هذه الجهة واحد لا حدود فيه ولا قيود واعتبار ظهوره فِي عالم الإمكان والتقييد، وهو من هذه الجهة كثير كثرة لا حد لَها.

يقول ابن عربي الزنديق فِي كتابه المسمى «**فصوص الحكم**»: «**فالعالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر حَتَّى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فِي الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية فِي الصورة الروحانية، فما عبد غير اللَّه فِي كل معبود**».

* * *

أَوْ أَنَّهَا لِتَكَثُّرِ الأَنْوَاعِ فِي ... جِنْسٍ كَمَا قَالَ الْفَرِيقُ الثَّانِي
فَيَكُونُ كُلِّيًّا وَجُزْئِيَاتُهُ ... هَذَا الْوُجُودُ فَهَذِهِ قَوْلَانِ
إِحْدَاهُمَا نَصُّ الْفُصُوصِ وَبَعْدَهُ ... قَوْلُ ابْنِ سَبْعِينٍ وَمَا الْقَوْلَانِ
عِنْدَ الْعَفِيفِ التِّلْمسَانِي الَّذِي ... هُوَ غَايَةٌ فِي الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ
إِلَّا مِنَ الأَغْلَاطِ فِي حِسٍّ وَفِي ... وَهْمٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ
وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... مَا لِلتَّعَدُّدِ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِ

الشرح: بعد أن اتفقت كلمة القائلين بوحدة الوجود على أن الوجود فِي نفسه شيء واحد، وأن الكثرة إنَّما هي فِي التعينات -اختلفوا فِي نسبة ذلك الوجود الواحد إلى تلك التعينات، فذهب ابن عربي -كما تقدم- إلى أنَّها من نسبة الكل إلى أجزائه كنسبة أعضاء الجسم إليه، أو كنسبة قوى النفس إليها، وذهب ابن سبعين -وهو من شيعة ابن عربي فِي القول بوحدة الوجود- إلى أنَّها من نسبة الكلي إلى جزئياته، يعني بذلك أن هذا الوجود المطلق الكلي جنس، وهذه الوجودات المتعينة أنواع له، فتكون هذه الكثرة البادية فِي الموجودات كثرة نوعية كما يقال مثلًا: إن الحيوان جنس، تحته أنواع: هي الإنسان والفرس والجمل.. إلخ.

والفرق بين القولين: أن الوجود المطلق على رأي ابن عربي يكون كلًّا؛ أجزاؤه الوجودات الخاصة، وأما على رأي ابن سبعين؛ فهو جزء من ماهية كل واحد من هذه الوجودات؛ إذ من المعلوم أن الكلي يكون جزءًا من كل جزئي تحته، وأما العفيف التلمساني وهو أشدهم كفرًا وافتراءً؛ فذهب إلى أن الوجود كله شيء واحد فِي نفسه، لا تكثر ولا تعدد فيه أصلًا، وأما هذه الكثرة الَّتِي نراها بأعيننا أو نتخيلها فِي نفوسنا؛ فلا حقيقة لَها، بل هي من أغلاط الحس الذي قد يرى الشيء الواحد كثيرًا والوهم الذي قد يتخيل الصورة الواحدة صورًا متعددة، وذلك الغلط فِي الحس والوهم من طبيعة الإنسان.

* * *

فَالضَّيْفُ وَالْمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... وَالْوَهْمُ يَحْسَبُ هَاهُنَا شَيْئَانِ
وَكَذَلِكَ الْمَوْطُوء عَيْنُ الْوَطْءِ وَالْـ ... وَهْمُ الْبَعِيدُ يَقُولُ ذَا إِثْنَانِ
وَلَرُبَّمَا قَالَا مَقَالَتَهُ كَمَا ... قَدْ قَالَ قَوْلَهُمَا بِلَا فُرْقَانِ
وَأَبَى سِوَاهُمْ ذَا وَقَالَ مَظَاهِرٌ ... تَجْلُوهُ ذَاتُ تَوَحُّدٍ وَمَثَانِ

فَالظَّاهِرُ الْمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... لَكِنْ مَظَاهِرُهُ بِلَا حُسْبَانِ
هَذِي عِبَارَاتٌ لَهُمْ مَضْمُونُهَا ... مَا ثَمَّ غَيْرٌ قَطُّ فِي الأَعْيَانِ

الشرح: هذا تفريع على مذهب التلمساني القائل بأن الكثرة وَهْم، وما ثَمَّ إلا شيء واحد، فيكون الضيف وما قدم له من القرى شيئًا واحدًا، وإن حسب الوهم أن هاهنا شيئين: آكلًا ومأكولًا، ويكون كذلك الموطوء عين الواطئ وإن تخيلهما الوهم اثنين، ومهما يكن من فرق بين هذه الأقوال الثلاثة، فهي جد متقاربة؛ لأن جوهرها واحد؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: ولربَّما قالا -أي: ابن عربي وابن سبعين- مقالة هذا التلمساني فِي إبطال الكثرة كما قد قال هو قولهما، بلا فارق أصلًا.

ثُمَّ ذكر الشيخ مذهبًا رابعًا، أشار إليه بقوله: «وأبى سواهم ذا». أي: سوى هؤلاء الثلاث، هذا الذي قالوه، وذهب إلى أن هذه الموجودات إنَّما هي مظاهر وتجليات لشيء واحد، وهذه المظاهر ذات توحد، أي: انفراد، ومثان: أي: تعدد. وهذه العبارات الَّتِي نطق بِها أصحاب وحدة الوجود مهما اختلفت وتنوعت فإن مضمونَها شيء واحد، وهو أنه ما ثَمَّ غير اللَّه فِي هذا الوجود، فسواء جعلت الكثرة أجزاءً له أو أنواعًا، أو قلت: إنَّها وَهْمٌ. أو جعلتها مظاهر وتجليات، فالمآل واحد، وهو أنه ما ثَمَّ إلا وجود واحد.

* * *

فَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلَا ... جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ
كَلَّا وَلَا عُلْوٍ وَلَا سُفْلٍ وَلَا ... وَادٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا كُثْبَانِ
كَلَّا وَلَا طَعْمٍ وَلَا رِيحٍ وَلَا ... صَوْتٍ وَلَا لَوْنٍ مِنَ الأَلْوَانِ
لَكِنَّهُ الْمَطْعُومُ وَالْمَلْبُوسُ وَالْـ ... مَشْمُومُ وَالْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ والْـ ... مَذْبُوحُ بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِي

الشرح: هذا بيان لما يترتب على تلك المقالة الفاسدة من أنواع الكفر والضلال الَّتِي لا تخفى على أحد، فإنه إذا لَم يكن ثَمَّ إلا وجود واحد، لبس هذه الصور والتعينات المختلفة الَّتِي لابد منها فِي بروزه وتجليه، ولابد لَها منه؛ لأنه عين حقيقتها لزم أن يكون اللَّه -تعالى وتقدس- هو الأشياء جميعًا بِما فيها من متقابلات ومتضادات، فالقوم ما صانوا ربَّهم، ولا نَزهوه عن أن يكون هو الإنس والجن والشجر والحيوان، ولا أن يكون هو العلو والسفل والوديان والجبال والكثبان، ولا أن يكون هو الطعوم والروائح

والأصوات والألوان، ولا أن يكون هو المطعوم والملبوس والمشموم والمسموع بالآذان، بل قالوا: إنه المنكوح والمذبوح، بل عين الغوي الزاني.

* * *

وَالْكُفْرُ عِنْدَهُمُ هُدًى وَلَوَ انَّهُ ... دِينُ الْمَجُوسِ وَعَابِدِي الأَوْثَانِ

قَالُوا وَمَا عَبَدُوا سِوَاهُ وَإِنَّمَا ... ضَلُّوا بِمَا خَصُّوا مِنَ الأَعْيَانِ

وَلَوَ انَّهُمْ عَمُّوا وَقَالُوا كُلُّهَا ... مَعْبُودَةٌ مَا كَانَ مِنَ كُفْرَانِ

فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْمَعْبُودِ بِالتْـ ... ـتَخْصِيصِ عِنْدَ مُحَقِّقٍ رَبَّانِي

قَالُوا وَلَمْ يكُ كَافِرًا فِي قَوْلِهِ ... أَنَا رَبُّكُمْ فِرْعَوْنُ ذُو الطُّغْيَانِ

بَلْ كَانَ حَقًّا قَوْلُهُ إِذْ كَانَ عَيْـ ... ـنَ الْحَقِّ مضطَلِعًا بِهَذَا الشَّانِ

وَلِذَا غَدَا تَغْرِيقُهُ فِي الْبَحْرِ تَطْـ ... ـهِيرًا مِنَ الأَوْهَامِ وَالْحُسْبَانِ

الشرح: يرى أصحاب وحدة الوجود أن الأديان كلها حق، وأن المجوس عبدة النار والمشركين عابدي الأوثان، وغيرهم ليسوا كفارًا، ولا ضلالًا، بل مذاهبهم هي عين الهدى والإيمان؛ لأنَّهم حين عبدوا النار والحجارة والصلبان وأنواع الحيوان ما عبدوا إلا اللَّه ﷻ.

فإذا كان اللَّه ﷻ قد تجلى بذاته فِي جَميع هذه الصور والمتعينات؛ فالهدى والإيمان فِي زعم هؤلاء المارقين أن تعبد وتعظم جميعًا.

قالوا: وإنَّما ضل من ضل، وكفر من كفر بتخصيص بعض هذه المظاهر بالعبادة دون بعض.

فالكفر عندهم ليس هو عبادة غير اللَّه، إذ ليس هناك غير، ولكنه ستر حقيقة المعبود بتخصيص بعض مجاليه بالعبادة دون البعض الآخر، وحكموا بإيمان فرعون، وقالوا: إنه كان يشاهد عين الحقيقة حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[النازعات: ٢٤]. ولَم يكن كاذبًا فِي دعواه أنه هو اللَّه، بل كان فِي أعلى مقامات التوحيد، ولذا كان إغراقه فِي البحر تطهيرًا له من توهم الغيرية وحسبان الاثنينية.

* * *

قَالُوا وَلَمْ يكُ مُنْكِرًا مُوسَى لِمَا ... عَبَدُوهُ مِنْ عِجْلٍ لِذِي الْخَوْرَانِ
إِلَّا عَلَى مَنْ كَانَ لَيسَ بِعَابِدٍ ... مَعَهُمْ وَأَصْبَحَ ضَيقَ الأَعْطَانِ
وَلِذَاكَ جَرَّ بِلِحْيَةِ الأَخِ حَيثُ لَمْ ... يكُ وَاسِعًا فِي قَوْمِهِ لِبِطَانِ
بَلْ فَرَّقَ الإِنْكَارَ مِنْهُ بَينَهُمْ ... لَمَّا سَرَى فِي وَهْمِهِ غَيرَانِ

الشرح: كما افترى هؤلاء المارقين الكذب في شأن فرعون، وخالفوا فيه صريح القرآن الذي نطق بموته على الكفر، وأنه لَم ينفعه إيمانه حين أدركه الغرق، وأن اللَّه إنَّما نجاه ببدنه ليكون عبرة ماثلة للأجيال من بعده، وأن اللَّه أخذه نكال الآخرة والأولى - كذلك كذبوا في شأن موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- فزعموا أن موسى ﷺ لَم يلم قومه على عبادة العجل، ولَم ينكرها عليهم، وإنَّما كان إنكاره على من تحرج عن عبادته، وضاق بها صدره؛ ولذلك أخذ بلحية أخيه يجره إليه، حيث لَم يتسع صدره لما فعله قومه، وأخذ ينكر عليهم ويحذرهم مغبة ذلك وسوء عاقبته، ويقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠].

قالوا: وإنَّما وقع ذلك الإنكار من هارون على قومه لما سرى في خاطره من معنى الغيرية، وكانوا هم أعلم منه بالحقيقة، حيث لَم يشاهدوا إلا اللَّه وقت عبادتِهم العجل[١].

فانظر إلى كذب هؤلاء الدجاجلة المارقين حيث جعلوا الضلال هدى، ونسبوا إلى كليم اللَّه موسى الرضا بعبادة غير اللَّه، وجعلوا عبدة العجل أعلم باللَّه من نبِي اللَّه ورسوله هارون، كما جعلوا فرعون آنفًا أعلم بالحق من موسى الكليم.

* * *

وَلَقَدْ رَأَى إِبْلِيسَ عَارِفُهُمْ فَأَهْـ ... ـوَى بِالسُّجُودِ هُوِي ذِي خُضْعَانِ
قَالُوا لَهُ مَاذَا صَنَعْتَ فَقَالَ هَلْ ... غَيرُ الإِلَهِ وَأَنْتُمَا عُمْيَانِ
مَا ثَمَّ غَيرٌ فَاسْجُدُوا إِنْ شِئْتُمُ ... لِلشَّمْسِ وَالأَصْنَامِ وَالشَّيطَانِ
فَالْكُلُّ عَينُ اللهِ عِنْدِ مُحَقِّقٍ ... وَالْكُلُّ مَعْبُودٌ لِذِي عِرْفَانِ

---

(١) يقول ابن عربي في «فصوصه»: «وكان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن اللَّه قد قضى ألَّا يُعبد إلا إياه؛ وما حكم اللَّه بشيءٍ إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع في الأمر من إنكاره، وعدم اتساعه؛ فإن العارف من يرى الحق في كل شيء؛ بل يراه عين كل شيء».

هَذَا هو الْمعْبُودُ عِنْدَهُمْ فَقُلْ ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
يَا أُمَّةً مَعْبُودُهَا مَوْطُوءُهَا ... أَيْنَ الإِلَهُ وَثُغْرَةُ الطَّعَّانِ
يَا أُمَّةً قَدْ صَارَ مِنْ كُفْرَانِهَا ... جُزْءٌ يَسِيرٌ جُمْلَةَ الْكُفْرَانِ

الشرح: يعني: أن عارف هؤلاء الجاهلين -وهو ابن عربي رأس الإلحاد وإمام الزندقة-: رأى إبليس -في زعمه- فهوى بالسجود له في ذلة وخضوع، فلما أنكر عليه صاحباه ذلك الصنيع قال لهما موبخًا: وهل غير الإله رأيت، أم قد عميت منكم العينان، ليس هناك غير قط، فاسجدوا إن شئتم للشمس أو للأصنام، أو للشيطان، فإن الكل عين الحق، والكل أهل للعبادة لشهود الحق فيه عند أهل المعرفة.

ثُمَّ قال الشيخ بعد ذكر ضلالة هؤلاء الملاحدة: هذا هو المعبود عند هؤلاء السفهاء الحمقى، فسبح ربك أيها المؤمن، ونزهه عما يقول الجاهلون.

ثُمَّ ناداهم الشيخ مسفهًا وموبخًا: يا أمة معبودها موطوءها، أين الإله من ثغرة الطَّعَّان يا أمة قد صار جَميع أنواع الكفر والضلال جزءًا يسيرًا من كفرها وضلالها؟!.

* * *

فصل في قدوم ركب آخر

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ وَجَدْتُهُ ... بِالذَّاتِ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
هُوَ كَالْهَوَاءِ بِعَيْنِهِ لَا عَيْنُهُ ... مَلأَ الْخَلَاءَ وَلَا يُرَى بِعِيَانِ
وَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ بِئْرٍ وَلَا ... قَبْرٍ وَلَا حُشٍّ وَلَا أَعْطَانِ
بَلْ مِنْهُمُ مَنْ قَدْ رَأَى تَشْبِيهَهُ ... بِالرُّوحِ دَاخِلَ هَذِهِ الأَبْدَانِ
مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ لَيسَ بِدَاخِلٍ ... أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ
لَكِنَّهُمْ حَامُوا عَلَى هَذَا وَلَمْ ... يَتَجَاسَرُوا مِنْ عَسْكَرِ الإِيمَانِ
وَعَلَيهِمُ رَدَّ الأَئِمَّةُ أَحْمَدٌ ... وَصِحَابُهُ مِنْ كُلِّ ذِي عِرْفَانِ
فَهُمُ الْخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... وَهُمُ الْخُصُومُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ
وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ ذَكَرْتُ أُصُولَهَا ... لَمَّا ذَكَرْتُ الْجَهْمَ فِي الأَوْزَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من ذكر مقالة ابن عربي وأضرابه من القائلين بمذهب وحدة الوجود؛ شرع في بيان مقالة الحلولية، وينبغي أن يعلم أن أصحاب الحلول فريقان:

فريق: يقول بالحلول الخاص في بعض أفراد البشر كما ذهب إليه النصارى في عيسى عليه السلام، حيث زعموا أن اللاهوت -وهو الله- حل في الناسوت، أي: في جسد عيسى، وكما ادعاه في الإسلام السبئية أتباع عبد الله بن سبأ، الذي قال هو وأتباعه بألوهية علي رضي الله عنه، وقد حرقهم عليٌّ بالنار، وكذلك الخطابية في جعفر الصادق، وكان الحسين بن منصور الحلاج يزعم أن الله حل فيه، ويقول في بعض شعره:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهوَى أَنَا ... نَحْنُ روحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا
فَإِذَا مَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ ... وَإِذ مَا أَبْصَرتَه أَبْصَرتَنَا

وكان يرى -قبحه الله- أن الإنسان إذا بلغ درجة من الصفاء والمحبة بالرياضة والمجاهدة فإنه يكون أهلًا لأن يحل الله فيه، ومن شعره في ذلك:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَر نَاسُوتَه ... سِرٌّ سَنَا لاهُوتَهُ الثَّاقِبِ
ثُمَّ بَدَا فِي خَلْقِهِ ظَاهِرًا ... فِي صُورَةِ الآكِلِ والشَّارِبِ
حَتَّى لَقَد عَايَنَهُ خَلْقُه ... كَلَحظِكَ الحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وقد أفتى علماء عصره بردته ووجوب قتله حين ظهر بتلك المقالة الشنيعة، فقتل -لعنه الله-.

وأما الفريق الثاني من القائلين بالحلول: وهم الذين تعرض المؤلف لذكر مذهبهم هنا، فيرون أن الله ﷻ حالٌّ بذاته فِي كل جزء من أجزاء العالم، بحيث لا يخلو منه مكان، ويشبهونه -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- بالهواء الذي يملأ الخلاء، ومع ذلك لا يراه أحد، ومنهم من يقول: إن هذا العالم جسم كبير، والله ﷻ هو الروح الكامنة فِي هذا الجسم، المدبرة له، فهو سارٍ فِي جَميع أجزائه، كحلول الروح فِي البدن الإنساني والحيواني.

وقد رد المؤلف على هؤلاء الحلوليين بأنَّهم حكموا على ربِّهم بالحلول فِي الأماكن القذرة، كالآبار والقبور والحشوش والأعطان، وبين أن هذا المذهب غير مذهب المعطلة الذين نفوا عن الله الجهة والحيز، وقالوا: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، وأن هؤلاء الحلولية قد حاموا حول ذلك القول، ولكنهم لَم يجرؤوا على إظهاره خوفًا من عسكر الإيمان، وهم أهل السنة والجماعة، وقد رد عليهم الإمام أحمد وغيره بِما بيَّن فساد مقالتهم وشناعة نحلتهم.

ولا شك أن هؤلاء الحلولية خصوم ألداء لأهل السنة والجماعة الذين ينَزهون ربَّهم ﷻ أن يكون حالًا فِي شيء من أجزاء العالم، ويؤمنون بأنه سبحانه فوق سمواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه كما أخبر هو عن نفسه.

فصل في قدوم ركب آخر

وَأَتَـى فَـرِيـقٌ ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُـهُ ... هَـذَا وَلَـكِـنْ جَـدَّ فِـي الْـكُـفْـرَانِ

فَـأَسَـرَّ قَـوْلَ مُـعَـطِّـلٍ وَمُـكَـذِّبٍ ... فـي قَـالَـبِ الـتَّـنْـزِيـهِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

إِذْ قَـالَ لَـيـسَ بِـدَاخِـلٍ فِـيـنَـا وَلَا ... هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُـمْـلَـةِ الأَكْـوَانِ

بَـلْ قَـالَ لَـيـسَ بِـبَـائِـنٍ عَـنْـهَـا وَلَا ... فِـيـهَـا وَلَا هُـوَ عَـيـنُـهَـا بِـبَـيَـانِ

كَـلَّا وَلَا فَـوْقَ الـسَّـمَـوَاتِ الْـعُـلَا ... وَالْـعَـرْشُ مِـنْ رَبٍّ وَلَا رَحْـمَـنِ

وَالْعَرْشُ لَيسَ عَلَيهِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... ـعَـدَمِ الَّـذِي لَا شـيءَ فِـي الأَعْـيَـانِ

بَـلْ حَـظُّـهُ مِـنْ رَبِّـهِ حَـظُّ الـثَّـرَى ... مِـنْـهُ وَحَـظُّ قَـوَاعِـدِ الْـبُـنْـيَـانِ

لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ كَهَذِهِ الْـ أَجْسَامِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ

الشرح: هذا بيان لمذهب الجهمية المعطلة الذين حكى الشيخ مقالتهم فيما سبق، وهو مقارب لمذهب الحلول السابق، ولكنه أوغل منه فِي الكفر؛ حيث إنه قائم على التعطيل لصفات الرب، والتكذيب بالنصوص الصريحة المثبتة لَها من الكتاب والسنة، ومع ذلك يصوغه أصحابه فِي قالب التنْزيه؛ تمويهًا على قصار النظر، فيقولون: ما أردنا بنفي الصفات إلا تنْزيهه عن مشابَهة المخلوقات، وهم مع ذلك يصفونه بصفات المعدوم الممتنع، فيقولون: لا هو داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا يقال له متصل ولا منفصل، ولا قريب ولا بعيد، وليس هو فِي حيز ولا جهة، فالجهات والأمكنة كلها بالنسبة إليه سواء، فليس الفوق أولى به من التحت، ولا حظ العرش منه أكثر من حظ الأرض السابعة السفلى، أو قواعد البنيان.

وحقيقة قولهم: إنه ليس فوق السموات العلا والعرش ربٌّ ولا رحمنٌ، بل ليس فوقه إلا العدم المحض الذي لا حقيقة له فِي الخارج.

ويزعمون أن القول باستوائه على العرش يستلزم أن يكون فِي جهة، وأن يكون العرش حيزًا له، وذلك من صفات الأجسام، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

* * *

وَلَقَدْ وَجَدْتُ لِفَاضِلٍ مِنْهُمْ مَقَا مًا قَامَهُ فِي النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

قَالَ اسْمَعُوا يَا قَوْمُ إِنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ قَالَ قَوْلًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

لَا تَحْكُمُوا بِالْفَضْلِ لِي أَصْلًا عَلَى ذِي النُّونِ يونُسَ ذَلِكَ الْغَضْبَانِ

هَذَا يَرُدُّ عَلَى الْمُجَسِّمِ قَوْلَهُ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالأَكْوَانِ

وَيَدُلُّ أَنَّ إِلَهَنَا سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ يُلْفَى بِكُلِّ مَكَانِ

قَالُوا لَهُ بَيِّنْ لَنَا هَذَا فَلَمْ يَفْعَلْ فَأَعْطَوْهُ مِنَ الأَثْمَانِ

أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ الْعَتِيقِ فَقَالَ فِي تِبْيَانِهِ فَاسْمَعْ لِذَا التِّبْيَانِ

قَدْ كَانَ يونُسُ فِي قَرَارِ الْبَحْرِ تَحْـ تَ الْمَاءِ فِي قَبْرٍ مِنَ الْحِيتَانِ

وَمُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَاوَزَ السَّـ سَبْعَ الطِّبَاقَ وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ

وَكِلَاهُمَا فِي قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ

فَالْعُلُوُ وَالسُّفْلُ اللَّذَانِ كِلَاهُمَا ... فِي بُعْدِهِ مِنْ ضِدِّهِ طَرَفَانِ
إِنْ يَنْسَبَا لِلَّهِ نُزِّهَ عَنْهُمَا ... بِالإِخْتِصَاصِ بَلَى هُمَا سِيَّانِ
فِي قُرْبِ مَنْ أَضْحَى مُقِيمًا فِيهِمَا ... مِنْ رَبِّهِ فَكِلَاهُمَا مِثْلَانِ
فَلأَجْلِ هَذَا خَصَّ يونُسَ دُونَهُمْ ... بِالذِّكْرِ تَحْقِيقًا لِهَذَا الشَّانِ
فَأَتَى النِّثَارُ عَلَيهِ مِنْ أَصْحَابِهِ ... مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِلَا حُسْبَانِ

الشرح: أورد الشيخ هنا هذه الحكاية الَّتِي تدل على جهل ذلك الجهمي، وعدم بصره بِمواقع الاستدلال، فقد أراد أن يستدل بقوله ﷺ: **«لا تفضلوني على يونس بن متى»**. على أنه ليس فوق العرش إله، وأن مُحمَّدًا لَم يكن وهو فوق السبع الطباق بأقرب إلى اللَّه من يونس وهو فِي جوف الظلمات، وهو استدلال فاسد فإن نَهيه ﷺ أمته عن تفضيله على يونس لَم ينفِ أنه أفضل منه فِي الواقع، وهذا النهي عن التفضيل لا صلة له بالقرب والبعد، وإنَّما هو إرشاد لأمته أن يتأدبوا فِي حق الأنبياء، وألَّا يفضلوا أحدًا منهم بخصوصه على آخر بخصوصه وإن كان المفضل هو مُحمَّد، والمفضل عليه هو يونس -عليهما الصلاة والسلام- وإنَّما خص يونس بالذكر؛ لأن بعض الأوهام قد يسبق إليها هبوط درجته ﷺ عن إخوانه من المرسلين حيث أخبر اللَّه ﷻ عنه: أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي: فاعل ما يلام عليه، وقال فِي حقه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. على أن الحديث بِهذا اللفظ لَم يروه أحد من أهل الكتب الَّتِي يعتمد عليها، وإنَّما اللفظ الذي فِي الصحيح: **«لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»**. وفي رواية: **«من قال أني خير من يونس بن متَّى؛ فقد كذب»**.

ومعلوم أنه ليس فِي هذه الروايات تعرض للمفاضلة بين مُحمَّد وبين يونس -عليهما السلام- ولا نَهي للمسلمين أن يفضلوا مُحمَّدًا على يونس، بل هو نَهي عام لكل أحد أن يفضل ويفتخر على يونس، وهل يقول من له ذرة من عقل، ولمحة من إيمان: إن مقام الذي أسري به إلى ربه، وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي ألقي فِي بطن الحوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟! ولو جاز أن يتخذ من مثل ذلك الحديث دليلًا على نفي علوه تعالى على خلقه فهل يقوى مثله فِي احتماله وبُعْد الاستدلال به أن يقاوم الأدلة الصريحة القطعية من الكتاب والسنة والعقل والفطرة على علوه تعالى، والتي بلغت

من الكثرة أن زادت على ألف دليل.

فانظر إلى حال الجهمي الجاهل الذي يتجرأ على الناس بسخافة حمقاء، ثُمَّ انظر إلى قبولهم ذلك منه، وفرحهم به بجهلهم وقلة علمهم بكلام اللَّه وكلام رسوله، فالحمد للَّه الذي عافانا مِمَّا ابتلى به كثيرًا من خلقه، وهدانا صراطه المستقيم.

* * *

فَاحْمَدْ إِلَهَكَ أَيهَا السُّنِّيُّ إِذْ ... عَافَاكَ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي بُهْتَانِ

وَاللهِ مَا يَرْضَى بِهَذَا خَائِفٌ ... مِنْ رَبِّهِ أَمْسَى عَلَى الإِيمَانِ

هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ حَقًّا بَلْ هُوَ التْـ ... ـتَحْرِيفُ مَحْضًا أَبْرَدَ الْهَذَيَانِ

وَاللهِ مَا بُلِي الْمُجَسِّمُ قَطُّ ذِي الْـ ... ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِذِي الْخِذْلَانِ

أَمْثَالُ ذَا التَّأْوِيلِ أَفْسَدَ هَذِهِ الْـ ... أَدْيَانَ حِينَ سَرَى إِلَى الأَدْيَانِ

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ حَافِظُ دِينِهِ ... لَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ قُوَى الأَرْكَانِ

الشرح: بعد أن حكى المؤلف هذه الأكذوبة الَّتِي تفتق عنها ذهن ذلك الجهمي المارق، والتي تدل على مبلغ جهل الجهمية وضلالهم؛ حيث أنكروا أن يكون بعض العباد والمخلوقات أقرب إلى اللَّه من بعض، وزعموا أن جَميع الجهات والأمكنة بالنسبة إليه سواء -توجه إلى كل معتصم بالسنة وعقيدة السلف أن يحمد اللَّه الذي عافاه من تحريف هؤلاء الكذابين، وأخبر أنه لا يرضى بمثل هذا التحريف والتعطيل إلا قلب فارقه الخوف من مولاه، وبات على غير إيمان به، وإلا لما اجترأ على القول بتلك الشناعات فِي حق اللَّه ﷻ الَّتِي هي محض الإلحاد وعين التحريف والهذيان، ثُمَّ أخبر أن المجسمة الذين يدعي الجهم وأصحابه الفرار من الوقوع فِي تجسيمهم بالتأويل ما ابتلوا قط بمثل هذي البلوى الَّتِي هي تأويل الجهمي، ولا خذلوا هذا الخذلان الشنيع، وأن أمثال هذه التأويلات الفاسدة هي الَّتِي أفسدت الأديان حين سرت إليها، وقد وجد فِي اليهودية والنصرانية جهمية كهذا الجهم الذي أصيب به الإسلام، حرفوا التوراة والإنجيل، وتناولوهما بالتغيير والتبديل حَتَّى أفسدوا هاتين الديانتين على أهلهما كما حاول الجهم إفساد الإسلام على أهله، ولولا أن اللَّه حافظ دينه وكتابه؛ لكانت بدعة الجهم ومقالاته سببًا فِي هدم بنيان هذا الدين وتصدع أركانه.

* * *

فصل

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفَهُ ... هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ
قَالَ اسْمَعُوا يَا قَوْمُ لَا تُلْهِيكُمُ ... هَذِي الأَمَانِي هُنَّ شَرُّ أَمَانِي
أَتْعَبْتُ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي ... وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي
فَتَّشْتُ فَوْقَ وَتَحْتَ ثُمَّ أَمَامَنَا ... وَوَرَاءُ ثُمَّ يَسَارَ مَعْ أَيْمَانِ
مَا دَلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ ... كَلَّا وَلَا بَشَرٌ إِلَيْهِ هَدَانِي
إِلَّا طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ ... تُعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى الْقُرْآنِ

الشرح: بعد أن فرغ الشيخ من ذكر مذهب الجهمية -أهل التعطيل والإلحاد- شرع فِي بيان ما جره هذا المذهب من انسلاخ طائفة كبيرة من النظار من الدين جملة، ونزوعهم إلى الزندقة والانحلال، فإنَّهم فتشوا فوجدوا أن مذاهب الجهمية والمتكلمين متضاربة متناقضة، ينفون الشيء ويثبتون نظيره، ويقطعون بالشيء فِي موضع وبضده فِي موضع آخر، فشكوا فيها جميعًا، ولَم يطمئنوا إلى صحتها، ثُمَّ نظروا فِي مذاهب أهل السنة والجماعة فوجدوها محكمة، مطابقة لما جاء به الكتاب الحكيم والسنة المطهرة، فأعجبوا بِها، وكادوا يدخلون فِي أهلها لولا أنَّهم رأوا الجهم وأصحابه يرمونَهم بأشنع الألقاب، ويتهمونَهم بالتشبيه والتجسيم تنفيرًا للناس من اتباعهم، فحار هؤلاء بين الفريقين، ولَم يجدوا بدًا من نبذ ذلك كله، والعيش فِي هذه الدنيا كالبهائم، بلا عقيدة ولا دين.

والآن فلنسمع إلى الشيخ يحكي لنا على لسان رائد هذه الجماعة، وهو يقول لهم: يا قوم، إن سعيكم هذا فِي ضلال، وإن ما تطلبونه مستحيل المنال، فلا تشغلنكم هذه الأماني الكواذب، فهن شر أماني، لقد أتعبت راحلتي، مُغِذًّا السير حَتَّى كلت مهجتي، ونفدت قوتي، ومع ذلك أعياني الوصول إليه، لقد بحثت عنه فِي جَميع الجهات الست، فما وجدت أحدًا دلني على وجوده، ولا هداني إلى معرفته، اللَّهم إلا جماعة تمسكوا بصحاح الأحاديث، وانتسبت مذاهبهم إلى القرآن، فهم الذين يبشرون بوجوده، ويدلون عليه كل طالب للوصول إليه.

* * *

قَالُوا الَّذِي تَبْغِيهِ فَوْقَ عِبَادِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ
وَإِلَيهِ يَصْعَدُ كُلُّ قَوْلٍ طَيِّبٍ وَإِلَيهِ يُرْفَعُ سَعْيُ ذِي الشُّكْرَانِ
وَالرُّوحُ وَالأَمْلَاكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ وَإِلَيهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ
وَإِلَيهِ أَيدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
وَإِلَيهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقُدِّرَتْ مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

الشرح: يعني: أن أهل السنة والجماعة قالوا لهذا السائل: إن الذي تطلبه، وتَجِدُّ فِي البحث عنه، وتقول: إنك لَم تجده فِي واحدة من الجهات الست. هو فِي جهة الفوق، فهو العلي بذاته فوق عباده، وفوق السموات السبع، وفوق كل مكان من أمكنة هذا العالم الوجودية، وهو هناك مستوٍ على عرشه استواء حقيقيًّا بِمعنى العلو والارتفاع، لا كما يزعم الجهم وأتباعه من أن معنَى استوائه على العرش: هو استيلاؤه عليه، فإنه لا معنى لتخصيص العرش بذلك، إذ هو سبحانه مستولٍ على جَميع الأكوان الَّتِي من جملتها العرش، وإليه هناك يصعد كل قول طيب، ويرفع كل عمل صالح، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠]. ومن عنده تتنَزل الملائكة والروح وإليه تعرج فِي كل الآنات وفي جَميع الأوقات، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤]. وهو الذي إليه تمتد أيدي السائلين بالطلب فِي الدعاء، متجهة نحو العلو بفطرة اللَّه الذي فطرها على رفع الأكف فِي الدعاء، وهو الذي عرج إليه الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- ليلة الإسراء، وتجاوز السبع الطباق، وتناهى فِي القرب منه حَتَّى كان قاب قوسين أو أدنى.

* * *

وإِلَيهِ قَدْ رُفِعَ الْمَسِيحُ حَقِيقَةً وَلَسَوْفَ يَنْزِلُ كَي يُرَى بِعِيَانِ
وَإِلَيهِ تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ عِنْدَ الْمَمَاتِ فَتَنْثَنِي بِأَمَانِ
وَإِلَيهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلَا تَوَاصٍ ثَانِ
بَلْ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي لَمْ يُفْطَرُوا إِلَّا عَلَيهَا الْخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى إِقْرَارِهِمْ لَا شَكَّ بِالدَّيَّانِ

لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا مَرْضَى بِدَاءِ الْجَهْلِ وَالْخِذْلَانِ

الشرح: هذه من جملة كلام أهل السنة والجماعة في إثبات الفوقية للّه ﷻ على الحقيقة، حيث أخبر سبحانه أنه رفع عيسى عليه السلام إليه بجسده وروحه حيًا، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥]. وكما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾[النساء: ١٥٧، ١٥٨]. فإضافة الرفع إلى ضمير عيسى عليه السلام في الآيتين يدل على أنه رفع كله، ويَرُدُّ على من زعم أن الرفع إنَّما هو لروحه وحدها، وأن جسده قد مات ودفن، وهو زعم باطل، فإنه لا يظهر حينئذ لتخصيص عيسى عليه السلام بذلك الرفع معنًى، إذ كل ميت هو كذلك، ترفع روحه إلى السماء، وقد ورد فِي الحديث الصحيح أن عيسى سينْزل قرب قيام الساعة، وأنه سيقتل المسيح الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية على أهل الكتاب، وتمتلئ الدنيا فِي عهده خيرًا وعدلًا.

وكذلك ورد الحديث بأن أرواح المؤمنين تعرج بِها ملائكة الرحمة حَتَّى تَمْثُل بين يدي اللّه ﷻ، فيبشرها بِما أعد لَها من نعيم، فترجع آمنة مطمئنة.

وهو سبحانه كذلك الذي تتجه إليه آمال عباده نحو العلو، دون أن يوصي بعضهم بعضًا بذلك، بل فطرة فطرهم اللّه عليها كما فطرهم على الإقرار بوجوده، لكن أهل التعطيل قد فسدت فطرهم فجحدوا هذه الضرورات الَّتِي يجدها الناس من أنفسهم بالتوجه دائمًا فِي الدعاء والرجاء نحو العلو، وأصبحوا مرضى بداء الجهل والخذلان، أعاذنا اللّه مِمَّا ابتلاهم به بِمنه وكرمه.

* * *

فَسَأَلْتُ عَنْهُمْ رُفْقَتِي وَأَحِبَّتِي أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبِ جِنْكِيزْ خَانِ

مَنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يقَالُ لَهُمْ فَقَدْ جَاءُوا بِأَمْرٍ مَالِئِ الآذَانِ

وَلَهُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةٌ مَا صَالَهَا ذُو بَاطِلٍ بَلْ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ

أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَهُمْ وَكَلَامَهُمْ مِثْلَ الصَّوَاعِقِ لَيسَ ذَا لِجَبَانِ

جَاءُوكُمُ مِنْ فَوْقِكُمْ وَأَتَيتُمُو مِنْ تَحْتِهِمْ مَا أَنْتُمُ سِيَّانِ

جَاءُوكُمُ بِالْوَحْيِ لكِنْ جِئْتُمُ بِنُحَاتَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ

الشرح: لما سمع هذا السائل الذي خرج يرتاد لقومه عقيدة يدينون بِها كلام أهل السنة

والجماعة فِي إثبات صفة العلو للَّه ﷻ ، وأنه فوق العرش بذاته أعجب أيما إعجاب بقوة كلامهم ووضوحه، وامتلأت به نفسه، فذهب يسأل عنهم رفقاءه، وأهل هواه من أصحاب جهم، وحزب ذلك القائد المغولي الجبار المسمى بجنكيز خان، والمراد بِهم نصير الدين الطوسي وأمثاله من أذناب المتفلسفة، فقال لهم: من هؤلاء؟ وبماذا يسمون؟ فإنَّهم قد جاءوا بأمر عجيب، يملأ الآذان والقلوب روعة وجلالًا، ولهم علينا صولة لا يُمكن أن يصولها ذو باطل، بل لا تكون إلا لصاحب الحجة والبرهان، فهذه أقوالهم وحججهم يرسلونَها علينا مثل الصواعق المحرقة فِي غير جبن ولا خور، وشتان بين كلامنا وكلامهم، فإنَّهم يجيئوننا من فوقنا بالوحي المبين والنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ونحن نجيئهم من تحتهم بنفاية الأفكار وكناسة الأذهان، ومن ذا الذي يسوي بين متمسك بالوحي المعصوم وبين خابط فِي دياجير الجهالة ومتاهات الظنون.

* * *

قَالُوا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ فَلَا ... تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ

وَالْعَنْهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا وَاغْزُهُمْ ... بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ غَيْرَ جَبَانِ

وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ ... أَوْ لَا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الأَوْطَانِ

حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمُ فَهُمُ أَضَلْ ... لُ مِنَ الْيهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ

وَاحْذَرْ تُجَادِلُهُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ فَتَنْثَنِي بِهَوَانِ

أَنَّى وَهُمْ أَوْلَى بِهِ قَدْ أَنْفَذُوا ... فِيهِ قُوَى الأَذْهَانِ وَالأَبْدَانِ

فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التْ ... تَأْوِيلِ لِلأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْ ... آحَادِ ذَانِ لِصَحْبِنَا أَصْلَانِ

الشرح: سأل هذا السائل رفقاءه وأهل محبته عن رأيهم فِي أهل السنة والجماعة؟ وبماذا يسمونَهم؟ فقالوا -قبحهم اللَّه-: إنَّهم مشبهة، يشبهون اللَّه ﷻ بخلقه؛ حيث يثبتون له من الصفات ما هو موجود فِي المخلوقات، وهم كذلك مجسمة يقولون: إن اللَّه فوق العرش بذاته. فيثبتون له المكان والحيز الذي هو من خصائص الأجسام، وقالوا له: إياك أن تسمع لقولهم أو تصيخ لآرائهم، بل يجب أن تمقتهم، وأن تقابل جيوشهم من النصوص بعساكر التعطيل، غير هياب، ولا وجل، وعليك أن تتبع معهم إحدى ثلاث خصال:

فإما أن تسفك دماءهم كما تسفك دماء الكفرة والمشركين.

أو تحبسهم حَتَّى يرجعوا عن قولهم، ويفيئوا إلى حكم العقل.

وإلا فانفهم عن الأوطان، واسترح من شرهم، وحذر أصحابك من اتباعهم، فإنَّهم أضل من اليهود والنصارى.

ثُمَّ إياك إياك أن تجادلهم بما هم أعلم به منك، وأمهر فيه، وهو قال اللَّه، وقال الرسول؛ فترجع مغلوبًا مقهورًا، وكيف تجادلهم بالوحي الذي هم أحق به وقد أفنوا فيه عصارة أذهانِهم وقوى أبدانِهم؟! بل إذا ابتليت بشيء من ذلك فلا مخلص لك إلا اللجوء إلى المغالطة، فإن كان النص متواترًا لا يُمكن رده فغالطهم على التأويل له، وقل لهم: إنه مصروف عن ظاهره إلى معنًى آخر. فإن سألوك عن القرينة الَّتِي أوجبت ذلك الصرف، فقل لهم: حكم العقل باستحالة ذلك المعنى على اللَّه. وأما إن كان الخبر آحادًا؛ فما عليك إلا أن تكذب به، وتنكر ثبوته، أو تدعي أنه لا يفيد إلا الظن، فلا يقبل فِي باب الاعتقاد.

هذان هما الأصلان اللذان بنى عليهما المعطلة دفعهم للنصوص الَّتِي يرون فيها مصادمة لقضايا عقولهم الفاسدة وأوهامهم الكاذبة.

* * *

أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهُمَا بِيدَيكَ وَالأَسْنَانِ

وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ ... فَابْدَرْ بِإِيرَادٍ وَشُغْلِ زَمَانِ

لَا يَمْلِكُوهُ عَلَيكَ بِالآثَارِ وَالْـ ... أَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ لِلْفُرْقَانِ

فَتَصِيرَ إِنْ وَافَقْتَ مِثْلَهُمُ وَإِنْ ... عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ

وَإِذَا سَكَتَّ يقَالُ هَذَا جَاهِلٌ ... فَابْدَرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

هَذَا الَّذِي وَاللهِ أَوْصَانَا بِهِ ... أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

الشرح: يعني: أن هذا التأويل لظواهر النصوص المتواترة والتكذيب بالآحاد منها هو الذي أوصى به شيوخ المعطلة أتباعهم، فعليك أن تعض عليهما بالنواجذ، وإذا اجتمعت بِهؤلاء المثبتة، أهل النصوص والآثار، وضمك وإياهم مجلس، فإياك أن يسبقوك إلى الكلام، بل بادرهم بإيراد مسألة، أو إلزام تشغل به الوقت حَتَّى لا يملكوه عليك بإيراد الآثار والأخبار والتفسير لآيات الكتاب، وحينئذ تكون بين أمرين أحلاهما مر:

فإما أن توافقهم؛ فتصير مثلهم فِي التشبيه والتجسيم.

أو تخالفهم فترمى بالزندقة والكفر.

وإذا سكت ولَم تقل شيئًا نسبت إلى الجهل وقلة العلم، فبادرهم إذن بأي كلام ولو بالفشر -يعني: بالكذب- والهذيان -الكلام الذي فيه تخليط واضطراب- وهذا الذي أوصيناك به، هو واللَّه الذي أوصانا به أشياخنا فِي سالف الأزمان.

* * *

فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي وَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ بِحِرَانِ

عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيرِهَا ... مَا ثَمَّ شَيءٌ غَيرُ ذِي الأَكْوَانِ

لَوْ كَانَ لِلأَكْوَانِ رَبٌّ خَالِقٌ ... كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

أَوْ كَانَ رَبٌّ بَائِنٌ عَنْ ذِي الْوَرَى ... كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الإِيمَانِ

وَلَكَان عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْخَلْقِ بِالْـ ... إِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

وَلَكَانَ هَذَا الْحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيهِ اثْنَانِ

الشرح: يقول ذلك الرائد الأحمق: إني بعد أن طوفت بين أهل المذاهب، فسمعت كلام أهل السنة والجماعة، ثُمَّ سمعت كلام رفقتي -من أصحاب جهم- فيهم، شككت فِي المذهبين جميعًا، ورجعت من سفري بخيبة وإخفاق، قلت لصاحبي، وقد كلت دابتي من السير حَتَّى أعلمت بحرانِها وامتناعها عن المسير: عطل ركابك، واسترح من سيرها، فإنه لا حاجة بك إلى كثرة التجوال، وطول الكلام، فقد جئتك من هناك بالخبر اليقين، وهو أنه لا شيء وراء هذه الأكوان.

ثُمَّ أخذ يدلل على قضيته الخاسرة، فقال: لو كان للأكوان رب خالق موجود؛ لكان مذهب المجسمة هو أصح المذاهب، وأقواها برهانًا، وأولاها بالقبول، فإن القول بوجوده يقتضي أن يكون ذلك الوجود متحققًا فِي جهة، ولَما استحال القول بوجوده داخل هذا العالم؛ لِما يلزم عليه من أن تكون الحوادث ظرفًا له، محيطة به؛ فلابد من القول بأنه بائن عن الورى، منفصل عنهم، أما القول بأنه موجود لا فِي مكان، وأنه ليس داخل العالم، ولا خارجه، فإنه ينطوي على التناقض، كأنه قيل: هو موجود معدوم، فالحكم بوجود رب خالق للعالم، بائن عنه؛ يقتضي انتصار مذهب التجسيم، وأن يكون أهله أحق الناس بالإسلام والإيمان والإحسان وأن يكون حزبُهم هو الأعز الأغلب فوق رءوس المذاهب جميعًا.

فَدَعِ التَّكَالِيفَ الَّتِي حُمِّلْتَهَا ... وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَارْمِ بِالأَرْسَانِ[١]
مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَمْ ... يَتَكَلَّمِ الرَّحْمَنُ بِالْقُرْآنِ
لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ نَاظِرٌ ... لَزِمَ التَّحَيُّزُ وَافْتِقَارُ مَكَانِ
لَوْ كَانَ ذَا الْقُرْآنُ عَيْنَ كَلامِهِ ... حَرْفًا وَصَوْتًا كَانَ ذَا جُثْمَانِ
فَإِذَا انْتَفَى هَذَا وَهَذَا مَا الَّذِي ... يَبْقَى عَلَى ذَا النَّفْيِ مِنْ إِيمَانِ
فَدَعِ الْحَلَالَ مَعَ الْحَرَامِ لأَهْلِهِ ... فَهُمَا السِّيَاجُ لَهُمْ عَلَى الْبُسْتَانِ
فَاخْرِقْهُ ثُمَّ ادْخُلْ تَرَى فِي ضِمْنِهِ ... قَدْ هُيِّئَتْ لَكَ سَائِرُ الأَلْوَانِ
وَتَرَى بِهَا مَا لَا يَرَاهُ مُحَجَّبٌ ... مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَى بِهِ زَوْجَانِ[٢]
وَاقْطَعْ عَلَائِقَكَ الَّتِي قَدْ قَيَّدَتْ ... هَذَا الْوَرَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ
لِتَصِيرَ حُرًّا لَسْتَ تَحْتَ أَوَامِرٍ ... كَلَّا وَلَا نَهْيٍ وَلَا فُرْقَانِ

الشرح: يقول هذا الرائد الأحمق لصاحبه: إذا كان الإيمان برب خالق للأكوان بائن عنها جميعًا؛ لا يتأتى إلا على مذهب هؤلاء المجسمة، وكان مذهب المعطلة غير معقول؛ حيث يفرضون وجوده، ثُمَّ يصفونه بصفات المعدوم، فالواجب هو التخلص من هذه المذاهب جميعًا، فاطرح عنك هذه التكاليف الَّتِي أثقلت كاهلك، واخلع عنك عذار الحياء والحشمة، وألق بهذه القيود الَّتِي منعتك من الحركة والانطلاق، فليس هناك فوق العرش رب يُخاف أو يُرجى، ولَم يتكلم الرحمن بالقرآن كما يدعي أهل السنة؛ إذ لو كان فوق العرش بذاته للزم تحيزه وشغله قدرًا من الفراغ، ولزم كذلك احتياجه إلى المكان الذي يحلُّ فيه، ولو كان قد تكلم بالقرآن بحرف وصوت؛ لزم أن يكون جسمًا، إذ إن الحرف والصوت من خصائص الأجسام.

وإذا انتفى وجود رب فوق العرش، وانتفى كلامه بالقرآن؛ لَم يبق مع هذا النفي شيء من إيمان، وإذن فلنتخلص من تبعات هذا الإيمان، ولندع التقيد بقيود الحلال والحرام لأهله، ولنخرق هذا السياج السميك الذي يحول بيننا وبين دخول البستان، ويعني به: الدنيا الَّتِي أعدت لنا فيه سائر المتع والملذات، حيث نرى فيه ما لا يراه هؤلاء المقيدون، ونجد فيه من كل ما نشتهي زوجين اثنين، ولنقطع هذه العلائق الَّتِي تشدنا دائمًا إلى الوراء،

(١) جمع رسن، وهو الحبل الذي تُشد به الدابة.
(٢) والزوجان مفرده زوج، والمراد به: الصنف.

وتمنعنا من التحرر والانطلاق كما قيدت من سبقنا من الناس، فنصير أحرارًا لا نعيش تحت قسوة هذه الأوامر والنواهي، ولا فِي ظلال هذه الأحكام الَّتِي جاء بِها هذا الفرقان.

لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَرَى ... فَوْقَ السَّمَا لِلنَّاسِ مِنْ دَيَّانِ
لَوْ قُلْتَ مَا فَوْقَ السَّمَاءِ مُدَبِّرٌ ... وَالْعَرْشَ نُخْلِيهُ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَاللهُ لَيسَ مُكَلِّمًا لِعِبَادِهِ ... كَلَّا وَلَا مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ
مَا قَالَ قَطُّ وَلَا يقُولُ وَلَا لَهُ ... قَوْلٌ بَدَا مِنْهُ إِلَى إِنْسَانِ
لَحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ وَفُزْتَ بِكَنْزِهِ ... وَعَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ

الشرح: يقول له: إنك أنت الذي تصنع الحجاب الذي يحجز بين نفسك وبين مشتهياتِها حين تقدر أن فوق السماء إلَهًا يدين الناس، ويجزيهم بأعمالهم، ولكنك لو عمدت إلى جحده وإنكاره، فقلت: ما فوق السماء مدبر، ولا على العرش إله رحمن، ونفيت أن يكون مكلمًا لعباده، أو متكلِّمًا بالقرآن بجميع صيغ النفي، فقلت: ما قال قط، ولا يقول أصلًا، ولا له قول بدأ منه إلى أحد من البشر-لكنت بذلك قد وصلت إلى السر الذي عجز عنه الكثيرون، ولكنت قد حللت طلسم هذا الوجود، وفزت بكنْزه، وعلمت أن كل ما يقوله الناس فِي هذا الباب إنَّما هو تخليط وهذيان.

* * *

لَكِنْ زَعَمْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ بَائِنٌ ... مِنْ خَلْقِهِ إِذْ قُلْتَ مَوْجُودَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْـ ... كُرْسِيُّ حَقًّا فَوْقَهُ الْقَدَمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يسْمَعُ خَلْقَهُ ... وَيرَاهُمُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ ثَمَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْهُ بَدَا ... وَإِلَيهِ يرْجِعُ آخِرَ الأَزْمَانِ
وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ الَّذِي ... لَا ينْبَغِي إِلَّا لِذِي الجُثْمَانِ
وَوَصَفْتَهُ بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةٍ ... وَكَرَاهَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يعْلَمُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ
وَالْعِلْمُ وَصْفٌ زَائِدٌ عَنْ ذَاتِهِ ... عَرَضٌ يقُومُ بِغَيرِ ذِي جُثْمَانِ

الشرح: يلتفت هذا المتحلل الزنديق إلى صاحبه، ويتخيله رجلًا من أهل الإثبات، فيقول له: إنك بدلًا من أن تلجأ إلى الإنكار الذي يريح نفسك، ويحط عنها أثقالها؛ زعمت

أن ربك موجود، وأنه منفصل عن خلقه حين ذهبت إلى أن هناك موجودين: اللَّه والعالم، وأن لكل منهما وجوده الخاص المباين لوجود الآخر.

وزعمت أن اللَّه فوق العرش بذاته، وأن الكرسي موضع قدميه، كما روي عن ابن عباس وغيره.

وزعمت أن له سمعًا وبصرًا، فهو يسمع أصوات خلقه مهما خفتت، حَتَّى همسات الخواطر ونجوى الضمائر، ويراهم من فوق سبع سموات، بل من فوق ثمانٍ بحيث لا يمتنع على رؤيته أصغر ذرة.

وزعمت أنه متكلم بكلام هو صفة له، وأنه يتكلم بمشيئة، وأن القرآن كلامه على الحقيقة، وأنه منه بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وأنه يرجع إليه فِي آخر الزمان حين يقبضه من صدور العباد، ووصفته بصفات المخلوقين من السمع والبصر والإرادة والقدرة والكراهة والمحبة والحنان.

وزعمت أنه يعلم كل ما فِي الكون من غيب وشهادة وسر وإعلان، وأن العلم وصف زائد على ذاته زيادة الأعراض، وأن هذا العرض قائم به وهو غير ذي جثمان.

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ نِدَا الرَّحْمَنِ
أَفَتَسْمَعُ الآذَانُ غَيرَ الْحَرْفِ وَالصْـ ... ـصَوْتَ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الأُذُنَانِ
وَكَذَا النِّدَاءُ فَإِنَّهُ صَوْتٌ بِإِجْـ ... ـمَاعِ النُّحَاةِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ
لَكِنَّهُ صَوْتٌ رَفِيعٌ وَهْوَ ضِدْ ... دٌ لِلنَّجَاءِ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ
فَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ نَادَاهُ وَنَا ... جَاهُ وَفِي ذَا الزَّعْمِ مَحْذُورَانِ
قُرْبُ الْمَكَانِ وَبُعْدُهُ وَالصَّوْتُ بَلْ ... نَوْعَاهُ مَحْذُورَانِ مُمْتَنِعَانِ

الشرح: وزعمت كذلك أن اللَّه كلم عبده موسى بن عمران بكلام سمعه بأذنيه، وذلك الكلام المسموع لا يكون إلا حرفًا وصوتًا؛ لأنه هو الذي خصت الآذان بسماعه.

وكذلك زعمت أنه ناداه من جانب الطور الأيمن، والنداء لا يكون إلا صوتًا بإجماع أهل اللغات، لكنه صوت عالٍ، ويقابله النجاء وهو الصوت الخفيض، وكلاهما صوتان، وكلاهما ثابت لموسى عليه السلام حيث يقول القرآن: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وفي زعمك أيها المثبت أن اللّه نادى موسى وناجاه قد ارتكبت محذورين:

أولهما: وصف اللّه ﷻ بقرب المكان وبعده، فإن النداء يقتضي البعد، وضده وهو النجاء يقتضي القرب.

والثاني: أنك أثبت له الصوت الذي هو من خصائص الأجسام، سواء كان عاليًا أو منخفضًا، وهو بنوعيه ممتنع على اللّه ﷻ.

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَسْرَى بِهِ ... لَيلًا إِلَيهِ فَهْوَ مِنْهُ دَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَوْمَ اللِّقَا ... يُدْنِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالرِّضْوَانِ

حَتَّى يُرَى الْمُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا ... مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ ... كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ ... لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالكُثْبَانِ

لَمَّا تَجَلَّى يَوْمَ تَكْلِيمِ الرِّضَا ... مُوسَى الْكَلِيمُ مُكَلِّمُ الرَّحْمَنِ

وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا ... وَلَهُ يَمِينٌ بَلْ زَعَمْتَ يدَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ يدَيهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَا ... وَالأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

الشرح: وزعمت كذلك أن مُحمَّدًا -صلى اللّه عليه وآله وسلم- أسرى به ربه ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به إلى السماء حَتَّى تجاوزها، ووصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى، وأنه يدنيه كذلك يوم القيامة حين ينْزل سبحانه لفصل القضاء بين عباده، فيجلسه معه على العرش العظيم.

وزعمت أن لعرشه سبحانه أطيطًا به -أي: تصويتًا- كأطيط الرحل الجديد من ثقله كما روي الحديث بذلك عن عمر رضي الله عنه.

وزعمت أنه سبحانه تجلى للجبل المسمى بالطور عندما سأله موسى عليه السلام الرؤية، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فلما تجلى سبحانه للجبل، وظهر له من نوره مقدار أنملة أصبع -كما ورد في الحديث- لَم يطق الجبل ذلك وصار كثيبًا مهيلًا، وخر موسى صعقًا من هول الموقف، فلما أفاق قال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وزعمت أن للمعبود سبحانه وجهًا باقيًا لا يفنى ولا يزول؛ أخذًا من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وزعمت أن له يمينًا كما قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وكما قال ﷺ: «**إن يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار**».

بل زعمت أكثر من ذلك: أن له يدين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله لإبليس حين امتنع من السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وزعمت أنه يوم الحشر يجعل السموات في إحدى يديه، وهي اليمين، ويجعل الأرض في الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. ثُمَّ يقول: «أنا الله، أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!».

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ مَلأَى مِنَ الْـ ... ـخَيرَاتِ مَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

وَزَعَمْتَ أَن الْعَدْلَ فِي الأُخْرَى بِهَا ... رَفْعٌ وَخَفْضٌ وَهْوَ بِالْمِيزَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ طُرًّا عِنْدَهُ ... يَهْتَزُّ فَوْقَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

وَزَعَمْتَ أَيضًا أَنَّ قَلْبَ الْعَبْدِ مَا ... بَيْنَ اثْنَتَينِ مِنْ أَصَابِعَ عَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا ... يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلانِ

مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ ... لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيلِ جِنَانِ

وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى ... مِنْ فَرْشِهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ ... إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيثُ مِنْهُمْ دَانِ

الشرح: قوله: «وزعمت أن يمينه ملأى». البيت إشارة إلى الحديث السابق، وهو قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ألا ترون إلى ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض مِمَّا فِي يده**».

وأما قوله في البيت بعده: «وزعمت أن العدل في الأخرى بها خفض ورفع». فهو إشارة إلى قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو موسى رضي الله عنه: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له**

أن ينام، يَخْفِض القسط ويرفعه».

وأما قوله: «وزعمت أيضًا أن قلب العبد» البيت **فهو إشارة إلى قوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم بن أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف شاء»**. ولذلك كان أكثر دعائه ﷺ: **«اللَّهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»**.

وأما قوله: «وزعمت أن اللَّه يضحك» **إلى آخر الأبيات. فكلها إشارة إلى أحاديث** وردت بإثبات صفة الضحك له سبحانه فِي هذه الأحوال وفي غيرها، كما فِي الحديث: **«يضحك اللَّه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة»**. وكما فِي الحديث الذي أشار إليه بالبيت الأخير، وهو قوله ﷺ: **«يضحك اللَّه من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، يظل يضحك، يعلم أن فرجهم قريب»**.

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يرْضَى عَنْ أُولِي الْـ ... ـحُسْنَى وَيغْضَبُ عَنْ أُولِي الْعِصْيَانِ

وَزَعَـمْـتَ أَنَّ الـلـهَ يـسْـمَـعُ صَـوْتَـهُ ... يـومَ الْـمَـعَـادِ بَـعِـيـدُهُـمْ وَالـدَّانِـي

لَـمَّـا يُـنَـادِيـهِـمْ أَنَـا الـدَّيَّـانُ لَا ... ظُـلْـمٌ لَـدَيَّ فَـيَـسْـمَـعَ الـثَّـقَـلَانِ

وَزَعَـمْـتَ أَنَّ الـلـه يـشْـرِقُ نُـورُهُ ... فِي الأَرْضِ يـوْمَ الْـفَـصْـلِ وَالْـمِـيـزَانِ

وَزَعَـمْـتَ أَنَّ الـلـهَ يـكْـشِـفُ سَـاقَـهُ ... فَـيـخِـرُّ ذَاكَ الْـجَـمْـعُ لِـلأَذْقَـانِ

وَزَعَـمْـتَ أَنَّ يـمِـينَـهُ تَـطْـوِي الـسَّـمَا ... طَـي الـسِّـجِـلِّ عَـلَـى كِـتَـابِ بَـيَـانِ

الشرح: قوله: «وزعمت أن اللَّه يرضى» **البيت إشارة إلى ما فِي الآيات والأحاديث من إثبات صفتي الرضا والغضب للَّه ﷻ، كقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾** [المجادلة: ٢٢]. وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١]. وقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ [البقرة: ٩٠]. وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. **وهو فِي القرآن والسنة كثير.**

وقوله فِي البيت الذي بعده: «وزعمت أن اللَّه يسمع صوته» **إشارة إلى ما ورد فِي الأثر من أن اللَّه ﷻ ينادي يوم القيامة بصوت يسمعه أهل الموقف، فيقول: «أنا الديان، اليوم تجزى كل نفس بِما كسبت، لا ظلم اليوم»**.

وأما قوله: «وزعمت أن اللَّه يشرق نوره» **البيت. فهو إشارة إلى الآية الكريمة:** ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا

يَظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقوله فِي البيت بعده: «وزعمت أن اللَّه يكشف ساقه» إلخ. **فهو إشارة إلى قوله** تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]. وقد جاء فِي الحديث: «**إن اللَّه ﷻ يكشف عن ساقه؛ فيخر أهل الموقف سجدًا على الأذقان**». إلا المشركين، فإنَّهم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، فتصير ظهورهم طبقًا واحدًا.

وقوله: «وزعمت أن اللَّه يبسط كفه». فهو إشارة إلى قوله ﷺ: «**إن اللَّه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**».

وقوله: «وزعمت أن يمينه» إلخ، البيت إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. مع قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

والحاصل: أن هذه الأبيات السابقة تضمنت إثبات صفات الرضا، والغضب والنداء بالصوت، والنور، والساق، والكف، واليمين، وكلها صفات موجودة فِي المخلوق.

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِ

فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْقَضَاءِ الثَّانِي

وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْدُو جَهْرَةً ... لِعِبَادِهِ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

بَلْ يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ وَيَرَوْنَهُ ... فَالْمُقْلَتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ لِرَبِّنَا قَدَمًا وَأَنْ ... نَ اللهَ وَاضِعُهَا عَلَى النِّيرَانِ

فَهُنَاكَ يَدْنُو بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا ... وَتَقُولُ قَطْ قَطْ حَاجَتِي وَكَفَانِي

الشرح: قوله فِي البيت الأول: «وزعمت أن اللَّه ينْزل فِي الدجى» إلخ، هو والبيت الذي بعده إشارة إلى قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ينْزل ربنا -تبارك وتعالى- فِي كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ ولا يزال هكذا حَتَّى يطلع الفجر**». وقد ورد الحديث بعدة روايات بينها اختلاف يسير فِي الألفاظ، مثل ذكر الشطر الأول بدل الثلث الآخر، والحديث صريح فِي إثبات صفة النُّزول، فيجب الإيمان بِها مع اعتقاد أن نزوله

تعالى ليس كنُزول المخلوقين، فلا يقتضي هبوطًا، ولا انتقالًا، ولا شغل مكان، وخلو آخر، كما أن استواءه ليس كاستواء المخلوق، فلا يقتضي مماسة، ولا محايثة، ولا اتكاء. . . إلخ.

وأما قوله: «وزعمت أن له نُزولًا ثانيًا». فهو النُّزول لفصل القضاء بين عباده، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله -جل شأنه-: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. وإذا نزل سبحانه هذا النُّزول؛ فإنه يظهر لعباده جهرة، ويرونه بأبصارهم، ويسمعون كلامه، وقد جاء في الحديث: «**ما من عبد إلا ويكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان**». ولا ينافي هذا قوله سبحانه في شأن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. فإن المقصود من الآية الأولى: أنَّهم يحجبون في النار عن النظر إلى وجه ربِّهم، كما ينظر إليه أهل الجنة، والمقصود من عدم تكليمه إياهم أنه لا يكلمهم كلامًا يسرهم، ولكن كلام إهانة وتقريع.

وأما قوله: «وزعمت أن لربنا قدمًا» إلخ. هذا البيت وما بعده إشارة إلى قوله ﷺ: «**ما تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حَتَّى يضع الجبار فيها قدمه، فينْزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزتك وكرمك**».

* * *

وَزَعَمْتَ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ مَزِيدِهِمْ ... كُلٌّ يُحَاضِرُ رَبَّهُ وَيُدَانِي

بِالْحَاءِ مَعْ ضَادٍ وَجَامِعِ صَادِهَا ... وَجْهَانِ فِي ذَا اللَّفْظِ مَحْفُوظَانِ

فِي التِّرْمِذِي وَمُسْنَدٍ وَسِوَاهُمَا ... مِنْ كُتْبِ تَجْسِيمٍ بِلَا كِتْمَانِ

ووَصَفْتَهُ بِصِفَاتِ حَيٍّ فَاعِلٍ ... بِالإِخْتِيَارِ وَذَانِكَ الأَصْلَانِ

أَصْلُ التَّفَرُّقِ بَينَ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْـ ... بَارِي فَكُنْ فِي النَّفْي غَيرَ جَبَانِ

أَوْ لَا فَلَا تَلْعَبْ بِدِينِكَ نَاقِضًا ... نَفْيًا بِإِثْبَاتٍ بِلَا فُرْقَانِ

فَالنَّاسُ بَينَ مُعَطِّلٍ أَوْ مُثْبِتٍ ... أَوْ ثَالِثٍ مُتَنَاقِضٍ صِنْفَانِ

وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعٍ لَهُمُ بَلَى ... إِمَّا حِمَارًا أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ

الشرح: قوله: «وزعمت أن الناس يوم مزيدهم» إلخ. إشارة إلى ما رواه أحمد

والترمذي وغيرهما.

وملخصه: أن يوم الجمعة يسمى يوم القيامة بـ: «يوم المزيد» فيه يزور أهل الجنة ربَّهم ﷻ، ويكونون فِي سبقهم إليه على قدر سبقهم إلى الجمعة، ويكونون فِي قربِهم من ربِّهم على قدر قربِهم من الإمام، فتنصب لهم منابر اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والعقيان، وأدناهم منْزلة يكونون على كثبان المسك، فيتجلى لهم الرب -جل شأنه- وينظرون إليه كلهم، ولا يكون شيء أحب إليهم من النظر إلى وجهه، ثُمَّ تظلهم سحابة من عنده سبحانه فتمطرهم طيبًا، ما رأوا مثله قط، فيزيدهم جمالًا فوق جمالهم، ثُمَّ يقول لهم الرب تعالى: **«قوموا إلى ما ذخرت لكم»**. فيأتون سوقًا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيأخذون منها ما يشتهون من أنواع الحلل والحلي، فإذا رجعوا إلى أهليهم رحبوا بِهم، وسألوهم عما غشيهم من هذا الجمال، فيقولون لهم: **«وأنتم قد زدتم فِي أعيننا حسنًا على حسن، لكن يحق لنا وقد كنا الآن جلساء رب العرش»**. فيكون أهل الجنة أشد شوقًا إلى يوم المزيد من المحب إلى حبيبه.

وأما قوله: «ووصفته» إلخ. فالمعنى: أنك وصفت الباري -جل شأنه- بصفات الحي: من القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فإن [هذه] كلها صفات تقتضيها الحياة، ووصفته كذلك بصفات الفاعل المختار: من الرضا والغضب، والمحبة والكراهية، والمجيء والإتيان والنُّزول... إلخ. وهذان الأصلان من الحياة الفاعلية بالاختيار هما أصل التفرق بين الناس فِي الباري -جل شأنه-، فدع ما تفرقوا فيه، وبادر إلى النفي والإنكار فِي غير تَهيب ولا جبن، وإن لَم تجرؤ على ذلك التحلل من ربقة الدين؛ فلا تتلاعب به تلاعب هؤلاء المعطلة، فتنقض نفيًا بإثبات ليس يفترق عنه فِي شيء، فإن إثبات ذات مجردة عن جَميع الصفات والأسماء هو والنفي سواء.

فالناس قد افترقوا على ثلاث فرق:

معطلة: عطلوا الذات عن جَميع ما لَها من صفات وأسماء.

ومثبتة: أثبتوا للذات كل ما أثبت اللَّه ورسوله، بلا تفريق بين صفة وصفة.

وفرقة تناقضت: فأثبتت بعضًا، ونفت بعضًا، ففرقت بين المتماثلين بلا دليل.

أما أنا: فلست واللَّه برابع لهم، بل أختار لنفسي مذهب الحمير والثيران، فأعيش كما تعيش بلا عقيدة ولا إيمان.

فَاسْمَعْ بِإِنْكَارِ الْجَمِيعِ وَلَا تَكُنْ مُتَنَاقِضًا رَجُلًا لَهُ وَجْهَانِ
أَوْ لَا فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ وَالْبُرْهَانِ
فَالْبَابُ بَابٌ وَاحِدٌ فِي النَّفْيِ وَالْـ إِثْبَاتِ فِي عَقْلٍ وَفِي مِيزَانِ
فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ لَزِمَ الْجَمِيعَ أَوِ ائْتِ بِالْفُرْقَانِ
وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيصَانِ
فَذَرُوا الْمِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ قُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ
أَوْ قَاتِلُوا مَعَ ايمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتْـ تَشْبِيهِ تَحتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرآنِ
أَوْ لَا فَلَا تَتَلَاعَبُوا بِعُقُولِكُمْ وَكِتَابِكُمْ وَبِسَائِرِ الأَدْيَانِ
فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ
وَالنَّاسُ بَينَ مُصَدِّقٍ أَوْ جَاحِدٍ أَوْ بَينَ ذَلِكَ أَوْ شَبِيهُ أَتَانِ

الشرح: يقول هذا الأحمق لصاحبه: إذا كان الناس قد افترقوا فِي ربِّهم إلى هذه المذاهب الثلاثة، فهم بين الإثبات، والتعطيل، والتناقض بإثبات البعض ونفي البعض، وكان العقل لا يطمئن إلى شيء منها، إذ الإثبات تجسيم، والتعطيل جحد وإنكار لصريح النصوص، وإثبات بعضها دون البعض الآخر تناقض، فما عليك إلا أن تطيب نفسًا بإنكارها جميعًا، وأن تقنعها بِهذا الإنكار، فإذا أبت نفسك عليك ذلك، ولَم تجبك إليه؛ فتخير من هذه المذاهب أبعدها عن التناقض، وأقربَها إلى النصوص، وهو مذهب أهل الإثبات؛ حَتَّى لا تعيش متناقضًا ذا وجهين.

أما إذا سمحت لنفسك أن تكون مع المعطلة النفاة، أو مع الملفقة المتحذلقين؛ فيجب عليك فِي كلتا الحالتين أن تقيم الدليل القاطع على أن ما نفيته مغاير لما أثبته، وأن هناك فرقًا بينهما، فإن الباب واحد فِي النفي والإثبات عند العقل وفي قانون المنطق، فمتى أقررت بإثبات البعض؛ لزمك هذا الإثبات فِي الكل، وإلا فيجب أن تأتي بالفارق الذي اقتضى التغاير فِي الحكم، أما أن تنفي شيئًا وتثبت مثله؛ فذلك هو عين التجسيم والتناقض، فإن من نفى صفة -مثلًا- عن اللَّه خوف التشبيه، ثُمَّ أثبت أخرى تماثلها فِي اتصاف المخلوق بكل منهما؛ فقد وقع فِي التشبيه وناقض نفسه.

فيقال للمعطل الجهمي مثلًا: أنت تنفي عن اللَّه الأسْماء والصفات فرارًا من التشبيه مع أنك تثبت له الذات، وتقول: إنه شيء وموجود. والمخلوق أيضًا له ذات، ويوصف

بالشيئية والوجود، فإن كان مجرد الاشتراك فِي الاسم أو الصفة موجبًا للتشبيه، فكان يجب أن تنفي ما أثبته أيضًا، وإن كان إثبات ما أثبته لا يقتضي التشبيه والمماثلة؛ فقل هذا أيضًا فيما نفيته؛ إذ لا فارق أصلًا.

وكذلك يقال لمن يثبت الأسماء دون الصفات كالمعتزلة، أو يثبت بعض الصفات دون بعض كالأشاعرة: إذا كنتم تثبتون له سبحانه الأسماء دون الصفات، أو بعض الصفات دون بعض مع أن كلًّا منهما مِمَّا يشاركه فيه المخلوق، فإن كان مجرد الاشتراك عندكم فِي الاسم أو فِي الصفة موجبًا للتشبيه، فيجب أن تطردوا الباب على وتيرة واحدة فِي النفي، وإن كان غير موجب لذلك؛ فقولوا فيما نفيتم مِمَّا أثبته اللَّه ورسوله نظير قولكم فيما أثبتموه، وإذن فلا مناص من أحد أمرين:

إما ترك المراء والجدل، والتصريح بمذاهب قدماء الطبيعيين من الفلاسفة فِي جحد الصانع والانسلاخ من الإيمان.

أو الانضواء تحت لواء المجسمة -أهل القرآن- والقتال معهم، فهذا أولى من التلاعب بالعقول وبالنصوص، وبِما أجمعت عليه سائر الملل والشرائع من إثبات صفاته وكلامه وعلوه على خلقه ببيان شافٍ ولفظ صريح.

* * *

فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ
وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتَجْسِيمِ ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الأَقْرَانِ
فَمَتَى سَمَحْتَ لَهُمْ بَوَصْفٍ وَاحِدٍ ... حَمَلُوا عَلَيكَ بِحَمْلَةِ الْفُرْسَانِ
فَصُرِعْتَ صَرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللُّحْمَانِ
فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْجَمِيعَ مَخَافَةَ التْـ ... ـتَجْسِيمِ أَنْ صِرْنَا إِلَى الْقُرْآنِ
وَلِذَا خَلَعْنَا رِبْقَةَ الأَدْيَانِ مِنْ ... أَعْنَاقِنَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

الشرح: وإذا كان الغلب لأهل الإثبات لاتساق مذهبهم، ومطابقته للنصوص الصريحة؛ فلابد إذن من إعمال الحيلة للتغلب عليهم، وذلك بأن نسمي النفي والتعطيل: تنْزيهًا، وأن نتخذ من هذا التنْزيه ترسًا محكمًا، وسياجًا قويًا، فنعمد بواسطته إلى نفي جَميع الأسْماء والصفات بطريقة فنية، تتسم بإحكام الصنعة وإجادة البيان حَتَّى يروج كلامنا عند الناس، وعلينا كذلك أن نشنع على أهل الإثبات، وننفر الناس منهم، فنلقبهم

بأهل التجسيم، ثُمَّ نحمل عليهم حملة قوية فِي دفع مذهبهم والتشغيب عليهم فِي كل ما أثبتوه دون أن نبدي لهم ملاينة أو مهادنة، فإننا متَى سمحنا لهم بإثبات وصف واحد؛ حملوا علينا حملة نكراء وألزمونا إما إثبات الكل، أو نفي الكل، فغدونا صرعى فِي الميدان كمن غدا قتيلًا وسط العرين -وهو بيت الأسد- ممزق الأوصال، وهذا هو الذي حدا بنا إلى إنكار جميع المذاهب مخافة الوقوع فِي التجسيم إن صرنا إلى القرآن، وأخذنا بظواهر نصوصه الصريحة، وهذا أيضًا هو الذي دفعنا، أي: دفع أسلافنا إلى خلع ربقة الأديان من أعناقهم فِي غابر القرون والأزمان.

* * *

وَلَنَا مُلُوكٌ قَاوَمُوا الرُّسْلَ الأُلَى	جَاءُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ كَمَانِي
فِي آلِ فِرْعَونٍ وَهَامَانٍ وَقَا	رُونٍ وَنُمْرُودٍ وَجَنْكِيزْ خَانِ
وَلَنَا الأَئِمَّةُ كَالْفَلَاسِفَةِ الأُلَى	لَمْ يَعْبَئُوا أَصْلًا بِذِي الأَدْيَانِ
مِنْهُمْ أَرِسْطُو ثُمَّ شِيعَتُهُ إِلَى	هَذَا الأَوَانِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَانِ
مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْ	قَ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
كَلَّا وَلَا قَالُوا بِأَنَّ إِلَهَنَا	مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
وَلأَجْلِ هَذَا رَدَّ فِرْعَونٌ عَلَى	مُوسَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الإِيمَانِ
إِذْ قَالَ مُوسَى رَبُّنَا مُتَكَلِّمٌ	فَوْقَ السَّمَاءِ وَإِنَّهُ نَادَانِي

الشرح: يتبجح هذا الملحد الزنديق بأسلافه فِي الزندقة والإلحاد، ويعدهم على سبيل الفخر والإغراء بالتأسي بِهم، فيقول: قد كان لنا فيما مضى ملوك عاندوا الرسل، وكذبوهم فيما جاءوا به من إثبات إله فوق العرش متكلم بكلام مسموع، وذلك كفرعون إمام أهل التعطيل والجحد، حيث قال لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

والحق: أن فرعون كان متجاهلًا فقط، يتظاهر بإنكار الصانع مع علمه التام بوجوده كما فِي قوله تعالى حكاية عن موسى ﷺ فِي رده على فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وكان هامان -فيما يروى- وزيرًا لفرعون، وكان من مشايعيه فِي إنكاره وجحده، وهو الذي أمره فرعون أن يبني له صرحًا يبلغ به أسباب السموات، فيطلع إلى إله موسى، وفي ذلك دليل واضح على أن موسى كان قد أخبره أن ربه فِي السماء، وإلا لما عزم على بناء الصرح.

وأما قارون؛ فكان من قوم موسى ﷺ فبغى عليهم، واستطال؛ بسبب ما آتاه اللَّه من الكنوز وخزائن الأموال، حَتَّى حمله ذلك على الكفر باللَّه، وادعاء أن ما عنده من المال إنَّما كسبه بِما يحذقه من علم الكيمياء ونحوه، وليس من فضل اللَّه.

وأما نمرود؛ فكان ملكًا جبارًا فِي أرض كنعان، وهو: ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فأنكر الصانع، وادعى الإلهية كما ادعاها فرعون بعده.

وأما جنكيز خان؛ فهو قائد المغول الطاغية الذي خرج من بلاده يجتاح البلاد الإسلامية، قتلًا ونَهبًا وتخريبًا حَتَّى استولى على بغداد -قصبة الخلافة- سنة ٦٥٦هـ فِي عهد المستعصم، فأحالها خرابًا.

وأما أرسطو؛ فهو الفيلسوف اليوناني المشهور، واضع علم المنطق، وكان تلميذًا لأفلاطون، ولكنه خالفه فِي كثير من المسائل، وكان من رأيه فِي اللَّه ﷻ أنه واحد بسيط، مجرد عن المادة وعلائقها، واجب الوجود، ويقول: إنه لا يعلم إلا ذاته فقط، وعنده أن اللَّه ليس خالقًا للعالم، ولكنه محرك له فقط، ولا يعني بذلك أن اللَّه دفع العالم فتحرك، ولكن لما كان اللَّه صورة محضة، غاية فِي الكمال والجمال، وكانت المادة أو العالم المادي فِي غاية النقص؛ فهو يتحرك بدافع الشوق إلى المبدأ الأول، محاولًا التشبه به قدر الاستطاعة.

وأما شيعة أرسطو؛ فيعني بِهم الذين ذهبوا فِي القول بتجرد الباري سبحانه من النعوت والأوصاف المادية، وذلك كالفارابي وابن سينا وابن رشد الأندلسي وغيرهم من متفلسفة المسلمين، ولذلك قال المؤلف: «ما فيهم من قال: إن اللَّه فوق العرش خارج هذه الأكوان» لأن ذلك ينافي التجريد عندهم، ولا فيهم من قال: «إن إلهنا متكلم بالوحي والقرآن»؛ لأن الكلام أيضًا بالحرف والصوت من شأن الماديات، ومن أجل اعتقادهم فِي أن الإله لا ينبغي أن يتصف بخصائص الأجسام، أنكر فرعون على موسى قوله: إن ربه فوق العالم، وأنه يتكلم بكلام يسمع بالآذان، وأنه متدان -يعني: قريب- ويجيب من ناداه، وهو محيط بخلقه علمًا وقدرة وسمعًا ورؤية كما قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

* * *

وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يكُنْ مِنْكُمْ وَلَا أَتْبَاعُهُ بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ
وَكَذَلِكَ الطُّوسِي لَمَّا أَنْ غَدَا ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يخْشَ مِنْ سُلْطَانِ
قَتَلَ الْخَلِيفَةَ وَالْقُضَاةَ وَحَامِلِي الْـ قُرْآنِ وَالْفُقَهَاءَ فِي الْبُلْدَانِ
إِذْ هُمْ مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ وَمَا دَانُوا بِدِينِ أَكَابِرِ الْيونَانِ
وَلَنَا الْمَلَاحِدَةُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ التْـ تَعْطِيلِ وَالتَّسْكِينِ آلُ سِنَانِ
وَلَنَا تَصَانِيفُ بِهَا غَالَبْتُهُمْ مِثْلَ الشِّفَا وَرَسَائِلِ الإِخْوَانِ
وَكَذَا الإِشَارَاتُ الَّتِي هِي عِنْدَكُمْ قَدْ ضُمِّنَتْ لِقَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ

الشرح: وكذلك ابن سينا؛ وهو الفيلسوف الإسلامي المشهور، مؤلف كتاب الشفاء فِي الفلسفة، والقانون فِي الطب، والإشارات، وغيرها فِي المباحث العقلية -لَم يكن منكم يا معشر أهل الإثبات، ولا أتباعه فِي فلسفته كذلك، ولكنهم كانوا يصانعونكم بالمداهنة والحيلة حَتَّى لا ينكشف أمرهم، ولا تعرف زندقتهم، فابن سينا كان يتظاهر أمام العامة بأنه يريد أن يخدم الدين من طريق التوفيق بينه وبين الفلسفة اليونانية مع أنه فِي قرارة نفسه لا يحمل للدين أي قدسية، وكل عنايته فِي كتبه إنَّما كانت بتقرير نظريات أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان.

وكذلك الخوجة نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢؛ كان من شيعة ابن سينا فِي الزندقة والتعطيل، وكتبه ومؤلفاته مثل: المحاكمات وشرح المحصل وشرح الإشارات شاهدة بزندقته وإلحاده، وكان شديد البغض والكراهية لأهل السنة والجماعة، وكان يضمر للدولة الإسلامية العداء والشر حَتَّى يقال: إنه هو الذي أغرى قائد التتر بغزو البلاد الإسلامية، وكان مساعدًا له فِي ذلك.

وهذا معنَى قول المؤلف: «لما أن غدا ذا قدرة لَم يخش من سلطان. قتل الخليفة» يعني: الخليفة العباسي المستعصم، آخر خلفاء العباسيين ببغداد، وقتل القضاة وحاملي القرآن والفقهاء فِي البلدان، وما نقم هذا الملحد من هؤلاء إلا أنَّهم فِي نظره مشبهة مجسمة، ولا يدينون مثله بدين اليونان فِي المروق والإلحاد.

وممن ينتسب إلى جماعتنا كذلك؛ فحول الملاحدة من آل سنان، وهي أسرة قوية من أهل فارس، كانت تحكم فِي خراسان، وفي كنفها تَربَّى ابن سينا، وعلى كتبهم تخرج، وكانت لهم مكتبات حافلة بشتى المؤلفات فِي جَميع فروع العلم، ولاسيما علوم الفرس

واليونان، ولنا كذلك المصنفات الَّتِي يغالي بِها أهل البحث، ويعتمدون عليها فِي بحوثهم ودراساتِهم مثل الشفاء، وهو كتاب لابن سينا، يعتبر أهم كتبه كلها؛ لما حواه من أبحاث فِي المنطق والفلسفة، ومثل رسائل الإخوان، وهي رسائل ألفتها جماعة تسمت باسم «إخوان الصفا وخلان الوفا» وتزعم أن رائدها فِي تأليف هذه الرسائل: هو رفع الخلاف بين المذاهب والأديان والتأليف بينها فِي وحدة متسقة حَتَّى يعيش الناس جميعًا فِي ظلال وحدة إنسانية شاملة، ولذلك جاءت رسائلهم خليطًا متنافرًا من شتى العقائد، فهم يمزجون الإسلام باليهودية والنصرانية والزرادشتية والمانوية والأفلاطونية الحديثة... إلخ.

ومن يقرأ هذه الرسائل، ويقف على مدى ما فيها من خلط وتناقض؛ لا يشك فِي سوء اعتقاد هذه الجماعة، وما تَهدف إليه من كيد للإسلام، وانخلاع من ربقة الدين، وتحلل من قيوده.

ولنا كذلك الإشارات، وهو كتاب لابن سينا، يعتبر من أهم كتبه الفلسفية، وقد قام بشرحه الخوجة نصير الدين الطوسي الذي تقدم ذكره.

* * *

قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ مِمَّا جَاءَ فِي التْـ	ـتَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ
هِي عِنْدَكُمْ مِثْلُ النُّصُوصِ وَفَوْقَهَا	فِي حُجَّةٍ قَطْعِيَّةٍ وَبَيَانِ
وَإِذَا تَحَاكَمْنَا فَإِنَّ إِلَيهِمُ	يَقَعُ التَّحَاكُمَ لَا إِلَى الْقُرْآنِ
إِذْ قَدْ تُسَاعِدُنَا بِأَنَّ نُصُوصَهُ	لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ
فَلِذَاكَ حَكَّمْنَا عَلَيهِ وَأَنْتُمُ	قَوْلَ الْمُعَلِّمِ أَوَّلًا وَالثَّانِي

الشرح: يعني: أن الإشارات قد صرحت بضد ما جاء فِي كتب اللَّه الثلاثة؛ وذلك لأن مؤلفها نَهج بِها نَهجًا فلسفيًّا تجريديًّا، فنفى عن اللَّه القدرة والاختيار والإرادة، وقال: إنه لا يعلم إلا ذاته، وإنه يعلم الأشياء على وجه كلي. ونفى حكمة اللَّه، وقال: إنه لا يفعل لحكمة يحبها ويرضاها. وقال: إن اللَّه علة فقط للعالم، وأن العالم صدر عنه بطريق الإيجاب لا بطريق الاختيار والمشيئة إلى غير ذلك مِمَّا ضمنه كتابه من زندقة وضلال.

ومن العجيب: أن هؤلاء الملاحدة أشياع هذا الفيلسوف يقدسون هذه الإشارات، ويجعلونَها فِي مرتبة النصوص القرآنية، بل فوقها فِي إفادة الحجج القاطعة الَّتِي يسمونَها البراهين، وإذا تحاكموا فِي مسألة من المسائل الإلهية، فإنَّما يرجعون إليها ويحكمونَها

دون كتاب اللَّه ﷻ، لأنَّهم زعموا -وبئس ما زعموا- أن نصوص القرآن لفظية، ودلالة الألفاظ عندهم ظنية، فنصوص القرآن عندهم بمعزل عن إفادة اليقين؛ ولهذا نراهم لا يأخذون عقائدهم من القرآن، ولا يعتمدون على أدلته فِي إثبات العقائد؛ لأن المطلوب فِي العقائد هو الجزم واليقين، وأدلة القرآن عندهم خطابية لا تنتج اليقين، وإنَّما قصاراها أنَّها تفيد الإقناع والتأثير، فهي لا تفيد إلا غلبة الظن، وذلك غير كاف فِي الاعتقاد، ومن أجل هذا؛ أتعبوا أنفسهم فِي تركيب الأدلة العقلية المثبتة للعقائد الإيمانية، وما هي فِي الواقع إلا ترهات وأباطيل إلا ما يرجع منها إلى أدلة القرآن البينة الواضحة، وليت شعري ماذا يقول هؤلاء فِي السلف الأولين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدى والدين الذين ماتوا قبل أن يعرفوا هذه الأدلة الَّتِي يعول عليها هؤلاء، ويجعلونَها الطريق الوحيد إلى الإيمان واليقين؟ هل كانوا فِي نظر هؤلاء الملاحدة كفارًا أو مؤمنين؟

ومن أعجب العجب: أن تتفق كلمة المتكلمين جميعًا من معتزلة وأشعرية وغيرهما على هذه القاعدة الجائرة، وأن يجاروا فيها ملاحدة المتفلسفة، فيؤخروا كتاب اللَّه عن قضايا عقولهم، ويعزلوا كتاب اللَّه عن أن يكون هدى وبيانًا وشفاء كما وصفه اللَّه حيث يقول: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وحيث يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]. وحيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. إلخ ذلك من الآيات.

* * *

يَا وَيحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالأُلَى ... قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الْخُورَانِ
بَقِيتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ ... نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الأَرْكَانِ
ينْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ لَا ... يلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ
وَيقُولُ إِنَّ اللهَ يسْمَعُ أَوْ يرَى ... وَكَذَاكَ يعْلَمُ سِرَّ كُلِّ جَنَانِ
وَيقُولُ إِنَّ الله قَدْ شَاءَ الَّذِي ... هُوَ كَائِنٌ مِنْ هَذِهِ الأَكْوَانِ
وَيقُولُ إِنَّ الْفِعْلَ مَقْدُورٌ لَهُ ... وَالْكُوْنَ ينْسِبُهُ إِلَى الْحِدْثَانِ
وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يصْرُخُ فِي الْوَرَى ... وَاللهِ مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ
لَكِنَّنَا قُلْنَا مُحَالٌ كُلُّ ذَا ... حَذَرًا من التَّجْسِيمِ وَالإِمْكَان

الشرح: يتحسر هذا الملحد على اثنين من أسلافه: وهما الجهم بن صفوان والجعد ابن درهم ومن ذهب مذهبهما، حيث منعهم الجبن والخور من التصريح بالنفي والإنكار، فبقيت فيهم بقية من تشبيه أتت على مذهبهم من القواعد، فهم ينفون الصفات مخافة التجسيم دون أن يكترثوا لما جاء من النصوص فِي الكتاب والسنة بإثباتِها، ثُمَّ هم مع ذلك يثبتون له السمع والرؤية والعلم بِما تخفيه الصدور، وتسره القلوب، ويثبتون له كذلك المشيئة العامة والقدرة الشاملة، فلا يخرج كائن عندهم عن مشيئته، ولا يحدث إلا بقدرته، ويقولون: إن الفعل مقدور له، وأن العالم بجميع أجزائه حادث بعد عدم، وأن اللَّه أوجده بمشيئته وقدرته. فكيف يتفق هذا الإثبات مع تصريحهم بنفي التجسيم؟! واللَّه ما هذان متفقان.

ولكنا نحن لَم نتردد كما تردد جهم، ولَم نجبن عن التصريح بالنفي الشامل، فلم نثبت لا سمعًا ولا بصرًا، ولا علمًا ولا كلامًا، ولا مشيئة ولا قدرة على الفعل، ولا قلنا بحدوث العالم عن مشيئته وقدرته، بل قلنا: إن كل ذلك محال؛ حذرًا من الوقوع فِي التجسيم والإمكان.

فصل

وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

مِنْ أَرْضِ طَيبَةَ مِنْ مُهَاجِرِ أَحْمَدٍ ... بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الإِلَهِ فَدَلَّنِي الْـ ... ـهَادِي عَلَيْهِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

مَعَ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْقِلِي بِبَيَانِ

فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَالْمَعْقُولُ فِي إِيمَانِي

شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

وَهُوَ الإِلَهُ الْحَقُّ لَا مَعْبُودَ إِلْـ ... ـلَا وَجْهُهُ الأَعْلَى الْعَظِيمُ الشَّانِ

بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ... مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْحَضِيضِ الدَّانِي

الشرح: بعد أن ذكر المؤلف طوائف أهل الضلال الذين سافروا فِي طلب الحق -جل شأنه- فعميت عليهم السبل، وضلت بِهم المسالك؛ لأنَّهم لَم يطلبوه من مصادره، ولَم يسلكوا إليه النهج الواضح، بل رجعوا فِي ذلك إلى خيالات فاسدة وأوهام كاذبة؛ أخذ فِي

بيان فريق الحق، أهل السنة والجماعة، فذكر أن هذا الفريق حين قدم من سفره، وعرض بضاعته، قال: إني قد جئتكم من مطلع الإيمان -أي: مكان طلوعه وظهوره، وهي أرض طيبة، دار الهجرة بالحق الصريح والبرهان الجلي والتبيان الواضح، وكنت قد سافرت إليها فِي طلب العلم باللَّه -جل شأنه- فدلني عليه أربعة أشياء، كلها عليه دوال، ولا يؤخذ العلم به إلا من طريقها:

الأول: نبيه الذي أرسله بالهدى ودين الحق، والمراد سنته الصحيحة.

والثاني: محكم القرآن، وهي آياته البينات الواضحة الدلالة على معانيها بلا احتمال ولا اشتباه.

والثالث: فطرة اللَّه الَّتِي فطر الناس عليها من الإقرار بوجوده ووحدانيته واتصافه بجميع الكمالات.

والرابع: العقل الصريح الخالي من شوائب الجهل والتقليد والتعصب والجمود.

هذه المصادر الأربعة: من الوحي الصريح بنوعيه، والفطرة، والمعقول، قد توافقوا وتواطئوا على الشهادة بأن اللَّه -جل شأنه- متفرد بربوبيته، فهو الملك الذي لا شريك له فِي ملكه، وهو ذو السلطان القاهر فوق خلقه، وهو كذلك متوحد فِي إلهيته، فهو الإله الحق الذي لا ينبغي أن يعبد إلا وجهه الأعلى ذو الجلال والإكرام، وكل معبود سواه فهو باطل فِي السماء أو فِي الأرض، من العرش الأعلى إلى الحضيض الأسفل.

* * *

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَدَارُهُ بِالأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيطَانِ

فِقِيَامُ دِينِ اللهِ بِالإِخْلَاصِ وَالْـ ... إِحْسَانِ أَنَّهُمَا لَهُ أَصْلَانِ

لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الإِلَهِ وَنَارِهِ ... إِلَّا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَصْلَانِ

وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الْوَصْفَانِ

وَاللهُ لَا يَرْضَى بِكَثْرَةِ فِعْلِنَا ... لَكِنْ بِأَحْسَنِهِ مَعَ الإِيمَانِ

فَالْعَارِفُونَ مُرَادُهُمْ إِحْسَانُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الإِحْسَانِ

الشرح: بعد أن بين أن العبادة لا تنبغي إلا لله، وأنَّها خالص حقه على عباده كما جاء فِي حديث معاذ: «**حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**». ذكر أن للعبادة ركنين أساسيين، هما لَها كقطبي الرحا، فعليهما يدور فلكها، وبِهما ينتظم أمرها: وهما كمال المحبة، وكمال الذل، فلا تتم عبودية أحد حَتَّى يكمل فيه هذان الأمران: محبة اللَّه، تملأ شعاب قلبه ومسالك وجدانه ويورثها مشاهدة فضله وامتنانه، وذل يحمله على الانكسار والخضوع لهيبته وسلطانه، ويورثه مطالعة عيوب النفس وجنوحها إلى مخالفته وعصيانه.

ثُمَّ مدار العبادة بعد هذا على الأوامر الشرعية المتلقاة عن رسول اللَّه ﷺ، فإن اللَّه ﷻ لا يعبد إلا بِما شرع هو، لا بِما يسوق إليه الهوى أو تزينه النفس والشيطان، كما يفعله المبتدعة والضلال من أهل التصوف الذين يشرعون لأنفسهم، ولأتباعهم من العامة من الأوراد، والأذكار وألوان السلوك فِي المطعم والملبس وغيرهما من شئون الحياة ما لَم يأذن به اللَّه.

والحاصل: أن العبادة لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا إذا توافر لَها شرطان: الإخلاص والمتابعة لرسول اللَّه ﷺ فلا منجاة لأحد من غضب اللَّه وناره إلا إذا قامت عبادته على هذين الأصلين: إخلاص بريء من سائر ألوان الشرك من الرياء وغيره، وموافقة للسنة بلا ابتداع، والناس بعد هذا فإما مشرك، لا يخلص العبادة للَّه، وإما ذو بدعة، لا يتوخى فِي عبادته إصابة السنة، وإما جامع للوصفين معًا، وليست العبرة بكثرة العبادة والانْهماك فيها، ولكن بتوخي الإحسان مع ابتنائها على الإيمان الصحيح، وهذا هو ما يطلبه أهل المعرفة، ويجدُّون فيه، وأما أهل الجهل والحماقة؛ فهم بمعزل عن طلب الإحسان.

* * *

وَكَذَاكَ قَدْ شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ ذُو ... سَمْعٍ وَذُو بَصَرٍ هُمَا صِفَتَانِ

وَهْوَ الْعَلِي يرَى وَيسْمَعُ خَلْقَهُ ... مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ سِتِّ ثَمَانِ

فَيرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

وَضَجِيجُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ بِسَمْعِهِ ... وَلَدَيهِ لَا يتَشَابَهُ الصَّوْتَانِ

وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يوَسْوِسُ عَبْدُهُ ... فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيرِ نُطْقِ لِسَانِ

بَلْ يسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ ... قَاصِي وَذُو الإِسْرَارِ وَالإِعْلَانِ

وَهْوَ الْعَلِيمُ بِمَا يكُونَ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومُ فِي ذَا الآنِ
وَبِكُلِّ شَيءٍ لَمْ يكُنْ لَوْ كَانَ كَيـ ... ـفَ يكُونُ مَوْجُودًا لِذِي الأَعْيَانِ

الشرح : يعتقد أهل السنة والجماعة : بأن اللَّه سميع يسمع ، هو صفة له قائمة بذاته ، وأنه كذلك بصير ببصر زائد على ذاته ، فالسمع والبصر صفتان ثابتتان له سبحانه ، لا كما تزعم الجهمية نفاة الأسماء من كونه ليس سميعًا ولا بصيرًا ، ولا كما تزعم المعتزلة من كونه سميعًا بذاته لا يسمع ، وبصيرًا بذاته لا يبصر ، فإن نفى الأسماء تكذيب بصريح القرآن ، وهو كفر ، وإثبات الموصوف بدون الصفة أو ادعاء أن الصفة عين الموصوف : سفسطة .

ويعتقد أهل السنة كذلك : أن سمع اللَّه يتعلق بكل مسموع ، مهما دق وخفت ، وأن بصره يتعلق بكل مرئي ، مهما لطف ، لا يؤثر فيهما بُعد مسافة ، ولا يمنعهما حُجُب وأستار ، فهو سبحانه مع كونه فوق عرشه عاليًا على خلقه يرى أصغر مخلوقاته وهي النملة ، ويسمع دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى تحرك أجفان خلقه في إغماضها وفتحها ، ويسمع كذلك ضجيج أصوات عباده ، ويميز بينها فلا تتشابه الأصوات عنده ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يشغله شأن عن شأن .

ويعتقدون : أن اللَّه عليم بعلم كما قال تعالى : ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[النساء: ١٦٦] . وكما قال : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة: ٢٥٥] . وأن علمه متعلق بكل ما من شأنه أن يعلم ، لا يعزب عنه من ذلك شيء ، فهو يعلم ما يحدث به المرء نفسه ، وما يرد على خاطره من الهواجس وإن لَم يحرك به لسانه ، ويستوي في علمه ما قرب وما بعد ، وما أسر وما أعلن كما قال تعالى : ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ١٠] . بل يستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل ، فهو يعلم ما سيكون مستقبلًا ، كما يعلم ما قد كان في الماضي ، وكما يعلم ما هو كائن الآن ، فالأشياء كلها حاضرة لديه ، وهو يعلم الكيفيات الَّتِي ستكون عليها الأشياء قبل وجودها ، فيعلم ما لَم يوجد من الأشياء لو وجد فعلى أي كيفية يكون وجوده في عالم الأعيان .

* * *

وَهْوَ الْقَدِيرُ فَكُلُّ شَيءٍ فَهْوَ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ طَوْعًا بِلَا عِصْيَانِ
وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... هُوَ خَالِقُ الأَفْعَالِ لِلْحَيَوَانِ
هِي خَلْقُهُ حَقًّا وَأَفْعَالٌ لَهُمْ ... حَقًّا وَلَا يَتَنَاقَضُ الأَمْرَانِ

لِكِنَّ أَهْلَ الْجَبْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْـ ... أَقْدَارِ مَا انْفَتَحَتْ لَهُمْ عَيْنَانِ
نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ إِذْ فَاتَهُمْ ... نَظَرُ الْبَصِيرِ وَغَارَتِ الْعَيْنَانِ
فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّذِي حَارَ الْوَرَى ... فِي شَأْنِهِ هُوَ قُدْرَةُ الرَّحْمَنِ
وَاسْتَحْسَنَ ابْنُ عَقِيلٍ ذَا منْ أَحْمَدٍ ... لَمَّا حَكَاهُ عِنِ الرِّضَا الرَّبَّانِي
قَالَ الإِمَامُ شَفَا الْقُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ... ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيَ ذَاتُ بَيَان

الشرح: ويعتقد أهل السنة والجماعة: أن اللَّه قدير بقدرة، وأن قدرته عامة تتعلق بجميع الممكنات إيجادًا وإعدامًا، فلا يخرج شيء منها عن نطاق قدرته، ومهما أراد شيئًا فإنَّما يقول له: كن فيكون، دون معاندة أو إباء، وعموم قدرته سبحانه لكل شيء من الأعيان والصفات والأفعال يرد على القدرية فِي قولهم: إن الحيوان يخلق أفعال نفسه، وأنَّها ليست مخلوقة للَّه.

والحق الذي عليه أهل السنة: أن أفعال الحيوانات تنسب إلى اللَّه ﷻ على أنه خالقها وموجدها كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وتنسب إليها على أنَّها أفعال لَها صادرة عن قدرها وإرادتِها الحادثة، ولا تنافي بين الأمرين، فإن معنَى كونِها مخلوقة للَّه: أن اللَّه خلق جَميع الأسباب الَّتِي وجدت بِها مثل القدر والإرادات والحواس والآلات والمواد الخارجية الَّتِي تقع عليها الأفعال.

ومعنى كونِها أفعالًا للعباد: أنَّهم هم الذين باشروها بقدرهم وإراداتِهم مباشرة تجوز اتصافهم بِها على الحقيقة، فيقال: صلى وصام، وزنى وسرق.

هذا هو مذهب الأمة الوسط الذي يجمع بين الآيات الدالة على عموم خلقه سبحانه مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]. وبين الآيات الدالة على نسبة الأفعال إلى العباد، وهي كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. الآية، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

ولكن أهل الجبر الذين ينفون عن العبد القدرة على الفعل، ولا يسمونه فاعلًا إلا على جهة المجاز، والقدرية الذين يزعمون أن العبد مستقل بخلق أفعاله دون أن تتعلق بِها قدرة اللَّه ومشيئته -نظروا إلى المسألة بعين أعور حين أخذ كل منهم بجانب من الحق دون جانب:

فالمجبرة: غلبوا عموم القدرة والمشيئة، فلم يجعلوا للعبد فعلًا، ولا جعلوه مسئولًا عما يصدر منه، إذ لا يسأل عما ليس من فعله.

والقدرية: غلبوا جانب التكليف والأمر والنهي فخصصوا في القدر والمشيئة، وعزلوا أفعال العباد عن الدخول تحتهما؛ تحقيقًا لمسئولية العبد؛ وتصحيحًا للتكليف.

وهكذا نظرت كل من الطائفتين نظرًا قاصرًا، فلم يؤمنوا بالكتاب كله، الدال على إثبات عموم قضاء اللَّه وقدره ومشيئته، وعلى أن أفعال العباد واقعة منهم بقدرتهم ومشيئتهم، فلو وفقوا لذلك كما وفق له أهل السنة والجماعة؛ لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «القدر هو قدرة اللَّه» واستحسن ابن عقيل هذه الكلمة من الإمام أحمد، وقال: «إنه شفى بهذه الكلمة ووفى».

فصل

وَلَهُ الْحَيَاةُ كَمَالُهَا فَلأَجْلِ ذَا ... مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَكَذَلِكَ الْقَيومُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... مَا لِلْمَنَام لَديهِ مِنْ غشَيَانِ

وَكَذَاكَ أَوْصَافُ الْكَمَالِ جَمِيعُهَا ... ثَبَتَتْ لَهُ وَمَدَارُهَا الْوَصْفَانِ

فَمُصَحِّحُ الأَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ وَالْـ ... أَسْمَاءِ حَقًّا ذَانِكَ الْوَصْفَانِ

وَلأَجْلِ ذَا جَاءَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ ... فِي آيَةِ الْكُرْسِي وَذِي عِمْرَانِ

اسْمُ الإِلَهِ الأَعْظَمُ اشْتَمَلا عَلَى اسْـ ... ـمِ الْحَي وَالْقَيوم مُقْتَرِنَانِ

فَالْكُلُّ مَرْجِعُهَا إِلَى الإِسْمَينِ يدْ ... رِي ذَاكَ ذُو بَصَرٍ بِهَذَا الشَّانِ

الشرح: ويعتقد أهل السنة والجماعة: أن اللَّه حي قيوم، وأن حياته أكمل حياة؛ لأنَّها ذاتية له، لَم يستفدها من غيره، بل هو واهب الحياة ومفيدها؛ ولذلك كانت حياته أزلية أبدية، لا يُمكن أن يلحقها موت أو فناء، وأن قيوميته كذلك شاملة كاملة، فهو قائم بنفسه، غني عن غيره، وكل شيء قائم به، فقير إليه، ومن أجل تمام قيوميته لا يُمكن أن تأخذه سنة ولا نوم، وعلى هذين الوصفين -أعني: الحياة والقيومية- تدور جَميع أوصاف الكمال الثابتة له سبحانه.

فالحياة: تصحح اتصافه بصفات الكمال فِي الذات: من العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، وغيرها من الصفات الَّتِي لا تكمل الحياة بدونِها، والقيومية: تصحح اتصافه

بصفات الكمال فِي الفعل: من الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة... إلخ.

ولأجل هذا ورد هذان الاسمان الكريمان مقترنين فِي ثلاث مواضع من كتاب اللَّه ﷻ، وورد فِي الحديث ما يدل على أنَّهما اسم اللَّه الأعظم، حيث أجاب النَّبِي ﷺ من سأله عنه بأنه فِي آية الكرسي وأول آل عمران؛ لأنَّهما اشتملا على هذين الاسمين مقترنين، ففي آية الكرسي -الَّتِي هي أعظم آية فِي كتاب اللَّه -يقول اللَّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وفي أول آل عمران يقول: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

ومن هنا يعلم أن على هذين الاسمين مدار الأسْماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها، فإن حياته إذا كانت أكمل حياة وأتمها؛ استلزم إثباتُها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة.

وأما القيوم: فإنه متضمن كمال غناه، وكمال قدرته، فإنه القيوم بنفسه، الذي لا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، ولا قيام لغيره إلا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان الكريمان صفات الكمال أتم انتظام، يعرف ذلك أهل البصر بِهذه الشئون الإلهية العالية، وأهل العلم بأسْماء اللَّه وصفاته.

* * *

وَلَـهُ الإِرَادَةُ وَالْـكَـرَاهَـةُ وَالـرِّضَـا ... وَلَـهُ الْـمَـحَـبَّـةُ وَهْـوَ ذُو الإِحْـسَـانِ

وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ ... ـتَـشْـبِـيـهِ وَالـتَّـمْـثِـيـلِ بَـالإِنْـسَـانِ

وَكَمَالُ مَنْ أَعْطَى الْكَمَالَ لِنَفْسِهِ ... أَوْلَـى وَأَقْـدَمُ وَهْـوَ أَعْـظَـمُ شَـانِ

أَيكُونُ قَدْ أَعْطَى الْكَمَالَ وَمَا لَهُ ... ذَاكَ الْـكَـمَـالُ أَذَاكَ ذُو إِمْـكَـانِ

أَيـكُـونُ إِنْـسَـانٌ سَـمِـيـعًـا مُـبْـصِـرًا ... مُـتَـكَـلِّـمًـا بِـمَـشِـيـئَـةٍ وَبَـيَـانِ

وَلَـهُ الْـحَـيَـاةُ وَقُـدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ ... وَالْـعِـلْـمُ بِـالْـكُـلِّـيِّ وَالأَعْـيَـانِ

وَالـلـهُ قَـدْ أَعْـطَـاهُ ذَاكَ وَلَـيْـسَ هَـ ... ـذَا وَصْـفَـهُ فَـاعْـجَـبْ مِـنَ الْـبُـهْـتَـانِ

الشرح: **ويعتقد أهل السنة والجماعة**: أن اللَّه متصف بالإرادة: وهي صفة تخصص الفعل بأحد وجوهه الممكنة، فاللَّه ﷻ يخص بإرادته كل مخلوق بِما يشاء من الصفات المتباينة المتقابلة من مثل: السواد والبياض، والطول والعرض، واللطافة والكثافة، والصلابة والليونة... إلخ. وضدها الكره: وهو مستحيل على اللَّه؛ إذ لا مكره له، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]. ونفى الفلاسفة

والمعتزلة صفة الإرادة عن الله ﷻ أما الفلاسفة، فنفوا عنه القصد إلى الفعل، وقالوا: إن الفاعل بالقصد مستكمل، وإن الإرادة تغير وانفعال وميل إلى الملائم، وهو نقص يستحيل على الله، ولهذا قالوا: إن العالم صدر عنه بطريق الإيجاب والتعليل، لا بطريق القدرة والاختيار.

وأما المعتزلة؛ فبعد أن اتفقوا على نفي الإرادة فاختلفت عباراتِهم فِي ذلك، فمنهم من ذهب إلى أن معنَى الإرادة: أنه لا مكره له، فهي ترجع إلى معنَى سلبي، ومنهم من قال: إنه مريد بإرادة حادثة، لا فِي محل... إلخ. وكلا المذهبين مخالف للنصوص الصريحة الدالة على ثبوت المشيئة والإرادة ونفوذها فِي جَميع الموجودات.

ويعتقد أهل السنة كذلك: أنه سبحانه متصف بصفة الكراهة الَّتِي هي ضد المحبة، فهو يكره الكفر والفسوق وأهلهما، والدليل على ثبوتِها له: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. وقوله ﷺ: «**وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**». وأنه متصف بصفة الرضا، فهو رضي عن المؤمنين وعن أفعالهم كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وضدها وهو السخط صفة له كذلك كما قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠]. وأنه متصف بصفة المحبة، فهو يحب الصالحين من عباده المتقين المحسنين، ويحب الأعمال الصالحة، وينبغي أن يعلم أن إراداته ومشيئته غير كراهته ومحبته، فالإرادة عامة لكل ما وجد من محبوب ومكروه، والمحبة والكراهة خاصتان.

ويعتقد أهل السنة كذلك: أن الله له الرحمة الواسعة، والإحسان العظيم الذي عم جَميع المخلوقات، وأن له الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، فلا يُمكن أن يقاربه أو يماثله فِي كماله أحد، والدليل على ثبوت صفات الكمال له سبحانه: أنه هو واهب الكمال ومعطيه للمخلوق، فيكون هو أولى بذلك الكمال من غيره، ويكون أقدم بالاتصاف به من غيره، ويكون الكمال الثابت له أعظم من الكمال الموجود فِي المخلوق، إذ لا يعقل أن يكون هو معطي الكمال ويكون فاقدًا له، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، فإذا كان هو سبحانه الذي خلق الإنسان، وجعله سميعًا بصيرًا، متكلمًا بمشيئته واختياره، حيًّا قادرًا مريدًا عالِمًا بحقائق الأشياء وماهياتِها الكلية وأعيانِها الخارجية الجزئية، وكانت هذه كلها صفات كمال فِي الإنسان، فلابد أن تكون ثابتة له سبحانه على نحو أتم وأكمل مِمَّا هي فِي الإنسان وأما خلوه عن هذه الصفات والكمالات الَّتِي هو واهبها ومفيدها؛ فهذا من أعظم

الزور والبهتان.

والحاصل: أن كل كمال فِي المخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق -جل وعلا- فهو أحق به وأولى، كما أن كل نقص فِي المخلوق فالخالق أولى بتنزهه عنه.

بِخِلَافِ نَوْمِ الْعَبْدِ ثُمَّ جِمَاعِهِ ... وَالأَكْلِ مِنْهُ وَحَاجَةِ الأَبْدَانِ
إِذْ تِلْكَ مَلْزُومَاتُ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْ ... تَاجًا وَتِلْكَ لَوَازِمُ النُّقْصَانِ
وَكَذَا لَوَازِمُ كَوْنِهِ جَسَدًا نَعَمْ ... وَلَوَازِمُ الأَحْدَاثِ وَالإِمْكَانِ
يَتَقَدَّسُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ ... عَنْهَا وعَنْ أَعْضَاءِ ذِي جُثْمَانِ

الشرح: يعني: أن الثابت للَّه ﷻ من الكمالات ما لا يستلزم نقصًا بوجه من الوجوه، بخلاف ما يكون من لوازم البشرية وضرورات الجسد، وما يكون من مقتضيات الحدوث والإمكان مثل نوم العبد، فإنه فتور يعتري جسم الحي، فيتطلب الراحة من أجل استعادة نشاطه فِي القيام بوظائفه، ومثل الجماع، فإنه ضرورة يريد بِها الحي التخلص من بعض الفضلات الَّتِي تؤذيه لو بقيت كالبول والتغوط، وهو أيضًا يحتاجه من أجل الولد الذي يعتبر كمالًا فِي حقه، ومثل الأكل والشرب، فإن الحي يحتاجهما من أجل بقاء حياته وتجديد ما تَهدم من أجزائه، وإذا علم أن هذه الأشياء تستلزم نقصًا واحتياجًا، وتقتضي حدوثًا وإمكانًا؛ فاللَّه ﷻ يتقدس عنها، كما يتقدس عن كونه جسمًا له أعضاء وجوارح كما يصفه بذلك المشبهة مثل داود الجواربي وأمثاله تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا، ولكن ينبغي ألَّا يتخذ نفي الأعضاء والجوارح ذريعة إلى نفي الصفات الثابتة للَّه ﷻ بالأدلة القطعية: من الوجه واليد والعين والقدم وغيرها.

* * *

وَاللَّهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ
صِدْقًا وَعَدْلًا أُحْكِمَتْ كَلِمَاتُهُ ... طَلَبًا وَإِخْبَارًا بِلَا نُقْصَانِ
وَرَسُولُهُ قَدْ عَاذَ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ ... لَدْغٍ وَمِنْ عَيْنٍ وَمِنْ شَيْطَانِ
أَيُعَاذُ بِالْمَخْلُوقِ حَاشَاهُ مِنَ الْـ ... إِشْرَاكِ وَهْوَ مُعَلِّمُ الإِيمَانِ
بَلْ عَاذَ بِالْكَلِمَاتِ وَهْيَ صِفَاتُهُ ... سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ مِنَ الأَكْوَانِ
وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ عَيْنُ كَلَامِهِ الْـ ... مَسْمُوعِ مِنْهُ حَقِيقَةٌ بِبَيَانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى مَا هُمَا خَلْقَانِ
تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَقَوْلُهُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى بِلَا رَوَغَانِ

الشرح: هذا بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في صفة كلام الرب -جل شأنه- فاللَّه عندهم لَم يزل متكلمًا؛ لأن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم من المخلوقين أكمل مِمَّن لا يتكلم، واللَّه لَم يزل ولايزال متصفًا بصفات الكمال كلها، ومنها الكلام، والكلام من صفات الأفعال التابعة لمشيئته وإراداته، فهو يتكلم متَى شاء، وكيف شاء، فهو من الأفعال الاختيارية التابعة لمشيئته وحكمته.

وهو سبحانه يتكلم بحروف وأصوات، يسمعها من يكلمه كما كلم موسى عليه السلام عند مجيئه للميقات، وناداه من جانب الطور الأيمن، وقربه نجيًّا، وكما يكلم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويسلم عليهم، ويبشرهم برحمة منه ورضوان، وقد تمت كلماته سبحانه وأحكمت، صدقًا في إخباره وعدلًا في أحكامه، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم.

والدليل على أن الكلام المسموع المتلو صفة للَّه غير مخلوق: أن الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه وآله- استعاذ بكلمات اللَّه من شر ما خلق، ومعلوم أنه لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق، بل لا يستعاذ إلا بأسمائه تعالى وصفاته، والقرآن كذلك عين كلامه المسموع منه على الحقيقة، فقد تكلم اللَّه به بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه، وسمعه منه جبريل عليه السلام، وبلغه إلى رسول اللَّه ﷺ كما سمعه، وهو كله قول اللَّه وكلامه غير مخلوق، لا فرق بين لفظه ومعناه، خلافًا لمن زعم أن المعنى قديم، يرجع إلى صفة قديمة، وأن اللفظ حادث مخلوق، فالقرآن كله تنْزيل رب العالمين وقوله.

ولا شك أن المنْزل هو كلام اللَّه، وليس هو ألفاظًا فقط دون معانٍ، ولا هو معان بلا ألفاظ بل هو ألفاظ دالة على معانيها، فهو كلام اللَّه المنَزل من عنده بألفاظه ومعانيه، فتخصيص المعنى دون اللفظ بالقدم وكونه غير مخلوق؛ روغان عن الحق ومكابرة للدليل.

* * *

لَكِنَّ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَفِعْلَهُمْ كَمِدَادِهِمْ وَالرَّقِّ مَخْلُوقَانِ
فَالصَّوْتُ لِلْقَارِي وَلَكِنَّ الْكَلَا مَ كَلَامُ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الإِحْسَانِ
هَذَا إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ كَقِرَاءَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْقُرْآنِ
فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْوَسَاطَةُ مِثْلَ مَا قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ

فَهُنَالِكَ الْمَخْلُوقُ نَفْسُ السَّمْعِ لَا ... شَيءٌ مِنَ الْمَسْمُوعِ فَافْهَمْ ذَانِ
هَذِي مَقَالَةُ أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدٍ ... وَخُصُومُهُمْ مِنْ بَعْدُ طَائِفَتَانِ
إِحْدَاهُمَا زَعَمَتْ بِأَنَّ كَلَامَهُ ... خَلْقٌ لَهُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِي
وَالآخَرُونَ أَبَوْا وَقَالُوا شَطْرُهُ ... خَلْقٌ وَشَطْرٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

الشرح: بعد أن بين أن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق، وأن اللَّه تكلم به على الحقيقة بلفظه ومعناه، ذكر أن أصوات العباد بالقرآن وكتابتهم له، والمداد الذي يكتبون به، والورق الذي يكتبون عليه، كل ذلك مخلوق، ولكن المقروء والمكتوب هو كلام اللَّه، فإذا قرأ القارئ القرآن؛ فصوته بالقرآن مخلوق، ولكن القرآن المؤدى بذلك الصوت غير مخلوق، وكذلك إذا كتبه الكاتب فِي المصحف؛ فالكتابة نفسها فعل الكاتب، وهي مخلوقة، ولكن المكتوب كلام اللَّه، فالمقروء بالألسنة، والمكتوب فِي المصاحف، والمحفوظ فِي الصدر: هو كلام اللَّه ﷻ، فإن طرق الأداء والتعبير قد تختلف وتتعدد، ولكن المؤدي والمعبر عنه بِها جميعًا شيء واحد، وهو كلام اللَّه ﷻ، فإن الكلام إنَّما ينسب لمن قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا.

وهذا الذي ذكره فِي حكم أصوات القارئين، ومداد الكاتبين، وأنَّها مخلوقة، إنَّما يتأتى إذا كان ثمة واسطة فِي الأداء والتبليغ، كقراءة المخلوق للقرآن، وأما إذا انتفت تلك الواسطة، وكان الكلام مسموعًا من اللَّه ﷻ مباشرة كما فِي تكليم موسى ﵇؛ فالمخلوق هنالك هو نفس السمع الذي هو إدراك المسموع، وأما المسموع نفسه؛ فهو كلام اللَّه، لا شيء منه بِمخلوق، فإنه نعت اللَّه وصفته.

هكذا فرق الإمام أحمد والإمام البخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة بين كلام اللَّه الذي هو غير مخلوق، وبين ما هو من فعل العباد من القراءة أو الكتابة أو الحفظ أو السماع الذي هو مخلوق.

وأما خصومهم فطائفتان؛ طائفة الجهمية والمعتزلة: وهؤلاء ذهبوا إلى أن القرآن كله بألفاظه ومعانيه مخلوق، وذلك بناء على مذهبهم فِي نفي الصفات، وزعموا أن اللَّه متكلم بِمعنى: خالق للكلام، فاللَّه ﷻ عندهم لا يتكلم بكلام هو صفة له، قائمة به، ولكنه يخلق الكلام إما فِي الهواء، أو فِي اللوح المحفوظ، أو فِي غيرهما، واحتجوا لمذهبهم بالآيات الَّتِي تدل على حدوث القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾

[الأنبياء: ٢] . ولا شك أننا لا ننازعهم فِي الحدوث، ولكنهم يبنون عليه الحكم بأنه مخلوق، إذ كل حادث عندهم مخلوق فإنَّهم لَم يثبتوا إلا قديمًا واحدًا: وهو ذات اللَّه ﷻ، وما وراءها فهو حادث مخلوق؛ ولهذا نفوا الصفات فرارًا من القول بتعدد القدماء.

وأما الطائفة الأخرى؛ فهم الكلابية والأشعرية: ذهبوا إلى أن القرآن ألفاظ ومعانٍ، فألفاظه المتلوة المسموعة المكتوبة فِي المصاحف: حادثة مخلوقة، وأما معانيه المعبر عنها بتلك الألفاظ فقديمة، قائمة بذاته تعالى، ويسمونَها الكلام النفسي، وهو عندهم معنى واحد، لا تعدد فيه ولا تبعض.

وهذا هو معنَى قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «والآخرون» يعنِي: الكلابية والأشعرية أبوا القول بِما قاله المعتزلة من أن القرآن كله مخلوق، وقالوا: شطره، أي: نصفه، وهو اللفظ: خلق، يعنِي: مخلوق، وشطره الآخر، وهو المعاني: قام بالرحمن، يعنِي أنه صفة له، فالمعاني عندهم ترجع إلى الصفة القديمة، وأما الألفاظ فحادثة مخلوقة.

* * *

زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً ... قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ

هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ مَخْلُوقٌ كَمَا ... قَالَ الْوَلِيدُ وَبَعْدَهُ الْفِئَتَانِ

وَالآخَرُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ فَقَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَمْ يسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

وَالأَمْرُ عَينُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَينُ إِخْبَارٍ وَذُو وِحْدَانِ

وَهْوَ الزَّبُورُ وَعَينُ تَوْرَاةٍ وَإِنْـ ... جِيلٍ وَعَينُ الذِّكْرِ وَالْفُرْقَانِ

الْكُلُّ شَيءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... لَا يقْبَلُ التَّبْعِيضَ فِي الأَذْهَانِ

مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا ... حَرْفٌ وَلَا عَرَبِي وَلَا عِبْرَانِي

الشرح يعنِي: أن الكلابية -أتباع ابن كُلَّاب «بضم الكاف وتشديد اللام»- والأشعرية -أتباع أبي الحسن الأشعري- زعموا أن هذا القرآن الموجود بين دفتي المصحف، والذي نقرؤه بالألسنة ونحفظه فِي الصدور -ليس كلام اللَّه، وإنَّما هو عبارة وحكاية عن كلام اللَّه، ودال عليه فقط، وتسميته قرآنًا أو كلامًا مجاز من قبيل تسمية الدال باسم المدلول، وعلى زعمهم هذا يكون هناك قرآنان:

هذا الذي نتلوه بألسنتنا، ونكتبه فِي مصاحفنا، ونحفظه فِي صدورنا، وهو عندهم مخلوق كما وصفه بذلك أحد أئمة الكفر، وهو الوليد بن المغيرة حين فكر وقدر: ﴿فَقُتِلَ

كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٩-٢٥]. وكما وصفه بذلك أيضًا الفئتان من الجهمية والمعتزلة بعد الوليد حيث قالوا: إن القرآن ليس إلا هذه الألفاظ الحادثة المخلوقة.

وأما الآخر؛ فهو المعنى القديم، القائم بالنفس، وهو الكلام عندهم على الحقيقة، ولا يكون بحروف وأصوات مسموعة، بل هو عندهم معنى واحد فِي الأزل، لا انقسام فيه ولا تبعض، فالأمر فيه عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وكذلك الزبور فيه عين التوراة، والإنجيل عين القرآن، الكل شيء واحد فِي نفسه، هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل محظور، والخبر عن كل مخبر عنه، إن عبر عنه بالعربية صار قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، فلا يقبل هذا المعنى الواحد التبعيض والانقسام أصلًا، بل ليس له كل ولا بعض، ولا هو مركب من حروف وأصوات، ولا عربي ولا عبراني.

* * *

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يقَالُ الأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

يَا قَوْمُ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي ... مَعْنَى الْكَلَامِ وَمَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ

وَلأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهَهُمْ ... إِذْ قِيلَ كِلْمَةُ خَالِقٍ رَحْمَنِ

وَلأَجْلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلَا ... هُوتًا قَدِيمًا بَعْدُ مُتَّحِدَانِ

وَنَظِيرُ هَذَا مَنْ يقُولُ كَلَامُهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ غَيرُ ذِي حِدْثَانِ

وَالشَّطْرُ مَخْلُوقٌ وَتِلْكَ حُرُوفُهُ ... نَاسُوتُه لَكِنْ هُمَا غَيرَانِ

فَانْظُرْ إِلَى ذَا الاتِّفَاقِ فَإِنَّهُ ... عَجَبٌ وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ

الشرح: يعني: أنه لا دليل لهؤلاء الكلابية والأشاعرة على إثبات الكلام النفسي الذي هو معنًى قائم بالمتكلم إلا بيتًا من الشعر ينسب للأخطل، وهو شاعر نصراني من بني تغلب، كان فِي زمان بني أمية يقول فيه:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الفُؤادِ وإِنَّما جَعَل ... اللِّسَانَ عَلَى الفُؤادِ دَلِيلًا

على أن هذا البيت لو صحت نسبته إليه، وكثير من اللغويين ينكرها، فإنه لَم يرد به المعنى الذي أرادوه من إثبات الكلام النفسي العاري عن الحروف والألفاظ، ولكنه يقصد به أن الإنسان إذا أراد أن يتكلم؛ فإنه يُزَوِّر الكلام فِي نفسه أولًا قبل أن ينطق به، ويزنه بعقله، ثُمَّ يعبر عنه باللسان.

هذا شأن كل عاقل يعلم أنه مؤاخذ بِما ينطق به، أما إجراء الكلام على اللسان دون تقدير أو روية؛ فإنَّما هو من شأن المجنون والهاذي ونحوهما، ويشهد لهذا قول عمر رَحِمَهُ اللَّهُ يوم السقيفة: «زورت فِي نفسي كلامًا». فهذا الكلام لَم يكن مجرد معانٍ قائمة بنفس عمر، ولكنه كان جملًا وعبارات أعدها ليلقيها من أجل استخلاف أبي بكر رَحِمَهُ اللَّهُ بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ.

ولو فرضنا أنه أراد هذا المعنى؛ فإنه نصراني، وقد غلط النصارى قديمًا فِي معنى الكلام، حيث زعموا أن عيسى نفس كلمة اللَّه، فجعلوا الكلام الذي هو من قبيل الأعراض جوهرًا قائمًا بنفسه، ومن أجل هذا اتخذوه إلَهًا، وقالوا: إن اللاهوت -يعنون الكلمة الَّتِي هي شيء من الإله- اتحد بالناسوت. أي: بجسد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فعيسى عندهم فيه جزء إلهي قديم، وهو الكلمة، وجزء حادث مخلوق، وهو الجسد، ولكنهما اتحدا وصارا شيئًا واحدًا يسمى المسيح.

وقول الكلابية ومن وافقهم من الأشعرية: هو من هذا الجنس، حيث زعموا أن القرآن شطره قديم وهو المعنى النفسي، وشطره محدث وهو هذا الموجود فِي المصحف، فهو عندهم عبارة وحكاية عن كلام اللَّه، وجعلوه ناسوتًا لذلك المعنى القديم؛ لأنه حال فيه ومدلول عليه به، فما أقوى ما ضاهى هؤلاء بقولهم فِي القرآن قول النصارى فِي نبيهم، وليس هناك من فرق، إلا أن النصارى أثبتوا اتحاد الجزأين، وأما هؤلاء؛ فقالوا: إنَّهما غيران. وهذا الاتفاق بين هؤلاء وبين النصارى مِمَّا يقضي منه العجب، ويحمل على التأمل فِي مجاري سنن اللَّه -جل شأنه- فِي خلقه.

* * *

وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ إِنَّ ذَا ... قَوْلٌ مُحَالٌ وَهْوَ خَمْسُ مَعَانِ
تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ ... لِجَمِيعِهَا كَالأُسِّ لِلْبُنْيَانِ
فَيَكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نَظِيرِهِمْ ... أَوْصَافُهُ وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ
إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ ... ـلُوقٌ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ
وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمْ فَقِيلَ مُحَمَّدٌ ... أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ
وَالآخَرُونَ أَبَوْا وَقَالُوا إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ

الشرح: لما كان القول بأن الكلام النفسي القديم معنى واحد فِي الأزل؛ غير معقول؛ لاستلزامه أن يكون الأمر عين النهي، والاستخبار عين الخبر، وأن تكون معاني كتب

اللَّه ﷻ كلها معنى واحد، وأن تكون آية الكرسي مثلًا فِي معاني آية الدين، وسورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ فِي معنَى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى غير ذلك من اللوازم الفاسدة، تكايست طائفة من الأشاعرة، وقالوا: إن الكلام فِي الأزل خمسة أنواع: الأمر والنهي، والاستفهام والخبر، ومعنى خامس يعمها جميعًا، فهو لَها كالأساس للبنيان.

ومنهم من جعلها أوصافًا للكلام، لا أنواعًا له، ومهما كان اختلافهم فِي هذا المعنى النفسي، فإنَّهم متفقون جميعًا على أن هذا الذي جاء به الرسول من الألفاظ المقروءة المتلوة إنَّما هو من وضع المخلوق، وليس بكلام مسموع من اللَّه -جل شأنه- ثُمَّ اختلفوا فيمن وضعه.

فقالت طائفة: إن مُحمَّدًا ﷺ هو الذي أنشأه وألفه تعبيرًا عن القرآن الذي هو المعنى النفسي القديم، فالوحي ينْزل عليه بالمعاني، ثُمَّ هو يعبر عنها بألفاظ من عنده.

وأبت طائفة أخرى هذا القول؛ لأنه يضاهي قول الكفار فِي القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]. وذهبوا إلى أن جبريل ﷺ هو الذي أنشأ ألفاظ القرآن بأمر من اللَّه ﷻ، ثُمَّ نزل بِها على رسول اللَّه ﷺ.

* * *

وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ إِنَّهُ ... نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

فَاللَّوْحُ مَبْدَؤُهُ وَرَبُّ اللَّوْحِ قَدْ ... أَنْشَاهُ خَلْقًا فِيهِ ذَا حِدْثَانِ

هَذِي مَقَالَاتٌ لَهُمْ فَانْظُرْ تَرَى ... فِي كُتْبِهِمْ يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

لَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ قَالُوا إِنَّمَا ... جِبْرِيلُ بَلَّغَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

أَلْقَاهُ مَسْمُوعًا لَهُ مِنْ رَبِّهِ ... لِلصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَانِ

الشرح: وتكايست طائفة ثالثة، وقالت: لا يجوز القول بأن مُحمَّدًا أو جبريل -عليهما الصلاة والسلام- هو الذي ألف القرآن وأنشأه، فإن ذلك مِمَّا يقوي كلام الطاعنين فيه، والقائلين بأنه مختلق مفترى، وليس كلام اللَّه، بل الواجب أن نقول: إن اللَّه ﷻ قد أنشأ القرآن وخلقه كتابة فِي اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وكما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]. ثُمَّ إن جبريل ﷺ يأخذه من اللوح، وينْزل به على النَّبِي ﷺ، ويتلوه عليه، فاللوح هو مبدأ إنزاله، وليس

منزلًا من عند اللَّه -جل شأنه- ورب اللوح هو الذي أنشأه فِي اللوح مخلوقًا ذا حدثان، أي: حدوث.

وهذه المقالات الثلاث فِي القرآن، المسمى عندهم باللفظي المخلوق موجودة فِي كتب هذه الطائفة المسماة بالأشعرية، يراها ويطالعها كل من له عينان.

وأما أهل الحق من أتباع مذهب السلف؛ فإنَّهم لا يقولون بشيء من ذلك الكلام المحدث المبتدع، ولكنهم يذهبون إلى أن القرآن منَزل من عند اللَّه حقًّا وأنه كلامه الذي تكلم به، وسمعه منه عبده جبريل عليه السلام، فبلغه إلى الصادق المصدوق -صلوات اللَّه وسلامه عليه- كما سمعه من الرب -جل شأنه- فالكلام كلام اللَّه، وما كان جبريل إلا مبلغًا ومؤديًا لما سمع، بأمانة هو جدير بها، حيث وصفه اللَّه بِها فِي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

فصل في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن

وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرْقِ الَّتِي ... فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ

فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَامَ عَلَيْهِمَا ... هَذَا الْخِلَافُ هُمَا لَهُ رُكْنَانِ

هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا وَهَلْ ... فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ هَذَانِ

أَصْلُ اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

ثُمَّ الأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ ... وَإِرادَةٍ مِنْهُ فَطَائِفَتَانِ

إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا ... بِالنَّفْسِ أَوْ قَالُوا بِخَمْسِ مَعَانِ

وَاللهُ أَحْدَثَ هَذِهِ الأَلْفَاظَ كَي ... تُبْدِيهِ مَعْقُولًا إِلَى الأَذْهَانِ

الشرح: هذا شروع من المؤلف فِي بحث اختلاف الطوائف فِي مسألة الكلام، وقد أولاها هنا عناية خاصة، وأفاض فِي معالجتها؛ نظرًا لما لَها من أهمية كبرى، فقد كثر تنازع الفرق حولها، واختلفت مذاهب الناس فيها، وكانت السبب فِي المحنة الَّتِي وقعت على أهل السنة فِي زمن المأمون والمعتصم حَتَّى ضُرب الإمام أحمد رضي الله عنه، وطيف به؛ من أجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وقد حصر المؤلف الأقوال فِي هذه المسألة حصرًا مفيدًا حين رد الخلاف فيها إلى أصلين هما كالأساس له:

أما الأصل الأول: فهو هل قوله تعالى متعلق بمشيئته وقدرته أم لا؟

وأما الأصل الثاني: فهو هل قوله وصف له، قائم بذاته، أم خارج عنها؟

فهذان الأصلان عليهما يدور كل خلاف بين أهل الأرض حول هذه المسألة.

أما الذين قالوا: إن الكلام لا تعلق له بمشيئته تعالى وإراداته؛ فطائفتان: الكُلَّابية والأشعرية، وهؤلاء ذهبوا إلى أن الكلام معنى قديم، قائم بذاته تعالى، فمنهم من جعله معنًى واحدًا في الأزل كما تقدم، ومنهم من قال: إنه خمس معانٍ مختلفة. وأما ألفاظ القرآن عندهم؛ فحادثة أحدثها الله ﷻ للدلالة على هذا المعنى القديم، وجعله معقولًا للأذهان.

* * *

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهَا لَيسَتْ هِيَ الْـ ... قُرْآنَ بَلْ مَخْلُوقَةٌ دَلَّتْ عَلَى الْقُرْآنِ

وَلَرُبَّمَا سُمِّي بِهَا الْقُرْآنُ تَسْـ ... مِيَةَ الْمَجَازِ وَذَاكَ وَضْعٌ ثَانِ

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ حِكَايَةٌ ... عَنْهُ وَقِيلَ عِبَارَةٌ لِبَيَانِ

إِذْ كَانَ مَا يُحْكَى كَمَحْكِيٍّ وَهَـ ... ذَا اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ

وَلِذَا يقَالُ حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ ... إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي

فَلِذَاكَ قَالُوا لَا نَقُولُ حَكَايَةٌ ... وَنَقُولُ ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

وَالآخَرُونَ يرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ... ظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ

الشرح: وكذلك قال الكلابية والأشعرية: إن هذه الألفاظ لا يصح إطلاق القول بأنَّها القرآن، بل هي دالة عليه فقط، وربما أطلقوا عليها اسم القرآن مجازًا؛ تسمية للدال باسم المدلول، ومنهم من قال: إن القرآن مشترك لفظي، يطلق على كل من المعنى القديم واللفظ الحادث، ثُمَّ اختلفوا فقال الكلابية: إن هذه الألفاظ المقروءة حكاية عن الكلام النفسي. وقال الأشعرية: بل هي عبارة عنه فقط وليست حكاية، إذ الحكاية عن الشيء لا بد أن تكون عين المحكي، كما تقول: حكيت الحديث بعينه. تريد أن روايتك له مطابقة للأصل تمامًا، بلا تغيير لفظ، ولا زيادته، ولا تقديم، ولا تأخير، وما هنا ليس كذلك، فإن اللفظ والمعنى مختلفان، فلا يصح القول بأن أحدهما حكاية عن الآخر.

ويرى بعض الأشاعرة أن هذا الخلاف لفظي، لا يتعلق به غرض علمي، وليس وراءه ثمرة مرجوة، فإن الفريقين من الكلابية والأشعرية متفقون على أن هذه الألفاظ ليست هي القرآن، وإنَّما هي دالة عليه فقط، فسواء جعلت حكاية عنه، أو عبارة؛ لَم يختلف هذا المعنى الذي هو محل اتفاق.

فصل في مذهب الاقترانية

وَالْفِرْقَةُ الأُخْرَى فَقَالَتْ إِنَّهُ لَفْظًا وَمَعْنًى لَيسَ يَنْفَصِلَانِ
وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ لَيسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ
فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ
وَالْقَائِلُونَ بِذَا يَقُولُوا إِنَّمَا تَرْتِيبُهَا بِالسَّمْعِ بِالآذَانِ
وَلَهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا فَاعْجَبْ لِذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ

الشرح: وأما الفرقة الثانية مِمَّن قالوا: إن الكلام لا يتعلق بمشيئته تعالى وقدرته؛ فهم الاقترانية، نسبة إلى الاقتران الذي هو مذهبهم، فإنَّهم زعموا أن الحروف الَّتِي تركب منها القرآن قد اقترن بعضها ببعض فِي الأزل، فليس لأحدها تقدم بالزمان على غيره، إذ لا يوجد قبل وبعد فِي الأزل، وذهب هؤلاء إلى أن القرآن ألفاظ ومعان، ليس ينفصل أحدهما عن الآخر، إذ لا تعقل ألفاظ بلا معان، ولا تعقل معانٍ مجردة عن الألفاظ، وكل من اللفظ والمعنى قديم، قائم بذاته تعالى، ليس بقابل للحدوث أصلًا، ومادامت الألفاظ قديمة، فالحروف الَّتِي تألفت منها هذه الألفاظ قديمة، وحينئذ لا يصح القول بوجودها فِي الأزل على الترتيب والتعاقب، بل وجدت مقترنة مجتمعة، فالسين من «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» تكون عند الباء لا مسبوقة بها، فإنه لا نسبة بين المقترنين بالتقدم والتأخر، وإنَّما يكون الترتيب بين الحروف وتعاقبها عند السمع بالآذان؛ إذ لا تطيق الأسماع إدراك الحروف على سبيل الاجتماع، وهذا الترتيب الواقع بين الحروف فِي الأسماع لا يعنِي أن الاقتران غير لازم لَها، بل هو ثابت لهذه الحروف لذواتِها، وما بالذات لا يعقل تخلفه.

ولا شك أن هذا الكلام تخليط وهذيان يدعو إلى الضحك من هؤلاء المجانين، فإن اللفظ إذا كان مؤلفًا من حرفين مثلًا، فإنه لا يُمكن النطق بالثاني منها قبل النطق بالأول، ولا يُمكن النطق بِهما مجتمعين بحال من الأحوال، فلا وجود للحروف أصلًا إلا على سبيل الترتيب والتعاقب، بِمعنى أنَّها توجد شيئًا بعد شيء، وعلى هذا النحو تصل إلى الآذان فتسمعها وتميزها، وإلا فلو جاز أن توجد مجتمعة، فما الذي يميز لفظًا عن لفظ إذا كانت حروفها واحدة؟ ولكنها مختلفة فِي الترتيب كعذل ولذع وسبق وقبس مثلًا.

* * *

لَكِنَّ زَاغُونِيهُم قَدْ قَالَ إِنْ ... نَ ذَوَاتَهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ
فَتَرَتَّبَتْ بِوجُودِهَا لَا ذَاتِهَا ... يَا لَلْعُقُولِ وَزَيغَةِ الأَذْهَانِ
لَيسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الْـ ... أَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ
لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْحَقِيقَةَ خَارِجًا ... وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ
وَالْعَكْسُ أَيضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا اتْـ ... تَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يكُنْ شَيئَانِ
وَبِذَا يزُولُ جَمِيعُ إِشْكَالَاتِهِم ... فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ الرَّحْمَنِ

الشرح: قد عرفت ما يلزم مذهب هؤلاء الاقترانية من الفساد ومخالفة الواقع المحسوس؛ بزعمهم أن الحروف قديمة، وأنَّها مجتمعة فِي الأزل على سبيل الاقتران، بلا تعاقب ولا ترتيب بينها، ولكن أحدهم -وهو ابن الزاغوني- يريد أن يتكايس ويدعي الفلسفة، فيفرق بين ذوات هذه الحروف- يعنِي: حقائقها الثابتة الَّتِي هي بِها هي- وبين وجودها، فيقول: إنَّها مترتبة بحسب وجودها لا بحسب ذواتِها، وهذه مغالطة مكشوفة، فإن ذات الشيء وحقيقته لابد أن تكون موجودة، إما بالوجود العيني الخارجي، وإما بالوجود الذهني، ولا تختلف الحقيقة والذات فِي هذا الوجود عنها فِي ذاك إلا بالاعتبار، فإن كانت الذات الثابتة للحروف مقتضية للترتيب والتعاقب بالنسبة لأحد الوجودين، وهو الوجود الخارجي؛ فهي كذلك بالنسبة للوجود الآخر، وإن أراد بقوله: إن الذات والوجود غيران، إن الذات من حيث هي مجردة عن الاتصاف بأحد الوجودين غير الوجود، هذه الذات غير معقولة، فإن ما ليس بموجود هو معدوم.

نعم، يُمكن القول بأن الوجود الخارجي للحقيقة غير وجودها فِي الذهن، فتكون الحقيقة مغايرة لنفسها بالاعتبار، وكذلك يُمكن العكس، فيقال: الوجود للتي بحسب الذهن مغاير للوجود بحسب الخارج، ولكن هذا لا يعنِي أن الذات يُمكن أن تنفصل عن الوجود، أو أن تقتضي من حيث هي أمرًا، ولا يكون لازمًا لَها عند الوجود، أما إذ أخذت الحقيقة مجردة عن الاعتبارات المترتبة على اختلاف الوجود؛ فهي شيء واحد حينئذ لا شيئان.

وبِهذا التفسير يزول الإشكال الذي أورده المتكلمون كالرازي وغيره، وهو: هل وجود الباري غير ذاته وحقيقته أم لا؟

والجواب: أن الذات إذا أخذت من حيث هي؛ فلا شك أن الوجود وصف لَها، فهو

غيرها بهذا المعنى، وأما الذات الموجودة بوجودها؛ فلا يقال: إن الوجود غيرها، ولكن يُمكن أن يقال: إن هناك فرقًا بين وجودها الذهني ووجودها الخارجي بالاعتبار.

فصل في مذاهب القائلين بانه متعلق بالمشيئة والإرادة

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ وإِرَادَةٍ أَيضًا فَهُمْ صِنْفَانِ

إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالأَكْوَانِ

قَالُوا وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التْـ تَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيتِ ذِي الأَرْكَانِ

مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيهِمْ قَائِمٌ بِالْغَيرِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ

هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِي وَهُمْ فِيهَا الشُّيوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من ذكر مذاهب القائلين بأن القرآن صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، لا تعلق لَها بِمشيئته وقدرته، بين أن الأولى منهما -وهي الكلابية والأشعرية- ادعت ذلك فِي المعنى فقط، والأخرى ادعته فِي اللفظ والمعنى جميعًا -وهم الاقترانية-؛ أخذ فِي بيان مذاهب القائلين بأن القرآن متعلق بمشيئته تعالى وإراداته، فذكر أنَّهما طائفتان أيضًا:

إحداهما: وهم الجهمية، ومتأخرو المعتزلة، قالوا بأن القرآن مخلوق، خلقه اللَّه كما خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات، ومعنى كونه تعالى متكلمًا عندهم أنه خالق للكلام، وإنَّما يضاف إليه القرآن، فيقال: كلام اللَّه. على سبيل التشريف، كما يقال: بيت اللَّه، وناقة اللَّه، وهذه سفسطة ظاهرة، فإنه ولا شك فيه أنه لا يعقل من المتكلم إلا من قام به الكلام، فإن الكلام صفة المتكلم، ولا يقال لمن أوجد الكلام فِي غيره: إنه هو المتكلم بذلك الكلام، بل يكون الكلام صفة للمحل الذي قام به، وصار عرضًا له.

وأما قولهم: إن إضافة الكلام إلى اللَّه إنَّما هي إضافة تشريف كإضافة البيت والناقة، فغلط صريح، بل هي إضافة صفة إلى موصوف؛ لأن الإضافة نوعان:

أحدهما: ما يضيفه اللَّه إلى نفسه من الأعيان المخلوقة كالبيت والناقة ونحوهما، فهذه الإضافة تفيد تشريف المضاف، والتنويه بِما امتاز به من الصفات العظيمة.

والثاني: ما يضيفه اللَّه إلى نفسه من المعاني والصفات الَّتِي لا تقوم بنفسها، كعلم اللَّه وقدرته وإرادته وكلامه... إلخ.

فهذه الإضافة تقتضي قيام هذه المعاني بالمضاف إليه واتصافه بِها، وهذا فرق بديهي، ويلزم على مذهب هؤلاء أن اللَّه لَم يتصف بالقول أبدًا، فلا هو قال فِي الماضي، ولا هو قائل الآن أو مستقبلًا، وأنه لَم يسمع منه قول؛ إذ كان القول عندهم: مفعوله الذي خلقه فِي الغير، على أنه عرض له كسائر الأعراض القائمة بالأجسام، وهذا هو مذهب الجهمية فِي الأصل، وهم شيوخه وأساتذته، وعنهم أخذه من اقتدى بِهم من الصبيان، يعنِي: متأخري المعتزلة.

* * *

لَكِنَّ أَهْلَ الإِعْتِزَالِ قَدِيمَهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا ذَا الْمَذْهَبَ الشَّيطَانِي

وَهُمُ الأُلَى اعْتَزَلُوا عِنِ الْحَسَنِ الرِّضَا الْـ بَصْرِيِّ ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْحِدْثَانِ

لَكِنَّمَا مُتَأَخِّرُوهُمْ بَعْدَ ذَا لِكَ وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ

فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَا لِ ثَوْبُهُمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

وَاللَّالَكَائِي الإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ هُمْ بَلْ قَدْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

الشرح: وأما قدماء المعتزلة، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، ومن سار على نَهجهما قبل حدوث بدعة الجهم؛ فإنَّهم لَم يذهبوا هذا المذهب الفاسد الذي هو من وحي الشيطان، وهؤلاء القدامى من المعتزلة -إنَّما لقبوا بِهذا اللقب عندهم- الذين اعتزلوا مجلس الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ وكان سبب اعتزالهم: أن رجلًا وقف على مجلس الحسن، وسأله عن حكم مرتكب الكبيرة؟ وهل هو مؤمن أو كافر؟ فإن الخوارج كانوا يكفرونه، ويحكمون بخلوده فِي النار، والمرجئة كانوا يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية. وقبل أن يجيب الحسن، قال واصل بن عطاء: أنا لا أسميه مؤمنًا ولا كافرًا، ولكنه فِي منْزلة بين المنْزلتين، وأسميه فاسقًا وأقول بخلوده فِي النار، ثُمَّ اعتزل حلقة الحسن ومعه عمرو بن عبيد، وأخذ يقرر مذهبه، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسموا لذلك بالمعتزلة، وقد وردت روايات أخرى فِي سبب هذه التسمية، ولا مجال لذكرها هنا.

والحاصل: أن هؤلاء القدامى وأتباعهم يوافقون أهل السنة والجماعة فِي أن القرآن كلام اللَّه، منَزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

وأما المتأخرون منهم من أمثال أبي الهذيل العلاف، والنظام، والجاحظ، وغيرهم؛ فوافقوا جهمًا على الكفر بكلام اللَّه ﷻ، وإنكار أن اللَّه متكلم بالقرآن، أو كلم موسى ﵇ بكلام سمعه، فجمعوا بذلك بين التجهم والاعتزال، وصاروا كصاحب ثوب له علمان، ولقد حكم بكفرهم من أجل هذا الذي قالوه خمسمائة من العلماء فِي مختلف البلدان، حكى ذلك عنهم اللالكائي فِي مسنده، بل حكاه من قبله الإمام الطبراني.

وقوله: «قديمهم» بدل من أهل الاعتزال، وقوله: «الرضا» صفة للحسن، وهي مصدر بِمعنى المرضي.

فصل في مذهب الكَرَّاميَّة

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمشِيئَةٍ ... فِي ذَاتِهِ أَيضًا فَهُم نَوْعَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ ... نَوْعًا حَذَارِ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ
فَيسُدُّ ذَاكَ عَلَيهِمُ فِي زَعْمِهِم ... إِثْبَاتُ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
فَلِذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ ذُو أَوَّلٍ ... مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ
وَكَلَامُهُ كَفِعَالِهِ وَكِلَاهُمَا ... ذُو مَبْدَإٍ بَلْ لَيسَ يَنْتَهِيَانِ

الشرح: وأما الفرقة الثانية من القائلين بأن الكلام متعلق بمشيئته تعالى وقدرته؛ فانقسموا إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: الكَرَّامية، أتباع مُحمَّد بن كَرَّام، وهؤلاء ذهبوا إلى أن اللَّه تعالى يتكلم بمشيئته بالقرآن العربي وغيره، إلا أنَّهم لا يقولون: لَم يزل متكلمًا إذا شاء؛ لأنه يمتنع عندهم أن يكون اللَّه متكلمًا فِي الأزل، فيجعلون كلامه حادثًا فِي ذاته مسبوقًا بالعدم، بِمعنى أن اللَّه لَم يكن عندهم متكلمًا، ثُمَّ صار متكلمًا، فنوع الكلام عندهم له ابتداء فِي ذاته، وإنَّما ألجأهم إلى ذلك؛ الخوف من القول بحوادث لا أول لَها، فإن هذا يلزمه التسلسل فِي الموجودات والقول بقدم الأنواع، فينسد عليهم طريق إثبات الصانع - فِي زعمهم- إذا كان الطريق إلى ذلك هو حدوث الأشياء، المستلزم لوجود محدث لَها، فلهذا اضطر الكرامية إلى أن يجعلوا لما يحدث فِي ذاته تعالى من الكلام أو الفعل: ابتداء

لكنه مع ذلك إذا حدث فليس قابلًا عندهم للزوال والفناء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فِي رسالة الفرقان: «ومحمد بن كرام، فكان بعد ابن كلاب، فِي عصر مسلم بن الحجاج، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختيارية، ويتكلم بمشيئته وقدرته ولكن عنده يَمتنع أنه كان فِي الأزل متكلمًا بمشيئته وقدرته؛ لامتناع حوادث لا أول لَها، فلم يقل بقول السلف: لَم يزل متكلمًا إذا شاء، وقال هو وأصحابه فِي المشهور: إن الحوادث الَّتِي تقوم به لا يخلو عنها، ولا تزول عنه».

* * *

قَالُوا وَلَمْ يَنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُوا   وَأَتَوْا بِتَشْنِيعٍ بِلَا بُرْهَانِ

قُلْنَا كَمَا قَالُوهُ فِي أَفْعَالِهِ   بَلْ بَيْنَنَا بَوْنٌ مِنَ الْفُرْقَانِ

بَلْ نَحْنُ أَسْعَدُ مِنْهُمُ بِالْحَقِّ إِذْ   قُلْنَا هُمَا بِاللهِ قَائِمَتَانِ

وَهُمُ فَقَالُوا لَمْ يَقُمْ بِاللهِ لَا   فِعْلٌ وَلَا قَوْلٌ فَتَعْطِيلَانِ

لِفِعَالِهِ وَمَقَالِهِ شَرًّا وَأَبْـ   ـطَلُ مِنْ حُلُولِ حَوَادِثٍ بِبَيَانِ

تَعْطِيلُهُ عَنْ فِعْلِهِ وَكَلَامِهِ   شَرٌّ مِنَ التَّشْنِيعِ بِالْهَذَيَانِ

هَذِي مَقَالَاتُ ابْنِ كَرَّامٍ وَمَا   رَدُّوا عَلَيْهِ قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ   لِلْعَقْلِ وَالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

لَكِنَّهُمْ جَاءُوا لَهُ بِجَعَاجِعٍ   وَفَرَاقِعٍ وَقَعَاقِعٍ بِشَنَانِ

الشرح: قالت الكرامية: إن خصومنا من الكلابية والأشعرية قد شنعوا علينا فِي قولنا بحدوث الكلام فِي ذاته تعالى بِمشيئته واختياره، مع أنه لا حجة لهم فِي هذا التشنيع على أنَّهم قد قالوا بمثل قولنا فِي أفعاله تعالى، فجعلوها حادثة، ولزمهم فِي ذلك مثل ما لزمنا من أن اللَّه كان معطلًا عن الفعل فِي الأزل، ثُمَّ صار فاعلًا بلا تجدد سبب أوجد القدرة والإمكان، بل نحن أقرب منهم إلى الحق؛ لأننا جعلنا الكلام والفعل صفتين قائمتين بذاته، وأما هم؛ فعطلوه عن قوله وفعله، فإن القول المسموع عندهم مخلوق كما أن الفعل عين المفعول المخلوق، ولا شك أن تعطيل الباري عن قوله وفعله شر، وأدخل فِي الباطل من القول بحلول الحوادث فِي ذاته.

والحق: أن مقالة ابن كرام وإن كانت منحرفة عن جادة الصواب حيث حكم بخلوه

تعالى فِي الأزل من الكلام والفعل، وهما من صفات كماله؛ إلا أن خطأه أهون من خطأ الأشعرية، ولهذا لَم يستطيعوا أن يردوا عليه ببرهان جلي، فإن ما قاله أقرب إلى العقل والنقل مِمَّا قالوه.

أما من جهة العقل؛ فلأنه لا يعقل متكلمًا ولا فاعلًا إلا من قام به الفعل والكلام، وأما من جهة النقل؛ فالنصوص كلها دلت على أن اللَّه متكلم بمشيئته وقدرته، وأن كلامه ليس إلا حروفًا وأصواتًا مسموعة.

قوله: «جعجعوا». أحدثوا ضجة شديدة. وقوله: «وأتوا بتشنيع». من شنع عليه، إذا نسبه إلى الشناعة، وهي القبح. وقوله: «لفعاله ومقاله» متعلق بـ: «تعطيلان» فِي البيت قبله، و«تعطيلان» مبتدأ، خبره: شر، و«أنى» بِمعنى كيف. والاستفهام: استبعاد. والجعاجع، والفراقع والقعاقع: أسْماء أصوات.

فصل في ذكر مذهب أهل الحديث

وَالآخَرونَ أُولُو الْحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ ... وَمُحَمَّدٍ وَأَئِمَّةِ الإِيمَانِ

قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يزَلْ ... مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ

إِنَّ الْكَلاَمَ هُوَ الكَمَالُ فَكَيفَ يخْـ ... ـلُو عَنْهُ فِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ

وَيصِيرُ فِيمَا لَمْ يزَلْ مُتَكَلِّمًا ... مَاذَا اقْتَضَاهُ لَهُ مِنَ الإِمْكَانِ

وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... لِلذَّاتِ مِثْلَ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ

وَاللهُ رَبُّ الْعَرْشِ قَالَ حَقِيقَةً ... حَم مَعْ طَهَ بِغَيرِ قِرَانِ

بَلْ أَحْرُفٌ مُتَرَتِّبَاتٌ مِثْلَ مَا ... قَدْ رُتِّبَتْ فِي مَسْمَعِ الإِنْسَانِ

وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ هَكَذَا ... حَرْفَانِ أَيضًا يوجَدَا فِي آنِ

مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّم بَلْ يوجَدَا ... بِالرَّسْمِ أَوْ يتَكَلَّمُ الرَّجُلَانِ

هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ أَمَّا الاقْتِرَا ... نُ فَلَيسَ مَعْقُولًا لِذِي الأَذْهَانِ

الشرح: وأما الآخرون من القائلين بأن اللَّه متكلم بكلام قائم بذاته متعلق بمشيئته وإرادته؛ فهم أصحاب الحديث، أهل السنة والجماعة كأحمد بن حنبل الشيباني، ومحمد ابن إسماعيل البخاري، وغيرهما من أئمة الإيمان ﷺ ذهبوا إلى أن اللَّه لَم يزل متكلمًا إذا

شاء؛ لأن الكلام صفة كمال، إذ إن من يتكلم أكمل مِمَّن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل مِمَّن يكون الكلام لازمًا لذاته، وإذن فلا يعقل خلوه تعالى عنه فِي الأزل؛ لأن الخلو عن الكمال نقص يستحيل على اللَّه، ولأن الكلام إذا كان ممتنعًا عليه فِي الأزل، ثُمَّ صار متكلمًا فيما لا يزال، فما الذي اقتضى انقلابه من الامتناع إلى الإمكان، مع أنه لَم يتجدد فِي ذاته شيء يوجب ذلك الانقلاب؟! فتبين أن الرب سبحانه لَم يزل متكلمًا إذا شاء، بِمعنى: أن جنس كلامه قديم، وتعاقب الكلمات، وخروجها إلى الوجود شيئًا بعد شيء هو أمر ثابت لَها لذواتِها مثل تعاقب الأزمنة، فكما أن أجزاء الزمان لا توجد مجتمعة، بل توجد على سبيل التعاقب آنًا بعد آن، فكذلك الحروف الَّتِي هي أجزاء الكلمات لا يُمكن النطق بِها مجتمعة بحيث يكون النطق بالحرف الثاني مع الأول فِي آن واحد، بل لابد من وجودها على سبيل التعاقب والتسلسل، حرفًا بعد حرف، فإذا قال اللَّه ﷻ: ﴿حمٓ﴾. أو ﴿طه﴾. فلا يعقل اجتماع الحرفين من كل من هاتين الآيتين بحيث ينطق بالميم مع الحاء، أو بالهاء مع الطاء، بل تأتي الحروف مترتبات فِي النطق كما هي مترتبة فِي الأسماع، وإذا كان وجود وقتين من الزمان فِي وقت واحد غير معقول؛ لأن الزمان كَمٌّ متصل غير قار الذات، لا يجتمع أجزاؤه فِي الوجود، فكذلك وجود حرفين من متكلم واحد فِي آن واحد مستحيل، وإنَّما يعقل ذلك فِي الرسم، أي: الكتابة، أو إذا كان المتكلم أكثر من واحد، أما الاقتران الذي تزعم الاقترانية؛ فشيء غير معقول لذوي الأذهان، بل إن استحالته ضرورية، لا تحتاج إلى بيان.

* * *

وَكَذَا كَلَامٌ مِنْ سِوَى مُتَكَلِّمٍ ... أَيْضًا مُحَالٌ لَيسَ فِي إِمْكَانِ

إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَذَا ... كَ كَلَامُهُ الْمَعْقُولُ فِي الأَذْهَانِ

أَيكُونُ حَيًّا سَامِعًا أَوْ مُبْصِرًا ... مِنْ غَيرِ مَا سَمْعٍ وَغَيرِ عِيَانِ

وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ قَامَ بِغَيرِهِ ... هَذَا الْمُحَالُ وَوَاضِحُ الْبُهْتَانِ

وَكَذَا مُرِيدٌ وَالإِرَادَةُ لَمْ تَكُنْ ... وَصْفًا لَهُ هَذَا مِنَ الْهَذَيَانِ

وَكَذَا قَدِيرٌ مَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ ... قَامَتْ بِهِ مِنْ أَوْضَحِ الْبُطْلَانِ

وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَكَلِّمٌ ... بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُلُ الإِلَهِ عَلَيهِ لَمْ ... يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ

فَكَلامُهُ حَقًّا يقُومُ بِهِ وَإِلْـ ... لَا لَمْ يكُنْ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

الشرح: وكما يستحيل وجود الحروف مقترنة كما تزعم الاقترانية، فكذا يستحيل وجود كلام من غير متكلم، ولا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام خلافًا للمعتزلة الذين زعموا أن معنَى كونه متكلمًا: أنه خالق للكلام، وأن كلامه مخلوق منفصل عنه، فيكون على رأيهم متكلمًا بلا كلام قائم به، بل بكلام قائم بغيره، وهذا سخف وهذيان، فإن إطلاق المشتق على شيء؛ يقتضي ثبوت مأخذ الاشتقاق لذلك الشيء، وقيامه به، بمعنى: أن الإطلاق يقتضي وجود الصفة لا كما تزعم المعتزلة من أن اللَّه عليم بلا علم، وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وقدير بلا قدرة... إلخ، ويقتضي أيضًا قيام تلك الصفة بموصوفها لا بغيره، فلا يعقل مثلًا حي بلا حياة، أو حياة قائمة بغيره، وكذلك سميع وبصير وعليم وقدير ومريد... إلخ، لا يعقل أن تكون هذه المشتقات دالة على ذات مجردة عن الصفات، كما لا يعقل قيام تلك الصفات بغير تلك الذات الموصوفة بها، فكذلك الكلام، لا يكون إلا وصفًا للمتكلم به.

ولا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام، واللَّه تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع أهل الأديان كلهم، وبشهادة العقول الصحيحة، والفطرة السليمة، والبراهين القاطعة، ولا معنَى لكونه متكلمًا إلا قيام الكلام بذاته، فيكون من جملة صفاته، وإلا لَم يكن متكلمًا بالقرآن العربي، ولا بغيره.

* * *

وَاللَّهُ قَالَ وَقَائِلٌ وَكَذَا يقُو ... لُ الْحَقَّ لَيسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي

وَيكَلِّمُ الثَّقَلَينِ يوْمَ مَعَادِهِمْ ... حَقًّا فَيسْمَعُ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

وَكَذَا يكَلِّمُ حِزْبَهُ فِي جَنَّةِ الْـ ... حَيوَانِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضْوَانِ

وَكَذَا يكَلِّمُ رُسْلَهُ يوْمَ اللِّقَا ... حَقًّا فَيسْأَلُهُمْ عَنِ التِّبْيَانِ

وَيرَاجِعُ التَّكْلِيمَ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَقْتَ الْجِدَالِ لَهُ مِنَ الإنْسَانِ

وَيكَلِّمُ الْكُفَّارَ فِي الْعَرَصَاتِ تَوْ ... بِيخًا وَتَقْرِيعًا بِلَا غُفْرَانِ

وَيكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيضًا فِي الْجَحِيـ ... ـمِ أَنِ اخْسَئُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ

وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ وَقَبْلَهُ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ

وَأَتَى النِّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ ... وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

الشرح: كما أن الله ﷻ يوصف بالتكليم والتكلم فكذلك يوصف بالقول، وهو اللفظ المسموع، فهو قد قال فِي الماضي، وقائل الآن، وسيقول غدًا، وقوله الحق الثابت الذي لا يخالطه باطل، وكلماته لا نفاد لَها، ولا فناء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وهو سبحانه يكلم الثقلين من الإنس والجن بكلام يسمعونه يوم القيامة، وكذا يكلم أولياءه فِي جنة الخلد، فيسلم عليهم، ثُمَّ يقول لهم: «**هل رضيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى، ألم تدخلنا جنتك، وتنجنا من نارك، فيقول سبحانه: سأعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا ربنا، وأما أفضل من ذلك؟ فيقول: سأحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**». كما ورد فِي الحديث.

وكذا يكلم رسله، ويسألهم عن تبليغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وكذا يراجع سبحانه التكليم مع بعض عباده يوم القيامة عند جوابهم له، ويكلم الكفار فِي عرصات القيامة كلام تقريع وتوبيخ، ويكلمهم أيضًا وهم فِي الجحيم فيقول لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وهو سبحانه قد نادى الكليم موسى من جانب الطور الأيمن. ومن قبله نادى آدم وحواء عندما وقعا فِي الخطيئة كما قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وقد وصف الله نفسه بالنداء فِي تسع مواضع من القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

الثاني: قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

الثالث: قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١١-١٢].

الرابع: قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].

الخامس: قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

السادس: قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠].

السابع: قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

الثامن: قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

التاسع: قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

العاشر: قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

الحادي عشر: قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥-١٦].

* * *

وَكَذَا يُكَلِّمُ جِبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ ... حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ

وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ الْبُخَارِي الْعَظِيمِ الشَّانِ

فِيهِ نِدَاءُ اللهِ يَوْمَ مَعَادِنَا ... بِالصَّوْتِ يَبْلُغُ قَاصِيًا وَالدَّانِي

هَبْ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَيسَ بِثَابِتٍ ... بَلْ ذِكْرُهُ مَعَ حَذْفِهِ سِيَانِ

وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَارِي الْمُجَسْـ ... ـسِمُ بَلْ رَوَاهُ مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي

أَيَصِحُّ فِي عَقْلٍ وَفِي نَقْلٍ نِدَا ... ءٌ لَيسَ مَسْمُوعًا لَنَا بِأَذَانِ

أَمْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْعُقَلَاءُ مِنْ ... أَهْلِ اللِّسَانِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

أَنَّ النِّدَا الصَّوْتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ ... فَهُوَ النِّجَاءُ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ

وَاللهُ مَوْصُوفٌ بِذَاكَ حَقِيقَةً ... هَذَا الْحَدِيثُ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

الشرح: يعني: أن اللّه ﷻ إذا أراد أن يأمر أهل سمواته أو أرضه بأمر؛ كلم به جبرائيل -ملك الوحي ﷺ- فيقوم بتبليغه إليهم، فإنه هو المختص بالوحي في السماء وفي الأرض جميعًا، وقد جاء في حديث صحيح رواه الإمام البخاري: «**أن اللّه ﷻ ينادي عباده يوم القيامة بصوت يسمعه أهل الموقف جميعًا، القاصي منهم والداني**». وعلى فرض أن لفظ الصوت ليس بثابت؛ لأنه من رواية أهل التجسيم -في زعمهم- فإنه لا حاجة إليه، إذ العقل والنقل متفقان على أنه لا يكون نداء إلا بصوت مسموع بالآذان، ومما أجمع عليه العلماء والعقلاء من أهل اللسان العربي وغيره أن النداء هو الصوت العالي، وأن ضده، وهو النجاء، يكون بصوت خافت غير مسموع إلا مِمَّن يناجي، ولكن كلاهما صوت على كل حال، واللّه موصوف به، وقد جمع اللّه بينهما في قوله إخبارًا عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

* * *

وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ حًـا أَنَّـهُ ذُو أَحْـرُفٍ بِـبَـيَـانِ
الْحَرْفُ مِنْهُ فِي الْجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْ حَسَنَاتِ مَا فِيهِنَّ مِنْ نُقْصَانِ
وَانْظُرْ إِلَى السُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِأَحْ رُفِهَا تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ
لَمْ يـأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ إِلَّا أَتَى فِي إِثْرِهَا خَبَرٌ عَنِ الْقُرْآنِ
إِذْ كَانَ إِخْبَارًا بِهِ عَنْهَا وَفِي هَذَا الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ
وَيَدُلُّ أَنَّ كَلامَهُ هُوَ نَفْسُهَا لَا غَيْرُهَا وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْ أعراف ثُمَّ كَذَا إِلَى لُقْمَانِ
مَعَ تِلْوِهَا أَيضًا وَمَعْ حَم مَعْ يس وَافْهَمْ مُقْتَضَى الْفُرْقَانِ

الشرح: مِمَّا يدل على أن القرآن الذي هو كلام اللَّه هو هذا المؤلف من الحروف والألفاظ الذي نتلوه بألسنتنا، ونحفظه فِي صدورنا، ونكتبه بالمداد فِي صحفنا - ما رواه ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ عن النَّبِي ﷺ من قوله: «**من قرأ القرآن؛ فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول: «الم» حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**». وكذلك إذا تأملنا السور الَّتِي افتتحت بالفواتح من مثل: الم، والمص، والر، والمر، وحم، ويس، ون، وق... إلخ. نرى سرًّا عجيبًا: وهو أنه لَم تفتتح سورة ببعض هذه الفواتح إلا ورد على أثرها خبر عن القرآن، إذ كان القرآن مخبرًا به عنها، مِمَّا يدل أعظم دلالة على أن القرآن هو نفس هذه الفواتح، وأنه مركب من الحروف الَّتِي اشتملت عليها، نرى ذلك فِي أول سورة البقرة، أعني: قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]. ثُمَّ فِي الأعراف، أعني: قوله سبحانه: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١-٢]. الآية، ونراه كذلك فِي أول لقمان هكذا: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١-٢]. ثُمَّ فِي السورة الَّتِي تتلوها، أعني: سورة السجدة: «الم تَنْزِيل»، وهو قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢]. ونراه فِي الحواميم، وفي سورة يس، قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢]. وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ١-٢]. و ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١-٢]. إلخ.

* * *

فصل في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوصٍ آمِرٌ ... نَاهٍ مُنَبٌّ مُرْسِلٌ لِبَيَانِ
وَمُخَاطِبٌ وَمُحَاسِبٌ وَمُنَبِّئٌ ... وَمُحَدِّثٌ وَمُخَبِّرٌ بِالشَّانِ
وَمُكَلِّمٌ مُتَكَلِّمٌ بَلْ قَائِلٌ ... وَمُحَذِّرٌ وَمُبَشِّرٌ بِأَمَانِ
هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يرْشِدُ خَلْقَهُ ... بِكَلَامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ فَكُلُّ هَـ ... ـذَا مُنْتَفٍ مُتَحَقِّقُ الْبُطْلَانِ

الشرح: يريد أن الله ﷻ موصوف بصفات هي من لوازم اتصافه بصفة الكلام، بحيث لا يُمكن وصفه بِها إذا لَم يكن متكلمًا، فهو سبحانه موصٍ، وهو اسم فاعل من أوصى، والإيصاء: الأمر المؤكد، وهو آمر، من الأمر الذي هو طلب الفعل، وهو ناه، من النهي الذي هو طلب الكف، وهو منب، اسم فاعل من أنبأه، بِمعنى: أخبره، وهو مرسل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لبيان شرائعه وإرشاد عباده، وهو مخاطب، يخاطب أنبياءه ورسله، ويخاطب أتباعهم من المؤمنين ويخاطب الكفار والمشركين، ويخاطب جبريل أمين وحيه، ويخاطب الملائكة المكرمين، وهو محاسب يحاسب خلقه يوم القيامة، ويسألهم عما فعلوه، ويناقشهم فيه، وهو مُنبئ اسم فاعل من أنبأه بالأمر، بِمعنى: أخبره، وهو محدث، ومخبر، ومكلم، ومتكلم، وقائل، ومحذر المخالفين من العقاب، ومبشر للطائعين بالثواب، وهو هادٍ، يَهدي خلقه، ويرشدهم بكلامه إلى ما يحبه منهم من الحق والإيمان.

فهذه الصفات كلها تنتفي عن الله ﷻ إذا انتفت صفة الكلام، فإنَّها لوازم لَها، ويلزم من انتفاء الملزوم انتفاء لازمه.

* * *

وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ كَذَلِكَ الْـ ... إِرْسَالُ مَنْفِيٌّ بِلَا فُرْقَانِ
فَرِسَالَةُ الْمَبْعُوثِ تَبْلِيغٌ كَلَا ... مَ الْمُرْسِلِ الدَّاعِي بِلَا نُقْصَانِ
وَحَقِيقَةُ الإِرْسَالِ نَفْسُ خِطَابِهِ ... لِلْمُرْسَلِينَ وَأَنَّهُ نَوْعَانِ
نَوْعٌ بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ كَكَلَامِهِ ... مُوسَى وَجِبْرِيلَ الْقَرِيبِ الدَّانِي

مِـنْـهُ إِلَـيْـهِ مِـنْ وَرَاءِ حِـجَـابِـهِ إِذْ لَا تَـرَاهُ هَـاهُـنَـا الْـعَـيْـنَـانِ
وَالآخَـرُ الـتَّـكْـلِـيـمُ مِـنْـهُ بِـالْـوَسَا طَـةِ وَهْـوَ أَيْـضًـا عِـنْـدَهُ ضَـرْبَـانِ
وَحْيٌ وَإِرْسَالٌ إِلَـيْـهِ وَذَاكَ فِي الشْـ شُـورَى أَتَـى فِـي أَحْـسَـنِ الـتِّـبْـيَـانِ

الشرح: وكذلك يترتب على انتفاء صفة الكلام عن الله ﷻ انتفاء النبوات والرسالات وجحدها؛ إذ لا معنًى لرسالة المبعوث إلا تبليغ كلام من أرسله، من أوامر ونواه، وإخبار بلا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. فإذا لَم يكن المرسل متكلمًا؛ لَم تتحقق ماهية الرسالة، وتتعطل وظيفة الرسول، وهي التبليغ؛ لانتفاء المبلغ.

وكذلك حقيقة الإرسال هي نفس خطابه للمرسلين المأمور بتبليغه إلى الخلق، وهذا الخطاب نوعان:

نوع: يكون بلا واسطة، وهو تكليمه للرسول مشافهة من وراء حجاب ككلامه لموسى، ومحمد، وجبريل -عليهم الصلاة والسلام-:

والثاني: يكون بواسطة، وهو أيضًا نوعان:

نوع: يكون بالوحي وإلقاء المعنى فِي القلب، وهو المعبر عنه بالنفث فِي الروع.

وآخر: يكون بإرسال الملك، إما على حالته الملكية، وهذا لَم يقع إلا لنبينا مُحمَّد -صلوات الله وسلامه عليه وآله- وقع له مرتين، وإما على صورة بشر.

وقد جمع أنواع الوحي كلها فِي الآية الكريمة الَّتِي فِي أواخر سورة الشورى حيث قال: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

فصل في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام

وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ فَضِدُّهَا خَـرَسٌ وَذَلِـكَ غَـايَـةُ الـنُّـقْـصَـانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي هُـوَ قَـابِـلٌ مِـنْ أُمَّـةِ الْـحَـيَـوَانِ
وَالرَّبُّ لَيسَ بِقَابِلٍ صِفَةَ الْكَلَا مِ فَـنَـفْـيُـهَـا مَـا فِـيـهِ مِـنْ نُـقْـصَـانِ

فَـيـقَـالُ سَـلْـبُ كَـلَامِـهِ وَقَـبُـولُـهُ ... صِـفَـةَ الْـكَـلَامِ أَتَـمُّ لِـلـنُّـقْـصَـانِ
إِذْ أَخْـرَسُ الإِنـسَـانِ أَكْـمَـلُ حَـالَـةً ... مِـنْ ذَا الْـجَـمَـادِ بِـأَوْضَـحِ الْـبُـرْهَـانِ
فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التْ ... تَـجْـسِـيـمِ وَالـتَّـشْـبِـيـهِ بِـالإِنْـسَـانِ
وَوَقَـعْـتَ فِـي تَـشْـبِـيـهِـهِ بِـالـجَـامِـدَا ... تِ الـنَّـاقِـصَـاتِ وَذَا مِـنَ الْـخِـذْلَانِ
الـلـهُ أَكْـبَـرُ هُـتِّـكَـتْ أَسْـتَـارُكُـمْ ... حَـتَّـى غَـدَوْتُـمْ ضُـحْـكَـةَ الـصِّـبْـيَـانِ

الشرح: ويلزم هؤلاء النفاة أيضًا أن اللَّه إذا لَم يكن متصفًا بصفة الكلام؛ كان متصفًا بضدها، وهو الخرس، والخرس: نقص، والنقص محال على اللَّه تعالى، فإن قالوا فِي الجواب عن ذلك: لا يلزم من نفي صفة الكلام عن اللَّه ثبوت ضدها، وهو الخرس له؛ لأن الخرس: هو عدم الكلام عما من شأنه أن يكون متكلمًا من أمة الحيوان، فالتقابل بين الكلام والخرس هو تقابل بين الملكة وعدمها، فلا يتصف بالخرس الذي هو عدم الكلام إلا ما كان قابلًا لصفة الكلام، أما ما ليس قابلًا لَها، ولا من شأنه الاتصاف بِها؛ فلا يقال له: أخرس، واللَّه ﷻ ليس قابلًا لصفة الكلام، فنفيها عنه لا يترتب عليه اتصافه بالخرس الذي هو نقصان.

فنقول لهم: إن جوابكم هذا كان «ضِغْثًا على إبَّالة» وزاد مذهبكم شناعة، فإنكم لَم تكتفوا بأن سلبتموه صفة الكلام حَتَّى سلبتم عنه قبوله للصفة، وأنه ليس أهلًا للاتصاف بِها، وأي نقصان أعظم من هذا وقد سويتموه بالجمادات الَّتِي ليس من شأنِها الكلام، وأيُّهما أكمل فِي رأيكم هذا: الجماد الذي ليس قابلًا للكلام، أم الأخرس من الإنسان؟! لا شك أن الأخير أكمل ببديهة العقل، ولكنكم جحدتم أوصاف الكمال ومنها الكلام؛ فرارًا من تشبيه اللَّه بالإنسان، فوقعتم فِي شر مِمَّا فررتم منه، حيث شبهتموه بالجمادات الناقصة الَّتِي ليس من شأنِها أن تسمع، وتبصر، وتعلم، وتقدر، وتريد، وتتكلم، وهذا من أعظم الخذلان الذي رماكم اللَّه به حَتَّى كشف عوراتكم، وفضح سرائركم حَتَّى أصبحت مذاهبكم مضحكة للصبيان، لما فيها من التخليط والهذيان والكذب والبهتان.

* * *

فصل في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقه وباطله عين كلام الله سبحانه

أَوَلَيسَ قَدْ قَامَ الدَّلِيلُ بِأَنَّ أَفْـ ... ـعَالَ الْعِبَادِ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ
مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ يحْـ ... ـصِيهَا الَّذِي يُعْنَى بِهَذَا الشَّانِ
فَيكُونُ كُلُّ كَلَام هَذَا الْخَلْقِ عَيـ ... ـنَ كَلَامِهِ سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ
إِذْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَيهِ كَلَامُهُ ... خَلْقًا كَبَيتِ اللهِ ذِي الأَرْكَانِ
هَذَا وَلَازِمُ قَوْلِكُمْ قَدْ قَالَهُ ... ذُو الاتِّحَادِ مُصَرِّحًا بِبَيَانِ
حَذَرَ التَّنَاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْتُمْ وَلَـ ... ـكِنْ طَرْدُهُ فِي غَايَةِ الْكُفْرَانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ تَخْصِيصَ الْقُرَا ... نِ كَبَيتِهِ وَكِلَاهُمَا خَلْقَانِ
فَيقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لَا ينْفِي الْعُمُو ... مَ كَرَبِّ ذِي الأَكْوَانِ
وَيقَالُ رَبُّ الْعَرْشِ أَيضًا هَكَذَا ... تَخْصِيصُهُ لإِضَافَةِ الْقُرْآنِ
لَا يمْنَعُ التَّعْمِيمَ فِي الْبَاقِي وَذَا ... فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

الشرح: وهذا إلزام آخر يوجهه المؤلف إلى هؤلاء النفاة الذين نفوا صفة الكلام عن اللَّه ﷻ، وزعموا أن كلامه هو ما يخلقه فِي غيره، منفصلًا عنه، فيقال لهم: قد قامت الأدلة المتكاثرة الَّتِي تبلغ ألف دليل، أو قريبًا منها، على أن جَميع أفعال العباد مخلوقة للَّه، ولا شك أن كلامهم من جملة هذه الأفعال، فيكون مخلوقًا للَّه أيضًا، فإذا صح زعمكم فِي أن كلام اللَّه هو ما يخلقه فِي غيره، وأن نسبته إليه هي نسبة المخلوق إلى خالقه، لا نسبة الصفة إلى موصوفها كنسبة البيت صاحب الأركان -يعني: الكعبة- إليه؛ لزم أن يكون كل كلام هذا الخلق، حقه وباطله، جده وهزله، عين كلامه سبحانه، فإنه يصدق عليه التعريف الذي عرفتم به كلام اللَّه، حيث قلتم: هو ما يخلقه فِي غيره، منفصلًا عنه. وهذا اللازم فِي غاية الفساد والبطلان، وقد صرح به الاتحادية، أصحاب مذهب وحدة الوجود، بزعامة الزنديق ابن عربي، وفي ذلك يقول شاعرهم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَينَا نَثْرُهُ وَنِظَامُه

وذلك خوف الوقوع فِي التناقض، حيث كان مذهبهم قائمًا على أنه ليس ثَمَّ إلا وجود واحد، وأن هذه الموجودات الَّتِي من جملتها الإنسان إنَّما هي صور ومظاهر لهذا

الوجود، فيكون الكلام الصادر من بعض هذه المظاهر هو كلامه، إذ ليس ثمة غيره، وهكذا طرد الاتحادية هذا اللازم، والتزموا، فوقعوا فِي غاية الكفر والتعطيل، والحمد للَّه رب العالمين.

فإن زعم النفاة أن تخصيص القرآن بالإضافة إليه هو كتخصيص البيت بِها، مع أن كلًّا منهما مخلوق؛ فلا يلزم أن يكون كل ما خلقه اللَّه من الكلام في غيره تجوز إضافته إليه على أنه كلامه، كما لا يلزم أن يكون كل ما خلقه اللَّه من الأبنية يضاف إليه على أنه بيته.

فالجواب: أن هذا التخصيص لا ينفي العموم، ألا ترى أنه يجوز لك أن تقول: رب العرش على سبيل التخصيص، ثُمَّ تقول: رب الأكوان، الَّتِي من جملتها العرش على جهة التعميم، فكذلك تخصيصه سبحانه لإضافة القرآن إليه لا يمنع التعميم فِي الباقي، أي فيما وراءه من الكلام، وذلك أمر فِي غاية الظهور والبيان.

فصل في التفريق بين الخلق والأمر

وَلَقَدْ أَتَى الْفُرْقَانُ بَينَ الْخَلْقِ وَالْـ ... أَمْـرِ الـصَّرِيـحِ وَذَاكَ فِـي الْـفُـرْقَـانِ

وَكِـلَاهُـمَـا عِـنْـدَ الْـمُـنَـازِعِ وَاحِـدٌ ... وَالْـكُـلُّ خَـلْـقٌ مَـا هُـنَـا شَـيْـئَـانِ

وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمْ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ ... نَـوْعٍ عَـلَـيْـهِ وَذَاكَ فِـي الْـقُـرْآنِ

فَـيُـقَـالُ هَـذَا ذُو امْـتِـنَـاعٍ ظَـاهِـرٍ ... فِـي آيَـةِ الـتَّـفْـرِيـقِ ذُو تِـبْـيَـانِ

فَـالـلـهُ بَـعْـدَ الْـخَـلْـقِ أَخْـبَـرَ أَنَّـهَـا ... قَـدْ سُـخِّـرَتْ بِـالأَمْـرِ لِـلْـجَـرَيَـانِ

وَأَبَـانَ عَـنْ تَـسْـخِـيـرِهَـا سُـبْـحَـانَـهُ ... بِـالأَمْـرِ بَـعْـدَ الْـخَـلْـقِ بِـالـتِّـبْـيَـانِ

الشرح: ومما يرد به أيضًا على هؤلاء القائلين بخلق القرآن: أن اللَّه ﷻ فرق فِي كتابه بين الخلق والأمر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]. فقد عطف الأمر على الخلق، ولا شك أن العطف مؤذن بمغايرة المعطوف للمعطوف عليه، فإن قال المنازع: إن الخلق والأمر شيء واحد، ليس بينهما تغاير، وأن عطف الأمر على الخلق هو من قبيل عطف الخاص على العام، أعني من قبيل عطف فرد من أفراد النوع عليه كما فِي قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[القدر: ٤]. ولا شك أن الروح فرد من أفراد الملائكة.

قلنا: هذا النوع من العطف وإن كان جائزًا فِي غير هذا الموضع، إلا أنه فِي هذه الآية ظاهر الامتناع، فإن اللَّه ﷻ أخبر عن خلقها أولًا؛ لأن قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ عطف على السموات الذي هو مفعول خلق، ثُمَّ أخبر بعد ذلك أنه سخرها بالأمر فِي قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[الأعراف: ٥٤]. ثُمَّ قال عقب ذلك: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[الأعراف: ٥٤]. فدل ذلك على أن الخلق غير الأمر، وأنَّها بعد الخلق سخرت بالأمر، وهذا أمر من الوضوح بمكان.

* * *

وَالأَمْـرُ إِمَّـا مَـصْـدَرٌ أَوْ كَـانَ مَـفْـ ... ـعُـولًا هُـمَـا فِـي ذَاكَ مُـسْـتَـوِيَـانِ
مَـأْمُـورُهُ هُـوَ قَـابِـلٌ لِـلأَمْـرِ كَـالْـ ... ـمَـصْـنُـوعِ قَـابِـلُ صَـنْـعَـةِ الرَّحْـمَـنِ
فَإِذَا انْتَفَى الأَمْرُ انْتَفَى الْمَأْمُورُ كَالْـ ... ـمَـخْـلُـوقِ يـنْـفَـى لانْـتِـفَـا الْـحِـدْثَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى نَظْمِ السِّيَاقِ تَجِدْ بِهِ ... سِـرًّا عَـجِـيـبًـا وَاضِـحَ الْـبُـرْهَـانِ
ذَكَـرَ الْـخُـصُـوصَ وَبَـعْـدَهُ مُـتَـقَـدِّمًـا ... وَالْـوَصْـفَ وَالـتَّـعْـمِـيـمَ فِـي ذَا الـثَّـانِـي
فَـأَتَـى بِـنَـوْعَـي خَـلْـقِـهِ وَبِـأَمْـرِهِ ... فِـعْـلًا وَوَصْـفًـا مُـوجَـزًا بِـبَـيَـانِ
فَـتَـدَبَّـرِ الْـقُـرْآنَ إِنْ رُمْـتَ الْـهُـدَى ... فَـالْـعِـلْـمُ تَـحْـتَ تَـدَبُّـرِ الْـقُـرْآنِ

الشرح: قد يقول المنازع فِي المغايرة بين الخلق والأمر: إن الأمر هنا مصدر بِمعنى: المأمور، كما يقال: الخلق بِمعنى: المخلوق. ولا شك أن المأمور لا يكون إلا مخلوقًا، فلا يلزمه التغاير بين الخلق والأمر.

فنقول له: سواء جعل الأمر هنا مصدرًا بِمعنى أحد الأوامر، أو كان مفعولًا؛ فهما سواء فِي مغايرتِهما للخلق والمخلوق، فإن المأمور هو القابل للأمر كالمصنوع لقابل الصنعة، وعلى هذا؛ فالمأمور فرع الأمر، فإذا لَم يكن ثمة أمر؛ فلا مأمور، كما أن المخلوق الذي هو فرع الخلق ينتفي لانتفاء الحدثان، يعني: الخلق، فتبين أن الخلق غير الأمر، كما أن الفعل غير المفعول، والأمر ينشأ عنه المأمورات والشرائع، وأما الخلق فتنشأ عنه المخلوقات كلها.

واعلم أن الناظر فِي سياق الآية الكريمة يجد سرًّا عجيبًا، فإن اللَّه ﷻ ذكر خلقه للسموات والأرض على وجه الخصوص، ثُمَّ ذكر تسخيره للشمس والقمر والنجوم بأمره على وجه الخصوص أيضًا، وصرح فيهما بالفعل، ثُمَّ أتى بعد ذلك بالخلق والأمر وصفين

على جهة التعميم في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فيكون سبحانه قد جمع بين نوعي الخلق: الفعلي والوصفي، وبين نوعي الأمر كذلك في أبلغ عبارة وأوجز بيان، فما أجدر طالب الهدى أن يتدبر كتاب الله ﷻ، فإن العلم كله في تدبر القرآن.

فصل في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان

وَاللهُ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ بِأَنَّهُ ... مِنْهُ وَمَجْرُورٌ بِـ «مِنْ» نَوْعَانِ

عَيْنٌ وَوَصْفٌ قَائِمٌ بِالْعَينِ فَالْـ ... أَعْيَانُ خَلْقُ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

وَالْوَصْفُ بِالْمَجْرُورِ قَامَ لأَنَّهُ ... أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

وَنَظِيرُ ذَا أَيضًا سَوَاءٌ مَا يضَا ... فُ إِلَيهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ

فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ ... قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ

وَإِضَافَةُ الأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ ... مِلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سِيَّانِ

فَانْظُرْ إِلَى بَيتِ الإِلَهِ وَعِلْمِهِ ... لَمَّا أُضِيفَا كَيفَ يفْتَرِقَانِ

وَكَلامُهُ كَحَيَاتِهِ وَكَعِلْمِهِ ... فِي ذِي الإِضَافَةِ إِذْ هُمَا وَصْفَانِ

لَكِنَّ نَاقَتَهُ وَبَيتَ إِلَهِنَا ... فَكَعَبْدِهِ أَيضًا هُمَا ذَاتَانِ

فَانْظُرْ إِلَى الْجَهْمِي لَمَّا فَاتَهُ الْـ ... حَقُّ الْمُبِينُ وَوَاضِحُ الْبُرْهَانِ

كَانَ الْجَمِيعُ لَدَيهِ بَابًا وَاحِدًا ... وَالصُّبْحُ لاحَ لِمَنْ لَهُ عَينَانِ

الشرح: يريد المؤلف في هذا الفصل أن يفرق بين ما كان من الأعيان، مخبرًا عنه أنه من الله، وبين ما كان من الأوصاف كذلك، وأن يفرق أيضًا بين ما كان من الأعيان مضافًا إلى الله، وبين ما كان من الأوصاف كذلك، فيقول: إن الله قد أخبر في القرآن بأن القرآن منه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]. وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]. وهذا المخبر عنه بأنه من الله على نوعين؛ لأنه إما أن يكون عينًا من الأعيان، أو وصفًا قائمًا بالعين، فإن كان عينًا؛ فمعنى كونه من الله: أنه هو خالقه سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]. وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. والآيات

كثيرة فِي هذا الباب .

وإن كان وصفًا ، فمعنى كونه من اللَّه : أنه صفة له كما فِي الآيات السابقة الَّتِي أخبر اللَّه فيها عن القرآن بأنه منه ، وهذا معنَى قول المؤلف : «والوصف بالمجرور قام» يعنِي : أن ما أخبر عنه بـ«من» إن كان وصفًا ؛ فهو قائم بالمجرور بِها ؛ لأنه أحق به فِي عرف أهل اللغات جميعًا .

ومثل ذلك تَمامًا يقال فيما يضاف إلى اللَّه ﷻ، فإن كان عينًا مثل بيت اللَّه ، وناقة اللَّه ، وعباد الرحمن؛ فنسبته إليه ثابتة خلقًا وملكًا ، وتكون إضافته للاختصاص والتشريف ، وأما إن كان وصفًا كعلم اللَّه وقدرته وإرادته وكلامه وحياته ؛ فهذه الإضافة تقتضي قيامها باللَّه وأنه موصوف بِها ، وتدبر هذا الفرق بين قولك : بيت اللَّه ، وعلم اللَّه . فإن كلًّا منهما يضاف إلى اللَّه ، ولكن لما كانت إضافة الأول إضافة ذات ؛ دلت على أنه مخلوق ، ولما كانت إضافة الثاني إضافة معنًى ؛ دلت على أنه صفة للمضاف إليه ، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق ؛ هدوا إلى الصراط المستقيم ، ولما ضل عنه الجهمي الزائغ ؛ جعل الجميع بابًا واحدًا ، ولَم يفرق بين الأوصاف والأعيان ، فوقع فِي الضلال والبهتان .

* * *

وَأَتَى ابْنُ حَزْمٍ بَعْدَ ذَاكَ فَقَالَ مَا ... لِلنَّاسِ قُرْآنٌ وَلَا إِثْنَانِ

بَلْ أَرْبَعٌ كُلٌّ يُسَمَّى بِالْقُرَا ... نِ وَذَاكَ قَوْلٌ بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

هَذَا الَّذِي يُتْلَى وَآخَرُ ثَابِتٌ ... فِي الرَّسْمِ يدْعَى الْمُصْحَفَ الْعُثْمَانِي

وَالثَّالِثُ الْمَحْفُوظُ بَينَ صُدُورِنَا ... هَذِي الثَّلَاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

وَالرَّابِعُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ كَعِلْمِهِ ... كُلٌّ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْقُرْآنِ

وَأَظُنُّهُ قَدْ رَامَ شَيئًا لَمْ يجِدْ ... عَنْهُ عِبَارَةَ نَاطِقٍ بِبَيَانِ

إِنَّ الْمُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِبَ أَرْبَعٍ ... عُقِلَتْ فَلَا تَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

فِي الْعَينِ ثُمَّ الذِّهْنِ ثُمَّ اللَّفْظِ ثُمْ ... مَ الرَّسْمِ حِينَ تَخُطُّه بِبَنَانِ

وَعَلَى الْجَمِيعِ الإِسْمُ يطْلَقُ لَكِنِ الْ ... أَوْلَى بِهِ الْمَوْجُودُ فِي الأَعْيَانِ

بِخِلَافِ قَوْلِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَإِنَّهُ ... قَدْ قَالَ إِنَّ الْوَضْعَ لِلأَذْهَانِ

الشرح: جاء بعد ذلك ابن حزم الظاهري الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، فزعم أنه ليس هناك قرآن واحد ولا قرآنان، ولكن هناك أربع قرآنات، كل منها يصح أن يقال له: قرآن. إلا أن منها ثلاثة مخلوقة، وهي المتلو بالألسنة، والمكتوب في المصحف، والمحفوظ في الصدر، وأما الرابع: وهو المعنى القائم بذاته تعالى فقديم كعلمه، والظاهر أن ابن حزم أراد بكلامه هذا أن القرآن المعين الواحد بالشخص له مراتب أربعة من الوجود:

أولها: وجوده في الأعيان، أي: في الوجود الخارجي، وهو القرآن القائم بذاته تعالى.

وثانيها: وجوده في الذهن.

وثالثها: وجوده في اللفظ.

ورابعها: وجوده في الرسم. يعني: الكتابة.

وهو في كل مرتبة من هذه المراتب يطلق عليه اسم القرآن لكن أولاها بهذا الاسم الموجود في الأعيان، وخالفه في هذا فخر الدين الرازي، فقال: إن لفظ القرآن إنَّما هو موضوع للموجود في الأذهان. ولا شك أن هذا الذي قاله ابن حزم هو قول الكلابية والأشعرية مع فارق بسيط، وهو أن ابن حزم يسمي هذا المتلو المحفوظ المكتوب قرآنًا، وأما الكلابية والأشعرية، فيقولون: إنه عبارة أو حكاية عنه. كما سبق، وإن كان متفقًا معهم في القول بأنه مخلوق.

* * *

فَالشَّيءُ شَيءٌ وَاحِدٌ لَا أَرْبَعٌ ... فَدَهَى ابْنَ حَزْمٍ قِلَّةُ الْعِرْفَانِ

وَاللهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْفُرْقَانِ

وَكَذَاكَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كِتَابَهُ ... بِصُدُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَكْتُوبُ فِي ... صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ وَالْـ ... ـمَقْرُوءُ عِنْدَ تِلَاوَةِ الإِنْسَانِ

وَالْكُلُّ شَيءٌ وَاحِدٌ لَا أَنَّهُ ... هُوَ أَرْبَعٌ وَثَلَاثَةٌ وَاثْنَانِ

الشرح: يرد المؤلف على سخافة ابن حزم في قوله بتعدد القرآن تبعًا لتعدد المحال

الَّتِي يوجد فيها، وموافقته، للكلابية والمعتزلة فِي أن القرآن اللفظي المقروء بالألسنة، والمكتوب فِي المصاحف، والمحفوظ فِي الصدور مخلوق، يرد عليه بأن القرآن فِي نفسه شيء واحد، وهو ما تكلم اللَّه ﷻ به بصوت نفسه، وسمعه منه أمين الوحي جبريل ﷺ، فإذا أداه جبريل بعد ذلك إلى مُحمَّد ﷺ، ثُمَّ أداه مُحمَّد إلى أمته، وأمر بكتابته فِي المصاحف، وحفظه فِي صدور أهل الحفظ من أصحابه؛ لَم يخرج فِي هذه الأحوال كلها عن كونه كلام اللَّه ﷻ، فإن الكلام إنَّما ينسب إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا، فالقرآن كلام اللَّه على أي نحو كان من أنحاء الوجود ومراتبه، فمهما تلاه القارئون، أو حفظه الحفظة، أو رقمه الكاتبون، فهو كلام اللَّه على الحقيقة، منَزل غير مخلوق، ليس المتلو قرآنًا آخر غير ما تكلم اللَّه به، ولا المحفوظ غير المتلو، ولا المرقوم غير المحفوظ، بل هو هو بعينه فِي جَميع ذلك، وهذا أمر ظاهر لا تجوز فيه المكابرة؛ ولهذا أخبر اللَّه عن القرآن خبرًا واحدًا فِي أحواله كلها، فأخبر أنه كلامه وتنْزيله، وأنه آيات بينات فِي صدور الذين أوتوا العلم، وأنه مكتوب فِي صحف مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة، وأخبر أنه هو المقروء المتلو عند تلاوة الإنسان، كما فِي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]. إلخ الآيات، والكل شيء واحد، لا هو أربعة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، وإنَّما أتى ابن حزم من جهله بالتفرقة بين المتلو والتلاوة، وبين المكتوب والكتابة، فقال ما قال مِمَّا يبرأ منه أهل الإيمان.

* * *

وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ أَفْعَالٌ لَنَا ... وَكَذَا الْكِتَابَةُ فَهْيَ خَطُّ بَنَانِ

لَكِنَّمَا الْمَتْلُوُّ وَالْمَكْتُوبُ وَالْـ ... ـمَحْفُوظُ قَوْلُ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

وَالْعَبْدُ يَقْرَؤُهُ بِصَوْتٍ طَيِّبٍ ... وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ صَوْتَانِ

وَكَذَاكَ يَكْتُبُهُ بِخَطٍّ جَيِّدٍ ... وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ خَطَّانِ

أَصْوَاتُنَا وَمِدَادُنَا وَأَدَاوُنَا ... وَالرَّقُّ ثُمَّ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ

وَلَقَدْ أَتَى فِي نَظْمِهِ مَنْ قَالَ قَوْ ... لَ الْحَقِّ وَالإِنْصَافِ غَيْرَ جَبَانِ

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

فَشَفَى وَفَرَّقَ بَيـنَ مَتْلُوٍّ وَمَصْـ ... نُـوعٍ وَذَاكَ حَـقِـيـقَـةُ الْـعِـرْفَـانِ

الشرح: يقصد المؤلف بهذه الأبيات أن يرد على شبهة قد تعلق ببعض الأذهان وهي أنه كيف يكون هذا المتلو بالألسنة، أو المكتوب في المصاحف كلام اللَّه غير مخلوق، مع أن القارئ يحدثه بصوته، وينطق به حروفًا وألفاظًا، وكذلك الكاتب، يرقمه بالمداد في الرق، فهو يحدثه ببنانه وقلمه؟.

والجواب عن هذه الشبهة: هو أنه يجب أن نفرق بين التلاوة والمتلو، وبين الكتابة والمكتوب، فكل من التلاوة والكتابة فعل العبد، وهو مخلوق، وأما المتلو والمكتوب والمحفوظ فهو كلام اللَّه وقوله -جل شأنه- ولهذا تختلف القراءة تجويدًا ولحنًا، وتختلف أصوات القارئين قباحة وحسنًا، ولكن المقروء لا يختلف، وكذلك تختلف الكتابة بين خط جيد، وآخر رديء، والمكتوب واحد، فأصوات القارئين، ومداد الكاتبين، وأقلامهم، والأوراق الَّتِي يكتبون عليها، وفعلهم الكتابة، كل ذلك أفعال للعباد مخلوقة، وأما المثبت في المصاحف بأنامل الأشياخ والشبان؛ فهو كلام اللَّه، وقوله: «بآياته وحروفه» فالمعرفة الحقة تقتضي التفرقة بين المتلو الذي هو كلام اللَّه، وبين المصنوع الذي هو من فعل العبد.

* * *

الْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَيسَ كَلَامُهُ الْـ ... ـمَتْلُوُّ مَخْلُوقًا هُنَا شَيـئَانِ
فَعَلَيكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْـ ... إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ ... أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ
وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَا ... بِاللَّامِ قَدْ يُعْنَى بِهَا شَيـئَانِ
يعْنَى بِهِ الْمَتْلُوُّ فَهْوَ كَلَامُهُ ... هُوَ غَيرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ
وَيُرَادُ أَفْعَالُ الْعِبَادِ كَصَوْتِهِمْ ... وَأَدَائِهِمْ وَكِلَاهُمَا خَلْقَانِ

الشرح: يعني: أن كل ما ذكر مِمَّا هو من فعل العبد وصنعه، كصوت القارئ، وكتابة الكاتب، وما يستخدمه في كتابته من مداد، وورق، وأقلام، فهو مخلوق، وأما كلامه هو سبحانه المتلو بتلك التلاوة، أو المكتوب بتلك الكتابة؛ فليس مخلوقًا، فيجب أن تفرق وتميز بين الأمرين، وألَّا تحكم حكمًا إجماليًّا مطلقًا دون تفصيل، فإنه ما أفسد هذا الوجود، وأوقع الشجار والنِّزاع بين الطوائف، وأضل العقول والأفكار، إلا عدم التفصيل

والبيان، والتحديد لمعاني الألفاظ المجملة الَّتِي قد يقع فِي معانيها احتمال واشتباه، وبعض هذه المعاني يكون صحيحًا مرادًا، وبعضها يكون فاسدًا غير مراد، فتشبث طوائف المبتدعة بتلك المعاني الفاسدة، وتفسر الألفاظ بِها، فتقع فِي الضلال؛ ولهذا كان شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يعني بتحديد معاني الألفاظ عند مناقشته لفرق الزيغ والضلال، ويطالبهم بتحديد مرادهم منها، وهذا تلميذه النابغة يوصي بِما أوصى به شيخه، مبينًا أن الفساد كله إنَّما ينشأ عن الإطلاق والإجمال، ففي المسألة الَّتِي معنا: لا يجوز مثلًا إطلاق القول بأن القرآن مخلوق، أو غير مخلوق، بل يجب التفصيل، فإن كان المراد بالقرآن نفس ألفاظ القارئ وصوته وأداءه؛ فذلك ولا شك مخلوق، وأما إن كان المراد به المتلو المؤدى، فهذا كلام اللَّه غير مخلوق.

وكذلك لفظ التلاوة، إذا عرف باللام كان محتملًا لمعنيين: أن يراد به المتلو، فيكون غير مخلوق كهذه الأكوان المخلوقة، وقد يراد به أفعال العباد من أدائهم وأصواتِهم، فهذا مخلوق.

* * *

هَذَا الَّذِي نَصَّتْ عَلَيهِ أَئِمَّةُ الْـ ... إِسْلَامِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ

وَهُوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَارِي الرِّضَا ... لَكِنْ تَقَاصَرَ قَاصِرُ الأَذْهَانِ

عَنْ فَهْمِهِ كَتَقَاصُرِ الأَفْهَامِ عَنْ ... قَوْلِ الإِمَامِ الأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي

فِي اللَّفْظِ لَمَّا أَنْ نَفَى الضِّدَّيْنِ عَنْـ ... ـهُ وَاهْتَدَى لِلنَّفْي ذُو عِرْفَانِ

فَاللَّفْظُ يصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا ... كَتَلَفُّظٍ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ يصْلُحُ نَفْسَ مَلْفُوظٍ بِهِ ... وَهْوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُحْتَمَلَانِ

فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الإِطْلَاقَ فِي ... نَفْي وَإِثْبَاتٍ بِلَا فُرْقَانِ

الشرح: يعني: أن هذا الذي ذكره من التمييز بين التلاوة والمتلو، وبين الكتابة والمكتوب، هو الذي نصت عليه أئمة الهدى، أهل العلم الصحيح، والمعرفة الحقة، وهو الذي قصد إليه الإمام البخاري المرضي العقيدة والإيمان، ولكن بعض قصار النظر مِمَّن قلَّت درايتهم بِهذه الشئون تقاصروا عن فهم كلامه، ولَم يفطنوا إلى ما قصده بِهذا التفصيل من رفع الإيهام وإزالة الالتباس، وخشوا أن يتخذ الجهمية والمعتزلة من كلامه سلَّمًا إلى ما يريدون من إثبات أن القرآن مخلوق، وقد جرت بين الإمام البخاري وبين أحمد بن يَحيى

الذهلي محنة مشهورة سببها سوء فهم الأخير لكلام البخاري وقصده، كما تقاصرت الأفهام أيضًا عن قول الإمام أحمد لما سئل: هل لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ فقال: لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، فأنكروا عليه نفي الضدين عنه، واهتدى أولو المعرفة إلى سر ذلك النفي وحكمته، وذلك أن كلمة اللفظ من الكلمات المجملة الَّتِي لا يجوز الحكم عليها بنفي أو إثبات قبل التفصيل ومعرفة المراد منها، فإنَّها تصلح أن تكون مصدرًا بِمعنى التلفظ، وهي بِهذا المعنى فعل العبد مخلوق.

وتصلح أن يراد منها نفس الملفوظ به، وهو القرآن، فهذان المعنيان محتملان، فلذلك أنكر أحمد رَحِمَهُ اللهُ الإطلاق فِي الإثبات والنفي قبل التفصيل والبيان الذي يحصل به التمييز بين المعنيين، ومعرفة المراد منهما.

فصل في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جَلَّ جَلَالُهُ

وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقُرْمُطِيُّ مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

فَرَآهُ فَيضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ... فَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

حَتَّى تَلَقَّاهُ زَكِي فَاضِلٌ ... حَسَنُ التَّخَيلِ جَيدُ التِّبْيَانِ

فَأَتَى بِهِ لِلْعَالَمِينَ خَطَابَةً ... وَمَوَاعِظًا عَرِيتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ ... رَمَزَتْ إِلَيهِ إِشَارَةً لِمَعَانِ

الشرح: بعد أن بين المؤلف آراء طوائف المتكلمين من معتزلة وجهمية وكلابية وأشعرية وكرامية واقترانية فِي كلام اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وعقب عليها ببيان مذهب السلف القويم؛ أراد -تتميمًا للفائدة، واستيعابًا للآراء- أن يبين مذهب الفلاسفة فِي هذه المسألة.

والفلاسفة: جمع فيلسوف، وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين، فيلو: معناها: محب. وسوفي: ومعناها: العلم أو الحكمة. فيكون معنَى الفيلسوف: محب الحكمة. ومعنى الفلسفة: محبة الحكمة.

وقد اشتهر بالفلسفة قديمًا فِي أثينا من بلاد اليونان: أفلاطون وأرسطو، واشتهر بِها فِي الإسلام الفارابي وابن سينا، وقد ترجمت كتب الفلسفة إلى العربية فِي عهد المأمون الخليفة العباسي ومن بعده، وقد اختلف فِي تحديد معنَى الفلسفة، وأشهر الأقوال: أنَّها البحث عن العلل والمبادئ الأولى للموجودات، وإدراك الحقائق الثابتة للأشياء بقدر

الطاقة البشرية.

ولَم يضع فلاسفة المسلمين فلسفة جديدة، ولكنهم كانوا يؤمنون بالفلسفة اليونانية إيمانًا عميقًا، وينزلونَها من نفوسهم منْزلة الوحي المعصوم، ولما كانت هذه الفلسفة تناقض قواعد الشريعة مناقضة صريحة؛ فقد تظاهر هؤلاء الفلاسفة بأن غرضهم هو التوفيق بين الفلسفة والدين؛ لأن كلًّا منهما حق فِي زعمهم، والحق لا يتناقض، ولكنهم فِي حقيقة أمرهم كانوا زنادقة ملحدين؛ ولهذا تراهم يجعلون مبادئ الفلسفة هي الأصل ويحاولون أن يجروا الدين إليها ويخضعوه لقواعدها، وإذا هم أظهروا شيئًا من الاحترام للنصوص، فإنَّما يفعلون ذلك مصانعة للمسلمين.

ويدلك على مبلغ زندقة هؤلاء الفلاسفة، وبعدهم عن الدين: ما ذهب إليه مقدمهم، وحامل لوائهم، وهو ابن سينا القرمطي فِي كلام اللَّه ﷻ، فهو يرى أنه فيض من العقل الفعال الذي هو العقل العاشر عندهم، ويسمونه عقل القمر، وينسبون إليه جَميع الحوادث فِي عالم العناصر، فهو الذي يفيض الصور على الموجودات، ويَهب الحياة للأحياء، ويفيض العلوم والمعارف على العقول الإنسانية.

ويصور ابن سينا هذا الفيض بأن نفس النَّبِي لشدة صفائها تكون كالمرآة المجلوة، فتنعكس المعاني من العقل الفعال عليها، وتنطبع فيها، ثُمَّ إن القوة المتخيلة للنبي تتلقى هذه المعاني المجردة، فتجسمها فِي حروف وألفاظ، ولما كان خيال النَّبِي ﷺ فِي غاية القوة؛ فإنه يخيل إليه أنه يرى شخصًا خارجًا ويسمع كلامًا، وليس هناك فِي الحقيقة شخص، ولا كلام مسموع من خارج، وإنَّما هو صوت ينبعث من داخل نفسه، وهكذا ينْزل القرآن على النَّبِي، معاني مجردة من العقل الفعال، وهو لقوة بيانه وفصاحته يلبس هذه المعاني ألفاظًا من تأليفه؛ ولهذا جاء به كتاب خطابة ومواعظ، وليس كتاب عقل وبرهان، فهو إنَّما ينفع فِي إقناع العامة والتأثير عليهم ولكنه فِي رأي هذا الملحد وأضرابه لا يصلح للخاصة الذين يطلبون البرهان، وهو فِي رأيه أيضًا لَم يصرح بالحق الذي يجب اتباعه، ولكنه رمز إليه مجرد إشارة لمعان.

يقول ابن سينا فِي رسالته العرشية: «فوصفه بكونه متكلمًا لا يرجع إلى ترديد العبارات، ولا إلى أحاديث النفس، والفكرة المتخيلة المختلفة الَّتِي العبارات دلائل عليها، بل فيضان العلوم منه على لوح قلب النَّبِي ﷺ بواسطة القلم النقاش الذي يعبر عنه بالعقل الفعال والملك المقرب» اهـ. كلامه.

«فالكلام: عبارة عن العلوم الخاصة للنبي ﷺ، والعلم لا تعدد فيه، ولا كثرة: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. بل التعدد إما أن يقع فِي حديث النفس أو الخيال والحس، فالنبي ﷺ يتلقى علم الغيب من الحق بواسطة الملك، وقوة التخيل تتلقى تلك، وتتصورها بصورة الحروف والأشكال المختلفة، وتجد لوح النفس فارغًا، فتنتقش تلك الصور والعبارات فيه، فيسمع منها كلامًا منظومًا، ويرى شخصًا بشريًّا، فذلك هو الوحي؛ لأنه إلقاء الشيء إلى النَّبِي، بلا زمان، فيتصور فِي نفسه الصافية صورة الملقى والملقي. كما يتصور فِي المرآة المجلوة صورة المقابل، فتارة يعبر عن ذلك المنتقش بالعبارة العبرية، وتارة بعبارة العرب، فالمصدر واحد، والمظهر متعدد، فذلك هو سماع كلام الملائكة ورؤيتها، وكلُّ ما عبر عنه بعبارة واقترنت بنفس الصور فذلك هو آيات الكتاب، وكلُّ ما عبر عنه بعبارة نقشية فذلك هو أخبار النبوة».

هكذا يحاول ابن سينا أن يرجع أمر الوحي والنبوة إلى قوة التخيل فِي نفس النَّبِي، زاعمًا أنه إنَّما يرى صورًا، ويسمع أصواتًا من داخل نفسه، لا من الخارج، ولا شك أنه فِي كلامه هذا جار على قواعد الفلسفة فِي مناقضة الشريعة وإبطال النصوص الصريحة الدالة على أن الرسول كان يوحى إليه إما بتكليم اللَّه ﷻ مباشرة، وإما بواسطة ملك من الملائكة منفصل عنه كما دلت عليه آية الشورى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

* * *

وَخِطَابُ هَذَا الْخَلْقِ وَالْجُمْهُورِ بِالْـ ... حَقِّ الصَّرِيحِ فَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

لَا يقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْمَعْقُولِ إِلْـ ... لَا فِي مِثَالِ الْحِسِّ وَالْأَعْيَانِ

وَمَشَارِبُ الْعُقَلَاءِ لَا يرِدُونَهَا ... إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَهُمْ بِأَوَانِي

مِنْ جِنْسِ مَا أَلِفَتْ طِبَاعُهُمُ مِنَ الْـ ... مَحْسُوسِ فِي ذَا الْعَالَمِ الْجُثْمَانِي

فَأَتَوْا بِتَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ وَتَجْـ ... سِيمٍ وَتَخْيِيلٍ إِلَى الْأَذْهَانِ

وَلِذَاكَ يحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ ... لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ

فَإِذَا تَأَوَّلْنَاهُ كَانَ جِنَايَةً ... مِنَّا وَخَرْقَ سِيَاجِ ذَا الْبُسْتَانِ

الشرح: هذا استطراد من المؤلف فِي ذكر بعض من مفتريات هؤلاء المتفلسفة بعد بيان مذهبهم الباطل فِي كلام اللَّه ﷻ، فهم يزعمون أن الرسل -صلوات اللَّه عليهم

وسلامه- لَم يخاطبوا الجمهور بالحق الواضح الصريح، فإن خطابَهم بذلك غير ممكن، ؛ إذ إن مداركهم قاصرة عن فهم الحقائق العقلية المجردة، فلابد من سوقها إليهم فِي مثل مشاهدة وصور عينية محسوسة حَتَّى يطيقوا فهمها، وهم بمعزل عن أن يردوا منابع الحكمة الصافية الَّتِي هي موارد العقلاء إلا إذا وضعت لهم فِي أوانٍ «جمع إناء» يكون من جنس ما اعتادوه وألفته طباعهم فِي عالم المحسوسات، ولذلك أتاهم الرسل بِما يلائم طباعهم ومداركهم من كلام كله تشبيه وتمثيل، وتجسيم وتخييل، فصوروا لهم الحق -تبارك وتعالى- بصورة من يقدر ويريد ويقول ويتكلم، ويسمع ويبصر، ويجيء وينْزل، ويضحك ويعجب، وجعلوا له يدًا وقدمًا ووجهًا وجبينًا.

وكذلك صوروا نعيم الآخرة وعذابَها بصورة محسوسة مألوفة للجمهور، فجعلوا فِي الجنة حورًا وولدانًا، وفاكهة ونخلًا ورمانًا، وفي النار سعيرًا ولهبًا، وعناءً ونصبًا، وحيات وعقارب... إلخ.

ومن أجل أن الجمهور لا يستطيع فهم هذه الحقائق والمعاني المجردة إلا بواسطة هذه الأشياء المحسوسة المتخيلة يحرم تأويله لهم؛ لأنَّهم لا يطيقون فهم هذه التأويلات، فيقعون فِي الضلال، ويبادرون إلى الإنكار، وأما الخاصة من أهل الفلسفة والحكمة، فإن تأويله لهم بِما يبعد عنه هذه التشبيهات والتمثيلات، والصور المادية المحسوسة؛ حلال، بل واجب؛ لأنَّهم يستطيعون إدراك المعاني المجردة المقصودة من وراء هذه الألفاظ، وأما إذا تأولناه للعامة فقد جنينا عليهم وعلى الدين جناية كبرى، وخرقنا سياج بستان الحقائق الذي يجب أن يظل وقفًا على الخاصة وحدهم، ويمنع العامة من ولوجه.

هذا ما يزعمه الفلاسفة، ومن العجيب أن يجاري عالم مسلم، لُقب بحجة الإسلام، واشتغل بالرد على هؤلاء المتفلسفة، وهو الغزالي، هؤلاء الضلال فِي تلك الضلالة، فيبيح التأويل للخاصة، ويمنع منه العامة، ويؤلف فِي ذلك كتابًا يسميه «إلجام العوام عن علم الكلام»، ولو أنصف نفسه؛ لكانت عنده أحق بِهذا اللجام من سائر الأنام، ولِلَّه فِي خلقه حكمة لا تُرام.

* * *

لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنْ قَدْ أَتَوْا ... بِالْكِذْبِ عِنْدَ مَصَالِحِ الإِنْسَانِ
وَالْفَيلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيهِمُ ... مُتَفَاوِتَانِ وَمَا هُمَا عِدْلَانِ
أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيلَسُوفُ عَوَامِّهِمْ ... وَالْفَيلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي الْبُرْهَانِ
وَالْحَقُّ عِنْدَهُمُ فَفِيمَا قَالَهُ ... أَتْبَاعُ صَاحِبِ مَنْطِقِ الْيُونَانِ
وَمَضَى عَلَى هَذِي الْمَقَالَةِ أُمَّةٌ ... خَلْفَ ابْنِ سِينَا فَاغْتَذَوْا بِلِبَانِ
مِنْهُمْ نَصيرُ الْكُفْرِ فِي أَصْحَابِهِ ... النَّاصِرِينَ لِمِلَّةِ الشَّيطَانِ
فَاسْأَلْ بِهِمْ ذَا خِبْرَةٍ تَلْقَاهُمُ ... أَعْدَاءَ كُلِّ مُوَحِّدٍ رَبَّانِي
وَاسْأَلْ بِهِمْ ذَا خِبْرَةٍ تَلْقَاهُمُ ... أَعْدَاءَ رُسْلِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

الشرح: يعني: أن حقيقة قول هؤلاء المتفلسفة: إن الرسل لَم يخاطبوا العامة بالحق الصريح، وأنَّهم إنَّما جاءوا به فِي أثواب مزورة مموهة -هو نسبة هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلى الكذب، ولكنهم يقولون: إنَّهم كذبوا للمصلحة؛ لأن غرضهم هو تنظيم أحوال العامة وإصلاح معاشهم، ولا شك أن هذا منهم كفر بالرسل وبالشرائع، وقدح فِي العصمة الواجبة للأنبياء.

ومن كفرهم أيضًا: أنَّهم يجعلون الفيلسوف فوق منْزلة الرسول، ويقولون: إن الرسل إنَّما بعثوا للعامة، فهم فلاسفة العوام، ولكن الفيلسوف هو نبِي أصحاب العقول من الخاصة الذين يطلبون الحقائق بالبراهين، والحق عندهم فيما قاله أرسطو صاحب المنطق وأتباعه من المشائين، لا فيما قاله رسل رب العالمين.

هذا ما قاله ابن سينا، ذلك الفيلسوف الملحد، ومضت عليه أمة من بعده اغتذت بلبانه، منهم ذلك المارق المسمى بالخوجة نصير الدين الطوسي، وما كان إلا ناصرًا للكفر والإلحاد، وكذلك أصحابه من أنصار ملة الشيطان، فاسأل بِهؤلاء خبيرًا ينبيك عن عداوتِهم لأهل التوحيد ولرسل اللَّه والقرآن.

* * *

صُوفِيُّهُمْ عَبْدُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْـ ... مَعْدُومِ عِنْدَ الْعَقْلِ فِي الأَعْيَانِ
أَوْ مُلْحِدٌ بِالإِتِّحَادِ يَدِينُ لَا التْـ ... تَوْحِيدِ مُنْسَلِخٌ مِنَ الأَدْيَانِ
مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ فِيهِ يَرَى ... وَصْفَ الْجَمَالِ وَمَظْهَرَ الإِحْسَانِ

اللهُ أَكْبَرُ كَمْ عَلَى ذَا الْمَذْهَبِ الْـ ... مَلْعُونِ بَيـنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ
يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً وَيقَبِّلُو ... نَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ
وَلَوَ انَّهُمْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ ... رَجَمُوهُمُ لَا شَكَّ بِالصَّوَّانِ
فَابْذُرْ لَهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْفَهُمْ ... وَافْرِشْ لَهُمْ كَفًّا مِنَ الأَتْبَانِ
وَاظْهَرْ بِمَظْهَرِ قَابِلٍ مِنْهُمْ وَلَا ... تَظْهَرْ بِمَظْهَرِ صَاحِبِ النُّكْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى أَنْهَارِ كُفْرٍ فُجِّرَتْ ... وَتَهِمُّ لَوْلَا السَّيفُ بِالْجَرَيَانِ

الشرح: يعني: أن صوفي هؤلاء المارقين، وهو محيي الدين بن عربي، وأشياعه من أصحاب وحدة الوجود يعبد وجودًا مطلقًا كليًا، ولا وجود له فِي الأعيان، وإنَّما هو معنى معقول فِي الأذهان، وهو كذلك ملحد منسلخ عن الأديان؛ لأنه يدين بالاتحاد الذي هو اعتقاد أن اللَّه والعالم شيء واحد، وأن الخلق عين الخالق، ولا يدين بالتوحيد الذي بعث اللَّه به أنبياءه ورسله، وهو يزعم أن اللَّه فِي كل شيء، فيتخذ من جَميع مظاهر الوجود معبودات له، وأعظم مظهر عنده مظهر الرب فيه هو المرأة؛ ولذلك كانت أحق بالعبادة من سائر مظاهر الوجود؛ وحيث يرى فيها وصف الجمال ومظهر الإحسان.

هذه حقيقة هذا المذهب الملعون الذي يدين به هذا الزنديق وأتباعه، وإن تعجب فعجب أن ترى شيوخًا على هذا المذهب الخبيث، والناس يقبلون عليهم ويتبركون بِهم، ويقبلون منهم الأيدي؛ طمعًا فِي مغفرة اللَّه، ولو عرفوا حقيقتهم وانكشف لهم أمرهم؛ لرجموهم بالحجارة الصلبة الَّتِي تدمي وجوههم، وتمزق جلودهم، جزاء كفرهم وشرهم، فإذا أردت أن تعرفهم، وتكشف حقيقتهم؛ فلا تبادرههم بالإنكار، ولكن تلطف معهم، وأظهر لهم الطاعة والخضوع، فترى عند ذلك أنْهارًا من الكفر العظيم يفجرونَها، ولولا خوفهم من السيوف لنشروها وأذاعوها بين الناس.

فصل في مقالات طوائف الاتّحادية في كلام الرب جَلَّ جَلَالُهُ

وَأَتَتْ طَوَائِفُ الاتِّحَادِ بِمِلَّةٍ ... طَمَّتْ عَلَى مَا قَالَ كُلُّ لِسَانِ
قَالُوا كَلَامُ اللهِ كُلُّ كَلَامِ هَـ ... ـذَا الْخَلْقِ مِنْ جِنٍّ وَمِنْ إِنْسَانِ
نَظْمًا وَنَثْرًا زُورَهُ وَصَحِيحَهُ ... صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلَانِ
فَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ الْقَبِيحُ وَقَذْفُهُمْ ... لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعِ أَغَانِ

وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْمُبِيـ ـنُ وَسَائِرُ الْبُهْتَانِ وَالْهَذَيَانِ
هُوَ عَيْنُ قَوْلِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَكَلَامُهُ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ
هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ أَصْلُهُمْ وَعَلَيْهِ قَامَ مُكَسَّحُ الْبُنْيَانِ

الشرح: سبق الكلام على مذاهب الاتحادية الذين زعموا أن الوجود واحد، وأنه ليس ثَمَّ وجودان متغايران: وجود واجب ووجود ممكن، وذكرنا أنَّهم اختلفوا فِي هذه الموجودات المتكاثرة، هل هي أجزاء لذلك الوجود الواحد فتكون نسبتها إليه كنسبة أعضاء الجسم إلى الجسم؟ أو كنسبة قوى النفس المختلفة إليها؟ أو هي أنواع لذلك الوجود وهو كالجنس لَها؟ أو أن تلك الكثرة وهمٌ وخداع من الحس لا حقيقة لَها؟ ومهما كان اختلافهم، فإن الأصل الذي اتفقوا عليه أن العوالم كلها هي مظاهر وتجليات للرب -جل شأنه- وأن وجودها عين وجوده، فلزمهم على هذا الأصل الأعرج الفاسد أن يكون كل كلام فِي الوجود هو كلامه سبحانه كما قال شاعرهم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُه سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُه

وحسبك من مذهب قبحًا وشناعة أن يجعل اللَّه ﷻ هو المتكلم بكلام سائر الخلق من جن وإنس، وغيرهما، مع اشتمال هذا الكلام على أنواع من القبائح والمنكرات لا يعقل صدورها عن الحق -جل شأنه- كالزور والكذب، والشتم والسب، وقذف المحصنات، وأنواع الأغاني بِما فيها من فحش وخلاعة، والنياحة ورقى السحر وتعازيمه، وما إلى ذلك من البهتان والهذيان، أفيقول عاقل: إن هذا الكلام الباطل صادر عن اللَّه؟! وهو الذي لا يأمر بالفحشاء، وهو الذي تمت كلماته صدقًا وعدلًا، لا مبدل لكلامه، وهو الذي قوله الحق، وله الملك، ولكن هؤلاء الزنادقة من الاتحادية يلزمهم أن يقولوا ذلك بناء على أصلهم الخبيث الذي أقاموا عليه بناءهم المكسح المنهار.

* * *

إِذْ أَصْلُهُمْ أَنَّ الإِلَهَ حَقِيقَةً عَيْنُ الْوُجُودِ وَعَيْنُ ذِي الأَكْوَانِ
فَكَلَامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ وَصِفَاتُهُ مَا هَاهُنَا قَوْلَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِالضْـ ـدَّيْنِ مِنْ قُبْحٍ وَمِنْ إِحْسَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ وَصَفُوهُ أَيْضًا بِالْكَمَا لِ وَضِدِّهِ مِنْ سَائِرِ النُّقْصَانِ
هَذِي مَقَالَاتُ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا حُمِلَتْ إِلَيْكَ رَخِيصَةَ الأَثْمَانِ

وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا ... أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ
زُفَّتْ إِلَيكَ فَإِنْ يكُنْ لَكَ نَاظِرٌ ... أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

الشرح: يعني: أن الأصل والمبدأ الذي اتفق عليه هؤلاء الاتحادية، والذي بنوا عليه كل شناعاتِهم: أن الإله فِي الحقيقة هو عين هذا الوجود الظاهر، وهو عين هذه الأكوان المخلوقة، وحينئذ فيكون كلام هذه المخلوقات وصفاتُها هو عين كلامه وصفاته؛ إذ كانت هي عينه، ويكون كذلك هو نفسه الموصوف بالضدين حين يقال: هذا حسن، وهذا قبيح؛ إذ ليس ثمة غيره، ويكون أيضًا هو الموصوف بالكمال وضده، وهو النقص؛ لأنه عين الموصوف بكل منهما، فهو عندهم مجمع الأضداد والمتقابلات، فهو الرب والعبد، والخالق والمخلوق، والمالك والمملوك، والآمر والمأمور، والسيد والمسود، والمكلِّف والمكلَّف، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، بل هو الليل والنهار، والماء والنار، والأرض والسماء... إلخ. فما أشنع ما رضي هؤلاء لربِّهم الذي يزعمون -كذبًا وزورًا- أنَّهم أهل معرفته وولايته، وما أقبح ما رضوا لأنفسهم من الارتماء فِي أحضان الجهل والحماقة.

وهكذا يسوق إلينا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مقالات الطوائف كلها هذا السوق الرائع، ويحملها إلينا سهلة التناول، رخيصة الأثمان، بحيث لَم نجد فِي فهمها من نظمه كدًّا ولا تعبًا، ولَم يحوجنا إلى أن نفتش عنها هنا وهناك فِي بطون الكتب، على أننا لو فتشنا كتب أهل النظر جميعًا، ما ألفينا هذه المقالات والمذاهب مذكورة على هذا النحو البديع من الدقة والبيان، فجزاه اللَّه عن قارئيه ومحبي كتبه ومصنفاته خير الجزاء بمنه وكرمه.

* * *

فَاعْطِفْ عَلَى الْجَهْمِيةِ الْمُغْلِ الأُلَى ... خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ
شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ ... بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ
أَفْسَدْتُمُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ وَالْـ ... ـمَسْمُوعَ مِنْ لُغَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ
أَيصِحُّ وَصْفُ الشَّيءِ بِالْمُشْتَقِّ وَالْـ ... ـمَسْلُوبِ مَعْنَاهُ لِذِي الأَذْهَانِ
أَيصِحُّ صَبَّارٌ وَلَا صَبْرٌ لَهُ ... وَيصِحُّ شَكَّارٌ بِلَا شُكْرَانِ
وَيصِحُّ عَلَّامٌ وَلَا عِلْمٌ لَهُ ... وَيصِحُّ غَفَّارٌ بِلَا غُفْرَانِ
وَيقَالُ هَذَا سَامِعٌ أَوْ مُبْصِرٌ ... وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ مَفْقُودَانِ

هَذَا مُحَالٌ فِي الْعُقُولِ وَفِي النُّقُو ... لِ وَفِي اللُّغَاتِ وَغَيرُ ذِي إِمْكَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من ذكر مقالات الطوائف في كلام الرب ﷻ وصفاته؛ عطف عليها بالنقض والإبطال، وبدأ منها بالجهمية نفاة الصفات؛ لأنَّهم الأصل الذي تفرع عنه كثير من المقالات الفاسدة كما سبق، ووصفهم بالمغل -يعني: المغول- وهم التتار؛ لأن التتار بعد غزوهم للبلاد الإسلامية، ودخولهم في الإسلام، كانوا من أنصار التجهم والتعطيل بتأثير وزيرهم نصير الدين الطوسي، ثُمَّ وصفهم ثانيًا بأنَّهم خرقوا سياج العقل والقرآن؛ لأن أقوالهم مناقضة للعقل الصريح، ومخالفة للنقل الصحيح، وهذا من شأنه أن يغري صاحب الحق بِهم، فيحمل عليهم حملة صادقة يشرد بِها من خلفهم، ويكسر بِها شرتَهم ويصرخ فيهم منكرًا عليهم ما ذهبوا إليه، مِمَّا خالفوا فيه العقل والنقل واللغة جميعًا بنفي صفات اللَّه ﷻ، فإن العقل يثبتها؛ لأنَّها صفات كمال، يستحيل على اللَّه خلوه عنها، والنقول من الكتاب والسنة مصرحة بثبوتِها له، واللغات كلها متفقة على أن إطلاق المشتق على شيء يقتضي مأخذ الاشتقاق للموصوف، فلا يصح وصف الشيء بالمشتق ويكون معناه مسلوبًا عنه، بل يجب أن يكون المعنى الذي هو مبدأ الاشتقاق ثابتًا له، فإذا قيل: فلان صبار، دل هذا الإطلاق على ثبوت الصبر له، فلا يصح صبار لا صبر له، فإنه تناقض، وكذلك لا يقال: شكار إلا لموصوف بالشكر، وعلام غفار، إلا لموصوف بالعلم والغفران، وكذلك لا يقال: سامع أو مبصر. وهو فاقد للسمع والإبصار، وهذا مِمَّا اتفق على استحالته العقل والنقل وسائر اللغات، وهو غير ممكن بحال من الأحوال.

* * *

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... لَكِنْ بِقَوْلٍ قَامَ بِالإِنْسَانِ

أَوْ غَيرِهِ فَيُقَالُ هَذَا بَاطِلٌ ... وَعَلَيكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ

نَفْيِ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْـ ... ـنَاهُ بِهِ وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي

أَعْنِي الَّذِي مَا قَامَ مَعْنَاهُ بِهِ ... قَلْبُ الْحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ

وَنَظِيرُ ذَا أَخَوَانِ هَذَا مُبْصِرٌ ... وَأَخُوهُ مَعْدُودٌ مِنَ الْعُمْيَانِ

سَمَّيتُمُ الأَعْمَى بَصِيرًا إِذْ أَخُو ... هُ مُبْصِرٌ وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي

الشرح: يرد المؤلف على هؤلاء الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة الذين زعموا أن

معنى كونه تعالى متكلمًا أنه خالق للكلام فِي غيره، فليس الكلام وصفًا له هو، ولكنه وصف للمحل الذي خلقه اللَّه فيه، من إنسان وغيره، فيقول: إن هذا من أبطل الباطل، ويلزمكم فيه محذوران:

الأول: نفي اللفظ المشتق عمن قام به معناه ووجد فيه.

والثاني: إثباته للمسلوب عنه ذلك المعنى.

وهذا من قلب الحقائق، وهو أقبح أنواع الكذب، ونظير هذا إذا كان هناك أخوان، أحدهما مبصر والآخر أعمى فاقد لحاسة البصر، فسمى الأعمى بصيرًا؛ لأن أخاه كذلك، مع أنه فاقد للمعنى الذي أخذ منه المشتق، وهو بصير، فيكون قد أطلق المشتق على فاقد لمعناه، ومثله يقال فِي عكس ذلك، وهو تسمية الأخ المبصر أعمى؛ لأن أخاه كذلك.

والحاصل: أنه لا يعقل من قولنا: متكلم إلا من قام به الكلام، لا من أوجد فِي غيره الكلام، فإذا أطلق متكلم على من أوجد الكلام فِي غيره؛ كان فِي ذلك إطلاق للمشتق على من لَم يقم به معناه، ولَم يوجد فيه، وكان فِي ذلك نفي المشتق عمن ثبت له معناه، ووجد فيه، وهذا تخليط وهذيان لا يليق بإنسان.

* * *

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ ... فِي فِعْلِهِ كَالْخَلْقِ لِلأَكْوَانِ

وَالْفِعْلُ لَيسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إِذْ لَا يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ

وَيَصِحُّ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ خَالِقٌ ... فَكَذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَحْدَانِي

هُوَ فَاعِلٌ لِكَلَامِهِ وَكِتَابِهِ ... لَيسَ الْكَلَامُ لَهُ بِوَصْفِ مَعَانِي

وَمُخَالِفُ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْـ ... ـفِطْرَاتِ وَالْمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ

مَنْ قَالَ إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ ... وَصْفٌ قَدِيمٌ أَحْرُفٌ وَمَعَانِي

وَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَيسَتْ بَعْدَهَا ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

الشرح: لما أنكر المؤلف على الجهمية والمعتزلة ما زعموه من أنه تعالى متكلم بكلام قائم بغيره، وبين أن ذلك مخالف للعقل والنقل، ولما هو معروف فِي سائر اللغات من أن الوصف بالمشتق يقتضي قيام معناه بالموصوف به لا بغيره -أورد على ذلك معارضة من جانب هؤلاء الخصوم، بأن ذلك الذي قلناه فِي معنى متكلم هو ثابت فِي صفات الأفعال

مثل خالق ورازق، فإن وصف الله ﷻ بهما لَم يقتض قيام معناهما من الخلق والرزق به؛ لأن كلًّا منهما فعل حادث، والله ليس محلًّا للحوادث، فإذا صح أن يشتق من الخلق الذي ليس قائمًا به وصفًا له وهو خالق؛ فكذلك يصح أن يقال له: متكلم. بِمعنى: أنه فاعل لكلامه وكتابه دون أن يكون الكلام وصف مِعنى له قائمًا بذاته، وعلى هذا لا يكون مذهبنا مخالفًا للعقل والنقل واللغة كما زعمتم، ولكن الذي يصح أن يحكم عليه بتلك المخالفة للعقل والنقل والفطرة مذهب هؤلاء الاقترانية الذين زعموا أن كلام الله بألفاظه ومعانيه قديم، وأن حروفه مجتمعة فِي الأزل، لا ترتيب ولا تعاقب بينها، فالسين من «باسم الله» تكون مع الباء فِي النطق لا بعدها متأخرة عنها، بل مقارنة لَها، فارتكبوا بذلك أشنع مخالفة للضرورة القاضية بأن الحروف لا يتصور وجودها ولا النطق بِها إلا مع التعاقب على نحو ورودها إلى الأسماع سواء بسواء.

* * *

أَوْ قَالَ إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

مَا أَنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا الْـ ... عَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلَا الْعِبْرَانِي

وَالأَمْرُ عَينُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَينُ أَخْبَارٍ بِلَا فُرْقَانِ

وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ بَلْ لَازِمُ الرَّحْمَنِ

هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ الْمَعْقُولَ وَالْـ ... مَنْقُولَ وَالْفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

أَمَّا الَّذِي قَدْ قَالَ إِنَّ كَلَامَهُ ... ذُو أَحْرُفٍ قَدْ رُتِّبَتْ بِبَيَانِ

وَكَلَامُهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ ... كَالْفِعْلِ مِنْهُ كِلَاهُمَا سِيَّانِ

فَهُوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ الْـ ... ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكْرَانِ

الشرح: ومثل هؤلاء الاقترانية فِي شناعة مذهبهم وفساده طائفة الكلابية والأشعرية الذين زعموا أن كلامه سبحانه هو معنى واحد قديم قائم بذاته لا تعدد فيه، وليس له كل ولا بعض، ولا يوصف بأنه عربي، ولا عبراني، والأمر فيه عين النهي، والاستفهام نفس الخبر، وهو وصف للذات لازم لَها أزلًا، وأبدًا كالحياة، وليس هو صفة فعل، فلا يتعلق بمشيئته تعالى وقدرته، فهذان المذهبان هما اللذان يصح أن يقال: إنَّهما مخالفان للعقل والنقل والفطرة الإنسانية.

أما مذهب الذي يقول بأن كلامه تعالى حروف وألفاظ مرتبة، وأنه متعلق بمشيئته

وإرادته مثل فعله، فقد قال ما يعلم جَميع العقلاء صحته دون أن يتوجه عليه إنكار، ولا شك أنه لا ينكر على المعتزلة قولهم: إن كلامه تعالى حروف وألفاظ عربية، وأنه متعلق بالقدرة والمشيئة كسائر الأفعال، ولكن موضع الإنكار عليهم هو زعمهم أن الكلام ليس صفة للَّه قائمة به، بل مخلوقًا له، منفصلًا عنه، كما ينكر على الكلابية والأشعرية جعلهم الكلام صفة ذات، وزعمهم أنه ليس بحرف ولا صوت، ونفيهم أنه صفة فعل متعلقة بالقدرة والاختيار.

* * *

فَلأَي شَيءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ ... أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ

وَلأَي شَيءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ ... أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ

فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعَنَا بِتَحْ ... قِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلَا عُدْوَانِ

وَارْفُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا خَرْقَهَا ... إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ فِي الإِمْكَانِ

فَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ بَينَهُمُ فَقَدْ ... أَدْلَوْا إِلَيكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ ... هُمْ عَسْكَرُ الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ

وَتَحَيزَنَّ إِلَيهِمُ لَا غَيرِهِمْ ... لِتَكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ

الشرح: بعدما برر الجهمية والمعتزلة مذهبهم فِي الكلام بقياسه على الفعل وقالوا: إن وصفه تعالى بأنه متكلم هو نظير وصفه بأنه خالق، أو رازق؛ لا يقتضي ثبوت معناه للَّه. وشنعوا على مذاهب خصومهم من الكلابية والأشعرية والاقترانية، قالوا لخصومهم متسائلين: لأي شيء كان ما قلتم أنتم مع ظهور بطلانه أولى من مذهبنا بالقبول، وأقرب منه إلى الحجة والبرهان؟ ولأي شيء تكفروننا بِهذا القول ظلمًا وعدوانًا؟ فهل تظنون أن الأمر مجرد دعوى تُدعى بلا دليل؟ فاتركوا الدعاوى إذن وتعالوا نحن وأنتم نبحث كلًّا من مذهبنا ومذاهبكم بحثًا يقوم على التمحيص والإنصاف، لا على البغي والعدوان، وبدلًا من أن تشتغلوا بنقض مذهبنا وإبطاله، فارجعوا إلى مذاهبكم، وأصلحوا من خللها، وسدوا خرقها إن أمكنكم ذلك، أو استطعتم إليه سبيلًا.

هذا هو مضمون إيراد المعتزلة، وحجتهم على صحة مذهبهم، ورجحانه على مذاهب خصومهم، وقد انتدب المؤلف حكمًا من أهل الحق؛ ليحكم بينهم بعدما أدلوا بِما لديهم من حجة وبيان، وأوصاه ألَّا ينصر إلا السنة وأهلها، وألَّا يقول إلا بِما قاله أهل الحديث،

فإنَّهم جند الإيمان، وعسكر القرآن، وأمره أن يتحيز ويميل إليهم لا إلى غيرهم من طوائف المبتدعة الضلال؛ ليكون جزاؤه أن ينصره اللَّه بنصره الذي وعد به المؤمنين فِي قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

* * *

فَتَقُولُ هَذَا الْقَدْرُ قَدْ أَعْيَا عَلَى ... أَهْلِ الْكَلَامِ وَقَادَهُ أَصْلَانِ

إِحْدَاهُمَا هَلْ فِعْلُهُ مَفْعُولُهُ ... أَوْ غَيْرُهُ فَهُمَا لَهُمْ قَوْلَانِ

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ ... فَرُّوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحِدْثَانِ

لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ وَصَرِيحُهُ ... تَعْطِيلُ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

عَنْ فِعْلِهِ إِذْ فِعْلُهُ مَفْعُولُهُ ... لَكِنَّهُ مَا قَامَ بِالرَّحْمَنِ

فَعَلَى الْحَقِيقَةِ مَا لَهُ فِعْلٌ إِذِ الْـ ... ـمَفْعُولُ مُنْفَصِلٌ عَنِ الدَّيَّانِ

الشرح: هذا جواب المؤلف على إيراد المعتزلة الذي أرادوا به تصحيح مذهبهم فِي الكلام بقياسه على الفعل، وقولهم: إن وصفه بمتكلم لا يقتضي قيام الكلام به كما لا يقتضي وصفه بفاعل قيام الفعل به.

وقد استطرد المؤلف فِي الجواب بذكر مذاهب المتكلمين فِي فعله تعالى، وهل هو عين مفعوله أو غيره؟ فالقائلون بأنه هو عينه كالجهمية والمعتزلة إنَّما دعاهم إلى ذلك فرارهم من القول بقيام الحوادث بذاته، فإن الفعل إذا جعل وصفًا له؛ لَم يكن إلا حادثًا، واللَّه ليس محلًا للحوادث عندهم؛ لأن ذلك يستلزم حدوثه، وهذا الأمر مِمَّا وافقت فيه الأشعرية المعتزلة حيث منعوا هم أيضًا قيام الحوادث بذاته، وقالوا: إن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

وقد قادت هذه القضية الكاذبة كلًا من الطائفتين إلى أحكام فاسدة، فقد التزم المعتزلة لأجلها أن يكون الفعل عين المفعول، وأن يكون كلامه تعالى مخلوقًا له، منفصلًا عنه، والتزم الأشاعرة لأجلها نفي الحرف والصوت، ونفي صفات الأفعال من الاستواء والمجيء، والغضب والرضا، والمحبة والسخط، والكراهية والنُّزول والإتيان... إلخ.

والتزموا أن يكون اللَّه قد تكلم فِي الأزل بكلام سمعه موسى، وأنه ناداه وناجاه فِي الأزل، إلى غير ذلك مِمَّا هذى به الفريقان، مِمَّا يصادم المعقول والمنقول، مصادمة صريحة.

وحقيقة قول هؤلاء المعتزلة والجهمية: إن الفعل عين المفعول، هو نفي الفعل، وتعطيل الخالق عنه، فإنه إذا كان الفعل هو المفعول، ومعلوم أن المفعول مخلوق له، منفصل عنه، لَم يكن له فِي الحقيقة فعل هو وصف له قائم به، فتفسير الفعل بالمفعول مستلزم لنفيه، وأنه ليس هناك إلا المفعول.

* * *

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ غَيرٌ لَهُ ... مُتَنَازِعُونَ وَهُمْ فَطَائِفَتَانِ
إِحْدَاهُمَا قَالَتْ قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالذَّاتِ وَهْوَ كَقُدْرَةِ الْمَنَّانِ
سَمَّوْهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا قَالَهُ ... أَتْبَاعُ شَيخِ الْعَالَم النُّعْمَانِي
وَخُصُومُهُمْ لَمْ ينْصِفُوا فِي رَدِّهِ ... بَلْ كَابَرُوهُمْ مَا أَتَوْا بِبَيَانِ
وَالآخَرُونَ رَأَوْهُ أَمْرًا حَادِثًا ... بِالذَّاتِ قَامَ وَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ
إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مُفْتَتَحًا بِهِ ... حَذَرَ التَّسَلْسُلِ لَيسَ ذَا إِمْكَانِ
هَذَا الَّذِي قَالَتْهُ كَرَّامِيَّةٌ ... فَفِعَالُهُ وَكَلَامُهُ سِيَّانِ

الشرح: وأما القائلون بأن الفعل غير المفعول؛ فقد انقسموا أولًا إلى طائفتين:

إحداهما: قالت: إنه قديم، قائم بالذات، لازم لَها كالقدرة، ولَم يجعلوه متعلقًا بمشيئته تعالى وقدرته. وهم الماتريدية أتباع الشيخ أبي منصور الماتريدي، من علماء الحنفية، وهذه المسألة مِمَّا خالف فيه الماتريدية الأشاعرة رغم ما بين الطائفتين من اتفاق فِي كثير من مسائل الكلام، فإن المشهور عن الأشاعرة أنَّهم لا يثبتون إلا سبع صفات، يسمونَها صفات المعاني، وهي: الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام، ويجعلونَها كلها قديمة قائمة بالذات.

وأما صفات الأفعال عندهم من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة... إلخ؛ فيجعلونَها تعلقات تنجيزية حادثة للقدرة القديمة، ومن العجب أنَّهم يقولون: إن تعلقات الإرادة كلها تنجيزية قديمة فكيف إذن تخلف عنها المراد فِي الأزل؟! وكذلك قالوا فِي تعلقات العلم والكلام. وأما الماتريدية؛ فقد أثبتوا التكوين صفة أخرى وراء الصفات السبع المتقدمة وجعلوها قديمة كما سبق، وقد عارضهم خصومهم من الأشاعرة، وردوا قولهم فِي إثبات هذه الصفة، مكابرة بلا دليل.

وأما الطائفة الأخرى: فقد ذهبت إلى أن الفعل حادث، قائم بالذات، ثُمَّ انقسمت

إلى فرقتين:

الكرامية: أتباع مُحمَّد بن كرام، وهؤلاء ذهبوا إلى أن فعله حادث قائم بذاته ومتعلق بمشيئته وقدرته، ولكنهم جعلوا له ابتداء فِي ذاته، بِمعنى أنه لَم يكن فاعلًا ثُمَّ فعل، وهكذا قالوا فِي جَميع الصفات المتعلقة بالمشيئة من الكلام والرضا والمحبة والنُّزول والاستواء، والذي دعاهم إلى ذلك الخوف من القول بالتسلسل فِي أفعاله فيلزم قدم أنواع المفعولات، فيسد ذلك عليهم -فِي زعمهم- طريق إثبات الصانع؛ إذ كان إثباته من طريق حدوث المخلوقات، وذهبوا إلى أن الفعل والكلام سيان، كلاهما حادث له ابتداء فِي الذات، فاللَّه عندهم لَم يكن متكلمًا ولا فاعلًا، ثُمَّ حدث له الفعل والكلام، فعطلوه سبحانه عن فعله وكلامه، وجعلوا كلًّا منهما ممتنعًا فِي الأزل.

* * *

وَالآخَرُونَ أُولُو الْحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ ... ذَاكَ ابْنُ حَنْبَلٍ الرِّضَا الشَّيْبَانِي

قَدْ قَالَ إِنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... مُتَكَلِّمًا إِنْ شَاءَ ذُو إِحْسَانِ

جَعَلَ الْكَلَامَ صِفَاتِ فِعْلٍ قَائِم ... بِالذَّاتِ لَمْ يُفْقَدْ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْلِ بِالْـ ... إِحْسَانِ أَيْضًا فِي مَكَانٍ ثَانِ

وَكَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَاجِعْ قَوْلَهُ ... لَمَّا أَجَابَ مَسَائِلَ الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ الإِمَامُ الصَّادِقُ الْـ ... مَقْبُولُ عِنْدَ الْخَلْقِ ذُو الْعِرْفَانِ

قَدْ قَالَ لَمْ يَزَلِ الْمُهَيمِنُ مُحْسِنًا ... بَرًّا جَوَادًا عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

الشرح: وأما الفرقة الثانية من القائلين بأن فعله تعالى حادث وقائم بذاته: فهم أصحاب الحديث كالإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ هؤلاء ذهبوا إلى ما دلت عليه النصوص الصريحة، وحكم به العقل السليم، من أن اللَّه لَم يزل متصفًا بصفات كماله كلها، سواء ما كان فيها لازمًا لذاته، أو ما كان متعلقًا بمشيئته وقدرته، ليس لما يحدث فِي ذاته عندهم ابتداء، بل يقولون: لَم يزل اللَّه متكلمًا إذا شاء بِما شاء، وكيف شاء، وكذلك لَم يزل فاعلًا لما أراد، فكل من فعله وكلامه صفة كمال له، لا يجوز خلوه عنها فِي وقت من الأوقات؛ لأن الخلو عن الكمال الممكن نقص مستحيل على اللَّه، ولا يلزم من دوام فعله وكلامه قدم شيء من المفعولات، فإن اللَّه لَم يزل يفعل الأشياء، ويحدثها شيئًا بعد شيء، وكذلك لَم يزل متكلمًا بِما شاء، فكل من الكلام والفعل قديم النوع، ولكن آحاده لَم تزل تحدث فِي

ذاته سبحانه بلا بداية ولا انقطاع، وهذا مستلزم للتسلسل فِي الآثار، وهو ليس بممتنع، بل دل الشرع والعقل على ثبوته، وإنَّما الممتنع هو التسلسل فِي العلل والمؤثرين.

وقوله فِي البيت الثاني: «ذو إحسان» خبر ثانٍ لـ«أنَّ»، أي: لَم يزل محسنًا كما لَم يزل متكلمًا، وقوله فِي البيت الرابع: «وكذلك نص» إلخ. يعني به: أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه نص فِي مكان آخر من كتابه الذي رد به على الجهمية على دوام فعله سبحانه بدوام إحسانه كما نص على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما أجاب به على مسائل القرآن، وكذلك جعفر الصادق من أئمة أهل البيت، المشهود لهم بالورع والتقوى والمعرفة الحقة، وقال: لَم يزل المهيمن محسنًا برًّا جوادًا فِي كل وقت وحال. وهذا إثبات لدوام فعله سبحانه، واستمراره فِي أوقات الزمان كلها، بلا بداية، ولا انقطاع.

* * *

وَكَذَا الإِمَامُ الدَّارِمِيُّ فَإِنَّهُ ... قَدْ قَالَ مَا فِيهِ هُدَى الْحَيْرَانِ

قَالَ الْحَيَاةُ مَعَ الْفِعَالِ كِلَاهُمَا ... مُتَلَازِمَانِ فَلَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَي فَهْوَ فَعْـ ... ـالٌ وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

إِلَّا إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ مَوَانِعٌ ... مِنْ آفَةٍ أَوْ قَاسِرِ الْحَيَوَانِ

وَالرَّبُّ لَيسَ لِفِعْلِهِ مِنْ مَانِعٍ ... مَا شَاءَ كَانَ بِقُدْرَةِ الدَّيَّانِ

وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لَازِمَةٌ لَهُ ... وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

الشرح: وممن نص على دوام فاعلية الرب، وأنه لَم يعطل عنها فِي وقت من الأوقات: الإمام الكبير عثمان بن سعيد الدارمي، المشهور فِي رده على الجهمية والقدرية، وقد قال فِي هذا كلامًا جيدًا، وأدلى بحجة قوية، مبناها على أن الفعل لازم للحياة، فكل حي لابد أن يكون فعالًا، وما ليس بفعال فهو ليس بحي، فالحياة والفعل متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر فِي الوجود، اللَّهم إلا إذا وجد مانع يمنع الحي من الفعل من آفة تصيبه أو قاسر يقسره، وذلك لا يتصور فِي حقه سبحانه، فإن حياته أكمل حياة، فيجب أن تستلزم أكمل الأفعال، ويستحيل أن تطرأ عليه آفة يعجز معها عن الفعل، كما لا يتصور أن يقسره قاسر ويكرهه على عدم الفعل، بل ما شاء كان، وما لَم يشأ لَم يكن فالمشيئة لازمة له، لا مكره له ولا غالب، والقدرة كذلك من صفاته اللازمة، فلا يعتريه وهن، ولا عجز، ولا قصور، ومع نفوذ المشيئة، وتمام القدرة، وانتفاء كل الموانع الَّتِي

تمنع من تعلقها بالممكن، لا يتصور التعطيل عن الفعل، فثبت أنه سبحانه لَم يزل فعالًا؛ لأنه لَم يزل حيًّا قادرًا مريدًا.

* * *

هَـذَا وَقَـدْ فَـطَـرَ الإِلَـهُ عِـبَـادَهُ ... أَنَّ الْـمُـهَـيْـمِـنَ دَائِـمُ الإِحْـسَـانِ

أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَـا دَائِـمَ الْـمَـعْـرُوفِ وَالـسُّـلْـطَانِ

وَقَدِيمَ الإِحْسَانِ الْكَثِيرِ وَدَائِمَ الْـ ... ـجُودِ الْـعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْـغُـفْـرَانِ

مِنْ غَيرِ إِنْكَارٍ عَلَيهِمْ فِطْرَةً ... فُـطِـرُوا عَـلَـيـهَـا لَا تَـوَاصِيَ ثَـانِ

أَوَلَيسَ فِعْلُ الرَّبِّ تَابِعَ وَصْفِهِ ... وَكَـمَـالِـهِ أَفَـذَاكَ ذُو حِـدْثَـانِ

وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ وَخَلْقُهُ ... أَفْعَالَهُمْ سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي

أَوَمَا فِعَالُ الرَّبِّ عَينُ كَمَالِهِ ... أَفَذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْمَنَّانِ

أَزَلًا إِلَى أَنْ صَارَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... مُتَمَكِّنًا وَالْفِعْلُ ذُو إِمْكَانِ

الشرح: بعد أن قرر المؤلف مذهب السلف القويم فِي دوام فاعلية الرب وكلامه، وأورد من النقول عن بعض أئمة أهل السنة كأحمد وغيره ما يشهد لصحته -أراد أن يستدل عليه كذلك من طريق الفطرة والعقل:

أما الفطرة؛ فإننا نسمع الناس فِي دعائهم واستغاثتهم، وطلبهم الحاجات من اللَّه ﷻ يلهجون بِهذه العبارات، من قولهم: يا قديم الإحسان، يا قديم المعروف والسلطان، يا دائم الجود والامتنان. إلى غير ذلك مِمَّا يفهم أنَّهم فطروا على اعتقاد ذلك فطرة، دون أن يوصي بعضهم بعضًا بذلك، أو يعلمه إياه، ودون أن ينكر بعضهم على بعض.

وأما دليل العقل؛ فهو أن فعل الرب سبحانه تابع لوصفه وكماله، فإذا كان لَم يزل موصوفًا بصفات الكمال ونعوت الجلال، بحيث لا يتصور خلوه عنها لحظة من اللحظات فِي جانب الأزل أو الأبد -فهو إذن لَم يزل فعالًا؛ لأن الفعل من جملة الصفات الَّتِي لَم يزل بِها موصوفًا، والفعل من لوازم كماله سبحانه، فكماله فِي ذاته وصفاته هو سبب كونه فاعلًا، فهو سبحانه كامل ففعل، وأما الكمال فِي المخلوقات والمكونات فِي أعيانِها وأوصافها؛ فهو تابع لكمال المكون، فإن أثر الكمال لا يكون إلا كاملًا.

وإذا كان الفعل عين كماله سبحانه؛ لأن الكمال مستتبع له، ولا يحصل إلا به، فكيف

إذن يجوز القول بامتناع الفعل منه فِي الأزل، ثُمَّ يصير هذا الفعل ممكنًا فيما لا يزال من غير تجدد سبب أوجب ذلك الانقلاب، من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، لا تجدد قدرة ولا إرادة ولا غيرهما؟!

* * *

تَاللَّهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ إِذْ ... قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلَانِ

مَاذَا الَّذِي أَضْحَى لَهُ مُتَجَدِّدًا ... حَتَّى تَمَكَّنَ فَانْطِقُوا بِبَيَانِ

وَالرَّبُّ لَيسَ مُعَطَّلًا عَنْ فِعْلِهِ ... بَلْ كُلَّ يوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ

وَالأَمْرُ وَالتَّكْوِينُ وَصْفُ كَمَالِهِ ... قِدَمًا فَذَا وُوُجُودُهُ سِيَّانِ

وَتَخَلُّفُ التَّأْثِيرِ بَعْدَ تَمَامِ مُو ... جِبِهِ مُحَالٌ لَيسَ فِي الإِمْكَانِ

وَاللهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ ... وَمَشِيئَةٍ وَيلِيهِمَا وَصْفَانِ

الْعِلْمُ مَعْ وَصْفِ الْحَيَاةِ وَهَذِهِ ... أَوْصَافُ ذَاتِ الْخَالِقِ الْمَنَّانِ

وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيسَ بِدُونِهَا ... فِعْلٌ يتِمُّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

فَلأَي شَيءٍ قَدْ تَأَخَّرَ فِعْلُهُ ... مَعْ مُوجِبٍ قَدْ تَمَّ بِالأَرْكَانِ

مَا كَانَ مُمْتَنِعًا عَلَيهِ الْفِعْلُ بَلْ ... مَا زَالَ فِعْلُ اللهِ ذَا إِمْكَانِ

الشرح: يعنِي: أن هؤلاء الذين قالوا بأن اللَّه كان معطلًا عن الفعل فِي الأزل وأن الفعل كان ممتنعًا منه فيما لَم يزل، ثُمَّ صار ممكنًا فيما لا يزال؛ قد قالوا بِما يعلم كل عاقل بطلانه، وبرهنوا على سخافة عقولهم؛ إذ لو كان الفعل ممتنعًا عنه فِي الأزل؛ فما الذي صيره ممكنًا مع أنه لَم يتجدد فِي ذاته شيء يقتضي هذا الانقلاب من الامتناع إلى الإمكان؟! وهذا الإلزام لا مخلص لهم منه، فإن أجابوا عنه بأن نفس الأزل هو المانع من التأثير فِي الممكن؛ لأن من شرائط التأثير فيه أن يكون مسبوقًا بالعدم.

قلنا: سبق العدم أمر عدمي، لا يصلح أن يكون شرطًا للتأثير، ولكن الذي يصلح شرطًا هو الإمكان، والإمكان ثابت فِي الأزل، فثبت أن الرب سبحانه لَم يكن معطلًا عن فعله فِي وقت من الأوقات، بل كل يوم هو فِي شأن، يدبر ما يشاء، ويحدث من الأمور ما تقتضيه حكمته.

ويقال لهؤلاء أيضًا: أليس الأمر والتكوين من صفات الكمال، بدليل أن المتصف

بِهما أكمل من الفاقد لهما؟! وحينئذ فاللَّه لَم يزل آمرًا، مكونًا، والأمر والتكوين هما الموجب التام للتأثير، وهو مستلزم لوجود الأثر؛ لأن تخلف التأثير بعد تمام علته الموجبة له محال غير ممكن، ويقال لهم كذلك: إن اللَّه لَم يزل قادرًا مريدًا عالِمًا حيًّا، وهذه الأربعة صفات ذاتية له، وليس يحتاج الفاعل فِي كونه فاعلًا إلى غير هذه الأربع، فهي الَّتِي بِها تمام الفعل؛ لأنَّها أركانه الَّتِي لا يتحقق بدونِها، وإذا كان ذلك؛ فلماذا تأخر فعله سبحانه عن وجود الموجب التام لجميع أركانه؟!

فإن قلتم: تأخر الفعل؛ لأنه كان ممتنعًا فِي الأزل.

قلنا: كذبتم، بل لَم يزل الفعل ممكنًا؛ إذ لو كان ممتنعًا فِي الأزل؛ لَم يقبل الوجود فيما لايزال؛ لأن الممتنع لا ينقلب ممكنًا.

* * *

وَاللَّهُ عَابَ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ ... عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَا الشَّيطَانِ

وَنَعَى عَلَيهِمْ كَوْنَهَا لَيسَتْ بِخَا ... لِقَةٍ وَلَيسَتْ ذَاتَ نُطْقِ بَيَانِ

فَأَبَانَ أَنَّ الْعَقْلَ وَالتَّكْلِيمَ مِنْ ... أَوْثَانِهِمْ لا شَكَّ مَفْقُودَانِ

وَإِذَا هُمَا فُقِدَا فَمَا مَسْلُوبُهَا ... بِإِلَهِ حَقٍّ وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

وَاللهُ فَهْوَ إِلَهُ حَقٌّ دَائِمًا ... أَفَعَنْهُ ذَا الْوَصْفَانِ مَسْلُوبَانِ

أَزَلًا وَلَيسَ لِفَقْدِهَا مِنْ غَايَةٍ ... هَذَا الْمُحَالُ وَأَعْظَمُ الْبُطْلَانِ

الشرح: ويقال لهؤلاء أيضًا: إذا كان اللَّه معطلًا عن الفعل والكلام فِي الأزل؛ لَم يكن إلَهًا حقًّا ولا واجب العبادة، فإن الإلهية الحقة واستحقاق العبادة لا يكون إلا مع القدرة على الخلق والتكليم؛ ولهذا عاب اللَّه المشركين الذين يعبدون الأصنام إرضاءً للشيطان بأنَّهم عبدوا ما لا يستحق العبادة؛ لأنه لا يقدر على خلق شيء، ولا يستطيع تكليم عابديه، قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]. وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]. وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٤]. وقال تعالى فِي شأن الذين عبدوا العجل من قوم موسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقال حكاية عما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فدلت هذه الآيات الكريمة على أن الفعل والتكليم مفقودان من هذه الأوثان، وفقدهما يدل على أنَّها ليست بآلهة حقة، بل هي آلهة باطلة، ومعلوم أن اللَّه إله حق دائمًا، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موصوفًا بالفعل والتكليم دائمًا؛ لأن فاقدهما لا يكون إلَهًا حقًا كما تقدم، فكيف يجوز أن يقال: إن هذين الوصفين اللذين عليهما مدار الألوهية مسلوبان عنه أزلًا، ومعلوم أن الأزل لا غاية له ولا نِهاية، هذا من أمحل المحال، وأعظم البطلان.

* * *

إنْ كَانَ رَبُّ الْعَرْشِ حَقًّا لَمْ يزَلْ ... أَبَـدًا إِلَـهُ الْـحَـقِّ ذَا سُـلْـطَـانِ
فَكَذَاكَ أَيضًا لَمْ يزَلْ مُتَكَلِّمًا ... بَـلْ فَـاعِـلًا مَـا شَـاءَ ذَا إِحْـسَـانِ
وَاللهِ مَا فِي الْعَقْلِ مَا يقْضِي لِذَا ... بِـالـرَّدِّ وَالإِبْـطَـالِ وَالـنُّـكْـرَانِ
بَلْ لَيسَ فِي الْمَعْقُولِ غَيرُ ثُبُوتِهِ ... لِـلْـخَـالِـق الأَزَلِـيِّ ذِي الإِحْـسَـانِ
هَـذَا وَمَا دُونَ الْـمُـهَـيـمِـنِ حَادِثٌ ... لَـيسَ الْـقَـدِيـمُ سِـوَاهُ فِـي الأَكْـوَانِ
وَالـلـهُ سَابِـقُ كُـلِّ شَـيءٍ غَـيـرِهِ ... مَـا رَبُّـنَـا وَالْـخَـلْـقُ مُـقْـتَـرِنَـانِ

الشرح: فإذا كان اللَّه لَم يزل، ولا يزال له الإلهية الحقة، والسلطان الأعظم؛ فيجب كذلك أن يكون لَم يزل متكلمًا بِما شاء، وفاعلًا لما شاء، ولَم يزل محسنًا برًّا رحيمًا، وليس فِي العقل ما يحيل هذا أو يأباه، كيف؟! والعقل إنَّما يقتضي ثبوته للخالق -جل وعلا- لأنه يقر له بالأزلية ذاتًا وصفاتٍ، والأزلية تنافي حدوث الصفات وابتداءها فِي ذاته، ولا يلزم من القول بقدم الفعل القول بقدم شيء من المفعولات، فإن اللَّه هو وحده القديم، وكل ما سواه حادث، وليس وجود الأشياء مقارنًا بوجوده، بل وجوده سابق عليها جميعًا كما جاء فِي الحديث: «**كان اللَّه ولَم يكن شيء معه**». أي: مساوق له فِي الوجود، سبحانه، بل متأخر عنه، ولكنا مع ذلك لا نقول بوجود فاصل لا نِهاية له فِي الزمان بين وجود اللَّه ووجود العالم كما يقوله من ذهب إلى أن العالم وجد من عدم، فإن هذا يستلزم كما قدمنا أن يكون الباري معطلًا عن الفعل أو غير قادر عليه مدة لا تقاس بِها مدة فاعليته، بل نقول: إنه سبحانه يُكَوِّنُ الشيء فيكون عقب تكوينه، لا مع تكوينه، ولا متراخيًا عنه، فإن المؤثر التام يجب أن يكون أثره عقيب تأثيره بلا مهلة، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

* * *

وَاللَّهُ كَانَ وَلَيسَ شَيءٌ غَيرهُ ... سُبْحَانَهُ جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ
لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْمُلْحِدُ الزْ ... زِنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيونَانِ
بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ وَالْـ ... أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَيسَ بِفَانِ
هَذِي مَقَالَاتُ الْمَلَاحِدَةِ الأُلَى ... كَفَرُوا بِخَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

الشرح: يعني: أننا وإن قلنا بقدم الفعل الذي هو صفة للَّه؛ لا نقول بأن العالم المفعول قديم مع اللَّه، وأنه مقارن له فِي الزمان، كما يقول ذلك أرسطو صاحب المنطق، فالمشهور عن أرسطو أنه كان يرى أن العالم مساوق للَّه فِي الوجود أزلًا وأبدًا، واللَّه عنده ليس خالقًا للعالم، وإنَّما هو محرك فقط؛ ولهذا كان يسميه المحرك الأول، أو العلة الأولى، أو الصورة المحضة، ولا يعني أرسطو بذلك أن اللَّه فعل فِي العالم الحركة، فإن اللَّه ليس بعلة فاعلية عنده، وإنَّما هو علة غائية.

ويقول أرسطو فِي بيان ذلك: «إن اللَّه لما كان صورة محضة؛ كان فِي غاية الكمال، وكانت المادة فِي الجهة الأخرى أقرب إلى العدم منها إلى الوجود؛ إذ كانت إمكانًا، وكانت وجودًا بالقوة لا بالفعل، فتركت بدافع الشوق إلى محاكاة تلك الصورة المحضة، والقرب منها قدر الطاقة، وكانت هذه الحركة الشوقية هي الَّتِي أبرزت هذه المادة إلى الوجود بالفعل، وسارت بِها فِي طريق التقدم والارتقاء.

ولا ريب أن هذا الكلام هو إلى الشعر والخيال أقرب منه إلى الفلسفة، فكيف خان صاحب المنطق منطقه، ولَم يسعده فِي هذه المشكلة حَتَّى تورط فيما تورط فيه من كلام هو إلى الهذيان أقرب منه إلى الجد؟!.

فليبين لنا أرسطو ما الذي بث الشوق والحنين فِي مادته المزعومة حَتَّى تحركت تحاول التشبه بتلك الصورة المحضة، وكيف كانت المادة أو الهيولى الأولى قبل حلول الصورة فيها إمكانًا أو قوة، والإمكان معنى من المعاني الَّتِي توصف بِها المادة، وليس هو المادة؟! ولسنا هنا بصدد الرد على هذه الحماقة من فيلسوف طار صيته وذاع حَتَّى كاد أن يعبده أتباعه من متفلسفة الإسلام المارقين، من أمثال الفارابي وابن سينا، ويزعمون لآرائه العصمة والقداسة، ويقدمونَها على الوحي المنَزل، ولا ريب أن هذا الذي قال به أرسطو فِي قدم العالم هو رأي ملاحدة الدهرية الذين ينكرون وجود الخالق -جل وعلا- ويقولون: «إن هي إلا حياتنا الدنيا وما يهلكنا إلا الدهر».

وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَاكَ مُصَانِعًا … لِلْمُسْلِمِينَ فَقَالَ بِالإِمْكَانِ
لَكِنَّهُ الأَزَلِي لَيسَ بِمُحْدَثٍ … مَا كَانَ مَعْدُومًا وَلَا هُوَ فَانِ
وَأَتَى بِصُلْحٍ بَينَ طَائِفَتَينِ بَيـ … ـنَهُمَا الْحُرُوبُ وَمَا هُمَا سِلْمَانِ
أَنَّى يكُونُ الْمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الْـ … ـيُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ
والسَّيفُ بَينَ الأَنْبِيَاءِ وَبَينَهُمْ … وَالْحَرْبُ بَينَهُمُ فَحَرْبُ عَوَانِ

الشرح: جاء ابن سينا بعد أرسطو، وكان كما قلنا تلميذًا وفيًّا لفلسفة أستاذه، ولكنه من جهة أخرى كان يريد مصانعة المسلمين، ومداهنتهم حَتَّى لا يفطنوا لمروقه وإلحاده، فتكايس بمحاولة التوفيق بين الفلسفة الَّتِي تقول بقدم العالم ومقارنته للَّه فِي الزمان، وبين الدين الذي يجعله مخلوقًا حادثًا بعد أن لَم يكن، فزعم أن اللَّه علة تامة لوجود العالم، والعلة التامة يجب أن يقارنَها معلولها، ولا يتخلف عنها، وعلى هذا فيمكن القول بأن العالم أزلي، مقارن للَّه فِي الزمان، كما تقول الفلسفة، ولكنه من جهة أخرى متأخر وممكن حادث بالذات، أما كونه متأخرًا؛ فلأن المعلول قد استفاد الوجود من علته، ولا نعني بالحدوث الذاتي إلا استفادة الوجود من الغير.

ومن العجيب: أن ابن سينا مع قوله بقدم العالم؛ يسمي اللَّه خالقًا وفاعلًا، ويسمي العالم مخلوقًا ومفعولًا، فمتى خلق اللَّه العالم على رأيه أو فعله إذا كان وجوده مقارنًا لوجوده؟! وكيف يُمكن أن يكون اللَّه خالقًا للعالم مع القول بأنه علة والخلق إنَّما يعتمد على القصد والاختيار؟! وأما العلة؛ فيصدر عنها معلولها بالإيجاب المنافي للاختيار، والعالم عنده كما هو أزلي مساوق لعلته فِي جانب الأزل، هو كذلك أبدي غير قابل للفناء؛ لأن المعلول لعلة تامة يجب أن يبقى ببقاء علته.

وهكذا يظن ابن سينا أنه أفلح بِهذا التمويه والمغالطة فِي لبس الأمر على المسلمين، ولكن الأذكياء من علماء هذه الأمة من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية استطاعوا كشف تلبيساته، وفضح سرائره ونياته.

ومن العجيب أيضًا: أن يزعم هذا الرجل أنه يحاول الصلح والتوفيق بين طائفتين، لا يعقل أن تَهدأ بينهما الحرب، أو أن يتم سلام، فهذه طائفة تؤمن بالوحي والقرآن، وتعتصم بعرى الإسلام والإيمان، وهذه طائفة كافرة، تدين بِما ضرطت به عقول فلاسفة اليونان، مِمَّا كله أو أغلبه كفر وإلحاد وهذيان، فلا يُمكن أن يوضع السيف بينهم وبين أتباع الأنبياء

أبد الدهر، وستبقى بينهم الحرب العوان حَتَّى لا تكون فتنة، وحتى يظهر دين اللَّه على الدين كله ولو كره الكافرون.

* * *

وَكَذَا أَتَى الطُّوسِي بِالْحَرْبِ الصَّرِيـ ... حِ بِصَارِمٍ مِنْهُ وَسَلِّ لِسَانِ
وَأَتَى إِلَى الإسْلَامِ يَهْدِمُ أَصْلَهُ ... مِنْ أُسِّهِ وَقَوَاعِدِ الْبُنْيَانِ
عَمَرَ الْمَدَارِسَ لِلْفَلَاسِفَةِ الأُلَى ... كَفَرُوا بِدِينِ اللهِ وَالْقُرْآنِ
وَأَتَى إِلَى أَوْقَافِ أَهْلِ الدِّينِ يَنْـ ... قُلُهَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ذِي أَضْغَانِ
وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الإِشَارَاتِ الَّتِي ... هِي لابْنِ سِينَا مَوْضِعَ الْفُرْقَانِ
وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالنَّوَا ... مِيسِ الَّتِي كَانَتْ لِذِي الْيونَانِ
لَكِنَّهُ عَلِمَ اللَّعِينُ بِأَنَّ هَـ ... ـذَا لَيسَ فِي الْمَقْدُورِ وَالإِمْكَانِ
إِلَّا إِذَا قَتَلَ الْخَلِيفَةَ وَالْقُضَا ... ةَ وَسَائِرَ الْفُقَهَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْمَقْدُورُ بِالْـ ... أَمْرِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من الكلام على ابن سينا القرمطي، وما كان يكيد به للإسلام وأهله فِي الخفاء؛ بسبب اتباعه للفلسفة مع إيهامه أنه حريص على اتباع الشريعة، وأنه يحاول جاهدًا التوفيق بينها وبين الفلسفة، أخذ فِي الحديث على ذيل من ذيوله الذين تعلقوا بفلسفته، وهو الخوجة نصير الدين الطوسي، فذكر أن هذا الرجل لَم يكن يصانع المسلمين كسلفه، ولكنه أعلنها على الإسلام وأهله حربًا صريحة سافرة بسيفه ولسانه، فكان يسعى جهده لكي يَهدم الإسلام من أساسه، فأنشأ المدارس، لا لدراسة الكتاب والسنة وعلوم الشريعة، ولكن لدراسة الكفر والإلحاد باسم الفلسفة، وحول الأحباس الَّتِي كانت لأهل الدين إلى طلبة هذه المدارس؛ حسدًا منه وبغيًا.

وقد أراد هذا الخبيث أن يجعل من كتاب الإشارات الذي ألفه سيده ابن سينا كتابًا مقدسًا بدلًا من القرآن، يُعنى بحفظه ودراسته وتعليمه، كما أراد أن ينسخ الشريعة، ويستعيض عنها بالنظم والقوانين الَّتِي كانت عند اليونان والرومان، ولكنه علم أن ذلك لا يتم له، ولا يقدر عليه إلا إذا أزال دولة الإسلام بقتل رجالاتِها من الخليفة والقضاة والفقهاء من سائر البلدان، فسعى لذلك سعيه باستعداء التتار -أتباع جنكيز خان- على المسلمين، وكان يعمل كالمشير لهم، وساعد على تحقيق غرضه موافقة الأقدار له؛ لحكمة أرادها اللَّه

سبحانه، وهو أحكم الحاكمين.

* * *

فَأشَارَ أَنْ يضَعَ التَّتَارُ سُيوفَهُمْ ... فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
لَكِنَّهُمْ يُبْقُونَ أَهْلَ مَصَانِعِ الدْ ... دُنْيَا لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ
فَغَدَا عَلَى سَيفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي ... مِثْلٍ لَهَا مَضْرُوبَةً بِوِزَانِ
وَكَذَا ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا ... مَضْرُوبَةً بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ
حَتَّى بَكَى الإِسْلاَمَ أَعْدَاهُ الْيهُو ... دُ كَذَا الْمَجُوسُ وَعَابِدُ الصُّلْبَانِ
فَشَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّسُو ... لِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
وَبِوُدِّهِ لَوْ كَان فِي أُحُدٍ وَقَدْ ... شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعْ أَبِي سُفْيَانِ
لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ ... أَوْ أَنْ يُرَى مُتَمَزِّقَ اللُّحْمَانِ

الشرح: أراد هذا الخبيث شفاء غيظه المتقد على الإسلام وأهله بمحاولة الإتيان على أصوله وقواعده، والقضاء على حملته، فأشار على أعوانه من التتار، وهم أهل جهل وغلظة- أن يضعوا سيوفهم فِي معسكر الإيمان والقرآن من رجال الفقه والدين، مع الإبقاء على ذوي الحرف وأرباب الصنائع؛ من أجل عمارة البلدان ومصالح الأبدان.

وقد أخذ هؤلاء السفكة من التتار بمشورة هذا الخبيث الملحد، فأعملوا سيوفهم فِي أهل الإسلام فِي كل بلد دخلوه حَتَّى قدر عدد القتلى بسيوف هؤلاء المجرمين بما يقرب من مليون وثمانمائة ألف شخص، ونكب الإسلام بهم نكبة جعلت أعداءه من اليهود والنصارى والمجوس يبكونه ويرثون لحاله، وبذلك تمكن هذا اللعين من شفاء نفسه من حزب الرسول ﷺ الذين هم جند الإيمان وعسكر القرآن، وكان يود لو أنه شهد وقعة أحد مع أبي سفيان وحزبه، وكان جنديًا فِي جيش الباطل، إذن لصال وجال، وأقر أعين إخوانه من أهل الشرك والضلال، وأوفى نذره فِي الكيد للإسلام وجهاد أهله، أو يرى مقتولًا متمزق اللحمان.

* * *

وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ... ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ
وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا ... بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ
لَوْ كَانَ غَيرُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ ... مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي
إِذْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْعُلَا مُسْتَغْنِيًا ... فَيَكُونُ حِينَئِذٍ لَنَا رَبَّانِ
وَالرَّبُّ بِاسْتِقْلَالِهِ مُتَوَحِّدٌ ... أَفَمُمْكِنٌ أَنْ يَسْتَقِلَّ اثْنَانِ
لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا ... فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ
وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يشْهَدُ مِنْهُمَا ... كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلَانِ
وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَا جَمِيعًا في صِفَا ... تِ اللهِ فَانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ
فَالْوَاحَدُ الْقَهَّارُ حَقًّا لِيسَ فِي الْـ ... إِمْكَانِ أَنْ تَحْظَى بِهِ ذَاتَانِ

الشرح: بعد هذا الاستطراد الطويل بذكر مذاهب الفلاسفة والدهرية فِي قدم العالم، وموقف ابن سينا ونصيره نصير الدين الطوسي من الإسلام وأهله -رجع إلى ما كان فيه من بيان أن اللّٰه هو وحده القديم، وأن كل ما سواه حادث، فقال: إن أمارات الحدوث -وهو الوجود بعد العدم- بادية على كل جزء من أجزاء هذا العالم المخلوق، فإن هذه التغيرات الدائبة الَّتِي تجري فِي هذا العالم -علويه وسفليه- من ولادة وموت، وزرع وحصاد، وهبوب رياح، ونُزول أمطار، وشروق وغروب، وحر وبرد، وزلازل وصواعق... إلخ، تشهد بحدوثه؛ إذ لو كان قديمًا لما قبل هذه التغيرات.

كما أن أدلة التوحيد المثبتة لانفراده سبحانه بالربوبية والقهر شاهدة كذلك بحدوث كل ما سواه؛ إذ لو كان معه قديم غيره لكان مستغنيًا فِي وجوده وبقائه عنه، فيكون ربًّا معه، ومن خصائص الرب أن يستقل بالخلق والإيجاد، فلو كان هنا ربان؛ لحاول كل منهما أن يستقل بالفعل، ولا يتم له ذلك ما دام له شريك مساوٍ له فِي القدرة، ومكافئ فِي الربوبية، فيتمانعان ويتعارضان، فإذا هما عدمان ممتنعان، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وحينئذ فلابد أن ينفرد أحدهما بالقهر والعلو على الآخر، ويكون الآخر عاجزًا مغلوبًا؛ ولهذا كان كل من القهر والتوحيد عدلًا للآخر، ودالًّا على صاحبه، فكل واحد قهار، وكل قهار واحد، وهذا هو سر مجيئهما مقترنين فِي كتاب اللّٰه تعالى كما قال سبحانه فِي سورة الرعد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]. وكما قال فِي سورة الزمر: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن

يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. فصفة القهر والعلو لا يُمكن أن يتصف بها اثنان.

فصل في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الرب تعالى وكلامه والانفصال عنه

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ ... قُلْنَا صَدَقْتُمْ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
كَتَسَلْسُلِ التَّأْثِيرِ فِي مُسْتَقْبَلٍ ... هَلْ بَيْنَ ذَلِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ
وَاللهِ مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ وَلَا ... نَقْلٍ وَلَا نَظَرٍ وَلَا بُرْهَانِ
فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ ... هَذِي الْعُقُولُ وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ
فَلْيَأْتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُو فَارِقٌ ... فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ
وَكَذَاكَ سَوَّى الْجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ... عَلَّافُ فِي الإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ
وَلأَجْلِ ذَا حَكَمَا بِحُكْمٍ بَاطِلٍ ... قَطْعًا عَلَى الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ
فَالْجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْعَلَّافُ لِلْـ ... حَرَكَاتِ أَفْنَى قَالَهُ الثَّوْرَانِ

الشرح: هذا بيان لشبهة قد ترد من جانب المانعين لدوام فاعلية الرب وكلامه، بأن ذلك يستلزم التسلسل فِي جانب الماضي بلا بداية، فإنه ما دام نوع الفعل والكلام قديمًا يجب أن يكون كل حادث منهما مسبوقًا بحادث، لا ينتهي ذلك إلى حادث يعتبر أول الحوادث.

والجواب عن الشبهة المذكورة: إننا نلتزم لزوم التسلسل، ولكن نمنع استحالته، فإن هذا تسلسل فِي الحوادث والآثار، وهو ممكن فِي جانب الماضي كما هو ممكن فِي جانب المستقبل بلا فارق أصلًا، فإذا كان الخصوم يسلمون بإمكان تسلسل التأثير فِي المستقبل، بِمعنى أنه ما من حادث إلا وبعده حادث، لا ينتهي ذلك إلى حادث يعتبر آخر الحوادث، فيجب عليهم أن يسلموا كذلك بإمكانه أيضًا فِي جانب الماضي؛ إذ لا يدل على الفرق بينهما شيء من عقل ولا نقل، ولا يثبت ذلك الفرق بنظر ولا برهان، وإلا فمن ادعى ذلك الفرق فليبينه لنا بيانًا يرتضيه العقل، وقد سوى بينهما الجهم بن صفوان، وأبو الهذيل العلاف، لكن لا فِي الثبوت والإمكان، بل فِي الإنكار والبطلان، فحكموا بامتناع كل منهما، وبنوا على هذا حكمهم الجائر بفناء الجنة والنار وأهلهما، فالجهم حكم بفناء الذات، وأما أبو الهذيل فقال بانقطاع الحركات، وقد سبق الكلام على ذلك فلا نطيل فيه.

وَأَبُو عَلِي وَابْنُهُ وَالأَشْعَرِيْ ... يُ وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيبِ الرَّبَّانِي
وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ
فَرَقُوا وَقَالُوا ذَاكَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... حَقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ
قَالُوا لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِي وَالْـ ... أَحْدَاثِ مَا هَذَانِ يَجْتَمِعَانِ
لَكِنْ دَوَامُ الْفِعْلِ فِي مُسْتَقْبَلٍ ... مَا فِيهِ مَحْذُورٌ مِنَ النُّكْرَانِ

الشرح: انقسم الناس فِي تسلسل الحوادث والآثار إلى ثلاث طوائف:

فأهل السنة والجماعة ذهبوا إلى إمكانه فِي جانب الماضي والمستقبل جميعًا بلا فارق.

وذهب الجهم وأبو الهذيل إلى القول بامتناعه فِي جانب الماضي والمستقبل جميعًا كما تقدم.

وأما أبو علي الجبائي المعتزلي، شيخ الجبائية، وولده أبو الحسن الأشعري، وتلميذه أبو بكر الباقلاني، وجميع أهل الكلام الباطل المذموم؛ ففرقوا بينهما، فذهبوا إلى جوازه فِي جانب المستقبل، وبامتناعه فِي جانب الأزل.

وكانت شبهتهم فِي ذلك: أن الدليل القطعي قد قام على حدوث العالم بجميع أجزائه، والقول بتسلسل الحوادث فِي جانب الأزل بلا بداية معناه القول بقدم العالم، والقدم والحدوث نقيضان لا يجتمعان؛ لهذا منعوا دوام الفعل فِي الماضي؛ لما يلزمه من قدم المفعول، وأما دوام الفعل فِي المستقبل، وتسلسله إلى غير نِهاية؛ فهذا لا محذور فيه، ولا يقتضي الدليل إنكاره، فالعقل يجيز أن يكون بعد كل حادث حادث دون انقطاع فِي جانب الأبد.

ومن شبههم أيضًا: أنه إذا كان كل فرد من أفراد الفعل حادثًا؛ فكيف يكون نوعه قديمًا مع أن النوع ليس إلا مجموعة الأفراد، فإذا كان كل فرد حادثًا مسبوقًا بالعدم؛ كان الكل كذلك؛ إذ لا يصح أن توصف الجملة بحكم غير حكم الأفراد، فإذا قلت مثلًا: كل زنجي أسود. كان الكل أسود بالضرورة.

راجع كتابنا: «ابن تيمية السلفي» فِي مبحث قيام الحوادث بذاته تعالى.

* * *

فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَرْقِ تَرْ وِيجًا عَلَى الْعُورَانِ وَالْعُمْيَانِ
مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ ذُو أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلَا أَعْيَانِ
بَلْ كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَسْبُوقٌ بِفَرْ دٍ قَبْلَهُ أَبَدًا بِلَا حُسْبَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْ حُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ
النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْ حُوقٌ وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ
وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَخِيرًا فَهْوَ لَا يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بِبَيَانِ
وَتَعَاقُبُ الآنَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ

الشرح: هذا رد لتلك الشبهة الَّتِي بنى عليها الأشعري وموافقوه الفرق بين الدوام فِي جانب الأزل وبين الدوام فِي جانب المستقبل، وملخص الدفع أن هذه التفرقة مغالطة، وتلبيس لا يروج إلا على السذج البسطاء من الجهلة وأنصاف العلماء؛ إذ لَم يقل أحد من العقلاء الذين ذهبوا إلى دوام فاعلية الرب تعالى، وتسلسل أفعاله -ماضيًا ومستقبلًا-: إن شيئًا من أعيان المخلوقات وأفرادها قديم، لا ذهنًا ولا خارجًا. بل قالوا: إن كل فرد منها فهو مسبوق بفرد قبله إلى غير بداية يُمكن أن يحصرها العد والحساب. مع قولهم: بأن كل فرد منها حادث. ونظير هذا قولهم: إن كل فرد فهو ملحوق بفرد آخر يجيء بعده بلا نِهاية كذلك، فالآحاد كلها لَها ابتداء وانتهاء سواء فِي ذلك السابق منها واللاحق، وأما النوع؛ فهو مستمر أزلًا وأبدًا، بلا ابتداء ولا انتهاء.

وقس ذلك على آنات الزمان -وهي أجزاؤه- فإنَّها تتعاقب فِي الوجود شيئًا بعد شيء، لا إلى نِهاية، مع امتدادها كذلك فِي جانب الأزل بلا بداية، فليست تبتدئ من آن هو أول الآنات، ولا تنتهي إلى آن هو آخرها، مع أن كل آن منها له بداية وانتهاء؛ لأنه واقع بين آنين، فكل آن منها يبتدئ من نِهاية الآن الذي قبله بابتداء الذي بعده، ومع ذلك فجملة الآنات لا أول لَها ولا آخر، لا فِي الذهن، ولا فِي الخارج، فكل فرد من أفراد المخلوقات حادث موجود بعد أن لَم يكن.

وأما النوع الذي هو من لوازم الكمال؛ لأنه وصفه تعالى؛ فلا مبتدأ له، ولا منتهى، بل لَم يزل اللَّه فعالًا لما يريد؛ لأنه لا يُمكن أن يكون فِي وقت من الأوقات فاقدًا لشيء من الكمال.

* * *

فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ أَوَّلُ الْـ ... آنَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلَا نُكْرَانِ
مَا كَانَ ذَاكَ الآنَ مَسْبُوقًا يُرَى ... إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي
فَيُقَالُ مَا تَعْنُونَ بِالآنَاتِ هَلْ ... تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الأَزْمَانِ
مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... وَالأَرْضِ وَالأَفْلَاكِ وَالْقَمَرَانِ
وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ ... مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ
هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ ... نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ
هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الآثَارُ وَالْـ ... مَعْقُولُ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ
إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُو ... مِنْهَا فَكُلُّ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ

الشرح: لما مثل المؤلف لتعاقب الحوادث وتسلسلها فيما لَم يزل ولا يزال، بلا بداية ولا نِهاية، بتعاقب آنات الزمان، كذلك قال للخصوم المانعين: فإذا أبيتم هذا القياس، ومنعتم التسلسل فِي المقيس عليه، وهو الآنات، وقلتم: إن أول الآنات مفتتح وله بداية، ولَم يكن هذا الآن الأول مسبوقًا بآن قبله، وإنَّما كان مسبوقًا بعدم وجود.

فيقال لكم: ماذا تعنون بالآنات الَّتِي أنكرتم الحكم عليها بالتسلسل؟ هل تعنون بِها مدة الأزمنة الكائنة منذ خلق اللَّه السموات والأرض وما فيهما من الأشياء؟ ولا نظنكم تعنون بالزمان إلا ذلك؛ بدليل أنكم تقيسون الزمان بحركات الأفلاك ودورانِها، فهذا يفيد أن الزمان عندكم حادث بحدوث هذه الأفلاك، وأنه قبل خلق السموات والأرض لَم يكن -فِي زعمكم- شيء من الأكوان موجودًا، ونحن نسألكم: هل عندكم على ذلك دليل من نقل أو عقل؟ فهذا كتاب اللَّه ﷻ، وهذه الآثار المروية عن رسوله ﷺ وأصحابه، وهذه هي الفطرة الإنسانية الَّتِي فطر اللَّه الناس عليها، وهذه هي بداية العقول ومسلماتُها، فأين تجدون زعمكم فِي شيء من هذه الأربع الَّتِي هي مرجع كل حجة، ومصدر كل دليل؟ إنا نحاكمكم إلى أيِّها شئتم حَتَّى يتبين الحق ويتضح، ويظهر أنكم لا ترجعون فِي قولكم هذا إلى دليل معتبر، ولا حجة بينة.

* * *

أَوَلَيسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الأَيَامِ كَا ... نَ وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ
أَوَلَيسَ ذَلِكُمُ الزَّمَانُ بِمُدَّةٍ ... لِحُدُوثِ شَيءٍ وَهْوَ عَينُ زَمَانِ
فَحَقِيقَةُ الأَزْمَانِ نِسْبَةُ حَادِثٍ ... لِسِوَاهُ تِلْكَ حَقِيقَةُ الأَزْمَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ السَّبْقِ لِلتَّقْدِيرِ وَالتْـ ... ـتَوْقِيتِ قَبْلَ جَمِيعِ ذِي الأَعْيَانِ
خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سِنِينٍ عَدَّهَا الْـ ... ـمُخْتَارُ سَابِقَةً لِذِي الأَكْوَانِ
هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْمَاءِ مِنْ ... قَبْلِ السِّنِينَ بِمُدَّةٍ وَزَمَانِ

الشرح: يعني: أن الأدلة من النقل والعقل دلت على فساد زعم هؤلاء: أن السموات والأرض هما أول المخلوقات، وأنه لَم يكن قبلهما شيء يُمكن أن يقاس به الزمان.

فقد ذكر اللَّه ﷻ فِي عدة مواضع من القرآن أنه خلق السموات والأرض فِي ستة أيام، وهذه الأيام الَّتِي جعلها اللَّه مدة وظرفًا لذلك الخلق هي جملة معينة من الزمان، وحقيقة الزمان هي نسبة حادث إلى آخر، فلابد أن تكون هذه الأيام مقدرة بحركة أخرى غير سير الشمس والقمر؛ إذ كانت سابقة عليهما، وهذا يدل على وجود أزمنة ومخلوقات قبل خلق السموات والأرض، وهذا هو ما يشهد له الحديث الصحيح الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «**قدر اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**». والحديث الآخر الذي بمعناه: «**أن اللَّه لما خلق القلم؛ قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة. فجرى فِي تلك الساعة بِما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وكان عرشه على الماء**».

فهذا صريح فِي وجود مخلوقات قبل السموات والأرض، حيث أخبر أن التقدير سابق على وجود هذه الأعيان بخمسين ألف سنة، ووجود العرش كان سابقًا على هذا التقدير بدليل قوله: «**وكان عرشه على الماء**». أي: عند كتابة القلم للمقادير، ولا يدري إلا اللَّه كم من السنين كان العرش على الماء قبل أن يجري القلم بِما جرى به من قدر اللَّه ﷻ.

* * *

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمذَانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لأَنَّهُ ... قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ
لَمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ اكْتُبْ كَذَا ... فَغَدَا بِأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَانِ
فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

الشرح: اختلف العلماء هل القلم كان قبل العرش أو بعده، وأيُّهما كان أول المخلوقات؟ قولان ذكرهما الحافظ أبو العلا الهمداني:

أصحهما: أن العرش كان قبل القلم؛ لما فِي الصحيح من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

فهذا صريح أن التقدير إنَّما وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بلا مهلة، لما رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حَتَّى تقوم الساعة**». يعني: أنه عند أول خلقه للقلم قال له: اكتب. بدليل الرواية الأخرى: «**أول ما خلق اللَّه القلم قال له: اكتب**». بنصب أول على الظرفية، ونصب القلم على المفعولية، وأما على رواية رفع أول والقلم؛ فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم -يعني: عالم الأقلام- ليتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد اللَّه بن عمرو صريح فِي أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق اللَّه القلم قال له: اكتب. فجرى القلم بِما هو كائن إلى يوم القيامة بقدرة اللَّه ﷻ**».

* * *

أَفَكَانَ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... مِنْ قَبْلُ ذَا عَجْزٍ وَذَا نُقْصَانِ
أَمْ لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ وَالْفِعْلُ مَقْـ ... ـدُورٌ لَهُ أَبَدًا وَذُو إِمْكَانِ
فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ مَا هَذَا الَّذِي ... أَدَّاهُمُ لِخِلَافِ ذَا التِّبْيَانِ
وَلأَيِّ شَيءٍ لَمْ يَقُولُوا إِنَّهُ ... سُبْحَانَهُ هُوَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَسَّسُوا أَصْلَ الْكَلَامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ
وَعَنِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْمَعْقُولِ بَلْ عَنْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ
وَبَنَوْا قَوَاعِدَهُمْ عَلَيهِ فَقَادَهُمْ قَسْرًا إِلَى التَّعْطِيلِ وَالْبُطْلَانِ

الشرح: أفبعد هذا البيان الذي دل على وجود مخلوقات قبل هذا العالم، ووجود زمان قبل هذا الزمان، يصح أن يقال: إن رب العرش قبل وجود هذا العالم كان عاجزًا عن الفعل والإيجاد فيما لَم يزل، أم الحق هو عكس ذلك تمامًا، وهو أنه سبحانه لَم يزل قادرًا على إيجاد الفعل، والفعل لَم يزل مقدورًا له ممكنًا.

فلئن سأل سائل عما حدا بِهؤلاء الخصوم إلى المنازعة فِي تلك القضية الَّتِي تتألق وضوحًا وتبيانًا؟ ولماذا لَم يقولوا بِما قال به السلف من أنه سبحانه دائم الإحسان وقديمه؟.

فإنا نقول له: إن هؤلاء المخذولين اغتروا بعقولهم الفاسدة، وبِما أصلته لهم من أصول باطلة، فعموا بسبب ذلك عن كل ما يصلح أن يكون حجة ودليلًا، عموا عن القرآن والحديث، وعموا عن الفطرة الإنسانية، وعما يقتضيه العقل السليم والنظر الصحيح، لقد أسسوا لهم أصلًا فِي الكلام، وبنوا عليه جَميع قواعدهم، فقادهم هذا الأصل الفاسد رغمًا عنهم إلى التعطيل والإنكار، وهذا الأصل هو:

نَفْيُ الْقِيَامِ لِكُلِّ أَمْرٍ حَادِثٍ بِالرَّبِّ خَوْفَ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ
فَيَسُدُّ ذَاكَ عَلَيهِمُ فِي زَعْمِهِمْ إِثْبَاتَ صَانِعِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَوْنِ ذِي الأَجْسَادِ حَا دِثَةً فَلَا تَنْفَكُّ عَنْ حِدْثَانِ
فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَكُنْ لِحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِنْ بُرْهَانِ
فَلأَجْلِ ذَا قَالُوا التَّسَلْسُلُ بَاطِلٌ وَالْجِسْمُ لَا يَخْلُو عَنِ الْحِدْثَانِ
فَيَصِحُّ حِينَئِذٍ حُدُوثُ الْجِسْمِ مِنْ هَذَا الدَّلِيلِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
هَذِي نِهَايَاتٌ لإِقْدَامِ الْوَرَى فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ الأَعْطَانِ
فَمَنِ الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْرَةِ الْحَيرَانِ
فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

الشرح: هذا هو الأصل الذي أسسوه، وبنوا عليه مذاهبهم فِي تعطيل الرب سبحانه

عن صفاته الاختيارية الَّتِي تحدث فِي ذاته بمشيئته، وهو الحكم بامتناع قيام الحوادث بذاته؛ إذ لو قامت به الحوادث من الأفعال لوجب القول بتسلسلها وتعاقبها فِي الوجود شيئًا قبل شيء، لا إلى أول، وهذا يؤدي بدوره إلى القول بتسلسل الأعيان الَّتِي هي المفعولات، وبذلك تكون هذه المفعولات قديمة، فينسد حينئذ طريق إثبات الصانع؛ إذ كان الطريق إلى إثباته هو لزوم الحدوث لهذه المخلوقات، وعدم انفكاكها عنه، فإذا تسلسلت؛ بطل دليل حدوثها، فلأجل هذا قالوا ببطلان التسلسل، ولزوم الحدوث للأجسام(١).

وهذه الآراء الَّتِي تقدم ذكرها هي غاية ما وصلت إليه عقول الورى فِي هذا المقام الذي هو مزلة الأقدام ومضلة الأفهام، فمن ذا يستطيع أن يأتي فيه بحكم بيِّن وقول فصل، ينجي به الناس من هذه الحيرة الغامرة، ويكون له عند اللَّه ما هو له أهل من جنة ورضوان.

* * *

فَاسْمَعْ إذَنْ وَافْهَمْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ ... وَمُشَبِّهٌ وَهَدَاكَ ذُو الْغُفْرَانِ

هَذَا الدَّلِيلُ هُوَ الَّذِي أَرْدَاهُمُ ... بَلْ هَدَّ كُلَّ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ

وَهْوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْمَرْدُودُ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

مَا زَالَ أَمْرُ النَّاسِ مُعْتَدِلًا إِلَى ... أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَانِ

وَتَمَكَّنَتْ أَجْزَاؤُهُ بِقُلُوبِهِم ... فَأَتَتْ لَوَازِمُهُ إِلَى الإِيمَانِ

رُفِعَتْ قَوَاعِدُهُ وَحُتَّ أَسَاسُهُ ... فَهَوَى الْبِنَاءُ وَخَرَّ لِلْأَرْكَانِ

وَجَنَوَا عَلَى الإِسْلَامِ كُلَّ جِنَايَةٍ ... إِذْ سَلَّطُوا الأَعْدَاءَ بِالْعُدْوَانِ

الشرح: بعد أن أورد المؤلف الأصل الذي بنى عليه أهل الكلام قواعدهم الفاسدة فِي منع قيام الحوادث بذاته تعالى، وزعمهم أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، واتخاذهم من هذه القضية الكاذبة الَّتِي يزعمون أن عقولهم قد أجمعت على صحتها أساسًا

---

(١) واعتمدوا في الاستدلال على وجود اللَّه ﷻ على ذلك؛ فقالوا: إن العالم جواهر وأعراض، والأعراض حادثة، والجواهر لا تنفك عن الأعراض الحادثة، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وإذا ثبت حدوث العالم بهذا الدليل، فلابد له من محدث، هكذا يقول المتكلمون، ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية فساد طريقتهم هذه ونقض دليلهم بوجوه من النقض ليس هذا موضعها، فارجع إلى كتابنا «ابن تيمية السلفي» في مبحث إثبات وجود اللَّه.

لنفي صفات الفعل، والصفات الاختيارية الَّتِي تحدث فِي ذاته تعالى بِمشيئته وقدرته، أراد بعد ذلك أن يبين فساد هذا الدليل الذي تشبثوا به، فذكر أن هذا الدليل هو الذي أوقعهم فِي الهلكة، وأضلهم عن سواء السبيل، كما أنه قد هدم كل ما جاء به القرآن الحكيم من قواعد الإيمان، فقد وصف اللَّه نفسه فِي كتابه بأنه كلم موسى عند مجيئه للميقات، وناداه من جانب الطور الأيمن، وأنه استوى على عرشه بعد خلق السموات والأرض، وأنه ينْزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأنه سيأتي ويجيء يوم القيامة، وأنه يحب المؤمنين، ويرضى عنهم، ويبغض الكافرين، ويغضب عليهم، وأنه يفرح بتوبة عبده التائب، وأنه يسمع أصوات عباده حين تحدث، ويرى حركاتِهم وأعمالهم، إلى غير ذلك من الآيات الَّتِي لا تحصى كثرة، والتي تدل أقوى دلالة على حدوث هذه الأفعال فِي ذاته تعالى بمشيئته وقدرته، فكيف إذن يصح قول هؤلاء الجاهلين: إن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. دون أن يفرقوا بين جنس الحوادث وأعيانِها، فالممنوع هو قيام أشخاص الحوادث بذاته، بِمعنى أن يكون لَها ابتداء فِي ذاته، أما قيام أجناس الحوادث، وحدوث آحادها فِي ذاته شيئًا بعد شيء، وفي وقت دون آخر، بِمعنى أنه لَم يزل فاعلًا لَها إذا شاء، فإنه لا يدل على امتناعه دليل، بل نصوص الكتاب والسنة تثبته، ولا تنفيه.

فقد تبين بذلك بطلان دليل هؤلاء وفساده، ومصادمته للنصوص؛ ولهذا اشتغل برده وإبطاله كثير من أئمة التحقيق والعرفان، ولقد كان أمر الناس معتدلًا وبعيدًا عن الزيغ والانحراف قبل أن يلقي الشيطان بِهذا الدليل إلى أوليائه من الإنس، ويدفعهم إلى أن يشيعوه بين الناس، ويشتغلوا به كتابة وتفكيرًا حَتَّى تمكنت قضاياه من قلوبِهم، فالتزموا من أجله اللوازم الفاسدة الَّتِي أتت على الإيمان من القواعد حَتَّى هوى بناؤه، وتداعت أركانه، وجنوا على الإسلام أكبر جناية، ومكنوا منه أعداءه، وأعطوهم السلاح الذي يستطيعون محاربته به، فقد جاء الفلاسفة، واستغلوا هذا الدليل الذي هو عمدة المتكلمين فِي القول بالإيجاب، ونفي الاختيار عن اللَّه ﷻ، والقول بقدم العالم... إلخ.

* * *

حَمَلُوا بِأَسْلِحَةِ الْمُحَالِ فَخَانَهُمْ ... ذَاكَ السِّلَاحُ فِمَا اشْتَفَوْا بِطِعَانِ

وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلَاحِهِمُ فَقَا ... تَلَهُمْ بِهِ فِي غَيبَةِ الْفُرْسَانِ

يَا مِحْنَةَ الإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ مِنْ ... جَهْلِ الصَّدِيقِ وَبَغْيِ ذِي طُغْيَانِ

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ
لَتَخَطَّفَتْ أَعْدَاؤُنَا أَرْوَاحَنَا وَلَقُطِّعَتْ مِنَّا عُرَى الإِيمَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء الجهلة من المتكلمين الذين لا يحسنون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه وأعدائه حملوا على هؤلاء الخصوم بأسلحة مفلولة، والمراد بِها الأدلة الباطلة المحالة، فخانَهم سلاحهم، ولَم يسعفهم، ولا شفى منهم الصدور عند الطعان، ثُمَّ جاء العدو الماكر، فاستلب منهم هذا السلاح، وقاتلهم بِه، فأصمهم حيث قال لهم: أنتم تمنعون قيام الحوادث بذاته تعالى، فلماذا قلتم بحدوث العالم مع أن كل ما يحتاج إليه فِي الفعل موجود فِي الأزل، من علم شامل، وقدرة تامة، وإرادة نافذة؟ فلماذا إذن يتأخر وجود المراد مع أنه لَم يحدث فِي ذات الرب سبحانه شيء، لا تجدد قدرة، ولا إرادة، ولا وجود آلة يستعين بِها على الإيجاد... إلخ؟.

وهكذا قاتلتم العدو بنفس السلاح، وكان ذلك فِي غيبة فرسان الإسلام الحقيقيين ذوي الأسلحة الماضية، وهكذا كانت محنة الإسلام والقرآن فِي الصديق الجاهل كمحنته فِي العدو الظالم، فتعاون الفريقان على هدمه وإفساده، وإن كان الفريق الأول لَم يقصد إلى ذلك، ولولا أن اللَّه ناصر دينه وكتابه بالحجة والبرهان؛ لمزقنا الأعداء شر ممزق؛ ولسلبونا أرواحنا من جسومنا؛ ولقطعوا منا عرى الإيمان.

* * *

أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى خَيْرُ الْقُرُونِ لَهُ مُحَالٌ ذَانِ
وُفِّقْتُمُو لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا أَصْلُ الْيَقِينِ وَمَقْعَدِ الْعِرْفَانِ
وَهَدَيْتُمُونَا لِلَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا أَبَدًا بِهِ وَا شِدَّةَ الْحِرْمَانِ
وَدَخَلْتُمُ لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا دَخَلُوهُ وَا عَجَبًا لِذَا الْخِذْلَانِ
وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ دُو نَ الْقَوْمِ وَا عَجَبًا لِذَا الْبُهْتَانِ
وَعَرَفْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَجْسَامِ وَالْـ أَعْرَاضِ وَالْحَرَكَاتِ وَالأَلْوَانِ
وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الْـ آيَاتِ وَهْيَ فَغَيْرُ ذِي بُرْهَانِ
اللهُ أَكْبَرُ أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى حَقٍّ وَفِي غَيٍّ وَفِي خُسْرَانِ

الشرح: ينكر المؤلف على هؤلاء المتكلمين اعتمادهم فِي إثبات وجود اللَّه ﷻ الذي هو أعظم المطالب فِي الدين على هذا الدليل المتقدم، المبني على حدوث الجواهر

والأعراض، حَتَّى ذهب بعضهم -جهلًا وغلوًّا- إلى أن من لَم يؤمن بالله عن طريقه لَم يصح إيمانه، فهو يقول لهم: لو كان دليلكم هذا حقًّا، ويتوقف الإيمان بالله ﷻ على معرفته، كيف لَم يَهتد إليه خير القرون وأفضلها، وهم أكمل هذه الأمة علمًا وإيمانًا؟! هذا محال، وكيف يعقل أن توفقوا أنتم يا أذناب الفلاسفة وإخوان الزنادقة للحق فِي أصل اليقين، وأساس الإيمان، فِي حين يرجع هؤلاء الأفاضل الكملة بالخيبة والحرمان؟ وكيف جاز أن تَهتدوا أنتم إلى ما لَم يَهتدوا إليه، أو تدخلوا إلى الحق من باب لَم يعرفوه، أو تسلكوا إلى العلم والهدى طريقًا لَم يسلكوه؟! ولكنكم لا تتورعون من رمي القوم بالجهل، وقلة المعرفة، حيث قلتم: إن مذهبنا أعلم وأحكم، ومذهب السلف أسلم، وزعمتم أنكم عرفتم ربكم بدليل العقل، وهو يفيد القطع واليقين، أما القوم؛ فما عرفوه إلا من طريق الآيات القرآنية، وهي فِي زعمكم لا تفيد إلا الظن وإقناع السامعين.

فيا عجبًا لكم! تخالفون طريق القوم، وتزعمون أنكم على الحق والهدى، فمن أحق بذلك، أنتم أو هم؟! لا شك أنَّهم أولى وأحق بكل حق وكل هدى، وليس لمن خالفهم واتبع غير سبيلهم إلا الوقوع فِي الغي والضلال.

* * *

دَعْ ذَا أَلَيسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا ... حَقَّ الأَدِلَّةِ وَهْيَ فِي الْقُرْآنِ

مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ ... فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ

مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ ... لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

أَسَمِعْتُمُ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا ... خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُمْ لَهُ بِبَيَانِ

أَيكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى ... إِلَّا بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ

وَسِوَاهُ لَيسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ

الشرح: ولندع مخالفتكم لطريق القوم جانبًا، ولنسألكم: هل تعتقدون أن الله ﷻ قد بين لنا الأدلة الحقة على وجوده فِي القرآن، وصرفها، ونوعها؛ لتتظاهر على إثبات هذا المطلوب الأعظم من كل وجه، وحتى لا يبقى فيه لبس، ولا خفاء أصلًا، فمنها ما هو معلوم للعقل، ومنها ما هو مشهود للحس، ومنها ما يرجع إلى الفطرة السليمة الَّتِي فطر الله الناس عليها؟ فمع كل هذه الأدلة المتكاثرة الَّتِي جاء بِها القرآن، هل سمعتم فِي بعضها خبرًا عن دليلكم هذا الذي جعلتموه عمدتكم فِي الاستدلال، وأهملتم لأجله كل ما جاء

بالقرآن الكريم من أنواع الأدلة بحجة أنَّها لا تفيد ما يفيده هذا الدليل من قطع ويقين؟ .

فهل يعقل أن يكون دليلكم -ولَم يرد له فِي كتاب اللَّه ذكر، ولا وقعت إليه إشارة مع كثرة ما أورد من أدلة- هو أصل اليقين والإيمان، وسواه من الأدلة ليس بموصل لهذا المطلوب، ولا محصل للإيمان، وأن الواجب هو معرفة اللَّه بِهذا الدليل الفاسد، وأن من لَم يحط به علمًا لَم ينج من كفران، ولَم تحصل له حقيقة الإيمان؟ .

* * *

وَاللَّهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا ... طُرقَ الْهُدَى فِي غَايةِ التِّبْيَانِ

فَلأَي شَيءٍ أَعْرَضَا عَنْهُ وَلَمْ ... نَسْمَعْهُ فِي أَثَرٍ وَلا قُرْآنِ

لَكِنْ أَتَانَا بَعْدَ خَيرِ قُرُونِنَا ... بِظُهُورِ أَحْدَاثٍ مِنَ الشَّيطَانِ

وَعَلَى لِسَانِ الْجَهْمِ جَاءُوا حِزْبُهُ ... مِنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَيرَانِ

وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ النَّكِيرُ عَلَيهِمُ ... مِنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَلْ رَمَوْا ... فِي إِثْرِهِمْ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

عَرَفُوا الَّذِي يفْضِي إِلَيهِ قَوْلُهُمْ ... وَدَلِيلُهُمْ بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي خَفَارَةِ جَهْلِه ... وَالْجَهْلُ قَدْ ينْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ

الشرح: يعني: أن اللَّه ورسوله قد بينا جَميع الطرق المعرفة باللَّه غاية البيان، فإذا كان دليل هؤلاء حقًّا؛ فلماذا لَم يذكره اللَّه ولا رسوله، ولَم نسمع عنه، لا فِي قرآن ولا أثر؟! ولكنه دليل باطل متهافت، ومقدماته على ما فيها من خفاء وبعد ليست كلها صحيحة، وهو دليل مبتدع متلقى من مبادئ الفلسفة اليونانية الوثنية، فإن الكلام فِي الجسم والعرض والجوهر وغيرها لَم يظهر إلا بعد ترجمة هذه الفلسفة إلى العربية فِي عهد المأمون ومن بعده من خلفاء العباسيين، وكان أول من أحدثه هو الجهم وحزبه من المبتدعة الضلال؛ ولهذا لما اطلع أئمة الحق على حقيقة هذا الدليل، وما فيه من تناقض واضطراب؛ أنكروا على أهله غاية الإنكار؛ وحذروا منه غاية التحذير؛ لعلمهم بِما يفضي إليه من لوازم فاسدة، فيها هدم لكل قواعد الإسلام.

ولسنا نعرف أحدًا اختص هذا الدليل بالنقد المر اللاذع، وأبان عن تناقضه وفساده بأدلة العقل والنقل بمثل ما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «العقل والنقل» و«منهاج السنة» فقد أتى فيه بِما يشفي ويقنع، فجزاه اللَّه عن الإيمان وأهله خير الجزاء.

فصل في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إلهٌ يعبد ولا فوق السموات إله يصلى له ويسجد وبيَان فساد قولهم عقلًا ونقلًا ولغةً وفطرة

وَاللهُ كَانَ وَلَيسَ شَيءٌ غَيرَهُ ... وَبَرَى الْبَرِيةَ وَهْي ذُو حِدْثَانِ
فَسَلِ الْمُعَطِّلَ هَلْ بَرَاهَا خَارجًا ... عَنْ ذَاتِهِ أَمْ فِيهِ حَلَّتْ ذَانِ
لَابُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ أَنَّهَا ... هِي عَينُهُ مَا ثَمَّ مَوْجُودَانِ
مَا ثَمَّ مَخْلُوقٌ وَخَالِقُهُ وَمَا ... شَيءٌ مُغَايرُ هَذِهِ الأَعْيَانِ
لَابُدَّ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ خِلْوًا مِنَ الرَّوَغَانِ
وَلِذَاكَ قَالَ مُحَقِّقُ الْقَوْمِ الَّذِي ... رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ
هُوَ عَينُ هَذَا الْكَوْنِ لَيسَ بِغَيرِهِ ... أَنَّى وَلَيسَ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ
كَلَّا وَلَيسَ مُجَانِبًا أَيضًا لَهَا ... فَهُوَ الْوجُودُ بِعَينِهِ وَعِيَانِ

الشرح: اعلم أن هذه الصفة -وهي استواؤه تعالى على عرشه، بِمعنى: علوه وارتفاعه على العرش بذاته على الكيفية الَّتِي يعلمها هو سبحانه- من أظهر ما وقع فيه النِّزاع بين أهل السنة وبين خصومهم، وكانت الشبهة الَّتِي سولت لهؤلاء المعطلة نفي الاستواء وغيره من الصفات الَّتِي وردت بإثباتِها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة الصحيحة - أن هذه الصفات من لوازم الأجسام الحادثة، فلو اتصف اللَّه بِها على الحقيقة؛ لكان جسمًا، واللَّه منَزه عن الجسمية ولوازمها.

ولا يخفى ما فِي هذه الشبهة من المغالطة، فإننا نثبت هذه الصفات للَّه على ما يليق به سبحانه، فلا ننفيها كما نفتها المعطلة، ولا نمثلها بصفات خلقه كما فعلت الممثلة، وبذلك لا يقتضي إثباتُها جسمية ولا حدوثًا، ولا يلزمنا ما أوردوه من اللوازم، لكنهم توهموا أن معاني هذه الصفات فِي الغائب لا يُمكن أن تعقل إلا كما هي فِي الشاهد، فقاسوا اللَّه ﷻ على خلقه، وظنوا أن مقتضى التنْزيه هو نفي هذه الصفات رأسًا، دون الاكتفاء بنفي المماثلة عنها، فجرهم هذا الغلو فِي التنْزيه إلى الوقوع فِي التعطيل، وجحد ما وصف اللَّه به نفسه، ووصفه به رسوله، وتوسعوا فِي صفات السلوب، حَتَّى يخيل لمن يطالع كتبهم أنَّهم لا يعنون بِهذه الصفات شيئًا موجودًا متحقق الثبوت، وإنَّما يصفون بِها أمرًا افتراضيًّا صرفًا، لا حقيقة له.

وكأني بك أيُّها القارئ تنظر إليَّ فِي دهشة، وتسألني فِي عجب: من أين لهؤلاء ذلك النفي الصرف والتجريد المحض، وهو لا أصل له فِي دينهم، ولا دليل عليه من كتاب ربِّهم، ولا من أقوال نبيهم، ولا هو مِمَّا نقل عن أحد من سلف هذه الأمة الذين هم أكمل علمًا وإيمانًا؟ وهل يعقل أن هؤلاء المعطلة قد علموا من حقائق التنْزيه ما لَم يعلمه اللَّه ولا رسوله ولا أحد من سلف هذه الأمة؟! وإني أقول لك: مهلًا أيُّها القارئ الكريم، فسأحدثك عن الأسباب الَّتِي أوقعت هؤلاء فِي تلك الفتنة، وأوردتْهم موارد الهلكة، حَتَّى يبطل بذلك عجبك، وتزول دهشتك:

لقد نظر قدماء هؤلاء المعطلة فِي كتب فلاسفة اليونان وغيرهم، فوجدوا أنَّهم يثبتون إلى جانب هذا الوجود المادي، المتمثل فِي الجواهر والأعراض، وجودًا آخر مجردًا عن المادة وعلائقها، فهو ليس بجسم، ولا عرض، ولا بذي صورة، ولا مقدار، ولا كيفية، ولا يشار إليه بالإشارة الحسية بأنه هنا أو هناك، ولا يجوز عليه قرب، ولا بعد، ولا اتصال، ولا انفصال، ولا صعود، ولا نُزول... إلخ ما نعتوه به من السلوب الَّتِي تحيل وجوده، وتجعله من قبيل المعدومات والممتنعات.

وكان الفلاسفة يقولون: إن هذا الوجود المجرد هو أكمل من الوجود المادي؛ لأنه لا يجوز عليه التغير والاستحالة، ولا تحله الأعراض، وكانت المجردات عندهم: هي اللَّه والعقل والنفس والهيولى والصورة.

فلما رأى المعطلة ما قال الفلاسفة؛ فرحوا به فرحًا شديدًا؛ وظنوا أنَّهم وقعوا على كنْز ثمين، وأنَّهم عثروا على مفتاح السر الذي يتيح لهم حل الألغاز والمعميات، فقالوا: وما لنا لا نثبت هذا النوع من الوجود وإن كنا لا نحسه ولا نراه، وليس عندنا عنه أثر ولا خبر.

ألَم يثبته قبلنا أرسطو وأفلاطون، وهما بلا شك أصح منا عقولًا وأجود أذهانًا؟ ولكنا لا نجعل هذا الوجود الكامل إلا للَّه وحده، ولا نصف به شيئًا من هذه الموجودات الممكنة.

هذا هو أصل تلك الأكذوبة الَّتِي راجت وانتشرت حَتَّى عمت الأرجاء والأقطار وأفسدت بسمها المهلك كثيرًا من العقائد والأفكار، وانخدع بِها كثير من أهل الفضل والصلاح مِمَّن لهم فِي علوم الحديث والآثار قدم راسخة، ولكن لا نقول إلا كما قال

موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

إننا يا قوم معكم فِي أن اللَّه ليس جسمًا بالمعنى الذي اصطلح عليه أهل الكلام والفلسفة، فهو ليس مركبًا من تلك الجواهر المفردة الَّتِي يزعمها المتكلمون، ولا من الهيولى والصورة الَّتِي يَهرف بِها الفلاسفة، ولكنا مع ذلك لا نعقل موجودًا ليس فِي مكان، ولا حيز له، ولا جهة، ولا يشار إليه، ولا يوصف بقرب ولا بعد ولا اتصال ولا انفصال. . . إلخ ما ذكرتموه من نعوت هذا الوجود الذي تسمونه مجردًا، وهل من الضروري أن يكون وجود الرب على هذا النحو الذي يقتضي نفي كل صفة محضة وإلا لكان جسمًا؟ أوليس أحسن من ذلك وأقوم أن نثبت له سبحانه وجودًا خاصًا به هو أكمل من هذه الموجودات الممكنة، ويكون هذا الوجود قابلًا للاتصاف بكل هذي الصفات على وجه لا يكون مماثلًا لاتصاف المخلوق بِها، بل لا يكون هناك تشابه ولا اشتراك إلا فِي مسمى الاسم الكلي المتناول لأفراد تلك الصفة المتباينة فِي وجودها العيني.

ولنرجع بعد هذه المقدمة إلى شرح كلام المؤلف، فهو يقول لهؤلاء النافين لاستوائه تعالى على العرش: أنتم توافقوننا على أن اللَّه كان ولَم يكن معه شيء، ثُمَّ خلق هذه الموجودات الحادثة، فأين خلقها؟ هل خلقها خارج ذاته فهي مباينة له، منفصلة عنه؟ أم خلقها داخل ذاته، بحيث تكون حالة فيه؟ لابد لكم من القول بأحد هذين القولين ما دمتم تعتقدون أن هذه الموجودات هي غيره، فإن كانا موجودين؛ إذن نسب أحدهما إلى الآخر، فإما أن يكون داخلًا فيه، أو خارجًا عنه، وليس هناك قسم ثالث إلا إذا قلتم: إنَّها عينه، وأنه ليس هناك موجودان أحدهما خالق، والآخر مخلوق، فلابد لكم من إحدى هذه الخصال الثلاث:

إما أن تقولوا: إنَّها خارجة عنه.

أو تقولوا: إنَّها حالة فيه.

أو تقولوا: إنَّها عينه.

ودعوكم من هذا الروغان، فإنَّها قسمة حاضرة، تقتضيها ضرورة العقل، ولا يجد المنصف محيصًا عنها.

ولهذا ذهب ابن عربي وأتباعه من أصحاب مذهب الوحدة إلى القسم الثالث، وهو أن اللَّه ﷻ هو عين هذه الأكوان، وليس هناك مباينة أصلًا بين وجوده ووجودها، وليس هو مجانبًا لَها، بل هو هذا الوجود بعينه وعيانه.

إِنْ لَمْ يكُنْ فَوْقَ الْخَلَائِقِ رَبُّهَا ... فَالْقَوْلُ هَذَا الْقَوْلَ فِي الْمِيزَانِ
إِذْ لَيسَ يعْقَلُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّهُ ... قَدْ حَلَّ فِيهَا وَهْي كَالأَبْدَانِ
وَالرُّوحُ ذَاتُ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَلَّتْ بِهَا كَمَقَالَةِ النَّصْرَانِي
فَاحْكُمْ عَلَى مَنْ قَالَ لَيسَ بِخَارِجٍ ... عَنْهَا وَلَا فِيهَا بِحُكْمٍ بَيَانِ
بِخِلَافِهِ الْوَحْيينِ وَالإِجْمَاعَ وَالْـ ... عَقْلَ الصَّرِيحَ وَفِطْرَةَ الرَّحْمَنِ
فَعَلَيهِ أَوْقَعَ حَدَّ مَعْدُومٍ وَذَا ... حَدُّ الْمُحَالِ بِغَيرِ مَا فُرْقَانِ

الشرح: بعد ما بين المؤلف أن النسبة بين اللَّه ﷻ، وبين هذه الموجودات لا يُمكن أن تخرج عن هذه الصور الثلاث: إما الانفصال والمباينة، وإما الحلول والمداخلة، وإما نفي الغيرية وإبطال الاثنينية بينهما، والقول بأن وجودهما واحد -قال بعد ذلك: فإذا لَم يقل الجهمي بأن اللَّه فوق عرشه مباين لخلقه؛ كان عليه حينئذ أن يقول بما ذهب إليه أصحاب وحدة الوجود من أن الوجود واحد، وأن وجود الرب هو عين هذه الموجودات، أو ليس له بعد رفض هذين القولين إلا أن يقول بما ذهب إليه الحلولية من أن العالم جسم كبير، وأن ذات اللَّه ﷻ هي الروح السارية فِي هذا الجسم؛ كحلول روح الحيوان فِي بدنه، وذلك مثل ما قالته النصارى فِي عيسى ﵇، حيث زعموا أن اللَّه حل فيه، وأن اللاهوت -وهو اللَّه- قد اتحد بالناسوت -يعنون: جسد عيسى- فصار الكل إلَهًا واحدًا، وإذا تبين أن الأمر لا يخلو عن واحد من هذه الفروض الثلاثة، فمن زعم أن اللَّه ليس بخارج عن هذه الموجودات، وليس بحال فيها، فقد نفى وجوده سبحانه، ووصفه بصفات المعدوم الممتنع، وكان بذلك مخالفًا للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومناقضًا لحكم العقل الصريح، وحكم الفطرة السليمة الَّتِي فطر اللَّه عليها سائر خلقه.

* * *

يَا لَلْعُقُولِ إِذَا نَفَيتُمْ مُخْبِرًا ... وَنَقِيضَهُ هَلْ ذَاكَ فِي إِمْكَانِ
إِنْ كَانَ نَفْي دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ ... لَا يصْدُقَانِ مَعًا لِذِي الإِمْكَانِ
إِلَّا عَلَى عَدَمٍ صَرِيحٍ نَفْيهُ ... مُتَحَقِّقٌ بِبَدَاهَةِ الإِنْسَانِ
أَيصِحُّ فِي الْمَعْقُولِ يَا أَهْلَ النُّهَى ... ذَاتَانِ لَا بِالْغَيرِ قَائِمَتَانِ
لَيسَتْ تُبَاينُ مِنْهُمَا ذَاتٌ لأُخْـ ... رَى أَو تُحَاسِيهَا فَيجْتَمِعَانِ

إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ فَهْوَ ذَا … فَارْجِعْ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

الشرح: يعجب المؤلف من سخافة عقول هؤلاء المعطلة النفاة فِي قولهم: إن اللَّه ليس داخل العالم ولا خارجه. مع أن الدخول والخروج نقيضان، والنقيضان يستحيل فِي العقل ارتفاعهما معًا، كما يستحيل اجتماعهما معًا، بل لابد من ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، فإذا استحال أن يكون اللَّه داخل العالم لتنَزهه عن الحلول فِي خلقه؛ وجب أن يكون خارجه، بأن يكون فوقه، عاليًا عليه، وإنَّما يصدق نفي النقيضين معًا على المعدوم الصريح الذي تحكم بديهة العقل بامتناعه، فهو الذي يُمكن أن يقال: إنه لا داخل ولا خارج.

وأما الموجود الذي له ذات متحققة ثابتة، إذا نسب إلى موجود آخر متحقق الذات، فلابد من أحد هذين الأمرين:

إما أن يكون أحدهما داخلًا فِي الآخر.

أو خارجًا عنه.

فلا يصح فِي العقل أبدًا أن يكون هناك ذاتان كل منهما قائمة بنفسها لا بغيرها، ومع ذلك لا توصف كل منهما عند نسبتها إلى الأخرى بأنَّها إما مباينة لَها منفصلة عنها، أو محاسية لَها داخلة فيها، بل أحد هذين الوصفين ضروري، تحكم به بداهة العقل، والخلو عنهما معًا من أمحل المحال.

❊ ❊ ❊

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي … هُوَ قَابِلٌ مِنْ جِسْمٍ اوْ جِسْمَانِ

وَالرَّبُّ لَيسَ كَذَا فَنَفْيِ دُخُولِهِ … وَخُرُوجِهِ مَا فِيهِ مِنْ بُطْلَانِ

فَيقَالُ هَذَا أَوَّلًا مِنْ قَولِكُمْ … دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ بِلَا بُرْهَانِ

ذَاكَ اصْطِلَاحٌ مِنْ فَرِيقٍ فَارَقُوا الْـ … ـوَحْيَ الْمُبِينَ بِحِكْمَةِ الْيونَانِ

وَالشَّيءُ يصْدُقُ نَفْيهُ عَنْ قَابِلٍ … وَسِوَاهُ فِي مَعْهُودِ كُلِّ لِسَانِ

أَنَسِيتَ نَفْي الظُّلْمِ عَنْهُ وَقَوْلُكَ الظُّـ … ـلْمُ الْمُحَالُ وَلَيسَ ذَا إِمْكَانِ

وَنَسِيتَ نَفْي النَّوْمِ وَالسِّنَةِ الَّتِي … لَيسَتْ لِرَبِّ الْعَرْشِ فِي الإِمْكَانِ

وَنَسِيتَ نَفْي الطُّعْمِ عَنْهُ وَلَيسَ ذَا … مَقْبُولَةً وَالنَّفْي فِي الْقُرْآنِ

وَنَسِيتَ نَفْيَ وِلَادَةٍ أَوْ زَوْجَةٍ ... وَهُمَا عَلَى الرَّحْمَنِ مُمْتَنِعَانِ

الشرح: يشير المؤلف في هذه الأبيات إلى جواب هؤلاء المعطلة عما تقضي به ضرورة العقل من وجود الاتصاف بأحد النقيضين، واستحالة الخلو عنهما معًا.

وملخص هذا الجواب: أن ذلك إنَّما يكون بالنسبة إلى ما هو قابل للاتصاف بالشيء أو بنقيضه، فهو الذي يجب في حقه الاتصاف بأحدهما، ويستحيل خلوه عنهما، فلا يصح أن يقال مثلًا: إن هذين الجسمين ليسا متصلين، ولا منفصلين؛ لأن الجسم قابل للاتصال والانفصال، فلابد له من أحدهما، ولكن الرب سبحانه ليس من شأنه أن يتصف بالدخول ولا بنقيضه، فيجوز حينئذ نفيهما عنه معًا، ولا يترتب على ذلك محال.

وقد أجاب المؤلف عن ذلك: بأن تلك التفرقة بين القابل وغير القابل دعوى مجردة عن الدليل، وهي مبنية على اصطلاح الفلاسفة الذين فارقوا الوحي، واعتصموا بفلسفة اليونان، فإنَّهم يزعمون أن التقابل إن كان بين الوجود والعدم، كأن يقال: الشيء إما موجود أو معدوم؛ -استلزم هذا التقابل الحكم عليه بأحدهما، وأما إن كان تقابلًا بين الملكة وعدمها كما في التقابل بين الحياة والموت، والعلم والجهل، والبصر والعمى... إلخ؛ فإن هذا التقابل لا يستلزم الاتصاف بأحدهما -أي: بالملكة أو بعدمها- إلا فيما هو قابل للاتصاف بهما، فلا يوصف بالموت مثلًا إلا ما من شأنه أن يكون حيًّا، ولا يوصف بالجهل إلا ما هو قابل للعلم، ولا يوصف بالعمى إلا ما كان ذا بصر وهكذا، وهذا اصطلاح فاسد مخالف لما هو معروف عند أهل اللغات جميعًا من جواز نفي الشيء عما هو له قابل، وعن غيره، وهذا لازم لكم أيضًا، فأنتم تنفون عنه الظلم سبحانه مع أنه غير قابل له عندكم؛ لأن الظلم في حقه محال مُمتنع، وكذلك تنفون عنه السنة والنوم مع أنه غير قابل للاتصاف بشيء من ذلك؛ لاستحالته عليه، وتنفون عنه الطعم أيضًا، وقد نفاه سبحانه عن نفسه في قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. مع أن الطعم ليس مِمَّا يقبل الرب الاتصاف به، وتنفون عنه كذلك الزوجة والولد وهما محالان عليه ممتنعان.

* * *

وَاللَّهُ قَدْ وَصَفَ الْجَمَادَ بِأَنَّهُ ... مَيْتٌ أَصَمُّ وَمَا لَهُ عَيْنَانِ

وَكَذَا نَفَى عَنْهُ الشُّعُورَ وَنُطْقَهُ ... وَالْخَلْقَ نَفْيًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

هَذَا وَلَيْسَ بِهَا قَبُولٌ لِلَّذِي ... يَنْفِي وَلا مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ

وَيُقَالُ أَيضًا ثَانيًا لَوْ صَحَّ هَـ ... ـذَا الشَّرْطُ كَانَ لِمَا هُمَا ضِدَّانِ
لَا فِي النَّقِيضَينِ اللَّذَينِ كِلَاهُمَا ... لَا يَثْبُتَانِ وَلَيس يَرْتَفِعَانِ
وَيقَالُ أَيضًا نَفْيكُمْ لِقَبُولِهِ ... لَهُمَا يَزِيلُ حَقِيقَةَ الإِمْكَانِ
بَلْ ذَا كَنَفْي قِيَامِهِ بِالنَّفْسِ أَوْ ... بِالْغَيرِ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ

الشرح: ومِمَّا يدل أيضًا على أن الشيء قد يقع وصفًا لغير ما هو قابل له: أن اللَّه ﷻ قد وصف الجماد فِي كتابه بالموت، والصمم، والعمى، ونفى عنه الشعور، والنطق، والقدرة على الخلق، قال اللَّه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢٠-٢١]. وقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٩٥]. وقال حكاية عن إبراهيم فِي سورة مريم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: ٤٢]. ومعلوم أن الجماد غير قابل للاتصاف بملكات هذه الأعدام من الحياة والسمع والبصر... إلخ. ومع ذلك جاز اتصافه بِهذه الأعدام.

ويقال لهؤلاء أيضًا: لو سلمنا لكم بصحة هذا الشرط -وهو قابلية الموصوف للاتصاف، وأن غير القابل يجوز خلوه عن الشيء ومقابله- فإنَّما يكون ذلك فِي الضدين اللذين قد يرتفعان معًا عن الشيء مثل: البياض والسواد، ولا يجوز فِي النقيضين، اللذين لا يرتفعان، ولا يجتمعان، ومعلوم أن التقابل بين دخوله سبحانه فِي العالم، وبين مباينته له هو من قبيل التقابل بين النقيضين، فلابد من ثبوت أحدهما له.

ويقال لهؤلاء أيضًا: إن نفيكم عنه قبول أحد هذين الوصفين -الدخول والخروج- من شأنه أن ينفي إمكان وجوده، فضلًا عن أن يكون واجب الوجود، بل هذا يجعله من قبيل المعدوم الممتنع، وهو يشبه فِي الفساد نفي القيام بالنفس، والقيام بالغير عنه؛ بحجة أنه ليس من شأنه الاتصاف بواحد منهما، مع أن العقل والفطرة يقضيان بأن كل موجود فإما أن يكون قائمًا بنفسه، أو قائمًا بغيره، فإذا استحال أن يقوم بغيره وجب أن يكون قائمًا بنفسه.

* * *

فَإِذَا الْمُعَطِّلُ قَالَ إِنَّ قِيَامَهُ ... بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْغَيرِ ذُو بُطْلَانِ
إِذْ لَيسَ يقْبَلُ وَاحِدًا مِنْ ذَينِكَ الْـ ... أَمْرَينِ إِلَّا وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
جِسْمٌ يقُومُ بِنَفْسِهِ أَيضًا كَذَا ... عَرَضٌ يقُومُ بِغَيرِهِ أَخَوَانِ

فِي حُكْمِ إِمْكَانٍ وَلَيسَ بِوَاجِبٍ ... مَا كَانَ فِيهِ حَقِيقَةُ الإِمْكَانِ

فَكِلَاكُمَا يَنْفِي الإِلَهَ حَقِيقَةً ... وَكِلَاكُمَا فِي نَفْيِهِ سِيَّانِ

الشرح: بعد أن بين المؤلف أن قول القائل: «اللَّه إما داخل العالم أو خارجه». هو مساوٍ للقول بأنه: «إما قائم بنفسه أو قائم بغيره». فِي وجوب الاتصاف بواحد من المتقابلين، فإذا كان الترديد بين القيام بالنفس والقيام بالغير صحيحًا؛ يقتضي ثبوت أحدهما له سبحانه، وهو القيام بالنفس؛ لأنه يناسب غناه، فيجب أن يكون الترديد فِي قولنا: «إما داخل العالم أو خارجه» صحيحًا أيضًا، مقتضيًا لثبوت أحدهما له، وهو كونه خارج العالم حَتَّى لا يكون حالًا فِي خلقه، فإذا ادعى المعطل -وهو الفيلسوف الذي يرى أن القيام بالنفس يفهم المكانية- أن ذلك الترديد بين القيام بالنفس والقيام بالغير فاسد أيضًا فِي حقه سبحانه؛ لأنه ليس قابلًا لواحد منهما كما قيل فِي الدخول والخروج، وإِنَّما يقبل واحدًا من هذين الأمرين ما كان ممكنًا من الأجسام والأعراض، فيقال: الجسم ما قام بنفسه، والعرض ما قام بغيره، ولا شك أن الجسم والعرض أخوان فِي حكم الإمكان، فتكون كل واحدة من هاتين الصفتين -أعني: القيام بالنفس، والقيام بالغير- صفة لممكن، وما كان ممكنًا فليس بواجب، فلا يجوز أن تقع واحدة منهما صفة للواجب، وبذلك يكون الترديد بينهما فاسدًا.

فيقال له: إن رفع النقيضين هنا بأن يقال: لا قائم بنفسه، ولا بغيره. مستلزم لنفي حقيقة الإله كما استلزمه رفعهما فِي قولكم: لا داخل ولا خارج. فكلاكما فِي نفيه سواء؛ لأن الضرورة الَّتِي قضت بثبوت أحد الوصفين من الدخول والخروج هي بعينها الَّتِي تقتضي أن يثبت له إما القيام بالنفس وإما القيام بالغير، فكما لا يعقل موجود لا داخل ولا خارج، فإنه لا يعقل موجود لا يكون قائمًا بنفسه ولا بغيره.

* * *

مَاذَا يَرُدُّ عَلَيهِ مَنْ هَوَ مِثْلُهُ ... فِي النَّفْي صِرْفًا إِذْ هُمَا عِدْلَانِ

وَالْفَرْقُ لَيسَ بِمُمْكِنٍ لِكَ بَعْدَمَا ... ضَاهَيتَ هَذَا النَّفْي فِي الْبُطْلَانِ

فَوِزَانُ هَذَا النَّفْي مَا قَدْ قُلْتُمُو ... حَرْفًا بِحَرْفٍ أَنْتُمَا صِنْوَانِ

وَالْخَصْمُ يَزْعُمُ أَنَّ مَا هُو قَابِلٌ ... لِكِلَيهِمَا فَكَقَابِلٍ لِمَكَانِ

فَافْرُقْ لَنَا فَرْقًا يُبِينُ مَوَاقِعَ الْـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بِالْبُرْهَانِ

أَوْ لَا فَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا وَخَلْ ... لِ الْفَشْرَ عَنْكَ وَكَثْرَةَ الْهَذَيَانِ

الشرح : يعني : بماذا يستطيع نفاة الجهة من المعتزلة والأشاعرة الرد على الفيلسوف فِي قوله : إن القيام بالنفس والقيام بالغير كلاهما منفي عن اللَّه ؛ لأنَّهما من خصائص الممكن، مع أنَّهم مثله فِي النفي المحض، حيث قالوا بنفي الدخول والخروج ؛ لأنَّهما عندهم أيضًا من خصائص الأجسام؟ ! وكيف يمكنهم أن يفرقوا بين ما نفوه هم وبين ما نفاه الفلاسفة مع أن النفيين فِي ميزان العقل سواء، فكلاهما مستلزم لنفي وجود الإله؟ ! .

وهذا معنى قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : «فوزان هذا النفي» . أعني : الذي نفته الفلاسفة ما قد قلته أنت من نفي الدخول والخروج حرفًا بحرف، لا يختلف عنه قيد شعرة، لكن الخصم -وهو الفيلسوف- يزعم أنه إنَّما نفى هذين الوصفين عن اللَّه ؛ لأن القائل بكليهما لابد أن يقبل الحلول فِي المكان، واللَّه منَزه عن المكانية، فافرق لنا أنت بين ما نفيته من الدخول والخروج، وبين ما نفاه الفيلسوف فرقًا يتبين منه بالبرهان إن كنت مثبتًا أو معطلًا، وإلا فالزم غرزك، وأعط القوس باريها، ولا ترد من الموارد ما لا تعرف له صدرًا .

فصل في سيَاق هذا الدليل من وجه آخر

وَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ مَسَائِلَ خَمْسَةٍ ... تُرْدِي قَوَاعِدَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

قُلْ لِلْمُعَطِّلِ هَلْ تَقُولُ إِلَهُنَا الْـ ... ـمَعْبُودُ حَقًّا خَارِجَ الأَذْهَانِ

فَإِذَا نَفَى هَذَا فَذَاكَ مُعَطِّلٌ ... لِلرَّبِّ حَقًّا بَالِغُ الْكُفْرَانِ

وَإِذَا أَقَرَّ بِهِ فَسَلْهُ ثَانِيًا ... أَتَرَاهُ غَيْرَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

فَإِذَا نَفَى هَذَا وَقَالَ بِأَنَّهُ ... هُوَ عَيْنُهَا مَا هَاهُنَا غَيْرَانِ

فَقَدِ ارْتَدَى بِالِاتِّحَادِ مُصَرِّحًا ... بِالْكُفْرِ جَاحِدَ رَبِّهِ الرَّحْمَنِ

حَاشَى النَّصَارَى أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ ... وَهُمُ الْحَمِيرُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

هُمْ خَصَّصُوهُ بِالْمَسِيحِ وَأُمِّهِ ... وَأُولَاءِ مَا صَانُوهُ عَنْ حَيَوَانِ

الشرح : يريد المؤلف فِي هذا الفصل أن يضيق الخناق على الخصم، وأن يلزمه القول بأنه تعالى بائن من خلقه، مستو على عرشه، فحصر المسألة فِي خمسة أمور، لابد للخصم من القول بأحدها :

فيسأله أولًا: هل تقول بأن اللَّه موجود خارج الأذهان، أو لا وجود له إلا فِي الذهن؟ فإذا نفى وجوده خارج الذهن؛ فقد حكم على نفسه بالتعطيل، وجحد الصانع، وذلك غاية الكفر، وإذا أقر بوجوده تعالى خارج الأذهان؛ يُسأل ثانيًا: هل تقول بأن وجود اللَّه غير وجود هذه الأكوان، أو تراه عينها؟ فإذا نفى مغايرة وجوده سبحانه لوجود خلقه، وقال: بل هو عينها، وليس هناك غيران، فقد اتشح بثوب الاتحاد، وصرح على نفسه بالكفر وجحد وجود الرب -جل شأنه- بل كان أشد كفرًا من النصارى عبدة الصلبان؛ لأنَّهم لَم يقولوا باتحاده سبحانه بجميع خلقه، ولكنهم خصوا ذلك بالمسيح وأمه مريم العذراء، وأما هذا الاتحادي؛ فقد زعم أن اللَّه متحد بجميع خلقه، بِما فِي ذلك الحيوانات المنحطة من القردة والخنازير ونحوها، فلم يصنه عن الاتحاد بِهذه الحيوانات وغيرها من المستقذرات.

* * *

وَإِذَا أَقَرَّ بِأَنَّهُ غَيْرُ الْوَرَى ... عَبْدٌ وَمَعْبُودٌ هُمَا شَيْئَانِ
فَاسْأَلْهُ هَلْ هَذَا الْوَرَى فِي ذَاتِه ... أَمْ ذَاتُهُ فِيهِ هُنَا أَمْرَانِ
وَإِذَا أَقَرَّ بِوَاحِدٍ مِنْ ذَيْنِكَ الْـ ... أَمْرَيْنِ قَبَّلَ خَدَّهُ النَّصْرَانِي
وَيقُولُ أَهْلًا بِالَّذِي هُوَ مِثْلُنَا ... خَشْدَاشُنَا وَحَبِيبُنَا الْحَقَّانِي
وَإِذَا نَفَى الأَمْرَيْنِ فَاسْأَلْهُ إِذَنْ ... هَلْ ذَاتُهُ اسْتَغْنَتْ عَنِ الأَكْوَانِ
فَلِذَاكَ قَامَ بِنَفْسِهِ أَمْ قَامَ بِالْـ ... أَعْيَانِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ
فَإِذَا أَقَرَّ وَقَالَ بَلْ هُوَ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ فَاسْأَلْهُ وَقُلْ ذَاتَانِ
بِالنَّفْسِ قَائِمَتَانِ أَخْبِرْنِي هُمَا ... مِثْلَانِ أَوْ ضِدَّانِ أَوْ غَيْرَانِ
وَعَلَى التَّقَادِيرِ الثَّلَاثِ فَإِنَّهُ ... لَوْلَا التَّبَايُنُ لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ
ضِدَّيْنِ أَوْ مِثْلَيْنِ أَوْ غَيْرَيْنِ كَا ... نَا بَلْ هُمَا لَا شَكَّ مُتَّحِدَانِ
فَلِذَاكَ قُلْنَا إِنَّكُمْ بَابٌ لِمَنْ ... بِالإِتِّحَادِ يَقُولُ بَلْ بَابَانِ
نَقَّطْتُمُ لَهُمُ وَهُمْ خَطُّوا عَلَى ... نُقَطٍ لَكُمْ كَمُعَلِّمِ الصِّبْيَانِ

الشرح: أما إذا أقر المعطل بأن اللَّه والعالم شيئان متغايران؛ فهذا عبد وذاك معبود؛ يسأل مرة أخرى: هل تقول بحلول هذا العالم فِي ذاته، أو تقول بحلوله هو فِي العالم، أو لا؟ فإذا أقر بواحد منهما؛ فقد وافق النصارى القائلين بحلول اللَّه فِي المسيح، بل صار

شرًّا منهم؛ لأنَّهم خصوا هذا الحلول بالمسيح، وأما هو فقد جعله حالًا فِي جَميع خلقه، فيقر بذلك عين النصارى، ويصير حبيبًا لهم، لمضاهاة قوله لقولهم.

وأما إذا نفى عنه الحلول بنوعيه -أعني: حلوله هو فِي العالم، وحلول العالم فيه- فيسأل: هل تعتقد أنه تعالى قائم بنفسه، مستغن فِي وجوده عن غيره، كهذه الأعيان القائمة بنفسها، أو تراه من جملة الأعراض والأكوان الَّتِي لا تقوم بنفسها، بل يكون وجودها تابعًا لوجود ما تقوم به من الأعيان؟ فإذا أقر بالأول، وهو أنه تعالى قائم بنفسه، يسأل عن النسبة بين اللَّه وبين هذا العالم، فيقال له: هنا ذاتان، كل منهما قائمة بنفسها، فأخبرنا هل هما مثلان أو ضدان أو غيران؟ إذ لا يُمكن أن تخرج النسبة بينهما عن هذه الفروض الثلاثة، وعلى كل واحد من هذه التقادير الثلاث يلزمك القول بالتباين والانفصال؛ إذ لولا التباين لَم يثبت واحد من هذه الثلاثة، ولَم يكن شيئان، لا ضدين، ولا مثلين، ولا غيرين، بل يكونان متحدين.

ومن هنا كان هؤلاء النفاة لوجوده تعالى خارج العالم، بائنًا من خلقه، مستويًا على عرشه -بابًا لمن قال بالاتحاد، فإن هؤلاء الاتحادية لما جاروهم فِي ذلك النفي، ولَم تسغ عقولهم موجودًا لا داخل العالم ولا خارجه؛ حكموا بأن اللَّه هو عين هذا العالم، وصرحوا بالاتحاد، بل إن هؤلاء النفاة أيضًا كانوا بابًا ولج منه الحلولية الذين زعموا أن اللَّه هو الروح السارية فِي العالم؛ لأنَّهم لما وافقوا هؤلاء فِي أن اللَّه ليس خارج العالم، ولَم يعقلوا موجودًا، لا داخلًا ولا خارجًا؛ حكموا بحلوله فيه، وسريانه فِي جَميع أجزائه، فصار هؤلاء الجهمية النفاة أساتذة لهؤلاء الاتحادية والحلولية، ينقطون لهم نقطًا، وهم يخطون عليها كما يفعله معلم الصبيان.

وملخص هذا الدليل على طريقة السبر والتقسيم المعروفة: أن اللَّه سبحانه إما أن يكون موجودًا خارج الأذهان أو لا، والثاني مستلزم لنفيه وجحوده، والأول إما أن يكون وجوده غير وجود هذه الأكوان أو لا، بأن يكون عينها، والثاني مستلزم للقول بالاتحاد، وهو كفر، والأول إما أن يكون متصلًا بالأشياء اتصال حلول، بأن تكون قد حلت فيه أو حل فيها أو لا، والأول مستلزم للقول بالحلول الذي قالت به النصارى، وهو كفر، والثاني إما أن يكون قائمًا بنفسه مستغنيًا عن الأكوان أو لا، والثاني يستلزم كونه عرضًا قائمًا بالأعيان، وهو كفر، فثبت من ذلك أنه موجود بوجود مغاير لوجود الأشياء، غير حال فيها، ولا حالة فيه، وليس هو عرضًا لَها، بل هو وجود قائم بنفسه، والعالم قائم بنفسه،

فإذا نسب أحدهما إلى الآخر فلا يخلو، إما أن يكونا مثلين أو ضدين أو غيرين، وعلى كل فهما منفصلان متباينان، فثبت أن اللَّه مباين للعالم، وأنه فوقه عالٍ عليه.

فصل في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه

وَلَقَدْ أَتَانَا عَشْرُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْـ ... ـمَنْقُولِ فِي فَوْقِيَةِ الرَّحْمَنِ

مَعَ مِثْلِهَا أَيضًا تَزِيدُ بِوَاحِدٍ ... هَا نَحْنُ نَسْرُدُهَا بِلَا كِتْمَانِ

مِنهَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي ... سَبْعٍ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَكَذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ وَلَوْ ... كَانَتْ بِمَعْنَى اللَّامِ فِي الأَذْهَانِ

لأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ كَي يُحْمَلَ الْـ ... ـبَاقِي عَلَيهَا بِالْبَيَانِ الثَّانِي

وَنَظِيرُ ذَا إِضْمَارُهُمْ فِي مَوْضِعٍ ... حَمْلًا عَلَى الْمَذْكُورِ فِي التِّبْيَانِ

لَا يضْمِرُونَ مَعَ اطِّرَادٍ دُونَ ذِكْـ ... ـرِ الْمُضْمَرِ الْمَحْذُوفِ دُونَ بَيَانِ

بَلْ فِي مَحَلِّ الْحَذْفِ يكْثُرُ ذِكْرُهُ ... فَإِذَا هُمُ أَلِفُوهُ إِلْفَ لِسَانِ

حَذَفُوهُ تَخْفِيفًا وَإِيجَازًا فَلَا ... يخْفَى الْمُرَادُ بِهِ عَلَى الإِنْسَانِ

هَذَا وَمِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا يبْطُلُ التْـ ... ـتَفْسِيرُ بِاسْتَوْلَى لِذِي الْعِرْفَانِ

قَدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ لإِمَامِ هَـ ... ـذَا الشَّأْنِ بَحْرِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من إيراد الطرق العقلية -الَّتِي لا تقبل الجدل- على استوائه تعالى على عرشه بذاته؛ شرع فِي إيراد النصوص المثبتة لذلك من الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة ﷺ، وقد بلغ بِها المؤلف واحدًا وعشرين نوعًا.

أولها: إخباره سبحانه عن نفسه بأنه استوى على عرشه، وقد جاء فِي سبع مواضع من القرآن الكريم: فِي سورة الأعراف، ويونس، والرعد، وطه، والفرقان، والم تنْزيل السجدة، والحديد، وقد عُدِّي فعل الاستواء فِي هذه المواضع كلها بـ«على» الَّتِي هي نص فِي الدلالة على العلو والارتفاع، كما اطرد فيها لفظ الاستواء بدون لام، مِمَّا يدل على أنه لَم يرد به إلا الاستواء الحقيقي؛ إذ لو كان استوى معناه استولى، كما يزعم الجهمية والمعطلة، لوجب أن يذكر هذا اللفظ ولو فِي موضع واحد؛ كي يُحمل لفظ الاستواء فِي

بقية المواضع عليه.

هذا ما يقتضيه الكلام البليغ، أن يؤتى فِي أحد المواضع بلفظ يعين المراد نصًا، فإذا جاءت بعد ذلك ألفاظ مجملة، تحتمل هذا المعنى وغيره؛ حملت عليه، ونظير هذا أنَّهم يضمرون فِي بعض المواضع بعد الذكر فِي بعضها؛ حملًا على المذكور فِي الكلام، واعتمادًا على فهم المخاطب المقصود بِهذه الضمائر، ولكنهم لا يضمرون أبدًا باطراد دون ذكر سابق للمضمر المحذوف، بل قد يكثرون من ذكر الشيء فِي مواضع حذفه، حَتَّى إذا ألف وصار مشهورًا حذفوه تخفيفًا وإيجازًا؛ اتكالًا على وضوح المراد.

هذا، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية تأويل الاستواء بالاستيلاء من عشرين وجهًا أفردها بمصنف خاص، وفيها الكفاية كل الكفاية لمن أراد أن يعرف زيغ هؤلاء المؤولة وبعدهم عن جادة الحق، وكفى بِمذهبهم شناعة أن اللَّه يقول: استوى. وهم يقولون: ما استوى ولكن استولى. فهل كان اللَّه عاجزًا عن زيادة لام يزيل بِها الإشكال، ويوضح المراد؟!

وما أحسن ما قيل: إن لام الجهمية كنون اليهودية، فاليهود قيل لهم: قولوا: حطة. فقالوا: حنطة. وهؤلاء قيل لهم: استوى. فقالوا: استولى. تشابَهت قلوبُهم!!.

فصل

هَـذَا وَثَـانِـيـهَـا صَـرِيـحُ عُـلُـوِّهِ ... وَلَـهُ بِـحُـكْـمِ صَـرِيـحِـهِ لَـفْـظَـانِ

لَفْظُ الْعَلِي وَلَفْظَةُ الأَعْلَى مُعَرْ ... رَفَـةً أَتَـتْ فِـيـهِ لِـقَـصْـدِ بَـيَـانِ

إِنَّ الْعُلُوَّ لَهُ بِمُطْلَقِهِ عَلَى التْـ ... تَـعْـمِـيـمِ وَالإِطْـلَاقِ بِـالْـبُـرْهَـانِ

وَلَهُ الْعُلُوُّ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعِهَا ... ذَاتًـا وَقَـهْـرًا مَـعْ عُـلُـوِّ الـشَّـانِ

لَـكِـنْ نُـفَـاةُ عُـلُـوِّهِ سَـلَـبُـوهُ إِكْـ ... ـمَـالَ الْـعُـلُـوِّ فَـصَـارَ ذَا نُـقْـصَـانِ

حَاشَاهُ مِنْ إِفْكِ النُّفَاةِ وَسَلْبِهِمْ ... فَـلَـهُ الْـكَـمَـالُ الْـمُـطْـلَـقُ الـرَّبَّـانِـي

الشرح: هذا هو النوع الثاني من الدلائل النقلية: وهو التصريح بالعلو فِي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. فكل من هذين الاسمين الكريمين صريح فِي إثبات علوه تعالى، وقد جيء بكل منهما معرفة، لإفادة أن الثابت له سبحانه هو العلو المطلق من كل وجه: علو الذات، وعلو القدر والعظمة، وعلو

القهر والجبروت، ولكن المعطلة بناء على أصلهم الفاسد يحملون العلو فِي هذه الآيات على المعنيين الأخيرين -أعني: علو القدر والقهر فقط- وينفون عنه المعنى الأول وهو علو الذات، ولا شك أن العلو المطلق من كل وجه أكمل من العلو الذي يكون مقيدًا ببعض الوجوه، فهم بتقييدهم للعلو سلبوه سبحانه كمال العلو، وسلب الكمال مستلزم للنقص، وحاشاه سبحانه مِمَّا يأفك به هؤلاء النفاة من نقصه فِي علوه، بل له الكمال المطلق فِي علوه وفي سائر صفاته.

* * *

وَعُلُوُّهُ فَوْقَ الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا فُطِرَتْ عَلَيهِ الْخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ
لَا يسْتَطِيعُ مُعَطِّلٌ تَبْدِيلَهَا أَبَدًا وَذَلِكَ سُنَّةُ الرَّحْمَنِ
كُلٌّ إِذَا مَا نَابَهُ أَمْرٌ يُرَى مُتَوَجِّهًا بِضَرُورَةِ الإِنْسَانِ
نَحْوَ الْعُلُوِّ فَلَيسَ يطْلُبُ خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ أَوْ جَانِبَ الإِنْسَانِ
وَنِهَايَةُ الشُّبُهَاتِ تَشْكِيكٌ وَتَخْـ ـمِيشٌ وَتَغْبِيرٌ عَلَى الإِيمَانِ
لَا يسْتَطِيعُ تَعَارُضَ الْمَعْلُومِ وَالْـ ـمَعْقُولِ عِنْدَ بَدَائِهِ الإِنْسَانِ
فَمِنَ الْمُحَالِ الْقَدْحُ فِي الْمَعْلُومِ بِالشْـ ـشُبُهَاتِ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ
وَإِذَا الْبدَائِهُ قَابَلَتْهَا هَذِهِ الشْـ ـشُبُهَاتِ لَمْ تَحْتَجْ إِلَى بُطْلَانِ
شَتَّانَ بَينَ مَقَالَةٍ أَوْصَى بِهَا بَعْضٌ لِبَعْضٍ أَوَّلٌ لِلثَّانِي
وَمَقَالَةٍ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ حَقًّا عَلَيهَا مَا هُمَا عِدْلَانِ

الشرح: هذا استدلال على علوه تعالى فوق خلقه بدليل الفطرة الذي هو أقوى من دليل العقل عند من أنصف؛ لاستناده إلى فطرة اللَّه الَّتِي فطر الناس عليها، فلا يستطيع أحد تبديلها؛ وذلك أن اللَّه ﷻ قد فطر عباده على أن يتوجهوا فِي دعائهم إلى جهة الفوق، رافعي أكفهم، رانين بأبصارهم، حَتَّى إن كل من نابه من العباد أمر، أو مسه ضر، يرى متوجهًا بفطرته إلى جهة العلو وحدها، دون الأمام أو الخلف، أو اليمين أو الشمال، ولو رجع هؤلاء المعطلة إلى أنفسهم؛ لوجدوا هذا المعنى مركوزًا فِي فطرهم، ولكنهم يكابرون، ويحاولون إثارة الشبهات حول ما هو معلوم بالنقل والعقل والفطرة، ولكن نِهاية شبهاتِهم هي إثارة الشكوك، والتغيير فِي وجه الإيمان، إذ هي لا تقوى على معارضة أمر ثابت بضرورة العقل ومعلوم بالبديهة، فإنه من المحال أن تنال الشبهات من المعلوم على

وجه اليقين، فإذا حصلت مقابلة بينهما؛ فلا شك أن هذه الشبهات تضمحل وتزول، ويبقى الحق ثابتًا، فإنه شتان بين قضية وَهْم أوصى بها كل معطل من خلفه، وبين قضية فطرة، فطر اللَّه العباد عليها، وما هما فِي ميزان العدل سواء.

فصل

هَذَا وَثَالِثُهَا صَرِيحُ الْفَوْقِ مَصْـ ... حُوبًا بِمِنْ وَبِدُونِهَا نَوْعَانِ

إِحْدَاهُمَا هُوَ قَابِلُ التَّأْوِيلِ وَالْـ ... أَصْلُ الْحَقِيقَةُ وَحْدَهَا بِبَيَانِ

فَإِذَا ادَّعَى تَأْوِيلَ ذَلِكَ مُدَّعٍ ... لَمْ تُقْبَلِ الدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ

لَكِنَّمَا الْمَجْرُورُ لَيسَ بِقَابِلِ التَّـ ... ـأْوِيلِ فِي لُغَةٍ وَعُرْفِ لِسَانِ

وَأَصِخْ لِفَائِدَةٍ جَلِيلٍ قَدْرُهَا ... تَهْدِيكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أَتَى بِسِيَاقِهِ ... يُبْدِي الْمُرَادَ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

أَضْحَى كَنَصٍّ قَاطِعٍ لَا يَقْبَلُ التَّـ ... ـأْوِيلَ يَعْرِفُ ذَا أُولُو الأَذْهَانِ

فَسِيَاقَةُ الأَلْفَاظِ مِثْلُ شَوَاهِدِ الْـ ... أَحْوَالِ إِنَّهُمَا لَنَا صِنْوَانِ

إِحْدَاهُمَا لِلْعَينِ مَشْهُودٌ بِهَا ... لَكِنَّ ذَاكَ لِمَسْمَعِ الإِنْسَانِ

الشرح: هذا هو الوجه الثالث من الوجوه الدالة على علوه تعالى: وهو التصريح بلفظ الفوق فِي القرآن الكريم، مصحوبًا بـ«مِنْ» أحيانًا، كما فِي قوله تعالى فِي صفة ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وبدونها أخرى، كما فِي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]. ولا شك أن الفوق المجرور بـ«مِنْ» نص فِي معناه، لا يقبل التأويل، إذ لا يقال هذا اللفظ إلا فِي تعيين الَّتِي يكون فيها الشيء بالنسبة لما تحته، كما يقال: السماء من فوقنا، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وأما الفوق المجرد عن الاقتران بـ«من» فهو قد يقبل التأويل، ولكن لا يقبله إلا بدليل؛ لأن الأصل هو الحقيقة، فلا يصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلا بقرينة صارفة تمنع من إرادة المعنى الأصلي.

فإذا ادَّعى الخصم أن قرينة العقل هي الَّتِي أوجبت ذلك الصرف لاستحالة الفوقية الحسية.

قلنا : هذه القرينة معارضة عندنا بضرورة العقل، القاضية بأن كل موجودين إذا نسب أحدهما إلى الآخر؛ فإما أن يكونا متداخلين أو متباينين، وإذا كانا متباينين؛ فلابد أن يكون أحدهما في جهة من الآخر.

وقد ذكر المؤلف هنا فائدة جليلة ينبغي التنويه بها : وهي اعتبار سياق الكلام في تحديد مدلولات الألفاظ، فإذا جاء السياق يبدي المراد للمخاطب؛ أصبح كالنص في إفادة القطع وعدم قبول التأويل، فبعض الألفاظ قد يكون محتملًا لأكثر من معنى، ولكن سياق الكلام هو الذي يعين المراد باللفظ من هذه المعاني، فسياق الألفاظ مثل شواهد الأحوال، كل منهما قرينة تعين المعنى المقصود، إلا أن هذه قرينة مرئية بالعيان، وهذه قرينة مسموعة بالآذان.

* * *

فَـإِذَا أَتـى الـتَّـأْوِيـلُ بَـعْـدَ سِـيَـاقَـةٍ ... تُـبْـدِي الْـمُـرَادَ أَتَـى عَـلَـى اسْـتِـهْـجَـانِ

وَإِذَا أَتَـى الْـكِـتْـمَـانُ بَـعْـدَ شَـوَاهِـدِ الْـ ... أَحْـوَالِ كَـانَ كَـأَقْـبَـحِ الْـكِـتْـمَـانِ

فَـتَـأَمَّـلِ الأَلْـفَـاظَ وَانْـظُـرْ مَـا الَّـذِي ... سِـيـقَـتْ لَـهُ إِنْ كُـنْـتَ ذَا عِـرْفَـانِ

وَالْـفَـوْقُ وَصْـفٌ ثَـابِـتٌ بِـالـذَّاتِ مِـنْ ... كُـلِّ الْـوُجُـوهِ لِـفَـاطِـرِ الأَكْـوَانِ

لَـكِـنْ نُـفَـاةُ الْـفَـوْقِ مَـا وَافَـوْا بِـهِ ... جَـحَـدُوا كَـمَـالَ الْـفَـوْقِ لِـلـدَّيَّـانِ

بَـلْ فَـسَّـرُوهُ بِـأَنَّ قَـدْرَ الـلـه أَعْـ ... لَـى لَا بِـفَـوْقِ الـذَّاتِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

قَـالُـوا وَهَـذَا مِـثْـلُ قَـوْلِ الـنَّـاسِ فِـي ... ذَهَـبٍ يُـرَى مِـنْ خَـالِـصِ الْـعِـقْـيَـانِ

هُـوَ فَـوْقَ جِـنْـسِ الْـفِـضَّـةِ الْـبَـيْـضَـاءِ لَا ... بِـالـذَّاتِ بَـلْ فِـي مُـقْـتَـضَـى الأَثْـمَـانِ

وَالْـفَـوْقُ أَنْـوَاعٌ ثَـلَاثٌ كُـلُّـهَـا ... لِـلَّـهِ ثَـابِـتَـةٌ بِـلَا نُـكْـرَانِ

هَـذَا الَّـذِي قَـالُـوا وَفَـوْقَ الْـقَـهْـرِ وَالْـ ... فَـوْقِـيَّـةُ الْـعُـلْـيَـا عَـلَـى الأَكْـوَانِ

الشرح : يعني : إذا دل سياق الكلام وفحواه على المعنى المراد من اللفظ؛ فإن التأويل عند ذلك يكون قبيحًا مستهجنًا كقبح الكتمان لما دلت عليه شواهد الأحوال، فالواجب هو تأمل الألفاظ، والنظر فيما سيقت له حَتَّى يعرف المراد بها.

ولا شك أن لفظ الفوق في جميع سياقاته في القرآن الكريم يفيد أن الثابت للّٰه ﷻ هو الفوقية المطلقة بجميع معانيها، فإن الفوق وصف ثابت للّٰه، فيجب أن يكون الثابت له هو

كمال الفوق لا بعض الفوق، ولكن نفاة الفوق جحدوا كمال هذا الوصف، كما جحدوا كمال علوه من قبل، وفسروا الفوق بأحد المعاني الذي يحتملها، وهو فوقية القدر، كما يقال: الذهب فوق الفضة. بمعنى أنه أغلى منها ثمنًا.

ولا شك أن هذا المعنى الذي ذكروه صحيح، ولكن ليس هو كل المراد من لفظ الفوق، فإن للفوقية معاني ثلاثة: هي فوقية الذات، وفوقية القدر والعظمة، وفوقية القهر، وكلها ثابتة للَّه -جل شأنه- حسب ما يقتضيه إطلاق اللفظ.

فصل

هَذَا وَرَابِعُهَا عُرُوجُ الرُّوحِ وَالْـ ... أمْلَاكِ صَاعِدَةً إِلَى الرَّحْمَنِ

وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَتَينِ كِلَاهُمَا اشْـ ... تَمَلَا عَلَى التَّقْدِيرِ بِالأَزْمَانِ

فِي سُورَةٍ فِيهَا الْمَعَارِجُ قُدِّرَتْ ... خَمْسِينَ أَلْفًا كَامِلَ الْحُسْبَانِ

وَبِسَجْدَةِ التَّنْزِيلِ أَلْفًا قُدِّرَتْ ... فَلأَجْلِ ذَا قَالُوا هُمَا يَوْمَانِ

يَوْمُ الْمَعَادِ بِذِي الْمَعَارِجِ ذِكْرُهُ ... وَالْيَوْمُ فِي تَنْزِيلِ فِي ذَا الآنِ

وَكِلَاهُمَا عِنْدِي فَيَوْمٌ وَاحِدٌ ... وَعُرُوجُهُمْ فِيهِ إِلَى الدَّيَّانِ

فَالأَلْفُ فِيهِ مَسَافَةٌ لِنُزُولِهِمْ ... وَصُعُودِهِمْ نَحْوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي

هَذِي السَّمَاءُ فَإِنَّهَا قَدْ قُدِّرَتْ ... خَمْسِينَ فِي عَشْرٍ وَذَا صِنْفَانِ

لَكِنَّمَا الْخَمْسُونَ أَلْفَ مَسَافَةِ السَّـ ... بْعِ الطِّبَاقِ وَبُعْدُ ذِي الأَكْوَانِ

مِنْ عَرْشِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الثَّرَى ... عِنْدَ الْحَضِيضِ الأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

الشرح: الوجه الرابع من تلك الوجوه النقلية الدالة على علوه تعالى على خلقه: إخباره سبحانه بعروج الملائكة والروح إليه، ورد ذلك في سورتين من كتاب اللَّه، وفي كل منهما قدر العروج بالأزمان، ففي سورة المعارج، قدر ذلك بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٤- ٥].

وفي سورة الم تنزيل السجدة، قدر بألف سنة فقط، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

ومن أجل هذا الاختلاف فِي مدة العروج؛ ظن كثير من المفسرين أنَّهما يومان متغايران، وليس المراد بِهما يومًا واحدًا، فاليوم المذكور بذي المعارج هو يوم المعاد كما يفيده السياق فِي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٦-٨]. الآيات.

وأما اليوم المذكور فِي الم تنْزيل؛ فهو فِي الدنيا، واختار المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد بِهما يوم واحد، وأن العروج فيه إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّما اختلفت المدة فِي الآيتين، فكانت فِي إحداهما ألفًا، وفي الأخرى خمسين ألفًا؛ لاختلاف المسافة المقطوعة فِي كل منهما، فالألف جعلت مدة لنُزول الملائكة وصعودهم إلى السماء الدنيا، فإن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا قدرت فِي الأحاديث بخمسمائة عام، فإذا قدر نزولهم وصعودهم؛ كان المجموع ألف سنة، وأما الخمسون ألفًا؛ فهي المدة الَّتِي يعرجون فيها من فوق السبع الطباق، من عند العرش إلى المركز الأسفل الذي هو الحضيض.

* * *

وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ الْـ ... بَغَوِي ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي

وَمُجَاهِدٌ قَدْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ لَـ ... كِنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ الْجَلِيلَ الشَّانِ

قَالَ الْمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَالْعَرْشِ ذَا الْـ ... مِقْدَارُ فِي سَيْرٍ مِنَ الإِنْسَانِ

وَالْقَوْلُ الاوَّلُ قَوْلُ عِكْرِمَةٍ وَقَوْ ... لُ قَتَادَةٍ وَهُمَا لَنَا عَلَمَانِ

وَاخْتَارَهُ الْحَسَنُ الرِّضَا وَرَوَاهُ عَنْ ... بَحْرِ الْعُلُومِ مُفَسِّرِ الْقُرْآنِ

وَيُرَجِّحُ الْقَوْلَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ... سَادَاتُنَا فِي فَرْقِهِمْ أَمْرَانِ

إِحْدَاهُمَا مَا فِي الصَّحِيحِ لِمَانِعٍ ... لِزَكَاتِهِ مِنْ هَذِهِ الأَعْيَانِ

يُكْوَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَهْرُهُ ... وَجَبِينُهُ وَكَذَلِكَ الْجَنْبَانِ

خَمْسُونَ أَلْفًا قَدْرُ ذَاكَ الْيَوْمِ فِي ... هَذَا الْحَدِيثِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

الشرح: هذا القول الذي اختاره المؤلف من أن المراد باليومين يوم واحد، وأن الاختلاف فِي الزمن مبني على اختلاف المسافة المقدرة لكل منهما، قد اختاره الإمام البغوي فِي تفسيره، وهو مروي أيضًا عن مجاهد الذي هو أشهر من نقل عن ابن عباس حَتَّى قال فيه القائل: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

وأما ابن إسحاق صاحب السيرة، فقال: «إن الاختلاف يرجع إلى كيفية السير، فالمسافة الَّتِي بيننا وبين العرش تقطع بسير الإنسان فِي هذا المقدار، وهو خمسون ألف سنة».

وأما القول الأول الذي فرق بين اليومين، فجعل أحدهما -وهو المذكور بذي المعارج- ليوم المعاد، والآخر فِي هذه الدنيا؛ فقد ذهب إليه جل المفسرين: عكرمة وقتادة، واختاره الحسن البصري وأسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما ومِمَّا يرجح هذا القول ما ورد فِي الصحيح من قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«ما من صاحب كنْز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه فِي نار جهنم، فيجعل صفائح، فتكوى بِها جنباه وجبهته حَتَّى يحكم اللَّه بين عباده فِي يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»**. الحديث بطوله رواه أحمد ومسلم.

وقد مال إلى هذا الفرق أيضًا علامة القصيم: الشيخ عبد الرحمن آل سعدي -غفر اللَّه له- فِي شرحه على القصيدة النونية، فقال: «والظاهر لي أن آية المعارج التقدير فيها ليوم القيامة، وأن معنَى الكلام: الإخبار بعظمة ذلك اليوم وطوله العظيم، وأنه فِي ذلك اليوم يظهر للخلائق من عظمة الرب، وعظمة ملكه، وكمال تدبيره، وأن أمور الملك وتدابيره تعرج بِها الملائكة إليه، وتنْزل فيها منه، والسياق فِي الآيات الَّتِي فِي المعارج يدل على ذلك.

وأما تقديره بالألف فِي سورة السجدة؛ فإنه فِي الدنيا؛ لأن السياق أيضًا يدل عليه، فإنه فِي سياق بيانه فِي الدنيا؛ ليعرفوا عظمة اللَّه وكبرياءه ونفوذ تدبيره».

* * *

فَالظَّاهِرُ الْيَوْمَانِ فِي الْوَجْهَينِ يوْ ... مٌ وَاحِـدٌ مَـا إنْ هُـمَـا يـوْمَـانِ

قَـالُـوا وإِيـرَادُ السِّيَـاقِ يـبَـينُ الْـ ... مَـضْـمُـونَ مِـنْـهُ بِـأَوْضَـحِ التِّـبْـيَـانِ

فَانْظُرْ إِلَى الإِضْمَارِ ضِمْنَ يرَوْنَهُ ... وَنَـرَاهُ مَـا تَـفْـسِـيـرُهُ بِـبَـيَـانِ

فَـالْيـوْمُ بِـالتَّفْسِيرِ أَوْلَى مِنْ عَذَا ... بٍ وَاقِـعٍ لِـلْـقُـرْبِ وَالْـجِـيـرَانِ

وَيكُونُ ذِكْرُ عُرُوجِهِمْ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْـيَـا وَيـوْمَ قِـيَـامَـةِ الأَبْـدَانِ

فَـنُـزُولُـهُـمْ أَيـضًـا هُـنَـالِكَ ثَـابِـتٌ ... كَـنُـزُولِـهِـمْ أَيـضًـا هُـنَـا لِـلـشَّـانِ

وَعُرُوجُهُمْ بَعْدَ الْقَضَا كَعُرُوجِهِمْ ... أَيـضًـا هُـنَـا فَـلَـهُـمْ إِذَنْ شَـأْنَـانِ

وَيـزُولُ هَـذَا السَّـقْـفُ يـوْمَ مَـعَـادِنَـا ... فَـعُـرُوجُـهُـمْ لِـلْـعَـرْشِ وَالـرَّحْـمَـنِ

هَذَا وَمَا اتَّضَحَتْ لَدَيَ وَعِلْمُهَا الْـ ... مَوْكُولُ بَعْدُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

وَأعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ جَزْمٍ بِلَا ... عِلْمٍ وَهَذَا غَايَةُ الإِمْكَانِ

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ بِقَوْلِهِ ... وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ

الشرح: يعني: أن الظاهر هو كون اليومين المذكورين فِي آية المعارج وحديث مانع الزكاة يوم واحد لا يومان، وإيراد السياق فِي كل من السورة الكريمة والحديث يبين أن المراد به يوم واحد، هو يوم المعاد، بأوضح بيان وأجلاه، ونحن إذا تأملنا فِي الضمير الواقع مفعولًا فِي كل من يرونه ونراه، وإلى مرجعه فِي الكلام السابق؛ وجدنا أن رجوعه إلى اليوم، وتفسيره به أولى من رجوعه إلى عذاب واقع؛ وذلك لأن اليوم أقرب مذكور، ويكون حينئذ ما فِي آية السجدة بيانًا لعروجهم فِي هذه الدنيا، وما فِي آية المعارج بيانًا لعروجهم يوم القيامة، ولهم كذلك نزولان: نزول يوم القيامة، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[الفرقان: ٢٥]. ونزولات فِي الدنيا للقيام بما يكلفهم اللَّه به من شئون خلقه، وإليه الإشارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[مريم: ٦٤]. وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر: ٤]. وعروجهم بعد فصل القضاء، وفراغ اللَّه ﷻ من محاسبة الخلق، هو كعروجهم فِي هذه الدنيا، هو إلى العرش والرحمن، ولكن العروج الأول يكون بعد زوال هذا السقف -يعني: السموات السبع- وطيها كطي السجل للكتب، فلا يبقى هناك مراحل للصعود والعروج.

وبعد أن ساق المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كلًا من المذهبين، المذهب الذي اختاره هو، والمذهب الذي رواه عن جمهرة المفسرين، وبعد أن ساق الأدلة المقوية لهذا المذهب الثاني -اعتذر بأن المسألة لَم تتضح له تمامًا، ووكل علمها إلى اللَّه ﷻ، واستعاذ باللَّه من أن يقطع فيها برأي على غير علم وبينة، وقال: إن هذا هو أقصى ما أمكنه من تحقيقها، واللَّه ورسوله أعلم بالمراد من كلامه ﷻ.

* * *

فصل

هَذَا وَخَامِسُهَا صُعُودُ كَلَامِنَا ... بِالطَّيِّبَاتِ إِلَيْهِ وَالإِحْسَانِ
وَكَذَا صُعُودُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَا ... تِ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ ذِي الإِيمَانِ
وَكَذَا صُعُودُ تَصَدُّقٍ مِنْ طَيِّبٍ ... أَيْضًا إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ
وَكَذَا عُرُوجُ مَلَائِكٍ قَدْ وُكِّلُوا ... مِنَّا بِأَعْمَالٍ وَهُمْ بَدَلَانِ
فَإِلَيْهِ تَعْرُجُ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ... وَالصُّبْحُ يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ
كَي يَشْهَدُونَ وَيَعْرُجُونَ إِلَيْهِ بِالْـ ... أَعْمَالِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ
وَكَذَاكَ سَعْيُ اللَّيْلِ يَرْفَعُهُ إِلَى الرَّ ... حْمَنِ مِنْ قَبْلِ النَّهَارِ الثَّانِي
وَكَذَاكَ سَعْيُ الْيَوْمِ يَرْفَعُهُ لَهُ ... مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ حَافِظُ الإِنْسَانِ

الشرح: هذا هو خامس الوجوه النقلية: وهو إخباره سبحانه بصعود الكلم الطيب والأعمال الصالحة إليه، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وكذا تصعد إليه الصدقة إذا كانت من كسب طيب، فقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله تعالى إلا الطيب، فإن الله** عز وجل **يقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حَتَّى تكون مثل أحد**».

وكذلك ورد الأثر بأن أعمال العباد يعرج بها إلى الله الملائكة الموكلون بها، فيصعد بها، ملائكة النهار بعد صلاة العصر، وملائكة الليل بعد صلاة الفجر، روى الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمعه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فِي صلاة الفجر وصلاة العصر، ثُمَّ يعرج إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم، وهو أعلم بِهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**». ولهذا كان الأرجح فِي الصلاة الوسطى أنَّها صلاة العصر، وقال تعالى فِي صلاة الفجر: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. يعني: تشهده الملائكة، ثُمَّ يعرجون إلى الله بالأعمال بعد الفراغ من الصلاة.

وورد كذلك أن عمل الليل يرفع إليه سبحانه قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، فعن أبي موسى الأشعري رحمه الله قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال:

إن اللّه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور -أو قال: النار- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

* * *

وَكَذَاكَ مِعْرَاجُ الرَّسُولِ إِلَيهِ حَقْ ... قٌ ثَابِتٌ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

بَلْ جَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ وَقَدْ دَنَا ... مِنْهُ إِلَى أَنْ قُدِّرَتْ قَوْسَانِ

بَلْ عَادَ مِنْ مُوسَى إِلَيهِ صَاعِدًا ... خَمْسًا عِدَادَ الْفَرْضِ فِي الْحُسْبَانِ

وَكَذَاكَ رَفْعُ الرُّوحِ عِيسَى الْمُرْتَضَى ... حَقًّا إِلَيهِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ تَصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ ... لَمَّا تَفُوزُ بِفُرْقَةِ الأَبْدَانِ

حَقًّا إِلَيهِ كَي تَفُوزَ بِقُرْبِهِ ... وَتَعُودَ يَوْمَ الْعَرْضِ لِلْجُثْمَانِ

وَكَذَا دُعَا الْمُضْطَرِّ أَيضًا صَاعِدٌ ... أَبَدًا إِلَيهِ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

وَكَذَا دُعَا الْمَظْلُومِ أَيضًا صَاعِدٌ ... حَقًّا إِلَيهِ قَاطِعَ الأَكْوَانِ

الشرح: وكذلك: ثبت بالأحاديث الصحيحة أنه ﷺ ليلة الإسراء عرج بشخصه يقظة إلى السماء، فقد جاء فِي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «ثُمَّ عرج به إلى الجبار -جل جلاله وتقدست أسماؤه- فدنا منه حَتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض له خمسين صلاة، فرجع حَتَّى مر على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: **بخمسين صلاة**. فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره فِي ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حَتَّى جاء به إلى الجبار -تبارك وتعالى- وهو فِي مكانه، فوضع عنه عشرًا، ثُمَّ نزل حَتَّى مر بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف. فلم يزل يتردد بين موسى وبين اللّه -تبارك وتعالى- حَتَّى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: **قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم. فلما نفذ**؛ نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي».

وكذلك: أخبر اللّه عن عيسى -روح اللّه وكلمته- أنه رفعه إليه لما أراد اليهود قتله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]. وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. وقد روى البخاري

ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم من السماء فيكم، وإمامكم منكم»**. والمراد بهذا: نزوله من السماء بعد رفعه إلى اللَّه ﷻ.

وكذلك: ثبت أن روح المؤمن حين تفارق جسده عند الموت، تصعد بها ملائكة الرحمة حَتَّى تقف بين يدي اللَّه ﷻ، وأنَّها تنعم هناك بقربه فِي الجنة حَتَّى تعود إلى جسدها يوم القيامة.

وكذلك: يرفع إليه دعاء المضطرين، فيجيب ما دعوه إليه إن شاء، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. ودعاء المظلومين، فينتقم لهم مِمَّن ظلمهم، قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: **«واتق دعوة المظلوم، فإنَّها ليس بينها وبين اللَّه حجاب»**. وورد أن اللَّه يرفعها فوق الغمام، ويقول: **«وعزتي لأجيبنك ولو بعد حين»**.

فصل

هَذَا وَسَادِسُهَا وَسَابِعُهَا النُّزُو ... لُ كَذَلِكَ التَّنْزِيلُ لِلْقُرْآنِ

وَاللهُ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كِتَابَهُ ... تَنْزِيلُهُ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

أَيَكُونُ تَنْزِيلًا وَلَيسَ كَلَامَ مَنْ ... فَوْقَ الْعِبَادِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ

أَيَكُونُ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ وَالرْ ... رَحْمَنُ لَيسَ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ

وَكَذَا نُزُولُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... فِي النِّصْفِ مِنْ لَيلٍ وَذَاكَ الثَّانِي

فَيقُولُ لَسْتَ بِسَائِلٍ غَيرِي بِأَحْ ... وَالِ الْعِبَادِ أَنَا الْعَظِيمُ الشَّانِ

مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَيُعْطَى سُؤْلَهُ ... مَنْ ذَا يَتُوبُ إِلَيَّ مِنْ عِصْيَانِ

مَنْ ذَاكَ يَسْأَلُنِي فَأَغْفِرَ ذَنْبَهُ ... فَأَنَا الْوَدُودُ الْوَاسِعُ الْغُفْرَانِ

مَنْ ذَا يرِيدُ شِفَاءَهُ مِنْ سُقْمِهِ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ مُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

ذَا شَأْنُهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... حَتَّى يَكُونَ الْفَجْرُ فَجْرًا ثَانِي

يَا قَوْمُ لَيسَ نُزُولُهُ وَعُلُوُّهُ ... حَقًّا لَدَيكُمْ بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

وَكَذَا يقُولُ لَيسَ شَيئًا عِنْدَكُمْ ... لَا ذَا وَلَا قَوْلٌ سِوَاهُ ثَانِي

كُلٌّ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... أَوِّلْ وَزِدْ وَانْقُصْ بِلَا بُرْهَانِ

الشرح: هذا بيان للوجهين: السادس والسابع من الأدلة النقلية الدالة على علوه تعالى: وهما نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا كل ليلة على ما وردت به الأحاديث الصحيحة المتواترة في المعنى.

والثاني: تنْزيله القرآن من عنده كما نطقت به الآيات في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله في أول سورة غافر: ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١-٢]. وقوله: ﴿حم ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١-٢]. وفي أول سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. إلخ. وهذا التنْزيل يقتضي علو من أنزله، وكونه فوق عرشه، مباينًا لخلقه، فإن التنْزيل مصدر نَزل، بمعنى: ألقى الشيء من أعلى إلى أسفل، فيكون الملقي عاليًا على من أنزله إليهم، وإلا لَم يصح تسميته تنْزيلًا إذا كان المتكلم به ليس فوق عباده، ولا مباينًا لهم، بل يسمى بغير ذلك مِمَّا لا يقتضي العلو كالتبليغ والتوصيل.

وأما نزوله -تبارك وتعالى- فقد ورد من طرق متعددة، فيها اختلاف في بعض الألفاظ، ففي بعضها أنه ينْزل حين يبقى ثلث الليل الآخر، وفي بعضها أنه ينْزل حين يتعار من الليل شطره الأول، ولكنها كلها متفقة على إثبات النُّزول، وأنه إلى السماء الدنيا، ويقول سبحانه إذا نزل: «**لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، من ذا الذي يدعوني فأستجب له**». ويظل هكذا سبحانه إلى أن يطلع الفجر الثاني الذي يعرف بالصادق.

ولا شك أن معنَى النُّزول معروف لا يُمكن جحده، ولا المماراة فيه، وتأويل ذلك بِنُزول الملك، أو بقرب الرحمة كما يقوله المعطلة، إخراج للكلام عن معناه المتبادر منه بلا قرينة.

فإن ادعوا أن النُّزول الحسي مستحيل؛ لأنه يقتضي هبوطًا وانتقالًا من مكان إلى آخر، وتفريغ محل، وشغل آخر، وأن تكون السماء ظرفًا للرب -تبارك وتعالى-.

قلنا لهم: نحن نثبت النُّزول على ما أراده اللَّه ﷻ، بلا خوض في كيفيته، فلا يقتضي نزوله عندنا شيئًا من هذه اللوازم الفاسدة الَّتِي يقتضيها نزول المخلوق، وأما هم فلا يثبتون له نزولًا ولا علوًّا، بل ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله؛ بدعوى أن ذلك من

لوازم الجسم، وأنه يقتضي المشابَهة، وكذلك ينفون عنه أنه يقول هذه الكلمات الَّتِي تضمنها هذا الحديث كما ينفون عنه كل قول آخر، وكل ذلك عندهم محمول على المجاز والتأويل، بلا دليل ولا برهان.

* * *

هَـذَا وَثَـامِـنُـهَـا بِـسُـورَةِ غَـافِـرٍ ... هُـوَ رِفْـعَـةُ الـدَّرَجَـاتِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

دَرَجَـاتُـهُ مَـرْفُـوعَـةٌ كَـمَـعَـارِجٍ ... أَيْـضًـا لَـهُ وَكِـلَاهُـمَـا رَفْـعَـانِ

وَفَعِيلُ فِيهَا لَيسَ مَعْنَى فَاعِلٍ ... وَسِـيَـاقُـهَـا يـأْبَـاهُ ذُو الـتِّـبْـيَـانِ

لَـكِـنَّـهَـا مَـرْفُـوعَـةٌ دَرَجَـاتُـهُ ... لِـكَـمَـالِ رِفْـعَـتِـهِ عَـلَـى الأَكْـوَانِ

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فَلَا تَحِدْ ... عَـنْـهُ وَخُـذْ مَـعْـنَـاهُ فِـي الْـقُـرْآنِ

فَنَظِيرُهَا الْمُبْدِي لَنَا تَفْسِيرُهَا ... فِي ذِي الْمَعَارِجِ لَيسَ يفْتَرِقَانِ

وَالرُّوحُ وَالأَمْلَاكُ تَصْعَدُ فِي مَعَا ... رِجِـهِ إِلَـيـهِ جَـلَّ ذُو الـسُّـلْـطَـانِ

ذَا رِفْعَةُ الدَّرَجَاتِ حَقًّا مَا هُمَا ... إِلَّا سَـوَاءٌ أَوْ هُـمَـا شِـبْـهَـانِ

فَخُذِ الْكِتَابَ بِبَعْضِهِ بَعْضًا كَذَا ... تَـفْـسِـيـرُ أَهْـلِ الْـعِـلْـمِ لِـلْـقُـرْآنِ

الشرح: هذا هو الوجه الثامن: وهو إخباره سبحانه عن نفسه فِي سورة «غافر» بأنه رفيع الدرجات، ولا يصح أن يكون رفيع هنا بِمعنى رافع، فإن السياق يأباه، فقد وصف اللَّه نفسه قبل هذا بأنه العلي الكبير، ثُمَّ وصف نفسه بعد ذلك بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، فالأوصاف كلها راجعة إلى رفعته هو وارتفاعه على خلقه، لا إلى رفعه بعض خلقه على بعض درجات كما فهمه من لا يحسن تذوق كلام اللَّه ﷻ، ولكن فعيل هنا بِمعنى مفعول، والمراد أن درجاته مرفوعة؛ لكمال علوه على خلقه، فهو كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾[المعارج: ٣]. يعني: المصاعد الَّتِي تصعد فيها الملائكة إليه -جل سلطانه- فهي درجات بعضها فوق بعض، وانتهاؤها إليه سبحانه، هذا هو التفسير الذي يجب المصير إليه، فإن اللَّه قد أنزل القرآن يصدق بعضه بعضًا، وخير ما يفسر به القرآن هو القرآن.

* * *

فصل

هَذَا وَتَاسِعُهَا النُّصُوصُ بِأَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَذَا بِلَا حُسْبَانِ
فَاسْتَحْضِرِ الْوَحْيَيْنِ وَانْظُرْ ذَاكَ تَلْـ ... قَاهُ مُبِينًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ
وَلَسَوْفَ نَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ عَنْ قَرِيـ ... ـبٍ كَي تَقُومَ شَوَاهِدُ الإِيمَانِ
وَإِذَا أَتَتْكَ فَلَا تَكُنْ مُسْتَوْحِشًا ... مِنْهَا وَلَا تَكُ عِنْدَهَا بِجَبَانِ
لَيسَتْ تَدُلُّ عَلَى انْحِصَارِ إِلَهِنَا ... عَقْلًا وَلَا عُرْفًا وَلَا بِلِسَانِ
إِذْ أَجْمَعَ السَّلَفُ الْكِرَامُ بِأَنَّ مَعْـ ... نَاهَا كَمَعْنَى الْفَوْقِ بِالْبُرْهَانِ
أَوْ أَنَّ لَفْظَ سَمَائِهِ يُعْنَى بِهِ ... نَفْسُ الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ الْحَقَّانِي
وَالرَّبُّ فِيهِ وَلَيسَ يَحْصُرُهُ مِنَ الْـ ... مَخْلُوقِ شَيءٌ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ
كُلُّ الْجِهَاتِ بِأَسْرِهَا عَدَمِيَّةٌ ... فِي حَقِّهِ هُوَ فَوْقَهَا بِبَيَانِ
قَدْ بَانَ عَنْهَا كُلِّهَا فَهُوَ الْمُحِيـ ... طُ وَلَا يُحَاطُ بِخَالِقِ الأَكْوَانِ
مَا ذَاكَ يَنْقِمُ بَعْدُ ذُو التَّعْطِيلِ مِنْ ... وَصْفِ الْعُلُوِّ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
أَيَرُدُّ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ قَطُّ ذَا ... بَعْدَ التَّصَوُّرِ يَا أُولِي الأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا رَدَّ امْرُؤٌ هَذَا بِغَيْـ ... رِ الْجَهْلِ أَوْ بِحَمِيَّةِ الشَّيطَانِ

الشرح: هذا هو الوجه التاسع: وهو ما صرحت به النصوص الَّتي لا تحصى كثرة من الكتاب والسنة بأن اللَّه ﷻ فِي السماء، ومن يستحضرهما، وينظر فيهما؛ يلق ذلك فِي غاية الوضوح والبيان:

فمن الكتاب: قوله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

ومن السنة: قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من فِي السماء**».

وقوله: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

وقوله فِي الرقية: «**ربنا اللَّه الذي فِي السماء، تقدس اسمك**». إلخ الحديث.

وقوله لأبي حصين: «**كم إلَهًا تعبد؟** فقال: سبعة: ستة فِي الأرض، وواحد فِي السماء. قال: **فمن تعد لرغبتك ورهبتك؟** فقال: الذي فِي السماء». ولَم ينكر عليه

الرسول ﷺ قوله: إنه فِي السماء. ومثل ذلك قوله للجارية: «**أين اللَّه؟** فقالت: فِي السماء. فقال لسيدها: **أعتقها فإنَّها مؤمنة**».

وينبغي لرجل السنة ألَّا يستوحش من قراءة هذه الآيات والأحاديث، ولا يتهيب الاستدلال بِها على علوه تعالى على خلقه لما فيها من إيهام انحصاره تعالى فِي بعض مخلوقاته على ما «فِي» مِن معنَى الظرف؛ لأنا نقول: إنَّها لا تدل على الانحصار لا عقلًا ولا عرفًا ولا لغة، فقد أجمع السلف على أن «فِي» هنا ليست على معناها من الظرفية، وإنَّما هي بِمعنى «على» كما فِي قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. فهي هنا بِمعنى الفوق للاتفاق على أن اللَّه لا يحصره، ولا يحيط به شيء من خلقه، أو يراد من السماء فِي الآيات والأحاديث: جهة العلو، ولا شك أن اللَّه فِي هذه الجهة، فله العلو المطلق على سائر خلقه، بحيث لا يكون شيء منها حاصرًا له ولا محيطًا به، فهو سبحانه ليس فِي جهة وجودية من هذه الجهات الواقعة داخل هذا العالم، ولكن الجهات كلها بالنسبة إليه عدمية، فإنه فوق عرشه، والعرش هو الجسم الذي تنتهي به كرة العالم، فاللَّه -عز شأنه- هناك حيث انتهت جَميع المخلوقات، فهو فوقها، مباين لَها، محيط بِها، ولا يحيط به شيء منها.

فإذا فهم علوه تعالى على خلقه بِهذا المعنى، فما الذي ينكره المعطل على من أثبت هذا العلو وصفًا للَّه ﷻ، مادام هذا العلو لَم يقتض حلولًا ولا انحصارًا ولا اتصالًا بالمخلوق؟! وهل يجوز لمن عنده مسكة من العقل السليم والفهم الصحيح أن يرد هذا بعد تصوره على هذا النحو الذي لا يقتضي نقصًا ولا محالًا؟! إن رده وإنكاره لا يكون إلا عن أحد أمرين لا ثالث لهما: إما جهل بحقيقته، وعدم فهم لمعناه، وإما تعصب وحمية وطاعة للشيطان الرجيم.

فصل

هَذَا وَعَاشِرُهَا اخْتِصَاصُ الْبَعْضِ مِنْ ... أَمْـلَاكِـهِ بِـالْـعِـنْـدِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

وَكَذَا اخْتِصَاصُ كِتَابِ رَحْمَتِهِ بِعِنْـ ... ـدَ الـلـهِ فَـوْقَ الْـعَـرْشِ ذُو تِـبْـيَـانِ

لَوْ لَمْ يكُنْ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْوَرَى ... كَـانُـوا جَـمِيعًـا عِـنْـدَ ذِي الـسُّـلْـطَانِ

وَيكُونُ عِنْدَ اللهِ إِبْلِيسٌ وَجِبْـ ... ـرِيـلُ هُـمَـا فِـي الْـعِـنْـدِ مُـسْـتَـوِيَـانِ

وَتَمَامُ ذَاكَ الْقَوْلِ أَنَّ مَحَبَّةَ الرْ ... رَحْمَنِ عَيْنُ إِرَادَةِ الأَكْوَانِ
وَكِلَاهُمَا مَحْبُوبُهُ وَمُرَادُهُ ... وَكِلَاهُمَا هُوَ عِنْدَهُ سِيَّانِ

الشرح: هذا هو الوجه العاشر: ويقوم على ما وردت به النصوص من الكتاب والسنة، من اختصاص بعض المخلوقات بأنَّها عنده سبحانه، فمن الكتاب قوله تعالى فِي شأن الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. وقوله فِي شأنِهم أيضًا: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ [فصلت: ٣٨]. وقوله تعالى فِي أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. ومن السنة مثل قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن اللَّه كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**».

فهذا من أعظم الأدلة على علوه تعالى على خلقه، فتكون بعض مخلوقاته أقرب إليه من بعض، إذ لو لَم يكن كذلك لما كان هناك معنى لاختصاص بعضها بالقرب منه، بل تكون جميعًا عنده سواء، بل يكون أقربُها -وهو جبريل عليه السلام- بِمنْزلة أبعدها، وهو إبليس فِي تلك العندية، وهذا لازم للجهمية الذين نفوا علوه تعالى، ومنعوا نسبة العباد إليه بالقرب والبعد، وجعلوا نسبتهم إليه نسبة واحدة، وزعموا أن محبته عين إرادته، وأن كل ما أراده اللَّه فقد أحبه، فلزمهم على هذا أن يكون كل من جبريل وإبليس مرادًا له ومحبوبًا، وأن يكون كلاهما سواء عنده.

والحق: أن محبته سبحانه غير إرادته للأشياء بالإرادة الكونية القدرية؛ لأن المحبة إنَّما تتعلق بِما يأمر اللَّه به عباده، ويريده منهم شرعًا، وهذا ليس بلازم أن يقع، فقد لا يريده اللَّه كونًا وقدرًا، وأما الإرادة الكونية؛ فتتعلق بكل كائن، سواء كان مِمَّا يحبه اللَّه ويرضاه، أو كان مِمَّا يبغضه ويسخطه.

* * *

إِنْ قُلْتُمُ عِنْدِيَّةُ التَّكْوِينِ فَالذْ ... ذَاتَانِ عِنْدَ اللهِ مَخْلُوقَانِ
أَوْ قُلْتُمُ عِنْدِيَّةُ التَّقْرِيبِ تَقْـ ... ـرِيبِ الْحَبِيبِ وَمَا هُمَا عِدْلَانِ
فَالْحُبُّ عِنْدَكُمُ الْمَشِيئَةُ نَفْسُهَا ... وَكِلَاهُمَا فِي حُكْمِهَا مِثْلَانِ
لَكِنْ مُنَازِعُكُمْ يَقُولُ بِأَنَّهَا ... عِنْدِيَّةٌ حَقًّا بِلَا رَوَغَانِ
جَمَعَتْ لَهُ حُبَّ الإِلَهِ وَقُرْبَهُ ... مِنْ ذَاتِهِ وَكَرَامَةَ الْإِحْسَانِ

وَالْحُبُّ وَصْفٌ وَهْوَ غَيرُ مَشِيئَةٍ وَالْعِنْدُ قُرْبٌ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

الشرح: يعني: يقال لهؤلاء الجهمية الذين ينفون العندية الحقيقية المستلزمة لقرب بعض عباده منه قربًا حقيقيًّا، كما دلت عليه الآيات والأحاديث: بماذا تفسرون تلك العندية؟

فإن قلتم: إنَّها عندية تكوين. فقد نفيتم أن يكون لجبريل زيادة اختصاص على عدو اللَّه إبليس فِي ذلك؛ إذ لا شك أن ذات كل منهما مخلوقة للَّه، فهما فِي تلك العندية سواء.

وإن قلتم: إنَّها عندية تقريب ومحبة، وليس جبريل وإبليس فِي حكمها سواء. فقد نقضتم مذهبكم، فإنكم تقولون: إن المشيئة عين المحبة، ولا شك أن جبريل وإبليس فِي حكم المشيئة سواء، فيكونان كذلك فِي المحبة أيضًا، فإن المتماثلين فِي حكم أحد المتساويين يتماثلان فِي حكم الآخر.

وإذا بطل تفسير العندية على الوجهين عندكم؛ فالحق ما ذهب إليه السلف: من أن العندية هنا على حقيقتها، فهي تجمع لمن ثبتت له حب الإله ﷻ، وقربه من ذاته، وكرامته بإحسانه؛ وذلك لأن لفظ العند واضح فِي معنَى القرب، وهو قرب ذات ومحبة وإحسان، ولا يلزم من قرب المحبة عموم ذلك لكل كائن؛ لأن الحب غير المشيئة.

فصل

هَـذَا وَحَـادِي عَشْـرَهُـنَّ إِشَـارَةٌ نَـحْـوَ الْـعُـلُـوِّ بِـإِصْـبَـعٍ وَبَـنَـانِ

لِـلَّـهِ جَـلَّ جَـلَالُـهُ لَا غَـيـرِهِ إِذْ ذَاكَ إِشْـرَاكٌ مِـنَ الإِنْـسَـانِ

وَلَقَدْ أَشَارَ رَسُولُهُ فِي مَجْمَعِ الْـ حَـجِّ الْـعَظِـيمِ بِـمَـوْقِـفِ الْـغُـفْـرَانِ

نَحْوَ السَّمَاءِ بِإِصْبَعٍ قَدْ كُرِّمَتْ مُـسْـتَـشْـهِـدًا لِـلْـوَاحِـدِ الـرَّحْـمَـنِ

يَا رَبِّ فَاشْهَدْ أَنَّنِي بَلَّغْتُهُمْ وَيُـشِـيـرُ نَـحْـوَهُـمُ لِـقَـصْـدِ بَـيَـانِ

فَـغَـدَا الْـبَـنَـانُ مُـرَفَّـعًـا وَمُـصَـوَّبًـا صَـلَّـى عَـلَـيـكَ الـلَّـهُ ذُو الْـغُـفْـرَانِ

أَدَّيـتَ ثُـمَّ نَـصَـحْـتَ إِذْ بَـلَّـغْـتَـنَـا حَـقَّ الْـبَـلَاغِ الْـوَاجِـبِ الـشُّـكْـرَانِ

الشرح: هذا هو الوجه الحادي عشر: وهو الإشارة بالأصبع إلى جهة العلو عند ذكر اللَّه ﷻ، أو إشهاده على أمر من الأمور، فلا شك أن تلك الإشارة ينبغي ألَّا تكون إلا للَّه،

فإن الإشارة إلى غيره فِي مثل هذا المقام إشراك، ولقد كان ﷺ وهو يخطب الناس يوم المجمع العظيم بعرفة فِي حجة الوداع يشير بأصبعه الكريمة إلى السماء كلما ألقى إليهم أمرًا من أمور الدين ووصاياه قائلًا: **«ألا هل بلغت؟ اللَّهم فاشهد»**. ثُمَّ يخفضها إليهم، وهذا من أقوى الأدلة على علوه تعالى وفوقيته؛ إذ لو كانت كل الأمكنة والجهات إليه متساوية لما كان هناك معنًى للإشارة إلى جهة العلو بالذات، بل لَم يكن هناك حاجة إلى الإشارة أصلًا، فصلوات اللَّه وسلامه على من هو أعلم الخلق بربه، وبِما ينبغي له من التنْزيه، لقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح لأمته، فجزاه اللَّه عنها خير ما يجزي به رسولًا كريمًا، وقائدًا برًّا رحيمًا.

فصل

هَذَا وَثَانِ عَشْرَهَا وَصْفُ الظُّهُو ... رِ لَهُ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

وَالظَّاهِرُ الْعَالِي الَّذِي مَا فَوْقَهُ ... شَيءٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو الْبُرْهَانِ

حَقًّا رَسُولُ اللهِ ذَا تَفْسِيرُهُ ... وَلَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِضَمَانِ

فَاقْبَلْهُ لَا تَقْبَلْ سِوَاهُ مِنَ التَّفَا ... سِيرِ الَّتِي قِيلَتْ بِلَا بُرْهَانِ

وَالشَّيءُ حِينَ يتِمُّ مِنْهُ عُلُوُّهُ ... فَظُهُورُهُ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

أَوَمَا تَرَى هَذِي السَّمَا وَعُلُوَّهَا ... وَظُهُورَهَا وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ

وَالْعَكْسُ أَيضًا ثَابِتٌ فَسُفُولُهُ ... وَخَفَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ مُصْطَحِبَانِ

الشرح: هذا هو الوجه الثاني عشر: وهو ما وصف اللَّه به نفسه فِي كتابه من الظهور، قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

ومعنى «الظاهر» فِي الآية: هو العالي الذي لا شيء فوقه، كما فسره بذلك أعلم الخلق بمعاني أسماء اللَّه وصفاته: مُحمَّد عبد اللَّه ورسوله -صلوات اللَّه وسلامه عليه- فقد روى مسلم فِي صحيحه عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إذا أراد أحدكم أن ينام فليضطجع على شقه الأيمن، ثُمَّ ليقل: اللَّهم رب السموات، ورب الأرض، رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منَزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللَّهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن**

فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

والشاهد هنا فِي قوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**». فلا شك أن ما بعد الفاء تفسير لما قبلها، ونفي فوقية شيء عليه يستلزم علوه المطلق على كل ما سواه، وهذا التفسير المأثور يتعين المصير إليه، وعدم الالتفات إلى ما سواه مِمَّا يهرف به من لا علم عندهم بمعاني أسمائه سبحانه من المعطلة الذين يؤولون الظهور هنا بأنه ظهور القدرة أو الغلبة، أو بأنه ظهوره فِي أفعاله، ووضوح دلالتها على وجوده، فكلها تفاسير لا دليل عليها، ولا يجوز لمؤمن بعد ورود التفسير عنه ﷺ لاسم من أسمائه تعالى أن يضع له هو تفسيرًا من عنده، أو يلتفت إلى ما فسره الناس به، فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب.

ومِمَّا يشهد لصحة هذا التفسير دون ما سواه: أننا نرى فِي الشاهد أن الشيء كلما تَم علوه كان فِي غاية الظهور، فالعلو والظهور متلازمان، بحيث يصح أن يقال: كل عالٍ ظاهر، وبالعكس.

ومثال ذلك: أن السماء والشمس والقمر لما كانت فوق الأرض؛ كانت ظاهرة لأهلها، ونشاهد كذلك أن السفول والخفاء متلازمان، فالشيء كلما زاد سفوله؛ زاد خفاؤه.

* * *

فَانْظُرْ إِلَى عُلْوِ الْمُحِيطِ وَأَخْذِهِ ... صِفَةَ الظُّهُورِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

وَانْظُرْ خَفَاءَ الْمَرْكَزِ الأَدْنَى وَوَصْـ ... ـفَ السُّفْلِ فِيهِ وَكَوْنَهُ تَحْتَانِي

وَظُهُورُهُ سُبْحَانَهُ بِالذَّاتِ مِثْـ ... ـلُ عُلُوِّهِ فَهُمَا لَهُ صِفَتَانِ

لَا تَجْحَدَنَّهُمَا جُحُودَ الْجَهْمِ أَوْ ... صَافَ الْكَمَالِ تَكُونُ ذَا بُهْتَانِ

وَظُهُورُهُ هُوَ مُقْتَضٍ لِعُلُوِّهِ ... وَعُلُوُّهُ لِظُهُورِهِ بِبَيَانِ

وَكَذَاكَ قَدْ دَخَلَتْ هُنَاكَ الْفَاءُ لِلتْـ ... ـتَسْبِيبِ مُؤْذِنَةً بِهَذَا الشَّانِ

فَتَأَمَّلَنْ تَفْسِيرَ أَعْلَمْ خَلْقِهِ ... بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

إِذْ قَالَ أَنْتَ كَذَا فَلَيسَ لِضِدِّهِ ... أَبَدًا إِلَيكَ تَطَرُّقُ الإِتْيَانِ

الشرح: ومما يدل على التلازم بين الظهور والعلو أن العرش -وهو الجسم المحيط بالمخلوقات- لما كان فوقها جميعًا؛ كان أشدها ظهورًا، كما أن المركز الأدنى وهو

الحضيض التحتاني لما كان أسفلها ؛ كان أشدها خفاء ، فظهوره سبحانه هو مقتضٍ لعلوه ، وكذلك العكس ، فكل منهما صفة ثابتة له على الحقيقة ، لا يجوز جحدها ، ولا تأويلها بِما يصرفها عن حقيقتها بلا دليل كما هو دأب الجهمية فِي نفهيم صفات الكمال عنه سبحانه ، وحملهم إياها على معانٍ بعيدة متكلفة ، يعلم كل أحد أنَّها ليست هي المتبادر من اللفظ عند إطلاقه ، زاعمين أن قرينة الحال كافية فِي ذلك الصرف ، فيا لسخافة العقول ، ولما كان الظهور والعلو -كما قدمنا- كل منهما مقتضٍ للآخر ؛ جاءت فاء السببية فِي كلامه ﷺ مؤذنة باستلزام ما قبلها لما بعدها ، فكونه ظاهرًا على الأشياء جميعًا مستلزم ألَّا يكون منها شيء فوقه ، ونفي فوقية شيء عليه مستلزم لإثبات علوه على كل شيء(١) .

فصل

هَـذَا وَثَـالِـثَ عَـشْـرَهَـا إِخْـبَـارُهُ ... أَنَّـا نَـرَاهُ بِـجَـنَّـةِ الْـحَـيَـوَانِ

فَسَلِ الْمُعَطِّلَ هَلْ نَرَى مَنْ تَحْتَنَا ... أَمْ عَـنْ شَـمَـائِـلِـنَـا وَعَـنْ أَيـمَـانِ

أَمْ خَـلْـفَـنَـا وَأَمَـامَـنَـا سُـبْـحَـانَـهُ ... أَمْ هَـلْ نَـرَى مَـنْ فَـوْقَـنَـا بِـبَـيَـانِ

يَا قَوْمُ مَا فِي الأَمْرِ شَيءٌ غَيرُ ذَا ... أَوْ أَنَّ رُؤْيَـتَـهُ بِـلَا إِمْـكَـانِ

إِذْ رُؤْيَـةٌ لَا فِي مُـقَـابَـلَـةٍ مِـنَ الـرْ ... رَائِـي مُـحَـالٌ لَـيْـسَ فِـي الإِمْـكَـانِ

(١) قال ابن القيم: والمقصود: أن التعبد باسمه «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًا يقصده، وملجأ يلجأ إليه، وأما تعبده باسمه «الباطن» فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسان عن وصفه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى، كاشفة عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف.
وباب هذه المعرفة والتعبد: هو معرفة عظمة الرب سبحانه، وإحاطته بالعالم، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]. ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالَّين على هذين المعنيين؛ اسم العلو الدال على أنه الظاهر، وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدالّ على الإحاطة، أنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].
وهو -تبارك وتعالى- كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء؛ فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء؛ بل ظهر على كل شيء، فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به، حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكلٌّ في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة.

وَمَنِ ادَّعَى شَيئًا سِوَى ذَا كَان دَعْـ ـوَاهُ مَـكَـابَـرَةً عَـلَـى الأذْهَـانِ

الشرح : هذا هو الوجه الثالث عشر : وهو ما وردت به النصوص الصريحة من الكتاب والسنة بأن المؤمنين يرون اللَّه ﷻ يوم القيامة فِي الجنة، قال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد صح عن رسول اللَّه ﷺ أنه فسر تلك الزيادة بأنَّها النظر إلى وجه اللَّه، وقال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فدل حجب الكفار عن رؤيته على ثبوتِها للمؤمنين.

وأما أحاديث الرؤية فتشبه أن تكون متواترة فِي المعنى لكثرتِها واشتهارها، ومن ذلك قوله -عليه الصلاة والسلام- : **«إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب، لا تضامون فِي رؤيته»**.

وإذا كانت الرؤية قد صارت قطعية الثبوت بتلك الأدلة؛ فينبغي أن يسأل المعطل لاستوائه تعالى على عرشه عن الجهة الَّتِي تقع فيها الرؤية، فإن الجهات ست، ولابد من وقوع الرؤية فِي واحدة منها، فهل نراه من تحتنا -حاشاه سبحانه- أو عن أيماننا، أو عن شمائلنا، أو من خلفنا، أو من أمامنا، أو نراه من فوقنا، لا تحتمل القسمة أكثر من هذا، فإذا نفى المعطل عنه سائر الجهات الَّتِي تمكن منها الرؤية؛ صارت الرؤية ممتنعة غير ممكنة؛ لأن المرئي يجب أن يكون فِي جهة من الرائي، ومن ادعى إمكان الرؤية بلا وجه؛ فقد كابر العقول، ووقع فِي التناقض؛ لهذا لما رأى المعتزلة أنه لا يُمكن إثبات الرؤية مع نفي الجهة؛ التزموا نفي الرؤية، وأوَّلوا ما ورد فيها من آيات، وردوا الأحاديث بدعوى أنَّها أحاديث آحاد، ولا يؤخذ بِها فِي الاعتقاد.

وأما الأشاعرة؛ فإنَّهم لما لَم يستطيعوا إنكار الرؤية، وكانوا مع المعتزلة فِي نفي الجهة؛ التزموا إثبات رؤية بلا وجه، بل قال بعضهم جهلًا : تقع الرؤية من كل جهة، ولا يتأتى هذا إلا إذا انقلب الجسم كله عيونًا ترى، وما أوقع الأشاعرة فِي هذا التناقض الشنيع الذي سلم منه المعتزلة إلا تأرجحهم بين المذاهب، وأخذهم من كل منها بطرف حَتَّى سموا بـ«الملفقة».

* * *

وَلِذَاكَ قَالَ مُحَقِّقٌ مِنْكُمْ لأَهْـ ... لِ الإِعْتِزَالِ مَقَالَةً بِأَمَانِ
مَا بَيْنَنَا خُلْفٌ وَبَينَكُمُ لِذِي التْـ ... ـتَحْقِيقِ فِي مَعْنَى فَيَا إِخْوَانِي
شُدُّوا بِأَجْمَعِنَا لِنَحْمِلَ حَمْلَةً ... نَذَرُ الْمُجَسِّمَ فِي أَذَلِّ هَوَانِ
إِذْ قَالَ إِنَّ إِلَهَنَا حَقًّا يُرَى ... يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ
وَتَصِيرُ أَبْصَارُ الْعِبَادِ نَوَاظِرًا ... حَقًّا إِلَيْهِ رُؤْيَةً بِعِيَانِ
لَا رَيبَ أَنَّهُمُ إِذَا قَالُوا بِذَا ... لَزِمَ الْعُلُوُّ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ
وَيكُونُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... فَلِذَاكَ نَحْنُ وَحِزْبُهُمْ خَصْمَانِ
لَكِنَّنَا سِلْمٌ وَأَنْتُمْ إِذْ تَسَا ... عَدْنَا عَلَى نَفْيِ الْعُلُوِّ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
فَعُلُوُّهُ عَينُ الْمُحَالِ وَلَيسَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا دَيَّانِ
لَا تَنْصِبُوا مَعَنَا الْخِلَافَ فَمَا لَهُ ... طَعْمٌ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ
هَذَا الَّذِي وَاللهِ مُودَعُ كُتْبِهِمْ ... فَانْظُرْ تَرَى يَا مَنْ لَهُ عَينَانِ

الشرح: لما رأى بعض محققي الأشاعرة كالفخر الرازي وغيره تناقض مذهبهم فِي مسألة الرؤية؛ ذهبوا إلى أن الرؤية الثابتة للمؤمنين فِي الآخرة ليست بصرية، وإنَّما هي زيادة انكشاف الرب لهم، وتمام معرفتهم به حَتَّى كأنَّهم يرونه بأعينهم، قالوا: وعلى هذا يرتفع الخلاف بيننا وبين المعتزلة؛ لأن الرؤية الَّتِي نثبتها ليست هي الَّتِي تنفيها المعتزلة، فنحن وهم متفقون على نفي الرؤية البصرية الَّتِي تقتضي وقوع المرئي فِي جهة من الرائي، ولو أن المعتزلة فسروا الرؤية بالمعنى الذي فسرناها به لَم ينفوها، وإذن فيجب أن نكون نحن وهم إلبًا واحدًا على هؤلاء المجسمة الذين يزعمون أن اللّه يرى يوم القيامة بالأبصار رؤية حقيقية كما يرى الشمس والقمر، فإن إثبات مثل هذه الرؤية مستلزم لإثبات جهة العلو له سبحانه، وكونه فوق العرش بذاته، وهو أمر قد قطعت عقولنا باستحالته، وخاصمنا هؤلاء المجسمة عليه، وعاديناهم بسببه.

وأما أنتم معشر المعتزلة؛ فسلم لنا؛ إذ قد توافقنا على نفي الجهة عن اللّه، وأقمنا نحن وأنتم الأدلة على استحالة علوه واستوائه على العرش بذاته، وإذن فلا معنًى للخلاف بيننا وبينكم.

ومن تأمل كتب المتأخرين من الأشاعرة مثل الرازي، وعضد الدين الإيجي، والشريف الجرجاني، والسعد التفتازاني، والجلال الدواني، وغيرهم؛ وجدها مليئة

بأمثال هذه المحاولات الَّتي تبذل لرفع الخلاف بين مذهبي الأشاعرة والمعتزلة، على حين أنَّهم لا يذكرون مذهب السلف إلا مقرونًا بالاستخفاف والتحقير، ومع ذلك يسمون أنفسهم أهل السنة والجماعة تبجحًا وغرورًا.

فصل

هَـذَا وَرَابِـعَ عَـشْـرَهَـا إِقْـرَارُ سَـا ... ئِـلَـةٍ بِـلَـفْـظِ الأَيـنِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

وَلَـقَـدْ رَوَاهُ أَبُـو رُزَيـنٍ بَـعْـدَمَـا ... سَـأَلَ الـرَّسُـولَ بِـلَـفْـظَـةٍ بِـوِزَانِ

وَرَوَاهُ تَـبْـلِـيـغًـا لَـهُ وَمُـقَـرِّرًا ... لَـمَّـا أَقَـرَّ بِـهِ بِـلَا نُـكْـرَانِ

هَذَا وَمَا كَانَ الْجَوَابُ جَوَابَ مَنْ ... لَـكِـنْ جَـوَابُ الـلَّـفْـظِ بِـالْـمِـيـزَانِ

كَلَّا وَلَيسَ لِـ«مَنْ» دُخُولٌ قَطُّ فِي ... هَـذَا الـسِّـيَـاقِ لِـمَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

دَعْ ذَا فَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ بِنَفْسِهِ ... أَيـنَ الإِلَـهُ لِـعَـالِـم بِـلِـسَـانِ

وَاللهِ مَا قَصَدَ الْمُخَاطِبُ غَيرَ مَعْـ ... نَـاهَـا الَّـذِي وُضِـعَـتْ لَـهُ الْـحَـقَّـانِي

وَاللهِ مَا فَهِمَ الْمُخَاطَبُ غَيرَهُ ... وَالـلَّـفْـظُ مَـوْضُـوعٌ لِـقَـصْـدِ بَـيَـانِ

الشرح: هذا هو الوجه الرابع عشر: وهو إقراره ﷺ لمن سأله بلفظ: «الأين»، وإجابته على سؤاله، ولو كان السؤال فاسدًا؛ لنبهه ﷺ، وبيَّن له أن ذلك لا ينبغي فِي حق الرب -جل شأنه- ولَم يجبه على سؤاله، فقد روي عن أبي رزين أنه قال: «قلت: يا رسول اللَّه، أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال ﷺ: **كان فِي عماء ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وكان عرشه على الماء**».

فقوله: «كان فِي عماء...» إلخ. دليل على أن الرسول ﷺ فَهِمَ أن السائل يسأل عن حقيقة «الأين»؛ ولهذا أجابه بالجواب المطابق لسؤاله، فمن السخف بعد هذا أن يُدَّعى أن السائل إنَّما أراد «من ربنا؟» فإنه لا يصح أن يقال فِي جواب السائل بـ«من»: إنه فِي كذا، وإنَّما يقال: هو كذا. فالسياق كله فِي السؤال والجواب يبعد هذا، بل ينفيه، وما لنا نتكلف هذا التأويل، وقد وقع السؤال بلفظ: «الأين» منه هو نفسه -صلوات اللَّه عليه وسلامه- حين قال للجارية: «**أين اللَّه؟**». فقالت: فِي السماء». فهل كان الرسول عليه السلام يقصد غير المعنى الحقيقي للفظ «الأين»، وهل فهمت الجارية من اللفظ غير هذا المعنى الذي وضع اللفظ لإفادته، كلا واللَّه، ما قصد الرسول إلى غير هذا المعنى، ولا فهم المخاطب من

اللفظ سواه.

* * *

يَا قَوْمُ لَفْظُ الأَينَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الرْ ... رَحْمَنِ عِنْدَكُمُ وَذُو بُطْلَانِ

وَيكَادُ قَائِلُكُمْ يكَفِّرُنَا بِهِ ... بَلْ قَدْ وَهَذَا غَايَةُ الْعُدْوَانِ

لَفْظٌ صَرِيحٌ جَاءَ عَنْ خَيرِ الْوَرَى ... قَوْلًا وَإِقْرَارًا هُمَا نَوْعَانِ

وَاللهِ مَا كَانَ الرَّسُولُ بِعَاجِزٍ ... عَنْ لَفْظِ مَنْ مَع أَنَّهَا حَرْفَانِ

وَالأَينَ أَحْرُفُهَا ثَلَاثٌ وَهْي ذُو ... لَبْسٍ وَمَنْ هِي غَايَةُ التِّبْيَانِ

وَاللهِ مَا الْمَلَكَانِ أَفْصَحُ مِنْهُ إِذْ ... فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّ السَّمَا يَسَلَانِ

وَيقُولُ أَينَ اللهُ يعْنِي مَنْ فَلَا ... وَاللهِ مَا اللَّفْظَانِ مُتَّحِدَانِ

كَلَّا وَلَا مَعْنَاهُمَا أَيضًا لِذِي ... لُغَةٍ وَلَا شَرْعٍ وَلَا إِنْسَانِ

الشرح: يعني أن الجهمية يمنعون السؤال بلفظ: «الأين» في حق اللَّه ﷻ؛ لأنه إنَّما يسأل به عن المكان والجهة، واللَّه منزه -في زعمهم- عن الحلول في الأمكنة والجهات؛ ولهذا يكادون يكفرون أهل السنة والجماعة؛ لقولهم: إنه فوق العرش بذاته. بل قد كفروهم فعلًا ظلمًا منهم وعدوانًا، فإن «الأين» لفظ صريح في معناه، وارد عمن هو أعلم الخلق بربه، وقد ورد عنه مرة على جهة السؤال منه لغيره كما في سؤاله الجارية، ومرة على جهة الإقرار لمن سأله به كما في حديث أبي رزين، فلو كان المقصود بـ«أين» في الموضعين أن تكون بمعنى «مَن»، فما الحكمة في العدول عن لفظ «مَن» الذي هو صريح في معناه إلى لفظ «الأين» الموقع في الاشتباه والحيرة؟! هل كان الرسول عاجزًا عن النطق بـ «مَن» مع أنَّها حرفان حَتَّى استعمل بدلها لفظ «الأين» الذي هو ثلاثة أحرف؟! وهل كان الملكان الموكلان بسؤال القبر أفصح منه حين يسألان الميت بقولهما: «من ربك؟». ويقول هو: «أين اللَّه؟». يعني بها «مَن» مع أنه لا اتحاد أصلًا بين اللفظين، ولا بين معناهما، لا لغة، ولا شرعًا، ولا في عقل عاقل، اللَّهم إلا أنه التعصب الأعمى الذي يصرف أصحابه عن الحق الواضح الصريح إلى أقوال لا حجة عليها، ولا دليل.

* * *

فصل

هَذَا وَخَامِسَ عَشْرَهَا الإِجْمَاعُ مِنْ ... رُسْلِ الإِلَهِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
فَالْمُرْسَلُونَ جَمِيعُهُمْ مَعْ كُتْبِهِمْ ... قَدْ صَرَّحُوا بِالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ
وَحَكَى لَنَا إِجْمَاعَهُمْ شَيخُ الْوَرَى ... وَالدِّينِ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي
وَأَبُو الْوَلِيدِ الْمَالِكِي أَيضًا حَكَى ... إِجْمَاعَهُمْ أَعْنِي ابْنَ رُشْدِ الثَّانِي
وَكَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَيضًا قَدْ حَكَى ... إِجْمَاعَهُمْ عَلَمُ الْهُدَى الْحَرَّانِي
وَلَهُ اطِّلَاعٌ لَمْ يكُنْ مِنْ قَبْلِهِ ... لِسِوَاهُ مِنْ مُتَكَلِّم بِلِسَانِ
هَذَا وَنَقْطَعُ نَحْنُ أَيضًا أَنَّهُ ... إِجْمَاعُهُمْ قَطْعًا عَلَى الْبُرْهَانِ

الشرح: هذا هو الوجه الخامس عشر: وهو إجماع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- والكتب المنزلة على أن اللَّه ﷻ فِي السماء، وأنه فوق خلقه، مستوٍ على عرشه، وقد حكى هذا الإجماع غير واحد من العلماء المعتبرين مثل: الشيخ عبد القادر الجيلاني، فِي كتابه المسمى بـ«الغنية»، وأبي الوليد بن رشد الأندلسي المالكي المسمى بابن رشد الحفيد فِي كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة».

يقول ابن رشد: «القول فِي الجهة: وأما هذه الصفة فما زال أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونَها للَّه سبحانه حَتَّى نفتها المعتزلة، ثُمَّ تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله، وظواهر الشرع كلها تقضي بإثبات الجهة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. ومثل قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]. ومثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]. إلى غير ذلك من الآيات الَّتِي إن سلط التأويل عليها؛ عاد الشرع كله مؤوَّلًا، وإن قيل: إنَّها من المتشابهات، عاد الشرع كله متشابهًا؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن اللَّه فِي السماء، وأن منه تنْزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنَّبِي ﷺ حَتَّى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء اتفقوا على أن اللَّه والملائكة فِي السماء، كما اتفقت جَميع الشرائع على ذلك».

ومِمَّن حكى هذا الإجماع كذلك شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن

تيمية الحراني الدمشقي، الذي لَم يأت الزمان له بنظير فِي سعة الاطلاع، والجمع بين المعقول والمنقول مع قدرة فائقة فِي الجدل، وبراعة فِي تصريف الحجج، وسبرٍ لأغوار المذاهب، ووقوف على دقائقها.

وقد قطع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بِهذا الإجماع الذي حكاه عن هؤلاء قطعًا مبنيًّا على البرهان.

* * *

وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ بَاتِ الصِّفَاتِ لِخَالِقِ الأَكْوَانِ
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بإِثْـ بَاتِ الْكَلَامِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بإِثْـ بَات الْمَعَادِ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بَتَوْ حِيدِ الإِلَهِ وَمَا لَهُ مِنْ ثَانِي
وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِإِثْـ بَاتِ الْقَضَاءِ وَمَا لَهُمْ قَوْلَانِ
فَالرُّسْلُ مُتَّفِقُونَ قَطْعًا فِي أُصُو لِ الدِّينِ دُوَن شَرَائِعِ الإِيمَانِ
كُلٌّ لَهُ شَرْعٌ وَمِنْهَاجٌ وَذَا فِي الأَمْرِ لَا التَّوْحِيدِ فَافْهَمْ ذَانِ
فَالدِّينُ فِي التَّوْحِيدِ دِينٌ وَاحِدٌ لَمْ يخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيهِ اثْنَانِ

الشرح: يعني: كما نقطع باتفاق الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وإجماعهم على إثبات صفة العلو للَّه -جل شأنه- كذلك نقطع بأنَّهم متفقون على إثبات الصفات كلها للَّه، فليس فيهم -حاشاهم- من يعطل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عن شيء من نعوت كماله وصفات جلاله كما تفعل الجهمية.

ومتفقون على إثبات صفة الكلام للَّه، فإن الشرائع الَّتِي نزلت عليهم ليست إلا كلام اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، قام جبريل الأمين بتبليغه إليهم.

ومتفقون على إثبات المعاد الجسماني خلافًا للنصارى والفلاسفة الذين أنكروه.

ومتفقون أيضًا على توحيد اللَّه -جل شأنه- وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

ومتفقون على إثبات القضاء والقدر الذي أنكرته القدرية والمعتزلة.

وبالجملة: فهم متفقون على كل ما هو من أصول الدين، مِمَّا يتعلق باللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وأحوال اليوم الآخر، فإن دينهم فيها واحد، لا اختلاف فيه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا

تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وإنَّما يختلف الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فِي الأحكام والشرائع العملية الفرعية الَّتِي تتعلق بِها الأوامر والنواهي، والتي تختلف باختلاف الزمان والمكان، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. أي: فِي الفروع لا فِي الأصول.

* * *

دِينُ الإِلَـهِ اخْـتَـارَهُ لِـعِـبَـادِهِ ... وَلِـنَـفْـسِـهِ هُـوَ قَـيِّـمُ الأَدْيَـانِ

فَمِنَ الْمُحَالِ بِأَنْ يَكُونَ لِرُسْلِهِ ... فِـي وَصْـفِـهِ خَـبَـرَانِ مُـخْـتَـلِـفَـانِ

وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِعَدْ ... لِ الـلَّـهِ بَـيْـنَ طَـوَائِـفِ الإِنْـسَـانِ

وَكَذَاكَ نَقْطَعُ أَنَّهُمْ أَيضًا دَعَوْا ... لَـلْـخَـمْـسِ وَهْـيَ قَـوَاعِـدُ الإِيـمَـانِ

إِيـمَـانُـنَـا بِـالـلَّـهِ ثُـمَّ بِـرُسْـلِـهِ ... وَبِـكُـتْـبِـهِ وَقِـيَـامَـةِ الأَبْـدَانِ

وَبِـجُـنْـدِهِ وَهُـمُ الْـمَـلَائِـكَـةُ الأُلَـى ... هُـمْ رُسْـلُـهُ لِـمَـصَـالِـحِ الأَكْـوَانِ

هَذِي أُصُولُ الدِّينِ حَقًّا لَا أُصُو ... لُ الْخَمْسِ لِلْقَاضِي هُوَ الْهَمَذَانِي

الشرح: يعني: أن الدين الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو دين اللَّه الذي اختاره لعباده، ورضيه لنفسه دينًا، وهو الدين القيم الذي لا عوج فيه، ولا انحراف، فيجب أن يكون واحدًا لا اختلاف فيه؛ لأنه يقوم على الأخبار المتعلقة بأسماء اللَّه ﷻ وصفاته وأفعاله، والإخبار عن اليوم الآخر وما فيه، ومن المحال أن يقع بين الرسل اختلاف فِي هذه الأخبار؛ لأن ذلك يستلزم أن يكون بعضها صادقًا، وهو ما طابق الواقع منها، وما عداه يكون كذبًا، وحاشى للرسل أن يكذبوا على اللَّه ﷻ، ويخبروا عنه بخلاف ما عليه الأمر، وأما الشرائع والأحكام الأمرية الطلبية؛ فهذه لا يضر الاختلاف فيها مع القطع بأن شرائعهم كلها عادلة ومستقيمة.

ونقطع كذلك أنَّهم دعوا أمَمهم إلى قواعد الإيمان الخمسة الَّتِي هي:

أولًا: الإيمان باللَّه على الوجه الصحيح، القائم على:

توحيده فِي إلهيته: فلا معبود غيره.

وفي ربوبيته: فلا خالق ولا مالك سواه.

وفي أسمائه وصفاته: فنثبت له كل ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسله، من غير تكييف

ولا تمثيل.

وفي أفعاله: فلا شريك له فيها، وليس لغيره فعل يشبه فعله، إلى غير ذلك من شئونه -جل شأنه-.

ثانيًا: الإيمان بالرسل الذين جعلهم اللَّه ﷻ وسطاء بينه وبين خلقه فِي تبليغ أمره ونَهيه فضلًا منه ورحمة، والإيمان بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- يتضمن الإيمان بعصمتهم فِي التبليغ، وعدم كتمانِهم لشيء مِمَّا أمروا بتبليغه، وصدقهم فِي كل ما أخبروا به عن اللَّه ﷻ . . . إلخ ما يتعلق بِهم.

وثالثًا: الإيمان بالكتب المنَزلة على هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- نورًا وهدى للناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]. ويجب الإيمان تفصيلًا بأربعة منها؛ لورودها فِي القرآن، وهي التوراة الَّتِي أنزلت على موسى الكليم، والزبور الذي أنزل على داود، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والقرآن الذي أنزل على مُحمَّد، وهو المهيمن عليها جميعًا.

ورابعًا: الإيمان باليوم الآخر على الوجه الصحيح الذي أخبرت عنه الرسل، من قيام الأجساد من قبورها، وحشرها إلى اللَّه ﷻ لفصل القضاء بينها، ثُمَّ مصيرها إلى الجنة أو النار، إلى آخر ما وردت به الأخبار من أحوال ذلك اليوم، كالصراط، والميزان، وإيتاء الصحف، والشفاعة الَّتِي لنبينا ﷺ فِي أهل الموقف، وغيرها.

وخامسًا: الإيمان بالملائكة الذين جعلهم اللَّه ﷻ رسلًا لتدبير مصالح خلقه.

فمنهم: الموكل بإنزال الوحي على الأنبياء، وهو جبريل عليه السلام.

ومنهم: الموكل بالأمطار والأرزاق وهو ميكال.

ومنهم: الموكل بقبض الأرواح، وهو عزرائيل.

ومنهم: الموكل بالنفخ فِي الصور، وهو إسرافيل.

ومنهم: الحفظة الكاتبون.

ومنهم: حملة العرش.. إلخ.

هذه الخمسة: هي أصول الدين الحقة الَّتِي جاءت بِها رسل اللَّه، ودَعَوا إليها، لا تلك الأصول الخمسة الَّتِي اتفقت عليها المعتزلة، وجعلوها شعارًا للاعتزال، وهي:

التوحيد: المتضمن لنفي صفات اللَّه ﷻ وكلامه.

والعدل: المتضمن للتكذيب بقضاء اللَّه وقدره وشمول إرادته ومشيئته.

والوعد والوعيد: المتضمن لوجوب تنفيذ وعيده سبحانه، وخلود أهل الكبائر فِي النار، ونفي الشفاعة، والمنْزلة بين المنْزلتين المتضمن لنفي اسم الإيمان عن عصاة المؤمنين، والقول بخلودهم مع الكفار فِي النار.

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: الذي استغله المعتزلة لفرض مذاهبهم على المسلمين بقوة السلطان.

تلك هي أصولهم الباطلة، المنافية لما جاءت به الرسل، ولِما يقضي به العقل السليم، فأين هي من تلك الأصول الكبار الَّتِي قام عليها دين اللَّه الواحد فِي كل زمان ومكان؟!.

* * *

تِلْكَ الأُصُولُ لِلاِعْتِزَالِ وَكَمْ لَهَا ... فَرْعٌ فَمِنْهُ الْخَلْقُ لِلْقُرْآنِ

وَجُحُودُ أَوْصَافِ الإِلَهِ وَنَفْيُهُمْ ... لِعُلُوِّهِ وَالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ نَفْيُهُمُ لِرُؤْيَتِنَا لَهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

وَنَفَوْا قَضَاءَ الرَّبِّ وَالْقَدَرَ الَّذِي ... سَبَقَ الْكِتَابُ بِهِ هُمَا حَتْمَانِ

مِنْ أَجْلِ هَاتِيكَ الأُصُولِ وَخَلَّدُوا ... أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي لَظَى النِّيرَانِ

وَلأَجْلِهَا نَفَوُا الشَّفَاعَةَ فِيهِمُ ... وَرَمَوْا رُوَاةَ حَدِيثِهَا بِطِعَانِ

وَلأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يقْدِر عَلَى إِصْلَاحِ ذِي الْعِصْيَانِ

وَلأَجْلِهَا قَالُوا بِأَنَّ اللهَ لَمْ ... يقْدِر عَلَى إِيمَانِ ذِي الْكُفْرَانِ

وَلأَجْلِهَا حَكَمُوا عَلَى الرَّحْمَنِ بِالشْ ... شَرْعِ الْمُحَالِ شَرِيعَةِ الْبُهْتَانِ

وَلأَجْلِهَا هُمْ يوجِبُونَ رِعَايَةً ... لَلأَصْلَحِ الْمَوْجُودِ ذِي الإِمْكَانِ

حَقًّا عَلَى رَبِّ الْوَرَى بِعُقُولِهِمْ ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذِي السُّبْحَانِ

الشرح: يعني: أن تلك الأصول الخمسة الَّتِي اتفق عليها أهل الاعتزال، والتي قررها أحد شيوخهم، وهو القاضي عبد الجبار الهمداني -قد تفرعت عنها فروع هي غاية فِي الفساد والشناعة.

فمما تفرع على توحيدهم الباطل الذي هو الأصل الأول عندهم: القول بخلق القرآن؛ لأنَّهم لا يثبتون للَّه صفة الكلام، ويقولون: إنه متكلم بِمعنى خالق للكلام.

والقول بإنكار الصفات زعمًا منهم أن إثباتَها ينافي التوحيد، والقول بنفي علوه تعالى على خلقه واستوائه على عرشه، والقول بنفي رؤية المؤمنين له فِي الجنة رؤية حقيقية بالأبصار.

ومِمَّا تفرع عن أصلهم الثاني -وهو العدل-: نفي القضاء والقدر، ونفي إرادة اللَّه تعالى لفعل العبد؛ لأن ذلك -فِي زعمهم- يبطل مسئولية العبد عن فعله، وينافي العدل الذي يوجب أن يكون العبد حرًّا فِي فعله، وقد غَلَوا فِي هذا الباب حَتَّى قالوا: إنه لا يقدر على أفعال العباد، فلا يقدر على خلق الإيمان فِي الكافر، ولا خلق الكفر فِي المؤمن، ولا يقدر أن يعين العبد على ما به يصير فاعلًا.

ومنها أيضًا: قولهم بوجوب الصلاح والأصلح على اللَّه ﷻ بالنسبة للعبد، على خلاف بينهم فِي معنَى الأصلح: هل هو الأنفع أو الأوفق فِي الحكمة؟ ويرد عليهم ذلك القول الفاسد: خلقه تعالى للكافر الفقير المعذب فِي الدنيا بالفقر، وفي الآخرة بالنار، فأي صلاح له فِي هذا؟!.

ومما تفرع على أصلهم الثالث: وهو الوعد والوعيد -يعني: وجوب إثابة المطيع، وعقاب العاصي-: القول بخلود مرتكب الكبيرة فِي النار إن مات ولَم يتب منها، والقول بنفي الشفاعة الثابتة لعصاة الموحدين، وإنكار الأحاديث الواردة فيها، والطعن فِي رواتِها.

وهذا قليل من كثير مِمَّا ترتب على أصولهم الجائرة، ومبادئهم الخاسرة، نسأل اللَّه العافية والعصمة من هذا الضلال، وأن يَهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه.

فصل

هَذَا وَسَادِسَ عَشْرَهَا إِجْمَاعُ أَهْـ ... لِ الْعِلْمِ أَعْنِي حُجَّةَ الأَزْمَانِ

مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ ... أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ

لَا عِبْرَةً بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ ... كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُعْرَانِ

أَنَّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ

هُوَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ
فَاسْمَعْ إذَنْ أَقْوَالَهُمْ وَاشْهَدْ عَلَيـ ـهِمْ بَعْدَهَا بِالْكُفْرِ وَالإيمَانِ
وَاقْرَأْ تَفَاسِيرَ الأَئِمَّةِ ذَاكِرِي الْـ إِسْنَادِ فَهْيَ هِدَايَةُ الْحَيْرَانِ
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِتَفْـ ـسِيرِ اسْتَوَى إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ
وَانْظُرْ إِلَى أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَمُجَاهِدٍ وَمُقَاتِلٍ حَبْرَانِ

الشرح: هذا هو الوجه السادس عشر: وهو إجماع من يعتد بإجماعهم من علماء السلف والخلف، الذين كانوا حجة الأعصار والأزمان، والمشهود لهم بالسبق والتحقيق من أهل الحديث والقرآن، ولا اعتبار لمن يخالفهم من أهل الابتداع والتعطيل، مهما كان عددهم، فإن الحق ليس مداره على القلة والكثرة، ولكن علامته: الوقوف عند حدود الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة، كما قال رسول اللّه ﷺ عندما سئل عن الفرقة الناجية: «**هي ما كانت على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**».

وقد أجمع هؤلاء الأئمة الأعلام على أن اللّه سبحانه مستوٍ على عرشه استواء حقيقيًّا، بمعنى علوه وارتفاعه على العرش بذاته مع المباينة والانفصال، ومن أراد الوقوف على أقوالهم؛ فعليه بكتب التفاسير الَّتي تعنى بذكر الأسانيد، وتعزو الأقوال إلى أصحابها، ولينظر في قول ابن عباس الذي هو ترجمان القرآن، وفي قول أصحابه من بعده كمجاهد، ومقاتل؛ حَتَّى يدرك أن هؤلاء -وهم أعلام التأويل- لَم يخرجوا عما قلناه من تأويل الاستواء بالعلو والارتفاع.

* * *

وَانْظُرْ إِلَى الْكَلْبِي أَيضًا وَالَّذِي قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيرِ مَا نُكْرَانِ
وَكَذَا رَفِيعُ التَّابِعِي أَجَلُّهُمْ ذَاكَ الرِّيَاحِي الْعَظِيمُ الشَّانِ
كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إِلَيهِ عِلْمَهُ فَلِذَاكَ مَا اخْتَلَفَتْ عَلَيهِ اثْنَانِ
فَلْيَهْنَ مَنْ قَدْ سَبَّهُ إِذْ لَمْ يوا فِقْ قَوْلَهُ تَحْرِيفُ ذِي الْبُهْتَانِ
فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَرْبَعٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهْيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ أَرْبَعٌ وَأَبُو عُبَيدَةَ صَاحِبُ الشَّيبَانِي

يـخْـتَـارُ هَـذَا الْـقَـوْلَ فِـي تَـفْـسِـيرِهِ أَدْرَى مِـنَ الْـجَـهْـمِـي بِـالْـقُـرْآنِ
وَالأَشْعَرِي يـقُـولُ تَـفْـسِـيرُ اسْـتَـوَى بِـحَـقِـيـقَـةِ اسْـتَـوْلَـى مِـنَ الْـبُـهْـتَـانِ
هُـوَ قَـوْلُ أَهْـلِ الإِعْـتِـزَالِ وَقَـوْلُ أَتْـ بَـاعٍ لِـجَـهْـمٍ وَهْـوَ ذُو بُـطْـلَانِ
فِـي كُـتْـبِـهِ قَـدْ قَـالَ ذَا مِـنْ مُـوجَـزٍ وَإِبَـانَـةٍ وَمَـقَـالَـةٍ بِـبَـيَـانِ
وَكَـذَلِـكَ الْـبَـغَـوِي أَيْـضًـا قَـدْ حَـكَـا هُ عَـنْـهُـمُ بِـمَـعَـالِـمِ الْـقُـرْآنِ

الشرح: كذلك يحكي المؤلف عن الكلبِي صاحب التفسير المشهور، وعن الحسن البصري سيد التابعين، الذي عاصر كثيرًا من الصحابة، وأخذ عنهم؛ ولهذا كان موضع ثقة جَميع الأئمة والمحدثين -أن عباراتِهم فِي تفسير الاستواء لَم تخرج عن هذه الألفاظ الأربعة وهي: استقر، وعلا، وارتفع، وصعد، وقد اختار أبو عبيدة صاحب الإمام أحمد ابن حنبل فِي تفسير الاستواء هنا بالمعنى الرابع: وهو صعد، ولا شك أنه أهدى وأعلم من هؤلاء الجهمية بمعاني القرآن.

وهذا الأشعري الذي ينسب إليه أتباع مذهبه أنه من نفاة الاستواء يقول فِي جَميع كتبه المعتبرة مثل: «الموجز»، و«الإبانة» و«مقالات الإسلاميين»: «إن تفسير الاستواء بالاستيلاء كذب وافتراء». ويعزوه إلى المعتزلة والجهمية، ويصرح ببطلانه.

وكذلك الإمام البغوي فِي تفسيره المسمى بـ«معالم القرآن» قد حكى ذلك التأويل الفاسد عن الجهمية والمعتزلة.

* * *

وَانْـظُـرْ كَـلَامَ إِمَـامِـنَـا هُـوَ مَـالِـكٌ قَـدْ صَـحَّ عَـنْ قَـوْلٍ لِـذِي إِتْـقَـانِ
فِـي الاِسْـتِـوَاءِ بِـأَنَّـهُ الْـمَـعْـلُـومُ لَـ كِـنْ كَـيْـفُـهُ خَـافٍ عَـلَـى الأَذْهَـانِ
وَرَوَى ابْـنُ نَـافِـعٍ الـصَّـدُوقُ سَـمَـاعَـهُ مِـنْـه عَـلَـى الـتَّـحْـقِـيـقِ وَالإِتْـقَـانِ
الـلـهُ حَـقًّـا فِـي الـسَّـمَـاءِ وَعِـلْـمُـهُ سُـبْـحَـانَـهُ حَـقًّـا بِـكُـلِّ مَـكَـانِ
فَـانْـظُـرْ إِلَـى الـتَّـفْـرِيـقِ بَـيْـنَ الـذَّاتِ وَالْـ مَـعْـلُـوم مِـنْ ذَا الْـعَـالِـمِ الـرَّبَّـانِـي
فَـالـذَّاتُ خُـصَّـتْ بِـالـسَّـمَـاءِ وَإِنَّـمَـا الْـ مَـعْـلُـومُ عَـمَّ جَـمِـيـعَ ذِي الأَكْـوَانِ
ذَا ثَـابِـتٌ عَـنْ مَـالِـكٍ مَـنْ رَدَّهُ فَـلَـسَـوْفَ يَـلْـقَـى مَـالِـكًـا بِـهَـوَانِ
وَكَـذَاكَ قَـالَ الـتِّـرْمِـذِي بِـجَـامِـعٍ عَـنْ بَـعْـضِ أَهْـلِ الْـعِـلْـمِ وَالإِيـمَـانِ

اللـهُ فَـوْقَ الْـعَـرْشِ لَـكِـنْ عِـلْـمُـهُ   مَـعَ خَـلْـقِـهِ تَـفْـسِـيـرُ ذِي الإِيـمَـانِ

الشرح: وأما الإمام مالك؛ فإنه قد أتى فِي هذه المسألة بفصل الخطاب، ولا تزال كلمته المأثورة الَّتِي أجاب بِها من سأله عن كيفية استوائه تعالى على العرش نورًا وهدى لأولي الألباب، فقد قال -ويا نِعْمَ ما قال-: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». فأصبحت تلك الكلمة دستورًا يجب تطبيقه فِي كل ما وصف اللَّه به نفسه، أو وصفه به رسوله، أن نقول: إن ثبوتَها للَّه ﷻ معلوم لا مرية فيه، وأما كيفها؛ فمما اختص اللَّه ﷻ بعلمه.

ومن العجيب: أن بعض المارقين من أهل الجحد والتعطيل يحرف كلمة مالك حَتَّى توافق مذهبه الباطل فِي النفي، فيضع كلمة «مذكور» بدل «معلوم» وهذا ليس بنافعه، فإن لفظ الاستواء، إذا كان مذكورًا؛ فلابد أن يراد منه معناه، إذ لا يعقل أن يكون فِي القرآن لفظ لا معنى له.

وقد روى ابن نافع الذي كان من أعلم الناس بآراء مالك كلها، عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إن اللَّه ﷻ فِي السماء بذاته، ولكنه مع جَميع خلقه بعلمه». ففرق رَحِمَهُ اللَّهُ بين الذات والمعلوم، فخص الذات بالكون فِي السماء، وأما العلم؛ فجعله محيطًا شاملًا لجميع الأكوان.

وهذا القول الذي رواه ابن نافع عن مالك ثابت عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمن رده وأنكره فسوف يلقى مالكًا يوم القيامة وهو مهين ذليل.

وينبغي هنا التنبيه على أن ابن نافع لَم يلق مالكًا، ولَم يسمع منه، فإنه رحل إلى المدينة فوجد مالكًا قد مات، فأخذ عن تلامذته ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، فقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصدوق سماعه منه» ليس صحيحًا، ويجوز أن تكون الرواية عنه لا منه، ويكون الخطأ فِي الطبع، ويكون الجار والمجرور متعلق بـ«روى»، وفصل بينهما بقوله: «الصدوق سماعه».

وكذلك روى الإمام الترمذي فِي جامعه عن بعض أهل العلم والإيمان مثل الذي رواه ابن نافع عن مالك: وهو أن اللَّه فوق العرش بذاته، وأنه مع خلقه بعلمه فِي كل مكان.

❊ ❊ ❊

وَكَـذَاكَ أَوْزَاعِـيـهُـمْ أَيـضًـا حَـكَـى عَـنْ سَـائِـرِ الْـعُـلَـمَـاءِ فِـي الْـبُـلْـدَانِ
مِنْ قَـرْنِـهِ وَالـتَّـابِعِـينَ جَـمِـيـعِـهِـمْ مُـتَـوَافِـرِيـنَ وَهُـمْ أُولُـو الْـعِـرْفَـانِ
إِيـمَـانُـهُـمْ بِـعُـلُـوِّهِ سُـبْـحَـانَـهُ فَـوْقَ الْـعِـبَـادِ وَفَـوْقَ ذِي الأَكْـوَانِ
وَكَـذَاكَ قَـالَ الشَّـافِـعِـي حَـكَـاهُ عَـنْـ ـهُ الْـبَـيْـهَـقِـي وَشَـيـخُـهُ الـرَّبَّـانِـي
حَـقًّـا قَـضَـى الـلـهُ الْـخِـلَافَـةَ رَبُّـنَـا فَـوْقَ الـسَّـمَـاءِ لأَصْـدَقِ الْـعُـبْـدَانِ
حِـبُّ الـرَّسُـولِ وَقَـائِـمٌ مِـنْ بَـعْـدِهِ بِـالْـحَـقِّ لَا فَـشَـلٌ وَلَا مُـتَـوَانِ
فَانْظُرْ إِلَى الْمَقْضِي فِي ذِي الأَرْضِ لَـ كِنْ فِي السَّمَاءِ قَضَاءُ ذِي السُّلْطَانِ
وَقَـضَـاؤُهُ وَصْـفٌ لَـهُ لَـمْ يَـنْـفَـصِـلْ عَـنْـهُ وَهَـذَا وَاضِـحُ الْـبُـرْهَـانِ

الشرح: وكذلك الأوزاعي، إمام أهل الشام غير منازع، يحكي عن جَميع علماء عصره فِي سائر البلدان، والتابعون يومئذ متوافرون جميعًا، يؤمنون بأنه تعالى فوق عرشه، وفوق العوالم جميعًا، وروى الحافظ البيهقي صاحب التصانيف المشهورة الَّتِي منها كتاب «الأسماء والصفات» و«دلائل النبوة والسنن».

وكذلك روى شيخه فِي الحديث: الحاكم أبو عبد اللَّه بن البيع، عن الإمام الشافعي أنه قال: «إن خلافة أبي بكر قد قضاها اللَّه فِي السماء، فهو حب الرسول كما جاء فِي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ سئل: «من أحب الناس إليك؟ فقال: أبو بكر». وهو القائم بعده بالحق ونصرة دين اللَّه بكل ما أمكنه، غير خوار، ولا مقصر، فحارب المرتدين ومانعي الزكاة.

والشاهد هنا فِي قول الشافعي: «إن الخلافة قضاها اللَّه فِي السماء». فهو دليل على أن اللَّه فِي السماء، لأن قضاءه وصف له، لا ينفصل عنه، بخلاف المقضي به فإنه فِي الأرض.

* * *

وَكَـذَلِـكَ الـنُّـعْـمَـانُ قَـالَ وَبَـعْـدَهُ يَـعْـقُـوبُ وَالأَلْـفَـاظُ لِـلـنُّـعْـمَـانِ
مَـنْ لَـمْ يُـقِـرَّ بِـعَـرْشِـهِ سُـبْـحَـانَـهُ فَـوْقَ الـسَّـمَـاءِ وَفَـوْقَ كُـلِّ مَـكَـانِ
وَيُـقِـرَّ أَنَّ الـلـهَ فَـوْقَ الْـعَـرْشِ لَا يَـخْـفَـى عَـلَـيـهِ هَـوَاجِـسُ الأَذْهَـانِ
فَـهْـوَ الَّـذِي لَا شَـكَّ فِـي تَـكْـفِـيـرِهِ لِـلَّـهِ دَرُّكَ مِـنْ إِمَـامِ زَمَـانِ

هَذَا الَّذِي فِي الْفِقْهِ الاَكْبَرِ عِنْدَهُمْ وَلَـهُ شُـرُوحٌ عِـدَّةٌ لِـلْـبَـيَـانِ
وَانْظُرْ مَقَالَةَ أَحْمَدٍ وَنُصُوصَهُ فِـي ذَاكَ تَـلْـقَـاهَـا بِـلَا حُـسْـبَـانِ
فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِعُلُوِّهِ وَبِـالاِسْـتِـوَا وَالْـفَـوْقِ لِـلـرَّحْـمَـنِ
وَلَـهُ نُـصُـوصٌ وَارِدَاتٌ لَـمْ تَـقَـعْ لِـسِـوَاهُ مِـنْ فُـرْسَـانِ هَـذَا الشَّـانِ
إِذْ كَانَ مُمْتَحَنًا بِأَعْدَاءِ الْحَدِيـ ـثِ وَشِيعَةِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ
وَإِذَا أَرَدْتَ نُصُوصَهُ فَانْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَى الْخَلَّالُ ذُو الإِتْقَانِ

الشرح: وكذلك قال الإمام أبو حنيفة النعمان فِي كتابه المشهور المسمى بـ«الفقه الأكبر»، وقال صاحبه أبو يوسف القاضي صاحب كتاب «الخراج»: «إن من لَم يقر بأن اللَّه ﷻ فوق عرشه، وأنه مع ذلك لا يخفى عليه شيء من خلقه حَتَّى ما تَهجس به ضمائرهم؛ فهو كافر، لا شك فِي كفره».

وأما الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فإن نصوصه فِي ذلك لا حصر لَها، وكلها تصرح بعلوه تعالى واستوائه وفوقيته على خلقه، وقد جاء فِي ذلك بِما لَم يسبق إليه؛ نظرًا لاشتغاله بالرد على أئمة التعطيل والكفر من الجهمية والمعتزلة، ومن أراد الاطلاع على تلك النصوص؛ فعليه بكتاب «السنة» للخلال وكتاب أحمد فِي «الرد على الزنادقة والجهمية».

* * *

وَكَذَاكَ إِسْحَاقُ الإِمَامُ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ مَا فِيهِ هُدَى الْحَيْرَانِ
وَابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ قَوْلًا شَافِيًا إِنْكَارُهُ عَلَمٌ عَلَى الْبُهْتَانِ
قَالُوا لَهُ مَا ذَاكَ نَعْرِفُ رَبَّنَا حَقًّا بِهِ لِنَكُونَ ذَا إِيمَانِ
فَأَجَابَ نَعْرِفُهُ بِوَصْفِ عُلُوِّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ
وَبِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَقًّا عَلَى الْـ ـعَرْشِ الرَّفِيعِ فَجَلَّ ذُو السُّلْطَانِ
وَهْوَ الَّذِي قَدْ شَجَّعَ ابْنَ خُزَيْمَةٍ إِذْ سَلَّ سَيفَ الْحَقِّ وَالْعِرْفَانِ
وَقَضَى بِقَتْلِ الْمُنْكِرِينَ عُلُوَّهُ بَعْدَ اسْتِتَابَتِهِمْ مِنَ الْكُفْرَانِ
وَبِأَنَّهُمْ يُلْقَوْنَ بَعْدَ الْقَتْلِ فَوْ قَ مَزَابِلِ الْمَيْتَاتِ وَالأَنْتَانِ
فَشَفَى الإِمَامُ الْعَالِمُ الْحَبْرُ الَّذِي يُدْعَى إِمَامَ أَئِمَّةِ الأَزْمَانِ
وَلَقَدْ حَكَاهُ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ الرِّضَا فِي كُتْبِهِ عَنْهُ بِلَا نُكْرَانِ

الشرح: وكذلك قال الإمام إسحاق بن راهويه، الذي يقول فيه الإمام أحمد ابن حنبل: «لَم يعبر الجسر إلى خراسان مثله» قال فِي هذا الشأن ما فيه هدى لكل حائر ضال.

وأما عبد اللَّه بن المبارك، المحدث الفقيه الزاهد، فقد قال لمن سأله: بم نعرف ربنا؟: نعرفه بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه.

فقيل له: بحد أو بغير حد؟

فقال: إي واللَّه بحد.

وهذا الذي أجاب به ذلك الإمام الجليل هو الذي شجع إمام الأئمة ابن خزيمة على أن يسل سيف الحق على المعطلة المارقين، فأفتى بأن من أنكر أن اللَّه فوق عرشه يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتدًّا، وقد شفى هذا الإمام الحبر بفتواه صدور قوم مؤمنين، وأرسلها سيفًا مصلتًا على رقاب الزنادقة المنحلين، وقد حكى ذلك عنه فِي كتبه الحاكم مُحمَّد بن عبد اللَّه النيسابوري صاحب المستدرك بِما لا يدع مجالًا لشك ولا إنكار.

* * *

وَحَكَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي تَمْهِيدِهِ ... وَكِتَابِ الِاسْتِذْكَارِ غَيرَ جَبَانِ

إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللهَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ لَمْ يُنْكِرْهُ ذُو إِيمَانِ

وَأَتَى هُنَاكَ بِمَا شَفَى أَهْلَ الْهُدَى ... لَكِنَّهُ مَرَضٌ عَلَى الْعُمْيَانِ

وَكَذَا عَلِي الْأَشْعَرِي فَإِنَّهُ ... فِي كُتْبِهِ قَدْ جَاءَ بِالتِّبْيَانِ

مِنْ مُوجَزٍ وَإِبَانَةٍ وَمَقَالَةٍ ... وَرَسَائِلٍ لِلثَّغْرِ ذَاتِ بَيَانِ

وَأَتَى بِتَقْرِيرِ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ بِالإِيضَاحِ وَالْبُرْهَانِ

وَأَتَى بِتقْرِيرِ الْعُلُوِّ بِأَحْسَنِ التـْ ... ـتَقْرِيرِ فَانْظُرْ كُتْبَهُ بِعِيَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ الْمُجَسِّمُ مِثْلَ مَا ... قَدْ قَالَهُ ذَا الْعَالِمُ الرَّبَّانِي

فَارْمُوهُ وَيحَكُمُ بِمَا تَرْمُوا بِهِ ... هَذَا الْمُجَسِّمَ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ

أَوْ لَا فَقُولُوا إِنَّ ثَمَّ حَزَازَةً ... وَتَنَفُّسَ الصُّعَدَاءِ مِنْ حَرَّانِ

فَسَلُوا الإِلَهَ شِفَاءَ ذَا الدَّاءِ الْعُضَا ... لِ مُجَانِبِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

الشرح: وكذلك قد حكى ابن عبد البر فِي أهم كتبه، وهما كتاب «التمهيد» و«الاستيعاب» وكتاب «الاستذكار» إجماع أهل العلم الذين يعتد بإجماعهم على أن اللَّه

فوق عرشه بذاته، موضحًا ذلك بالبراهين القاطعة الَّتِي فيها شفاء لأهل الهدى، ولكنها مرض لأهل الجهل والعمى.

وكذلك أبو الحسن الأشعري فِي كتبه المعتبرة، مثل: «الموجز» و«الإبانة» و«المقالات»، وكذلك فِي رسائله لأهل الثغر قد قرر ذلك أحسن تقرير وأهداه، وأثبت علوه سبحانه بالأدلة الواضحة، وقال فِي هذا الباب أكثر مِمَّا قال شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يرميه هؤلاء المتأخرون من الأشاعرة بالتجسيم، فليرموا إذن شيخهم الأشعري بذلك الذي رموا به شيخ الإسلام من التجسيم، بل هو أحق، وإلا فليصرحوا بِما انطوت عليه نفوسهم من حقد وحزازات على شيخ حران وحجة الزمان، ويسألوا اللَّه شفاء هذا الداء العياء الذي لا يليق بأهل الإسلام والإيمان.

* * *

وَانْظُرْ إِلَى حَرْبٍ وَإِجْمَاعٍ حَكَى ... لِلَّـهِ دَرُّكَ مِـنْ فَـتًـى كَـرْمَـانِـي

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أَوْحَدِ الْـ ... عُلَمَاءِ مِثْلَ الشَّمْسِ فِي الْمِيزَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَ عَبْدُ اللهِ فِي ... تِلْكَ الرِّسَالَةِ مُفْصِحًا بِبَيَانِ

مِـنْ أَنَّـهُ سُـبْـحَـانَـهُ وَبِـحَـمْـدِهِ ... بِـالـذَّاتِ فَـوْقَ الْـعَـرْشِ وَالأَكْـوَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْكَرْخِي فِي ... شَرْحٍ لِـتَـصْـنِـيـفِ امْـرِئٍ رَبَّـانِـي

وَانْظُرْ إِلَى الأَصْلِ الَّذِي هُوَ شَرْحُهُ ... فَـهُـمَـا الْـهُـدَى لِـمُـلَـدَّدٍ حَـيْـرَانِ

وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ عَبْدٍ مَا الَّذِي ... فِـيـهِ مِـنَ الآثَـارِ فِـي ذَا الـشَّـانِ

وَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ ذَاكَ الْفَاضِلِ الثْـ ... ـثَبْتِ الرِّضَا الْمُتَضَلِّعِ الرَّبَّانِي

ذَاكَ الإِمَـامُ ابْـنُ الإِمَـامِ وَشَـيْـخُـهُ ... وَأَبُـوهُ سُـفْـيَـانٌ فَـرَازِيَـانِ

وَانْظُرْ إِلَى النَّسَائِي فِي تَفْسِيرِهِ ... هُوَ عِنْدَنَا سِفْرٌ جَلِيلُ مَعَانِي

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَرْشِ لِلْعَبْسِي وَهْـ ... ـوَ مُحَمَّدُ الْمَوْلُودُ مِنْ عُثْمَانِ

وَاقْـرَأْ لِـمُـسْـنَـدِ عَـمِّـهِ وَمُـصَـنَّـفٍ ... أَتَـرَاهُـمَـا نَـجْـمَـيْـنِ بَـلْ شَـمْـسَـانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ الإِسْتِقَامَةِ لِلرِّضَا ... ذَاكَ ابْـنُ أَصْـرَمَ حَـافِـظٌ رَبَّـانِـي

الشرح: للَّه در المؤلف، فقد ذكر لنا آنفًا وفيما يأتي سجلًا حافلًا بأسماء بعض أئمة الهدى وأعلام السنة، وذكر ما لهم من كتب ورسائل وأقوال فِي إثبات العلو للَّه تعالى، مِمَّا

لا يدع مجالًا للشك فِي أن ذلك هو الحق المبين، ومن أجمع الكتب لهذه الأقوال كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» للمؤلف، وقد بدأ المؤلف هنا بذكر الإمام حرب، وهو من أبرز تلاميذ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وابن وهب: مشهور، وعبد اللَّه: المراد به ابن المبارك، والبقية كلهم من المشهود لهم بسعة العلم، وسلامة العقيدة، وصحة الإيمان.

* * *

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْحَافِظِ الثِّقَةِ الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الْعُلْيَا فَتَى الشَّيْبَانِي

ذَاكَ ابْنُ أَحْمَدَ أَوْحَدُ الْحُفَّاظِ قَدْ ... شَهِدَتْ لَهُ الْحُفَّاظُ بِالإِتْقَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ الأَثْرَمِ الْعَدْلِ الرِّضَا ... فِي السُّنَّةِ الأُولَى إِمَامَ زَمَانِ

وَكَذَا الإِمَامُ ابْنُ الإِمَامِ الْمُرْتَضَى ... حَقًّا أَبِي دَاوُدَ ذِي الْعِرْفَانِ

تَصْنِيفُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا وَاضِحٌ ... فِي السُّنَّةِ الْمُثْلَى هُمَا نَجْمَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ السُّنَّةِ الأُولَى الَّتِي ... أَبْدَاهُ مُضْطَلِعٌ مِنَ الإِيمَانِ

ذَاكَ النَّبِيلُ ابْنُ النَّبِيلِ كِتَابُهُ ... أَيْضًا نَبِيلٌ وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ أَسْبَاطِ الرِّضَا ... وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرِّضَا سُفْيَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ ابْنِ زَيدٍ ذَاكَ حَمْـ ... ـمَادٌ وَحَمَّادُ الإِمَامُ الثَّانِي

الشرح: بدأ المؤلف هنا بذكر عبد اللَّه ابن الإمام أحمد بن حنبل، وله كتاب «السنة» وهو كتاب حافل بحجج أهل السنة على النفاة، ثُمَّ ذكر جملة من أئمة السنة إلى حماد بن زيد، وهو مشهور.

* * *

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى ... عُثْمَانُ ذَاكَ الدَّارِمِي الرَّبَّانِي

فِي نَقْضِهِ وَالرَّدِّ يَا لَهُمَا كِتَا ... بَا سُنَّةٍ وَهُمَا لَنَا عَلَمَانِ

هُدِمَتْ قَوَاعِدُ فِرْقَةٍ جَهْمِيَةٍ ... خَرَّتْ سُقُوفُهُمُ عَلَى الْحِيطَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ الْبُخَارِي الْعَظِيمُ الشَّانِ

مِنْ رَدِّهِ مَا قَالَهُ الْجَهْمِي بِالنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

وَانْظُرْ إِلَى تِلْكَ التَّرَاجِمِ مَا الَّذِي ... فِي ضِمْنِهَا إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِي فِي الشْـ ... شَـرْحِ الَّـذِي هُـوَ عِـنْـدَكُـمْ سِـفْـرَانِ
أَعْنِي الْفَقِيهَ الشَّافِعِي اللَّالَكَا ... ئِـي الْـمُـسَـدَّدَ نَـاصِـرَ الإِيـمَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى التْـ ... تَـيْـمِـيُّ فِـي إِيـضَـاحِـهِ وَبَـيَـانِ
ذَاكَ الَّذِي هُوَ صَاحِبُ التَّرْغِيبِ وَالتْـ ... تَـرْهِـيـبِ مَـمْـدُوحٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ فِي السُّنَّةِ الْـ ... كُـبْـرَى سُـلَـيْـمَـانٌ هُـوَ الـطَّـبَـرَانِـي
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ شَيخُ الْهُدَى ... يُـدْعَـى بِـطَـلْـمَـنْـكِـيـهِـمْ ذُو شَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الطَّحَاوِيِّ الرِّضَا ... وَأَجِـرْهُ مِـنْ تَـحْـرِيـفِ ذِي بُـهْـتَـانِ
وَكَذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ هُوَ ابْـ ... نُ الْـبَـاقِـلانِـي قَـائِـدُ الْـفُـرْسَـانِ
قَـدْ قَـالَ فِـي تَـمْـهِـيـدِهِ وَرَسَـائِـلٍ ... وَالـشَّـرْحِ مَـا فِـيـهِ جَـلِـيُّ بَـيَـانِ
فِي بَعْضِهَا حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَـكِـنَّـهُ اسْـتَـوْلَـى عَـلَـى الأَكْـوَانِ
وَأَتَى بِتَقْرِيرِ الْعُلُوِّ وَأَبْطَلَ الْـ ... لامَ الَّـتِـي زِيـدَتْ عَـلَـى الْـقُـرْآنِ
مِـنْ أَوْجُـهٍ شَـتَّـى وَذَا فِـي كُـتْـبِـهِ ... بَـادٍ لِـمَـنْ كَـانَـتْ لَـهُ عَـيْـنَـانِ

الشرح: أول من ذكر هنا: هو عثمان بن سعيد الدارمي، وكتبه كان لَها أثر فعال فِي زلزلة بناء النفاة عند ظهورها فِي عالم المطبوعات، والبخاري: صاحب الصحيح، وكم فِي تراجم أبوابه من غصة للنفاة، واللالكائي: هو الإمام أبو القاسم الطبري، أحد أئمة أصحاب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وله كتاب فِي السنة، وهو من أجل الكتب، والتيمي: هو الإمام إسماعيل بن مُحمَّد بن الفضل، كان إمامًا للشافعية، والطلمنكي: هو أبو عمر، وله كتاب فِي الأصول، والطحاوي: هو أبو جعفر، إمام الحنفية فِي وقته فِي الحديث والفقه ومعرفة أقوال السلف، وله كتاب نفيس «العقيدة الطحاوية» ولَها شروح عدة، والباقلاني: هو القاضي أبو بكر الأشعري، له كتاب «التمهيد».

* * *

وَانْـظُـرْ إِلَى قَـوْلِ ابْـنِ كُـلَّابٍ وَمَا ... يَـقْـضِـي بِـهِ لِـمُـعَـطِّـلِ الـرَّحْـمَـنِ
أَخْرِجْ مِنَ النَّقْلِ الصَّحِيحِ وَعَقْلِهِ ... مَـنْ قَـالَ قَـوْلَ الـزُّورِ وَالْـبُـهْـتَـانِ
لَـيسَ الإِلَـهُ بِـدَاخِـلٍ فِـي خَـلْـقِـهِ ... أَوْ خَـارِجٍ عَـنْ جُـمْـلَـةِ الأَكْـوَانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الطَّبَرِي فِي التْـ ... تَـفْـسِـيـرِ وَالـتَّـهْـذِيـبِ قَـوْلَ مَـعَـانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ فِي سُورَةِ الْـ أَعْـرَافِ مَـعْ طَـهَ وَمَـعْ سُـبْـحَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْبَغَوِي فِي تَـفْـسِـيـرِهِ وَالـشَّـرْحِ بِـالإِحْـسَـانِ
فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ عِنْدَ الإِسْتِوَا فِـيـهَـا وَفِـي الأُولَـى مِـنَ الْـقُـرْآنِ
وَانْـظُـرْ إِلَـى مَـا قَـالَـهُ ذُو سُنَّـةٍ وَقِـــرَاءَةٍ ذَاكَ الإِمَـــامُ الـــدَّانِـــي
وَكَذَاكَ سُنَّةُ الاَصْبَهَانِي أَبِي الشْـ شَـيْـخِ الـرِّضَـا الْـمُـسْـتَـلِّ مِـنْ حَـيَّـانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ ابْنُ سُرَيجِ الْـ بَـحْـرُ الْـخِـضَـمُّ الـشَّـافِـعِـيُّ الـثَّـانِـي
وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى أَعْـنِـي أَبَـا الْـخَـيْـرِ الـرِّضَـا الـنُّـعْـمَـانِ

الشرح: أول من ذكر هنا: ابن كلاب، وهو من أئمة المتكلمين، وإمام الطائفة الكلابية، والطبري: هو الإمام مُحمَّد بن جرير، إمام أهل التفسير، والبغوي: هو الحسين ابن مسعود، محيي السنة، وقد اجتمعت الأمة على تلقي تفسيره بالقبول.

وختم المؤلف هذا السجل الحافل بابن سريج: وهو أبو العباس، إمام الشافعية في وقته، ونحن نحيل القارئ إلى الكتب الَّتِي سردها المؤلف إذا أراد الاطلاع على ما فيها؛ ليرى بنفسه إجماع سلف الأمة وأئمتها على هذه المقالة دون نكير، حَتَّى لا يغتر بتلبيسات أهل التعطيل وشبههم الفاسدة وتأويلاتِهم الباردة، فليسع كل مؤمن ناصح لنفسه ما وسع هؤلاء الأئمة الأعلام الذين هم أكمل هذه الأمة علمًا ناصح لنفسه ما وسع هؤلاء الأئمة الأعلام الذين هم أكمل هذه الأمة علمًا وعملًا، وأرضاها دينًا، نسأل اللَّه أن يوفقنا لاتباع سبيلهم بمنه وكرمه.

* * *

وَكِتَابُهُ فِي الْفِقْهِ وَهْوَ بَيَانُهُ يُـبْـدِي مَـكَـانَـتَـهُ مِـنَ الإِيـمَـانِ
وَانْظُرْ إِلَى السُّنَنِ الَّتِي قَدْ صَنَّفَ الْـ عُـلَـمَـاءُ بِـالآثَـارِ وَالْـقُـرْآنِ
زَادَتْ عَلَى الْمِائَتَينِ مِنْهَا مُفْرَدٌ أَوْفَى مِنَ الْخَمْسِينَ فِي الْحُسْبَانِ
مِـنْـهَـا لأَحْـمَـدَ عِـدَّةٌ مَـوْجُـودَةٌ فِـيـنَـا رَسَـائِـلُـهُ إِلَـى الإِخْـوَانِ
وَاللَّاءِ فِي ضِمْنِ التَّصَانِيفِ الَّتِي شُـهِـرَتْ وَلَـمْ تَـحْـتَـجْ إِلَـى حُـسْـبَـانِ
فَـكَـثِـيـرَةٌ جِـدًّا فَـمَـنْ يـكُ رَاغِـبًـا فِـيـهَـا يـجِـدْ فِـيـهَـا هُـدَى الْـحَـيْـرَانِ
أَصْحَابُهَا هُمْ حَافِظُو الإِسْلَامِ لَا أَصْـحَـابُ جَـهْـمٍ حَـافِـظُـو الْـكُـفْـرَانِ

وَهُمُ النُّجُومُ لِكُلِّ عَبْدٍ سَائِرٍ يَبْغِي الإِلَهَ وَجَنَّةَ الْحَيَوَانِ
وَسِوَاهُمُ وَاللهِ قُطَّاعُ الطَّرِيـ قِ أَئِمَّةٌ تَدْعُو إِلَى النِّيرَانِ
مَا فِي الَّذِينَ حَكَيتُ عَنْهُمْ آنِفًا مِنْ حَنْبَلِيٍّ وَاحِدٍ بِضَمَانِ
بَلْ كُلُّهُمْ وَاللهِ شِيعَةُ أَحْمَدٍ فَأُصُولُهُ وَأُصُولُهُمْ سِيَّانِ
وبِذَاكَ فِي كُتْبٍ لَهُمْ قَدْ صَرَّحُوا وأَخُو الْعَمَايَةِ مَا لَهُ عَينَانِ
أَتَظُنُّهُمْ لَفظِيَّةً جَهْلِيَّةً مِثْلَ الْحَمِيرِ تُقَادُ بِالأَرْسَانِ
حَاشَاهُمُ مِنْ ذَاكَ بَلْ وَاللهِ هُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الأَذْهَانِ

الشرح: بعد أن سرد المؤلف هذه المصنفات الكثيرة فِي السنن، والآثار، وتفسير القرآن، وبين تضافرها على إثبات صفة العلو له سبحانه على ما تقتضيه النصوص الصريحة القطعية من الكتاب والسنة، قال: إن أصحاب هذه المصنفات هم بحق حملة الإسلام، الحافظون له، الذين ورد فيهم الأثر القائل: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**». وهم -رضي اللَّه عنهم- نجوم الهدى، يَهتدي بِهم كل سائر إلى اللَّه، يبغي رضوانه وجنته، وأما سواهم من أتباع جهم وشيعته من أهل التعطيل؛ فهم قطاع طريق، يصدون عن سبيل اللَّه الحقة، ويبغونَها عوجًا، وهم أئمة تدعو إلى النيران، يعني: إلى الأسباب الموجبة لَها من المروق والتعطيل والإلحاد.

ويقول المؤلف ردًّا على خصوم الحنابلة الذين يتهمونَهم بالحشو والتجسيم: إنه ليس فِي الذين حكى أقوالهم، وسرد مصنفاتِهم آنفًا حنبلي واحد، ولكنهم مع ذلك هم شيعة أحمد، المتفقون معه فِي الأصول، فإن الأصول لا يسع أحدًا الخلافُ فيها، وكلمة أهل الحق فيها متفقة كما صرحوا جميعًا بذلك فِي كتبهم.

وينكر المؤلف على هؤلاء الجهمية رميهم هؤلاء الأئمة الكبار بالألقاب الشنيعة مثل قولهم: إنَّهم لفظية، يعنون بذلك: أنَّهم يقفون عند ظواهر الألفاظ، ولا يتعمقون فِي فهم ما تحتمله من تأويلات، وقولهم: إنَّهم جهلية. نسبة إلى الجهل، وحشوية، يعنون: أنَّهم من طغام الناس، وحاشاهم -رضي اللَّه عنهم- من مقالة السفهاء، ولمز الأغبياء، بل هم أهل العقول الراجحة، والأذهان الصحيحة، والفطرة السليمة المستقيمة.

* * *

فَـانْـظُـرْ إِلَـى تَـقْـرِيـرِهِـمْ لِـعُـلُـوِّهِ بِـالـنَّـقْـلِ وَالْـمَـعْـقُـولِ وَالْـبُـرْهَـانِ
عَـقْـلَانِ عَـقْـلٌ بِـالـنُّـصُـوصِ مُـؤَيـدٌ وَمُـؤَيَّـدٌ بِـالْـمَـنْـطِـقِ الْـيـونَـانِـي
وَاللـهِ مَـا اسْـتَـوَيَـا وَلَـنْ يـتَـلَاقَـيَـا حَـتَّـى تَـشِـيـبَ مَـفَـارِقُ الْـغِـرْبَـانِ
أَفَـتَـقْـذِفُـونَ أُولَاءِ بَـلْ أَضْـعَـافَـهُـمْ مِـنْ سَـادَةِ الْـعُـلَـمَـاءِ كُـلَّ زَمَـانِ
بِالْجَهْلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالتْـ تَـبْـدِيـعِ وَالـتَّـضْـلِـيـلِ وَالْـبُـهْـتَـانِ
يَـا قَـوْمَـنَـا أَلـلـهَ فِـي إِسْلَامِـكُـمْ لَا تُـفْـسِـدُوه لِـنَـخْـوَةِ الـشَّـيْـطَـانِ
يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِمَصْرَعِ مَنْ خَلَا مِـنْ قَـبْـلِـكُـمْ فِـي هَـذِهِ الأَزْمَـانِ
لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كِذْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ وَقِـتَـالُـهُـمْ بِـالـزُّورِ وَالْـبُـهْـتَـانِ
كَلَّا وَلَا التَّدْلِيسُ وَالتَّلْبِيسُ عِنْـ ـدَ الـنَّـاسِ وَالْـحُـكَّـامِ وَالـسُّـلْـطَـانِ

الشرح: فانظر إن شئت دليلًا على سمو علومهم، وجودة أذهانهم إلى تقريرهم لعلوه سبحانه ببراهين النقل والعقل، ولكن العقل الذي يستعملونه هو العقل السليم، المؤيد بالنصوص الصريحة، لا عقل الجهمية المؤيد بقضايا المنطق اليوناني الفاسدة، ثُمَّ يلتفت المؤلف إلى هؤلاء المجترئين على أئمة السلف بقالة السوء، فيقول لهم: أفترمون هؤلاء مِمَّن ذكرنا وأضعافهم من سادة العلماء فِي كل زمان بِما هم منه براء من الجهل والتشبيه وغيرهما، ولا تتقون اللَّه فِي إسلامكم الذي أفسدتموه بعوامل الهوى والعصبية وحمية الشيطان، كأنكم لَم تعتبروا بمصارع من قبلكم من المارقين الكاذبين الذين لَم يغن عنهم كذبُهم وزورهم، ولا ترويجهم لبدعهم بالتدليس والتلبيس عند العامة، وعند الحكام والسلاطين؟! وكأن الشيخ يشير بذلك إلى مصرع المعتزلة فِي عهد الخليفة المتوكل بعد ما كان لهم من صولة فِي عهد المأمون والمعتصم من قبله.

* * *

وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ غِطَائِهِمْ مَـا لَـمْ يـكُـنْ لِـلْـقَـوْمِ فِـي حُـسْـبَـانِ
وَبَدَا لَهُمْ عِنْدَ انْكِشَافِ حَقَائِقِ الْـ إِيـمَـانِ أَنَّـهُـمُ عَـلَـى الْـبُـطْـلَانِ
مَـا عِـنْـدَهُـمْ وَالـلـهِ غَـيـرُ شِـكَـايـةٍ فَـأْتُـوا بِـعِـلْـم وَانْـطِـقُـوا بِـبَـيَـانِ
مَـا يـشْـتَـكِـي إِلَّا الَّـذِي هُـوَ عَـاجِـزٌ فَـاشْـكُـوا لِـنَـعْـذُرَكُـمْ إِلَـى الْـقُـرْآنِ
ثُمَّ اسْمَعُوا مَاذَا الَّذِي يقْضِي لَكُمْ وعَـلَـيـكُـمُ فَـالْـحَـقُّ فِـي الْـفُـرْقَـانِ

لَبَّسْتُمُ مَعْنَى النُّصُوصِ وَقَوْلِنَا ... فَغَدَا لَكُمْ لِلْحَقِّ تَلْبِيسَانِ
مَنْ حَرَّفَ النَّصَّ الصَّرِيحَ فَكَيفَ لَا ... يأْتِي بِتَحْرِيفٍ عَلَى إِنْسَانِ

الشرح: يعني: أنه قد ظهر لهؤلاء الماضين من أهل التعطيل والكفر -عندما انكشف عنهم الغطاء بالموت- ما لَم يكونوا يحتسبون، فعرفوا زيف ما كانوا عليه من باطل وبُهتان، وأن الحق كان مع خصومهم من أهل العلم والإيمان، فليعتبر بِهم هؤلاء الذين يجرون وراءهم، ويقلدونَهم فِي باطلهم، فإنه يوشك أن ينْزل بِهم ما نزل بأسلافهم، لا سيما وليس عندهم على ما يقولون أثارة من علم، ولا بيان صريح، وإنَّما هي شكاية العاجز الذي لا حيلة له، وإلى من يشتكون؟! أإلى هذا المنطق السقيم، والجدل العقيم، كلا، إنَّهم إذا أرادوا أن تسمع شكواهم، وأن يعذروا فيها؛ فليشتكوا إلى من يملك الفصل فيها، وهو القرآن الذي هو الحكم العدل، ثُمَّ ليسمعوا ما الذي يقضي به، هل يقضي لهم أو عليهم؟ ولكنهم ما ارتضوا حكم القرآن، فقد لبسوا معاني نصوصه حين عمدوا إلى تأويلها بِما يخرجها عن مواضعها، كما لبسوا على الناس معاني ما قال السلف حين أرادوا أن يخرجوا أقوالهم عما دلت عليه من الإثبات، وقالوا: إن السلف يفوضون فِي المعاني أيضًا كما يفوضون فِي الكيفيات. ولا ريب أن من اجترأ على تحريف النص الصريح من كتاب اللَّه وكلام رسوله، هو على تحريف غيرهما أشد اجتراء.

* * *

يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ أَسَأْتُمُ ... بِأَئِمَّةِ الإِسْلَامِ ظَنَّ الشَّانِي
مَا ذَنْبُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ قَدْ قَالَ مَا ... قَالُوا كَذَلِكَ مُنْزِلُ الْفُرْقَانِ
مَا الذَّنْبُ إِلَّا لِلنُّصُوصِ لَدَيكُمُ ... إِذْ جَسَّمَتْ بَلْ شَبَّهَتْ صِنْفَانِ
مَا ذَنْبُ مَنْ قَدْ قَالَ مَا نَطَقَتْ بِهِ ... مِنْ غَيرِ تَحْرِيفٍ وَلَا عُدْوَانِ
هَذَا كَمَا قَالَ الْخَبِيثُ لِصَحْبِهِ ... كَلْبُ الرَّوَافِضِ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ
لَمَّا أَفَاضُوا فِي حَدِيثِ الرَّفْضِ عِنْـ ... ـدَ الْقَبْرِ لَا يَخْشَوْنَ مِنْ إِنْسَانِ
يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلَائِكُمْ وَمُصَابِكُمْ ... مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ الَّذِي تَرَيَانِ
كَمْ قَدَّمَ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ بَلْ غَدَا ... يُثْنِي عَلَيهِ ثَنَاءَ ذِي شُكْرَانِ
وَيقُولُ فِي مَرَضِ الْوَفَاةِ يؤُمُّكُم ... عَنِّي أَبُو بَكْرٍ بِلَا رَوَغَانِ

وَيظَلُّ يمْنَعُ مِنْ إمَامَةِ غَيرِهِ حَتَّى يُرَى فِي صُورَةِ الْغَضْبَانِ

الشرح: ينكر المؤلف على هؤلاء المعطلة أنَّهم أساءوا الظن بأئمة الإسلام حين رموهم -ظلمًا- بالتجسيم والتشبيه، وما نقموا منهم إلا أنَّهم قالوا ما قال اللَّه ورسوله، بلا زيادة ولا نقص، ولا تحريف ولا تبديل، ووقفوا عند ما جاءت به النصوص الصريحة فِي الإثبات، بلا كيف ولا تمثيل، فليتهموا النصوص إذن، وليرموها هي بالتجسيم والتشبيه، وليفعلوا ما فعله ذلك الرافضي الخبيث حين أشار إلى قبر النَّبِي ﷺ وقال لأصحابه مقالة المغيظ المحنق: إن أصل بلائكم، وسر شقائكم هو ما صرح به صاحب هذا القبر من تقديم أبي بكر على جَميع أصحابه، وثنائه عليه ثناء الشاكر له سالفته فِي الإسلام حيث يقول: «**إن من أمن الناس عليَّ فِي صحبته وماله أبا بكر**». وقوله فِي مرضه الذي توفي فيه، حين عجز عن الخروج للصلاة: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**». ولما قالت له عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف، لا يملك نفسه -إن هو قام مقامك- من البكاء. غضب وقال: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

* * *

وَيقُولُ لَوْ كُنْتُ الْخَلِيلَ لِوَاحِدٍ فِي النَّاسِ كَانَ هُوَ الْخَلِيلَ الدَّانِي
لَكِنَّهُ الاَخُ وَالرَّفِيقُ وَصَاحِبِي وَلَهُ عَلَينَا مِنَّةُ الإِحْسَانِ
وَيقُولُ لِلصِّدِّيقِ يوْمَ الْغَارِ لا تَحْزَنْ فَنَحْنُ ثَلاثَةٌ لَا اثْنَانِ
اللَّهُ ثَالِثُنَا وَتِلْكَ فَضِيلَةٌ مَا حَازَهَا إِلَّا فَتَى عُثْمَانِ
يَا قَوْمُ مَا ذَنْبُ النَّوَاصِبِ بَعْدَ ذَا لَمْ يدْهِكُمْ إِلَّا كَبِيرُ الشَّانِ
فَتَفرَّقَتْ تِلْكَ الرَّوَافِضُ كُلُّهُمْ قَدْ أطْبَقَتْ أَسْنَانَهُ الشَّفَتَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ ذَاكَ رَضِيعُهُمْ فَهُمَا رَضِيعَا كُفْرِهِمْ بِلِبَانِ
ثَوْبَانِ قَدْ نُسِجَا عَلَى الْمِنْوَالِ يَا عُرْيَانُ لَا تَلْبَسْ فَمَا ثَوْبَانِ
وَاللهِ شَرٌّ مِنْهُمَا فَهُمَا عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالشَّقَا عَلَمَان

الشرح: ويقول -صلوات اللَّه وسلامه عليه-: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا؛ لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، فإن صاحبكم خليل الرحمن**». وعندما كان الرسول ﷺ هو وأبو بكر فِي الغار مختفيين من قريش، نظر أبو بكر إلى فم الغار، فوجد القوم مجتمعين عليه، فبكى وقال: واللَّه يا رسول اللَّه، لو نظر أحدهم موضع

قدمه لأبصرنا. فقال له ﷺ ما حكاه القرآن: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وروي أنه قال له: «**ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما**». وهذه منقبة عظيمة لأبي بكر، ما حازها أحد من هذه الأمة غيره، وإذن فلا ذنب للنواصب يا قوم فِي تقديمهم أبا بكر وعمر، وإنَّما الذنب على من قدمهما ودل على فضلهما.

فلما سمع الروافض مقالة ذلك الخبيث تفرقوا، وكلهم يعض بأسنانه على شفتيه من الغيظ.

فكذلك الجهمي رضيع الرافضة الذي رضع معهم بلبان الكفر، يصب كل غيظه ونقمته على النصوص الَّتِي تفسد عليه أمره، وتنادي بفساد مذهبه، فالرفض والتجهم ثوبان قد نسجا على منوال واحد، وهما واللَّه شر ما عرف الناس من أثواب، ما ارتداهما أحد إلا كانا علامة على شقائه وضلاله.

* * *

هَـذَا وَسَـابِـعَ عَـشْـرَهَـا إِخْـبَـارُهُ ... سُـبْـحَـانَـهُ فِـي مُـحْـكَـمِ الْـقُـرْآنِ

عَنْ عَبْدِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ وَحَرْبِهِ ... فِـرْعَـوْنَ ذِي التَّـكْـذِيـبِ وَالـطُّـغْـيَـانِ

تَـكْـذِيـبِـهِ مُـوسَى الْكَلِيمِ بِقَوْلِهِ ... الـلَّـهُ رَبِّـي فِـي الـسَّـمَـا نَـبَّـانِـي

وَمِنَ الْـمَـصَـائِـبِ قَوْلُـهُـمْ إِنَّ اعْـتِـقَـا ... دَ الْـفَـوْقِ مِـنْ فِـرْعَـوْنَ ذِي الْـكُـفْـرَانِ

فَـإِذَا اعْـتَـقَـدْتُـمْ ذَا فَـأَشْـيَـاعٌ لَـهُ ... أَنْـتُـمْ وَذَا مِـنْ أَعْـظَـمِ الْـبُـهْـتَـانِ

فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَـوْنَ الْـمُـعَـطِّـلِ جَـاحِـدِ الـرَّحْـمَـنِ

فَانْظُرْ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْقَصَصِ الَّتِي ... تَـحْـكِـي مَـقَـالَ إِمَـامِـهِـمْ بِـبَـيَـانِ

الشرح: هذا هو الوجه السابع عشر من الوجوه الدالة على علوه تعالى فوق خلقه: وهو ما أخبر به سبحانه فِي كتابه عن كليمه موسى عليه السلام، وعن عدوه فرعون ذي التكذيب والطغيان، فقد أخبر سبحانه أن فرعون كذب موسى عندما قال له: إنه مرسل من اللَّه الذي فِي السماء، وقال ما حكاه عنه القرآن: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ومن المصائب: أن الجهمية يعكسون المسألة، ويجعلون اعتقاد الفوق من رأي فرعون ذي الكفران، لَم يسمعه من موسى، وأن كل من اعتقد الفوق فهو من شيعة فرعون وحزبه، وهذا من أعظم الكذب والبهتان، وذلك يظهر بأدنى تأمل فِي القصص الَّتِي حكى

اللَّه فيها مقالة إمام المعطلة فرعون كما سيأتي.

* * *

وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الضَّلَالَةَ قُدْوَةً بِأَئِمَّةٍ تَدْعُو إِلَى النِّيرَانِ
فَإِمَامُ كُلِّ مُعَطِّلٍ فِي نَفْسِهِ فِرْعَوْنُ مَعْ نَمْرُودَ مَعْ هَامَانِ
طَلَبَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ مُكَذِّبًا مُوسَى وَرَامَ الصَّرْحَ بِالْبُنْيَانِ
بَلْ قَالَ مُوسَى كَاذِبٌ فِي زَعْمِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ
فَابْنُوا لِيَ الصَّرْحَ الرَّفِيعَ لَعَلَّنِي أَرْقَى إِلَيْهِ بِحِيلَةِ الإِنْسَانِ
وَأَظُنُّ مُوسَى كَاذِبًا فِيْ قَوْلِهِ اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو سُلْطَانِ
وَكَذَاكَ كَذَّبَهُ بِأَنَّ إِلَهَهُ نَادَاهُ بِالتَّكْلِيمِ دُونَ عَيَانِ
هُوَ أَنْكَرَ التَّكْلِيمَ وَالْفَوْقِيةَ الْـ عُلْيَا كَقَوْلِ الْجَهْمِ ذِي صَفْوَانِ
فَمَنِ الَّذِي أَوْلَى بِفَرْعَوْنٍ إِذَنْ مِنَّا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ

الشرح: يعني: أن اللَّه تعالى جعل الضلال في الاقتداء بفرعون وملئه الذين هم أئمة الضلال الداعون إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وهم إنَّما يدعون إلى النار أشياعهم في الجحد والتعطيل، فإمام كل معطل في نفسه هم هؤلاء الثلاثة: فرعون: وهو لقب لمن ملك مصر، ونمرود: وهو لقب ملك الكنعانيين، وهامان: هو وزير فرعون.

فأولهم وهو فرعون إنَّما طلب الصعود إلى السماء، وأمر هامان ببناء الصرح تكذيبًا منه لموسى عليه السلام حين أخبره أن الرب في السماء، فإن موسى حين أخبره بأنه رسول من رب العالمين، سأله عن مكانه وأين هو؟ فأخبره أنه في السماء، فقال ما قال، وكذلك كذبه حين أخبره أن اللَّه ناداه وكلمه من وراء حجاب دون رؤية، وبذلك يكون فرعون قد أنكر تكليم اللَّه لموسى، وفوقيته على عرشه، كما أنكرهما الجهم وشيعته، فمن إذن أولى بفرعون وأحق بالانتساب إليه منا ومنكم؟! لا شك أن أولى الناس به هم من وافقوه على الجحد والتعطيل.

* * *

يَا قَوْمَنَا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا ... أَلْفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَانِ
عَقْلًا وَنَقْلًا مَعْ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الْـ ... أُولَى وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ
كُلٌّ يَدُلُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ
أَتَرَوْنَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ ... لِجَعَاجِعِ التَّعْطِيلِ وَالْبُهْتَانِ
يَا قَوْمُ مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَى ... أَنْ تَرْجِعُوا لِلْوَحْيِ بِالإِذْعَانِ
وَتُحَكِّمُوهُ فِي الْجَلِيلِ وَدِقِّهِ ... تَحْكِيمَ تَسْلِيمٍ مَعَ الرِّضْوَانِ

الشرح: بعد أن أورد المؤلف هذا الوجه، وقرره هذا التقرير الحسن؛ التفت إلى هؤلاء النفاة المعاندين، مبينًا لهم أن الأدلة على ثبوت الفوق للَّه ﷻ قد بلغت من الكثرة أن صارت ألف دليل، بل ألفين، وهي أدلة متنوعة:

فمنها: ما يرجع إلى العقل الصريح.

ومنها: ما يرجع إلى النقل الصحيح.

ومنها: ما يرجع إلى الفطرة الأولى الَّتي فطر اللَّه عباده عليها.

ومنها: ما يفهمه العلماء الراسخون من أساليب القرآن بأذواقهم السليمة، وكل واحد من هذه الأدلة المتكاثرة يكفي وحده لإثبات ذلك المطلوب، وهو أن اللَّه فوق عرشه، مباين لخلقه، فهل يعقل بعد ذلك أن يترك أهل الحق هذه الأدلة القاطعة الَّتي هي أوضح من الشمس فِي رائعة النهار من أجل تشغيب هؤلاء المعطلة، وتمويهاتِهم الباطلة، وقد حكَّموا عقولهم الفاسدة فِي أمور نطق بِها صريح الوحي، ولَم يترك فيها مجالًا لرأي؟! فما هم على شيء من الدين حَتَّى ينْزعوا عن غرورهم، ويرجعوا إلى وحي ربِّهم، ويذعنوا له، ويحكموه فِي كل دقيق وجليل من أمور الدين، ثُمَّ يرضوا بحكمه، ويسلموا له تسليمًا.

* * *

قَدْ أَقْسَمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِنَفْسِهِ ... قَسَمًا يُبِينُ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ
أَنْ لَيسَ يؤْمِنُ مَنْ يكُونَ مُحَكِّمًا ... غَيرَ الرَّسُولِ الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
بَلْ لِيسَ يؤْمِنُ غَيرُ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... وَحْيَينِ حَسْبُ فَذَاكَ ذُو إِيمَانِ
هَذَا وَمَا ذَاكَ الْمُحَكِّمُ مُؤْمِنًا ... إِنْ كَانَ ذَا حَرَجٍ وَضِيقِ بِطَانِ
هَذَا وَلَيسَ بِمُؤْمِنٍ حَتَّى يُسَلْـ ... لِمَ لِلَّذِي يقْضِي بِهِ الْوَحْيَانِ

يَا قَوْمُ بِاللهِ الْعَظِيمِ نَشَدْتُكُمْ وَبِحُرْمَةِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
هَلْ حَدَّثَتْكُمْ قَطُّ أَنْفُسُكُمْ بِذَا فَسَلُوا نُفُوسَكُمُ عَنِ الإِيمَانِ

الشرح: يشير المؤلف بهذه الأبيات إلى الآية الكريمة الَّتي فِي سورة النساء، والتي نزلت فِي شأن المنافقين الذين احتكموا إلى الطاغوت، وأعرضوا عن حكم رسول اللَّه ﷺ، أعني قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. فقد أقسم اللَّه فِي هذه الآية الكريمة بنفسه أن هؤلاء لا يكونون مؤمنين أبدًا حَتَّى يحكموا الرسول ﷺ فيما ينشب بينهم من خصومات، ثُمَّ لا يقابلوا حكمه بالحرج وضيق الصدر، بل يرضوا به ويذعنوا، وبعد وفاته ﷺ إِنَّما يكون التحاكم إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، فلا يتم إيمان أحد حَتَّى يحكمهما وحدهما، ويسلم للذي يحكمان به كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فهؤلاء المبتدعة من أرباب المقالات والمذاهب حكموا فِي دين اللَّه عقولهم، وقدموا كلام رؤسائهم وقادتِهم فِي الضلال على حكم اللَّه ورسوله، فأشبهوا هؤلاء المنافقين الذين حكى اللَّه عنهم تحاكمهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن حكم الرسول ﷺ، ولهذا ينشدهم المؤلف باللَّه العظيم، وبحرمة الإيمان والقرآن أن يراجعوا أنفسهم، وأن يسألوها: ألا يزال فيها شيء من الإيمان؟.

* * *

لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَجُنْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَبْعُوثَ بِالْقُرْآنِ
هُمْ يَشْهَدُونَ بِأَنَّكُمْ أَعْدَاءُ مَنْ ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَحْمَدُ خَصْمَكُمْ أَعْنِي ابْنَ حَنْبَلٍ الرِّضَا الشَّيْبَانِي
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ بَعْدُ خُصُومِكُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
وَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ أَيضًا خَصْمَكُمْ شَيْخُ الْوُجُودِ الْعَالِمُ الْحَرَّانِي
أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ نَاصِرَ سُنَّةِ الْـ ـمُخْتَارِ قَامِعَ سُنَّةِ الشَّيطَانِ
وَاللَّهِ لَمْ يَكُ ذَنْبُهُ شَيئًا سِوَى تَجْرِيدِهِ لِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ
إِذْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ عَنْ شِرْكٍ كَذَا تَجْرِيدُهُ لِلْوَحْيِ عَنْ بُهْتَانِ

فَتَجَرَّدَ الْمَقْصُودُ عَنْ قَصْدٍ لَهُ ... فَلِذَاكَ لَمْ يـنْصِفْ إِلَى إِنْسَانِ

الشرح : فإذا لَم تشهدوا على أنفسكم ببراءتِها من الإيمان، بسبب معاداتِها للوحي من السنة والقرآن، فاعلموا أن اللَّه وجنده من الملائكة ورسوله المبعوث بالقرآن، كلهم يشهدون عليكم بأنكم فِي كل زمان أعداء لمن شأنه التمسك بالسنة والقرآن، وإلا فأخبرونا لماذا عاديتم إمام أهل السنة، وناصر مذهب السلف، وقدوة أهل الحق فِي الثبات والصبر والجهاد لأعداء اللَّه : أحمد بن حنبل رضي الله عنه؟!

ولماذا كان أعداؤكم دائمًا هم أهل الحديث وعسكر القرآن؟

ثُمَّ لأي شيء عاديتم شيخ الإسلام وعلم الأعلام غير منازع، الذي بعثه اللَّه على رأس المائة الثامنة، ليجدد لهذه الأمة ما رث من أمر دينها : ويشد ما وهى من عقد إيمانِها، من نصر اللَّه به السنة، وقمع به البدعة، وأقام به على المارقين الحجة : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، الذي لَم يأت الزمان له بنظير فِي الجمع بين المعقول والمنقول، وهل كان ذنبه إلا أنه جرد الدين من كل دخيل، وأزال ما لصق به من أوضار الشرك، وظلمات البدع، حَتَّى رده سليمًا نقيًا، وأنه جرد الوحي مِمَّا زاده المفترون الكذابون.

هذا وأعتذر للقارئ عن شرح البيت الأخير، أعني قوله : «فتجرد المقصود عن قصد له إلخ». فإني لَم أفهمه، واللَّه تعالى أعلم، ويجوز أن يكون الشيخ قد أراد أن المقصود من التوحيد والوحي قد تجرد عما لصق به من زيادات ومحدثات حين قصد شيخ الإسلام إلى تجريده، فلهذا عودي رَحِمَهُ اللَّهُ ولَم ينصفه من الناس أحد.

* * *

مَا مِنْهُمُ أَحَدٌ دَعَا لِمَقَالَةٍ ... غَيرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْفُرْقَانِ

فَالْقَوْمُ لَمْ يَدْعُوا إِلَى غَيرِ الْهُدَى ... وَدَعَوْتُمُ أَنْتُمْ لِرَأْيِ فُلَانِ

شَتَّانَ بَينَ الدَّعْوَتَينِ فَحَسْبُكُمْ ... يَا قَوْمُ مَا بِكُمُ مِنَ الْخِذْلَانِ

قَالُوا لَنَا لَمَّا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى ... هَذَا مَقَالَةَ ذِي هَوًى مَلآنِ

ذَهَبَتْ مَقَادِيرُ الشُّيوخِ وَحُرْمَةُ الْـ ... ـعُلَمَاءِ بَلْ عَبَرَتْهُمُ الْعَينَانِ

وَتَرَكْتُمُ أَقْوَالَهُمْ هَدَرًا وَمَا ... أَصْغَتْ إِلَيهَا مِنْكُمُ أُذُنَانِ

لَكِنْ حَفِظْنَا نَحْنُ حُرْمَتَهُمْ وَلَمْ ... نَعْدُ الَّذِي قَالُوهُ قَدْرَ بَنَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء الذين عاديتموهم من أهل الحديث وأئمة الهدى، مثل أحمد وابن تيمية، وأضرابهما، لَم يدعُ أحد منهم إلى مقالة مبتدعة، ولا تزيد فِي دين اللَّه ما ليس منه، وإنَّما دعوا إلى الأخذ بالحديث، وما يفهم من صريح الكتاب، وأما أنتم؛ فتعرضون عن السنة والكتاب جانبًا، وتدعون لرأي فلان وفلان مِمَّن يجوز عليهم الخطأ، وليسوا بمعصومين، فشتان ما بين الدعوتين، دعوة إلى هدى، ودعوة إلى ضلال، وكفاكم هذا خذلانًا.

والعجيب من أمركم: أنكم كلما دعاكم داع إلى الرجوع للأصل الأول، وهو كتاب اللَّه وسنة رسوله، نفرتم منه نفار الوحش، وقلتم له مقالة المغيظ المحنق: لقد أزريت بأقدار الشيوخ، وانتهكت حرمة العلماء حيث تدعونا إلى ترك أقوالهم، وعدم الإصغاء إلى آرائهم، وأما نحن؛ فقد حفظنا حرمتهم حيث لَم نتجاوز أقوالهم، ولَم نعد آراءهم مقدار بنان -أي: طرف أصبع-.

وهذا الذي أشار إليه المؤلف هو دأب هؤلاء المقلدة الجامدين فِي كل زمان، يعدون كل من يدعو إلى الكتاب والسنة وأخذ الدين منهما متهجمًا على الأئمة، مزريًا بمذاهبهم الَّتِي يجب فِي نظرهم اتباعها، وأخذ الأحكام منهما؛ دون مناقشة، فبئس ما رضوا لأنفسهم أن يحرموها ميزة الفهم والإدراك الَّتِي جعلها اللَّه خاصة الإنسان.

* * *

يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ كَذَبْتُمُ ... وَأَتَيْتُمُ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

وَنَسَبْتُمُ الْعُلَمَاءَ لِلأَمْرِ الَّذِي ... هُمْ مِنْهُ أَهْلُ بَرَاءَةٍ وَأَمَانِ

وَاللهِ مَا أَوْصَوْكُمُ أَنْ تَتْرُكُوا ... قَوْلَ الرَّسُولِ لِقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

كَلَّا وَلَا فِي كُتْبِهِمْ هَذَا بَلَى ... بِالْعَكْسِ أَوْصَوْكُمُ بِلَا كِتْمَانِ

إِذْ قَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ ... لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ بِالْبُرْهَانِ

كَلَّا وَمَا مِنْهُمْ أَحَاطَ بِكُلِّ مَا ... قَدْ قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

فَلِذَاكَ أَوْصَوْكُمْ بِأَلَّا تَجْعَلُوا ... أَقْوَالَهُمْ كَالنَّصِّ فِي الْمِيزَانِ

لَكِنْ زِنُوهَا بِالنُّصُوصِ فَإِنْ تُوَا ... فِقْهَا فَتِلْكَ صَحِيحَةُ الأَوْزَانِ

الشرح: يقسم المؤلف باللَّه العظيم أن هؤلاء المقلدة المتباكين على حرمة الأئمة ومذاهبهم قد كذبوا على هؤلاء الأئمة، ونسبوهم إلى ما هم منه براء، من دعوة الناس إلى الأخذ بِمذاهبهم دون نظر فِي أدلتها من الكتاب والسنة.

واللَّه سبحانه ما أمرنا فِي كتابه أن نترك قول الرسول لقول أحد من الناس، بل قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وكذلك الأئمة -رحمهم اللَّه- لَم يدَّع أحد منهم أن مذهبه هو الحق الذي يجب اتباعه، بل صح عنهم جميعًا أنَّهم يبرءون إلى اللَّه من كل قول لهم يخالف الحديث، وقد صح عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إذا جاء الحديث يخالف ما قلناه فخذوا به، ودعوا ما قلناه».

وورد عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر رسول اللَّه ﷺ.

وصح عن أحمد أنه قال: «ألا لا يحل لأحد أن يأخذ بشيء من أقوالنا حَتَّى يعلم من أين قلناه».

وهذا هو اللائق بِهم -رحمهم اللَّه- فإنَّهم يعلمون أنَّهم ليسوا بمعصومين، بل هم مجتهدون يصيبون ويخطئون، ويعلمون كذلك أن أحدًا منهم لَم يحط علمًا بكل ما قاله الرسول ﷺ، فلذلك جاءت وصيتهم جميعًا بألَّا تجعل أقوالهم مساوية للنص فِي الميزان، بل يجب أن توزن بالنصوص، فإن وافقتها فهي صحيحة، وإلا وجب اتباع النص.

* * *

لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمُ أَقْوَالَهُمْ ... أَبَدًا عَلَى النَّصِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

وَاللهِ لَا لِوَصِيَةِ الْعُلَمَاءِ نَفْـ ... ـذْتُمْ وَلَا لِوَصِيَةِ الرَّحْمَنِ

وَرَكِبْتُمُ الْجَهْلَيْنِ ثُمَّ تَرَكْتُمُ النْـ ... ـنَصَّيْنِ مَعْ ظُلْمٍ وَمَعْ عُدْوَانِ

قُلْنَا لَكُمْ فَتَعَلَّمُوا قُلْتُمْ أَمَا ... نَحْنُ الأَئِمَّةُ فَاضِلُو الأَزْمَانِ

مِنْ أَينَ وَالْعُلَمَاءُ أَنْتُمْ فَاسْتَحُوا ... أَينَ النُّجُومُ مِنَ الثَّرَى التَّحْتَانِي

لَمْ يشْبِهِ الْعُلَمَاءَ إِلَّا أَنْتُمُ ... أَشْبَهْتُمُ الْعُلَمَاءَ فِي الأَذْقَانِ

الشرح: لكنكم بالرغم من أمر اللَّه لكم ألَّا تقدموا بين يدي اللَّه ورسوله، ومن وصية الأئمة لكم ألَّا تقدموا آراءهم ومذاهبهم على قول اللَّه وحديث رسوله ﷺ، قد خالفتم هذا

كله، وقدمتم أقوالهم على النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، فلا أنتم امتثلتم أمر ربكم بالوقوف عند ما جاء به الرسول ﷺ، ولا أنتم نفذتم وصية العلماء بترك أقوالهم إذا ظهر مخالفتها لصريح النص، وركبتم الجهلين: جهلكم بالحق الذي يجب اتباعه والإيمان به، وجهلكم أنكم تجهلونه، وهذا هو الجهل المركب، ثُمَّ تركتم النصين من الكتاب والسنة ظلمًا وعدوانًا، وإذا نصح لكم ناصح أن تتعلموا؛ لأنكم لستم على شيء؛ غضبتم من رميه لكم بالجهل، وقلتم تبجحًا وغرورًا: ألسنا نحن الأئمة الفضلاء والعلماء الأذكياء؟! كذبتم، فأين أنتم من هؤلاء أو هؤلاء؟! ألم يبق فِي وجوهكم قطرة من حياء؟ فأين الثرى من الثريا؟! أم أين الأرض من السماء؟! ألم يبق مِمَّا يشبه العلماء إلا أنتم؟! صدقتم، ولكنكم أشبهتموهم فِي طول اللحى والأذقان، أما ما وراء ذلك؛ فأنتم لا علم، ولا دين، ولا عقل، ولا حَتَّى مروءة إنسانية، فقد كنتم لئامًا حين عاملتم من يدعوكم من العلماء إلى الحق بالبغي، والكيد الدنيء، والاعتداء الأثيم، وكأنه يشير بذلك رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما وقع عليه، وعلى شيخه -شيخ الإسلام ابن تيمية- من علماء عصرهم، من الجهلة المتعصبين للمذاهب، من إيذاء واعتداء على حين لا ذنب لهما إلا الذب عن دين اللَّه، ونصر السنة المطهرة، والرجوع بالأمة إلى ما كان عليه سلفها الصالح قبل نجوم الخلاف، وظهور البدع والمقالات.

* * *

وَاللَّهِ لَا عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلَا ... عَقْلٌ وَلَا بِمُرُوءَةِ الإِنْسَانِ
عَامَلْتُمُ الْعُلَمَاءَ حِينَ دَعَوْكُمُ ... لِلْحَقِّ بَلْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
إِنْ أَنْتُمُ إِلَّا الذُّبَابُ إِذَا رَأَى ... طُعْمًا فَيَا لِمَسَاقِطِ الذِّبَّانِ
وَإِذَا رَأَى فَزَعًا تَطَايَرَ قَلْبُهُ ... مِثْلَ الْبُغَاثِ يُسَاقُ بِالْعِقْبَانِ
وَإِذَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الْبُرْهَانِ كَا ... نَ جَوَابُكُمْ جَهْلًا بِلَا بُرْهَانِ
نَحْنُ الْمُقَلِّدَةُ الأُلَى أَلْفَوْا كَذَا ... آبَاءَهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
قُلْنَا فَكَيْفَ تُكَفِّرُونَ وَمَا لَكُمْ ... عِلْمٌ بِتَكْفِيرٍ وَلَا إِيمَانِ
إِذْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مُقَلِّدًا ... لِلنَّاسِ كَالأَعْمَى هُمَا أَخَوَانِ
وَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْهُدَى بِدَلِيلِهِ ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ مُسْتَوِيَانِ
حِرْنَا بِكُمْ وَاللهِ لَا أَنْتُمْ مَعَ الْـ ... ـعُلَمَاءِ تَنْقَادُونَ لِلْبُرْهَانِ

كَلَّا وَلَا مُتَعَلِّمُونَ فَمَنْ تُرَى ... تُدْعَوْنَ نَحْسَبُكُمْ مِنَ الثِّيرَانِ
لَكِنَّهَا وَاللَّهِ أَنْفَعُ مِنْكُمُ ... لِلأَرْضِ فِي حَرْثٍ وَفِي دَوَرانِ
نَالَتْ بِهِمْ خَيرًا وَنَالَتْ مِنْكُمُ الْـ ... ـمَعْهُودَ مِنْ بَغْيٍ وِمِنْ عُدْوَانِ
فَمَنِ الَّذِي خَيرٌ وَأَنْفَعُ لِلْوَرَى ... أَنْتُمْ أَمِ الثِّيرَان بِالْبُرْهَانِ

الشرح: يشبه المؤلف هؤلاء الأدعياء من أهل التعصب والتقليد الأعمى فِي دناءتِهم وتَهافتهم على حطام الدنيا بالذباب إذا رأى طعمًا، أي: شيئًا حلوًا كالعسل؛ كثر تساقطه فيه، وهم عن ذلك جبناء رعاديد، إذا رأوا هيعة؛ طارت نفوسهم منها شعاعًا، وانخلعت قلوبُهم، كأنَّهم رخم تسوقه الصقور والعقبان، وإذا ناظرهم العلماء، وطالبوهم بالبرهان؛ لَم يقدروا على إقامته، وكان جوابُهم هو جواب أهل التقليد فِي كل زمان: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

فقيل لهم: فكيف تُكفِّرون إذن من خالفكم، وأنتم لا علم عندكم بمواضع التكفير والإيمان؟! وهل التقليد إلا عمى فِي العقل والبصيرة؟ يحمل المقلد على الانقياد لمن يقلده، كانقياد الأعمى لمن يقوده، فأين هو من العلم الصحيح الذي يكون قائمًا على الدليل والبرهان، فشتان ما بينهما ثُمَّ شتان، ولقد تركتمونا فِي حيرة من أمركم، فلا ندري إلى أي قبيل ننسبكم، فلا أنتم مع العلماء فِي طلب الدليل والبرهان، ولا أنتم ترضون أن تتعلموا لتزيلوا عن أنفسكم غشاوة الجهل والتقليد، فلا نظنكم إلا أمة من الثيران الَّتِي لا تفقه ولا تعي، على أن الثيران كذلك خير منكم وأنفع، فإنَّها تحرث الأرض، وتسقي الزرع، وأما أنتم؛ فما نالت بكم الأرض إلا شرًّا، فقد أكثرتم فيها البغي والعدوان، فأصبحتم أخف وزنًا حَتَّى من الثيران.

فصل

هَذَا وَثَامِنَ عَشْرَهَا تَنْزِيهُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ مُوجِبِ النُّقْصَانِ
وَعَنِ الْعُيوبِ وَمُوجِبِ التَّمْثِيلِ وَالتْـ ... ـتَشْبِيهِ جَلَّ اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَلِذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ثَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهِيرٌ فِي الْوَرَى ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
أَوْ أَنْ يُوَلِّي خَلْقَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ حَاجَةٍ أَوْ ذِلَّةٍ وَهَوَانِ

فصل

هَذَا وَخَاتِمُ الْعِشْرِينَ وَجْهًا ... وَهْوَ أَقْرَبُهَا إِلَى الأَذْهَانِ
سَرْدُ النُّصُوصِ فَإِنَّهَا قَدْ نَوَّعَتْ ... طُرُقَ الأَدِلَّةِ فِي أَتَمِّ بَيَانِ
وَالنَّظْمُ يَمْنَعُنِي مِنَ اسْتِيفَائِهَا ... وَسِيَاقَةُ الأَلْفَاظِ بِالْمِيزَانِ
فَأُشِيرُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِمَوَاضِعٍ ... مِنْهَا وَأَيْنَ الْبَحْرُ مِنْ خُلْجَانِ
فَاذْكُرْ نُصُوصَ الإِسْتِوَاءِ فَإِنَّهَا ... فِي سَبْعِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ
وَاذْكُرْ نُصُوصَ الْفَوْقِ أَيْضًا فِي ثَلَا ... ثٍ قَدْ غَدَتْ مَعْلُومَةَ التِّبْيَانِ
وَاذْكُرْ نُصُوصَ عُلُوِّهِ فِي خَمْسَةٍ ... مَعْلُومَةٍ بَرِئَتْ مِنَ النُّقْصَانِ

الشرح: هذا هو الوجه العشرون من الوجوه الدالة على علوه تعالى على خلقه، واستوائه فوق عرشه: وهو أقرب هذه الوجوه كلها تناولًا، وأسهلها مؤنة؛ لأنه يقوم على سرد النصوص الصريحة من كتاب اللَّه ﷻ، الدالة على العلو عند من أنصف عقله، ولَم تفسد فطرته الأهواء، ولَم يوسع هذه النصوص تحريفًا، ولَم يسمها تأويلًا.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يعتذر من عدم قدرته على إيراد هذه النصوص هنا؛ لتقيده بقيود النظم والقافية الَّتِي لا يجوز إخضاع هذه النصوص لَها، فاكتفى بأن يشير إلى مواضعها من القرآن، فذكر أن لفظ الاستواء قد ورد فِي سبع آيات وهي قوله فِي سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]. وفي سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ﴾ [الرعد: ٢]. وفي سورة طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وفي سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. وفي «الم» السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]. وفي سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ﴾ [الحديد: ٤]. الآية.

﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. أي: شبيهًا ونظيرًا يستحق مثل اسمه، وقال تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقال حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

* * *

وَلَقَدْ أَتَى التَّنْزِيهُ عَمَّا لَمْ يقُلْ ... كَي لَا يَدُورَ بِخَاطِرِ الإِنْسَانِ

فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ وَلَمْ ... يُنْسَبْ إِلَيهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ

وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ مَوْتٍ وَعَنْ ... نَوْمٍ وَعَنْ سِنَةٍ وَعَنْ غِشْيَانِ

وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسْيَانِهِ ... وَالرَّبُّ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ

وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ وَفِي الْـ ... أَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ وَعَنْ بُطْلَانِ

وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ وَعَنْ ... عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ

الشرح: يعني: أنه سبحانه كما نزه نفسه عما قاله المبطلون، ووصفوه به، نزه نفسه عما لَم يقله أحد، ولَم ينسبه إليه، حَتَّى لا يقع بخاطر أحد، فنزه نفسه عن الطعم، مع أن أحدًا لَم يصفه به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال سبحانه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧].

وكذلك نزه نفسه عن الموت، وعن السنة والنوم، وعن الغشيان الذي هو الجماع، وعن النسيان الذي هو ضد الذِّكْر، مع أن أحدًا لَم ينسبه إلى شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ونزه نفسه كذلك عن الظلم فِي معاملة خلقه، فلا يعاقب أحدًا بغير ذنب، ولا يضيع عمل عامل، ولا ينقصه شيئًا من أجره.

ونزه نفسه فِي الأفعال عن العبث والباطل، وهو خلو الفعل عن الحكمة المقتضية له، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

* * *

وَلَقَدْ حَكَى الرَّحْمَنُ قَوْلًا قَالَهُ ... فِنْحَاصُ ذُو الْبُهْتَانِ وَالْكُفْرَانِ
أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَنَحْنُ أَصْـ ... حَابُ الْغِنَى ذُو الْوُجْدِ وَالإِمْكَانِ
وَكَذَاكَ أَضْحَى رَبُّنَا مُسْتَقْرِضًا ... أَمْوَالَنَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ
وَحَكَى مَقَالَةَ قَائِلٍ مِنْ قَوْمِهِ ... أَنَّ الْعُزَيْرَ ابْنٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
هَذَا وَمَا الْقَوْلَانِ قَطُّ مَقَالَةٌ ... مَنْصُورَةٌ فِي مَوْضِعٍ وَزَمَانِ
لَكِنْ مَقَالَةُ كَوْنِهِ فَوْقَ الْوَرَى ... وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ
قَدْ طَبَّقَتْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... وَغَدَتْ مُقَرَّرَةً لِذِي الأَذْهَانِ
فَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ ... سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
عَنْ ذِي الْمَقَالَةِ مَعْ تَفَاقُمِ أَمْرِهَا ... وَظُهُورِهَا فِي سَائِرِ الأَدْيَانِ
بَلْ دَائِمًا يُبْدِي لَنَا إِثْبَاتَهَا ... وَيُعِيدُهُ بِأَدِلَّةِ التِّبْيَانِ

الشرح: روى عكرمة عن ابن عباس في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. الآية: «إن أبا بكر الصديق رحمه الله دخل بيت المدراس، فوجد ناسًا كثيرة من اليهود قد اجتمعوا على رجل منهم، يقال له: فنحاص. وكان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: اتق الله يا فنحاص وأسلم فوالله إنك لتعلم أن مُحمَّدًا رسول من عند الله، قد جاء بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر، وضربه على وجهه ضربًا شديدًا، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، فقال له الرسول عليه السلام: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا، يزعم أن الله فقير وأنَّهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مِمَّا قال، فضربت وجهه. فجحد فنحاص ذلك، فنزلت الآية».

وكما حكى الله عز وجل مقالة فنحاص هذه، حكى لنا مقالة بعض الجهلة من قومه اليهود: أن عزيرًا ابن الله، لما كتب لهم التوراة بقلمه، بعد غلبة العمالقة على بني إسرائيل، وذهاب علمائهم، مع أن كلًا من هاتين المقالتين فسادها ظاهر، وليست مشهورة في أي مكان وزمان، فإذا كان الله سبحانه قد نزه نفسه عما تقدم من العيوب والنقائص، وعما قاله اليهود مع عدم اشتهاره وظهور فساده، فلأي شيء إذن لَم ينَزه نفسه عن تلك المقالة، وهي كونه

فوق عرشه، مباينًا لخلقه إذا كانت متضمنة لمعنى فاسد، لا يجوز اعتقاده في حق اللَّه تعالى، مع شهرة هذه المقالة، وتفاقم أمرها، وإجماع أهل الأديان عليها، فكانت هي أحق من هذا كله بالتنبيه على فسادها، والتحذير منها، مع أن العكس هو الواقع؟!.

فاللَّه ﷻ يثبت لنا هذه المقالة، ويعيدها ويكررها في كتابه في أسلوب واضح صريح، مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧]. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]. إلى غير ذلك من الآيات الَّتي لا تقبل تأويلًا.

وقوله: «ذو البهتان» أي: الكذب والافتراء واتِّهام الغير بما ليس فيه.

وقوله: «ذو الوُجد» بضم الواو، بمعنى: الغنى. والتفاقم: الزيادة والاشتهار.

* * *

لَاسِيَمَا تِلْكَ الْمَقَالَةُ عِنْدَكُمْ ... مَقْرُونَةٌ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ

أَوْ أَنَّهَا كَمَقَالَةٍ لِمُثَلِّثٍ ... عَبَدَ الصَّلِيبَ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي

إِذْ كَانَ جِسْمًا كُلُّ مَوْصُوفٍ بِهَا ... لَيسَ الإِلَهُ مُنَزِّلُ الْفُرْقَانِ

فَالْعَابِدُونَ لِمَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... بِالذَّاتِ لَيْسُوا عَابِدِي الدَّيَّانِ

لَكِنَّهُمْ عُبَّادُ أَوْثَانٍ لَدَى ... هَذَا الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ

وَلِذَاكَ قَدْ جَعَلَ الْمُعَطِّلُ كُفْرَهُمْ ... هُوَ مُقْتَضَى الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

هَذَا رَأَينَاهُ بِكُتْبِكُم وَلَمْ ... نَكْذِبْ عَلَيكُمْ فِعْلَ ذِي الْبُهتَانِ

وَلأَي شَيءٍ لَمْ يحَذِّرْ خَلْقَهُ ... عَنْهَا وَهَذَا شَأْنُهَا بِبَيَانِ

هَذَا وَلَيسَ فَسَادُهَا بِمُبَينٍ ... حَتَّى يحَالَ لَنَا عَلَى الأَذْهَانِ

وَلِذَاك قَدْ شَهِدَتْ أَفَاضِلُكُمْ لَهَا ... بِظُهُورِها لِلْوَهْم فِي الإِنْسَانِ

وَخَفَاءِ مَا قَالُوهُ مِنْ نَفْيٍ عَلَى الْـ ... أَذْهَانِ بَلْ تَحْتَاجُ لِلْبُرْهَانِ

الشرح: يعني: كيف ينزه اللَّه نفسه عن تلك المقالة، مع أنَّها عندكم من أشنع المقالات؟! فهي مساوية لعبادة الأوثان، أو هي كمقالة النصارى، المثلثة، المشركين، عُباد الصليب، إذ كان كل موصوف بها عندكم جسمًا، ويستحيل أن يكون الإله جسمًا، فالعابدون لمن استوى على العرش بذاته ليسوا بعابدين للَّه ﷻ عندكم، ولكنهم عباد

أوثان، ولهذا حكمتم عليهم بالكفر فِي كتبكم، وقلتم: إن هذا هو مقتضى العقل والبرهان. فمقالة هذا شأنُها، كيف يسكت اللَّه ﷻ عنها، ولا يحذر خلقه منها، مع أن فسادها ليس ببين فِي نفسه حَتَّى تحال معرفته على العقول، ولهذا قد اعترف فضلاؤكم بأنَّها أظهر، وأوضح للوهم، أو لما سميتموه وهمًا، وأن مذهبهم فِي النفي من الأمور الَّتِي تخفى على الأذهان، فهو محتاج إلى البرهان.

فصل

هَذَا وَتَاسِعَ عَشْرَهَا إِلْزَامُ ذِي التْـ ... تَعْطِيلِ أَفْسَدَ لَازِمٍ بِبَيَانِ

وَفَسَادُ لَازِمِ قَوْلِهِ هُوَ مُقْتَضَى ... لِفَسَادِ ذَاكَ الْقَوْلِ بِالْبُرْهَانِ

فَسَلِ الْمُعَطِّلَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلٍ ... تَقْضِي عَلَى التعْطِيلِ بِالْبُطْلانِ

مَاذَا تَقُولُ أَكَانَ يعْرِفُ رَبَّهُ ... هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ الْعِرْفَانِ

أَمْ لَا وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحَتُهُ لَنَا ... كُلَّ النَّصِيحَةِ لَيسَ بِالْخَوَّانِ

أَمْ لَا وَهَلْ حَازَ الْبَلَاغَةَ كلَّهَا ... فَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى لَهُ طَوْعَانِ

فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِي الثَّلَاثَةُ فِيهِ كَا ... مِلَةً مُبَرَّأَةً مِنَ النُّقْصَانِ

فَلأَيِّ شَيءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا ... لِلنَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فِي الأَزْمَانِ

بَلْ مُفْصِحًا بِالضِّدِّ مِنْهُ حَقِيقَةَ الْـ ... إِفْصَاحِ مُوضِحَةً بِكُلِّ بَيَانِ

الشرح: هذا هو الوجه التاسع عشر: ويقوم على إلزام أهل التعطيل بأحد لوازم ثلاثة، كل منها فِي غاية الفساد، ولا شك أن فساد اللازم يقتضي عقلًا فساد الملزوم.

فيسأل هذا المعطل أولًا: هل تعتقد أن الرسول ﷺ كان يعرف ربه حق المعرفة، وأنه لا أحد من الخلق يُمكن أن يكون علمه باللَّه ﷻ مساويًا لعلم رسوله به أم لا؟

ثُمَّ يسأل ثانيًا: هل كان هذا الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- فِي غاية النصح لأمته، والحرص على هدايتهم، أم كان غاشًا لهم، كاتِمًا عنهم ما يجب أن يعلموه من أسْماء ربِّهم وصفاته؟.

ثُمَّ يسأل ثالثًا: هل كان هذا الرسول فِي أعلى درجات البلاغة، والقدرة على البيان والإفهام، وأن الألفاظ والمعاني، كانت تسلس له قيادها، فلا يستعصي عليه شيء منها أم

لا؟

فإذا كانت هذه الأمور الثلاثة: من العلم، وإرادة البيان، والقدرة عليه؛ قد كملت فيه غاية الكمال، بحيث لا يُمكن أن يساويه أحد من الخلق فِي واحد منها، ولا أن تجتمع لأحد من الخلق كما اجتمعت له، فلأي شيء إذن عاش طول حياته كاتِمًا لما يجب اعتقاده من النفي والتعطيل فِي زعمكم؟! بل لأي شيء عاش مفصحًا عن ضد ذلك من الإثبات غاية الإفصاح، ومبينًا له أوضح البيان؟!.

إن مذهبكم فِي التعطيل يقتضي واحدًا من هذه الثلاثة:

إما نفي علم الرسول بِما يجب للَّه من تنْزيه وتقديس.

وإما كتمانه ذلك عن أمته غشًّا وتلبيسًا.

وإما عدم قدرته على بيان ذلك وإيضاحه.

فأي واحد منها إذن تختارون؛ لتسجلوا على أنفسكم أشنع الكفر والبهتان؟!

* * *

وَلأَيِّ شَيءٍ لَمْ يُصَرِّحْ بِالَّذِي ... صَرَّحْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

أَلِعَجْزِهِ عَنْ ذَاكَ أَمْ تَقْصِيرِهِ ... فِي النُّصْحِ أَمْ لِخَفَاءِ هَذَا الشَّانِ

حَاشَاهُ بَلْ ذَا وَصْفُكُمْ يَا أُمَّةَ التْـ ... ـتَعْطِيلِ لَا الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

وَلأَيِّ شَيءٍ كَانَ يَذْكُرُ ضِدَّ ذَا ... فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ زَمَانِ

أَتَرَاهُ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنْ قَوْلِهِ اسْـ ... ـتَوْلَى وَيَنْزِلُ أَمْرُهُ وَفُلَانِ

وَيقُولُ أَينَ اللهُ يعْنِي مَنْ بِلَفْـ ... ـظِ الأَينَ هَلْ هَذَا مِنَ التِّبْيَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ الأَئِمَّةُ غَيرَ مَا ... قَدْ قَالَهُ مِنْ غَيرِ مَا كِتْمَانِ

لَكِنْ لأَنَّ عُقُولَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ... ضَاقَتْ بِحَمْلِ دَقَائِقِ الإِيمَانِ

وَغَدَتْ بَصَائِرُهُمْ كَخُفَّاشٍ أَتَى ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَكَفَّ عَنْ طَيرَانِ

حَتَّى إِذَا مَا اللَّيلُ جَاءَ ظَلَامُهُ ... أَبْصَرْتَهُ يَسْعَى بِكُلِّ مَكَانِ

الشرح: يعني: إذا كان ما تقولونه من التعطيل ونفي الصفات هو الحق الذي يجب اعتقاده؛ فلأي شيء لَم يصرح به الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- كما صرحتم أنتم به فِي حق اللَّه ﷻ؟! ولابد أن يكون ذلك لأحد الأمور الثلاثة الَّتِي قدمناها.

إما لعجزه وعدم قدرته على التعبير والإفصاح عن ذلك، وحاشاه، فهو أكمل الخلق بلاغة، وأقدرهم على أداء أي معنًى بِما يناسبه من الألفاظ.

وإما لتقصيره فِي النصح لأمته، وقصده إلى غشهم والتلبيس عليهم، وحاشاه، فهو الأمين الذي ائتمنه اللَّه على وحيه، فلا يعقل منه كتمان لشيء من ذلك أو تبديل.

وإما لخفاء هذا الشأن عليه، وعدم ظهوره له، وحاشاه، فهو أعلم الخلق بِما يجب لربه ﷻ، وما يجوز، وما يمتنع، لا يخفى عليه شيء من ذلك في النفي والإثبات، بل أنتم يا جماعة التعطيل والإنكار أولى بِهذه الأوصاف، فأنتم أجهل الناس بالحق، وأقصرهم تعبيرًا وأداء، وأغشهم لناصح، وأما الرسول فبراء من ذلك.

وإذا كان ما تقولونه من التعطيل هو الحق؛ فلأي شيء كان الرسول ﷺ يذكر ضده، ويصرح به فِي كل مجتمع وزمان؟! هل ترونه كان عاجزًا عن قوله: «استولى» بدلًا من «استوى»؟ أو عاجزًا عن قوله: «ينْزل أمر ربنا» بدلًا من قوله: «ينْزل ربنا» إلخ، ولا سيما إذا كانت الألفاظ الَّتِي نطق بِها موقعة فِي اللبس والإيهام.

ولأي شيء عبتم على الأئمة أقوالهم، وهم لَم يقولوا غير ما قاله الرسول بلا تبديل ولا كتمان؟! لكن عقول أهل زمانِهم القاصرة ضاقت عن فهم دقائق ذلك العلم، وعجزت عن حل أسراره، فهي أشبه شيء بالخفاش الذي لا يبصر، ولا يطير إلا فِي الظلام، حَتَّى إذا طلع عليه النهار كف عن الطيران؛ لعجزه عن الإبصار.

* * *

وَكَذَا عُقُولُكُمُ لَوِ اسْتَشْعَرْتُمُ ... يَا قَوْم كَالْحَشْرَاتِ وَالْفِيرَانِ

أَنِسَتْ بِإِيحَاشِ الظَّلَام وَمَا لَهَا ... بِمَطَالِعِ الأَنْوَارِ قَطُّ يدَانِ

لَوْ كَان حَقًّا مَا يقُولُ مُعَطِّلٌ ... لِعُلُوِّهِ وَصِفَاتِهِ الرَّحْمَنِ

لَزِمَتْكُمُ شِنَعٌ ثَلَاثٌ فَارْتَئُوا ... أَوْ خُلَّةٌ مِنْهُنَّ أَوْ ثِنْتَانِ

تَقْدِيمُهُمْ فِي الْعِلْم أَوْ فِي نُصْحِهِمْ ... أَوْ فِي الْبَيَانِ أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ

إِنْ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ حَقًّا فَقَدْ ... ضَلَّ الْوَرَى بِالْوَحْي وَالْقُرْآنِ

إِذْ فِيهِمَا ضِدُّ الَّذِي قُلْتُمْ وَمَا ... ضِدَّانِ فِي الْمَعْقُولِ يجْتَمِعَانِ

بَلْ كَانَ أَوْلَى أَنْ يعَطَّلَ مِنْهُمَا ... وَيُحَالَ فِي عِلْمٍ وَفِي عِرْفَانِ

إِمَّا عَلَى جَهْمٍ وَجَعْدٍ أَوْ عَلَى النْـ   ـنَظَّامِ أَوْ ذِي الْمَذْهَبِ الْيُونَانِي

الشرح: يعني: كما عجزت عقول أسلافكم فِي النفي والتعطيل عن رؤية الحق الواضح فِي كلام اللَّه، وكلام رسوله، وسلف هذه الأمة من أئمة الهدى والعلم، فكذلك عقولكم مثل عقولهم فِي الغمة والضلال، فهي لا تأنس إلا بظلام التعطيل والتأويل، ولا قدرة لَها على مطالعة نور الحق الواضح الصريح.

ولو كان حقًّا ما تقولونه أيها المعطلة النافون لعلوه تعالى، ولسائر صفاته؛ لزمكم أن تكونوا أعلم بِهذا الشأن من اللَّه ورسوله، أو أخلص فِي النصح للأمة، أو أقدر على التعبير والبيان، فهل يُمكن أن تلتزموا واحدة من هذه الشنع الثلاث، أو كلها؟! وهل يقبل هذا عقل عاقل؟!.

ولو كان حقًّا ما تقولونه؛ لزم ألَّا يكون الوحي والقرآن مصدر هداية للناس، بل مصدر ضلال وتلبيس، فإنَّهما قد جاءا بصريح الإثبات الذي هو ضد ما قلتم من النفي والتعطيل، ولا يُمكن أن يجتمع الضدان، فلو فرض أن ما جئتم به هو الحق؛ لزم أن يكون الوحي والقرآن باطلًا، ووجب أن يحال الناس فِي العلم باللَّه وصفاته على ما قاله الجهم بن صفوان الترمذي، والجعد بن درهم، أو على ما قاله إبراهيم النظام المعتزلي، صاحب القول بالطفرة، أو على ما قاله ابن سينا صاحب المذهب اليوناني.

* * *

وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ لَهُمْ فَقْعُ الْفَلَا   صُمٌّ وَبُكْمٌ تَابِعُو الْعُمْيَانِ

ذَاكَ أَفْرَاخُ الْقَرَامِطَةِ الأُلَى   قَدْ جَاهَرُوا بِعَدَاوَةِ الرَّحْمَنِ

كَالْحَاكِمِيَةِ وَالأُلَى وَالُوهُمُ   كَأَبِي سَعِيدٍ ثُمَّ آلِ سِنَانِ

وَكَذَا ابْنُ سِينَا وَالنَّصِيرُ نَصِيرُ أَهْـ   ـلِ الشِّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرَانِ

وَكَذَاكَ أَفْرَاخُ الْمَجُوسِ وَشِبْهُهُمْ   وَالصَّابِئِينَ وَكُلِّ ذِي بُهْتَانِ

إِخْوَانُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَجُنْدُهُ   لَا مَرْحَبًا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

الشرح: ووجب أن يحال أيضًا فِي هذا الشأن على أتباع لهؤلاء الضلال، كأنَّهم فقع الفلا، والفقع: هو البيضاء الرخوة من الكمأة، وهو نبات ينبت فِي الصحراء على مياه الأمطار، يشبه البطاطس، ويحبه البدو كثيرًا، والمراد: تشبيه هؤلاء بالفقع فِي كونِهم يعيشون فِي متاهات الضلال كما يعيش الفقع فِي الفلوات.

ثُمَّ أخبر عنهم كذلك بأنَّهم تابعون لعميان لا يبصرون، فلهذا كانوا صمًّا وبكمًا فِي الظلمات، ووجب أن يحال كذلك على أفراخ القرامطة أتباع قرمط، المجاهرين بالعدوان للَّه ورسوله، من أمثال الحاكمية أتباع الحاكم بأمر اللَّه الفاطمي، الذين اعتقدوا إلهيته، ولا يزالون يعبدونه إلى اليوم فِي جبال سوريا ولبنان، ويسمون بالدروز، وكذاك من والاهم وتشيع لهم، مثل: أبي سعيد، وآل سنان، وهي أسرة كانت تحكم خراسان، وفي ظلها نشأ ابن سينا القرمطي، والنصير، وهذا هو نصير الدين الطوسي، شارح الإشارات لابن سينا، والمحصل للرازي، وكذلك أتباع المجوس عبدة النار وأشباههم، والصابئة عبدة النجوم والكواكب، وكل ذي فرية وبُهتان، كلهم إخوان إبليس وجنده وأعوانه فِي الإغواء والإضلال، فلا مرحبًا بعساكر الشيطان أعداء الرحمن.

* * *

أَفَمَنْ حَوَالَتُهُ عَلَى التَّنْزِيلِ وَالْـ ... وَحْيِ الْمُبِينِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

كَمُحَيرٍ أَضْحَتْ حَوَالَتُهُ عَلَى ... أَمْثَالِهِ أَمْ كَيفَ يَسْتَوِيَانِ

أَمْ كَيفَ يشْعُرُ تَائِهٌ بِمُصَابِهِ ... وَالْقَلْبُ قَدْ جُعِلَتْ لَهُ قُفْلَانِ

قُفْلٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... قُفْلُ التَّعَصُّبِ كَيفَ ينْفَتِحَانِ

وَمَفَاتِحُ الأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَهُ التْـ ... تَصْرِيفُ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ

فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَلَى الْـ ... أَسْنَانِ إِنَّ الْفَتْحَ بِالأَسْنَانِ

الشرح: ولكن كيف يستوي من حوالته على الوحي المنَزل فِي محكم القرآن وصحيح السنة، ومن هو حائر ضال، يحال على أمثاله فِي الحيرة والضلال؟! أم كيف يشعر هذا التائه الضال بمصابه، وقد جعل على قلبه قفلان يمنعان نور الحق من النفوذ إليه.

أحدهما: قفل الجهل المركب الذي هو جهله بأنه جاهل.

والآخر: قفل التعصب الأعمى الذي يحمل صاحبه على الحمية الجاهلية لما هو عليه من الباطل؟! فكيف ينفتح هذان القفلان؟! إلا أن يشاء اللَّه الذي بيده قلوب العباد، يقلبها كيف شاء، فليسأله العبد أن يفتح أقفال قلبه حَتَّى يبصر الحق، ويرى النور، ولكن كل مفتاح له أسنان، فما لَم يجتهد العبد فِي تحصيل الأسنان؛ لَم يتم له ما أراد، ولعل مراده بالأسنان هنا: النظر الصحيح فِي الأدلة مع الانصياع لما تَهدي إليه من الحق فِي غير تعصب ولا تقليد.

سمعه.

والأصل الثاني: أنه ﷻ في جهة العلو فوق جميع الأمكنة، فإن النُّزول يقتضي الهبوط من أعلى إلى أسفل، فلو لم يكن سبحانه عاليًا فوق خلقه؛ لم يصح الإخبار بكون الكتاب منزلًا من عنده، وهذه النصوص المتضمنة لنُزول القرآن من عند الله ﷻ، ذكر المصنف أن عددها سبعون أو تزيد، ويطول بنا القول لو ذكرناها جميعًا، فلنقتصر على بعضها على سبيل المثال.

فنقول: منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[آل عمران: ٧]. وفي سورة الأنعام: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[الأنعام: ١١٤].

وفي سورة النحل: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾[النحل: ١٠٢].

وفي سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وأما النصوص الَّتي تضمنت رفع بعض الأشياء، أو عروجها، أو صعودها إليه سبحانه؛ فقد ذكر المصنف أنَّها في خمسة مواضع من القرآن:

الأول: قوله تعالى في سورة آل عمران خطابًا لعيسى عليه السلام: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾[آل عمران: ٥٥].

وفي سورة النساء إخبارًا عنه عليه السلام: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[النساء: ١٥٨].

وفي سورة الم السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة: ٥].

وفي سورة فاطر: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾[فاطر: ١٠].

وفي سورة المعارج: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾[المعارج: ٤-٥].

* * *

وَلَقَدْ أَتى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ الَّتِي ... تُنْجِي لِقَارِئِهَا مِنَ النِّيرَانِ
نَصَّانِ أَنَّ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... عِنْدَ الْمُحَرِّفِ مَا هُمَا نَصَّانِ
وَلَقَدْ أَتى التَّخْصِيصُ بِالْعِنْدِ الَّذِي ... قُلْنَا بِسَبْعٍ بَلْ أَتى بِثَمَانِ
مِنْهَا صَرِيحٌ مَوْضِعَانِ بِسُورَةِ الْـ ... أَعْرَافِ ثُمَّ الأَنْبِيَاءِ الثَّانِي
فَتَدَبَّرَ التَّعْيِينَ وَانْظُرْ مَا الَّذِي ... لِسِوَاهُ لَيسَتْ تَقْتَضِي النَّصَّانِ
وَبِسُورَةِ التَّحْرِيمِ أَيضًا ثَالِثٌ ... بَادِي الظُّهُورِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

الشرح: ورد في سورة الملك الَّتي قال فيها رسول اللّه ﷺ: «**سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت في صاحبها**». نصان صريحان في أن اللّه ﷻ في السماء، وهما قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وأما النصوص الدالة على تخصيص بعض الأشياء بكونها عنده؛ فقد جاء ذلك في سبعة أو ثمانية مواضع.

الأول: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والثاني: في سورة الأنبياء: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. فتخصيص الملائكة الذين هم سكان السموات بكونهم عنده دليل على أن المراد بها عندية مكان.

والثالث: في سورة التحريم، قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

* * *

وَلَدَيهِ فِي مُزَّمِّلٍ قَدْ بَينَتْ ... نَفْسَ الْمُرَادِ وَقُيِّدَتْ بِبَيَانِ
لَا تَنْقُضِ الْبَاقِي فَمَا لِمُعَطِّلٍ ... مِنْ رَاحَةٍ فِيهَا وَلَا تِبْيَانِ
وَبِسُورَةِ الشُّورَى وَفِي مُزَّمِّلٍ ... سِرٌّ عَظِيمٌ شَأْنُهُ ذُو شَانِ
فِي ذِكْرِ تَفْطِيرِ السَّمَاءِ فَمَنْ يُرِدْ ... عِلْمًا بِهِ فَهْوَ الْقَرِيبُ الدَّانِي

فصل

هَذَا وَخَاتِمُ الْعِشْرِينَ وَجْهًا ... وَهْوَ أَقْرَبُهَا إِلَى الأَذْهَانِ
سَرْدُ النُّصُوصِ فَإِنَّهَا قَدْ نَوَّعَتْ ... طُرْقَ الأَدِلَّةِ فِي أَتَمِّ بَيَانِ
وَالنَّظْمُ يَمْنَعُنِي مِنَ اسْتِيفَائِهَا ... وَسِيَاقَةُ الأَلْفَاظِ بِالْمِيزَانِ
فَأُشِيرُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِمَوَاضِعٍ ... مِنْهَا وَأَيْنَ الْبَحْرُ مِنْ خُلْجَانِ
فَاذْكُرْ نُصُوصَ الإِسْتِوَاءِ فَإِنَّهَا ... فِي سَبْعِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ
وَاذْكُرْ نُصُوصَ الْفَوْقِ أَيضًا فِي ثَلَا ... ثٍ قَدْ غَدَتْ مَعْلُومَةَ التِّبْيَانِ
وَاذْكُرْ نُصُوصَ عُلُوِّهِ فِي خَمْسَةٍ ... مَعْلُومَةٍ بَرِئَتْ مِنَ النُّقْصَانِ

الشرح: هذا هو الوجه العشرون من الوجوه الدالة على علوه تعالى على خلقه، واستوائه فوق عرشه: وهو أقرب هذه الوجوه كلها تناولًا، وأسهلها مؤنة؛ لأنه يقوم على سرد النصوص الصريحة من كتاب اللَّه ﷻ، الدالة على العلو عند من أنصف عقله، ولَم تفسد فطرته الأهواء، ولَم يوسع هذه النصوص تحريفًا، ولَم يسمها تأويلًا.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يعتذر من عدم قدرته على إيراد هذه النصوص هنا؛ لتقيده بقيود النظم والقافية الَّتِي لا يجوز إخضاع هذه النصوص لَها، فاكتفى بأن يشير إلى مواضعها من القرآن، فذكر أن لفظ الاستواء قد ورد في سبع آيات وهي قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]. وفي سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ [الرعد: ٢]. وفي سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وفي سورة الفرقان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. وفي «الم» السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]. وفي سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ [الحديد: ٤]. الآية.

وأما نصوص الفوق: فقد ذكر أنَّها وردت فِي ثلاث آيات، وهي قوله تعالى فِي سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]. وقوله فِي نفس السورة: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله فِي سورة النحل فِي شأن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٥٠].

وأما نصوص العلو: فقد ذكر أنَّها وردت فِي خمسة مواضع، وهي قوله فِي آخر آية الكرسي من سورة البقرة: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وفي سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢٤]. وفي سورة الرعد: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]. وفي سورة غافر: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. وفي سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

ولا شك أن هذه النصوص كلها صريحة فِي علوه تعالى فوق خلقه، واستوائه على عرشه، ولا يجوز صرفها عن ظاهرها إلى معانٍ أخر؛ لما قدمنا من عدم وجود قرينة توجب ذلك الصرف، وما يدعيه أهل التأويل الباطل من قرينة عقلية، وهي حكم العقل باستحالة الجهة على اللَّه معارض بأدلة من العقل والفطرة أقوى منه كما بينا.

* * *

وَاذْكُرْ نُصُوصًا فِي الْكِتَابِ تَضَمَّنَتْ ... تَـنْـزِيـلَـهُ مِـنْ رَبِّـنَـا الـرَّحْـمَـنِ

فَتَضَمَّنَتْ أَصْلَيـنِ قَامَ عَلَيهِمَا الْـ ... إِسْـلَامُ وَالإِيـمَـانُ كَـالْـبُـنْـيَـانِ

كَوْنُ الْكِتَابِ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ ... وَعُـلُـوُّهُ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَـكَـانِ

وَعِدَادُهَا سَبْعُونَ حِينَ تُعَدُّ أَوْ ... زَادَتْ عَلَى السَّبْعِينَ فِي الْحُسْبَانِ

وَاذْكُرْ نُصُوصًا ضُمِّنَتْ رَفْعًا وَمِعْـ ... ـرَاجًـا وَإِصْـعَـادًا إِلَـى الـدَّيَّـانِ

هِي خَمْسَةٌ مَعْلُومَةٌ بِالْعَدِّ وَالْـ ... ـحُسْبَانِ فَاطْلُبْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

الشرح: أما النصوص الَّتِي وردت فِي الكتاب العزيز مصرحة بأن هذا القرآن منزل من عند اللَّه ﷻ؛ فقد تضمنت أصلين عظيمين، عليهما قام بناء الإسلام، وصرح الإيمان.

الأصل الأول: أن هذا القرآن، كلامه هو سبحانه حقيقة لا مجازًا، بِمعنى أنه تكلم به بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه، وسمعه منه الأمين جبريل عليه السلام، وأداه إلى رسول اللَّه ﷺ كما

لَمْ يسْمَحِ الْمُتَأَخِّرُونَ بِنَقْلِهِ ... جُبْنًا وَضَعْفًا عَنْهُ فِي الإِيمَانِ
بَلْ قَالَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ فَوَارِسُ الْـ ... إِسْلَامِ هُمْ أُمَرَاءُ هَذَا الشَّانِ
وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِي فِي ... تَفْسِيرِهِ حُكِيتْ بِهِ الْقَوْلَانِ

الشرح: وأما بقية المواضع؛ فإنه وإن لَم يصرح فيها بلفظ العند؛ فإن الإضافة فيها إلى لفظ «لدى» الذي هو بِمعنى «عند» ودال على نفس المراد منها، وذلك مثل قوله تعالى فِي سورة المزمل: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣].

وقوله فِي سورة ق: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨-٢٩].

وفي سورة الزخرف: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ الْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

وأما قوله: «وفي مزمل سر عظيم، شأنه ذو شأن، فِي ذكر تفطير السماء» إلخ، فهو إشارة إلى قوله تعالى من هذه السورة: ﴿السَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾. فالضمير فِي «به» يحتمل أن يعود إلى اليوم فِي قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾. يعني: أن السماء تنفطر فِي هذا اليوم وتتشقق، وتكون «الباء» بِمعنى «فِي» ويحتمل أن يعود إلى اللَّه ﷻ وإن لَم يسبق له ذكر؛ لأنه مفهوم من السياق، ويؤيده قوله بعد ذلك: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾. فإن عود الضمير هنا على اللَّه فِي غاية الظهور، ويكون معنَى انفطار السماء باللَّه ﷻ: تشققها عند نزوله لفصل القضاء بين عباده كما فِي قوله تعالى فِي سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ الْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

ولكن المتأخرين من المفسرين مثل ابن كثير وغيره جبنوا عن إيراد هذا القول الثاني، ولَم يصرح به إلا المتقدمون من جهابذة الإسلام الذين هم أعلم هذه الأمة بمعاني كلام اللَّه ﷻ، وقد حكى ابن جرير القولين فِي تفسيره.

فصل

هَذَا وَحَادِيهَا وَعِشْرُونَ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
إِتْيَانُ رَبِّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَمَجِيئُهُ لِلْفَصْلِ بِالْمِيزَانِ
فَانْظُرْ إِلَى التَّقْسِيمِ وَالتَّنْوِيعِ فِي الْـ ... قُرْآنِ تُلْفِيهِ صَرِيحَ بَيَانِ

إِنَّ الْـمَـجِـيءَ لِـذَاتِـهِ لَا أَمْـرِهِ ... كَـلَّا وَلَا مَـلِـكٍ عَـظِـيـمِ الـشَّـانِ

إِذْ ذَانِـكَ الأَمْـرَانِ قَـدْ ذُكِـرَا وَبَـيْـ ... ـنَـهُـمَـا مَـجِـيءُ الـرَّبِّ ذِي الْـغُـفْـرَانِ

وَاللهِ مَا احْتَمَلَ الْمَجِيءُ سِوَى مَجِي ... ءِ الـذَّاتِ بَـعْـدَ تَـبَـيـنِ الْـبُـرْهَـانِ

مِنْ أَينَ يأْتِي يَا أُولِي الْمَعْقُولِ إِنْ ... كُـنْـتُـمْ ذَوِي عَـقْـلٍ مَـعَ الْـعِـرْفَـانِ

مِنْ فَوْقِنَا أَوْ تَحْتِنَا أَوْ عَنْ شَمَا ... ئِـلِـنَـا وَمِـنْ خَـلْـفٍ وَعَـنْ أَيـمَـانِ

وَالـلـهِ لَا يـأْتِـيـهُـمُ مِـنْ تَـحْـتِـهِـمْ ... أَبَـدًا تَـعَـالَـى الـلـهُ ذُو الـسُّـلْـطَـانِ

كَـلَّا وَلَا مِـنْ خَـلْـفِـهِـمْ وَأَمَـامِـهِـمْ ... وَعَـنِ الـشَّـمَـائِـلِ أَوْ عَـنِ الأَيـمَـانِ

وَالـلـهِ لَا يـأْتِـيـهُـمُ إِلَّا مِـنَ الْـ ... ـعُـلْـوِ الَّـذِي هَـوَ فَـوْقَ كُـلِّ مَـكَـانِ

الشرح: الوجه الحادي والعشرون من الوجوه الدالة على العلو والفوقية: ما نطقت به آيات الكتاب الكريم، ووردت به الأخبار الصحيحة، من إتيانه ﷻ ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد، كقوله تعالى فِي سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. يعني: ما ينتظر هؤلاء إلا وقوع ذلك الأمر العظيم، وهو أن يأتيهم اللَّه فِي ظلل الغمام، وتأتي معه الملائكة، وقضي الأمر، يعني: فرغ من حسابِهم، وعطف الملائكة هنا على اللَّه ينفي تأويل المعطلة بأن الإتيان للملك، فهو كقوله فِي سورة الفجر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

ولكن قد يقول المعطل: إن إتيان الرب ﷻ هو إتيان أمره كما فِي قوله تعالى فِي سورة النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]. فيرد عليه بتلك الآية الَّتِي تأخذ بخناقه، ولا يجد لتأويلها مساغًا، أعني قوله تعالى فِي سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فإن الترديد هنا بين إتيان الرب والملائكة، والآيات أوضح دليل على أن المراد: مجيء ذاته لا أمره، فإنه مذكور بين الأمرين الآخرين، وهما مجيء الملك والآيات، فكيف يجوز تأويله بأحدهما؟

وإذا ثبت مجيء الرب وإتيانه -جل شأنه- بِهذه الآية القاطعة، فمن أين يأتي إذن؟ والجهات المعروفة ست، هي الفوق والتحت، واليمين والشمال، والأمام والخلف، فليقل لنا هؤلاء المعطلة: أي هذه الجهات يختارون؛ ليكون منها مجيء الرب وإتيانه؟ لا يعقل أبدًا أن يجيئهم من تحتهم -تعالى اللَّه عن ذلك- وكذلك لا يعقل أن يجيئهم من

خلفهم، ولا من أمامهم، ولا عن أيمانِهم، ولا عن شمائلهم، فلم يبق إلا أن يأتيهم من العلو المطلق الذي هو فوق الأمكنة جميعًا.

فصل في الإشارة إلى ذلك في السنة

وَاذْكُر حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ تَضَمَّنَتْ ... كَلِمَاتُهُ تَكْذِيبَ ذِي الْبُهْتَانِ

لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلِيقَةَ رَبُّنَا ... كَتَبَتْ يدَاهُ كِتَابَ ذِي الإِحْسَانِ

وَكِتَابُهُ هُوَ عِنْدَهُ وَضْعٌ عَلَى الْـ ... ـعَرْشِ الْمَجِيدِ الثَّابِتِ الأَرْكَانِ

إِنِّي أَنَا الرَّحْمَنُ تَسْبِقُ رَحْمَتِي ... غَضَبِي وَذَاكَ لِرَأْفَتِي وَحَنَانِي

وَلَقَدْ أَشَارَ نَبِيُّنَا فِي خُطْبَةٍ ... نَحْوَ السَّمَاءِ بِأَصْبُعٍ وَبَنَانِ

مُسْتَشْهِدًا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... لِيرَى وَيَسْمَعَ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا ... أَمْ لِلَّذِي هُوَ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ

وَلَقَدْ أَتَى فِي رُقْيَةِ الْمَرْضَى عَنِ الْـ ... ـهَادِي الْمُبِينِ أَتَمُّ مَا تِبْيَانِ

نَصٌّ بِأَنَّ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... فَاسْمَعْهُ إِنْ سَمِعَتْ لَكَ الأُذُنَانِ

الشرح: بعد أن فرغ من دلالة آيات الكتاب الحكيم على إثبات صفة العلو للعلي العظيم؛ شرع فِي إيراد ما تضمنته السنة الصحيحة من دلالات واضحة، وإشارات صريحة، لا تخفى إلا على من أعمى الهوى والتعصب بصائر قلوبِهم، فمن ذلك قوله ﷺ فِي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه لما خلق الخلق؛ كتب فِي كتاب موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**». فقوله: «**فِي كتاب موضوع عنده فوق العرش**». لا يحتاج إلى بيان أن تلك العندية تقتضي وجوده سبحانه فوق عرشه.

ومن ذلك **أيضًا**: ما ثبت عنه ﷺ فِي خطبة الوداع الَّتِي شهدها الجم الغفير من الصحابة، أنه كان يوجه إليهم نصائحه ووصاياه، ويشير بأصبعه إلى السماء، ثُمَّ ينكبها إليهم، ثُمَّ يقول لهم: «**ألا هل بلغت؟ اللَّهم فاشهد**». غير مرة، فالإشارة بأصبعه إلى السماء لا يعقل أنه أراد بِها أن يستشهد بالسماء على تبليغه رسالة اللَّه الَّتِي أرسله بِها إلى خلقه، ولكنه أراد بِها أن يشهد ربه ﷻ فِي آخر مجمع، وأعظم مشهد حضره أنه أتم رسالة ربه، وبريء من تبعة التقصير والكتمان؛ ولهذا قال لهم فِي آخر خطبته: «**فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع**».

ومن ذلك: قوله في حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره كالطبراني، والحاكم، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: «**ربنا اللّٰه الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، أنت رب الطيبين، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع**».

فقوله: «**ربنا اللّٰه الذي في السماء**» صريح لا يسوغ العقل تأويله أبدًا، لا بملك، ولا برحمة، ولا بأمر، ولا بغير ذلك مِمَّا يتكلفه المعطلة، فإن كلًّا من الرحمة والأمر مذكور في الحديث، وقصارى شغب المبطلين على هذه الأحاديث الصريحة أن يقولوا: إنَّها أحاديث آحاد، لا يعول عليها في باب الاعتقاد. ولكن هذه الشبهة يرد عليها بأن هذه الأحاديث وإن كان كل واحد منها لا يفيد إلا الظن، إلا أنَّها إذا ضم بعضها إلى بعض؛ تبلغ مبلغ التواتر المعنوي، وهو مفيد للعلم اليقيني.

والعجب من هؤلاء المخذولين الذين يردون على هذه الأحاديث، ويرفضون أخذ عقائدهم منها، وهم إذا جاءهم خبر منقطع عن شخص مجهول يوافق أهواءهم؛ طاروا به فرحًا، وجعلوه حجة لهم في مجال التأويل والإنكار، وكم رأينا من هؤلاء من ينقل عن أرسطو وأفلاطون الوثنيين، وعن أفلوطين المسيحي، ويقدم ذلك على الوحي المنَزل من عند اللّٰه، فبئس ما اشتروا به أنفسهم أن يقدموا كلام هؤلاء الكفرة على كلام اللّٰه ورسوله، ويأخذوا دينهم عن أهل الشرك والإلحاد.

* * *

وَلَقَدْ أَتَى خَبَرٌ رَوَاهُ عَمُّهُ الْـ	ـعَبَّاسُ صِنْوُ أَبِيهِ ذُو الإِحْسَانِ
أَنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا مِنْ فَوْقِهَا الْـ	ـكُرْسِي عَلَيهِ الْعَرْشُ لِلرَّحْمَنِ
وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ يَنْظُرُ خَلْقَهُ	فَانْظُرْهُ إِنْ سَمَحَتْ لَكَ الْعَينَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ حُصَينِ بْنِ الْمُنْذِرِ الثْـ	ـثِقَةِ الرِّضَا أَعْنِي أَبَا عِمْرَانِ
إِذْ قَالَ رَبِي فِي السَّمَاءِ لِرَغْبَتِي	وَلِرَهْبَتِي أَدْعُوهُ كُلَّ أَوَانِ
فَأَقَرَّهُ الْهَادِي الْبَشِيرُ وَلَمْ يَقُلْ	أَنْتَ الْمُجَسِّمُ قَائِلٌ بِمَكَانِ
حَيزْتَ بَلْ جَيهْتَ بَلْ شَبَّهْتَ بَلْ	جَسَّمْتَ لَسْتَ بِعَارِفِ الرَّحْمَنِ
هَذِي مَقَالَتُهُمْ لِمَنْ قَدْ قَالَ مَا	قَدْ قَالَهُ حَقًّا أَبُو عِمْرَانِ

فَاللهُ يأْخُذُ حَقَّهُ مِنْهُمْ وَمِنْ ... أَتْبَاعِهِمْ فَالْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ

الشرح: روى أبو داود فِي سننه عن العباس بن عبد المطلب عم النَّبِيِّ ﷺ قال: «كنت فِي البطحاء فِي عصابة فيهم رسول اللَّه ﷺ، فمرت بِهم سحابة، فنظر إليها فقال: **ما تسمون هذه؟** قالوا: السحاب. قال: **والمزن؟** قالوا: والمزن، قال: **والعِنان؟** قالوا: والعِنان. قال أبو داود: لَم أتقن العِنان جيدًا- قال: **هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟** قالوا: لا ندري. قال: **إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثُمَّ السماء فوقها كذلك** -حَتَّى عد سبع سموات- **ثُمَّ فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثُمَّ فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثُمَّ على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثُمَّ اللَّه - تبارك وتعالى- فوق ذلك**». ثُمَّ رواه أبو داود من طريق آخر، وفيه: «**إن اللَّه فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته**».

وكذلك رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه، ورواه الحافظ ضياء الدين المقدسي فِي المختارة، وابن منده فِي كتاب التوحيد، وهو صريح فِي فوقية الذات؛ لأنه ذكر أن العرش فوق السموات، وهي فوقية حسية بالمكان، فتكون فوقية اللَّه ﷻ على العرش كذلك، ولا يصح أبدًا حمل الفوقية هنا على فوقية القهر والغلبة، وإلا لتفكك معنَى الحديث، ولا يبقى حينئذ معنَى لتخصيص العرش بتلك الفوقية، إذ اللَّه ﷻ فوق الخلق جميعًا قاهر لهم.

وأما حديث حصين بن منذر؛ فقد رواه البيهقي فِي الأسْماء والصفات عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وفيه أن النَّبِيِّ ﷺ قال لحصين: «**كم إلهًا تعبد؟** قال: سبعة، ستة فِي الأرض، وواحد فِي السماء. قال: **من لرغبتك ورهبتك؟** قال: الذي فِي السماء، قال: **فاترك الستة، واعبد الذي فِي السماء، وأنا أعلمك دعوتين**. فأسلم، وعلمه النَّبِيِّ ﷺ أن يقول: **اللَّهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**».

وظاهر من الحديث أن النَّبِيِّ ﷺ أقر حصينًا على ما قاله من أن إلهه الذي يدعوه فِي الرغب والرهب فِي السماء، ولَم يقل له: أنت مجسم بذلك، ولا قائل بالمكان. ولا قال له: حيزت. أي: أثبت الحيز للَّه. ولا جيهت. أي: اعتقدت الجهة. ولا شبهت ومثلت. أي: اعتقدت المشابَهة والمماثلة، وغير ذلك من الألفاظ الَّتِي يرمي بِها المعطلة كل من قال بمثل مقالة حصين، ولكن اللَّه مطلع على ما يقوله الظالمون الجاحدون لصفاته،

وسيأخذ حقه منهم يوم توفى الحقوق لأصحابِها من كل ظالم غشوم.

* * *

وَاذْكُرْ شَهَادَتَهُ لِمَنْ قَدْ قَالَ رَبْـ بِي فِي السَّمَا بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ

وَشَهَادَةَ الْعَدْلِ الْمُعَطِّلِ لِلَّذِي قَدْ قَالَ ذَا بِحَقِيقَةِ الْكُفْرَانِ

وَاحْكُمْ بِأَيِهِمَا تَشَاءُ وَإِنَّنِي لأَرَاكَ تَقْبَلُ شَاهِدَ الْبُطْلَانِ

إِنْ كُنْتَ مِنْ أَتْبَاعِ جَهْمٍ صَاحِبِ التْـ تَعْطِيلِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

وَاذْكُر حَدِيثًا لابْنِ إِسْحَاقَ الرِّضَا ذَاكَ الصَّدُوقُ الْحَافِظُ الرَّبَّانِي

فِي قِصَّةِ اسْتِسْقَائِهِمْ يسْتَشْفِعُو نَ إِلَى الرَّسُولِ بِرَبِّهِ الْمَنَّانِ

فَاسْتَعْظَمَ الْمُخْتَارُ ذَاكَ وَقَالَ شَأْ نُ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ أَعْظَمُ شَانِ

اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ فَوْقَ سَمَائِهِ سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكوتِ وَالسُّلْطَانِ

وَلِعَرْشِهِ مِنْهُ أَطِيطٌ مِثْلَ مَا قَدْ أَطَّ رَحْلُ الرَاكِبِ الْعَجْلَانِ

الشرح: قوله: «واذكر شهادته» إلخ. إشارة إلى حديث الجارية الَّتي سألها النَّبي ﷺ: «**أين اللَّه**؟ فقالت: فِي السماء، ثُمَّ قال لَها: **من أنا**؟ فقالت: أنت رسول اللَّه. فقال لسيدها: **أعتقها فإنَّها مؤمنة**». فهذه شهادته ﷺ لتلك الجارية بالإيمان، فقارن بينها وبين شهادة الجهمي المعطل لمن قال مثل قولها بالكفر، واحكم بعد ذلك بأيِّهما شئت، ولا أراك إن كنت من أصحاب جهم الموصوف بالتعطيل؛ لتعطيله ذات الرب -جل شأنه- عن صفاتِها الواجبة لَها، والعدوان؛ لمجاوزته الحق الذي دلت عليه النصوص، والبهتان؛ لكذبه وافترائه على اللَّه، ولا أراك إن كنت كذلك إلا قابلًا لشهادة البطلان، ومنحازًا إلى فئة الشيطان.

وأما قوله: «واذكر حديثًا» إلخ، فهو إشارة إلى الحديث الذي رواه ابن إسحاق: أن أعرابيًّا جاء إلى النَّبِي ﷺ فقال: «يا رسول اللَّه، نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلك المال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع باللَّه عليك، وبك على اللَّه. فسبح النَّبي ﷺ حَتَّى عرف ذلك فِي وجوه أصحابه، ثُمَّ قال للرجل: **ويحك، أتدري ما اللَّه؟! إن اللَّه لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن اللَّه أعظم**». ثُمَّ ذكر الحديث؛ بعد ما بين سماء وسماء، وبعد ما بين السماء السابعة والعرش، وأن اللَّه فوق ذلك مستوٍ على عرشه، وأن للعرش منه أطيطًا -وهو صوت الرحل الجديد- كأطيط الرحل لراكب عجلان، أي: مغذ فِي سيره.

فالرسول ﷺ إنَّما يذكر ذلك للأعرابي فِي مقام التعليم له بشأن اللَّه ﷻ وعظمته؛ تربية للمهابة فِي قلبه حين قال تلك القولة النكراء الَّتِي أطلقت لسان رسول اللَّه ﷺ بالتسبيح والثناء، فدل هذا على أن التعظيم والتنْزيه ليس بنفي الجهة والاستواء كما يدعي الجهمية السفهاء.

* * *

لِلَّهِ مَا لَقِي ابْنُ إِسْحَاق مِنَ الْـ ... جَـهْـمِـيِّ إِذْ يـرْمِـيـهِ بِـالْـعُـدْوَانِ
وَيـظَـلُّ يـمْـدَحُـهُ إِذَا كَـانَ الَّـذِي ... يـرْوِي يـوَافِـقُ مَـذْهَـبَ الطَّـعَّـانِ
كَـمْ قَـدْ رَأَيـنَـا مِـنْـهُـمُ أَمْـثَـالَ ذَا ... فَـالْـحُـكْـمُ لِـلَّـهِ الْـعَـلِـي الـشَّـانِ
هَذَا هُو التَّطْفِيفُ لَا التَّطْفِيفُ فِي ... ذَرْعٍ وَلَا كَـيـلٍ وَلَا مِـيـزَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ نُزُولِهِ نِصْفَ الدُّجَى ... فِـي ثُـلْـثِ لَـيـلٍ آخِـرٍ أَوْ ثَـانِ
فَـنُـزُولُ رَبٍّ لَـيـسَ فَـوْقَ سَـمَـائِـهِ ... فِي الْعَقْلِ مُمْتَنِعٌ وَفِي الْقُرْآنِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ الصَّادِقِ ابْنِ رَوَاحَةٍ ... فِي شَأْنِ جَارِيـةٍ لَـدَى الْـغَـشَـيَـانِ
فِيهِ الشَّهَادَةُ أَنَّ عَرْشَ اللهِ فَوْ ... قَ الْـمَـاء خَـارِجَ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ
وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْيِ ذِي الْبُهْتَانِ
ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي اسْتِيعَابِهِ ... هَـذَا وَصَـحَّـحَـهُ بِـلَا نُـكْـرَانِ

الشرح: «للَّه» يعني: فِي سبيل اللَّه، «ما لقي ابن إسحاق من الجهمي» بسبب روايته لهذا الحديث، حيث يتهمه بالعدوان والكذب، ولكنه يظل يمدحه ويطريه إذا هو روى ما يوافق مذهبه، فهذا دأبُهم دائمًا: تصديق للراوي فيما لا يصادم قضية من قضايا عقولهم الخاسرة، فإذا روى هو نفسه حديثًا على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لَم يكن نصيبه منهم إلا التشنيع والتكذيب، فما أجدر هؤلاء باسم المطففين؛ حيث يستوفون الذي لهم، وينكرون الذي عليهم، فهذا هو التطفيف فِي الحقيقة، لا التطفيف فِي كيل، أو ذرع، أو ميزان، بل أجدرهم أن يكونوا مِمَّن قال اللَّه ﷻ فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

وأما قوله: «واذكر حديث نزوله» إلخ، فقد تقدم الكلام على هذا الحديث، وهو يدل دلالة قاطعة على وجود اللَّه ﷻ فوق عرشه، فإن حقيقة النُّزول هي انتقال النازل من مكان

عال إلى ما دونه، فنُزول بلا فوقية مُمتنع فِي العقل والشرع جميعًا، وأما تأويله بنُزول الأمر أو الرحمة أو الملك؛ فقد بينا فساده.

وأما قوله: «واذكر حديث الصادق ابن رواحة» إلخ. فهو عبد اللَّه بن رواحة الخزرجي، أحد شعراء الرسول ﷺ، قتل فِي غزوة مؤتة، وقد جاء فِي هذا الحديث أن عبد اللَّه بن رواحة وقع على جارية له، فرأته زوجته، فجاءت بسكين لتضربه بِها، فأنكر أنه غشي الجارية، فقالت له: إن كنت صادقًا، فاقرأ قرآنًا، فأنشدها هذين البيتين:

شَهِدتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

فقالت: صدق اللَّه وكذبت عيناي. وقد أخبر ابن رواحة رسول اللَّه ﷺ بذلك فأقره ولَم ينكر عليه، وفي هذين البيتين تصريح بأن اللَّه فوق عرشه فوقية حقيقية.

* * *

وَحَدِيثُ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ فَثَابِتٌ ... وَهْوَ الصَّرِيحُ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ
وَإِلَى إِلَهِ الْعَرْشِ كَانَ عُرُوجُهُ ... لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْ صَحْبِهِ رَجُلَانِ
وَاذْكُرْ بِقِصَّةِ خَنْدَقٍ حُكْمًا جَرَى ... لِقُرَيظَةٍ مِنْ سَعْدٍ الرَّبَّانِي
شَهِدَ الرَّسُولُ بِأَنَّ حُكْمَ إِلَهِنَا ... مِنْ فَوْقِ سَبْعٍ وِفْقَهُ بِوِزَانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثًا لِلْبَرَاءِ رَوَاهُ أَصْـ ... حَابُ الْمَسَانِدِ مِنْهُمُ الشَّيْبَانِي
وَأَبُو عَوَانَةَ ثُمَّ حَاكِمُنَا الرِّضَا ... وَأَبُو نُعَيمٍ الْحَافِظِ الرَّبَّانِي
قَدْ صَحَّحُوهُ وَفِيهِ نَصٌّ ظَاهِرٌ ... مَا لَمْ يُحَرِّفْهُ أُولُو الْعُدْوَانِ
فِي شَأْنِ رُوحِ الْعَبْدِ عِنْدَ وَدَاعِهَا ... وَفِرَاقِهَا لِمَسَاكِنِ الأَبْدَانِ
فَتَظَلُّ تَصْعَدُ فِي سَمَاءٍ فَوْقَهَا ... أُخْرَى إِلَى خَلَّاقِهَا الرَّحْمَنِ
حَتَّى تَصِيرَ إِلَى سَمَاءٍ رَبُّهَا ... فِيهَا وَهَذَا نَصُّهُ بِأَمَانِ

الشرح: المعراج: آلة العروج وهو الصعود، وقد ثبت عروجه ﷺ ليلة الإسراء بالأحاديث الصحيحة الَّتِي تبلغ حد التواتر، فلا مجال لإنكاره، ووقع اتفاق الصحابة فمن بعدهم على أن هذا العروج كان إلى ذي العرش سبحانه، وأنه قربه منه وأدناه، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة مباشرة فِي تلك الليلة، وتأمل قول موسى ﷺ حين سأل نبينا ﷺ عما

فرض الله عليه وعلى أمته، فقال: «**خمسين صلاة**»: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك. وقوله ﷺ: «**فما زلت أراجع ربي حَتَّى جعلها خمس صلوات فِي اليوم والليلة**».

فليت شعري ماذا يقول المعطلة فِي هذا؟! وهل يعقل أن موسى أمر نبينا ﷺ بالرجوع إلى ملك الله أو أمره كما يزعمون فِي غير هذا الموضوع، وقد كان معه جبريل ملك الوحي وقتئذ، وقد ورد أنه استشار جبريل فيما قاله موسى فقال له: «نعم، إن شئت».

وأما قوله: «واذكر بقصة خندق حكمًا جرى». إلخ. فهو إشارة إلى ما كان من أمر بني قريظة حين حاصرهم النَّبِي ﷺ؛ بسبب نقضهم العهد وانضمامهم للأحزاب فِي غزوة الخندق، فطلبوا منه أن يحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، فحكم فيهم سعد بأن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى نساؤهم وذراريهم، وأن تؤخذ أموالهم غنيمة للمسلمين، فقال له النَّبِي ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات**». وقد نزل فِي شأن هذه الغزوة قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وأما قوله: «واذكر حديثًا للبراء» إلخ، فهو إشارة إلى ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه من قوله ﷺ ما معناه: «**أن روح العبد إذا فارقت البدن تصعد بِها الملائكة من سماء إلى سماء حَتَّى تنتهي إلى السماء التي فيها الرب**». إلخ، فهو صريح بوجود الرب -جل شأنه- فِي السماء، أي: فِي جهة العلو.

* * *

وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي الصَّحِيحِ وَفِيـ ... ـهِ تَحْذِيرٌ لِذَاتِ الْبَعْلِ مِنْ هِجْرَانِ

مِنْ سُخْطِ رَبٍّ فِي السَّمَاءِ عَلَى الَّتِي ... هَجَرَتْ بِلَا ذَنْبٍ وَلَا عُدْوَانِ

وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ ... فِيهِ الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ

فِي شَأْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا وَمَا ... يَلْقَوْنَ مِنْ فَضْلٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

بَينَا هُمُ فِي عَيشِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ ... وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعِ الْغَشَيَانِ

لَكِنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَيهِ رُءُوسَهُمْ ... فَإِذَا هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْغُفْرَانِ

فَيُسَلِّمُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيهِمْ وَهْوَ ذُو الإِحْسَانِ

الشرح: قوله: «واذكر حديثًا فِي الصحيح» إلخ، إشارة إلى قوله ﷺ ما معناه: **«والذي نفسي بيده، ما من امرأة تبيت هاجرة فراش زوجها إلا كان الذي فِي السماء ساخطًا عليها حَتَّى تصبح»**. فالذي فِي السماء إنَّما هو الرب -جل شأنه- لا يصح أن يحمل على شيء آخر من ملك ونحوه، فإن المقصود من الحديث الزجر، والتهديد، والوعيد الشديد لمن تفعل ذلك، والذي يناسب هذا إنَّما هو سخط الرب وغضبه.

وأما قوله: «واذكر حديثًا، قد رواه جابر» إلخ، فهو إشارة إلى قوله ﷺ ما معناه فيما رواه ابن ماجه فِي سننه: **«بينما أهل الجنة فِي نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حَتَّى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»**. رواه ابن ماجه فِي كتاب السنة من سننه عن مُحمَّد بن عبد الملك بن أبي الشوارب.

* * *

وَاذْكُرْ حَدِيثًا قَدْ رَوَاهُ الشَّافِعِي ... يُ طَرِيقُهُ فِيهِ أَبُو الْيَقْظَانِ
فِي فَضْلِ يومِ الْجُمُعَةِ الْيومِ الَّذِي ... بِالْفَضْلِ قَدْ شَهِدَتْ لَهُ النَّصَّانِ
يَوْمُ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
وَاذْكُرْ مَقَالَتَهُ أَلَسْتُ أَمِينَ مَنْ ... فَوْقَ السَّمَاءِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
وَاذْكُرْ حَدِيثَ أَبِي رُزَيْنٍ ثُمَّ سُقْـ ... ـهُ بِطُولِهِ كَمْ فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ
وَاللهِ مَا لِمُعَطِّلٍ بِسَمَاعِهِ ... أَبَدًا قُوَى إِلَّا عَلَى النُّكْرَانِ
فَأُصُولُ دِينِ نَبِيِّنَا فِيهِ أَتَتْ ... فِي غَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ
وَبِطُولِهِ قَدْ سَاقَهُ ابْنُ إِمَامِنَا ... فِي سُنَّةٍ وَالْحَافِظُ الطَّبَرَانِي
وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ بِتَارِيخٍ لَهُ ... وَأَبُوهُ ذَاكَ زُهَيْرٌ الرَّبَّانِي

الشرح: أخرج الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أتى جبريل رسول الله ﷺ بمرآة بيضاء فيها نكتة، فقال النَّبِي ﷺ: **ما هذه؟** فقال: هذه الجمعة، فضلت بها أنت وأمتك، والناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. فقال

النَّبِي ﷺ: **وما يوم المزيد يا جبريل؟ قال**: إن ربك اتخذ فِي الفردوس واديًا أفيح فيه كثب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة؛ أنزل اللَّه ﷻ ما شاء من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول اللَّه ﷻ: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم. فيقولون: ربنا نسألك رضوانك. فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنيتم، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة، لما يعطيهم فيه ربُّهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربك على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

والشاهد هنا فِي قوله: «وهو اليوم الذي استوى فيه ربك على العرش». وهو موافق لما فِي القرآن من أن استواءه تعالى على العرش كان بعد خلق السموات والأرض، ومعلوم أن اللَّه ابتدأ الخلق يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة حيث خلق آدم، وهو آخر المخلوقات، فِي آخر ساعة منه بعد العصر، ثُمَّ استوى بعد ذلك على العرش، فيكون الاستواء قد وقع يوم الجمعة بعد الفراغ من الخلق.

وأما قوله: «واذكر مقالته: ألست أمين من فوق السماء» البيت، فهو إشارة إلى ما ورد فِي الصحيح من حديث الخوارج، من قوله ﷺ: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من فِي السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»**.

والشاهد فِي قوله: «**وأنا أمين من فِي السماء**». فليس له معنى إلا أنه أمين اللَّه الذي فِي السماء، لا يجوز أبدًا أن يراد بمن فِي السماء غير ذلك.

* * *

وَاذْكُرْ كَلَامَ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ ... أَقِمِ الصَّلَاةَ وَتِلْكَ فِي سُبْحَانِ

فِي ذِكْرِ تَفْسِيرِ الْمَقَامِ لأَحْمَدٍ ... مَا قِيلَ ذَا بِالرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

إِنْ كَانَ تَجْسِيمًا فَإِنَّ مُجَاهِدًا ... هُوَ شَيخُهُمْ بَلْ شَيخُهُ الْفَوْقَانِي

وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ الْجُلُوسِ بِهِ وَفِي ... أَثَرٍ رَوَاهُ جَعْفَرُ الرَّبَّانِي

أَعْنِي ابْنَ عَمِّ نَبِينَا وَبِغَيرِهِ ... أَيضًا أَتَى وَالْحَقُّ ذُو التِّبْيَانِ

وَالدَارَقُطْنِي الإِمَامُ يثَبِّتُ الْـ ... آثَارَ فِي ذَا الْبَابِ غَيرَ جبَانِ

وَلَهُ قَصِيدٌ ضُمِّنَتْ هَذَا وَفِيـ ... هَا لَسْتُ لِلْمَرْوِي ذَا نُكْرَانِ

وَجَرَتْ لِذَلِكَ فِتْنَةٌ فِي وَقْتِهِ مِنْ فِرْقَةِ التَّعْطِيلِ وَالْعُدْوَانِ

الشرح: روى ابن جرير وغيره في تفسير: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩]. أن المقام المحمود: هو الشفاعة العظمى.

وذكر عن مجاهد: أن المقام المحمود: هو أن اللَّه تعالى يجلس رسوله معه على العرش. واللَّه أعلم.

* * *

وَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ وِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ
لَكِنْ بِمِحْنَةِ حِزْبِهِ مِنْ حَرْبِهِ ذَا حِكْمَةٍ مُذْ كَانَتِ الْفِئَتَانِ
وَقَدِ اقْتَصَرْتُ عَلَى يسِيرٍ مِنْ كَثِيـ ـرٍ فَائِتٍ لِلْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ
مَا كُلُّ هَذَا قَابِلُ التَّأْوِيلِ بِالتْـ ـتَحْرِيفِ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرح: إذا كانت الحرب في هذا الباب قائمة بين أهل الحق والإثبات من جهة، وبين أهل النفي والتعطيل من جهة أخرى، فإن النصر فيها مضمون لأقربهما إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، حيث وعد اللَّه ﷻ بذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١-١٧٣]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر: ٥١]. ولكن ما يجري على أهل الحق من عدوان أهل الباطل عليهم، وإيذائهم لهم، فإن ذلك امتحان من اللَّه -تبارك وتعالى- لحزبه وأوليائه؛ ليصفي بذلك جوهرهم، ويمحص قلوبَهم، ويزيدهم عنده كرامة ورفعة على ما أوذوا في سبيله وصبروا، وعلى ما احتملوا في جهاد أعدائه المبطلين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[محمد: ٤].

ثُمَّ ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لَم يذكر من أدلة علو اللَّه تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه إلا طرفًا يسيرًا جدًّا من كثير لا يُمكن عده وإحصاؤه، ولا يعقل أن تكون هذه النصوص كلها من الآيات والأحاديث والآثار في كثرتِها ووضوحها قابلة لتأويل هؤلاء المعطلة، لولا أن القوم قد أصبحوا ولا حياء عندهم يمنعهم من الجرأة على كتاب اللَّه ﷻ بالتحريف، ويلزمهم الوقوف عند ما وقف سلف هذه الأمة، الذين هم أكملها علمًا، وأوسعها فهمًا، بدلًا من أن يتخبطوا في هذه المتاهات الَّتِي أضلتهم عن سواء السبيل.

فصل في جناية التأويل على ما جاء به الرسول والفرق بين المردود منه والمقبول

هَـذَا وَأَصْـلُ بَـلِـيـةِ الإِسْـلَامِ مِـنْ ... تَـأْوِيـلِ ذِي الـتَّـحْـرِيـفِ وَالْـبُـطْـلَانِ

وَهْوَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ السَّبْعِينَ بَلْ ... زَادَتْ ثَـلَاثًـا قَـوْلَ ذِي الْـبُـرْهَـانِ

وَهْوَ الَّذِي قَتَلَ الْخَلِيفَةَ جَامِعَ الْـ ... قُـرْآنِ ذَا الـنُّـورَيْـنِ وَالإِحْـسَـانِ

وَهْوَ الَّذِي قَتَلَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَهُ ... أَعْـنِـي عَـلِـيًّـا قَـاتِـلَ الأَقْـرَانِ

وَهْوَ الَّذِي قَتَلَ الْحُسَينَ وَأَهْلَهُ ... فَـغَـدَوْا عَـلَـيْـهِ مُـمَـزَّقِـي اللُّـحْـمَـانِ

وَهْوَ الَّذِي فِي يوْمِ حَرْبِهِمُ أَبَا ... حَ حِمَى الْمَدِينَةِ مَعْقِلِ الإِيمَانِ

حَتَّى جَرَتْ تِلْكَ الدِّمَاءُ كَأَنَّهَا ... فِـي يَـوْمِ عِـيـدٍ سُـنَّـةُ الْـقُـرْبَـانِ

وَغَدَا لَهُ الْحَجَّاجُ يسْفِكُهَا وَيقْـ ... ـتُـلُ صَـاحِـبَ الإِيـمَـانِ وَالْـقُـرْآنِ

وَجَرَى بِمَكَّةَ مَا جَرَى مِنْ أَجْلِهِ ... مِنْ عَسْكَرِ الْحَجَّاجِ ذِي الْعُدْوَانِ

الشرح: بعد أن بين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فساد مذهب أهل التأويل فِي مسألة العلو، وما يفضي إليه من نفي وجود الرب -جل شأنه- قرر هنا أن أساس كل بلية أصيب بِها الإسلام إنَّما هو التأويل الذي هو فِي الحقيقة تحريف وإلحاد، فجميع الأحداث الكبار الَّتِي وقعت فِي هذه الأمة، وهزت من كيانِها، وفرقتها شيعًا، لَم يكن لَها من سبب إلا جنوح فريق منها إلى اتباع الهوى، والاستحسان بالرأي، وترك الاعتصام بالكتاب والسنة، فهذا هو الذي فرق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، مصداق قوله ﷺ فيما رواه عبد اللَّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«إن بني إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها فِي النار إلا ملة واحدة. قيل: من هي يا رسول اللَّه؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**.

وهو الذي كان سببًا فِي قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صاحب المناقب الغراء فِي جمع القرآن فِي المصحف الإمام، وتجهيز جيش العسرة من ماله، واختصاصه بتزوج اثنتين من بناته ﷺ، إذ لولا ظهور التأويل، ونشر الدعايات الخبيثة فِي الأمصار ضد خليفة الإسلام؛ لما جرؤت هذه الوفود الَّتِي قدمت المدينة على محاصرة داره، واقتحامها

عليه، وقتله ظلمًا وهو يتلو كتاب اللَّه ﷻ.

وكان مِمَّا تأوله القتلة فِي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. فقالوا: إن عثمان كفر؛ لحكمه بغير الحق، وكل كافر فهو مشرك، حلال الدم والمال.

وبِهذه التأويلات الفاسدة استحل الخوارج الذين خرجوا فِي زمن علي ﵁ دماء المسلمين وأموالهم، وكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة، وخرج منهم عبد الرحمن بن ملجم -أشقى هذه الأمة- فقتل عليًّا ﵁، وهو ينادي لصلاة الصبح بمسجد الكوفة سنة ٤٠ من الهجرة.

وكان التأويل أيضًا سببًا فِي مقتل الحسين، والإيقاع به هو وأهله فِي كربلاء، حيث قتله جند يزيد بن معاوية متأولين أنه من البغاة الخارجين عن طاعة الإمام.

وكان التأويل كذلك هو السبب فِي استباحة جند يزيد حمى المدينة المنورة فِي وقعة الحرة ثلاثة أيام، يسفكون الدماء، وينهبون الأموال، ويهتكون الأعراض، حَتَّى فني فِي هذه الموقعة معظم الأنصار الذين آووا ونصروا -رضي اللَّه عنهم أجمعين-.

ومن بعد ذلك جرى بمكة ما جرى من عسكر الحجاج الغشوم حيث حاصرها فِي أيام ابن الزبير ﵁، وضربَها بالمنجنيق، وانتهت المعركة بمقتل ابن الزبير بعد أن تخلى عنه أصحابه.

فكل هذه البلايا ما وقعت إلا بسبب تأويلات الخوارج، والمرجئة، والقدرية، والرافضة، وغيرهم من فرق الضلال والزيغ الَّتِي اتبعت ما تشابه من الكتاب، وتركت مُحكمه، فصاروا فِي أمر مريج.

* * *

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَا الْخَوَارِجَ مِثْلَ إِنْـ ... شَاءِ الرَّوَافِضِ أَخبَثِ الْحَيَوَانِ

وَلأَجْلِهِ شَتَمُوا خِيَارَ الْخَلْقِ بَعْـ ... دَ الرُّسْلِ بِالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

وَلأَجلِهِ سَلَّ الْبُغَاةُ سُيوفَهُمْ ... ظَنًّا بِأَنَّهُمُ ذَوُو إِحْسَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ أَهْلُ الإِعْتِزَا ... لِ مَقَالَةً هَدَّتْ قُوَى الإِيمَانِ

وَلأَجْلِهِ قَالُوا بِأَنَّ كَلامَهُ ... سُبْحَانَهُ خَلْقٌ مِنَ الأَكْوَانِ

وَلأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبَتْ بِقَضَائِهِ شِبْهُ الْمَجُوسِ الْعَابِدِي النِّيرَانِ
وَلأَجْلِهِ قَدْ خَلَّدُوا أَهْلَ الْكَبَا ئِرِ فِي الْجَحِيمِ كَعَابِدِي الأَوْثَانِ
وَلأَجْلِهِ قَدْ أَنْكَرُوا لِشَفَاعَةِ الْـ مُخْتَارِ فِيهِمْ غَايَةَ النُّكْرَانِ

الشرح: والتأويل كذلك هو الذي كان سببًا فِي ظهور الخوارج والروافض.

أما الخوارج: فهم الذين يسمون بالحرورية أو الشراة، وقد كانوا أولًا فِي معسكر علي رضي الله عنه، ثُمَّ خرجوا عليه بعد حادثة التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا للَّه. وكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة رضي الله عنهم، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم، ومن مذهبهم أن من ارتكب كبيرة، ولَم يتب منها، فهو كافر مخلد فِي النار، ومن شبههم الفاسدة فِي هذا أن اللَّه عز وجل قال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]. ثُمَّ قال فِي آية أخرى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فقالوا: إن اللَّه قد نفى الخزي عن المؤمنين، وأثبته لأهل النار، وعلى ذلك فكل من دخل النار فليس بمؤمن، وكل من ليس بمؤمن فهو كافر، وهم محجوجون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وبالأحاديث المتواترة فِي خروج الموحدين من النار.

وأما الروافض: فهم غالية الشيعة الذين غَلَوا فِي علي رضي الله عنه وفي أهل بيته، وكان سبب تسميتهم بِهذا الاسم أنَّهم طلبوا من زيد بن علي أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلما لَم يجبهم انفضوا عنه، فقال: رفضني هؤلاء. فسُمُّوا رافضة، وهؤلاء الروافض أخبث الناس قولًا فِي صحابة رسول اللَّه ﷺ، وأكذبُهم فِي الحديث عنه، ويقولون بالإمام المعصوم، وبالتقية، والرجعة، وهم خارجون عن دائرة الإسلام.

والتأويل كذلك هو السبب فِي خروج البغاة على الأئمة، وشقهم عصا الطاعة، وخروجهم عن الجماعة، وترويعهم المسلمين، ويظنون أنَّهم بذلك من أهل الإحسان؛ لأنَّهم يريدون إقامة العدل، ودك صروح الظلم والطغيان، وينسون قوله عليه السلام: «**من فارق الجماعة قيد شبر؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**». وهو كذلك السبب فيما ذهب إليه أهل الاعتزال من أقوال منكرة، كانت معاول هدم فِي صرح الإيمان.

منها: قولهم: إن كلام اللَّه مخلوق، منفصل عنه، وليس صفة قائمة به، فخالفوا بذلك العقل والنقل، وأتوا منكرًا من القول وزورًا، وقد سبق الكلام فِي هذه المسألة.

ومنها: تكذيبهم بقضاء اللَّه وقدره، وقولهم: إن الأمر أنف، وأن اللَّه لَم يكن يعلم

أعمال العباد قبل أن يفعلوها، وأن اللَّه لا يريد أفعال العباد، ولا يقدر عليها، بل هم الذين يخلقونَها، فأشبهوا بذلك المجوس؛ حيث أثبتوا خالقًا غير اللَّه.

ومنها: حكمهم على أهل الكبائر بالخلود فِي النار مع الكفار كما قالت الخوارج، إلا أنَّهم لا يسمونَهم كفارًا، ولا مؤمنين، بل يجعلونَهم فِي منْزلة بين المنْزلتين.

ومنها: إنكارهم لشفاعة النَّبِيِّ ﷺ فِي أهل الكبائر، وهي ثابتة بالأحاديث البالغة حد التواتر، ويتمسكون فِي هذا بالآيات الَّتِي تنفي الشفاعة[1] مع أنَّها خاصة بالشفاعة لأهل الشرك، ونفي الشفاعة عن هؤلاء يفيد ثبوتَها لغيرهم كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥]. فنفي الشفاعة بغير إذن يفيد ثبوتَها بالإذن كقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم: ٢٦].

* * *

وَلأَجْلِهِ ضُرِبَ الإِمَامُ بِسَوْطِهِمْ	صِدِّيقُ أَهْلِ السُّنَّةِ الشَّيْبَانِي
وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ جَهْمٌ لَيسَ رَبْـ	ـبُ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
كَلَّا وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا	وَالْعَرْشِ مِنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَنِ
مَا فَوْقَهَا رَبٌّ يطَاعُ جِبَاهُنَا	تَهْوِي لَهُ بِسُجُودِ ذِي خُضْعَانِ
وَلأَجْلِهِ جُحِدَتْ صِفَاتُ كَمَالِهِ	وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَلأَجْلِهِ أَفْنَى الْجَحِيمَ وَجَنَّةَ الْـ	ـمَأْوَى مَقَالَةَ كَاذِبٍ فَتَّانِ
وَلأَجْلِهِ قَالُوا الإِلَهُ مُعَطَّلٌ	أَزَلًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَزَمَانِ
وَلأَجْلِهِ قَدْ قَالَ لَيسَ لِفِعْلِهِ	مِنْ غَايَةٍ هِي حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

الشرح: ولأجل التأويل أيضًا ضُرب أحمد بن حنبل الشيباني صديق أهل السنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث أراد المأمون -بتأثير المعتزلة- أن يحمل العلماء على القول بخلق القرآن، وامتحنهم بذلك امتحانًا شديدًا، فأجابوه إلى ذلك تقية وخوفًا من القتل، ولَم يثبت فِي المحنة إلا أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، فأمر المأمون بحملهما إليه بواسط، ولكن المنية عاجلته قبل أن يصلا إليه، فقام بِها أخوه المعتصم بوصية منه، وضرب أحمد بن

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨]. وقوله على لسان المشركين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[الشعراء: ١٠٠-١٠١].

حنبل، وطيف به، وهو مُصِرٌّ على قولة الحق فِي أن القرآن كلام اللَّه، منَزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فاستحق بذلك منصب الإمامة فِي الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وكانت محنة أحمد نقطة سوداء فِي تاريخ بني العباس والمعتزلة -قبحهم اللَّه-.

ولأجل التأويل كذلك نفى جهم -شيخ المعطلة- وجود اللَّه ﷻ فوق عرشه بذاته، وقال: ليس فِي السماء إله يُعبد، ولا فوق العرش رب يُصلَّى له ويسجد. وتأول جَميع الآيات والأحاديث الواردة فِي إثبات جهة العلو، وهي من الكثرة والوضوح بحيث لا ينكرها إلا ضال أعمى كما قدمنا، ولا متمسك له هو وأشياعه على هذا النفي إلا شبه واهية يسمونَها عقلية، وهي جهليات لا تغني من الحق شيئًا، كقولهم: إذا كان اللَّه فِي جهة كان محدودًا ومتحيزًا وذا صورة، ويمكن أن يشار إليه بالإشارة الحسية، وهذا من خواص الأجسام.

والجواب: ما قدمناه من أن استواءه تعالى على العرش ليس كاستواء المخلوق على المخلوق، فلا يلزمه ما يلزمها، على أن ما ذكروه من اللوازم ليس كله فاسدًا، كالحد والتحيز والصورة والإشارة الحسية... إلخ، وادعاؤهم أن هذا من لوازم الأجسام، إن أرادوا تلك الأجسام الاصطلاحية الَّتِي هي مركبة عندهم إما من الجواهر الفردة على رأي المتكلمين، أو الهيولى والصورة على رأي الفلاسفة -فممنوع، وإنَّما هي من خواص كل موجود قائم بنفسه، وله وجود مستقل إذ لا يعقل وجود بدون هذه اللوازم.

ولأجل التأويل أيضًا جحد الجهم وأشياعه صفات اللَّه ﷻ من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها، وقالوا: لا نصفه بصفة المخلوق. ومنهم من أثبت بعضًا، ونفى بعضًا على اختلاف مذاهبهم فِي التجهم والتعطيل، وكل من نفى صفة من الصفات اضطر إلى تأويل ما ورد فِي إثباتِها من النصوص، ولا متمسك لهم على هذا النفي أيضًا إلا ادعاؤهم أن الإثبات يقتضي المماثلة بين اللَّه ﷻ وبين خلقه، وهو وَهمٌ فاسد، فإن الإثبات لا يستلزم المماثلة، بل يثبت للخالق من ذلك ما يليق به، ويثبت للمخلوق ما يليق به، فليس العلم كالعلم، ولا القدرة كالقدرة، وليست اليد كاليد، ولا العين كالعين، وليس الاستواء كالاستواء، ولا النُّزول كالنُّزول... إلخ، فإن الاشتراك إنَّما هو فِي مسمى الاسم الكلي، وذلك يستلزم التماثل بين أفراده فِي الخارج، ألا ترى أن الوجود الكلي يشترك فيه الواجب والممكن، وليس وجود الواجب فِي الخارج يماثل

وجود الممكن، وهكذا، ولأجل التأويل ذهب الجهم إلى القول بفناء الجنة والنار، وهي مقالة لَم يقلها فِي الإسلام غيره.

وقال هو ومن تبعه من المعتزلة والأشاعرة: إن اللّه لَم يكن فاعلًا فِي الأزل، ثُمَّ صار فاعلًا، أي أنه لَم يزل معطلًا عن الفعل مدة لا نِهاية لَها من الزمان قبل أن يخلق هذا العالم، ثُمَّ ابتدأ الخلق، وكان هذا مِمَّا أعان الفلاسفة عليهم، حيث أوردوا عليهم أنه يلزم حدوث شيء فِي ذاته اقتضى الفعل بعد أن لَم يكن مقتضيًا، كأن كان عاجزًا فقدر، أو كان فاقدًا لآلة فوجدها، أو كان غير مريد للفعل، ثُمَّ أراد... إلخ.

فإن قلتم: إن الإرادة قديمة، والقدرة موجودة فِي الأزل، وجميع الشرائط المعتبرة فِي الفعل مستكملة. فما الذي منعه من أن يفعل، وليس لكم أن تقولوا: إن الإرادة القديمة إنَّما تعلقت بالإيجاد فِي هذا الوقت دون غيره، فإن الأوقات كلها متساوية بالنسبة للإرادة فِي الأزل، وليس وقت منها أولى من غيره.

ولأجل التأويل أيضًا نفى الجهم وأشياعه من الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة الحكمة عن فعله تعالى، وقالوا: إن أفعاله لا تعلل بالأغراض والغايات، فإن الفاعل لغرض مستكمل. وتوهموا أن إثبات غاية باعثة له ﷻ على الفعل نقص يجب تنْزيه اللّه تعالى عنه، وجوزوا ترجيح القادر لأحد الأمرين المتساويين بلا مرجح، وفاتَهم أن مثل ذلك يكون عبثًا، يستحيل صدوره عن اللّه ﷻ، على أن الغايات والمصالح الَّتِي من أجلها يفعل ربنا سبحانه ظاهرة متجلية فِي كل ما خلقه أو أمر به، والقرآن والسنة فيهما الكثير من تلك الحكم الَّتِي لا ينكرها إلا مكابر، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. ومثلها قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ومثل قوله -جل وعلا-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١]. إلخ ما لا يُمكن حصره من آيات الكتاب العزيز.

وَلأَجْلِهِ قَدْ كَذَّبُوا بِنُزُولِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ بِنِصْفِ لِيلٍ ثَانِ

وَلأَجْلِهِ زَعَمُوا الْكِتَابَ عِبَارَةً ... وَحِكَايَةً عَنْ ذَلِكَ الْقُرْآنِ
مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ سِوَى الْمَخْلُوقِ وَالْـ ... قُرْآنُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الرَّحْمَنِ
مَا ذَا كَلَامُ اللهِ قَطُّ حَقِيقَةً ... لَكِنْ مَجَازٌ وَيحَ ذَا الْبُهْتَانِ
وَلأَجْلِهِ قُتِلَ ابْنُ نَصْرٍ أَحْمَدٌ ... ذَاكَ الْخُزَاعِيُّ الْعَظِيمُ الشَّانِ
إِذْ قَالَ ذَا الْقُرْآنُ نَفْسُ كَلَامِهِ ... مَا ذَاكَ مَخْلُوقٌ مِنَ الأَكْوانِ

الشرح: وكما جنى التأويل على صفة العلو والاستواء على العرش الَّتِي جاء بِها صريح الكتاب والسنة، كذلك حمل هؤلاء المتأولة على التكذيب بنُزوله ﷻ إلى السماء الدنيا حين يبقى شطر الليل الآخر، مع صحة الحديث بذلك، وبلوغه مبلغ التواتر، ومن سلم منهم بصحة الحديث؛ تأوله بدنو الرحمة أو بنُزول الأمر أو الملك، إلى غير ذلك مِمَّا لا تدل عليه العبارة، لا تصريحًا، ولا تلميحًا، وهل يعقل أن يكون الأمر أو الملك هو الذي يقول: «هل من سائل فأعطيه». إلخ.

ومن أجل التأويل أيضًا: ذهب الكلابية والأشعرية إلى إثبات الكلام النفسي، ونفي الحرف والصوت عن كلام اللَّه ﷿، ولهذا قالوا: إن هذا المتلو بالألسنة، والمكتوب فِي المصاحف، والمحفوظ فِي الصدور، ليس كلام اللَّه، بل هو عبارة أو حكاية عنه، فإن كلام اللَّه قديم، ليس بحرف، ولا صوت، وهذا الذي عندنا محدث مخلوق؛ لأنه مركب من حروف وأصوات، واللَّه لَم يتكلم عندهم بالقرآن؛ لأن كلامه ليس بحروف وأصوات مسموعة، فجبريل ﵇ لَم يسمع القرآن من اللَّه ﷿، ولكنه أخذه من اللوح المحفوظ، أو سمع كلامًا فِي الهواء... إلخ.

ثُمَّ اختلفوا: هل يطلق لفظ القرآن بالاشتراك بين المعنى النفسي القائم بذاته تعالى وبين هذا المتلو المسموع، أو هو حقيقة فِي النفسي، مجاز فِي اللفظي، أو العكس؟ فهذا القرآن عندهم ليس كلام اللَّه على الحقيقة، بل على سبيل المجاز، من باب إطلاق اسم المدلول على الدال.

ومن أجل التأويل أيضًا: قتل الشيخ أحمد بن نصر الخزاعي ﵀ زمان المحنة حين ثبت مع الإمام أحمد فِي القول بأن هذا القرآن المتلو المسموع هو نفس كلامه تعالى، ليس بمخلوق من جملة المكونات.

* * *

وَهْوَ الَّذِي جَرَّ ابْنَ سِينَا وَالأُلَى ... قَالُوا مَقَالَتَهُ عَلَى الْكُفْرَانِ
فَتَأَوَّلُوا خَلْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... وَحُدُوثَهَا بِحَقِيقَةِ الإِمْكَانِ
وَتَأَوَّلُوا عِلْمَ الإِلَهِ وَقَوْلَهُ ... وَصِفَاتِهِ بِالسَّلْبِ وَالْبُطْلَانِ
وَتَأَوَّلُوا الْبَعْثَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ... رُسُلُ الإِلَهِ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ
بِفِرَاقِهَا لِعَنَاصِرٍ قَدْ رُكِّبَتْ ... حَتَّى تَعُودَ بَسِيطَةَ الأَرْكَانِ
وَهْوَ الَّذِي جَرَّ الْقَرَامِطَةَ الأُلَى ... يَتَأَوَّلُونَ شَرَائِعَ الإِيمَانِ
فَتَأَوَّلُوا الْعَمَلِي مِثْلَ تَأَوُّلِ الْـ ... ـعِلْمِي عِنْدَكُمُ بِلَا فُرْقَانِ
وَهْوَ الَّذِي جَرَّ النَّصِيرَ وَحِزْبَهُ ... حَتَّى أَتَوْا بِعَسَاكِرِ الْكُفْرَانِ
فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... وَخُمَارُهَا فِينَا إِلَى ذَا الآنِ

الشرح: والتأويل كذلك هو الذي جرأ أبو علي بن سينا الفيلسوف -ومن لف لفه- على القول بقدم العالم بالزمان؛ لأنه معلول لعلة قديمة، والعلة التامة يجب أن يقارنَها معلولها، ولا يتأخر عنها، وتأولوا خلق اللَّه للعالم وحدوثه عنه بأنه مفتقر إليه؛ لإمكانه افتقار المعلول إلى علته، وليس معنَى الخلق أو الحدوث أن اللَّه أوجده من العدم، والقول بقدم العالم كانت إحدى المسائل الَّتِي كفر بِها الغزالي الفلاسفة فِي كتابه «التهافت».

وكذلك تأولوا علم اللَّه ﷻ وجميع صفاته بمعان سلبية؛ تحاشيًا من القول بالتركيب.

يقول ابن سينا فِي كتابه «النجاة»: «فإذا حققت تكون الصفة الأولى لواجب الوجود أنه موجود، ثُمَّ الصفات الأخرى يكون بعضها المتعين فيه هذا الوجود مع إضافة، وبعضها هذا الوجود مع السلب، وليس ولا واحد منها موجبًا فِي ذاته كثرة ألبتة ولا مغايرة».

وكذلك تأولوا علم اللَّه ﷻ وجميع صفاته بِمعان سلبية؛ تحاشيًا من البعث الجسماني الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- والذي هو خروج الموتى من قبورهم أحياء، بأنه فراق الروح لعالم العناصر، الذي هو عالم الكون والفساد، ورجوعها إلى عالمها الأول، حين كانت تعيش فِي عالم البسائط والمجردات الَّتِي لا يعتريها تحلل ولا فساد، ولا يجوز أن يكون الضمير فِي قوله: «بفراقها» عائد على الأبدان؛ لأن الأبدان من عالم العناصر، فكيف تفارقه؟ اللَّهم إلا إذا أريد بِهذا أنَّها تتحلل، فيعود كل عنصر منها إلى حاله قبل التركيب، ولكن إطلاق اسم البعث على هذا المعنى بعيد، فالظاهر أن المراد

بالبعث هنا مفارقة الروح لعالم العناصر .

وكذلك جرأ التأويل القرامطة، أتباع حمدان قرمط، وهم من غلاة الشيعة، على أن يتأولوا شرائع الإيمان العملية كما تأولوا شرائعه العلمية، بلا فارق بينهما، فتأولوا الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والجهاد، وغيرها، بمعان اصطلحوا عليها، تناسب مذاهبهم الخبيثة، وفسروا آيات الكتاب برموز وإشارات، وقالوا: إن لَها ظاهرًا وباطنًا. ولهذا سموا باطنية.

والتأويل كذلك هو الذي جرأ نصير الدين الطوسي الخبيث -شارح الإشارات لابن سينا، والمحصل للرازي- على أن يكيد للإسلام وأهله، فيقال: إنه هو الذي كتب إلى هولاكو، ليغزو بجيوشه الباغية بلاد الإسلام، ويقوض أركان الخلافة الإسلامية، وقد جرى للمسلمين على أيدي هؤلاء التتار من المحن والبلايا ما بقيت آثاره إلى أيام الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بِدَعٍ وَأَحْـ ... ـدَاثٍ تُخَالِفُ مُوجِبَ الْقُرْآنِ

فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيلُ ذُو الْبُطْلَانِ لَا ... تَأْوِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

إِذْ ذَاكَ تَفْسِيرُ الْمُرَادِ وَكَشْفُهُ ... وَبَيَانُ مَعْنَاهُ إِلَى الأَذْهَانِ

قَدْ كَانَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ بِكَلَامِهِ ... صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ كُلَّ أَوَانِ

يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ عِنْدَ رُكُوعِهِ ... وَسُجُودِهِ تَأْوِيلَ ذِي بُرْهَانِ

هَذَا الَّذِي قَالَتْهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِيـ ... ـنَ حِكَايَةً عَنْهُ لَهَا بِلِسَانِ

فَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ مَا تَعْنِي بِهِ ... خَيْرُ النِّسَاءِ وَأَفْقَهُ النِّسْوَانِ

أَتَظُنُّهَا تَعْنِي بِهِ صَرْفًا عَنِ الْـ ... ـمَعْنَى الْقَوِي لِغَيرِ ذِي الرُّجْحَانِ

الشرح: يعني: أن جَميع ما أحدث فِي الدين من بدع مخالفة لمقتضى الكتاب والسنة الصحيحة، فلا سبب له إلا التأويل الباطل، الذي هو فِي الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه، وعدول بالألفاظ عن معانيها المتبادرة منها، بغير موجب لذلك الصرف، إلا محاولة تصحيح ما جنح إليه القوم من الأهواء الضالة، الَّتِي أخذوها مِمَّا عند اليهود والنصارى وفلاسفة اليونان والصابئة وغيرهم.

وأما تأويل أهل العلم والإيمان فهو تأويل الصحيح؛ لأن المراد به كشف المعنى وتفسيره، وبيان المراد منه، وحقيقته نفس ما يئول إليه الشيء، فإن كان اللفظ خبرًا؛ فتأويله هو نفس المخبر عنه، وذلك مثل آيات الصفات، والوعد، والوعيد، وأحوال أهل الجنة وأهل النار، فتأويلها هو نفس حقيقة ما أخبر اللَّه عنه فيها.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ومعناه: ما ينتظر هؤلاء المكذبون بيوم البعث والجزاء إلا تأويله، أي: وقوع ما أخبر عنه القرآن من ذلك.

ومنه أيضًا قول القرآن حكاية عن الصديق يوسف -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]. فقد أراد بتأويل الرؤيا وقوع مضمونها المفسر لها فيما جرى بينه وبين إخوته، وما تقلب فيه من محن وأرزاء حتَّى بلغ من استخلاص الملك إياه، وجعله على خزائن الأرض.

ومنه قول الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها: «أن رسول اللَّه ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: **سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي يتأول القرآن**». تعني: أنه كان ينفذ ما أمر به في القرآن، بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]؛ لأن اللفظ إن كان طلبًا فتأويله هو نفس المأمور به، أو المنهي عنه، فهل يظن أن عائشة رضي الله عنها كانت تعني بقولها: «يتأول القرآن». ذلك المعنى الفاسد للتأويل الذي اصطلح عليه أهل الكلام، وهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح المتبادر منه إلى المعنى المرجوح بلا صارف.

* * *

وَانْظُرْ إِلَى التَّأْوِيلِ حِينَ يَقُولُ عَلْـ ... لَـمَـهُ لِـعَـبْـدِ الـلـهِ فِـي الْـقُـرْآنِ

مَـاذَا أَرَادَ بِـهِ سِـوَى تَـفْـسِـيـرِهِ ... وَظُـهُـورِ مَـعْـنَـاهُ لَـهُ بِـبَـيَـانِ

قَـوْلُ ابْـنِ عَـبَّـاسٍ هُـوَ الـتَّـأْوِيـلُ لَا ... تَـأْوِيـلُ جَـهْـمِـي أَخِـي بُـهْـتَـانِ

وَحَـقِـيـقَـةُ الـتَّـأْوِيـلِ مَـعْـنَـاهُ الـرُّجُـو ... عُ إِلَـى الْـحَـقِـيـقَـةِ لَا إِلَـى الْـبُـطْـلَانِ

وَكَـذَاكَ تَـأْوِيـلُ الْـمَـنَـامِ حَـقِـيـقَـةُ الْـ ... ـمَـرْئِـي لَا الـتَّـحْـرِيـفُ بِـالْـبُـهْـتَـانِ

وَكَـذَاكَ تَـأْوِيـلُ الَّـذِي قَـدْ أَخْـبَـرَتْ ... رُسْـلُ الإِلَـهِ بِـهِ مِـنَ الإِيـمَـانِ

لَا خُـلْـفَ بَـيـنَ أَئِـمَّـةِ الـتَّـفْـسِـيـرِ فِـي ... هَـذَا وَذَلِـكَ وَاضِـحُ الْـبُـرْهَـانِ

نَفْسُ الْحَقِيقَةِ إِذْ تُشَاهِدُهَا لَدَى ... يَوْمِ الْمَعَادِ بِرُؤْيَةٍ وَعِيَانِ

الشرح: وتأمل كذلك قوله ﷺ لابن عمه عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما: «**اللَّهم فقهه فِي الدين، وعلمه التأويل**». فهل أراد به إلا أن يرزقه اللَّه الفهم لتفسير كتابه وبيان معناه، وقد استجاب اللَّه دعوة نبيه ﷺ لابن عمه، فكان يسمى ترجمان القرآن، فما أثر عن ابن عباس من تفسير للقرآن، وكشف عن معناه، هو الذي يصح أن يسمى تأويلًا، لا تأويلات هؤلاء الجهمية المبطلين؛ وذلك لأن حقيقة التأويل -كما قدمنا- هي الرجوع إلى حقيقة المعنى الذي يدل عليه اللفظ، ويقتضيه عند الإطلاق، لا إلى معنى باطل لا يدل عليه إلا باحتمال مرجوح، فتأويل المنام مثلًا وقوع نفس ما رآه النائم فِي حال اليقظة، مطابقًا للرؤية.

وتأويل ما أخبرت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أسماء اللَّه وصفاته، واليوم الآخر وما فيه، ونعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار... إلخ، هو نفس الحقائق المخبر عنها كما سبق، بحيث نشاهدها يوم القيامة مطابقة للخبر عنها، ولا خلاف بين أئمة التفسير فِي أن هذا المعنى للتأويل هو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]. الآية، أي: ما ينتظرون إلا حصول ما أنذروا به من العذاب ووقوعه.

* * *

هَذَا كَلَامُ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... وَأَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ لِلْقُرْآنِ

تَأْوِيلُهُ هُوَ عِنْدَهُمْ تَفْسِيرُهُ ... بِالظَّاهِرِ الْمَفْهُومِ لِلأَذْهَانِ

مَا قَالَ مِنْهُمْ قَطُّ شَخْصٌ وَاحِدٌ ... تَأْوِيلُهُ صَرْفٌ عَنِ الرُّجْحَانِ

كَلَّا وَلَا نَفْيِ الْحَقِيقَةِ لَا وَلَا ... عَزْلُ النُّصُوصِ عَنِ الْيَقِينِ فَذَانِ

تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ الْعِرْفَانِ وَالإِيمَانِ

وَهْوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِي بُطْلَانِهِ ... وَاللهُ يَقْضِي فِيهِ بِالْبُطْلَانِ

الشرح: فهذا كلام اللَّه وقرآنه لَم يجئ فيه التأويل فِي جَميع استعمالاته إلا بِمعنى التفسير، وبيان المعنى، أو وقوع المخبر عنه، وهذا كلام رسوله ﷺ فِي دعائه لابن عمه بتعلم التأويل، لَم يرد إلا هذا المعنى كذلك، وهؤلاء أئمة التفسير من السلف، الذين هم أعلم الناس بمعاني كتاب اللَّه ﷻ، مطبقون على أنه لا معنَى للتأويل إلا كشف المعنى وتفسيره، ما قال أحد منهم قط بمثل مقالتكم المحدثة الَّتِي لا أصل لَها، ولا فسر التأويل بِما فسرتموه به من أنه صرف اللفظ عن معناه الراجح الذي هو حقيقة فيه، وحمله على معنى

مرجوح بطريق المجاز، ولا ادعى أحد منهم أن نصوص الكتاب والسنة لا تفيد اليقين؛ لأن اللفظ يحتمل الحقيقة والمجاز والعموم والخصوص... إلخ، ولكنكم أنتم الذين اجترأتم على التلاعب بالنصوص، فحرفتموها عن مواضعها، ونفيتم حقائقها، وعزلتموها عما جاءت له من إفادة العلم واليقين، وحملتموها على ما شاء لكم الهوى، من معان موافقة لمذاهبكم الباطلة، فهذه هي تأويلاتكم الَّتِي لا يعرفها أهل المعرفة والإيمان، بل ينكرونَها أشد النكران، وهي فِي حكم اللَّه مقضي عليها كذلك بالبطلان.

* * *

فَجَعَلْتُمُ لِلَّفْظِ مَعْنًى غَيرَ مَعْـ	ـنَاهُ لَدَيهِمْ بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ
وَحَمَلْتُمُ لَفْظَ الْكِتَابِ عَلَيهِ حَتْـ	ـتَى جَاءَكُمْ مِنْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ
كَذِبٌ عَلَى الأَلْفَاظِ مَعْ كَذِبٍ عَلَى	مَنْ قَالَهَا كَذِبَانِ مَقْبُوحَانِ
وَتَلَاهُمَا أَمْرَانِ أَقْبَحُ مِنْهُمَا	جَحْدُ الْهُدَى وَشَهَادَةُ الْبُهْتَانِ
إِذْ يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَنَّ مُرَادَهُ	غَيرُ الْحَقِيقَةِ وَهْيَ ذُو بُطْلَان

الشرح: ويقال لهؤلاء المتأولين الذين جعلوا القرآن عضين، فجعلوا للألفاظ معاني أخرى -باصطلاحهم الفاسد- غير المعاني المفهومة منها، واستكرهوا ألفاظ الكتاب فِي حملها على هذه المعاني البعيدة، يقال لهم: يلزمكم فِي صنيعكم هذا أمران محذوران:

أحدهما: الكذب على الألفاظ، حيث حملتموها من المعاني ما لا تحتمل، وصرفتموها قسرًا واعتسافًا إلى هذه المعاني الَّتِي لا تخطر لأحد مِمَّن يفهم معاني هذه الألفاظ عند إطلاقها.

والثاني: هو الكذب على من قالها، حيث زعمتم أن مراده منها كذا وكذا زورًا.

بل يلزمكم فِي صنيعكم هذا أمران آخران، هما أقبح من المذكورين:

أحدهما: جحدكم الهدى الذي دلت عليه هذه الألفاظ حيث نفيتم معانيها الحقة الَّتِي أراد اللَّه أن تكون بيانًا وهدى.

والثاني: شهادتكم الزور والبهتان؛ إذ تشهدون على اللَّه ﷻ أن مراده من الألفاظ كذا وكذا، وأنه لَم يرد منها حقائقها، وأن تلك الحقائق لا يُمكن أن تكون مرادة للَّه من هذه الألفاظ، لما يترتب عليها -فِي زعمكم- من محالات، فأي شهادة زور أشنع من هذه الَّتِي

شهدتموها على ربكم أيها الجاهلون.

فصل فيما يلزم مدعي التأويل لتصحيح دعواه

وَعَلَيْكُمُ فِي ذَا وَظَائِفُ أَرْبَعٌ ... وَاللهِ لَيسَ لَكُمْ بِهِنَّ يدَانِ

مِنْهَا دَلِيلٌ صَارِفٌ لِلَّفْظِ عَنْ ... مَوْضُوعِهِ الأَصْلِي بِالْبُرْهَانِ

إِذْ مُدَّعِي نَفْسِ الْحَقِيقَةِ مُدَّعٍ ... لِلأَصْلِ لَمْ يحْتَجْ إِلَى بُرْهَانِ

فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُمْ دَلِيلُ الصَّرْفِ يَا ... هَيهَاتَ طُولِبْتُمْ بِأَمْرٍ ثَانِ

وَهْوَ احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى الَّذِي ... قُلْتُمْ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالتِّبْيَانِ

فَإِذَا أَتَيتُمْ ذَاكَ طُولِبْتُمْ بِأَمْـ ... ـرٍ ثَالِثٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا الثَّانِي

إِذْ قُلْتُمُ أَنَّ الْمُرَادَ كَذَا فَمَا ... ذَا دَلَّكُمْ أَتَخَرُّصُ الْكُهَّانِ

الشرح: ويلزمكم لتصحيح ما ادعيتموه من التأويل أربعة أمور، ليس لكم -والله- قدرة على واحد منها:

الأول: أن تأتوا بدليل صارف للفظ عن معناه الأصلي، فإن اللفظ لا يجوز صرفه عن معناه الموضوع له إلا لدليل يدل على استحالة ذلك المعنى، وما تدعونه من قرائن عقلية موجبة لذلك، لا يسلمها لكم خصومكم، وأما نحن؛ فلا نحتاج إلى مثل ذلك الدليل؛ لأننا ندعي أن اللفظ مستعمل فِي حقيقته الَّتِي هي الأصل فيه، فإذا ظفرتم بالدليل الصارف للفظ عن معناه، وهيهات؛ طولبتم بإثبات أن اللفظ محتمل لذلك المعنى الذي ادعيتم أنه المقصود من اللفظ، ثُمَّ عليكم بعد هذا أن تثبتوا بالدليل أن المعنى الذي عنيتموه حين قلتم: إن المراد كذا، هو المقصود للمتكلم. فهذه أمور ثلاثة تلزم مدعي التأويل، فلا تستقيم له دعواه إلا إذا أثبت كل واحد منها بالدليل، وما له إلى ذلك من سبيل.

ثُمَّ ينضم إليها أمر رابع: سيذكره المصنف فيما سيأتي، وهو الجواب عن المعارض، فإن الدعوى لا تتم إلا بذلك، والمعارض هنا هو جَميع أدلة الإثبات فِي الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وأدلة العقل والفطرة، مِمَّا لا سبيل إلى معارضته بِما يشغب به القوم من ترهات وأباطيل.

* * *

هَبْ أَنَّهُ لَمْ يقْصِدِ الْمَوْضُوعَ لَـ ... كِنْ قَدْ يكُونُ الْقَصْدُ مَعْنًى ثَانِ
غَيرَ الَّذِي عَينَتُمُوهُ وَقَدْ يكو ... نُ اللَّفْظُ مَقْصُودًا بِدُونِ مَعَانِ
كَتَعَبُّدٍ وَتِلَاوَةٍ وَيكُونُ ذَا ... كَ الْقَصْدُ أَنْفَعَ وَهْوَ ذُو إِمَكَانِ
مِنْ قَصْدِ تَحْرِيفٍ لَهَا يسْمَى بِتَأْ ... وِيلٍ مَعَ الإتْعَابِ لِلأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا الْقَصْدَانِ فِي حَدٍّ سَوَا ... فِي حِكْمَةِ الْمُتَكَلِّمِ الْمَنَّانِ
بَلْ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ تُبْطِلُ قَصْدَهُ التْ ... تَحْرِيفَ حَاشَى حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ تُبْطِلُ قَصْدَهُ إِنْزَالَهَا ... مِنْ غَيرِ مَعْنًى وَاضِحِ التِّبْيَانِ
وَهُمَا طَرِيقَا فِرْقَتَينِ كِلَاهُمَا ... عَنْ مَقْصِدِ الْقُرْآنِ مُنْحَرِفَانِ

الشرح: فلو قدر أن المتكلم لَم يقصد المعنى الحقيقي الموضوع له اللفظ؛ لَم يُمكن إثبات أنه أراد به المعنى الذي عينتموه؛ لجواز أن يكون له قصد آخر، أو أن يكون اللفظ مجردًا عن المعنى، قد قصد من إنزاله التعبد بتلاوته، وهذا مع كونه جائزًا أنفع وأقرب إلى الحكمة من قصد معنى بعيد لا يدل عليه اللفظ، فإن ذلك تحريف للفظ عن معناه، مع ما فِي ذلك من كد الأذهان وإتعابها فِي استخراج ذلك المعنى البعيد، فإذا وازنا هذا القصد الثاني بالأول الذي هو إنزال اللفظ للتعبد؛ لَم نجدهما سواء فِي حكمة المتكلم المنان -جل شأنه- بل وجدنا الأول أقرب إلى الحكمة، وأدنى إلى النفع من الآخر، بل الحكمة الإلهية فِي سموها وكمالها تبطل أن يكون قصده -جل شأنه- التحريف للألفاظ باستعمالها فِي غير معانيها -كما هو زعم المؤوِّلة- وكذاك تبطل أن يكون قصده منها معنى غير مفهوم من اللفظ، ولا يُمكن للعباد إدراكه -كما هو زعم المفوضة- فهذان الطريقان للمؤوِّلة والمفوضة، كلاهما منحرف عما قصد إليه القرآن الكريم من استعمال الألفاظ فِي معانيها الموضوعة لَها فِي اللغة الَّتِي نزل بِها، فلا تفويض، ولا تأويل.

* * *

فصل في طريقة ابن سينا وذويه من الملاحدة في التأويل

وَأَتَى ابْنُ سِينَا بَعْدَ ذَا بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى وَلَمْ يَأْنَفْ مِنَ الْكُفْرَانِ
قَالَ الْمُرَادُ حَقَائِقُ الأَلْفَاظِ تَخْـ ـيِيلًا وَتَقْرِيبًا إِلَى الأَذْهَانِ
عَجَزَتْ عَنِ الإِدْرَاكِ لِلْمَعْقُولِ إِلْـ لَا فِي مِثَالِ الْحِسِّ كَالصِّبْيَانِ
كَي يَبْرُزَ الْمَعْقُولَ فِي صُورٍ مِنَ الْـ مَحْسُوسِ مَقْبُولًا لَدَى الأَذْهَانِ
فَتَسَلُّطُ التَّأْوِيلِ إِبْطَالٌ لِهَـ ـذَا الْقَصْدِ وَهْوَ جِنَايَةٌ مِنْ جَانِ
هَذَا الَّذِي قَدْ قَالَهُ مَعَ نَفْيِهِ لِحَقَائِقِ الأَلْفَاظِ فِي الأَذْهَانِ
وَطَرِيقَةُ التَّأْوِيلِ أَيضًا قَدْ غَدَتْ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذِهِ الْخُلْجَانِ
وَكِلَاهُمَا اتَّفَقَا عَلَى أَنَّ الْحَقِيـ ـقَةَ مُنْتَفٍ مَضْمُونُهَا بِبَيَانِ

الشرح: وجاء بعد ذلك أبو علي بن سينا الذي يلقبه أشياعه بالشيخ الرئيس، فابتدع طريقة أخرى فِي التأويل، فقال: إن المراد بالألفاظ حقائقها، لكن على سبيل التخييل؛ تقريبًا إلى الأذهان، فإن عقول العامة تعجز عن إدراك هذه المعاني العقلية؛ لشدة اتصالها بالمحسوسات، فإذا أبرزت لَها هذه المعقولات فِي صورة الأمور المحسوسة كانت مقبولة لديها.

وقال: إن تسلط التأويل على هذه النصوص يبطل ما قصد إليه الشارع من جعلها مثالًا للحقائق، تقربُها من الأذهان، فهو جناية، يا لمرتكبها من جان.

ولكن ابن سينا نسي أنه هو أيضًا ينفي حقائق الألفاظ المعقولة، ويدعي عليها أنَّها مستعملة فِي حقائق حسية، ليست هي مقصود المتكلم بِهذه الألفاظ، فطريقته فِي الإيهام والتخييل أخت لطريقة أهل التحريف والتأويل، كلتاهما مشتقة من أصل واحد، وهو الإنكار والتعطيل، وهما متفقتان على نفي حقائق الألفاظ، وعزلها عن أن تكون مقصودة من التنزيل.

* * *

لَكِنْ قَدِ اخْتَلَفَا فَعِنْدَ فَرِيقِكُمْ مَا إِنْ أُرِيدَتْ قَطُّ بِالتِّبْيَانِ
لَكِنَّ عِنْدَهُمُ أُرِيدَ ثُبُوتُهَا فِي الذِّهْنِ إِذْ عُدِمَتْ مِنَ الإِحْسَانِ

إِذْ ذَاكَ مَصْلَحَةُ الْمُخَاطَبِ عِنْدَهُمْ   وَطَرِيقَةُ الْبُرْهَانِ أَمْرٌ ثَانِ
فَكِلَاهُمَا ارْتَكَبَا أَشَدَّ جِنَايَةٍ   جُنِيَتْ عَلَى الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ
جَعَلُوا النُّصُوصَ لأَجْلِهَا غَرَضًا لَهُمْ   قَدْ خَرَّقُوهُ بِأَسْهُمِ الْهَذَيَانِ
وَتَسَلُّطِ الأَوْغَادِ وَالأَوْقَاحِ وَالْـ   أَرْذَالِ بِالتَّحْرِيفِ وَالْبُهْتَانِ
كُلٌّ إِذَا قَابَلْتَهُ بِالنَّصِّ قَا   بَلَهُ بِتَأْوِيلٍ بِلَا بُرْهَانِ

الشرح: يعني: أن الطريقتين وإن اتفقتا فِي نفي حقائق النصوص وإنكار معانيها، قد اختلفتا فِي وجود هذه الحقائق، فعند فريق المؤولة: هي من قبيل المستحيل الذي لا وجود له لا فِي الذهن، ولا فِي الخارج، ولا يُمكن أن تراد من النص أصلًا، وعند ابن سينا وأشياعه من المتفلسفة: هي حقائق ثابتة، لكن ثبوتَها ذهني، لا خارجي، والنصوص إنَّما دلت على أمثلة ضربت لَها من عالم الحس؛ وذلك لمصلحة المخاطبين، إذ كانوا لا يستطيعون إدراك هذه المعاني إلا بطريق التخييل، وأما طريقة البرهان عندهم؛ فهي الَّتِي توصل إلى إدراك هذه المعقولات بذاتِها، وهي طريقة الخواص، يعنون بذلك أنفسهم.

فيا عجبًا لهؤلاء الحمقى! يجعلون طريقة القرآن خطابية شعرية تخييلية، وأما طريقتهم الَّتِي بنوها على قواعد المنطق الأرسطي؛ فهي طريقة البرهان واليقين، وما هي إلا طريقة الضلال والتجهيل، ألا ساء ما يزعمون.

وكلا الفريقين من المؤولة والمتفلسفة قد ارتكب أشد جناية على القرآن والإيمان؛ حيث جعلوا النصوص الكريمة هدفًا لسهام هذيانِهم، وفتحوا المجال لكل وغد ورذيل ليقول فِي النصوص بِما شاء له هواه، فكلما أوردت له نصًّا؛ قابله بتأويل من تلك التأويلات السمجة؛ بلا دليل ولا برهان.

* * *

وَيَقُولُ تَأْوِيلِي كَتَأْوِيلِ الَّذِيـ   ـنَ تَأَوَّلُوا فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ
بَلْ دُونَهُ فَظُهُورُهَا فِي الْوَحْيِ بِالنْـ   ـنَصَّيْنِ مِثْلَ الشَّمْسِ فِي التِّبْيَانِ
أَيَسُوغُ تَأْوِيلُ الْعُلُوِّ لَكُمْ وَلَا   تَتَأَوَّلُوا الْبَاقِي بِلَا فُرْقَانِ
وَكَذَاكَ تَأْوِيلُ الصِّفَاتِ مَعَ انَّهَا   مِلْءُ الْحَدِيثِ وَمِلْءُ ذَا الْقُرْآنِ
وَاللهِ تَأْوِيلُ الْعُلُوِّ أَشَدُّ مِنْ   تَأْوِيلِنَا لِقِيَامَةِ الأَبْدَانِ

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِحَيَاتِهِ وَلِعِلْمِهِ وَمَشِيئَةِ الأَكْوَانِ
وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِحُدُوثِ هَـ ـذَا الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ بِالإِمْكَانِ
وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا بَعْضَ الشَّرَا ئِعِ عِنْدَ ذِي الإِنْصَافِ وَالْمِيزَانِ
وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِنَا لِكَلَامِهِ بِالْفَيْضِ مِن فَعَّالِ ذِي الأَكْوَانِ

الشرح: ويقول الفلسفي إذا حدثته فِي فساد تأويله وشناعته: إن تأويلي كتأويل هؤلاء الجهمية الذين تأولوا فوقية الرحمن، بل هو دونها فِي الشناعة، فإن نصوص الفوقية من الكتاب والسنة كالشمس فِي الوضوح والبيان، فكيف يسوغ لكم أيها الجهمية تأويل علوه سبحانه على كثرة نصوصه ووضوحها، ثُمَّ تنكرون علينا ما تأولناه؟! وكيف ساغ لكم أن تتأولوا آيات الصفات وأحاديثها مع أنَّها ملء الكتاب والسنة، ولا يسوغ لنا ذلك؟! واللَّه لتأويلكم للعلو أشد من تأويلنا للقيامة بأن المراد بِها رجوع الروح إلى عالمها الأول مع عود الجسم إلى العناصر الَّتِي تركب منها، وأشد من تأويلنا لحياته وعلمه ومشيئته بأن ذلك كله نفس ذاته، وأشد من تأويلنا لحدوث هذا العالم بأنه ليس معناه الوجود من عدم، بل معناه أنه ممكن فِي ذاته، مفتقر إلى علة يستند إليها فِي وجوده، فإن الممكن لا وجود له من ذاته، لكنه مع ذلك لَم يسبق بعدم؛ لأن علته قديمة، لا أول لَها فِي الزمان، وهو مقارن لَها، وأشد من تأويلنا بعض الشرائع، من الصلاة، والحج، ونحوهما، بأن المراد بِهما معانٍ فكرية، وأشد من تأويلنا لكلامه بأنه فيض من العقل الفعال الذي هو عقل القمر المختص بالتدبير فِي عالم العناصر، وإفاضة المعلومات على العقول الإنسانية، وإنزالها على لوح قلب النَّبِيِّ ﷺ، وانتقاش صور تلك المعاني فِي خياله حروفًا وكلامًا منظومًا.

* * *

وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِ أَهْلِ الرَّفْضِ أَخْـ ـبَارَ الْفَضَائِلِ حَازَهَا الشَّيْخَانِ
وَأَشَدُّ مِنْ تَأْوِيلِ كُلِّ مُؤَوِّلٍ نَصًّا بِأَنَّ مُرَادَهُ الْوَحْيَانِ
إِذْ صَرَّحَ الْوَحْيَانِ مَعْ كُتُبِ الإِلَـ ـهِ جَمِيعِهَا بِالْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ
فَلأَيِّ شَيْءٍ نَحْنُ كُفَّارٌ بِذَا التْـ ـتَأْوِيلِ بَلْ أَنْتُمْ عَلَى الإِيمَانِ
إِنَّا تَأَوَّلْنَا وَأَنْتُمْ قَدْ تَأَوْ وَلْتُمْ فَهَاتُوا وَاضِحَ الْفُرْقَانِ
أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ حَيْـ ـثُ لَنَا عَلَى تَأْوِيلِنَا وِزْرَانِ
هَذِي مَقَالَتُهُمْ لَكُمْ فِي كُتْبِهِمْ مِنْهَا نَقَلْنَاهَا بِلَا عُدْوَانِ

رُدُّوا عَلَيهِمْ إِنْ قَدَرْتُمْ أَوْ فَنَحْـ حُوا عَنْ طَرِيقِ عَسَاكِرِ الإِيمَانِ
لَا تَحْطِمَنَّكُمْ جُنُودُهُم كَحَطْـ ـمِ السَّيلِ مَا لَاقَى مِنَ الدِّيدَانِ

الشرح: وتأويلكم للعلو أشد كذلك من تأويل الرافضة للأخبار الَّتِي وردت فِي فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأشد من تأويل كل من تأول نصًا، أظهر المراد منه الوحيان: من كتاب وسنة، فإن نصوص الفوقية فيهما وفي غيرهما من الكتب السماوية فِي غاية الصراحة ونهاية الكثرة، فلأي شيء إذن أيُّها الجهميون نكون نحن كفارًا بتأويلنا، وأنتم المؤمنون؟! وأي فرق بين تأويلنا وتأويلكم؟! دلونا إن استطعتم على ما يصلح أن يكون فارقًا بينهما، لعلكم تقولون: إننا مجتهدون فِي هذا التأويل، ومصيبون فيه، فلنا على تأويلنا أجران، ولكنكم أنتم مخطئون فِي هذا التأويل، معتمدون، فعليكم فيه وزران. وهذا كذب، فنحن وأنتم سواء فِي تعمد الكذب على النصوص، حيث لا موضع للاجتهاد.

هذه مقالة الفلاسفة فِي الرد على الجهمية الذين ينكرون عليهم التأويل، منقولة من كتبهم بلا زيادة ولا تبديل، فهل يستطيع هؤلاء الجهمية أن يردوا عليهم، أو يتخلصوا من هذا الإلزام الذي وجهوه إليهم؟! كلا، فليتركوا الميدان إذن لأهل الحق وعساكر الإيمان، وليُخْلُوا لهم الطريق حَتَّى لا تحطمهم جنودهم كحطم السيل المنهمر لما يقابله من الخشاش والديدان.

* * *

وَكَذَا نُطَالِبُكُمْ بِأَمْرٍ رَابِعٍ وَاللهِ لَيسَ لَكُمْ بِذَا إِمْكَانِ
وَهْوَ الْجَوَابُ عَنِ الْمُعَارِضِ إِذْ بِهِ الدْ دَعْوَى تَتِمُّ سَلِيمَةَ الأَرْكَانِ
لَكِنَّ ذَا عَينُ الْمُحَالِ وَلَوْ يُسَا عِدُكُمْ عَلَيهِ رَبُّ كُلِّ لِسَانِ
فَأَدِلَّةُ الإِثْبَاتِ حَقًّا لَا تَقُو مُ لَهَا الْجِبَالُ وَسَائِرُ الأَكْوَانِ
تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ
أَنَّى يُعَارِضُهَا كُنَاسَةُ هَذِهِ الْـ أَذْهَانِ بِالشُّبُهَاتِ وَالْهَذَيَانِ
وَجَعَاجِعٌ وَفَرَاقِعٌ مَا تَحْتَهَا إِلَّا السَّرَابُ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ

الشرح: سبق أن طالب المؤلف مدعي التأويل بأربعة أمور، ذكر منها ثلاثة هناك،

وهي :

الإتيان بدليل صارف للفظ عن معناه .

وإثبات أن اللفظ محتمل للمعنى الذي ادعوه .

والإتيان بدليل على أن هذا المعنى يتعين إرادته من اللفظ .

ثُمَّ ذكر هنا الأمر الرابع : وهو الجواب عن المعارض حَتَّى تتم لهم دعوى التأويل سليمة ، وذلك من أمحل المحال ، وإن استعانوا عليه بكل فصيح مقوال ، فإن المعارض هنا لا يقوم له شيء ، حَتَّى ولا شُمُّ الجبال وغيرها من سائر الأكوان ، كيف وهو تنزيل رب العالمين ووحيه ، مع فطرة اللَّه الَّتِي لا تبديل لَها ، ومع براهين العقل القطعية؟! فأنى يعارض ذلك كله بأوساخ القرائح وزبالة الأذهان ، من تلك الشبهات والهذيانات الَّتِي هي كالطبل الأجوف ، أو كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حَتَّى إذا جاءه لَم يجده شيئًا؟! .

* * *

فَلْتَهْنِكُمْ هَذِي الْعُلومُ اللَّاءِ قَدْ ... ذُخِرَتْ لَكُمْ عَنْ تَابِعِ الإِحْسَانِ

بَلْ عَنْ مَشَايِخِهِمْ جَمِيعًا ثُمَّ وُفْـ ... ـفِقْتُمْ لَهَا مِنْ بَعْدِ طُولِ زَمَانِ

وَاللهِ مَا ذُخِرَتْ لَكُمْ لِفَضِيلَةٍ ... لَكُمُ عَلَيهِمْ يَا أُولِي النُّقْصَانِ

لَكِنْ عُقُولُ الْقَوْمِ كَانَتْ فَوْقَ ذَا ... قَدْرًا وَشَأْنُهُمُ فَأَعْظَمُ شَانِ

وَهُمُ أَجَلُّ وَعِلْمُهُمْ أَعْلَى وَأَشْـ ... ـرَفُ أَنْ يُشَابَ بِزُخْرُفِ الْهَذَيَانِ

فَلِذَاكَ صَانَهُمُ الإِلَهُ عَنِ الَّذِي ... فِيهِ وَقَعْتُمْ صَوْنَ ذِي إِحْسَانِ

الشرح : فإن كنتم لا تجدون ما تعارضون به النصوص الصريحة من الكتاب والسنة مع ما ينضم إليها من أدلة العقل والفطرة إلا هذه الهذيانات الَّتِي ورثتموها عن أسلافكم فِي الضلال ، من فلاسفة اليونان والرومان ، وغيرهم من ضلال اليهود والنصارى والصابئة - فلتهنكم إذن هذه العلوم الَّتِي هي أحق أن تسمى جهالات ، والتي قد ادخرت لكم فِي بطون الكتب الَّتِي تركها لكم هؤلاء الأسلاف حَتَّى وقعتم عليها بعد زمان طويل ، فاشتغلتم بِها عن الوحي ، ونقلتموها إلى لسانكم العربي ، وفتنتم بِها أيَّما فتنة ، وظننتم أنكم وقعتم على لحم ، وأنكم تميزتم بِها عن أئمة الهدى مِمَّن أحسنوا الاتباع ، ووقفوا عند ما سنه لهم سلفهم الصالح -رضي اللَّه عنهم أجمعين- فلا تظنوا أن هذه العلوم قد ادخرت لكم لكي يرفعكم اللَّه بِها ، أو أن اشتغالكم بِهذه العلوم قد أورثكم فضلًا وكمالًا فقتم به هؤلاء

الأخيار من أهل السنة والاتباع، فإن عقولهم أسمى من أن تشتغل بهذه الترهات، وهم أجل أن ينزلوا بأنفسهم إلى هذا الدرك الذي نزلتم إليه، وعلمهم أعلى وأشرف من أن يدنسوه بهذه المقالات السخيفة، وهذا من فضل اللَّه ﷻ عليهم أن صانَهم وحماهم عما تورطتم أنتم فيه من أوساخ وأقذار، هي نتاج عقول لَم تستضئ بنور اللَّه، ولَم تنتفع بِما جاء به رسله -عليهم الصلاة والسلام- من الهدى والعلم النافع الصحيح.

* * *

سَمَّيتُمُ التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا كَذَا التْـ ... تَـعْـطِيـل تَـنْـزِيـهًـا هُـمَـا لَـقَـبَـانِ

وَأَضَـفْـتُـمُ أَمْـرًا إِلَـى ذَا ثَـالِـثًـا ... شَـرًّا وَأَقْـبَـحَ مِـنْـهُ ذَا بُـهْـتَـانِ

فَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَجْسِيمًا وَتَشْـ ... بِـيـهًـا وَذَا مِـنْ أَقْـبَـحِ الْـعُـدْوَانِ

فَقَلَبْتُمُ تِلْكَ الْحَقَائِقَ مِثْلَ مَا ... قُـلِـبَـتْ قُـلُـوبُـكُـمُ عَـنِ الإِيـمَـانِ

وَجَعَلْتُمُ الْمَمْدُوحَ مَذْمُومًا كَذَا ... بِالْعَكْسِ حَتَّى اسْتَكْمَلَ اللَّبْسَانِ

وَأَرَدْتُـمُ أَنْ تُـحْـمَـدُوا بِـالإِتِّـبَـا ... عِ نَعَمْ لَكِنْ لِمَنْ يَا فِرْقَةَ الْبُهْتَانِ

وَبَـغَـيْـتُـمُ أَنْ تَـنْـسِـبُـوا لِـلإِبْـتِـدَا ... عِ عَـسَـاكِـرَ الآثَـارِ وَالْـقُـرْآنِ

الشرح: هذه العلوم الَّتِي ورثتموها عن أسلافكم فِي الضلال، وظننتموها مسلمات عقلية لا تقبل الجدل، وأحسنتم الظن بأصحابِها إلى حد اعتقاد العصمة بل قدمتموها على الوحي بدعوى أنَّها أمور قطعية لا يتطرق إليها الاحتمال -هي الَّتِي أفسدت عقولكم، وسممت أفكاركم، فغدت مريضة منتكسة، تعطي الأشياء غير اسمها، وتقلب الحقائق على رأسها، فهي تسمي التحريف للنصوص والخروج بِها عن وضعها الحقيقي الذي توجبه اللغة تأويلًا، وهي تسمي التعطيل الذي هو نفي ما أثبته اللَّه لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الصفات تنْزيهًا، بل أدهى من ذلك وأمر، وأدخل فِي باب الافتراء والبهتان أنَّها تسمي الإثبات للأسماء والصفات الَّتِي وردت به النصوص الصريحة تشبيهًا وتجسيمًا، وما قلبكم لهذه الحقائق والتباسها عليكم إلا نتيجة حتمية لفساد فطركم وزيغ قلوبكم، فجعلتم -بجهلكم- المحمود من الإثبات للأسماء والصفات الَّتِي هي كمالات محضة مذمومًا، وبالعكس، جعلتم المذموم من النفي والتعطيل محمودًا، وأردتم أن تحمدوا بالاتباع، فنعم، ولكن من تتبعون؟ إن تتبعون إلا أهواءكم الجامحة، وظنونكم الكاذبة، وشياطينكم الذين زخرفوا لكم وموهوا.

وأعجب من ذلك: أنكم ترمون بدائكم فِي الابتداع والزيغ جند الرحمن وعساكر الآثار والقرآن.

* * *

وَجَعَلْتُمُ الْوَحْيينِ غَيرَ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ

لَكِنْ عُقُولُ النَّاكِبِينَ عَنِ الْهُدَى ... لَهُمَا تُفِيدُ وَمَنْطِقُ الْيونَانِ

وَجَعَلْتُمُ الإِيمَانَ كُفْرًا وَالْهُدَى ... عَينَ الضَّلَالِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

ثُمَّ اسْتَحَقَّيتُمْ عُقُولًا مَا أَرَا ... دَ اللهُ أَنْ تَزْكُو عَلَى الْقُرْآنِ

حَتَّى اسْتَجَابُوا مُهْطِعِينَ لِدَعْوَةِ التْ ... تَعْطِيلِ قَدْ هَرَبُوا مِنَ الإِيمَانِ

يَا وَيحَهُمْ لَوْ يشْعُرُونَ بِمَنْ دَعَا ... وَلِمَا دَعَا قَعَدُوا قُعُودَ جَبَانِ

الشرح: ومن شر حماقاتكم، وأشنع غلطاتكم: ما اجترأتم به من الحكم على نصوص الوحيين من الكتاب والسنة بأنَّها غير مفيدة للعلم اليقيني، وليست من قبيل البراهين الَّتِي تفيد القطع، ولا تحتمل النقيض؛ بِما زينه لكم الشيطان من أن هذه النصوص ألفاظ تحتمل الحقيقة والمجاز، ويدخلها التعميم والتخصيص، والإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، وغير ذلك مِمَّا ينافي العلم بالمراد، ألا ساء ما تحكمون، وبئس ما تظنون بكتاب ربكم وسنة نبيكم، حيث عزلتموهما عن إفادة العلم والهدى فِي الوقت الذي تزعمون فيه أن عقولكم المريضة الَّتِي نكبت عن صراط اللَّه، وحادت عن سبيله، هي الَّتِي يوثق بأدلتها، فهي فِي نظركم براهين مفيدة للعلم اليقيني، وموصلة إلى النتائج القطعية إذا كانت مؤلفة تأليفًا صحيحًا، على أساس المنطق اليوناني الذي وضعه أرسطو.

وكذلك نتج عن التواء فهمكم وانتكاس عقولكم: أن جعلتم الإيمان بعلو اللَّه فوق خلقه، وغير ذلك من صفاته -كفرًا، وجعلتم هذا الهدى هو عين الضلال، طغيانًا منكم وتجاوزًا عن الحد؛ لأن عقولكم لَم تطق حمل حقائق القرآن، ولا أراد اللَّه لَها أن تزكو بآياته وتحسن الفهم لمقاصده وغاياته، فارتكست فِي غيها وضلالها، واستجابت مسرعة لمن دعاها إلى النفي والتعطيل، هاربة من الإيمان بمقتضى التنْزيل، ولو علمت بحال من دعاها، وحال ما دعاها إليه؛ لقعدت قعود الجبان عن سلوك هذا السبيل المؤدي إلى أسوأ عاقبة، وشر مقيل.

فصل في شَبَه المحرفين للنصوص باليهود وإرثهم التحريف منهم وبراءة أهل الإثبات ممارموهم به من هذا الشَّبَه

هَـذَا وَثَـمَّ بَـلِـيـةٌ مَـسْـتُـورَةٌ ... فِـيـهِـمْ سَـأُبْـدِيـهَـا لَـكُـمْ بِـبَـيَـانِ
وَرِثَ الْمُحَرِّفُ مِنْ يهُودَ وَهُمْ أُولُو التْـ ... ـتَحْـرِيـفِ وَالتَّـبْـدِيـلِ وَالْـكِـتْـمَـانِ
فَـأَرَادَ مِـيـرَاثَ الـثَّـلَاثَـةِ مِـنْـهُـمُ ... فَـعَـصَـتْ عَـلَـيـهِ غَـايـةَ الْـعِـصْـيَـانِ
إِذْ كَانَ لَفْظُ النَّصِّ مَحْفُوظًا فَمَا التْـ ... ـتَبْـدِيـلُ وَالْـكِـتْـمَـانُ فِـي الإِمْـكَـانِ
فَـأَرَادَ تَـبْـدِيـلَ الْـمَـعَـانِـي إِذْ هِـي الْـ ... ـمَـقْـصُـودُ مِـنْ تَـعْـبِـيـرِ كُـلِّ لِـسَـانِ
فَـأَتَـى إِلَـيـهَـا وَهْـي بَـارِزَةٌ مِـنَ الْـ ... ـأَلْـفَـاظِ ظَـاهِـرَةٌ بِـلَا كِـتْـمَـانِ
فَـنَـفَـى حَـقَـائِـقَـهَـا وَأَعْـطَـى لَـفْـظَـهَـا ... مَـعْـنًـى سِـوَى مَـوْضُـوعِـهِ الْـحَـقَّـانِـي
فَجَنَى عَلَى الْمَعْنَى جِنَايةَ جَاحِدٍ ... وَجَـنَـى عَـلَـى الأَلْـفَـاظِ بِـالْـعُـدْوَانِ

الشرح: وهناك بلية أخرى خفية قد ابتلي بِها هؤلاء المتأولون، قد لا يفطن إليها كثير من الناس، وهي أنَّهم ورثوا تحريفهم للنصوص عن اليهود، واتبعوا سنتهم فيه حذو القذة بالقذة، فإن اليهود -قبحهم اللَّه- جمعوا بين جريمة التحريف الذي هو تفسير الألفاظ بغير معانيها، وإمالتها عن المقصود منها، وبين جناية التبديل الذي هو حذف بعض نصوص الكتاب المنَزل، ووضع أخرى مكانَها، مِمَّا كتبته أيديهم، وزورته أقلامهم، وبين خيانة الكتمان الذي هو إخفاء ما عندهم من الحق، وعدم بيانه للناس مع حاجة الناس إليه، فأراد هؤلاء المتأولون أن يرثوا عن اليهود هذه العظائم الثلاث، ولكنهم لَم يجدوا إلى التبديل والكتمان سبيلًا، إذ كانت ألفاظ النصوص محفوظة، لا يُمكن لأحد أن ينال منها بتغيير أو تبديل، ولا بحذف أو زيادة، كما لا يُمكن أن يجحد منها شيئًا، فاكتفى من ذلك بالتحريف وتبديل المعاني الَّتِي هي المقصود من الألفاظ، فعمد إليها وهي بارزة من الألفاظ، تكاد تنطق معلنة عن نفسها، وتتراءى للعقول من خلال الألفاظ، واضحة لا خفاء فيها، فنفى حقائقها، وحول الألفاظ إلى معانٍ أخرى، يعلم كل من مارس اللغة، وعرف مدلولاتِها، أنَّها ليست هي المقصود من هذه الألفاظ، وبذلك جنى على المعاني والألفاظ جميعًا، فجنى على المعاني بالجحد والإنكار، وجنى على الألفاظ بحملها قسرًا على ما لا تحتمله من المعاني عدوانًا وظلمًا فبعدًا للقوم الظالمين.

وَأَتَى إِلَى حِزْبِ الْهُدَى أَعْطَاهُمُ ... شِبْهُ الْيَهُودِ وَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ

إِذْ قَالَ إِنَّهُمُ مُشَبِّهَةٌ وَأَنْـ ... ـتُمْ مِثْلُهُمْ فَمَنِ الَّذِي يَلْحَانِي

فِي هَتْكِ أَسْتَارِ الْيهُودِ وَشِبْهِهِمْ ... مِنْ فِرْقَةِ التَّحْرِيفِ لِلْقُرْآنِ

يَا مُسْلِمُونَ بِحَقِّ رَبِّكُمُ اسْمَعُوا ... قَوْلِي وَعُوهُ وَعْيَ ذِي عِرْفَانِ

ثُمَّ احْكُمُوا مِنْ بَعْدُ مَنْ هَذَا الَّذِي ... أَوْلَى بِهَذَا الشِّبْهِ بِالْبُرْهَانِ

أُمِرَ الْيَهُودُ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّةٌ ... فَأَبَوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ لِهَوَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي قِيلَ لَهُ اسْتَوَى ... فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ

قَالَ اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ ... لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سِيَّانِ

الشرح: والعجيب من أمر هؤلاء المتأولين: أنَّهم يرمون أهل الحق بِما هم به أولى وأحق، وهم بِهم أشبه وألصق، من الشبه باليهود، حيث يقولون: إن اليهود شبهوا حين قالوا: إن اللَّه فقير ونحن أغنياء، وأنه استراح من الخلق يوم السبت... إلخ. وأنتم شبهتم حين قلتم: إن اللَّه مستوٍ على عرشه، وأن له وجهًا ويدًا، وأنه ينْزل ويجيء... إلخ.

سبحانك هذا بُهتان عظيم، إننا حين نثبت للَّه ﷻ ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من صفات، لا نعتقد أن هذه الصفات له تشبه ما للمخلوق من ذلك، بل نثبتها له على ما يليق بعظمته وجلاله، فنحن لسنا مشبهين، ولا ممثلين، كما أننا لسنا معطلين، ولا جاحدين، بل شأننا فِي ذلك إثبات بلا تمثيل، وتنْزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]. ثُمَّ إننا نحتكم نحن وأنتم إلى كل مسلم، يُمكن أن يعي قولنا ويعرفه؛ ليحكم أينا أقرب شبهًا إلى اليهود، وأولى أن ينسب إليهم.

إن اليهود أمرهم اللَّه ﷻ أن يدخلوا الباب سجدًا، وأن يقولوا: «حطة» من الحط، يعني: أن تحط عنا ذنوبنا، وتغفر لنا خطايانا، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، ووضعوا حنطة مكان حطة؛ لهوان نفوسهم، وإخلادهم إلى هذه الأرض، وقصر أنظارهم على حطام الحياة ومادة العيش، دون اعتبار للمعاني السامية، والمبادئ الكريمة.

وهكذا أنتم معشر الجهمية يقول اللَّه لكم: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس: ٣]. فتأبون إلا أن تزيدوا حرفًا على النص، وذلك من نقصانكم فِي العلم والفهم، فتقولون: استولى. بدلًا من استوى، جهلًا منكم بمواضع الألفاظ فِي اللغة الَّتِي لَم يستعمل فيها لفظ استوى

قط بِمعنى استولى، ومخالفة منكم لمنطق العقل الذي يحكم بأن كل موجودين فلابد أن يكونا إما متداخلين، -يعني: أحدهما داخل فِي الآخر- وإما متباينين، كل منهما منفصل عن الآخر، وما دام اللَّه ﷻ -باتفاق منا ومنكم- ليس داخلًا فِي العالم، ولا حالًا فيه، فلم يبق إلا أن يكون منفصلًا عنه، عاليًا عليه.

وقول الشيخ «فمن الذي يلحاني؟!» استفهام إنكاري تعجبي، أي: لا أحد يلومني ويعنفني على ما قصدت إليه من فضيحة اليهود، وإخوانِهم المحرفين للقرآن.

* * *

عِشْرُونَ وَجْهًا تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ ... تَـوْلَـى فَـلَا تَـخْـرُجْ عَـنِ الْـقُـرْآنِ

قَدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَا ... تَـصْـنِـيـفُ حَـبْـرٍ عَـالِـمٍ رَبَّـانِـي

وَلَـقَـدْ ذَكَـرْنَـا أَرْبَـعِـيـنَ طَـرِيـقَـةً ... قَـدْ أَبْـطَـلَـتْ هَـذَا بِـحُـسْـنِ بَـيَـانِ

هِي فِي الصَّوَاعِقِ إِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا ... لَا تَـخْـتَـفِـي إِلَّا عَـلَـى الْـعُـمْـيَـانِ

نُـونُ الْـيَـهُـودِ وَلَامُ جَـهْـمِـي هُـمَـا ... فِـي وَحْـي رَبِّ الْـعَـرْشِ زَائِـدَتَـانِ

وَكَـذَلِـكَ الْـجَـهْـمِـيُّ عَـطَّـلَ وَصْـفَـهُ ... وَيَـهُـودُ قَـدْ وَصَـفُـوهُ بِـالـنُّـقْـصَـانِ

فَهُمَا إِذَنْ فِي نَفْيِهِمْ لِصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُـلْـيَـا كَـمَـا بَـيَّـنْـتُـهُ أَخَـوَانِ

الشرح: يعني: أن تأويل الجهمية للفظ استوى باستولى: باطل من عشرين وجهًا، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس اللَّه سره- فِي مصنف خاص، وقد ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «الصواعق المرسلة فِي الرد على الجهمية والمعطلة» وزاد عليها عشرين وجهًا أخرى، فصار المجموع أربعين وجهًا، مع قوة فِي الحجة، وحسن فِي البيان، كما هو دأبه فِي كل كتبه، صغيرها وكبيرها، فهو بحق كما وصفه أحد الإخوان من أنصار السنة «صاحب القلم السيال والسحر الحلال» جزاه اللَّه وجزى أستاذه شيخ الإسلام عن هذه الأمة خير ما يجزي به العلماء العاملين الذين أناروا الطريق للسالكين، ومهدوا لمن بعدهم سبل الحق واليقين.

ولا نطيل الكلام فِي سرد هذه الوجوه، فليرجع إليها من أراد، فِي كتاب الصواعق المذكور، غير أننا نحب أن نشير إلى بعض ما يظهر به فساد هذا التأويل، وتتضح به تفاهته، أو سخافته:

وهو أنه يقتضي أن اللَّه لَم يكن مستوليًا على العرش، ولا مالكًا له، ثُمَّ استولى عليه،

وملكه، وذلك يقتضي أن العرش كان فِي حوزة ملك آخر قبل أن يقهره اللَّه وينْتزع العرش منه.

ثُمَّ ما الحكمة فِي تخصيص العرش وحده باستيلاء اللَّه ﷻ عليه، وهو مالك الملك كله، من عرشه إلى فرشه، كله فِي قبضته مقهور بقهر جبروته وعزته، أفلا يستحي هؤلاء من ترديد مثل هذا الهراء، وتدريسه للناشئة من طلاب المعاهد الذين يأخذونه من أفواه شيوخهم عقيدة مسلمة، لا يجرءون على مناقشتهم فيها، وإلا رموا بالكفر والإلحاد.

وما أحسن قول من قال: «لام الجهمية كنون اليهودية» فكلتاهما زائدة على الوحي، حيث جاء آمرًا لليهود بأن يقولوا: «حطة» فقالوا: «حنطة». وجاء مخبرًا عن اللَّه بأنه استوى، فقال الجهمية: استولى. وكما وصف اليهود ربَّهم بِما لا يليق به من النقائص، من قولهم: إنه فقير، ويده مغلولة، وأنه تعب من الخلق فاستراح فِي يوم السبت... إلخ. كذلك عطله الجهمية عن صفات كماله، ونفوها عنه.

وبذلك اتفق الفريقان على نفي صفاته العليا الَّتِي هي كمالات محضة، وبان لكل أحد أنَّهما أخوان متشابِهان.

فصل في بيَان بُهتانِهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون، وقولهم: إن مقالة العلو عنه أخذوها وأنَّهم أولى بفرعون وهم أشبَاههُ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ فِرْعَونُ مَذْ ... هَبُهُ الْعُلُوُّ وَذَاكَ فِي الْقُرْآنِ
وَلِذَاكَ قَدْ طَلَبَ الصُّعُودَ إِلِيهِ بِالصْ ... صَرْحِ الَّذِي قَدْ رَامَ مِنْ هَامَانِ
هَذَا رَأَيْنَاهُ بِكُتْبِهِم وَمِنْ ... أَفْوَاهِهِمْ سَمْعًا إِلَى الآذَانِ
فَاسْمَعْ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي أَوْلَى بِفِرْ ... عَوْنَ الْمُعَطِّلِ جَاحِدِ الرَّحْمَنِ
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ مُوسَى كَاذِبٌ ... حِينَ ادَّعَى فَوْقِيَةَ الرَّحْمَنِ
فَمِنَ الْمَصَائِبِ أَنَّ فِرْعَوْنِيكُمْ ... أَضْحَى يُكَفِّرُ صَاحِبَ الإِيمَانِ
وَيَقُولُ ذَاكَ مُبَدِّلٌ لِلدِّينِ سَا ... عٍ بِالْفَسَادِ وَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ

الشرح: ومن عجائب هؤلاء الجهمية كذلك: أنَّهم يرمون أهل الإثبات لصفة العلو وغيرها بأنَّهم أشباه لفرعون، فقد حكى عنه القرآن أنه كان يعتقد أن إله موسى فِي السماء،

ولهذا قال لهامان وزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. ويذكرون هذا في كتبهم، ويصرحون به في مجالسهم، ونحن نبين من هو أولى بفرعون المعطل الجاحد لوجود الصانع -جل وعلا- ومن هو أحق أن ينسب إليه، نحن أم هم؟.

إن فرعون حين أخبره موسى عليه السلام بأنه رسول من رب العالمين، سأله فرعون سؤال المتظاهر بالجحد والإنكار: ما رب العالمين؟ وأين هو؟ فأخبره موسى بأن إلهه الذي أرسله في السماء، فقال فرعون ما حكاه عنه القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. ففرعون كذب موسى في قوله: إن إلهه في السماء؛ ولهذا طلب بناء الصرح؛ ليرقى عليه، ويستطلع جلية الخبر.

وهكذا أنتم أيُّها الجهمية، أشياع لفرعون في التعطيل والإنكار، إذا أخبركم أهل الحق بأن اللَّه فوق خلقه مستوٍ على عرشه، قلتم: حشوية كفار. وخشيتم منهم ما خشيه فرعون من موسى حين قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. فأنتم أشياع فرعون في الكذب والبهتان، ترمون به أهل الحق والإيمان كما رمى به هو موسى بن عمران.

* * *

إِنَّ الْمُوَرِّثَ ذَا لَهُمْ فِرْعَوْنُ حِيـ ... ـنَ رَمَى بِهِ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ

فَهْوَ الإِمَامُ لَهُمْ وَمَا فِيهِمْ بَمَتْـ ... ـبُوعٍ يَقُودُهُمُ إِلَى النِّيرَانِ

هُوَ أَنْكَرَ الْوَصْفَيْنِ وَصْفَ الْفَوْقِ وَالتْـ ... ـتَكْلِيمِ إِنْكَارًا عَلَى الْبُهْتَانِ

إِذْ قَصْدُهُ إِنْكَارُ ذَاتِ الرَّبِّ فَالتْـ ... ـتَعْطِيلُ مِرْقَاةٌ لِذَا النُّكْرَانِ

وَسِوَاهُ جَاءَ بِسُلَّمٍ وَبِآلَةٍ ... وَأَتَى بِقَانُونٍ عَلَى بُنْيَانِ

وَأَتَى بِذَاكَ مُفَكِّرًا وَمُقَدِّرًا ... وِرْثَ الْوَلِيدِ لِعَابِدِ الأَوْثَانِ

وَأَتَى إِلَى التَّعْطِيلِ مِنْ أَبْوَابِهِ ... لَا مِنْ ظُهُورِ الدَّارِ وَالْجُدْرَانِ

الشرح: فهذا البهت الذي بَهتم به أهل السنة والجماعة، من قولكم: حشوية، ومجسمة، حددوا ربَّهم، وجعلوا له مكانًا إلخ، إنَّما ورثتموه من فرعون، إمامكم في الضلال، حين رمى به موسى بن عمران كليم الرحمن، فقال: إنه ما جاء إلا لتبديل الدين،

والسعي فِي الأرض بالفساد، فهو إمامكم فِي الدنيا، وسيكون كذلك إمامًا لكم فِي الآخرة، يقودكم إلى النار، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧-٩٨].

وهو أنكر الوصفين جميعًا: وصف الفوق ووصف التكليم.

أما وصف الفوق؛ فبما تقدم من قوله فِي شأن موسى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾.

وأما وصف التكليم؛ فلأنه جحد رسالة موسى، وكذب بِها، والرسالة إنَّما مبناها على تكليم اللَّه لمن يرسله، فمن جحدها؛ فقد جحد ما تنبني عليه من وصف التكليم، وكان قصد فرعون من الجحد لهذين الوصفين إنكار ذات الرب -جل شأنه- فجعل من هذا التعطيل مرقاة يثب منها إلى جحد الصانع -جلا وعلا- وتعطيل العالم عن صانعه وإلهه، ولكنكم حين قصدتم إلى هذا التعطيل والإنكار، أعددتم للأمر عدته، واستكملتم لآلته، وبنيتم على هندسة ونظام، مع تفكير وتقدير ورثتموه عن سلفكم فِي الجحود والإنكار: الوليد بن المغيرة، حين قال فِي القرآن بعد أن فكر وقدر: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾. ودخلتم إلى التعطيل من بابه، ولَم تتسوروا الجدران، ولا أتيتم البيت من ظهره، لهذا راج باطلكم، وجاز تلبيسكم وخداعكم على كثير، لا من العامة فحسب، بل مِمَّن ينسبون إلى العلم والدين ونالوا لقب الإمامة والزعامة بين المسلمين، ولِلَّه فِي خلقه شئون.

* * *

وَأَتَى بِهِ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّـ ... تَـعْـظِـيـم تَـلْـبِـيسًـا عَـلَـى الْـعُـمْـيَـانِ

وَأَتَى إِلَى وَصْفِ الْعُلُوِّ فَقَالَ ذَا التَّـ ... تَـجْـسِـيـمُ لَـيسَ يـلِـيـقُ بِـالـرَّحْـمَـنِ

فَـالـلَّـفْـظُ قَـدْ أَنْـشَـاهُ مِـنْ تِـلْـقَـائِـهِ ... وَكَـسَـاهُ وَصْـفَ الْـوَاحِـدِ الْـمَـنَّـانِ

وَالـنَّـاسُ كُـلُّـهُـمُ صَـبِـي الْـعَـقْـلِ لَـمْ ... يـبْـلُـغْ وَلَـوْ كَـانُـوا مِـنَ الـشِّـيـخَـانِ

إِلَّا أُنَـاسًـا سَـلَّـمُـوا لِـلْـوَحْـي هُـمْ ... أَهْـلُ الْـبُـلُـوغِ وَأَعْـقَـلُ الإِنْـسَـانِ

فَـأَتَـى إِلَـى الـصِّـبْـيَـانِ فَـانْـقَـادُوا لَـهُ ... كَـالـشَّـاءِ إِذْ تَـنْـقَـادُ لِـلْـجُـوبَـانِ

فَـانْـظُـرْ إِلَـى عَـقْـلٍ صَـغِـيرٍ فِـي يـدَي ... شَـيـطَـان مَـا يـلْـقَـى مِـنَ الـشَّـيـطَـانِ

الشرح: يعني: أنكم حين عطلتم الباري عن صفاته سميتم هذا التعطيل تنْزيهًا وتعظيمًا للرب -جل شأنه- لكي تلبسوا بذلك على أهل الغفلة والعمى، فينقادوا لكم، ويدينوا بتعطيلكم، وعمدتم إلى وصف العلو الثابت له سبحانه بِما لا يحصى من الأدلة

النقلية والعقلية، فقلتم: هذا تجسيم، يجب تنْزيه اللّه عنه، وهكذا أنشأتم لفظ التنْزيه من عند أنفسكم، وكسوتموه مِمَّا تشاءون من صفات، فاقتضى تنْزيهكم أن تنفوا عنه الجهة، والمكان، والحيز، والحركة، والنُّزول، والصعود، والمقدار، والصورة، والإشارة الحسية. . . إلخ، مِمَّا يجعله سبحانه -وحاشاه- أقرب إلى المعدوم منه إلى الموجود، وكل صفة مِمَّا أثبته هو لنفسه أو أثبته له رسوله، لا تروق لكم، تنفونَها بحجة التنْزيه، والناس ينقادون لكم فِي هذا النفي والتعطيل؛ لأنَّهم صبيان العقول وإن كانوا كبار الأعمار، ولكن المتبعين للوحي والواقفين عند النص هم الذين بلغوا رشدهم، واستوت أحلامهم، فهم لا ينقادون لكم، ولا يغترون بجعجعتكم، وإنَّما ينقاد لكم الصبيان انقياد الشاء للجوبان -يعني: الراعي- وماذا يصنع عقل صغير بين يدي شيطان إلا أن يلعب به كما تلعب بالكرة الصولجان؟!.

فصل في بيَان تدليسهم وتلبيسهم الحق بالباطل

قَالُوا إِذَا قَالَ الْمُجَسِّمُ رَبُّنَا ... حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى بِلِسَانِ

فَسَلُوهُ كَمْ لِلْعَرْشِ مَعْنًى وَاسْتَوَى ... أَيضًا لَهُ فِي الْوَضْعِ خَمْسُ مَعَانِ

وَعَلَى فَكَمْ مَعْنًى لَها أَيضًا لَدَى ... عَمْرٍو فَذَاكَ إِمَامُ هَذَا الشَّانِ

بَيِّنْ لَنَا تِلْكَ الْمَعَانِي وَالَّذِي ... مِنْهَا أُرِيدَ بِوَاضِحِ التِّبْيَانِ

فَاسْمَعْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ هَذِي الْجَعَا ... جِعُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الْهَذَيَانِ

قُلْ لِلْمُجَعْجِعِ وَيحَكَ اعْقِلْ ذَا الَّذِي ... قَدْ قُلْتَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا عِرْفَانِ

الْعَرْشُ عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَاللَّامُ لِلْمَعْهُودِ فِي الأَذْهَانِ

مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوهِمٌ ... نَقْلَ الْمَجَازِ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ

وَمُحَمَّدٌ وَالأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ ... شَهِدُوا بِهِ لِلْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

مِنْهُمْ عَرَفْنَاهُ وَهُمْ عَرَفُوهُ مِنْ ... رَبٍّ عَلَيهِ قَدِ اسْتَوَى دَيَّانِ

الشرح: مِمَّا أوصى به المعطلة النفاة بعضهم بعضًا أنَّهم قالوا: إذا قال لك المجسم، -يعنون: المثبت لعلوه تعالى واستوائه على العرش-: ربنا على العرش استوى حقًّا كما جاء ذلك صريحًا فِي كتابه، بلسان عربي مبين؛ فسله أي معنًى من معاني العرش تريد؟ فإن العرش يطلق ويراد به سرير الملك، ويطلق ويراد به عرش الكروم، ويطلق ويراد به

العريشة، ويطلق ويراد به عرش بلقيس ملكة سبأ، ويطلق ويراد به السقف.

وكذلك سله عن معنَى استوى؟ فإنه كذلك لفظ محتمل لعدة معان، يقال: استوى بِمعنى جلس، واستوى بِمعنى قصد، واستوى بِمعنى بلغ تمامه وكماله، واستوى بِمعنى ساوى.

وسله أيضًا عن معنَى «على»؟ فإنَّها تأتي للاستعلاء ولغيره، كما ذكر ذلك أئمة اللغة، فقل له: بين لنا كل هذه المعاني الَّتِي تراد من هذه الألفاظ؟ وأي هذه المعاني تريد؟.

فإذا حاول المعطل تشكيكك بمثل هذه الهذيانات، أو أراد أن يسد عليك باب الفهم للنصوص؛ بسلب الألفاظ دلالتها على معانيها المتبادرة منها، وادعاء أنه لا يُمكن فهم مقصود المتكلم بِهذه الألفاظ؛ لاحتمالها لعدة معان، فقل له: دع عنك هذه الجعاجع والمغالطات، فكل لفظ من هذه الألفاظ الثلاثة واضح الدلالة على معناه.

فالمراد بالعرش هنا: ليس إلا عرش الرب -جل شأنه- الذي هو فوق السموات، وهو المذكور فِي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]. وفي قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥]. وفي قوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]. إلى ما لا يحصى من الآيات والأحاديث، واللام فيه للعهد الذهني، وليس فِي هذا اللفظ -بحمد اللَّه- إجمال يحتاج معه إلى تفصيل، ولا هو موهم أنه مستعمل فِي معنى مجازي، ولا هو من الألفاظ المشتركة الموضوعة لعدة معان، وهو العرش الذي شهد الرسول ﷺ وجميع الأنبياء قبله بثبوته لربهم، وقد عرفنا نحن ذلك من أخبارهم كما عرفوه هم بالوحي الذي أنزل عليهم مِمَّن على العرش استوى -جل وعلا-.

* * *

لَمْ تَفْهَمِ الأَذْهَانُ مِنْهُ سَرِيرَ بَلْـ	ـقِيسٍ وَلَا بَيتًا عَلَى أَرْكَانِ
كَلَّا وَلَا عَرْشًا عَلَى بَحْرٍ وَلَا	عَرْشًا لِجِبْرِيلَ بِلَا بُنْيَانِ
كَلَّا وَلَا الْعَرْشَ الَّذِي إِنْ ثُلَّ مِنْ	عَبْدٍ هَوَى تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي
كَلَّا وَلَا عَرْشَ الْكُرُومِ وَهَذِهِ الْـ	أَعْنَابِ فِي حَرْثٍ وَفِي بُسْتَانِ
لِكِنَّهَا فَهِمَتْ بِحَمْدِ الله عَرْ	شَ الرَّبِّ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ
وَعَلَيهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِ اسْتَوَى	حَقًّا كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

الشرح: يعني: أن العرش المذكور فِي مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. قد جاء إما مطلقًا، معرفًا بلام العهد كما فِي الآية، أو مضافًا إلى الرب -جل شأنه- كما فِي قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾. فلا يُمكن أن يفهم الذهن منه غير معنى واحد، وهو هذا الجسم المخصوص الذي تنتهي به كرة العالم، ولا يعقل أن يفهم منه أنه عرش بلقيس ملكة سبأ، فإنه مضاف إليها كما يدل عليه قول سليمان لجنوده: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]. وقوله لَها حين جاءت: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [النمل: ٤٢]. ولا يفهم منه كذلك أنه عرش على بحر، وهو عرش الشيطان كما ورد فِي حديث ابن صوريا أن النَّبِي ﷺ سأله عما يرى، فقال: أرى عرشًا على الماء، فقال ﷺ: «**ذاك عرش الشيطان**». ولا يفهم منه أيضًا أنه العرش الذي استوى عليه جبريل حين رآه النَّبِي ﷺ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، كما ورد فِي حديث جابر، وذلك بعد فترة الوحي، وكان النَّبِي ﷺ قد جاور بحراء شهرًا. فلما خرج سمع صوتًا يناديه، فرفع رأسه، فرآه على صورته الملكية، فرعب منه، ولا يُمكن أن يفهم منه أنه عرش ملك من ملوك الدنيا بحيث لو ثل -أي: سلب عنه- هوى -أي: سقط- عن عز ملكه، وصار واحدًا من الناس، ولا يفهم منه أنه العرش الذي تقوم عليه الكروم والأعناب، إلى غير ذلك من المعاني الَّتِي لا يُمكن أن تخطر ببال أحد يقرأ هذه الآيات، ولكنه لا يفهم منه إلا أنه عرش الرب الموجود فوق جَميع هذه الموجودات، ولا يفهم إلا أن اللَّه استوى عليه استواءً حقيقيًّا كما جاء فِي القرآن.

* * *

وَكَذَا اسْتَوَى الْمَوصُولُ بِالْحَرْفِ الَّذِي ... ظَهَرَ الْمُرَادُ بِهِ ظُهُورَ بَيَانِ

لَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُو مُفْهِمٌ ... لِلِاشْتِرَاكِ وَلَا مَجَازٌ ثَانِ

تَرْكِيبُهُ مَعْ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ نَصْ ... صٌ فِي الْعُلُوِّ بِوَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

فَإِذَا تَرَكَّبَ مَعْ إِلَى فَالْقَصْدُ مَعْ ... مَعْنَى الْعُلُوِّ لِوَضْعِهِ بِبَيَانِ

وَإِلَى السَّمَاءِ قَدِ اسْتَوَى فَمُقَيدٌ ... بِتَمَامِ صَنْعَتِهَا مَعَ الْإِتْقَانِ

لَكِنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى هُوَ مُطْلَقٌ ... مِنْ بَعْدِهَا قَدْ تَمَّ بِالْأَرْكَانِ

لَكِنَّمَا الْجَهْمِي يقْصُرُ فَهْمُهُ ... عَنْ ذَا فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ

فَإِذَا اقْتَضَى وَاوَ الْمَعِيةِ كَانَ مَعْـ ... ـنَاهُ اسْتَوَى مُتَقَدِّمٌ وَالثَّانِي

فَإِذَا أَتَى مِنْ غَيرِ حَرْفٍ كَانَ مَعْـ نَـاهُ الْـكَـمَـالَ فَـلَـيـسَ ذَا نُـقْـصَـانِ
لَا تَـلْبِسُوا بِالْبَاطِلِ الْحَقَّ الَّذِي قَـدْ بَـيَّـنَ الـرَّحْـمَـنُ فِـي الْـفُـرْقَـانِ

الشرح: وكذلك الفعل استوى إذا تعدى بالحرف، فإن معناه في غاية الظهور، فليس فيه إجمال يحتاج معه إلى التفصيل، ولا هو من الألفاظ المشتركة الَّتي تحتمل أكثر من معنًى، ولا هو منقول من حقيقته إلى مجازه، بل إذا تعدى بـ «على» الموضوعة للاستعلاء كان نصًّا في العلو، لا يحتمل معنى آخر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]. وقال في سورة الزخرف: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]. ولا يُمكن أن يقال: استوى على كذا. من غير أن يفيد ذلك معنَى العلو، ويكون نصًّا فيه، وإذا تعدى بـ «إلى»؛ أفاد القصد مع العلو وضعًا، يقال: استوى إلى كذا. بمعنى قصد إليه، مستعليًا عليه، وقوله تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. يفيد القصد إلى خلقها مع الإحكام والإتقان للخلق كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فهو مطلق، لا يفيد إلا علوه تعالى على العرش الذي قام على أركانه بعد السموات، والذي هو أعلى الموجودات، ولكن الجهمي المعطل يعجز عن فهم هذه المعاني؛ لجهله بأوضاع اللغة، واللَّه هو الذي يَهب الفهم من يشاء بمنه وكرمه، أما إذا اقتضى الفعل استوى واو المعية كما في قولنا: استوى الماء والخشبة؛ أفاد أن ما قبل الواو قد ساوى ما بعدها، فإذا أتى من غير حرف، واستعمل لازمًا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]. أفاد معنَى الكمال وتمام القوة، هذه هي استعمالات الفعل استوى في لغة العرب الَّتي نزل بها القرآن الكريم، فلا تخلطوا أيُّها الجهمية الحق الذي بينه اللَّه في كتابه بما تختلقونه من المفتريات والأباطيل.

* * *

وَعَلَى لِلاسْتِعْلَاءِ فَهْيَ حَقِيقَةٌ فِـيـهِ لَـدَى أَرْبَـابِ هَـذَا الـشَّـانِ
وَكَـذَلِـكَ الـرَّحْـمَـنُ جَـلَّ جَـلَالُـهُ لَـمْ يـحْـتَـمِـلْ مَـعْـنًـى سِـوَى الـرَّحْـمَـنِ
يَا وَيحَهُ بِعَمَاهُ لَوْ وَجَدَ اسْمَهُ الرْ رَحْـمَـن مُـحْـتَـمِـلًا لِـخَـمْـسِ مَـعَـانِ
لَقَضَى بِأَنَّ اللَّفْظَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا الـتِّـلَاوَةَ عِـنْـدَنَـا بِـلِـسَـانِ
فَـلِـذَاكَ قَـالَ أَئِـمَّـةُ الإِسْلَام فِـي مَـعْـنَـاهُ مَـا قَـدْ سَـاءَكُـم بِـبَـيَـانِ

وَلَقَدْ أَحَلْنَاكُمْ عَلَى كُتْبٍ لَهُمْ هِـي عِـنْـدَنَـا وَالـلـهِ بِـالْـكِـيـمَـانِ

الشرح: وكذلك الحرف «على» الذي تعدى به فعل الاستواء، هو نص فِي إفادة الاستعلاء عند أهل اللغة، لا يجوز صرفه عن هذا المعنى الذي هو حقيقة فيه بلا قرينة كلامية، توجب ذلك، وتدل عليه.

وكذلك الاسم الكريم «الرحمن» لا يحتمل معنًى سوى الرب الموصوف بالرحمة الواسعة الَّتِي وسعت كل شيء -جل شأنه- فيا ويح هذا المعطل الأعمى لو رأى كذلك أن اسمه الرحمن ليس نصًّا فِي الدلالة على مسماه، وطرد قاعدته الفاسدة فِي احتمال الألفاظ عليه، وادعى له هو الآخر أنه محتمل لخمس معانٍ كما ادعى ذلك فِي العرش، إذن لوجب أن يحكم بأن الألفاظ خالية من معانيها، وأن نصيب القارئ منها هو التلاوة باللسان فقط، دون أن يفقه لَها معنى.

وهذا هو ما يَهدف إليه هؤلاء المعطلة أعداء الكتاب والسنة، أن يعزلوا نصوصهما عن إفادة الحق واليقين؛ ليرجعوا فِي ذلك إلى قضايا عقولهم الفاسدة، وإذا ثبت أن كل لفظة من ألفاظ الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. هو نص فِي معناه، بحيث لا يجوز صرفه عنه -لَم يكن حينئذ للاستواء على العرش معنى إلا العلو والارتفاع عليه، وهذا المعنى هو الذي أطبق عليه أئمة الإسلام، ولكن قلوبكم المريضة لَم تتسع له؛ لامتلائها من الباطل الذي ورثتموه عن فلاسفة اليونان وغيرهم، فساءكم ما قاله أئمة الهدى، وملأ قلوبكم غيظًا عليهم، ولن تستطيعوا إنكار نسبة هذا القول إليهم، فقد أحلناكم على كتبهم الَّتِي لا يشك فِي نسبتها إليهم، وهي بحمد اللَّه من الكثرة بحيث تشبه الكيمان «والكيمان» جمع أكوام، الذي هو جمع كومة، و«الكومة»: هي الجملة من الشيء المتكومة المجتمعة.

* * *

فصل في بيَان سبب غلطهم في الألفاظ والحكم عليها باحتمال عدة معان حتى اسقطوا الاستدلال بها

وَاللَّفْظُ مِنْهُ مُفْرَدٌ وَمُرَكَّبٌ ... فِي الإِعْتِبَارِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ
وَاللَّفْظُ بِالتَّرْكِيبِ نَصٌّ فِي الَّذِي ... قَصَدَ الْمُخَاطِبَ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ
أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ وَذَا مِنْ حَيْثُ نِسْـ ... بَتُهُ إِلَى الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ
فَيَكُونُ نَصًّا عِنْدَ طَائِفَةٍ وَعِنْـ ... دَ سِوَاهُمُ هُوَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ
وَلَدَى سِوَاهُمْ مُجْمَلٌ لَمْ يَتَّضِحْ ... لَهُمُ الْمُرَادُ بِهِ اتِّضَاحَ بَيَانِ
فَالأَوَّلُونَ لإِلْفِهِمْ ذَاكَ الْخِطَا ... بَ وَإِلْفِهِمْ مَعْنَاهُ طُولَ زَمَانِ
طَالَ الْمِرَاسُ لَهُمْ لِمَعْنَاهُ كَمَا اشْـ ... تَدَّتْ عِنَايَتُهُمْ بِذَاكَ الشَّانِ
وَالْعِلْمُ مِنْهُمْ بِالْمُخَاطِبِ إِذْ هُمُ ... أَوْلَى بِهِ مِنْ سَائِرِ الإِنْسَانِ
وَلَهُمْ أَتَمُّ عِنَايَةٍ بِكَلَامِهِ ... وَقُصُودِهِ مَعَ صِحَّةِ الْعِرْفَانِ
فَخِطَابُهُ نَصٌّ لَدَيْهِمْ قَاطِعٌ ... فِيمَا أُرِيدَ بِهِ مِنَ التِّبْيَانِ

الشرح: يريد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبين أحوال الناس في إدراكهم لمعاني الألفاظ ومدلولاتها، فيقسم اللفظ إلى مفرد، لم يستعمل مع غيره من الألفاظ، كزيد مثلًا، وإلى مركب، وهو ما تركب مع غيره لإفادة معنى تام، وذلك مثل الجمل الفعلية والاسمية، فإذا تركب اللفظ مع غيره؛ اختلف الناس في دلالته على معناه؛ تبعًا لاختلاف أفهامهم وأحوالهم.

فمن الناس من يجعله نصًّا في المعنى الذي قصده منه المخاطب بكلامه، فلا يكون محتملًا لغيره.

ومنهم من يعتبره ظاهرًا فيه فقط، فيرجح أن يكون المقصود به هذا المعنى، ولكنه لا يقطع به.

ومنهم طائفة ثالثة، تجعل اللفظ من قبيل المجمل الذي لم يتضح المراد منه، فهو عندهم محتمل لعدة معان، ولا يدرون أيُّها هو المراد من اللفظ؛ لأن هذه المعاني عندهم متساوية فيه.

فالأولون لأنَّهم ألفوا هذا الخطاب واعتادوه، وألفوا معانيه، وطال مراسهم لَها، واشتدت عنايتهم بِها، ولأنَّهم أعرف الناس بالمخاطب لهم، وأولى به من غيرهم وأكمل الناس عناية بفهم خطابه، وإدراك مقاصده، مع ما لهم من الفهم الصحيح، والنظر الصائب، والفطرة السليمة الَّتِي لَم تفسد بالتقليد الأعمى، يعتبرون خطابه نصًّا قاطعًا فِي الدلالة على ما قصد إليه منه، دون أن يتطرق إلى نفوسهم أي توهم للاحتمال أو المجاز.

و«المراس»: هو الممارسة، وهو كثرة التمرن والاعتياد.

* * *

لَكِنَّ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ فِي ذَاكَ لَمْ	يَقْطَعْ بِقَطْعِهِم عَلَى الْبُرْهَانِ
وَيقُولُ يظْهَرُ ذَا وَلَيسَ بِقَاطِعٍ	فِي ذِهْنِهِ لَا سَائِرَ الأَذْهَانِ
وَلِإلْفِهِ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ مُقْتَدٍ	بِكَلَامِهِ مِنْ عَالِمِ الأَزْمَانِ
هُوَ قَاطِعٌ بِمُرَادِهِ وَكَلَامُهُ	نَصٌّ لَدَيهِ وَاضِحُ التِّبْيَانِ
وَالْفِتْنَةُ الْعُظْمَى مِنَ الْمُتَسَلِّقِ الْـ	ـمَخْدُوعِ ذِي الدَّعْوَى أَخِي الْهَذَيَانِ
لَمْ يعْرِفِ الْعِلْمَ الَّذِي فِيهِ الْكَلَا	مُ ولَا لَهُ إلْفٌ بِهَذَا الشَّانِ
لَكِنَّهُ مِنْهُ غَرِيبٌ لَيسَ مِنْ	سُكَّانِهِ كَلَّا وَلَا الْجِيرَانِ
فَهْوَ الزَّنِيمُ دَعِي قَوْمٍ لَمْ يكُنْ	مِنْهُمْ وَلَمْ يصْحَبْهُمُ بِمَكَانِ
وَكَلَامُهُمْ أَبَدًا لَدَيهِ مُجْمَلٌ	وَبِمَعْزِلٍ عَنْ إمْرَةِ الإيقَانِ

الشرح: لكن من نقصت درجته فِي العلم والتحصيل والفهم لمضمون الخطاب عن هؤلاء السابقين؛ لَم يسلك سبيلهم فِي القطع بمعاني النصوص، بل يرى فقط أن هذا هو الظاهر المتبادر منها إلى الذهن مع تجويزه أن يكون المراد بِها معنى آخر؛ وذلك لقلة إلفه بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، وقلة ممارسته لَها، ولكنه لطول إلفه بكلام من يقلده، ويقتدي به من علماء زمانه، يقطع بمراده من كلامه، ويعتبر كلامه نصًّا واضحًا فيما يتضمنه من معنى، فجعل كلام اللَّه تعالى وكلام رسوله ﷺ أقل فِي الإفادة والإفهام من كلام شيخه، ولَم يرض حَتَّى بالمساواة.

وصاحب هذا المسلك هو على كل حال أقل خطرًا وأخف ضررًا، ولكن الفتنة العظمى، والداهية الكبرى فِي هذا المتسلق للجدران، المخدوع بزخارف البهتان،

صاحب الدعاوى العريضة فِي العلم والعرفان، وما هو إلا أخو ضلالة وهذيان، يَهرف بِما لا يعرف، ويتكلم فيما لا علم له به، ولا يحسن الكلام فيه؛ لعدم إلفه له؛ وقلة مصاحبته إياه، فهو منه غريب كل الغربة، فلا هو من سكانه المقيمين معه، ولا حَتَّى من جيرانه القريبين منه، وهو زنيم، يدعي النسبة إلى قوم ليس هو منهم، ولَم يتشرف أبدًا بصحبتهم فِي أي مكان، فكلامهم دائمًا غير واضح المعنى عنده، وبمعزل عن إفادة اليقين.

والمراد بـ «القوم» هنا: أهل الحق من سلف هذه الأمة، من الصحابة، والتابعين، ومن سلك سبيلهم فِي الاتباع -رضي اللَّه عنهم أجمعين-.

* * *

نَشَدَ التِّجَارَةَ بِالزُّيوفِ يخَالُهَا ... نَقْدًا صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ

حَتَّى إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ نَالَهُ ... مِنْ رَدِّهَا خِزْيٌ وَسُوءُ هَوَانِ

فَأَرَادَ تَصْحِيحًا لَهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ ... نَقْدُ الزُّيوفِ يرُوجُ فِي الأَثْمَانِ

وَرَأَى اسْتِحَالَةَ ذَا بِدُونِ الطَّعْنِ فِي ... بَاقِي النُّقُودِ فَجَاءَ بِالْعُدْوَانِ

وَاسْتَعْوَضَ الثَّمَنَ الصَّحِيحَ بَجَهْلِهِ ... وَبُظُلْمِهِ يبْغِيهِ بِالْبُهْتَانِ

عِوَجًا لِيسْلَمَ نَقْدُهُ بَينَ الْوَرَى ... وَيرُوجُ فِيهِمْ كَامِلَ الأَوْزَانِ

وَالنَّاسُ لَيسُوا أَهْلَ نَقْدٍ لِلَّذِي ... قَدْ قِيلَ إِلَّا الْفَرْدَ فِي الأَزْمَانِ

وَالزَّيفُ بَينَهُمُ هُوَ النَّقْدُ الَّذِي ... قَدْ رَاجَ فِي الأَسْفَارِ وَالْبُلْدَانِ

إِذْ هُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيهِ وَارْتَضَوْا ... بِجَوَازِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ

الشرح: وهذا الداعي الزنيم، المتعالم ولا علم عنده، لا يتجر إلا فِي الزيوف، وهي الدراهم المغشوشة، يظنها بجهله وقلة بصره نقدًا جيدًا، فتراه يروج بين الناس قضايا وهمية، وجهالات سوفسطائية، يخدعهم بِها، ويوهمهم أنَّها علم صحيح، فإذا انبرى له أهل الحق، وأرباب البصائر، وردوا عليه زيوفه، وكشفوا عن بَهرجها -لحقه من ذلك أشد الخزي وأسوأ الهوان، ولكنه لا يستسلم للْهزيمة ولا يفيء إلى الحق، بل يحاول تصحيحها لتروج فِي الأثمان، ويرى أن ذلك مستحيل بدون الطعن فِي باقي النقود، فيعمد إلى النقد الصحيح من علوم الكتاب والسنة، فيتعوض عنه بجهله وظلمه، ويريده بالكذب والافتراء عوجًا؛ ليسلم له زيفه، ويروج باطله، والناس كلهم -إلا من عصم اللَّه- ليسوا أهل بصر بالنقود، فلا يقدرون على تمييز الجيد من الرديء، ولا لهم خبرة بوزن الأقوال وتمحيص

الآراء اللَّهم إلا أفراد قلائل، يوجدون فِي الأزمان المتطاولة، ولذلك تجد الزيف هو النقد المتداول بينهم والرائج فِي الأسفار والبلدان؛ لأنَّهم قد تعارفوا عليه، وارتضوه جهرة بلا كتمان.

* * *

فَإِذَا أَتَاهُمْ غَيْرُهُ وَلَو انَّهُ ... ذَهَبٌ مُصَفًّى خَالِصُ الْعِقْيَانِ
رَدُّوهُ وَاعْتَذَرُوا بِأَنَّ نُقُودَهُمْ ... مِنْ غَيْرِهِ بِمَرَاسِمِ السُّلْطَانِ
فَإِذَا تَعَامَلْنَا بِنَقْدٍ غَيْرِهِ ... قُطِعَتْ جَوَامِكُنَا مِنَ الدِّيوَانِ
وَاللهِ مِنْهُمْ قَدْ سَمِعْنَا ذَا وَلَمْ ... نَكْذِبْ عَلَيهِمْ وَيحَ ذِي الْبُهْتَانِ
يَا مَنْ يُرِيدُ تِجَارَةً تُنْجِيهِ مِنْ ... غَضَبِ الإِلَهِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ
وَتُفِيدُهُ الأَرْبَاحَ بِالْجَنَّاتِ وَالْـ ... ـحُورِ الْحِسَانِ وَرُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ
فِي جَنَّةٍ طَابَتْ وَدَامَ نَعِيمُهَا ... مَا لِلْفَنَاءِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ
هَيِّئْ لَهَا ثَمَنًا يبَاعُ بِمِثْلِهَا ... لَا تُشْتَرَى بِالزَّيفِ مِنْ أَثْمَانِ
نَقْدًا عَلَيهِ سِكَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... ضَرْبُ الْمَدِينَةِ أَشْرَفِ الْبُلْدَانِ

الشرح: فإذا جاءهم أحد بنقد آخر غير هذا الذي تعارفوا عليه؛ ردوه على الناقد ولو كان من نضار الذهب وخالصه، معتذرين بأن نقدهم عليه سكة السلطان، فإذا هم تعاملوا بنقد غيره؛ قطعت رواتبهم من ديوان الحكومة.

وكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يشير بهذا إلى حال كثير من العلماء الرسميين الذين توظفهم الحكومة فِي بعض الوظائف، مثل القضاء والإفتاء والحسبة وغيرها، فيتوخون فِي أعمالهم موافقة الحكام فِي مذاهبهم، ولا يجرؤون على مخالفتها؛ خوفًا من العزل.

وهذا المعنى كان موجودًا منذ قريب عندنا فِي مصر فِي عهد الحكم التركي، حين كان لا يُولَّى مناصب القضاء والإفتاء إلا حنفيٌّ، بل ولا يزال كثير من العلماء فِي مصر وغيرها يدينون بمذهب الأشعري فِي العقيدة؛ لأنه منذ عهد صلاح الدين كان هو المذهب الرسمي لكثير من البلاد الإسلامية، وكان أتباعه هم الذين يتولون وظائف التدريس فِي مدارس الحكومة، فمثل هؤلاء العلماء إنَّما يريدون تجارة الدنيا من الحظوة عند الحكام، وإغداق الأرزاق عليهم، أما أنت يا من تريد تجارة الآخرة الَّتِي رأس مالها النجاة من غضب اللَّه

وناره المستعرة، والربح فيها جنات عرضها السموات والأرض، تتمتع فيها بالحور الحسان، وأعظم من ذلك رؤية الرحمن ﷻ، ولك فيها ما شئت من ألوان النعيم، وأنت فيها خالد مقيم، لا تفنى ولا تريم، فيهيئ لتلك الدار الطيبة -الَّتي هي سلعة اللَّه الغالية- ثمنًا يليق بها، من نقد جيد صحيح -فإنَّها لا تشترى بالنقد الزائف المغشوش- هيًّا لها نقدًا عليه سكة النبوة وطابعها، ومضروبًا فِي المدينة، أشرف البلدان، ومصدر العلم، والهدى، والإيمان.

* * *

أَظَنَنْتَ يَا مَغْرُورُ بَائِعَهَا الَّذِي ... يرْضَى بِنَقْدٍ ضَرْبِ جَنْكِيزْ خَانِ

مَنَّتْكَ وَاللهِ الْمُحَالَ النَّفْسُ أَنْ ... طَمِعَتْ بِذَا وَخُدِعَتْ بِالشَّيطَانِ

الشرح: ولا يذهبن بك الغرور، فتظن أن بائعها -جلا وعلا- يرضى بالنقد الزائف ثَمنًا لَها، مثل النقود الَّتِي هي ضرب جنكيز خان، قائد التتار الغشوم، فإذا أنت طمعت فِي ذلك أن تنالها بمثل هذه الأثمان المزورة المغشوشة؛ فقد منتك نفسك المحال، وخدعك الشيطان بكواذب الآمال.

وقوله: «المحال» بالنصب، مفعول ثان «لمنتك» و«النفس» بالرفع: فاعل.

* * *

فَاسْمَعْ إِذَنْ سَبَبَ الضَّلَالِ وَمَنْشَأَ التْـ ... ـتَخْلِيطِ إِذْ يتَنَاظَرُ الْخَصْمَانِ

يحْتَجُّ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ عَارِفٌ ... مَضْمُونَهُ بِسِيَاقِهِ لِبَيَانِ

وَاللَّفْظُ حِينَ يسَاقُ بِالتَّرْكِيبِ مَحْـ ... ـفُوفٌ بِهِ لِلْفَهْمِ وَالتِّبْيَانِ

جُنْدٌ ينَادَى بِالْبَيَانِ عَلَيهِ مِثْـ ... ـلَ نِدَائِنَا بِإِقَامَةٍ وَأَذَانِ

كَي يحْصُلَ الإِعْلَامُ بِالْمَقْصُودِ مِنْ ... إِيرَادِهِ وَيصِيرَ فِي الأَذْهَانِ

فَيفُكُّ تَرْكِيبَ الْكَلَامِ مُعَانِدٌ ... حَتَّى يقَلْقِلَهُ مِنَ الأَرْكَانِ

وَيرُومُ مِنْهُ لَفْظَةً قَدْ حُمِّلَتْ ... مَعْنَى سِوَاهَا فِي كَلَامٍ ثَانِ

فَيكُونُ دَبُّوسَ الشِّقَاقِ وَعُدَّةً ... لِلدَّفْعِ فِعْلَ الْجَاهِلِ الْفَتَّانِ

فَيقُولُ هَذَا مُجْمَلٌ وَاللَّفْظُ مُحْـ ... ـتَمَلٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبُهْتَانِ

الشرح: إذا عرفت أن اللفظ ينقسم إلى مفرد ومركب، وأن اللفظ فِي التركيب غيره

حال الإفراد؛ سهل عليك أن تعرف سبب الضلال، ومصدر ما يقع من خلط وتخبط عند الحجاج والمناظرة، فقد يحتج باللفظ المركب فاهم لمضمونه، وما يدل عليه سياق التركيب، حيث إن اللفظ فِي هذه الحالة تحف به قرائن تعين المراد منه، وتنفي عنه كل شائبة احتمال، وتكون له جندًا ينادي عليه بحقيقة مدلوله، نداء واضحًا قويًّا كندائنا بالإقامة والأذان للصلاة، وبذلك يحصل العلم بالمقصود من إيراده، ويثبت فِي الأذهان بلا مرية، ولا نكران.

فيجيء خصمه المعاند للحق، ويفك تركيب الكلام حَتَّى يجعله أنقاضًا، لا يرتبط منه لفظ بآخر، ثُمَّ ينظر إلى الألفاظ هكذا مجردة عن تركيبها، فربَّما قصد إلى لفظة من المركب، تحتمل معنًى آخر سوى معناه الثابت لَها فِي التركيب فِي كلام آخر، فيكون هذا دبوس الشقاق، فيجعل استعمال اللفظة فِي هذا المعنى الآخر فِي هذا الكلام الثاني عدة له فِي الدفع، والمعارضة، وإسقاط الاستدلال بالمركب على ما فهم منه، وما يقتضيه سياقه، وهذا فعل جاهل، يبتغي الفتنة والمماراة بالباطل، ويدعي حينئذ أن اللفظ مجمل، وأنه محتمل لغير هذا المعنى، واللفظ متَى تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، وهذا منه كذب وافتراء، فإن اللفظ إذا كان يحتمل غير معناه حال التجرد والإفراد؛ فإنه فِي التركيب -كما قلنا- نص فِي معناه؛ لما يحف به من قرائن، تبين المراد منه، وتنادي عليه، واللَّه أعلم.

وقوله: «محفوف» أي: محيط، خبر للفظ، و«جند»: فاعل محفوف، وجملة ينادي: صفة لجند.

* * *

وَبِذَاكَ يفْسُدُ كُلُّ عِلْمٍ فِي الْوَرَى ... وَالْفَهْمُ مِنْ خَبَرٍ وِمِنْ قُرْآنِ

إِذْ أَكْثَرُ الأَلْفَاظِ تَقْبَلُ ذَاكَ فِي الْـ ... إِفْرَادِ قَبْلَ الْعَقْدِ وَالتَّبْيَانِ

لَكِنْ إِذَا مَا رُكِّبَتْ زَالَ الَّذِي ... قَدْ كَانَ مُحْتَمِلًا لَدَى الْوِحْدَانِ

فَإِذَا تَجَرَّدَ كَانَ مُحْتَمِلًا لِغَيْـ ... ـرِ مُرَادِهِ أَوْ فِي كَلَامٍ ثَانِ

لَكِنَّ ذَا التَّجْرِيدَ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ ... يفْرَضْ يكُنْ لَا شَكَّ فِي الأَذْهَانِ

وَالْمُفْرَدَاتُ بِغَيْرِ تَرْكِيبٍ كَمِثْـ ... ـلِ الصَّوْتِ تَنْعِقُهُ بِتِلْكَ الضَّانِ

وَهُنَالِكَ الإِجْمَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالتْـ ... ـتَجْهِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالإِتْيَانُ بِالْبُطْلَانِ

فَإِذَا هُمُ فَعَلُوهُ رَامُوا نَقْلَهُ ... لِمُرَكَّبٍ قَدْ حُفَّ بِالتِّبْيَانِ
وَقَضَوْا عَلَى التَّرْكِيبِ بِالْحُكْمِ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ لِلْمُفْرَدِ الْوَحْدَانِي
جَهْلًا وَتَجْهِيلًا وَتَدْلِيسًا وَتَلْـ ... بِيسًا وَتَرْوِيجًا عَلَى الْعُمْيَانِ

الشرح: وبهذا الذي يعمد إليه هؤلاء الجهلة، من التشكيك في دلالات الألفاظ المركبة، والحكم عليها بالإجمال والاشتباه -يفسد كل علم في الوجود، فإن أي قضية علمية ترد، لا يُمكن فهم معناها ما دامت ألفاظها محتملة وموهمة خلاف المقصود منها، وكذلك ينسد باب الفهم للكتاب والسنة، فلا يعلم أحد مراد اللَّه -جل وعلا- من كلامه، ولا مراد رسوله ﷺ، وبذلك تبطل التكاليف جملة، وتبقى نصوص الكتاب والسنة مجرد ألفاظ تتلى، دون أن يكون وراءها معنى، فأي فساد للدين أعظم من هذا؟!.

ولا سبب لهذا الفساد إلا ما يعمد إليه هؤلاء الجاهلون من التسوية بين الألفاظ في حالتي إفرادها وتركيبها، فإن أكثر الألفاظ حال الإفراد تكون مجملة، وقابلة للاحتمال، لكن إذا ما ركبت مع غيرها؛ زال كل احتمال، وصارت نصًا في معناها الذي يدل عليه سياق التركيب، ويفهمه فحوى الخطاب، فإذا تجرد اللفظ عن ذلك الوجود التركيبي؛ أمكن حينئذ أن يكون محتملًا لغير المراد منه في التركيب.

وكذلك إذا استعمل في كلام ثانٍ؛ جاز أن يستعمل فيه بمعنى آخر بحسب ما تدل عليه القرائن الَّتي تحف به، لكن تجريد الألفاظ أمر فرضي محض، لا وجود له إلا في الأذهان، فإن الألفاظ يمتنع استعمالها مفردة؛ إذ هي حينئذ بمثابة الأصوات الَّتي تنادي بها الحيوانات، وهنالك -أي: عند التجريد والإفراد- يكون ادعاء الإجمال، ويكون التشكيك والتجهيل والتحريف لَها عن مواضعها والإتيان بالباطل، ولكن هؤلاء الجهلة يدعون هذا في المركب أيضًا مع ما يحف به من بيان ينفي عنه كل اشتباه، ويحكمون كل الألفاظ في حال التركيب بمثل ما يحكمون به عليها في حال التجرد والإفراد؛ جهلًا منهم بالفرق بينهما وتجهيلًا لغيرهم، وتدليسًا -أي: خدعًا- بصرف اللفظ عن معناه، وتلبيسًا أي: سترًا للحق، وإظهارًا للأمر على خلاف ما هو عليه، وترويجًا لباطلهم عند السذج الذين لا بصر لهم بالأمور.

* * *

فصل في بيَان شبه غلطهم في تجريد الألفاظ بغلط الفلاسفة في تجريد المعاني

هَذَا هَدَاكَ اللهُ مِنْ إِضْلَالِهِمْ وَضَلَالِهِمْ فِي مَنْطِقِ الإِنْسَانِ
كَمُجَرَّدَاتٍ فِي الْخَيَالِ وَقَدْ بَنَى قَوْمٌ عَلَيْهَا أَوْهَنَ الْبُنْيَانِ
ظَنُّوا بِأَنَّ لَهَا وجُودًا خَارِجًا وَوُجُودُهَا لَوْ صَحَّ فِي الأَذْهَانِ
أَنَّى وَتِلْكَ مُشَخَّصَاتٌ حُصِّلَتْ فِي صُورَةٍ جُزْئِيَّةٍ بِعِيَانِ
لٰكِنَّهَا كُلِّيَّةٌ إِنْ طَابَقَتْ أَفْرَادَهَا كَاللَّفْظِ فِي الْمِيزَانِ
يَدْعُونَهُ الْكُلِّي وَهْوَ مُعَيَّنٌ فَرْدٌ كَذَا الْمَعْنَى هُمَا سِيَّانِ
مُتَجَرِّدًا فِي الذِّهْنِ أَوْ فِي خَارِجٍ عَنْ كُلِّ قَيْدٍ لَيسَ فِي الإِمْكَانِ
لَا الذِّهْنُ يَعْقِلُهُ وَلَا هُوَ خَارِجٌ هُوَ كَالْخَيَالِ لَطِيفِهِ السَّكْرَانِ

الشرح: واعلم -هداك اللَّه- أن الذي وقع فيه هؤلاء من الإضلال والضلال بالنسبة للألفاظ، حيث حكموا عليها بجواز التجرد فِي الخارج -هو شبيه بضلال بعض الفلاسفة فِي المجردات الخيالية، حيث ظنوا بأن لَها وجودًا فِي الأعيان، وبنوا على ذلك الظن أوهن البنيان، مع أن وجودها لو صح؛ لا يكون إلا فِي الأذهان، فإن الموجود فِي الخارج لا يكون إلا مشخصًا حافلًا فِي صورة جزئية معينة غير مشتركة، أما إذا كانت الصورة صادقة على أفراد كثيرة، ومطابقة لهم؛ فهي كلية، ولا وجود لَها إلا فِي الذهن، وهؤلاء يقيسون الألفاظ على تلك المجردات قياس فاسد على فاسد، فيسمون اللفظ كليًّا، وهو معين فرد، وكذلك يسمون معناه الجزئي كليًّا، مع أن تجريد اللفظ عن كل قيد يجعله من قبيل الممتنع الذي لا وجود له، لا فِي العقل، ولا فِي الخارج، بل يكون كخيال السكران، خرافة وهذيان.

* * *

لَكِنْ تَجَرُّدُهَا الْمُقَيدُ ثَابِتٌ وَسِوَاهُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ
فَتَجَرُّدُ الأَعْيَانِ عَنْ وَصْفٍ وَعَنْ وَضْعٍ وَعَنْ وَقْتٍ لَهَا وَمَكَانِ
فَرْضٌ مِنَ الأَذْهَانِ يفْرِضُهُ كَفَرْ ضِ الْمُسْتَحِيلِ هُمَا لَهَا فَرْضَانِ
اللهُ أَكْبَرُ كَمْ دَهَى مِنْ فَاضِلٍ هَذَا التَّجَرُّدُ مِنْ قَدِيمِ زَمَانِ

تَجْرِيدُ ذِي الأَلْفَاظِ عَنْ تَرْكِيبِهَا وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ الْمَعَانِي الثَّانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ كِلَيهِمَا فِي الذِّهْنِ مَفْ رُوضٌ فَلَا تَحْكُمْ عَلَيه وَهْوَ في الأَذْهَانِ
فَيقُودُكَ الْخَصْمُ الْمُعَانِدُ بِالَّذِي سَلَّمْتَهُ لِلْحُكْم فِي الأَعْيَانِ
فَعَلَيكَ بِالتَّفْصِيلِ إِنْ هُمْ أَطْلَقُوا أَوْ أَجْمَلُوا فَعَلَيكَ بِالتِّبْيَانِ

الشرح: يعني: أن التجريد إذا كان مقيدًا ببعض القيود فهو ثابت، وأما سواه، وهو التجرد المطلق عن كل وصف وقيد؛ فممتنع غير ممكن، فتجرد الأعيان الخارجية عن الوصف والكيفية، وعن الوضع الذي تكون عليه، وعن الوقت والزمان الذي هو ظرف لوجودها، وعن المكان والحيز الذي تشغله، كل هذا أمر يفرضه الذهن كما يفرض المستحيل.

ومن العجيب المؤسف: أن كثيرًا من الفضلاء قد دهاهم هذا التجرد منذ القدم، فآمنوا بهذه الخرافة، وأثبتوا فِي عالم الأعيان أشياء يسمونَها المجردات، ينفون عنها كل وصف وقيد، فيقولون: لا حيز لَها، ولا مكان، ولا جهة، ولا توصف بقرب ولا بعد، ولا اتصال ولا انفصال، وليست بذات صورة ولا كم، ولا مقدار ولا ثقل، ولا لون، ولا تقبل الإشارة إليها بأنَّها هنا أو هنا. . . إلخ ما نعتوها به من ألقاب النفي الَّتِي تجعلها من قبيل المعدوم الممتنع، ويجعلون اللَّه -جل شأنه- من قبيل هذه المجردات، فعطلوه عن وجوده وصفاته، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، فتجريد الألفاظ عن تركيبها، وكذلك تجريد المعاني، كلاهما من قبيل الفرض الذهني، فلا يجوز الحكم عليه فِي تلك الحالة بحكم، فيقودك الخصم للتسليم بثبوت ذلك الحكم له فِي الأعيان، بل عليك بالتفصيل إذا هم عمدوا إلى الإطلاق، فتقول: إن أردتم أن هذا حكم له فِي الذهن على فرض تجرده؛ فمسلم، وإن أردتم أن هذا حكم له حال التركيب فِي الأعيان؛ فممنوع، وكذلك إن أجملوا فعليك بالبيان والإيضاح.

* * *

فصل في بيَان تناقضهم وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب

وَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ الْمَنْقُولِ عَنْ أَشْيَاخِهِمْ كَتَمَسُّكِ الْعُمْيَانِ
وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِظَوَاهِرِ النْـ ـنَصِّينِ وَا عَجَبًا مِنَ الْخِذْلَانِ
قَوْلُ الشُّيوخِ مُحَرَّمٌ تَأْوِيلُهُ إِذْ قَصْدُهُمْ لِلشَّرْحِ وَالتِّبْيَانِ
فَإِذَا تَأَوَّلْنَا عَلَيهِمْ كَانَ إِبْـ ـطَالًا لِمَا رَامُوا بِلَا بُرْهَانِ
فَعَلَى ظَوَاهِرِهَا تَمُرُّ نُصُوصُهُمْ وَعَلَى الْحَقِيقَةِ حَمْلُهَا لِبَيَانِ
يَا لَيتَهُمْ أَجْرَوْا نُصُوصَ الْوَحْيِ ذَا الْـ ـمَجْرَى مِنَ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ
بَلْ عِنْدَهُمْ تِلْكَ النُّصُوصُ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّةٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ
لَمْ تُغْنِ شَيئًا طَالِبَ الْحَقِّ الَّذِي يَبْغِي الدَّلِيلَ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

الشرح: ينعي المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على هؤلاء المتأخرين من علماء الكلام، أهل الجمود والتقليد، أنهم يتمسكون بالأقوال المأثورة عن أشياخهم، ويجعلونَها نصوصًا لا تقبل التأويل، ويحملونَها على ظواهرها المتبادرة منها، دون صرف لَها عنها بدعوى مجاز أو غيره، بل يرون ذلك ممنوعًا؛ لأنه ينافي ما قصد إليه الشيوخ من الشرح والبيان، فإذا صرفت تلك الأقوال عن ظواهرها؛ كان ذلك إبطالًا لما قصدوا إليه بدون دليل ولا قرينة توجب ذلك التأويل، ولكنهم بالنسبة لنصوص الوحي من الآيات والأحاديث لا يسلكون هذا المنهج، بل يرونَها ظواهر لفظية معزولة عن إفادة اليقين، يقولون: إن دلالتها ظنية، لا تفيد إلا احتمالًا راجحًا، فهي لا تغني عن طالب الحق شيئًا، بل يجب أن يسلك طريق البرهان العقلي إذا أراد تحصيل اليقين.

فهؤلاء الحيارى المتهوكون بلغت بِهم الجرأة والقحة أن يقدموا أقوال شيوخهم على نصوص الوحي، فهي عندهم محكمة لا تقبل التأويل، ولا تحتمل أكثر من معنى، وأما نصوص الوحيين؛ فهي فِي نظرهم متشابهة، لا تفهم معنًى واحدًا، ولا يجوز حملها على ظواهرها، وهي أيضًا ظنية الدلالة، لا تفيد علمًا، ولا تورث يقينًا، ولكن عقولهم المريضة هي الطريق الوحيد لإفادة العلم واليقين، فما أسوأ ظن هؤلاء بربِّهم، وما أجرأهم على كتابه الذي سماه بيانًا وهدى وشفاء ورحمة، وما أشد استخفافهم بسنة رسول اللَّه ﷺ الذي هو أفصح الناس، وأظهرهم بيانًا وأصدقهم قيلًا، وأحسنهم حديثًا.

فَانْظُرْ إِلَى الأَعْرَافِ ثُمَّ لِيوسُفٍ ... وَالْكَهْفِ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَسَطَوْا عَلَى الْوَحْيينِ بِالتَّحْرِيفِ إِذْ ... سَمَّوْهُ تَأْوِيلًا بِوَضْعٍ ثَانِ
فَإِذَا مَرَرْتَ بِآلِ عِمْرَانٍ فَهِمْـ ... ـتَ الْقَصْدَ فَهْمَ مُوَفَّقٍ رَبَّانِي
وَعَلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ تَبْـ ... ـيينُ الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازُ الثَّانِي
وَرَأَيتَ تَأْوِيلَ النُّفَاةِ مُخَالِفًا ... لِجَمِيعِ هَذَا لَيسَ يَجْتَمِعَانِ
اللَّفْظُ هُمْ أَنْشَوْا لَهُ مَعْنًى بِذَا ... كَ الِاصْطِلَاحِ وَذَاكَ أَمْرٌ دَانِ
وَأَتَوْا إِلَى الإِلْحَادِ فِي الأَسْمَاءِ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفِ لِلأَلْفَاظِ بِالْبُهْتَانِ
فَكَسَوْهُ هَذَا اللَّفْظَ تَلْبِيسًا وَتَدْ ... لِيسًا عَلَى الْعُمْيَانِ وَالْعُورَانِ

الشرح: فهؤلاء إذ لَم يرضوا لنصوص الوحيين حَتَّى مثل ما جعلوه لكلام شيوخهم من الاحترام والوقوف بِها عند ظواهرها، أخذوا يتلاعبون بِها، واجترءوا عليها بالتحريف الذي سموه تأويلًا، كذبًا منهم وتضليلًا، فإن لفظ التأويل لَم يستعمل فِي القرآن بِهذا المعنى الذي ادعوه، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر الراجح إلى معنًى آخر لا يحتمله اللفظ إلا على وجه مرجوح، وإنَّما هو اصطلاح اصطلحوا عليه، وسموه بِهذا الاسم؛ تلبيسًا منهم على الجهلة وأنصاف العلماء، ونحن إذا تتبعنا لفظ التأويل فِي مواضعه من القرآن؛ لَم نجده قد استعمل إلا بِمعنى الحقيقة الَّتِي يئول إليها الخبر، والتي هي لنفس المخبر عنه، فتأويل ما أخبر اللَّه به عن نفسه من أسمائه وصفاته هو نفس الأسْماء والصفات المخبر بِها، أي: حقائقها، وتأويل ما أخبر اللَّه به من الوعد والوعيد هو وقوع ما أخبر اللَّه به من ذلك، وهكذا.

فقوله تعالى فِي سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾[الأعراف: ٥٣]. معناه: ما ينتظر هؤلاء فِي عنادهم وإصرارهم على كفرهم إلا وقوع ما توعدهم القرآن به من العذاب الذي هو تأويل، أي: ما يئول ويصير إليه.

وقوله فِي سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[يوسف: ١٠٠]. معناه: أن هذا الذي حصل من دخول أبويه وإخوته عليه، وسجودهم له، هو تأويل رؤياه الَّتِي رآها من قبل، والتي ذكرت فِي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[يوسف: ٤]. ومعنى تأويلها: أي: وقوع ما تضمنته تلك الرؤيا فِي عالم اليقظة، ومطابقة ذلك لما رآه الصديق فِي منامه.

وقوله تعالى فِي سورة الكهف: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]. معناه: سأخبرك بحقيقة ما رأيت من الأمور الَّتِي أنكرت ظواهرها، ولَم تطق صبرًا عليها، وعلى هذا، يُمكن أن نفهم المراد بلفظ التأويل فِي قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. أي: لا يفهم حقيقة المتشابه وكيفيته -وهو ما أخبر اللَّه به عن نفسه من أسمائه وصفاته ووعده ووعيده، وغير ذلك من أمور الغيب- إلا اللَّه ﷻ.

فحقيقة هذه الأمور وكيفياتُها على التفصيل مِمَّا استأثر اللَّه ﷻ بعلمه؛ ولهذا لا يخوض فيها الراسخون فِي العلم بتأويل ولا تفسير، ولكنهم يقابلونَها بالتفويض والتسليم، قائلين ما حكاه اللَّه عنهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

هذه هي حقيقة التأويل كما تدل عليها جَميع استعمالاته فِي القرآن الكريم، لا يراد منه إلا بيان حقيقة الشيء المطابقة للخبر عنه، فأين هي إذن من تأويل أولئك النفاة الذين يستعملون لفظ التأويل بِمعنى المجاز الذي هو صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى آخر بعيد، لا يحتمله إلا بكثير من التكلف؟! فهؤلاء ينشئون للفظ معنًى غير معناه المتبادر منه، ويصطلحون على استعمال ذلك اللفظ فِي ذلك المعنى الذي اخترعوه، ويلبسونه إياه ثوب زور ليلبسوا به على الجهلة وضعفاء العقول، وبذلك يلحدون فِي الأسماء، ويحرفون الألفاظ عن معانيها زورًا وبُهتانًا، واللَّه أعلم.

* * *

فَاسْتَنَّ كُلُّ مُنَافِقٍ وَمُكَذِّبٍ ... مِنْ بَاطِنِيٍّ قُرْمُطِيٍّ جَانِ

فِي ذَا بِسُنَّتِهِمْ وَسَمَّى جَحْدَهُ ... لِلْحَقِّ تَأْوِيلًا بِلَا فُرْقَانِ

وَأَتَى بِتَأْوِيلٍ كَتَأْوِيلَاتِهِمْ ... شِبْرًا بِشِبْرٍ صَارِخًا بِأَذَانِ

إِنَّا تَأَوَّلْنَا كَمَا أَوَّلْتُمُ ... فَأْتُوا نُحَاكِمْكُمْ إِلَى الْوَزَّانِ

فِي الْكِفَّتَيْنِ نَحُطُّ تَأْوِيلَاتِنَا ... وَكَذَاكَ تَأْوِيلَاتِكُمْ بِوِزَانِ

هَذَا وَقَدْ أَقْرَرْتُمُ أَنَّا بِأَيْـ ... ـدِينَا صَرِيحُ الْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ

وَغَدَوْتُمُ فِيهِ تَلَامِيذًا لَنَا ... أَوَلَيْسَ ذَلِكَ مَنْطِقَ الْيُونَانِ

مِنَّا تَعَلَّمْتُمْ وَنَحْنُ شُيُوخُكُمْ ... لَا تَجْحَدُونَا مِنَّةَ الإِحْسَانِ

فَسَلُوا مَبَاحِثَكُمْ سُؤَالَ تَفَهُّمٍ ... وَسَلُوا الْقَوَاعِدَ رَبَّةَ الأَرْكَانِ

مِنْ أَيْنَ جَاءَتْكُمْ وَأَيْنَ أُصُولُهَا ... وَعَلَى يَدَي مَنْ يَا أُولِي النُّكْرَانِ

فَـلأَي شَــيءٍ نَـحْـنُ كُـفَّـارٌ وَأَنْــ ... ـتُـمْ مُـؤْمِـنُـونَ وَنَـحْـنُ مُـتَّـفِـقَـانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء المتأخرين من الأشعرية لما فتحوا باب التأويل للنصوص، وحرفوها عن مواضعها حَتَّى توافق ما رأته عقولهم؛ هيئوا بذلك فرصة عظيمة لأهل النفاق والكذب من القرامطة الباطنية أن يستنوا بسنتهم فِي ذلك، فيجحدوا الحق المبين، ويسموا ذلك تأويلًا بلا فارق أصلًا بين تأويل هؤلاء، وتأويل أولئك، فالكل صرف للألفاظ عن ظواهرها، وحمل لَها على معان أخرى بمحض الهوى.

فلو قدر أن أولئك المتأولين من الأشعرية لاموا هؤلاء الجناة من الباطنية على ما أوغلوا فيه من التأويل -لاستطاعوا إفحامهم بأنا تأولنا كما تأولتم، فنحن وأنتم فِي هذا الباب سواء، وإلا فدلونا على فارق يجعل التأويل حلالًا لكم، وحرامًا علينا، ونحن مستعدون أن نتحاكم نحن وأنتم إلى وزان، يضع تأويلاتنا فِي كفة، ويضع تأويلاتكم فِي الكفة الأخرى، وسترون حينئذ أن تأويلاتنا أرجح من تأويلاتكم، وأننا أولى بِهذا الأمر منكم؛ لأننا أهل المنطق وأساتذته، وأما أنتم؛ فتلاميذ لنا فيه، وهذا أمر تقرون به ولا تنكرونه، فنحن شيوخكم فِي المعقول، ومنا تعلمتم تركيب الأقيسة وفنون الحجاج، فمنا المعلم الثاني الفارابي، والشيخ الرئيس ابن سينا، اللذان مهدا لكم سبيل هذا العلم، وأحكما قواعده، وأنتم عالة عليهما فِي كل ما تقررونه، وإن أبيتم إلا الإنكار، فارجعوا إلى مباحثكم واسألوها، وإلى قواعدكم فاستفتوها، وهي تنبئكم نبأ صدق: من أين جاءتكم؟ وأين وجدتم أصولها؟ وعلى يدي مَنْ وصلتكم؟ حَتَّى تقروا لنا بالسبق فِي هذا المضمار والتفوق عليكم فيه.

وإذا تبين لكم هذا، وتحققتموه؛ فنحن نسألكم: لماذا أنتم مؤمنون، ونحن كفار، وطريقتنا واحدة، والاتفاق بيننا قائم على:

إِنَّ الـنُّـصُـوصَ أَدِلَّـةٌ لَـفْـظِـيـةٌ ... لَـمْ تُـفْـضِ قَـطُّ بِـنَـا إِلَـى إِيـقَـانِ

فَـلِـذَاكَ حَـكَّـمْـنَـا الْـعُـقُـولَ وَأَنْـتُـمُ ... أَيـضًـا كَـذَاكَ فَـنَـحْـنُ مُـصْـطَـلِـحَـانِ

فَـلأَي شَـيءٍ قَـدْ رَمَـيـتُـمْ بَـيـنَـنَـا ... حَـرْبَ الْـحُـرُوبِ وَنَـحْـنُ كَـالأَخَـوَانِ

الأَصْلُ مَعْقُولٌ وَلَفْظُ الْوَحْي مَعْـ ... ـزُولٌ وَنَــحْــنُ وَأَنْــتُــمُ صِــنْــوَانِ

لاَ بِـالـنُّـصُـوصِ نَـقُـولُ نَـحْـنُ وَأَنْـتُـمُ ... أَيـضًـا كَـذَاكَ فَـنَـحْـنُ مُـصْـطَـلِـحَـانِ

الشرح: إن النصوص من الكتاب والسنة لا تكفي فِي إفادة اليقين الذي لابد منه فِي

باب الاعتقاد؛ لأن دلالتها لفظية، لا تفيد إلا الظن، بسبب احتمالها للحقيقة والمجاز، ولهذا رأينا نحن وأنتم أن نجعل العقل أصلًا نحتكم إليه فِي هذا الباب، وجعلنا أحكامه قطعية لا تقبل النقض، وبِهذا وقع الصلح بيننا وبينكم، فلماذا تُهيجون بيننا وبينكم نار العداوة والخصام، وما بيننا إلا الوفاق والوئام؟!.

* * *

فَذَرُوا عَدَاوَتَنَا فَإِنَّ وَرَاءَنَا ... ذَاكَ الْعَدُوَّ الثِّقَلَ ذِي الأَضْغَانِ

فَهُمُ عَدُوُّكُمْ وَهُمْ أَعْدَاؤُنَا ... فَجَمِيعُنَا فِي حَرْبِهِمْ سِيَّانِ

تِلْكَ الْمُجَسِّمَةُ الأُلَى قَالُوا بِأَنْ ... نَ اللهَ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

وَإِلَيهِ يَصْعَدُ قَوْلُنَا وَفِعَالُنَا ... وَإِلَيهِ تَرْقَى رُوحُ ذِي الإِيمَانِ

وَإِلَيهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... وَكَذَا ابْنُ مَرْيَمَ مُصْعَدَ الأَبْدَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ بِالذَّاتِ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ قُدْرَتُهُ بِكُلِّ مَكَانِ

وَكَذَاكَ يَنْزِلُ كُلَّ آخِرِ لَيلَةٍ ... نَحْوَ السَّمَاءِ فَهَا هُنَا جِهَتَانِ

لِلابْتِدَاء وَالانْتِهَاءِ وَذَانِ لِلْ ... أَجْسَامِ أَينَ اللهُ مِنْ هَذَانِ

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَيَا إِخْوَانِ

أَيكُونُ ذَاكَ بِغَيرِ حَرْفٍ أَمْ بِلَا ... صَوْتٍ فَهَذَا لَيسَ فِي الإِمْكَانِ

الشرح: وإذا كان الأمر كذلك من الاتفاق بيننا وبينكم على خطة سواء، تقوم على عزل النصوص، والاستمساك بحجج العقل؛ فيجب ألَّا يكون بيننا عداوة أصلًا، وأن نكون إلبًا واحدًا فِي حرب هذا العدو المشترك الذي يحمل لنا كل ضغينة، ويجاهرنا بالعداوة، وهم هؤلاء الذين اصطلحنا نحن وأنتم على تسميتهم بالمجسمة؛ لأنَّهم يثبتون الجهة لله، فيقولون: إنه بذاته فوق خلقه، استمساكًا بظاهر قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وأن إليه تصعد الملائكة بأقوال العباد وأفعالهم كما قال سبحانه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وأنَّها ترقى إليه بأرواح المؤمنين كما ورد بذلك الحديث الصحيح، وأن الرسول ﷺ قد عرج إليه ليلة الإسراء عروجًا حقيقيًا حَتَّى كان منه قاب قوسين أو أدنى، وأن عيسى عليه السلام قد رفعه اللَّه إليه ببدنه كما نطقت بذلك الآيات من سورتي النساء وآل عمران، وأنه سبحانه مع كونه فوق العرش بذاته فهو فِي كل مكان بقدرته وعلمه.

ويقولون كذلك: إنه ينْزل آخر كل ليلة إلى السماء الدنيا نزولًا حقيقيًّا؛ لورود الحديث الصحيح به، مع ما يقتضيه ذلك من إثبات جهتين، جهة ابتداء يبتدئ منها النُّزول، وجهة انتهاء ينتهي إليها، وذلك من خواص الأجسام.

ويقولون: إنه متكلم بكلام قام بذاته، وأن كلامه حروف وأصوات مسموعة، إذ لا يعقل من الكلام إلا ذلك.

و«الثقل» -بكسر الثاء-: أي: الثقيل، و«الأضغان» جمع ضغن: وهو الحقد.

وقوله: «فهم عدوكم» أي: أعداؤكم، ولفظ عدو يستعمل كثيرًا فِي الجمع.

* * *

وَكَذَاكَ قَالُوا مَا حَكَينَا عَنهُمُ ... مِنْ قَبْلُ قَوْلِ مُشَبِّهِ الرَّحْمَنِ

فَذَرُوا الْحِرَابَ لَنَا وَشُدُّوا كُلُّنَا ... جَمْعًا عَلَيهِمْ حَمْلَةَ الْفُرْسَانِ

حَتَّى نَسُوقَهُمُ بِأَجْمَعِنَا إِلَى ... وَسْطِ الْعَرِينِ مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ

فَلَقَدْ كَوَوْنَا بِالنُّصُوصِ وَمَا لَنَا ... بِلِقَائِهَا أَبَدَ الزَّمَانِ يدَانِ

كَمْ ذَا يقَالُ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... مِنْ فَوْقِ أَعْنَاقِ لَنَا وَبَنَانِ

إِنْ نَحْنُ قُلْنَا قَالَ آرِسْطُو الْمُعَلْ ... لِمُ أَوَّلًا أَوْ قَالَ ذَاكَ الثَّانِي

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا ابْنُ سِينا قَالَ ذَا ... أَوْ قَالَهُ الرَّازِي ذُو التِّبْيَانِ

قَالُوا لَنَا قَالَ الرَّسُولُ وَقَالَ فِي الْـ ... قُرْآنِ كَيفَ الدَّفْعُ لِلْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ أَنْتُمْ مِنْهُمُ أَيضًا بِهَـ ... ـذَا الْمَنْزِلِ الضَّنْكِ الَّذِي تَرَيَانِ

إِنْ جِئْتُمُوهُمْ بِالْعُقُولِ أَتَوْكُمُ ... بِالنَّصِّ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

الشرح: وكذلك قالوا: ما رويناه عنهم قبلًا من إثبات الوجه واليدين والعينين والقدم والساق، والأصبع مِمَّا هو فينا أبعاض، ومن إثبات الرضا والمحبة، والكراهية والمقت، والغضب، والضحك، والعجب، وغير ذلك مِمَّا هو فينا أعراض، فشبهوا اللّه بخلقه.

ونحن وأنتم متفقون على استحالة ثبوت هذه الصفات للّه، فاتركوا إذن محاربتنا، ولنحمل جميعًا عليهم حملة واحدة حَتَّى ندعهم فِي الميدان أشلاء متناثرة، ونشفي منهم غيظ قلوبنا، ونستريح من تطاولهم علينا بالنصوص الَّتِي طالما كوونا بِها، وجرعونا غصصها، وما لنا قدرة على مناجزتِها، وهم دائمًا يحتمون فِي هذه النصوص، ويعتصمون

بِها عند المصاولة، ويشهرونَها فِي وجوهنا سيوفًا مسلولة، فكلما قلنا لهم: قال أرسطو، الملقب عندنا بالمعلم الأول، أو قال الفارابي الذي هو المعلم الثاني، أو قال ابن سينا الذي لقبناه بالشيخ الرئيس، أو قال أبو عبد اللَّه فخر الدين الرازي، صاحب كتاب التبيان فِي تفسير القرآن -قابلونا بقولهم: قال الرسول كذا، وقال اللَّه فِي القرآن كذا، وهل نملك للقرآن دفعًا أو نستطيع له ردًّا؟! وكذلك حالكم معهم أيُّها المتأخرون من الأشاعرة، فأنتم منهم كما نحن بأضيق المنازل وأهونِها، كلما جئتموهم بِما تزعمون أنه مقررات العقول، أتوكم بالنص الصريح من الكتاب والسنة.

فلنتآزر نحن وأنتم فِي القضاء عليهم، وتشتيت جموعهم، حَتَّى تسلم لنا مناهجنا القائمة على العقل وحده، الذي وثقنا نحن وأنتم فيه، وارتضينا حكمه دون هذه النصوص الَّتِي لا تخلو من إجمال واشتباه.

* * *

فَتَحَالَفُوا إِنَّا عَلَيهِمْ كُلُّنَا ... حَرْبٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ سِلْمَانِ
فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُمُ فَخِلَافُنَا ... سَهْلٌ وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ أَخَوَانِ
فَالْعَرْش عِنْدَ فَرِيقِنَا وَفَرِيقِكُمْ ... مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ بِلَا كِتْمَانِ
مَا فَوْقَهُ شَيءٌ سِوَى الْعَدَمِ الَّذِي ... لَا شَيءَ فِي الأَعْيَانِ وَالأَذْهَانِ
مَا اللهُ مَوْجُودٌ هُنَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ... عَدَمُ الْمُحَقَّقُ فَوْقَ ذِي الأَكْوَانِ
وَاللهُ مَعْدُومٌ هُنَاكَ حَقِيقَةً ... بِالذَّاتِ عَكْسَ مَقَالَةِ الدِّيصَانِ
هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَحَقِيقَةُ الْعِرْفَانِ
وَكَذَا جَمَاعَتُنَا عَلَى التَّحْقِيقِ فِي التْـ ... ـتَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ
لَيسَتْ كَلَامُ اللهِ بَلْ فَيضٌ مِنَ الْـ ... فَعَّالِ أَوْ خَلْقٌ مِنَ الأَكْوَانِ
فَالأَرْضُ مَا فِيهَا لَهُ قَوْلٌ وَلَا ... فَوْقَ السَّمَا لِلخَلْقِ مِنْ دَيَانِ
بَشَرٌ أَتَى بِالْوَحْيِ وَهْوَ كَلَامُهُ ... فِي ذَاكَ نَحْنُ وَأَنْتُمُ مِثْلَانِ

الشرح: فلنتحالف بيننا أن نكون عليهم حزبًا واحدًا، وأن يكون كل منا سلمًا لصاحبه، فإذا فرغنا من قتالهم والقضاء عليهم؛ فإن ما بيننا من الخلاف هين بسيط، بل نحن فِي حقيقة الأمر أخوان متفقان فِي أكثر المبادئ والأحكام، فالعرش عند جماعتنا

وجماعتكم «وهو الجسم المحيط بكرة العالم» ليس فوقه شيء، اللَّهم إلا العدم المحض الذي ليس شيئًا موجودًا، لا فِي الأعيان، ولا فِي الأذهان، بل ليس وراءه إلا العدم المحقق، فاللَّه عندنا وعندكم ليس فوق العرش بذاته، عكس ما يقوله الديصانية «الذين يقولون بأصلين: نور وظلمة، وأن النور لَم يزل يلقى الظلمة بأسفل صفحة منه، وأن الظلمة لَم تزل تلقاه بأعلى صفحة منها».

وهذا هو عندنا وعندكم حقيقة التوحيد والمعرفة، أن اللَّه وجود مجرد بسيط، لا تكثر فيه، ولا يقال فوق ولا تحت، ولا داخل ولا خارج، ولا يوصف بقرب ولا بعد، ولا اتصال ولا انفصال، ولا يشار إليه، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينْزل من عنده شيء.

وكذلك جماعتنا تقول فِي التوراة والإنجيل والقرآن: إنَّها ليست كلام اللَّه على الحقيقة، بل هي عندنا فيض من العقل الفعال الذي هو عقل القمر، وهو آخر العقول العشرة وأقربُها إلى عالم العناصر، وهو المتصرف فيها بالكون والفساد، وهو الذي يفيض العلوم على البشر بحسب الاستعداد والتوجه كما يفيض الصور النوعية على المركبات، وهي عندكم كذلك من جملة المخلوقات، لأنَّها حروف وأصوات وألفاظ مكتوبات، فالاتفاق بيننا وبينكم قائم على نفي أن يكون للَّه كلام فِي الأرض، أو أن يكون بذاته على العرش، بل الذي نقرؤه بألسنتنا إنَّما هو كلام بشر، أتى بالوحي، وليس كلام اللَّه ونحن وأنتم فِي هذا مثلان[1].

* * *

وَلِذَاكَ قُلْنَا إِنَّ رُؤْيَتَنَا لَهُ ... عَينُ الْمُحَالِ وَلَيسَ فِي الإِمْكَانِ

وَزَعَمْتُمُ أَنَّا نَرَاهُ رُؤْيَةَ الْـ ... ـمَعْدُومِ لَا الْمَوْجُودِ فِي الْبُرْهَانِ

إِذْ كُلُّ مَرْئِي يقُومُ بِنَفْسِهِ ... أَوْ غَيرِهِ لَابُدَّ فِي الْبُرْهَانِ

مِنْ أَنْ يقَابِلَ مَنْ يرَاهُ حَقِيقَةً ... مِنْ غَيرِ بُعْدٍ مُفْرِطٍ وَتَدَانِ

وَلَقَدْ تَسَاعَدْنَا عَلَى إِبْطَالِ ذَا ... أَنْتُمْ وَنَحْنُ فَمَا هُنَا قَوْلَانِ

أَمَّا الْبَلِيةُ فَهْي قَوْلُ مُجَسِّمٍ ... قَالَ الْقُرَانُ بَدَا مِنَ الرَّحْمَنِ

هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ مِنْهُ بَدَا ... لَفْظًا وَمَعْنًى لَيسَ يفْتَرِقَانِ

---

(١) انظر كيف يعقد المؤلف هذا الشبه القوي بين الأشعرية المتأخرة، وبين الفلاسفة رغم ما كانا يتظاهران به من عداء.

سَمِعَ الأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدْ ... دَاهُ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ إِنْسَانِ
فَلَهُ الأَدَاءُ كَمَا الأَدَا لِرَسُولِهِ ... وَالْقَوْلُ قَوْلُ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

الشرح: ولهذا الذي ذهبنا إليه نحن وأنتم من نفي الجهة، وإنكار أن يكون اللَّه فوق عرشه بذاته، قلنا: إن رؤيتنا له الَّتِي وردت بِها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة مستحيلة، غير ممكنة، وأما أنتم فلما لَم تجترئوا على إنكار تلك النصوص أو تأويلها؛ أثبتم رؤية بلا جهة، وهي لا تليق إلا بالمعدوم، دون الموجود فِي الأعيان، فإن البرهان قام على أن كل مرئي، سواء كان قائمًا بنفسه، وهو ما لا يكون تحيزه تابعًا لتحيز غيره، أو كان قائمًا بغيره، كالعرض لابد أن يكون مقابلًا للرائي، وفِي جهة منه، وقد تظاهرنا نحن وأنتم على إبطال ذلك، أي: الوجود فِي الجهة فِي حق اللَّه تعالى، فقولنا فِي ذلك هو عين قولكم؛ لهذا حكمنا باستحالة الرؤية، والتزمتم رؤية بلا جهة، فليس ثَمَّ خلاف بيننا وبينكم فِي هذه الأصول، أما المخالف لنا ولكم جميعًا؛ فهو ذلك المجسم الذي يقول بأن القرآن كلام اللَّه، لفظه ومعناه، منه بدأ وإليه يعود، فيثبت الحرف والصوت، ولا يفرق بين اللفظ والمعنى، ولا يقول: إن اللفظ مخلوق، بل يقول: إن القرآن كله، لفظه ومعناه، هو قول اللَّه وكلامه، سمعه منه الأمين جبريل ﷺ، ثُمَّ أداه إلى سيد البشر ومختارهم مُحمَّد ﷺ كما سمعه، فليس لجبريل فيه إلا الأداء فقط، وكذلك الرسول ﷺ أداه لأمته كما سمعه من جبريل، والقول قول اللَّه فِي كل ذلك، لأن القول إنَّما ينسب إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا، نعم، قد ينسب القرآن قولًا إلى كل من جبريل ومحمد -عليهما السلام- ولكن باعتبار الأداء، لا بمعنى الابتداء والإنشاء.

* * *

هَذَا الَّذِي قُلْنَا وَأَنْتُمْ إِنَّهُ ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَذَاكَ ذُو بُطْلَانِ
فَإِذَا تَسَاعَدْنَا جَمِيعًا أَنَّهُ ... مَا بَيْنَنَا لِلهِ مِنْ قُرْآنِ
إِلَّا كَبَيْتِ اللهِ تِلْكَ إِضَافَةُ الْـ ... مَخْلُوقِ لَا الأَوْصَافُ لِلدَّيَّانِ
فَعَلَامَ هَذَا الْحَرْبُ فِيمَا بَيْنَنَا ... مَعَ ذَا الْوِفَاقِ وَنَحْنُ مُصْطَلِحَانِ
فَإِذَا أَبَيْتُمْ سِلْمَنَا فَتَحَيَّزُوا ... لِمَقَالَةِ التَّجْسِيمِ بِالإِذْعَانِ
عُودُوا مُجَسِّمَةً وَقُولُوا دِينُنَا الْـ ... إِثْبَاتُ دِينُ مُشَبِّهِ الدَّيَّانِ
أَوْ لَا فَلَا مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ وَذَا ... شَأْنُ الْمُنَافِقِ إِذْ لَهُ وَجْهَانِ

هَـذَا يـقُـولُ مُـجَـسِّـمٌ وَخُـصُـومُـهُ تَـرْمِـيـهِ بِـالـتَّـعْـطِـيـلِ وَالْـكُـفْـرَانِ
هُـوَ قَـائِـمٌ هُـو قَـاعِـدٌ هُـوَ جَـاحِـدٌ هُـوَ مُـثْـبِـتٌ تَـلْـقَـاهُ ذَا أَلْـوَانِ
يَـوْمًـا بِـتَـأْوِيـلٍ يَـقُـولُ وَتَـارَةً يَـسْـطُـو عَـلَـى الـتَّـأْوِيـلِ بِـالـنُّـكْـرَانِ

الشرح: هذا الذي يقوله المجسم من إثبات الكلام اللفظي الذي هو حروف وأصوات مسموعة، ولا تكون إلا حادثة؛ لأن لَها ابتداء وانتهاء، هو الذي قلنا نحن وأنتم أنه عين المحال؛ لاستلزامه مشابَهة اللَّه لخلقه، وكونه محلًا للحوادث.

فإذا كنا قد اتفقنا نحن وأنتم على أن هذا المكتوب بين دفتي المصحف، المقروء بألسنتنا، المسموع بآذاننا، ليس هو كلام اللَّه، وأنه ليس للَّه فِي الأرض قرآن، وأن إضافته إلى اللَّه تعالى كإضافة البيت والناقة وغيرهما من الأعيان المخلوقة إليه، وليست إضافة صفة إلى موصوف، فعلام إذن تناجزوننا الحرب مع كل هذا الوفاق فِي معظم الأصول والقواعد الأساسية، فإذا أبيتم إلا حربنا وعداوتنا؛ فانبذوا ما أنتم عليه مِمَّا توافقوننا فيه، وانحازوا إلى مقالة التجسيم مذعنين، وكونوا مع هؤلاء المجسمة المثبتين، وقولوا: رضينا بالإثبات دينًا. وإلا فصرحوا بأنكم لستم منا ولا منهم، وأنكم كالشاة الحائرة بين الغنمين، شأن المنافق صاحب الوجهين، لا تثبتون على مبدأ، ولا يستقر لكم منهج، فنحن نقول عنكم: مجسمة؛ لإثباتكم بعض الصفات، وخصومنا يرمونكم بالتعطيل والجحود، لنفيكم بعضها بلا فارق بين ما أثبتموه، وما نفيتموه، فأنتم كقوس قزح، تتعدد ألوانه، مرة تجحدون، وأخرى تثبتون، لَم تطردوا قاعدتكم فِي الجحد، ولا قاعدتكم فِي الإثبات، بل تفرقون بين المتماثلين، وتسوون بين المختلفين، ومرة تؤولون، وأخرى تحرمون التأويل، وتسطون عليه بالإنكار.

والحق: أن هذه الفرقة الَّتِي تسمى بالأشعرية، لاسيما المتأخرين منها، أشد الفرق حيرة واضطرابًا وتذبذبًا؛ بسبب أَنَّهم أرادوا الجمع بين العقل والنص، فلا للنص نصروا، ولا لخصومهم من الفلاسفة والمعتزلة كسروا؛ لأَنَّهم لما جاروا هؤلاء الخصوم فِي كثير مِمَّا ذهبوا إليه من النفي والتعطيل؛ أعانوهم على أنفسهم، وأعطوهم سلاحًا يقابلونَهم به كلما أرادوا التعرض لهم، ومن يقرأ كتاب «تَهافت التهافت» لابن رشد فِي الرد على كتاب «تَهافت الفلاسفة» للغزالي، يظهر له جليًا كيف أعان هؤلاء الأشاعرة خصومهم على ضربِهم فِي الصميم.

فصل في المطالبة بالفرق بين ما يتأوَّل وما لا يُتأوَّل

فَنَقُولُ فَرْقٌ بَيْنَ مَا أَوَّلْتَهُ وَمَنَعْتَهُ تَفْرِيقَ ذِي بُرْهَانِ
فَيقُولُ مَا يفْضِي إِلَى التَّجْسِيم أَوْ وَلْنَاهُ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
كَالإِسْتِوَاءِ مَعَ التَّكَلُّم هَكَذَا لَفْظُ النُّزُولِ كَذَاكَ لَفْظُ يدَانِ
إِذْ هَذِهِ أَوْصَافُ جِسْم مُحْدَثٍ لَا يَنْبَغِي لِلْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
فَنَقُولُ أَنْتَ وَصَفْتَهُ أَيضًا بِمَا يُفْضِي إِلَى التَّجْسِيم وَالْحِدْثَانِ
فَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالأَبْصَارِ مَعْ نَفْسِ الْحَيَاةِ وَعِلْم ذِي الأَكْوَانِ
وَوَصَفْتَهُ بِمَشِيئَةٍ مَعَ قُدْرَةٍ وَكَلَامِهِ النَّفْسِي وَهْوَ مَعَانِ
أَوْ وَاحِدٌ وَالْجِسْمُ حَامِلُ هَذِهِ الْـ أَوْصَافِ حَقًّا فَأْتِ بِالْفُرْقَانِ
بَينَ الَّذِي يفْضِي إِلَى التَّجْسِيم أَوْ لَا يقْتَضِيهِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيوخُكَ كُلُّهُمْ لَمْ يقْدِرُوا أَبَدًا عَلَى الْفُرْقَانِ

الشرح: ونحن كذلك معشر أهل السنة والجماعة، نقول لهؤلاء النفاة من الأشاعرة الذين يتأولون ما ورد من النصوص فِي الصفات الخبرية، ولكنهم يَمنعون التأويل لما أثبتوه مِمَّا يسمونه صفات عقلية:

فنقول لهم: فرقوا لنا ببرهان صحيح مقبول بين ما أولتموه وبين ما منعتموه.

فإن قالوا: إن ما يوهم التجسيم ويفضي إلى مشابَهة اللَّه بخلقه أولناه، وذلك كاستواء اللَّه على العرش، والتكلم بالحرف، والصوت، والنُّزول إلى سماء الدنيا، وإثبات اليد، وغير ذلك من صفات الأجسام المحدثة الَّتِي يجب تنْزيه اللَّه تعالى عنها.

قلنا لهم: وأنتم أيضًا وصفتموه بِما يفضي إلى التجسيم والحدوث: من السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والمشيئة والكلام النفسي، سواء كان معنًى واحدًا أو أكثر، فهذه كلها صفات الأجسام، ونحن لا نرى فِي الشاهد موصوفًا بِها إلا الجسم، وبذلك بطل ما ادعيتموه من الفرق بين ما أثبتموه وبين ما نفيتموه، ونحن نطالبكم أن تأتونا بدليل واضح على الفرق بين ما يفضي إلى التجسيم، وبين ما لا يوجبه ويقتضيه فِي زعمكم، ولن تستطيعوا ذلك أبدًا، ولا حَتَّى شيوخكم لو أقامهم اللَّه من قبورهم، فإنَّهم لا يقدرون

على الإتيان بذلك الفرقان.

فصل في ذكر فرق آخر لهم وبيَان بطلانه

فَلِذَاكَ قَالَ زَعِيمُهُمْ فِي نَفْسِهِ ... فَرْقًا سِوَى هَذَا الَّذِي تَرَيَانِ
هَذِي الصِّفَاتُ عُقُولُنَا دَلَّتْ عَلَى ... إِثْبَاتِهَا مَعْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ
فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَنِ التَّأْوِيلِ فَاعْـ ... ـجَبْ يَا أَخَا التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
كَيفَ اعْتِرَافُ الْقَوْمِ أَنَّ عُقُولَهُمْ ... دَلَّتْ عَلَى التَّجْسِيمِ بِالْبُرْهَانِ
فَيقَالُ هَلْ فِي الْعَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمِ الْـ ... مَعْقُولُ نَنْفِيهِ كَذَا النُّقْصَانِ
إِنْ قُلْتُمُ نَنْفِيهِ فَانْفُوا هَذِهِ الْـ ... أَوْصَافَ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْقُرْآنِ
أَمْ قُلْتُمُ نَقْضِي بِإِثْبَاتٍ لَهُ ... فَفِرَارُكُمْ مِنْهَا لأَيِ مَعَانِ
أَوْ قُلْتُمُ نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ وَلَا ... نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ بِلَا بُرْهَانِ
فَيقَالُ مَا الْفُرْقَانُ بَينَهُمَا وَمَا الْـ ... بُرْهَانُ فَأْتُوا الآنَ بِالْفُرْقَانِ

الشرح: لما طالبناهم بتحقيق الفرق بين هذا الذي أثبتوه من صفات المعاني، وبين ما نفوه من الصفات الخبرية، أجابوا أولًا بأن هذه الأخيرة مفضية إلى التجسيم والحدوث بخلاف الأولى، فإنَّها لا تقتضيه، ولما بينا لهم أن هذا الفرق غير سديد؛ لأن كلًّا مِمَّا أثبتوه وما نفوه هو الشاهد من صفات الأجسام، فإثبات أحدهما موجب لإثبات الآخر، ونفيه موجب لنفي الآخر -لجئوا إلى فرق آخر وهو أن هذه الصفات السبع إنَّما أثبتناها بالعقل، فإن وجود المخلوقات دل على القدرة، وما فيها من التخصيصات دل على الإرادة، والإتقان فِي الصنعة دل على العلم والسمع والبصر، وهذه الخمس تدل على الحياة مع ظاهر القرآن فلذلك صناها عن التأويل، بخلاف الصفات الأخرى، فإنَّها لَم تثبت بالعقل، فاضطررنا إلى تأويل الظواهر الواردة فيها.

فأعجب لهذا الاعتراف منهم على أنفسهم بأن عقولهم دلت على التجسيم بالبرهان! وحينئذ يقال لهم: إن كان فِي العقل ما يدل على نفي التجسيم، وأنتم تنفونه غاية النفي؛ فيلزمكم نفي ما أثبتموه من الصفات السبع، وموافقة الجهمية فِي التعطيل التام، وإن كان فيه ما يقتضي التجسيم ويدل على ثبوته، فلأي شيء تفرون من إثبات ما وردت به النصوص من الكتاب والسنة؟! وإن قلتم: ننفيه فِي بعض الأوصاف دون بعض؛ فاذكروا لنا الفرق

بينهما ، ويلزمكم الإتيان ببرهان صحيح على هذا الفرق حَتَّى يُمكن قبول دعواكم فيه .

والحاصل : أنه لا مخلص لهم من اختيار واحد من هذه الوجوه الثلاثة ، فيلزمهم حينئذ لازمه المترتب عليه .

* * *

وَيقَالُ قَدْ شَهِدَ الْعِيَانُ بِأَنَّهُ ... ذُو حِكْمَةٍ وَعِنَايَةٍ وَحَنَانِ

مَعْ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ ... أَهْلِ الْوَفَاءِ وَتَابِعِي الْقُرْآنِ

وَلِذَاكَ خُصُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَعْـ ... ـدَاءِ الإِلَـهِ وَشِيعَةِ الْكُفْرَانِ

وَهْوَ الدَّلِيلُ لَنَا عَلَى غَضَبٍ وَبُغْـ ... ـضٍ مِنْهُ مَعْ مَقْتٍ لِذِي الْعِصْيَانِ

وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ مَعْ ... مِثْلِ الصِّفَاتِ السَّبْعِ فِي الْقُرْآنِ

وَيقَالُ سَلَّمْنَا بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا ... يُفْضِي إِلَيهَا فَهْيَ فِي الْفُرْقَانِ

أَفَنَفْيُ آحَادِ الدَّلِيلِ يكُونُ لِلْـ ... ـمَدْلُولِ نَفْيًا يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

أَوْ نَفْيُ مُطْلَقِهِ يدُلُّ عَلَى انْتِفَا الـ ... ـمَدْلُولِ فِي عَقْلٍ وَفِي قُرْآنِ

أَفَبَعْدَ ذَا الإِنْصَافِ وَيحَكُمُو سِوَى ... مَحْضِ الْعِنَادِ وَنَخْوَةِ الشَّيطَانِ

وَتَحَيزٍ مِنْكُمْ إِلَيهِمْ لَا إِلَى الْـ ... ـقُرْآنِ وَالآثَارِ وَالإِيمَانِ

الشرح : ويقال لهم : ونحن أيضًا نثبت هذه الصفات الخبرية بمثل ما أثبتم به هذه السبع . ونقول : إن العقل يدل على ثبوتِها للَّه ، فإن نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة ، وإكرام الطائعين بأنواع الكرامة فِي الدنيا والآخرة يدل على المحبة ، وعقاب الكافرين وإهانتهم يدل على البغض والغضب والمقت ، والغايات المحمودة فِي مفعولاته ومأموراته تدل على الحكمة ، وهكذا ، والنص أيضًا جاء بِها صريحًا كما جاء بالصفات السبع ، وبذلك تكون ثابتة مثلها بالنص والعقل معًا ، فلا فرق .

ويقال لهم كذلك : سلمنا أن العقل لا يدل على ثبوت هذه الصفات ، فإن ذلك لا يستلزم نفيها ، فإن عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين ، وكذلك نفي مطلق الدليل لا يدل على انتفاء المدلول ، لا فِي العقل ولا فِي الشرع ، بل لابد للنافي من أن يأتي بالدليل على النفي كالمثبت ، سواء بسواء ، وهذه الأمور ثابتة بالسمع الذي لَم يعارضه معارض ، لا سمعي ولا عقلي ، فيجب إثبات ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم .

وهكذا ينهج المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مع هؤلاء الخصوم خطة القصد والإنصاف، بلا شطط، ولا اعتساف.

ولهذا يقول لهم: ليس وراء رفضكم لهذه الخطة إلا محض المكابرة والعناد، وحميتكم لمذاهبكم الباطلة حمية الجاهلية، وانضمامكم إلى فئة الشيطان دون معسكر القرآن والآثار والإيمان.

فصل في مخالفة طريقهم لطريق أهل الاستقامة عقلًا ونقلًا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَهُمْ عَكْسُ الطَّرِيـ ... قِ الْمُسْتَقِيمِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

جَعَلُوا كَلَامَ شُيُوخِهِمْ نَصًّا لَهُ الْـ ... إِحْكَامُ مَوْزُونًا بِهِ النَّصَّانِ

وَكَلَامَ بَارِيهِمْ وَقَوْلَ رَسُولِهِمْ ... مُتَشَابِهًا مُتَحَمِّلًا لِمَعَانِ

فَتَوَلَّدَتْ مِنْ ذَيْنِكَ الأَصْلَيْنِ أَوْ ... لادٌ أَتَتْ لِلْغَيِّ وَالْبُهْتَانِ

إِذْ مِنْ سِفَاحٍ لَا نِكَاحٍ كَوْنُهَا ... بِئْسَ الْوَلِيدُ وَبِئْسَتِ الأَبَوَانِ

عَرَضُوا النُّصُوصَ عَلَى كَلَامِ شُيُوخِهِمْ ... فَكَأَنَّهَا جَيْشٌ لِذِي سُلْطَانِ

وَالْعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى السُّـ ... ـلْطَانِ دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ

وَكَذَاكَ أَقْوَالُ الشُّيُوخِ فَإِنَّهَا الْـ ... مِيزَانُ دُونَ النَّصِّ وَالْقُرْآنِ

إِنْ وَافَقَا قَوْلَ الشُّيُوخِ فَمَرْحَبًا ... أَوْ خَالَفَتْ فَالدَّفْعُ بِالإِحْسَانِ

إِمَّا بِتَأْوِيلٍ فَإِنْ أَعْيَا فَتَفْـ ... ـوِيضٌ وَنَتْرُكُهَا لِقَوْلِ فُلَانِ

الشرح: وطريقة هؤلاء في باب الاعتقاد طريقة عوجاء مائلة عن طريق أهل القصد والاستقامة، فهم بدلًا من أن يجعلوا النص أصلًا محكمًا، ويردوا إليه ما تنازعوا فيه، ويزنوا به أقوال الناس، عكسوا القضية، فجعلوا كلام شيوخهم هو النص المحكم، وجعلوه هو الميزان الذي يزنون به نصوص السنة والقرآن، وجعلوا كلام اللّه، وكلام رسوله ﷺ مجملًا متشابهًا محتملًا لأكثر من معنى، وتولد عن هذين الأصلين الفاسدين أسوأ النتائج.

فمنها: أنَّهم يجعلون كلام شيوخهم هو صاحب السلطان في الإبقاء على ما يشاء من النصوص، وعزل ما يشاء، شأن القائد مع جيشه، والحاكم مع رعيته، فهو يتصرف فيها

بِما يشاء.

ومنها: أنَّهم يجعلون أقوال الشيوخ هي الميزان الذي توزن به النصوص من السنة والقرآن، فإن وافقته فبها ونعمت، وإن خالفته وجب دفعها، إما بتأويلها بِما يتفق مع أقوال هؤلاء الشيوخ، وإما بتفويضها، وتركها ألفاظًا بلا معنًى؛ من أجل قول فلان وفلان، فما أسوأ ما رضوا لأنفسهم أن يستبدلوا بكلام اللَّه وكلام رسوله كلامًا عامته خلط وهذيان!.

وقوله: «له الإحكام» بكسر الهمزة، أي: جعلوه هو المحكم، «والنصان» يعني: السنة والقرآن، وقوله: «أولاد» فاعل تولدت، «وللغي» يعني: لغير رشدة.

* * *

إِذْ قَوْلُهُ نَصٌّ لَدَيْنَا مُحْكَمٌ   فَظَوَاهِرُ الْمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَانِ

وَالنَّصُّ فَهْوَ بِهِ عَلِيمٌ دُونَنَا   وَبِحَالِهِ مَا حِيلَةُ الْعُمْيَانِ

إِلَّا تَمَسُّكُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ   حَتَّى يَقُودَهُمُ كَذِي الأَرْسَانِ

فَاعْجَبْ لِعُمْيَانِ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا   كَوْنَ الْمُقَلِّدِ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سِوَا   هُ بِغَيْرِ مَا بَصَرٍ وَلَا بُرْهَانِ

وَعَمُوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا   مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْحِرْمَانِ

قَوْلُ الشُّيوخِ أَتَمُّ تِبْيَانًا مِنَ الْـ   ـوَحْيَيْنِ لَا وَالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ   ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّ لَمْ   يَكُ قَوْلَ مَعْصُومٍ وَذِي تِبْيَانِ

أَفَيَسْتَوِي النَّقْلَانِ يَا أَهْلَ النُّهَى   وَاللهِ لَا يَتَمَاثَلُ النَّقْلَانِ

الشرح: يعني: أنَّهم يتركون النصوص لقول فلان من الناس؛ لأن قوله فِي نظرهم نص محكم، لا اشتباه فيه، ولا يحتمل أكثر من معنى، أما ظواهر النصوص؛ فهي متشابِهة محتملة لمعان عدة؛ ولأنه من جهة أخرى أعلم بالنصوص وبحالها منهم، فهم لا يعرفون تفسيرها إلا من جهته، ولا ينظرون فيها إلا بعينه، كالعميان فِي حاجتهم إلى قائد بصير يقودهم قود الدواب ذوات الأرسان، ولكن العجب من هؤلاء العميان! كيف أبصروا أن مقلدهم ومتبوعهم هو صاحب البرهان؟! وكيف آثروا كلامه على كلام غيره بمجرد التقليد من غير برهان فِي الوقت الذي عموا فيه عن الوحيين، ولَم يروا أنفسهم أهلًا للنظر فيهما؟!

فيا له من حرمان أن يجعل قول الشيوخ أتم بيانًا من الوحيين! فهم إذا سئلوا عن شيء منها؛ أظهروا الحذق والمهارة في فهمه وتقريره بحيث لا يخفى عليهم موضع حرف منه، ولكنهم إذا سئلوا عن معنَى آية أو حديث؛ استعظموا ذلك؛ واستهولوه؛ واكتفوا بذكر ما يحفظونه من كلام شيوخهم فيه، فلا والله الواحد الرحمن، لا يكون كلام شيوخهم أبدًا أتم بيانًا، ولا أوضح دلالة من الوحيين، لا من جهة سنده، ولا متنه، فإن النقل فيهما نقل صادق، قام به أئمة عدول، وجهابذة ثقات، والقول هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، والذي هو أعلم الناس بما يقول، وأقدرهم على الأداء والبيان، وأما ما سواهما من قول سائر الناس؛ فلا يخلو: إما أن يكون كاذبًا من جهة النقل، أو قاصرًا على إفادة المطلوب، أو محتملًا للخطأ، فلا يُمكن أن يستوي النقلان أبدًا عند ذوي الألباب.

«والأرسان» جمع رسن، وهو الحبل المعروف الذي تشد به الدابة.

* * *

هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَينَنَا ... فِي اللهِ نَحْنُ لأَجْلِهِ خَصْمَانِ

نَصَرُوا الضَّلَالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجِبَ الْقُرْآنِ

وَلَنَا سُلُوكٌ ضِدَّ مَسْلَكِهِمْ فَمَا ... رَجُلَانِ مِنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ

إِنَّا أَبَينَا أَنْ نَدِينَ بِمَا بِهِ ... دَانُوا مِنَ الآرَاءِ وَالْبُهْتَانِ

إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا ... يَكْفِي الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْفُرْقَانِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ فَلَا كَفَا ... هُ اللهُ شَرَّ حَوَادِثِ الأَزْمَانِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ ذَانِ فَلَا شَفَا ... هُ اللهُ فِي قَلْبٍ وَلَا أَبْدَانِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ يُغْنِيهِ ذَانِ رَمَاهُ رَبْ ... بُ الْعَرْشِ بِالإِعْدَامِ وَالْحِرْمَانِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهْدِيهِ ذَانِ فَلَا هَدَا ... هُ اللهُ سُبْلَ الْحَقِّ وَالإِيمَانِ

الشرح: يعني: أن انتصار هؤلاء لأقوال شيوخهم، وتقديمهم إياها على الكتاب والسنة دون أن يحفلوا بهما: هو الذي أرث بيننا وبينهم العداوة، وجعلنا خصمين في الله، لا يلتقيان، وكيف يلتقي من كان مشايعًا للضلالة سفاهًا وجهلًا، ومن كان ناصرًا لمقتضى القرآن؟! وكيف يلتقي منهجنا ومنهجهم وهما ضدان لا يجتمعان؟! فنحن نأبى أن ندين بما يدينون به من الآراء الضالة والقضايا الفاسدة، فهي عندنا بمعزل عن مكان القدوة والاعتبار، ولا نراها أهلًا لأن نجيل فيها الأذهان والأفكار، بل كفايتنا في ذلك القرآن

والآثار، فإن من لَم يكتف بِهما فِي دينه وعقيدته، فلا كفاه اللَّه أبدًا ما يلقى من زمانه من خطوب وأرزاء، ومن لَم يجد فيهما شفاء قلبه وعقله، فلا برئت له علة، ولا انحسم له داء، ومن لَم يجد فيهما الغنى كل الغنى عما عداهما؛ ضربه اللَّه بالعدم والإملاق؛ وجعل الفقر لازمًا له أبد الدهر، ومن لَم يجد فيهما الهدى كل الهدى؛ فلا ذاق طعم الهداية أبدًا إلى طريق الحق والإيمان.

* * *

إِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكِبَارِ وَلَيسَ مَعْ ... تِلْكَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الْحَيَوَانِ

أَوْسَاخِ هَذَا الْخَلْقِ بَلْ أَنْتَانِهِ ... جِيفِ الْوُجُودِ وَأَخْبَثِ الإِنْسَانِ

الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْـ ... كُفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

الشَّاتِمِي أَهْلَ الْحَدِيثِ عَدَاوَةً ... لِلسُّنَّةِ الْعُلْيَا مَعَ الْقُرْآنِ

جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ حُلُوقِهِمْ ... فَاللهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الأَذْقَانِ

كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهًا زَائِدًا ... وَتَجَاوُزًا لِمَرَاتِبِ الإِنْسَانِ

لَوْ كَان هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ ... كُنَّا حَمَلْنَا رَايَةَ الشُّكْرَانِ

لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ تَخَلُّفٍ ... عَنْ رُتْبَةِ الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

الشرح: إن كلامنا ومناظراتنا فِي قضايا العقيدة الكبرى إنَّما نتوجه بِها إلى رؤساء القوم والمتصدرين منهم لنصرة هذه المذاهب الباطلة، ولسنا نعني بِها أولئك الأخساء الأرذال الذين هم شر الدواب، الصم البكم الذين لا يعقلون، بل هم أقذار هذا الوجود وجيفه وأخباثه، فقد انطوت نفوسهم على الحقد القاتل، والعداوة اللدود لأهل العلم والإيمان، يودون لو خلت منهم الدنيا حَتَّى يستريحوا من استطالتهم عليهم بالآثار والقرآن، فهم يطلبون دماءهم، ويسعون فِي الإيقاع بِهم، لا بالحق والعدل، بل بالكفر والعدوان، وبِما يرمونَهم به من البهتان، وهم مع ذلك قد بسطوا إليهم ألسنتهم بالسوء، عداوة منهم للسنة والقرآن، وجعلوا سبابَهم مضغ أفواههم، وطعام حلوقهم، وقربتهم الَّتِي يتقربون إلى اللَّه بِها، وليتهم فعلوا ذلك عن جدارة، وكفاية، وكان عندهم من العلم والمعرفة ما يؤهلهم للنُّزول فِي مضمار الخصومة، والجري فِي حلبتها، إذن لعرفنا لهم حقهم، وشكرنا لهم هذه الهمة فِي المنازلة والدفاع، ولكنهم لا يصدرون فِي ذلك إلا عن كبر فِي صدورهم، ما هم ببالغيه، وإعجاب منهم بآرائهم الضالة، وزيادة تيه، وعدم معرفة

منهم بأقدارهم، صلفًا وغرورًا، وهم مع ذلك متخلفون أشد التخلف، قاصرون كل القصور عن أقل درجات الإيمان والإحسان.

ولا يعجبن القارئ من وصف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لهؤلاء الجامدين المتعصبين بِما وصفهم به، فإنَّهم طالما عادوه، وعادوا شيخه شيخ الإسلام، وحجة الدهر: ابن تيمية -رحمه اللَّه ورضي عنه- ورموهما بكل نقيصة، من الضلال والإضلال، والكفر والإلحاد... إلخ ما يشتمل عليه قاموس المطاعن والمفتريات، وإليك نموذجًا واحدًا مِمَّا يقوله التقي السبكي فِي العلامة ابن القيم خلال رده الهزيل المتهافت على تلك النونية العصماء، فقد قال عند تعليقه على قول الناظم فِي شأن إمام الحرمين الجويني:

ولقد وجدت لفاضل منهم مقا مًا قامه فِي الناس منذ زمان. إلخ:

«فانظر أن مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ -وناهيك به- قد فسر الحديث بِما قال هذا المتخلف النحس أنه إلحاد، فهو الملحد، عليه لعنة اللَّه، ما أوقحه، وما أكثر تجرؤه أخزاه اللَّه».

ثُمَّ يعلق على تلك العبارات البشعة -الَّتِي تدل على قذارة قائلها، وخلوه من كل معاني الأدب والإيمان- تلميذه ومشايعه فِي الجهل والضلال، المدعو: زاهد الكوثري، فيقول فِي تكملته:

«ترى المؤلف على ورعه البالغ، يستنْزل اللعنات على الناظم فِي كثير من مواضع هذا الكتاب، وهو يستحق تلك اللعنات من حيث خروجه على معتقد المسلمين بتلك المخازي، لكن الخاتمة مجهولة، فالأولى كف اللسان الآن عن اللعن، وأما استنزال المؤلف اللعنة عليه؛ فكان فِي حياة الناظم، وهو يمضي على زيغه وإضلاله، عامله اللَّه بعدله».

وإنَّما قدمت لك هذه الصورة؛ لترى فِي أي جو خانق مظلم مليء بأنواع الكيد والأذى كان يعيش المؤلف وشيخه وغيرهما من أئمة السنة والحديث -رحمهم اللَّه ورضي عنهم أجمعين-.

* * *

مَنْ لِي بِشِبْهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَّرُوا ... بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِلَا إِحْسَانِ
وَلَهُمْ نُصُوصٌ قَصَّرُواْ فِي فَهْمِهَا ... فَأُتُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ
وَخُصُومُنَا قَدْ كَفَّرُونَا بِالَّذِي ... هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ

الشرح : إذا قلت : من لي بفلان ؛ كان معنًى هذا التعبير أنك تطلب من يكفيكه ويريحك منه ، فالمؤلف يود لو أن له بِهؤلاء الجاهلين قوة ، ويرميهم بشبه الخوارج من تكفيرهم بالذنب بلا إحسان فِي التأويل ، وباستمساكهم بنصوص قصروا عن فهمها ، فضَلُّوا بِها عن سواء السبيل ، وخصومنا كذلك ، بل هم شر من الخوارج ، فإنَّهم ما كفرونا بذنب ارتكبناه ، ولكن كفرونا بِما هو غاية التوحيد والإيمان ، وهذا أعظم الجهل ومنتهى الخذلان ، أَوَيوصفُ التوحيد منا بالشرك ، والإيمان منا بالكفران؟! ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

والمراد بعدم الإحسان فِي التأويل : هو التمسك ببعض المتشابه من الآيات ، من غير ردها إلى المحكم الذي يوضح المراد منها .

وقوله : «فأتوا من التقصير فِي العرفان» معناه : أن تقصيرهم فِي فهم النصوص ، ومعرفة المراد بِها كان هو سبب فتنتهم وضلالهم .

فصل في بيَان كذبهم ورميهم اهل الحق بانَّهُمْ اَشبَاهُ الخوارج وبيَان شبههم المحقق بالخوارج

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

أَنْتُمْ بِذَا مِثْلُ الْخَوَارِجِ إِنَّهُمْ ... أَخَذُوا الظَّوَاهِرَ مَا اهْتَدَوْا لِمَعَانِ

فَانْظُرْ إِلَى ذَا الْبُهْتِ هَذَا وَصْفُهُمْ ... نَسَبُوا إِلَيهِ شِيعَةَ الإِيمَانِ

سَلُّوا عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَحِزْبِهِ ... سَيفَينِ سَيفَ يَدٍ وَسَيفَ لِسَانِ

خَرَجُوا عَلَيهِمْ مِثْلَ مَا خَرَجَ الأُلَى ... مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْي وَالْعُدْوَانِ

وَاللهِ مَا كَانَ الْخَوَارِجُ هَكَذَا ... وَهُمُ الْبُغَاةُ أَئِمَّةُ الطُّغْيَانِ

كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ سُنَّتِهِ وَهُمْ ... فُسَّاقُ مِلَّتِهِ فَمَنْ يَلْحَانِي

إِنْ قُلْتُ هُمْ خَيرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمُ ... وَاللهِ مَا الْفِئَتَانِ مُسْتَوِيَانِ

شَتَّانَ بَينَ مُكَفِّرٍ بِالسُّنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا وَبَينَ مُكَفِّرِ الْعِصْيَانِ

الشرح : والعجيب من أمر هؤلاء المنحرفين عن طريق الكتاب والسنة : أنَّهم يعيبون على من قد دان بِهما ، ووقف عند نصوصهما من غير تحريف لَها ، ولا تأويل متكلف لشيء منها ، ويشبهونه فِي ذلك بالخوارج الذين كانوا يأخذون بظواهر النصوص من غير فهم

لمعانيها، وهذا بُهت منهم لأهل السنة والحديث، حيث رموهم بِما هم منه براء[١]، بل هم فِي الحقيقة أولى بِهذا الوصف الذي نسبوهم إليه على حد المثل القائل: «رمتي بدائها وانسلت» فهم يشبهون الخوارج فِي عداوتِهم للسنن وأهلها، فلا شيء أبغض إليهم من ذكر الآثار الَّتِي تصادم مذاهبهم فِي التعطيل، ولهذا تراهم يكرون عليها بالإبطال والتأويل والتهوين من شأنِها، ويسلون على رواتِها والمتمسكين بِها سيوف البغي والعدوان، مرة باليد، ومرة باللسان، فهم أحقاء بأن يسموا بالخوارج البغاة؛ لخروجهم على السنة وأهلها؛ ومعاداتِهم لَها، كما خرج الذين من قبلهم على أئمة الحق بالبغي والعدوان، بل لو حققت الأمر عليهم، لوجدتَهم شرًّا من الخوارج حالًا، وأضل سبيلًا، فإن الخوارج إنَّما كفروا فساق ملته -عليه الصلاة والسلام- وأما هؤلاء؛ فيكفرون أصحاب سنته، فمن يلومنا إذن إذا نحن قلنا: إن الخوارج خير منهم حالًا وأهدى سبيلًا، وإذا نحن أقسمنا بأن الفئتين لا تستويان، وهل يستوي مكفر بالسنة العليا، ومكفر بالفسق والعصيان؟! فشتان ما بينهما شتان.

* * *

قُلْتُمْ تَأَوَّلْنَا كَذَاكَ تَأَوَّلُوا ... وَكِلاَكُمَا فِئَتَانِ بَاغِيَتَانِ

وَلَكُمْ عَلَيهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْبُهْتَانِ

وَلَهُمْ عَلَيكُمْ مِيزَةُ الإِثْبَاتِ وَالتْـ ... ـتَصْدِيقِ مَعْ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

أَلَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ إِذْ ... لَهُم عَلَى تَأْوِيلِهِمْ وِزْرَانِ

حَاشَى رَسُولَ اللهِ مِنْ ذَا الْحُكْمِ بَلْ ... أَنْتُمْ وَهُمْ فِي حُكْمِهِ سِيَانِ

وَكِلاَهُمَا لِلنَّصِّ فَهْوَ مُخَالِفٌ ... هَذَا وَبَينَكُمَا مِنَ الْفُرْقَانِ

هُمْ خَالَفُوا نَصًّا لِنَصٍّ مِثْلِهِ ... لَمْ يفْهَمُوا التَّوْفِيقَ بِالإِحْسَانِ

لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْصُوصَ لِلشْـ ... ـشُبَهِ الَّتِي هِي فِكْرَةُ الأَذْهَانِ

فَلأَيِّ شَيءٍ أَنْتُمُ خَيرٌ وَأَقْـ ... ـرَبُ مِنْهُمُ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ

هُمْ قَدَّمُوا الْمَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَا ... بِ عَلَى الْحَدِيثِ الْمُوجِبِ التِّبْيَانِ

---

(١) إن موقف السلف من النصوص وموقف الخوارج منها جد مختلفين؛ فإن الخوارج -كما ذكرنا- يتشبثون ببعض المتشابه من غير فهم له، ولا رجوع إلى المحكم الذي يفسره، ويضربون كتاب الله بعضه ببعض، ولا يقيمون للسنة وزنًا، وهي التي جعلها الله بيانًا للكتاب.

لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمُو رَأْيَ الرِّجَا ... لِ عَلَيْهِمَا أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ
أَمْ هُمْ إِلَى الإِسْلَامِ أَقْرَبُ مِنْكُمُ ... لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرح: فإن قلتم معتذرين عن تكفيركم لأهل السنة والحديث، واستحلالكم لدمائهم وأعراضهم: إنا متأولون فِي ذلك. فالخوارج كذلك كانوا متأولين فِي تكفيرهم لمن خالفهم من المسلمين، ومع اشتراككما فِي البغي والعدوان والخطأ فِي التأويل، فإنكم تنفردون عنهم بقبائح، منها البهتان والتعطيل، والتحريف والتبديل، وهم ينفردون عنكم بمحاسن، منها الإثبات والتصديق، والخوف من الرب الجليل، فلماذا يكون لكم على تأويلكم أجران، ويكون لهم على تأويلهم وزران؟! فإذا كان الرسول ﷺ قد حكم عليهم بالمروق من الإسلام؛ لتكفيرهم -متأولين- أهل الإيمان؛ فأنتم وهم فِي حكمه سيان.

ومع اشتراككما كذلك فِي مخالفة النصوص، إلا أن هناك فرقًا بينكم وبينهم من جهتين تجعلانِهم خيرًا وأقرب إلى الحق منكم:

الجهة الأولى: أنَّهم يخالفون النص؛ لتمسكهم بنص آخر معارض له فِي الظاهر، ولَم يفهموا طريق الإحسان فِي التوفيق بينهما، ولكنكم أنتم تخالفون النصوص؛ لما تسمونه عندكم شبهات عقلية، ترون تقديمها على موجب النص؛ لأنَّها -فِي زعمكم- قواطع تفيد اليقين.

والجهة الثانية: أنَّهم يقدمون ما يفهم من ظاهر الآيات على الأحاديث المبينة لَها، وأما أنتم؛ فتقدمون آراء شيوخكم ومتبوعيكم على ما يدل عليه الكتاب والسنة جميعًا.

فهل أنتم وهم بعد هذا الفرق البيِّن عدلان، أم هم أقرب منكم إلى الإسلام والإيمان؟ لقد وضح الصبح لمن له عينان.

* * *

وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْجَزَا ... بِالْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ وَالْمِيزَانِ
هَذَا وَنَحْنُ فَمِنْهُمُ بَلْ مِنْكُمُ ... بُرَآءُ إِلَّا مِنْ هُدًى وَبَيَانِ
فَاسْمَعْ إِذَنْ قَوْلَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ قَوْ ... لَ خُصُومِنَا وَاحْكُمْ بِلَا مَيَلَانِ
مَنْ ذَا الَّذِي مِنَّا إِذَنْ أَشْبَاهُهُمْ ... إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانِ

قَالَ الْخَوَارِجُ لِلرَّسُولِ اعْدِلْ فَلَمْ ... تَعْدِلْ وَمَا ذِي قِسْمَةُ الدَّيَّانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِي قَالَ نَظِيرَ ذَا ... لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ فِي الطُّغْيَانِ
قَالَ الصَّوَابُ بِأَنَّهُ اسْتَوْلَى فَلِمْ ... قُلْتَ اسْتَوَى وَعَدَلْتَ عَنْ تِبْيَانِ
وَكَذَاكَ يَنْزِلُ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ ... لِمَ قُلْتَ يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْرَانِ
مَاذَا بِعَدْلٍ فِي الْعِبَارَةِ وَهْيَ مُو ... هِمَةُ التَّحَرُّكِ وَانْتِقَالِ مَكَانِ
وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ فِي السَّمَا ... أَوْهَمْتَ حَيِّزَ خَالِقِ الأَكْوَانِ
كَانَ الصَّوَابُ بِأَنْ يُقَالَ بِأَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَا سُلْطَانُ ذِي السُّلْطَانِ
وَكَذَاكَ قُلْتَ إِلَيهِ يَعْرُجُ وَالصَّوَا ... بُ إِلَى كَرَامَةِ رَبِّنَا الْمَنَّانِ

الشرح: بعد أن حكم الشيخ المؤلف بأن الخوارج خير وأقرب إلى الإسلام من هؤلاء؛ وَكَّلَ أمرهم جميعًا إلى اللَّه الذي له الحكم وحده وإليه يرجعون يوم الجزاء، فيجازي كلًّا منهم بِما يستحقه فِي قانون العدل الإلهي والقسطاس المستقيم الذي لا تغيب عنه ذرة، ثُمَّ أعلن براءة أهل السنة من الفريقين جميعًا إلا مِمَّا يوجد عندهم من الهدى والبيان، ثُمَّ عقد هذه المقارنة الرائعة بين الخوارج وبين هؤلاء الخصوم، ومنها يتبين جليًّا أنَّهم هم أشباه الخوارج عند كل من له علم ومعرفة بآراء الفريقين.

فالخوارج قالوا للرسول ﷺ على لسان زعيمهم ذي الخويصرة التميمي: يا رسول اللَّه، اعدل فإنك لَم تعدل. وقالوا عن قسمته: هذه قسمة ما أريد بِها وجه اللَّه.

وكذلك الجهمي المعطل قال مثل ذلك، وزاد عليه، فلم يعجبه قول الرسول أن ربه استوى على العرش، وقال: بل صوابه استولى. وعاب على الرسول أنه عدل عن هذا اللفظ الصريح إلى ذلك اللفظ الموهم للعلو والارتفاع، وكذلك لَم يعجبه قول الرسول: «ينزل ربنا». فقال: بل الصواب ينزل أمر ربنا. واتَّهمه بعدم العدل فِي هذه العبارة الَّتِي توهم جواز الحركة على اللَّه، والانتقال من مكان إلى مكان، وكذلك لَم يرض قوله: إن اللَّه فِي السماء؛ لأن ذلك يوهم الحيز والجهة، وهما عنده مستحيلان على اللَّه، والصواب عنده أن يقال: فوق السماء سلطانه لا ذاته.

وينكر الجهمي كذلك أن يقال: إن الملائكة والروح تعرج إليه؛ إذ هو لا يؤمن بإله فوق العرش، فكيف يصعد إليه شيء؟! والصواب عنده أن يقال: تعرج إلى محل كرامته. ونحو ذلك.

والخلاصة: أن كلًّا من الخوارج والجهمية اتَّهموا الرسول ﷺ بعدم العدل؛ إلا أن الأولين اتَّهموه بذلك فِي قسمة الأموال، والجهمية اتَّهموه بعدم العدل فِي المقال.

* * *

وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّ مِنْهُ يَنْزِلُ الْـ ... قُرْآنُ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ

كَانَ الصَّوَابُ بِأَنْ يُقَالَ نُزُولُهُ ... مِنْ لَوْحِهِ أَوْ مِنْ مَحَلٍّ ثَانِ

وَتَقُولُ أَيْنَ اللَّهُ ذَاكَ الأَيْنُ مُمْـ ... تَنِعٌ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

لَوْ قُلْتَ مَنْ كَانَ الصَّوَابُ كَمَا تَرَى ... فِي الْقَبْرِ يَسْأَلُ ذَلِكَ الْمَلَكَانِ

وَتَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ الْـ ... أَعْلَى تُشِيرُ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ

نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَا إِشَارَتُنَا لَهُ ... حِسِّيَّةً بَلْ تِلْكَ فِي الأَذْهَانِ

وَاللهِ مَا نَدْرِي الَّذِي نُبْدِيهِ فِي ... هَذَا مِنَ التَّأْوِيلِ لِلإِخْوَانِ

قُلْنَا لَهُمْ إِنَّ السَّمَا هِيَ قِبْلَةُ الدْ ... دَاعِي كَبَيْتِ اللهِ ذِي الأَرْكَانِ

قَالُوا لَنَا هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ ... فَوْقَ السَّمَاءِ بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ

فَالنَّاسُ طُرًّا إِنَّمَا يَدْعُونَهُ ... مِنْ فَوْقِ هَذِي فِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

لَا يَسْأَلُونَ الْقِبْلَةَ الْعُلْيَا وَلَـ ... كِنْ يَسْأَلُونَ الرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ

قَالُوا وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى ... غَيْرِ الشَّهِيدِ مُنَزِّلِ الْفُرْقَانِ

أَتُرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا ... حَاشَاهُ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي الْبُهْتَانِ

الشرح: والجهمي لا يرضى كذلك قول الرسول ﷺ: «إن القرآن منْزل من عند اللَّه». لأن «مِنْ» تفيد جهة الابتداء، وهذا يقتضي أن اللَّه فِي السماء، ويقول: إن الصواب أن يقال: إن نُزوله من اللوح المحفوظ، أو فِي محل آخر، كأن يخلق اللَّه كلامًا فِي الهواء فيسمعه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وينْزل به، كما قالوا مثل ذلك فِي تكليمه تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه خلق كلامًا فِي الشجرة، سمعه موسى، ونحو ذلك، وكذلك يغيظ الجهمي أشد الغيظ، ويكوي قلبه بنار الحقد أن يسأل الرسول ﷺ عن ربه بلفظ «الأين»، كما وقع فِي سؤاله للجارية الَّتِي كان يمتحنها، ولما قالت: فِي السماء؛ حكم بإيمانها.

ويقول الجهمي: إن الأين -وهو سؤال عن المكان- مُمتنع على اللَّه، وليس فِي الإمكان، فكيف يليق أن يسأل عنه رسوله بِما هو مُمتنع عليه، فالرسول فِي نظر الجهمي قد

جار فِي هذه العبارة وما عدل، وكان الصواب عنده أن يقول لَها: مَن اللَّه؟ كما يقع من الملكين عند السؤال فِي القبر، ولا يستريح الجهمي كذلك إلى ما وردت به الأخبار الصحيحة من أن الرسول ﷺ فِي خطبته يوم عرفة فِي حجة الوداع، وفِي أعظم مجمع للمسلمين كان يشير بأصبعه إلى السماء يشهد اللَّه ﷻ على البلاغ والأداء قائلًا: «اللَّهم فاشهد». لأن تلك الإشارة الحسية عند ذلك الجهمي ممتنعة على اللَّه لاقتضائها الجهة، فهو عنده لا يقبل إلا الإشارة الذهنية العقلية، ويحار الجهمي أشد الحيرة فِي تفسير هذه الأمور، ولا يدري ماذا يقول فِي تأويلها.

فإن قال: إن الأكف والأبصار إنَّما ترفع إلى السماء؛ لأنَّها قبلة الدعاء، كما يتوجه المصلي قِبَلَ البيت.

قيل له: وهذا أيضًا أوضح دليل على أن اللَّه فِي السماء، فإن الناس يتوجهون بالفطرة فِي دعائهم إليها حَتَّى من لا يعرف أن الشرع أمر به، والناس -طبعًا- فِي توجههم نحو السماء لا يسألونَها هي قضاء حوائجهم، ولكن يسألون الرب صاحب الفضل والإحسان -جل شأنه- والرسول كان يشير بأصبعه إلى السماء، لَم يكن يطلب شهادتَها هي على ما قام به من البلاغ والأداء، وإنَّما كان يشهد رب السماء الذي هو الشهيد المطلع على عمله كله، والذي هو منَزل الفرقان ولو كره ذلك المحرفون الجهلاء.

* * *

وَكَذَاكَ قُلْتَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ

نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَذَاكَ قَدْ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ

وَكَذَا يُنَادِي الْخَلْقَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ

إِنِّي أَنَا الدَّيَّانُ آخُذُ حَقَّ مَظْـ ... ـلُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي

وَتَقُولُ إِنَّ اللهَ قَالَ وَقَائِلٌ ... وَكَذَا يَقُولُ وَلَيسَ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلٌ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ يُرَى ... مِنْ غَيرِ مَا شَفَةٍ وَغَيرِ لِسَانِ

أَوْقَعْتَ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ ... لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ

الشرح: وكذلك يسوء الجهمي ويخزيه ويأتي على تعطيله من القواعد وصف الرسول ﷺ لربه بأنه متكلم، بِمعنى أن الكلام قائم به، لا بِمعنى أنه مخلوق له، وقوله: إن كلامه حروف وأصوات مسموعة بالآذان، فهو الذي نادى بنفسه الكليم موسى بن عمران

بنداء سمعه موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]. وكما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وهو سبحانه الذي نادى آدم وحواء حين أكلا من الشجرة، ووقعا فِي الخطيئة معاتبًا لهما على عصيانِهما أمره، ونسيانِهما تحذيره لهما من عداوة الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وهو سبحانه ينادي عباده يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، ويقول: «**أنا الديان لا ظلم اليوم**». كما ورد بذلك الحديث.

وهو سبحانه موصوف بأنه قال فِي الماضي وقائل فِي الحال، ويقول فِي المستقبل، فالقول ثابت له بكل صيغ الاشتقاق، ولا يعقل قول بلا حروف وأصوات.

فهذا كله مِمَّا جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- يراه الجهمي جورًا فِي العبارة مجانبًا للصواب فِي التنزيه، وموقعًا لمن لا علم له بنفيه عن الرحمن فِي التجسيم والتشبيه.

والثقلان: الإنس والجن. والديان: صيغة مبالغة من دانه بِمعنى جازاه، وقوله: قول بلا حرف... إلخ: هو اسم ليس فِي البيت قبله.

* * *

لَوْ لَمْ تَقُلْ فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ ... بِإِشَارَةٍ حِسِّيَّةٍ بِبَنَانِ

وَسَكَتَّ عَنْ تِلْكَ الأَحَادِيثِ الَّتِي ... قَدْ صَرَّحَتْ بِالْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

وَذَكَرْتَ أَنَّ اللهَ لَيسَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أُولِي التَّجْسِيمِ بَلْ ... كَانُوا لَنَا أَسْرَى عَبِيدَ هَوَانِ

لَكِنْ مَنَحْتَهُمُ سِلَاحًا كُلَّمَا ... شَاءُوا لَنَا مِنْهُمْ أَشَدَّ طِعَانِ

وَغَدَوْا بِأَسْهُمِكَ الَّتِي أَعْطَيْتَهُمْ ... يَرْمُونَنَا غَرَضًا بِكُلِّ مَكَانِ

لَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ بَيْنَنَا ... مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَنَا رَجْفَانِ

هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهْوَ فِي ... ذَاتِ الصُّدُورِ يُغَلُّ بِالْكِتْمَانِ

يَبْدُو عَلَى فَلَتَاتِ أَلْسُنِهِمْ وَفِي ... صَفَحَاتِ أَوْجُهِهِمْ يُرَى بِعِيَانِ

سِيمَا إِذَا قُرِئَ الْحَدِيثُ عَلَيْهِمُ ... وَتَلَوْتَ شَاهِدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ

فَهُنَاكَ بَيْنَ النَّازِعَاتِ وَكُوِّرَتْ ... تِلْكَ الْوُجُوهُ كَثِيرَةُ الأَلْوَانِ

وَيكَادُ قَائِلُهُمْ يصَرِّحُ لَوْ يرَى ... مِنْ قَابِلٍ فَتَرَاهُ ذَا كِتْمَانِ

اللغة: يقال: انتصف من خصمه. إذا غلب عليه بالحجة وقهره، والغرض: هو الشيء الذي ينصب للرمي كالهدف، والرجفان: من الرجفة والاضطراب، وهو الشديد الفزع، والشاهد: هو المطابق المؤيد.

وقوله: بين النازعات وكورت: يعني به قوله تعالى فِي سورة عبس فِي وصف وجوه الكفار: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١].

الشرح: هذا من جملة خطاب الجهمي للرسول ﷺ يحكيه عنه المؤلف، يعنِي أنك لو لَم تقل بأن اللَّه فوق السماء، ولَم تشر إليه بالإشارة الحسية إلى جهة الفوق، ولَم تتحدث بتلك الأحاديث المستفيضة الَّتِي تصرح بإثبات تلك الجهة للَّه، ولو أنك بدلًا من هذا ذكرت ما يفيد تنَزهه عن الجهة والمكان، فقلت: إنه ليس داخل العالم ولا خارجه، لكنا بذلك قد انتصرنا على المجسمة، وحجزناهم فِي أقماع السمسم، حيث يكون معنا سلاح النقل إلى جانب ما عندنا من المعقول، لكنك منحتهم بِهذه الأحاديث والنصوص سلاحًا جبارًا يطعنوننا به كلما شاءوا دون أن نملك مقاومة، وأصبحوا بتلك السهام النافذة الَّتِي منحتهم إياها، يرموننا فِي مقاتلنا، ويتخذون منا غرضًا لَها حيثما ثقفونا.

ولو أنك عدلت فِي العبارة، ولَم تمل بِها إلى جانب التشبيه والتجسيم، وأتيت بِها على وجهها نصًّا فِي التعطيل والتنزيه؛ ما وجد بيننا من يفزع أو يضطرب فِي ساحة هذه المعركة الزبون، هذا ما تنطق به حال القوم بالنسبة إلى أحاديث الصفات، وما يغلون عليه صدورهم، وهو كذلك قد يبدو على فلتات ألسنتهم، ويظهر جليًّا على صفحات وجوههم، لا سيما إذا قرئت عليهم هذه الأحاديث، وأتبعت بِما يشهد لَها من القرآن، هناك تغبر وجوه القوم، وتعلوها الكآبة، وتضيق صدورهم، وتكاد تنفجر من الغيظ، ثُمَّ يندمون على ما كان منهم من إبداء دخائلهم، وكشف ضمائرهم، حَتَّى ليكاد أحدهم يصرح بأنه سيجتهد مستقبلًا فِي إخفاء ذلك وكتمانه.

* * *

يَا قَوْمُ شَاهَدْنَا رُءُوسَكُمُ عَلَى ... هَذَا وَلَمْ نَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانِ

وَهْوَ الَّذِي فِي كُتْبِهِمْ لَكِنْ بِلُطْـ ... ـفِ عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانِ

وَأَخُو الْجَهَالَةِ نِسْبَةٌ لِلَّفْظِ وَالْـ ... ـمَعْنَى فَنَسْبُ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

يَا مَنْ يظُنُّ بِأَنَّنَا حِفْنَا عَلَيـ هِمْ كُتْبُهُمْ تُنْبِيكَ عَنْ ذَا الشَّانِ
فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرْكَهَا حَذَرًا عَلَيكَ مَصَايِدَ الشَّيطَانِ
فَشِبَاكُهَا وَاللهِ لَمْ يعْلَقْ بِهَا مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيرَانِ
إلَّا رَأَيتَ الطَّيرَ فِي قَفَصِ الرَّدَى يبْكِي لَهُ نَوْحٌ عَلَى الأَغْصَانِ
وَيظَلُّ يخْبِطُ طَالِبًا لِخَلَاصِهِ فَيضِيقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ
وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيرِ أَخْلَى طَيبَ الثْ ثَمَرَاتِ فِي عَالٍ مِنَ الأَفْنَانِ
وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْمَزَابِلِ يبْتَغِي الْـ فَضَلَاتِ كَالْحَشَرَاتِ وَالدِّيدَانِ

المفردات: الرءوس: الزعماء والقادة. الغل: الحقد والغيظ. الحيف: الجور. مصايد الشيطان: حبائله ومكايده. علق الطائر بالشبكة: إذا أمسك الفخ برجليه فلم يستطع النهوض، الردى: الهلاك. النوح: جمع نائح والمراد به الطير الَّتِي تنوح على الأغصان. يخبط: يضرب بجناحيه. فرجة العيدان: ما بينهما من اتساع. أخلى: ترك. الأفنان: جمع فنن وهو الغصن.

الشرح: ينادي الشيخ رَحِمَهُ اللهُ جمهور هؤلاء الجهمية من المقلدين لأشياخهم فِي الضلال بأنه شاهد رءوسهم -أي: زعماءهم- على تلك الحال من الزراية بالسنن والبرم بِها إذا رويت، لما فيها من نسف مذاهبهم فِي التعطيل والإلحاد.

ويقول: إن هذا لَم ير من إنسان قط، إلا وكان ممتلئ الفؤاد غيظًا وغلًّا على السنة وأهلها، وإن ذلك موجود أيضًا فِي كتبهم، فتراهم لا يألون جهدًا فِي التهوين من شأن هذه الآثار، ومقابلة كثير منها بالطعن والإنكار، ولكن مع لطف فِي العبارة وحسن فِي البيان، حَتَّى لا يفطن أحد إلى ما تكنه صدورهم من زراية وامتهان، ولا يظنن أحد أننا نتجنى على القوم أو نتهمهم بغير الحق، فتلك كتبهم تخبر عنهم كل من ينظر فيها، وتشهد عليهم شهادة صدق، فليقرأها من شاء ليتأكد من صحة ما نسبناه إليهم، لكنا مع ذلك ننصح كل أحد ألَّا يقرأ هذه الكتب حَتَّى لا يقع فِي حبائلها، ويغره ما فيها من تزويق المنطق وتنميق الأفكار، لا سيما إذا لَم يكن مِمَّن رسخ فِي علوم الكتاب والسنة قدمه، ولا تمكن منهما فهمه، فهذا لا يلبث أن يقع أسير شباكها، تبكيه نائحة الدوح على غصنها، وهو يجتهد فِي طلب الخلاص فلا يستطيع، والذنب فِي ذلك ذنبه هو، حيث ترك أطيب الثمرات على أغصانِها العالية حلوة المجتنى طيبة المأكل، وهبط إلى المزابل وأمكنة القذارة، يتقمم الفضلات كما تفعل

الديدان والحشرات.

وما أروع تشبيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حال من وقع أسير هذه الكتب وما فيها من ضلالات مزوقة قد فتن بِها لبه، وتأثر بِها عقله، بحال طير فِي قفص قد أحكم غلقه، فهو يضرب بجناحيه طالبًا للخلاص منه، فلا يجد فرجة ينفذ منها لضيق ما بين العيدان من فرج.

وما أجمل أيضًا تشبيهه لعقائد الكتاب والسنة بثمرات شهية كريمة المذاق على أغصان عالية، بحيث لا يصل إليها فساد، ولا يلحقها تلوث، وتشبيهه لعقائد هؤلاء الزائغين بفضلات قذرة وأطعمة عفنة ألقيت فِي إحدى المزابل، فلا يأوي إليها إلا أصحاب العقول القذرة والفطرة المنتكسة.

* * *

يَا قَوْمُ وَاللهِ الْعَظِيمِ نَصِيحَةٌ ... مِنْ مُشْفِقٍ وَأَخٍ لَكُمْ مِعْوَانِ

جَرَّبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي ... تِلْكِ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيَرَانِ

حَتَّى أَتَاحَ لِي الإِلَهُ بِفَضْلِهِ ... مَنْ لَيسَ تَجْزِيهِ يدِي وَلِسَانِي

حَبْرٌ أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَّانٍ فَيَا ... أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَّانِ

فَاللهُ يجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ ... مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

أَخَذَتْ يدَاهُ يدِي وَسَارَ فَلَمْ يرِمْ ... حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعَ الإِيمَانِ

وَرَأَيتُ أَعْلَامَ الْمَدِينَةِ حَوْلَهَا ... نُزُلُ الْهُدَى وَعَسَاكِرُ الْقُرْآنِ

وَرَأَيتُ آثَارًا عَظِيمًا شَأْنُهَا ... مَحْجُوبَةً عَنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

وَرَأَيتُ أَكْوَازًا هُنَاكَ كَثِيرَةً ... مِثْلَ النُّجُومِ لِوَارِدٍ ظَمْآنِ

وَوَرَدْتُ رَأْسَ الْمَاءِ أَبْيضَ صَافِيًا ... حَصْبَاؤُهُ كَلآلِئِ التِّيجَانِ

وَرَأَيتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي ... لَا زَالَ يشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ

مِيزَابُ سُنَّتِهِ وَقَوْلُ إِلَهِهِ ... وَهُمَا مَدَى الأَيَامِ لَا ينِيَانِ

وَالنَّاسُ لَا يرِدُونَهُ إِلَّا مِنَ الْـ ... آلَافِ أَفْرَادًا ذَوِي إِيمَانِ

وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلٍ أَكْرِمْ بِهَا ... وَوَرَدْتُمُ أَنْتُمْ عَذَابَ هَوَانِ

الشرح: يحكي الشيخ هنا فِي صورة نصيحة يقدمها إلى هؤلاء الهلكى شفقة بِهم ما جربه هو بنفسه من الوقوع فِي أسر هذه المذاهب الباطلة، ولكنه كان أوتي من قوى التمييز

والفهم ما يقدر به على التخلص من أغلال التقليد، فما أن قيض اللَّه له شيخ الإسلام وأكرمه بصحبته حَتَّى انفتح له باب الخلاص مِمَّا كان يعانيه، فلازم هذا الحبر الرباني الجليل ملازمة الظل، وأخذ من علمه وفضله ما لا يقدر أن يكافئه عليه بيد ولا لسان، وهو لهذا يدعو اللَّه أن يجزيه عنه بِما يستحقه من نعيم الجنان وكريم الرضوان، فهو الذي أخذ بيده وسار، فلم يتركه حَتَّى فتح عينه على مهبط الإيمان ومشرق النور والعرفان، وهنالك رأى المدينة دار الهجرة قد ارتفعت أعلامها، وخفقت بنودها، والتفت من حولها طلاب الهدى وجند القرآن، وشاهد من عظيم الآثار الَّتِي خلفها الرسول ﷺ وصحابته الأخيار ما لا يطيق رؤيته هؤلاء المحجوبون من خفافيش الظلام وعبدة الأوهام.

وورد هناك نبع الشريعة صافيًا، لَم يختلط بِما يكدره من أقذاء، ورأى عنده من الكيزان ما قد يعد بنجوم السماء، وقد أعدت لِمَن يرده ويطلب ريه من الظماء، ورأى هنالك حوض الكوثر الصافي، وهو علمه ﷺ الذي تركه فِي أمته لا زال يصب فيه ميزابان: ميزاب الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، كما أن حوضه فِي الموقف يوم القيامة سيصب فيه ميزابان من نَهر الكوثر الذي فِي الجنة، فمن شرب من حوض علمه الصافي فِي الدنيا؛ فهو الجدير أن يرد حوضه فِي الآخرة، ومن صد عنه، وآثر عليه هذه الموارد الآسنة؛ فسيذاد عن حوضه ويبعد جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، ومن المؤسف أن الناس لا يردون حوض علمه فِي الدنيا من الآلاف المؤلفة إلا الفرد بعد الفرد مِمَّن هداهم اللَّه ووفقهم، وهم الذين وردوا أكرم المناهل وأعذبَها، وأما أنتم أيها المعرضون المخذولون فقد وردتم موارد العذاب المهين تبقون فيها خزايا نادمين.

* * *

فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمُ ذَا الْعَدْلِ وَالْـ ... إِنْصَافَ وَالتَّخْصِيصَ بِالْعِرْفَانِ

مَنْ ذَا عَلَى دِينِ الْخَوَارِجِ بَعْدَ ذَا ... أَنْتُمْ أَمِ الْحَشْوِيُّ مَا تَرَيَانِ

وَاللهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْحَشْوِي أَهْـ ... لًا أَنْ يُقَدِّمَكُمْ عَلَى عُثْمَانِ

فَضْلًا عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضْـ ... لًا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

وَاللهِ لَوْ أَبْصَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ الْـ ... حَشْوِي حَامِلَ رَايَةِ الإِيمَانِ

وَكَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدِهِ ... فِي قَلْبِهِ أَعْلَى وَأَكْبَرُ شَانِ

مِنْ أَنْ يحَرَّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَأَنْ ... يُقْضَى لَهُ بِالْعَزْلِ عَنْ إِيقَانِ

وَيرَى الْوَلَايةَ لابْنِ سِينَا أَوْ أَبِي ... نَصْرٍ أَوِ الْمَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانِ
أَوْ مَنْ يتَابِعُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ ... أَوْ مَنْ يقَلِّدُهُمْ مِنَ الْعُمْيانِ
يَا قَوْمَنَا بِاللهِ قُومُوا وَانْظُرُوا ... وَتَفَكَّرُوا فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ
نَظَرًا وَإِنْ شِئْتُمْ مُنَاظَرَةً فَمِنْ ... مَثْنَى عَلَى هَذَا وَمِنْ وُحْدَانِ
أَي الطَّوَائِفِ بَعْدَ ذَا أَدْنَى إِلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
فَإِذَا تَبَيَّنَ ذَا فَإِمَّا تَتْبَعُوا ... أَوْ تَعْذِرُوا أَوْ تُؤْذِنُوا بِطِعَانِ

الشرح: يقسم عليهم باللَّه الذي أعطاهم ما يزعمون أنه عدل وإنصاف، وبحق من خصهم بتلك المعرفة أن يبينوا له بعد هذا الذي قدمه من الشرح والبيان: أي الفريقين منهم ومن الحشوية هو على دين الخوارج وأقرب إليهم نسبًا؟! ولن يجدوا محيصًا من الحكم على أنفسهم بأنَّهم أولى بشبه الخوارج من خصومهم، فهم الذين يتهمون الرسولﷺ بعدم العدل فِي العبارة، كما اتَّهمه من قبلهم من الخوارج بعدم العدل فِي القسمة.

ثُمَّ يقسم باللَّه مرة ثانية: إنَّهم ليسوا عند الحشوي أهلًا لأن يقدمهم فِي فهم الدين على ثالث الخلفاء الراشدين عثمان ذي النورين رضي الله عنه، فضلًا عن أن يقدمهم على صديق الأمة أبي بكر، أو فاروقها عمر رضي الله عنهما فضلًا عن أن يقدمهم على سنة رسول اللَّهﷺ وعلى القرآن الكريم.

ثُمَّ يقسم ثالثة باللَّه: إنَّهم لو كانوا ذوي بصر وفطنة؛ لأدركوا أن هذا الذي يسمونه الحشوي استهزاء وسخرية هو حامل راية الإيمان؛ لأنه هو الذي وقف عند نصوص الكتاب والسنة، فلم يسمها تأويلًا، ولَم يحرفها عن مواضعها تبديلًا، بل هي عنده أجل وأكبر من أن يتلاعب بِها، أو يحكم عليها بالقصور عن إفادة اليقين، أو يتركها ويهملها من أجل كلام هؤلاء المارقين من أمثال أبي علي بن سينا الذي يسمونه بالشيخ الرئيس، أو أبي نصر الفارابي الملقب بالمعلم الثاني، أو الجهم بن صفوان الترمذي رأس الضلال والفتنة، أو من يشايعهم على كفرهم وضلالهم، ويقلدهم تقليدًا أعمى بلا نظر ولا معرفة.

ثُمَّ يدعوهم الشيخ مرة أخرى إلى أن يقوموا مثنى وفرادى، ثُمَّ يتفكروا وينظروا فِي السر والعلانية، وإن شاءوا مناظرة؛ فليناظروا ليعرفوا أي الطوائف منهم، ومن الحشوية هو أقرب إلى قول رسول اللَّهﷺ وإلى محكم القرآن، فإن ظهر لهم ذلك وتبينوه، فإما أن يتبعوا الحق، وإما أن يقدموا عذرًا عن بقائهم على ما هم عليه، وإما أن يعلنوها حربًا بينهم

وبين خصومهم تفصل بينهم؛ إذ لَم تجد الحجة، ولَم ينفع البرهان.

فصل في تلقيبهم أهل السنة بالحشوية وبيَان من أولى بالوصف المذموم من هذا اللقب من الطائفتين وذكر أول من لقب به أهل السنة من أهل البدع

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدَى ... بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

حَشْوِيةٌ يعْنُونَ حَشْوًا فِي الْوجُو ... دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الإِنْسَانِ

وَيظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُم حَشَوْا ... رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الأَكْوَانِ

إِذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ الْعَبَادِ وَفِي السَّمَا ... ءِ الرَّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ فِي لِلظَّرْفِ وَالرْ ... رَحْمَنَ مَحْوِي بِظَرْفِ مَكَانِ

وَاللهُ لَمْ يسْمَعْ نِدًا مِنْ فَرْقَةٍ ... قَالَتْهُ فِي زَمَنٍ مِنَ الأَزْمَانِ

لَا تَبْهَتُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِهِ فَمَا ... ذَا قَوْلُهُمْ تَبًّا لِذِي الْبُهْتَانِ

بَلْ قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمْـ ... سِكِهَا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

أَتَرَوْنَهُ الْمَحْصُورَ بَعْدُ أَمِ السَّمَا ... يَا قَوْمَنَا ارْتَدِعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيةٌ ... فَالْبُهْتُ لَا يخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ

الشرح: ومن عجيب أمر هؤلاء الجهمية المعطلة: أنَّهم يسمون أهل السنة والجماعة المتمسكين بنصوص الوحيين حشوية، يعنون بذلك: أنَّهم من حشو الناس وسقطهم، فلا يعتد بكلامهم فِي العقيدة؛ لأنَّهم لَم يتعمقوا تعمقهم فِي التأويل، ولا ذهبوا مذاهبهم فِي الإنكار والتعطيل، فكل من آمن بظواهر النصوص عندهم ولَم يشتغل بصرفها عما تفيده من معان توهم التشبيه؛ فهو حشوي بعيد عن التحقيق، وليس من العلماء الراسخين، وربَّما ظن الجاهل من هؤلاء الجهمية أنَّهم إنَّما سموا حشوية؛ لأنَّهم جعلوا ربَّهم حشو هذا الكون -أي: داخله-؛ لأن مذهبهم يقوم على أن اللَّه فِي السماء، وأنه فوق العباد، وإنَّما أوقعهم فِي هذا الجهل توهمهم أن «فِي» عند قولنا: اللَّه فِي السماء. «للظرف» فتفيد أن اللَّه مظروف فِي السماء، وأن السماء حاوية له، وهذا القول الذي نسبوه إلى الحشوية -فِي زعمهم- لَم يسمع عن فرقة من فرق الإسلام أنَّها قالت به، وذهبت إليه، حَتَّى المشبهة الذين

صرحوا بالتشبيه لَم يقولوا: إنه محصور فِي السماء، ولكنهم أرادوا بذلك بَهت أهل الحديث بِما ليس من قولهم، فتبًّا لهم على سوء بَهتهم وعظيم افترائهم، بل قول أهل الحديث الذي يصرحون به دائمًا: إن اللَّه فوق سمواته، على عرشه، بائن من خلقه، وإنه لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، وإن الكون كله -بسمواته وأرضه- فِي قبضة يده -جل شأنه- كخردلة فِي يد أحدنا، فتعالى اللَّه عما يقوله الظالمون علوًّا كبيرًا.

وإذا عُرف أن هذا هو مذهب أهل السنة والحديث، فمن على هذا يكون محصورًا فِي الآخر، هو -جل شأنه- أم السماء؟ لا جرم أن السماء والكون كله هو المحصور المقهور تحته سبحانه، ولكن القوم لا يكفون عن عدوانِهم على أهل السنة، وبَهتهم لا يخفى على اللَّه الذي لا تخفى عليه خافية فِي الأرض ولا فِي السماء، وسيجزيهم عليه يوم القيامة أشد الجزاء.

المفردات: الفضلة: الشيء الزائد الذي لا يؤبه له. والبهت: رميك غيرك بِما ليس فيه. قولهم: أي: مذهبهم، وهو مبتدأ خبره الجملة بعده.

* * *

يَا قَوْمُ إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسُنَّةُ الْـ ... مُخْتَارِ حَشْوًا فَاشْهَدُوا بِبَيَانِ

إِنَّا بِحَمْدِ إِلَهِنَا حَشْوِيَّةٌ ... صِرْفٌ بِلَا جَحْدٍ وَلَا كِتْمَانِ

تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُيوخُكُمُ بِهَـ ... ـذَا الإِسْمِ فِي الْمَاضِي مِنَ الأَزْمَانِ

سَمَّى بِهِ ابْنُ عُبَيدِ عَبْدَ اللهِ ذَا ... كَ ابْنُ الْخَلِيفَةِ طَارِدِ الشَّيطَانِ

فَوَرِثْتُمُ عَمْرًا كَمَا وَرِثُوا لِعَبْـ ... ـدِ اللهِ أَنَّى يَسْتَوِي الإِرْثَانِ

تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْمِ وَهْـ ... ـوَ مُنَاسِبٌ أَحْوَالَهُ بِوِزَانِ

مَنْ قَدْ حَشَا الأَوْرَاقَ وَالأَذْهَانَ مِنْ ... بِدَعٍ تُخَالِفُ مُوجِبَ الْقُرْآنِ

هَذَا هُوَ الْحَشْوِيُّ لَا أَهْلُ الْحَدِيـ ... ـثِ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

وَرَدُوا عِذَابَ مَنَاهِلِ السُّنَنِ الَّتِي ... لَيْسَتْ زُبَالَةَ هَذِهِ الأَذْهَانِ

وَوَرَدْتُمُ الْقَلُّوطَ مَجْرَى كُلِّ ذِي الْـ ... أَوْسَاخِ وَالأَقْذَارِ وَالأَنْتَانِ

وَكَسَلْتُمُ أَنْ تَصْعَدُوا لِلْوِرْدِ مِنْ ... رَأْسِ الشَّرِيعَةِ خَيبَةَ الْكَسْلَانِ

الشرح: فإن كنتم معشر الجهمية تعدون التمسك بالكتاب والسنة والوقوف عند

نصوصها حشوًا؛ فاشهدوا علينا أننا -بحمد اللَّه- حشوية خالصون فِي الحشو، لا ننكر ذلك، ولا نخفيه، ولكن هل تعلمون مَن الذي سمته شيوخكم بِهذا الاسم فِي الماضي؟ إنه رجل من خيار التابعين، هو عبد اللَّه بن عبيد اللَّه بن عمر أمير المؤمنين، فهو حفيد الفاروق الذي يفر منه الشيطان، ولا يمشي معه فِي طريق، فأنتم معشر الجهمية قد ورثتم عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء الذي كان رأسًا فِي البدعة والاعتزال، وأما أهل السنة والحديث؛ فقد ورثوا عبد اللَّه هذا، فكيف إذن يستوي الإرثان، وهذا إرث سنة وهدى، وذلك إرث بدعة وضلالة.

ولكن هل تدرون أيضًا من أحق الناس بِهذا الاسم، ومن تكون حاله مناسبة له تَمامًا؟ إنه من حشا الأوراق وسودها، وملأ الأذهان وأفسدها بالبدع والضلالات الَّتِي تخالف مقتضى القرآن.

هذا هو الحقيق أن يسمى حشويًا، وليس أهل الحديث أئمة الهدى، وأساتذة الإيمان الذين وردوا ينابيع السنن عذبة صافية، غير مشوبة بزبالة الأذهان، وأقذار الأفكار.

وأما أنتم فوردتم أسوأ مورد وأخبثه، وردتم القلوط مجمع كل وسخ ونتن، كسلًا منكم أن تصعدوا بعقولكم ونفوسكم إلى موارد الشريعة الصافية، ورضًا منكم بالتبعية الذليلة لأصحاب هذه الأوساخ الفكرية، فخيبة لكل متواكل كسلان.

فصل في بيَان عدوانِهم في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسمة وبيَان أنَّهُمْ أولى بكل لقبٍ خبيث

كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ نَوَا ... بِتَةٌ مُسَبَّةُ جَاهِلٍ فَتَّانِ

أَسْمَاءُ سَمَّيتُمْ بِهَا أَهْلَ الْحَدِيـ ... ـثِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالإِيمَانِ

سَمَّيتُمُوهُمْ أَنْتُمُ وَشُيوخُكُمْ ... بَهْتًا بِهَا مِنْ غَيرِ مَا سُلْطَانِ

وَجَعَلْتُمُوهَا سُبَّةً لِتُنَفِّرُوا ... عَنْهُمْ كَفِعْلِ السَّاحِرِ الشَّيطَانِ

مَا ذَنْبُهُمْ وَاللهِ إِلَّا أَنَّهُمْ ... أَخَذُوا بِوَحْيِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ

وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَحَيزُوا لِمَقَالَةٍ ... غَيرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَأَبَوْا يَدِينُوا بِالَّذِي دِنْتُمْ بِهِ ... مِنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ

وَصَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فِي النَّصَّينِ مِنْ ... خَبَرٍ صَحِيحٍ ثُمَّ مِنْ قُرْآنِ
إنْ كَانَ ذَا التَّجْسِيمُ عِنْدَكُمُ فَيَا ... أَهْلًا بِهِ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
إنَّا مُجَسِّمَةٌ بِحَمْدِ اللهِ لَمْ ... نَجْحَدْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

الشرح: يتجنى أهل التعطيل على أهل الحق، فينعتونَهم بألقاب السوء الَّتِي هم منها براء، فأحيانًا يسمونَهم مشبهة؛ لأنَّهم -بزعمهم- لما أثبتوا الصفات قد شبهوا اللَّه بخلقه، وأحيانًا مجسمة؛ لأنَّهم لما اعتقدوا علو اللَّه فوق خلقه؛ فقد جعلوه جسمًا متحيزًا حالًا بالمكان، وأحيانًا يطلقون عليهم النوابت، يعنون بذلك: أنَّهم نبتوا فِي الإسلام بأقوال بدعية.

وهذه كلها أسْماء سموا بِها أهل الحديث وناصري القرآن والإيمان، ما لهم عليها من حجة ولا من سلطان، ولكنها محض الزور والبهتان، وقد قلدوا فِي ذلك شيوخًا لهم من أهل البغي والعدوان، وجعلوا هذه الألقاب الشنيعة مسبة لأهل الحق؛ لينفروا الناس عن اتباعهم، والأخذ بأقوالهم، كفعل الساحر الشيطان الذي قد يبلغ من سحره أن يفرق بين المرء وزوجه بإلقاء الكراهية والبغضاء، ولا ذنب لأهل الحق عند هؤلاء السمجاء، إلا أنَّهم وقفوا عند الوحي المنَزل من السماء، وأبوا أن يميلوا عنه إلى مقالات من صنع مبطلين سفهاء -وإن سموا أنفسهم محققين وحكماء- ولَم يرضوا أن يدينوا بالذي يدين به هؤلاء من آراء باطلة معوجة، وهذيانات سخيفة فجة، ووصفوا ربَّهم بكل وصف جاء فِي الكتاب والسنة، فإن كان هذا فِي نظر هؤلاء الجاهلين تجسيمًا، فنحن نرحب به ونرضاه لنا دينًا، ونحمد اللَّه على أننا مجسمة، لا نجحد شيئًا من صفات الخالق الديان، سبحانه وتعالى عما يقول المعطلة علوًّا كبيرًا.

* * *

وَاللَّهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مِنَّا بِأَنْ ... نَ اللهَ جِسْمٌ يَا أُولِي الْبُهْتَانِ
وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا فِي وَصْفِهِ ... لَمْ نَعْدُ مَا قَدْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ
أَوْ قَالَهُ أَيضًا رَسُولُ اللهِ فَهْـ ... ـوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِالْبُرْهَانِ
أَوْ قَالَهُ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... فَهُمُ النُّجُومُ مَطَالِعُ الإيمَانِ
سَمُّوهُ تَجْسِيمًا وَتَشْبِيهًا فَلَسْـ ... ـنَا جَاحِدِيهِ لِذَلِكَ الْهَذَيَانِ
بَلْ بَينَنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ بَلْ هُوَ الْـ ... ـفَرْقُ الْعَظِيمُ لِمَنْ لَهُ عَينَانِ

إِنَّ الْحَقِيقَةَ عِنْدَنَا مَقْصُودَةٌ ... بِالنَّصِّ وَهْوَ مُرَادَةُ التِّبْيَانِ
لَكِنْ لَدَيْكُمْ فَهْيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ ... أَنَّى يُرَادُ مُحَقَّقُ الْبُطْلَانِ
فَكَلَامُهُ فِيمَا لَدَيْكُمْ لَا حَقِيـ ... ـقَةَ تَحْتَهُ تَبْدُو إِلَى الأَذْهَانِ
فِي ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ وَسَائِرِ الْـ ... أَوْصَافِ وَهْيَ الْقَلْبُ لِلْقُرآنِ
بَلْ قَوْلُ رَبِّ النَّاسِ لَيسَ حَقِيقَةً ... فِيمَا لَدَيْكُمْ يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

الشرح: على أنه لَم يقل أحد منا معشر أهل السنة أن اللَّه تعالى جسم، ولكنكم تبهتوننا بذلك وتجعلونه من لوازم قولنا: إن اللَّه فوق عرشه بذاته؛ لأن الوجود فِي الأين عندكم من خصائص الأجسام.

فإذا قلنا: إن اللَّه فِي السماء كما أخبر عن نفسه.

قلتم لنا: جسمتم.

ولكن اللَّه يعلم أننا لَم نتجاوز فِي وصفه ما ذكره اللَّه فِي كتابه أو ما قاله رسول اللَّه ﷺ فِي الصحيح عنه، فإنه الصادق فِي كل ما يخبر به عن ربه، المصدوق الذي صدقه ربه فِي كل ما أوحى به إليه، أو ما قاله أصحابه ﷺ من بعده، فهم نجوم الهدى لهذه الأمة، وأكملها إيمانًا وعلمًا، فإذا سميتم إثباتنا لهذه الصفات الثابتة بالكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة تجسيمًا أو تشبيهًا، فلن يحملنا هذيانكم هذا على جحد شيء منها أو إنكاره، بل نحن باقون على الإثبات أبدًا ما شاء اللَّه، وبيننا وبينكم فِي ذلك فرق واضح لكل ذي بصر، وإن بدا للبعض دقيقًا لطيفًا- هو أن هذه النصوص عندنا مستعملة فِي معانيها الحقيقية الَّتِي تفهم من اللفظ عند إطلاقه، ولا يجوز حمل شيء منها على المجاز؛ حيث لا قرينة تدل عليه.

ولَم ترد هذه النصوص للألغاز والتعمية، وإنَّما جاءت للبيان والإيضاح، فلو حمل شيء منها على غير معناه بلا داع ولا قرينة؛ لا ننفي عنها وصف البيان، ولكن الحقيقة عندكم غير مرادة؛ لأنَّها فِي نظركم باطلة، فكيف تراد من النص؟! وكلامه سبحانه عندكم لا حقيقة له عند العقل؛ لأن العقل عندكم يحيل كل ما أثبتته الآيات من الصفات الخبرية، كالعلو ونحوه، مع أنَّها هي لب القرآن وجوهره، ومعظم المقصود من إنْزاله، بل قول اللَّه نفسه ليس له حقيقة عندكم؛ لأنكم تنفون عنه الحرف والصوت، والقول لا يكون إلا حروفًا وأصواتًا، فقول اللَّه كصفاته، لا حقيقة لشيء من ذلك عندكم، يا من تدعون المعرفة زورًا وبُهتانًا.

وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ ... يَنْفَى عَلَى الإِطْلَاقِ وَالإِمْكَانِ
وَحَقَائِقُ الأَلْفَاظِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ ... فِيمَا زَعَمْتُمْ فَاسْتَوَى النَّفْيَانِ
نَفْيِ الْحَقِيقَةِ وَانْتِفَاءُ اللَّفْظِ إِنْ ... دَلَّتْ عَلَيْهِ فَحَظُّكُمْ نَفْيَانِ
وَنَصِيبُنَا إِثْبَاتُ ذَاكَ جَمِيعِهِ ... لَفْظًا وَمَعْنًى ذَاكَ إِثْبَاتَانِ
فَمَنِ الْمُعَطِّلُ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُكُمْ ... لَقَبٌ بِلَا كَذِبٍ وَلَا عُدْوَانِ
وَإِذَا سَبَبْتُمْ بِالْمُحَالِ فَسَبُّنَا ... بِأَدِلَّةٍ وَحِجَاجِ ذِي بُرْهَانِ
تُبْدِي فَضَائِحَكُمْ وَتَهْتِكُ سِتْرَكُمْ ... وَتُبِينُ جَهْلَكُمُ مَعَ الْعُدْوَانِ
يَا بُعْدَ مَا بَيْنَ السِّبَابِ بِذَاكُمُ ... وَسِبَابُكُمْ بِالْكِذْبِ وَالطُّغْيَانِ
مَنْ سَبَّ بِالْبُرْهَانِ لَيسَ بِظَالِمٍ ... وَالظُّلْمُ سَبُّ الْعَبْدِ بِالْبُهْتَانِ

الشرح: فإذا كان اللَّه عندكم ليس بقائل على الحقيقة، وجعلتم القول المضاف إليه مجازًا؛ صح نفيه عنه، أما على جهة الإطلاق المقتضي سلب القول عنه بالفعل، أو على جهة الإمكان المقتضي سلب إمكان ذلك منه، فضلًا عن وقوعه؛ فهذا نفي، وأنتم قد نفيتم حقائق الألفاظ، وزعمتم أن معانيها الحقيقية مستحيلة عند العقل، فهذا نفي آخر، فاجتمع لكم بذلك نفيان:

نفي الألفاظ عن اللَّه ﷻ، وإنكار أن يكون هو متكلمًا بها.

ونفي الحقائق الَّتِي دلت عليها.

فهذا حظكم من الإيمان بالوحي، إنكار للفظ والمعنى جميعًا.

وأما نحن؛ فنصيبنا إثبات ذلك كله، لفظًا ومعنى، وعدم إنكار شيء منه، فأنتم الأحقاء وحدكم بوصف التعطيل، وهو لقب لائق بكم، لا كذب فيه، ولا عدوان، وإذا أنتم شتمتمونا بما ليس فينا شتمًا قائمًا على الزور والبهتان؛ فسبنا لكم لا يكون إلا عن حجة وبرهان، يكشف ستركم، ويفضح جهلكم وعدوانكم، فما أبعد الفرق بين سبابنا وسبابكم، فإن من سب خصمًا بالدليل لا يكون ظالمًا، ولا واضعًا للشيء فِي غير موضعه، ولكن الظلم هو سب العبد بالزور والبهتان.

* * *

فَحَقِيقَةُ التَّجْسِيمِ أَنْ تَكُ عِنْدَكُمْ ... وَصْفَ الإِلَهِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ
بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا ... آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلَانِ
فَتَحَمَّلُوا عَنَّا الشَّهَادَةَ وَاشْهَدُوا ... فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ مَكَانِ
أَنَّا مُجَسِّمَةٌ بِفَضْلِ اللهِ وَلْـ ... يَشْهَدْ بِذَلِكَ مَعْكُمُ الثَّقَلَانِ
اللهُ أَكْبَرُ كَشَّرَتْ عَنْ نَابِهَا الْـ ... حَرْبُ الْعَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ
وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ وَانْقَسَمَ الْوَرَى ... قِسْمَيْنِ وَاتَّضَحَتْ لَنَا الْقِسْمَانِ

الشرح: فإذا كنتم مصرين على أن وصف الرب -جل شأنه- بصفاته العليا الَّتِي صرحت بِها آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة -وكل منهما شاهد عدل- مُوقِع فِي التجسيم، بحيث يكون مجسمًا عندكم كل من أثبت صفة من هذه الصفات؛ فتحملوا عنا إقرارنا بذلك التجسيم، واشهدوا علينا فِي كل مجتمع ومكان أنا مجسمة، وادعوا من استطعتم من الإنس والجن ليشهدوا معكم بذلك، فإن تشنيعكم علينا بمثل هذه الألفاظ لن يغير شيئًا من حقيقة الخلاف بيننا وبينكم بعد أن استعرت بيننا نار الحرب، وشمرت عن ساقها، وتداعى إليها الفريقان، وتقابل الصفان، وعرف كل فريق ما عند خصمه، واضحًا لا خفاء فيه.

فالحقيقة الَّتِي عليها نجالدكم: هي أننا نؤمن بحقيقة ما أنزل اللَّه على رسوله، وأنتم تنكرونه، ونحن ندين بالكتاب والسنة فِي الإثبات والنفي، وأنتم لا ترجعون فِي ذلك إلا إلى قضية عقولكم الخاسرة، وما وضعه لكم شيوخكم فِي الضلال من قواعد وأصول جعلتموها دينًا لكم، واستعضتم بِها عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، فوقعتم فِي الضلال البعيد والخسران المبين.

فصل في بيَان مورد أهل التعطيل وأنهم تعوَّضُوا بالقلُوط عن مورد السلسبيل

يَا وَارِدَ الْقَلُّوطِ وَيحَكَ لَوْ تَرَى ... مَاذَا عَلَى شَفَتَيكَ وَالأَسْنَانِ
أَوَمَا تَرَى آثَارَهَا فِي الْقَلْبِ وَالنْـ ... ـنِيَّاتِ وَالأَعْمَالِ وَالأَرْكَانِ
لَوْ طَابَ مِنْكَ الْوِرْدُ طَابَتْ كُلُّهَا ... أَنَّى تَطِيبُ مَوَارِدُ الأَنْتَانِ
يَا وَارِدَ الْقَلُّوطِ طَهِّرْ فَاكَ مِنْ ... خَبَثٍ بِهِ وَاغْسِلْهُ مِنْ أَنْتَانِ

ثُمَّ اشْتُمِ الْحَشْوِي حَشْوَ الدِّينِ وَالْـ   قُــرْآنِ وَالآثَــارِ وَالإيــمَــانِ
أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ اليقِينِ وَغَيرُهُمْ   حَشْوُ الشُّكُوكِ فَمَا هُمَا صِنْوَانِ
أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الْمَسَاجِدِ وَالسِّوَى   حَشْوُ الْكَنِيفِ فَمَا هُمَا عِدْلَانِ
أَهْلًا بِهِمْ حَشْوَ الْجِنَانِ وَغَيرُهُمْ   حَشْوُ الْجَحِيمِ أَيسْتَوِي الْحَشْوَانِ

الشرح: ينادي المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هؤلاء الناكبين عن صراط اللّٰه المستقيم، ناعيًا عليهم إعراضهم عن ينابيع الدين الصافية، وموارده الكريمة الَّتي هي كتاب اللّٰه تعالى، وأحاديث رسولهﷺ، وما أثر من أقوال السلف الصالح، واستعاضتهم عنها بتلك الموارد العفنة، مِمَّا وضعه ضلال الفلاسفة والجهمية وغيرهم، وأنَّهم حين يلوكون هذه الأقوال الخبيثة، وتتلوث بِها شفاههم وأسنانُهم؛ تبدو آثارها القبيحة فِيما تضمره قلوبُهم من الأخلاق والنيات، وما تقوم به جوارحهم من الأعمال والأركان؛ لأنه لا يُمكن أن تطيب منهم هذه الأمور وموردها منتن خبيث، ثُمَّ دعاهم قبل أن يشتغلوا بشتم أهل الحق، ويعيبوهم بألقاب السوء؛ أن يغسلوا أفواههم أولًا، ويطهروها مِمَّا بِها من خبث وقذر، ثُمَّ التفت إلى من يسمونَهم حشوية، فجعل هذه النسبة الَّتي قصد بِها الأعداء إلى ذمهم، موضع مدح وفخار لهم، فهم حشوية، قد حُشوا من الدين والقرآن والسنة والإيمان، وهم حشوية، حشوهم الهدى واليقين، على حين حشا أعداؤهم من الضلال والشكوك والشبهات، وهم حشوية؛ لأنَّهم حشو بيوت اللّٰه، يعمرونَها بذكره، ومدارسة كتابه، وسنة رسولهﷺ، وأعداؤهم حشو الأماكن القذرة من الغائط والقلوط، وهم أخيرًا حشو الجنة، دار الخلد الَّتي أعدها اللّٰه للمتقين، وأما أعداؤهم فحشو الجحيم، يصلونَها بِما أعرضوا عن سبل اللّٰه المستقيمة، وبِما اتبعوا من سبل الضلال والكفران.

❊ ❊ ❊

يَا وَارِدَ الْقَلُّوطِ وَيحَكَ لَوْ تَرَى الْـ   حَشْوِي وَارِدَ مَنْهَلِ الْفُرْقَانِ
وَتَرَاهُ مِنْ رَأْسِ الشَّرِيعَةِ شَارِبًا   مِنْ كَفِّ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْفُرْقَانِ
وَتَرَاهُ يسْقِي النَّاسَ فَضْلَةَ كَأْسِهِ   وَخِتَامُهَا مِسْكٌ عَلَى رَيحَانِ
لَعَذَرْتَهُ إنْ بَالَ فِي الْقَلُّوطِ لَمْ   يشْرَبْ بِهِ مَعْ جُمْلَةِ الْعُمْيَانِ
يَا وَارِدَ الْقَلُّوطِ لَا تَكْسَلْ فَرَأْ   سُ الْمَاءِ فَاقْصِدْهُ قَرِيبٌ دَانِ
هُوَ مَنْهَلٌ سَهْلٌ قَرِيبٌ وَاسِعٌ   كَافٍ إذَا نَزَلَتْ بِهِ الثَّقَلَانِ

وَاللهِ لَيسَ بِأَصْعَبِ الْوِرْدَينِ بَلْ ... هُوَ أَسْهَلُ الْوِرْدَينِ لِلظَّمْآنِ

الشرح: وهنا أيضًا ينادي المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وارد القلوط نداء ترحم وإشفاق؛ لعماه وجهله، وعدم قدرته على التمييز بين كرام المناهل وعذابها، وبين آسنها وخبيثها، فيقول له: إنك لو ترى الحشوي وهو يرد منهل الفرقان، ويشرب من أصل الشريعة الصافي، وينبوعها الطيب من كف رسول اللَّه ﷺ، ثُمَّ يوزع فضلة كأسه على الناس، مختومة بمسك وريحان، إذن لعذرته إن احتقر وردك الآجن، وبال فيه، ولَم يكن من جملة وُرَّادِهِ الذين استعذبوه، بسبب عماهم عما فيه من أخباث وأقذار.

ثُمَّ دعاه أن يطرح الكسل، وألَّا يرضى لنفسه بالدون، وأن يقصد إلى رأس الماء، فإنه قريب دان، والطريق إليه سهل ميسور، وهو واسع، ولا يضيق بوُرَّادِهِ مهما كثروا، فلو نزل به الثقلان جميعًا لكفاهم، وهو إذا قيس بالورد الآخر؛ أيسر منه منالًا للوارد الظمآن.

ولعلك أيها القارئ قد فهمت ما قصد إليه المؤلف من المقابلة بين هذين الوردين، وما أراده بكل منهما، فهو يكني بأكرمهما عن المصادر الأولى للشريعة، من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة الَّتِي سلمت من الزيغ والانحراف، ويكني بأخبثها -المعبر عنه بالقلوط، عن تلك الآراء والأقوال المبتدعة الَّتِي يزعمها أصحابُها عقليات، وما هي إلا أوساخ العقول، وقاذورات الأفهام، وهي تفضي بسالكيها إلى الخروج من حظيرة الإسلام.

فصل في بيَان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

يَا قَوْمُ بَاللَّهِ انْظُرُوا وَتَفَكَّرُوا ... فِي هَذِهِ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
مِثْلَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لِلَّذِي ... قَدْ قَالَهُ ذُو الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ
فَأَقَلُّ شَيءٍ أَنْ يَكُونَا عِنْدَكُمْ ... حَدًّا سَوَاءً يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
وَاللهِ مَا اسْتَوَيَا لَدَى زُعَمَائِكُمْ ... فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِالْعَزْلِ عَنْ ... نَيلِ الْيقِينِ وَرُتْبَةِ الْبُرْهَانِ
قَالُوا وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيةٌ ... لَسْنَا نُحَكِّمُهَا عَلَى الإِيقَانِ
مَا أُنْزِلَتْ لِينَالَ مِنْهَا الْعِلْمُ بِالْـ ... إِثْبَاتِ لِلأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

بَلْ بِالْعُقُولِ يُنَالُ ذَاكَ وَهَذِهِ   عَنْهُ بِمَعْزِلِ غَيرِ ذِي السُّلْطَانِ

الشرح: من أعظم الشناعات الَّتِي وقع فيها المتكلمون من الأشعرية وغيرهم قولهم: إن دلالة كل لفظ على معناه دلالة ظنية؛ لتطرق الاحتمال إليها، بسبب ما يعتري الألفاظ من إجمال وإبْهام وحذف واشتراك وحقيقة ومجاز... إلخ.

وطردوا قاعدتَهم اللئيمة على نصوص الوحيين، فحكموا بعزلها عن إفادة اليقين، والشيخ هنا يستحلفهم باللَّه أن ينظروا فيها ويتدبروها، كما يفعلون ذلك بالنسبة إلى ما ينقل إليهم من آراء أهل الفكر والنظر، فإن هذا أقل ما ينبغي أن يكون عليه المسلم، أن يسوي بين نصوص الوحي وكلام الناس فِي درجة التفكر والاعتبار، أما أن يؤثر كلام الناس بالنظر؛ فذلك هو العدوان والخسار، ولكن أنَّى لهؤلاء المتأخرين بتلك التسوية، وقد ضل عنها شيوخهم الذين سنوا لهم سبيل الجور والاعتساف، وجنفوا بِهم عن طريق الحق والإنصاف، والذين صرحوا بعزل نصوص الوحيين عن إفادة اليقين وقصورها عن رتبة البرهان.

وقالوا: إنَّها أدلة لفظية، لا يجوز التعويل عليها فِي مسائل الاعتقاد الَّتِي لا يكفي فيها الظن، بل لا بد فيها من العلم اليقيني الذي لا يتطرق إليه الاحتمال، وهذا عندهم لا يستفاد إلا من البراهين العقلية الَّتِي تفيد القطع والجزم، وأما هذه النصوص الَّتِي هي أصل الدين؛ فبمعزل عندهم عن إفادة اليقين، وليس لَها فِي عقائد الإيمان حكم ولا سلطان، فبئس ما قاله أولياء الشيطان من الإفك والزور والبهتان.

* * *

فَبِجَهْدِنَا تَأْوِيلُهَا وَالدَّفْعُ فِي   أَكْنَافِهَا دَفْعًا لِذِي الصَّوَلَانِ

كَكَبِيرِ قَوْمٍ جَاءَ يشْهَدُ عِنْدَ ذِي   حَكَمٍ يرِيدُ دِفَاعَهُ بِلِيَانِ

فَيقُولُ قَدْرُكَ فَوْقَ ذَا وَشَهَادَةٌ   لِسِوَاكَ تَصْلُحُ فَاذْهَبَنْ بِأَمَانِ

وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ شَيءٌ غَيرُ ذَا   لَكِنْ مَخَافَةَ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

فَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ كَبِيرٍ فِيهِمُ   وَهْوَ الْحَقِيرُ مَقَالَةُ الْكُفْرَانِ

لَوْ كَانَ يمْكِنُنِي وَلَيسَ بِمُمْكِنٍ   لَحَكَكْتُ مِنْ ذَا الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِي

ذِكْرَ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَـ   كِنْ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الإنْسَانِ

وَاللهِ لَوْلَا هَيبَةُ الإسْلَامِ وَالْـ ... قُرْآنِ وَالأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ
لأَتَوْا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَلَدَكْدَكُوا الْـ ... إِسْلَامَ فَوْقَ قَوَاعِدِ الأَرْكَانِ

الشرح: وقالوا: إذا كانت نصوص الوحيين من الكتاب والسنة لا تفيد اليقين المطلوب فِي باب الاعتقاد، وكانت البراهين العقلية وحدها هي الَّتِي يعول عليها فِي هذا الباب؛ فلنجد إذن فِي تأويل هذه النصوص بصرفها عما توهمه ظواهرها من معان مستحيلة عند العقل، ولندفع فِي جوانبها بِما يكسر قوتَها ويضعف صولتها، بأن نوقع فِي روع الناس أن هذه النصوص فوق ما تناله مداركنا وتتصوره أفهامنا، وذلك كرجل ذي قدر وشرف جاء يشهد فِي قضية من القضايا، والقاضي يريد دفع شهادته بأسلوب لا يكون فيه حرج لكرامته، فيوهمه أن قدره أعلى من أن يقف فِي موقف الشاهد فِي مثل هذه القضية، وأن شهادة من غيره تكفي، وليس غرضه من ذلك إلا دفع الحكم بموجب تلك الشهادة، ولكنه لا يستطيع التصريح بذلك مخافة بطش السلطان به.

فكذلك حال هؤلاء المعطلة مع نصوص الوحيين المصرحة بإثبات الصفات، يريدون دفع ما دلت عليه من ذلك؛ فلا يستطيعونه عن طريق التكذيب والإنكار، فيلجئون إلى المراوغة بدعوى قصور الأفهام عنهما، وكان بودهم لو لَم تكن هذه النصوص أصلًا، حتى روي عن كبير من هؤلاء -وهو عند اللَّه والمؤمنين من أحقر الحقراء- أنه قال مقالة الكافر العنيد والشانئ الحقود: وددت لو حككت من المصحف كل ما فيه ذكر استواء الرب على عرشه.

لكن أنى له بذلك، وقد حفظ اللَّه كتابه من كيد حقود مثله، فليمت غيظًا، وستبقى هذه الآيات الكريمة سيفًا مصلتًا فوق رأسه، تنادي بفساد قوله، وبطلان رأيه، ولولا هيبة الإسلام ورجالاته فِي قلوب هؤلاء الجبناء، لنقضوا حبل الإسلام عروة عروة، وأتوا على بنائه من القواعد، ولكنهم لا يجرؤون على العمل ظاهرين.

* * *

فَلَقَدْ رَأَيتُمْ مَا جَرَى لأَئِمَّةِ الْـ ... إِسْلَامِ مِنْ مِحَنٍ عَلَى الأَزْمَانِ
لَا سِيمَا لَمَّا اسْتَمَالُوا جَاهِلًا ... ذَا قُدْرَةٍ فِي النَّاسِ مَعْ سُلْطَانِ
وَسَعَوْا إِلَيهِ بِكُلِّ إِفْكٍ بَيِّنٍ ... بَلْ قَاسَمُوهُ بِأَغْلَظِ الأَيمَانِ
أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ كَنَصِيحَةِ الشْـ ... شَيطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الأَبَوَانِ

فَيَرَى عَمَائِمَ ذَاتَ أَذْنَابٍ عَلَى ... تِلْكَ الْقُشُورِ طَوِيلَةِ الأَرْدَانِ
وَيَرَى هَيُولَى لَا تَهُولُ لِمُبْصِرٍ ... وَتَهُولُ أَعْمَى فِي ثِيَابِ جَبَانِ
فَإِذَا أَصَاخَ بِسَمْعِهِ مَلَئُوهُ مِنْ ... كَذِبٍ وَتَلْبِيسٍ وَمِنْ بُهْتَانِ
فَيَرَى وَيَسْمَعُ فَشْرَهُمْ وَفُشَارَهُمْ ... يَا مِحْنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالأُذُنَانِ
فَتَحُوا جِرَابَ الْجَهْلِ مَعْ كَذِبٍ فَخُذْ ... وَاحْمِلْ بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ

الشرح: يستدل على كيد هؤلاء للإسلام وأهله بما جرى على أيديهم من محن وأرزاء لأئمة الإسلام في جميع الأزمان، كأحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنهما لا سيما حين يستميلون إليهم الجهلة من الأمراء، ويسعون إليهم بالإفك والافتراء، مؤكدين إفكهم بالأيمان الفاجرة أنَّهم ما قصدوا إلا محض النصيحة، كما أقسم إبليس لآدم وحواء حين خلا بهما في الجنة: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. فلا يسع ذلك الجاهل إلا أن يغتر ببهتانهم، ويؤخذ بزخرف أقوالهم، لا سيما حين يرى عليهم عمائم كالأبراج، قد أرخوا أذنابها على أقفائهم، ويرى أجسامًا ضخمة كتلك الَّتي حكاها اللَّه عن المنافقين في قوله -جل شأنه-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

ولكن تلك الهيئة الضخمة لا تروع الحصيف العارف بحقيقة هؤلاء، وما هم عليه من جهل وضلال، وإنَّما تروع كل أعمى جبان، لا يبصر ما تحتها من ضعف وهوان، فإذا ألقى إليهم سمعه، ورأوا أنَّهم قد ملكوه، أخذوا يملئون قلبه حقدًا وعداوة على أهل الحق والإيمان، وحشوه بالكذب والتلبيس والبهتان، فيرى من زيِّهم ويسمع من فشرهم ما فيه بلاء لعينيه وأذنيه، ويبدون له من الجهل والكذب ما لا يقدر بكيل ولا ميزان.

* * *

وَأَتَوْا إِلَى قَلْبِ الْمُطَاعِ فَفَتَّشُوا ... عَمَّا هُنَاكَ لِيَدْخُلُوا بِأَمَانِ
فَإِذَا بَدَا غَرَضٌ لَهُمْ دَخَلُوا بِهِ ... مِنْهُ إِلَيْهِ كَحِيلَةِ الشَّيْطَانِ
فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ ... ظَفِرُوا وَقَالُوا وَيْحَ آلِ فُلَانِ
هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَوْلَانَا عَنِ الْـ ... ـمَقْصُودِ وَهْوَ عَدُوُّ هَذَا الشَّانِ
فَإِذَا هُمُ غَرَسُوا الْعَدَاوَةَ وَاظَبُوا ... سَقْيَ الْغِرَاسِ كَفِعْلِ ذِي الْبُسْتَانِ

حَتَّى إذَا مَا أَثْمَرَتْ وَدَنَا لَهُمْ ... وَقْتُ الْجُذَاذِ وَصَارَ ذَا إمْكَانِ
رَكِبُوا عَلَى حَرَدٍ لَهُمْ وَحَمِيةٍ ... وَاسْتَنْجَدُوا بِعَسَاكِرِ الشَّيطَانِ
فَهُنَالِكَ ابْتُلِيتْ جُنُودُ اللهِ مِنْ ... جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ
ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَتَبْـ ... ـدِيعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ

الشرح: وتراهم لكي يضمنوا انحياز هؤلاء الأمراء والحكماء إليهم فِي الخصومة بينهم وبين أهل الحق، يحكمون الحيلة، ويتلطفون فِي الدخول إلى قلوبهم بالتفتيش عما فيها من أمانٍ وأغراض، فإذا ظهر لهم منها شيء جعلوه وسيلتهم فِي احتلال قلوب هؤلاء وامتلاكها، بِما يظهرون من الرضا والاستحسان لذلك، فإذا رأوه انبسط إليهم، وأعجبه حديثهم، أخذوا فِي إغرائه بخصومهم، واستعدائه عليهم بأن يوهموه أنَّهم ضد رغبته، وعلى خلاف مراده، حَتَّى إذا نجحوا فِي غرس العداوة لهم فِي قلبه؛ تعهدوا ذلك الغرس بالسقي، كما يفعل البستاني بالشجر حَتَّى تستحكم وتخرج إلى حد البطش والانتقام، وحينئذ يستعلن هؤلاء الجبناء بخصومة أهل الحق، ويركبون أفراس البغي، ويجعلون فِي قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، ويستنجدون بعساكر الشيطان، فهنالك تبتلى جنود الرحمن من جند اللعين بشتى أنواع البغي والعدوان، فمن ضرب مبرح إلى لقاء فِي غياهب السجون إلى رمي بالتكفير والتبديع إلى إقذاع فِي الشتم والهجاء، بظاهر الإفك والافتراء.

* * *

فَلَقَدْ رَأَينَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمُ ... أَمْرًا تُهَدُّ لَهُ قُوَى الإيمَانِ
مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَدِينُهُمْ ... أَخْذُ الْحَدِيثِ وَتَرْكُ قَوْلِ فُلَانِ
يَا أُمَّةً غَضِبَ الإلَهُ عَلَيهِمُ ... أَلأَجْلِ هَذَا تَشْتُمُوا بِهَوَانِ
تَبًّا لَكُمْ إذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الْـ ... إسْلَامِ حِزْبَ اللهِ وَالْقُرْآنِ
وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفْأَهُمْ ... فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقْصَانِ
هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيةَ رَبِّهِمْ ... فِي تَرْكِهِمْ لِمَسَبَّةِ الأَوْثَانِ
حَذَرَ الْمُقَابَلَةِ الْقَبِيحَةِ مِنْهُمُ ... بِمَسَبَّةِ الْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَإنَّهُمْ ... ضُرِبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بِذَا مَثَلَانِ
سَبُّوكُمُ جُهَّالُهُمْ فَسَبَبْتُمُ ... سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسْكَرَ الإيمَانِ

وَصَدَدْتُمُ سُفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

الشرح: لقد حمل التعصب والتقليد للمذاهب الباطلة فريقًا من هؤلاء الجاهلين أن يرتكبوا أمرًا عظيمًا، يتصدع منه بناء الإسلام، وتتضعضع له قوى الإيمان، وهو شتمهم أهل الحديث، ورميهم إياهم بالبلادة والغفلة وقلة الفقه، وما نقموا منهم إلا أنَّهم جعلوا دينهم ومذهبهم التمسك بالحديث، والعض عليه بالنواجذ، وترك ما يخالفه من أقوال الناس، فهل يصلح هذا أن يكون سببًا لشتمهم وإهانتهم بألسنة هؤلاء المارقين الملعونين؟! فويل لهم إذ يشتمون حملة العلم والدين، ويسبون جند اللَّه والقرآن، وكان بوسع أهل السنة والحديث أن يردوا عليهم، ويقابلوهم بمثل سفاهتهم، لولا أن هؤلاء الأوغاد ليسوا كفؤًا لهم، فرأوا مسبتهم مِمَّا ينقص من قدرهم، وكذلك امتثلوا فيهم قول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فقد نَهى اللَّه المؤمنين عن سب الأصنام؛ حذرًا أن يحمل ذلك المشركين على الحمية لأصنامهم، فيقابلوا هذا السب بسب اللَّه -جل وعلا- عدوانًا وجهلًا، فكذلك أهل السنة كفُّوا عن سب هؤلاء الجهلاء حَتَّى لا تأخذهم العزة بالإثم، فيسبوا السنة وأهلها، كما فعلوا ذلك حين تعرض لهم بعض الجهلة من أهل السنة، ويقال لهم أيضًا: أنتم صددتم سفهاءكم عن اتباع أهل السنة، والأخذ بأقوال الرسول ﷺ، وذلك منتهى الطغيان والعدوان.

* * *

وَدَعَوْتُمُوهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشْـ ـيَاخٌ لَكُمْ بِالْخَرْصِ وَالْحُسْبَانِ

فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا إِلَّا إِلَى الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَإِلَى أُولِي الْعِرْفَانِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيـ ـثِ خُلَاصَةِ الإِنْسَانِ وَالأَكْوَانِ

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الإِلَهُ لِحِفْظِ هَـ ـذَا الدِّينِ مِنْ ذِي بِدْعَةٍ شَيْطَانِ

وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّـ ـحْرِيفِ وَالتَّتْمِيمِ وَالنُّقْصَانِ

يَزَكٌ عَلَى الإِسْلَامِ بَلْ حِصْنٌ لَهُ يَأْوِي إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الْفُرْقَانِ

فَهُمُ الْمَحَكُّ فَمَنْ يُرَى مُتَنَقِّصًا لَهُمُ فَزِنْدِيقٌ خَبِيثُ جَنَانِ

إِنْ تَتَّهِمْهُ فَقَبْلَكَ السَّلَفُ الأُلَى كَانُوا عَلَى الإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

أَيْضًا قَدِ اتَّهَمُوا الْخَبِيثَ عَلَى الْهُدَى وَالْعِلْمِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَهْوَ الْحَقِيقُ بِذَاكَ إِذْ عَادَى رُوَا ةَ الدِّينِ وَهْيَ عَدَاوَةُ الدَّيَّانِ

الشرح: لا يعتد هؤلاء المقلدون بشيء من دينهم إلا ما أخذوه عن أشياخهم من أقوال لَم تبن على عقل صريح، ولا على نقل صحيح، وإنَّما بنيت على ظن وتخمين، فتراهم يتعصبون لَها ويدعون إليها كل أحد، ولكن أهل الحق لا يجيبونَهم إلى الأخذ بِهذه الأباطيل، ولا يتحيزون إلا إلى الآثار الصحيحة والكتاب الكريم، فهما المصدران لكل معرفة حقة، وكذلك يرجعون إلى ما يؤثر عن أئمة الحديث وجهابذة السنة الذين هم خلاصة أهل الأرض، دينًا وعلمًا وإيمانًا، والذين قد اختارهم اللَّه لحفظ دينه، ونصبهم حراسًا عليه من أهل الأهواء والبدع حَتَّى لا يفسدوه بتبديل، أو تحريف، أو زيادة فيه، أو حذف منه.

فهم الشهب الَّتِي يرمي بِها اللَّه شياطين الإنس؛ حماية لدينه منهم، كما يرمي بالشهب السماوية من يحاول استراق السمع من شياطين الجن، وهم حصون الإسلام وكهفه الذي يأوي إليه كل من سلك سبيلهم فِي نصر السنة والكتاب، وهم الميزان الذي يعرف به صحيح الأقوال من سقيمها، فما أنكروه هو المنكر، وما أقروه فهو الحق، فمن عمد إلى تنقصهم والتهوين من شأنِهم؛ فهو خبيث القلب، مغموص فِي دينه، ولا حرج على من يتهمه بذلك، فقد اتَّهم قبله السلف الصالح ﷺ الخبيث المارق المدعو بالجهم بن صفوان، ولَم يأمنوه على العلم والهدى والآثار والقرآن، وقد كان جديرًا بِهذا الاتِّهام؛ حيث عادى رواة الدين وحملة السنة، وعداوتُهم هي عداوة اللَّه الواحد الديان.

* * *

فَإِذَا ذَكَرْتَ النَّاصِحِينَ لِرَبِّهِمْ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِلِسَانِ

فَاغْسِلْهُ وَيلَكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيلِ وَالتْـ تَكْذِيبِ وَالْكُفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ

أَتَسُبُّهُمْ عَدْوًا وَلَسْتَ بِكُفْئِهِمْ فَاللهُ يَفْدِي حِزْبَهُ بِالْجَانِي

قَوْمٌ هُمُ بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلإِيمَانِ

شَتَّانَ بَيْنَ التَّارِكِينَ نُصُوصَهُ حَقًّا لأَجْلِ زِبَالَةِ الأَذْهَانِ

وَالتَّارِكِينَ لأَجْلِهَا آرَاءَ مَنْ آرَاؤُهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

لَمَّا فَسَا الشَّيْطَانُ فِي آذَانِهِمْ ثَقُلَتْ رُءُوسُهُمُ عَنِ الْقُرْآنِ

فَلِذَاكَ نَامُوا عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحُوا يَتَلاَعَبُونَ تَلاَعُبَ الصِّبْيَانِ

وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلُوا الْعُلَا وَتَيمَّمُوا ... مِنْ أَرْضِ طَيبَةَ مَطْلَعِ الإِيمَانِ
وَأَتَوْا إِلَى رَوْضَاتِهَا وَتَيمَّمُوا ... مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ مَطْلَعِ الْقُرْآنِ
قَوْمٌ إِذَا مَا نَاجِذُ النَّصِّ بَدَا ... طَارُوا لَهُ بِالْجَمْعِ وَالْوُحْدَانِ
وَإِذَا بَدَا عَلَمُ الْهُدَى اسْتَبَقُوا لَهُ ... كَتَسَابُقِ الْفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ
وَإِذَا هُمُ سَمِعُوا بِمُبْتَدِعٍ هَذَى ... صَاحُوا بِهِ طُرًّا بِكُلِّ مَكَانِ

الشرح: يقول لهذا الجهمي الخبيث: إن لسانك القذر الذي لا ينطق إلا بكل إفك وزور، ليس أهلًا لأن يلوك أسماء هؤلاء الأبرار الذين أخلصوا النصيحة للَّه ولكتابه ولرسوله، فإذا أردت ذكرهم؛ فاغسل لسانك أولًا مِمَّا ولغ فيه من دم التعطيل والإنكار، والتكذيب للسنن والآثار، والكفران والجحود والبهتان.

ثُمَّ ينكر عليه أشد الإنكار أن يسبهم وهو ليس معهم فِي إطار، ولا يقدر على الجري معهم فِي مضمار، ويدعو عليه أن يجعله اللَّه فداءهم لأنَّهم حزبه وجنده الأطهار، الذين لَم يعولوا فِي دينهم إلا على ما قاله اللَّه ورسوله المختار، فهم أولى وأقرب إلى الإيمان من ذلك المعطل المختار.

والفرق هائل جدًّا بين من يترك النصوص الصريحة متعلقًا بزبالات الأذهان والأفكار، وبين من يتمسك بالنصوص، ويعض عليها، ضاربًا بكل ما عداها -مِمَّا يَهذي به المخرفون- عرض الجدار، وكيف يستوي من هو بليد غافل قد بال الشيطان فِي أذنه، فأثقل رأسه، وأطال نومه حَتَّى أصبح، وقد استحوذ عليه يقوده من خطامه، ويلعب به لعب الصبيان بالكرة، كيف يلحق هذا المتخلف المفتون بركب اللَّه على الطائر الميمون، وهم قد حلقوا فِي سماء الرفعة، قاصدين مطلع الإيمان من أرض طيبة؛ ليستمتعوا برياضها الأنف، وأزهارها الناضرة، وقاصدين كذلك مهابط القرآن من أرض مكة، فهم قوم لا همَّ لهم إلا أن يتلمسوا الهدى من مصادره، فإذا أبدى لهم النص ناجذيه، وثبتت لديهم صحته؛ طاروا إليه زرافات ووحدانًا، غير متعثرين ولا متخلفين، وإذا بدا لهم علم الهدى؛ استبقوا نحوه كتسابق المتراهنين، وإذا سمعوا عن ضال ذي بدعة يَهذي بِها، وينشرها فِي الناس، صاحوا به صيحات الغضب والاستنكار، ورموا من كل جانب بشهب الآيات والآثار حَتَّى يكشفوا عن بدعته، ويجللوه الخزي والعار.

* * *

وَرِثُوا رَسُولَ اللهِ لَكِنْ غَيرُهُمْ ... قَدْ رَاحَ بِالنُّقْصَانِ وَالْحِرْمَانِ
وَإِذَا اسْتَهَانَ سَوَاهُمُ بِالنَّصِّ لَمْ ... يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا مِنَ الْخُسْرَانِ
عَضُّوا عَلَيهِ بِالنَّوَاجِذِ رَغْبَةً ... فِيهِ وَلَيسَ لَدَيهِمُ بِمُهَانِ
لَيسُوا كَمْن نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً ... وَتِلَاوَةً قَصْدًا بِتَرْكِ فُلَانِ
عَزَلُوهُ فِي الْمَعْنَى وَوَلَّوْا غَيرَهُ ... كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ
ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ وَبِسِكَّةٍ ... رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الأَثْمَانِ
وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُطَاعُ لِغَيرِهِ ... وَلِمُهْتَدٍ ضُرِبَتْ بِذَا مَثَلَانِ
يَا لَلْعُقُولِ أَيَسْتَوِي مَنْ قَالَ بِالْـ ... قُرْآنِ وَالآثَارِ وَالْبُرْهَانِ
وَمُخَالِفٌ هَذَا وَفِطْرَةَ رَبِّهِ ... اللهُ أَكْبَرُ كَيفَ يَسْتَوِيَانِ

الشرح: وهم الذين ورثوا علم النبوة، وحملوا أمانته، على حين باء أعداؤهم بالنقصان والحرمان لما أعرضوا عنه ورفضوه، وإذا حمل الغرور العقلي أعداءهم أن يستهينوا بالنص، ويتكبروا عن قبوله؛ بسبب ما هم فيه من خسار وضلال؛ تراهم هم جد حريصين على التمسك به، واحترامه، فهم ليسوا كمن نبذ الكتاب وراء ظهره فلم يحسن تدبره، ولَم يحكم تلاوته، مقلدًا فِي ذلك من سبقه من شيوخه، فإن هؤلاء لَم يؤمنوا إلا بألفاظ الكتاب، يرددونَها بلا فهم ولا تدبر، ولا يأخذون دينهم منها، بل هي عندهم معزولة عن إفادة العلم، ولا يرجعون فِي ذلك إلا إلى حاكم العقل، يستفتونه فِي كل ما يجب إثباته ونفيه، فصار الكتاب عندهم لا حكم له إلا فِي الاسم فقط، وأما فِي الحقيقة؛ فالحكم لغيره فهو كأبي الربيع خليفة السلطان، يُهتف باسمه على المنابر، ويرقم اسمه على وجه النقود، ومع ذلك فليس له فِي الأمور حل ولا عقد، بل الأمر والنهي فِي يد غيره.

فيا عجبًا لعقول هؤلاء! كيف ضلت حَتَّى استوى عندها من دان بالكتاب والسنة وبرهان العقل والفطرة، ومن خالف ذلك جملة؟! اللَّه أكبر، كيف استوى عندهم الأعمى والبصير؟! أم كيف استوت الظلمات والنور؟! إن هذا لهو الضلال الكبير.

* * *

بَلْ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَى ... مَضْمُونِهَا وَالْعَقْلُ مَقْبُولَانِ
وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهُمَا فَلَا ... تُلْقِ الْعَدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ

سِلْمَانِ عِنْدَ مُوفَّقٍ وَمُصَدِّقٍ وَاللهُ يشْهَدُ أَنْ هُمَا سِلْمَانِ
فَإِذَا تَعَارَضَ نَصُّ لَفْظٍ وَارِدٍ وَالْعَقْلُ حَتَّى لَيسَ يلْتَقِيَانِ
فَالْعَقْلُ إِمَّا فَاسِدٌ وَيظُنُّهُ الرْ رَائِي صَحِيحًا وَهْوَ ذُو بُطْلَانِ
أَوْ أَنَّ ذَاكَ النَّصَّ لَيسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ الْمَعْصُومُ بِالْبُرْهَانِ
وَنُصُوصُهُ لَيستْ تُعَارِضُ بَعْضَهَا بَعْضًا فَسَلْ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانِ
وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا مِنْ آفَةِ الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ
أَوْ أَنْ يكُونَ الْبَعْضُ لَيسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

الشرح: يرى أهل السنة قبول كل من حكم الفطرة وحكم العقل، فإن اللَّه لا يُمكن أن يفطر عباده على خلاف الحق، كما لا يُمكن إذا استقام تفكير العقل، ولَم يَشُبه شيء من الهوى والتقليد أن يزيغ عن الهدى أو يحيد.

ويرى أهل السنة كذلك أن الوحي لا يُمكن أن يجيء بِما يناقض الفطرة أو يخالف العقل، بل لا بد أن يكون مصدقًا لهما، فإن رب الفطرة والعقل هو منَزل الشرع، فهو مصدر ذلك كله، فلا يعقل أن يناقض نفسه، فمن الخطأ توهم عداوة بين هذين الأصلين، ووجود حرب بينهما، بل هما سلمان عند من يحسن التوفيق بينهما، ويرزق التصديق والقبول للنصوص والآثار، واللَّه يشهد كذلك أنَّهما سلمان لا يعاند أحدهما الآخر، فإذا بدا تعارض بين النص والعقل؛ فلابد أن يكون سببه أحد أمرين:

إما فساد فِي العقل؛ بسبب ما خالطه من هوى أو وهم، فيظنه الناظر فيه صحيحًا، وهو فِي حقيقته باطل.

وإما كذب فِي النقل، فيكون غير ثابت الورود عن رسول اللَّهﷺ.

وكذلك إذا نسبت النصوص بعضها إلى بعض؛ فلا يُمكن أن يقع بينها تعارض، فسل عنها عليمًا بتأويلها، وأوجه التوفيق بينها؛ ليزيل ما يتوهم بينها من تعارض، وإذا ظننت بينها تعارضًا؛ فلا سبب لذلك إلا واحد من أمرين:

إما قصور فِي الفهم، وحصول آفة له تمنعه من الجمع بينهما.

وإما أن يكون أحدهما ليس بثابت النقل عن الرسولﷺ.

* * *

لَكِنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَالْجَهْمِ فِي ... قَلْبِ الْمُوَحِّدِ لَيسَ يَجْتَمِعَانِ
إِلَّا وَيَطْرُدُ كُلُّ قَوْلٍ ضِدَّهُ ... فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا فَمُقْتَتِلَانِ
وَالنَّاسُ بَعْدُ عَلَى ثَلَاثٍ حِزْبِهِ ... أَوْ حَرْبِهِ أَوْ فَارِغٍ مُتَوَانِ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَينَ تَجْعَلُهَا فَلَا ... وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعِ الأَعْيَانِ
مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهْوَ مُكَذِّبٌ ... بِجَمِيعِ رُسْلِ اللهِ وَالْفُرْقَانِ
إِنَّ الْمُعَطِّلَ لَا إِلَهَ لَهُ سِوَى الْـ ... ـمَنْحُوتِ بِالأَفْكَارِ فِي الأَذْهَانِ
وَكَذَا إِلَهُ الْمُشْرِكِينَ نَحِيتَةُ الْـ ... أَيدِي هُمَا فِي نَحْتِهِمْ سِيَّانِ
لَكِنْ إِلَهُ الْمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي ... فَوْقَ السَّمَاءِ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ
تَاللهِ قَدْ نَسَبَ الْمُعَطِّلُ كُلَّ مَنْ ... بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الْكِتْمَانِ
وَاللهِ مَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُعَطِّلٌ ... نَافِي صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
كَلَّا وَلَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُشَبِّهٌ ... حَاشَاهُمُ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
فَخُذِ الْهُدَى مِنْ عَبْدِهِ وَكِتَابِهِ ... فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الْهُدَى سَبَبَانِ

الشرح : وإذا ثبت أن هذه الثلاثة : من الفطرة، والعقل، ونصوص الشرع ؛ متساندة متعاضدة، يؤيد بعضها بعضًا، وهي متضافرة على إثبات الصفات، فإن العداوة والمنافاة قائمة على أشدها بين قول الرسول ﷺ، وبين قول الجهم إمام التعطيل، فليس يجتمعان فِي قلب موحد حَتَّى يجتمع فيه الماء والنار، فهما ضدان متعاندان، لا يُمكن أن يجتمعا فِي محل واحد، فإذا هما اجتمعا ؛ فلابد من وقوع حرب بينهما.

والناس حينئذ على أقسام ثلاثة :

فمنهم : من هو حزب الحق وجنده، فهو يقاتل تحت رايته، ويذب عنه أعداءه.

ومنهم : من هو حرب عليه، يقاتل فِي صفوف خصومه.

ومنهم : من هو فارغ اللب من هذه الحرب، لا يكترث لَها، ولا ينتصر لأي الفريقين المتحاربين ؛ لتوانيه عن تحصيل ما ينجيه.

فيجب على العاقل أن يختار لنفسه بين هذه الفرق الثلاث، فإن قال بقول الجهم فِي التعطيل ؛ فقد كذب بِما جاءت به جَميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فإن أقوالهم كلها متفقة على الإثبات، وقد رضي لنفسه أن يعبد صنمًا قد نحته بفكره وذهنه، ونسجه بخياله،

كما يعبد المشركون أصنامًا نحتوها بأيديهم من الحجارة.

وأما إله الرسل الذين جاءوا للتبليغ عنه، والدعوة إلى توحيده، فهو الذي فوق السماء، مستويًا على عرشه، وهو الموجد لجميع الكائنات.

تالله لقد نسب المعطل كل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلى جحود الحق وكتمانه، إذا كان الحق هو ما ذهب إليه من التعطيل- فإن كلامهم كله صريح في الإثبات، وليس فيهم أبدًا من هو معطل جاحد لصفات الواحد الرحمن، كما أنه ليس فيهم مشبه يمثل الله بخلقه، فحاشاهم من كل ما يفتريه عليهم أهل الإفك والبهتان، فعلى طالب الهدى ألَّا يأخذه إلا من مصدريه الحقيقيين، وهما عبد الله ورسوله، وما أنزل من كتابه، فهما وحدهما السبيل إليه، فمن تركهما؛ ضل وجانبه الصواب.

فصل في بطلان قول الملحدين ان الاستدلال بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين

وَاحْذَرْ مَقَالاتِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا ... شِيعًا وَكَانُوا شِيعَةَ الشَّيطَانِ

وَاسْأَلْ خَبِيرًا عَنْهُمُ يُنْبِيكَ عَنْ ... أَسْرَارِهِمْ بِنَصِيحَةٍ وَبَيَانِ

قَالُوا الْهُدَى لَا يُسْتَفَادُ بِسُنَّةٍ ... كَلَّا وَلَا أَثَرٍ وَلَا قُرْآنِ

إِذْ كُلُّ ذَاكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَمْ تُبْدِ عَنْ عِلْمٍ وَلَا إِيقَانِ

فِيهَا اشْتِرَاكٌ ثُمَّ إِجْمَالٌ يُرَى ... وَتَجُوزُ بِالتَّزْيِيدِ وَالنُّقْصَانِ

وَكَذَلِكَ الإِضْمَارُ وَالتَّحْقِيقُ وَالْـ ... حَذْفُ الَّذِي لَمْ يُبْدِ عَنْ تِبْيَانِ

وَالنَّقْلُ آحَادٌ فَمَوْقُوفٌ عَلَى ... صِدْقِ الرُّوَاةِ وَلَيسَ ذَا بُرْهَانِ

إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يقْدَحُ دَائِمًا ... وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

وَتَواتُرٌ وَهْوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ ... جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ

هَذَا وَيحْتَاجُ السَّلَامَةَ بَعْدُ مِنْ ... ذَاكَ الْمُعَارِضِ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

وَهْوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يفْرِضُ صِدْقَهُ ... وَالنَّفْي مَظْنُونٌ لَدَى الإِنْسَانِ

فَلِأَجْلِ هَذَا قَدْ عَزَلْنَاهَا وَوَلْـ ... لَينَا الْعُقُولَ وَمَنْطِقَ الْيُونَانِ

الشرح: من الضلالات الشنيعة الَّتِي وقع فيها أرباب الكلام المذموم، وكانت محل

اتفاق بينهم، رغم ما هم عليه من عداوة وخلاف: زعمهم أن الأدلة اللفظية وحدها لا تفيد العلم واليقين، ولكن تفيد الظن الذي لا قطع معه بأحد المعنيين، وعللوا هذا بأن الألفاظ يعرض لَها مثل الاشتراك الذي هو وضع اللفظ لمعنيين، أو لعدة معان على السواء، فإذا أطلق؛ لا يُدرى أيُّها هو المقصود منه، كلفظ العين مثلًا، فإنه موضوع للباصرة والجارية والشمس... إلخ.

ويعرض لَها كذلك الإجمال الذي يحتاج إلى بيان وتفصيل كما فِي قوله تعالى مثلًا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[المائدة: ٣]. فهذا مجمل، يحتاج إلى بيان الأشياء الَّتِي يتناولها اسم الميتة، وهل يدخل فيها ميتة البحر والجنين الذي خرج من بطن أمه المذكاة ميتًا، أو لا يدخل... إلخ، ويعرض لَها أيضًا المجاز بالزيادة والنقصان، والإضمار الذي لا يعرف معه مرجع الضمير، والحذف الذي لا يُدرى معه تقدير المحذوف إلى غير ذلك من العوارض الَّتِي قد تعرض للألفاظ، فلا يُمكن معها الجزم بِمعنى اللفظ، وهذا عارض من جهة اللفظ.

وأما من جهة السند؛ فالنقل إما أخبار آحاد، فتتوقف على صدق رواتِها، وهو أمر غير مقطوع به ما دام بعضهم يقدح فِي بعض، ويتهمه بالكذب والوضع، أو بسوء الحفظ وعدم الضبط، وإما متواتر، وهو نادر وقليل جدًّا، وهو مع ندرته وقلته يحتاج إلى السلامة من المعارض العقلي.

هذه هي الشبه الَّتِي أدت بِهم إلى تلك الفرية الكبرى: وهي عزل جَميع الألفاظ عن أن تكون نصًا فِي معانيها، تفيد القطع بِها والحكم عليها جميعًا بالاحتمال وإفادة الظن، ولزمهم بذلك عزل القرآن والسنن والآثار السلفية عن إفادة العلم، ولكن ذلك إنَّما يستفاد عندهم بالدلائل العقلية الَّتِي تركب على قواعد المنطق اليوناني، ولهذه الشناعة الَّتِي ارتكبوها، وهي سد باب الهدى والبيان من جهة النصوص الشرعية؛ حذرنا المؤلف من مقالاتِهم، ووصفهم بأنَّهم شيعة الشيطان، أي: حلفاؤه فِي الإضلال والإغواء، وقال: سل بِهم خبيرًا يعني: نفسه فإنه درس هذه المذاهب كلها دراسة تعمق واستيعاب، وكان من علماء المذهب الأشعري قبل أن يتصل بشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهما اللَّه تعالى، وجزاهما عن دينه خير ما يجزي به الناصحين الأمناء.

* * *

فَانْظُرْ إِلَى الإِسْلَامِ كَيفَ بَقَاؤُهُ ... مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلَانِ

وَانْظُرْ إِلَى الْقُرْآنِ مَعْزُولًا لَدَيْـ ... ـهِمْ عَنْ نُفُوذِ وِلَايَةِ الإِيقَانِ

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ كَذَاكَ مَعْـ ... ـزُولًا لَدَيهِمْ لَيسَ ذَا سُلْطَانِ

وَاللهِ مَا عَزَلُوهُ تَعْظِيمًا لَهُ ... أَيَظُنُّ ذَلِكَ قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

يَا لَيتَهُمْ إِذْ يحْكُمُونَ بِعَزْلِهِ ... لَمْ يرْفَعُوا رَايَاتِ جَنْكِيزْخَانِ

يَا وَيلَهُمْ وَلَّوْا نَتَائِجَ فِكْرِهِمْ ... وَقَضَوْا بِهَا قَطْعًا عَلَى الْقُرْآنِ

وَرِذَالُهُمْ وَلَّوْا إِشَارَاتِ ابْنِ سِيـ ... ـنَا حِينَ وَلَّوْا مَنْطِقَ الْيونَانِ

وَانْظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَابِ مُجَنْدَلًا ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللُّحْمَانِ

بِالطَّعْنِ بِالإِجْمَالِ وَالإِضْمَارِ وَالتَّـ ... ـخْصِيصِ وَالتَّأْوِيلِ بِالْبُهْتَانِ

وَالإِشْتِرَاكِ وَبِالْمَجَازِ وَحَذْفِ مَا ... شَاءُوا بِدَعْوَاهُمْ بِلَا بُرْهَانِ

وَانْظُرْ إِلَيهِ لَيسَ يَنْفُذُ حُكْمُهُ ... بَينَ الْخُصُوم وَمَا لَهُ مِنْ شَانِ

وَانْظُرْ إِلَيهِ لَيسَ يقْبَلُ قَوْلَهُ ... فِي الْعِلْم بِالأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

لَكِنَّمَا الْمَقْبُولُ حُكْمُ الْعَقْلِ لَا ... أَحْكَامُهُ لَا يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ

يَبْكِي عَلَيهِ أَهْلُهُ وَجُنُودُهُ ... بِدِمَائِهِمْ وَمَدَامِعِ الأَجْفَانِ

الشرح: فانظر يا أخا الإسلام، كيف هدم هؤلاء بمقالتهم الجائرة بناء الإسلام، وانظر كيف عزلوا القرآن الذي أخبر الله عنه أنه أنزله بيانًا للناس وبلاغًا لهم، وسماه هدى ورحمة وموعظة وشفاء وروحًا ونورًا، وسماه بينة وبرهانًا وبصائر، إلى غير ذلك من الأسماء الواردة في القرآن، كيف عزلوه عن سلطته في إفادة العلم والإيقان، وكيف عزلوا الأحاديث الصحيحة كذلك عن إفادة البرهان، فأي هوان لهما وراء هذا الهوان؟!

ومهما تَصَنَّع هؤلاء التوقير للكتاب والسنة بصيانتهما عن متناول العقول والأفهام؛ فلن يجوز ذلك على أحد من أهل المعرفة، فإنَّهم في الوقت الذي يعزلون فيه النصوص الشرعية، يقيمون شرائع المغول والتتار، فويل لهم حيث حكموا نتائج عقولهم، وقدموا حكمها على القرآن، وجعلوها قاضية عليه، ورُذَّالهم -أي: أخسَّاؤهم- يؤَوِّلون إشارات ابن سينا، ويتخذونَها آيات مقدسة، حين قدموا منطق اليونان، وجعلوا له الولاية والسلطان، في الوقت الذي جعلوا فيه نصوص الكتاب مزقًا، وطعنوا فيها باحتمال

الإجمال والإضمار، والتخصيص والتأويل، والاشتراك والمجاز والحذف، إلى غير ذلك مِمَّا زعموه بلا بينة ولا برهان، ثُمَّ عزلوها عن الحكم فيما شجر من خلاف بين أرباب المذاهب، ولَم يردوا إليها ما تنازعوا فيه، اعتقادًا منهم أنَّها لا تصلح لأن تكون حكمًا فِي موارد الخلاف، ولَم يقبلوا كذلك قولها فِي صفات الرحمن -جل شأنه- لأنَّها تثبت له من الصفات ما تقتضي عقولهم نفيه، فهم يرجعون فِي ذلك إلى حكم العقل وحده إثباتًا ونفيًا، ويرفضون أحكام القرآن حَتَّى تركوه وسط المعركة صريعًا ممزق اللحمان، يبكي عليه أهله وجنوده بدمائهم ومدمع الأجفان.

* * *

عَهِدُوهُ قِدْمًا لَيسَ يحْكُمُ غَيرُهُ ... وَسِوَاهُ مَعْزُولٌ عَنِ السُّلْطَانِ

إنْ غَابَ نَابَتْ عَنْهُ أَقْوَالُ الرَّسُو ... لِ هُمَا لَهُمْ دُونَ الْوَرَى حَكَمَانِ

فَأَتَاهُمُ مَا لَمْ يكُنْ فِي ظَنِّهِمْ ... فِي حُكْمِ جَنْكِزْخَانَ ذِي الطُّغْيَانِ

بِجُنُودِ تَعْطِيلٍ وَكُفْرَانٍ مِنَ الْـ ... مَفْعُولِ ثُمَّ اللَّاصِ وَالْعِلَّانِ

فَعَلُوا بِمِلَّتِهِ وَسُنَّتِهِ كَمَا ... فَعَلُوا بِأُمَّتِهِ مِنَ الْعُدْوَانِ

وَاللهِ مَا انْقَادُوا لِجَنْكِزْخَانِ حَتْـ ... تَى أَعْرَضُوا عَنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَاللهِ مَا وَلَّوْهُ إلَّا بَعْدَ عَزْ ... لِ الْوَحْيِ عَنْ عِلْمٍ وَعَنْ إيقَانِ

عَزَلُوهُ عَنْ سُلْطَانِهِ وَهْوَ الْيقِيـ ... نُ الْمُسْتَفَادُ لَنَا مِنَ السُّلْطَانِ

هَذَا وَلَمْ يكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتْـ ... تَى تَمَّمُوا الْكُفْرَانَ بِالْبُهْتَانِ

جَعَلُوا الْقُرَانَ عِضِينَ إذْ عَضَهُوهُ أَنْـ ... وَاعًا مُعَدَّدَةً مِنَ النُّقْصَانِ

الشرح: يعنِي: أن أهل القرآن وجنوده كان عهدهم به فِي الزمان الأول أنه هو وحده الحكم والفيصل فِي قضايا الدين كلها، أصليها وفرعيها، وسواه من مصادر العلم والمعرفة لا سلطان لَها بجانبه، بل كلها خاضعة لحكمه، فإن غاب ولَم يوجد فيه الحكم المطلوب؛ نابت عنه أقوال الرسول وسنته.

فالكتاب والسنة هما وحدهما الحكمان عند أهل الإيمان، لا يقدمون على حكمهما قول فلان، ولا رأي علان، ولكن الآية انعكست، ووقع ما لَم يكن فِي حسبان أحد، حين وقعت البلاد الإسلامية تحت حكم جنكيز خان ملك التتار الطاغية، حيث أتى مع جيشه المحارب بالسيف والسنان بجنود تعطيل وكفران، ليفعلوا بالملة الإسلامية والطريقة

المحمدية مثل ما فعلت جيوشهم بأمة الإسلام من التنكيل والعدوان.

فهم وإن تظاهروا بالدخول فِي الإسلام، لكنهم لَم ينقادوا لحكم الكتاب والسنة، بل بقوا على شريعة الغاب الَّتِي قدموا بِها من بلادهم، فمن انقاد لهم ودخل فِي طاعتهم على ما هم فيه؛ فقد أعرض عن محكم القرآن، وعزله عما هو مختص به، ونازل لأجله، من إفادة العلم والإيقان، فإن ذلك هو سلطانه ومناط ولايته: أن يفيد اليقين بِما فيه من حجة وبرهان، وبِما اشتمل عليه من تفصيل وبيان.

وليتهم اكتفوا بِهذا الذي فعلوه بعزله عن ولايته فِي إفادة اليقين، بل تمموا هذا الكفر المبين ببهتان عظيم، وهو جعلهم القرآن مزقًا وعضين، فرموه بأنواع من النقص، فعل الجاهلية المارقين، يضاهئون به قول من تقدَّمهم من المشركين كما حكاه اللَّه عنهم فِي كتابه المبين.

* * *

مِنْهَا انْتِفَاءُ خُرُوجِهِ مِنْ رَبِّنَا ... لَمْ يَبْدُ مِنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَنِ

لَكِنَّهُ خَلْقٌ مِنَ اللَّوْحِ ابْتَدَا ... أَوْ جِبْرَئِيلَ أَوِ الرَّسُولِ الثَّانِي

مَا قَالَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... لَيسَ الْكَلَامُ بِوَصْفِ ذِي الْغُفْرَانِ

تَبًّا لَهُمْ سَلَبُوهُ أَكْمَلَ وَصْفِهِ ... عَضَهُوهُ عَضْهَ الرَّيبِ وَالْكُفْرَانِ

هَلْ يَسْتَوِي بِاللهِ نِسْبَتُهُ إِلَى ... بَشَرٍ وَنِسْبَتُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

مِنْ أَينَ لِلْمَخْلُوقِ عَينُ صِفَاتِهِ ... اللهُ أَكْبَرُ لَيسَ يَسْتَوِيَانِ

بَيْنَ الصِّفَاتِ وَبَيْنَ مَخْلُوقٍ كَمَا ... بَينَ الإِلَهِ وَهَذِهِ الأَكْوَانِ

هَذَا وَقَدْ عَضَهُوهُ أَنَّ نُصُوصَهُ ... مَعْزُولَةٌ عَنْ إِمْرَةِ الإِيقَانِ

لَكِنَّ غَايَتَهَا الظُّنُونُ وَلَيتَهُ ... ظَنًّا يَكُونُ مُطَابِقًا بِبَيَانِ

لَكِنْ ظَوَاهِرُ مَا يطَابِقُ ظَنُّهَا ... مَا فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا بِوِزَانِ

إِلَّا إِذَا مَا أُوِّلَتْ فَمَجَازُهَا ... بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوِ النُّقْصَانِ

أَوْ بِالْكِنَايَةِ وَاسْتِعَارَاتٍ وَتَشْـ ... ـبِيهٍ وَأَنْوَاعِ الْمَجَازِ الثَّانِي

فَالْقَطْعُ لَيسَ يفِيدُهُ وَالظَّنُّ مَنْـ ... ـفِيٌّ كَذَلِكَ فَانْتَفَى الأَمْرَانِ

فَلِمَ الْمَلَامَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَا وَوَلْـ ... ـيْنَا الْعُقُولَ وَفِكْرَةَ الأَذْهَانِ

الشرح: فمما عضهوا به القرآن العظيم أنَّهم نفوا خروجه من الرب الكريم، ولَم يقولوا بِما قال السلف: إنه كلام اللَّه، منْزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود. بل قالوا: إنه مخلوق كسائر الأشياء المخلوقة فِي الوجود، وإنه لَم يبتدئ نزوله من عند اللَّه، بل من اللوح المحفوظ الذي هو مكتوب فيه. ومنهم من يقول: إن جبريل هو الذي أنشأ ألفاظه وتكلم بِها. ومنهم من يقول: بل الرسول الثاني، وهو مُحمَّدﷺ، فإن القرآن أوحي إليه بِمعانٍ فقط، وهو الذي عبر عنها بألفاظ من عنده. بل معنَى كونه متكلمًا عندهم: أنه خالق للكلام، وإضافة القرآن إليه إنَّما هي إضافة تشريف لمزيد اختصاص به، كإضافة البيت والناقة، وليست إضافة لموصوف.

فهلاكًا لهؤلاء الملحدين الذين ألحدوا فِي آيات اللَّه، ونفوا تكلمه بِها، فسلبوا ربَّهم أكمل صفاته وهي الكلام والبيان والإفهام، فإن من لا يقدر على الكلام؛ لا يصلح أن يكون إلَهًا معبودًا للأنام، ولهذا أنكر اللَّه على بني إسرائيل عبادتَهم للعجل الذي صاغه لهم السامري بأنه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلًا.

وعجبًا لهؤلاء! كيف تستوي فِي عقولهم النسبتان: نسبته إلى البشر، ونسبته إلى الرحمن؟! مع أن اللَّه توعد رأسًا من رءوس الكفر وهو الوليد بن المغيرة بأنه سيصليه سقر؛ لقوله فِي القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٢٥]. وكيف يضاف كلامه الذي هو صفته إلى مخلوق، فيكون صفة لذلك المخلوق، وأنَّى للمخلوق بمثل صفاته؟! وكيف تستوي صفة الخالق، وصفة المخلوق، مع أن بينهما من البعد كما بين الخالق والمخلوق؟! سبحانك هذا بُهتان عظيم!

ومما عضهوه به أيضًا أنَّهم عزلوا نصوصه عن إمرتِها فِي إفادة العلم واليقين، وقالوا: إنَّها دلائل لفظية قصارها أن تفيد الظن والتخمين، وليتها حين تفيد الظن يكون ظنها مطابقًا لما فِي الواقع ونفس الأمر ببيان واضح، بل هي ظواهر لفظية، لا تطابق معانيها الحقائق الخارجية، فلابد من تأويلها بِما يصرفها عن تلك المعاني الظاهرة منها إلى معان أخر، فتحمل على أنَّها مجاز بالزيادة أو النقصان، أو على أنَّها كنايات يراد منها لوازم معناها، دون المعنى الأصلي، أو على أنَّها استعارات استعملت فِي غير ما وضعت له لعلاقة، مع امتناع إرادة معانيها الحقيقية، أو على أنَّها تشبيهات أو مجاز ثان، وهو المجاز المرسل... إلخ.

وعلى الجملة: فهي لا تفيد إلا الظن، والظن المستفاد منها ليس هو المقصود،

وبذلك انتفت عندهم إفادتُها للقطع وللظن معًا، فهي لا تفيد شيئًا، وبذلك يقولون: لا لوم علينا إذ عزلناها عن ولايتها، ولَم نحتكم فِي باب العقائد إليها، وولينا بدلًا منها العقول والأذهان؛ لأنَّها هي الَّتِي تعطينا البرهان المفيد للعلم والإيقان.

وهكذا يقول هؤلاء الثيران؛ فما أعظمه من إفك! وما أقبحه من بُهتان!!

* * *

فَاللَّهُ يُعْظِمُ فِي النُّصُوصِ أُجُورَكُمْ ... يَــا أُمَّــةَ الآثَــارِ وَالْــقُــرْآنِ

مَاتَتْ لَدَى الأَقْوَامِ لَا يُحْيُونَـهَا ... أَبَـدًا وَلَا تُـحـيِّـيـهُـمُ لِـهَـوَانِ

هَذَا وَقَوْلُهُمُ خِلَافُ الْحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

مَعْ كَوْنِهِ أَيضًا خِلَافَ الْفِطْرَةِ الْـ ... أُولَى وَسُنَّةِ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

فَاللهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى التَّفَا ... هُم بِالْخِطَابِ لِمَقْصِدِ التِّبْيَانِ

كُلٌّ يدُلُّ عَلَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ ... بِكَلَامِهِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

فَتَرَى الْمُخَاطَبَ قَاطِعًا بِمُرَادِهِ ... هَذَا مَعَ التَّقْصِيرِ فِي الإنْسَانِ

إِذْ كُلُّ لَفْظٍ غَيرِ لَفْظِ نَبِينَا ... هُوَ دُونَهُ فِي ذَا بِلَا نُكْرَانِ

حَاشَى كَلَامَ اللهِ فَهْوَ الْغَايَةُ الْـ ... قُصْوَى لَهُ أَعْلَى ذُرَى التِّبْيَانِ

الشرح: المقصود من الألفاظ: هو الدلالة على المعاني، واللفظ بلا معنى كالجسد بلا روح، فإذا كان هؤلاء قد سلبوا النصوص دلالتها على معانيها، وأوجبوا صرفها عنها إلى معان أخر بالتأويل، فقد حكموا بموتِها، وجردوها من الروح الَّتِي به حياتُها، وتلك مصيبة من أعظم المصائب، دونَها فَقْدُ كل عزيز وصاحب، فاللَّه يعظم أجور أهل الإيمان فِي مصيبتهم فِي النصوص الَّتِي لا خلف منها ولا عوض، فقد أماتَها القوم موتًا لا قيامة بعده، ولَم يريدوا أن يحيوا بِها لهوانِها عليهم، على أنَّهم فيما ذهبوا إليه من سلب النصوص خاصية الدلالة والإفهام مكابرون للحس والعيان، ومخالفون للعقل والنقل وفطرة الإنسان الَّتِي هي سنة ربنا الرحمن، فإن اللَّه قد فطر العباد على التفاهم بالخطاب؛ لقصد الإيضاح والبيان لما يضمره الجنان، فكل متكلم بكلام من أهل كل لغة ولسان إنَّما يريد بكلامه التعبير عما فِي نفسه حَتَّى يفهمه المخاطب، فإذا سمع الكلام، وكان عارفًا بوضع الألفاظ؛ قطع بمراد المتكلم منها مع قصوره فِي البيان، فإنه مهما كانت درجته فِي الفصاحة والبلاغة؛ فلابد أن يكون فِي بيانه قصور، وإنَّما تمام البيان له وحده ﷺ، فكل

كلام هو دون كلامه فِي ذلك إلا كلام ربنا -جل وعلا- فهو الغاية القصوى الَّتِي لا تنال، وهو الذي يتطامن عنده كل مقال.

* * *

لَمْ يَفْهَمِ الثَّقَلَانِ مِنْ لَفْظٍ كَمَا ... فَهِمُوا مِنَ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

فَهْوَ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى التِّبْيَانِ كَاسْ ... تِيلائِهِ حَقًّا عَلَى الإِحْسَانِ

مَا بَعْدَ تِبْيَانِ الرَّسُولِ لِنَاظِرٍ ... إِلَّا الْعَمَى وَالْعَيبُ فِي الْعُمْيَانِ

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلٍ ... مِنْ صَحْبِهِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ

حَقًّا تَرَونَ إِلَهَكُمْ يَوْمَ اللِّقَا ... رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

كَالْبَدْرِ لَيلَ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي ... نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلَانِ

بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَتِنَا لَهُ ... فَأَتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ

وَنَفَى السَّحَابَ وَذَاكَ أَمْرٌ مَانِعٌ ... مِنْ رُؤْيَةِ الْقَمَرَينِ فِي ذَا الآنِ

فَأَتَى إِذَنْ بِالْمُقْتَضَى وَنَفَى الْمَوَا ... نِعَ خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التِّبْيَانِ

صَلَّى عَلَيهِ اللهُ مَا هَذَا الَّذِي ... يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا بِبَيَانِ

مَاذَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التِّبْيَانَ يَا ... أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التِّبْيَانِ

الشرح: فنصوص الكتاب والسنة هي الغاية فِي البيان والدلالة على المعنى المقصود، بحيث لا يُمكن أن يتسامى إلى رتبتها فِي ذلك كلام أحد من الناس، فاختصاصهما بالإيضاح والبيان كاختصاصهما بالجودة والإتقان، فليس بعد بيان الرسول مطمح لناظر، ولا غاية لمستدل، فمن لَم يهتد به، ولَم يدرك المراد منه؛ فليتهم نفسه، فإنه إنَّما أتي من جهة عماه، وفساد نظره، وإن شئت دليلًا على ذلك فانظر إلى ما أجاب به الرسولﷺ من سأله من أصحابه عن رؤية المؤمنين للَّه ﷻ فِي الجنة حيث قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونَها سحاب**».

ولَم يرد الرسولﷺ بذلك تشبيه المرئي بالمرئي، فإن اللَّه ﷻ لا يشبهه شيء من خلقه، وإنَّما قصد إلى تحقيق الرؤية وتأكيدها، فشبه رؤيتنا له برؤية الشمس والقمر، وهما فِي أتم أحوالهما من حيث الجلاء والظهور، وهو أن يكون القمر بدرًا، وأن تكون الشمس

فِي نحر الظهيرة، وقد انتفى عنهما كل ما يحول دون رؤيتهما من سحاب وقتر، فجمع ﷺ فِي كلامه بين وجود المقتضي للرؤية، وانتفاء المانع منها؛ خشية أن يقع فِي كلامه نقص أو قصور، فماذا كان يُمكن أن يأتي به ﷺ من زيادة على هذا البيان؟! وماذا عسى أن يقوله القاصد للبيان من بعد هذا التبيان؟! اللَّهم إنه العمى والخذلان وغرور الإنسان، يحول بينه وبين رؤية الحق الظاهر للعيان.

* * *

فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قُلْتُمْ لَهُ	ذَا اللَّفْظُ مَعْزُولٌ عَنِ الإيقَانِ
وَضَرَبْتُمُ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التْـ	تَأْوِيلِ دَفْعًا مِنْكُمُ بِلِيَانِ
لَوْ أَنَّكُمْ وَاللهِ عَامَلْتُمْ بِذَا	أَهْلَ الْعُلُومِ وَكُتْبِهِمْ بِوِزَانِ
فَسَدَتْ تَصَانِيفُ الْوُجُودِ بِأَسْرِهَا	وَغَدَتْ عُلُومُ النَّاسِ ذَاتِ هَوَانِ
هَذَا وَلَيْسُوا فِي بَيَانِ عُلُومِهِمْ	مِثْلَ الرَّسُولِ وَمُنْزِلِ الْقُرْآنِ
وَاللهِ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ	قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ
فَالْعَقْلُ لَا يَهْدِي إِلَى تَفْصِيلِهَا	لَكِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ
فَإِذَا غَدَا التَّفْصِيلُ لَفْظِيًّا وَمَعْـ	زُولًا عَنِ الإِيقَانِ وَالرُّجْحَانِ
فَهُنَاكَ لَا عِلْمًا أَفَادَتْ لَا وَلَا	ظَنًّا وَهَذَا غَايَةُ الْحِرْمَانِ

الشرح: ولكنكم مع بلوغ الرسول ﷺ ذروة البيان، ووضوح مراده من كلامه كأنه مرئيٌّ للعيان، كلما جاءكم بلفظ مهما كان صريحًا فِي معناه، قلتم: إنه لا يفيد اليقين؛ لأن دلالة أي لفظ على معناه عندكم دلالة ظنية، فتضربون فِي وجهه بعساكر التأويل؛ دفعًا له عن معناه الحق بليان، أي: بملاينة ولطف؛ وصرفًا له إلى ما تريدون من معانٍ باطلة تزعمونَها عقلية.

وهذا الحكم منكم بقصور الألفاظ عن الدلالة على معانيها يترتب عليه من الفساد ما لا يحصيه إلا اللَّه، فلو أنكم أجريتم قاعدتكم هذه على أهل العلوم وكتبهم؛ لما أمكن فهم مسألة واحدة من مسائل العلوم؛ ولفسدت تصانيف الوجود كلها؛ ولأصبحت العلوم شيئًا تافهًا لا يؤبه له، مع أن علوم هؤلاء العلماء لا يُمكن أن تساوي فِي البيان ما جاء عن الرسول من سنة وقرآن، ولو صح أيضًا ما قلتم؛ لانسد باب العلم والإيمان، فإن العقول لا تَهدي إلى تفاصيلها، بل إنَّما يعرف ذلك مِمَّا جاء به الوحيان من سنة ومن قرآن، فإذا كان ذلك

التفصيل لفظيًا ومعزولًا عندكم عن إفادة الإيقان، بل عن إفادة الظن والرجحان؛ كانت النتيجة أن هذه النصوص الَّتِي لا بد منها لمعرفة تفاصيل العقائد لا تفيد علمًا ولا ظنًّا، وهذا غاية الحرمان بل غاية الجهل والخذلان.

* * *

لَوْ صَحَّ ذَاكَ الْقَوْلُ لَمْ يحْصُلْ لَنَا ... قَطْعٌ بِقَوْلٍ قَطُّ مِنْ إنْسَانِ
وَغَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا وَفَسَادُهُ ... أَصْلُ الْفَسَادِ لِنَوْعِ ذَا الإنْسَانِ
مَا كَانَ يحْصُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ ... وَوَصِيةٍ كَلَّا وَلَا إيمَانِ
وَكَذَلِكَ الإقْرَارُ يُصْبِحُ فَاسِدًا ... إذْ كَانَ مُحْتَمِلًا لِسَبْعِ مَعَانِ
وَكَذَا عُقُودُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا ... بِاللَّفْظِ إذْ يَتَخَاطَبُ الرَّجُلَانِ
أيَسُوغُ لِلشُّهَدَا شَهَادَتُهُمْ بِهَا ... مِنْ غَيرِ عِلْمٍ مِنْهُمُ بِبَيَانِ
إذْ تِلْكُمُ الأَلْفَاظُ غَيرُ مُفِيدَةٍ ... لِلْعِلْمِ بَلْ لِلظَّنِّ ذِي الرُّجْحَانِ
بَلْ لَا يسُوغُ لِشَاهِدٍ أَبَدًا شَهَا ... دَتُهُ عَلَى مَدْلُولِ نُطْقِ لِسَانِ
بَلْ لَا يرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنْ ... مُتَكَلِّمٍ بِالظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ
بَلْ لَا يبَاحُ الْفَرْجُ بِالإذْنِ الَّذِي ... هُوَ شَرْطُ صِحَّتِهِ مِنَ النِّسْوَانِ
أيَسُوغُ لِلشُّهَدَاءِ جَزْمُهُمُ بِأَنْ ... رَضِيتْ بِلَفْظٍ قَابِلٍ لِمَعَانِ
هَذَا وَجُمْلَةُ مَا يقَالُ بِأَنَّهُ ... فِي ذَا فَسَادُ الْعَقْلِ وَالأَدْيَانِ

الشرح: ولو صح قولكم أيضًا؛ لما أمكن القطع بمراد أي متكلم بكلامه، لاحتماله لهذا المعنى ولغيره، وحينئذ يفسد التخاطب بين الناس، ولا يُمكن لأحد أن يفهم مراد الآخر من كلامه، وفساد التخاطب الذي هو ميزة الإنسان، وخاصيته الَّتِي اختصه اللَّه بها من بين سائر الحيوان، يقتضي فساد أحوال ذلك النوع كلها، واضطراب أموره، فإذا شهد شاهد مثلًا على أمر ما، لَم تكن شهادته موجبة لإثبات ذلك الأمر؛ إذ لَم يحصل لنا علم بمضمون تلك الشهادة، وحينئذٍ لا يُمكن إثبات حق ما عن طريق الشهادة.

وكذلك إذا أوصى إنسان بوصية؛ لا يُمكن فهم ما أوصى به على وجهه، وبذلك لا يُمكن إنفاذ وصيته، ولو حلف على يمين؛ لا ينعقد يمينه، لعدم العلم بالمحلوف عليه، ولو أقر بشيء؛ لا يؤخذ بإقراره كذلك؛ لاحتماله لعدة معان، وكل عقد حصل بين اثنين عن

طريق التخاطب والمشافهة هو أيضًا فاسد -على رأيكم- لعدم علم كل منهما بما يريده الآخر بكلامه، ولا يسوغ لشاهد سمع ذلك منهما الشهادة عليه لعدم علمه بمدلولات تلك الألفاظ، فإنَّها عندكم غير مفيدة، لا لعلم، ولا لظن، بل يسوغ لشاهد شهادته على مدلول أي كلام، بل لو تلفظ أحد بما هو صريح في الكفر؛ لا يحكم بردته، ولا يجب قتله، بل لو تزوج إنسان من امرأة، وتلفظت بما يدل على إذنها وقبولها للنكاح منه؛ لا يكون ذلك مبيحًا للوطء؛ لعدم إفادة ذلك اللفظ للعلم برضاها، ولو استشهد على ذلك شهود؛ لَم يمكنهم الجزم بأنَّها رضيت مادام اللفظ محتملًا لمعان كثيرة.

وبالجملة: فإن هذه القاعدة الَّتِي سيبوء بإثمها من قعَّدها، وقصد من ورائها صرف الناس عن أخذ دينهم من الكتاب والسنة؛ بحجة أن دلالتهما لفظية، يترتب عليها من فساد العقول والأديان ما لا يدخل تحت عدٍّ ولا حسبان، بل هي هذيان لا يليق بكرامة الإنسان.

* * *

هَـذَا وَمِنْ بُـهْـتَـانِـهِـمْ أَنَّ الـلُّـغَـا ... تِ أَتَـتْ بِـنَـقْـلِ الْـفَـرْدِ وَالْـوُحْـدَانِ

فَـانْظُرْ إِلَى الأَلْفَاظِ فِي جَرَيَانِهَا ... فِـي هَـذِهِ الأَخْـبَـارِ وَالْـقُـرْآنِ

أَتَـظُـنُّـهَـا تَـحْـتَـاجُ نَـقْـلًا مُـسْـنَـدًا ... مُـتَـوَاتِـرًا أَوْ نَـقْـلَ ذِي وحْـدَانِ

أَمْ قَدْ جَرَتْ مَجْرَى الضَّرُورِيَاتِ لَا ... تَـحْـتَـاجُ نَـقْـلًا وَهْـيَ ذَاتُ بَـيَـانِ

إِلَّا الأَقَـلَّ فَـإِنَّـهُ يـحْـتَـاجُ لِـلـنَّـ ... ـقْلِ الـصَّـحِـيـحِ وَذَاكَ ذُو تِـبْـيَـانِ

وَمِنَ الْمَصَائِبِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ بِأَنَّـ ... ـنَ الـلـهَ أَظْـهَـرُ لَـفْـظَـةٍ بِـلِـسَـانِ

وَخِـلَافُـهُـمْ فِـيـهِ كَـثِـيـرٌ ظَـاهِـرٌ ... عَـرَبِـي وَضْـعِ ذَاكَ أَمْ سِـرْيَـانِـي

وَكَـذَا خِـلَافُـهُـمْ أَمُـشْـتَـقًّـا يـرَى ... أَمْ جَـامِـدًا قَـوْلَانِ مَـشْـهُـورَانِ

وَالأَصْـلُ مَـاذَا فِـيـهِ خُـلْـفٌ ثَـابِـتٌ ... عِـنْـدَ الـنُّـحَـاةِ وَذَاكَ ذُو أَلْـوَانِ

هَـذَا وَلَـفْـظُ الـلـهِ أَظْـهَـرُ لَـفْـظَـةٍ ... نَـطَـقَ الـلِّـسَـانُ بِـهَـا مَـدَى الأَزْمَـانِ

فَانْظُرْ بِحَقِّ اللهِ مَاذَا فِي الَّذِي ... قَـالُـوهُ مِـنْ لَـبْـسٍ وَمِـنْ بُـهْـتَـانِ

هَـلْ خَـالَـفَ الْـعُـقَـلَاءُ أَنَّ الـلـهَ رَبْـ ... ـبُ الْـعَـالَـمِـيـنَ مُـدَبِّـرُ الأَكْـوَانِ

مَـا فِـيـهِ إِجْـمَـالٌ وَلَا هُـوَ مُـوهِـمٌ ... نَـقْـلَ الْـمَـجَـازِ وَلَا لَـهُ وَضْـعَـانِ

الشرح: ومن جملة افتراء هؤلاء: ادعاؤهم أن اللغات في دلالتها على معانيها إنَّما

نقلت بأخبار آحاد، وخبر الواحد إنَّما يفيد الظن.

وهذا كذب: فإننا نجد الألفاظ المتداولة فِي الكتاب والسنة لا تحتاج فِي العلم بوضعها لمعانيها إلى رواية أحد من الناس، لا تواترًا ولا آحادًا، بل إن ذلك يجري مجرى الضروريات الَّتِي لا تحتاج إلى نقل، اللَّهم إلا قليلًا من الألفاظ الشاذة الغريبة، فقد يحتاج فِي العلم بوضعها إلى نقل صحيح، وهذه قد بينها علماء اللغة، ونقلوا الشواهد الدالة على معانيها.

وأدهى من ذلك وأمر: قول بعضهم مستشهدًا على قصور اللغات، وعدم إفادتِها العلم بالمعاني: إن الاسم الكريم «اللَّه» مع كونه أظهر لفظة نطق بِها لسان، قد اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا، فاختلفوا أولًا هل هو عربي أم سرياني؟ ثُمَّ اختلفوا ثانيًا هل هو مشتق أم جامد؟ والذين قالوا بأنه مشتق اختلفوا فِي أصل اشتقاقه، هل هو من أله يأله آلهة، بِمعنى عبد؟ أو من أله يأله إلَهًا إذا تحير؟ أو من وله يوله، إذا أصابه الوله، وهو شدة الحب؟ . . . إلخ.

قالوا: فإذا كانت أظهر لفظة نطق بِها لسان، هذا حظها من الخلاف والشقاق؛ فكيف يُمكن الثقة بِمعنى أي لفظ مِمَّا هو دونَها فِي الظهور والبيان؟!:

وهذا منهم تلبيس مكشوف، وبُهتان مفضوح، فإن أحدًا من العقلاء لَم يختلف فِي مدلول هذه اللفظة، وأنَّها علمٌ على رب العالمين، مدبر الخلائق أجمعين، ليس فيها إجمال يحتاج إلى تفصيل، ولا هي موهمة معنًى آخر بطريق النقل المجازي، ولا لَها وضعان، بل لَم توضع إلا لهذا المعنى وحده، يعرف ذلك كله من له علم بالوضع اللغوي لَها، فأين إذن ما ادعوه من خلاف على معناه؟! اللَّهم إن القوم فِي ضلال مبين.

* * *

وَالْخُلْفُ فِي أَحْوَالِ ذَاكَ اللَّفْظِ لَا ... فِي وَضْعِهِ لَمْ يَخْتَلِفْ رَجُلَانِ
وَإِذَا هُمُ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ مَكَّةٍ ... فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ
أَفَبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ ... حَرَمُ الإِلَهِ وَقِبْلَةُ الْبُلْدَانِ
وَإِذَا هُمُ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ أَحْمَدٍ ... فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَذْكُورَانِ
أَفَبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ ... مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ذُو الْبُرْهَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا لَيسَ يُحْصَرُ كَثْرَةً ... يَا قَوْمُ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

أَبِمِثْلِ ذَا الْهَذَيَانِ قَدْ عُزِلَتْ نُصُو صُ الْوَحْيِ عَنْ عِلْمٍ وَعَنْ إِيقَانِ
فَالْحَمْدُ لِلهِ الْمُعَافِي عَبْدَهُ مِمَّا بَلَاكُمْ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ
فَلِأَجْلِ ذَا نَبَذُوا الْكِتَابَ وَرَاءَهُمْ وَمَضَوْا عَلَى آثَارِ كُلِّ مُهَانِ
وَلِأَجْلِ ذَاكَ غَدَوْا عَلَى السُّنَنِ الَّتِي جَاءَتْ وَأَهْلِيهَا ذَوِي أَضْغَانِ
يَرْمُونَهُمْ كَذِبًا بِكُلِّ عَظِيمَةٍ حَاشَاهُمُ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَان

الشرح: فالخلاف الواقع فِي ذلك اللفظ ليس فِي المعنى الموضوع له، فإن ذلك لَم يختلف فيه اثنان، وإنَّما الخلاف فيما يعتريه من أحوال، من حيث الجمود والاشتقاق، والأصل الذي يرجع إليه الاشتقاق، ونحو ذلك، كما اختلفوا فِي لفظة مكة على قولين، من حيث الأصل الذي اشتقت منه، فمنهم من قال: إنَّها من مكأه بِمعنى أهلكه؛ لأنَّها تُهلك كل من قصدها بسوء. وقيل: من أمتك الفضيل الضرع، إذا امتص كل ما فيه؛ لذهابِها بالفضل على سائر القرى.

ولكن أحدًا لَم ينازع فِي أن هذه اللفظة عَلَمٌ على حرم اللَّه الآمن، وقبلته الَّتِي ارتضاها لعباده.

وكذلك اختلفوا فِي اشتقاق لفظة أحمد، وهل هي بِمعنى اسم الفاعل أو المفعول؟ ولكنهم متفقون على أن المراد بِها هو رسول اللَّه المبعوث بالبراهين والبينات، ومثل هذا كثير لا يُمكن حصره، ولكن القوم قل منهم الحياء من اللَّه -جل وعلا- فقالوا على كتابه وسنة رسوله بُهتانًا عظيمًا، وقضوا عليها بمثل هذه الهذيانات، فعزلوا نصوصهما عن إفادة العلم واليقين، فالحمد للَّه الذي عافانا مِمَّا ابتلى به هؤلاء الأدعياء للمعرفة، وهم فِي الغاية القصوى من الجهل والغباء، الذين نبذوا كتاب ربِّهم وراء الظهور، وصاروا أعداء للسنة وأهلها، يرمونَهم بكل قبيح من الألقاب، وبكل فاحش من السباب؛ من أجل قاعدة موهومة يحسبونَها شيئًا وهي سراب، ولكن هؤلاء مبرءون مِمَّا يبهته به هؤلاء الأفاكون، وهم عند اللَّه أولو الألباب.

* * *

فصل في تنزيه أهل الحديث وحملة الشريعة عن الألقاب القبيحة والشنيعة

فَرَمَوْهُمُ بَغْيًا بِمَا الرَّامِي بِهِ ... أَوْلَى لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْلَ الْجَانِي

يرْمِي الْبَرِيءَ بِمَا جَنَاهُ مُبَاهِتًا ... وَلِذَاكَ عِنْدَ الْغِرِّ يشْتَبِهَانِ

سَمُّوهُمُ حَشْوِيَّةً وَنَوَابِتًا ... وَمُجَسِّمِينَ وَعَابِدِي أَوْثَانِ

وَكَذَلِكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ ... وَهُمُ الرَّوَافِضُ أَخْبَثُ الْحَيَوَانِ

نَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمْـ ... ـوْا بِالنَّوَاصِبِ شِيعَةَ الرَّحْمَنِ

وَكَذَا الْمُعَطِّلُ شَبَّهَ الرَّحْمَنَ بِالْـ ... ـمَعْدُومِ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ

وَكَذَاكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلَامِنَا ... حَتَّى نَفَاهُ وَذَانِ تَشْبِيهَانِ

وَكَذَلِكَ شَبَّهَ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... حَتَّى نَفَاهُ عَنْهُ بِالْبُهْتَانِ

وَأَتَى إِلَى وَصْفِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ ... سَمَّاهُ تَشْبِيهًا فَيَا إِخْوَانِي

بِاللهِ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الإِسْمِ مِنْ ... هَذَا الْخَبِيثِ الْمُخْبِثِ الشَّيطَانِي

إِنْ كَانَ تَشْبِيهًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ أَكْمِلْ بِهِ ذِي شَانِ

لَكِنَّ نَفْيَ صِفَاتِهِ تَشْبِيهُهُ ... بِالْجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيرُ شَيءٍ وَهْوَ مَعْـ ... ـدُومٌ وَإِنْ يُفْرَضْ فَفِي الأَذْهَانِ

فَمَنِ الْمُشَبِّهُ بِالْحَقِيقَةِ أَنْتُمُ ... أَمْ مُثْبِتُ الأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

الشرح: ثُمَّ إن هؤلاء المعطلة الجاحدين لصفات رب العالمين يرمون أهل الإثبات من المحدثين بغيًا بِما هم أحق به، وأجدر من ألقاب السوء؛ ليدفعوا الذم عن أنفسهم فعل الجناة المجرمين، فيمرونَهم، وهم برآء بِما جنوه هم، مكابرين مباهتين، ولذلك يشتبه الأمر على الأغرار الجاهلين، فيظنونَهم فيما بَهتوا به أهل الحق صادقين، وهم عند اللّه والمؤمنين من أكذب الكاذبين، فسموهم حشوية، يعنون أنَّهم من حشو الناس أو خلاطهم، فليس عندهم علم ولا تحقيق، وسموهم نوابتًا يقصدون أنَّهم نبتوا فِي الإسلام بعد اختلاط الأعاجم، وفساد اللسان العربي، وسموهم مجسمين وعابدي أوثان، لأنَّهم يقولون: إن ربَّهم فِي السماء، وفوق العرش بذاته.

فما أشبههم فِي ذلك بالرافضة الخبثاء، أعداء الرسول وأصحابه، حيث نصبوا

العداوة للصحابة رضي الله عنهم، وأسرفوا فِي سبهم وتنقيصهم، ثُمَّ كل من والاهم، وعرف لهم أقدارهم وسوالفهم فِي الدين ناصبيًّا، فمن أولى بِهذا الاسم من الفريقين؟! ورحم اللَّه ابن تيمية حيث يقول:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحمَّد فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أَنِّي نَاصِبِي

وكذلك هؤلاء المعطلة النافون لصفات الإثبات الَّتِي جاء بِها الكتاب والسنة، يصفون ربَّهم بصفات سلبية عدمية، لا تكون إلا للمعدوم والممتنع، ويزعمون ذلك تنْزيهًا، فيقولون: إنه ليس بجسم، ولا عرض، ولا جوهر، ولا شخص، وليس له مقدار، ولا صورة، ولا أين، ولا يشار إليه، ولا يقبل الاتصال والانفصال، والقرب والبعد، والصعود والهبوط، والحركة والنقلة، ولا يقال: داخل العالم، ولا خارجه. إلى غير ذلك مِمَّا أجروه عليه من صفات السلب الَّتِي تقتضي عدمه فشبهوه فِي ذلك بالمعدوم، فاجتمع لهم الوصفان من التشبيه والتعطيل، بل إذا حقق عليهم الأمر كانوا مشبهة أولًا، فإن الذي حملهم على التعطيل والإنكار توهمهم أن إثبات الصفات تشبيه، والصفات ثابتة فِي نفس الأمر، فلزمهم التشبيه، وما نفعهم التعطيل، بل أوقعهم فِي تشبيه شر مِمَّا فروا منه، فإنَّهم ما زادوا على أن شبهوه بالجامدات والمعدومات.

فهم لَمَّا توهموا أن إثبات القول للَّه يقتضي تشبيهه بكلام المخلوقين؛ نفوه عنه، وقالوا: ليس للَّه قول ولا كلام. فشبهوه فِي ذلك بالجامدات الَّتِي لا تنطق، وبالعجماوات الخرساء، فهذان تشبيهان.

وكذلك ظنوا أن إثبات الصفات له مستلزم أن تكون كصفات المخلوقين، فنفوها كذبًا وبُهتانًا، ولَم يستطيعوا أن يثبتوا بلا تمثيل، فوقعوا فِي التشبيه والتعطيل، وهم مع ذلك يعمدون إلى ما وصف به الرسول ﷺ ربه من صفات الإثبات، فيسمون ذلك تشبيهًا، فمن أولى بِهذا الاسم من الفريقين؟! الذين مثَّلوا فعطلوا فمثلوا، أم الذين أثبتوا بلا تمثيل، ونزهوا بلا تعطيل، مصدق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فإن كان ذلك الإثبات يسمى عندهم تشبيهًا -وحاشاه- فهو على كل حال خير من تشبيههم، فإنه تشبيه له بالأشياء الكاملة ذوات الشأن والرفعة، وأما نفيهم للصفات؛ فيقتضي تشبيهه بالناقصات من الجمادات وغيرها، بل بالمعدوم الذي لا حقيقة له، والذي لا يصح فرضه إلا فِي الأذهان، فمن المشبه إذن على الحقيقة منكم؟! ومن مثبتي الصفات للرحمن؟!

فصل في نكتة بديعة تبين ميراث الملقَّبين والملقِّبين من المشركين والموحدين

هَذَا وَثَمَّ لَطِيفَةٌ عَجَبٌ سَأُبْـ ـدِيهَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ
فَاسْمَعْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ وَمُشَبِّهٌ وَاعْقِلْ فَذَاكَ حَقِيقَةُ الإِنْسَانِ
لَابُدَّ أَنْ يـرِثَ الرَّسُولَ وَضِدَّهُ فِي النَّاسِ طَائِفَتَانِ مُخْتَلِفَانِ
فَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَالْوَارِثُونَ لِضِدِّهِ فِئَتَانِ
إِحْدَاهُمَا حَرْبٌ لَهُ وَلِحِزْبِهِ مَا عِنْدَهُمْ فِي ذَاكَ مِنْ كِتْمَانِ
فَرَمَوْهُ مِنْ أَلْقَابِهِمْ بِعَظَائِمِ هُمْ أَهْلُهَا لَا خِيرَةُ الرَّحْمَنِ
فَأَتَى الأُلَى وَرِثُوهُمُ فَرَمَوْا بِهَا وُرَّاثَهُ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
هَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَ كُلٍّ مِنْهُمَا فَاسْمَعْ وَعِهْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ
وَالآخَرُونَ أُولُو النِّفَاقِ فَأَضْمَرُوا شَيْئًا وَقَالُوا غَيْرَهُ بِلِسَانِ
وَكَذَا الْمُعَطِّلُ مُضْمِرٌ تَعْطِيلَهُ قَدْ أَظْهَرَ التَّنْزِيهَ لِلرَّحْمَنِ
هَذِي مَوَارِيثُ الْعِبَادِ تَقَسَّمَتْ بَيْنَ الطَّوَائِفِ قِسْمَةَ الْمَنَّانِ

الشرح: بعد أن بين المؤلف ما وقع فيه هؤلاء المعطلة من التشبيه الذي رموا به أهل الإثبات كذبًا وبُهتانًا، أراد أن يقفنا على لطيفة من اللطائف الخفية الَّتي تدل على عجيب صنع اللَّه فِي خلقه، فقال: إن الناس منذ كانوا ثلاثة أقسام:

معطل: يجحد الخالق -جل وعلا- وينكر وجوده، أو ينكر ما ينبغي له من الصفات.

ومشبه: يؤمن بوجود اللَّه سبحانه، ولكنه يثبت له مثل صفات المخلوقين.

ومؤمن موحد: يثبت للَّه ما يليق به من الأسماء والصفات مع تنزيهه عن مشابَهة المخلوقات.

وإذا علم هذا؛ فينبغي لكل ذي عقل تتحقق به إنسانيته، وتتميز به عن سائر الحيوان أن يدرك أن الرسولﷺ له ورثة من أمته، ولخصومه أيضًا وارث، فالوارثون له هم السائرون على منهجه، الواقفون عند ما حده لهم دون زيادة أو ابتداع، والوارثون لضده فريقان:

فريق: جاهر بالعداوة له ولحزبه دون تستر أو كتمان، فرموه -وهو خيرة اللَّه من

خلقه- من شنيع الألقاب بِما هم أولى به وأهله.

ثُمَّ أتى الذين ورثوهم فِي الضلال والعداوة، فرموا بِهذه الألقاب وارث الرسول وحزبه بغيًا وعدوانًا، فهذا يحقق إرث كل منهما عند كل من عقل وتدبر وألقى السمع وهو شهيد.

وأما الفريق الثاني: فهم أهل النفاق الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فِي قلوبِهم، فهم يضمرون فِي قلوبِهم الكفر والعداوة للحق، ويظهرون الإيمان والمسالمة.

وما أشبه المعطلة بِهذا الفريق الثاني، فإنَّهم يضمرون التعطيل والإنكار، ويسمون ذلك تنْزيهًا للَّه -جل شأنه- قولًا بألسنتهم مع انطواء قلوبِهم على خلافه.

فهذه هي مواريث العباد، قسمها اللَّه بين خلقه على وفق حكمته وعلمه، وللَّه فِي خلقه شئون.

اللغة: اللطيفة: المعنى الخفي من اللطافة الَّتِي هي ضد الظهور. والحرب: مصدر بِمعنى اسم الفاعل، أي: محارب. والعظائم: جمع عظيمة، وهي الأمر الشنيع.

* * *

هَذَا وَثَمَّ لَطِيفَةٌ أُخْرَى بِهَا ... سُلْوَانُ مَنْ قَدْ سُبَّ بِالْبُهْتَانِ

تَجِدُ الْمُعَطِّلَ لَاعِنًا لِمُجَسِّمٍ ... وَمُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِالإِنْسَانِ

وَاللهُ يصْرِفُ ذَاكَ عَنْ أَهْلِ الْهُدَى ... كَمُحَمَّدٍ وَمُذَمَّمٍ إِسْمَانِ

هُمْ يشْتُمُونَ مُذَمَّمًا وَمُحَمَّدٌ ... عَنْ شَتْمِهِمْ فِي مَعْزِلٍ وَصِيَانِ

صَانَ الإِلَهُ مُحَمَّدًا عَنْ شَتْمِهِمْ ... فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى هُمَا صِنْوَانِ

كَصِيَانَةِ الأَتْبَاعِ عَنْ شَتْمِ الْمُعَطْ ... طِلِ لِلْمُشَبِّهِ هَكَذَا الإِرْثَانِ

وَالسَّبُّ مَرْجِعُهُ إِلَيهِمْ إِذْ هُمُ ... أَهْلٌ لِكُلِّ مَذَمَّةٍ وَهَوَانِ

وَكَذَا الْمُعَطِّلُ يلْعَنُ اسْمَ مُشَبِّهٍ ... وَاسْمُ الْمُوَحِّدِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ

الشرح: ومع هذه اللطيفة الَّتِي تقدمت، هناك لطيفة أخرى يتسلى بِها أهل الحق عن شتم هؤلاء المجرمين لهم، وبَهتهم إياهم مِمَّا هم منه براء، وهي أنك تجد المعطل لاعنًا لكل من يقول بالتجسيم وتشبيه اللَّه بخلقه، ولكن هذا اللعن لا يضير أهل الحق، فقد صرفه اللَّه عنهم بتطهير عقيدتِهم من اعتقاد التجسيم والتشبيه، وإنَّما يلحق هذا اللعن من يطلق

الجسم على اللَّه، أو يشبهه بخلقه، وذلك كمحمد ومذمم، فإنَّهما اسمان متقابلان، والثاني منهما هو الحقيق بالشتم والتنقيص، فإذا شتم الكفار رسول اللَّه ﷺ فإنَّهم لا يضيرونه بشتمهم، فإن شتمهم إنَّما يلحق مذمَّمًا، ولكنه هو مُحمَّد لا مذمم، فهو من شتمهم فِي حصن حصين، وحرم مصون، وقد صانه الإله عن شتمهم لفظًا ومعنى.

أما لفظًا: فبتسميته مُحمَّدًا.

وأما المعنى: فبتطهيره عن كل ما يذم ويعاب من العقائد والأخلاق والأعمال.

والضمير فِي قوله: «هما» للفظ والمعنى، ومعنى كونهما صنوان: أن أصلهما واحد كما فِي قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]. وكما فِي قوله -عليه الصلاة والسلام- فِي شأن عمه العباس: «**إن عم الرجل صنو أبيه**».

وكما صان اللَّه ﷺ نبيه عن شتم الكفار وتنقيصهم، فقد صان أتباعه عن شتم المعطل للمشبه، فلا يلحقهم من معرته شيء، بل هو فِي الحقيقة راجع إلى هؤلاء الشاتمين، فإنَّهم هم أحق بكل مذمة وتنقيص، فالمعطل يلعن اسم المشبه، فلا يلحق لعنه إلا كل من صدق عليه هذا الاسم، وهو غير صادق على أحد من أهل الحق، بل الذي يصدق عليه أنه موحد، فهو فِي حمى اللَّه من كل ما يتلاعن به المبطلون.

* * *

هَذِي حِسَانُ عَرَائِسٍ زُفَّتْ لَكُمْ ... وَلَدَى الْمُعَطِّلِ هُنَّ غَيرُ حِسَانِ

وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِنْ غَيرِ أَبْوَابٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ

وَيَرُدُّهُ الْمَحْرُومُ مِنْ خِذْلَانِهِ ... لَا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بِالْحِرْمَانِ

يَا فِرْقَةً نَفَتِ الإِلَهَ وَقَوْلَهُ ... وَعُلُوَّهُ بِالْجَحْدِ وَالْكُفْرَانِ

مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ فَرَبِّي عَالِمٌ ... بِسَرَائِرٍ مِنْكُم وَخُبْثِ جَنَانِ

فَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ بِالْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ

وَالْحَقُّ رُكْنٌ لَا يَقُومُ لِهَدِّهِ ... أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ

تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ ... فَالرَّبُّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ النَّدْمَانِ

مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالْجِنَانُ مَصِيرُهُ ... أَوْ مَاتَ جَهْمِيًّا فَفِي النِّيرَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف إخوانه من أهل الحق بأن تلك اللطائف الَّتِي أبداها لهم هي

فِي جمالها وروعتها كحسان العرائس المجلوة؛ حقًّا لهم على تأملها، والنظر فيها، ولكنها عند المعطل ليست بذاك؛ لبلادة عقله وغبائه، فهو لا يدرك ما فيها من معنى رائق لطيف؛ لأنه لا حظَّ له فِي إدراك جواهر العلم وفرائده، إذ العلم لا يناله إلا كل موفق مسدد، وأما المخذول المطرود؛ فإن قلبه عن ذلك فِي صدود، نعوذ باللَّه من الخذلان والحرمان.

ثُمَّ ينادي هذه الفرقة الضالة من أهل الجحد والتعطيل الَّتِي نفت الإله وكلامه وعلوه على خلقه بأن يموتوا غيظًا وحسرة، فإن اللَّه عالم بخبث طواياهم، ودَخَن قلوبهم، وهو لابد ناصر دينه وكتابه ورسوله بالعلم الصحيح والحجة الظاهرة، فإنَّها الحق الذي من أوى إليه فقد أوى إلى ركن شديد، لا يقدر أحد على النيل منه ولو اجتمعت على حربه الثقلان من إنس ومن جان، ثُمَّ هو بعد ذلك يعرض عليهم أن يتوبوا إلى اللَّه، ويرجعوا إليه من إثم تعطيلهم وجرم إنكارهم، فإن اللَّه يقبل توبة من تاب نادمًا على ما فعل، فمن تاب منكم فإن مآله إلى جنة عرضها السموات والأرض، ومن مات منكم على تجهمه وتعطيله فإن مأواه جهنم وبئس المصير.

فصل في بيَان اقتضاء التجهم والجبر والإرجاء للخروج عن جميع ديَانات الأنبياء

وَاسْمَعْ وَعِهْ سِرًّا عَجِيبًا كَانَ مَكْـ ... تُـومًـا مِـنَ الأَقْـوَامِ مُـنْـذُ زَمَـانِ
فَـأَذَعْـتُـهُ بَـعْـدَ الـلَّـتَـيَـا وَالَّـتِـي ... نُـصْـحًـا وَخَـوْفَ مَـعَـرَّةِ الْـكِـتْـمَـانِ
جِـيـمٌ وَجِـيـمٌ ثُـمَّ جِـيـمٌ مَـعْـهُـمَـا ... مَـقْـرُونَـةٌ مَـعْ أَحْـرُفٍ بِـوِزَانِ
فِـيـهَـا لَـدَى الأَقْـوَامِ طِـلَّـسْـمٌ مَـتَـى ... تَـحْـلُـلْـهُ تَـحْـلُـلْ ذِرْوَةَ الْـعِـرْفَـانِ
فَـإِذَا رَأَيـتَ الـثَّـوْرَ فِـيـهِ تَـقَـارَنَ الْـ ... جِـيـمَـاتُ بِـالـتَّـثْـلِـيـثِ شَـرَّ قِـرَانِ
دَلَّـتْ عَـلَـى أَنَّ الـنُّـحُـوسَ جَـمِـيـعَـهَـا ... سَـهْـمُ الَّـذِي قَـدْ فَـازَ بِـالْـخِـذْلَانِ
جَـبْـرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيـمُ تَـجَـهُّـمٍ ... فَـتَـأَمَّـلِ الْـمَـجْـمُـوعَ فِـي الْـمِـيـزَانِ
فَـاحْـكُـمْ بِـطَـالِـعِـهَـا لِـمَـنْ حَـصُـلَـتْ لَـهُ ... بِـخَـلَاصِـهِ مِـنْ رِبْـقَـةِ الإِيـمَـانِ

الشرح: هذه الأبيات تدل على تمكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من علم الفلك والهيئة وحساب الجمل، وأنا لست مِمَّن يحذقون هذه الفنون، فلا أحسن أن أعبر عما يريده بِهذه الأبيات إلا على سبيل الإجمال.

فهو يطلب منا أن نسمع ونعي هذا السر العجيب الذي كتمه فِي صدره مدة طويلة، ثُمَّ

أذاعه بعد اللتيا والتي، أي: بعدما سفرت العداوة بينه وبين خصومه، واستعرت المعركة، فأبداه على جهة النصح لهم، وخروجًا من عهدة الكتمان ومعرته.

وهذا السر: هو أن هناك ثلاث جيمات فِي ثلاث كلمات، هي الجبر والإرجاء والتجهم، فكل جيم منها مقرونة مع أحرف بوزانِها، أي: بقدرها، وأن فِي هذه الجيمات الثلاث عند القوم لغزًا بديعًا، من يحلله فقد حل ذروة المعرفة، وركب سنام الحقيقة، فإذا رأيت الثور -وهو أحد البروج الَّتِي تقطعها الشمس فِي حركتها الظاهرية جنوبي مدار السرطان فِي فصل الربيع- تتقارن فيه الجيمات الثلاث، وتجتمع شر اجتماع، فاعلم بأن النحس كله نصيب الذي قد باء بالخذلان، فإن كل جيم منها نحس على صاحبها، فإذا اجتمعت كانت نحوسًا، وكانت أشأم طالع، فاحكم بطالعها النحس لمن حصلت له هذه الجيمات الثلاث، واقترنت فيه، بأن جمع بين القول بالجبر والإرجاء والتجهم بانخلاعه من ربقة الإيمان، وعرى اليقين.

* * *

فَاحْمِلْ عَلَى الأَقْدَارِ ذَنْبَكَ كُلَّهُ ... حَمْلَ الْجُذُوعِ عَلَى قُوَى الْجُدْرَانِ

وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرٍ إِذْ تَرَى الْـ ... أَفْعَالَ فِعْلَ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

فَالْجَبْرُ يُشْهِدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا ... مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجَفَانِ

لَا فَاعِلٌ أَبَدًا وَلَا هُوَ قَادِرٌ ... كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ اللَّذَانِ تَوَجَّهَا ... فَهُمَا كَأَمْرِ الْعَبْدِ بِالطَّيَرَانِ

وَكَأَمْرِهِ الأَعْمَى بِنَقْطِ مَصَاحِفٍ ... أَوْ شَكْلِهَا حَذَرًا مِنَ الأَلْحَانِ

وَإِذَا ارْتَفَعَتْ دُرَيْجَةً أُخْرَى رَأَيْـ ... ـتَ الْكُلَّ طَاعَاتٍ بِلَا عِصْيَانِ

إِنْ قِيلَ قَدْ خَالَفْتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ ... لَكِنْ أَطَعْتُ إِرَادَةَ الرَّحْمَنِ

وَمُطِيعُ أَمْرِ اللهِ مِثْلُ مُطِيعِ مَا ... يَقْضِي بِهِ وَكِلَاهُمَا عَبْدَانِ

عَبْدُ الأَوَامِرِ مِثْلُ عَبْدِ مَشِيئَةٍ ... عِنْدَ الْمُحَقِّقِ لَيسَ يَفْتَرِقَانِ

فَانْظُرْ إِلَى مَا قَادَتِ الْجِيمُ الَّذِي ... لِلْجَبْرِ مِنْ كُفْرٍ وِمِنْ بُهْتَانِ

الشرح: هذا خطاب لصاحب الجيم الأولى، وهي جيم الجبر الذي يزعم بأن الإنسان لا قدرة له ولا اختيار، وأنه مجبور على ما يقع منه من أفعال، فهي ليست أفعالًا له

على الحقيقة، وإنَّما تنسب إليه على جهة المجاز، كما يقال: طلعت الشمس وهبت الريح، فالأفعال والتكليف بِها، والثواب والعقاب عليها، كل ذلك جبر على العبد، لا اختيار له فيه، فيلزم هذا الجبر ألَّا يقر على نفسه بذنب، وأن يحمل ذنوبه كلها على القدر كما يحمل السقف على قوي الجدر، وأن يفتح لنفسه باب العذر فِي كل ما يرتكب من وزر، إذ يرى أنه لا فعل له، وأن الأفعال كلها صادرة من اللَّه -جل شأنه-.

ويلزمه أيضًا أن يسوي بين ما يصدر عنه بإرادته واختياره، وبين ما يصدر منه على جهة الضرورة، كحركة الرعدة والارتعاش، فلا يحس فرقًا بين الذنوب الَّتِي تصدر عنه باختياره، وبين رعشة الشيخ الكبير الَّتِي تصدر عنه بلا قصد منه، بل بسبب الهرم والضعف، فالعبد عنده ليس بفاعل على الحقيقة، ولا هو قادر على الفعل، بل هو كالميت المدرج فِي أكفانه، لا قدرة له على حركة أصلًا.

ويلزمه أيضًا أن اللَّه كلف العباد ما لا يطيقونه، وأنه أمرهم ونَهاهم بِما لا قدرة لهم على فعله أو تركه، فهو كأمر العبد بأن يطير فِي الهواء مع عجزه عنه، إذ لا أجنحة له تساعده على الطيران، أو كأمر الأعمى الذي لا يبصر بأن يضع النقط على حروف المصحف، أو يشكله؛ خوفًا من وقوع اللحن فِي قراءته، ومعلوم أن الأعمى لا قدرة له على ذلك، وفي هذا نسبة العبث إلى اللَّه -جل شأنه-.

وهذا الذي ذكرناه من مذهب الجبرية، إنَّما هو قول عامتهم، وأما متصوفتهم، مِمَّن يزعمون الترقي فِي مقام الشهود للحقيقة الكونية والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم وكفر وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنَّها إنَّما تجري وفق ما قضاه اللَّه وقدره، وكل ما قضاه وقدره فهو محبوب لديه، مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكابه هذه المحظورات فقد أطاع إرادة اللَّه، ونفذ مشيئته، فمن أطاع اللَّه وقضاءه وقدره هو كمن أطاعه فِي أمره ونَهيه، كلاهما قد قام بحق العبودية للَّه، إلا أن هذا عبده بامتثال أمره، وهذا عبده بتنفيذ مشيئته، فمن حقق الأمر؛ لَم يجد فرقًا بين العبوديتين، بل وجد العبادة بالمشيئة أليق بمن لا يرون لأنفسهم فعلًا وأن الأفعال كلها من اللَّه.

فانظر يا أخا العقل والدين إلى ما انتهت جيم الجبر إليه! وكيف قادت صاحبها إلى شر أنواع الكفر والبهتان، فجعلته يسوي فِي النهاية بين الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وينفض يده من أحكام الشريعة كلها، ولا يفرق بين أمر ونَهي، ولا يرى ذلك لازمًا لأحد، بل يرى ارتكاب المنهيات عبادة يتقرب بِها إلى اللَّه ما دامت موافقة للإرادة، فأي كفر أقبح

من هذا!! نعوذ باللَّه من الضلال والخذلان، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

وَكَذَلِكَ الإِرْجَاءُ حِينَ تُقِرُّ بِالْـ ... ـمَعْبُودِ تُصْبِحُ كَامِلَ الإِيمَانِ
فَارْمِ الْمَصَاحِفَ فِي الْحُشُوشِ وَخَرِّبِ الْـ ... ـبَيتَ الْعَتِيقَ وَجِدَّ فِي الْعِصْيَانِ
وَاقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعْتَ كُلَّ مُوَحِّدٍ ... وَتَمَسَّحَنَّ بِالْقُسِّ وَالصُّلْبَانِ
وَاشْتُمْ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ أَتَوْا ... مِنْ عِنْدِهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ
وَإِذَا رأَيتَ حِجَارَةً فَاسْجُدْ لَهَا ... بَلْ خِرَّ لِلأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ
وَأَقِرَّ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْبَارِي لِذِي الأَكْوَانِ
وَأَقِرَّ أَنَّ رَسُولَهُ حَقًّا أَتَى ... مِنْ عِنْدِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
فَتَكُونَ حَقًّا مُؤْمِنًا وَجَمِيعُ ذَا ... وِزْرٌ عَلَيكَ وَلَيسَ بِالْكُفْرَانِ
هَذَا هُوَ الإِرْجَاءُ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ ... مِنْ كُلِّ جَهْمِي أَخِي الشَّيطَانِ

الشرح: الإرجاء فِي اللغة معناه: التأخير، ومنه سميت المرجئة؛ لأنَّهم يؤخرون الأعمال عن الإيمان، ويقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

والإيمان عندهم هو مجرد الإقرار بأن اللَّه هو الخالق للموجودات، فمتى أقر العبد بذلك؛ أصبح عندهم كامل الإيمان، وليس عليه بعد ذلك حرج أن يرتكب ما شاء من معصية، أو يقصر فِي طاعة، فليرم المصاحف إن شاء فِي الحشوش، أي: فِي بيوت الخلاء، امتهانًا لَها، وليخرب الكعبة البيت الحرام، وينقض بنيانَها، وليجتهد فِي ارتكاب كل موبقة، وليقتل إن استطاع كل نفس مؤمنة، وليذهب إن شاء إلى الكنيسة متبركًا بالقس، عابدًا للصليب، وليسب جَميع المرسلين ومن أرسلهم -سبحانه- علنًا ومجاهرة، وليسجد لكل ما قابله من صنم ووثن، فإن ذلك كله وغيره لا ينقص من إيمانه مقدار خردلة عندهم مادام يقر بأن اللَّه -جل شأنه- هو الفاطر للكائنات، ومادام يقر بأن مُحمَّدًا رسول اللَّه الذي أرسله بالوحي والقرآن، فإن كل ما عدا ذلك ليس إلا ذنوبًا، لا توقع صاحبها فِي الكفر.

هذا هو معنَى الإرجاء عند غلاة المرجئة الجهمية، إخوان الشيطان، وأهل البهت والكفران.

وأما الإرجاء الذي ينسب إلى بعض السلف، كالحسن البصري وغيره؛ فمعناه التفويض فِي أمر مرتكب الكبيرة إذا مات ولَم يتب منها، بِمعنى عدم القطع له بشيء، بل إن شاء اللَّه عذبه عليها، وإن شاء عفا عنه، فهذا الإرجاء لا يضر، بل هو مذهب أهل الحق،

قابلوا به قول الخوارج : إن مرتكب الكبيرة إذا مات ولَم يتب منها فهو كافر مخلد فِي النار .

فَأَضِفْ إِلَى الْجِيمَيْنِ جِيمَ تَجَهُّم ... وَانْفِ الصِّفَاتِ وَأَلْقِ بِالأَرْسَانِ

قُلْ لَيسَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ عَالِمٌ ... بِسَرَائِرٍ مِنَّا وَلَا إِعْلَانِ

بَلْ لَيسَ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو سَمْعٍ وَلَا ... بَصَرٍ وَلَا عَدْلٍ وَلَا إِحْسَانِ

قُلْ لِيسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... عَدَمِ الَّذِي لَا شَيءَ فِي الأَعْيَانِ

بَلْ لَيسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ مُتَكَلِّم ... بِأَوَامِرٍ وَزَوَاجِرٍ وَقُرَانِ

كَلَّا وَلَا كَلِمٌ إِلَيْهِ صَاعِدٌ ... أَبَدًا وَلَا عَمَلٌ لِذِي شُكْرَانِ

أَنَّى وَحَظُّ الْعَرْشِ مِنْهُ كَحَظِّ مَا ... تَحْتَ الثَّرَى عِنْدَ الْحَضِيضِ الدَّانِي

بَلْ نِسْبَةُ الرَّحْمَنِ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... لِلْعَرْشِ نِسْبَتُهُ إِلَى الْبُنْيَانِ

فَعَلَيهِمَا اسْتَوْلَى جَمِيعًا قُدْرَةً ... وَكِلَاهُمَا مِنْ ذَاتِهِ خِلْوَانِ

هَذَا الَّذِي أَعْطَتْهُ جِيمُ تَجَهُّمٍ ... حَشْوًا بِلَا كَيلٍ وَلَا مِيزَانِ

الشرح : عرفنا ما جنته جيم الجبر من نفي مسئولية العبد عن فعله ، وإلقاء اللوم كله على القدر ، وما انتهت إليه من التسوية بين الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وعرفنا كذلك ما جنته جيم الإرجاء من الإغراء بفعل المعاصي والمنكرات ، والتراخي فِي أداء الواجبات ؛ اتكالًا على الإيمان الناقص المبتور .

وأما ثالثها وهي جيم التجهم ، نسبة إلى رأس الفتنة : الجهم بن صفوان الترمذي ، إمام أهل التعطيل ، فتقتضي نفي صفات الرب -جل وعلا- والانطلاق فِي هذا النفي إلى أبعد حد كما أشار إليه المصنف بقوله : «وألق بالأرسان» فإن الأرسان جمع رسن ، وهو الحبل الذي تقاد به الدابة ؛ ليمنعها من الجري والجموح .

فقوله : «وألق بالأرسان» كناية على الانطلاق فِي النفي والإيغال فيه ، فينفي فوقية الرب على عرشه ، وعلوه على خلقه ، كما ينفي علمه الشامل المحيط بأحوال عباده ، فِي سرهم وجهرهم ، وينفي سمعه الذي وسع أصواتَهم مهما خافتوا بِها ، وينفي رؤيته لهم رؤية لا يحول دونَها حجاب ولا ظلمة ، ولا يؤثر فيها بُعْد ، ولا يغني منها تخفٍّ واستتار ، وينفي عدله الذي قامت به السموات والأرض ، وإحسانه الذي وسع جَميع خلقه ، بل لو حقق الأمر على هذا الجهمي الخبيث لوجد أنه لا يعبد إلا عدمًا ، لا حقيقة له فِي عالم الأعيان ، بل إنَّما يفرض فِي الأذهان ، ولا يؤمن بأن فوق العرش إلَهًا متكلمًا على الحقيقة بأوامر

ونواهٍ، ومتكلمًا بالقرآن، والتوراة والإنجيل، بل يقول: إن معنَى كونه متكلمًا: أنه خالق للكلام، ولا يؤمن كذلك بأن كلام العباد يصعد إليه، ولا أن أعمالهم ترفع عنده، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وكيف يؤمن بذلك وهو لا يقر بوجوده فوق عرشه؟! بل يرى أن حظ العرش منه -سبحانه- كحظ أسفل مكان، وهو الذي عند مركز الأرض المسمى بالحضيض، وأن نسبته تعالى للعرش كنسبته إلى بيته الحرام، فكما أنه ليس ساكنًا فِي البيت مع إضافته إليه، فكذلك ليس مستويًا على العرش، بل هو مستولٍ عليهما جميعًا بقدرته، وكلاهما خالٍ من وجوده بذاته فيه.

هذا هو ما أفادته جيم الجهم من تعطيل الواحد الديان حشوًا بلا كيل، ولا ميزان.

* * *

تَاللَّهِ مَا اسْتَجْمَعْنَ عِنْدَ مُعَطِّلٍ ... جِيمَاتُهَا وَلَدَيْهِ مِنْ إِيمَانِ

وَالْجَهْمُ أَصَّلَهَا جَمِيعًا فَاغْتَدَتْ ... مَقْسُومَةً فِي النَّاسِ بِالْمِيزَانِ

وَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى التَّحْقِيقِ هُمْ ... أَصْحَابُهَا لَا شِيعَةُ الإِيمَانِ

لَكِنْ تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ ... ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسُّهْمَانِ

لَكِنْ نَجَا أَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَحْضِ أَتْـ ... بَاعُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو الْقُرْآنِ

عَرَفُوا الَّذِي قَدْ قَالَ مَعْ عِلْمٍ بِمَا ... قَالَ الرَّسُولُ فَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

وَسِوَاهُمُ فِي الْجَهْلِ وَالدَّعْوَى مَعَ الْـ ... كِبْرِ الْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ الْهَذَيَانِ

مَدُّوا يدًا نَحْوَ الْعُلَا بِتَكَلُّفٍ ... وَتَخَلُّفٍ وَتَكَبُّرٍ وَتَوَانِ

أَتُرَى يَنَالُوهَا وَهَذَا شَأْنُهُمْ ... حَاشَى الْعُلَا مِنْ ذَا الزَّبُونِ الْفَانِي

الشرح: يقسم المؤلف باللَّه العظيم أن هذه الجيمات الثلاث ما اجتمعت عند أحد وبقي عنده شيء من الإيمان، وكيف يبقى له إيمانه، وقد رأيت ما ترتب على كل واحدة منها من أنواع الكفر والضلال، فكيف بِها إذن لو اجتمعت؟!

لا شك أن من كتب عليه أن تجتمع هذه الخلايا فيه فيكون جبريًا مرجئًا جهميًّا، يصير بِها من العتاة فِي الكفر والإلحاد.

والجهم بن صفوان الترمذي -قبحه اللَّه- هو الذي أسس قواعد هذه الضلالات

الثلاث، فغدت من بعده قسمة بين أصحاب المذاهب والمقالات، كل منهم يأخذ منها بنصيب مقدور، وهؤلاء الذين شايعوا جهمًا فِي ضلالاته هم ورإؤه على الحقيقة وإن كان نصيب كل منهم من هذه التركة الوبيئة يختلف عن الآخر، فمنهم صاحب السهم الواحد، ومنهم صاحب السهمين، ومنهم صاحب السهمان الكثيرة.

وأما أهل الحديث الصرف، من أتباع الرسول وجند القرآن؛ فقد نجو من التلبس بشيء منها؛ لأنَّهم عرفوا ما قاله القرآن، وما جاء به الرسولﷺ، فاستمسكوا بنصوص الوحيين، واستضاءوا بذينك النورين، ولَم يكترثوا لما خالفهما.

وأما سواهم؛ فهو يرتع فِي جهله ودعاواه العريضة، مع ما فيه من الصلف والتكبر وكثرة الخلط والهذيان.

ومن العجيب: أنه ينشد المعالي ويمد إليها يده مع تكلفه وتخلفه وتكبره وتوانيه، فهل تظنه ينالها إلا كل من قدم لَها غالي الأثمان، من جِدٍّ وصبر ومثابرة وتواضع وتقوى وإيمان؟!

فصل في جواب الرب -تبارك وتعالى- يوم القيامة إذا سأل المعطل والمشبه عن قول كل منهما

وَسَلِ الْمُعَطِّلَ مَا تَقُولُ إِذَا أَتَى ... فِئَتَانِ عِنْدَ اللهِ يَخْتَصِمَانِ

إِحْدَاهُمَا حَكَمَتْ عَلَى مَعْبُودِهَا ... بِعُقُولِهَا وَبِفِكْرَةِ الأَذْهَانِ

سَمَّتْهُ مَعْقُولًا وَقَالَتْ إِنَّهُ ... أَوْلَى مِنَ الْمَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ

وَالنَّصُّ قَطْعًا لَا يفِيدُ فَنَحْنُ أَوْ ... وَلْنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلَانِ

قَالَتْ وَقُلْنَا فِيكَ لَسْتَ بِدَاخِلٍ ... فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الأَكْوَانِ

وَالْعَرْشَ أَخْلَيناهُ مِنْكَ فَلَسْتَ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ لَسْتَ بِقَابِلٍ لِمَكَانِ

وَكَذَاكَ لَسْتَ بِقَائِلِ الْقُرْآنِ بَلْ ... قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

وَنَسَبْتَهُ حَقًّا إِلَيكَ بِنِسْبَةِ التْـ ... ـتَشْرِيفِ تَعْظِيمًا لِذِي الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... إِنَّ النُّزُولَ صِفَاتُ ذِي الْجُثْمَانِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا لَسْتَ ذَا وَجْهٍ وَلَا ... سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ فَكَيفَ يدَانِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا وَلَا يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
وَكَذَاكَ قُلْنَا مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ ... مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانِ
مَا ثَمَّ غَيرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مَثَلًا عَلَى مَثَلٍ بِلَا رُجْحَانِ
لَكِنْ مِنَّا مَنْ يقُولُ بِحِكْمَةٍ ... لَيسَتْ بَوَصْفٍ قَامَ بِالرَّحْمَنِ
هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا ... وَعُقُولُ أَشْيَاخٍ ذَوِي عِرْفَانِ
قَالُوا لَنَا لَا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الْـ ... ـوَحْيَينِ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإيمَانِ
بَلْ فِكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إنْ شِئْتُمُ ... أَوْ فَاقْبَلُوا آرَاءَ عَقْلِ فُلَانِ
فَلأَجْلِ هَذَا لَمْ نُحَكِّمْ لَفْظَ آ ... ثَارٍ وَلَا خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ
إذْ كُلُّ تِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... مَعْزُولَةٌ عَنْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

الشرح: يصور لنا المؤلف فِي هذه الأبيات الرائعة مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، حين يجمع اللَّه المتخاصمين فيه؛ ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، هنالك يظهر الحق، ويعلو، ويذهب بأصحابه إلى الجنة بررة مكرمين، ويسفل الباطل، ويخزى، ويذهب بأتباعه إلى العذاب المهين، فيقول: سل هذا المعطل الجاحد لصفات رب العالمين، ماذا يكون جوابك عندما تجتمع الفئتان المختصمتان عند اللَّه؟

أما إحداهما، وهي فئة التعطيل والإنكار؛ فقد كذبت على ربِّها، وقالت عليه ما لا تعلم، وعولت فِي ذلك لا على القرآن والآثار، بل على ما عندها من زبالات الأذهان والأفكار، وسمت ذلك دلائل عقلية، وقدمتها على النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، وزعمت أنَّها أولى باسم البرهان من تلك النصوص؛ لأنَّها يقينية، وأما النصوص؛ فلا تفيد إلا غلبة ظن، لا يغني فِي باب الاعتقاد، ولهذا تراهم إذا تعارض ظاهر النص مع ما يزعمونه قواطع عقلية، فإنَّهم إما أن يؤولوا النص بما يصرفه عن هذا الظاهر إلى معنًى آخر يكون موافقًا لما حكم به العقل، وإما أن يفوضوا فِي معنَى النص فيقولوا: لا نعلم المراد به، وإن كنا نعلم أن هذا الظاهر غير مراد.

وكذلك تجيب هذه الفئة الجاحدة ربَّما يوم القيامة بأنَّها كانت تقوم عليه بأنه ليس داخل هذا العالم ولا خارجه، وأن العرش خلو منه، فهو ليس فوق العرش بذاته، زعمًا منهم أنه لا يجوز عليه الحلول فِي المكان؛ لأن ذلك عندهم من خصائص الأجسام، وبأنه ليس هو المتكلم بالقرآن إذ لا يجوز عليه الحرف والصوت، بل إنَّما هو قول رسوله ﷺ ،

وإنَّما نسبه سبحانه إلى نفسه تشريفًا له وتعظيمًا لقارئه، وبأنه لا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، كما صرح الحديث الصحيح بذلك؛ لأن النُّزول من صفات الأجسام، وبأنه ليس له وجه ولا سمع ولا بصر، ومن باب أولى لا يكون له يدان، وبأن رؤيته بالأبصار مستحيلة فِي هذه الدنيا وفي الآخرة، إذ لا جهة له، وما لا يكون فِي جهة لا تمكن رؤيته، وبأنه ليس لأفعاله حكمة تفعل من أجلها، ويخصص كل فعل منها بزمانه بسببها، بل ليس هناك إلا مجرد مشيئة ترجح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، دون أن يكون فِي أحدهما ما يقتضي رجحانه وتعلق المشيئة به.

ومنهم من يثبت الحكمة، لكن لا يجعلها صفة قائمة بذاته سبحانه، بل يجعلها قائمة بالمفعول، وتجيب أيضًا هذه الفئة الباغية ربما بأننا إنَّما حكمنا عليها بِما اقتضته عقولنا، وبِما أخذناه من شيوخنا الذين كنا نظن فيهم التحقيق والعرفان، والذين كانوا يحذروننا من الأخذ بظواهر الوحيين من الكتاب والسنة، ويرون ذلك خروجًا من ربقة الإيمان، ويزعمون لنا أن العقائد لا يرجع فيها إلا إلى حكم العقل، فيقولون لنا: فكروا بعقولكم وإلا فقلدوا فِي عقيدتكم من سبقكم من العقلاء، فلأجل هذا الذي قالوه لنا؛ لَم نحكم فِي عقيدتنا لفظ آثار ولا أخبار ولا قرآن، وإنَّما جرينا معهم فيما أسسوه لنا من إفك ومن بُهتان.

فصل

وَالآخَرُونَ أَتَوْا بِمَا قَدْ قَالَهُ ... مِنْ غَيرِ تَحْرِيفٍ وَلَا كِتْمَانِ

قَالُوا تَلَقَّينَا عَقِيدَتَنَا عَنِ الْـ ... ـوَحْيَينِ بِالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

فَالْحُكْمُ مَا حَكَمَا بِهِ لَا رَأْيَ أَهْـ ... ـلِ الإِخْتِلَافِ وَظَنُّ ذِي الْحُسْبَانِ

آرَاؤُهُمْ أَحْدَاثُ هَذَا الدِّينِ نَا ... قِضَةٌ لأَصْلِ طَهَارَةِ الإِيمَانِ

آرَاؤُهُمْ رِيحُ الْمَقَاعِدِ أَيْنَ تِلْـ ... ـكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رَيحَانِ

قَالُوا وَأَنْتَ رَقِيبُنَا وَشَهِيدُنَا ... مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ

إِنَّا أَبَينَا أَنْ نَدِينَ بِبِدْعَةٍ ... وَضَلَالَةٍ أَوْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

لَكِنْ بِمَا قَدْ قُلْتَهُ أَوْ قَالَهُ ... مَنْ قَدْ أَتَانَا عَنْكَ بِالْفُرْقَانِ

وَكَذَاكَ فَارَقْنَاهُمُ حِينَ احْتِيَا ... جِ النَّاسِ لِلأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ

كَيْ لَا نَصِيرَ مَصِيرَهُمْ فِي يَوْمِنَا ... هَذَا وَنَطْمَعُ مِنْكَ بِالْغُفْرَانِ

الشرح: وأما الآخرون، وهم أهل الحق؛ فقد أتوا إلى ربِّهم سليمة عقائدهم من أدران التعطيل والإلحاد، لَم يتبعوا فيها إلا ما قاله هو سبحانه من غير تحريف له عن أصل وضعه، ولا صرف له عن ظاهره، ومن غير ما جحد له ولا كتمان.

قالوا لربِّهم حين سألهم: إنَّما تلقينا عقيدتنا عن الوحيين من القرآن والأخبار، فهما مصدر ديننا كله، فلا حكم عندنا إلا لهما، ولا مرجع إلا إليهما، فلا نقدم عليهما قول أحد، ولا رأيه، ولا نعارض حكمهما بقضية عقل، ولا غيره، ولا نعدل عنهما إلى رأي هؤلاء المختلفين المضطربين الذين يحسبون أنَّهم على شيء، وهم ضلال عن الحق المبين، آراؤهم مفسدة للدين إفساد الحدث لطهارة المتطهرين، فكما ينقض الحدث الطهارة الحاصلة بالوضوء، تنقض آراؤهم أصل طهارة الإيمان، فهي كهذا الفساء والضراط الخارجين من الدبر، فأين تلك الريح المنتنة مِمَّا جاء به الوحيان من روح وريحان؟!

وقال أهل الحق لربِّهم كذلك: أنت كنت الرقيب علينا من فوق عرشك، تسمعنا وترانا، وتعلم سرنا وعلانيتنا، لا يخفى عليك شيء من أمرنا، فأنت تعلم أنا قد أبينا أن ندين بالبدع والضلالات أو نقول بقول الأفاكين ذوي البهتان والجهالات، بل لَم نقل إلا بِما قلته أنت فِي كتابك الحكيم، أو قاله رسولك مُحمَّدﷺ فيما صح عنه، لَم نتجاوز ذلك قيد أنملة، ولَم نركن إلى هؤلاء المبتدعة، بل عاديناهم فيك، وفارقناهم رغم احتياجنا إلى الأنصار والأعوان، وإنا خشينا أن تجر علينا صحبتهم أن نصير إلى ما صاروا إليه من ذلة وهوان فِي يوم نطمع منك فيه بالغفران.

* * *

فَمَنِ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ

لَابُدَّ أَنْ نَلْقَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمُ ... فِي مَوْقِفِ الْعَرْضِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

وَهُنَاكَ يَسْأَلُنَا جَمِيعًا رَبُّنَا ... وَلَدَيْهِ قَطْعًا نَحْنُ مُخْتَصِمَانِ

فَنَقُولُ قُلْتَ كَذَا وَقَالَ نَبِيُّنَا ... أَيْضًا كَذَا فَإِمَامُنَا الْوَحْيَانِ

فَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلٌ بَعْدَ ذَا ... نَحْنُ الْعَبِيدُ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

أَفَتَقْدِرُونَ عَلَى جَوَابٍ مِثْلَ ذَا ... أَمْ تَعْدِلُونَ عَلَى جَوَابٍ ثَانِ

مَا فِيهِ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... بَلْ فِيهِ قُلْنَا مِثْلَ قَوْلِ فُلَانِ

وَهْوَ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيهِ عُقُولُنَا ... لَمَّا وَزَنَّا الْوَحْيَ بِالْمِيزَانِ
إِنْ كَانَ ذَلِكُمُ الْجَوَابُ مُخَلِّصًا ... فَامْضُوا عَلَيهِ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ
تَاللهِ مَا بَعْدَ الْبَيَانِ لِمُنْصِفٍ ... إِلَّا الْعِنَادُ وَمَرْكَبُ الْخِذْلَانِ

الشرح : يعني : إذا كنا نحن معشر أهل الحق قد وقفنا عند نصوص الوحيين واستضأنا بنورهما ، ولَم نقل إلا بقولهما ، وكنتم أنتم معشر أهل التعطيل قد عزلتم هذه النصوص وجعلتموها وراءكم ظهريًا ، وعولتم على عقولكم وحدها ، وجعلتم لَها الحكم فيما يثبت وينفى ، ولَم ترفعوا بالوحي رأسًا ، فمن أحق منا ومنكم أن يأتي ربه آمنًا يوم القيامة؟!

وإذا ظهر الحق على جليته ، وبان الفرق الهائل بيننا وبينكم ؛ فليختر كل عاقل لنفسه ما يعتقد أن فيه نجاته من عذاب اللَّه ، فإننا لابد ملاقوه نحن وأنتم فِي مشهد يوم عظيم ، يوم يوقفنا بين يديه للعرض والحساب ، فيسألنا جميعًا عما قدمناه لهذا اليوم ، فنختصم عنده ، ويقول كلٌّ منا ما كان يدين به ، ويعتقده .

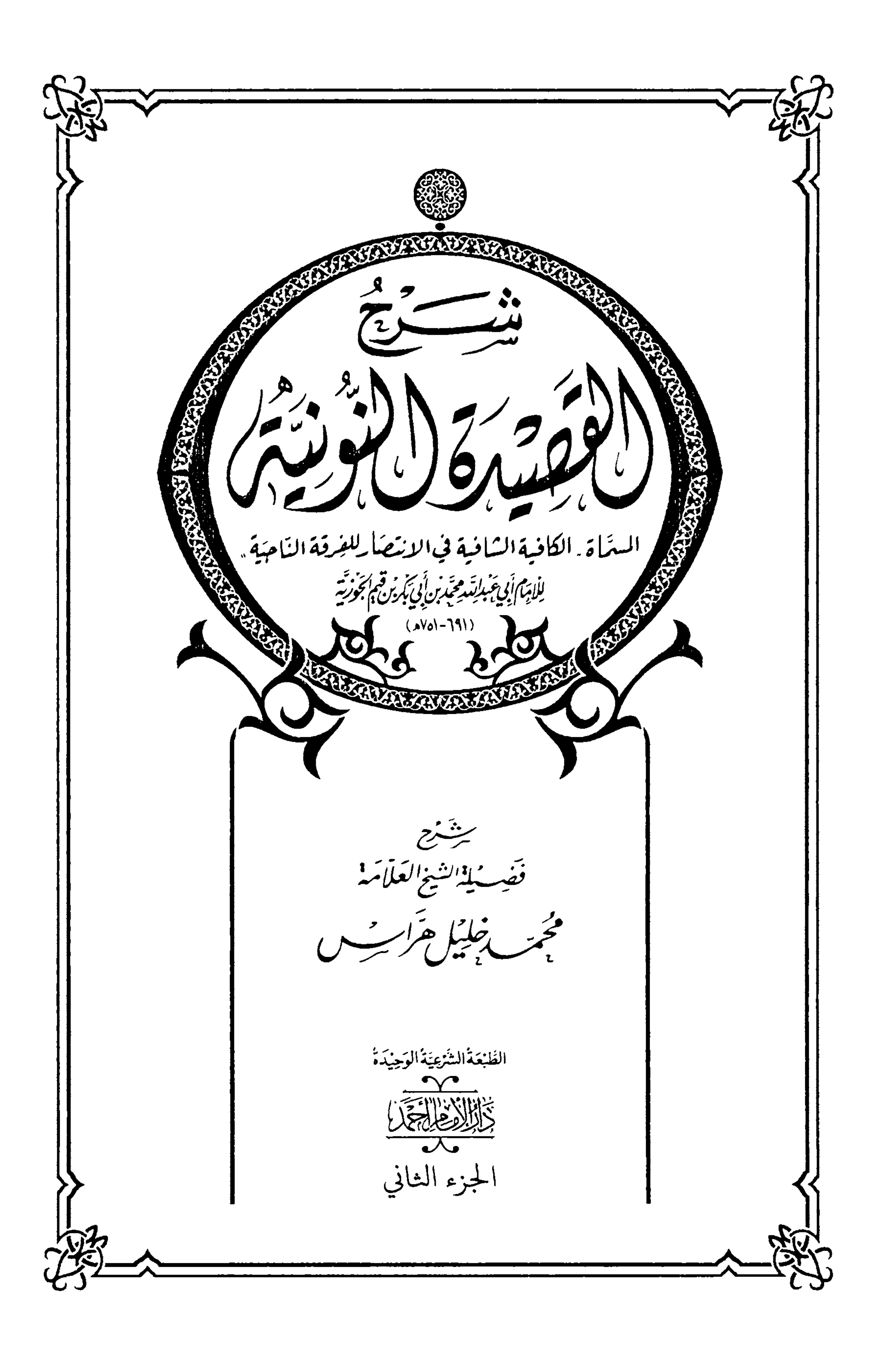
أما نحن فنقول له سبحانه : إنك قلت فِي كتابك كذا فاتبعنا ، وقال نبينا ﷺ أيضًا كذا فأطعنا ، قد جعلنا الوحي إمامنا وقدوتنا ، وقد قدمنا عليك وأنت رب كريم ، فافعل بنا ما أنت أهل له من الكرم والجود ، فنحن العبيد وأنت الرب ذو الفضل والإحسان .

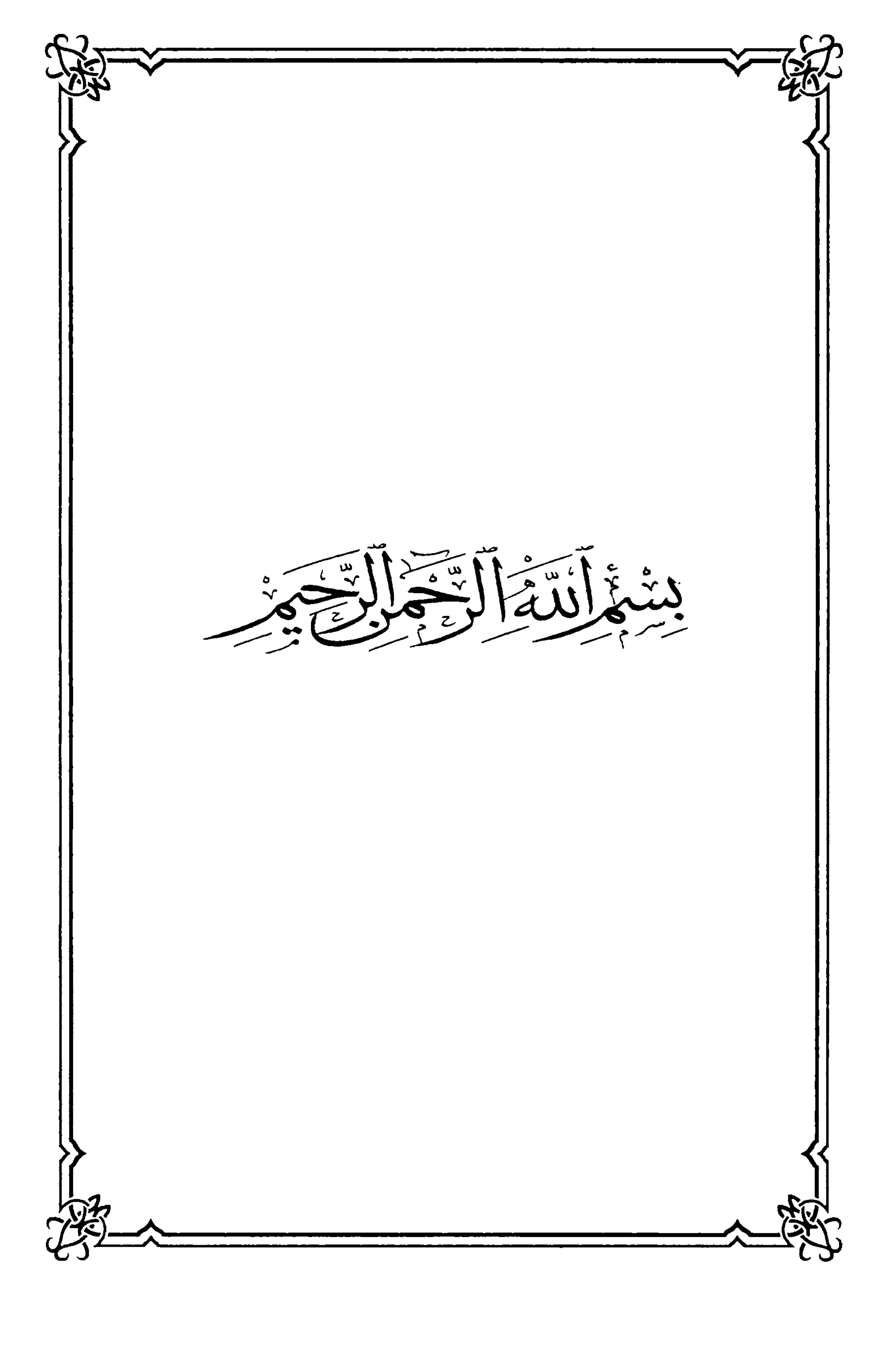
ولكنكم لن تقدروا على مثل هذا الجواب ، بل ستجدون أنفسكم مضطرين للعدول عنه إلى جواب آخر ، ليس فيه اعتراف باتباع ما قاله اللَّه ورسوله ، بل ستقولون لربكم حين يسألكم : قلنا مثل ما قاله فلان أو فلان ، مِمَّا اهتدينا إليه بعقولنا حين وزنا الوحي ، فرأيناه لا يصلح للاهتداء به فِي هذا المجال .

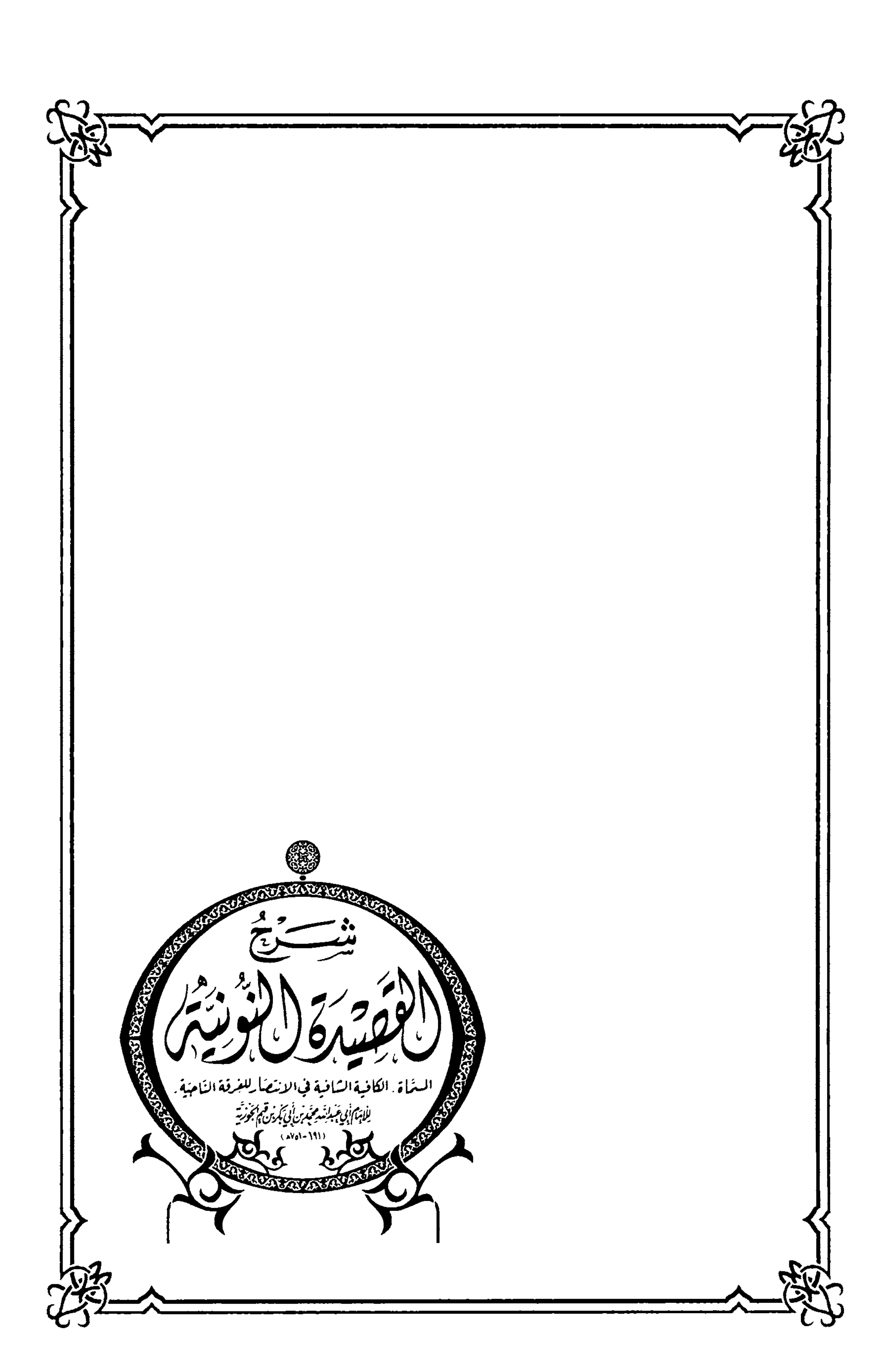
فهل تظنون أن مثل هذا الجواب يصلح أن يكون مخلصًا لكم من عذاب اللَّه؟!

إن كان ذلك ؛ فاستمروا عليه ، وغدًا سترون أنه لن يغني عنكم شروى نقير ، أما نحن ؛ فقد أعذرنا إليكم وبيَّنا لكم الحق ، فأبيتم إلا العناد واللجاجة فِي الباطل ، وتلك علامة الخذلان ونفخة الشيطان .

* * *


شرح
القصيدة النونية
المسماة "الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية"
للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
(٦٩١-٧٥١هـ)
شرح
فضيلة الشيخ العلامة
محمد خليل هراس
الطبعة الشرعية الوحيدة
دار الإمام أحمد
الجزء الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم


شرح
القصيدة النونية
المسماة. الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.
للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
(٦٩١-٧٥١هـ)

الطبعة الأولى لـ :



١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠١٣/٢٤٤١٧م

الترقيم الدولي : ٤-١٤-٦٤٢٥-٩٧٧-٩٧٨

دار الإمام أحمد

٦ شارع عزيز فانوس منشية التحرير جسر السويس - القاهرة

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس : ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال : ٠٠٢/٠١٠٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال : ٠٠٢/٠١٠٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com
WWW. DarAlemamAhmad.Com

فصل في تحميل أهل الإثبات للمعطلين شهادة تؤدى عند رب العالمين

يَـا أَيـهَـا الْـبَـاغِـي عَـلَـى أَتْـبَـاعِـهِ ... بِـالـظُّـلْـمِ وَالْـبُـهْـتَـانِ وَالْـعُـدْوَانِ
قَـدْ حَـمَّـلُـوكَ شَـهَـادَةً فَـاشْـهَـدْ بِـهَـا ... إِنْ كُـنْـتَ مَـقْـبُـولًا لَـدَى الـرَّحْـمَـنِ
وَاشْـهَـدْ عَـلَـيـهِـمْ إِنْ سُـئِـلْـتَ بِـأَنَّـهُـمْ ... قَـالُـوا إِلَـهُ الْـعَـرْشِ وَالأَكْـوَانِ
فَـوْقَ الـسَّـمَـوَاتِ الْـعُـلَا حَـقًّـا عَـلَـى الْـ ... عَـرْشِ اسْـتَـوَى سُـبْـحَـانَ ذِي الـسُّـلْـطَـانِ
وَالأَمْـرُ يـنْـزِلُ مِـنْـهُ ثُـمَّ يـسِـيـرُ فِـي الْـ ... أَقْـطَـارِ سُـبْـحَـانَ الْـعَـظِـيـمِ الـشَّـانِ
وَإِلَـيـهِ يَـصْـعَـدُ مَـا يـشَـاءُ بِـأَمْـرِهِ ... مِـنْ طَـيِّـبَـاتِ الْـقَـوْلِ وَالـشُّـكْـرَانِ
وَإِلَـيـهِ قَـد صَـعِـدَ الـرَّسُـولُ وَقَـبْـلَـهُ ... عِـيـسَـى بْـنُ مَـرْيـمَ كَـاسِـرُ الـصُّـلْـبَـانِ
وَكَـذَلِـكَ الأَمْـلَاكُ تَـصْـعَـدُ دَائِـمًـا ... مِـنْ هَـاهُـنَـا حَـقًّـا عَـلَـى الـدَّيَّـانِ
وَكَـذَاكَ رُوحُ الْـعَـبْـدِ بَـعْـدَ مَـمَـاتِـهَـا ... تَـرْقَـى إِلَـيـهِ وَهْـوَ ذُو إِيـمَـانِ

الشرح: ينادي المؤلف هؤلاء البغاة الخارجين عن مذهب أهل الحق، المتجنين عليهم بالظلم والعدوان، والرامين لهم بالإفك والبهتان، بأنَّهم قد حملوهم شهادة يؤدونَها عنهم عند اللَّه يوم القيامة إن كانوا أهلًا لتحمل الشهادة بأن يكونوا عدولًا أمناء، فليشهدوا عليهم إن سئلوا عنهم بأنَّهم كانوا يصرحون بأن اللَّه فوق سمواته، مستوٍ على عرشه، يدبر شئون خلقه، وأن الأمور تنزل من عنده، ينزل بِها ملك الوحي، ثُمَّ تسير فِي أقطار السموات والأرض، وأنه يصعد إليه ما يشاء من كلام العباد وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. وأن الرسول ﷺ قد صعد إليه ليلة المعراج حَتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، فكلمه وناجاه، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة، وأنه سبحانه قبل ذلك قد رفع إليه عيسى بن مريم بجسده حيًّا، كما قال تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وسينزل قرب قيام الساعة، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية كما ورد الحديث بذلك، وأن الملائكة الموكلين بأعمال العباد يصعدون بِها على الدوام متعاقبين بالليل والنهار، ويعرضونَها على رب العالمين، وقد سبق ذكر الحديث الدال على ذلك من رواية أبي هريرة، وأن روح المؤمن ترقى بِها ملائكة الرحمة حَتَّى يبلغوا بِها الرب -جل شأنه- فتعرض عليه، ثُمَّ ترد إلى روح وريحان، فسبحان من له العلو كله: ذات وقهر وقدرة ورفعة شأن.

وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
سَمِعَ الأَمِينُ كَلامَهُ مِنْهُ وَأَدْ ... دَاهُ إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ
هُوَ قَوْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةً ... لَفْظًا وَمَعْنًى لَيسَ يَفْتَرِقَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ
سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُولُ كَلَامَهُ ... مِنْهُ إِلَيهِ مَسْمَعَ الآذَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ اللهَ نَادَاهُ بِلَا كِتْمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ اللهَ نَادَى قَبْلَهُ الأَبَوَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ
وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ ... إِنِّي أَنَا اللهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ
وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ ... اذْهَبْ إِلَى فِرْعَونَ ذِي الطُّغْيَانِ
وَاللهُ قَالَ بِنَفْسِهِ حَم مَعْ ... طَهَ وَمَعَ يس قَوْلَ بَيَانِ

الشرح: وليشهدوا عليهم كذلك بأنه سبحانه تكلم بالقرآن بصوت نفسه كلامًا حقيقيًّا سمعه منه الأمين جبريل عليه السلام ثُمَّ أداه إلى النَّبِي ﷺ كما سمعه، فهو قول اللّه على الحقيقة لفظه ومعناه لا يجوز القول بأن معناه من عند اللّه، وأما ألفاظه فمن اختراع جبريل أو مُحمَّد -عليهما السلام- إلى آخر ما يقوله المفترون الذين جعلوا القرآن عضين.

وليشهدوا عليهم كذلك أنه سبحانه كلم موسى بن عمران -عليه الصلاة والسلام- بكلام حقيقي مؤلف من حروف وأصوات سمعها موسى عليه السلام بأذنه، وعلم أن الذي يكلمه هو اللّه عز وجل وليس بكلام خلقه فِي الهواء أو فِي الشجرة أو بإلقاء المعاني فِي قلب موسى مجردة عن الألفاظ، كما يزعم أهل التعطيل.

وليشهدوا عليهم أنَّهم قالوا بأن اللّه سبحانه نادى موسى بصوت سمعه، وأنه قربه نجيًّا، كما صرحت الآيات بذلك، وأنه نادى من قبله الأبوان آدم وحواء معاتبًا لهما على الأكل من الشجرة واقتراف الخطيئة، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[الأعراف: ٢٢]. وأنه ينادي عباده يوم القيامة بصوت يسمعه الثقلان من الإنس والجن كما فِي الحديث، وأنه هو سبحانه الذي قال بنفسه لرسوله وكليمه موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[طه: ١٤]. وهو الذي قاله له بنفسه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[طه: ٢٤]. وهو الذي تكلم، وقال بنفسه: حم، وطه، ويس، وغيرهما من

الفواتح قولًا بيِّنًا لا خفاء فيه ولا اشتباه.

* * *

وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الإلَـ ـهَ بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً مِنْ غَيرِ تَحْرِيفٍ وَلَا عُدْوَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ وَكَلَامَ رَبِّ الْعَرْشِ ذَا التِّبْيَانِ
نَصٌّ يفِيدُ لَدَيْهِمُ عِلْمَ الْيَقِيـ ـنِ إفَادَةَ الْمَعْلُومِ بِالْبُرْهَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التَّـ ـعْطِيلَ وَالتَّمْثِيلَ بِالنُّكْرَانِ
إنَّ الْمُعَطِّلَ وَالْمُمَثِّلَ مَا هُمَا مُتَيَقِّنِينَ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ
ذَا عَابِدُ الْمَعْدُومِ لَا سُبْحَانَهُ أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ أَسْمَاءَ وَالأَوْصَافَ لِلدَّيَّانِ
وَكَذَلِكَ الأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا تِ وَهَذِهِ الأَرْكَانُ لِلإِيمَانِ

الشرح: وليشهد هؤلاء المعطلة على أهل الحق بأنَّهم يصفون اللَّه ﷻ بكل ما وصف به نفسه فِي كتابه، وبكل ما وصفه به رسوله ﷺ، ويعتقدون حقيقة ما دلت عليه النصوص من تلك الصفات، لا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يعتدون على النصوص بصرفها عن حقيقتها إلى المجاز، ويعتقدون أن كلام اللَّه ﷻ وكلام رسوله ﷺ فِي باب الأسماء والصفات نصوص صريحة فِي معانيها، فهي تفيد من العلم اليقيني ما تفيده البراهين العقلية القائمة على الضروريات.

وليشهدوا عليهم بأنَّهم ينكرون أشد الإنكار كلًّا من التعطيل والجحد للصفات والتمثيل والتشبيه بالمخلوقات، ويعتقدون أن كلًّا من المعطل والممثل ليسوا من عبادة الرحمن على يقين.

بل الأول: يعبد عدمًا؛ حيث نفى عن ربه من الصفات ما لا يعقل وجود الموصوف بدونه ووصفه بصفات المعدوم.

والثاني: وهو الممثل، يعبد صنمًا؛ لأنه يعبد اللَّه على الصورة الَّتِي رسمها له فِي خياله، وهي لا تفترق عن تلك المنحوتة من الحجارة.

وليشهدوا عليهم بأنَّهم فِي باب الإثبات لا يثبتون الأسماء دون الصفات كالمعتزلة،

ولا يثبتون الصفات دون الأحكام، بل يثبتون كلًّا من الأسماء والصفات والأحكام، وهذه كلها عندهم أركان للإيمان.

* * *

قَالُوا عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَيَعْـ لَمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْلَانِ

وَكَذَا بَصِيرٌ وَهْوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبْـ صِرُ كُلَّ مَرْئِيٍّ وَذِي الأَكْوَانِ

وَكَذَا سَمِيعٌ وَهْوَ ذُو سَمْعٍ وَيَسْـ مَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ مِنَ الأَكْوَانِ

مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلَامٌ وَصْفُهُ وَيُكَلِّمُ الْمَخْصُوصَ بِالرِّضْوَانِ

وَهْوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ وَمَلِيكُ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ

وَهْوَ الْمُرِيدُ لَهُ الإِرَادَةُ هَكَذَا أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الإِحْسَانِ

وَالْوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بِالذَّاتِ وَالْـ أَسْمَاءُ أَعْلَامٌ لَهُ بِوِزَانِ

أَسْمَاؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعَانِ

وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ

وَالْحُكْمُ نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلِّقَا تٍ تَقْتَضِي آثَارُهَا بِبَيَانِ

وَلَرُبَّمَا يُعْنَى بِهِ الإِخْبَارُ عَنْ آثَارِهَا يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ

وَالْفِعْلُ إِعْطَاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَا مَعْ قُدْرَةِ الْفَعَّالِ وَالإِمْكَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ فَجَمِيعُ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

الشرح: فهم يثبتون الاسم الكريم، فيقولون: هو عليم. ويثبتون الصفة، فيقولون: هو ذو علم. ويثبتون الحكم الذي هو تعلق الصفة بمتعلقاتها الَّتِي هي آثارها، فيقولون: إنه يعلم كل شيء من الظواهر والخفيات، والماضيات والمستقبلات والواجبات والجائزات والمستحيلات.

وكذلك يقولون: هو بصير وذو بصر وبصيرة، متعلق بكل ما تصح رؤيته من الأشخاص والأكوان مهما لطفت. ويقولون: هو سميع يسمع، وسمعه يتعلق بكل مسموع من الأصوات مهما خفتت، ويقولون: هو متكلم، وله كلام هو صفة قائمة به، وهو قدرته على أن يتكلم متى شاء وكيف شاء، وأنه يكلم بالفعل من خصه من عباده بالرضا، وجعله أهلًا لسماع كلامه.

ويقولون : هو قوي بقوة هي وصفه ، وقوته قاهرة لكل ذي سلطان من خلقه ، وبِها يقدر على كل شيء ، ويقولون : هو مريد بإرادة هي صفة قائمة به ، وتحدث فِي ذاته آحادها ، فهو لَم يزل مريدًا لما يشاء كونه وإحداثه ، ومريدًا لنفع خلقه والإحسان إليهم .

والوصف هو المعنى القائم بالذات من العلم والقدرة والسمع والبصر . . . إلخ .

وأما الأسماء فهي أعلام له سبحانه مشتقة من صفاته ، إلا أن منها ما غلبت عليه العلمية حَتَّى صار كالأسماء الجامدة ، مثل الاسم الجليل «اللَّه» ؛ ولهذا يقع موصوفًا مخبرًا عنه ، ولا يقع صفة ولا خبرًا ، فأسماؤه تدل على صفاته من حيث إنَّها مشتقة منها ، فعليم مشتق من العلم ، وقدير من القدرة ، ومريد من الإرادة ، وهكذا .

وكذلك صفاته تدل على أسمائه ؛ وذلك لأن ثبوت الصفة لموصوف يدل على ثبوت المشتق منها له كذلك ، فثبوت العلم له يدل على اسمه العليم ، وثبوت القدرة يدل على اسمه القدير وهكذا .

وأما الفعل ، وهو كونه يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر . . . إلخ ، فله ارتباط بكل من الاسم والصفة جميعًا ، فهو يعلم لأنه عليم وذو علم ، ويقدر لأنه قدير وذو قدرة . . . وهكذا .

وأما الحكم ، فهو نسبة الصفات إلى متعلقاتِها بحيث تقتضي آثارها اقتضاء ظاهرًا ، فنسبة العلم إلى المعلومات الَّتِي هي متعلقاته ، بحيث تصير معلومة له بالفعل بذلك العلم هو ما يسمى بالحكم ، وتعلق القدرة بالمقدور ، بحيث يقع ذلك المقدور بِها هو ما يسمى بالحكم ، وكذلك تعلق الإرادة بالمرادات والسمع بالمسموعات . . . إلخ .

وقد يراد بالحكم الإخبار عن آثار الصفة ، كقولنا : اللَّه يعلم كذا ، ويريد كذا ، فهذا معلوم للَّه ، وهذا مراد للَّه ، فظهر أن الحكم قد يعني به هذا ، كما قد يعني به ما تقدم من نسبة الصفة إلى متعلقها .

وأما الفعل هو إعطاء الإرادة حكمها ، أي : تعلقها بالمراد مع شرط فِي الفاعل ، وهو القدرة على إبراز ذلك المراد وشرط فِي المراد نفسه ، وهو أن يكون ممكنًا غير مستحيل .

فإذا قيل بانتفاء صفاته تعالى كما تقول المعتزلة ؛ لَم يُمكن إثبات الأسماء والأحكام ، وكان ذلك كله ظاهر البطلان .

* * *

وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهَـ ... ذَا كُلِّهِ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنْ ... تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفٍ شَيطَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ يتَأَوَّلُو ... نَ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ
هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي ... يُعْنَى بِهِ لَا قَائِلُ الْهَذَيَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّ تَأْوِيلَاتِهِمْ ... صَرْفٌ عَنِ الْمَرْجُوحِ لِلرُّجْحَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو ... صَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازِ الثَّانِي
إِلَّا إِذَا مَا اضْطَرَّهُمْ لِمَجَازِهَا الْـ ... مُضْطَرُّ مِنْ حِسٍّ وَمِنْ بُرْهَانِ
فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا إِبَاحَتُهُ بِغَيـ ... ـرِ تَجَانُفٍ لِلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُو ... نَكُمُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ
إِذْ أَنْتُمُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ عِنْدَهُمْ ... لَسْتُمْ أُولِي كُفْرٍ وَلَا إِيمَانِ
لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْكُفْرَانِ بَلْ ... لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ
إِلَّا إِذَا عَانَدْتُمُ وَرَدَدْتُمُ ... قَوْلَ الرَّسُولِ لأَجْلِ قَوْلِ فُلَانِ
فَهُنَاكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَينِ مِنْ ... إِنْسٍ وَجِنٍّ سَاكِنِي النِّيرَانِ

الشرح: واشهد أيها المعطل على أهل الحق عند اللَّه كذلك أنَّهم يثبتون للَّه جَميع الأسماء الحسنى والصفات العليا وأحكام الصفات وآثارها فِي غير مواربة ولا خفاء، وأنَّهم من تأويل أهل الباطل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه براء.

واشهد عليهم كذلك أنَّهم متأولون، ولكن تأويلهم هو صرف اللفظ إلى حقيقته وبيان المعنى المراد منه، لا ما يقوله المعطلة من الهذيان والهراء، فتأويلهم إنَّما يقوم على صرف الألفاظ إلى معانيها الراجحة المتبادرة منها، لا حملها على معان بعيدة مرجوحة، وهم لا يحملون النصوص إلا على معانيها الحقيقية الَّتِي هي الأصل، ولا يصرفونَها إلى المجاز إلا إذا اضطرهم إلى ذلك ضرورة من الحس أو البرهان، فهناك تستباح ما للنصوص من عصمة، لكن بغير إفراط ولا مجاوزة للحد، بل بالقدر الذي أوجبته الضرورة، كما فِي أكل المضطر للميتة، ولكن النصوص الَّتِي يجب فيها ذلك من الكتاب والسنة قليلة جدًّا، ومع كل نص منها القرينة الَّتِي تدل على أنه مصروف عن حقيقته، ومع وجود القرينة لا يكون النص قد فهم منه إلا معناه المراد للمتكلم، وبذلك لا يكون هناك صرف للفظ عن معناه، بل

هناك حمل له على المعنى الذي يفيده السياق، وتدل عليه الفحوى، وحينئذ فلا صرف ولا مجاز.

واشهد عليهم كذلك أنَّهم لا يكفرون أهل التأويل والتعطيل بما يقولونه من كلمات الكفر حين ينفون عن الله ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله من صفات الكمال؛ لأنَّهم عندهم أهل جهالة يعذرون لجهلهم، فليسوا بكفار ولا مؤمنين إلا إذا أظهروا المشاقة والعناد، وردوا قول رسول الله ﷺ ردًا صريحًا من أجل قول أحد من الناس، فهناك يحكم عليهم بالكفر، بل يكونون أكفر الثقلين من الإنس والجن الذين هم أصحاب النار.

* * *

وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ	أَقْـدَارَ وَارِدَةً مِـنَ الـرَّحْـمَـنِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ	قَامَتْ عَلَيهِمْ وَهْوَ ذُو غُفْرَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو	نَ حَقِيقَةَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ
وَالْجَبْرُ عِنْدَهُمُ مُحَالٌ هَكَذَا	نَفْيُ الْقَضَاءِ فَبِئْسَتِ الرَّأْيَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْوَرَى	قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدُ جَنَانِ
وَيزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا هَكَذَا	بِالضِّدِّ يُمْسِي وَهْوَ ذُو نُقْصَانِ
وَاللهِ مَا إِيمَانُ عَاصِينَا كَإِيـ	ـمَانِ الأَمِينِ مُنَزِّلِ الْقُرْآنِ
كَلَّا وَلَا إِيمَانُ مُؤْمِنِنَا كَإِيـ	ـمَانِ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الإِيمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِدُوا	أَهْلَ الْكَبَائِرِ فِي حَمِيمِ آنِ
بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ	وَبِدُونِهَا لِمَسَاكِنٍ بِجِنَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمُ يُرَى	يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُو	لِ خِيَارُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ
حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ	خَيرُ الْبَرِيةِ خِيرَةُ الرَّحْمَنِ
وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ	وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ
وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَحَقُّ بِالتْـ	ـتَقْدِيمِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ بِبَيَانِ
كُلٌّ بِحَسْبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً	مِنْ لَاحِقٍ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

الشرح: واشهد عليهم أنَّهم لا ينفون القدر السابق على حصول الأشياء، كما نفته

القدرية والمعتزلة، بل يؤمنون بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وفي الحديث الصحيح: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن**». والآيات والأحاديث في إثبات القدر من الكثرة والصراحة بحيث لا تحتمل إنكارًا ولا تأويلًا.

ولكنهم مع إثبات القدر يرون أنه لا يصلح حجة لأحد على ما يقع فيه من الكفر والظلم وسائر المعاصي، بل يرون أن حجة الله قائمة على عباده بعد أن أوضح السبيل، وأزاح العلل، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد رد الله على المشركين في تعللهم بالقدر، وبين أن ذلك تخرص بغير علم، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩].

ويرون أن العباد هم الفاعلون حقيقة لأفعالهم من الطاعات والمعاصي، وإن كانت واقعة بقدر الله؛ ولهذا يستحقون عليها المدح والذم والثواب والعقاب.

ومذهبهم في ذلك وسط بين مذهب الجبرية الذين يرون أن العبد لا قدرة له ولا اختيار، وأنه ليس فاعلًا على سبيل الحقيقة، بل تنسب إليه أفعاله على أنه محلٌّ لجريانها، فيقال: صلى فلان وصام. كما يقال: طلعت الشمس، وهبت الريح. وبذلك لا يكون مسئولًا عنها، ولا مستحقًّا عليها ثوابًا أو عقابًا، وبين مذهب القدرية نفاة القدر الذين يزعمون أن العباد مستقلون بخلق أفعالهم الاختيارية دون تدخل أصلًا لقدرة الله ولا لإرادته فيها، وأنه لَم يشأها منهم، ولا قدرها عليهم، فبئس الرأيان من غالٍ في إثبات القدر إلى حد الجبر، ومقصرٍ فيه إلى حد نفي المشيئة عن فعل العبد.

واشهد عليهم بأنَّهم يرون أن الإيمان: تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، وأنه يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الكثيرة، بل هو قابل للزيادة والنقص باعتبار ركنه الأول الذي هو التصديق، فإنه لا يعقل أن يكون إيمان أحد العصاة من هذه الأمة كإيمان جبريل الأمين عليه السلام، ولا أن يكون إيمان أحد المؤمنين منا كإيمان النَّبِي الذي هو معلم الإيمان عليه السلام.

واشهد عليهم أنَّهم لا يحكمون بتخليد مرتكب الكبيرة فِي النار، كما تزعم الخوارج والمعتزلة، بل سيخرج منها سائر العصاة من الموحدين إما بشفاعة الشافعين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وإما برحمة أرحم الراحمين، ثُمَّ يدخلون الجنة بعد أن يتطهروا فِي نَهر الحياة، فينبتوا فيه كما تنبت الحبة فِي حميل السيل، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة.

واشهد عليهم أنَّهم يؤمنون برؤية المؤمنين لربِّهم ﷻ فِي الجنة بأبصارهم كما يُرى القمران -أي: الشمس والقمر- ليس دونَهما سحاب ولا ضباب، فلا ينكرون الرؤية كما تنكرها المعتزلة، ولا يؤولونَها بنوع من الكشف العلمي، كما يزعمه بعض من يسمونَهم بالمحققين من الأشاعرة.

واشهد عليهم أنَّهم يعتقدون أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ هم أفضل خلق اللَّه من الناس بعد النبيين، فالنبيون هم خير البرية على الإطلاق وخيرة اللَّه فِي خلقه، وأن الخلفاء الراشدين ﭫ هم خيار الصحابة، وخيار الخلفاء هما العمران -يعني: أبا بكر وعمر- وقد روي عن علي ﭬ أنه قال على منبر الكوفة: «ما مات رسول اللَّه ﷺ حَتَّى علمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر، وما مات أبو بكر حَتَّى علمنا أن أفضلنا بعده عمر». وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أحق بالتقديم مِمَّن أسلم بعدهم، وكل منهم فِي الفضل على حسب سبقه إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]. والفضل بعد ذلك بيد اللَّه وحده يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم.

فصل في عهود المثبتين مع رب العالمين

يَا نَاصِرَ الإِسْلَامِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

يَا مَنْ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَقَوْلُهُ ... وَلِقَاؤُهُ وَرَسُولُهُ بِبَيَانِ

اشْرَحْ لِدِينِكَ صَدْرَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... شَرْحًا يُنَالُ بِهِ ذُرَا الإِيمَانِ

وَاجْعَلْهُ مُؤْتَمًّا بِوَحْيِكَ لَا بِمَا ... قَدْ قَالَهُ ذُو الإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

وَانْصُرْ بِهِ حِزْبَ الْهُدَى وَاكْبِتْ بِهِ ... حِزْبَ الضَّلَالِ وَشِيعَةَ الشَّيْطَانِ

وَانْعِشْ بِهِ مَنْ قَصْدُهُ إِحْيَاؤُهُ ... وَاعْصِمْهُ مِنْ كَيْدِ امْرِئٍ فَتَّانِ

وَاضْرِبْ بِحَقِّكَ عُنْقَ أَهْلِ الزَّيغِ وَالتْ تَبْدِيلِ وَالتَّكْذِيبِ وَالطُّغْيَانِ
فَوَحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي وَجَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِي الْقُرْآنِ
وَكَتَبْتَ في قَلْبِي مُتَابَعَةَ الْهُدَى فَقَرأْتُ فِيهِ أَسْطُرَ الإِيمَانِ
وَنَشَلْتَنِي مِنْ حُبِّ أَصْحَابِ الْهَوَى بِحَبَائِلٍ مِنْ مُحْكَمِ الْفُرْقَانِ
وَجَعَلْتَ شِرْبِي الْمَنْهَلَ الْعَذْبَ الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَاءِ الْوَارِدِ الظَّمْآنِ
وَعَصَمْتَنِي مِنْ شِرْبِ سِفْلِ الْمَاءِ تَحْ تَ نَجَاسَةِ الآرَاءِ وَالأَذْهَانِ
وَحَفِظْتَنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الأُلَى حَكَمُوا عَلَيكَ بِشِرْعَةِ الْبُهْتَانِ
نَبَذُوا كِتَابَكَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ وَتَمَسَّكُوا بِزَخَارِفِ الْهَذَيَانِ
وَأَرَيْتَنِي الْبِدَعَ الْمُضِلَّةَ كَيفَ يُلْ قِيهَا مُزَخْرَفَةً إِلَى الإِنْسَانِ
شَيطَانُهُ فَيظَلُّ يَنْقُشُهَا لَهُ نَقْشَ الْمُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهَانِ
فَيظُنُّهَا الْمَغْرُورُ حَقًّا وَهْيَ فِي التْ تَحْقِيقِ مِثْلُ الآلِ فِي الْقِيعَانِ

يناجي المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ربه بهذه الأبيات الروائع معاهدًا له على نصرة دينه وجهاد أعدائه لقاء ما أنعم به عليه من نعمة الهداية والتوفيق إلى متابعة السنة والقرآن، فيقول: يا ناصر الإسلام، ومظهر حجته، ومانعه من كيد أعدائه الحانقين، ويا ناصر سنة رسولك الذي بعثته بالقرآن العظيم بما قضيت لها في كل عصر من أئمة هداة يذبون عنها كيد أهل البدع، ويحفظونها من تزيد الكاذبين، وتأويل الجاهلين، وإنكار الفاسقين، ويا من أنت الحق البين الذي لا شيء أبين منه بشهادة ما نصبته من الأدلة على وجودك وحكمتك، وعلى جودك ونعمتك، وعلى عزتك وقدرتك، وعلى أنك الواحد الأحد الذي لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، يا من لقاؤك أيضًا حق لا شك فيه، فإنك لَم تخلق هذا الخلق عبثًا ولا باطلًا؛ بل لتجزي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ورسولك هو كذلك حق، أرسلته بالبينات والهدى على حين فترة من الرسل فضلًا منك ورحمة؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليهديهم صراطك المستقيم، اشرح لدينك الحق الذي لا تحريف فيه ولا التواء صدر كل من وحدك في ربوبيتك، فعلم أنك المنفرد بالخلق والتدبير، ووحدك في إلهيتك فعبدك وحدك، ولَم يجعل لك في العبادة شريكًا من خلقك، ووحدك في أسمائك وصفاتك، فأثبت لك كل ما أثبته لنفسك، أو أثبته لك رسولك من غير تشبيه ولا تمثيل، اشرحه شرحًا يصل به إلى أعلى مراتب الإيمان، واجعله مِمَّن يأتمون بوحيك،

ويتبعون ما شرعته على لسان عبدك ورسولك، لا مِمَّن ينقادون لأهل الأهواء وأصحاب الزور والبهتان، وانصر بقلمه ولسانه حزب أهل الحق والإيمان، واكبت به حزب الضلال وفرقة الشيطان، وانهض بوحيك من كان قصده إلى إحيائه ونصرته، واعصمه من كيد كل من يريد لإضلاله وفتنته، واضرب بسيف حقك البتار أعناق أهل الزيغ والتبديل والتكذيب والطغيان.

ثُمَّ يقسم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على ربه بحق نعمته الَّتِي أولاه إياها، وبِما جعل قلبه وعاء لعلوم القرآن العظيم، وبِما كتب فِي قلبه من متابعة الهدى حَتَّى قرأ فيه سطور الإيمان، وبِما أنقذه من صحبة أرباب الهوى بِما مد إليه من أسباب الهدى وحبائل النجاة المستمدة من محكم الفرقان، وبِما جعل شِربه -بكسر الشين؛ أي: موضع شربه- هو المنهل العذب الذي هو أصل الماء، وينبوعه الصافي لكل وارد ظمآن، والمراد به الكتاب والسنة، وبِما حماه من شرب أهل الضلال الذي هو أسفل الماء تحت نجاسة الأفكار والأذهان، والمراد به علوم أهل الباطل ومذاهبهم، وبِما حفظه مِمَّا ابتلي به الذين حكموا على ربِّهم بشرعة الهوى والجهل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، حيث طرحوا كتاب اللَّه وراء ظهورهم، ولَم يرفعوا به رأسًا، واتبعوا من دونه أقوالًا مزخرفة مموهة كلها خرافة وهذيان، وبِما أراه حقيقة البدع المضلة، وكيف يلقيها الشيطان فِي قلوب أوليائه بعد أن يزخرفها لهم، وينقشها فِي أذهانِهم، كما يفعل المثال بالصورة الَّتِي يصنعها، حيث يضفي عليها من الدهون والطلاء ما يحسنها فِي أعين النظار، حَتَّى يظنها الجاهل المغرور حقًّا، وما هي إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حَتَّى إذا جاءه لَم يجده شيئًا.

* * *

لَأُجَاهِدَنَّ عِدَاكَ مَا أَبْقَيْتَنِي	وَلَأَجْعَلَنَّ قِتَالَهُمْ دَيْدَانِي
وَلَأَفْضَحَنَّهُمُ عَلَى رُوسِ الْمَلَا	وَلَأَفْرِيَنَّ أَدِيمَهُمْ بِلِسَانِي
وَلَأَكْشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ عَلَى	ضُعَفَاءِ خَلْقِكَ مِنْهُمُ بِبَيَانِ
وَلَأَتْبَعَنَّهُمُ إِلَى حَيْثُ انْتَهُوا	حَتَّى يُقَالُ أَبْعَدُ عَبَّادَانِ
وَلَأَرْجُمَنَّهُمُ بِأَعْلَامِ الْهُدَى	رَجْمَ الْمُرِيدِ بِثَاقِبِ الشُّهْبَانِ
وَلَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ مَرَاصِدَ كَيْدِهِمْ	وَلَأَحْصُرَنَّهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ
وَلَأَجْعَلَنَّ لُحُومَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ	فِي يَوْمِ نَصْرِكَ أَعْظَمَ الْقُرْبَانِ

وَلأَحْمِلَنَّ عَلَيهِمُ بِعَسَاكِرٍ لَيسَتْ تَفِرُّ إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ
بِعَسَاكِرِ الْوَحْيينِ وَالْفِطْرَاتِ بِالْـ مَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ بِالإِحْسَانِ
حَتَّى يبِينَ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ مَنِ الْـ أَوْلَى بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ
وَلأَنْصَحَنَّ اللهَ ثُمَّ رَسُولَهُ وَكِتَابَهُ وَشَرَائِعَ الإِيمَانِ
إِنْ شَاءَ رَبِّي ذَا يكُونُ بِحَوْلِهِ أَوْ لَمْ يشَا فَالأَمْرُ لِلرَّحْمَنِ

شرح المفردات: العِدا -بكسر العين- الأعداء جمع عدو. والديدن: الدأب والعادة، يقال: جعل هذا ديدنه، يعني: استمر عليه، والملا: بالتسهيل أصله الملأ، وهم الجماعة؛ سميت بذلك لأنَّها تملأ العين. ولأفرين: أي لأقطعن، يقال: فراه يفريه، بِمعنى قطعه ومزقه، والأديم: الجلد، وعبادان: تثنية عباد، وكان أميرًا فهجاه أحد الشعراء، وفر فلم يلحق به، فقال الشاعر لبلغته:

عَدْس مَا لِعَبَّاد عَلَيكَ إِمَارَة أَمِنْتَ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيق

والرجم: القذف بالحجارة، والمَريد: بفتح الميم الشيطان، بِمعنى: المتمرد، والثاقب: النافذ، والشهبان: جمع شهاب، وهو النجم الذي ترمى به الشياطين حين يحاولون استراق السمع، والمراصد: جمع مرصد، وهو مكان الرصد، قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]. والحصر: الحبس والتضييق، والقربان: ما يتقرب به من الذبائح، والزحفان: جمع زحف، وهو الجيش الزاحف من وضع المصدر موضع اسم الفاعل، والوحيان: الكتاب والسنة، والفطرات: جمع فطرة.

الشرح: هذا هو ما يقسم عليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يجاهد أعداء اللَّه المارقين عن دينه، الناكبين عن صراطه ما بقي فيه رمق من حياة، وأن يجعل قتالهم وجهادهم ديدنه وهجيراه، وأن يظهر للناس عوارهم، ويهتك أستارهم، ويكشف ما خفي على الجهال من مخازيهم، ويفري أعراضهم بحديد لسانه إن كان قد بقي لهم أعراض.

ويقسم كذلك ليبالغن فِي طلبهم وتتبع آثارهم إلى حيث بلغوا، لا يني فِي ذلك ولا يقصر، حَتَّى يقول القائل: أيكون هناك عبادان، وليقذفنهم بسهام الهدى، يرجمهم بِها رجم الشياطين بالشهب الثاقبة، وليقعدن لهم كل مرصد يُمكن أن يكيدهم فيه، وليضيقن عليهم الخناق، وليجعلن من لحومهم ودمائهم الَّتِي فراها بسهام الحق أعظم قربان يتقرب به إلى اللَّه، وليحملن عليهم بجند لا تعرف الفرار ولا تولي يوم اللقاء الأدبار، وهي عساكر

الوحيين من الكتاب والسنة، وما تقر به الفطر السليمة الَّتِي خلقها اللَّه مستعدة لقبول الحق والإذعان له، وما تَهدي إليه العقول بالنظر الصحيح، وما تفيده النقول الثابتة، حَتَّى يظهر لكل من له عقل من أولى منا ومنهم بأن ينسب كلامه إلى حكم العقل والبرهان؟ ولينصحن ما عاش للَّه، فيبين العقيدة الصحيحة الَّتِي يجب على كل أحد أن يعتقدها فِي ربه ﷻ، ويبين كذلك حقوقه الَّتِي يجب أن يقوم بِها العباد نحوه، ولينصحن لرسوله ببيان ما يجب له على الناس من محبة وتوقير وطاعة واتباع، وما يجب عليهم أن يعرفوه من أخلاقه وسيرته وهديه وسنته، ولينصحن كذلك لكتاب اللَّه فيبين ما يجب على الناس نحو كلام ربِّهم من حسن الاستماع إليه، وكمال التعقل والتدبر لآياته، والوقوف عند حدوده وأحكامه، والاتعاظ بمواعظه والتخلق بآدابه، ولينصحن لشرائع الإسلام والإيمان كلها ببيانِها للناس أتم بيان، وهذا كله رهن بمشيئة اللَّه، فهو الذي إن شاء كان، وما لَم يشأ لَم يكن، ولا قوة إلا به.

فصل في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل انه ليس في السماء إله يعبد ولا للَّه بيننا كلامٌ ولا في القبر رسول اللَّه

إِنَّا تَحَمَّلْنَا الشَّهَادَةَ بِالَّذِي ... قُلْتُمْ نُؤَدِّيهَا لَدَى الرَّحْمَنِ

مَا عِنْدَكُمْ فِي الأَرْضِ قُرْآنٌ كَلَا ... مُ اللهِ حَقًّا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ

كَلَّا وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... رَبٌّ يُطَاعُ بِوَاجِبِ الشُّكْرَانِ

كَلَّا وَلَا فِي الْقَبْرِ أَيْضًا عِنْدَكُمْ ... مِنْ مُرْسَلٍ وَاللهِ عِنْدَ لِسَانِي

هَاتِيكَ عَوْرَاتٌ ثَلَاثٌ قَدْ بَدَتْ ... مِنْكُمْ فَغَطُّوهَا بِلَا رَوَغَانِ

فَالرُّوحُ عِنْدَكُمُ مِنَ الأَعْرَاضِ قَا ... ئِمَةٌ بِجِسْمِ الْحَيِّ كَالأَلْوَانِ

وَكَذَا صِفَاتُ الْحَي قَائِمَةٌ بِهِ ... مَشْرُوطَةٌ بِحَيَاةِ ذِي الْجُثْمَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَيَنْتَفِي ... مَشْرُوطُهَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

وَرِسَالَةُ الْمَبْعُوثِ مَشْرُوطٌ بِهَا ... كَصِفَاتِهِ بِالْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْـ ... ـرُوطٍ بِهَا عَدَمٌ لِذِي الأَذْهَانِ

الشرح: كما حمَّل المؤلف هؤلاء المعطلة شهادة يشهدون بِها عند اللَّه على أهل الإثبات بِما يعتقدونه من عقائد الحق والإيمان، فهو يحمل أهل الإثبات شهادة يشهدون

بها على هؤلاء البغاة بِما يقولونه من أقوال الزيغ والكفران، فسيشهدون عليهم عند اللَّه بأنه ليس عندهم فِي الأرض قرآن هو كلام اللَّه؛ لأن كلام اللَّه عندهم لا يكون بحرف وصوت، والقرآن الذي بين دفتي المصحف هو حروف وألفاظ متلوة مسموعة، فلا يكون هو عين كلام اللَّه، بل يقولون: إنه عبارة أو حكاية عنه.

وسيشهدون عليهم كذلك بأنَّهم لا يؤمنون بأن فوق السموات العلا ربًّا تجب على العباد طاعته، والقيام بحق الشكر له على سابغ نعمته وموفور كرمه؛ وذلك لأن الوجود فِي الجهة عندهم من لوازم الأجسام، واللَّه ليس بجسم، فلا يوصف عندهم بفوق ولا تحت.

وسيشهدون عليهم أيضًا بأنَّهم ينكرون أن يكون فِي القبر رسول اللَّه؛ لأن الروح عندهم عرض من الأعراض القائمة بالحي كالسواد والبياض وغيرهما من الألوان، ووجودها مشروط ببقاء البنية المخصوصة، فإذا فسدت تلك البنية وانحل التأليف، زالت الحياة.

وكذلك الصفات القائمة بالحي من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وغيرها تكون مشروطة ببقاء الحياة، فهي متوقفة فِي وجودها عليها، فإذا انتفت الحياة انتفى مشروطها عقلًا؛ إذ لا يعقل قيام تلك الصفات بغير الحي -ولا شك أن رسالة الرسول هي من الصفات الَّتِي تعتبر الحياة شرطًا فيها كسائر صفاته من العلم والإيمان ونحوهما- فإذا انتفت عنه الحياة الَّتِي هي عرض قائم به انتفى كل مشروط بِها من الصفات، وصار فِي حكم العدم الذي لا وجود له، وبذلك يمتنع أن يوصف فِي القبر بأنه رسول اللَّه.

هذه عورات ثلاث قد كشفتم عنها، ولزمكم عارها، فحاولوا سترها دون أن تروغوا روغان الثعالب، وإلا ظلت ملصقة بكم لا يمحوها عنكم هذا التمويه والروغان.

فصل في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم

وَلأَجْلِ هَذَا رَامَ نَاصِرُ قَوْلِكُمْ ... تَرْقِيعَهُ يَا كَثْرَةَ الْخُلْقَانِ

قَالَ الرَّسُولُ بِقَبْرِهِ حَيٌّ كَمَا ... قَدْ كَانَ فَوْقَ الأَرْضِ وَالرُّجْمَانِ

مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ التُّرْبِ وَالْـ ... لَبِنَاتُ قَدْ عُرِضَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

لَوْ كَانَ حَيًّا فِي الضَّرِيحِ حَيَاتَهُ ... قَبْلَ الْمَمَاتِ بِغَيْرِ مَا فُرْقَانِ

مَا كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ بَلْ مِنْ فَوْقِهَا ... وَاللَّهِ هَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

أَتَرَاهُ تَحْتَ الأَرْضِ حَيًّا ثُمَّ لَا ... يُفْتِيهِمُ بِشَرَائِعِ الإِيمَانِ
وَيُرِيحُ أُمَّتَهُ مِنَ الآرَاءِ وَالْـ ... خُلْفِ الْعَظِيمِ وَسَائِرِ الْبُهْتَانِ
أَمْ كَانَ حَيًّا عَاجِزًا عَنْ نُطْقِهِ ... وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَائِلٍ لَهْفَانِ
وَعَنِ الْحِرَاكِ فَمَا الْحَيَاةُ اللَّاتِ قَدْ ... أَثْبَتُّمُوهَا أَوْضِحُوا بِبَيَانِ

الشرح: ولأجل ما لزم هؤلاء المعطلة من انتفاء الرسالة بانتفاء الحياة؛ حاول أنصار هذا المذهب أن يرقعوه بما اختلقوا من مفتريات؛ ليدفعوا عنه هذه الإلزامات، فزعموا أن الرسول ﷺ حي فِي قبره، كما كان فوق الأرض تمامًا رغم وجوده تحت أطباق التراب، وإقامة الجدران المبنية باللبن عليه، وهذا زعم باطل لا أساس له، فإنه لو كان ﷺ حيًّا فِي ضريحه كحياته قبل موته من غير فارق بينهما، لما ساغ بقاؤه تحت الأرض، بل يجب أن يعيش فوقها، فهذه سنة اللّٰه فِي خلقه أن الموتى هم الذين يدفنون تحتها، وأما الأحياء فيعيشون على ظهرها، وكيف يكون تحت الأرض حيًّا، ثُمَّ لا يفتي أصحابه فيما أشكل عليهم من شرائع الإيمان، ويريحهم مما وقع بينهم من خلاف، وينبههم على ما جد بينهم من بدع ومفتريات، وقد اختلف أصحابه بعد موته فِي كثير من المسائل الَّتِي كانوا يحتاجون فيها إِلَى قوله الحاسم، أم تقولون: إنه كان حيًّا، ولكنه كان عاجزًا عن النطق، وعن رد الجواب لمن سأله متلهفًا على سماع ذلك منه، وكان كذلك عاجزًا عن الحركة والنهوض، فما هي إذن تلك الحياة الَّتِي أثبتموها له، إذا لَمْ تقتض حسًّا ولا حركة ولا كلامًا؟ دلونا على كنهها إن كنتم صادقين.

* * *

هَذَا وَلِمْ لَا جَاءَهُ أَصْحَابُهُ ... يَشْكُونَ بَأْسَ الْفَاجِرِ الْفَتَّانِ
إِذْ كَانَ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ ... حَيٌّ يُشَاهِدُهُمْ شُهُودَ عِيَانِ
هَلْ جَاءَكُمْ أَثَرٌ بِأَنَّ صِحَابَهُ ... سَأَلُوهُ فُتْيَا وَهْوَ فِي الأَكْفَانِ
فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابِ حَيٍّ نَاطِقٍ ... فَأْتُوا إِذَنْ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ
هَلَّا أَجَابَهُمُ جَوَابًا شَافِيًا ... إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ
هَذَا وَمَا شُدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الْـ ... حُجُرَاتِ لِلْقَاصِي مِنَ الْبُلْدَانِ
مَعَ شِدَّةِ الْحِرْصِ الْعَظِيمِ لَهُ عَلَى ... إِرْشَادِهِمْ بِطَرَائِقِ التِّبْيَانِ

أَتَـرَاهُ يَـشْـهَـدُ رَأْيـهُـمْ وَخِـلَافَـهُـمْ ... وَيَـكُـونُ لِـلـتِّـبْـيَـانِ ذَا كِـتْـمَـانِ
إنْ قُـلْـتُـمْ سَـبَـقَ الْـبَـيَـانُ صَـدَقْـتُـمُ ... قَـدْ كَـانَ بِـالـتَّـكْـرَارِ ذَا إحْـسَـانِ

الشرح: وإذا كان حيًّا فِي قبره كما زعمتم، فلِمَ لَمْ يجئه أصحابه شاكين إليه ما يلقونه من بأس عدوهم، وقد كان ذلك دأبُهم حين كان نبيهم حيًّا بينهم يشاهدهم ويشاهدونه، وهل بلغكم من أثر بأن أحدًا من أصحابه جاءه مستفتيًا إياه، وهو مدرج فِي أكفانه، وأنه أجابَهم بِما يجيب به الحي الناطق من سأله؟! إن كان عندكم شيء من ذلك؛ فأتوا به ليكون برهانًا على صدق دعواكم، فهلا إن كان حيًّا قادرًا على الكلام يجيبهم عما سألوا بِما يشفي نفوسهم، ويزيل حيرتَهم.

هذا وما رأيناه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- قد شد ركائبه متجاوزًا للحجرات الَّتِي هي بيوت أزواجه، ذاهبًا إلَى أقاصي البلدان مع شدة حرصه على الهداية والإرشاد والبيان، وهل يظن به ﷺ أن يرى اختلاف أصحابه من بعده، ثُمَّ يكتم عنهم ما يحتاجون إليه من بيان.

وإن قيل: إن البيان قد وقع فيما سبق.

فهذا حق، ولكن التكرار مع ذلك لا يخلو من فائدة، ويكون به ذا إحسان وفضل.

* * *

هَـذَا وَكَـمْ مِـنْ أَمْـرٍ أَشْـكَـلَ بَـعْـدَهُ ... أَعْـنِـي عَـلَـى عُـلَـمَـاءِ كُـلِّ زَمَـانِ
أَوَمَـا تَـرَى الْـفَـارُوقَ وَدَّ بِـأَنَّـهُ ... قَـدْ كَـانَ مِـنْـهُ الْـعَـهْـدُ ذَا تِـبْـيَـانِ
بِـالْـجَـدِّ فِـي مِـيـرَاثِـهِ وَكَـلَالَـةٍ ... وَبِـبَـعْـضِ أَبْـوَابِ الـرِّبَـا الْـفَـتَّـانِ
قَدْ قَصَّرَ الْفَارُوقُ عِنْدَ فَرِيقِكُمْ ... إذْ لَـمْ يَـسَـلْـهُ وَهْـوَ فِـي الأَكْـفَـانِ
أَتُـرَاهُـمُ يـأْتُـونَ حَـوْلَ ضَـرِيـحِـهِ ... لِـسُـؤَالِ أُمَّـهِـمُ أَعَـزِّ حَـصَـانِ
وَنَـبِـيُّـهُـمْ حَـي يـشَـاهِـدُهُـمْ وَيـسْـ ... ـمَـعُـهُـمْ وَلَا يـأْتِـي لَـهُـمْ بِـبَـيَـانِ
أَفَكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يجِيبَ بِقَوْلِهِ ... إنْ كَـانَ حَـيًّـا دَاخِـلَ الْـبُـنْـيَـانِ
يَا قَوْمَنَا اسْتَحْيوا مِنَ الْعُقَلَاءِ وَالْـ ... ـمَـبْـعُـوثِ بِـالْـقُـرْآنِ وَالـرَّحْـمَـنِ
وَالـلـهِ لَا قَـدْرَ الـرَّسُـولِ عَـرَفْـتُـمُ ... كَـلَّا وَلَا لِـلـنَّـفْـسِ وَالإنْـسَـانِ
مَنْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ ... فَـلْـيـسْـتَـتِـرْ بِـالـصَّـمْـتِ وَالْـكِـتْـمَـانِ

الشرح: هذا وكم من مشكلات جدت بعد موته ﷺ والتبس أمرها على العلماء فِي

سائر القرون، ولَمْ يهتدوا إلَى وجه الصواب فيها حَتَّى إن الفاروق عمر رَحِمَهُ اللَّهُ ودَّ لو كان الرسول ﷺ قد عهد إليهم بشيء واضح فِي ميراث الجد والكلالة، وفِي بعض أبواب الربا، وفيمن يكون خليفة بعده.

روى الحاكم بإسناده عن عمرو بن دينار قال: سمعت مُحمَّد بن طلحة بن يزيد بن ركانة يحدث عن عمر بن الخطاب قال: «لأن أكون سألت رسول اللَّه ﷺ عن ثلاث، أحب إلَيَّ من حمر النعم: مَنْ الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نقر بالزكاة، ولا نؤديها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلالة؟». ثُمَّ روى هذا الإسناد عن سفيان بن عيينة، عن عمر بن مرة، عن عمر قال: «ثلاث لأن يكون النَّبِي ﷺ بينهن لنا أحب إلَيَّ من الدنيا وما فيها: الخلافة، والكلالة، والربا». فعلى رأيكم يكون الفاروق رَحِمَهُ اللَّهُ قد قصَّر، إذ لَمْ يطلب من الرسول ﷺ بيان هذه الأمور وهو فِي أكفانه، ما دمتم تعتقدون أنه حي يسمع ويجيب، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يأتون إلَى بيت عائشة الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليسألوها عما أشكل عليهم، حَتَّى يقول فِي ذلك أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أشكل علينا نَحن أصحاب رسول اللَّه ﷺ أمر فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا».

فلو كان نبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا يشاهدهم ويسمعهم، وهم حول ضريحه فِي بيت أمهم الحصان المبرأة من السماء، إنَّما كان ينبغي أن يجيبهم عما سألوا عنه، بدلًا من إحالتهم على من يحتمل قولها الخطأ والصواب، أم كان عاجزًا وهو حي داخل قبره أن يسعفهم بالجواب؟! يا قوم، ألا تستحيون من هذا الكلام الذي لا يقره عقل، ولا يرضى عنه اللَّه ولا رسوله، والذي يدل على جهلكم الفاضح بقدر الرسول ﷺ وبحقيقة النفس الإنسانية، وكيف تفارق البدن عند الموت فتزول عنه الحياة ولا تعود إليه إلا عند البعث، فمن كان هذا القدر من المعرفة هو مبلغ علمه فليستحي من نفسه وليلذ بالصمت والكتمان حَتَّى لا يظهر للناس جهله فيكون كلامه مثارًا للسخرية والازدراء من جَميع العقلاء.

* * *

وَلَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ رَسُولَهُ ... مَيْتٌ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
أَفَجَاءَ أَنَّ اللهَ بَاعِثُهُ لَنَا ... فِي الْقَبْرِ قَبْلَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
أَثَلَاثُ مَوْتَاتٍ تَكُونُ لِرُسْلِهِ ... وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ مَوْتَانِ
إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لَا يبقَى امْرُؤٌ ... فِي الأَرْضِ حَيًّا قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

أَفَهَلْ يَمُوتُ الرُّسْلُ أَمْ يَبْقُوا إِذَا ... مَاتَ الْوَرَى أَمْ هَلْ لَكُمْ قَوْلَانِ
فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لَا الدَّعْوَى وَجِيـ ... ـئُوا بِالدَّلِيلِ فَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ
أَوَلَمْ يَقُلْ مِنْ قَبْلِكُمْ لِلرَّافِعِي الْـ ... أَصْوَاتِ حَوْلَ الْقَبْرِ بِالنُّكْرَانِ
لَا تَرْفَعُوا الأَصْوَاتَ حُرْمَةُ عَبْدِهِ ... مَيْتًا كَحُرْمَتِهِ لَدَى الْحَيَوَانِ
قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ يقُولُوا إِنَّهُ ... حَيٌّ فَغُضُّوا الصَّوْتَ بِالإِحْسَانِ
لَكِنَّهُمْ بِاللهِ أَعْلَمُ مِنْكُمُ ... وَرَسُولِهِ وَحَقَائِقِ الإِيمَانِ
وَلَقَدْ أَتَوْا يوْمًا إِلَى الْعَبَّاسِ يَسْـ ... ـتَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدْبِ زَمَانِ
هَذَا وَبَيْنَهُمُ وَبَيْنَ نَبِيِّهِمْ ... عَرْضُ الْجِدَارِ وَحُجْرَةُ النِّسْوَانِ
فَنَبِيُّهُمْ حَيٌّ وَيسْتَسْقُونَ غَيْـ ... ـرَ نَبِيِّهِمْ حَاشَى أُولِي الإِيمَانِ

الشرح: ولقد أخبر اللَّه فِي كتابه أن رسوله ﷺ بشر يموت كما يموت البشر، قال تعالَى فِي سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال فِي سورة الأنبياء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وقال فِي سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وإذا صح الخبر بموته ﷺ فهل جاء ما يفيد أن اللَّه يبعثه لنا فِي القبر قبل يوم القيامة؟! لَمْ يرد ذلك فِي كتاب ولا سنة، مع أنه يقتضي محالًا، وهو أن يكون للرسل -عليهم الصلاة والسلام- ثلاث موتات، ولغيرهم من الناس موتتان اثنتان؛ لأنه عند النفخ فِي الصور النفخة الأولى لا يبقى أحد ممن هو على ظهر الأرض حيًا، كما قال تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وحينئذ يقال لكم: هل يموت الرسل عند تلك النفخة مع من يموت؟ أم يبقون أحياء؟ أم لكم فِي هذه المسألة قولان؟ أجيبوا بعلم إن كنتم صادقين، وتكلموا بالدليل والبرهان لا بالظن والتخمين، فإن مناظريكم من ذوي العقول الَّتِي لا يروج عندها ادعاء المكابرين ولا سفسطة المشاغبين.

هذا وقد كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ ينهون عن رفع الأصوات حول قبره الشريف، ويقولون لمن يفعل ذلك: إن اللَّه قد أمرنا بغض الصوت عند رسوله ﷺ، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًا، فهلا قالوا لَهم بدلًا من ذلك: إن رسول اللَّه ﷺ حي؛ فغضوا أصواتكم عنده؟! لكن حاشى لَهم أن يقولوا ذلك، فإنَّهم أعلم باللَّه وبرسوله وبحقائق الإيمان من أولئك الأدعياء

الجاهلين، الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويقولون على اللَّه وعلى رسوله ما لا يعلمون.

ولقد كان الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم يستسقون بالعباس عم رسول اللَّه ﷺ إذا نزل بِهم قحط، واحتبس عنهم المطر، وقد استسقى به عمر رضي الله عنه عام الرمادة، وقال وهو يقدمه: «اللَّهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فِي حياته فتسقينا، ونَحن نتوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا». فلو كان النَّبِيُّ ﷺ حيًّا فِي قبره -كما زعمتم-، وليس بينهم وبينه إلا جدار القبر وحجرة زوجه عائشة رضي الله عنها فكيف يليق بِهم وهم أكمل هذه الأمة علمًا وإيمانًا أن يعدلوا إلَى الاستسقاء بغير رسول اللَّه أيًا كان، وهو حي بينهم يملك الدعاء، ويقدر على الكلام باللسان؟ إنْ هذا إلا محض افتراء وبُهتان.

فصل فيما احتجوا به على حياة الرسل في القبور

فَإِنِ احْتَجَجْتُمْ بِالشَّهِيدِ بِأَنَّهُ ... حَيٌّ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَالرُّسْلُ أَكْمَلُ حَالَةً مِنْهُ بِلَا ... شَكٍّ وَهَذَا ظَاهِرُ التِّبْيَانِ
فَلِذَاكَ كَانُوا بِالْحَيَاةِ أَحَقَّ مِنْ ... شُهَدَائِنَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ
وَبِأَنَّ عَقْدَ نِكَاحِهِ لَمْ يَنْفَسِخْ ... فَنِسَاؤُهُ فِي عِصْمَةٍ وَصِيَانِ
وَلأَجْلِ هَذَا لَمْ يحِلَّ لِغَيرِهِ ... مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ مَدَى الأَزْمَانِ
أَفَلَيسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ ... حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
أَوَلَمْ يرَ الْمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا ... فِي قَبْرِهِ لِصَلَاةِ ذِي الْقُرْبَانِ
أَفَمَيِّتٌ يأْتِي الصَّلَاةَ وَإِنَّ ذَا ... عَينُ الْمُحَالِ وَوَاضِحُ الْبُطْلَانِ
أَوَ لَمْ يقُلْ إِنِّي أَرُدُّ عَلَى الَّذي ... يأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الإِحْسَانِ
أَيرُدُّ مَيتٌ السَّلَامَ عَلَى الَّذِي ... يأْتِي بِهِ هَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ
هَذَا وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ ... أَحْيَاءُ فِي الأَجْدَاثِ ذَا تِبْيَانِ
وَبِأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ عَلَيهِ تُعْـ ... ـرَضُ دَائِمًا فِي جُمْعَةٍ يوْمَانِ
يوْمَ الْخَمِيسِ وَيوْمَ الاثْنَينِ الَّذِي ... قَدْ خُصَّ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

الشرح: يذكر المؤلف فِي هذا الفصل حجج القائلين بحياته ﷺ فِي قبره.

أما الحجة الأولى: فهي ما ثبت بصريح القرآن من أن الشهداء أحياء فِي قبورهم، كما

قال تعالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وكما قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] ولا شك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أكمل حالة من الشهداء، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان، فإذا كان الشهداء أحياء فِي قبورهم فالرسل ﷺ أحق منهم بِهذا عقلًا وبرهانًا.

وأما الحجة الثانية: فإن عقد نكاحه لأزواجه أمهات المؤمنين باق بعده لَمْ ينفسخ، ولِهذا بقيت نساؤه معصومات مصونات من قربان الغير لهن، فلا يحل لأحد من الناس أن يتزوج بواحدة منهن أبد الدهر؛ لقوله تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وبقاء عقد النكاح وعدم انفساخه وحرمة تزوج غيره بواحدة من نسائه دليل حياته وعدم موته.

وأما الحجة الثالثة: فهي ما رواه أنس رضي الله عنه فِي حديث الإسراء من أنه ﷺ مر بموسى ليلة أسري به وهو قائم بقبره يصلي، ولا شك أن الصلاة حركات وأقوال لا يعقل أن تحصل إلا من حي، ونسبتها إلَى الميت عين المحال.

وأما الحجة الرابعة: فهي ما روي عنه ﷺ من قوله: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد اللَّه عليَّ روحي حَتَّى أرد عليه السلام**». ولا شك أن رد السلام من شأن الأحياء، لا من شأن الأموات.

وأما الحجة الخامسة: فهي ما جاء به الحديث من أن الرسل ﷺ أحياء فِي أجداثهم، ومن أن أعمال أمته تعرض عليه فِي يومي الخميس والإثنين من كل جمعة.

هذه جملة ما احتج به القبوريون على حياته ﷺ فِي قبره، وقد تدرجوا من ذلك إلَى إثبات الحياة فِي القبر لغيره أيضًا من الأولياء والصالحين، وسيأتي الرد عليهم فِي الفصل الذي يلي هذا، ولكننا نجمل الرد عليهم: بأن حياة الشهداء ليست حياة فِي قبورهم، ولكن عند اللَّه ﷺ كما قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. وبأن بقاء عقد نكاحه ﷺ بأزواجه وحرمتهن على غيره؛ لا يقتضي حياته، بل هي خصوصية اختصه اللَّه بِها، فإن أزواجه أمهات المؤمنين، أي: كأمهاتهم فِي الحرمة ووجوب التوقير.

وأما حديث أنس فلم يصح رفعه، بل هو موقوف، ولو صحَّ لَمْ يقتض حياة موسى فِي قبره، بل يحمل على التمثيل، كما تحمل رؤيته له فِي السماء السادسة ومخاطبته له بقوله: «**ما فرض اللَّه عليك وعلى أمتك**». وقوله له: «**ارجع إلَى ربك فاسأله التخفيف**»... إلخ، فإن

ذلك كله من أمور الغيب الَّتِي نؤمن بِها ، ولا نعلم كيفيتها ، ولكنا نعلم يقينًا أن موسى قد مات ، وعلى هذا النحو تحمل بقية الأحاديث إذا فرض صحتها ، وإلا فدون ذلك خرط القتاد .

فصل في الجواب عما احتجوا به في هذه المسألة

فَيقَالُ أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَاكَ حُجْـ ... جَتُنَا عَلَيْكُمْ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ

إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ ... لَا بِالْقِيَاسِ الْقَائِمِ الأَرْكَانِ

هَذَا مَعَ النَّهْيِ الْمُؤَكَّدِ أَنَّنَا ... نَدْعُوهُ مَيْتًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

وَنِسَاؤُهُ حِلٌّ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ ... وَالْمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى السُّهْمَانِ

هَذَا وَأَنَّ الأَرْضَ تَأْكُلُ لَحْمَهُ ... وَسِبَاعُهَا مَعْ أُمَّةِ الدِّيدَانِ

لَكِنَّهُ مَع ذَاكَ حَيٌّ فَارِحٌ ... مُسْتَبْشِرٌ بِكَرَامَةِ الرَّحْمَنِ

فَالرُّسْلُ أَوْلَى بِالْحَيَاةِ لَدَيهِ مَعْ ... مَوْتِ الْجُسُومِ وَهَذِهِ الأَبْدَانِ

وَهْيَ الطَّرِيَّةُ فِي التُّرَابِ وَأَكْلُهَا ... فَهْوَ الْحَرَامُ عَلَيْهِ بِالْبُرْهَانِ

وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا ... أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ

فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمُ ... حَرْفًا بِحَرْفٍ ظَاهِرِ التِّبْيَانِ

الشرح : فيقال لهؤلاء : إن ما جعلتموه أصلًا لدليلكم -وهو حياة الشهداء- قد أصبح حجة عليكم لا لكم ، وبيان ذلك أن حياة الشهيد ثابتة بالنص فِي قوله تعالَى : ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ . وليس ثبوتُها بالقياس المستوفِي لأركانه ، كما ورد النهي الصريح فِي القرآن عن تسمية الشهيد ميتًا فِي قوله تعالَى : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ [البقرة: ١٥٤] . ومع ذلك فلم تقتض هذه الحياة شيئًا مما جعلتموه دليلًا على حياة الرسول ﷺ فِي قبره ، فإن نساءه -أي : الشهيد- حلال لنا بعد موته ، وماله مقسوم بين ورثته ، ولحمه تأكله الأرض وسباع الوحش والطير وجماعة الديدان ، ومع ذلك فهو حي كما أخبر اللَّه ، فرح مستبشر بكرامة اللَّه ورضوانه ، فدل ذلك على أن حياة الشهداء الَّتِي نص عليها القرآن ، ليست هي تلك الحياة الجسدية فِي القبر ، ولكنها حياة لأرواحهم عند اللَّه ، وقد فسرها الرسول ﷺ بأن أرواحهم تجعل فِي حواصل طير خضر ، تسرح فِي الجنة ، فتأكل من ثمارها ، وتشرب من أنهارها ، ولا شك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أولى بتلك الحياة عند اللَّه مع موت جسومهم ، وقد ورد أن أرواحهم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش ، بل إن لجسومهم مع موتها مزية كذلك على سائر

الأبدان، وهي بقاؤها طرية لا تأكلها الأرض، فقد جاء فِي المسند والسنن من حديث أوس ابن أوس، عن النَّبِي ﷺ : «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق اللَّه آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ**. قالوا : يا رسول اللَّه، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت -يعني : قد بليت- قال : **إن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**». ورواه الحاكم فِي المستدرك وابن حبان فِي صحيحه، وكذلك أخرجه النسائي وابن ماجه.

على أن هذه المزية ثابتة أيضًا لبعض أتباع الأنبياء، وقد ثبت هذا بالمشاهدة، فقد وجد بعضهم بعد موته بزمان طويل سليمًا لَمْ تنقص منه الأرض شيئًا، ولَمْ يسر فيه البلى والتعفن، فانظر كيف انقلب هذا الدليل عليهم حرفًا بحرف، وصار الذي أرادوه حجة لَهم حجة ظاهرة عليهم، وهكذا أهل الباطل دائمًا لا يأتون بدليل إلا كان فيه ما يفسد قولهم، ويأتي على دعواهم من القواعد، وللَّه فِي خلقه شئون.

* * *

لَكِنْ رَسُولُ اللهِ خُصَّ نِسَاؤُهُ ... بِخَصِيصَةٍ عَنْ سَائِرِ النِّسْوَانِ

خُيِّرْنَ بَينَ رَسُولِهِ وَسِوَاهُ فَاخْـ ... تَرْنَ الرَّسُولَ لِصِحَّةِ الإيمَانِ

شَكَرَ الإلَهُ لَهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَا ... سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانِ

قَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى أُولَئِكَ رَحْمَةٌ ... مِنْهُ بِهِنَّ وَشُكْرَ ذِي الإحْسَانِ

وَكَذَاكَ أَيضًا قَصْرُهُنَّ عَلَيهِ مَعْـ ... لُومٌ بِلَا شَكٍّ وَلَا حُسْبَانِ

زَوْجَاتُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْـ ... أُخْرَى يَقِينًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

فَلِذَا حَرُمْنَ عَلَى سِوَاهُ بَعْدَهُ ... إذْ ذَاكَ صَوْنًا عَنْ فِرَاشٍ ثَانِ

لَكِنْ أَتَيْنَ بِعِدَّةٍ شَرْعِيَّةٍ ... فِيهَا الْحِدَادُ وَمُلْزَمُ الأَوْطَانِ

الشرح : وأما ما ذكرتم من بقاء عقد نكاحه على أزواجه، وحرمتهن على غيره بعد موته، فليس فيه دليل على حياته فِي قبره، فإن تلك خصوصية اختص اللَّه بها نساء نبيه ﷺ، حيث خيرن بين الرسول وبين غيره، فاخترنه لقوة إيمانِهنَّ، والسبب فِي التخيير أنَّهن تظاهرن على الرسول ﷺ يسألنه النفقة ورغد الحياة بعد أن فتح اللَّه عليه خيبر، فلما أكثرن عليه فِي ذلك آلى ألَّا يقربَهن شهرًا، وأشيع أنه طلقهن، ثُمَّ نزلت آية التخيير، وهي قوله تعالَى من سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩] فخيرهن ﷺ، فكلهن اخترن اللَّه ورسوله والدار الآخرة، فشكر اللَّه لهن هذا الصنيع، وكافأهن عليه، وهو سبحانه شكور لأعمال عباده، فقصر الرسول ﷺ عليهن رحمة بهن، وشكرًا لإحسانهن، فقال له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وكذلك قصرهن عليه معلوم لا شك فيه، فقد جعلهن أمهات للمؤمنين، ونَهى المؤمنين عن نكاحهن بعده بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهن زوجات له فِي الدنيا وفِي الآخرة جميعًا، ولِهذا حرمن على غيره من بعده صيانة لهن عن الدخول في فراش ثان، حَتَّى يلحقن به في الفردوس الأعلى -رضي اللَّه عنهن- لكنهن مع ذلك قد أتين بعدة شرعية، احتددن فيها، ولزمن بيوتَهن، كما تفعل كل متوفًّى عنها زوجها؛ امتثالًا لقوله تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فأين فِي هذا ما يدل أو ما يصح أن يكون شبه دليل على حياته ﷺ فِي قبره؟

* * *

هَـذَا وَرُؤْيـتُـهُ الْـكَـلِـيـمَ مُـصَـلِّـيًـا ... فِـي قَـبْـرِهِ أَثَـرٌ عَـظِـيـمُ الـشَّـانِ

فِي الْقَلْبِ مِنْهُ حَسِيكَةٌ هَلْ قَالَهُ ... فَـالْـحَـقُّ مَـا قَـدْ قَـالَ ذُو الْـبُـرْهَـانِ

وَلِذَاكَ أَعْرَضَ فِي الصَّحِيحِ مُحَمَّدٌ ... عَـنْـهُ عَـلَـى عَـمَـدٍ بِـلَا نِـسْـيَـانِ

وَالـدَّارَقُـطْـنِـيُّ الإِمَـامُ أَعَـلَّـهُ ... بِـرِوَايَـةٍ مَـعْـلُـومَـةِ الـتِّـبْـيَـانِ

أَنَسٌ يـقُـولُ رَأَى الْـكَـلِـيـمَ مُـصَـلِّـيًـا ... فِـي قَـبْـرِهِ فَـاعْـجَـبْ لِـذَا الْـفُـرْقَـانِ

فَرَوَاهُ مَوْقُـوفًـا عَـلَـيْـهِ وَلَـيـسَ بِـالْـ ... ـمَـرْفُـوعِ وَا شَـوْقًـا إِلَـى الْـعِـرْفَـانِ

بَيْنَ السِّيَاقِ إِلَى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ ... لَا تَـطْـرَحَـنْـهُ فَـمَـا هُـمَـا سِـيَّـانِ

لَكِنْ تُقَلِّدْ مُسْلِمًا وَسِوَاهُ مِمْـ ... ـمَـنْ صَـحَّ هَـذَا عِـنْـدَهُ بِـبَـيَـانِ

فَـرُوَاتُـهُ الأَثْـبَـاتُ أَعْـلَامُ الْـهُـدَى ... حُـفَّـاظُ هَـذَا الـدِّيـنِ فِـي الأَزْمَـانِ

لَكِنَّ هَذَا لَيسَ مُخْتَصًّا بِهِ ... وَاللهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ
فَرَوى ابْنُ حِبَّانَ الصَّدُوقُ وَغَيرُهُ ... خَبَرًا صَحِيحًا عِنْدَهُ ذَا شَانِ
فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي ... قَدْ مَاتَ وَهْوَ مُحَقَّقُ الإِيمَانِ
فَتَمَثَّلَ الشَّمْسَ الَّذِي قَدْ كَان يَرْ ... عَاهَا لأَجْلِ صَلَاةِ ذِي الْقُرْبَانِ
عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتَ صَلَاتِهِ ... فَيقُولُ لِلْمَلَكَينِ هَلْ تَدَعَانِي
حَتَّى أُصَلِّي الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا ... قَالَا سَتَفْعَلُ ذَاكَ بَعْدَ الآنِ
هَذَا مَعَ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ لَا الَّذِي ... حُكِيَتْ لَنَا بِثُبُوتِهِ الْقَوْلَانِ
هَذَا وَثَابِتٌ الْبُنَانِي قَدْ دَعَا الرْ ... رَحْمَنَ دَعْوَةَ صَادِقِ الإِيقَانِ
أَلَّا يَزَالَ مُصَلِّيًا فِي قَبْرِهِ ... إِنْ كَان أُعْطِيَ ذَاكَ مِنْ إِنْسَانِ

الشرح: وأما احتجاجهم بما رواه أنس من أنه ﷺ مر ليلة أسري به على موسى بن عمران ﷺ وهو قائم يصلي فِي قبره، فقد روي الحديث مرفوعًا وموقوفًا، ففي رواية مسلم وأبِي داود يرفع أنس الحديث إلَى رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**مررت ليلة أسري بي على موسى ﷺ قائمًا يصلي فِي قبره**». وأبو يعلى الموصلي يرويه فِي مسنده موقوفًا على أنس: مرة بلفظ: أخبرني بعض أصحاب النَّبِي ﷺ: «أن النَّبِي ﷺ ليلة أسري به مر على موسى وهو يصلي فِي قبره». ومرة عمن سمع أنسًا، قالت: سمعت أنسًا: «أن النَّبِيَّ ﷺ ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلي فِي قبره». ولِهذا وقع فِي القلب حُسَيكة -أي: شك منه- هل قاله الرسول ﷺ أم لَمْ يقله.

فإن كان قاله؛ فالحق ما قاله صاحب البرهان ﷺ؛ ولذلك أيضًا أعرض الإمام مُحمَّد ابن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن روايته فِي صحيحه عمدًا بلا نسيان، وأعله بذلك الدارقطني حيث رواه موقوفًا على أنس، وليس بالمرفوع، وما كان أشد شوقنا إلَى معرفة الحق من هذه الروايات، فإن بينها تفاوتًا فِي السياق، لكن الأولى قبول رواية مسلم وغيره ممن صح عندهم رفعه، فإن رواته كلهم ثقات، وكلهم أعلام هدى، وهم القائمون على حفظ الدين فِي جَميع العصور، لكن هذا المعنَى وهو قيام الكليم مصليًا فِي القبر؛ ليس مختصًا به وحده حَتَّى ينهض دليلًا لكم على حياة الأنبياء فِي قبورهم، فقد روى ابن حبان وغيره خبرًا صحيحًا مؤداه: «أن المؤمن الذي مات محققًا لإيمانه تمثل له الشمس الَّتِي كان يرقبها فِي الدنيا، يتحين بِها أوقات الصلاة فيراها قد مالت للغروب، فيخاف فوت صلاة

العصر فيستأذن الملكين اللذين هما منكر ونكير قائلًا لهما : هل تدعاني حَتَّى أصلي العصر قبل خروج وقتها . فيقولان له : ستفعل ذلك بعد الآن» . فإذا جازت الصلاة فِي القبر ممن كان موته محققًا لا ريب فيه ، فجوازها ممن وقع النِّزاع فِي حياته أو موته أولى .

ولقد كان ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أحد رواة حديث أنس - يدعو اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بلسان صدق أن يجعله مصليًا فِي قبره إن كان قد أعطى ذلك لغيره من الناس ، واللَّه تَعَالَى أعلم .

* * *

لَكِنَّ رُؤْيَتَهُ لِمُوسَى لَيلَةَ الْـ ... ـمِعْرَاجِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

يرْوِيهِ أَصْحَابُ الصِّحَاحِ جَمِيعُهُمْ ... وَالْقَطْعُ مَوْجِبُهُ بِلَا نُكْرَانِ

وَلِذَاكَ ظُنَّ مُعَارِضًا لِصلَاتِهِ ... فِي قَبْرِهِ إذْ لَيسَ يجْتَمِعَانِ

وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ أُسْرِي بِهِ ... لِيرَاهُ ثَمَّ مُشَاهِدًا بِعِيَانِ

فَرَآهُ ثَمَّ وَفِي الضَّرِيحِ وَلَيسَ ذَا ... بِتَنَاقُضٍ إذْ أَمْكَنَ الْوَقْتَانِ

هَذَا وَرَدُّ نَبِينَا التَّسْلِيمَ مَنْ ... يَأْتِي بِتَسْلِيم مَعَ الإحْسَانِ

مَا ذَاكَ مُخْتَصًّا بِهِ أَيضًا كَمَا ... قَدْ قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

مَنْ زَارَ قَبْرَ أَخٍ لَهُ فَأَتَى بِتَسْـ ... ـلِيم عَلَيهِ وَهْوَ ذُو إيمَانِ

رَدَّ الإلَهُ عَلَيهِ حَقًّا رُوحَهُ ... حَتَّى يَرُدَّ عَلَيهِ رَدَّ بَيَانِ

وَحَدِيثُ ذِكْرِ حَيَاتِهِمْ بِقُبُورِهِمْ ... لَمَّا يَصِحُّ وَظَاهِرُ النُّكْرَانِ

فَانْظُرْ إلَى الإسْنَادِ تَعْرِفْ حَالَهُ ... إنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ بِهَذَا الشَّانِ

الشرح : وإذا لَمْ يصح حديث رؤيته عَلَيهِ السَّلَامُ لموسى قائمًا يصلي فِي قبره للاختلاف فِي وقفه ورفعه ؛ فإن رؤيته له فِي السماء السابعة ليلة المعراج متفق عليه ، فقد رواه جَميع أصحاب الصحاح ؛ ولذلك كان مفيدًا للقطع بدون نكير .

وقد ظن بعض الناس أنه معارض لصلاته فِي قبره ؛ إذ لا يعقل أن يكون فِي ليلة واحدة قد رآه فِي قبره يصلي ، ثُمَّ رآه بعد ذلك فِي السماء .

وأجيب عن هذا : بأنه لا تناقض بين رؤيته له فِي قبره وبين رؤيته له بعد ذلك فِي السماء لاختلاف الوقتين ، وقد صلى الرسول ﷺ فِي بيت المقدس ، ثُمَّ عرج به بعد ذلك إلَى السماء ، ولَمْ يقل أحد : إن صلاته فِي بيت المقدس تناقض وجوده فِي السماء . فإن هذا بعد

هذا لا معه، وإنَّما التناقض وقوع الأمرين جميعًا فِي وقت واحد بعينه.

وأما احتجاج القائلين بحياته ﷺ فِي قبره برده السلام على من يسلم عليه من أمته فهو إن صح حجة عليهم، فقد جاء فِي الحديث: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد اللَّه عليَّ روحي، فأرد عليه السلام**». فقوله: «**إلا رد اللَّه علي روحي**» يدل على أن روحه لَمْ تكن فِي بدنه، فلم يكن حينئذ حيًّا، ويدل أيضًا على أن رد الروح إليه إنَّما هو بقدر ما يرد السلام فقط على من يسلم عليه، على أن ذلك ليس مختصًّا به ﷺ، بل ورد فِي مسند أحمد وغيره أنه ما من رجل يزور قبر رجل كان يعرفه فِي الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد اللَّه عليه روحه حَتَّى يرد عليه السلام، وإذا انتفى اختصاصه عليه السلام بذلك، وكان ثابتًا فِي حق غيره ممن هو مقطوع بموته؛ لَمْ يصلح حينئذ أن يكون دليلًا على حياته.

وأما الحديث الذي ذكر فيه حياة الأنبياء فِي قبورهم ولفظه: «**ما من نبي يموت فيقيم فِي قبره إلا أربعين صباحًا حَتَّى ترد إليه روحه**». فقد رواه ابن حبان عن أنس مرفوعًا، وقال عنه: إنه باطل. كما ذكره أبو الفرج بن الجوزي فِي «الموضوعات»، وقد أخرجه أيضًا الطبراني وأبو نعيم فِي «الحلية»، ورواه البيهقي فِي كتاب «حياة الأنبياء»، وروى له عدة شواهد، ولَمْ يصح من ذلك كله شيء، ومن نظر إِلَى إسنادها، وكان ذا علم بأحوال الأسانيد والرجال؛ عرف حال هذه الأحاديث.

* * *

هَـذَا وَنَـحْـنُ نَـقُـولُ هُـمْ أَحْـيَـاءُ لَـ ... كِـنْ عِـنْـدَنَـا كَـحَـيَـاةِ ذِي الأَبْـدَانِ

وَالـتُّـرْبُ تَـحْـتَـهُـمُ وَفَـوْقَ رُءُوسِـهِـمْ ... وَعَـنِ الـشَّـمَـائِـلِ ثُـمَّ عَـنْ أَيـمَـانِ

مِـثْـلَ الَّـذِي قَـدْ قُـلْـتُـمُـوهُ مَـعَـاذَنَـا ... بِـالـلـهِ مِـنْ إِفْـكٍ وَمِـنْ بُـهْـتَـانِ

بَـلْ عِـنْـدَ رَبِّـهِـمُ تَـعَـالَـى مِـثْـلَ مَـا ... قَـدْ قَـالَ فِـي الـشُّـهَـدَاءِ فِـي الْـقُـرْآنِ

لَـكِـنْ حَـيَـاتُـهُـمُ أَجَـلُّ وَحَـالُـهُـمْ ... أَعْـلَـى وَأَكْـمَـلُ عِـنْـدِ ذِي الإِحْـسَـانِ

هَـذَا وَأَمَّـا عَـرْضُ أَعْـمَـالِ الْـعِـبَـا ... دِ عَـلَـيْـهِ فَـهْـوَ الْـحَـقُّ ذُو إِمْـكَـانِ

وَأَتَـى بِـهِ أَثَـرٌ فَـإِنْ صَـحَّ الْـحَـدِيـ ... ـثُ بِـهِ فَـحَـقٌّ لَـيْـسَ ذَا نُـكْـرَانِ

لَـكِـنَّ هَـذَا لَـيْـسَ مُـخْـتَـصًّـا بِـهِ ... أَيْـضًـا بِـآثَـارٍ رُوِيـنَ حِـسَـانِ

فَـعَـلَـى أَبِـي الإِنْـسَـانِ يُـعْـرَضُ سَـعْـيُـهُ ... وَعَـلَـى أَقَـارِبِـهِ مَـعَ الإِخْـوَانِ

إِنْ كَـانَ سَـعْـيًـا صَـالِـحًـا فَـرِحُـوا بِـهِ ... وَاسْـتَـبْـشَـرُوا يَـا لَـذَّةَ الْـفَـرْحَـانِ

أَوْ كَـان سَعْيًا سَيئًا حَزِنُوا وَقَا ... لُـوا رَبِّ رَاجِعْـهُ إِلَـى الإِحْسَـانِ

وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ رَوَى ... هَـذَا الْحَدِيثَ عَقِيبَهُ بِلِسَانِ

يَا رَبُّ إِنِّي عَائِذٌ مِنْ خِزْيَةٍ ... أُخْزَى بِهَا عِنْدَ الْقَرِيبِ الدَّانِي

ذَاكَ الشَّهِيدُ الْمُرْتَضَى ابْنُ رَوَاحَةَ الْـ ... ـمَحْبُوُّ بِالْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

لَكِنَّ هَذَا ذُو اخْتِصَاصٍ وَالَّذِي ... لِلْمُصْطَفَى مَا يَعْمَلُ الثَّقَلَانِ

الشرح: هذا ونَحن لا ننكر أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أحياء، لكن لا نثبت لَهم حياة بدنية محسوسة فِي قبورهم كحياتِهم قبل الموت، مع إحاطة التراب بِهم من كل جانب، ومع بطلان الحس والحركة عنهم، مثل الذي يزعمه هؤلاء المخرفون، فنحن نعوذ باللَّه أن نفتري على اللَّه الكذب، ونقول ما لا علم لنا به من هذا الإفك والبهتان، بل نَحن نثبت لَهم حياة عند اللَّه كحياة الشهداء الَّتِي أخبر بِها عنهم القرآن، لكن حياة الرسل هناك أعظم مما للشهداء، وهم أعلى منهم حالًا، وأكمل عند اللَّه صاحب الفضل والإحسان.

وأما حديث: «عرض أعمال العباد عليه» فقد ورد بألفاظ لا يشك من تأملها أنه باطل موضوع، ولَمْ يروه أحد من أصحاب الصحاح، بل رواه صاحب «الفردوس» بسند فِيه انقطاع، وفِي بعض الروايات رُوي موقوفًا على أنس، وإليك نص الحديث: **«حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم، فإن وجدت خيرًا؛ حمدت اللَّه، وإن وجدت شرًّا استغفرت لكم»**. فحياته كانت خيرًا لأمته بلا نزاع، يهديها إلَى الرشد، ويقودها إلَى مواطن الفلاح والخير، ولكن كيف يكون موته خيرًا لَها، وقد أدرك أصحابه عظم الفجيعة فيه، واستهولوا الخطب، حَتَّى أن أشدهم شكيمة وهو عمر بن الخطاب ﵁ قد غشي عليه من هول المصاب؟ وما من شك فِي أن فقده ﷺ كان أعظم ما أصيبت به هذه الأمة من أرزاء.

ثُمَّ ما فائدة عرض الأعمال عليه وهو ليس مسئولًا عنها، ولا مكلفًا بإحصائها وكتابتها، ولا برفعها إلَى اللَّه، فإن لذلك كله ملائكة موكلين به، وكيف يعقل أن يسوء اللَّه ﷺ نبيه، ويحزن قلبه، وينغِّص عليه ما هو فيه من أنواع النعيم بعرض حصائد الناس من الشرور والمعاصي عليه، أما يكفي ما تحمله فِي حياته من أنواع المشقات وكبار التضحيات.

والحديث فيه كذلك إغراء بالمعاصي ودعوة إليها، فإنه إذا كان الرسول ﷺ سيستغفر لعصاة أمته كلما عرضت عليه أعمالهم، ولا شك أن استغفاره موجب للمغفرة -لَمْ يضر

أحد ما يرتكبه من ذنب، وهو معارض للأحاديث الصحيحة الَّتِي تدل على أنه لا يدري بعد موته شيئًا من أحوال أمته، فقد جاء فِي حديث الحوض: «أنه يرد عليه أناس من أمته الحوض، وأنه يَهم ليسقيهم؛ فتجيء الملائكة وتذودهم عن الحوض، فيقول الرسول ﷺ: هؤلاء أصحابِي أعرفهم. فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فيقول: **سحقًا وبُعدًا لمن أحدث بعدي**. ويتلو قوله تعالَى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]».

ولو فرض صحة هذا الأثر، فإن عرض الأعمال عليه ﷺ من شئون الغيب الَّتِي نؤمن بِها ولا نعلم كيفيتها، مع علمنا يقينًا أنه ليس عرضًا حسيًّا يقتضي رؤية أو سماعًا أو غير ذلك مما هو من شئون الحي، وهو أيضًا ليس مختصًّا به حَتَّى يكون دليلًا على حياته فِي قبره، بل قد ورد فِي عدة آثار -حالها فِي الإسناد على ما فيه أحسن من هذا الحديث- أن الإنسان يعرض سعيه على أبيه الميت وأقاربه وإخوانه، فإن كان سعيًا صالِحًا، فرحوا به واستبشروا، وإن كان سعيًا سيئًا، حزنوا وتكدروا، ودعوا اللَّه ﷻ أن يرده عن غيه، ويوفقه للصالحات؛ ولِهذا استعاذ راوي هذا الحديث -وهو الصحابي الجليل عبد اللَّه بن رواحة الذي استشهد فِي غزوة مؤتة- باللَّه من كل عمل يخزيه عند أهله وأقربائه الميتين.

والفرق بين الأمرين: أن هذا عرض خاص بالنسبة للأهل والإخوان، وأما الرسول فيعرض عليه ما يعمله الثقلان.

واعلم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد تساهل فِي قبوله هذه الآثار، وكان الأولى به أن ينبه على ضعفها، وأنَّها لا يمكن أن تقوم بِها حجة، لاسيما فِي هذه المسائل الَّتِي يجب الاحتياط فيها، حَتَّى لا يفتح الباب للدعاوى العريضة والاختلاقات الباطلة كما فعل المتصوفة بالنسبة إلَى مشايخهم المقبورين، فقد رووا عنهم بعد الموت ما لا يصدقه عقل، والسبب فِي ذلك طبعًا هو التساهل فِي قبول مثل هذه الآثار من غير رَوِيَّة ولا تمحيص، واللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أعلم.

* * *

هَـذِي نِـهَـايَـاتٌ لأَقْـدَامِ الْـوَرَى ... فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّنْكِ صَعْبِ الشَّانِ

وَالْحَقُّ فِيهِ لَيسَ تَحْمِلُهُ عُقُو ... لُ بَنِي الـزَّمَـانِ لِغِـلْـظَـةِ الأَذْهَـانِ

وَلِجَهْلِهِمْ بِالرُّوحِ مَعْ أَحْكَامِهَا ... وَصِـفَـاتِـهَـا لِـلإلْـفِ بِـالأَبْـدَانِ

فَارْضَ الَّذِي رَضِي الإِلَهُ لَهُمْ بِهِ ... أَتُرِيدُ تَنْقُضُ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ
هَلْ فِي عُقُولِهِمُ بِأَنَّ الرُّوحَ فِي ... أَعْلَى الرَّفِيقِ مُقِيمَةٌ بِجَنَانِ
وَتُرَدُّ أَوْقَاتَ السَّلَامِ عَلَيْهِ مِنْ ... أَتْبَاعِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ
وَكَذَاكَ إِنْ زُرْتَ الْقُبُورَ مُسَلِّمًا ... رُدَّتْ لَهُمْ أَرْوَاحُهُمْ لِلآنِ
فَهُمُ يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَيْكَ لَـ ... ـكِنْ لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِذِي الأُذُنَانِ
هَذَا وَأَجْوَافُ الطُّيورِ الْخُضْرِ مَسْـ ... ـكَنُهَا لَدَى الْجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ
مَنْ لَيسَ يَحْمِلُ عَقْلُهُ هَذَا فَلَا ... تَظْلِمْهُ وَاعْذُرْهُ عَلَى النُّكْرَانِ
لِلرُّوحِ شَأْنٌ غَيرُ ذِي الأَجْسَامِ لَا ... تَهْمِلْهُ شَأْنُ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَانِ
وَهْوَ الَّذِي حَارَ الْوَرَى فِيهِ فَلَمْ ... يَعْرِفْهُ غَيرُ الْفَرْدِ فِي الأَزْمَانِ
هَذَا وَأَمْرٌ فَوْقَ ذَا لَوْ قُلْتُهُ ... بَادَرْتَ بِالإِنْكَارِ وَالْعُدْوَانِ
فَلِذَاكَ أَمْسَكْتُ الْعَنَانَ وَلَوْ أَرَى ... ذَاكَ الرَّفِيقَ جَرَيتُ فِي الْمَيْدَانِ
هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ... وَحُدُوثُهَا الْمَعْلُومُ بِالْبُرْهَانِ
هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا لَيسَتْ كَمَا ... قَدْ قَالَ أَهْلُ الإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ
لَا دَاخِلٌ فِينَا وَلَا هِي خَارِجٌ ... عَنَّا كَمَا قَالُوهُ فِي الدَّيَّانِ
وَاللَّهِ لَا الرَّحْمَنَ أَثْبَتُّمْ وَلَا ... أَرْوَاحَكُمْ يَا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ
عَطَّلْتُمُ الأَبْدَانَ مِنْ أَرْوَاحِهَا ... وَالْعَرْشَ عَطَّلْتُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرح: بعد أن ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض ما تضمنته هذه الآثار من شئون الروح وأحوالها، قال: إن هذا هو نِهاية ما بلغته مدارك البشر فِي هذا المقام الخطر والأمر الجليل. ولكن الحق الكامل فيه لا تطيق حمله عقول بني العصر؛ لغلظ أذهانِهم، وشدة جهلهم بأحكام الروح وصفاتِها؛ لقوة الإلف بالأبدان، والتعلق بالمحسوسات، فيجب أن نقنع منهم بِهذا الذي رضيه اللَّه لَهم من يسير العلم بِهذه الشئون، حيث أجاب سبحانه السائلين عن الروح بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وتلك حكمته سبحانه ألَّا يخاطب عباده إلا بمقدار ما تحتمله عقولهم، وليس فِي عقول الناس أن الروح إذا كانت فِي الرفيق الأعلى مقيمة فِي روضات الجنات ترد إِلَى البدن لرد السلام كلما سلم عليه أحد من أمته فِي جَميع الأوقات.

وليس فِي العقول كذلك أننا إذا زرنا القبور مُسَلِّمين على من بِها من إخواننا وأقاربنا ؛ ترد إليهم أرواحهم لرد السلام علينا ، وإن كنا لا نسمع ذلك بآذاننا ، مع وجود أرواحهم فِي حواصل الطير الخضر ، تسرح فِي بحبوحة الجنان ، فمن لا يحمل عقله مثل هذه المعاني ؛ فيجب أن نعذره ، ولا نكلفه ما لا يطيقه من ذلك ، فإن للروح نواميسها العجيبة ، وشئونَها الغريبة الَّتِي تخالف قوانين الأجسام ، فلا تَهمل هذه الشئون الَّتِي حار الورى فِي فهمها ، فلم يعرفها منهم إلا الفرد بعد الفرد فِي الأزمان المتطاولة ، هذا وإن للروح من العجائب والأسرار ما لو أبديته ؛ لبادر الجهلاء إلَى إنكاره ومقابلته بالعدوان ؛ فلهذا كبحت جماح القلم ، ولو وجدت من يفهم ذلك ، لأطلقت له العنان ، وجريت فِي الميدان .

وخلاصة القول فِي الروح : إنَّها مخلوقة وحادثة ، وذلك ثابت بالبراهين القاطعة ، وليست قديمة كما يقول الفلاسفة المارقون ، وأنَّها كذلك قابلة للحلول فِي البدن والانفصال عنه ، وللصعود والنُّزول ، وليست كما يقول الفلاسفة الضلال : ليست بداخلة فِينا ، ولا خارجة عنا . كما قالوا ذلك فِي حق الرب -جل شأنه- فلا هم أثبتوا ربَّهم ، ولا أثبتوا أرواحهم ، بل عطلوا أبدانَهم عن أرواحها حين قالوا : إن الروح ليست حالَّة فِي البدن . كما عطلوا العرش عن وجود الرحمن فوقه حين أنكروا استواءه عليه .

فصل في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلًا بعد جيل

لَا يُفْزِعَنْكَ قَعَاقِعٌ وَفَرَاقِعٌ ... وَجَعَاجِعٌ عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

مَا عِنْدَهُمْ شَيءٌ يهُولُكَ غيرُ ذَا ... كَ الْمَنْجَنِيقِ مُقَطِّعِ الأَفْخَاذِ وَالأَرْكَانِ

وَهْوَ الَّذِي يَدْعُونَهُ التَّرْكِيبَ مَنْ ... صُوبًا عَلَى الإثْبَاتِ مُنْذُ زَمَانِ

أَرَأَيتَ هَذَا الْمَنْجَنِيقَ فَإِنَّهُمْ ... نَصَبُوهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الإيمَانِ

بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الْحُصُونَ فَهَدَّتِ الشْ ... شُرُفَاتِ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

للهِ كَمْ حِصْنٍ عَلَيهِ اسْتَوْلَتِ الْ ... كُفَّارُ مِنْ ذَا الْمَنْجَنِيقِ الْجَانِي

وَاللهِ مَا نَصَبُوهُ حَتَّى عَبَرُوا ... قَصْدًا عَلَى الْحِصْنِ العظيم الشَّانِ

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ أَنَّ قَوْمًا بَينَ أَهْ ... لِ الْحِصْنِ وَاطُوهُمْ عَلَى الْعُدْوَانِ

وَرَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وَكَانَ مُصَابُ أَهْ ... لِ الْحِصْنِ مِنْهُمْ فَوْقَ ذِي الْكُفْرَانِ

فَتَرَكَّبَتْ مِنْ كُفْرِهِمْ وَوِفَاقِ مَنْ فِي الْحِصْنِ أَنْوَاعٌ مِنَ الطُّغْيَانِ
وَجَرَتْ عَلَى الإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ مِنْ ذَيْنِ تَقْدِيرًا مِنَ الرَّحْمَنِ
وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ دِينَهُ الرْ رَحْمَنُ كَانَ كَسَائِرِ الأَدْيَانِ
لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الإِلَهُ بِفَضْلِهِ يَزَكًا مِنَ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ
فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْمَنْجَنِيقِ صَوَاعِقًا وَحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلأَرْكَانِ

تفسير المفردات:

القعاقع: جمع قعقعة وهي صوت الطبل. والفراقع: جمع فرقعة، وهي صوت السياط. والجعاجع: جمع جعجعة، وهي صوت الرحى. عريت: تجردت. يهولك: يفزعك. المنجنيق: آلة توضع فيها الحجارة لترمى بِها الحصون. واليزك: الشهب الَّتِي ترمى بِها الشياطين.

الشرح: لا يجد أهل التعطيل حجة يشغبون بِها على أهل الإثبات، ويغيرون بِها فِي وجه الحق إلا حجة التركيب، والأصل فِي هذه الحجة هم الفلاسفة، فإن مذهبهم أن واجب الوجود واحد من كل وجه بسيط، لا تكثر فيه لا ذهنًا ولا خارجًا؛ ولِهذا نفوا جَميع الصفات الثبوتية من العلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولَمْ يثبتوا إلا السلوب والإضافات، ولكن فريقًا من المتكلمين جاروهم فِي هذه الفرية، وواطئوهم عليها، وصاروا إلبًا واحدًا على أهل الإثبات، ونصبوا من هذا التركيب منجنيقًا يرمون منه معاقل الإثبات من زمان بعيد.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يحذر من الاغترار بِما يجعجع به هؤلاء من سفسطات ليس لَهَا سنة من دليل، ويخبر أنه ليس عندهم ما يهولون به غير هذا المنجنيق المتداعي الأركان الذي يسمونه التركيب، ناصبين له تحت معاقل الإيمان، وأخذوا يرمونَها به حَتَّى بلغت حجارته لقوة رميها مواقع الحصون؛ فأسقطت شرفاتِها، واستولت على الجدران، فكم من حصن استولوا عليه بواسطة هذا المنجنيق، وهم ما نصبوه إلا ليعبروا من خلال هذه الحصون إلَى الحصن الأكبر، الذي هو حصن الإيمان، ومما زاد الأمر سوءًا والبلاء شدة أن جماعة من أهل الحصن قد انضموا إلَى هؤلاء الأعداء، ووافقوهم على العدوان، ورموا معهم بالمنجنيق حصن الإيمان، وكان ما لقيه أهل الحصن من هؤلاء المنافقين أشد مما لقوه من أهل الكفران، وتركب من كفر هؤلاء وموافقة بعض أهل الحصن لَهم طغيان شديد على

أهل الحق، وجرت منهما على الإسلام محنة قاسية، وكان ذلك بتقدير اللَّه -جل شأنه- ولولا أنه سبحانه تدارك دينه بلطفه ورحمته لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله من الفساد والضياع، ولكنه أقام له بفضله جندًا من أهل الحق ينصرونه ويحمونه، ويرمون منجنيق أهل التعطيل بصواعق محرقة من أدلة الإثبات، حَتَّى أتوا عليه من القواعد، وجعلوا أركانه كثيبًا مهيلًا.

* * *

فَاسْأَلْهُمُ مَاذَا الَّذِي يَعْنُونَ بِالتْـ ... تَرْكِيبِ فَالتَّرْكِيبُ سِتُّ مَعَانِ

إِحْدَى مَعَانِيهِ هُوَ التَّرْكِيبُ مِنْ ... مُتَبَايِنٍ كَتَرَكُّبِ الْحَيَوَانِ

مِنْ هَذِهِ الأَعْضَا كَذَا أَعْضَاؤُهُ ... قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الأَرْكَانِ

أَفَلَازِمٌ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبِّنَا ... وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

وَلَعَلَّ جَاهِلَكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا ... ذَا لَازِمُ الإِثْبَاتِ بِالْبُرْهَانِ

فَالْبَهْتُ عِنْدَكُمُ رَخِيصٌ سِعْرُهُ ... حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانِ

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَرْكِيبُ الْجِوَا ... رِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ

كَالْجِسْرِ وَالْبَابِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ ... بِجِوَارِهِ لِمَحَلَّةٍ مِنْ بَانِ

وَالأَوَّلُ الْمَدْعُوُّ تَرْكِيبُ امْتِزَا ... جٍ وَاخْتِلَاطٍ وَهْوَ ذُو تِبْيَانِ

أَفَلَازِمٌ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... أَيْضًا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

الشرح: فاسأل هؤلاء الذين يتعللون بحجة التركيب، ويرونَها مانعة من إثبات الصفات: ماذا تقصدون بالتركيب؟ فإنه لفظ مجمل يقع فِي الاصطلاح على ست معان.

إحداها: التركب من أمور متباينة: كتركب الحيوان من أعضائه المختلفة وأجهزته المتعددة، وكتركب أعضاء الحيوان من الأُسْطُقُسَّات الأربعة الَّتِي هي الماء، والهواء، والتراب، والنار، وكان قدماء الطبيعيين يعتقدون أن كل واحد من هذه الأربعة عنصر بسيط، حَتَّى كشف العلم الحديث عن تركبها من عناصر أبسط منها، كالأكسجين والأيدروجين والآزوت وغيرها، وقد بلغ ما اكتشف منها حَتَّى الآن نحوًا من مائة عنصر.

فهل هذا النوع من التركيب لازم على القول بثبوت الصفات للَّه وعلوه فوق جَميع خلقه؟ لعل جاهلًا منكم يقول على سبيل البهت والمكابرة: إن ذلك التركيب من أمور

متغايرة لازمة على إثبات الصفات بالبرهان، فإنَّها غير الذات قطعًا؛ لأن الصفة لا تكون عين الموصوف، وكذلك هي متغايرة فيما بينها، فإذا فرض أنَّها أمور موجودة؛ لزم التركب من أمور متغايرة، وهذا محض مكابرة، فإن الموصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته؛ لا يكون مركبًا من أشياء متباينة، كتركب الحيوان من أجزائه، فإن صفاته ليست غيره؛ إذ ليس لَهَا وجود خاص بِها، بل هي تابعة له فِي وجوده وقدمه وبقائه، فهي لازمة له، لا يعقل وجوده بدونِها، ولا يوجد إلا وهو متصف بِها من غير افتقار منه إليها، بل هي المفتقرة إليه لكونِها قائمة به.

وأما الثاني من أنواع التركيب: فهو التركب من متجاورين يمكن افتراق أحدهما عن الآخر، وضرب المؤلف لذلك مثلًا بتركب المحلة من الجسر والباب المجاور له، والأمثلة عليه كثيرة، فهل يمكن أن يقال أيضًا: إن هذا النوع من التركيب لازم على ثبوت الصفات. تعالَى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

* * *

وَالثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلٍ ... يُدْعَى الجَوَاهِرَ فَرْدَةَ الْأَكْوَانِ
وَالرَّابِعُ الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَيُو ... لَاهُ وَصُورَتِهِ لِذِي الْيونَانِ
وَالْجِسْمُ فَهْوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْـ ... ـدَ الْفَيلَسُوفِ وَذَاكَ ذُو بُطْلَانِ
وَمِنَ الْجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَلَا ... مِ وَذَاكَ أَيضًا وَاضِحُ الْبُطْلَانِ
فَالْمُثْبِتُونَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ الَّذِي ... زَعَمُوهُ أَصْلَ الدِّينِ وَالإيمَانِ
قَالُوا بِأَنَّ الْجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ ... وَلَهُمْ خِلَافٌ وَهْوَ ذُو أَلْوَانِ
هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَينِ أَوْ ... مِنْ أَرْبَعٍ أَوْ سِتَّةٍ وَثَمَانِ
أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الأَشْعَرِيْ ... يُ لِذِي مَقَالَاتٍ عَلَى التِّبْيَانِ
أَفَلَازِمٌ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... وَعُلُوُّهُ سُبْحَانَ ذِي السُّبْحَانِ

الشرح: والثالث من أنواع التركيب: هو التركب من أجزاء صغيرة غير قابلة القسمة، تسمى بالجواهر الفردة، وهذا مذهب سائر المتكلمين، فإن الأجسام عندهم مركبة من هذه الجواهر المتماثلة، وإنَّما تتمايز الأجسام بِما يخلقه اللَّه فيها من الأعراض، وقد غلا المتكلمون من المعتزلة والأشاعرة فِي التعويل على نظرية الجواهر الفردة، وهي فِي الأصل نظرية يونانية قديمة، قال بِها ديموكريتس الفيلسوف الطبيعي اليوناني، وقد بنوا

عليها كثيرًا من الأصول الإيمانية، فجعلوها عمدتَهم فِي الاستدلال على حدوث العالم، ووجود المحدث له، حَتَّى أن أحد كبار الأشاعرة وهو القاضي أبو بكر الباقلاني قد أوجب الإيمان بوجود الجوهر الفرد، بناءً على أن الإيمان بوجود اللَّه متوقف على ثبوته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما بنوا على تلك النظرية ما يترتب على حدوث العالم من أن اللَّه فاعل بالاختيار، لا موجب بالذات كما يقوله الفلاسفة، وأنه لا تأثير لشيء من الأسباب فِي مسبباتِها، بل يخلق اللَّه الأشياء عند وجود أسبابِها لا بِها.

وهكذا انحرف المتكلمون عن الجادة، واعتمدوا فِي استدلالهم على وهم كاذب، وربطوا به مصير العقائد الإيمانية كلها، مما جعل السلف الصالح المتمسكين بالكتاب والسنة يذمون الكلام وأهله، ويرمونَهم بالفسوق والابتداع والمروق عن الملة، ومما جعل أعداءهم من الفلاسفة ينتصرون عليهم، ويتمكنون من مقاتلتهم، فلا هم للإسلام نصروا، ولا للفلاسفة كسروا، وهكذا يفعل الصديق الجاهل من الأذى والضرر ما لا يفعله العدو العاقل، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

وبعد أن اتفق المتكلمون على تركب الأجسام من تلك الجواهر الفردة؛ اختلفوا فِي أقل ما يتركب منه الجسم.

فقال الأشاعرة: أقله جوهران، فإذا انضم جوهر فرد إلَى آخر؛ حصل من مجموعهما الجسم عندهم، وحدوا الجسم بأنه: الجوهر القابل للقسمة ولو فِي جهة واحدة فقط.

وأما المعتزلة: فاعتبروا فِي الجسم أن يكون قابلًا للقسمة فِي الجهات الثلاث، وعرفوه بأنه: الطويل العريض العميق، ولكنهم اختلفوا فِي أقل ما يتركب منه الجسم، فقال النظام: يتركب من أجزاء غير متناهية بالفعل. وقال الجبائي: من ثمانية أجزاء. وقال أبو الهزيل العلاف: من ستة أجزاء. إلَى آخر ما حكاه عنهم الإمام الأشعري فِي كتابه «مقالات الإسلاميين».

والرابع من أنواع التركيب: هو تركب الجسم من هَيُولَى هي محل وصورة حالة فيها، ويعرفون الْهَيُولَى: بأنَّها جوهر فِي الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال، ومحل للصور الجسمية والنوعية.

وأما الصورة: فهي ما به يكون الشيء بالفعل، أو بعبارة أخرى: هي جوهر فِي الجسم، مقوم لمادته، ومخرج لَهَا من القوة إلى الفعل.

وهذا مذهب أرسطو الفيلسوف اليوناني، وتبعه عليه الفارابي وابن سينا وغيرهما من فلاسفة المسلمين، وهو مذهب أشد بطلانًا من مذهب المتكلمين، فهل يلزم واحد من هذين النوعين من التركيب على القول بثبوت الصفات للَّه وعلوه على خلقه؟! سبحانه وحاشاه، فهو المنزه عن كل هذه الأنواع من التركيبات الَّتِي لا تليق بذاته المقدسة، وإنَّما تتصف بِها المحدثات الناقصة.

* * *

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ لَيسَ مُرَكَّبًا ... مِنْ ذَا وَلَا هَذَا هُمَا عَدَمَانِ

وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّذِي قَدْ أَثْبَتُو ... هُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيسَ ذَا إِمْكَانِ

لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَزِمَ الْمُحَا ... لُ لِوَاضِحِ الْبُطْلَانِ وَالْبُهْتَانِ

مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى وَيعْسُرُ نَظْمُهَا ... [illegible] ـلِ صُعُوبَةِ الأَوْزَانِ

أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي ... [illegible] شَيءٍ مِنَ الأَذْهَانِ

إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ ... لا يَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

وَإِذَا وَضَعْتَ الْجَوْهَرِينِ وَثَالِثًا ... فِي الْوَسْطِ وَهْوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي

فَلأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلَا يتَلَاقَيَا ... حَتَّى يَزُولَ إِذَنْ فَيلْتَقِيَانِ

مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْـ ... ـمَمْسُوسُ لِلثَّانِي بِلَا فُرْقَانِ

هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقُولُ بِغَيرِهِ ... فَهْوَ انْقِسَامٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

الشرح والحق: أن الجسم ليس مركبًا، لا من الجواهر الفردة كما يقول المتكلمون، ولا من الْهَيُولَى والصورة كما يقول الفلاسفة، بل لا وجود لشيء من ذلك فِي واقع الأمر، وإنَّما هي فروض وتخمينات لَمْ تثبتها تجربة، ولَمْ يقم عليها دليل.

والجوهر الفرد الذي زعمه أهل الكلام، ونصبوه صنمًا لَهم تدور حوله كل أفكارهم ومذاهبهم، قامت أدلة كثيرة على بطلانه، وكان الذي قام بإبطاله هم الفلاسفة انتصارًا لمذهبهم في الْهَيُولَى والصورة، وقد قام المتكلمون من جانبهم بإبطال نظرية الفلاسفة، وهكذا ضرب اللَّه بعض المبطلين ببعض، وبقي أهل الحق والإيمان بمنجى من هذا الإفك والبهتان.

فمما أورد على نظرية الجوهر الفرد أنه يلزم عليه أن يكون الخردلة مركبة من عدد من

الجواهر الفردة يساوي ما تركب منه الجبل الضخم ؛ إذ كان كل منهما مركبًا من أجزاء غير متناهية العدد .

وهذا الإيراد إنَّما يتوجه على مذهب النظام الذي يقول بتركيب الجسم -أي جسم- من أجزاء غير متناهية ، فلزمه أن تكون الخردلة مساوية للجبل .

وقد أورد عليه أيضًا أن النملة إذا مشت بين نقطتين على جسم ؛ فإنَّها لا تستطيع قطع المسافة بينهما لعدم تناهيها ؛ إذ كانت مركبة من أجزاء غير متناهية ، وقد أجاب بأنَّها تمشي بعضًا ، وتطفر بعضًا ، فذهبت طفرة النظام مثلًا ، وما أحسن قول الشاعر :

مما يقال ولا حقيقة عنده ... معقولة تدنو إلَى الأفهام
الكسب عند الأشعري والحال عنـ ... ـد الهاشمي وطفرة النظام

ومما أورد على الجوهر الفرد أيضًا : أنك إذا وضعت جوهرًا فردًا بين جوهرين فردين ، وجعلته وسطًا بينهما ؛ فإنَّهما لا يتلاقيان ما دام هذا الوسط قائمًا ، وحينئذ يقال : إما أن يكون ما مسه أحدهما من هذا الوسط هو عين ما مسه الآخر بلا فارق أصلًا ، وهذا محال ؛ لأنه يؤدي إلَى انعدام الوسط نفسه ، ويقتضي تلاقيهما حال وجوده بينهما ، وإما أن يكون ما مسه أحدهُما منه غير ما مسه الآخر ، وهذا يقتضي قبوله للانقسام ؛ فيبطل ما زعموه من عدم هذه الجواهر الفردة للقسمة أصلًا ، وهذا دليل بَيِّن على فساد هذه الخرافة الَّتِي نسجتها أوهام المتكلمين .

ومن العجيب : أنَّهم تلقوها عبر الأعصار والقرون جيلًا بعد جيل ، وكلهم مُصِرٌّ عليها ، محافظ على قدسيتها وجلالها ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّها إذا انْهَارت ؛ زال بنيانُهم كله من القواعد ، وطار كل ما بنوه عليها من خرفات وأوهام .

* * *

وَالْخَامِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْـ ... أَوْصَافِ هَذَا بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ
سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا وَذَلِكَ وَضْعُهُمْ ... مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلَا قُرْآنِ
لَسْنَا نُقِرُّ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ ... فِي الإِصْطِلَاحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ
أَوْ مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمُ مِنْ فِرْقَةٍ ... جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ بِذِي عِرْفَانِ
مِنْ وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ الْـ ... عُلْيَا وَيَتْرُكُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَاتُ أَيْضًا كُلُّهَا ... قَبْلَ الْفَسَادِ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيسَ الشَّأْنُ فِي الْـ أَسْـمَـاءِ بِـالألْـقَـابِ ذَاتِ الـشَّـانِ
هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يقْتَضِي إبْطَالَ ذَا التْـ تَـرْكِـيـبِ مِـنْ عَـقْـلٍ وَمِـنْ فُـرْقَـانِ
وَاللَّهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيوخُكُمُ لَمَا قَـدَرُوا عَـلَـيـهِ ولَـوْ أَتَـى الـثَّـقَـلَانِ

الشرح: والخامس من أنواع التركيب عندهم: هو التركيب من الذات مع صفاتِها وهذا اصطلاح ثان للفلاسفة فِي مفهوم التركيب حملهم على نفي الصفات الوجودية فكما يستحيل عندهم تركب ذاته تعالَى من هَيُولَى وصورة، كذلك يستحيل تركبه من ذات وصفات زائدة عليها؛ لأن ذلك -فِي زعمهم- يؤدي إلَى الكثرة فِي الذات، وينافي ما يجب لواجب الوجود من البساطة والوحدة المطلقة.

ولكننا ننازعهم فِي تسمية هذا تركيبًا، فإنه اصطلاح لَهم لا سند له من عُرْفٍ ولا نقل، فقد جرى العرف على أن الشيء قد يطلق عليه اسم الواحد مع وجود صفات كثيرة له، والقرآن الكريم يقول فِي شأن الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] فسماه وحيدًا مع أنه موصوف بأن له سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وإرادة، إلَى غير ذلك من الصفات.

فإذا كنتم معشر الفلاسفة قد اصطلحتم على تسمية هذا تركيبًا، فلسنا نقر اصطلاحكم هذا، ولا نوافقكم عليه، ولا من تلقى عنكم هذه الاصطلاحات من الجهمية الجهلة الضلال، الذين عطلوا الذات عن صفاتِها العليا جريًا وراء هذه الاصطلاحات الكاذبة، تاركين ما دل عليه القرآن من ثبوت هذه الصفات للَّه، ودل عليه كذلك العقل والفطرة الإنسانية السليمة والبراهين القاطعة، فلسنا نترك ذلك كله من أجل تسميتكم إياه تركيبًا، فسموه ما شئتم، فليست العبرة بالأسماء والألقاب، فإنكم لا تستطيعون أن تقيموا دليلًا واحدًا على بطلان هذا التركيب، لا عقليًا، ولا قرآنيًا، حَتَّى ولو بعث شيوخكم وطولبوا بذلك ما قدروا عليه، بل ولن يستطيع الإنس والجن جميعًا أن يأتوا بدليل واحد على بطلان ذلك، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

* * *

وَالسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيةٍ وَوُجُـودُهَـا مَـا هَـاهُـنَـا شَـيـئَـانِ
إلَّا إذَا اخْـتَـلَـفَ اعْـتِـبَـارُهُـمَـا فَـذَا فِي الذِّهْنِ وَالثَّانِي فَفِي الأعْيَانِ
فَهُنَاكَ يَعْقِلُ كَوْنُ ذَا غَيرًا لِذَا فَـعَـلَـى اعْـتِـبَـارِهِـمَـا هُـمَـا غَـيـرَانِ

أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ نَفْـ ... سُ وُجُودِهَا هُوَ ذَاتُهَا لَا ثَانِ

مَنْ قَالَ شَيئًا غَيرَ ذَا كَان الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ ضَرْبًا مِنَ الْفَعَلَانِ

هَذَا وَكَمْ خَبْطٍ هُنَا قَدْ زَالَ بِالتْـ ... تَفْصِيلِ وَهْوَ الأَصْلُ فِي الْعِرْفَانِ

وَابْنُ الْخَطِيبِ وَحِزْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... لَمْ يهْتَدُوا لِمَوَاقِعِ الْفُرْقَانِ

بَلْ خَبَّطُوا نَقْلًا وَبَحْثًا أَوْجَبَا ... شَكًّا لِكُلِّ مُلَدَّدٍ حَيرَانِ

هَلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وُجُودُهُ ... أَمْ غَيرُهُ فَهُمَا إِذَنْ شَيئَانِ

فَيكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ ... قُلْنَا بِهِ فَيصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

وَإِذَا نَفَينَا ذَاكَ صَارَ وُجُودُهُ ... كَالْمُطْلَقِ الْمَوْجُودِ فِي الأَذْهَانِ

وَحَكَوْا أَقَاوِيلًا ثَلَاثًا ذَينِكَ الْـ ... قَوْلَينِ إِطْلَاقًا بِلَا فُرْقَانِ

الثَّالِثُ التَّفْرِيقُ بَينَ الْوَاجِبِ الْـ ... أَعْلَى، وَبَينَ وُجُودِ ذِي الإِمْكَانِ

وَسَطَوْا عَلَيهَا كُلِّهَا بِالنَّقْضِ وَالْـ ... إِبْطَالِ وَالتَّشْكِيكِ لِلإِنْسَانِ

حَتَّى أَتَى مِنْ أَرْضِ آمَدَ آخِرًا ... ثَوْرٌ كَبِيرٌ بَلْ حَقِيرُ الشَّانِ

قَالَ الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ ... وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ ... أَنْ شَكَّ فِي اللهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

الشرح: والسادس من أنواع التركيب: التركب من الماهية الَّتِي هي بالذات ووجودها، فإن لكل شيء ذاتًا، أي: ماهية هو بِها هو، وهذه الماهية يعرض لَهَا الوجود فِي الخارج، فيكون الشخص فِي الخارج مركبًا من الماهية ومن التشخص، هكذا قالوا.

والحق: أنه ليس هناك فِي الخارج شيئان ماهية ووجودها، بل ليس هناك إلا الشخص الموجود فِي الخارج، وإنَّما تعرض زيادة الوجود للماهية فِي الذهن؛ وذلك لأن الذهن يستطيع تصور الماهية معراة من الوجود، ثُمَّ يضيف إليها الوجود، وأما فِي الخارج فلا مغايرة بين الماهية ووجودها، فالماهية المطلقة معنًى كلي لا وجود له إلا فِي الأذهان، وما يوجد فِي الخارج لا يكون إلا جزئيًّا متعينًا، فإذا اعتبر الذهن ماهية من حيث هي بقطع النظر عن الوجود، واعتبر الوجود عارضًا لَهَا حكم مغايرة كل منهما للآخر ضرورة مغايرة العارض للمعروض، أما فِي الخارج فليس هناك عارض ولا معروض، بل الذات ووجودها شيء واحد، فالفصل بين الماهية ووجودها هو من عمل الذهن وحده.

وبِهذا يتضح أن ما يدعيه هؤلاء من تركب الأشخاص من الماهية والوجود فِي الخارج باطل، وزال بِهذا التفصيل الذي قدمناه كثير مما تخبط فيه القوم فِي هذه المسألة، والتفصيل دائمًا هو الأساس الذي تبنى عليه كل معرفة صحيحة؛ ولِهذا ترى ابن الخطيب المعروف بالفخر الرازي هو وحزبه من المتفلسفين لما لَمْ يهتدوا لمواقع الفرق بين الوجود فِي الذهن والوجود فِي الخارج؛ أخذوا يخبطون خبط عشواء، حَتَّى بلبلوا الأفكار، وأثاروا الشكوك حين أخذوا يتساءلون: هل ذات الباري -جل وعلا- عين وجوده أم غيره؟.

فإن قلنا: إنَّها غيره.

كان هناك شيئان متغايران، فيكون الباري مركبًا منهما، فيكون مفتقرًا إلَى كل واحد منهما، والمفتقر إلَى غيره ممكن، فيلزم أن يكون الباري ممكنًا.

وإن قلنا: إن ذاته عين وجوده. ومعلوم أن الذات -أي: الماهية- أمر كلي، صار وجوده وجودًا مطلقًا، لا تحقق له إلا فِي الأذهان.

ثُمَّ أضافوا إلَى هذين القولين قولًا ثالثًا، وهو التفريق بين الواجب -جل وعلا- وبين الممكن، فالواجب لا تركب فيه، بل وجوده عين ماهيته، وأما الممكن فوجوده زائد على ماهيته، ثُمَّ سطوا على كل هذه الأقوال بالنقد والتفنيد والإبطال، وبذلك حكموا على وجود ربِّهم بأنه عين المحال، حَتَّى جاء أحد المتأخرين من الأشاعرة وهو المعروف بالآمدي صاحب كتاب «أبكار الأفكار» فِي علم الكلام -وما هو إلا أبعار الأفكار-! فاختار الوقف فِي هذه المسألة؛ لأن الأقوال فيها متضاربة محيرة، فصار قصارى بحثه وعلمه أن شك فِي وجود ربه، فبئس ما سَوَّلت لهؤلاء شياطينهم أن يفتروا على اللَّه الكذب، ويقولون عليه ما لا يعلمون.

فصل في أحكام هذه التراكيب الستة

فَالأَوَّلَانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لَا ... تَعْدُوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالأَذْهَانِ
وَكَذَلِكَ الأَعْيَانُ أَيضًا إِنَّمَا التْـ ... تَرْكِيبُ فِيهَا ذَانِكَ النَّوْعَانِ
وَالأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا الْـ ... عُقَلَاءُ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ
وَلَهُمْ أَقَاوِيلٌ ثَلَاثٌ قَدْ حَكَيْـ ... نَاهَا وَبَيَّنَّا أَتَمَّ بَيَانِ

وَالآخَرَانِ هُمَا اللَّذَانِ عَلَيهِمَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الَّتِي تَرَيَانِ
أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ سُبْحَانَهُ بِعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ
وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي ثَبَتَتْ لَهُ بِالْعَقْلِ وَالْمَنْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ
مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيتُمُ مَضْمُونَهَا مِنْ غَيرِ مَا بُرْهَانِ
فَجَعَلْتُمُ الْمِرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ هَـ ذَا الإِصْطِلَاحَ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ

الشرح: يناقش المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هؤلاء النافين للصفات بحجة التركيب فِي معاني التركيب الستة السابقة، وأيها يصح أن يسمى تركيبًا، وأيها لا يصح.

فيقول: إن المعنيين الأولين للتركيب -وهما التركب من أمور متباينة أو أمور متجاورة- لا ينازع أحد فِي صدق مفهوم التركيب عليهما لفظًا وعقلًا، وجَميع الأعيان الخارجية إنَّما يرجع التركيب فيها إلَى واحد من هذين النوعين.

وأما الأوسطان -أعني: التركب من جواهر فردة غير قابلة للقسمة أو من هَيُولَى وصورة-: فهما اللذان تنازع الفلاسفة والمتكلمون فِي تركب الجسم منهما، فذهب المتكلمون إلَى الأول، والفلاسفة إلَى الثاني، وذهب النظام من المعتزلة إلَى تركبه من أجزاء غير متناهية.

وأما المعنيان الآخران للتركيب -أعني: التركب من الذات والصفات أو من الماهية ووجودها-: فهما اللذان دارت رحى الحرب عليهما بيننا وبين المعطلة النفاة، فهم جعلوا وصفه سبحانه بالعلو على خلقه، ووصفه كذلك بجميع صفاته العليا الَّتِي ثبتت له بالعقل والنقل القطعيين من جملة التركيب المحال، ثُمَّ نفوا مضمونَها من غير برهان، ولا دليل، فجعلوا اصطلاحهم فِي تسمية هذا المعنَى تركيبًا سلمًا لَهم إلَى النفي والتعطيل، ونَحن نناز عهم فِي تسمية هذا المعنَى تركيبًا؛ إذ لا يدل على ذلك شيء من نقل ولا لغة، ولئن سلمنا لَهم اصطلاحهم فِي تسميته تركيبًا، فلا نسلم لَهم أنه تركيب محال، فإن التركب من ذات واحدة وصفات لا ينافي التوحيد بأي حال.

* * *

لَكِنْ إِذَا قِيلَ اصْطِلَاحٌ حَادِثٌ لَا حَجْرَ فِي هَذَا عَلَى إِنْسَانِ
فَنَقُولُ نَفْيُكُمُ بِهَذَا الاِصْطِلَا حِ صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

وَكَـذَاكَ نَـفْـيُـكُـمُ بِـهِ لِـعُـلُـوِّهِ فَـوْقَ الـسَّـمَـاءِ وَفَـوْقَ كُـلِّ مَـكَـانِ
وَكَـذَاكَ نَـفْـيُـكُـمُ بِـهِ لِـكِـلَامِـهِ بِـالْـوَحْـيِ كَـالـتَّـوْرَاةِ وَالْـقُـرْآنِ
وَكَـذَاكَ نَـفْـيُـكُـمُ لِـرُؤْيَـتِـنَـا لَـهُ يَـوْمَ الْـمَـعَـادِ كَـمَـا يُـرَى الْـقَـمَـرَانِ
وَكَـذَاكَ نَـفْـيُـكُـمُ لِـسَـائِـرِ مَـا أَتَـى فِي النَّـقْـلِ مِنْ وَصْـفٍ بِـغَـيْـرِ مَـعَـانِ
كَـالْـوَجْـهِ وَالْـيَـدِ وَالأَصَـابِـعِ وَالَّـذِي أَبَـدًا يَـسُـوءُكُـمُ بِـلَا كِـتْـمَـانِ
وَبِـوُدِّكُـمْ لَـوْ لَـمْ يَـقُـلْـهُ رَبُّـنَـا وَرَسُـولُـهُ الْـمَـبْـعُـوثُ بِـالْـبُـرْهَـانِ
وَبِـوُدِّكُـمُ وَالـلَّـهِ لَـمَّـا قَـالَـهَـا أَنْ لَـيْـسَ يَـدْخُـلُ مَـسْـمَـعَ الإِنْـسَـانِ

الشرح: فإذا كنتم قد اصطلحتم على تسمية هذا تركيبًا، فسموا كيف شئتم، إذ لا مشاحة فِي الاصطلاح، وأما أن تتخذوا من هذا الاصطلاح الحادث لكم ذريعة إِلَى نفي صفاته؛ فهذا محض الباطل وعين الافتراء.

وكذلك: نفيكم به لعلوه بذاته فوق جَميع خلقه، ونفيكم به لكلامه بالوحي المنَزل على رسله، كالتوراة والقرآن وغيرهما من كتبه، ونفيكم به لرؤية المؤمنين له يوم القيامة عيانًا بأبصارهم كما يرى القمران، أي: الشمس والقمر.

وكذلك: نفيكم به لسائر ما أتى به النقل من صفات الذات الَّتِي ليست معاني، كالوجه واليد والأصبع والقدم والساق وغيرها، مما لا تستطيعون كتمان ما يعلوكم من الكآبة والحزن عند تلاوة الآيات والأحاديث المثبتة لَهَا، وتتمنون بجدع الأنف أن لو لَمْ يقله اللَّه ورسوله، أو تتمنون إذ قالها أن تثيف مسامعكم حَتَّى لا يصل إليها شيء من هذه الصواعق المحرقة، الَّتِي تأتي على تعطيلكم من القواعد، وتحيله رمادًا تطير به الرياح.

* * *

قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكَوْنِ أَجْـ ـمَـعِـهِ إِلَـى خَـلَّاقِـهِ الـرَّحْـمَـنِ
مَا قَامَ قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ وَعُـلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ ذِي الأَكْـوَانِ
هُـوَ وَاحِـدٌ فِـي وَصْـفِـهِ وَعُـلُـوِّهِ مَـا لِـلْـوَرَى رَبٌّ سِـوَاهُ ثَـانِ
فَـلأَيِّ مَـعْـنًـى تَـجْـحَـدُونَ عُـلُـوَّهُ وَصِـفَـاتِـهِ بِـالْـفَـشْـرِ وَالْـهَـذَيَـانِ
هَـذَا وَمَـا الْـمَـحْـذُورُ إِلَّا أَنْ يُـقَـا لَ مَـعَ الإِلَـهِ لَـنَـا إِلَـهٌ ثَـانِ
أَوْ أَنْ يُـعَـطَّـلَ عَـنْ صِـفَـاتِ كَـمَـالِـهِ هَـذَانِ مَـحْـذُورَانِ مَـحْـظُـورَانِ

أَمَّا إِذَا مَا قِيلَ رَبٌّ وَاحِدٌ أَوْصَافُهُ أَرْبَتْ عَلَى الْحُسْبَانِ
وَهْوَ الْقَدِيمُ فَلَمْ يزَلْ بِصِفَاتِهِ مُتَوَحِّدًا بَلْ دَائِمَ الإِحْسَانِ
فَبِأَيِّ بُرْهَانٍ نَفَيتُمْ ذَا وَقُلْـ ـتُمْ لَيسَ هَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

الشرح: ثُمَّ ما هو دليلكم الذي تعتمدون عليه فِي نفي الصفات؟ والدليل إنَّما قام على استناد الوجود كله -علوه وسفله- إلَى خلاقه المبدع المصور الرحمن الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه، ولَمْ يقم دليل قط على انتفاء صفاته الَّتِي لابد منها فِي الخلق، ولا على انتفاء علوه فوق خلقه الثابت له بالعقل والنقل والفطرة، ولَمْ يلزم قط من إثبات صفاته وعلوه أن يتعدد رب العباد أو يتكثر، بل هو واحد فِي وصفه وعلوه، ليس للعباد رب سواه ينازعه فِي شيء مما هو مختص به من شئون الربوبية المطلقة، فلأي سبب إذن تنكرون صفاته وعلوه بالكذب والبهتان من غير دليل ولا برهان، هذا وليس المحذور المخوف إلا أن يقال: إن هناك إلَهًا مع اللَّه يشاركه إلهيته، ويستحق العبادة معه. أو أن يعطل على أوصاف كماله الَّتِي يعتبر الخلو عنها نقصًا، فهذان هُما المحذوران، أي: المخوفان، والمحظوران: أي: الممنوعان.

أما إذا قيل: إنه رب واحد له من الصفات ما لا يدخل تحت حصر، ولا يضبطه حساب، وأنه لَمْ يزل بصفاته كلها إلَهًا واحدًا قديم الإحسان، دائم الجود والامتنان؛ فبأي برهان من عقل أو نقل يمكنكم نفي هذا، أو دعوى أنه محال؟! ليس فِي الإمكان.

* * *

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ نَقْصٌ فَذَا بَهْتٌ فَمَا فِي ذَاكَ مِنْ نُقْصَانِ
النَّقْصُ فِي أَمْرَينِ سَلْبُ كَمَالِهِ أَوْ شِرْكَةٌ بِالْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
أَتَكُونُ أَوْصَافُ الْكَمَالِ نَقِيصَةً فِي أَيِّ عَقْلٍ ذَاكَ أَمْ قُرْآنِ
إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الأَوْصَافِ لَا فِي سَلْبِهَا ذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ
مَا النَّقْصُ غَيرُ السَّلْبِ حَسْبُ وَكُلُّ نَقْـ ـصٍ أَصْلُهُ سَلْبٌ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ
فَالْجَهْلُ سَلْبُ الْعِلْمِ وَهْوَ نَقِيصَةٌ وَالظُّلْمُ سَلْبُ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ
مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ حَقًّا تَعَالَى اللَّهُ عَنْ نُقْصَانِ
وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ وَالْحَمْدُ وَالتَّمْجِيدُ كُلَّ أَوَانِ

وَلِذَاكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَدْرَاهُمُ ... بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
وَلَهُ صِفَاتٌ لَيسَ يُحْصِيهَا سِوَا ... هُ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا إِنْسَانِ
وَلِذَاكَ يُثْنِي فِي الْقِيَامَةِ سَاجِدًا ... لَمَّا يَرَاهُ الْمُصْطَفَى بِعِيَانِ
بِثَنَاءِ حَمْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا لِيُحْصِيهِ مَدَى الأَزْمَانِ
وَثَنَاؤُهُ بِصِفَاتِهِ لَا بِالسُّلُو ... بِ كَمَا يَقُولُ الْعَادِمُ الْعِرْفَانِ

الشرح: فإذا ادعيتم أن فِي إثبات صفات الكمال له سبحانه ما يقتضي لحوق نقص به، فتلك دعوى مجردة من الدليل، بل هي محض البهت والمكابرة، فليس فِي ذلك شائبة نقصان أصلًا، لأن النقص مرجعه إلَى أمرين اثنين:

* إما سلب الكمال الواجب له.

* وإما نسبة الشريك إليه.

وأما أن يُعَدُّ ثبوت أوصاف الكمال له نقصًا؛ فذلك مما لا يسانده عقل، ولا يشهد له نقل، بل العكس هو الصحيح، وهو أن الكمال إنَّما يكون بكثرة الصفات الوجودية لا فِي سلبها، فسلبها هو النقص؛ إذ الكمال وجود، والنقص عدم، فمن فقد صفة من صفات الكمال؛ يكون قد لحقه من النقص بقدر ما فقد من تلك الصفة؛ لأنه حينئذ يكون متصفًا بضدها، وضد الكمال النقص.

فإذا كان العلم صفة كمال، فسلبه -وهو الجهل- يكون نقصًا، وكذلك الظلم نقص؛ لأنه سلب لصفة الكمال الَّتِي هي العدل والإحسان، وهكذا فِي جَميع صفات الكمال من القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها، يكون سلبها نقصًا، فالمتنقص للرحمن ﷻ هو الذي يسلبه أوصاف الكمال الثابتة له، تعالَى اللَّه عما يقوله المعطلة النافون لكماله.

وأما المثني عليه؛ فهو الذي يذكره بأوصاف الكمال الَّتِي أثنَى على نفسه بِها، وأعلم خلقه أنه موصوف بِها، ويحمده عليها ويمجده فِي كل وقت وحين؛ ولذلك كان أعلم خلقه به سبحانه هو أكثرهم علمًا بصفاته، وهو مُحمَّد ﷺ، وله مع ذلك من الصفات ما لا يحصيه أحد من خلقه، كما قال الرسول ﷺ: «**سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

ولذلك ورد فِي حديث الشفاعة: «أنه ﷺ حين يستأذن على ربه فيؤذن له، ويرى الرب سبحانه، يخر ساجدًا عن يمين العرش، ويفتح اللَّه ﷻ عليه من الثناء فِي ذلك الوقت ما لَمْ

يكن يُحسنه فِي هذه الدنيا، فيقال له: **ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع**». وثناؤه على ربه فِي هذا الوقت إنَّما يكون طبعًا بذكر أوصاف الكمال المستوجبة لحمده، لا بالسلوب والأعدام، كما يقوله هؤلاء الجهلة الفاقدون لكل معرفة باللَّه وصفاته، تعالَى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

* * *

وَالْعَقْلُ دَلَّ عَلَى انْتِهَاءِ الْكَوْنِ أَجْـ ... ـمَعِهِ إِلَى رَبٍّ عَظِيمِ الشَّانِ

وَثُبُوتِ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لِذَاتِهِ ... لَا يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الْبُرهَانِ

وَالْكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَا ... لَى ذُو الْكَمَالِ وَدَائِمِ السُّلْطَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... فَوْقَ الْوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ... ـمَعْبُودُ لَا شَيءٌ مِنَ الأَكْوَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... ذُو حِكْمَةٍ فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو قُدْرَةٍ ... حَيٌّ عَلِيمٌ دَائِمُ الإِحْسَانِ

وَكَذَاكَ يشْهَدُ أَنَّهُ الْفَعَّالُ حَقْـ ... ـقًا كُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْمُخْتَارُ فِي ... أَفْعَالِهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَي الَّذِي ... مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْقَيومُ قَا ... مَ بِنَفْسِهِ وَمُقِيمُ ذِي الأَكْوَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنُّه ذُو رَحْمَةٍ ... وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْي وَالْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ ... ـخَلَّاقُ بَاعِثُ هَذِهِ الأَبْدَانِ

لَا تَجْعَلُوهُ شَاهِدًا بِالزُّورِ وَالتَّـ ... ـعْطِيلِ تِلْكَ شَهَادَةُ الْبُطْلَانِ

الشرح: وقد دل دليل العقل على أن الكون كله مستند فِي وجوده إلَى الرب -جل شأنه-؛ فإن العالم بجميع أجزائه ممكن، ولا شيء من الممكنات يمكن أن يحدث بنفسه من غير شيء؛ لأنه لا يحمل فِي طبيعته السبب الكافي لوجوده، فإن الممكن لا وجود له ولا عدم من ذاته، فإذا وجد لَمْ يكن وجوده من ذاته، بل بسبب خارج عنه، يرجح وجوده على عدمه، إذ لو وجد بنفسه لكان واجب الوجود، وهذا خلاف الغرض، وإذا ثبت أن الكون

كله ينتهي فِي وجوده إِلَى واجب الوجود لذاته وهو الرب -جل شأنه- فليس فِي ثبوت أوصاف الكمال لذاته ما يقتضي بطلان هذا البرهان القطعي، بل بالعكس تشهد الموجودات جميعها بأن باريها وفاطرها سبحانه متصف بكل كمال يمكن أن يتصف به؛ إذ لو خلا من ذلك لَمْ يكن واجب الوجود، بل كان ممكنًا محتاجًا مثلها.

وكذاك: تشهد له بدوام القهر والتدبير والعزة والسلطان، وبأنه العلي فوق جَميع خلقه، إذ لا يجوز أن يحصره، ولا يحيط به شيء منها، فإن الحادث لا يجوز أن يكون محلًّا للقديم، لأن ذلك يقتضي حدوثه، وجَميع ما سوى اللَّه تعالَى حادث، فلا يجوز أن يكون ظرفًا حاويًا له، وأما ما فوق العرش؛ فإنه خلاء صرف وعدم محض.

فإذا قيل: إن اللَّه ﷻ هناك -كما أخبر عن نفسه- فليس فِي هذا ما يقتضي انحصاره فِي شيء من خلقه؛ إذ العدم لا يكون مخلوقًا.

وكذلك: تشهد الكائنات بأنه هو وحده المعبود بحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فإن العبادة إنَّما يستحقها من كان ربًّا خالقًا ومالكًا مدبرًا، وليس ذلك إلا للَّه -جل شأنه- ولِهذا يعيب القرآن على المشركين أنَّهم مع إقرارهم بانفراده سبحانه بالربوبية وشئونِها والخلق والرزق والملك والتدبير يعبدون معه غيره، ويجعلون له أندادًا من خلقه.

وكذلك تشهد له بكمال الحكمة والإتقان بِما اشتملت عليه من غايات ومقاصد تتجلى فِي جَميع ما خلق، وفِي كل ما أمر به، وتشهد له بتمام القدرة الَّتِي لا تعجز عن شيء من الممكنات إتاؤه، وبدوام البر والإحسان إِلَى خلقه، وبدوام الفعل، فهو سبحانه لَمْ يزل ولا يزال فعالًا، كما قال تعالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وكما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فما دام حيًّا فهو فعال؛ إذ الفعل لازم الحياة، وتشهد له بأنه المختار فِي فعله، فلا يصدر عنه الفعل عن قهر ولا إكراه، ولا يفيض عنه من غير قصد ولا اختيار كما تقوله الفلاسفة.

ويشهد له بالاختيار تنوع الأشياء وتكثر الموجودات.

وكذاك: تشهد له بأنه الحي الذي الحياة صفة ذاته، فلا يطرأ عليها عدم ولا فناء، فإن ما بالذات لا يسلب، وبأنه القيوم القائم بنفسه، المستغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فإنه لا قيام له إلا به، وبأنه ذو الرحمة الواسعة الَّتِي وسعت كل خلقه، والإرادة النافذة الَّتِي لا يعوقها عن مرادها عائق، وبأنه ذو محبة وحنان ولطف وامتنان، وبأنه متكلم سبحانه بكلام يسمعه من

يشاء من خلقه، فهو متكلم بالوحي والقرآن، وبأنه الخلاق العليم الذي يبعث الناس، ويخرجهم من قبورهم أحياء للجزاء والحساب حسبما تقتضيه حكمته وعدالته.

هكذا تشهد الموجودات لربِّها -جل شأنه- بأنه موصوف بكل صفات الكمال، فويل للمعطلة الذين يشهدون على ربِّهم شهادة الزور، ويجعلون كونه ربًّا للموجودات مقتضيًا للتعطيل ونفي الصفات.

* * *

وَإِذَا تَـأَمَّـلْـتَ الْـوُجُـودَ رَأَيْـتَـهُ ... إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ

بِشَـهَادَةِ الإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا ... لِلّـهِ لَا بِشَـهَادَةِ النُّكْرَانِ

وَكَـذَاكَ رُسْلُ اللهِ شَاهِدَةٌ بِهِ ... أَيْضًا فَسَلْ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ

وَكَذَاكَ كُتْبُ اللهِ شَاهِدَةٌ بِهِ ... أَيْضًا فَهَذَا مُحْكَمُ الْقُرْآنِ

وَكَذَلِكَ الْفِطَرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ ... عَنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا بِأَمْرٍ ثَانِ

وَكَذَا الْعُقُولُ الْمُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي ... فِيهَا مَصَابِيحُ الْهُدَى الرَّبَّانِي

أَتَرَوْنَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ ... لِشَهَادَةِ الْجَهْمِيِّ وَالْيُونَانِي

هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا ... مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانِ

إِذْ يَنْجَلِي هَذَا الْغُبَارُ فَيَظْهَرُ الْـ ... حَقُّ الْمُبِينُ مُشَاهَدًا بِعِيَانِ

فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ إِنَّهُ ... مَلْزُومُ تَرْكِيبٍ فَمَنْ يَلْحَانِي

إِنْ قُلْتُ لَا عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ لَكُمْ ... وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ

هَلْ يُجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ الْـ ... مَنْفِي هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفِى لَدَى ... عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

الشرح: فأنت إذا تأملت الوجود كله سمواته وأرضه، ونظرت فيما اشتمل عليه من عجائب الخلق وإحكام الصنع ولطيف التدبير، وكيف ربط اللَّه بين أجزائه حَتَّى غدت منسجمة متناغمة، وصار الوجود كله كأنه جسد واحد؛ لرأيته -إن لَمْ تكن ممن أعمى اللَّه أبصارهم- خير شاهد بثبوت الصفات للَّه تعالَى، فإنه أثر لَهَا، دليل عليها؛ إذ المفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو

موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة.

ثُمَّ ما فِي المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالَى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والعقوبة والانتقام دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته . . . إلخ.

وكذلك: الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد شهدوا لربِّهم بثبوت صفات الكمال له، وأثنوا عليه بِها، كما نطق بذلك محكم القرآن.

وكذلك: شهدت له به الفطرة المستقيمة، الَّتِي لَمْ تفسدها العوامل الخارجية من تلقين الأبوين أو تأثير البيئة أو نحو ذلك، قال تعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[الروم: ٣٠] وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدَانه، أو ينصرانه، أو يُمجسانه، كما تنتج البهيمة بَهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**».

وكذلك: شهدت له به العقول المستنيرة، الَّتِي انتفعت بِما ألقى اللَّه فيها من آيات الهدى، ولَمْ تزغ بتأثير الأهواء والأوهام المزلة.

أفتظنون أنا تاركو هذه الشهادات كلها -وهي أقوم الشهادات وأعدلها- من أجل شهادة جهمي مأفون، لا يرجع فِي شهادته إلَى صريح عقل، ولا إلَى صحيح نقل، بل يهرف بِما يشاء له هواه، ويقول على اللَّه بغير علم؛ إذ من أجل شهادة فيلسوف مارق قد اتخذ من فلاسفة اليونان أستاذة له فِي الضلال، وقدم جهلياتِهم الَّتِي يسميها معقولًا على ما نطقت به صريح الآيات، فأين شهادة هذين الأحمقين من شهادة الوجود والرسل والعقول والفطر، وأيها أولى أن يقدم ويعتبر، فإن لَمْ تكفكم هذه الشهود، وطلبتم شاهدًا غيرها، فإنه سيأتيكم حين ينكشف الغطاء، ويظهر لكم الحق صريحًا بلا خفاء، وتشاهدون بأعينكم ما لا تملكون إلا التسليم والإذعان بلا جدال ولا مراء.

فإذا أصررتم بعد ذلك على نفي صفات الإثبات، وقلتم: إنَّها تستلزم التركيب فِي الذات. فمن يلومنا إذن إذا نَحن اتَّهمناكم بأنكم لا أسماع لكم ولا عقول، وإذا نَحن صرخنا فيكم بأنكم خرجتم على قوانين منطقكم، حيث جعلتم الملزوم عين اللازم المنفي، وهذا من أوضح الباطل، فإن الإثبات عندكم إن كان هو التركيب فكيف تنفون الإثبات من أجل

التركيب الذي هو نفسه مع ما هو معروف لدى كل عاقل من أن الشيء لا ينفى من أجل نفسه؟ مما يشهد بتخبطكم وحيرتكم، والله يهدي من يشاء إلَى صراط مستقيم.

* * *

قُلْتُمْ نَفَيْنَا وَصْفَهُ وَعُلُوَّهُ ... مِنْ خَشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالإِمْكَانِ

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْفَوْقُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفِقَانِ

فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعْ ... تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِثَانِ

بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا ... شَكْلًا عَقِيمًا لَيسَ ذَا بُرْهَانِ

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ ... صُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ

فَإِذَا جَعَلْتُمْ لَفْظَةَ التَّرْكِيبِ بِالْـ ... ـمَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ

جِئْنَا إِلَى الْمَعْنَى فَخَلَّصْنَاهُ مِنْـ ... ـهَا وَاطَّرَحْنَاهَا اطِّرَاحَ مُهَانِ

هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدْعِيَّةٌ ... مَذْمُومَةٌ مِنَّا بِكُلِّ لِسَانِ

وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ نَجْعَلُهُ مَكَا ... نَ اللَّفْظِ بِالتَّرْكِيبِ فِي التِّبْيَانِ

وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ أَوْلَى بِالصِّفَا ... تِ وَبِالْعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الرُّسْلِ لَا ... أَصْحَابِ جَهْمٍ شِيعَةِ الْكُفْرَانِ

الشرح: فأنتم تقولون: إنَّما نفينا الصفات، ونفينا علوه على المخلوقات، خوفًا من التركيب المستلزم للافتقار الذي هو أمارة الإمكان، فتركيب الدليل عندكم هكذا: «لو كان موصوفًا لكان مركبًا». مع أن الوصف والتركيب متحدان مفهومًا، أو هكذا: «لو كان فوق العرش كان مركبًا». مع أن الفوق والتركيب متحدان متفقان، فيئول دليلكم إلَى نفي التركيب بالتركيب، أي: إلَى نفي الشيء بنفسه مع تغيير إحدى اللفظتين بأخرى، وبذلك يصبح برهانكم عقيمًا من حيث الشكل غير منتج؛ لأن الملزوم فيه عين اللازم، فكأنكم قلتم: لو كان موصوفًا لكان موصوفًا. هذا حاصل برهانكم.

وحينئذ نقول لكم: ماذا تعنون بقولكم: «لكان مركبًا». فإن عنيتم به معنًى صحيحًا، وهو أن يكون موصوفًا، وجعلتم ذلك دليلًا على إبطال الصفات، عمدنا إلَى هذا المعنَى الصحيح، وخلصناه من هذه الكلمة، ونبذناها نبذ النواة، فهي لفظة بدعية قبيحة توسل بها

إلَى غرض فاسد، وهو نفي صفات الحق -تبارك وتعالَى- وأخذنا لفظة التوحيد، وجعلناها مكان تلك اللفظة البدعية فِي الخطاب، ولا شك أن لفظة التوحيد أولى من تلك الكلمة الَّتِي تموهون بِها، فإن لفظة التوحيد تتفق مع إثبات الصفات للَّه، وإثبات علوه على خلقه عند من يسمع ويعقل، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسل اللَّه -عليهم الصلاة والسلام- لا توحيد الجهمية أهل التعطيل والكفران.

فصل في أقسام التوحيد والفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النفاة المعطلين

فَاسْمَعْ إِذَنْ أَنْوَاعَهُ هِي خَمْسَةٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ أَقْسَامُهَا بِبَيَانِ
تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهْوَ مَنْـ ... سُوبٌ لأَرِسْطُو مِنَ الْيونَانِ
مَا لِلإلَهِ لَدَيهِمُ مَاهِيةٌ ... غَيرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوِحْدَانِ
مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيسَ بِفَانِ
مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلِّ مَعَانِ
فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا ... عِلْمٌ وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَلِذَاكَ قَالُوا لَيسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الأَكْوَانِ
بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الأَزْمَانِ
مَا اخْتَارَ شَيئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ وَلَا ... هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ
وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَرْقِ ذِي الْـ ... أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
وَلِذَاكَ قَالُوا لَيسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْـ ... ئًا مَا مِنَ الْمَوْجُودِ فِي الأَعْيَانِ
لَا يَعْلَمُ الأَفْلَاكَ كَمْ أَعْدَادُهَا ... وَكَذَا النُّجُومُ وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ
بَلْ لَيسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ ... كَلَّا وَلَيسَ يَرَاهُ رَأْي عِيَانِ
بَلْ لَيسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الإِنْسَانِ تَفْـ ... صِيلًا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ
كَلَّا وَلَا عِلْمٌ لَهُ بِتَسَاقُطِ الْـ ... أَوْرَاقِ أَوْ بِمَنَابِتِ الأَغْصَانِ
عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ ... عَينُ الْمُحَالِ وَلَازِمُ الإِمْكَانِ

الشرح: يذكر المؤلف هنا أنواع التوحيد الَّتِي اصطلحت عليها الفرق المختلفة من

فلاسفة ومتصوفة ومتكلمين؛ تمهيدًا لذكر التوحيد الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حَتَّى يستبين الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

وقد بدأ من هذه الأنواع بذكر توحيد ابن سينا وشيعته من المتفلسفة: الذين يدينون بفلسفة أرسطو اليوناني وغيره من فلاسفة اليونان، ويعتقدون فيها العصمة من الخطأ، ويقدمونَها على الشريعة، والمشهور عن أرسطو أنه كان يؤمن بإله وراء العالم، ويسميه العلة الأولى أو المحرك الأول، ويصفه بأنه جوهر مجرد عن المادة بسيط، وأنه صورة محضة وفعل محض، ولكنه يرى أنه لا صلة له بِهذا العالم، فهو لَمْ يخلقه ابتداء، وليس له فيه فعل ولا تدبير، ولا علم له بِما يجري فيه من حركات وأحوال، وكل ما بين اللَّه وبين العالم من صلة أنه هو مبدأ حركته، وحَتَّى هذه الحركة ليست فعلًا منه فِي العالم، ولكنها حركة شوقية، أي أنَّها من قبيل الدافع الذاتي، الذي يحاول به العالم القرب من هذه الصورة المحضة ومحاذاتَها بقدر الإمكان.

ولما كان مذهب أرسطو فِي الصورة المحضة المجردة عن المادة يجعلها أقرب إلَى المعاني المعقولة منها إلَى الذات الموجودة، كان القول به مفضيًا إلَى نفي وجود اللَّه ﷻ، وجعله أمرًا تقديريًّا صرفًا.

ولما كان ابن سينا وأشياعه من متفلسفة الإسلام قد دانوا بمذاهب أرسطو فِي بساطة المبدأ الأول وتجرده، فقد نفوا عنه كل صفة وجودية، ولَمْ يثبتوا له إلا سلوبًا وإضافات، وانتهى بِهم الأمر إلَى أن جعلوه وجودًا مطلقًا لا تعين له؛ إذ يستحيل عندهم أن يكون مركبًا من ماهية وتعين؛ لأن ذلك يقتضي تركبه من أمرين متباينين، فلم يثبتوا له إلا ماهية مطلقة بشرط الإطلاق، وإلا وجودًا مطلقًا غير فان، كما يقول ابن سينا فِي كتابه «النجاة»: «فإذا حققت تكون الصفة الأولى لواجب الوجود أنه موجود».

ومعلوم: أن الوجود المطلق لا يمكن وجوده فِي الخارج، فإن كل ما فِي الخارج لابد أن يكون متعينًا، وأما الأمر المطلق أو الكلي فلا وجود له إلا فِي الأذهان.

ومعلوم أيضًا: أن المطلق لا يمكن أن يتصف بالصفات الوجودية الَّتِي تقتضي تعيُّنه وهويته، فلهذا نفوا عنه سبحانه كل ما أثبته العقل والسمع من صفات الكمال، فلا سمع له عندهم يسمع به ما يخلقه من الأصوات والألفاظ، ولا بصر له يبصر به ما يخلقه من

الأجسام والأكوان، ولا علم له عندهم بالجزئيات المتغيرة، ولا بِما يجري فِي العالم من أحداث وحركات، بل لا يعلم إلا ذاته، ثُمَّ يلزم من علمه بذاته لذاته أن يعلم ما يصدر عنها من معلولات، لكنه لا يعلمها عندهم إلا على وجه كلي غير متغير.

وكذلك: لا قول له عندهم، ولا كلام هو مؤلف من حروف وأصوات يسمعها من يشاء من خلقه، بل كلامه -فِي زعمهم- هو ما سبقت الإشارة إليه من إفاضة المعاني على قلوب الأنبياء، ثُمَّ تجسم تلك المعاني فِي نفوسهم بواسطة القوة المتخيلة حروفًا وألفاظًا.

وكذلك: نفوا إرادته ومشيئته لإيجاد العالم؛ لأنه عندهم علة، والعلة يصدر عنها معلولها بطريق الإيجاب دون مشيئة أو اختيار، فهو سبحانه عندهم لَمْ يقصد إلَى خلق شيء ولا اختاره، ولكن الأشياء تصدر عنه كصدور الحرارة عن النار.

وبِما أن العالم معلول له، والمعلول لا ينفك عن علته، فهو لازم له بالذات لا ينفك عنه فِي وقت من الأوقات، فإن العلة مادامت باقية فمعلولها باق ببقائها لا يجوز عليه العدم والفناء، ومن هنا حكموا ببقاء الأفلاك بقاء سرمديًّا لا انتهاء له، وأنكروا ما وردت به النصوص الصريحة من انشقاق السماء، وتناثر الكواكب يوم القيامة، لأنَّها عندهم غير قابلة للخرق والالتئام.

وكذلك قالوا: إن اللَّه ﷻ لا يعلم الأشياء الموجودة فِي هذا العالم بأعيانِها، ولا يعلم ما يطرأ عليها من أحوال وتغيرات، فهو لا يعلم أعداد الأفلاك، ولا مواقع النجوم، ولا منازل الشمس والقمر، ولا يسمع أصوات المصوتين، ولا يرى أشخاصهم، ولا يعلم أحوال الناس على التفصيل، ولا سعيهم فيما يكسبونه من طاعات أو معاصٍ.

وكذلك: لا علم له عندهم بِما يتساقط من أوراق الأشجار، أو بِما ينبت فيها من أغصان، فعلم ذلك على التفصيل هو عندهم على اللَّه مستحيل، وحجتهم فِي ذلك قائمة على التشغيب والتضليل، فإنَّهم قالوا كما قال أرسطو من قبل: إن علمه بِهذه الجزئيات المتغيرة المتكثرة يؤدي إلَى التكثر والتغير فِي ذاته؛ لأن العلم عندهم هو حصول المعلومات فِي نفس العالم بوجود ظلي مطابق للوجود الخارجي، ومعلوم أن التغير والتكثر أمارة الإمكان، وهذا ينافي ما ثبت له من وجوب الوجود.

ولا شك أن إنكار الفلاسفة لعلم اللَّه ﷻ بالجزئيات جحد صريح للنصوص القرآنية الَّتِي تخبر عن سعة علمه وشموله، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فِي الأرض ولا فِي السماء،

وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولهذا كانت هذه المسألة إحدى المسائل الَّتِي كفرهم بِها أبو حامد الغزالي فِي كتابه «تَهافت الفلاسفة»، كما كفرهم كذلك بقولهم بقدم العالم، وإنكارهم لحشر الأجسام.

* * *

بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَا ... لِ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مَوْجُودًا وَلَا ... يَفْنَى كَذَاكَ الدَّهْرُ وَالْمَلْوَانِ

هَذَا هُو التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِثْلِ ابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الثَّانِي

قَالُوا وَأَلْجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْيَةُ التْـ ... ـتَرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْبُطْلَانِ

وَلِذَاكَ قُلْنَا مَا لَهُ سَمْعٌ وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ فَكَيفَ يدَانِ

وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلْـ ... لَا الْمُسْتَحِيلُ وَلَيسَ ذَا إِمْكَانِ

جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الْجِسْمَينِ مَحْـ ... ـدُودٌ يَكُونُ كِلَاهُمَا صِنْوَانِ

فَبِذَاكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتْبِهِمْ ... وَهُمُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ الْكُفْرَانِ

لَيسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الإِيمَانِ

وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

غَيرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ ... فَلِذَا نَفَينَا اثْنَينِ بِالْبُرْهَانِ

نَفْيِ الْوُجُودِ فَلَا يضَافُ إِلَيهِ شَيْ ... ءٌ غَيرُهُ فَيصِيرَ ذَا إِمْكَانِ

الشرح: يعني: أن الفلاسفة كما قالوا بقدم العالم قدمًا زمانيًّا؛ لأنه معلول لعلة قديمة، وعندهم أن المعلول يَجب أن يقارن علته فِي الوجود؛ قالوا بقدم العقول والنفوس الناطقة والأفلاك، وقدم العناصر الأصلية الَّتِي هي فِي زعمهم بسيطة، وهي الماء والهواء والتراب والنار، وكذا قدم الأنواع المركبة منها؛ لأنَّها تنشأ عندهم من إفاضة العقل الفعال الذي هو عقل القمر، بحسب الاستعداد الموجود فِي المادة، ويسمون هذا العالم الأرضي عالم الكون والفساد؛ لأنه هو الذي تجري فيه التغيرات من انعدام صور ووجود أخرى، وانحلال مركب، ونشوء آخر.

وإذا كانت الأنواع الأرضية من حيوانات ونباتات قديمة عندهم، فهم لا يثبتون إنسانًا يكون أول البشر، بل ذلك عندهم عين المحال، فما من إنسان إلا وقبله إنسان لا إلى أول،

وكما أن النوع الإنساني قديم لا أول له، فهو كذلك باق أبد الآباد بلا فناء ولا انقطاع، بل يظل يتسلسل فِي الوجود شيئًا بعد شيء إلى غير نِهاية، وهذا هو توحيد ابن سينا وأشياعه مثل الخوجة نصير الدين الطوسي شارح الإشارات.

قالوا: وإنَّ ما ألجأنا إلى نفي الصفات الوجودية عن اللَّه ﷻ، والحكم عليه فقط بالسلوب والإضافات هو الخوف من الإفضاء إلى التركيب والتجسيم المستلزم للإمكان؛ ولذلك نفينا عنه السمع والبصر والعلم، وأولى من ذلك نفي اليدين اللتين هما جارحتان، وكذلك نفينا استواءه على العرش، وحكمنا باستحالته؛ لأن الاستواء من خواص الأجسام، فلو كان مستويًا على العرش لكان جسمًا، ولكان محدودًا على محدود، فيكون هو والعرش سواء.

هذا هو ما صرح به هؤلاء الفلاسفة -الذين هم أساطين الكفر- فِي كتبهم، فلم يفعلوا كما فعل مخانيثهم من المعتزلة ومتأخري الأشعرية الذين لَم يعرف اتجاههم، فلا هم صرحوا بالكفر، وانحازوا إلى أهله، كما فعل هؤلاء الفلاسفة، ولا هم اتبعوا سبيل المؤمنين، وإذا كان توحيد هؤلاء الفلاسفة يقوم على الاعتقاد ببساطة الذات وتجردها، ونفي كل صفة عنها، فالشرك عندهم هو إثبات الصفات للذات، فإن ذلك يقتضي وجود ثلاثة أشياء متغايرة: هي الذات، والصفات، والوجود، وذلك يفضي إلى الكثرة وينافي البساطة؛ ولهذا نفوا اثنين منهما: وهما الذات، والصفات، ولَم يبقوا إلا الوجود من غير إضافة شيء إليه، حَتَّى لا يصير وجودًا ممكنًا، فآل بِهم الأمر -كما قدمنا- إلى القول بوجود مطلق بشرط الإطلاق، وهذا معناه أنه ليس هناك إله موجود فِي الخارج، وإنَّما هو فكرة منحوتة فِي الأذهان.

فصل في النوع الثاني من أنواع التوحيد لأهل الإلحاد

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَوْحِيدُ ابْنِ سَبْـ ... ـعِينٍ وَشِيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَانِ
كُلٍّ اتِّحَادِيٍّ خَبِيثٍ عِنْدَهُ ... مَعْبُودُهُ مَوْطُوؤُهُ الْحَقَّانِي
تَوْحِيدُهُمْ أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الْوُجُو ... دُ الْمُطْلَقُ الْمَبْثُوثُ فِي الأَعْيَانِ
هُوَ عَيْنُهَا لَا غَيْرُهَا مَا هَاهُنَا ... رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ
لَكِنَّ وَهْمَ الْعَبْدِ ثُمَّ خَيَالَهُ ... فِي ذِي الْمَظَاهِرِ دَائِمًا يَلِجَانِ

فَلِذَاكَ حُكْمُهُمَا عَلَيْهِ نَافِذٌ ... فَابْنُ الطَّبِيعَةِ ظَاهِرُ النُّقْصَانِ
فَإِذَا تَجَرَّدَ عِلْمُهُ عَنْ حِسِّهِ ... وَخَيَالِهِ بَلْ ثَمَّ تَجْرِيدَانِ
تَجْرِيدُهُ عَنْ عَقْلِهِ أَيضًا فَإِنْـ ... ـنَ الْعَقْلَ لَا يدْنِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ
بَلْ يَخْرِقُ الْحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا ... وَهْمًا وَحِسًّا ثَمَّ عَقْلٌ وَانِ
فَالْوَهْمُ مِنْهُ وَحِسُّهُ وَخَيَالُهُ ... وَالْعِلْمُ وَالْمَعْقُولُ فِي الأَذْهَانِ
حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْـ ... ـلَا كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ
هَذَا وَأَكْثَفُهَا حِجَابُ الْحِسِّ وَالْـ ... ـمَعْقُولُ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ
فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى ... هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدَّيَّانِ
وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ الْوُجُو ... دِ وَقَوْلُنَا إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ
وَاحْتَجَّ يوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمُ ... شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكُ فِي الْقُرْآنِ
لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِيـ ... ـنَ بِالاتِّحَادِ فَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ
رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ... ـمَوْجُودُ فَرْدٌ مَا لَهُ مِنْ ثَانِ

الشرح: والثاني من أنواع التوحيد: هو توحيد أصحاب مذهب وحدة الوجود، كابن سبعين وأضرابه من الاتحاديين الخبثاء، الذين يعبدون ما ينكحون من النساء، ويقوم مذهبهم فِي التوحيد على أن الإله سبحانه هو الوجود المطلق، المنبث فِي هذه الأعيان الخارجية، وأنه هو عينها لا غيرها، فليس هناك رب وعبد، ولا خالق ومخلوق، فإن ذلك يقتضي اثنينية الوجود، والوجود كله عندهم شيء واحد فِي إطلاقه أو فِي تعينه.

قالوا: والسبب فِي رؤية هذا الوجود الواحد أشياء كثيرة هو ما ركب فِي خلقة الإنسان من الوهم والخيال، فإنَّهما قوتان ضاربتان فِي المحسوسات، فالوهم يحكم على ما ليس بمحسوس حكمه على المحسوس، والخيال هو قوة التركيب والتحليل فِي تلك الصور الخارجية؛ فلذلك كان حكمهما على الإنسان نافذًا، وكان نقص الإنسان بسبب سيطرة هاتين القوتين عليه ظاهرًا، فإذا استطاع أن يجرد علمه عن تأثير الحس والخيال، بل وعن عقله أيضًا، فإن العقل لا يقربه من شهود الحقيقة؛ لأنه لا يحكم إلا فِي نطاق المحسوسات، وإذا استطاع أن يمزق كل هذه الحجب الغليظة الَّتِي تمنعه من إدراك الحقيقة من الوهم والحس والخيال، وما فِي ذهنه من علوم ومعقولات فهنالك يصير موحدًا التوحيد الحق حيث يشهد إن هذا الوجود كله بشتى مظاهره وصنوف تعيناته هو

حقيقة الديان سبحانه وتعالى عن هذا الهذيان.

والشرك عندهم هو ضد هذا الشهود من تنويع الموجودات واعتقاد كثرتها جريًا مع الوهم والخيال، وقد خاصمهم فِي هذا بعض العلماء، واحتج عليهم بِما فِي القرآن من التفرقة بين وجود الخالق ووجود المخلوق، فردوا عليه بأن القرآن كتاب شرك، وأما التوحيد الحق فهو ما نحن عليه من نفي كل فرق وكل اثنينية فِي الوجود، فليس هناك رب وعبد، وإنَّما هناك موجود واحد فرد لا ثاني له.

ومن العجب: أنَّهم مع هذا الخلط والبهتان يزعمون لأنفسهم أنَّهم هم أولو التحقيق والعرفان، فللَّه فِي خلقه شئون!

فصل في النوع الثالث من التوحيد لأهل الإلحاد

هَذَا وَثَالِثُهَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْـ ... ـدَ الْجَهْمِ تَعْطِيلٌ بِلَا إِيمَانِ

نَفْيُ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْـ ... ـيُ كَلَامِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

فَالْعَرْشُ لَيسَ عَلَيهِ شَيءٌ بَتَّةً ... لَكِنَّهُ خِلْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

مَا فَوْقَهُ رَبٌّ يُطَاعُ وَلَا عَلَيْـ ... ـهِ لِلْوَرَى مِنْ خَالِقٍ رَحْمَنِ

بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِنْهُ كَحَظِّ الأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

فَهْوَ الْمُعَطَّلُ عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهِ ... وَعَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَيْنَا عَنْهُ فِي ... مَبْدَا الْقَصِيدِ حِكَايَةَ التِّبْيَانِ

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... تِلْوَ الْفُحُولِ مُقَدَّمِي الْبُهْتَانِ

وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَإِثْبَاتُ الصِّفَا ... تِ لِرَبِّنَا وَنِهَايَةُ الْكُفْرَانِ

إِنْ كَانَ شِرْكًا ذَا وَكُلُّ الرُّسْلِ قَدْ ... جَاءُوا بِهِ يَا خَيْبَةَ الإِنْسَانِ

الشرح: والثالث من أنواع التوحيد الباطل: هو توحيد الجهم بن صفوان وشيعته، وهو يقوم على التعطيل المحض، وعدم الإيمان بثبوت شيء من الصفات للَّه ﷻ، لأن ذلك يقتضي -فِي زعمهم- مشابَهة اللَّه لخلقه، فهو عندهم ليس حيًا، ولا عالِمًا، ولا مريدًا، ولا سميعًا، ولا بصيرًا... إلخ، وهم كذلك ينفون علوّه تعالى على خلقه، واستواءه على عرشه، كما أخبر بذلك عن نفسه، وينفون حقيقة كلامه بالوحي والقرآن،

ويقولون: إن معنَى كونه متكلمًا أنه خالق للكلام. وبناء على زعمهم الفاسد يكون العرش خاليًا، ليس عليه شيء، فليس فوقه رب يقصد، ولا إله خالق يعبد، بل يكون حظ العرش منه الذي هو أعلى الموجودات، كحظ الحضيض الذي هو أسفل الأمكنة عند مركز الأرض.

وبالجملة: فهم يعطلون الرب سبحانه عن جَميع ما يجب له من نعوت الكمال من كلام وغيره، ومن أراد أن يعرف مذهبهم على التفصيل؛ فليرجع إلى ما حكي عنهم فِي صدر هذه القصيدة، فقد أشبع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام فِي هذا الباب بِما لا مزيد عليه.

هذا هو توحيد هؤلاء الجهمية، أئمة الكفر والضلال، ومؤسسي البهتان لمن جاء بعدهم وقلدهم فيه من العميان.

والشرك عندهم -بل ونِهاية الكفر- هو ما يضاد مذهبهم وينافيه من إثبات الصفات للَّه.

وقد رد المؤلف عليهم بأن هذا الإثبات إن كان شركًا، ومعلوم أن جَميع الرسل والأنبياء -عليهم صلوات اللَّه وسلامه- قد جاءوا به، وصرحوا فِي غير خفاء ولا كتمان؛ فقد باء الناس بالخيبة والحرمان، حيث لَم يتعلموا من معلمي الإنسانية وأساتذة العرفان والإيمان إلا ما هو ضلال وبُهتان.

فصل في النوع الرابع من أنواعه

هَـذَا وَرَابِـعُـهَـا فَـتَـوْحِـيـدٌ لَـدَى ... جَـبْـرِيِّـهِـمْ هُـوَ غَـايَـةُ الْـعِـرْفَـانِ

الْـعَـبْـدُ مَـيـتٌ مَـا لَـهُ فِـعْـلٌ وَلَـ ... كِـنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

وَاللـهُ فَـاعِـلُ فِـعْـلِـنَـا مِـنْ طَـاعَـةٍ ... وَمِـنَ الْـفُـسُـوقِ وَسَـائِـرِ الْـعِـصْـيَـانِ

هِـي فِـعْـلُ رَبِّ الْـعَـالَـمِـينَ حَـقِـيقَـةً ... لَـيْـسَـتْ بِـفِـعْـلٍ قَـطُّ لِـلإِنْـسَـانِ

فَـالْـعَـبْـدُ مَـيـتٌ وَهْـوَ مَـجْـبُـورٌ عَـلَـى ... أَفْـعَـالِـهِ كَـالْـمَـيْـتِ فِـي الأَكْـفَـانِ

وَهْـوَ الْـمَـلُـومُ عَـلَـى فِـعَـالِ إلَـهِـهِ ... فِـيـهِ وَدَاخِـلُ جَـاحِـمِ الـنِّـيـرَانِ

يَـا وَيـحَـهُ الْـمِـسْـكِـينُ مَـظْـلُـومٌ يـرَى ... فِـي صُـورَةِ الْـعَـبْـدِ الـظَّـلُـومِ الْـجَـانِـي

لَـكِـنْ نَـقُـولُ بِـأَنَّـهُ هُـوَ ظَـالِـمٌ ... فِـي نَـفْـسِـهِ أَدَبًـا مَـعَ الـرَّحْـمَـنِ

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ ... مِنْ كُلِّ جَبْرِيٍّ خَبِيثٍ جَنَانِ
وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتُنَا ... مَا ثَمَّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِصْيَانِ
وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ اعْتِقَادُكَ فَاعِلًا ... غَيرَ الإلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَانِ
فَانْظُرْ إلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا ... فِيهِ مِنَ الإشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ
مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ شَيءٌ غَيرَهُ ... هَاتِيكَ كُتْبُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ
أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا ... مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الأَكْوَانِ
أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلإنْسَانِ
فَإذَا ادَّعَيتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التْـ ... ـتَوحِيدِ صَارَ الشِّرْكُ ذَا بُطْلَانِ
فَالنَّاسُ كُلُّهُمُ أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لَيسَ اثْنَانِ
إلَّا الْمَجُوسَ فَإنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ الشَّرَّ خَالِقُهُ إلَهٌ ثَانِ

الشرح: والرابع من أنواع التوحيد المخالف لتوحيد الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: هو توحيد أصحاب مذهب الجبر، الذين يزعمون أنه نِهاية التحقيق وغاية المعرفة، وهو يقوم على أن العبد فِي حقيقته ميت أو جماد، لا حس فيه ولا حركة ولا فعل له، بل كل ما يصدر عنه من أفعال هو فعل اللَّه الذي هو القادر وحده، وغيره لا قدرة له على كل شيء، فهو الذي يخلق فِي العبد الطاعات من صلاة وصيام وحج وجهاد. . . إلخ، ويخلق فيه الفسوق وجميع المعاصي من شرك وزنًا وقتل وسرقة. . . إلخ، فهذه كلها أفعال اللَّه على الحقيقة، لا يصح نسبتها إلى العبد إلا على وجه من المجاز، كما يقال: هبت الريح، وجرى النهر، وطلعت الشمس. فالعبد لا قدرة له على فعل شيء، ولا اختيار له، بل هو مجبور على أفعاله كالميت أدرج فِي أكفانه.

ومع ذلك فهو يلام على ما يخلقه اللَّه فيه من ذنوب، ويدخل بسببها نار الجحيم، وهو فِي الحقيقة مظلوم لا ذنب له، وإن بدا فِي صورة الظلوم الجاني، ولكنا مع ذلك نقول: إنه ظالم لنفسه. على جهة التأدب فقط مع اللَّه ﷻ، حَتَّى لا ننسب إليه الظلم، هذا هو التوحيد عند عامة هؤلاء الجبرية، الذين خبثت طويتهم، وساءت باللَّه ظنونُهم، وأما من غلا منهم، وزعم شهود الحقيقة الكونية، من زنادقة الصوفية، فيرى أن أعمال العباد كلها طاعات لا معصية فيها؛ لأنَّها تنفيذ للإرادة الإلهية الشاملة، كما يقول فِي ذلك شاعرهم:

أصبحتُ منفعلًا لما يختارُه ... مني ففعلي كُلُّه طاعاتُ

فانظر إلى هذا التوحيد عند هؤلاء القوم، وما فيه من أنواع الشرك والكفر، بل هو فِي حقيقته يبطل كل شرك وكفر، فإن الناس كلهم إلا قليلًا منهم يقرون بأن اللَّه هو خالق كل شيء، وإن شئت دليلًا على ذلك؛ فاسأل أبا جهل وشيعته فِي الشرك والضلال، هل يعتقدون بوجود خالق مع اللَّه لهذه الأكوان؟ فستجدهم جميعًا مقرين بأن اللَّه هو وحده الخلاق للإنسان وغيره من الموجودات.

فإذا ادعيتم أيها الجبرية الضلال أن الاعتقاد بانفراد اللَّه بالخلق هو غاية التوحيد؛ فقد أبطلتم وجود الشرك فِي العالم؛ لأن الناس كلهم يقرون بأن اللَّه هو وحده الخلاق لا خالق غيره، اللَّهم إلا المجوس الثنوية، الذين قالوا بإلهين: إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة.

فصل في بيَان توحيد الأنبيَاء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

فَاسْمَعْ إِذَنْ تَوْحِيدَ رُسْلِ اللهِ ثُمْـ ... ـمَ اجْعَلْهُ دَاخِلَ كِفَّةِ الْمِيزَانِ

مَعْ هَذِهِ الأَنْوَاعِ وَانْظُرْ أَيُّهَا ... أَوْلَى لَدَى الْمِيزَانِ بِالرُّجْحَانِ

تَوْحِيدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِيٌّ وَفِعْـ ... ـلِيٌّ كِلَا نَوْعَيْهِ ذُو بُرْهَانِ

فَالأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَينِ أَيْـ ... ـضًا فِي كِتَابِ اللهِ مَوْجُودَانِ

إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيْـ ... ـضًا فِيهِ حَقًّا فِيهِ مَذْكُورَانِ

سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيوبِ جَمِيعِهَا ... عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من بيان أنواع التوحيد المبتدعة الَّتِي اصطلحت عليها فرق الزيغ والضلال من فلاسفة وصوفية وجهمية وجبرية وغيرها؛ شرع فِي بيان التوحيد الحق الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الذي بعث اللَّه به جَميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق الخلق وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية على وجوبه وصحته، وهو كذلك التوحيد الذي آمن به ودعا إليه خيار خلق اللَّه من الأنبياء والمرسلين، الذين هم أكمل الناس عقولًا، وأزكاهم نفوسًا.

فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكي للنفوس، المطهر للأخلاق، وهو مؤيد بصريح العقل الموافق لصحيح النقل، وأما توحيد الملاحدة والمعطلة فمشتمل

على أكذب الكذب، وقائم على شبه وخيالات تدل على جهل أصحابها وفساد عقولهم، وإنَّما ذكر هذا النوع بعد ما سبقه؛ لأن الشيء يتميز بضده، فمن عرف هذا التوحيد، ووقف على حقيقته؛ تبين له فساد تلك المقالات، وظهر له شناعتها وقبحها، فيتمسك به أعظم التمسك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وفي الأثر: «من لَم يعرف الجاهلية لَم يعرف الإسلام».

فمن جعل هذا التوحيد في كفة ميزان، وجعل هذه الأنواع الأخرى في الكفة الأخرى؛ ظهر له أيها أرجح وزنًا، وأعظم شأنًا، وأحق بالعناية والاتباع.

وهذا النوع من التوحيد ينقسم إلى قسمين:

أولهما: توحيد قولي اعتقادي: لأنه متعلق بأقوال القلوب الذي هو إقرارها واعتقادها، وأقوال اللسان من الثناء على اللَّه وتمجيده، ويسمى أيضًا بالتوحيد العلمي الخبري؛ لأن المقصود منه مجرد العلم والمعرفة، وتوحيد الأسماء والصفات: لأن مداره على إثباتها للَّه، ويدخل فيه توحيد الربوبية.

والثاني: توحيد فعلي: لأنه متعلق بأفعال القلوب والجوارح. ويسمى أيضًا بالتوحيد الإرادي الطلبي: لأن المقصود منه إرادة اللَّه بأنواع العبادة والإخلاص له فيها. ويسمى كذلك بتوحيد الإلهية والعبادة: لأنه توحيد اللَّه بأفعال العبيد، وألَّا يتخذ من دونه شريك ولا نديد.

وكلا نوعي هذا التوحيد، من القولي والعملي، ثابت بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية، فآيات القرآن الكريم وسوره كلها متضمنة لهذين النوعين من التوحيد؛ لأنَّها إما خبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته، وهذا هو التوحيد العلمي الخبري، وإما أمر بعبادته وحده وإخلاص الدين له سبحانه، وهذا هو التوحيد الإرادي الطلبي.

والتوحيد القولي ينقسم أيضًا إلى قسمين، كل منهما وردت به آيات الكتاب العزيز:

القسم الأول منها: سلب: أي: نفي للنقائص والعيوب عن اللَّه تعالى.

والثاني: إثبات صفات الكمال له سبحانه: وسيأتي.

وإنَّما بدأ بالسلب؛ لأنه وسيلة وكمقصود لغيره، فإن السلب لا يراد لذاته، وإنَّما يقصد لما يتضمنه من إثبات الكمال، فكل ما نفاه اللَّه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص؛ فإنه متضمن للمدح والثناء على اللَّه بضد ذلك النقص من الأوصاف

الحميدة والأفعال الرشيدة، وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

* * *

سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا ... نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَمَّا الثَّانِي
سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ... ـعِ بِدُونِ إِذْنِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ
وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي ... نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ
وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْوَلِيـ ... ـيِ لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْرَانِ

الشرح: يعني أن التوحيد القولي الذي يرجع إلى سلب النقائص والعيوب نوعان:

١- سلب لمتصل.

وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال الَّتِي وصف اللَّه بِها نفسه، أو وصفه بِها رسوله ﷺ، كنفي الموت المنافي للحياة، والعجز المنافي للقدرة، والسِّنَة والنوم المنافي لكمال القيومية، والإكراه المنافي للاختيار، والذل المنافي للعزة، والسفه المنافي للحكمة... إلخ.

٢- وسلب لمنفصل.

وضابطه: تنْزيه اللَّه سبحانه عن أن يشاركه أحد من الخلق فِي شيء من خصائصه الَّتِي لا تنبغي إلا له، وذلك كنفي الشريك له فِي ربوبيته، فإنه متفرد بتمام الملك والقوة والتدبير، وفِي إلهيته، فهو وحده الذي يجب أن يألهه الخلق، ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم، وفي أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه فِي شيء منها.

وكذلك: نفي الظهير الذي يظاهره، أي: يعاونه على خلق شيء أو تدبيره، وذلك لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وغيره من المخلوقين عاجز فقير لا حول له ولا قوة إلا باللَّه، فالشريك والظهير منفيان عنه بإطلاق، وأما الشفيع، فإنه لكمال عظمته، وتمام غناه، وسعة ملكه؛ منَزه أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالمنفي عنه سبحانه هو تلك الشفاعة المطلقة الَّتِي كان يزعمها المشركون وأشباههم من أهل الكتاب لآلهتهم وأنبيائهم وقديسيهم.

وأما الشفاعة عنده بإذنه: فإنَّها ثابتة بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة؛ وذلك

لأنَّها دالة على سعة رحمته وكمال إحسانه، فإنَّها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بِها الأجر والثناء من اللَّه ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه اللَّه على يد من أذن له بالشفاعة، ومع هذا فلا يأذن سبحانه لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله من أهل الإخلاص والمتابعة، كما فِي قوله -عليه الصلاة والسلام- لأبي هريرة: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا اللَّه خالصة من قلبه**».

وقد نزَّه اللَّه سبحانه نفسه عن مشاركة أحد له فِي واحد من هذه الأمور الثلاثة الَّتِي هي: الملك، والشركة معه فيه والمعاونة له، والشفاعة عنده بغير إذنه، فِي قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فقطع بِهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره.

وكذلك: ينفي عنه سبحانه اتخاذ الصاحبة والولد، الذي نسبه إليه النصارى عابدو الصلبان، والصابئة الذين يقولون: إن الملائكة بنات اللَّه. وقد رد اللَّه ﷻ على كل من زعم أن له ولدًا فِي غير آية من كتابه.

فقال فِي سورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الَّتِي تعدل ثلث القرآن: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

وقال فِي آخر سورة بني إسرائيل: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١].

وفي أول سورة الكهف: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٤، ٥].

وفي آخر سورة مريم -عليها السلام-: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٨٨، ٩٣]. إلى غير ذلك من الآيات الَّتِي تنفي عن اللَّه ما لا يليق به من اتخاذ الصاحبة والولد والشريك؛ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، وكل الخلق مملوكون له وفقراء إليه.

وكذلك: يجب أن ينفى عنه أن يكون أحد مكافئًا -أي: مساويًا- له فِي كماله، وفيما

يجب له من حقوق، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] فليس لأحد صفات تقارب صفات اللَّه سبحانه، ولا أفعال تشبه أفعاله، بل ليس لأحد من خلقه استقلال بفعل شيء أصلًا حَتَّى يعينه اللَّه عليه؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة اللَّه تعالى مع وقوعها منهم بقدرتهم وإرادتِهم، فإن خالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بِهما، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ومما ينفى عن اللَّه وينَزه عنه أيضًا أنه ليس لنا ولي سواه يلي أمورنا، فهو وحده المتولي لأمور خلقه فِي الخلق والرزق والتدبير وأنواع التربية العامة والخاصة.

وولايته تعالى نوعان:

ولاية عامة: شاملة للبر والفاجر، وهي ولاية الخلق والتدبير، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤].

وولاية خاصة: وهي ولايته تعالى للمؤمنين المتقين، يخرجهم بِها من ظلمات الكفر والجهل والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وكذلك: لَم يتخذ سبحانه من خلقه وليًّا من الذل؛ لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنَّما يتخذ منهم أولياء رحمة بِهم وإحسانًا إليهم، يحبهم ويحبونه.

وبالجملة: فليس أحد مساويًا للَّه تعالى، أو مماثلًا أو معينًا أو مشيرًا أو محتاجًا إليه بوجه من الوجوه.

* * *

وَالأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنْ ... وَصْفِ الْعُيوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ
كَالْمَوْتِ وَالإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي ... يـنْفِي اقْتِدَارَ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ
وَالنَّوْمِ وَالسِّنَةِ الَّتِي هِي أَصْلُهُ ... وَعُزُوبِ شَيءٍ عَنْهُ فِي الأَكْوَانِ

الشرح: هذا هو القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن اللَّه، وهو السلب المتصل الذي يقوم على تنزيهه سبحانه عن الاتصاف بكل ما يضاد كماله من النقائص والعيوب،

والغرض من هذا السلب -كما قدمنا- إنَّما هو ثبوت صفات الكمال له على أكمل وجه وأتمه، فسلب الموت والإعياء عنه مستلزم لثبوت كمال حياته وقدرته، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. فإنه لو اتصف بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، وكذلك سلب النوم والسِّنَة -الَّتي هي النعاس- عنه يستلزم إثبات كمال حياته وقيوميته، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «**إن اللَّه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**».

وكذلك سلب الجهل والنسيان عنه يقتضي اتصافه بالعلم الكامل المحيط بكل ما فِي السموات والأرض، وبما يسر العباد ويعلنون، فلا يعزب عنه مثقال ذرة من ذلك، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وكما قال في سورة سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

* * *

وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْـ ... ـمَتُـهُ وَحَـمْـدُ الـلـهِ ذِي الإتْـقَـانِ
وَكَذَاكَ تَرْكُ الْخَلْقِ إهْمَالًا سُدًى ... لَا يُـبْـعَـثُـونَ إلَـى مَـعَـادٍ ثَـانِ
كَـلَّا وَلَا أَمْـرٌ وَلَا نَـهْـيٌ عَـلَـيْـ ... ـهِـمْ مِـنْ إلَـهٍ قَـادِرٍ دَيَّـانِ

الشرح: يعني: كما يجب تنزيهه عما ذكر من الموت والإعياء والنوم والسنة والجهل، يجب تنزيهه عن العبث فِي خلقه وأمره المنافي لكمال حكمته وحمده، فلم يخلق شيئًا عبثًا ولا باطلًا، ولا شرع لعباده إلا ما فيه حكمة ومصلحة؛ لأنه حكيم حميد.

فمن تَمام حكمته وحمده: أنه أحسن كل شيء خلقه، وأحكم وأتقن صنعه، فلا يرى فيه خلل ولا فطور، وكذلك أحكم شرائعه الَّتِي شرعها لعباده، فجعلها فِي غاية العدل والمصلحة، وضمنها كل ما فيه خيرُهم وسعادتُهم فِي الدنيا والآخرة.

ومن تَمام حكمته كذلك: أنه لَم يترك خلقه هملًا بلا أمر، ولا نَهي، ولا ثواب ولا عقاب، بل حكمته وحمده دالان أعظم الدلالة على أنه خلق المكلفين؛ لينفذ فيهم أحكامه

الشرعية، ويبتليهم بالأوامر والنواهي، ثُمَّ بعد ذلك يبعثهم إلى الدار الآخرة الَّتِي تجري عليهم فيها أحكامه الجزائية من الثواب والعقاب.

والآيات الدالة على تمام حكمته سبحانه فِي خلق المكلفين للابتلاء بأنواع التكاليف؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا -كثيرة، منها قوله فِي آخر سورة «المؤمنون»: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقوله في سورة ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٧-٢٨].

وقوله في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

* * *

وَكَذَاكَ ظُلْمُ عِبَادِهِ وَهْوَ الْغَنِيْ ... يُ فَمَا لَهُ وَالظُّلْمُ لِلإِنْسَانِ

وَكَذَاكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهْوَ عَلْـ ... لَامُ الْغُيُوبِ فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ

وَكَذَلِكَ النِّسْيَانُ جَلَّ إِلَهُنَا ... لَا يَعْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نِسْيَانِ

وَكَذَاكَ حَاجَتُهُ إِلَى طُعْمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهْوَ رَزَّاقٌ بِلَا حُسْبَانِ

الشرح: ومما يجب أن ينزه اللَّه عنه أن يقع منه ظلم لعباده بزيادة فِي سيئاتِهم، أو نقص من حسناتِهم، أو عقوبتهم على ما لَمْ يفعلوا من الذنوب، أو أخذ أحد منهم بجريرة غيره، إلَى غير ذلك من صور الظلم الَّتِي حرمها سبحانه على نفسه، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه؛ لعجزه وفقره، أو من كان الجور وصفًا له، واللَّه سبحانه هو الغني عن خلقه من كل وجه، وهو الموصوف بكمال الحكمة والعدل، فما له إذن ولظلم العباد، قال تعالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[النساء: ٤٠]. وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق: ٢٩].

وكذلك: ينَزه عن الغفلة الَّتِي هي الذهول عن الشيء، وعن النسيان الذي هو ضد الذكر؛ لأن علمه محيط بالأشياء كلها من غيب أو شهادة، فلا يطرأ عليه ما يطرأ على علوم المخلوقين من ذهول أو نسيان، كما قال تعالَى على لسان موسى عليه السلام فِي خطابه لفرعون

حين قال له: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وكذلك: ينزه سبحانه عن احتياجه إلَى الطعام والرزق، فإنه هو الرازق لجميع الخلق، يوصل إليهم أقواتهم، ويطعمهم، ويسقيهم مع غناه عنهم، قال تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

* * *

هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ الَّذِي ... هُـوَ أَوَّلُ الأَنْـوَاعِ فِـي الأَوْزَانِ
تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالنُّكْرَانِ
لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الأَوْثَانِ
كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ
مَنْ مَثَّلَ اللهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ ... فَهْوَ النَّسِيبُ لِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي
أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ عَنْ أَوْصَافِهِ ... فَهْوَ الْكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيمَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من بيان النوع الأول من أنواع السلب الذي هو سلب النقائص والعيوب عن اللَّه ﷻ، وقسمه إلَى متصل ومنفصل؛ شرع فِي بيان النوع الثاني من هذا السلب، الذي هو أول أنواع التوحيد القولي فِي هذه القصيدة.

وهذا النوع يقوم على تنزيه أوصاف الكمال الثابتة له سبحانه عن مماثلة صفات المخلوقين لَهَا، فلا يقال: علمه كعلمهم، ولا قدرته كقدرتِهم، ولا رحمته كرحمتهم ونحو ذلك. فمن شبه صفات اللَّه بصفات خلقه؛ لَمْ يكن عابدًا للَّه فِي الحقيقة، وإنَّما يعبد وثنًا صوره له خياله، ونحته فكره، فهو من عباد الأوثان لا من عباد الرحمن، فهو نسيب -أي: مشابه ومشاكل- لهؤلاء النصارى، الذين عبدوا المسيح بن مريم وجعلوه إلههم، وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين، فصفاته لا تشبهها صفاتُهم.

وكذلك يقوم هذا النوع على عدم التعطيل والجحد لصفات الكمال، كما فعلت ذلك

الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن من نفى ما وصف اللَّه به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ؛ فإنه فِي الحقيقة لا يعبد شيئًا موجودًا، وإنَّما يعبد عدمًا مفقودًا، فإنه لما توهم أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه أخذ ينفيها بوهمه الفاسد؛ فآل به النفي للصفات إلَى نفي حقيقة الذات؛ إذ لا يعقل وجود ذات فِي الخارج مجردة عن الصفات، فصار قلبه متعبدًا للعدم المحض، وهذا كفر بآيات اللَّه، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به من إثبات نعوت الكمال؛ ولِهذا قال المصنف: «فهو الكفور وليس ذا إيمان».

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن آل سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وبالجملة: فالناس فِي هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبه، ومعطل.

فالمؤمن الموحد: يصف اللَّه بِما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال اللَّه وعظمته، من غير تَمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف، ولا تعطيل لشيء من أوصاف اللَّه.

والمشبه: هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها الَّتِي لا يعلمها غير اللَّه.

والمعطل: هو من نفى شيئًا من صفات اللَّه.

وكل من المعطل والمشبه قد حرم الوصول إلَى معرفة اللَّه على وجهها، وابتلي بالتكلف والتحريف لنصوص الوحي.

وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه العقول والفطر الَّتِي لَمْ يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول، وهدى اللَّه أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن اللَّه وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف فِي المسائل والدلائل وتحقيقها». اهـ

فصل في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

هَـذَا وَمِنْ تَـوْحِـيـدِهِـمْ إِثْـبَـاتُ أَوْ صَـافِ الْـكَـمَـالِ لِـرَبِّـنَـا الـرَّحْـمَـنِ

الشرح: سبق أن ذكر المصنف أن التوحيد القولي ينقسم إلَى ثبوت وسلب، وبعد أن فرغ من ذكر السلب بجميع أقسامه؛ شرع فِي بيان القسم الثبوتي الذي يقوم على إثبات كل صفة للَّه وردت فِي الكتب الإلهية، أو جاءت على ألسنة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

فمن توحيد الأنبياء والمرسلين أنَّهم يثبتون أوصاف الكمال كلها للَّه ﷻ، لا ينفون منها شيئًا، ولا يعطلون ربَّهم عن شيء من صفات كماله، بل يؤمنون بها كلها، ويتعرفون معناها، ويتعبدون للَّه تعالَى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما تقتضيه كل صفة من الأحوال القلبية والمعارف الإلهية.

فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال: تَملأ قلوبَهم هيبة للَّه، وتعظيمًا له وتقديسًا.

وأوصاف العز والقهر والقدرة والجبروت: تَملؤها ذلًّا وانكسارًا وخضوعًا بين يدي الرب -جل شأنه- وخوفًا من بطشه وعذابه.

وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم: تملؤها أملًا واستبشارًا، وطمعًا فِي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه.

وأوصاف العلم والخبرة والإحاطة والشهود: توجب للعبد مراقبة ربه فِي جَميع حركاته وسكناته، والاستحياء منه أن يراه حيث نَهاه، أو يفقده حيث أمره.

وأوصاف الجمال والقرب والود والإكرام تَملأ القلوب محبة للَّه وشوقًا إليه.

وهكذا كل من تحقق بمعاني أسمائه سبحانه، ووعاها بقلبه ووجدانه؛ فإنه يجد لَهَا من التأثيرات المختلفة على قلبه وروحه ما يصير به كأنه فِي روضة من الجنة، ويحق له أن يدخل فِي عموم قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن للَّه تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**».

* * *

كَعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَـ ... وَاتِ الْعُلَا بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

فَهْوَ الْعَلِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ ... إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلَافُ ذَا بِبَيَانِ

وَهْوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ

الشرح: فمما يثبته الرسل والأنبياء لربِّهم من صفات كماله: علوه على جَميع مخلوقاته ومباينته لَهَا، وهذا أمر تشهد له العقول والفطرة الَّتِي لَم يفسدها التقليد الأعمى، والعصبية لمذاهب الشيوخ والرؤساء، فضلًا عما ورد من النصوص الكثيرة القاطعة الَّتِي لا يملك المبطلون لَهَا إنكارًا ولا تأويلًا، وقد أشبع المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام فِي هذا الباب فِي الفصول السابقة من منظومته، وأثبت صفة العلو من واحد وعشرين وجهًا، وذكر تضافر

العقل والنقل والفطرة على ذلك، فليرجع إليها من يريد زيادة اطمئنانٍ لقلبه.

واعلم أن الثابت للَّه ﷻ من تلك الصفة هو العلو المطلق، الذي يشمل: علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر، وإنَّما نص على علو الذات لوقوع النِّزاع فيه، وقال: يستحيل أن يكون خلاف ذلك. أي: ألَّا يكون سبحانه عاليًا على جَميع خلقه، فإنه لو لَمْ يكن فوق المخلوقات مباينًا لَهَا؛ لكان إما عينها كما يقوله أصحاب الوحدة، أو حالًّا فيها كما يقوله الحلولية، وكل منهما باطل بالضرورة فتعين علوه عليها ومباينته لَهَا.

وأما استواؤه سبحانه على عرشه العظيم فيستفاد من النقل -الكتاب والسنة- قال تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]. ذكر ذلك فِي سبعة مواضع من القرآن العظيم.

واعلم أن استواءه تعالَى على العرش إنَّما هو على الكيفية الَّتِي يعلمها مما يليق بعظمته وجلاله، وهكذا يقال فِي جَميع ما أخبر اللَّه به عن نفسه، نؤمن بِها كما جاءت دون أن نبحث عن كنهها، أو عن كيفية قيامها به، مع اعتقاد تنزيهه عن مماثلة المخلوقين.

* * *

حَـيٌّ مُـرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَـكَـلِّـمٌ ذُو رَحْـمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَـنَـانِ

هُـوَ أَوَّلٌ هُـوَ آخِـرٌ هُـوَ ظَـاهِـرٌ هُـوَ بَـاطِـنٌ هِـيَ أَرْبَـعٌ بِـوِزَانِ

مَـا قَـبْـلَـهُ شَـيءٌ كَـذَا مَـا بَـعْـدَهُ شَـيءٌ تَـعَـالَـى الـلـهُ ذُو الـسُّـلْـطَـانِ

مَـا فَـوْقَـهُ شَـيءٌ كَـذَا مَـا دُونَـهُ شَـيءٌ وَذَا تَـفْـسِـيـرُ ذِي الْـبُـرْهَـانِ

فَـانْـظُـرْ إِلَـى تَـفْـسِـيرِهِ بِـتَـدَبُّـرٍ وَتَـبَـصُّـرٍ وَتَـعَـقُّـلٍ لِـمَـعَـانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ـرِفَـةٍ لِـخَـالِـقِـنَـا الْـعَـظِـيـمِ الـشَّـانِ

الشرح: تضمنت هذه الأبيات جملة من الأسماء الحسنى الدالة على ما اشتملت عليه من صفات الكمال، فهو حي متصف بالحياة الكاملة اللازمة لذاته أزلًا وأبدًا، فلم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء.

وقد سبق أن قلنا: إن جَميع صفات الكمال الذاتية ترجع إلَى صفة الحياة الَّتِي تعتبر شرطًا فيها كلها، فإنه لا يصح اتصافه بشيء منها إلا إذا كان حيًّا، ويكون كمال حياته مستوجبًا لكمال هذه الصفات، وهو مريد بإرادة قائمة بذاته تتعلق بكل ما أراد إيجاده وإحداثه، فلا يشذ عنها شيء من المكونات، بل ما شاء كان، وما لَمْ يشأ لَمْ يكن، وليس معنَى ذلك أن له إرادة واحدة قديمة تعلقت بجميع المرادات فِي الأزل، كما يقول بذلك من

لا عقل له، وإنَّما تنشأ فِي ذاته سبحانه إرادات جزئية على وفق علمه وحكمته، فحدث عنها المرادات بلا مهلة ولا توان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. أي: فيحدث عقب إرادته وتكوينه له، لا مع الإرادة، ولا متراخيًا عنها.

وهو كذلك قادر بقدرة تامة لا يعجزها شيء، فمهما أراد شيئًا من الممكنات أبرزه بقدرته لا يلحقه من ذلك تعب ولا إعياء، قال تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

وهو أيضًا متكلم بكلام هو صفة له قائمة بذاته، فإنه لا معنى للمتكلم إلا من قام به الكلام، وكلامه تعالَى من صفات الفعل التابعة لمشيئته وقدرته، فهو يتكلم متى شاء وكيف شاء بكلام هو حروف وأصوات، يسمعها من يختصه من خلقه بتكليمه.

وهو ذو رحمة وسعت كل شيء فِي الدنيا، وبلغت حيث بلغ علمه، واختص بِها عباده المؤمنين فِي الآخرة، كما قال تعالَى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية.

ورحمته سبحانه صفة له على ما يليق به، تقتضي إحسانه إلَى خلقه، وإيصال النفع إليهم، وهو ذو إرادة عامة شاملة يخصص بِها كل ممكن ببعض ما يجوز عليه من الأوصاف والأحوال، وهو ذو حنان، بمعنى: شفقة عظيمة على خلقه، ورأفة بالغة بِهم تقتضي كمال بره وجوده.

وأما قوله: «هو أول هو آخر . . .» إلخ الأبيات. فهو بيان لمعنى أسمائه الأربعة الواردة فِي قوله تعالَى من سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وقد التزم المصنف فِي تفسيرها ما ورد به الحديث الصحيح من قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**». ولذا قال: «وذا تفسير ذي البرهان».

وقد سبق أن بينا ضرورة الأخذ بِهذا التفسير لِهذه الأسماء الأربعة، حيث إنه ورد على لسان المعصوم -صلوات الله وسلامه عليه- وهو أعلم الخلق بربه وبمعاني أسمائه.

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن آل سعدي -غفر الله له-: «فتدبر هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية فِي قوله:

﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ والمكانية في ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

فالأول: يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لَمْ يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه فِي كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالَى.

والآخر: يدل على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها ورهبتها وجَميع مطالبها.

والظاهر: يدل عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، وعلى علوه.

والباطن: يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على قربه ودنوه، ولا يتنافى الظاهر والباطن؛ لأن اللَّه ليس كمثله شيء فِي كل النعوت». اهـ

* * *

وَهْوَ الْعَلِي فَكُلُّ أَنْوَاعِ الْعُلُوْ ... وِ لَـهُ فَـثَـابِـتَـةٌ بِـلَا نُـكْـرَانِ

وَهْوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يوجِبُ التْ ... تَـعْـظِـيـمَ لَا يـحْـصِـيـهِ مِـنْ إِنْـسَـانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى سبحانه «العلي والعظيم»، وقد ختم اللَّه بِهما آية الكرسي الَّتِي هي سيدة آي القرآن، قال تعالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقد ذُكِرا كذلك معًا مقترنين فِي قوله تعالَى أول سورة الشورى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤].

أما العلي: فهو دال على وصف العلو الثابت له بالعقل والنقل والفطرة، وقد ذكرنا أن الثابت له سبحانه من ذلك الوصف هو العلو المطلق الذي يشمل:

علو الذات: فهو موجود بذاته فوق جَميع خلقه.

وعلو القهر: فالمخلوقات جميعًا فِي قبضة قهره.

وعلو القدر: فليس يدانيه أحد فِي نفاسة قدره.

وأما العظيم: فهو دال على وصف العظمة الَّتِي هي الكبر والاتساع.

ومعاني التعظيم الثابتة له سبحانه نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه

وأوسعه، بحيث لا يكون وراءه كمال أصلًا، فله العلم الواسع المحيط، والقدرة التامة، والإرادة الشاملة، والحكمة البالغة، وله الكبرياء والعظمة اللذان لا يقدر أحد قدرهُما، ولا يبلغ كنههما، كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته»**.

والنوع الثاني من معاني عظمته: أنه المستحق لكل أنواع التعظيم الَّتِي يعظم بِها عباده، فهو يستحق منهم أن يعظموه بقلوبِهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد فِي معرفته، ومحبته، والذل والانكسار له، والخضوع لكبريائه، وأعمال اللسان فِي الثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه: أن يُتَّقَى حق تقاته، فيطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومن تعظيمه: تعظيم أمره ونَهيه، وكل ما شرعه من زمان ومكان وأعمال.

ومن تعظيمه: ألَّا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

* * *

وَهْوَ الْجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الْجَلَا ... لِ لَـهُ مُـحَـقَّـقَـةٌ بِـلَا بُـطْـلَانِ

وَهْوَ الْجَمِيلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَيفَ لَا ... وَجَـمَـالُ سَـائِـرِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَـى وَأَجْـدَرُ عِـنْـدَ ذِي الْـعِـرْفَـانِ

فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالْـ ... أَفْـعَـالِ وَالأَسْـمَـاءِ بِـالْـبُـرْهَـانِ

لَا شَيءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

الشرح: قال الراغب فِي مفرداته: «الجلالة: عظم القدر، والجلال -بغير الهاء-: التناهي فِي ذلك، وخص بوصف اللَّه تعالَى، فقيل: ذو الجلال والإكرام، ولَمْ يستعمل فِي غيره. والجليل: العظيم القدر، ووصفه تعالَى بذلك، إما لخلقه الأشياء العظيمة والمستدل بِها عليه؛ أو لأنه يجل عن الإحاطة به؛ أو لأنه يجل عن أن يدرك بالحواس».

وفِي «النهاية» لابن الأثير: «ومن أسماء اللَّه تعالَى: الجليل: وهو الموصوف بنعوت الجلال، والحاوي جميعها هو الجليل المطلق، وهو راجع إلَى كمال الصفات، كما أن الكبير راجع إلَى كمال الذات والعظيم راجع إلَى كمال الذات والصفات».

وأوصاف الجلال الثابتة له سبحانه مثل العزة والقهر والكبرياء والعظمة والسعة والمجد كلها ثابتة له على التحقيق، لا يفوته منها شيء.

وأما الجميل: فهو اسم له سبحانه، من الجمال: وهو الحسن الكثير، والثابت له سبحانه من هذا الوصف هو الجمال المطلق، الذي هو الجمال على الحقيقة، فإن جمال هذه الموجودات على كثرة ألوانه وتعدد فنونه؛ هو من بعض آثار جماله، فيكون هو سبحانه أولى بذلك الوصف من كل جميل، فإن واهب الجمال للموجودات لا بد أن يكون بالغًا من هذا الوصف أعلى الغايات، وهو سبحانه الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

أما جمال الذات: فهو ما لا يمكن لمخلوق أن يعبر عن شيء منه، أو يبلغ بعض كنهه، وحسبك أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم وأفانين اللذات، والسرور الَّتِي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربَّهم، وتمتعوا بجماله؛ نسوا كل ما هم فيه، واضمحل عندهم هذا النعيم، وودوا لو تدوم لَهم هذه الحال، ولَمْ يكن شيء أحب إليهم من الاستغراق فِي شهود هذا الجمال، واكتسبوا من جماله ونوره سبحانه جمالًا إلَى جمالهم، وبقوا فِي شوق دائم إلَى رؤيته، حَتَّى أنَّهم يفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وأما جمال الأسماء: فإنَّها كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء وأجملها على الإطلاق، فكلها دالة على كمال الحمد والمجد والجمال والجلال، ليس فيها أبدًا ما ليس بحسن ولا جميل.

وأما جمال الصفات: فإن صفاته كلها صفات كمال ومجد، ونعوت ثناء وحمد، بل هي أوسع الصفات وأعمها وأكملها آثارًا وتعلقات، لاسيما صفات الرحمة والبر والكرم والجود والإحسان والإنعام.

وأما جمال الأفعال: فإنَّها دائرة بين أفعال البر والإحسان الَّتِي يحمد عليها ويشكر، وبين أفعال العدل الَّتِي يحمد عليها؛ لموافقتها للحكمة والحمد، فليس فِي أفعاله عبث، ولا سفه، ولا جور، ولا ظلم، بل كلها خير ورحمة ورشد وهدى وعدل وحكمة، قال تعالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

ولأن كمال الأفعال تابع لكمال الذات والصفات، فإن الأفعال أثر الصفات، وصفاته كما قلنا أكمل الصفات، فلا غرو أن تكون أفعاله أكمل الأفعال.

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وجمع المؤلف بين الجليل

والجميل؛ لأن تمام التعبد للَّه هو التعبد بِهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بـ«الجليل» يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه «الجميل» يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث يَسْبَحُ القلب فِي رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بِما يحصل له من آثار جماله وكماله، فإن اللَّه ذو الجلال والإكرام».

* * *

وَهْوَ الْمَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ... ـظِيمٍ فَشَأْنُ الْوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ

الشرح: قال صاحب النهاية: «المجد فِي كلام العرب: الشرف الواسع. ورجل ماجد مفضال: كثير الخير شريف. والمجيد: فعيل منه للمبالغة. وقيل: هو الكريم الفعال. وقيل: إذا قارن شرف الذات حسن الفعال سمي مجدًا، وفعيل أبلغ من فعال، فكأنه يجمع معنَى الجليل والوهاب والكريم». اهـ

وقد فسر المؤلف هذا الاسم الكريم بِما ينبئ عن عظمة الصفات وسعتها، وأن كل وصف من أوصافه سبحانه عظيم شأنه، متناه فِي كماله، فهو العليم الكامل فِي علمه، والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، والقدير الذي لا يعجزه شيء، والحليم الكامل فِي حلمه، والحكيم الكامل فِي حكمه، إلَى آخر ما له سبحانه من الأسماء والصفات، بلغت غاية المجد والعظمة، فليس فِي شيء منها قصور أو نقصان.

* * *

وَهْوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إعْلَانِ

وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ

وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لَا ... يخْفَى عَلَيهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي

وَهْوَ الْبَصِيرُ يرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السْـ ... ـسَوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرِ وَالصَّوَّانِ

وَيرَى مَجَارِي الْقُوتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا بِعِيَانِ

وَيرَى خِيَانَاتِ الْعُيونِ بِلَحْظِهَا ... وَيرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

الشرح: فِي هذه الأبيات يشرح المؤلف معنَى هذين الاسمين الكريمين «السميع والبصير»، ويجيء ذكرهما فِي القرآن كثيرًا مقترنين؛ لأن كلًّا منهما صفة إدراك.

فمعنى «السميع»: المدرك لجميع الأصوات، سرها وعلنها، فلا يخفى عليه شيء منها مهما خفت، بل جَميع الأصوات بالنسبة إلَى سمعه سواء، كما أن بعيدها والداني -أي: القريب- سواء، فسمعه سبحانه حاضر عند كل صوت منها، لا تشتبه عليه، ولا يختلط بعضها ببعض، ولا يتميز بعضها عن بعض بوضوح أو خفاء.

ومعنى «البصير»: المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت، فلا يؤثر على رؤيته بعد المسافات والأقطار، ولا تحول دونَها الحواجز والأستار، فهو يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فِي الليلة الظلماء، بل ويرى مسالك الغذاء من أمعائها وأربطة مفاصلها وعروقها بعينه الَّتِي لا تنام، ويرى خيانات الأعين، وهي اختلاس النظر إلَى محاسن النساء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو الرجل يدخل على أهل البيت وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبِهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض».

وقال الضحاك: «خائنة الأعين: هي الغمز، وقول الرجل: رأيت. ولَمْ ير، أو لَمْ أر. وقد رأى».

ويرى سبحانه كذلك تقلب الأجفان، أي: حركتها بين الإطباق والتفتيح.

والمقصود: أن بصره سبحانه محيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، كثيفها ولطيفها، لا يستتر عنه شيء منها.

روى أبو داود فِي سننه عن أبِي هريرة رضي الله عنه: «أن النَّبِي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. فوضع إبهامه على أذنه، والَّتِي تليها على عينه».

ومعنى الحديث: أنه سبحانه يسمع بسمع، ويرى بعين، فهو حجة على المعتزلة وبعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات، وبصره علمه بالمبصرات، ولا شك أنه تفسير خاطئ، فإن كلًّا من السمع والبصر معنًى زائد على العلم، قد يوجد العلم بدونه، فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها، وكذلك الأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها.

وأعجب من هذا: قول الأشاعرة: إن كلًّا من السمع والبصر متعلق بجميع الموجودات. فكيف تعلق السمع بِما لا يسمع من الأشخاص والألوان؟! وكيف تعلق

البصر بما لا يرى من الأصوات المسموعة بالآذان؟!

واعلم أن سمعه تعالى نوعان:

أحدهما: عام: وهو سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

والثاني: خاص: وهو سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى على لسان أم مريم عليها السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]. وقوله على لسان إبراهيم خليله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. ومنه قول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي: استجاب له وقبل منه.

* * *

وَهْوَ الْعَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ

وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ ... فَهْوَ الْمُحِيطُ وَلَيسَ ذَا نِسْيَانِ

وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ

وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيـ ... ـفَ يَكُونُ ذَا إِمْكَانِ

الشرح: هذا تفسير لاسمه «العليم» بأحسن وجه وأجمعه، فقد ذكر إحاطة علمه تعالى بجميع المعلومات من الواجبات والممتنعات والممكنات، أما الواجبات فإنه سبحانه يعلم ذاته الكريمة ونعوته المقدسة، الَّتي لا يجوز فِي العقل انتفاؤها، بل يجب عنده ثبوتُها ووجودها، وأما الممتنعات فإنه يعلمها حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت، كما أخبر عن الآثار المترتبة على وجود آلهة معه فِي قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فهذا فساد لَمْ يقع؛ لأنه مترتب على ممتنع وهو وجود إله مع الله، فلو وقع هذا الممتنع؛ لوقع هذا الفساد، كقوله سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فذهاب كلٍّ بما خلق، وعلو بعضهم على بعض؛ كان يترتب على وجود إله مع الله، الذي هو ممتنع بحيث لو حصل لحصل.

فهذا إخبار منه سبحانه بما ينشأ عنها لو وجدت على سبيل الفرض والتقدير، وأما الممكنات وهي الَّتي يجوز فِي العقل وجودها وعدمها، فهو يعلم ما وجد منها وما لَمْ

يوجد، مما لَمْ تقتض الحكمة إيجاده، وعلمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي، لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، فهو يعلم الغيب والشهادة، والظاهر والباطن، والجلي والخفي، ولا يطرأ على علمه غفلة ولا نسيان، كما قال تعالَى على لسان موسى ﷺ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات بذواتِها وأوصافها وأفعالها وجَميع أمورها، فهو يعلم أيضًا ما كان فِي الماضي، وما يكون فِي المستقبل الذي لا نِهاية له، ويعلم ما لَمْ يكن لو كان -أي: لو قدر كونه- كيف وعلى أي حال يكون.

ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم، وبعدما يميتهم، وبعدما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها، خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك فِي دار القرار.

والدليل العقلي على علمه تعالَى أمور:

أولها: أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وثانيها: ما فِي المخلوقات من الإحكام والإتقان، وعجيب الصنعة، ودقيق الخلقة؛ يشهد بعلم الفاعل لَهَا، لامتناع صدور ذلك فِي العادة عن غير ذي علم.

وثالثها: فِي المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، فلو لَمْ يكن سبحانه عالِمًا لكان فِي مخلوقاته من هو أكمل منه.

ورابعها: كل علم فِي المخلوقات إنَّما استفاده من خالقه، وواهب الكمال أحق به، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

فصل

وَهْوَ الْحَمِيدُ فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٌ ... أَوْ كَانَ مَفْرُوضًا مَدَى الأَزْمَانِ

مَلأَ الْوُجُودَ جَمِيعَهُ وَنَظِيرَهُ ... مِنْ غَيرِ مَا عَدٍّ وَلَا حُسْبَانِ

هُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... كُلُّ الْمَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ

الشرح: قال الراغب: «الحمد للَّه تعالَى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من

المدح، وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعمله، والحمد يكون فِي الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا فِي مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا، ويقال: فلان محمود، إذا حمد، ومُحمَّد، إذا كثرت خصاله المحمودة، ومُحمَّد إذا وجد محمودًا، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٣]. يصح أن يكون فِي معنَى المحمود، وأن يكون فِي معنَى الحامد».

والتحقيق: أن الحمد وإن كان أعم من الشكر متعلقًا، فإن الشكر أعم منه من جهة الآلة، فإن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري نعمة كان أو غيرها، وأما الشكر فيكون بالقلب واليد واللسان، ويكون على النعمة خاصة.

والحميد: اسم من أسمائه الحسنى، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومعناه المستحق لجميع المحامد، ما كان واقعًا منها، أو كان مقدر الوقوع، فجميع أفراد الحمد المحققة والمقدرة ثابتة له سبحانه، يستحقها بِما له من نعوت الكمال وصفات الجلال والجمال، ومن هنا كان الأرجح فِي «ال» من قولنا: «الحمد للَّه». أنَّها لاستغراق الأفراد.

وقد ذكر المؤلف أن اسمه «الحميد» يأتي على وجهين:

أحدهما: أن جَميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد يقع منهم فِي الدنيا والآخرة، بل وكل حمد لَمْ يقع، وإنَّما كان مفروضًا مقدرًا فِي آنات الزمان المتتابعة بحيث يملأ الوجود كله علويه وسفليه، بل ويملأ مثله من غير عد ولا إحصاء، فإنه سبحانه يستحقه على خلقه، حيث كان هو خلقهم ورزقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، دينية ودنيوية، ودفع عنهم النقم والمكاره، فليس بالعباد من نعمة إلا وهو موليها، ولا يدفع الشر عنهم سواه، فيستحق منهم أن يثنوا عليه بِما هو أهله، ثناء لا فتور له ولا انقطاع.

والثاني: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا الَّتِي لا تنبغي إلا له، فله -كما قدمنا- صفات الكمال كلها، بحيث لا يجوز خلوه عن أي كمال ممكن له، وله من كل صفة غاية كمالها الذي لا ينتظر كمال بعده، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع صفاته المقدسة.

فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله؛ لأنَّها دائرة بين أفعال

الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة الَّتِي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه، وعلى شرعه، وعلى أحكامه القدرية الكونية، وعلى أحكامه الشرعية التكليفية، وعلى أحكامه الجزائية فِي الأولى والآخرة.

وتفاصيل حمده وما يحمد هو عليه سبحانه لا تحيط بِها الأفكار، ولا تحصيها الأقلام.

فصل

وَهْوَ الْمُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتَكْـ ... لِيـمِ الْـخِـطَـابِ وَقَـبْـلَـهُ الأَبَـوَانِ

كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتْـ ... تَعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الْحُسْبَانِ

لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ الْبِلَادِ جَمِيعَهَا الْـ ... أَقْـلَامُ تَـكْـتُـبُـهَـا بِـكُـلِّ بَـنَـانِ

وَالْبَحْرَ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... لِـكِـتَـابَـةِ الْـكَـلِـمَـاتِ كُـلَّ زَمَـانِ

نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ ... لَـيـسَ الْـكَـلَامُ مِـنَ الإِلَـهِ بِـفَـانِ

الشرح: سبق الكلام على صفة الكلام بِما يغني هنا عن إعادته، ولكن وفاء بحق الشرح! نجمل ذلك فِي أن اللَّه -تبارك وتعالَى- متكلم متى شاء وكيف شاء، لَمْ يزل ولا يزال موصوفًا بصفة الكلام، وأن كلامه من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق، كسائر صفات أفعاله المتعلقة بمشيئته وقدرته، وأنه كلم عبده موسى بن عمران كفاحًا من غير واسطة بكلام سمعه موسى، وناداه وقربه نجيًا، كما ورد بكل ذلك آيات الكتاب العزيز، وأنه كلم من قبله الأبوين آدم وحواء حين أزلهما الشيطان بالأكل من الشجرة، فقال سبحانه معاتبًا لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢].

وأن كلماته لا حصر لَهَا ولا عد؛ إذ كان ما تعلقت به لا يدخل تحت حصر وعد.

فهو يتكلم بِما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله، وبِما يتعلق بجميع مخلوقاته وأحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وكلماته كلها صدق وعدل، صدق فِي الأخبار، وعدل فِي الأوامر والنواهي والأحكام، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١١٥].

وأما قوله: «لو أن أشجار البلاد جميعها» إلخ الأبيات. فهو إشارة إلى قوله تعالَى في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ

كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلقها وقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن اللَّه لَمْ يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة؛ عُلم أنه لَمْ يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أعظم صفات الكمال الَّتِي يستحيل نفيها عن اللَّه تعالَى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد.

ولَمْ يقدر اللَّه حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق فِي جملة المخلوقات الَّتِي تنتهي، وقصور هذا القول كاف فِي رده». اهـ

* * *

وَهْوَ الْقَدِيرُ وَلَيسَ يُعْجِزُهُ إِذَا ... مَا رَامَ شَيئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ

وَهْوَ الْقَوِيُّ لَهُ الْقُوَى جَمْعًا تَعَا ... لَى اللهُ ذُو الأَكْوَانِ وَالسُّلْطَانِ

وَهْوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا ... تِيٌّ لَهُ كَالْجُودِ وَالإِحْسَانِ

وَهْوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

وَهْوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْغَلَّابُ لَمْ ... يَغْلِبْهُ شَيءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

وَهْوَ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالْعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلَاثُ مَعَانِ

وَهْيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى سبحانه «القوي والعزيز»، وقد وردا كذلك مقترنين فِي غير موضع من القرآن، كقوله تعالَى فِي سورة الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

أما القوي: فهو ذو القوة، وقوته سبحانه لا يطرأ عليها ما يطرأ على القوى المخلوقة من وهن وفتور، أو تلاش وزوال، فهو لا يعيا بخلق شيء، ولا يمسه من ذلك نصب ولا لغوب، وجَميع القوى المخلوقة هي له سبحانه، فهو الذي أودع المخلوقات ما فيها من قوة، ولو شاء لسلبها؛ ولِهذا جاء فِي الحديث أنَّ «**لا حول ولا قوة إلا باللَّه كنز من كنوز الجنة**».

وفِي قصة صاحب الجنتين المذكورة فِي سورة الكهف يقول له أخوه وهو يعظه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]وفِي سورة البقرة: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأما العزيز: فهو الموصوف بالعزة.

وقد ذكر المؤلف لَهَا ثلاثةَ معان:

١- العزة بمعنى الامتناع على من يرومه من أعدائه: فلن يصل إليه كيدهم، ولن يبلغ أحد منهم ضره وأذاه، كما فِي الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**». وإلَى هذا المعنَى أشار بقوله: «**فلن يرام جنابه**». أي: لن يقصد أحد حماه الأقدس فيقهره أو يغلبه، والعزة بِهذا المعنَى من عَزَّ يَعِزُّ؛ بكسر العين فِي المضارع.

قال الشاعر:

لنا جبل يحتله من نجيره يعز على من رامه ويطول

٢- والثاني: العزة بمعنى القهر والغلبة: وهي من عَزَّ يَعُزُّ؛ بضم العين فِي المضارع يقال: عزه؛ إذا غلبه، فهو سبحانه القاهر لأعدائه الغالب لَهم، ولكنهم لا يقهرونه ولا يغلبونه، وهذا المعنَى هو أكثر معاني العزة استعمالًا.

٣- والثالث: العزة بمعنى القوة والصلابة: من عَزَّ يَعَزُّ؛ بفتحها، ومنه قولهم: أرض عزاز. للصلبة الشديدة.

وهذه المعاني الثلاثة للعزة ثابتة كلها للَّه ﷻ على أتم وجه وأكمله، وأبعده عن العدم والنقصان.

ومن أسمائه الحسنى «الغني»، فله سبحانه الغنى التام المطلق من كل وجه، بحيث لا تشوبه شائبة فقر وحاجة أصلًا؛ وذلك لأن غناه وصف لازم له، لا ينفك عنه؛ لأنه مقتضى ذاته، وما بالذات لا يمكن أن يزول، فيمتنع أن يكون إلا غنيًّا، كما يمتنع أن يكون إلا جوادًا محسنًا برًّا رحيمًا كريمًا.

وكما أن غناه ذاتي له لا يمكن أن يطرأ عليه ما ينافيه من ذل واحتياج، فكذلك فقر المخلوقات إليه هو فقر ذاتي، بحيث لا يمكنها أن تستغني عنه لحظة من اللحظات، فهي مفتقرة إليه فِي إيجادها وفِي استمرار وجودها، وفِي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه.

ومن سعة غناه: أن خزائن السموات والأرض كلها بيده، ينفق منها ما يشاء، وأن إنعامه على عباده متصل دائم الفيض، لا ينقطع فِي لحظة من اللحظات، كما فِي الحديث: «**إن يمين اللَّه ملأى؛ سحاء الليل والنهار، لا تغيضها نفقة، ألا ترون إلَى ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لَمْ يغض مما بيده**».

ومن كمال غناه وكرمه: أنه يبسط يده بالإجابة لمن سأله، فيقضي حاجته، ويكشف ضره، ولا يتبرم بإلحاح السائلين، بل يغضب على من لَمْ يسأله، ويؤتي عباده من فضله ما سألوه وما لَمْ يسألوه، وفِي الحديث القدسي يقول اللَّه تعالَى: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فِي صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»..

ومن تَمام غناه عن خلقه: أنه لَمْ يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لَمْ يكن له شريك فِي الملك، ولا ولي من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، وهو المغني لجميع مخلوقاته.

* * *

وَهْوَ الْحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... نَوْعَانِ أَيضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيضًا ثَابِتَا الْبُرْهَانِ

وَالْحُكْمُ شَرْعِيٌّ وَكَوْنِيٌّ وَلَا ... يَتَلَازَمَانِ وَمَا هُمَا سِيَّانِ

بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا ... وَالْعَكْسُ أَيضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

لَنْ يَخْلُوَ الْمَرْبُوبُ مِنْ إحْدَاهُمَا ... أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيسَ يَنْتَفِيَانِ

لَكِنَّمَا الشَّرْعِيَّ مَحْبُوبٌ لَهُ ... أَبَدًا وَلَنْ يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ

هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

لَكِنَّمَا الْكَوْنِيَّ فَهْوَ قَضَاؤُهُ ... فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ

هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا ... وَالشَّأْنُ فِي الْمَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ

فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الْـ ... ـمَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالْعِصْيَانِ

فَالله يَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الْـ ... ـمَقْضِيَّ مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ قَامَتْ بِهِ وَمَا الْـ ... ـمَقْضِيُّ إلَا صَنْعَةُ الإنْسَانِ

هَـذَا الْبَـيَانُ يـزِيـلُ لَبْـسًـا طَـالَـمَـا … هَـلَـكَـتْ عَـلَـيـهِ الـنَّـاسُ كُـلَّ زَمَـانِ
وَيحِـلُّ مَـا قَـدْ عَـقَّـدُوا بِـأُصُـولِـهِـمْ … وَبُـحُـوثِـهِـمْ فَـافْـهَـمْـهُ فَـهْـمَ بَـيَـانِ
مَـنْ وَافَـقَ الْـكَـوْنِـيَّ وَافَـقَ سُـخْـطَـهُ … إنْ لَـمْ يُـوافِـقْ طَـاعَـةَ الـدَّيَّـانِ
فَـلِـذَاكَ لَا يَـعْـدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَـوَا … تُ الْـحَـمْـدِ مَـعْ أَجْـرٍ وَمَـعْ رِضْـوَانِ
وَمُـوَافِـقُ الـدِّيـنِـيِّ لَا يـعْـدُوهُ أَجْـ … ـرٌ بَـلْ لَـهُ عِـنْـدَ الـصَّـوَابِ اثْـنَـانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى سبحانه «الحكيم»، وهو إما فعيل بمعنى فاعل، أي: ذو الحكم، وهو القضاء على الشيء بأنه كذا أو ليس كذا، وإما فعيل بمعنى مفعل، وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها.

وقيل: الحكيم. ذو الحكمة، وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. فاسمه تعالَى الحكيم متضمن لوصفين كل منهما بالغ غاية الكمال ونِهاية التمام، وهما الحكم والإحكام، وكل منهما أيضًا نوعان ثابتان بالبرهان، ومذكوران فِي القرآن.

أما «الحكم»: فهو إما شرعي تكليفي: وهو الذي يعرفه علماء الأصول بأنه: «خطاب اللَّه المتعلق بأعمال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو الندب أو التخيير».

ويقسمونه إلى: واجب، ومندوب، ومحرم، ومكروه، ومباح.

فهذا الحكم هو متعلق إرادته الدينية الشرعية، ويتناول كل ما كلف اللَّه به عباده على ألسنة رسله -عليهم الصلاة والسلام- من أفعال وتروك.

وإما حكم كوني قدري: يتعلق بكل ما شاء اللَّه كونه مِمَّا سبق به قدره، كما فِي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وفي الحديث: «ما شاء اللَّه كان، وما لَم يشأ لَم يكن».

ولا تلازم بين الحكمين الشرعي والقدري، وليس أحدهما مساويًا للآخر فِي مفهومه ولا فِي متعلقه، بل قد يوجد كل منهما بدون الآخر، كما أنَّهما قد يوجدان معًا، فبينهما عموم وخصوص من وجه.

فالحكم الكوني القدري: ينفرد فِي مثل كفر الكافر ومعصية العاصي، فهو مراده بالإرادة الكونية دون الشرعية.

والحكم الشرعي: ينفرد فِي مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي، فهو مراد بالإرادة الشرعية دون الكونية.

ويجتمع الحكمان معًا فِي مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع، فهو مراد بالإرادتين معًا.

والإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بِما هو واقع مِمَّا لا يحبه اللَّه ويرضاه من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنَّها لا تتعلق بِما ليس بواقع مِمَّا يحبه اللَّه ويرضاه من إيمان الكفار وطاعة العصاة.

والإرادة الشرعية أعم من جهة أنَّها تتعلق بكل ما يُحبه اللَّه ويرضاه واقعًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة أنَّها لا تتعلق بِما هو واقع من الكفر والمعاصي المرادة بالإرادة الكونية.

وعلى كلٍّ فلا يُمكن أن يخلو المربوب عن أحد الحكمين، بل لابد أن يوجد فيه أحدهما أو هما معًا، فلا يُمكن ارتفاعهما عنه، لكن الحكم الشرعي يتعلق -كما قلنا-: بِما يحبه اللَّه ويرضاه دائمًا، ولَم يخل عنه الوجود فِي وقت من الأوقات، بل لَم يزل اللَّه آمرًا ناهيًا متعبدًا عباده بِما يشاء.

فالحكم الشرعي: هو أمره الديني الذي بعث به رسله، وأمرهم بإقامته في جميع الأزمان.

وأما حكمه الكوني: فهو قضاؤه فِي خلقه بالعدل والإحسان، فأفعاله كلها فِي خلقه دائرة بين الرحمة والفضل، وبين الحكمة والعدل، فقضاؤه سبحانه حق كله، وعدل كله، ومرضيٌّ كله؛ لأن قضاءه هو صفته الَّتِي قامت به، فلا يُمكن أن يسخط، ولا أن يلحقه الذم، وإنَّما الكلام فِي المقضي على العبد الذي هو أثر القضاء، والذي هو خلق اللَّه وصنعته، فأحيانًا يكون مرضيًا حين يكون طاعة وإيمانًا، وأحيانًا يكون مسخوطًا حين يكون كفرًا وعصيانًا.

والحاصل: أنه لابد من الفرق بين القضاء الذي هو صفة الرب وبين المقضي الذي هو مخلوقه، كما يجب الفرق بين الفعل والمفعول، والخالق والمخلوق ونحو ذلك، فإن الأول صفة الرب الَّتِي لا يُمكن أن يلحقها نقص أو ذم، والثاني قد يكون فيه ما يعاب أو يذم.

وبهذا البيان يزول إشكال كبير طالَمَا أورد الناس موارد الهلكة، حيث لَم يهتدوا إلى الفرق بين القضاء والمقضي، حَتَّى آل أمر كثير منهم إلى استحسان الكفر وسائر المعاصي، وزعموا أن كل ما قضاه اللَّه فهو محبوب مرضي، وأن العاصي مطيع للَّه بتنفيذ قضائه، كالمطيع له سواء.

وفي ذلك يقول شاعرهم:

أصبحت منفعلًا لما يختاره … مني ففعلي كله طاعات

وكل هذا كان بسبب الخلط بين المعاني، وعدم الاهتداء إلى الفرق بينها، فالأمر الشرعي والكوني عندهم سواء، والقضاء والمقضي سواء، والإرادة الكونية والشرعية سواء، والخلق والاختيار سواء.

وهدى اللَّه أهل السنة والجماعة إلى الفرق بين هذه المعاني كلِّها، فرضوا بقضاء اللَّه، ولكنهم سخطوا مقضيه من الكفر والمعاصي، الَّتِي لا يحبها ولا يرضاها، وعلموا أن من وافق حكمه الكوني القدري إن لَم يوافق حكمه الشرعي؛ فهو موافق لسخطه، فلا يُمكن أن يخلو من استحقاق ذم، أو فوات حمد، أو حرمان أجر ورضوان، وأما من وافق أمره الديني الشرعي فإن أصاب فِي اجتهاده فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، واللَّه تعالى أعلم.

* * *

فصل

وَالْحِكْمَةُ الْعُلْيَا عَلَى نَوْعَينِ أَيـ … ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ

إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ … نَوْعَانِ أَيضًا لَيسَ يَفْتَرِقَانِ

أَحْكَامُ هَذَا الْخَلْقِ إِذْ إِيجَادُهُ … فِي غَايَةِ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ

وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ … وَلَهُ عَلَيهَا حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ

وَالْحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ … أَيضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الْوَصْفَانِ

غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ وَكَوْنُهَا … فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ

الشرح: يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شرحه لِهَذه الأبيات:

«وحكمته نوعان: أحدهما: الحكمة فِي خلقه: فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على

الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد فِي خلقه خللًا ولا نقصًا ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه فِي الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان؛ لَم يقدروا، وأنَّى لهم القدرة على شيء من ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حِكَمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان، وهذا أمر معلوم قطعًا بِما يعلم من عظمته وكمال صفاته، وتتبع حكمه فِي الخلق والأمر.

وقد تحدى عباده أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل، هل يجدون فِي خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لابد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة فِي شرعه وأمره: فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا؟! وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟! فإن معرفته تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له، وحمده وشكره والثناء عليه؛ أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن اللَّه عليه بِها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنَّها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لَم يكن فِي شرعه وأمره هذه الحكمة العظيمة الَّتِي هي أصل الخيرات وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء، وخلقت الجنة والنار -لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا ويقينًا وإيمانًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بِها القلوب، ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بِما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًّا إلا بالدين الحق الذي جاء به مُحمَّد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة مُحمَّد لَمَّا كانوا قائمين بِهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد

إليه؛ كانت أحوالهم فِي غاية الاستقامة والصلاح.

ولما انحرفوا عنه، وتركوا كثيرًا من هداه، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية، انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم.

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى الَّتِي بلغت فِي القوة والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله، كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم؛ ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به مُحمَّد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه، وصدق ما جاء به؛ لكونه محكمًا كاملًا، لا يصلح الصلاح إلا به». اهـ.

وما أظنني بحاجة إلى أن أزيد شيئًا على هذا الشرح الرائع الذي دبجه يراع هذا العالم النحرير رحمه اللَّه وأجزل مثوبته ورفع بين العلماء العاملين درجته؛ آمين.

فصل

وَهْوَ الْحَيِيُّ فَلَيسَ يفْضَحُ عَبْدَهُ عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالْعِصْيَانِ

لَكِنَّهُ يلْقِي عَلَيهِ سَتْرَهُ فَهْوَ السَّتِيرُ وَصَاحِبُ الْغُفْرَانِ

الشرح: ورد فِي السنة وصفه تعالى بالحياء، كقوله ﷺ: **«إن اللَّه حيي يستحي من عبده إذا مد يديه إليه أن يردهما صفرًا»**. وكقوله عليه السلام فِي شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه: **«أما أحدهم فأقبل؛ فأقبل اللَّه عليه، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا اللَّه عز وجل منه، وأما الثالث فأعرض؛ فأعرض اللَّه عز وجل عنه»**.

وحياؤه تعالى وصف يليق به ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته، وكمال جوده وكرمه، وعظيم عفوه وحلمه، فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه، وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه على معصيته، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه، وتمام قدرته عليه؛ يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بِما يهيئُه له من أسباب الستر، ثُمَّ بعد ذلك يعفو عنه ويغفر، كما فِي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: **«إن اللَّه عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ثُمَّ يسأله فيما بينه وبينه: ألم تفعل كذا يوم كذا؟ حَتَّى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك**

قال له: سترتُها عليك فِي الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشيبة فِي الإسلام أن يعذبه، ويستحي مِمَّن يدعوه ويمد إليه يديه أن يردهما خاليتين، وهو من أجل أنه حيي ستير يحب أهل الحياء والستر من عباده، فمن ستر مسلمًا، ستر اللَّه عليه فِي الدنيا والآخرة، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة، وأن مِن أمقت الناس عنده مَن بات على معصية واللَّه يستره، ثُمَّ يصبح فيكشف ستر اللَّه عليه، وقد توعد الذين يُحبون أن تشيع الفاحشةُ فِي الذين آمنوا بأن لَهم عذابًا أليمًا فِي الدنيا والآخرة، وفِي الحديث: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**».

* * *

وَهْوَ الْحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

وَهْوَ الْعَفُوُّ فَعَفْوُهُ وَسِعَ الْوَرَى ... لَوْلَاهُ غَارَ الأَرْضُ بِالسُّكَّانِ

الشرح: ومن أسمائه ﷻ «الحليم والعفو».

فالحليم: الذي له الحلم الكامل، الذي وسع أهل الكفر والفسوق والعصيان، حيث أمهلهم ولَمْ يعاجلهم بالعقوبة؛ رجاء أن يتوبوا، ولو شاء لأخذهم بذنوبِهم فور صدورها منهم، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، ولكن حلمه سبحانه هو الذي اقتضى إمهالهم، كما قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

وأما العفو: فهو الذي له العفو الشامل، الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب، ولاسيما إذا أتوا بِما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وهو عفو يحب العفو، ويحب من عباده أن يسعوا فِي تحصيل الأسباب الَّتِي ينالون بِها عفوه، من السعي فِي مرضاته، والإحسان إلَى خلقه، ومن كمال عفوه أنه مهما أسرف العبد على نفسه، ثُمَّ تاب إليه ورجع؛ غفر له جَميع جُرمه، كما قال تعالَى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولولا كمال عفوه وسعة حلمه سبحانه لغارت الأرض بأهلها لكثرة ما يرتكب من المعاصي على ظهرها، فنسأله سبحانه أن يعفو عنا بمنه وكرمه.

وَهْوَ الصَّبُورُ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ ... شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ
قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيسَ يُعِيدُنَا ... شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الإنْسَانِ
هَذَا وَذَاكَ بِسَمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ ... لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَوَانِ
لَكِنْ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ ... يُؤْذُونَهُ بِالشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى «الصبور»، وهو مبالغة من صابر، ومعنى الصبر حبس النفس على ما تكره، وضده الجزع، وهو فِي حق اللَّه تعالَى معناه: حلمه على أعدائه مع ارتكابِهم ما يوجب غضبه، من شتمه وتكذيبه، وتكذيب رسله، ومعاندتِهم لآياته، ومحاربتهم لدينه وشرعه، وهو لا يزال يتابع عليهم نعمه، ويدر عليهم أخلاف رزقه، وصبره تعالَى أكمل صبر، لأنه عن كمال قدرة، وكمال غنى عن الخلق، وكمال رحمة وإحسان.

وقد فسر المؤلف هذا الاسم الكريم بِما ورد به الحديث الصحيح من قولهﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من اللَّه، يجعلون له الولد، وهو يعافيهم ويرزقهم**».

وبِما ثبت أيضًا فِي الصحيح من قوله تعالَى فِي الحديث القدسي: «**كذبني ابن آدم ولَمْ يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولَمْ يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولدًا، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لَمْ يلد ولَمْ يولد، ولَمْ يكن له كفوًا أحد**».

ومن أجل أنه سبحانه صبور فهو يحب الصابرين من عباده، ويعينهم فِي كل أمورهم، وسيوفيهم أجرهم بغير حساب.

فصل

وَهْوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى «الرقيب» وهو واسمه «الشهيد» مترادفان، كلاهُما يدل على حضوره مع خلقه، يسمع ما يتناجون به، ويرى ما يخوضون فيه، ويعلم حركات خواطرهم، وهواجس ضمائرهم، وتقلب لواحظهم، لا يغيب عنه من أمرهم شيء يقولونه أو يفعلونه، كما قال تعالَى من سورة يونس عليه السلام: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١] . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] .

وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦] .

وفي الحديث الصحيح: «**صريح الإيمان أن تعلم أن اللَّه معك حيث كنت**».

ولهذا كانت المراقبة -الَّتي هي من أجل أعمال القلوب- هي التعبد للَّه باسمه «الرقيب الشهيد»، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط اللَّه بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله؛ أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه اللَّه، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط اللَّه، وتعبد بمقام الإحسان؛ فعبد اللَّه كأنه يراه، فإن لَمْ يكن يراه فإنه يراه.

وقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف بالأفعال بالأركان». معناه: أنه إذا كان اللَّه عَزَّ وَجَلَّ رقيبًا على دقائق الخفيات، مطلعًا على السرائر والنيات؛ كان من باب أولى شهيدًا على الظواهر والجليات، وهي الأفعال الَّتي تفعل بالأركان، أي: الجوارح.

* * *

وَهْوَ الْحَفِيظُ عَلَيهِمُ وَهْوَ الْكَفِيـ لُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «الحفيظ» وله معنيان:

أحدهما: أنه يحفظ على العباد ما عملوه من خير وشر، وعرف ونكر، وطاعة ومعصية، بحيث لا يفوته من ذلك مثقال ذرة، وحفظه لِهذه الأعمال بمعنى ضبطه لَهَا، وإحصائه إياها، فهو محيط علمًا بجميع أعمالهم، ظاهرها وباطنها، وهو قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أن يبرأها، بل قبل أن يخلق السموات والأرض، وهو وكل بِها ملائكة حافظين، كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، قال تعالَى في سورة يس: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

[الكهف: ٤٩]. وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

فهذا المعنى من حفظه سبحانه يقتضي إحاطة علمه بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها، وكتابتها فِي اللوح المحفوظ، وفِي الصحف الَّتِي بأيدي الملائكة، كما يقتضي علمه بمقاديرها فِي كمالها ونقصها، ومقادير جزائها فِي الثواب والعقاب، ثُمَّ مجازاتُهم عليها بفضله وعدله.

والمعنَى الثاني من معنيي الحفيظ: أنه تعالَى الحافظ لعباده من جَميع ما يكرهون. وإِلَى هذا أشار المؤلف بقوله: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان». أي: مشق مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان: عام وخاص.

فالعام: هو حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لَها ما يقيها، ويحفظ بنيتها وإلهامها تدبير شئونِها، والسعي فيما يصلحها، كل حسب خلقته، كما قال تعالَى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. يعني: هدى كل مخلوق إِلَى ما قدر له من ضروراته وحاجاته، وأعطاه من الوسائل والآلات ما يتمكن معه من تحصيل مأكله ومشربه ومنكحه، والسعي فِي أسباب ذلك، ولا شك أن هذا أمر يشترك فيه البر والفاجر بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الذي يحفظ الخلائق بنعمه، وهو الذي وكل بالآدمي حفظة من الملائكة: ﴿مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. أي: يدفعون عنه من الضر والأذى ما لَمْ يقدره اللَّه، مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ اللَّه.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه حفظًا زائدًا على ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانَهم، ويزلزل يقينهم من الفتن والشبهات والشهوات، فيعافيهم منها، ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم، ويدفع كيدهم عنهم، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٧٨]. وهذا عام فِي دفع جَميع ما يضرهم فِي دينهم ودنياهم.

فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة اللَّه عنه بلطفه، كما فِي الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «**احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك**».

* * *

وَهْوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ
فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ وَالْعَبْدُ فِي الْغَفَلَاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

الشرح: قال صاحب النهاية: «فِي أسماء اللَّه تعالَى اللطيف، هو الذي اجتمع له الرفق فِي الفعل والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلَى من قدرها له من خلقه، يقال: لَطَف به وله -بالفتح- يلطف لطفًا إذا رفق به، فأما لَطُف -بالضم- يلطف فمعناه: صغر ودق». اهـ.

وقال الراغب فِي المفردات: «وقد يعبر باللطائف عما لا تدركها الحاسة، ويصح أن يكون وصف اللَّه تعالَى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد فِي هدايتهم، قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[الشورى: ١٩]. ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[يوسف: ١٠٠]. أي: يحسن الاستخراج تنبيهًا على ما أوصل إليه يوسف، حيث ألقاه إخوته فِي الجب». اهـ.

فهو سبحانه يلطف بعبده فِي أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف له فِي الأمور الخارجة عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه ورحمته وكرمه.

وقد ذكر المؤلف لِهذا الاسم معنيين:

أحدهُما: أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار، وخفيات الأمور، ومكنونات الصدور، وما لطف ودق من كل شيء، فهو يعلم جَميع الوجوه الممكنة له، بحيث لا يشذ شيء منها عن علمه وخبرته.

والثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يمن عليه، ويشمله بلطفه وكرمه، ويرفعه إلَى المنازل العالية، وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، فهو يُجري عليه من أصناف المحن وألوان البلاء، ما علم أن فيه صلاحه وسعادته وحسن العاقبة له فِي الدنيا والآخرة، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم لَهم، وبالجهاد فِي سبيله، وكما يمتحن أولياءه بِما يكرهونه؛ لينيلهم ما يحبون، وهذا معنى قول المصنف: «فيريك عزته». أي: بامتحانك بِما تكره. «ويبدي لطفه». أي: فِي العواقب الحميدة والنهايات السارة.

يقول العلامة الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا، من ولاية أو رياسة أو سبب من

الأسباب المحبوبة، فيصرفه اللَّه عنها، ويصرفها عنه رحمة به؛ لئلا تضره فِي دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله، وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له فِي الغيب، وأريد إصلاحه فيه؛ لحمد اللَّه وشكره على ذلك، فإن اللَّه بعباده رءوف رحيم لطيف بأوليائه» اهـ.

فصل

وَهْوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ يُعْطِيهُمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «الرفيق»، وهو مأخوذ من الرفق، الذي هو التأني فِي الأمور والتدرج فيها، وضده العنف الذي هو الأخذ فيها بشدة واستعجال.

وتفسير المصنف لِهذا الاسم الكريم مأخوذ من قوله ﷺ فِي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه رفيق يحب أهل الرفق، وإن اللَّه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**».

فاللَّه تعالَى رفيق فِي أفعاله؛ حيث خلق المخلوقات كلها بالتدرج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة، وفِي لحظة واحدة، وهو سبحانه رفيق فِي أمره ونَهيه، فلا يأخذ عباده بالتكاليف الشاقة مرة واحدة، بل يتدرج معهم من حال إلَى حال، حَتَّى تألفها نفوسهم، وتأنس إليها طباعهم، كما فعل ذلك سبحانه فِي فرضية الصيام وفِي تحريم الخمر والربا ونحوها.

فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة اتباعًا لسنن اللَّه فِي الكون واقتداء بِهدي رسول اللَّه ﷺ؛ تتيسر له الأمور، وتذلل الصعاب، ولاسيما إذا كان ممن يتصدى لدعوة الناس إلَى الحق، فإنه مضطر إلَى استشعار اللين والرفق، كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

* * *

وَهْوَ الْقَرِيبُ وَقُرْبُهُ الْمُخْتَصُّ بِالدْ دَاعِي وَعَابِدِهِ عَلَى الإِيمَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «القريب»، وهو من القرب الذي هو ضد البعد، قال تعالَى من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال على لسان صالح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وقربه تعالَى من عباده نوعان :

١ - قرب عام : وهو إحاطة علمه بِهم، ونفوذ إرادته فيهم، وإحاطة سمعه وبصره بجميع أقوالهم وأفعالهم، وهو بمعنًى معيته العامة .

٢ - وقرب خاص : وهو قربه من الداعين والعابدين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصر والتأييد فِي الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والإثابة للعابدين، وإذا فهم القرب بِهذا المعنَى فِي العموم والخصوص؛ لَمْ يكن هناك تعارض أصلًا بينه وبين ما هو معلوم من وجوده تعالَى فوق عرشه، فسبحان من هو عليٌّ فِي دنوه، ودان فِي علوه .

* * *

وَهْوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْ ... هُ أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

وَهْوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

الشرح : ومن أسمائه سبحانه «المجيب»، وهو اسم فاعل من الإجابة .

وإجابته تعالَى نوعان :

إجابة عامة : لكل من دعاه دعاء عبادة، أو دعاء مسألة .

فدعاء العبادة : هو الذي يقصد منه الثناء على اللَّه بِما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا، من غير أن يقترن ذلك بطلب حاجة من الحاجات، كسعة رزق، أو نصر على عدو، أو هداية قلب، أو غفران ذنب ونحو ذلك، وإلَى هذا الدعاء الإشارة بقوله تعالَى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وهو لا يقع إلا من العابدين أهل المعرفة باللَّه ﷻ .

وأما دعاء المسألة : فهو أن يقول العبد : اللَّهم أعطني كذا أو ادفع عني كذا . فهذا يقع من الناس كلهم برهم وفاجرهم، واللَّه يستجيب فيه لمن يشاء ممن يدعوه بحسب ما تقتضيه حكمته، لا تختص الإجابة فيه بأهل الإخلاص والتقوى، فإن إحسانه تعالَى عام يشمل البر والفاجر، ورحمته وسعت كل شيء؛ ولِهذا كانت الإجابة لمثل هذا الدعاء لا تدل على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لَمْ يقترن بذلك ما يدل على صدقه وتعين الحق معه، وذلك كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم أو على قومهم؛ فيجيبهم اللَّه، فتدل إجابته لَهم على صدقهم فيما أخبروا به، وكرامتهم على ربِّهم .

وأما الإجابة الخاصة: فلها أسباب عديدة.

منها: أن يكون الداعي مضطرًّا قد وقع فِي كربة وشدة، فيدعو اللَّه؛ فيستجيب له، ويفرج كربته، كما قال تعالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وسبب ذلك: شدة افتقاره إلَى اللَّه، وقوة انكساره بين يديه، وانقطاع تعلقه بالمخلوقين.

ومن أسباب الإجابة أيضًا: طول السفر، والتوسل إلَى اللَّه بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم، وفِي الأوقات والأحوال الشريفة، مثل أدبار الصلوات، وأوقات السحر، وعند النداء، ونزول المطر، واشتداد البأس ونحوه لورود الأحاديث بذلك.

* * *

وَهْوَ الْجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الْوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

وَهْوَ الْجَوَادُ فَلَا يُخَيِّبُ سَائِلًا ... وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ

الشرح: «الجواد» المتصف بالجود، وهو كثرة الفضل والإحسان.

وجوده تعالَى أيضًا نوعان:

جود مطلق: عم الكائنات جميعًا، لَمْ يخل عنه موجود من الموجودات، فكلها قد عمها فضله وإحسانه.

وجود خاص: بالسائلين والطالبين، سواء سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وسواء كان السائل مؤمنًا أم كافرًا، برًّا أم فاجرًا، فمن سأل اللَّه صادقًا فِي سؤاله، طامعًا فِي نواله، مستشعرًا الذلة والفقر بين يديه؛ أعطاه سؤله، وأناله ما طلب، فإنه هو البر الرحيم، الجواد الكريم.

ومن جوده الواسع سبحانه: ما أعده لأوليائه فِي دار كرامته ومستقر رحمته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* * *

وَهْوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ   وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

الشرح: «المغيث» اسم فاعل من الغوث، وهو تفريج الكرب، وإزالة الشدة، فهو سبحانه المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها، وتقع فِي الشدائد والكربات، وفِي الحديث: «**يعجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أزلين قنطين يظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب**».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾[الشورى: ٢٨]. وهو الذي يجيب إغاثة اللَّهفان، أي: دعوة من دعاه فِي حال اللَّهف والشدة والاضطرار، فمن استغاث به سبحانه؛ أغاثه من لهفته، وأنقذه من شدته.

* * *

وَهْوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ   أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

وَهْوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُو   بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ

هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا لَا مُعَا   وَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ   لَا لاِحْتِيَاجِ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ

وَهْوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ   لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلَا حُسْبَانِ

الشرح: هذا تفسير لاسميه الكريمين «الودود والشكور»، وقد ورد كل منهما فِي الكتاب العزيز.

فـ«الودود»: ورد مرة مقترنًا باسمه «الرحيم» فِي قوله تعالَى من سورة هود على لسان شعيب عليه السلام: يا قوم ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

وورد مرة أخرى مقترنًا باسمه «الغفور» فِي قوله تعالَى من سورة البروج: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤].

والودود مأخوذ من الوُد -بضم الواو- بمعنى: خالص المحبة، وهو إما من فعول بمعنى فاعل، فهو سبحانه الواد، أي: المحب لأنبيائه وملائكته وعباده الصالحين، وإما من فعول بمعنى مفعول، فهو سبحانه الموَدود المحبوب لَهم، بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا يمكن أن يعدلوا بمحبته غيره من جَميع المحبوبات، لا فِي أصل المحبة، ولا فِي كيفيتها، ولا فِي متعلقاتِها، وهذا هو الواجب أن تكون محبة اللَّه فِي قلب العبد سابقة لكل

محبة وغالبة لَهَا، ويتعين أن تكون بقية المَحابِّ تابعة لَهَا.

يقول العلامة الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومحبة اللَّه هي روح الأعمال، وجَميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة اللَّه، ومحبة العبد لربه فضل من اللَّه وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو تعالَى الذي أحب عبده، فجعل المحبة فِي قلبه، ثُمَّ لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه اللَّه بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة، وإنَّما ذلك محبة منه تعالَى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلَى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة فِي قلوب المؤمنين، ثُمَّ لَمْ يزل ينميها ويقويها حَتَّى وصلت فِي قلوب الأصفياء إلَى حالة تتضاءل عندها جَميع المَحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتُهون عليهم المصائب، وتلذذ لَهم مشقة الطاعات، وتثمر لَهم ما يشاءون من أصناف الكرامات، الَّتِي أعلاها محبة اللَّه، والفوز برضاه، والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه، فمحبة قبلها صار بِها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من اللَّه له على محبة صار بِها من أصفيائه المخلصين، وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه الَّتِي هي أعظم المطالب: الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له فِي الأقوال والأفعال ومتابعة النَّبِيِّ ﷺ ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]». اهـ.

وأما «الشكور»: فورد كذلك مقترنًا باسمه «الغفور» فِي قوله تعالَى من سورة فاطر على لسان أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٤].

ومقترنًا باسمه «الحليم» فِي قوله من سورة التغابن: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[التغابن: ١٧]. ومعنى الشكور: الذي يتقبل أعمال عباده ويرضاها، ويثيبهم عليها، ويضاعفها لَهم أضعافًا كثيرة على قدر إخلاصهم فيها وإتقانِهم لَهَا، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠].

وقد ضرب اللَّه فِي كتابه مثلًا للنفقة الَّتِي تنفق فِي سبيله بحبة أنبتت سبع سنابل، فِي كل سنبلة مائة حبة، ثُمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢٦١]. إيذانًا بأن المضاعفة قد تتجاوز هذا القدر لمن يشاء، وفِي الحديث الصحيح: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب**

طيب -ولا يقبل اللَّه إلا الطيب- فإن اللَّه يتلقاها بيمينه، فيربيها له كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حَتَّى تصير مثل الجبل العظيم».

فسبحان من وفق عباده المؤمنين لمرضاته، ثُمَّ شكرهم على ذلك بحسن ثوابه وجزيل عطائه، مِنَّةً منه وتفضلًا، لا حقًّا عليه واجبًا، بل هو الذي أوجبه على نفسه جودًا منه وكرمًا!

* * *

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ

إنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَالْحَمْدُ لِلْمَنَّانِ

الشرح: قال أهل السنة والجماعة: إنه لا يجب على اللَّه شيء؛ لأن الوجوب معناه أن أحدًا أوجب عليه، وليس فوقه سبحانه من يوجب عليه شيئًا، قال تعالَى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فلا يجب عليه سبحانه إثابة المطيع، ولا عقاب العاصي، بل الثواب محض فضله وإحسانه، والعقاب محض عدله وحكمته، ولكنه هو سبحانه الذي يوجب على نفسه ما يشاء، فيصير واجبًا عليه بمقتضى وعده الذي لا يخلف، كما قال تعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وكما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال المعتزلة -بناء على أصولهم العقلية الفاسدة-: إنه يجب على اللَّه عقلًا إثابة المطيع وعقاب العاصي. بحيث لو لَمْ يفعل لكان فِي زعمهم مذمومًا، فارتكبوا بذلك أكبر حماقة، حيث حكموا على ربِّهم بعقولهم، وقاسوه على الحكام من خلقه، بل جرى العرف على أن الحاكم إذا عفا عن المسيء كان ذلك منه حسنًا يستحق عليه المدح، وهم يوجبون على ربِّهم عقاب المذنب، بحيث لا يجوز منه العفو أصلًا؛ لأن وعيده عندهم كوعده، كل منهما واجب التحقيق، وفاتَهم أن القبيح هو خلف الوعد، وأما خلف الوعيد فكرم، كما قال الشاعر:

وإنِّي إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وفِي هذه الأبيات الثلاثة بيان لمذهب أهل السنة: فِي أنه ليس للعباد حق واجب على اللَّه، وأنه مهما يكن من حق فهو الذي أحقه وأوجبه؛ ولذلك لا يضيع عنده عمل قام على

الإخلاص والمتابعة، فإنَّهما الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال، فإذا توفرا فِي عمل ما كان مقبولًا بمقتضى وعده سبحانه وإيجابه، واستحق صاحبه الأجر المقدر له، فهو إن عذب العباد فبعدله، فإنه لا يجزي على السيئة إلا سيئة مثلها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وإن أنعم وأثاب فبفضله، فله الحمد أولًا وآخرًا.

* * *

وَهُوَ الْغَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ الْعِصْيَانِ
لأَتَاهُ بِالْغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ
وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا ... بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «الغفور والتواب» ومعناهما متقاربان.

«فالغفور»: مبالغة من غافر، ومعناه: الكثير الستر لذنوب عباده، مأخوذ من الغفر، - بمعنى الستر - ومنه سمي المغفر الذي يلبس على الرأس عند الحرب؛ لأنه يسترها بمعنى الستر، ويقيها من الضرب.

وهو من أكثر الأسماء الحسنى ورودًا فِي القرآن الكريم مطلقًا فِي بعضها كقوله تعالَى من سورة الزمر: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]. ومقيدًا فِي بعضها كقوله تعالى من سورة طه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢].

ومذهب أهل السنة: أن جَميع الذنوب ما عدا الشرك يجوز أن يغفرها اللَّه سبحانه ولو لَمْ يتب منها صاحبها؛ لقوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ١١٦]. والقول بأن المغفرة فِي الآية مقيدة بالتوبة من الذنب يلغي التقييد بالمشيئة؛ فإن اللَّه قد وعد كل تائب بقبول توبته.

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلو أتى بقرابِها ...» إلخ البيتين الأولين إشارة إلَى قوله سبحانه فِي الحديث القدسي: **«يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابِها مغفرة»**.

وأما «التواب»: فهو الكثير التوب، بمعنى: الرجوع على عبده بالمغفرة وقبول التوبة، قال تعالَى فِي سورة الشورى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ

مَا تَفْعَلُونَ﴾[الشورى: ٢٥] .

وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[غافر: ٣] .

ولا يزال اللَّه يقبل توبة عبده ما لَمْ يغرغر، أو تطلع الشمس من مغربِها، فإذا ظهرت أمارات القيامة الصغرى بالغرغرة، أو الكبرى بطلوع الشمس من المغرب؛ أغلق باب التوبة.

قال تعالَى من سورة النساء: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾[النساء: ١٨] .

وقال من سورة الأنعام: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾[الأنعام: ١٥٨] .

وفِي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حَتَّى تطلع الشمس من مغربِها**».

وتوبته سبحانه على عبده نوعان:

أحدهما: أنه يلهم عبده التوبة إليه، ويوفقه لتحصيل شروطها من الندم والاستغفار، والإقلاع عن المعصية، والعزم على عدم العود إليها، واستبدالها بعمل الصالحات.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها، ومحو الذنوب بِها؛ فإن التوبة النصوح تجبُّ ما قبلها؛ لقوله تعالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[الفرقان: ٧٠] .

فصل

وَهْوَ الإلَهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي ... صَمَدَتْ إلَيهِ الْخَلْقُ بِالإذْعَانِ

الْكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُو ... هِ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

الشرح: قال صاحب النهاية: «الصمد: هو السيد الذي انتهى إليه السؤدد، وقيل: هو الدائم الباقي. وقيل: هو الذي لا جوف له. وقيل: هو الذي يُصْمَد فِي الحوائج إليه. أي: يُقصد».

وهذا تفسير جامع لكل معاني هذا الاسم الكريم، وقد اختار المصنف اثنين من هذه

التفسيرات؛ لأنَّهما أشهر من غيرهما:

أولهما: أنه الذي تصمد إليه الخلائق، وتفزع إليه فِي جَميع حاجاتِها؛ لكمال غناه، وشدة فقرها إليه.

والثاني: أنه الذي كملت جَميع أوصافه من كل الوجوه، فلا تشوبُها شائبة نقص أصلًا، فهو السيد الذي كمل فِي سؤدده، والعليم الذي كمل فِي علمه، والحليم الذي كمل فِي حلمه، والغني الذي كمل فِي غناه . . . إلخ.

* * *

وَكَـذَلِـكَ الْـقَـهَّـارُ مِـنْ أَوْصَـافِـهِ ... فَـالْـخَـلْـقُ مَـقْـهُـورُونَ بِـالـسُّـلْـطَـانِ

لَـوْ لَـمْ يـكُـنْ حَـيًّـا عَـزِيـزًا قَـادِرًا ... مَـا كَـانَ مِـنْ قَـهْـرٍ وَلَا سُـلْـطَـانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «القهار» ولَمْ يرد فِي القرآن إلا مقرونًا باسمه الواحد، كقوله تعالَى على لسان يوسف ﷺ فِي خطابه لصاحبي السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وكقوله سبحانه من سورة الرعد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وكقوله -عز شأنه- من سورة ص: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

وكقوله من سورة الزمر: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

فدل هذا على توحده وانفراده بالقهر لجميع الخلق وأنَّهم جميعًا مقهورون تحت سلطانه، فهو سبحانه الذي قهر جَميع الكائنات، وذلت له جَميع المخلوقات، فلا يحدث حادث، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان، وما لَمْ يشأ لَمْ يكن، وجَميع الخلق فقراء إليه، عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا خيرًا ولا شرًّا، وقهره تعالَى لجميع خلقه مستلزم لكمال حياته وعزته واقتداره؛ إذ لولا هذه الأوصاف الثلاثة لا يتم له قهر ولا سلطان.

* * *

وَكَـذَلِـكَ الْـجَـبَّـارُ مِـنْ أَوْصَـافِـهِ ... وَالْـجَـبْـرُ فِـي أَوْصَـافِـهِ قِـسْـمَـانِ
جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَـسْـرَةٍ فَـالْـجَـبْـرُ مِـنْـهُ دَانِ
وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي ... لَا يَـنْـبَـغِـي لِـسِـوَاهُ مِـنْ إِنْـسَـانِ
وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوْ ... وُ فَـلَـيْـسَ يَـدْنُـو مِـنْـهُ مِـنْ إِنْـسَـانِ
مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْـ ... ـعُـلْـيَـا الَّـتِـي فَـاتَـتْ لِـكُـلِّ بَـنَـانِ

الشرح: قال صاحب النهاية: «فِي أسماء اللَّه تعالَى «الجبار» ومعناه: الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونَهي. يقال: جبر الخلق وأجبرهم وأجبر أكثر. وقيل: هو العالي فوق خلقه. وفعال من أبنية المبالغة، ومنه قولهم: نخلة جبارة. وهي العظيمة الَّتِي تفوت يد المتناول». اهـ.

وقال الراغب فِي المفردات: «أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرته فانجبر واجتبر. وقد قيل: جبرته فجبر، فأما فِي وصفه تعالَى نحو العزيز الجبار المتكبر، فقد قيل: سمي بذلك من قولهم: جبرت الفقير؛ لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه. وقيل: لأنه يجبر الناس أي يقهرهم على ما يريده» اهـ.

وقد ذكر المؤلف هنا لاسمه «الجبار» ثلاثة معان كلها داخلة فيه، بحيث يصح إرادتُها منه.

أحدها: أنه الذي يجبر ضعف الضعفاء من عباده، ويجبر كسر القلوب المنكسرة من أجله الخاضعة لعظمته وجلاله، فكم جبر سبحانه من كسير، وأغنى من فقير، وأعز من ذليل، وأزال من شدة، ويسر من عسير، وكم جبر من مصاب فوفقه للثبات والصبر، وأعاضه من مصابه أعظم الأجر، فحقيقة هذا الجبر هو إصلاح حال العبد بتخليصه من شدته، ودفع المكاره عنه.

المعنَى: أنه القهار الذي دان كل شيء لعظمته، وخضع كل مخلوق لجبروته وعزته، فهو يجبر عباده على ما أراد مما اقتضته حكمته ومشيئته، فلا يستطيعون الفكاك منه.

والثالث: أنه العلي بذاته فوق جَميع خلقه، فلا يستطيع أحد منهم أن يدنو منه.

وقد ذكر العلامة الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن له معنًى رابعًا: وهو أنه المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك فِي خصائصه وحقوقه.

وَهْوَ الْحَسِيبُ كِفَايَةً وَحِمَايَةً وَالْحَسْبُ كَافِي الْعَبْدِ كُلَّ أَوَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «الحسيب».

وهو بالمعنى العام: الذي يكفي عبده جَميع ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، فيوصل إليهم المنافع، ويدفع عنهم المضار.

وبالمعنى الأخص: الذي يكفي عبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة، يصلح بِها.

المعنَى الثاني: أنه القهار دان كل شيء لعظمته، وخضع كل مخلوق لجبروته بِها دينه ودنياه، كما قال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ عطف على الكاف فِي حسبك، أي: حسبك ومن اتبعك اللَّه، ولا يجوز عطفها على لفظ الجلالة؛ لأن الحسب بمعنى الكافي، من خصائص الرب -جل شأنه- لا يجوز أن يكون له ندٌّ فيه؛ ولِهذا قال سبحانه من سورة التوبة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. فجعل الإيتاء للَّه ورسوله، وجعل الحسب والرغبة للَّه ﷻ وحده، وقال تعالَى من سورة الزمر: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. فجعل الكفاية -وهي بمعنى الحسب- للَّه وحده، فكفاية اللَّه لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا وقيامه بعبودية اللَّه تعالَى.

ومن الحسيب أيضًا: أنه الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها، كما فِي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

وَهْوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفِعَالُهُ رُشْدٌ وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الْحَيْرَانِ

وَكِلَاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ وَالْفِعْلُ لِلإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي

الشرح: قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شرحه لِهذا الاسم الكريم: «يعني أن «الرشيد» هو الذي قوله رشد، وفعله كله رشد، وهو مرشد الحيران الضال، فيهديه إلَى الصراط المستقيم بيانًا وتعليمًا وتوفيقًا.

فالرشد الدال عليه اسمه الرشيد وصفه تعالَى، والإرشاد لعباده فعله.

فأقواله القدرية: الَّتِي يوجد بِها الأشياء، ويدبر بِها الأمور -كلها حق؛ لاشتمالها

على الحكمة والحسن والإتقان.

وأقواله الشرعية الدينية: هي أقواله الَّتِي تكلم بِها فِي كتبه وعلى ألسنة رسله، المشتملة على الصدق التام فِي الإخبار، والعدل الكامل فِي الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من اللَّه قيلًا، ولا أحسن منه حديثًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فِي الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بِها العباد، بل لا حصول للرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله اللَّه، ومن لَمْ يسترشد بِها فليس برشيد، فيحصل بِها الرشد العلمي، وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بِها الرشد العملي، فإنَّها تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتدعو إلَى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترغب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بِها فهو المهتدي، ومن لَمْ يسترشد بِها فهو ضال، ولَمْ يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل، وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالًا وأرشد حائرًا، وخصوصًا من تعلق به، وطلب منه الهدى من صميم قلبه، وعلم أنه المنفرد بالهداية». اهـ.

* * *

وَمَقَالِهِ وَالْحُكْمِ فِي الْمِيزَانِ	وَالْعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ
قَوْلًا وَفِعْلًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ	فَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَهُنَا

الشرح: ومن أسمائه سبحانه أنه «العدل»، وهو فِي الأصل مصدر وصف به للمبالغة، وأصل العدل والمعادلة المساواة، يقال: هذا عدل ذلك وعديله. أي: نظيره، ومساويه.

وهو سبحانه موصوف بالعدل فِي فعله، فأفعاله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلًا، فهي دائرة كلها بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة -كما قدمنا- وما ينْزله سبحانه بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي فِي الدنيا، وما أعده لَهم من العذاب المهين فِي الآخرة، فإنما فعل بِهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب، ولا يعذب إلا بعد إقامة الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بِما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهاهم إلا عما مضرته خالصة أو راجحة، وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم عدل لا جور فيه، كما قال تعالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فهو سبحانه على صراط مستقيم فِي قوله وفعله وحكمه.

* * *

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقُدُّوسُ ذُو التْـ ... تَـنْـزِيـهِ بِـالـتَّـعْـظِـيـمِ لِـلـرَّحْـمَـنِ
وَهْوَ السَّلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِـنْ كُـلِّ تَـمْـثِـيـلٍ وَمِـنْ نُـقْـصَـانِ

الشرح: هذا تفسير لاسميه الكريمين «القدوس والسلام»، ومعناهما متقاربان، فإن القدوس مأخوذ من قدس، بِمعنًى: نزهه وأبعده السوء مع الإجلال والتعظيم.

والسلام: مأخوذ من السلامة، فهو سبحانه السالم من مماثلة أحد من خلقه، ومن النقصان، ومن كل ما ينافي كماله، فهذا ضابط ما ينَزه عنه، ينَزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينَزه ويعظم عن أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفو أو سمي أو نديد أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته الَّتِي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها.

ومن تَمام تنْزيهه عن ذلك: إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنْزيه مراد لغيره، ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة، كظن الجاهلية الذين يظنون به غير ما يليق بجلاله، فإذا قال العبد مثنيًا على ربه: «سبحان اللَّه»، أو «تقدس اللَّه»، أو تعالَى اللَّه». كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص، وإثبات كل كمال.

* * *

وَالْـبِـرُّ فِـي أَوْصَـافِـهِ سُـبْـحَـانَـهُ ... هُـوَ كَـثْـرَةُ الْـخَـيْـرَاتِ وَالإِحْـسَـانِ
صَدَرَتْ عَنِ الْبِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ ... فَـالْـبِـرُّ حِـيـنَـئِـذٍ لَـهُ نَـوْعَـانِ
وَصْـفٌ وَفِـعْـلٌ فَـهْـوَ بَـرٌّ مُـحْـسِـنٌ ... مُـولِـي الْـجَـمِـيـلِ وَدَائِـمِ الإِحْـسَـانِ
وَكَـذَلِـكَ الْـوَهَّـابُ مِـنْ أَسْـمَـائِـهِ ... فَـانْـظُـرْ مَـوَاهِـبَـهُ مَـدَى الأَزْمَـانِ
أَهْلُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضِ عَنْ ... تِـلْـكَ الْـمَـوَاهِـبِ لَـيـسَ يـنْـفَـكَّـانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه: «البر والوهاب».

أما البر: فقد ورد ذكره مرة واحدة فِي القرآن فِي قوله تعالَى من سورة الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]. والبر هو الموصوف بالبر، وهو كثرة الخير والإحسان، فالبر وصفه سبحانه، وآثار هذا الوصف جَميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه سبحانه عام وخاص:

فالعام: هو المذكور فِي مثل قوله تعالَى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فإنه يشترك فيه البر والفاجر، وأهل السماء وأهل الأرض، والمكلفون وغيرهم، لا ينفك عنه موجود من الموجودات.

وأما الخاص: فهو رحمته الَّتِي كتبها للمتقين يرحمهم بِهَا فِي الدنيا بالتوفيق للْهداية والإيمان والأعمال الصالحة وصلاح أحوالهم كلها، ويرحمهم بِهَا فِي الآخرة، فينجيهم من عذاب السموم، ويورثهم جنات النعيم، قال تعالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأما الوهاب: فقد ورد كثيرًا في القرآن، كقوله تعالَى في سورة ص: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]. وكقوله في سورة آل عمران على لسان الراسخين فِي العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكقوله في سورة ص على لسان سليمان بن داود ﷺ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

والوهاب: مبالغة من واهب، وهو الكثير الهبات والعطايا الَّتِي يتقلب فيها أهل سمواته وأرضه، والَّتِي لا تنفك عنهم طرفة عين منذ أن خلق السموات والأرض كما قال ﷺ: «**إن يَمين اللَّه ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ألَم تروا إلَى ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لَمْ يغض مما بيده**».

* * *

وَكَذَلِكَ الْفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالْفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالْفَتْحُ بِالأَقْدَارِ فَتْحٌ ثَانِ

وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

قال صاحب النهاية: «فِي أسْماء اللَّه تعالَى «الفتاح»: هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحْمة لعباده، وقيل: معناه الحاكم بينهم. يقال: فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما، والفاتح: الحاكم، والفتاح من أبنية المبالغة».

فالفتاح: هو الحكم المحسن الجواد.

وفتحه تعالَى نوعان:

١ - أحدهما: فتحه بحكمه الديني، وحكمه الجزائي.

٢- والثاني: فتحه بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني: هو هدايته لعباده، وشرعه لَهم على ألسنة رسله جَميع ما يحتاجون إليه، ويستقيمون به على صراطه المستقيم.

وأما فتحه الجزائي: فهو فتحه لأنبيائه وأتباعهم بإكرامهم ونجاتِهم، وإهانة أعدائهم وعقوباتِهم، وكذلك فتحه بين الخلائق يوم القيامة حين يوفى كل إنسان جزاء عمله من خير أو شر.

وأما فتحه القدري: فهو ما يقدره على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. فالرب تعالَى هو الفتاح العليم الذي ينفتح بعنايته كل منغلق، وبِهدايته يكشف كل مشكل، ومفاتيح الغيب والرزق كلها بيده، وهو الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

* * *

وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالرِّزْقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ

رِزْقٌ عَلَى يدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ... نَوْعَانِ أَيضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ

رِزْقُ الْقُلُوبِ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ وَالرْ ... رِزْقُ الْمُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ

هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ وَرَبُّنَا ... رَزَّاقُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

وَالثَّانِ سَوْقُ الْقُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي ... تِلْكَ الْمَجَارِي سَوْقَهُ بِوزَانِ

هَذَا يكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يكُو ... نُ مِنَ الْحَرَامِ كِلَاهُمَا رِزْقَانِ

وَاللَّهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الإِعْتِبَا ... رِ وَلَيْسَ بِالإِطْلَاقِ دُونَ بَيَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «الرزاق»، وهو مبالغة من رازق للدلالة على الكثرة، مأخوذ من الرَّزق -بفتح الراء-: الذي هو المصدر. وأما الرِّزق -بكسرها-: فهو اسم لنفس الشيء الذي يرزق اللَّه به العبد.

فمعنى «الرزاق»: الكثير الرزق لعباده، الذي لا ينقطع عنهم أمداده وفواضله طرفة

عين، والرزق كالخلق، صفة من صفات الفعل، وهو شأن من شئون ربوبيته ﷻ، لا يصح أن ينسب إلَى غيره، فلا يسمى غيره رازقًا، كما لا يسمى خالقًا، قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. فالأرزاق كلها بيد اللَّه وحده، فهو خالق الأرزاق، والمرتزقة وموصلها إليهم، وخالق أسباب التمتع بِها، فالواجب نسبتها إليه وحده، وشكره عليها؛ فهو موليها وواهبها.

ورزقه تعالَى لعباده نوعان: عام، وخاص.

فالعام: إيصاله لجميع خلقه كل ما يحتاجون إليه فِي معاشهم وقيامهم، فيسهل لَهم سبيل الأرزاق، ويدبرها فِي أجسامهم، ويسوق إلَى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، فهذا عام للبر والفاجر، والمسلم والكافر، بل للإنس والجن، والحيوانات كلها.

وهذا الرزق قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام، ولكنه يسمى رزقًا بِهذا الاعتبار الذي هو سوقه للأعضاء، وهدايتها لامتصاصه والانتفاع به، فيصح أن يقال: رزقه اللَّه. بِهذا الاعتبار، سواء ارتزق من حلال أم من حرام، وهذا يقال له: مطلق الرزق.

وأما النوع الثاني: فهو الرزق المطلق أو الرزق الخاص: وهو النافع المستمر نفعه فِي الدنيا والآخرة، وهو الذي يحصل على يد الرسول ﷺ وهو نوعان:

أحدهما: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلَى أن تكون عالمة بالحق، مريدة له، متألهة للَّه، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها.

٢- والثاني: رزق الأبدان بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين.

فينبغي للعبد إذا دعا ربَّه فِي حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين. فإذا قال مثلًا: «اللَّهم ارزقني». أراد ما يصلح به قلبه من العلم والهدى، والمعرفة والإيمان، وما يصلح به بدنه من الرزق الحلال الهنيء، الذي لا صعوبة فيه، ولا تبعة تعتريه.

* * *

فصل

هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِـهِ الْـقَـيُّـومُ وَالْـ ... قَـيُّـومُ فِـي أَوْصَـافِـهِ أَمْـرَانِ
إِحْـدَاهُـمَـا الْـقَـيُّـومُ قَـامَ بِـنَـفْـسِـهِ ... وَالْـكَـوْنُ قَـامَ بِـهِ هُـمَـا الأَمْـرَانِ
فَـالأَوَّلُ اسْـتِـغْـنَـاؤُهُ عَـنْ غَـيْـرِهِ ... وَالْـفَـقْـرُ مِـنْ كُـلٍّ إِلَـيْـهِ الـثَّـانِـي
وَالْـوَصْـفُ بِـالْـقَـيُّـومِ ذُو شَـأْنٍ كَـذَا ... مَـوْصُـوفُـهُ أَيْـضًـا عَـظِـيـمُ الـشَّـانِ
وَالْـحَـيُّ يَـتْـلُـوهُ فَـأَوْصَـافُ الْـكَـمَـا ... لِ هُـمَـا لأُفْـقِ سَـمَـائِـهَـا قُـطْـبَـانِ
فَـالْـحَـيُّ وَالْـقَـيُّـومُ لَـنْ تَـتَـخَـلَّـفَ الْـ ... أَوْصَـافُ أَصْـلًا عَـنْـهُـمَـا بِـبَـيَـانِ

الشرح: ومن أسمائه الحسنى سبحانه «القيوم» وهو مبالغة من قائم، وله معنيان:

١- أحدهُما: أنه القائم بنفسه، المستغني عن جَميع خلقه، فلا يفتقر إلَى شيء أصلًا، لا فِي وجوده، ولا فِي بقائه، ولا فيما اتصف به من كمال، ولا فيما يصدر عنه من أفعال، فإن غناه -كما قدمنا- ذاتي له، فلا يطرأ عليه فقر أو حاجة.

والثاني: أنه الكثير القيام بتدبير خلقه، فكل شيء فِي هذا الوجود مفتقر إليه فقرًا ذاتيًّا أصيلًا، لا يمكن أن يستغني عنه فِي لحظة من اللحظات، فهو مفتقر إليه فِي وجوده أولًا، وفِي بقائه بعد الوجود، فهو الذي يمده بأسباب البقاء، فلا يقوم شيء فِي الوجود كله إلا به، فهو دائم التدبير والرعاية لشئون خلقه، لا يمكن أن يغفل عنهم لحظة، وإلا اختل نظام الكون، وتحطمت أركانه، قال تعالَى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

فهذا الوصف من أوصافه سبحانه ذو شأن عظيم كشأن موصوفه؛ إذ هو متضمن بمعناه الأول لكمال غناه وعظمته، ومتضمن بمعناه الثاني لجميع صفات الكمال فِي الفعل؛ إذ لا تمام لَهَا إلا بقيوميته.

ومن أسمائه الحسنى كذلك «الحي»، وقد ورد مقترنًا باسمه «القيوم» فِي ثلاثة مواضع من القرآن:

١- فِي آية الكرسي من سورة البقرة، قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾

[البقرة: ٢٥٥].

٢- فِي أول سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

٣- فِي سورة طه، قال تعالَى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

ومعنى الحي: الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية، الَّتِي لا يلحقها موت ولا فناء؛ لأنَّها ذاتية له سبحانه، وكما أن قيوميته مستلزمة لسائر صفات الكمال الفعلية؛ فكذلك حياته مستلزمة لسائر صفات الكمال الذاتية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والعظمة ونحوها، فالحي والقيوم متضمنان لصفات الكمال كلها، وهما القطبان لأفق سمائها، فلا تتخلف عنهما صفة منها أصلًا، ولِهذا ورد أنَّهما اسم اللَّه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

وإنَّما كان هذان الاسمان العظيمان متضمنين لسائر صفات الكمال؛ لأن الحياة تعتبر شرطًا للاتصاف بجميع الكمالات فِي الذات من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام... إلخ، فإن غير الحي لا يتصف بِهذه الصفات، فمن كملت حياته؛ كان أكمل فِي كل صفة تكون الحياة شرطًا لَهَا، وأما القيوم فلما كان أحد معانيه أنه الكثير القيام بشئون خلقه، بحيث لا يغفل عنهم لحظة؛ كان ذلك مستلزمًا لكمال أفعاله ودوامها.

* * *

هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ ... هُوَ رَافِعٌ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ
وَهُوَ الْمُعِزُّ لأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا ... عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلَا بُطْلَانِ
وَهُوَ الْمُذِلُّ لِمَنْ يشَاءُ بِذِلَّةِ الدْ ... دَارَيْنِ ذُلَّ شَقَا وَذُلَّ هَوَانِ
هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ فَهَذَا فَضْلُهُ ... وَالْمَنْعُ عَيْنُ الْعَدْلِ لِلْمَنَّانِ
يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَا ... ءُ بِحِكْمَةٍ وَاللَّهُ ذُو سُلْطَانِ

الشرح: هذه الأسْماء الكريمة من الأسْماء المتقابلات الَّتِي لا يجوز أن يفرد أحدها عن قرينه، ولا أن يثنى على اللَّه ﷻ بواحد منها إلا مقرونًا بمقابله، فلا يجوز أن يفرد القابض عن الباسط، ولا الخافض عن الرافع، ولا المذل عن المعز، ولا المانع عن المعطي... إلخ؛ لأن الكمال المطلق إنَّما يحصل بمجموع الوصفين.

فهو سبحانه القابض الباسط: يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح فِي الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرزق لمن يشاء حَتَّى لا تبقى فاقة، ويقبضه عمن يشاء حَتَّى لا تبقى طاقة، ويقبض القلوب، فيضيقها حَتَّى تصير حرجًا، كأنَّما تصعد فِي السماء، ويبسطها بِما يفيض عليها من معاني بره ولطفه وجماله، قال تعالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو سبحانه الخافض الرافع: يخفض الكفار بالإشقاء والإبعاد، ويرفع أولياءه بالتقرب والإسعاد، ويداول الأيام بين عباده، فيخفض أقوامًا، يخمل شأنَهم، ويُذْهِبُ عزهم، ويرفع آخرين، فيورثهم ملكهم وديارهم.

وهو سبحانه المعز المذل: يعز أهل طاعته بالعز الحقيقي الذي لا يبطله شيء، فإن المطيع للَّه عزيز وإن تحالفت عليه كل أسباب الذل والشقاء، ويذل أهل معصيته ذل شقاء وحرمان، وذل خزي وخِذلان، فإن العاصي للَّه وإن ظهر بمظهر العز؛ فحشو قلبه الذل، وإن لَمْ يشعر به؛ لانغماسه فيما هو فيه من الشهوات.

فالعز كل العز فِي طاعة اللَّه، والذل كل الذل فِي معصيته.

وهو سبحانه المانع المعطي: فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة فِي خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على اللَّه، كما له الفضل المحض على من رفعه، وأعطاه، وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة اللَّه، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بِهذه الأمور، وكلها جارية تحت أقداره؛ فإن اللَّه جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسبابًا، ولضد ذلك أسبابًا، من قام بِها ترتبت عليها مسبباتُها، وكلٌّ ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة.

وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد اللَّه، والاعتماد على ربه فِي حصول ما يحب ويجتهد فِي فعل الأسباب النافعة، فإنَّها محل حكمة اللَّه». اهـ.

فصل

وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي الْبُرْهَانِ
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلَامًا قَدْ حَكَا هُ الدَّارِمِي عَنْهُ بِلَا نُكْرَانِ
مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلَا نَهَا رٌ قُلْتُ تَحْتَ الْفَلْكِ يُوجَدُ ذَانِ
نُورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا مِنْ نُورِهِ وَالأَرْضُ كَيْفَ النَّجْمُ وَالْقَمَرَانِ
مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَكَذَا حَكَاهُ الْحَافِظُ الطَّبَرَانِي
فِيهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ مَعْ سَبْعِ الطِّبَاقِ وَسَائِرِ الأَكْوَانِ
وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرْعُهُ نُورٌ كَذَا الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ
وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ الْقُرْآنِ
وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كُشِفَ الْحِجَا بُ لَأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ لِلأَكْوَانِ
وَإِذَا أَتَى لِلْفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُه فِي الأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعُلَا نُورٌ تَلَأْلَأُ لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «النور» وهو أيضًا صفة من صفاته، فيقال: اللَّه نور. فيكون اسمًا مخبرًا به في تأويله بالمشتق، ويقال: ذو نور. فيكون صفة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]. وقال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ كان يستيقظ من الليل يقول: «**اللَّهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن**».

وقد روى الدارمي والطبراني عن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نَهار، نور العرش من نور وجهه». وذلك لأن الليل والنهار سببهما طلوع الشمس وغروبها، وهذا إنَّما يوجد تحت الفلك لا فوقه.

فهو سبحانه الذي استنارت به جَميع الكائنات من العرش والكرسي والسموات السبع وغيرها، وكتابه سبحانه -وهو القرآن- نور؛ لأنه يهدي القلوب من العمى، ويبصرها طريق الرشد، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال سبحانه من سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكذلك: شَرْعه الذي شرعه لعباده نور، ورسوله مُحمَّد ﷺ الذي بعثه بالقرآن نور، قال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وكذلك: الإيمان فِي قلب المؤمن مع القرآن نور على نور، كما فِي قوله تعالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]. فهو مثل ضربه اللَّه لنوره فِي قلب عبده المؤمن، وهذا النور هو الذي يسعى بين يدي العبد وعن يمينه يوم القيامة، كما قال تعالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وحجابه سبحانه النور، كما ورد فِي حديث أبِي موسى الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قام فينا رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات، قال: **إن اللَّه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو قال: النار- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

والمراد بالسبحات: جمع سبحة وهو لألاء الوجه وإشراقه، وهو سبحانه حين يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده؛ تشرق الأرض بنوره، كما قال تعالَى من سورة الزمر: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩].

وكذلك داره سبحانه الَّتِي أعدها للطيبين من عباده، وهي الجنات العلا -نور تزهر، كما ورد فِي الحديث.

* * *

وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَصْـ ... ـفٌ مَا هُمَا وَاللَّـهِ مُتَّحِدَانِ

وَكَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْـ ... ـسُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ

احْذَرْ تَزِلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ ... كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الْأَزْمَانِ

مِنْ عَابِدٍ بِالْجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي

لَاحَـتْ لَـهُ أَنْـوَارُ آثَـارِ الْـعِـبَـا ... دَةِ ظَـنَّـهَـا الْأَنْـوَارَ لِـلـرَّحْـمَـنِ
فَـأَتَـى بِـكُـلِّ مُـصِـيـبَـةٍ وَبَـلِـيَّـةٍ ... مَا شِـئْـتَ مِـنْ شَـطْـحٍ وَمِـنْ هَـذَيَـانِ
وَكَـذَا الْـحُـلُـولِـيُّ الَّـذِي هُـوَ خِـدْنُـهُ ... مِـنْ هَـاهُـنَـا حَـقًّـا هُـمَـا أَخَـوَانِ
وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالْـ ... حُـجُـبُ الْـكَـثِـيـفَـةُ مَا هُـمَا سِيَّانِ
ذَا فِـي كَـثَـافَـةِ طَـبْـعِـهِ وَظَـلَامِـهِ ... وَبِـظُـلْـمَـةِ الـتَّـعْـطِـيـلِ هَـذَا الـثَّـانِـي
وَالـنُّـورُ مَـحْـجُـوبٌ فَـلَا هَـذَا وَلَا ... هَـذَا لَـهُ مِـنْ ظُـلْـمَـةٍ يَـرَيَـانِ

الشرح: قال العلامة الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنور نوعان:

حسي: كهذه العوالم الَّتِي لَمْ يحصل لَهَا نور إلا من نوره.

ونور معنوي: يحصل فِي القلوب والأرواح بِما جاء به مُحمَّد ﷺ من كتاب اللَّه وسنة نبيه، فعلم الكتاب والسنة والعمل بِهما ينير القلوب والأسماع والأبصار، ويكون نورًا للعبد فِي الدنيا والآخرة: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. لما ذكر أنه نور السموات والأرض، وسمى اللَّه كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ووحيه نورًا، ثُمَّ إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لَمْ يفرقوا بين نور الصفات، وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنَّهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل، ولاحت أنوار التعبد فِي قلوبِهم؛ لأن العبادات لَهَا أنوار فِي القلوب، فظنوا أن هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال، وأما أهل العلم والإيمان والفرقان، فإنَّهم يفرقون بين نور الذات والصفات، وبين النور المخلوق، الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها، ولا يحل بمخلوق، تعالَى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بِها، والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار اللَّه قلبه؛ فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادحة فِي العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الظلمة والغفلة، وكان قلبه نورًا، وكلامه نورًا، وعمله نورًا، والنور محيط به من جهاته، والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل، كل هؤلاء يتخبطون فِي الظلمات، كلٌّ له من الظلمة بحسب ما معه من موادِّها وأسبابِها، واللَّه الموفق وحده». اهـ.

ويظهر من هذا النص أن الشيخ السعدي قد تابع المؤلف فِي القول بأن أهل الاغترار والجهل حين تلوح فِي قلوبِهم أنوار آثار العبادة، تحملهم على الشطح والهذيان بكلمات تفهم الوحدة كقول أبِي يزيد البسطامي -قبحه اللَّه-: «سبحاني ما أعظم شاني». وقوله: «انسلخت عن نفسي، كما تنسلخ الحية من جلدها، ثُمَّ نظرت فإذا أنا هو».

أو تفهم معنى الحلول كقول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

وهذه غفلة من الشيخين -غفر اللَّه لهما- وإسراف فِي حسن الظن بِهؤلاء الصوفية -قبحهم اللَّه- فإنَّهم لَمْ يعبدوا اللَّه عبادة صحيحة حَتَّى تظهر عليهم أنوارها، فإن شرط العبادة الصحيحة معرفة المعبود المعرفة الحقة بأسمائه وصفاته، وهؤلاء الصوفية إنَّما عرفوه على الصورة الَّتِي رسمتها لَهم شياطينهم، وهو أنه ملك خليع يحب الرقص، ويولع بالغناء، وعاشق ولهان يبيح لمحبيه السكر والفجور ومضاجعة الغلمان، فلم يزدادوا بعبادته إلا خبالًا، ولو كانوا قد عرفوه حق معرفته؛ لهدتْهم هذه المعرفة إلَى سبيل الرشاد، ولما وقعوا عند ظهور أنواره لَهم فِي بوائق الكفر والإلحاد، فإن من يحصل له نور العبادة الحقة لا يمكن أن يضل به؛ كيف وقد جعله اللَّه فرقانًا فِي قلب العبد، يبصره بمواطن الرشد، ويجنبه مواضع الزلل، قال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال: ٢٩]. أي: نورًا تفرقون به بين الحق والباطل، فكيف يكون هذا النور الهادي هو سبب الضلال؟!

والعجب: من رجل لقب بحجة الإسلام يقال له: الغزالي. كفَّر الفلاسفة لقولهم بقدم العالم، وإنكارهم علم اللَّه بالجزئيات وحشر الأجساد، وهو مع ذلك يعتذر عن أسلافه فِي التصوف فيما نطقوا به من الكفر البواح، ويحاول جاهدًا أن يجعل لكلامهم مساغًا من التأويل، كأنما كلامهم وحي وتنْزيل، ولكن الأمر كما قيل: «حبُّك الشيء يُعمي ويصم». ومن يضلل اللَّه فما له من سبيل.

* * *

فصل

وَهُوَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصـ ... ـصِفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ
وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيضًا إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لَا بِالْغَيرِ قَائِمَتَانِ
وَلِذَلِكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنْـ ... ـنَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ
إِنْ لَمْ يُرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَا بِالْفِعْلِ ذِي الإِمْكَانِ
وَالْفِعْلُ وَالْمَفْعُولُ شَيءٌ وَاحِدٌ ... عِنْدَ الْمُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيئَانِ
فَلِذَاكَ وَصْفُ الْفِعْلِ لَيسَ لَدَيهِ إِلْـ ... ـلَا نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ بِبَيَانِ
فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الْفِعَالِ لَدَيهِ لَيْـ ... ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِ
مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا ... نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الْوِجْدَانِ
هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتْـ ... ـتَعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالْمِيزَانِ

الشرح: ومن أسمائه سبحانه «المقدم والمؤخر»، وهُما من الأسْماء المتقابلة، الَّتِي لا يجوز إفراد أحدها عن مقابله، كما قدمنا ذلك فِي المعز والمذل، والخافض والرافع، والقابض والباسط، والمانع والمعطي ونحوها، فهو سبحانه المقدم لبعض الأشياء على بعض، إما تقديمًا كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات فِي الوجود على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبباتِها، والشروط على مشروطاتِها، وإما تقديمًا شرعيًّا معنويًّا، كتفضيل الأنبياء ﷺ على سائر البشر، وتفضيل بعض النبيين على بعض، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض، وهو سبحانه المؤخر لبعض الأشياء عن بعض، إما بالزمان، أو بالشرع كذلك.

والتقديم والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئته تعالَى وحكمته، وهما أيضًا صفتان للذات؛ إذ قيامهما بالذات لا بغيرها، وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات، حيث إن الذات متصفة بِها، ومن حيث تعلقها بِما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى صفات أفعال.

ولِهذا غلط علماء الكلام من الأشاعرة حين ظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات:

أحدهُما: قائم بالذات لازم لَهَا، كصفات المعاني السبعة الَّتِي هي: العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

والثاني: صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات، بل هي نسب إضافية عدمية، تنشأ من إضافة المفعول لفاعله، ولا يعقل لَهَا وجود إلا بتلك الإضافة، فوجودها أمر سلبي، وليس لَهَا وجود فِي نفسها.

فليس ثمة عندهم موجود إلا المفعولات، وأما الأفعال فنسب وإضافات.

وهذا قول باطل مخالف -كما قدمنا- لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، بل والعقل أيضًا الذي يقضي بأن تكون صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ويكون متصفًا بِها من قالها أو عملها؛ إذ لا يتصور فِي العقل مفعول من غير فعل، ولا مخلوق من غير خالق، كما لا يتصور أحد اسمًا مشتقًا، ولا يكون دالًا على صفة فِي المحل المسمى به.

والذي أوقعهم فِي هذا الغلط الشنيع: أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة، لتعلقها بالمفعولات الحادثة، فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالَى؛ لأن قيام الحوادث به مستلزم لحدوثه، فارتكبوا بِهذه الأكذوبة أعظم جناية على الدين، حيث نفوا كل الصفات الفعلية الَّتِي جاء بِها الكتاب والسنة من الاستواء على العرش، والنُّزول إلَى السماء الدنيا، وتكليمه لبعض عباده فِي بعض الأزمنة، وحبه ورضاه وغضبه ومقته . . . إلخ، كما نفوا أفعاله الَّتِي يوجدها شيئًا بعد شيء تبعًا لحكمته، وأقواله الَّتِي يتكلم بِها شيئًا بعد شيء كذلك، ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله لهو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلًا، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلًا بإقرار هؤلاء أنفسهم؛ فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلًا كذلك.

* * *

فَالْحَقُّ أَنَّ الْوَصْفَ لَيسَ بَمَوْرِدِ التْـ ... تَقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ... ذَاتِ الَّتِي لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

فَهُمَا إِذَنْ نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ... عَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ

فَالْوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يسْتَدْعِي قِيَا ... مَ الْفِعْلِ بِالْمَوْصُوفِ بِالْبُرْهَانِ

كَالْوَصْفِ بِالْمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا ... إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء النافين لصفات الأفعال ممن اعتبروها نسبًا وإضافات لا

تقوم بالذات، جعلوا مورد التقسيم هو الوصف، فقالوا: إن الوصف إما وصف معنًى قائم بالذات، وإما وصف فعل لا يقوم بِها. وذلك ليتأتَّى لَهم على هذا التقسيم اعتبار بعض الصفات قائمًا بالذات، وبعضها غير قائم بِها.

ولكن الحق: أن مورد القسمة هو نفس ما يقوم بالذات، فيقال: إن ما يقوم بالذات، ويكون وصفًا لَهَا؛ إما أن يكون صفة معنًى لازمًا للذات، وإما أن يكون صفة فعل، والوصف بالفعل يستدعي قيام الفعل بالموصوف، كالوصف بالمعنى سواء بسواء، فإذا كان وصفه سبحانه بأنه عليم قد يرجى... إلخ يقتضي قيام العلم والقدرة والحياة به، فكذلك وصفه بأنه خالق أو رازق أو مقدم أو مؤخر يقتضي قيام هذه الأفعال من الخلق والرزق والتقديم والتأخير ونحوها به، وهذا ما لا ينبغي أن يشك فيه عاقل، فإن إطلاق المشتق على شيء، يؤذن بثبوت مأخذ الاشتقاق له.

* * *

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى ... مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِ
قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ
وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الْعَقْلِ قَا ... لُوا لَمْ تَقُمْ بِالْوَاحِدِ الدَّيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَيهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي ... رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوِزَانِ
إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ ... لُ خُصُومِكُمْ أَيضًا فَذُو إِمْكَانِ
وَالْوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ ... نِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ
وَكِلاَهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنِسْـ ... بِيٌّ وَلَا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ
وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ... كَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرح: يعجب المؤلف من هؤلاء الأشاعرة فِي تناقضهم واضطرابِهم، حيث يفرقون بين المتماثلين، ويسوون بين المختلفين، فهم ينكرون على المعتزلة فِي إثباتِهم الأسْماء دون الصفات، ويقولون: إن ثبوت الاسم لمن لَمْ يقم به معناه محال عند العقل. ثُمَّ هم يعمدون إلَى صفات الأفعال فينفونَها عن اللّه ﷻ، رغم أنَّهم يثبتون له الأسْماء المأخوذة من هذه الأفعال، وبذلك أبطلوا الأصل الذي ردوا به على المعتزلة بعينه، وصحَّ لخصومهم أن يقولوا لَهم: إن كان ممكنًا عندكم أن يسمى اللّه خالقًا ولا يكون الخلق وصفًا له، فَلِمَ أنكرتم علينا أن نسميه عالِمًا بلا علم، وقادرًا بلا قدرة... إلخ، مع أنه لا فرق

أصلًا بين ما أثبتموه وبين ما نفيتموه، فإما أن تثبتوا فِي الكل كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وإما أن تنفوا فِي الكل كما هو مذهبنا، أما أن تثبتوا فِي البعض، وتنفوا فِي البعض؛ فهذا تناقض لا يليق بالعقلاء.

فصل

هَـذَا وَمِـنْ أَسْمَائِـهِ مَا لَيسَ يُفْـ ... ـرَدُ بَـلْ يُـقَـالُ إِذَا أَتَـى بِـقِـرَانِ

وَهْـيَ الَّـتِي تُـدْعَـى بِـمُـزْدَوَجَاتِـهَا ... إِفْـرَادُهَـا خَـطَـرٌ عَـلَـى الإِنْـسَـانِ

إِذْ ذَاكَ مُوهِـمُ نَوْعِ نَقْـصٍ جَلَّ رَبْـ ... ـبُ الْعَرْشِ عَنْ عَيبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

كَالْمَانِعِ الْمُعْطِي وَكَالضَّارِّ الَّذِي ... هُـوَ نَـافِـعٌ وَكَـمَـالُـهُ الأَمْـرَانِ

وَنَظِيرُ هَذَا الْقَابِضُ الْمَقْرُونُ بِاسْـ ... ـمِ الْبَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ

وَكَذَا الْمُعِزُّ مَعَ الْمُذِلِّ وَخَافِضٌ ... مَـعْ رَافِـعٍ لَـفْـظَـانِ مُـزْدَوَجَـانِ

وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْمِ مُنْتَقِمٍ فَمَوْ ... قُـوفٌ كَـمَـا قَـدْ قَـالَ ذُو الْعِرْفَانِ

مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ ... بِـالْمُجْرِمِـيـنَ وَجَـا بِـذُو نَـوْعَـانِ

الشرح: سبق أن قلنا: إن هذه الأسماء المزدوجة المتقابلة لا يجوز أن يفرد أحدها عن قرينه، فإنَّها إذا أفردت أوهمت نقصًا فِي حقه -تعالَى عن كل عيب ونقص- بل الكمال فِي ذكرهما جميعًا، فيقال: يا معطي يا مانع، يا ضار يا نافع، يا مقدم يا مؤخر، يا معز يا مذل، يا خافض يا رافع... إلخ.

وأما إفراد اسمه «المنتقم» عن قرينه وهو «العفو» فلم يرد إلا فِي حديث موقوف، ولَمْ يستعمل فِي القرآن إلا على نوعين:

إما أن يكون مقيدًا بالمجرمين، كقوله تعالَى من سورة الروم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ [الروم: ٤٧]. وكقوله فِي سورة الم تنْزيل السجدة: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وإما أن يكون مضافًا إلَى ذو، كقوله من سورة آل عمران: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]. وكقوله فِي سورة المائدة: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]. إلخ.

فصل

وَدِلَالَــةُ الأَسْــمَــاءِ أَنْــوَاعٌ ثَــلَا ثٌ كُــلُّــهَــا مَــعْــلُــومَــةٌ بِــبَــيَــانِ

دَلَّــتْ مُــطَــابَــقَــةً كَــذَاكَ تَــضَــمُّــنًــا وَكَــذَا الْــتِــزَامًــا وَاضِــحَ الْــبُــرْهَــانِ

أَمَّــا مُــطَــابَــقَــةُ الــدِّلَالَــةِ فَــهْــيَ أَنْــ نَ الإِسْــمَ يُــفْــهَــمُ مِــنْــهُ مَــفْــهُــومَــانِ

ذَاتُ الإِلَــهِ وَذَلِــكَ الْــوَصْــفُ الَّــذِي يُــشْــتَــقُّ مِــنْــهُ الإِسْــمُ بِــالْــمِــيــزَانِ

لَــكِــنْ دِلَالَــتُــهُ عَــلَــى إِحْــدَاهُــمَــا بِــتَــضَــمُّــنٍ فَــافْــهَــمْــهُ فَــهْــمَ بَــيَــانِ

وَكَــذَا دِلَالَــتُــهُ عَــلَــى الــصِّــفَــةِ الَّــتِــي مَــا اشْــتُــقَّ مِــنْــهَــا فَــالْــتِــزَامٌ دَانِ

وَإِذَا أَرَدْتَ لِــذَا مِــثَــالًا بَــيِّــنًــا فَــمِــثَــالُ ذَلِــكَ لَــفْــظَــةُ الــرَّحْــمَــنِ

ذَاتُ الإِلَــهِ وَرَحْــمَــةٌ مَــدْلُــولُــهَــا فَــهُــمَــا لِــهَــذَا الــلَّــفْــظِ مَــدْلُــولَانِ

إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا الْمَوْضُوعِ فَهْـ ـيَ تَــضَــمُّــنٌ ذَا وَاضِــحُ الــتِّــبْــيَــانِ

لَكِنَّ وَصْفَ الْحَيِّ لَازِمُ ذَلِكَ الْـ ـمَــعْــنَــى لُــزُومَ الْــعِــلْــمِ لِــلــرَّحْــمَــنِ

فَــلِــذَا دِلَالَــتُــهُ عَــلَــيْــهِ بِــالْــتِــزَا مٍ بَــيِّــنٍ وَالْــحَــقُّ ذُو تِــبْــيَــانِ

الشرح: يقسم المناطقة دلالة اللفظ الموضوع لمعنى إِلَى ثلاثة أقسام: مطابقة، وتضمن، والتزام.

وذلك لأنه إن قصد باللفظ الدلالة على تمام المعنَى فمطابقة لتطابق اللفظ والمعنَى -أي: توافقهما-.

وإن قصد به الدلالة على جزء ذلك المعنى فتضمن؛ لأن ذلك الجزء داخل فِي ضمن المعنَى الموضوع له.

وإن قصد به الدلالة على لازم ذلك المعنَى فالتزام.

وهذا التقسيم جار فِي دلالة الأسْماء الحسنى على معانيها، فكلٌّ منها يدل بالمطابقة على مجموع الذات والصفة الَّتِي اشتق منها، فعليم دال بالمطابقة على ذات ثبت لَهَا العلم، وحي دال بالمطابقة على ذات وحياة وهكذا.

وأما دلالته على الذات وحدها أو على الصفة وحدها فتضمن؛ لأن كلًّا منهما جزء لمعنى الاسم داخل فِي ضمنه.

وأما دلالته على صفة للذات غير الصفة الَّتِي اشتق هو منها ؛ فدلالة التزام دان، أي : قريب من متناول العقل.

وضرب المؤلف لذلك مثلًا بلفظة «الرحْمن»، فإنَّها تدل مطابقة على الذات والرحْمة، وتدل على أحدهما بالتضمن، وتدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام؛ لأنه لا توجد رحمة بدون حياة الراحم وعلمه وقدرته . . . إلخ.

هذا وكثير من أسمائه الحسنى سبحانه يستلزم عدة أوصاف، فالملك مثلًا مستلزم لجميع صفات الملك، والرب مستلزم لصفات الربوبية، واللَّه لصفات الألوهية، وهي صفات الكمال كلها.

ومنها كذلك الكبير، والعظيم، والمجيد، والحميد، والواسع، والصمد، وغيرها، فتحت كل منها الكثير من صفات الكمال.

فصل في بيَان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر انقسام الملحدين

أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِ

إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ ... كُفْرٌ مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ

وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا الْمَيْلُ بِالْـ ... إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

فَالْمُلْحِدُونَ إِذَنْ ثَلَاثُ طَوَائِفٍ ... فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

الْمُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سَمَّوْا بِهَا ... أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِ

هُمْ شَبَّهُوا الْمَخْلُوقَ بِالْخَلَّاقِ عَكْـ ... سَ مُشَبِّهِ الْخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

الشرح: يعني: أن أسماءه سبحانه كلها حسنى، دالة على أوصاف الكمال الَّتِي يمدح بها، ويثنى عليه بِها، وليست أعلامًا جامدة خالية من المعاني، كما يزعم ذلك ابن حزم، فإنَّها لو كانت كذلك؛ لَمْ تكن حسنى، بل هي أعلام وأوصاف معًا، وإذا كان الاسم محتملًا للمدح وغيره، كالمريد والصانع والفاعل ونحوها؛ لَمْ يدخل بمطلقه فِي أسْماء اللَّه ﷻ، بل لا بد أن يقيد بِما يجعله متمحضًا للمدح والثناء؛ إذ صفاته سبحانه كلها صفات

كمال محض، فهو موصوف بأكمل الصفات، وله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب فِي أسمائه الحسنى وصفاته العليا: أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال اللَّه وعظمته، فلا ينفى منها اسم، ولا ينفي من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، فإن ذلك كله إلحاد فِي أسمائه سبحانه، وهو كفر نعوذ باللَّه منه، قال تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والملحدون فِي أسمائه سبحانه ثلاث طوائف -عليهم غضب اللَّه ومقته-:

الأولى: من يجعل للَّه شريكًا فِي أسمائه، فيسمي بِها بعض المخلوقات، وذلك كتسمية المشركين آلهتهم: اللات: من الإله. والعزى: من العزيز. ومناة: من المنان.

والثانية: من يمثل صفاته سبحانه بصفات المخلوقين، فيعتقد أن علمه كعلمهم، وقدرته كقدرتِهم، وحياته كحياتِهم... إلخ.

والثالثة: من ينفي معاني أسمائه الحسنى، أو ينفي الأسْماء والمعاني جميعًا، كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل جاحد لصفات اللَّه كلها أو بعضها.

* * *

وَكَـذَاكَ أَهْـلُ الِاتِّـحَـادِ فَـإِنَّـهُـمْ ... إِخْـوَانُـهُـمْ مِـنْ أَقْـرَبِ الإِخْـوَانِ

أَعْطُوا الْوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

وَالْمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكًا مِنْهُمُ ... هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْمَ بِالأَوْثَانِ

وَلِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ ... لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

الشرح: ومن أعظم الملحدين فِي أسمائه سبحانه: أصحاب مذهب الاتحاد القائلين بوحدة الوجود، كابن عربي وابن سبعين وأضرابِهما، وهم إخوان لأهل الشرك يشبهونَهم فِي تسمية المخلوق باسم الخالق، إلا أن الفرق أن هؤلاء الاتحادية يعطون أسماءه سبحانه لكل شيء فِي الوجود؛ إذ كان وجود الأشياء عندهم هو عين وجوده ما ثمة فرق إلا بالإطلاق والتقييد؛ ولِهذا كانوا أعظم شركًا من المشركين؛ لأن المشركين خصصوا أسماءه سبحانه بآلهتهم، ولَمْ يجعلوها أسْماء لكل شيء كما فعل هؤلاء الملاحدة، وهم يعيبون المشركين على هذا التخصيص، ويرونه سبب إشراكهم، فلو أنَّهم عمموا وعبدوا

كل مظاهر الوجود، وسموها بأسماء الحق سبحانه؛ ما كانوا فِي نظرهم كفارًا ولا مشركين.

* * *

وَالْمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ ... يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلَا بُرْهَانِ
مَا ثَمَّ غَيرُ الإِسْمِ أَوَّلَهُ بِمَا ... يَنْفِي الْحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلَانِ
فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الْحَقِيـ ... ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ
عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا ... وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالْكُفْرَانِ
لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالْـ ... أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيكَ فَقُلْ لَهُمْ ... هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِ
فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى الْمَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ ... لَا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيمَانِ
أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ

الشرح: ومن أهل الإلحاد فِي أسمائه سبحانه: طوائف التعطيل من معتزلة وفلاسفة وأشعرية، فإنَّهم ينفون حقائق الأسماء ودلالتها على معانيها الحقة، الَّتِي تفهم منها بوضع اللغة نفيًا بلا حجة ولا دليل، ويقولون: إن هذه الأسماء لَمْ يقصد منها هذه المعاني المتبادرة عند إطلاقها، فإنَّها فِي نظرهم مستحيلة على اللَّه؛ لإفضائها إلَى التشبيه والتجسيم، فالواجب -فِي زعمهم- هو تأويلها بِما ينفي حقائقها، ويقول بعضهم لبعض متواصين بِهذا النفي والتعطيل: إن مقصودنا الأول هو دفع النصوص عن إفادة الحقيقة، فالواجب الاجتهاد فِي ذلك بكل فنون القول وأساليب البيان، بأن نعطل هذه النصوص، ونحرفها عن مواضعها، ونؤولها بِما يصرفها عن معانيها الحقة إلَى ما يتفق مع مناهجنا فِي التعطيل، أو ننفيها وننكر ورودها إن كانت نصوص آحاد ليست من التنْزيل، ثُمَّ نرمي المثبتين لحقائق هذه الأسماء والصفات بأدلة الكتاب والسنة بالتجسيم والتشبيه.

فإذا هم احتجوا علينا بِهذه الأدلة؛ قلنا: إنه لَمْ يرد منها حقائقها، بل مجاز، واللفظ يفيده بالوضع الثاني، فإذا غلبنا على دعوى المجاز، ولَمْ نستطع إثباتَها، حيث لا قرينة تدل عليه؛ قلنا لَهم: إن هذه النصوص لا تفيد اليقين؛ لأنَّها أدلة لفظية، ولا يستفاد اليقين إلا من البرهان العقلي.

* * *

فَــإِذَا تَـضَــافَــرَتِ الأَدَلَّــةُ كَـثْـرَةً ... وَغُـلِـبْـتَ عَـنْ تَـقْـرِيـرِ ذَا بِـبَـيَـانِ

فَـعَـلَـيْـكَ حِـينَـئِذٍ بِـقَـانُـونٍ وَضَـعْـ ... نَــاهُ لِــدَفْــعِ أَدِلَّـــةِ الْـــقُـــرْآنِ

وَلِـكُـلِّ نَـصٍّ لَـيسَ يَـقْـبَـلُ أَنْ يـؤَوْ ... وَلَ بِـالْـمَـجَـازِ وَلَا بِـمَـعْـنًـى ثَـانِ

قُلْ عَارَضَ الْمَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الْـ ... أَمْــرَانِ عِــنْــدَ الْــعَــقْــلِ يَــتَّــفِـقَـانِ

مَــا ثَــمَّ إِلَّا وَاحِــدٌ مِــنْ أَرْبَــعٍ ... مُــتَــقَــابِــلَاتٍ كُــلُّــهَــا بِــوِزَانِ

إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُهُ أَوْ تُلْغِي الْـ ... مَـعْـقُـولَ مَـا هَـذَا بِـذِي إِمْـكَـانِ

الْعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ ... تُـبْـطِـلْـهُ يـبْـطُـلْ فَـرْعُـهُ التَّـحْـتَـانِـي

فَـتَـعَـيـنَ الإِعْـمَـالُ لِلْـمَـعْـقُـولِ وَالْـ ... إِلْــغَــاءُ لِــلْــمَــنْــقُــولِ بِــالْــبُــرْهَــانِ

إِعْـمَـالُـهُ يُـفْـضِـي إِلَـى إِلْـغَـائِـهِ ... فَـاهْـجُـرْهُ هَـجْـرَ الـتَّـرْكِ وَالـنِّـسْـيَـانِ

الشرح: فإذا تظاهرت أدلة الإثبات، وكانت من الكثرة بحيث تعجز أيها المعطل عن ردها بكل أساليب البيان، وكان منها نصوص لا تقبل التأويل، ولا ينفع معها دعوى المجاز؛ فما عليك إلا أن تلجأ إِلَى هذا القانون الذي وضعناه لك؛ لتدفع به فِي صدر هذه النصوص، وهو أنه إذا تعارض العقل والنقل، واستحال التوفيق بينهما عند العقل، وجب إعمال دليل العقل، وإلغاء دليل النقل؛ لأن الأمر لا يخرج عن واحد من أربعة أمور متقابلة:

فإما أن نعمل الدليلين معًا، فنقع فِي التناقض.

أو نلغيهما معًا، وهذا أيضًا باطل؛ لأنه رفع للنقيضين.

أو نلغي المعقول، وهذا مستحيل؛ لأنه يؤدي إِلَى إبطال الشرع، فإن الشرع لَمْ يثبت إلا بالعقل، فالعقل هو أصله وأبوه، وإلغاء الأصل مستلزم لإلغاء الفرع.

فلم يبق إلا الأمر الرابع، وهو إعمال المعقول، وإلغاء المنقول الذي يفضي إعماله إِلَى إلغائه، فالواجب حينئذ هجره هجر ترك ونسيان، والإيمان به ألفاظًا مجردة بدون معان.

* * *

وَالـلـهِ لَـمْ نَـكْـذِبْ عَـلَـيـهِـمْ إِنَّـنَـا ... وَهُـمُ لَـدَى الـرَّحْـمَـنِ مُـخْـتَـصِـمَـانِ

وَهُنَاكَ يُجْزَى الْمُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الْـ ... إِلْــحَــادَ يُــجْــزَى ثَــمَّ بِــالْــغُــفْــرَانِ

فَـاصْـبِـرْ قَـلِـيـلًا إِنَّـمَـا هِـيَ سَـاعَـةٌ يَـا مُـثْـبِـتَ الأَوْصَـافِ لِـلـرَّحْـمَـنِ
فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ـنِـي الْـغَـيْـرُ وِزْرَ الإِثْـمِ وَالْـعُـدْوَانِ
فَـاللَّهُ سَـائِلُـنَـا وَسَـائِلُـهُـمْ عَـنِ الْـ إِثْـبَـاتِ وَالـتَّـعْـطِـيـلِ بَـعْـدَ زَمَـانِ
فَـأَعِـدَّ حِـيـنَـئِـذٍ جَـوَابًـا كَـافِـيًـا عِـنْـدَ الـسُّـؤَالِ يَـكُـونُ ذَا تِـبْـيَـانِ

الشرح: يقسم المؤلف باللَّه أنه لَمْ يتجنَّ على القوم فيما رواه عنهم من التلاعب بالنصوص بالتحريف والتأويل، والدفع فِي صدورها بأدلة العقل، فإن كتبهم مملوءة من هذه الأباطيل، وهم يذكرونَها بلا خجل ولا حياء، بل إن هذا عندهم هو مسلك المحققين من العلماء.

ويذكر المصنف أن الفريقين من أهل الإثبات والتعطيل سيختصمان يوم القيامة بين يدي الملك الجليل، وهناك يلقى الملحدون المعطلون جزاء هذا الإلحاد والتعطيل، وأما المثبتون للصفات، النافون عنها تشغيب أهل التعطيل والإلحاد، فسيجزيهم ربُّهم بمغفرة لذنوبِهم، فما عليك أيها المثبت للصفات إلا أن تعتصم بالصبر، فإنما هي ساعة تعيشها فِي هذه الدنيا، ثُمَّ ينقضي العمر، حَتَّى إذا لقيت ربك وفاك أجر صبرك مغفرة منه ورضوانًا، على حين يجني غيرك من أهل الزور والبهتان جزاء ما قدموا لأنفسهم من إثم وعدوان.

واعلم أن اللَّه سائلك عن إثباتك، كما هو سائلهم عن تعطيلهم، فأعد لذلك السؤال جوابًا كافيًا، يكون ذا وضوح وتبيان، تنجو به من النيران، وتنال به المغفرة والرضوان.

* * *

هَـذَا وَثَـالِـثُـهُـمْ فَـنَـافِـيـهَـا وَنَـا فِـي مَـا تَـدُلُّ عَـلَـيْـهِ بِـالْـبُـهْـتَـانِ
ذَا جَاحِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يقِرْ رَ بِـخَـالِـقٍ أَبَـدًا وَلَا رَحْـمَـنِ
هَـذَا هُـوَ الإِلْـحَـادُ فَـاحْـذَرْهُ لَـعَـلْـ لَ الـلـهَ أَنْ يُـنْـجِـيـكَ مِـنْ نِـيـرَانِ
وَتَـفُـوزَ بِـالزُّلْـفَـى لَـدَيـهِ وَجَـنَّـةِ الْـ مَـأْوَى مَـعَ الْـغُـفْـرَانِ وَالـرِّضْـوَانِ
لَا تُـوحِـشَـنَّـكَ غُـرْبَـةٌ بَـيْـنَ الْـوَرَى فَـالـنَّـاسُ كَـالأَمْـوَاتِ فِـي الْـحُـسْـبَـانِ
أَوَمَا عَـلِـمْـتَ بِـأَنَّ أَهْـلَ الـسُّـنَّـةِ الْـ غُـرَبَـاءُ حَـقًّـا عِـنْـدَ كُـلِّ زَمَـانِ
قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَالـتَّـابِـعُـونَ لَـهُـمْ عَـلَـى الإِحْـسَـانِ
مِـنْ جَـاهِـلٍ وَمُـعَـانِـدٍ وَمُـنَـافِـقٍ وَمُـحَـارِبٍ بِـالْـبَـغْـيِ وَالـطُّـغْـيَـانِ

وَتَــظُــنُّ أَنَّــكَ وَارِثٌ لَــهُــمُ وَمَــا ذُقْــتَ الأَذَى فِــي نُــصْــرَةِ الــرَّحْــمَــنِ
كَــلَّا وَلَا جَــاهَــدْتَ حَــقَّ جِــهَــادِهِ فِــي الــلــهِ لَا بِــيَــدٍ وَلَا بِــلِــسَــانِ
مَنَّتْكَ وَاللهِ الْمُحَالَ النَّفْسُ فَاسْـ تَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ
لَــوْ كُــنْــتَ وَارِثَــهُ لَآذَاكَ الأُلَــى وَرِثُــوا عِــدَاهُ بِــسَــائِــرِ الأَلْــوَانِ

الشرح: وأما ثالث الطوائف من أهل التعطيل والإلحاد: فهو الذي ينفي الأسماء، وينفي ما تدل عليه من المعاني بالكذب والبهتان، وذلك مثل الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، والفلاسفة أشياع مذهب أرسطو، وغيره من حكماء اليونان، وهؤلاء في الحقيقة جاحدون لوجود الخالق الرحمن، فإنه لا يعقل وجود ذات في الخارج بلا اسم ولا صفة، وإنَّما يقدر وجودها في الأذهان.

وبعد أن فرغ المؤلف من ذكر معاني الإلحاد الثلاثة في أسماء الرب، الَّتي هي تسمية المخلوق بها، أو نفي ما دلت عليه من المعاني، أو نفيها ونفي المعاني جميعًا -حذَّر من الوقوع في بوائق هذا الإلحاد إخوانه من أهل السنة؛ لكي ينجو بذلك من النيران، ويفوزوا بالقرب من اللَّه في جنة المأوى الَّتي أعدها لأوليائه، ويظفروا بمغفرته ورضوانه.

ثُمَّ أوصاهم ألَّا يستوحشوا من قلتهم وكثرة أعدائهم، فإن الناس كلهم موتى، وأهل السنة وحدهم الأحياء، وقد وردت الآثار بأن أهل السنة يكونون آخر الزمان غرباء، قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء. فقيل: من هم يا رسول اللَّه؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس**».

وفي رواية: «**الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي**».

ثُمَّ يسائل إخوانه من أهل السنة، الذين يضيقون ذرعًا بما يلقون من أذى أعدائهم، فيقول: متى سلم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعون لَهم بإحسان من أهل الجهل والعناد والنفاق، حَتَّى تطمعوا أنتم في السلامة منهم، وكيف تطمعون أن تكونوا وراثًا لَهم دون أن تذوقوا ما ذاقوه من الأذى في نصرة الرحمن، وأن تجاهدوا في سبيله حَق الجهاد باليد واللسان، فهذه أماني كواذب تخدعكم بها أنفسكم، فاستحدثوا لكم رأيًا غير هذا، واعلموا أن هذه الوراثة الكريمة لهؤلاء الأخيار لا تكون إلا لمن وَطَّن النفس على احتمال كل ما يلقاه من أذى هؤلاء المجرمين الأشرار.

* * *

فصل في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبيَاء والمرسلين المخالف لتوحيد المشركين والمعطلين

هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ تَوْ حِيدُ الْعِبَادَةِ مِنْكَ لِلرَّحْمَنِ
أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا وَلَا تَعْبُدْ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الإِيمَانِ
فَتَقُومَ بِالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالْـ إِحْسَانِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ
وَالصِّدْقُ وَالإِخْلَاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التْـ تَوْحِيدِ كَالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَانِ
وَحَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ تَوْحِيدُ الْمُرَا دِ فَلَا يُزَاحِمُهُ مُرَادٌ ثَانِ
لَكِنْ مُرَادُ الْعَبْدِ يَبْقَى وَاحِدًا مَا فِيهِ تَفْرِيقٌ لَدَى الإِنْسَانِ
إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا سُبْحَانَهُ فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ
أَوْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا أَنْشَاكَ لَمْ يَشْرَكْهُ إِذْ أَنْشَاكَ رَبٌّ ثَانِ
فَكَذَاكَ أَيْضًا وَحْدَهُ فَاعْبُدْهُ لَا تَعْبُدْ سِوَاهُ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من بيان توحيد الأسماء والصفات الذي يقوم على تنزيه اللَّه سبحانه عن كل ما لا يليق بجلاله من النقائص والعيوب، متصلة أو منفصلة، وإثبات أوصاف الكمال كلها له، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل -شرع فِي بيان النوع الثاني من نوعي التوحيد، وهو توحيد الإلهية أو العبادة، الذي يقوم على أن اللَّه هو وحده الإله المألوه الذي ينبغي أن يألهه الخلق؛ أي: يعبدوه؛ تعظيمًا، ومحبة، وذلًّا، ومخافة، وتوكلًا، واستعانة، وتوبة، وإنابة، إلَى آخره.

وهذا النوع من التوحيد هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بل كان هو خلاصة رسالاتِهم، ومفتتح دعواتِهم، فما منهم من رسول إلا كان التوحيد أول ما يدعو إليه قومه، كما دل على ذلك القرآن الكريم، قال تعالَى من سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]. وقال تعالَى من سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

بل هذا التوحيد هو الذي خلق اللَّه الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل

الثواب فِي الدنيا والآخرة لمن قام به وحققه، وجعل العقاب على من كفر به وتركه، وجعله الفيصل بين أهل السعادة القائمين به وأهل الشقاوة التاركين له.

وقد فسر المؤلف هذا التوحيد بألَّا يجعل العبد لغير اللَّه شركة مع اللَّه فِي شيء من عبادته، بل يصرف عبادته كلها للَّه، سواء كانت عبادة بالقلب: كالحب، والذل، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والإنابة. أو كانت عبادة باللسان: كالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والتمجيد، وكل أنواع الثناء الَّتِي لا تنبغي إلا للَّه، وكذلك السؤال، والدعاء، والاستعاذة، والاستغاثة، والحلف، والتسمية، وغير ذلك. أو كانت عبادة بالأبدان: كالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد. أو عبادة بالمال: كالصدقات، والنذور، والذبائح، والحبوس، وجَميع أبواب البر الَّتِي تنفق فيها الأموال.

وألَّا يعبد اللَّه إلا بِما شرعه هو على لسان رسولهﷺ، فلا يزيد عليه شيئًا، ولا ينقص منه شيئًا، ولا يغير فيه ولا يبدل، فإن كل ذلك بدعة ضلالة لا يقبلها اللَّه ﷻ، بل يردها على صاحبها، ويمقته عليها، قالﷺ: «**من أحدث فِي أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». أي: مردود على صاحبه، لا ثواب له عليه؛ لأنه عبادة بالهوى، وتشريع ما لَمْ يأذن به اللَّه، وإنَّما يعبد اللَّه بِما شرع، لا بالأهواء والبدع.

فإذا عرف العبد ذلك معرفة حقة، أفرد اللَّه بالعبادة كلِّها، الظاهرة منها والباطنة.

فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلَى الجار، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود، والقيام بحقوق اللَّه وحقوق خلقه.

ويقوم كذلك بأصول الإيمان: فيؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

ويقوم بحقائق الإحسان الذي هو أعلى مقامات الدين: فيعبد اللَّه كأنه يراه، فإن لَمْ يكن يراه؛ فإنه يراه، كما فسره النَّبِيُّ ﷺ بذلك فِي حديث جبريل.

ويقوم بِهذه المقامات الثلاثة مخلصًا فِي كلها للَّه، لا يقصد به غرضًا من الأغراض غير رضا ربه وثوابه، ومتابعًا فيها رسول اللَّه ﷺ، فيقف عند ما حده له.

ولِهذا التوحيد أيضًا ركنان هما له كالأساس للبنيان: وهما الصدق، والإخلاص.

أما الإخلاص: فهو توحيد اللَّه بقصده وإرادته، بأن يعمل العمل لا يبغي به إلا وجه

اللَّه، وإلا طلب ثوابه ورضاه، بحيث لا يزاحمه مراد ثان من حب محمدة، أو رغبة فِي شهرة، أو غير ذلك من حظوظ النفس العاجلة، وكذلك لا يريد به التقرب إِلَى غير اللَّه ﷻ فإنه إذا كان رب العبد الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، وأجرى عليه رزقه، وأسبغ عليه نعمه، ظاهرة وباطنة؛ واحدًا، وهو اللَّه ﷻ، ولَمْ يشركه فِي خلقه، ولا فِي رزقه، ولا فِي تدبير شئونه أحد -فيجب أن يخصه بالتوحيد والعبادة، وألَّا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

* * *

وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْوَ بَذْ ... لُ الْجَهْدِ لَا كَسَلًا وَلَا مُتَوَانِ

وَالسُّنَّةُ الْمُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ ... أَعْنِي سَبِيلَ الْحَقِّ وَالإِيمَانِ

هَذِي ثَلَاثٌ مُسْعِدَاتٌ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهَا وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فَإِذَا هِي اجْتَمَعَتْ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

لِلَّهِ قَلْبٌ شَامَ هَاتِيكَ الْبُرُو ... قَ مِنَ الْخِيَامِ فَهَمَّ بِالطَّيَرَانِ

لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ تَصَدَّعَتْ ... أَعْشَارُهُ كَتَصَدُّعِ الْبُنْيَانِ

وَتَرَاهُ يَبْسُطُهُ الرَّجَاءُ فَيَنْثَنِي ... مُتَمَايِلًا كَتَمَايُلِ النَّشْوَانِ

وَيعُودُ يَقْبِضُهُ الإِيَاسُ لِكَوْنِهِ ... مُتَخَلِّفًا عَنْ رُفْقَةِ الإِحْسَانِ

فَتَرَاهُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ اللَّذَيْـ ... ـنِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ

وَبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَارَ مَسْـ ... ـرَاهُ عَلَيْهِ لَا عَلَى الدَّبْرَانِ

لِلَّهِ ذَيَّاكَ الْفَرِيقُ فَإِنَّهُمْ ... خُصُّوا بِخَالِصَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

شُدَّتْ رَكَائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ ... وَرَسُولِهِ يَا خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ

الشرح: فإذا كان الإخلاص هو توحيد المراد بالعبادة وهو اللَّه ﷻ، بحيث لا يبقى فِي القلب مراد آخر يزاحمه، فالصدق هو توحيد الإرادة، وهو بذل الجهد فِي طلب المراد، والتفاني فِي خدمته سبحانه بلا كسل ولا فتور، وتوحيد الطريق وهو المتابعة للسنة القويمة بلا تزيد ولا ابتداع.

وهذا معنى قول المصنف: «فلواحد كن واحدًا فِي واحد». أي: «فلواحد» وهو اللَّه ﷻ، وهذا هو توحيد المراد «كن واحدًا» فِي عزمك وصدقك وإرادتك، وهذا هو

توحيد الإرادة، فِي «واحد»، وهو متابعة الرسول الذي هو طريق الحق والإيمان. فمن اجتمعت له هذه الثلاثة، نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كماله وسعادته إلا بقدر نقصه من واحد منها.

وهذا النوع من التوحيد -وهو توحيد الإلهية- متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيه توحيد الربوبية؛ لأن اللَّه هو الذي له صفة الإلهية، وهي صفات الكمال كلها؛ ولِهذا كلما قوي إيمان العبد، ومعرفته بأسماء اللَّه وصفاته؛ قوي توحيده، وتم إيمانه.

ثُمَّ أخذ بعد ذلك فِي بيان ما يناقض هذا التوحيد وينافيه فقال:

فصل

وَالشِّرْكُ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ... ذَا الْقِسْمُ لَيسَ بِقَابِلِ الْغُفْرَانِ

وَهْوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـ ... ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إنْسَانِ

يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

وَاللَّهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي ... خَلْقٍ وَلَا رِزْقٍ وَلَا إحْسَانِ

فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الْخَلَّاقُ وَالرْ ... رَزَّاقُ مُولِي الْفَضْلِ وَالإحْسَانِ

لَكِنَّهُمْ سَاوَوْهُمُ بِاللَّهِ فِي ... حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إيمَانِ

الشرح: بعد أن بين المؤلف توحيد العبادة، وأركانه الَّتِي يقوم عليها من الإخلاص والصدق والمتابعة للسنة؛ شرع فِي بيان ما ينافيه من الشرك، فقسمه إلَى ظاهر جلي، وهو ما يسمى بالشرك الأكبر، وهذا النوع لا يغفره اللَّه ﷻ، كما أخبر بذلك فِي قوله فِي موضعين من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد فسر المؤلف هذا الشرك بأنه اتخاذ ند للرحمن من أي شيء كان من خلقه، بأن يجعله مساويًا للَّه فِيما يستحقه، ولا ينبغي إلا له، من أنواع العبادة والتعظيم، فيدعوه كما يدعو اللَّه ﷻ، سواء كان دعاء عبادة، أو دعاء مسألة، أو يرجوه كما يرجو اللَّه، بأن يتوقع عنده من النفع والخير ما لا يملكه إلا اللَّه، أو يخافه كذلك كما يخاف اللَّه، بأن يعتقد أنه يملك من أنواع العذاب والبطش ما لا يملكه إلا اللَّه، أو يحبه كما يحب اللَّه ﷻ.

فهذه هي الندية الَّتي كان يؤمن بِها العرب، وسموا بسببها مشركين، وهي الَّتي أمر رسول اللَّه ﷺ بقتالهم عليها؛ لأنَّها منافية لكلمة التوحيد «لا إله إلا اللَّه».

وأما ندية الخلق والرزق والتدبير والملك وغير ذلك من شئون الربوبية، فإنَّهم لَمْ يساووا آلهتهم باللَّه فِي شيء منها، بل ولا جعلوا لَهم شركة مع اللَّه فيها، كما قال تعالَى من سورة يونس عليه السلام: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]. وكقوله من سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فالقوم لَمْ ينددوا فِي هذه الناحية، وإنَّما كانت نديتهم أنَّهم ساووا آلهتهم باللَّه فِي الحب والتعظيم، وفِي الإيمان بإلهيتهم واستحقاقهم للعبادة مع اللَّه، فكان هو مناط شركهم، قال تعالَى من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقال من نفس السورة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولِهذا كانت كلمة التوحيد الَّتي يدخل بِها فِي الإسلام هي: «لا إله إلا اللَّه»؛ لأنَّها هي الَّتي تنفي الشرك فِي الألوهية، وتثبت استحقاقه سبحانه للعبادة وحده، وفِي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت رسول اللَّه ﷺ: أي الذنب أعظم قال: **أن تجعل للَّه ندًّا وهو خلقك**». الحديث.

وفِي الحديث القدسي الصحيح يقول اللَّه تعالَى: «**إنِّي والإنس والجن فِي نبأ عظيم؛ أَخْلُق ويُعبَدُ غيري، وأَرْزُق ويُشْكَر غيري**».

* * *

جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا ... جَعَلُوا الْمَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لأَجْلِ اللَّهِ مَا ... عَادَوْا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا مَحْبُوبَهُ وَمَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ
شَرْطُ الْمَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِبْ بُ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلَا عِصْيَانِ
فَإِذَا ادَّعَيتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ مَعْ خِلَا فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ
أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَّعِي حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ
وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ أَيْنَ الْمَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيطَانِ

الشرح: يعنِي: أن هؤلاء المتخذين للأنداد أشركوا أندادهم مع اللَّه فِي المحبة، فأحبوهم مع اللَّه، أي: ساووهم باللَّه فِي المحبة، فإن هذا مقتضى المعية، ولكنهم لَمْ يحبوهم قط للَّه وفِي اللَّه؛ إذ لو كان حبهم لأجل اللَّه ما امتلأت قلوبُهم بالعداوة لأهل محبته المؤمنين به، فإن من أحب أحدًا أحب من يحبه، فكراهيتهم لأحباب اللَّه، دليل على بغضهم له، وفِي الحديث الصحيح: «**صريح الإيمان أن تحب فِي اللَّه، وتبغض فِي اللَّه**». وفِي الحديث الآخر: «**من أحب للَّه، وأبغض للَّه، وأعطى للَّه، ومنع للَّه؛ فقد استكمل الإيمان**». وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهم ارزقني حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يقرب إليك**».

وكذلك لو كان حبهم أندادَهم لأجل اللَّه، لما أحبوا مساخطه ومكروهاته، وتجنبوا مراضيه ومحبوباته، فإن شرط المحبة أن يوافق المحب محبوبه فيما يحبه ويبغضه، فيحب ما يحبه، ويبغض ما يبغضه، وألَّا يتوخى عصيانه ومخالفته، فإن هو أبغض ما يحبه محبوبه، أو أحب ما يبغضه وعصاه ولَمْ يطعه؛ فهو كاذب فِي دعوى المحبة، كما يقول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري فِي القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يُحب مطيع

فلا يمكن أن يستقيم ادعاء المحبة لأحد مع حبه لأعداء محبوبه، وما يبغضه من الأشخاص والأفعال والأقوال، ومع بذله الجهد فِي عداوة أحبابه كذلك، فأين هو دليل المحبة إذن؟! إن هو إلا تلبيس الشيطان، ومحض الكذب والبهتان.

والخلاصة: إنه لا يجوز لأحد أن يحب مع اللَّه أحدًا، فإن تلك هي الندية الَّتِي حكاها القرآن عن المشركين، ولكنه يحب فِي اللَّه وللَّه، فيكون حبه لغير اللَّه تابعًا لحبه له، كما فِي الحديث: «**وأن يحب المرء، لا يحبه إلا للَّه**».

وفِي حديث السبعة الذين يظلهم اللَّه فِي ظله، يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجلان تحابا فِي اللَّه، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**».

* * *

لَيسَ الْعِبَادَةُ غَيرَ تَوْحِيدِ الْمَحَبْـ ... بَةِ مَعْ خُضُوعِ الْقَلْبِ وَالأَرْكَانِ

وَالْحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِهِ فِيمَا يُحِبْـ ... بُ وَبُغْضُ مَا لَا يَرْتَضِي بِجَنَانِ

وَوِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أَمْرَهُ ... وَالْقَصْدُ وَجْهُ اللهِ ذِي الإحْسَانِ

هَذَا هُوَ الإحْسَانُ شَرْطٌ فِي قَبُو ... لِ السَّعْيِ فَافْهَمْهُ مِنَ الْقُرْآنِ

وَالإتِّبَاعُ بِدُونِ شَرْعِ رَسُولِهِ ... عَينُ الْمُحَالِ وَأَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

فَإِذَا نَبَذْتَ كِتَابَهُ وَرَسُولَهُ ... وَتَبِعْتَ أَمْرَ النَّفْسِ وَالشَّيطَانِ

وَتَخِذْتَ أَنْدَادًا تُحِبُّهُمُ كَحُبْـ ... بِ اللهِ كُنْتَ مُجَانِبَ الإيمَانِ

الشرح: يعنِي: أن ركني العبادة الَّتِي لا قوام لَهَا إلا بِهما، هما كمال الحب للَّه، بألَّا تشرك فِي محبته أحدًا، بل تحب فيه وله -كما قدمنا- وكمال الذل والخضوع له بالقلب والأركان -أي: الجوارح- فمن لَمْ يجتمع له هذان الأمران لا يسمى عابدًا، فالإنسان يحب زوجته وأولاده، ولكنه لا يذل لَهم، فلا يكون هذا الحب بمجرده عبادة، وكذلك قد يذل لغيره مع بغضه وكراهته له فلا يكون ذله عبادة.

ومعنى حبك للَّه: أن توافقه فيما يحبه ويرضاه، وتبغض بقلبك كل ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذه الموافقة هي نفس اتباعك لأمره، سواء كان أمر إيجاب أو ندب، فإنه ما أمر إلا بِما يحب، وأن تكون مخلصًا له فِي الاتباع، بحيث لا تقصد به إلا وجهه، فهذا هو الإحسان الذي جعله اللَّه شرطًا لقبول العمل، كما دل على ذلك القرآن، قال تعالَى من سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. فالمراد من إسلام الوجه للَّه: الانقياد لأمره، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. جملة حالية تفيد أنه لابد أن يكون هذا الانقياد مع الإحسان الذي هو إخلاص القصد للَّه، بحيث لا يبتغي إلا وجهه.

ومثل ذلك قوله تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله فِي سورة لقمان: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

ٱلْوُثْقَىٰ﴾[لقمان: ٢٢] . ولا يتحقق الاتباع لأمر اللَّه إلا بالتزام الشريعة الَّتِي جاء بِها رسوله ﷺ ، فإنَّها هي المتضمنة لكل ما أمر اللَّه ﷻ به ، وكل ما خالفها فليس مما أمر اللَّه به ، فمن أَمْحَلِ المحال وأبطل الباطل أن يدعي أحد أنه متبع لأمر اللَّه ؛ وهو محادٌّ للَّه ورسوله ، ومتبع غير سبيل المؤمنين ، فمن نبذ كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وراءه ظِهريًا ، وجرى مع أهواء نفسه ووساوس شيطانه ، واتخذ له من دون اللَّه أندادًا يحبهم كحب اللَّه ، ويطيعهم فِي معصية اللَّه ؛ فإنه يكون مجانبًا للإيمان ، قد باء بالخيبة والخسران ، نعوذ باللَّه من الخِذلان .

* * *

وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يدَّعِي الْـ إِسْلَامَ شِرْكًا ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَالَوْهُمْ وَسَوْ وَوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبِّ لَا السُّلْطَانِ

وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ بَلْ زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بِلَا كِتْمَانِ

وَاللهِ مَا غَضِبُوا إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَا رِمُ رَبِّهِمْ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الْوَثَنِ الَّذِي يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوَانِ

وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ زِيرٍ وَمِنْ سَبٍّ وَمِنْ تَسْجَانِ

الشرح : يقصد المؤلف بِهذا الفريق طوائف القبوريين عباد الأضرحة ، الذين يدَّعون الإسلام كذبًا وزورًا ، مع أن شركهم ظاهر مفضوح ، لا يستطيعون ستره ولا كتمانه ، وإن شئت دليلًا على ذلك ؛ فاذهب إِلَى أحد هذه الأضرحة لترى العجب ، ترى أسرابًا من الناس ، رجالًا ونساء يطيفون به كما يطوف الحجاج ببيت اللَّه ، وتراهم قد تعلقوا بالمقصورة يوسعونَها تقبيلًا ولثمًا ، وينتزعون من بين فراغها البركة انتزاعًا ، وتتمتم شفاههم بكلمات الاستغاثة والدعاء ذلة وتضرعًا ، وكم جادت منهم الجيوب ببدر الأموال ، توضع فِي صناديق النذور ، وكم سيقت الذبائح ، وحملت الأطعمة ، وشدت الرحال ، يتسابق فِي ذلك النساء والرجال والشيوخ والأطفال ؛ ليشهدوا ما يقام عند هذه الأضرحة من مهرجانات وأحفال ، وكم خرت أذقان على العتبات ، وكم ضجت بالبكاء والدعاء أصوات ، هذا بطلب النظرة والمدد ، وهذا يستمنح النسل والولد ، وهذا يطلب النصر على الخصم الألد ، وهذه عانس طال على تعنيسها الأمد ، فجاءت للشيخ مفرج الكزوب وحلال العقد ، وكم وكم مما لا أستطيع حصره ، ومما يذيب القلوب أسًى وحسرة

على ما أصاب الإسلام ممن يدعي محبته ونصره، وهو لَمْ يترك له منجنيقًا إلا كسره، فلا حول ولا قوة إلا بالله، إليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، وعليه التكلان.

فهؤلاء القبوريون قد جعلوا أصحاب هذه الأضرحة شركاء لله، يوالونَهم، ويتقربون إليهم بأنواع القرابين من الذبائح والنذور، ويسوونَهم بالله ﷻ فِي المحبة، بل هم لَهم أشد حبًا، وبِهم أكثر تعلقًا، كما تدل على ذلك أحوالهم، وتنبئ عنه فعالهم، فإن أحدهم لا يغار، ولا يغضب إذا انتهكت حرمات الله، وعمل بمعصيته فِي السر والعلانية، ولكنه إذا سمع من أحد الموحدين أنه يتعرض لوثنه الذي يدعوه، ويعكف عليه، وأنه يصفه بِما هو فيه من عجز ونقص، حَتَّى ولو كان هذا الوصف مأخوذًا من القرآن؛ استشاط لذلك غضبًا، وأخذته حمية الجاهلية، وهبَّ للانتقام؛ والأخذ بالثأر، ولَمْ يرع فِي هذا الموحد إلًا ولا ذمة، بل ولا حسن جوار، فلا تسل عما يناله من هذا المجرم الأثيم من أنواع الأذى، والكيد والعدوان اللئيم، حيث تنهال عليه الأيدي باللكز والضرب، وتنثال عليه الألسنة بالشتم والسب، ولا سيما إذا كان هذا المجرم من أصحاب النفوذ والسلطان، فإنه يمعن فِي التنكيل، ويسرف فِي العدوان، ويلقي بذلك الموحد فِي غيابات السجون.

وبعد، فما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ما يحدثنا عنه هذا الإمام الجليل مما كان يقع به وبأمثاله من العذاب والتنكيل، حين يقومون بالدعوة؛ لتجريد التوحيد، وإخلاص العبادة للملك الجليل؛ لا يزال يقع مثله وأشد منه بالدعاة إِلَى الحق فِي هذا الزمان، ولكن لا نقول إلا كما قال القرآن: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]. فنسأل الله النجاة من كيد اللئام وفتنة الطغام.

* * *

وَاللَّهِ لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ	مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا الْعُدْوَانِ
وَاللهِ لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ	نَصًّا صَرِيحًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ
وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيوخِهِمْ أَوْ غَيرِهِمْ	كُنْتَ الْمُحَقِّقَ صَاحِبَ الْعِرْفَانِ
حَتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا	لِ لِسُنَّةِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
نَادَوْا عَلَيكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ	قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلَانِ
قَالُوا تَنَقَّصْتَ الْكِبَارَ وَسَائِرَ الْـ	ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالْبُهْتَانِ
هَذَا وَلَمْ تَسْلُبْهُمُ حَقًّا لَهُمْ	لِيَكُونَ ذَا كَذِبٍ وَذَا عُدْوَانِ

وَإِذَا سَلَبْتَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَكَلَامَهُ جَهْرًا بِلَا كِتْمَانِ
لَمْ يغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَينَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ
وَالأَمْرُ وَاللهِ الْعَظِيمِ يَزِيدُ فَوْ قَ الوَصْفِ لَا يخْفَى عَلَى الْعُمْيَانِ
وَإِذَا ذَكَرْتَ اللهَ تَوْحِيدًا رَأَيْـ تَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْوَانِ
بَلْ ينْظُرُونَ إلَيكَ شَزْرًا مِثْلَ مَا نَظَرَ التُّيوسُ إلَى عَصَا الْجُوبَانِ
وَإِذَا ذَكَرْتَ بِمِدْحَةٍ شُرَكَاءَهُمْ يَتَبَاشَرُونَ تَبَاشُرَ الْفَرْحَانِ
وَاللهِ مَا شَمُّوا رَوَائِحَ دِينِهِ يَا زَكْمَةً أَعْيَتْ طَبِيبَ زَمَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء القبوريين لا يعرفون من أمر دينهم إلا العكوف على هذه الأوثان، وإزجاء المديح لَهَا، والنقمة ممن يسبها ويشتمها، ويكشف عن حالها فِي عجزها وهوانِها، ولكنك لو شتمت ربك عندهم، وعطلته عن صفات كماله كلها، ما وجدت منهم من نكران، ولما واجهوكَ ببعض ما ينْزلونه بشاتم آلهتهم من أذًى وعدوان، وكذلك لو خالفت سنة رسوله ﷺ الصريحة الواضحة، وتبعت رأي فلان، وفلان من شيوخهم أو من غيرهم؛ فأنت عندهم صاحب التحقيق والعرفان، أما إذا خالفت آراء الرجال إلَى سنة المبعوث بالقرآن؛ شنوا عليك الغارة، وأسرفوا فِي الطعن والتشهير، فأحسن أحوالك عندهم أنك مبتدع ضال، ومنهم من يسارع إلى الرمي بالتكفير؛ لأنك فِي نظرهم وقح جريء، تنتقص من قدر الكبار، وتعمد إلَى مخالفتهم، وتقول بغير قولهم، هذا مع أنك لَمْ تسلبهم حقًّا هو لَهم؛ إذ ليس لَهم على أحد حق الاتباع، حَتَّى يرمى مخالفهم بالكذب والعدوان والابتداع.

فهؤلاء الذي حموا لشيوخهم، وصبوا جامَّ غضبهم على من خالفهم فِي رأيهم، وعدُّوا ذلك تنقيصًا من أقدارهم، لو سلبت صفات اللَّه كلها عندهم، ونفي علوه وكلامه جهارًا بلا كتمان؛ لما غضبوا على من فعل ذلك، بل لأقروه عليه، وصوبوا كلامه، ومهما قيل فِي وصفهم؛ فالأمر يزيد على كل وصف، وهو أشهر من أن يخفى حَتَّى على العميان.

وكذلك إذا ذكرت ربك توحيدًا فرددت إليه الأمور كلها، ونفيت عنه الظهير والمعين والوسيط والشفيع، وقلت: إنه يفعل ما يريد، لا مغير لإرادته، ولا مكره له على خلاف مشيئته -اشمأزت منهم القلوب، وعلت وجوههم الكآبة، وكسفت منهم الألوان، ونظروا إليك بأعين ملؤها الحقد والغضب، أما إذا ذكرت آلهتهم بالخير، وأطريتها فِي المديح،

فرحوا بذلك واستبشروا، وهنأ بعضهم بعضًا، فهم كمن قال اللّه فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٥-٤٦].

فهل تحسب أن أمثال هؤلاء قد شموا الدين اللّه رائحة، أو ذاقوا له طعمًا؟! كلا، بل قد زكمت منهم القلوب زكمة أعيت كل طبيب، وحار فيها كل مصلح أريب، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

فصل في صفِّ العسكرين وتقابل الصفين واستدارة رحى الحرب العوان وتصاول الأقران

يَا مَنْ يشِبُّ الْحَرْبَ جَهْلًا مَا لَكُمْ ... بِـقِـتَـالِ حِـزْبِ الـلّـهِ قَـطُّ يـدَانِ

أَنَّـى تَـقُـومُ جُـنُـودُكُـمْ لِـجُـنُـودِهِـمْ ... وَهُـمُ الْـهُـدَاةُ وَعَـسْـكَـرُ الْـقُـرْآنِ

وَجُـنُـودُكُـمْ مَـا بَـيـنَ كَـذَّابٍ وَدَجْـ ... ـجَـالٍ وَمُـحْـتَـالٍ وَذِي بُـهْـتَـانِ

مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يدَّعِي الْمَعْقُولَ وَهْـ ... ـوَ مُـجَـانِـبٌ لِـلْـعَـقْـلِ وَالإِيـمَـانِ

أَوْ كُـلِّ مُـبْـتَـدِعٍ وَجَـهْـمِـيٍّ غَـدَا ... فِـي قَـلْـبِـهِ حَـرَجٌ مِـنَ الْـقُـرْآنِ

أَوْ كُلِّ مَنْ قَدْ دَانَ دِينَ شُيوخِ أَهْـ ... ـلِ الإعْـتِـزَالِ الْـبَـيِّـنَ الْـبُـطْـلَانِ

أَوْ قَـائِـلٍ بِـالإتِّـحَـادِ وَإِنَّـهُ ... عَـيْـنُ الإلَـهِ وَمَـا هُـنَـا شَـيـئَـانِ

أَوْ مَـنْ غَـدَا فِـي دِينِـهِ مُـتَـحَـيِّـرًا ... أَتْـبَـاعَ كُـلِّ مُـلَـدَّدٍ حَـيـرَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف فريق المعطلة النفاة الذين يسعون فِي إشعار نار الخصومة بينهم وبين فريق أهل الإثبات؛ جهلًا منهم بقوة خصمهم، واغترارًا بِما لديهم من شبهات زائفة يسمونَها حججًا عقلية، وما هي إلا جهليات، فيقول لَهم: لا طاقة لكم بقتال حزب اللّه من أهل الإثبات، وكيف تستطيع جنودكم منازلة جنودهم وهم ليسوا أقرانَهم؟! فإنَّهم أعلام الهدى، وعسكر الإيمان، وجنود الرحمن، الذابون عن دينه بالسيف واللسان، وأما جنودكم فما بين كذاب معروف بالكذب والاختلاق، ودجال مموه يغطي وجه الحق بِما يظهر من منطق طلي وأسلوب براق، ومحتال ماكر قد مرد على الخداع والنفاق، وباهت مكابر يجحد الحق وهو أجلى من الشمس تملأ الآفاق، ومن كل أحمق جاهل،

يزعم التمرس بالعقليات، وهو لا علم له بمعقول ولا منقول، ومن كل ذي بدعة جهمي، يضيق صدره حرجًا كلما وردت عليه نصوص الإثبات من القرآن، ومن كل معتزلي مارق يدين بمذهب الاعتزال الواضح البطلان، أو اتحادي خبيث، يزعم أن هذا العالم هو ربه، وأنه ليس ثَمَّ موجودان، أو متردد فِي دينه لا يدري أين يتجه، قد استهوته الشياطين فِي الأرض حيران، فهؤلاء هم جنودكم يا أنصار الشيطان، فأنَّى لَهم بمناجزة أنصار الرحْمن؟!

* * *

وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ ... بَاقِي الْمَلائِكِ نَاصِرِي الْقُرْآنِ

وَجَمِيعُ رُسْلِ اللهِ مِنْ نُوحٍ إِلَى ... خَيرِ الْوَرَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ

فَالْقَلْبُ خَمْسَتُهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الأُلَى ... فِي سُورَةِ الشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

فِي أَوَّلِ الأَحْزَابِ أَيضًا ذِكْرُهُمْ ... هُمْ خَيرُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

وَلِوَاؤُهُمْ بِيدِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ... وَالْكُلُّ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْفُرْقَانِ

وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عِصَابَةُ الْـ ... إِسْلَامِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى ... طَبَقَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

أَهْلُ الْحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ وَأَئِمَّةُ الْـ ... فَتْوَى وَأَهْلُ حَقَائِقِ الْعِرْفَانِ

الْعَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ ... وَمَرَاتِبِ الأَعْمَالِ فِي الرُّجْحَانِ

صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... لَيْسُوا أُولِي شَطْحٍ وَلَا هَذَيَانِ

الشرح: وأما أهل الإثبات فجنودهم: جبريل أمين الوحي، وميكال خازن الرزق، ومعهما باقي الملائكة أنصار الحق، وإنَّما خص جبريل وميكال أولًا بالذكر؛ لأنَّهما الأميران المطاعان، ومن عداهما من الملائكة تبع لهما؛ ولِهذا خصا فِي القرآن بالذكر بعد دخولهما فِي عموم الملائكة فِي قوله تعالَى من سورة البقرة: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وجنودهم كذلك: جَميع الرسل من البشر من أولهم نوح إلَى آخرهم مُحمَّد -صلوات اللَّه عليهم أجمعين- وأولو العزم منهم، وهم الخمسة الذين ذكرهم اللَّه فِي موضعين من كتابه:

أولهما: فِي سورة الشورى فِي قوله تعالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

والثاني: فِي سورة الأحزاب، وهو قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]. فهؤلاء الخمسة الكبار هم القلب فِي ذلك الجيش، وغيرهم فِي الميمنة والميسرة، ولواؤهم بيد سيدهم ومقدَّمهم مُحمَّد ﷺ، وكلهم تبع له وتحت لوائه.

ومن جنودهم كذلك: جَميع الصحابة الذين أكرمهم اللَّه سبحانه بصحبة نبيه، والجهاد معه، وتلقي الدين عنه غضًّا طريًّا، والذين هم عصابة الإسلام، وأكمل الناس بعد النبيين فِي العلم، ثُمَّ من بعدهم التابعون لَهم بإحسان على اختلاف مراتبهم وطبقاتِهم فِي سائر الأزمان، الذين هم حفاظ الحديث، وأرباب الفتوى، وأهل المعرفة الحقة باللَّه وبرسوله، والعلم بمراتب الأعمال وتفاوتِها فِي الخفة والرجحان، فيقدمون أهمها وأثقلها فِي الميزان، وهم جميعًا سنية ينتسبون إلَى سنة نبيهم ﷺ، ليس فيهم مبتدع، ولا ذو هوى، ولا قائل برأيه، بل كلهم على ما كان عليه الرسول ﷺ هو وأصحابه.

وهم كذلك نبوية مستضيئون بنور النبوة، ومقتبسون من مشكاتِها، ليسوا من أولئك الصوفية الرعن المخابيل، الذين ينطقون بالهراء والهذيان، ويزعمون أنَّهم هم أولو العرفان، وما عرفوا إلا سبيل الشيطان، نعوذ باللَّه من الخذلان.

وأما قول المؤلف فِي أول البيت الأخير «صوفية» فنحن لا نوافقه على إطلاق هذا اللقب على أهل الحق والجماعة، فإنه لفظ مبتدع، ويحمل من المعاني الخبيثة ما نُنَزِّه القوم عنه، بل نسميهم بِما سماهم اللَّه به: المسلمين المؤمنين عباد اللَّه.

* * *

هَـذَا كَـلَامُـهُـمُ لَـدَيْـنَـا حَـاضِـرٌ ... مِـنْ غَـيْـرِ مَـا كَـذِبٍ وَلَا كِـتْـمَـانِ

فَـاقْـبَـلْ حِـوَالَـةَ مَـنْ أَحَـالَ عَـلَـيهِـمُ ... هُـمْ أَمْـلِـيَـاؤُهُـمُ أُولُـو إِمْـكَـانِ

فَـإِذَا بَـعَـثْـنَـا غَـارَةً مِـنْ أُخْـرَيَـا ... تِ الْـعَـسْـكَـرِ الْـمَـنْـصُـورِ بِـالْـقُـرْآنِ

طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلْحَبِّ حَتْـ ... ـتَى صِرْتُمُ كَالْبَعْرِ فِي الْقِيعَانِ

أَنَّى يُقَاوِمُ ذِي الْعَسَاكِرَ طَمْطَمٌ ... أَوْ تَـنْـكَـلُـوشَـا أَوْ أَخُـو الْـيُـونَـانِ

أَعْـنِـي أَرِسْـطُـو عَـابِـدَ الأَوْثَـانِ أَوْ ... ذَاكَ الْـكَـفُـورَ مُـعَـلِّـمَ الأَلْـحَـانِ

ذَاكَ الْمُعَلِّمَ أَوَّلًا لِلْحَرْفِ وَالثْـ ... ـثَانِي لِصَوْتٍ بِئْسَتِ الْعِلْمَانِ
هَذَا أَسَاسُ الْفِسْقِ وَالْحَرْفُ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الْكُفْرِ وَالْهَذَيَانِ
أَوْ ذَلِكَ الْمَخْدُوعَ حَامِلَ رَايَةِ الْـ ... إِلْحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ
أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ الْمَحلُولَ مِنْ ... أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الْكُفْرَانِ
وَكَذَا نَصِيرَ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْدَاءِ رُسْلِ اللَّهِ وَالإِيمَانِ

الشرح: يعني: أن كلام هؤلاء السادة الأخيار في إثبات صفات اللَّه ﷻ موجود عندنا بالنقل الصحيح عنهم، لَمْ يفتروا فيه على اللَّه الكذب، ولَمْ يكتموا منه شيئًا، فإذا أحلت على أحد منهم، فاقبل تلك الحوالة ولا ترفضها؛ فإنَّها حوالة على غني مليء، وقد قال ﷺ: «**إذا أحيل أحدكم على مليء فليتبع**».

وقد حشد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة كبيرة من كلام هؤلاء الأئمة الكبار فِي كتابه الذي أسماه: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»، وقد سبقه إلى ذلك شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فتواه الحموية»، كما فعل مثل ذلك أيضًا الحافظ الذهبي فِي كتابه: «العلو للعلي الغفار»، فمن أراد أن يعرف منهج القوم فِي عقيدتِهم، ويقف على ما خلفوه فِي هذا الباب من آثار وأقوال، فليرجع إلَى هذه الكتب وأمثالها.

ثُمَّ يقول المؤلف: إننا لو بعثنا بغارة على أهل التعطيل لا من قلب هذا الجيش المنصور ومقدمته، بل من ساقته ومؤخرته، لمزقتهم شر ممزق، ولضرستهم بأنيابِها حَتَّى تذرهم كعصف مأكول، أو كبعر بعرته الإبل فِي القيعان -جمع قيعة- وهي الأرض المستوية السبخة الَّتِي يتراءى فيها السراب، وكيف يستطيع أن يقاوم هذا العسكر المتسلح بأسلحة النصوص من السنة والقرآن، والمتترس بتروس العلم والإيمان هؤلاء الأوباش من التتار أتباع هولاكو وجنكيز خان، ممن يسمى بطمطم أو تنكلوشا، ونحو ذلك من أسْماء أهل الجهل والعدوان؟! أم كيف يستطيع مقاومتهم أخو اليونان، الذي هو أرسطو عابد الأوثان، الملقب عندهم بالمعلم الأول، وما فلسفته الإلهية كلها إلا كذب وبُهتان؟! فأين صورته المحضة أو محركه الأول الذي لا نعت له ولا صفة من اللَّه الرحيم الرحمن.

أو هذا المعلم الثاني الذي هو الفارابي معلم الألحان، والذي تغذى بلبان الصابئة فِي بلده حران، فجاءت فلسفته تنضح بِما فِي عقائد الصابئة من عبادة للنجوم والأوثان، حيث وضع عقوله العشرة، ونسب إليها كل ما لا ينسب إلا للحي القيوم، لاسيما عقله العاشر

الذي سماه بالعقل الفعال أو عقل القمر، وهو أقرب العقول إلَى عالم العناصر، فقد جعل له التصرف فِي هذا العالم بالكون والفساد، فهو عنده مفيض الحياة على الأحياء، وواهب الصور للأنواع، وأساس المعارف والعلوم.

فالمعلم الأول: أرسطو هو معلم الحرف -أي: المنطق- والمعلم الثاني: الفارابي هو معلم الموسيقى والصوت، وبئس العلم هذان العلمان، فإن هذا الثاني هو أساس الفسق والفجور، وأما الأول فهو أساس الضلال والزندقة.

ويجيء بعد هذين المعلمين ذلك القرمطي الخبيث حامل راية الإلحاد الملقب عندهم بالشيخ الرئيس، ذلك هو ابن سينا المارق الضليل، الذي تحلل من جَميع الأديان، واتخذ دينًا له مذاهب فلاسفة اليونان، وأخذ يصانع أهل الإسلام بمحاولة التوفيق بينها وبين عقائد الإيمان، فأتى فِي هذا الباب بأنواع من الكفر والهذيان.

ومن العجيب: أن تروج حماقات هذا الرجل، وتمتلئ بِها كتب أهل الإسلام، وتدرس فِي معاهدهم وجامعاتِهم على أنَّها إنتاج عقلي رفيع، وتشغل بتحليلها وتحقيقها عقول الأساتذة والطلبة، كأنَّها وحي وتنْزيل، بل ربما قدموها على قول اللَّه ورسوله؛ لزعمهم أنَّها حجج وبراهين قائمة على أصول منطقية وبدهيات عقلية، وهي لا تخرج عن كونِها جهالات قامت على خيال فاسد وظنون كاذبة!!

ثُمَّ يجيء بعد ابن سينا ذلك الخوجة حامل لواء فلسفته ونصير إفكه وزندقته المسمى بنصير الدين الطوسي، وما نصر إلا أعداء الدين، ومكن لَهم من رقاب المؤمنين، وكان حربًا على كل من ينتسب إلَى السنة والقرآن، ويتبع سبيل أهل الإيمان، فتبًّا له من مارد شيطان.

* * *

نَصَرُوا الضَّلَالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ

فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَمْ تَجْرِ قَطُّ بِسَالِفِ الأَزْمَانِ

أَوْ جَعْدٌ اوْ جَهْمٌ وَأَتْبَاعٌ لَهُ ... هُمْ أُمَّةُ التَّعْطِيلِ وَالْبُهْتَانِ

أَوْ حَفْصٌ أَوْ بِشْرٌ أَوِ النَّظَّامُ ذَا ... كَ مُقَدَّمُ الْفُسَّاقِ وَالْمُجَّانِ

وَالْجَعْفَرَانِ كَذَاكَ شَيْطَانٌ وَيُدْ ... عَى الطَّاقَ لَا حُيِّيتَ مِنْ شَيْطَانِ

وَكَذَلِكَ الشَّحَّامُ وَالْعَلَّافُ وَالنْـ ... ـنَجَّارُ أَهْلُ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ

وَاللهِ مَا فِي الْقَوْمِ شَخْصٌ رَافِعٌ ... بِالْوَحْيِ رَأْسًا بَلْ بِرَأْيِ فُلَانِ
وَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَذَاكَ الأَشْـ ... ـعَرِيُّ الْقَرْمُ ذَاكَ مُقَدَّمُ الْفُرْسَانِ
لَكِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى ... إِثْبَاتِهِ وَالْحَقُّ ذُو بُرْهَانِ
هُوَ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَاسْـ ... ـتَوْلَى مَقَالَةَ كُلِّ ذِي بُهْتَانِ
فِي كُتْبِهِ طُرًّا وَقَرَّرَ قَوْلَ ذِي الْـ ... إِثْبَاتِ تَقْرِيرًا عَظِيمَ الشَّانِ
لَكِنَّكُمْ أَكْفَرْتُمُوهُ وَقُلْتُمُ ... مَنْ قَالَ هَذَا فَهْوَ ذُو كُفْرَانِ
فَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَأَنْتُمْ مِنْهُمُ ... بُرَآءُ إِذْ قَرُبُوا مِنَ الإِيمَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء التتار الذين استقدمهم الوزير الرافضي المسمى بابن العلقمي، والذين استعداهم نصير الدين الطوسي على أهل الحق -كانوا أنصارًا للمذاهب الضالة، وذلك لخفة حلومهم، وغلبة الجهل عليهم، وكانوا حربًا على جيوش الإيمان من أهل الدين والقرآن، فجرى على الإسلام وأهله على أيدي هؤلاء التتار من الفظائع والأهوال ما لَمْ يسمع بمثله فيما مضى من الأعصار.

ثُمَّ أخذ الشيخ يعدد بقية جند الباطل بعدما ذكر من رءوسهم فيما تقدم هؤلاء الأربعة: «أرسطو والفارابي وابن سينا والطوسي»، فذكر الجعد بن درهم والجهم بن صفوان، وهما رأسان كبيران من رءوس الضلال، وقد تقدم الكلام عليهما، وكان الجعد أول من أسس مقالة التعطيل، ثُمَّ تبعه عليها الجهم، وزاد على ما قاله، وأوغل فِي النفي، حَتَّى نسب المذهب إليه.

ثُمَّ ذكر من رءوس أهل الاعتزال الذين شايعوا الجهم فِي التعطيل: حفصًا[(١)] النرد، وبشر[(٢)] بن المعتمر، وإبراهيم بن سيار[(٣)] الملقب بالنظام، ووصفه بأنه مقدم القوم فِي الفسق والمجون، ثُمَّ الجعفرين -أعني: جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب- وكانا على

(١) من متكلمي المعتزلة، تعلم على أبي الهذيل، لقبه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا اللقب تهكمًا، وكان يقول بخلق اللّه لأفعال العباد على طريقة الجبرية، وله مؤلفات ضد المعتزلة والمسيحيين.

(٢) أحد علماء المعتزلة، وكان في زمن الرشيد، وكان يقول بالتولد، وهناك بِشْرٌ آخر، يقال [له]: بشر بن غياث المريسي، وهو الذي ناظره الإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني في مسألة خلق القرآن وفلج عليه بين يدي المأمون؛ كما ذكر ذلك في كتابه «الحيدة».

(٣) هو صاحب القول بالطفرة، وله آراء غريبة في علم الكلام، وهو تلميذ أبي الهذيل.

مذهب النظام، ثُمَّ شيطان الطاق[١]، ثُمَّ أبا يعقوب الشحام صاحب أبِي الهذيل، وكان يقول بقوله فِي الصفات، وأنَّها عين الذات، ثُمَّ أبا الهذيل العلاف، الذي كان يقول بتناهي حركات أهل الجنة وأهل النار، ثُمَّ الحسين النجار من متأخري المعتزلة، وكان مذهبه يميل إلَى الاعتدال.

فهؤلاء جميعًا ليس فيهم من يقف عند حدود الوحي المنَزل، أو يلتزم الأخذ بالنصوص الصريحة، بل يبتدعون بأهوائهم ما لا أصل له فِي كتاب ولا سنة، كما هو معروف من مذاهبهم الَّتِي نقلها عنهم من ألف فِي الفرق والمقالات، وخير هؤلاء هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري إمام الطائفة الأشعرية، فإنه أقربُهم إلَى الكتاب والسنَّة، وإن كان خالف مذهب السلف فِي أشياء، كالقول بالكلام النفسي، ونفي الحرف والصوت، ونفي الحكمة على أفعاله تعالَى، ونفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته، ولكنه رغم ذلك يثبت الصفات الخبرية من الاستواء والوجه واليدين والعينين ونحوها، وقد صرح فِي جَميع كتبه بأن اللَّه مستو على عرشه بمعنى العلو والفوقية، وأنكر تأويل الاستواء بالاستيلاء.

ومن العجيب: أن المتأخرين من أتباعه يكفرون من قال: إن اللَّه فوق عرشه بذاته؛ لأنه يثبت الجهة والحيز، وهو عندهم تجسيم! فيلزمهم على ذلك تكفير إمامهم؛ لأنه ممن يثبت الجهة، وهكذا يتبرأ أهل التعطيل من خيار عسكرهم إذا قالوا قولًا يوافقون فيه أهل الحق، ويقربون به من الإيمان.

* * *

هَـذِي الْعَسَاكِرُ قَدْ تَلَاقَتْ جَهْرَةً ... وَدَنَـا الْـقِـتَـالُ وَصِـيـحَ بِـالأَقْـرَانِ

صُفُّوا الْجُيوشَ وَعَبِّئُوهَا وَابْرُزُوا ... لِـلْـحَـرْبِ وَاقْـتَـرِبُـوا مِـنَ الْـفُـرْسَـانِ

فَـهُـمُ إلَـى لُـقْـيَـاكُـمُ بِـالـشَّـوْقِ كَـيْ ... يُـوفُـوا بِـنَـذْرِهِـمُ مِـنَ الْـقُـرْبَـانِ

وَلَـهُـمْ إلَـيْـكُـمْ شَـوْقُ ذِي قَـرَم فَـمَـا ... يـشْـفِـيـهِ غَـيـرُ مَـوَائِـدِ الـلُّـحْـمَـانِ

تَـبًّـا لَـكُـمْ لَـوْ تَـعْـقِـلُـونَ لَـكُـنْـتُـمُ ... خَـلْـفَ الْـخُـدُورِ كَـأَضْـعَـفِ الـنِّـسْـوَانِ

مِـنْ أَيـنَ أَنْـتُـمْ وَالْـحَـدِيـثُ وَأَهْـلُـهُ ... وَالْـوَحْـيُ وَالْـمَـعْـقُـولُ بِـالْـبُـرْهَـانِ

---

(١) هو محمد بن النعمان، وشيطان الطاق لقبه، وأصحابه يقال لهم: الشيطانية؛ وهو من غلاة الشيعة، وقد صنف لهم كتبًا كثيرة منها كتاب «الإمامة».

مَا عِنْدَكُمْ إِلَّا الدَّعَاوَى وَالشَّكَا وَى أَوْ شَهَادَاتٌ عَلَى الْبُهْتَانِ
هَذَا الَّذِي وَاللهِ نِلْنَا مِنْكُمُ فِي الْحَرْبِ إِذْ يتَقَابَلُ الصَّفَّانِ

الشرح: يقول الشيخ لهؤلاء الناكبين عن صراط اللَّه المستقيم، ممن قالوا فِي دين اللَّه برأيهم، وافتروا الكذب على ربِّهم، وأوسعوا النصوص تحريفًا وتأويلًا، وساموها إنكارًا وتعطيلًا: إن جيوش أهل الحق قد تجمعت للنضال، وتَهيأت للقتال، وصاحت فِي وجوهكم تطلب المبارزة، فصفوا جيوشكم، وعبئوها للقتال والمناجزة، وابرزوا من مكانكم، واقتربوا من فرسان أهل الحق، فإنَّهم أشوق شيء إلَى لقائكم، لكي يوفوا بِما نذروا للَّه من ضحايا وقرابين، بل إن شوقهم إليكم أشد من شوق ذي النهمة المحروم، الذي لا يشفيه من نَهمه إلا أكوام اللحوم.

ولكن تبًّا لكم فلستم أهلًا للبراز والمقاتلة، ولو عرفتم قدر أنفسكم، ومبلغ ضعفكم، وفساد أسلحتكم، لتواريتم خلف الخدور، كما يتوارى النساء الضعيفات اللاتي لا قدرة لهن على حرب ولا قتال.

وإلا فأين أنتم من الحديث وأهله، ومن الوحي وجهابذته، ومن البراهين العقلية الصحيحة؛ إذ ليس عندكم من بضاعة تزجونَها إلا دعاوى عريضة، وشكايات مغرضة، وإلا شهادات كلها زور وبُهتان، وهذا هو الذي جعلنا ننال منكم، وننتصر عليكم عندما يلتقي الجيشان، ويتقابل الصفان.

* * *

وَاللَّهِ مَا جِئْتُمْ بِقَالَ اللَّهُ أَوْ قَالَ الرَّسُولُ وَنَحْنُ فِي الْمَيْدَانِ
إِلَّا بِجَعْجَعَةٍ وَفَرْقَعَةٍ وَغَمْـ غَمَةٍ وَقَعْقَعَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ
وَيحِقُّ ذَاكَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ أَنْتُمْ بِحَاصِلِكُمْ أُولُو عِرْفَانِ
وَبِحَقِّكُمْ تَحْمُوا مَنَاصِبَكُمْ وَأَنْ تَحْمُوا مَآكِلَكُمْ بِكُلِّ سِنَانِ
وَبِحَقِّنَا نَحْمِي الْهُدَى وَنَذُبُّ عَنْ سُنَنِ الرَّسُولِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ
قَبَحَ الإِلَهُ مَنَاصِبًا وَمَآكِلًا قَامَتْ عَلَى الْعُدْوَانِ وَالطُّغْيَانِ
وَاللهِ لَوْ جِئْتُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ قَالَ الرَّسُولُ كَفِعْلِ ذِي الإِيمَانِ
كُنَّا لَكُمْ شَاوِيشَ تَعْظِيمٍ وَإِجْـ لَالٍ كَشَاوِيشٍ لِذِي سُلْطَانِ

لَكِنْ هَجَرْتُمْ ذَا وَجِئْتُمْ بِدْعَةً وَأَرَدْتُمُ التَّعْظِيمَ بِالْبُهْتَانِ

الشرح: وإذا كنا نَحن وأنتم فِي مجال الخصومة والمناظرة، واستعر بيننا أوار الجدل؛ فإنكم لا تعولون فِي الاحتجاج لآرائكم على شيء من النصوص، فلا تقولون أبدًا: قال اللَّه ﷻ كذا، ولا قال رسوله ﷺ كذا، بل تحاولون الغلب بالتهويش وشقشقة اللسان، وتعمدون إلَى الألفاظ الطنانة والاصطلاحات الغريبة تجعجعون بِها مع فرقعة بالأصابع، وغمغمة بكلام غير مفهوم، وقعقعة كالطبل الأجوف، وهذا هو كل محصولكم من العلم، وأنتم أهله وأدرى الناس به، ومقصودكم من كل هذا أن تحموا مناصبكم الَّتِي أسندت إليكم فِي التدريس والقضاء والفتيا بِهذه البضاعة الكاسدة، الَّتِي راجت عند الجهلة من الأمراء والحكام، وأن تحموا كذلك ما يجري عليكم من رواتب وجرايات، وأما نَحن فأحقاء بحماية الهدى من عبث الضلال، والدفاع عن السنة المطهرة ممن يتنقصها، أو يتهجم عليها، والذب عما تقتضيه آيات الكتاب العزيز من معان، تريدون الإلحاد فيها والزيغ عنها، فلا بارك اللَّه لكم فِي مناصب ومآكل لَمْ تقم على عدل وحق وإنصاف، ولكنها قامت على ظلم وعدوان وإجحاف، ووالله لو التزمتم النصفة، ووقفتم عند نصوص الكتاب والسنة كما هو شأن أهل العلم والإيمان؛ لوجدتمونا لكم نعم الجند والأعوان، ولفعلنا بكم من التوقير والإجلال ما يفعله الشاويش عند السلطان، لكنكم هجرتم الوحيين من السنة والقرآن، وأتيتم ببدع ومفتريات ما أنزل اللَّه بِها من سلطان، ومع ذلك تريدون من الناس أن يعظموكم بالزور والبهتان.

فصل

الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبَكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

كَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ

كَلَّا وَلَا نَفْيُ الْعُلُوِّ لِفَاطِرِ الْـ أَكْوَانِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

كَلَّا وَلَا عَزْلُ النُّصُوصِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ تُفِيدُ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

إِذْ لَا تُفِيدُكُمُ يَقِينًا لَا وَلَا عِلْمًا فَقَدْ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

وَالْعِلْمُ عِنْدَكُمُ يُنَالُ بِغَيْرِهَا بِزُبَالَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ

سَمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًا عَقْلِيَةً ... تَنْفِي الظَّوَاهِرَ حَامِلَاتِ مَعَانِ
كَلَّا وَلَا إِحْصَاءُ آرَاءِ الرِّجَا ... لِ وَضَبْطُهَا بِالْحَصْرِ وَالْحُسْبَانِ
كَلَّا وَلَا التَّأْوِيلُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفُ لِلْوَحْيَيْنِ بِالْبُهْتَانِ
كَلَّا وَلَا الإِشْكَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالْـ ... ـوَقْفُ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ
هَذِي عُلُومُكُمُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا ... عَادَيْتُمُونَا يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

الشرح: يفرق لنا المؤلف فِي هذه الأبيات بين العلم الصحيح النافع الذي هو الحق المطابق للواقع، وبين العلم المموه الزائف الذي هو فِي حقيقته جهل مركب وسم ناقع، فيقول: إن العلم الحقيق بأن يسمى علمًا لا يعدو واحدة من ثلاث: فإما أن يكون آية من كتاب اللّه ﷻ، أو حديثًا صح عن رسوله ﷺ، أو أثرًا عن واحد من الصحابة الذين هم أكمل هذه الأمة علمًا وإيمانًا، وكل ما خالف ذلك فهو جهل وضلال، فليس العلم أن تتحامق فتعارض بآراء الرجال قول رسول اللّه ﷺ؛ فتكون بذلك مخالفًا عن أمره، ومعرضًا عن قبول حكمه؛ فتكون ممن قال اللّه فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

وليس العلم: أن تعمد إلَى صفات الرب الثابتة بالنصوص الصريحة الواضحة فتنفيها، وتجحد ثبوتَها بحجة أنك تقدس اللّه، وتنزهه عن الاتصاف بصفات الأجسام والمحدثات.

وليس العلم: أن تعمد إلَى صفة العلو الثابتة للّه بالنقل والعقل والفطرة فتنفيها بحجة التنْزيه للّه عن الأحياز والجهات.

وليس العلم: أن تعزل نصوص الوحيين عن إفادة الحق فِي باب الاعتقاد، بحجة أنَّها ظواهر لفظية محتملة، وأن ما تطرق إليه الاحتمال يسقط به الاستدلال؛ ولِهذا حكمتم عليها بأنَّها لا تفيد علمًا ولا يقينًا، بل إنَّما يستفاد هذا عندكم من البراهين الَّتِي هي أوساخ العقول والأفكار، والَّتِي تسمونَها قواطع عقلية، تنفون بِها ظواهر الآيات والأخبار.

وليس العلم كذلك: أن تشتغل بسرد آراء الرجال وعدها، ومحاولة ضبطها وحصرها، فيكون حظك من العلم أن تقول: قال فلان كذا، ورأى فلان كذا. دون أن تناقش هذه الآراء، وتبين صحيحها من زائفها.

وليس العلم أيضًا: تأويل النصوص بِما ينفي معانيها الظاهرة منها، ولا تبديل ألفاظها

بغيرها، ولا تحريف كلمها عن مواضعها بالكذب والبهتان.

وليس العلم: إشكالات تورد، ولا تشكيكات تعد، ولا تَوَقُّف فِي المسائل يدل على الحيرة والتردد.

فهذه هي كل ما لديكم من أبواب العلم، وليس فيها شيء من العلم، وكانت هي السبب فِي أن ناصبناكم العداوة والبغضاء.

فصل في عقد الهدنة والأمان الواقع بين المعطلة وأهل الإلحاد حزب جنكيزخان

يَا قَوْمُ صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَافِ صُلْحًا مُوجِبًا لأَمَانِ

وَأَغَرْتُمُ وَهْنًا عَلَيهِمْ غَارَةً ... قَعْقَعْتُمُ فِيهَا لَهُمْ بِشِنَانِ

مَا كَانَ فِيهَا مِنْ قَتِيلٍ مِنْهُمُ ... كَلَّا وَلَا فِيهَا أَسِيرٌ عَانِ

وَلَطَفْتُمُ فِي الْقَوْلِ أَوْ صَانَعْتُمُ ... وَأَتَيْتُمُ فِي بَحْثِكُمْ بِدِهَانِ

وَجَلَسْتُمُ مَعَهُمْ مَجَالِسَكُمْ مَعَ الْـ ... أُسْتَاذِ بِالآدَابِ وَالْمِيزَانِ

وَضَرَعْتُمُ لِلْقَوْمِ كُلَّ ضَرَاعَةٍ ... حَتَّى أَعَارُوكُمْ سِلَاحَ الْجَانِي

فَغَزَوْتُمُ بِسِلَاحِهِمْ لِعَسَاكِرِ الْـ ... إِثْبَاتِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

وَلأَجْلِ ذَا صَانَعْتُمُوهُمْ عِنْدَ حَرْ ... بِكُمُ لَهُمْ بِاللُّطْفِ وَالإِذْعَانِ

وَلأَجْلِ ذَا كُنْتُمْ مَخَانِيثًا لَهُمْ ... لَمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَهُمْ عَيْنَانِ

حَذَرًا مِنَ اسْتَرْجَاعِهِمْ لِسِلَاحِهِمْ ... فَتَرَوْنَ بَعْدَ السَّلْبِ كَالنِّسْوَانِ

الشرح: ينعي المؤلف على هؤلاء المعطلة ممالأتهم لأعداء اللَّه من التتار، الذين لا يقرون بوجود اللَّه ﷻ، وينفون الذات والصفات جميعًا، وذلك حين غلبوا على الدولة الإسلامية، واستولوا على بغداد قصبة الخلافة «سنة ٦٥٦هـ»، وقتلوا الخليفة المستعصم، وأعملوا السيف فِي أهل الإسلام، حَتَّى كانت القتلى فِي طرقات بغداد كأنَّها التلول، واختلطت مياه دجلة بدماء القتلى، وارتكبوا من ألوان القسوة والوحشية ما لا نظير له فِي التاريخ، فرأى هؤلاء الملاحدة من المتكلمين والمتفلسفة أن يصانعوا القوم؛ ليأمنوا شرهم، ويكسبوا نصرتَهم لَهم على أهل الحق، فأغاروا عليهم وهنًا -أي: فِي أول الليل- غارة لَمْ يستعملوا فيها السيف والسنان، ولكن شقشقة باللسان، وقعقعة بالشنان -أي:

الطبل- ولِهذا لَمْ تسفر هذه المعركة عن قتيل من هؤلاء ولا أسير.

ثُمَّ أخذوا يتلطفون لَهم فِي القول، ويلاينونَهم فِي الكلام، ويلجئون فِي بحثهم معهم إلَى الدهاء والمخادعة، وجلسوا بين أيديهم فِي غاية الأدب والاحتشام، كما يجلس التلميذ بين يدي أستاذه، فحركاتُهم بميزان، وكلماتُهم بميزان، وأبدوا لَهم غاية الضراعة والذلة، حَتَّى ملكوا قلوبَهم، وضمنوا ولاءهم، فأعاروهم أسلحة الظلم والعدوان، فلما اطمأنوا إلَى مودة القوم ونصرتِهم، غزو بسلاحهم عساكر الإثبات والإيمان، وأهل الآثار والقرآن، ومن أجل هذا كانوا يصانعونَهم عند حربِهم لَهم باللطف والإذعان، وكانوا ذيولًا لَهم، ينقادون لأمرهم ويغمضون أعينهم عن كل ما يرتكبه القوم من عدوان، خوفًا من غضبهم عليهم، فيسترجعون ما كانوا قد أعاروهم من أسلحة، فيرون بعد سلبها عنهم كالنسوان، لا قدرة لَهم على حرب ولا طعان.

* * *

وَبَحَثْتُمُ مَعَ صَاحِبِ الإثْبَاتِ بِالتْـ ... تَكْفِيرِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْعُدْوَانِ

وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ الْمِجَنِّ لَهُ وَأَجْـ ... لَبْتُمْ عَلَيهِ بِعَسْكَرِ الشَّيطَانِ

وَاللهِ هَذِي رِيبَةٌ لَا يَخْتَفِي ... مَضْمُونُهَا إلَّا عَلَى الثِّيرَانِ

هَذَا وَبَينَهُمَا أَشَدُّ تَفَاوُتٍ ... فِئَتَانِ فِي الرَّحْمَنِ يَخْتَصِمَانِ

هَذَا نَفَى ذَاتَ الإلَهِ وَوَصْفَهُ ... نَفْيًا صَرِيحًا لَيسَ بِالْكِتْمَانِ

لَكِنَّ ذَا وَصَفَ الإلَهَ بِكُلِّ أَوْ ... صَافِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ الرَّبَّانِي

وَنَفَى النَّقَائِصَ وَالْعُيوبَ كَنَفْيِهِ التْـ ... تَشْبِيهَ لِلرَّحْمَنِ بِالإنْسَانِ

فَلأَيِّ شَيءٍ كَانَ حَرْبُكُمُ لَهُ ... بِالْحَدِّ دُونَ مُعَطِّلِ الرَّحْمَنِ

قُلْنَا نَعَمْ هَذَا الْمُجَسِّمُ كَافِرٌ ... أَفَكَانَ ذَلِكَ كَامِلَ الإيمَانِ

لَا تَنْطَفِي نِيرَانُ غَيظِكُمُ عَلَى ... هَذَا الْمُجَسِّمِ يَا أُولِي النِّيرَانِ

فَاللهُ يوقِدُهَا وَيصْلِي حَرَّهَا ... يوْمَ الْحِسَابِ مُحَرِّفَ الْقُرْآنِ

الشرح: وفِي الوقت الذي تصانعون فيه هؤلاء الكفار وتذلون لَهم؛ نراكم تشددون النكير على أهل الحق المثبتين للصفات، فترمونَهم بالتضليل والتكفير، وتجاهرونَهم بالعداوة، وتجلبون عليهم بِما لديكم من حشود الباطل، مما جعلنا نرتاب فِي أمركم،

ونتهمكم بأنكم على دين هؤلاء الذين واليتموهم، وهي ريبة لا تخفى على من له أقل درجة من التمييز، فإن بيننا وبين من صانعتموهم من التفاوت كما بين الليل والنهار، أو بين العمى والإبصار، فنحن فئتان اختصمتا فِي اللَّه ﷺ، ووقفت كل منهما على النقيض من الأخرى، فهم ينفون ذات الإله ووصفه نفيًا صريحًا، لا مواربة فيه ولا كتمان، وأما نَحن فنصف اللَّه سبحانه بكل أوصاف الكمال المطلق الذي وصف بِها نفسه، ووصفه بِها رسوله ﷺ وننفي عنه كل ما لا يليق بجنابه من النقائص والعيوب، كوجود مثيل له أو شبيه، أو شريك أو معين، أو صاحبة أو ولد، أو نحو ذلك، فلأي شيء كنا نَحن موضع حربكم وعداوتكم، وكانوا هم موضع لطفكم ومودتكم، فلئن قلتم عنا: إننا مجسمة كفار؛ أفهؤلاء عندكم هم المؤمنون الكاملو الإيمان، وما لكم لا تَهدأ مراجل حقدكم، ولا تخمد نار غيظكم على هؤلاء الذين سميتموهم مجسمة؟! ليس ذلك إلا لكراهتكم لما هم عليه من اتباع السنة والقرآن، وإذن فاللَّه نسأل أن يوقد النار، ويذكي لهيبها، ثُمَّ يصليكم إياها يوم الحساب جزاء وفاقًا؛ لتحريفكم القرآن، واتباعكم غير سبيل أهل الإيمان.

* * *

يَا قَوْمَنَا لَقَدِ ارْتَكَبْتُمْ خُطَّةً ... لَمْ يَرْتَكِبْهَا قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

وَأَعَنْتُمُ أَعْدَاءَكُمْ بِوِفَاقِكُمْ ... لَهُمُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْبُطْلَانِ

أَخَذُوا نَوَاصِيكُمْ بِهَا وَلِحَاكُمُ ... فَغَدَتْ تُجَرُّ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

قُلْتُمْ بِقَوْلِهِمُ وَرُمْتُمْ كَسْرَهُمْ ... أَنَّى وَقَدْ غَلَقُوا لَكُمْ بِرِهَانِ

وَكَسَرْتُمُ الْبَابَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

فَأَتَى عَدُوٌّ مَا لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ... وَبِحَرْبِهِمْ أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

فَغَدَوْتُمُ أَسْرَى لَهُمْ بِحِبَالِهِمْ ... أَيدِيكُمُ شُدَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

حَمَلُوا عَلَيكُمْ كَالسِّبَاعِ اسْتَقْبَلَتْ ... حُمُرًا مُعَقَّرَةً ذَوِي أَرْسَانِ

صَالُوا عَلَيكُمْ بِالَّذِي صُلْتُمْ بِهِ ... أَنْتُمْ عَلَينَا صَوْلَةَ الْفُرْسَانِ

لَوْلَا تَحَيزُكُمْ إِلَينَا كُنْتُمُ ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ

لَكِنْ بِنَا اسْتَنْصَرْتُمُ وَبِقَوْلِنَا ... صُلْتُمْ عَلَيهِمْ صَوْلَةَ الشُّجْعَانِ

وَالَيتُمُ الإِثْبَاتَ إِذْ صُلْتُمْ بِهِ ... وَعَزَلْتُمُ التَّعْطِيلَ عَزْلَ مُهَانِ

وَأَتَيتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ ... مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

مَنْ ذَا بِحَقِّ اللهِ أَجْهَلُ مِنْكُمُ ... وَأَحَقُّنَا بِالْجَهْلِ وَالْعُدْوَانِ
تَاللهِ مَا يَدْرِي الْفَتَى بِمُصَابِهِ ... وَالْقَلْبُ تَحْتَ الْخَتْمِ وَالْخِذْلَانِ

المفردات: الوفاق: الموافقة. النواصي: جمع ناصية، وهي مقدم الرأس. اللحى: جمع لحية وهي معروفة. رمتم: قصدتم. غلقوا لكم برهان: أي ملكوكم، يقال: غلق الرهن فِي يد المرتَهن. صار ملكه، وذلك إذا عجز الراهن عن افتكاكه فِي الوقت المشروط. يدان: بمعنًى قوة. وحمر معقرة: أي: جرحت ظهورها، فلم تعد تقوى على الحمل.

صالوا: من الصولان، بمعنى الإقدام والهجوم. تحيزكم: انضمامكم. واليتم: ناصرتم. الختم: الطبع.

الشرح: يتوجه المؤلف بِهذا الخطاب إلَى من كانوا فِي زمانه من علماء الأشعرية المتأخرين، الذين رضوا لأنفسهم بالتذبذب بين الفريقين، فلا هم على السنة المحضة والإثبات الكامل، ولا هم على النفي الشامل، فيقول لَهم: إنكم قد سلكتم فِي دينكم خطة تدل على منتهى الحمق والغفلة، ولا يرتضيها عاقل لنفسه، حيث أعنتم أعداءكم من الفلاسفة والمعتزلة بموافقتكم لَهم فِي بعض باطلهم، كنفي الصفات الخبرية، وتأويل ما ورد فيها من الآيات والأحاديث بِما ينفي معناها عن اللَّه ﷻ، وكاعتدادكم بالأدلة العقلية، وعزلكم نصوص الوحيين عن إفادة اليقين، وقولكم معهم: إذا تعارض العقل والنقل؛ وجب تقديم العقل.

فلما رأوا ذلك منكم، شددوا قبضتهم عليكم، وأخذوا بلحاكم ورءوسكم يجرونكم إليهم جر ذلة وهوان، فكيف تطمعون أن تكسروهم، وتفلجوا عليهم، وقد أعطيتموهم من أنفسكم ما تمكنوا به من رقابكم، وفتحتم لَهم الباب الذي كان موصدًا فِي وجوههم، فدخلوا حصونكم ومعاقلكم، فتبروا ما علو تتبيرًا، حَتَّى إذا جاء عدو آخر لا قبل لكم بحربه، ولا قدرة لكم على مناجزته، وقعتم أسرى فِي أيديهم حيث شدوا وثاقكم، وغلوا أيديكم إلَى أعناقكم، وحملوا عليكم حملة الآساد الكاسرة على قطيع من الحمر المعقرة، فصالوا عليكم بنفس السلاح الذي صلتم به علينا صولة الفرسان المغاوير.

فلولا انضمامكم إلينا، وعودتكم إلَى حظيرتنا، وتمسككم بأهداب الوحي؛ لغدوتم فِي العرين -وهو بيت الأسد- ممزقي الأشلاء، فلم تجدوا لكم فِي هذه المعركة إلا أن

تستنصروا بنا، وتقولوا بقولنا فِي الإثبات، حَتَّى تتمكنوا من رد غارتِهم عليكم، فأنتم توالون الإثبات، وتعزلون التعطيل عزل مهان ذليل حين يكون الإثبات هو سلاحكم الذي به تصولون، ولكنكم فِي نفس الوقت له تتنكرون حين تكون الحرب بيننا وبينكم، حيث تغزوننا بجيوش التعطيل والإنكار، فمن باللّٰه أجهل منكم حين تتسلحون بالشيء وضده، وتوالون الإثبات مرة، وتعادونه مرة، ومن أحق منا ومنكم أن ينتسب إِلَى الجهل والعدوان، ولكن اللّٰه سبحانه هو مقلب القلوب، فهي بين أصبعين من أصابعه، إن يشأ يختم عليها ويخذلها، فلا يدري أصحابُها بمصابِهم، وإن كان هو أعظم مصاب.

فصل في مصارع النفاة والمعطلين باسنة امراء الإثبات الموحدين

وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلَا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

وَتَرَاهُمُ أَسْرَى حَقِيرٌ شَأْنُهُمْ ... أَيْدِيهُمُ غُلَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

وَتَرَاهُمُ تَحْتَ الرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مَا فِيهِمُ مِنْ فَارِسٍ طَعَّانِ

وَتَرَاهُمُ تَحْتَ السُّيوفِ تَنُوشُهُمْ ... مِنْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِ

وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الْوَحْيَيْنِ وَالْـ ... عَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضُحْكَةَ سَاخِرٍ ... وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإيمَانِ

قَدْ أُوحِشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ... جَبَّارُ إِيحَاشًا مِنَ الأَزْمَانِ

وَخَلَتْ دِيَارُهُمْ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ ... مَا فِيهِمُ رَجُلَانِ مُجْتَمِعَانِ

قَدْ عَطَّلَ الرَّحْمَنُ أَفْئِدَةً لَهُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

إِذْ عَطَّلُوا الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ صِفَا ... تِ كَمَالِهِ بِالْجَهْلِ وَالْبُهْتَانِ

المفردات: المصارع: المهالك. غلت: شدت. دريئة: ما يستتر به الصائد ليخدع الصيد. تنوشهم: تأخذهم.

الشرح: يريد المؤلف بهذه الأبيات أن يكشف لنا عن الدور العظيم الذي قام به شيخه شيخ الإسلام، وقدوة الأنام، وعلم الأعلام، وأعجوبة الأيام أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، مجدد القرن الثامن، وباعث النهضة الإسلامية،

الذي لَمْ يأت الدهر له بنظير فِي الجمع بين العلوم النقلية والعقلية، ناصر السنة، وقامع البدعة، ورافع راية التوحيد، ومبدد جيوش الملاحدة والمبطلين، صاحب المؤلفات الخالدة الَّتِي هي مشاعل هدى، ومنارات رشد يستضيء بنورها طلاب الحق، وأعلام الفكر، ومهما قلت فِي وصفه وأطنبت فلن أوفيه حقه، ولن أجزيه عن بعض ما قلدني من منة، فلقد كنت أحد الذين تخرجوا على كتبه حين قدر اللَّه سبحانه أن يرفع عني غشاوة التقليد، وأن يذهب من نفسي ما أَلَمَّ بِها -بحكم النشأة- من عصبية مذهبية، ولوثة صوفية، وانحدار فِي بوائق الوثنية، فما هي إلا جولة فِي رياض كتبه الموفقة؛ حَتَّى زالت عني سقام الجهل، وعادت للقلب عافيته، وللعقل صحته، وحَتَّى تجلى لي الدين فِي نقائه وطهارته بعد أن انزاحت عنه عمايات الباطل، وضلالات البدع، وظلمات الأهواء.

ولنرجع إلَى شرح الأبيات الَّتِي يصور لنا فيها المؤلف مدى ما أصاب جيوش الزيغ والتعطيل من هزيمة وانكسار، حين حمل عليها شيخه البطل المغوار والفارس الكرار بسيفه البتار، ففرقهم شذر مذر، فلم يبق لَهم من عين ولا أثر، فيقول: إذا أردت أن تشهد أئمة الكفر والتعطيل وهم يسقطون صرعى فِي الميدان، ويقعون أسرى ترهقهم الذلة، ويعلوهم الهوان، وتربط أيديهم بالحبال إلَى الأذقان، وأن تراهم دريئة للرماح، لا قدرة لَهم على حرب ولا طعان، وأن تراهم قد تجردوا من الوحيين السنة والقرآن، بل وتجردوا من العقل الصحيح وما يقتضيه من البرهان، بل وتراهم مضحكة للناس، يتخذون منهم مادة للفكاهة والهذيان، ولطالما كانوا يسخرون من أهل الإيمان، وتراهم قد خلت منهم الديار، وتبدد جمعهم فِي الأقطار، كما أخلى الرحْمن أفئدتَهم من كل معرفة وإيمان، جزاء وفاقًا لما عطلوا الرحْمن من صفات كماله، وعطلوا منه عرشه، فأنكروا أن يكون فوق عرشه بذاته، بل وعطلوه عن كلامه، فنفوا أن يكون له كلام هو صفة له بحروف وأصوات يسمعها من يشاء من خلقه، وعطلوه عن صفات كماله كلها بلا دليل ولا برهان، بل بالكذب والبهتان.

* * *

فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الإمَامِ حَقِيقَةً	شَيْخِ الْوُجُودِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الْـ	ـبَحْرَ الْمُحِيطَ بِسَائِرِ الْخُلْجَانِ
وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي	مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ

وكَــذَاكَ مِــنْــهَــاجٌ لَــهُ فِــي رَدِّهِ ... قَــوْلَ الــرَّوَافِــضِ شِــيــعَــةِ الــشَّــيْــطَانِ
وَكَــذَاكَ أَهْــلُ الإعْــتِــزَالِ فَــإِنَّــهُ ... أَرْدَاهُــمُ فِــي حُــفْــرَةِ الْــجَــبَّــانِ
وَكَذَلِكَ التَّأْسِيسُ أَصْبَحَ نَقْضُهُ ... أُعْــجُــوبَــةً لِــلْــعَــالِــمِ الــرَّبَّــانِــي
وَكَــذَاكَ أَجْــوِبَــةٌ لَــهُ مِــصْــرِيَّــةٌ ... فِــي سِــتِّ أَسْــفَــارٍ كُــتِــبْــنَ سِــمَــانِ
وَكَذَا جَوَابٌ لِلنَّصَارَى فِيهِ مَا ... يَــشْــفِــي الــصُّــدُورَ وَإِنَّــهُ سِــفْــرَانِ
وَكَــذَاكَ شَــرْحُ عَــقِــيــدَةٍ لــلأَصْــبَــهَــا ... نِــي شَــارِحِ الْــمَــحْــصُــولِ شَــرْحَ بَــيَــانِ
فِــيــهَــا الــنُّــبُــوَّاتُ الَّــتِــي إِثْــبَــاتُــهَــا ... فِــي غَــايَــةِ الــتَّــقْــرِيــرِ وَالــتِّــبْــيَــانِ
وَالــلــهِ مَــا لأُولِــي الْــكَــلَامِ نَــظِــيــرُهُ ... أَبَــدًا وَكُــتْــبُــهُــمْ بِــكُــلِّ مَــكَــانِ
وَكَذَا حُدُوثُ الْعَالَمِ الْعُلْوِي وَالسْـ ... ـسُــفْــلِــي فِــيــهِ فِــي أَتَــمِّ بَــيَــانِ
وَكَــذَا قَــوَاعِــدُ الاِسْــتِــقَــامَــةِ إِنَّــهَــا ... سِــفْــرَانِ فِــيــمَــا بَــيْــنَــنَــا ضَــخْــمَــانِ
وَقَــرَأْتُ أَكْــثَــرَهَــا عَــلَــيْــهِ فَــزَادَنِــي ... وَالــلــهِ فِــي عِــلْــمٍ وَفِــي إِيــمَــانِ
هَــذَا وَلَــوْ حَــدَّثْــتُ نَــفْــسِــي أَنَّــهُ ... قَــبْــلِــي يَــمُــوتُ لَــكَــانَ غَــيْــرُ الــشَّــانِ

الشرح: هذا هو جواب الشرط، يعني: إذا أردت أن تعرف ما نزل بأهل التعطيل من بلاء وتنكيل، وأسر وتقتيل؛ فاقرأ تصانيف ذلك الإمام الجليل الَّتِي ما لَهَا فيما ألف الناس مثيل، والَّتِي هي لكل حائر دليل، فاقرأ له كتاب «الموافقة بين المعقول والمنقول»، الذي ينفي فيه كل تعارض بين العقل الصريح الخالي من شوائب الهوى والتقليد، والمتحرر من سلطان الوهم والتخييل، وبين النقل الصحيح المبرأ من الكذب والتحريف والتبديل والتصحيف، واقرأ له كتابه الكبير المسمى: «منهاج السنة النبوية فِي نقض كلام الشيعة والقدرية»، الذي كتبه فِي الرد على ابن المطهر الرافضي، والذي ضمنه من فنون الحجاج وآلوان الجدل فِي الرد على فرق الضلال والزيغ ما يعد أعجوبة من الأعاجيب، واقرأ له كتابه فِي «نقض تأسيس التقديس»، الذي ألفه الفخر الرازي فِي التأويل والتعطيل، فأتى هذا النقض عليه من قواعده، واقرأ له كتاب «الأجوبة المصرية»، وهو عبارة عن جملة كبيرة من فتاويه الفروعية، جمعها بعض أصحابه وبوبَها على أبواب الفقه فِي ستة مجلدات وعرفت: بـ«الفتاوى المصرية»، وسماها بعضهم «الدرر المضية من فتاوى ابن تيمية»، واقرأ له كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» فِي مجلدين، أتى فيه بِما يكفي ويشفي فِي موضوعه، واقرأ له كتاب «الأصبهانية» شرح عقيدة الأصبهاني، الذي أثبت فيه

النبوات بأتم تقرير وأحسن بيان، واقرأ له تلك القواعد العظيمة فِي الاستقامة وهي سفران كبيران، وقد حكى المؤلف أنه قرأها على شيخه -رحمهما اللَّه تعالَى- فزاده على ما فيها علمًا وإيمانًا، ثُمَّ قال: ولو أنِّي قدَّرت أنه يموت قبلي، وأني أبقى بعده؛ لاهتبلت فرصة وجوده، وقرأت عليه ما استطعت من كتبه.

* * *

وَكَذَاكَ تَوْحِيدُ الْفَلَاسِفَةِ الأُلَى ... تَوْحِيدُهُمْ هُوَ غَايَةُ الْكُفْرَانِ
سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ نَقْضُ أُصُولِهِمْ ... بِحَقِيقَةِ الْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
وَكَذَاكَ تِسْعِينِيَّةٌ فِيهَا لَهُ ... رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ بِالنَّفْسَانِي
تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ ... أَعْنِي كَلَامَ النَّفْسِ ذَا الْوِحْدَانِ
وَكَذَا قَوَاعِدُهُ الْكِبَارُ وَإِنَّهَا ... أَوْفَى مِنَ الْمِائَتَيْنِ فِي الْحُسْبَانِ
لَمْ يَتَّسِعْ نَظْمِي لَهَا فَأَسُوقُهَا ... فَأَشَرْتُ بَعْضَ إِشَارَةٍ لِبَيَانِ
وَكَذَا رَسَائِلُهُ إِلَى الْبُلْدَانِ وَالْـ ... أَطْرَافِ وَالأَصْحَابِ وَالإِخْوَانِ
هِي فِي الْوَرَى مَبْثُوثَةٌ مَعْلُومَةٌ ... تُبْتَاعُ بِالْغَالِي مِنَ الأَثْمَانِ
وَكَذَا فَتَاوَاهُ فَأَخْبَرَنِي الَّذِي ... أَضْحَى عَلَيْهَا دَائِمَ الطَّوَفَانِ
بَلَغَ الَّذِي أَلْفَاهُ مِنْهَا عِدَّةَ الْـ ... أَيَّامِ مِنْ شَهْرٍ بِلَا نُقْصَانِ
سِفْرٌ يُقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَالَّذِي ... قَدْ فَاتَنِي مِنْهَا بِلَا حُسْبَانِ
هَذَا وَلَيسَ يُقَصِّرُ التَّفْسِيرُ عَنْ ... عَشْرٍ كِبَارٍ لَيسَ ذَا نُقْصَانِ
وَكَذَا الْمَفَارِيدُ الَّتِي فِي كُلِّ مَسْـ ... أَلَةٍ فَسِفْرٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ
مَا بَينَ عَشْرٍ أَوْ يَزِيدُ بِضِعْفِهَا ... هِي كَالنُّجُومِ لِسَالِكٍ حَيْرَانِ

الشرح: واقرأ له كتابه فِي الرد على الفلاسفة وإبطال قولهم بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وله كتب أخرى فِي إبطال قولهم بالجواهر العقلية، وقِدَم العالم، وغير ذلك من أصولهم الفاسدة.

واقرأ له «التسعينية» الَّتِي ألفها وهو بمصر فِي إبطال القول بالكلام النفسي من تسعين وجهًا.

واقرأ له قواعده الكبار الَّتِي تزيد على المائتين فِي العد والحساب، ولولا عجز النظم

عن استيفائها لسقتها إليك، ولكنِّي أكتفي بالإشارة إليها.

واقرأ له رسائله الَّتِي كان يكتبها إلَى الأطراف والبلدان والأصحاب والإخوان مثل رسالته «المدنية» الَّتِي كتبها إلَى الشيخ شمس الدين الدباهي، ورسالته «المصرية» الَّتِي كتبها إلَى الشيخ نصر المنبجي، ورسالته «العدوية»، ورسالته «القبرصية» الَّتِي كتبها إلَى ملك قبرص يحثه فيها على رعاية مصالح المسلمين، وقد ضمنها علومًا نافعة، ورسالته «الحموية» الَّتِي كتبها إلَى أهل حماة فِي مسائل الصفات، ورسالته «التدمرية» و«الواسطية»، وغير ذلك من رسائله إلَى إخوانه وأصحابه، وهي رسائل مشهورة معلومة، يغالي الناس فِي أثمانِها لما تحويه من الفوائد العظيمة والعلوم الجمة.

واقرأ له كذلك «فتاواه الكبرى»، وقد أخبرني من كان معنيًّا بجمعها والبحث عنها؛ أن ما وجده منها تساوي عدته عدة أيام شهر كامل بلا نقصان -يعني: ثلاثين سفرًا- وأما ما فاته منها فشيء لا يحصره الحساب، وأما تفسيره فليس يقل عن عشرة مجلدات كبار.

واعلم أن ناحية التفسير كانت من أبرز ما برع فيه شيخ الإسلام، إلا أن معظمه قد ضاع؛ لأنه لَمْ يكن يكتبه، بل كان يلقيه على أصحابه، فكان من يدونه منهم يضن أن يظهره، أو يخاف؛ بسبب الفتنة، وقد سأله بعض أصحابه وهو أبو عبد اللَّه بن رشيق أن يكتب على جَميع القرآن لما حبس آخر مرة.

فكتب إليه الشيخ يقول: «إن القرآن فيه ما هو بَيِّن بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون فِي غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب؛ ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد فِي آية تفسيرًا، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل؛ لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنًى آية، تبين معنًى نظائرها».

وأما مفرداته الَّتِي انفرد بِها عن المذاهب الأربعة، فهي ما بين عشرة إلَى عشرين، وفي كل مسألة منها سفر واضح، وهي كالنجوم الَّتِي يهتدى بِها فِي الظلمات، فكم هدت من ضال، وأرشدت من حيران.

واعلم أن ما ذكره المؤلف هنا من كتب شيخه ومؤلفاته إنَّما هو إشارة إلَى بعض أمهاتِها، فمن أراد الوقوف على ما خلف الشيخ من ثروة طائلة فِي ميدان البحث والتأليف؛ فليرجع إلَى كتب التراجم مثل «العقود الدرية» لابن عبد الهادي.

وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الْوَرَى قَدْ قَامَهَا لِلهِ غَيرَ جَبَانِ
نَصَرَ الإلَهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ وَرَسُولَهُ بِالسَّيْفِ وَالْبُرْهَانِ
أَبْدَى فَضَائِحَهُمْ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ وَأَرَى تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ
وَأَصَارَهُمْ وَاللهِ تَحْتَ نِعَالِ أَهْـ لِ الْحَقِّ بَعْدَ مَلَابِسِ التِّيجَانِ
وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الْحَضِيضِ وَطَالَمَا كَانُوا هُمُ الأَعْلَامَ لِلْبُلْدَانِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ بِسِلَاحِهِمْ أَرْدَاهُمُ تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي
كَانَتْ نَوَاصِينَا بَأَيْدِيهِمْ فَمَا مِنَّا لَهُمْ إِلَّا أَسِيرٌ عَانِ
فَغَدَتْ نَوَاصِيهِمْ بِأَيْدِينَا فَمَا يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ
وَغَدَتْ مُلُوكُهُمُ مَمَالِيكًا لأَنْـ صَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ
وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا مُنْقَادَةً لِعَسَاكِرِ الإِيمَانِ
يَدْرِي بِهَذَا مَنْ لَهُ خَبَرٌ بِمَا قَدْ قَالَهُ فِي رَبِّهِ الْفِئَتَانِ
وَالْفَدْمُ يُوحِشُنَا وَلَيسَ هُنَاكُمُ فَحُضُورُهُ وَمَغِيبُهُ سِيَّانِ

الشرح: بعد أن عدد المؤلف كتب الشيخ الَّتِي خلفها من بعده منارًا للسالكين، وهدى للمستبصرين، وحجة دامغة فوق رءوس المبطلين؛ أراد أن يشيد بِما كان له من مواقف فِي نصرة الحق، والذب عن دين اللَّه وكتابه ورسوله، وما اتصف به فِي ذلك من مضاء العزيمة، وعظيم الجرأة، وصدق الإيمان، حَتَّى أظهر فضائح خصومه، وكشف عن جهلهم، وأبان عن تناقضهم وتلبيسهم، وما زال بِهم يأخذهم بصولة الحق حَتَّى كساهم ثياب الذلة، وجردهم مما كانوا ينعمون به من الجاه والشهرة والنفوذ والسلطان، وصيرهم فِي أسفل مكان بعد أن كانوا أعلام الأقطار والبلدان.

ومن العجيب: أنه لَمْ يحاربْهم إلا بنفس سلاحهم، وهو سلاح العقل والمنطق الذي كانوا يتطاولون به على أهل السنة، ويرمونَهم من أجل جهلهم به بأقبح الألقاب، كقولهم: حشوية، ونوابت، ونحو ذلك، فكان أهل السنة من أجل ذلك فِي ذلة وانكسار، وكانوا يتوارون بِمذهبهم عن الأنظار، حَتَّى جاء شيخ الإسلام، فأقام مذهب الحق على دعائم متينة من العقل، وحمل على المذاهب الباطلة بنفس السلاح حَتَّى كسرهم -لأهل الحق- كسرة غدت بِها نواصيهم مأخوذة بأيديهم، بعد أن كانوا هم الآخذين بنواصيهم، وغدا ملوكهم عبيدًا لأهل الحق وأنصار الرسول بفضل اللَّه ﷻ ومنته، وغدت جنودهم الَّتِي

كانوا يصولون بِها أذلاء، منقادين لعساكر المؤمنين والموحدين، ولا يدرك ذلك على حقيقته، ويعرف مقدار ما أبلى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حماية الحق ونصرته إلا من كان له خبرة بِما قاله الفريقان من المثبتين والمعطلين فِي اللَّه رب العالمين.

فصل في بيَان ان المصيبة التي حلت باهل التعطيل والكفران من جهة الأسماء التي ما انزل الله بِها من سلطان

يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلَائِكُمْ أَسْمَاءُ لَمْ ... يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطَانِ
هِيَ عَكَّسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ... ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمُ مِنَ الأَرْكَانِ
فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ الْقُصُورُ وَأَوْحَشَتْ ... مِنْكُمْ رُبُوعُ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ
وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمُ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلَا فُرْقَانِ
وَهْيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ ... حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ الْبُطْلَانِ
سَمَّيتُمُ عَرْشَ الْمُهَيمِنِ حَيِّزًا ... وَالإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ
وجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... جِهَةً وَسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوِزَانِ
وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَتَجْـ ... ـسِيمًا وَهَذَا غَايَةُ الْبُهْتَانِ
وَجَعَلْتُمُ الْمَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الْـ ... أَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ وَالأَلْوَانِ
وَجَعَلْتُمُ أَوْصَافَهُ عَرَضًا وَهَـ ... ـذَا كُلُّهُ جِسْرٌ إِلَى النُّكْرَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف بِهذه الأبيات جماعة النفي والتعطيل، فيقول لَهم: إن سر دائكم، وأصل بلائكم: هو استعمالكم لأسماء لَمْ تقم عليها حجة، ولا أصل لَهَا فِي كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي قلب عليكم أمركم، وأفسد علمكم وإيمانكم، فاقتلع بيته من جذوره حَتَّى تَهدمت أركانه، وسقط بنيانه، فأقفرت منكم هاتيك الربوع، وكنتم أنتم الذين جنيتم على أنفسكم، حيث عمدتم إلَى ألفاظ موهمة، كل منها يحتمل معنًى حقًّا وآخر باطلًا، فقبلتموها على إجمالها من غير تفصيل يتبين منه ما يصح من معانيها وما لا يصح، فيثبت المعنَى الصحيح، وينفي غيره.

فقد سميتم عرش الرحمن حيزًا، ولَمْ تفرقوا بين ما كان من الأحياز وجوديًّا داخل هذا العالم، وما كان منها عدميًّا خارجه، ولو أنكم فصلتم هذا التفصيل لهداكم إلَى أن ما فوق

العرش إنَّما هو حيز عدمي، لأنه خلاء صرف؛ إذ ليس وراء العرش جسم آخر، وأن وجود اللَّه سبحانه فِي حيز بِهذا المعنَى ليس مستحيلًا، وإنَّما المستحيل أن يكون فِي حيز من هذه الأحياز الوجودية داخل هذا العالم، لما يلزم عليه من كونه محصورًا فِي خلقه، وكون الحوادث ظرفًا له محيطة به.

وكذلك سميتم الاستواء على العرش تحيزًا فِي المكان، ولَمْ تفرقوا كذلك بين الأمكنة الوجودية داخل هذا العالم، فهذه هي الَّتِي لا يجوز حلول اللَّه فِي شيء منها، وأما الاستواء على العرش فهو تحيز فِي مكان عدمي، ليس فيه شيء من الموجودات غيره سبحانه، فلا يكون مستحيلًا ولا ممتنعًا؛ لأنه لا يقتضي إحاطة الحوادث به، ولا حلوله فيها، ولا اتصاله بِها، وسميتم ما فوق السموات والعرش جهة، ثُمَّ سقتم نفيكم للجهة عليه، وجعلتموه مساويًا لما يجب نفيه من الجهات، حيث قلتم: إن اللَّه لا يجوز أن يكون فِي جهة من الجهات الست، ومنها جهة الفوق. ولَمْ تفرقوا كذلك بين ما كان من الجهات عدميًّا فوق هذا العالم، حيث الخلاء الصرف، والعدم المحض، وبين ما كان منها وجوديًّا محصورًا داخل أركان هذا العالم وموجوداته.

وسميتم إثبات الصفات تشبيهًا وتجسيمًا، وهذا محض الكذب والاختلاق، فإنكم لَمْ تفرقوا بين ما كان من الصفات من قبيل الأعراض الَّتِي تختص بالأجسام والمحدثات، وبين ما كان منها من قبيل المعاني القائمة بموصوفها، فإثبات الصفات للَّه بالمعنى الثاني لا يقتضي تشبيهًا ولا تجسيمًا؛ إذ لا يلزم من إثبات الصفات للَّه أن تكون مثل صفات الأجسام المحدثة المخلوقة، ولو كان هذا لازمًا لكانت المماثلة لازمة لجميع الطوائف؛ إذ لا يعقل وجود ذات مجردة من جَميع الصفات.

وكذلك: عرفتم الموصوف بأنه جسم قابل للأعراض والأكوان الَّتِي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، والألوان كالسواد والبياض والحمرة والصفرة، مع أن الموصوف هو الذات الَّتِي تقوم بِها الصفات، وهذا أعم من أن يكون جسمًا أو غير جسم، كما جعلتم الصفات كلها أعراضًا قائمة بالأجسام، والصفة أعم من أن تكون عرضًا أو غير عرض، ولكن غرضكم من وضع هذه الاصطلاحات أن تجعلوها جسرًا تعبرون منه إلَى ما تريدون من النفي والتعطيل، فضللتم بِهذا عن سواء السبيل.

* * *

وَكَـذَاكَ سَـمَّـيـتُـمْ حُـلُـولَ حَـوَادِثٍ ... أَفْـعَـالَـهُ تَـلْـقِـيـبَ ذِي عُـدْوَانِ
إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نُفْـ ... ـرَتَـهَا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالنُّقْصَانِ
فَكَسَوْتُمُ أَفْعَالَهُ لَفْظَ الْحَوَا ... دِثِ ثُـمَّ قُـلْـتُـمْ قَـوْلَ ذِي بُـطْـلَانِ
لَيسَتْ تَقُومُ بِهِ الْحَوادِثُ وَالْمُرَا ... دُ النَّفْي لِلأَفْعَالِ لِلدَّيَّانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ ... وَكَـلَامُـهُ وَعُـلُـوُّ ذِي الـسُّـلْـطَـانِ
فَبِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَبًّا عِنْدَكُمْ ... يَـا فِـرْقَـةَ الـتَّـحْـقِـيقِ وَالْعِرْفَانِ
وَالْقَصْدُ نَفْي فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا التْـ ... ـتَلْقِيبِ فِعْلَ الشَّاعِرِ الْفَتَّانِ
وَكَذَاكَ حِكْمَةُ رَبِّنَا سَمَّيتُمُ ... عِـلَـلًا وَأَغْـرَاضًـا وَذَانِ اسْـمَـانِ
لَا يُشْعِرَانِ بِمِدْحَةٍ بَلْ ضِدَّهَا ... فَـيَـهُـونُ حِـينَـئِـذٍ عَـلَـى الأَذْهَـانِ
نَفْي الصِّفَاتِ وَحِكْمَةُ الْخَلَّاقِ وَالْـ ... أَفْـعَـالِ إِنْـكَـارًا لِـهَـذَا الـشَّـانِ

الشرح: وكذلك سميتم ما يقوم به سبحانه من الأفعال الاختيارية بأنه حلول الحوادث فِي ذاته تسمية معتدية جائرة، لأنكم تعلمون أن الأسماع تنبو عن هذه الألفاظ وتنفر منها كما تنفر من ألفاظ التشبيه والنقصان، فتعمدون إِلَى أفعاله الَّتِي يحدثها هو فِي ذاته بمشيئته وقدرته، وتكسونَها لفظ الحوادث، ثُمَّ تحكمون حكمًا عامًّا بأن الحوادث يمتنع قيامها به، وليس مرادكم من ذلك إلا نفي أفعاله دون أن تفرقوا بين أجناس الحوادث وأشخاصها، ولا بين ما يحدثه هو فِي ذاته، وبين ما يحدثه فيه غيره؛ لأن قصدكم هو الإيهام والتلبيس.

ولكن إذا نفيتم أفعاله بحجة حلول الحوادث فِي ذاته، ونفيتم صفاته بحجة أنَّها أعراض لا تقوم إلا بالأجسام، ونفيتم كلامه بالحرف والصوت، ونفيتم علوه على عرشه بحجة استلزام ذلك كله لأن يكون جسمًا، فبأي شيء عندكم تثبت له الربوبية على خلقه، وهل يعقل رب لا فعل له، ولا نعت، ولا كلام، يا أولي التحقيق والأفهام، ولكن لما كان قصدكم هو نفي أفعاله عنه، لقبتموه بِهذا اللقب الشنيع، لتنفروا منه كل من يسمعه، كما يفعل الشاعر الفتان بالشيء الذي يريد تنفير الناس منه، فإنه يختار له أقبح الأوصاف ويخلعها عليه، كما يقول فِي صفة الورد مثلًا: إنه صرم بغل فيه روث.

وكذلك سميتم حكمته الَّتِي يحبها ويرضاها، ويفعل من أجلها علة وغرضًا، وهما لفظان لا يدلان على مدح المتصف بِهما، بل على مذمته ونقصه؛ وذلك ليسهل عليكم بعد ذلك نفي حكمته؛ لأنكم لو عمدتم إِلَى نفي الحكمة عنه قبل أن تلقبوها بِهذه الألقاب

الشنيعة؛ لأنكر ذلك عليكم العقلاء، فتوصلتم إلَى نفيها بتسميتها بِهذه الأسْماء، وهذا هو دأبكم فِي كل ما تريدون نفيه من كمالات ثابتة للَّه سبحانه، تنعتونَها أولًا بنعوت السوء وألقاب الذم، ثُمَّ تكرُّون عليها بالنفي والإبطال.

* * *

وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ قُلْـ ... ـتُـمْ إِنَّـهُ الـتَّـرْكِـيـبُ ذُو بُـطْـلَانِ

وَكَـذَاكَ وَجْـهُ الـرَّبِّ جَـلَّ جَـلَالُـهُ ... وَكَـذَاكَ لَـفْـظُ يـدٍ وَلَـفْـظُ يـدَانِ

سَـمَّـيْـتُـمُ ذَا كُـلَّـهُ الأَعْـضَـاءَ بَـلْ ... سَـمَّـيْـتُـمُـوهُ جَـوَارِحَ الإنْـسَـانِ

وَسَطَوْتُـمُ بِـالـنَّـفْـيِ حِـيـنَـئِـذٍ عَـلَـيْـ ... ـهِ كَـنَـفْـيِـنَـا لِـلْـعَـيْـبِ مَـعْ نُـقْـصَانِ

قُـلْـتُـمْ نُـنَـزِّهُـهُ عَـنِ الأَعْـرَاضِ وَالْـ ... أَغْـرَاضِ وَالأَبْـعَـاضِ وَالْـجُـثْـمَـانِ

وَعَـنِ الْـحَـوَادِثِ أَنْ تَـحِـلَّ بِـذَاتِـهِ ... سُـبْـحَـانَـهُ مِـنْ طَـارِقِ الْـحِـدْثَـانِ

وَالْـقَـصْـدُ نَـفْـيُ صِـفَـاتِـهِ وِفِـعَـالِـهِ ... وَالإسْـتِـوَاءِ وَحِـكْـمَـةِ الـرَّحْـمَـنِ

وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْظِ مَسْـ ... ـجُـونُـونَ خَـوْفَ مَـعَـرَّةِ الـسَّـجَّـانِ

وَالْـكُـلُّ إِلَّا الْـفَـرْدَ يَـقْـبَـلُ مَـذْهَـبًا ... فِـي قَـالَـبٍ وَيَـرُدُّهُ فِـي ثَـانِ

وَالْقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْـعَـالَ لَا تُـنْـفَـى بِـذَا الْـهَـذَيَـانِ

سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيسَ الشَّأْنُ فِي الْـ ... أَسْـمَـاءِ بَـلْ فِـي مَـقْـصِـدٍ وَمَـعَـانِ

الشرح: وكذلك سميتم استواءه تعالَى على العرش الثابت له بالأدلة الصريحة من الكتاب والسنة: تركيبًا؛ لتتوصلوا بذلك إلَى نفيه، حيث قلتم: لو كان فوق العرش بذاته؛ لكان جسمًا، فيكون مركبًا، والتركيب محال.

وسميتم ما وصف اللَّه به نفسه من الوجه واليد واليدين والعينين واليمين، وما وصفه به رسوله ﷺ من القدم والساق والأصبع ونحو ذلك: أعضاء، بل سميتوها جوارح، ثُمَّ سطوتم عليها بعد ذلك بالنفي، كما ينفي عنه العيب والنقص، فسويتم بين ما أثبته لنفسه من الكمال، وبين ما يجب تنْزيهه عنه من النقص، مع أنه لا يلزم أصلًا من إثبات الوجه واليدين ونحوهما أن تكون فِي اللَّه كما هي فِي الحيوان جوارح وأعضاء، وقلتم على سبيل التمويه والمغالطة: إنَّما نفينا هذه الأشياء بقصد تنْزيهه عن الأعراض والأغراض والأبعاض -أي: الأجزاء- والجثمان -أي: الجسمية- وبقصد تنْزيهه أيضًا عن أن تحل الحوادث

بذاته، مع أن قصدكم بذلك هو نفي صفاته وأفعاله واستوائه وحكمته، تعالَى اللَّه عما تقولون علوًّا كبيرًا.

ومن العجب: أن الناس -إلا أقلهم ممن عصم اللَّه- يحبسون أنفسهم فِي دائرة الألفاظ، ويؤثر فيهم جرسها وطنينها، فتذهلهم عما وراءها من معان، فإذا سمعوا لفظًا يوهم شيئًا من النقص أو التشبيه، فروا منه خشية الوقوع فيما ينافي السبحان -أي: التنْزيه-.

ومن العجب: أن الناس أيضًا كلهم -إلا الفرد بعد الفرد- تراه يقبل مذهبًا إذا صيغ له فِي قالب معين من الألفاظ، ثُمَّ يرفضه هو نفسه إذا صيغ فِي قالب آخر.

وجملة قولنا لهؤلاء النفاة: إن ذات اللَّه وصفاته وأفعاله لا يصح أن تنفى بِهذا الهراء، فإن العبرة ليست بِما يتواضعون عليه من ألفاظ وأسْماء، بل بِما وراء ذلك من معان ومدلولات، فليسموا هذه الأشياء بِما أرادوا، فإن ذلك لن يغير من الحق شيئًا.

* * *

كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الْجِسْمِ وَالتْـ ... تَجْسِيمِ لِلتَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

وَجَعَلْتُمُوهُ التُّرْسَ إنْ قُلْنَا لَكُمْ ... اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالأَكْوَانِ

قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَا ... لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

وَكَذَاكَ إنْ قُلْنَا الْقُرَانَ كَلَامُهُ ... مِنْهُ بَدَا لَمْ يَبْدُ مِنْ إنْسَانِ

كَلَّا وَلَا مَلَكٌ وَلَا لَوْحٌ وَلَـ ... كِنْ قَالَهُ الرَّحْمَنُ قَوْلَ بَيَانِ

قُلْتُمْ لَنَا إنَّ الْكَلَامَ قِيَامُهُ ... بِالْجِسْمِ أَيضًا وَهْوَ ذُو حِدْثَانِ

عَرَضٌ يقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَمْ يكُنْ ... هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

وَكَذَاكَ حِينَ نَقُولُ يَنْزِلُ رَبُّنَا ... فِي ثُلْثِ لَيلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِ

قُلْتُمْ لَنَا إنَّ النُّزُولَ لِغَيرِ أَجْـ ... سَامٍ مُحَالٌ لَيسَ ذَا إمْكَانِ

وَكَذَاكَ إنْ قُلْنَا يُرَى سُبْحَانَهُ ... قُلْتُمْ أَجِسْمٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

أَمْ كَانَ ذَا جِهَةٍ تَعَالَى رَبُّنَا ... عَنْ ذَا فَلَيسَ يرَاهُ مِنْ إنْسَانِ

الشرح: كانت شبهة الجسم والتجسيم من أعظم أسباب الضلال فِي باب الصفات، فقد جعلها المعطلة عرضة مانعة لَهم من القول بالإثبات، ونصبوها صخرة عاتية يحطمون عليها صريح الأحاديث ومحكم الآيات، واتخذوا منها ترسًا يحتمون به مما يوجه إليهم من

طعنات .

فإذا قيل لَهم : إن اللَّه فوق العرش بذاته . قالوا : لو كان فوق العرش -والعرش جسم- لكان جسمًا ؛ لأنه حينئذ يكون متحيزًا وفِي جهة ؛ ولأنه إما أن يكون مساويًا للعرش، أو أكبر منه، أو أصغر . . . إلخ ما يذكرون من هذا الهراء .

وكذلك إذا قيل لَهم : إن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق، بدا بلا كيفية قولًا ، وأنه ليس قول بشر ، ولا ملك، ولا مأخوذ من اللوح المحفوظ ، ولكنه قول اللَّه الذي تكلم به بحروفه وألفاظه بصوت نفسه، وسمعه منه جبريل عليه السلام .

قالوا : إن الكلام عرض من الأعراض الَّتِي لا تقوم إلا بالأجسام، وهو أيضًا حادث يمتنع قيامه بذاته تعالَى ، وإذا كان اللَّه تعالَى غير جسم ؛ فلا يعقل أن يقوم به الكلام الذي هو عرض؛ فإن الأعراض لا تقوم إلا بالأجسام .

وكذلك : إذا قيل لَهم ما وردت به الروايات الصحيحة من نزول الرب -تبارك وتعالَى- فِي ثلث الليل الآخر، أو فِي نصف الليل الثاني .

قالوا : إن النُّزول من خصائص الأجسام، فيمتنع أن يتصف به ما ليس بجسم، وهو اللَّه تعالَى .

وكذلك إذا قيل لَهم: إن المؤمنين سيرون ربَّهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، كما نطقت بذلك الآيات والأحاديث .

قالوا : إن الذي يصح رؤيته إنَّما هو الجسم؛ لأنه هو الذي يكون فِي جهة من الرائي، ويمكن اتصال شعاع منه إليه، أما ما ليس بجسم، ولا هو فِي جهة، فلا تمكن رؤيته .

فتدبر كيف جعل هؤلاء من لفظ الجسم طاغوتًا يهدمون به صروح الإيمان، ويخالفون من أجله موجب السنة والقرآن .

* * *

أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا	فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ
وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْـ	ـنَ الْقَلْبَ بَيـنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ
وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا	كُلُّ الْعَوَالِم وَهْيَ ذُو رَجَفَانِ
وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لأَرْضِهِ	وَسَمَائِهِ فِي الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

وَكَذَاكَ إنْ قُلْنَا سَيكْشِفُ سَاقَهُ ... فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلأذْقَانِ
وَكَذَاكَ إنْ قُلْنَا يجِيءُ لفَصْلِهِ ... بَينَ الْعَبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ
قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الْـ ... آتِي بِهَذَا الْقَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ
وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا ... بَةُ وَالأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ
لَرَجَمْتُمُونَا بِالْحِجَارَةِ إنْ قَدَرْ ... تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ ... ضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ الْعُدْوَانِ
وَجَعَلْتُمُ الْجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ ... بُطْلَانَهُ طَاغُوتَ ذَا الْبُطْلَانِ

الشرح: أما إذا أثبتنا له الوجه الذي أثبته هو لنفسه فِي قوله تعالَى من سورة الرحمن: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]. وكما فِي قوله من سورة القصص: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]. أو أثبتنا له اليدين كما فِي قوله تعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]. أو أثبتنا له الأصابع كما ورد فِي الحديث الصحيح: «**إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء**».

أو إذا قلنا بِما ورد فِي تفسير البخاري عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: «أن حبرًا من الأحبار جاء إلَى رسول اللَّه ﷺ، فقال: يا مُحمَّد، إنا نجد أن اللَّه ﷻ يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول اللَّه ﷺ، حَتَّى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثُمَّ قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]». وكذلك رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي فِي التفسير من سننيهما.

أو إذا قلنا بِما ورد فِي البخاري أيضًا من حديث أبِي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يقبض اللَّه تعالَى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثُمَّ يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!**».

أو إذا قلنا بِما رواه البخاري وغيره عن أبِي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد فِي الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا**».

أو إذا قلنا: إنه سبحانه يجيء يوم القيامة؛ لفصل القضاء بين عباده، كما قال: ﴿وَجَآءَ

رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢] .

نعم، لو قلنا بِهذا الذي نطقت به النصوص الصحيحة؛ لهيجتم علينا الدنيا، وملأتم الأرض من حولنا صخبًا وضجيجًا، ولو قلنا بالذي قاله الصحابة ﷺ، والتابعون لَهم بإحسان؛ لكان نصيبنا منكم الرجم بالحجارة بعد رجمكم لنا بألفاظ السب والعدوان، فلقد كفرتم من قال ببعض قولهم، فكيف بمن أخذ فِي عقيدته بسبيلهم، وكان الجسم الذي قدرتم بطلانه فِي حق اللَّه تعالَى هو طاغوتكم الذي أبطلتم به كل ما وردت به النصوص من الصفات؟!

* * *

وَوَضَعْتُمُ لِلْجِسْمِ مَعْنًى غَيرَ مَعْـ ... ـرُوفٍ بِـهِ فِـي وَضْـعِ كُـلِّ لِـسَـانِ

وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيهِ فَاجْـ ... ـتَـمَـعَـتْ لَـكُـمْ إِذْ ذَاكَ مَـحْـذُورَانِ

كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْيُ إِثْـ ... ـبَـاتِ الْـعُـلُـوِّ لِـفَـاطِـرِ الأَكْـوَانِ

وَرَكِبْـتُمُ إِذْ ذَاكَ تَـحْـرِيـفَـيـنِ تَـحْـ ... ـرِيـفَ الْـحَـدِيـثِ وَمُـحْـكَـمِ الْـقُـرْآنِ

وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيـنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتْـ ... ـتَـحْرِيـفِ فَـاجْـتَـمَـعَـتْ لَـكُـمْ كِـفْلَانِ

وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالْـ ... ـإِيـمَـانِ حَـتَّـى فَـاتَـكُـمْ حَـظَّـانِ

وَكَسَبْـتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَهِكُمْ ... وَالْـمُـؤْمِـنِـيـنَ فَـنَـالَـكُـمْ مَـقْـتَـانِ

وَلَبِسْتُمُ ثَوْبَينِ ثَوْبَ الْجَهْلِ وَالظْـ ... ـظُـلْـمِ الْـقَـبِـيـحِ فَـبِـئْـسَـتِ الـثَّـوْبَـانِ

وَتَخِذْتُمُ طَرْزَينِ طَرْزَ الْكِبْرِ وَالتْـ ... ـتِـيـهِ الْـعَـظِـيـمِ فَـبِـئْـسَـتِ الـطَّـرْزَانِ

وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ الْعُلَا بَاعَيْنِ لَـ ... ـكِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا الْبَاعَانِ

وَأَتَـيْـتُـمُـوهَـا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا ... لَـكِـنْ تَـسَـوَّرْتُـمْ مِـنَ الْـحِـيـطَـانِ

وَغَلَقْتُمُ بَابَيْنِ لَوْ فُتِحَا لَكُمْ ... فُـزْتُـمْ بِـكُـلِّ بِـشَـارَةٍ وَتَـهَـانِ

بَابَ الْحَدِيثِ وَبَابَ هَذَا الْوَحْيِ مَنْ ... يَـفْـتَـحْـهُـمَـا فَـلْـيَـهْـنِـهِ الْـبَـابَـانِ

الشرح: وقد فسرتم الجسم بمعنى ليس هو معناه المعروف فِي وضع جَميع اللغات، فقال المتكلمون منكم: إنه ما تركب من جواهر فردة غير قابلة للقسمة. وقال الفلاسفة: إنه المركب من هَيُولى ومن صورة. ثُمَّ بنيتم نفيكم للصفات على هذا الاصطلاح الفاسد، فاجتمع لكم بِهذا أمران، كل منهما يجب أن يحذر الوقوع فيه.

أحدهما: الكذب على لغة الرسول ﷺ، فليس فيها أبدًا وضع الجسم لِهذا المعنى الذي اصطلحتم عليه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فِي رسالته «التدمرية»: فإن لفظ الجسم للناس فيه أقوال متعددة اصطلاحية غير معناه اللغوي، فإن أهل اللغة يقولون: الجسم هو الجسد والبدن. وبِهذا الاعتبار فالروح ليست جسمًا؛ ولِهذا يقولون: الروح والجسم. كما قال تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال تعالَى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وأما أهل الكلام؛ فمنهم من يقول: الجسم هو الموجود.

ومنهم من يقول: هو القائم بنفسه.

ومنهم من يقول: هو المركب من الجواهر الفردة.

ومنهم من يقول: هو المركب من المادة والصورة.

وكل هؤلاء يقولون: إنه مشار إليه إشارة حسية.

ومنهم من يقول: ليس مركبًا من هذا، بل هو بِما يشار إليه، ويقال: إنه هنا أو هناك.

والثاني منهما: نفي صفة العلو الثابتة لفاطر الأكوان سبحانه نقلًا وعقلًا وفطرة.

وركبتم بِهذا الاصطلاح الفاسد أيضًا تحريفين:

أحدهما: تحريف الحديث.

والثاني: تحريف المحكم من آيات القرآن، فملتم بكل منهما عن أصل وضعه، وتأولتموه بِما ينفي معناه الظاهر منه من غير قرينة موجبة لذلك.

واقترفتم به أيضًا جرمين:

أحدهما: جرم النفي لما دلت عليه النصوص من الصفات.

والثاني: جرم التحريف للنصوص، وصرفها عن المعاني المرادة منها، فاجتمع لكم كفلان، أي: نصيبان من الوزر.

وحرمتم بذلك من أجرين:

أجر الصدق: حيث كذبتم على اللَّه ورسوله.

وأجر الإيمان: حيث كفرتم بِما هو ثابت من الصفات، ففاتكم بذلك حظان، أي:

نصيبان من الأجر.

وكسبتم به مقتين:

أحدهُما: مقت اللَّه لكم، حيث قلتم عليه بغير علم.

والثاني: مقت المؤمنين، حيث خالفتم سبيلهم، وأخذتم فِي سبل الغواية والشيطان.

ولبستم به ثوبين:

أحدهما: ثوب الجهل، حيث لَمْ تعرفوا ربكم بصفات كماله، وحسبتموها نقصًا.

والثاني: ثوب الظلم والعدوان، حيث تعديتم على حرمة النصوص، وجرتم عليها بالتحريف والتأويل.

وتحليتم بطرزين:

أحدهما: طرز الكبر، حيث تأبون قبول الحق، والانقياد له.

والثاني: طرز التيه والخيلاء؛ اغترارًا بِما عندكم من علم مموه، وسفسطة كاذبة.

ومددتم نحو العلا بأعين، لكن قصرت أيديكم عن تناولها؛ لأنكم لَمْ تعدوا لَهَا أسبابَها، ولَمْ تأتوها من أبوابِها، ولكن تسورتم عليها من الجدران.

وأغلقتم على أنفسكم بابين، لو فتحا لكم، لظفرتم بكل ما يسركم، وأدركتم كل ما تؤملون من خير:

أحدهما: باب الحديث الذي حرفتموه، وأنكرتموه، وطعنتم فِي نقله.

والثاني: باب هذا القرآن العظيم الذي لَمْ تتلوه حق تلاوته، فهما بابان للخير من يفتحهما بالوقوف عند نصوصهما، وتأملها حق التأمل، والاعتداد بِها، وعدم التعويل فِي الدين إلا عليها؛ فليهنه البابان، وطوبى له من موفق معان.

* * *

وَفَتحْتُمُ بَابَينِ مَنْ يفْتَحْهُمَا ... تُفْتَحْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الشَّيطَانِ

بَابَ الْكَلَامِ وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ وَالْـ ... ـبَابَ الْحَرِيقَ فَمَنْطِقُ الْيونَانِ

فَدَخَلْتُمْ دَارَينِ دَارَ الْجَهْلِ فِي الدْ ... دُنْيَا وَدَارَ الْخِزْيِ فِي النِّيرَانِ

وَطَعِمْتُمُ لَوْنَينِ لَوْنَ الشَّكِّ وَالتْ ... تِشْكِيكِ بَعْدُ فَبِئْسَتِ اللَّوْنَانِ

وَرَكِبْتُمُ أَمْرَيْنِ كَمْ قَدْ أَهْلَكَا ... مِنْ أُمَّةٍ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
تَقْدِيمَ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ
وَالثَّانِ نِسْبَتُهُمْ إِلَى الأَلْغَازِ وَالتْـ ... ـلْبِيسِ وَالتَّدْلِيسِ وَالْكِتْمَانِ
وَمَكَرْتُمُ مَكْرَيْنِ لَوْ تَمَّا لَكُمْ ... لَتَفَصَّمَتْ فِينَا عُرَى الإِيمَانِ
أَطْفَأْتُمُ نُورَ الْكِتَابِ وَسُنَّةَ الْـ ... ـهَادِي بِذَا التَّحْرِيفِ وَالْهَذَيَانِ
لَكِنَّكُمْ أَوْقَدْتُمُو لِلْحَرْبِ نَا ... رًا بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ
وَاللهُ مُطْفِيهَا بِأَلْسِنَةِ الأُلَى ... قَدْ خَصَّهُمْ بِالْعِلْمِ وَالإِيمَانِ
وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الْمُجَسِّمُ فِي دَمِ التْـ ... ـتَجْسِيمِ مِنْ قَدَمٍ إِلَى الآذَانِ
فَالنَّصُّ أَعْظَمُ عِنْدَهُ وَأَجَلُّ قَدْ ... رًا أَنْ يُعَارِضَهُ بِقَوْلِ فُلَانِ

الشرح: وكما أغلقتم على أنفسكم بَابَي الرحمة والخير والحق والإيمان، فقد فتحتم عليها بابين هما من أعظم مداخل الشيطان:

أما الأول: فهو باب الكلام والجدل المذموم، وقد نَهاكم عنه اللَّه ورسوله، قال تعالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦]. وقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف: ٥٤].

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**». وقال: «**أنا زعيم ببيت فِي ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا**».

وقد ورد عن السلف ﷺ من الآثار فِي ذم الكلام ما لا يتسع له هذا المقام، ونكتفي هنا بقول الإمام الشافعي ﷺ: «حكمي فِي أهل الكلام: أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بِهم فِي العشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة».

وقول أبِي يوسف: «من طلب العلم بالكلام تزندق».

وأما الثاني: فهو باب المنطق الذي وضعه أرسطو أشهر فلاسفة اليونان، وقد سماه المؤلف: باب الحريق؛ لأن معظم من دخلوا منه، واتخذوه آلة لعلمهم، أحرق دينهم وإيمانَهم، بسبب سوء استعمالهم له، وإلا فالمنطق قواعد عقلية مجردة، يعرف بِها تركيب الحدود وتأليف الأقيسة، ولما كانت معظم الطوائف العقلية من فلاسفة ومعتزلة وأشعرية قد ضلت بِهذا المنطق؛ حيث اتخذته أداة لتحصيل عقائد الإيمان، معرضة عن أدلة

الحديث والقرآن، فقد حمل عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وألف فِي نقضه كتبًا قيمة، تدل على ما بلغه رَحِمَهُ اللَّهُ من قدرة فِي الجدل، وبراعة فِي النقد قد لا تتاح لأحد بعده فِي الإسلام.

وكذلك دخلتم بسببه فِي دارين: دار الجهل فِي الدنيا: حين أعرضتم عن علم الكتاب والسنة.

ودار الخزي والهوان فِي الآخرة: حيث ارتكبتم من الكفر والتعطيل ما يوجب لكم نار السعير وبئس المصير.

وذقتم به لونين من الطعام:

أحدهما: لون الشك الذي أكل بمرارته قلوبكم.

والثاني: لون التشكيك الذي تفسدون به غيركم.

وركبتم بسببه أمرين، قد أهلكا الأمم الماضية قبلكم:

أولهما: تقديم آراء الرجال على الوحي المنَزل، حيث تنصرفون فِي الوحي بالنفي والتأويل، ولكنكم تأخذون كلام الناس قضايا مسلَّمة بلا دليل.

والثاني: نسبتكم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلَى الألغاز والتعمية والتدليس - أي: إخفاء الحق- والتلبيس الذي هو الكلام بخلافه والكتمان، ولا شك أن ضلال الأمم فِي الماضي إنَّما كان من هذا الباب، حيث كانوا يتركون النصوص المنَزلة، ويأخذون بِما وضع لَهَا الناس من شروح وتأويلات، ولا يزال اليهود يقدمون «التلمود» على «التوراة»، مع أنه شروح وتعليقات عليها من وضع كهنتهم وأحبارهم، الذين حرفوا كلمها عن مواضعه، وحملوا نصوصها على ما لا تدل عليه من المعاني، كما فعل أهل التأويل فِي الإسلام.

وكذلك قادكم اصطلاحكم الفاسد إلَى أن مكرتم بأهل الحق مكرين، لو أنَّهما نفذا كما أردتم؛ لانحلت منا عقد الإيمان وأواصره: وهما محاولتكم إطفاء نور القرآن والسنة بِما ابتدعتم من تحريف وهذيان، لكنكم كلما أوقدتم للفتنة نارًا؛ أطفأها اللَّه بألسنة أهل الحق والإيمان.

على أن هؤلاء الذين تسمونَهم مجسمة، وتلمزونَهم بِهذا اللقب تحقيرًا لَهم، وتنفيرًا للناس منهم؛ لو أنَّهم أوغلوا فِي هذا التجسيم إلَى أبعد مدى فهم على كل حال خير منكم؛ لأنَّهم يحترمون النصوص ويجلونَها، وهي عندهم أرفع من أن تعارض بأقوال الرجال.

فصل في كسر الطاغوت الذي نفوا به صفات ذي الملكوت والجبروت

أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لَا عَزَّ اسْمُهُ ... طَاغُوتُ ذِي الْتَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَلْ قَتِيـ ... ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الأَزْمَانِ
وَتَرَى الْجَبَانَ يَكَادُ يُخْلَعُ قَلْبُهُ ... مِنْ لَفْظِهِ تَبًّا لِكُلِّ جَبَانِ
وَتَرَى الْمُخَنَّثَ حِينَ يَقْرَعُ سَمْعَهُ ... تَبْدُو عَلَيْهِ شَمَائِلُ النِّسْوَانِ
وَيَظَلُّ مَنْكُوحًا لِكُلِّ مُعَطِّلٍ ... وَلِكُلِّ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ
وَتَرَى صَبِيَّ الْعَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ ... كَالْغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ
كُفْرَانَ هَذَا الإِسْمِ لَا سُبْحَانَهُ ... أَبَدًا وَسُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ
كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالْمُحَالِ أَمَا تَرَى ... قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السُّهْمَانِ
جِسْمٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ أَمَا ... تَعْيُونَ مِنْ فَشْرٍ وَمِنْ هَذَيَانِ
أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّاغُوتَ ثُمْـ ... ـمَ بِهِ نَفَيْتُمْ مُوجِبَ الْقُرْآنِ
وَجَعَلْتُمُوهُ شَاهِدًا بَلْ حَاكِمًا ... هَذَا عَلَى مَنْ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
أَعَلَى كِتَابِ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِاللهِ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ
فَقَضَاؤُهُ بِالْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ مِثْـ ... ـلُ قِيَامِهِ بِالزُّورِ وَالْعُدْوَانِ
وَقِيَامُهُ بِالزُّورِ مِثْلُ قَضَائِهِ ... بِالْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

الشرح: يريد المؤلف بهذه الأبيات أن يحطم طاغوت الجسم الذي نصبه المعطلة، ليصدوا به عن سبيل الحق في إثبات الصفات لله -جل شأنه- فيقول: ما أهون وأحقر هذا الطاغوت الذي وضعه أئمة الكفر والتعطيل، فهو لا عز اسمه، ولا جل شأنه، بل هو كعابديه مهين ذليل، ولكنه مع هوانه وضعفه، كم خلف في الأزمنة المتعاقبة من جريح وقتيل، وتراه إذا ذكر اسمه تطير شعاعًا منه نفس الجبان، وترى المخنث الضعيف حين يسمع لفظه يولول ويصيح، ويأتي بمثل حركات النسوان، ثُمَّ يرتمي في أحضان المعطلة والزنادقة أهل الكفران، وترى الأحمق ضعيف العقل يرتاع حين يذكر عنده، كما يرتاع الأطفال عندما تحكى لَهم قصص الغيلان، ولكننا معشر أهل الحق كفرنا به، فلا نسبح بحمده أبدًا، بل لا نسبح إلا ربنا العظيم الشأن، الذي هو أهلٌ لكل سبحان.

ثُمَّ يقول لعابدي هذا الطاغوت وناصبيه : إلَى متى تترسون بالمحال، وأنتم ترون ما صوب إليه من سهام أهلِ الحق الَّتِي مزقت لحمه، وتركته ممزع الأشلاء، وإلَى متى كلما سمعتم صفة أثبتت للرحمن من سنة أو قرآن؛ قلتم : جسم، وتجسيم، وتشبيه. أما تكِلُّون من هذا الكذب والهذيان، فأنتم بأنفسكم الذين نحتُّم هذا الصنم، ثُمَّ نفيتم به ما يقتضيه القرآن من إثبات الصفات للرحمن، وجعلتموه شاهدًا على هذا النفي، بل حاكمًا له النفوذ والسلطان، ولكن على من يحكم يا أولي الظلم والعدوان؟! أيحكم على كتاب اللَّه أم على سنة رسوله ﷺ؟! فهلا استحييتم من الرحيم الرحْمن، فحاكمكم هذا لا يقضي إلا بِجَور وعدوان، كما كان قيامه بالزور والبهتان.

* * *

كَمْ ذِي الْجَعَاجِعُ لَيسَ شَيءٌ تَحْتَهَا ... إلَّا الصَّدَى كَالْبُوم فِي الْخِرْبَانِ

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ ... جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالْوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

ذَا الْمَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّاغُوتُ قَدْ ... هَدَمَا دِيَارَكُمُ إلَى الأَرْكَانِ

وَاللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بِكَسْرِ ذَا ... وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإحْسَانِ

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لَازِمٌ ... لِمَقَالِكُمْ حَقًّا لُزُومَ بَيَانِ

فَلَنَا جَوَابَاتٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا ... مَعْلُومَةُ الإيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَا بِأَيدِيكُمْ سِوَى ... دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ عَنِ الْبُرْهَانِ

لَا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ ... بَلْ تِلْكَ حِيلَةُ مُفْلِسٍ فَتَّانِ

الشرح : فكم تطلقون من هذه الجعاجع الَّتِي لا محصول لَهَا، بل ليس وراءها إلا أصداء تتردد كما تصفر البوم فِي الخربات، ومثل تشبثكم بطاغوت الجسم، قول إخوانكم الملاحدة من المتفلسفة، الذين جحدوا صفات الرب كما جحدتُموها : لو كان موصوفًا لكان مركبًا، فإن الوصف والتركيب متحدان مفهومًا. فهذا المنجنيق الذي نصبوه وسموه التركيب، وذلك الطاغوت الذي وضعتموه وسميتموه التجسيم؛ قد اقتلعا دياركم من أساسها، حَتَّى صارت خاوية على عروشها، واللَّه ربنا سبحانه قد أعاننا على كسر منجنيقكم، وقطع طاغوتكم بمنه وكرمه.

فنقول لكم : إن زعمتم أن الجسم أو التجسيم لازم للقول بالعلو والفوقية لزومًا بينًا،

وهو ما يسميه المناطقة باللازم الذهني، وهو الذي يكفي فيه تصور الملزوم للجزم باللزوم.

قلنا: على دعواكم هذه ثلاثة أجوبة، كلها فِي غاية الوضوح والبيان.

أولها: أن نمنع هذا اللزوم الذي لا دليل لكم عليه، وإنَّما هو مجرد دعوى، لا يقبل عاقل أن يتمسك بِها، ولكنها بضاعة المفلس الذي يريد أن يموه بِها، ليفتن بِها الناس عن الحق الواضح الصريح.

* * *

فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ مَنْعَ لُزُومِهِ ... مِنْكُمْ مُكَابَرَةٌ عَلَى الْبُطْلَانِ

فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِي ... مَا تَدَّعُونَ لُزُومَهُ بِبَيَانِ

إِنْ كَانَ ذَلِكَ لَازِمًا لِلنَّصِّ وَالْـ ... مَلْزُومُ حَقٌّ وَهْوَ ذُو بُرْهَانِ

وَالْحَقُّ لَازِمُهُ فَحَقٌّ مِثْلُهُ ... أَنَّى يَكُونُ الشَّيْءُ ذَا بُطْلَانِ

وَيَكُونُ مَلْزُومًا بِهِ حَقًّا فَذَا ... عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ

فَتَعَيَّنَ الْإِلْزَامُ حِينَئِذٍ عَلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَجَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ مَانَسْتُرًا ... خَوْفًا مِنَ التَّصْرِيحِ بِالْكُفْرَانِ

وَاللَّهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ ... هَذِي مَقَالَتُنَا بِلَا كِتْمَانِ

فَجَعَلْتُمُوهَا جُنَّةً وَالْقَصْدُ مَفْـ ... هُومٌ فَنَحْنُ وِقَايَةُ الْقُرْآنِ

الشرح: يعني: إن زعمتم أن منع لزوم الجسمية لإثبات الصفات مكابرة على المحال؛ لأن التلازم واضح بين ثبوتِها لشيء وبين كونه جسمًا؛ إذ لا نرى متصفًا بِها إلا ما هو جسم.

فجوابنا الثاني: أننا نسلم هذه الملازمة، ونمنع بطلان اللازم، وهو كونه تعالَى جسم، ما دام ذلك لازمًا للنص، وما دام ملزومه -وهو النص- حقًّا ثابتًا بالبراهين الصحيحة من العقل والنقل، فإن لازم الحق لابد أن يكون حقًّا مثله؛ إذ من المعروف فِي المنطق أنه كلما ثبت الملزوم ثبت اللازم، فكيف يكون الشيء -وهو اللازم- باطل مع كون ملزومه حقًّا؟! هذا غير ممكن، بل هو عين المحال، فالإلزام الذي أردتموه على الإثبات، وهو أنه يقتضي كون الموصوف بِها جسمًا متوجهًا على كلام اللَّه ورسوله -فإنه صريح فِي الإثبات، ولكنكم بدلًا من توجيهكم هذا الإلزام إلَى النصوص ذاتِها توجهتم به إلينا جبنًا

منكم، وخشية أن تصرحوا بما تضمرون من الكفر، ونحن ما قلنا إلا بما نطقت به النصوص وهذه مقالتنا بين أيديكم، ليس فيها إلا إثبات ما أثبته الله ورسوله، فجعلتم هذه المقالة جنة ووقاية لكم من الطعن في النصوص نفسها، ولكن قصدكم واضح ومفهوم لكل أحد، وهو أن تجعلوا من مقالتنا وقاية تتقون بها الطعن في نفس القرآن، ولكن حيلتكم هذه لا تجوز على إنسان.

* * *

هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهُ هُوَ اسْـ تِـفْـسَـارُكُـمْ يَـا فِـرْقَـةَ الْـعِـرْفَـانِ
مَاذَا الَّذِي تَعْنُونَ بِالْجِسْمِ الَّذِي أَلْـزَمْـتُـمُـونَـا أَوْضِـحُـوا بِـبَـيَـانِ
تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ أَوْ عَالٍ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَوْصَافُ أَوْ صَافُ الْكَمَالِ عَدِيمَةُ النُّقْصَانِ
أَوْ مَا تَرَكَّبَ مَنْ جَوَاهِرَ فَرْدَةٍ أَوْ صُورَةٍ حَلَّتْ هَيُولَى ثَانِ
أَوْ مَا هُوَ الْجِسْمُ الَّذِي فِي الْعُرْفِ أَوْ فِي الْوَضْعِ عِنْدَ تَخَاطُبٍ بِلِسَانِ
أَوْ مَا هُوَ الْجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا كَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ
مَاذَا الَّذِي فِي ذَاكَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُو تِ عُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ
فَأْتُوا بِتَعْيِينِ الَّذِي هُوَ لَازِمٌ فَإِذَا تَعَيَّنَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ
فَأْتُوا بِبُرْهَانَيْنِ بُرْهَانِ اللُّزُو مِ وَنَفْيِ لَازِمِهِ فَذَانِ اثْنَانِ
وَاللهِ لَوْ نُشِرَتْ لَكُمْ أَشْيَاخُكُمْ عَجَزُوا وَلَوْ وَاطَاهُمُ الثَّقَلَانِ

الشرح: وأما جوابنا الثالث على إلزامكم: فهو أن نسألكم عما تعنون بالجسم اللازم على إثبات الصفات؛ لكي توضحوه لنا؟ فهل تعنون به الشيء الذي هو قائم بنفسه، بحيث لا يكون مفتقرًا إلى محل يقوم به، ولا يكون تحيزه تابعًا لتحيز غيره؟ أو تعنون به ما يصح أن يكون فوق العرش عاليًا عليه، أو ما يصح أن تقوم به صفات الكمال الَّتي لا نقص فيها بوجه من الوجوه؟.

فإن عنيتم بالجسم الذي يلزم علي إثبات الصفات واحدًا من هذه الثلاثة؛ فمسلم ومعناه صحيح في حق الله تعالى؛ إذ هو قائم بنفسه، عال على عرشه، موصوف بصفات الكمال الَّتي لا كمال وراءها، ولكننا نمنع من إطلاق لفظ الجسم؛ لعدم ورود النص به.

أم تعنون بالجسم ما تركب من جواهر فردة، كما هو اصطلاح المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة؟ أم تعنون به ما تركب من هَيُولى هي محل وصورة حالة فيها على ما هو اصطلاح الفلاسفة؟ أم تعنون به الجسم الذي يطلقه أهل العرف؟ أم تعنون به الجسم فِي اللغة الذي هو الجسد والبدن؟ أم تعنون به الجسم الكلي الموجود فِي الأذهان، والذي يقال له: الجسم التعليمي؟

فأي معنًى من هذه المعاني الَّتِي يستعمل فيها لفظ الجسم هو الذي يلزم من إثبات علوه تعالَى فوق عرشه؟ لابد أن تعينوه لنا، فإذا عينتموه ببيان صحيح لا لبس فيه، فعليكم بعد هذا أن تأتوا ببرهانين اثنين:

أحدهما: برهان على لزوم هذا المعنَى لثبوت علوه سبحانه على عرشه.

والثاني: برهان على نفي اللازم، فذانك برهانان لا يد لكم بِهما، حَتَّى ولو بعث شيوخكم من قبورهم ما استطاعوا إلَى ذلك سبيلًا، ولو كان الإنس والجن لَهم ظهيرًا.

* * *

إنْ كُنْتُمُ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا ... وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ

وَإذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إلَى الْـ ... ـوَحْيينِ لَا الْقَاضِي وَلَا السُّلْطَانِ

فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ حِينَئِذٍ جَوَا ... بًا شَافِيًا فِيهِ هُدَى الْحَيرَانِ

الْحَقُّ إثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا ... عَينُ الْمُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإمْكَانِ

فَالْجِسْمُ إمَّا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَا ... فَهْوَ الصَّوَابُ وَلَيسَ ذَا بُطْلَانِ

أَوْ لَيسَ يلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... فَشَنَاعَةُ الإلْزام بِالْبُهْتَانِ

فَالْمَنْعُ فِي إحْدَى الْمُقَدِّمَتَينِ مَعْـ ... ـلُومُ الْبَيَانِ إذَنْ بِلَا نُكْرَانِ

فَالْمَنْعُ إمَّا فِي اللُّزُوم أَوِ انْتِفَا ... ءِ اللَّازِم الْمَنْسُوبِ لِلْبُطْلَانِ

هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَمَا ... أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

الشرح: وإن كنتم كما تدعون فحولًا فِي العلم والمعرفة، وجهابذة فِي التحقيق، فابرزوا للمناجزة، وحاولوا النقض لِهذه الجوابات الَّتِي أجبنا بِها على إلزامكم، واتركوا البكاء والشكاية؛ فإنَّها لا تليق إلا بالنساء الضعيفات، وإذا كان لابد من شكوى فاجعلوا شكواكم إلَى الوحيين من الكتاب والسنة، فإنَّهما اللذان أُمرتم أن تردوا ما تنازعتم فيه

إليهما فِي قوله تعالَى من سورة النساء: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء: ٥٩] . ولا تجعلوا شكواكم إلَى من لا نصفة عنده من قاض أو سلطان، تستعدونه وتغرونه بأهل الحق والإيمان.

ونَحن نجيبكم حينئذ بمعارضة لدليلكم، جوابًا فيه الشفاء والهدى لعقولكم الضالة الحائرة.

فنقول لكم: إن إثبات الصفات حق لا ريب فيه، كما تقتضي ذلك البراهين المكاثرة من العقل والنقل والفطرة، وحينئذ فالجسم إن كان لازمًا لثبوتِها فهو حق وصواب، ونمنع بطلانه وننازعكم فِي هذا البطلان، وإن لَمْ يكن لازمًا على ثبوت الصفات منعنا الملازمة، ويكون تشنيعكم علينا بِهذا الإلزام بَهتًا ومكابرة.

والحاصل: أن منعنا لإحدى المقدمتين من دليلكم أمر بَيِّنٌ لا خفاء فيه، فنحن إما أن نمنع اللزوم، ونقول: إنه لا يلزم الجسم على ثبوت الصفات. وإما أن نمنع بطلان اللازم الذي هو الجسم الذي زعمتم بطلانه.

فهذا دليلكم المتهافت الذي نصبتموه طاغوتًا نفيتم من أجله صفات الرحْمن، انظروا إلَى ما صار إليه من ذلة وهوان.

فصل في مبدأ العداوة الواقعة بين المثبتين الموحدين وبين النفاة المعطلين

يَا قَوْمُ تَدْرُونَ الْعَدَاوَةَ بَينَنَا ... مِنْ أَجْلِ مَاذَا فِي قَدِيمِ زَمَانِ

إِنَّا تَخَيَّرْنَا إِلَى الْقُرْآنِ وَالنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ مُفَسِّرِ الْقُرْآنِ

وَكَذَا إِلَى الْعَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الرْ ... رَحْمَنِ قَبْلَ تَغَيُّرِ الإِنْسَانِ

هِي أَرْبَعٌ مُتَلَازِمَاتٌ بَعْضُهَا ... قَدْ صَدَّقَتْ بَعْضًا عَلَى مِيزَانِ

وَاللهِ مَا اجْتَمَعَتْ لَدَيْكُمْ هَذِهِ ... أَبَدًا كَمَا أَقْرَرْتُمُ بِلِسَانِ

إِذْ قُلْتُمُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ يعَارِضُ الْـ ... ـمَنْقُولَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

فَنُقَدِّمُ الْمَعْقُولَ ثُمَّ نُصَرِّفُ الْـ ... ـمَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ ذِي الأَلْوَانِ

فَإِذَا عَجَزْنَا عَنْهُ أَلْقَيْنَاهُ لَمْ ... نَعْبَأْ بِهِ قَصْدًا إِلَى الإِحْسَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف فِي هذه الأبيات أهل النفي والتعطيل وأرباب الجحد

والتأويل، مبينًا لَهم سبب العداوة بينهم وبين أهل الإثبات منذ الزمان الأول، فيقول: إنه لا سبب لذلك إلا أننا أخذنا عقيدتنا فِي إثبات الصفات من مصادرها الأصلية، الَّتِي لا يعول فِي هذا الباب إلا عليها، فأخذناها من القرآن العظيم الذي هو أساس كل علم ومعرفة، ثُمَّ من السنن الصحيحة المبينة للكتاب، ثُمَّ من العقل الصريح الخالص من شوائب الهوى والتقليد، ثُمَّ من الفطرة الأولى الَّتِي فطر اللَّه الناس عليها قبل أن تتغير بالتبعية والتلقين، وهي الَّتِي عناها الرسول ﷺ بقوله: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يُمجسانه**».

فهذه المصادر الأربعة متلازمة فِي الوجود، متضافرة على الإثبات، يصدق بعضها بعضًا على سواء، ولكنكم لَمْ تعولوا فِي هذا الباب إلا على أوهام فاسدة وتخيلات كاذبة، فلم تجتمع لكم أبدًا هذه الأمور كما اجتمعت لنا، وأنتم تقرون على أنفسكم بذلك، حيث تزعمون أن العقل الصحيح قد يعارض النقل من كتاب ومن سنة، ومن ثَمَّ تقدمون المعقول؛ لأنه -فِي زعمكم- قطعي يفيد اليقين، ثُمَّ تتصرفون فِي المنقول بالتأويلات المتعددة على ما فيها من بعد وتكلف سمج، فإذا عجزتم عن التأويل، أنكرتم النصوص، وطرحتموها جانبًا قصدًا منكم إِلَى الإحسان، وما هو إلا النفاق والنكران.

* * *

وَلَكَمْ بِذَا سَلَفٌ لَهُمْ تَابَعْتُمُ ... لَـمَّـا دُعُـوا لِـلأَخْـذِ بِـالْـقُـرْآنِ

صَدُّوا فَلَمَّا أَنْ أُصِيبُوا أَقْسَمُوا ... لَـمُـرَادُنَـا تَـوْفِـيـقُ ذِي الإِحْـسَـانِ

وَلَقَدْ أُصِيبُوا فِي قُلُوبِهِمُ وَفِي ... تِـلْـكَ الْـعُـقُـولِ بِـغَـايَـةِ الـنُّـقْـصَـانِ

فَـأَتَـوْا بِـأَقْـوَالٍ إِذَا حَـصَّـلْـتَـهَـا ... أَسْـمِـعْـتَ ضَـحْـكَـةَ هَـازِلٍ مَـجَّـانِ

هَذَا جَزَاءُ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْهُدَى ... مُـتَـعَـوِّضِـيـنَ زَخَـارِفَ الْـهَـذَيَـانِ

الشرح: يعني: أن لكم فِي هذا الادعاء الكاذب -وهو قصد التوفيق والإحسان بتأويل النصوص- سلفًا من المنافقين، جريتم فِي ذلك على نَهجهم، فقد دعو إِلَى التحاكم إِلَى ما أنزل اللَّه، وإِلَى الرسول، فأبدوا الإعراض والصدود، فلما أصابتهم مصيبة بِما قدمت أيديهم، جاءوا إِلَى الرسول ﷺ يقسمون له: ما أردنا بالتحاكم إِلَى غيرك إلا الإحسان والتوفيق.

والمصنف يشير بذلك إِلَى قوله تعالَى فِي شأن هؤلاء المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٣].

ولقد أصيب هؤلاء الحمقى المتهوكون بعمى فِي قلوبِهم، وفساد فِي عقولهم جزاء إعراضهم عما جاءهم به نبيهم من الهدى، واستعاضتهم عنه بأقوال مزخرفة مموهة، كلها سفسطة وهذيان، لا يملك من يطلع عليها إلا أن يضحك ملء شدقيه كما يضحك الهازل المجان.

* * *

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِشَيخِ الْقَوْمِ إذْ ... يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذِي طُغْيَانِ
ثُمَّ ارْتَضَى أَنْ صَارَ قَوَّادًا لأَرْ ... بَابِ الْفُسُوقِ وَكُلِّ ذِي عِصْيَانِ
وَكَذَاكَ أَهْلُ الشِّرْكِ قَالُوا كَيفَ ذَا ... بَشَرٌ أَتَى بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
ثُمَّ ارْتَضَوْا أَنْ يجْعَلُوا مَعْبُودَهُمْ ... مِنْ هَذِهِ الأَحْجَارِ وَالأَوْثَانِ
وَكَذَاكَ عُبَّادُ الصَّلِيبِ حَمَوْا بَتَا ... رِكَهُمْ مِنَ النِّسْوَانِ وَالْوِلْدَانِ
وَأَتَوْا إلَى رَبِّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... جَعَلُوا لَهُ وَلَدًا مِنَ الذُّكْرَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ نَزَّهَ رَبَّهُ ... عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ
حَذَرًا مِنَ الْحَصْرِ الَّذِي فِي ظَنِّهِ ... أَوْ أَنْ يرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ
فَأَصَارَهُ عَدَمًا وَلَيسَ وُجُودُهُ ... مُتَحَقِّقًا فِي خَارِجِ الأَذْهَانِ

الشرح: بعد أن ضرب لَهم مثلًا بالمنافقين فِي إعراضهم عن حكم اللَّه ورسوله إلَى حكم طواغيتهم؛ ضرب لَهم مثلًا كذلك بإبليس رأس الضلال والشر، حيث امتنع عما أمره اللَّه به من السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كبرًا منه ومجاوزة للحد، ثُمَّ ارتضى بعد أن رجمه اللَّه ولعنه أن يصير قوادًا لأهل الفسوق والعصيان، يزين لَهم الفواحش، ويغريهم بالإثم والعدوان.

وكذلك: المشركون عبدة الأوثان أنكروا أن يكون الرسول الذي يأتِي بالوحي والقرآن بشرًا من بني الإنسان، وقالوا ما حكاه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عنهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾

[الإسراء: ٩٤]. ثُمَّ ارتضوا بعد ذلك أن يكون معبودهم من الأحجار والأوثان.

وكذلك: النصارى عباد الصليب لَمْ يرضوا لبطارقتهم وقسيسيهم أن يكون لَهم زوجات وأولاد، ورأوا ذلك عيبًا فِي حقهم، ثُمَّ يعمدون إِلَى ربِّهم الأعلى، رب السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فينسبون إليه الولد، ويقولون: إن عيسى ابن اللَّه. قولًا بأفواههم، يضاهئون به قول الذين كفروا من قبلهم، قاتلوهم اللَّه أنى يؤفكون؛ فانظر كيف أنَّهم لَمْ يجعلوا ربَّهم حَتَّى مساويًا لرؤسائهم من القسيسين والرهبان، فينَزهوه عما نزهوهم عنه من النسوان والولدان.

ومثل هؤلاء جميعًا ذلك الجهمي الذي ينَزه ربه عن أن يكون فوق عرشه؛ خوفًا من وصفه بالحد والنهاية فِي زعمه، أو أن يكون فِي حيز ومكان، ثُمَّ رضي أن يصفه بصفات المعدوم، الذي لا وجود له إلا فِي الأذهان.

* * *

لَكِنَّمَا قُدَمَاؤُكُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... نَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُلِّ مَكَانِ

جَعَلُوهُ فِي الْآبَارِ وَالْأَنْجَاسِ وَالْـ ... حَانَاتِ وَالْخَرِبَاتِ وَالْقِيعَانِ

وَالْقَصْدُ أَنَّكُمُ تَحَيَّزْتُمْ إِلَى الْـ ... آرَاءِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ

فَتَلَوَّنَتْ بِكُمُ فَجِئْتُمْ أَنْتُمُ ... مُتَلَوِّنِينَ عَجَائِبَ الْأَكْوَانِ

وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَدْ قَالَهُ الْأَشْيَاخُ عَرْضَ وِزَانِ

وَجَعَلْتُمُ أَقْوَالَهُمْ مِيزَانَ مَا ... قَدْ قَالَهُ وَالْعَوْلُ فِي الْمِيزَانِ

وَوَرَدْتُمُ سُفْلَ الْمِيَاهِ وَلَمْ نَكُنْ ... نَرْضَى بِذَاكَ الْوِرْدِ لِلظَّمْآنِ

وَأَخَذْتُمْ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ ... نُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

وَجَعَلْتُمُ تُرُسَ الْكَلَامِ مِجَنَّكُمْ ... تَبًّا لِذَاكَ التُّرْسَ عِنْدَ طِعَانِ

الشرح: ولكن قدماء هؤلاء المعطلة كانوا يقولون بحلول الذات فِي جَميع الأمكنة، فحكموا على ربِّهم بالوجود فِي الأماكن القذرة من الآبار، ومواضع النجاسات، وحانات الخمور، وخرائب الدور، وقيعان الأرض، وهي الأراضي المستوية السبخة الَّتِي لا تصلح للإنبات.

والقصد: أن هؤلاء المعطلة بدلًا من أن يتحيزوا إِلَى القرآن والسنة الصحيحة وحكم

العقل الصريح والفطرة السليمة؛ تحيزوا إِلَى آراء فلان وفلان على كثرة ما فيها من خلط وهذيان، فتلونت بِهم هذه الآراء، حيث ألبسوها أثوابًا من جدلهم وسفسطاتِهم، ثُمَّ تلونوا هم بِها حَتَّى ظهروا فِي ألوان مزرية عجيبة، ثُمَّ هم مع تحيزهم لِهذه الآراء يقدمونَها على قول المعصوم ﷺ، فيعرضون ما قاله هو على ما قالته شيوخهم للموازنة بينهما، ثُمَّ يجعلون أقوالهم هي الميزان لما قاله مع العول -أي: النقص- فِي هذا الميزان.

وقد رضي هؤلاء المعطلة لأنفسهم أن يردوا هذه المياه الآجنة، وأن يعبوا منها وينهلوا، مع أنَّها لا تصلح وردًا لذي الصدى الظمآن، ولكننا نَحن نرد أعالي المياه، فنشرب صفوًا خاليًا من الكدر والقذى، وهم يسيرون فِي الطرق الصغيرة الضيقة، ويتركون الجادة الواسعة، ولكننا نَحن نمشي على صراط مستقيم، وهم يتترسون عند المخاصمة بقواعد الكلام، ويجعلون منها مجنة يحتمون بِها من وقع السهام، فتبًّا لِهذا الترس الذي لا يقي صاحبه عند الطعان.

* * *

وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الْحَدِيثِ بِأَسْهُمِ	عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الْفُؤَادِ جَبَانِ
فَتَتَرَّسُوا بِالْوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي	تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسُ لِلشُّجْعَانِ
هُوَ تُرْسُهُمْ وَاللهِ مِنْ عُدْوَانِكُمْ	وَالتُّرْسُ يَوْمَ الْبَعْثِ مِنْ نِيرَانِ
أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ	لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ
وَدَعَوتُمُونَا لِلَّذِي قُلْتُمْ بِهِ	قُلْنَا مَعَاذَ اللهِ مِنْ خِذْلَانِ
فَاشْتَدَّ ذَاكَ الْحَرْبُ بَينَ فَرِيقِنَا	وَفَرِيقِكُمْ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَانِ
وَتَأَصَّلَتْ تِلْكَ الْعَدَاوَةُ بَينَنَا	مِنْ يَوْمِ أَمْرِ اللهِ لِلشَّيْطَانِ
بِسُجُودِهِ فَعَصَى وَعَارَضَ أَمْرَهُ	بِقِيَاسِهِ وَبِعَقْلِهِ الْخَوَّانِ
فَأَتَى التَّلَامِيذُ الْوِقَاحُ فَعَارَضُوا	أَخْبَارَهُ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ
وَمُعَارِضٌ لَلأَمْرِ مِثْلُ مُعَارِضِ الْـ	أَخْبَارِ هُمْ فِي كُفْرِهِمْ صِنْوَانِ

الشرح: يعني: أنكم حين رميتم أهل الحديث بسهام كلامكم المفلولة بدافع من حقدكم الأسود فِي جبن ونذالة؛ تترسوا منكم بالوحي -أي: القرآن- وبالسنن الَّتِي تتلوه -أي: تتبعه- وهما نعم الترس للشجعان، فهذا هو ترسهم فِي الدنيا من سهام كيدكم وعدوانكم، وهو ترسهم فِي الآخرة من عذاب النيران، أفتظنون أنَّهم يتركون ذلك من أجل

ما تشغبون به من فشر وهذيان، إن ذلك لا يكون أبدًا بفضل الرحمن.

وحين دعوتمونا لأن ندخل فيما دخلتم فيه من مضايق الشيطان، ونقول بالذي قلتموه من زور وبُهتان؛ قلنا: نعوذ بالله، ونعتصم به من الخذلان، فاشتدت من أجل ذلك بيننا وبينكم الحرب العوان، وكانت العداوة قد تأصلت بيننا من قديم الزمان، حين أمر الله شيخكم وأستاذكم الشيطان بالسجود لآدم، فأظهر العصيان، وعارض أمر الله الواحد الديان، بقياسه الفاسد وعقله الخوان حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فجئتم أنتم أيها التلاميذ الوقحاء بعد أستاذكم إمام أهل الخيبة والشقاء، فعارضتم أخبار ربكم بالفشر والهراء، كما عارض هو أمره بالاستكبار والإباء، ومعارض الأخبار النازلة من عند رب السماء هو في الجرم كمعارض أمره من طين.

* * *

مَنْ عَارَضَ الْمَنْصُوصَ بِالْمَعْقُولِ قِدْ ... مًا أَخْبِرُونَا يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

أَوَمَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ الْقَدَرِيُّ وَالْـ ... جَبْرِيُّ أَيضًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِي ... لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

فَاحْتَجَّ بِالْمَقْدُورِ ثُمَّ أَبَانَ أَنْـ ... نَ الْفِعْلَ مِنْهُ بِغَيَّةٍ وَزِيَانِ

فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخَ بِالتْـ ... تَعْصِيبِ وَالْمِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ

فَسَأَلْتُكُمْ بِاللهِ مَنْ وُرَّاثُهُ ... مِنَّا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ

هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا ... إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَلَتْ إِلَى ذَا الآنِ

أَصَّلْتُمُ أَصْلًا وَأَصَّلَ خَصْمُكُمْ ... أَصْلًا فَحِينَ تَقَابَلَ الأَصْلَانِ

ظَهَرَ التَّبَايُنُ فَانْتَشَتْ مَا بَيْنَنَا الْـ ... حَرْبُ الْعَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

المفردات: قدمًا: قديمًا. القدري: من لا يؤمن بالقدر السابق. الجبري: نسبة إلى الجبر، وهو من يقول: إن العبد مجبور على فعله. الغية: واحدة الغي، وهو ضد الرشد. الزيان: ما يتزين به الميراث. بالتعصيب: أن يكون الوارث عصبة للمورث كالأب والأخ والعم. أصل الشيء: وضع أصوله وقواعده.

الشرح: يقول المؤلف لهؤلاء الغاوين الذين اتخذوا من إبليس اللعين قدوة لَهم في

الضلال والغي: من ذا الذي كان أول من استعمل القياس، وعارض الأمر المنصوص بالرأي المعقول؟ أخبرونا به إن كنتم كما تدعون من أولي المعرفة والتحقيق، أولَمْ تعرفوا أنه إبليس رأس الشر؟ ذلك القدري الجبري الذي جمع بين الضدين، كما حكى ذلك عنه القرآن العظيم حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]. فاحتج بالمقدور حين قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾. فكان جبريًّا، ثُمَّ أظهر أن أفعال العباد تقع بإغوائه وتزيينه هو، فكان قدريًّا.

فانظر كيف ورث القدرية والمجبرة وغيرهم من فرق الضلال ميراث أستاذهم الأول بطريق التعصيب، بحيث أصبح مقسومًا بينهم على أسهمهم، ونَحن نستحلفهم باللَّه أن يخبرونا من أحق منا ومنهم بميراث هذا الشيطان الرجيم؟ بعدما وضحنا لَهم القول بأنه هو الذي أسس لَهم كل باطل من الرأي ذميم، وهو الذي ألقى العداوة بين الفريقين من أوليائه وأعدائه، فاستمرت مستعرة حَتَّى الآن، ولا تزال كذلك مادام فِي الأرض حق وباطل حَتَّى يرث اللَّه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ وذلك لأن أهل الباطل قد أصلوا لأنفسهم أصولًا، وأصل خصومهم من أهل الحق أصولًا، ولن يتلاقى الأصلان أبدًا، بل بينهما من التباين ما بين الليل والنهار؛ ولِهذا قامت الحرب بيننا، واشتد أوارها، وتنادى الأقران من كل مكان، وطلبوا المبارزة والطعان.

* * *

أَصَّلْتُمُ آرَا الرِّجَالِ وَخَرْصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ

هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ ... نَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ ... يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلَانِ

وَالْخَصْمُ أَصَّلَ مُحْكَمَ الْقُرْآنِ مَعْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ ... نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا الْبُنْيَانِ

وَعَلَى شَفَا جُرُفٍ بَنَيتُمْ أَنْتُمُ ... فَأَتَتْ سُيولُ الْوَحْيِ وَالإِيمَانِ

قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ ... تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلْأَرْكَانِ

اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيتُمْ ذَلِكَ الْـ ... بُنْيَانَ حِينَ عَلَا كَمِثْلِ دُخَانِ

تَسْمُو إِلَيهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ ... وَهُوَ الْوَضِيعُ وَلَوْ يُرَى بِعِيَانِ

فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ... قَاهُ قَرِيبًا فِي الْحَضِيضِ الدَّانِي

المفردات: الخرص: التخمين والكذب. سلطان: حجة. شفا جرف: الشفا: الحرف والشفير. والجرف: البئر الَّتِي لَمْ تطو، أو الهوة، والمعنَى: على طرف حفرة. خر: سقط ووقع. وهنًا: قليلًا.

الشرح: أما أصلكم الذي أصلتم: فهو تقليد الرجال، والأخذ بآرائهم المبنية على التخرص والتخمين بلا حجة ولا دليل، وهذه الآراء كذلك كثيرة ومتضاربة، يناقض بعضها بعضًا، فكل من أصحاب المذاهب والمقالات له رأي يدعو إليه، ويمنع من الأخذ برأي غيره، فقولوا لنا برأي مَنْ مِنْ هؤلاء نزن نصوص الكتاب والسنة مع تضاربِها وتناقضها؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فِي «الفتوى الحموية» فِي هذا الصدد: «ثُمَّ المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين لِهذا الباب فِي أمر مريج، فإن من ينكر الرؤية، يزعم أن العقل يحيلها، وأنه مضطر فيها إلَى التأويل، ومن يحيل أن للَّه علمًا وقدرة، وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك؛ يقول: إن العقل أحال ذلك. فاضطر إلَى التأويل، بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد، والأكل والشرب الحقيقي فِي الجنة؛ يزعم أن العقل أحال ذلك، وأنه مضطر إلَى التأويل، ومن يزعم أن اللَّه ليس فوق العرش؛ يزعم أن العقل أحال ذلك، وأنه مضطر إلَى التأويل.

ويكفيك دليلًا على فساد قول هؤلاء: أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب ما يدَّعي الآخر أن العقل أحاله، يا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟» اهـ.

وأما خصومكم من أهل الحق؛ فقد اتَّخذوا أصلًا لَهم: محكم القرآن، وسنة الرسول، وفطرة الرحْمن، وهي أقوى الأصول وأثبتها؛ ولِهذا حين بنوا عليها؛ شمخ بناؤهم، وبلغ أجواز السماء، فما أعظمه من بناء، وأما أنتم فحين بنيتم على أصلكم الواهي المنهار بنيتم على شفا جرف هار، فما لبثت سيول الحق أن جرفته أمامها، واقتلعته من أساسه، فخر سقفه، وتداعت أركانه، وهكذا الباطل دائمًا مهما علا وارتفع لا ثبات له ولا قرار، فهو أشبه شيء بالدخان، يراه الناظر متصعدًا فِي السماء، حَتَّى يغيب فِي ارتفاعه عن العيون، مع أنه أوضع شيء وأسفله لو كانوا يعلمون، وإن شئت أن تعرف ذلك فاصبر له قليلًا من الزمان، ثُمَّ رد البصر إليه؛ تلقه قد نزل إلَى أسفل مكان، وما أحسن قول اللَّه ﷻ فِي وصف الحق والباطل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧] .

فصل في ان التعطيل اساس الزندقة والكفران والإثبات اساس العلم والإيمان

مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ لَيسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ قِيَامَ مَعَانِ
كَلَّا وَلَيسَ الأَمْرُ أَيضًا قَائِمًا ... بِالرَّبِّ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوَانِ
كَلَّا وَلَيسَ اللهُ فَوْقَ عِبَادِهِ ... بَلْ عَرْشُهُ خِلْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَثَلَاثَةٌ وَاللهِ لَا تُبْقِي مِنَ الْـ ... إِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ بِوِزَانِ
وَقَدِ اسْتَرَاحَ مُعَطِّلٌ هَذِي الثَّلَا ... ثَ مِنَ الإِلَهِ وَجُمْلَةِ الْقُرْآنِ
وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِهِ وَشَرِيعَةِ الْـ ... إِسْلَامِ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَدْيَانِ
وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودُهُ لِصِفَاتِهِ ... وَالذَّاتُ دُونَ الْوَصْفِ ذُو بُطْلَانِ
وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانِ إِقْرَارُ الْفَتَى ... بِاللَّهِ فَاطِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
فَإِذَا أَقَرَّ بِهِ وَعَطَّلَ كُلَّ مَفْـ ... رُوضٍ وَلَمْ يَتَوَقَّ مِنْ عِصْيَانِ
لَمْ يَنْقُصِ الإِيمَانُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ ... أَنَّى وَلَيسَ بِقَابِلِ النُّقْصَانِ

الشرح: يعني: أن من أنكر أن يكون اللهﷻ فاعلًا بفعل هو وصف له قائم بذاته قيام المعنى بالموصوف، وأنكر أن يكون للّه أمر هو آمر به، بل جعل أمره من جملة الأشياء المخلوقة، وأنكر كذلك أن يكون اللّه فوق عرشه بذاته، بل عطل عرشه منه، فماذا بقي له بعد إنكاره لِهذه الثلاثة من الإيمان؟! إنه لَمْ يبق من إيمانه ما يزن حبة خردل، وقد استراح بِهذا التعطيل والإنكار من اللّه وكتابه ورسوله ودينه ومن شرائع الإسلام كلها، بل من الأديان جملة، وأصبح زنديقًا متجردًا من جَميع الأديان.

ومن تَمام ذلك التعطيل والإنكار: جحدهم لصفات الرب -جل شأنه- فإنه لا يعقل وجود ذات فِي الخارج مجردة عن الصفات، فتعطيل الصفات هو كتعطيل الذات.

ومن تمام ذلك أيضًا: اعتقاد الجهمية بأن الإيمان هو مُجرد الإقرار باللّه خالق الأكوان، فمتى أقر به؛ فقد كمل إيمانه مهما عطل من فرائض، ومهما ارتكب من عصيان، فإن هذا الإيمان عندهم ليس بقابل للنقصان، وقد تقدم الكلام عن هذا المذهب فِي أول الكتاب.

وَتَـمَـامُ هَـذَا قَـوْلُـهُ إِنَّ الـنُّـبُـوْ ... وَةَ لَـيـسَ وَصْـفًـا قَـامَ بِـالإِنْـسَـانِ
لَكِنْ تَعَلُّقُ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَدِيـ ... ـم بِـوَاحِـدٍ مِـنْ جُـمْـلَـةِ الإِنْـسَـانِ
هَـذَا وَمَـا ذَاكَ الـتَّـعَـلُّـقُ ثَـابِـتًـا ... فِـي خَـارِجٍ بَـلْ ذَاكَ فِـي الأَذْهَـانِ
فَـتَـعَـلُّـقُ الأَقْـوَالِ لَا يُـعْـطِـي الَّـذِي ... وَقَـفَـتْ عَـلَـيْـهِ الْـكَـوْنُ فِـي الأَعْـيَـانِ
هَـذَا إِذَا مَـا حَـصَّـلَ الْـمَـعْـنَـى الَّـذِي ... قُـلْـتُـمْ هُـوَ الـنَّـفْـسِـيُّ فِـي الْـبُـرْهَـانِ
لَـكِـنَّ جُـمْـهُـورَ الـطَّـوَائِـفِ لَـمْ يـرَوْا ... ذَا مُـمْـكِـنًـا بَـلْ ذَاكَ ذُو بُـطْـلَانِ
مَـا قَـالَ هَـذَا غَـيـرُكُـمْ مِـنْ سَـائِـرِ الـنْـ ... نُـظَّـارِ فِـي الآفَـاقِ وَالأَزْمَـانِ
تِـسْـعُـونَ وَجْـهًـا بَـيَّـنَـتْ بُـطْـلَانَـهُ ... لَـوْلَا الْـقَـرِيـضُ لَـسُـقْـتُـهَـا بِـوِزَانِ

الشرح: هذه الأبيات فيها إلزام للأشاعرة والكلابية القائلين بالكلام النفسي بأنَّهم ينفون وصف النبوة، وينكرون قيامه بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وذلك لأن معنى لفظ النَّبِيِّ عندهم قديم قائم بذاته تعالَى، كغيره من المعاني النفسية الَّتِي هي كلامه، فمعنى النبوة عندهم إذن هو تعلق ذلك المعنَى القديم بواحد من الناس، فيصير بذلك نبيًّا، ومعلوم أن هذه التعلقات أمور عدمية، لا وجود لَهَا فِي الخارج، بل إنَّما يفرض وجودها فِي الأذهان، فتعلق الأقوال بشيء إذن لا يعطى ما تعلقت به الوجود فِي الأعيان، مادام هذا التعليق عدميًّا، وبذلك لا يكون تعلق لفظ النَّبِيِّ بواحد من الناس بمكسب له صفة النبوة، هذا إذا ما صح القول بالكلام النفسي، وقام البرهان على ثبوته، مع أن جُمهور الطوائف من المتكلمين والفلاسفة ينكره، ويراه محالًا، فلم يقل به أحد من النظار غيركم فِي سائر الجهات وفِي جَميع الأزمان.

وقد ألف شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة فِي إبطال الكلام النفسي، بلغ بِهَا نحوًا من تمانين وجهًا، وقد أوصلها تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلَى تسعين وجهًا، ثُمَّ قال: لولا صعوبة إيرادها فِي الشعر؛ لسقتها موزونة مقفاة.

* * *

يَـا قَـوْمُ أَيْـنَ الـرَّبُّ أَيْـنَ كَـلَامُـهُ ... أَيْـنَ الـرَّسُـولُ فَـأَوْضِـحُـوا بِـبَـيَـانِ
مَـا فَـوْقَ عَـرْشِ الـرَّبِّ مَـنْ هُـوَ قَـائِـلٌ ... طَـهَ وَلَا حَـرْفًـا مِـنَ الْـقُـرْآنِ
وَلَـقَـدْ شَـهِـدْتُـمْ أَنَّ هَـذَا قَـوْلُـكُـمْ ... وَالـلـهُ يَـشْـهَـدُ مَـعْ أُولِـي الإِيـمَـانِ

وَارَحْمَتَاهُ لَكُمْ غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ
وَنَسَبْتُمُ لِلْكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ ... بِاللَّهِ وَالإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
هَذِي بِضَاعَتُكُمْ فَمَنْ يَسْتَامُهَا ... فَقَدِ ارْتَضَى بِالْجَهْلِ وَالْخُسْرَانِ
وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُكُمْ فِي مَبْدَإٍ ... وَمَعَادِنَا أَعْنِي الْمَعَادَ الثَّانِي
وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُكُمْ بِفَنَاءِ دَا ... رِ الْخُلْدِ فَالدَّارَانِ فَانِيَتَانِ
يَا قَوْمَنَا بَلَغَ الْوُجُودُ بِأَسْرِهِ الدْ ... دُنْيَا مَعَ الأُخْرَى مَعَ الإِيمَانِ
وَالْخَلْقَ وَالأَمْرَ الْمُنَزَّلَ وَالْجَزَا ... وَمَنَازِلَ الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

الشرح: فقولوا لنا: أين الرب إذا كنتم إذن تنكرون وجوده فوق عرشه، وتجحدون قيام كل صفة به؟ وأين كلامه إذن إذا كنتم لا تؤمنون بأن هذا القرآن هو كلامه، وأنه قائم به قيام المعنَى بموضوعه؟ وأين الرسول إذن إن كنتم لا تقرون بقيام معنى الرسالة به، وتردون الأمر إلَى التعليق وحده؟

فالحق: أنكم لا تؤمنون بأن فوق العرش ربًّا قال، أو يقول، أو هو قائل، متكلم بـ«طه» أو بغيرها من القرآن، وأنتم تشهدون على أنفسكم بذلك، واللَّه يشهد عليكم بذلك أيضًا، والمؤمنون يشهدون، وا حسرتاه عليكم، قد أضعتم نصيبكم من كل معرفة وإيمان حين قلتم هذا الزور والبهتان.

ومن العجب: أنكم تنسبون إلَى الكفر من هو أولى وأحق منكم باللَّه والإيمان والقرآن، فهذه بضاعتكم الفاسدة تنادي على نفسها بالبوار، فمن يطلبها ويسومها، فقد رضي لنفسه بالجهل والخسران.

ومن تمام زندقتكم وإلحادكم: قولكم فِي المبدأ: إن هذا العالم بقي معدومًا مدة لا نِهاية لَهَا من الزمان، قبل أن يخلقه اللَّه. فاللَّه عندكم لَمْ يكن فاعلًا ثُمَّ فعل، وقولكم فِي المعاد: إن اللَّه يعدم هذا العالم ويفنيه بالكلية، ثُمَّ يعيده عن عدم محض.

ومن تمام ذلك أيضًا: قولكم بأن الجنة والنار غير باقيتين، بل يجيء عليهما وقت يفنيان فيه هُما وأهلهما، فإنكاركم وجحودكم قد انتظم الوجود كله، الدنيا والآخرة والإيمان، والخلق والأمر المنَزل، والثواب والعقاب، ومنازل الجنات والنيران.

وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدُ فَمِنْهُمُ ... ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَينِ وَالسُّهْمَانِ
بِئْسَ الْمُوَرِّثُ وَالْمُوَرَّثُ وَالتُّرَا ... ثُ ثَلَاثَةٌ أَهْلٌ لِكُلٍّ هَوَانِ
يَا وَارِثِينَ نَبِيَّهُمْ بُشْرَاكُمُ ... مَا إِرْثُكُمْ مَعَ إِرْثِهِمْ سِيَّانِ
شَتَّانَ بَينَ الْوَارِثِينَ وَبَينَ مَوْ ... رُوثَيهِمَا وَسِهَامِ ذِي سُهْمَانِ
يَا قَوْمُ مَا صَاحَ الأَئِمَّةُ جَهْدَهُمْ ... بِالْجَهْمِ مِنْ أَقْطَارِهَا بِأَذَانِ
إِلَّا لِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَقْوَالِهِ ... وَمَآلِهَا بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ
قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْمٍ عِنْدَنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيسَ يَجْتَمِعَانِ
نَصَحُوكُمُ وَاللهِ جَهْدَ نَصِيحَةٍ ... مَا فِيهِمُ وَاللهِ مِنْ خَوَّانِ
فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ ... وَرَسُولُهُ أَنْ تَفْعَلُوا بِجِنَانِ
فَإِذَا أَبَيْتُمْ فَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتْـ ... ـتَبَعَ الْهُدَى وَانْقَادَ لِلْقُرْآنِ

الشرح: يعني: أن جهمًا وشيعته -قبحهم اللَّه- حين وضعوا أصول هذه الضلالات؛ ورثها عنهم من بعدهم من أرباب المذاهب والمقالات، كالمعتزلة والفلاسفة والأشعرية، كل على قدر نصيبه منها، فمنهم صاحب السهم والسهمين والسهمان الكثيرة، فبئس المورث حيث خلف من بعده شرًّا كثيرًا وبلاء مستطيرًا، وبئس الوارث حيث جنح بعقله إِلَى هذه القاذورات والأوساخ، واستعاض بها عن هدى اللَّه الذي جاء به نبيه ﷺ، وبئست التركة الَّتِي لا خير فيها لمن ورثها، بل تعود عليه بأفدح الأضرار، فهذه الثلاثة أهل لكل مهانة واحتقار، وأما أنتم أيها الوارثون لهدي نبيهم وعلمه؛ فأبشروا برحمة من اللَّه ورضوان، فما إرثكم الكريم وإرث هؤلاء الضالين سيان، بل شتان بينهما شتان.

نعم، شتان بين الوارثين، فهؤلاء ورثوا هدى وإيمانًا، وأولئك ورثوا ضلالًا وكفرانًا، وشتان بين الموروثين، فهذا ورث خيرًا وعلمًا نافعًا وهدى مبينًا، وهذا ورث شرًّا وجهلًا وضلالًا بعيدًا.

ولما ظهرت فتنة الجهم، واندلعت ألسنتها فِي أقطار الإسلام، قام أئمة الهدى يصيحون به من كل جانب، يعرفون الناس بحقيقة أقواله، وما تئول إليه من هدم قواعد الإيمان، ويبينون لَهم أن أقواله وآراءه هي وما جاء به الرسول ضدان لا يجتمعان، فلم يألوا هذه الأمة نصحًا، ولا قصَّروا فِي واجب الإعلام والبيان، ولا عمدوا إِلَى كذب أو خيانة أو كتمان، فالواجب أن نأخذ بهديهم، وأن نسير على نهجهم، فإن اللَّه ورسوله ضامنان لمن

سلك سبيلهم أن يرث عالي الجنان، فإذا امتنعتم عن اتباع سبيلهم، والاستماع لنصحهم؛ فاعلموا أن السلام على من اتبع الهدى وأذعن للقرآن.

* * *

سِيرُوا عَلَى نُجُبِ الْعَزَائِمِ وَاجْعَلُوا ... بِظُهُورِهَا الْمَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

سَبَقَ الْمُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ ... فِي كُلِّ حَالٍ لَيسَ ذَا نِسْيَانِ

لَكِنْ أَخُو الْغَفَلَاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ ... بَينَ الْمَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الْغِيلَانِ

صَيدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ ... بِئْسَ الْمُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ

وَكَذَلِكَ الشَّيطَانُ يَصْطَادُ الَّذِي ... لَا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ ... ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا الْمَنَّانِ

وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِهَذَا الذِّكْرِ وَالنْـ ... ـنَافِي لَهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْيَانِ

فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةَ الشَّيطَانِ ذَا ... لَا مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيطَانِ

وَالذَّاكِرُونَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ ... ـلَاهُمْ أُولُو الإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ

بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا إِذَا قَامُوا بِحَمْـ ... ـدِ اللَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

الشرح: يأمر المؤلف أهل السنة والإيمان أن يمتطوا ركائب الهمم وجياد العزائم، وأن يجعلوا مسيرهم على صهواتِها إِلَى الرحْمن -جل شأنه- ولا يكونوا كأهل الغفلة الذين خبت منهم العزائم، فقعدوا عن السباق فِي مضمار الطاعات، فقد سبق المفرِّدون[١]، وهم الذاكرون للّه على كل حال، بحيث لا ينسونه أبدًا فِي لحظة من اللحظات، وأما أهل الغفلة والغرات من المتبعين للأهواء والشهوات؛ فقد انقطعت بِهم حمرهم المعقرة بين المفاوز والمتاهات، فاحتوشتهم هنالك الغيلان والحيات، وصاروا فريسة للسباع الضاريات والوحوش الكاسرات، وكذلك الشيطان يصطاد بشباكه أهل الغفلات، الذين لا يذكرون اللّه فِي جَميع الأوقات، وفِي الحديث الصحيح: «**إن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا ذكر اللّه تعالى**». . وذكر اللّه ﷻ أنواع، فأعلاها ذكره سبحانه بِما له من الأسْماء والصفات، وهذا الذكر لا يتأتى إلا مع الإثبات لَهَا، وأما من ينفيها ويجحدها فهو

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول اللّه ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبلٍ يقال له: جُمدان، فقال: سِيروا هذا جمدان، سبق المفردون. قيل: وما المفردون يا رسول اللّه؟ قال: الذاكرون اللّه كثيرًا والذاكرات».

داع إلَى نسيانِها، ولِهذا كان النافي لَهَا خليفة الشيطان؛ لأنه يدعو إلَى مثل ما يدعو إليه من الغفلة والنسيان، قال تعالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وكذلك الذاكرون للَّه على مراتب ودرجات، فأعلاهم منْزلة هم أولو الإيمان والمعرفة بمعاني أسمائه الحسنى وصفاته العليا سبحانه، وذلك حين يقومون للَّه بِها فِي السر والإعلان، فكلما كان العبد أتَم إيمانًا ومعرفة بصفات اللَّه ﷻ؛ كان أشد خشية له، وأقرب إليه زلفى، وأعظم عنده جاهًا ومنْزلة.

* * *

وَأَخَصُّ أَهْلِ الذِّكْرِ بِالرَّحْمَنِ أَعْـ ... لَمُهُمْ بِهَا هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ كَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ إِبْـ ... رَاهِيمُ وَالْمَوْلُودُ مِنْ عِمْرَانِ

وَكَذَاكَ نُوحٌ وَابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَنَا ... هُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ مِنْ إِنْسَانِ

لِمَعَارِفٍ حَصَلَتْ لَهُمْ بِصِفَاتِهِ ... لَمْ يُؤْتَهَا أَحَدٌ مِنَ الإِنْسَانِ

وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الْـ ... أَحْزَابِ وَالشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْـ ... أَوْصَافِ وَهْيَ الْقَصْدُ بِالْقُرْآنِ

لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا لَنَا بِصِفَاتِهِ ... وَيَصِيرَ مَذْكُورًا لَنَا بِجَنَانِ

وَلِسَانٍ ايضًا مَعْ مَحَبَّتِنَا لَهُ ... فَلأَجْلِ ذَا الإِثْبَاتُ فِي الإِيمَانِ

مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ الْبِنَاءِ فَمَنْ يَرُمْ ... هَدْمَ الأَسَاسِ فَكَيْفَ بِالْبُنْيَانِ

وَاللهِ مَا قَامَ الْبِنَاءُ لِدِينِ رُسْـ ... لِ اللهِ بِالتَّعْطِيلِ لِلدَّيَّانِ

مَا قَامَ إِلَّا بِالصِّفَاتِ مُفَصَّلًا ... إِثْبَاتُهَا تَفْصِيلَ ذِي عِرْفَانِ

فَهِيَ الأَسَاسُ لِدِينِنَا وَلِكُلِّ دِيـ ... نٍ قَبْلَهُ مِنْ سَائِرِ الأَدْيَانِ

الشرح: وأكثر الذاكرين اختصاصًا بالرحمن -جل شأنه- وأقربُهم إليه منْزلة هم أعلمهم بصفاته، فهم خيرة اللَّه وصفوته من عباده؛ ولِهذا كان أولو العزم من الرسل وهم الخليلان مُحمَّد وإبراهيم، وموسى بن عمران الكليم، وعيسى ونوح -عليهم جميعًا أزكى الصلوات وأتم التسليم- هم أفضل البشر على الإطلاق؛ لأنَّهم أوتوا من العلم بصفات اللَّه تعالَى ما لَمْ يؤته أحد غيرهم، وهم كذلك متفاوتون فيما بينهم، فأكملهم الخليلان مُحمَّد

وإبراهيم، ثُمَّ موسى، ثُمَّ عيسى، ثُمَّ نوح، فهم فِي الفضل على هذا الترتيب، وهم أولو العزم الذين ذكرهم اللَّه ﷻ فِي سورتي الأحزاب والشورى كما سبق بيانه.

والقرآن كذلك مملوء من ذكر صفات الرب وأسمائه، حَتَّى لا تكاد تخلو من ذلك سورة من سوره، بل هي المقصود الأول من إنزال القرآن، فإن أعظم غايات الدين أن يعرف العباد ربَّهم بِما له من الأسْماء والصفات، وأن يذكروه بِها ذكرًا يواطئ القلب فيه اللسان، فيصير مذكورًا لَهم بقلوبِهم وألسنتهم مع شدة محبتهم وتعظيمهم له؛ ولأجل هذا كان إثبات الصفات للإيمان كالأساس للبناء، فمن يقصد هدم الأساس بنفي الصفات، لَمْ يتم له بناء، وكان فؤاده من الدين هواء.

فواللَّه ما قام للَّه فِي أرضه دين بعث به رسول على أساس من الجحد والتعطيل، بل ما قامت الأديان والرسالات كلها إلا على إثبات الصفات بالتفصيل، فهي الأساس لديننا، ولكل دين قبله من لدن أول الرسل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* * *

وَكَذَاكَ زَنْدَقَةُ الْعِبَادِ أَسَاسُهَا التْـ ... تَعْطِيلُ يَشْهَدُ ذَا أُولُو الْعِرْفَانِ

وَاللهِ مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ ... إِلَّا مِنَ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

وَاللهِ مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ ... مِنْ جَانِبِ الإِثْبَاتِ وَالْقُرْآنِ

هَذِي زَنَادِقَةُ الْعِبَادِ جَمِيعُهُمْ ... وَمُصَنَّفَاتُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

مَا فِيهِمُ أَحَدٌ يَقُولُ اللَّهُ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَلَى الأَكْوَانِ

وَيقُولُ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

وَيقُولُ إِنَّ اللَّهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِذِي الآذَانِ

وَيقُولُ إِنَّ النَّقْلَ غَيرُ مُعَارِضٍ ... لِلْعَقْلِ بَلْ أَمْرَانِ مُتَّفِقَانِ

وَالنَّقْلُ جَاءَ بِمَا يَحَارُ الْعَقْلُ فِيـ ... ـهِ لَا بِالْمُحَالِ الْبَيِّنِ الْبُطْلَانِ

فَانْظُرْ إِلَى الْجَهْمِيِّ كَيفَ أَتَى إِلَى ... أُسِّ الْهُدَى وَمَعَاقِلِ الإِيمَانِ

بِمَعَاوِلِ التَّعْطِيلِ يقْطَعُهَا فَمَا ... يُبْقِي عَلَى التَّعْطِيلِ مِنْ إِيمَانِ

يدْرِي بِهَذَا عَارِفٌ بِمَآخِذِ الْـ ... أَقْوَالِ مُضْطَلِعٌ بِهَذَا الشَّانِ

وَاللهِ لَوْ حَدَّقْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... هَذَا وَأَعْظَمَ مِنْهُ رَأْيَ عِيَانِ

لَكِنْ عَلَى تِلْكَ الْعُيونِ غِشَاوَةٌ مَا حِيلَةُ الْكَحَّالِ فِي الْعُمْيَانِ

الشرح: وكما أن الإثبات للصفات هو أساس الهدى والإيمان؛ فكذلك الجحد والتعطيل سبب لكل زندقة وإلحاد، يشهد بذلك أهل المعرفة بأديان العباد، فما ظهرت فِي الأرض زندقة إلا من هذا الوادي، فهؤلاء زنادقة الأرض كلهم من فلاسفة وصوفية، وقرامطة واتحادية وحلولية، ومصنفاتُهم الَّتِي أودعوها مذاهبهم موجودة بكل مكان، تنطق عليهم بالإلحاد والتعطيل، والصد عن سواء السبيل، فليس فيهم أبدًا من يقول: إن اللَّه موجود فوق عرشه، مستوٍ على خلقه. ولا من يقول: إن اللَّه متكلم بالوحي والقرآن كلامًا حقيقيًا مسموعًا بالآذان. ولا من يقول بِما قاله القرآن: إن اللَّه كلم عبده موسى بن عمران. ولا من يقول: إن العقل والنقل لا يتعارضان، بل هُما دائمًا متفقان. بل كلهم يرى أن النقل قد ورد بِما يحيله العقل، ويحكم عليه بالبطلان.

فانظر يا أخا العقل إلَى ما جناه هذا الجهمي المعطل، وكيف أتى إلَى أصول الهدى وحصون الإيمان، فأعمل فيها معاول جحده وتعطيله، حَتَّى تداعت منها الأركان، ولا يعرف هذا إلا خبير بأقوال العباد ومآخذها ممن هو كلف بِهذا الشأن، وأنتم أيها الضالون المفتونون، لو أمعنتم النظر، وصحت منكم العيون؛ لرأيتم أكثر مما ذكرته لكم من أنواع الضلال والفتون، ولكنكم عمي لا تبصرون.

فصل في بيان [illegible] أهل الشرك والتعطيل في رميهم أهل التوحيد والإثبات بتنقص الرسول

قَالُوا تَنَقَّصْتُمْ رَسُولَ اللهِ وَا عَجَبًا لِهَذَا الْبَغْي وَالْبُهْتَانِ
عَزَلُوهُ أَنْ يُحْتَجَّ قَطُّ بِقَوْلِهِ فِي الْعِلْمِ بِاللهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
عَزَلُوا كَلَامَ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ عَنْ ذَاكَ عَزْلًا لَيسَ ذَا كِتْمَانِ
جَعَلُوا حَقِيقَتَهُ وَظَاهِرَهُ هُوَ الْـ كُفْرُ الصَّرِيحُ الْبَيِّنُ الْبُطْلَانِ
قَالُوا وَظَاهِرُهُ هُوَ التَّشْبِيهُ وَالتْـ تَجْسِيمُ حَاشَى ظَاهِرَ الْقُرْآنِ
مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ هِ حَقِيقَةُ الأَخْبَارِ وَالْفُرْقَانِ
فَهْوَ الْمُشَبِّهُ وَالْمُمَثِّلُ وَالْمُجَسْـ سِمُ عَابِدُ الأَوْثَانِ لَا الرَّحْمَنِ

تَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عُقُولُكُمُ فَلَيْـ سَ وَرَاءَ هَـذَا قَـطُّ مِـنْ نُـقْـصَـانِ
وَرَمَيتُمُو حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ بِمُصَابِكُمْ يَا فِرْقَةَ الْبُهْتَانِ
وَجَعَلْتُمُ التَّنْقِيصَ عَينَ وِفَاقِهِ إِذْ لَمْ يُوافِقْ ذَاكَ رَأْيَ فُلَانِ

الشرح: ومن العجب: أن هؤلاء المعطلة المبطلين يرمون أهل الحق والسنة الموحدين بأنَّهم يتنقصون من قدر الرسول الأمين؛ لأنَّهم ينهون عن شد الرحال إلَى زيارة قبره فضلًا عن قبور غيره، عملًا بقوله هو وأمره، حيث قال فِي الصحيح: «**لا تشد الرحال إلا إلَى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**». ونسي هؤلاء البغاة أنَّهم هم أولى وأحق بِما رموا به خصومهم، فقد عزلوا كلامه ﷺ عن أن يحتج به فِي باب العلم باللَّه وأسمائه وصفاته، فإذا رُوي لَهم حديث صحيح يتضمن شيئًا من ذلك؛ قالوا: هذه أخبار آحاد لا يحتج بِها فِي باب الاعتقاد. بل عزلوا كلام اللَّه ورسوله عن إفادة العلم واليقين عزلًا لا خفاء فيه، حيث حكموا بأن حقيقته وظاهره كفر صريح، وباطل بَيِّنٌ لا شبهة فيه؛ لأنه -فِي زعمهم- يفضي إلَى التجسيم والتشبيه، فمن قال عندهم بِما دلت عليه حقيقة الأخبار النبوية وآيات الكتاب العزيز؛ فهو المشبه الممثل، المجسم، عابد الأوثان، لا عابد الرحْمن.

فانظر إلَى هذا المسخ والتشويه الذي أصاب عقول هؤلاء المفاليك، حَتَّى وصلت إلَى أحط الدركات حيث رموا حزب الرسول وجنده بدائهم، وبَهتوهم بِما هو ألصق بِهم، فكانوا كما قال القائل: «رمتني بدائها وانسلت». وجعلوا الموافقة لقول الرسول تنقيصًا له، ما دام لا يوافق رأي شياطينهم.

* * *

أَنْتُمْ تَنَقَّصْتُمْ إِلَهَ الْعَرْشِ وَالْـ قُـرْآنَ وَالْـمَـبْـعُـوثَ بِـالْـقُـرْآنِ
نَزَّهْتُمُوهُ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَعَنِ الْكَلَامِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
وَجَعَلْتُمُ ذَا كُلَّهُ التَّشْبِيهَ وَالتْـ تَمْثِيلَ وَالتَّجْسِيمَ ذَا الْبُطْلَانِ
وَكَلَامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَةُ التْـ تَحْقِيقِ يَا عَجَبًا لِذَا الْخِذْلَان
جَعَلُوا عُقُولَهُمُ أَحَقَّ بِأَخْذِ مَا فِيهَا مِنَ الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
وَكَلَامُهُ لا يُسْتَفَادُ بِهِ الْيَقِيـ نُ لأَجْلِ ذَا لَا يَقْبَلُ الْخَصْمَانِ
تَحْكِيمَهُ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا بَلِ الْـ مَعْقُولَ ثُمَّ الْمَنْطِقَ الْيونَانِي

أَيُّ التَّنَقُّصِ بَعْدَ ذَا لَوْلَا الْوَقَا ... حَةُ وَالْجَرَاءَةُ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
يَا مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَنُورٌ قَدْ غَدَا ... يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كُلَّ زَمَانِ

الشرح: بل أنتم المتنقصون لا لرسول اللّٰه ﷺ وحده بل للّٰه ولكتابه ولرسوله، حيث نفيتم صفات كماله سبحانه بحجة التنْزيه، ونفيتم كذلك كلامه وعلوه على خلقه، وسميتم هذا كله تشبيهًا وتمثيلًا وتجسيمًا تسمية من عند أنفسكم، ما أنزل اللّٰه بِه من سلطان، وزعمتم لأنفسكم أنكم أهل التحقيق والعرفان، وأن كلامكم فيه غاية التدقيق وشفاء الحيران، فما أشد ما أنتم فيه من ضلال وخذلان حيث تجعلون ما فِي عقولكم من زور وبُهتان أحق بالتقديم، والأخذ بِما فيه من الأخبار والقرآن، وأما كلامه فلا يستفاد منه اليقين والإيمان، ومن أجل هذا لا تقبلون عند التنازع والاختلاف تحكيم السنة والقرآن، بل تلجئون إلَى مسلماتكم العقلية واصطلاحاتكم الكلامية؛ وإلَى أقيسة منطق اليونان.

فأي تنقص بعد هذا للّٰه ولرسوله وللقرآن لولا فقدانكم الحياء يا أولي الإثم والعدوان، ولكن من رزقه اللّٰه عقلًا يهديه، ونورًا يمشي به فِي الناس؛ يدرك حقيقة ما أنتم عليه من زور وبُهتان.

* * *

لَكِنَّنَا قُلْنَا مَقَالَةَ صَارِخٍ ... فِي كُلِّ وَقْتٍ بَيْنَكُمْ بَأَذَانِ
الرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُولُ فَعَبْدُهُ ... حَقًّا وَلَيْسَ لَنَا إلَهٌ ثَانِ
فَلِذَاكَ لَمْ نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبَادَةِ الرْ ... رَحْمَنِ فِعْلِ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي
كَلَّا وَلَمْ نَغْلُ الْغُلُوَّ كَمَا نَهَى ... عَنْهُ الرَّسُولُ مَخَافَةَ الْكُفْرَانِ
لِلَّهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ ... وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ
فَالْحَجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ ... وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذَا الْقُرْبَانِ
وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيمِينُنَا ... وَكَذَا مَتَابُ الْعَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ
وَكَذَا التَّوَكُّلُ وَالإنَابَةُ وَالتُّقَى ... وَكَذَا الرَّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ
وَكَذَا الْعِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ ... إيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ
وَعَلَيْهِمَا قَامَ الْوجُودُ بِأَسْرِهِ ... دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ

وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ تَـهْـلِـيـلُ حَـقُّ إِلَـهِـنَـا الـدَّيَّـانِ

الشرح: للَّه در المؤلف فقد بين فِي هذه الأبيات حق اللَّه الذي لا ينبغي لأحد سواه، ونعى على هؤلاء القبوريين غلوهم فِي تعظيم المخلوقين، حَتَّى جعلوهم أندادًا للَّه رب العالمين، فهو يقول لَهم: إننا ما زلنا نصرخ فيكم كل وقت، وننادي بأعلى صوتنا ألَّا تجعلوا اللَّه شريكًا فِي ربوبيته، فإنه رب واحد سبحانه، وأما الرسول ﷺ فهو عبد اللَّه حقًّا، ولكنه خير عبد، وليس هو إلَهًا مع اللَّه كما قال تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[النحل: ٥١]. ولذلك لَمْ نعبده مثل عبادتنا للَّه، كما فعل النصارى فِي نبيهم عيسى عليه السلام، حيث جعلوه ابنًا للَّه، بل قال بعضهم: إنه هو اللَّه. وكذلك لَمْ نغل فيه كما غلا النصارى فِي عيسى، وهو قد نَهانا عن هذا الغلو خشية أن يفضي بنا إلَى الكفر، ففي الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنَّما أنا عبد، فقولوا: عبد اللَّه ورسوله**».

وحاصل هذا الباب: أن للَّه ﷻ حقًّا، ولرسوله ﷺ حقًّا، فأما حق اللَّه فهو مختص به، لا يجوز أن يشركه غيره فيه، وأما حق الرسول فهو ثابت له أيضًا، فلا يصح أن نخلط بين الحقين، فنجعل ما هو مختص بأحدهما للآخر دون تفرقة أو تمييز، فإن تلك هي الندية الَّتِي نَهانا عنها اللَّه ورسوله.

فأما حقوق اللَّه الَّتِي لا تنبغي إلا له:

فمنها: الحج: وهو القصد إلَى زيارة بيته الحرام؛ لأداء المناسك المعروفة.

ومنها: الصلاة: فرضًا كانت أو نفلًا.

ومنها: الذبح: لقوله تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾[الأنعام: ١٦٢ ١٦٣]. والنسك: هو الذبح. ولقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾[الكوثر: ٢]. فكما أمره بالصلاة لربه أمره بالنحر له.

ومنها: السجود: وهو وضع الجبهة على الأرض على جهة الذل والخضوع؛ لقوله عليه السلام لمعاذ حين سجد له: «**لو كنت آمرًا أحد أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولكن لا ينبغي السجود إلا للَّه**».

ومنها: النذر: فإن النذر عبادة لا تنبغي إلا للَّه، قال تعالَى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾[الحج: ٢٩]. ومدح الأبرار من عباده بأنَّهم: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾[الإنسان: ٧]. وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن

﴿نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ومنها: الحلف: فإنه تعظيم للمحلوف به، وذلك لا يكون إلا للَّه، قال -عليه الصلاة والسلام-: «**من حلف بغير اللَّه فقد أشرك**». وقال: «**من كان حالفًا فليحلف باللَّه أو ليذر**».

ومنها: التوبة من المعاصي: وهي الرجوع إلَى اللَّه ﷻ بالندم والاستغفار، والعزم على عدم العود إلَى المعصية، قال اللَّه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]. وفِي الحديث: «أن النَّبِيَّ ﷺ قال لرجل: ألا تتوب؟ فقال الرجل: اللَّهم إنِّي أتوب إليك، ولا أتوب إلَى مُحمَّد. فضحك النَّبِيُّ ﷺ، وقال: عرف الحق لأهله».

ومنها: التوكل: قال تعالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وفِي الحديث: «**لو توكلتم على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

ومنها: الإنابة: لقوله تعالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١]. وقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧].

ومنها: التقى: لقوله تعالَى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]. وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. فجعل سبحانه الطاعة له ولرسوله، وجعل الخشية والتقوى له وحده.

ومنها: الرجاء والخشية: لقوله تعالَى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

ومنها: العبادة والاستعانة: قال تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. أي: لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك، فهما توحيدان: توحيد فِي العبادة والإلهية، وتوحيد فِي الاستعانة، أي: فِي طلب العون، والتوكل عليه فِي كل أمر، قال تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وعلى هذين التوحيدين قام الوجود كله، دنياه وآخرته، فإن الأمر بين الرب وعبده دائر

بين العبادة الَّتِي هي حقه، وبين طلب العبد منه ما لا سبيل إِلَى تحصيله إلا بعونه، فبهما ينتظم شئون المعاد والمعاش.

ومنها: التسبيح والتهليل والتكبير: أي قولنا باللسان مع مواطأة القلب: سبحان اللَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر. ومثلها أيضًا جَميع العبادات القولية من السؤال، والدعاء، والذكر، والاستغاثة، والاستعاذة، والاستخارة، والتسمية، وغيرها، واللَّه سبحانه أعلم.

* * *

لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقْـ ـقٌ لِلرَّسُولِ بِمَقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَالْحَبُّ وَالإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ لَا يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرَكَانِ
هَذِي تَفَاصِيلُ الْحُقُوقِ ثَلَاثَةٌ لَا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
حَقُّ الإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالأَمْرِ لَا بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيطَانِ
مِنْ غَيرِ إِشْرَاكٍ بِهِ شَيئًا هُمَا سَبَبَا النَّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَانِ
وَرَسُولُهُ فَهْوَ الْمُطَاعُ وَقَوْلُهُ الْـ ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ
وَالأَمْرُ مِنْهُ الْحَتْمُ لَا تَخْيِيرَ فِيـ ـهِ عِنْدَ ذِي عَقْلٍ وَذِي إِيمَانِ

الشرح: وأما الحق الذي يختص به الرسول ﷺ: فهو تعزيره، أي: نصره وتوقيره. أي: إجلاله واحترامه، وقد أمرنا اللَّه بذلك فِي القرآن العظيم، قال تعالَى من سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٨-٩]. فبدأ بالحق المشترك وهو الإيمان، ثُمَّ ثنى بحق الرسول الكريم فِي التعزير والتوقير، ثُمَّ ثلث بحقه هو سبحانه فِي التسبيح بالغدوة والعشي، ومن المفسرين من يجعل الضمائر الثلاثة راجعة إِلَى اللَّه -جل شأنه- وهو وجه ضعيف.

وهناك حقوق مشتركة بين اللَّه ﷻ وبين رسوله ﷺ: وهي المحبة، والإيمان، والتصديق.

أما المحبة: فلقوله تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقوله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما . . .»**.

وأما الإيمان: فلقوله تعالَى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وقوله تعالى من سورة الفتح: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

وأما التصديق: فلقوله تعالَى من سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهذه هي تفاصيل الحقوق الثابتة للَّه ولرسوله: حقان مختصان، وحق مشترك، فلا ينبغي لأحد أن يجهلها، ولا أن يخلط بعضها ببعض، وأن يجعل المختص منها مشتركًا، فحق الإله أن نعبده، وشرط هذه العبادة أمران:

أحدهُما: أن تكون بِما شرعه اللَّه ﷻ، وأمر به أمر وجوب أو استحباب، وألَّا تكون بِما تزينه الأهواء من البدع، والمحدثات، فإن تلك عبادة الشيطان، لا عبادة الرحْمن.

والشرط الثاني: أن تكون العبادة خالصة للَّه ﷻ، ليس لأحد فيها شركة، فهذان الشرطان -أعني: المتابعة والإخلاص- لابد منهما جميعًا؛ لكي تكون العبادة مقبولة، منجية لصاحبها من عذاب اللَّه، قال تعالَى من سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما حق الرسول فهو أن يطاع ويتبع، ويقبل قوله، ويرضى بحكمه.

قال تعالَى من سورة النساء: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]. وقال من سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال من سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ومن حقه: أنه إذا أمر بأمر؛ كان تنفيذه واجبًا لا يجوز التخيير ولا التردد فيه، قال تعالَى من سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقال سبحانه من سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيرَهُ قُمْنَا عَلَى أَقْوَالِهِ بِالسَّبْرِ وَالْمِيزَانِ
إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ فَعَلَى الرُّءُوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ
أَوْ خَالَفَتْ هَذَا رَدَدْنَاهَا عَلَى مَنْ قَالَهَا مَنْ كَانَ مِنْ إِنْسَانِ
أَوْ أُشْكِلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا وَلَمْ نَجْزِمْ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بُرْهَانِ
هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيهِ عِلْمُنَا وَبِهِ نَدِينُ اللَّهَ كُلَّ أَوَانِ
فَهْوَ الْمُطَاعُ وَأَمْرُهُ الْعَالِي عَلَى أَمْرِ الْوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ
وَهْوَ الْمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَا عَلَى الْـ أَهْلِينَ وَالأَزْوَاجِ وَالْوِلْدَانِ
وَعَلَى الْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النْـ نَفْسِ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الْجَنْبَانِ

الشرح: فنحن لا نقدم بين يدي اللَّه ورسوله، ولا نقدم على قول الرسول ﷺ قول أحد من الناس، بل قوله عندنا هو الميزان الذي توزن به سائر الأقوال، فإذا قال غيره قولًا لَمْ نبادر إلى قبوله أو رفضه حَتَّى نرده إِلَى قوله ونزنه به، فإذا وافق قول الرسول ﷺ وحكمه تلقيناه بالقبول والتقدير، وشكرنا لقائله إصابته للسنة، وإذا خالف رددناه على صاحبه، وضربنا به وجهه كائنًا من كان، وكانت مخالفته دليلًا لنا على نقصه وفساد رأيه، قال علي رضي الله عنه: «اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

وما أضل الناس فِي الماضي والحاضر إلا اغترارهم بنسبة الأقوال والآراء إِلَى من زعموا لَهم إمامة فِي الدين، أو مشيخة فِي العلم، أو رياسة فِي المذهب، فأخذوا بأقوالهم من غير روية ولا تمحيص، ومن غير أن يتبينوا إن كانت موافقة لقول المعصوم -صلوات اللَّه وسلامه عليه- أو مخالفة له، بل بلغ الأمر بالمتأخرين من أتباع المذاهب أن قدموا أقوال أئمتهم على الأحاديث الصحيحة، فلو جئتهم بألف دليل بأن كلام إمامهم فِي خلاف الحق ما قبلوه منك، نعوذ باللَّه من الخذلان، وأما إن أشكل علينا الأمر، ولَمْ ندر إن كانت أقوال الناس موافقة لقوله -عليه الصلاة والسلام- أو مخالفة؛ توقفنا فيها، فلا نقبلها، ولا نرفضها، ولا نجزم بصحتها، ولا بخطئها حيث أعوزنا الدليل.

هذا هو المنهج المستقيم الذي يجب أن يسير عليه كل طالب للحق، وهو الذي ندين اللَّه به فِي كل وقت وحين، فهو -صلوات اللَّه عليه وسلامه- المطاع الذي فرض اللَّه علينا طاعته، وأمره عندنا مقدم على كل أمر، حَتَّى على أمر الحكام والسلاطين.

وهو كذلك المقدم عندنا فِي المحبة على كل ما تحبه النفس من الأهلين والأزواج

والأولاد، فلا يكمل إيمان أحد حَتَّى يكون هو أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

بل لا يكمل إيمان أحد حَتَّى يكون أحب إليه من نفسه الَّتِي بين جنبيه، كما روي أن عمر ﷺ قال له: «يا رسول اللَّه، واللَّه إنك لأحب إليَّ من كل أحد إلا من نفسي. فقال له النَّبِيُّ ﷺ: **لا، حَتَّى أكون أحب إليك من نفسك**. فقال عمر: والذي بعثك بالحق إنك لأحب إليَّ من نفسي. فقال: **الآن يا عمر**». أي: كمل إيمانك.

* * *

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَعْدَاءِ الْمَسِيـ ... ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

إِنَّا تَنَقَّصْنَا الْمَسِيحَ بِقَوْلِنَا ... عَبْدٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

لَوْ قُلْتُمُ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ ... وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى قَدْ غَلَوْا ... فِي دِينِهِمْ بِالْجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ

صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَهُ ... فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ

فَانْظُرْ إِلَى تَبْدِيلِهِمْ تَوْحِيدَهُ ... بِالشِّرْكِ وَالإِيمَانِ بِالْكُفْرَانِ

وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ مِنْ ... أَسْبَابِ كُلِّ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ وَمَا قَدْ قَالَهُ ... وَاسْتَدْعِ بِالنُّقَّادِ وَالْوَزَّانِ

عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ ثُمَّ زِنْ ... هَذَا وَذَا لَا تَطْغَ فِي الْمِيزَانِ

فَهُنَاكَ تَعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا هُوَ الْـ ... مُتَنَقِّصُ الْمَنْصُوصُ ذُو الْعُدْوَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء المبتدعة الضلال من عباد القبور فِي اتِّهامهم لنا بالتنقيص من قدر الرسول ﷺ؛ لأننا ننهى عن قصد قبره الشريف بالزيارة، ونحرم دعاءه، والاستغاثة به، والغلو فِي تعظيمه إلَى الحد الذي يخرجه عن دائرة البشرية ونطاق العبودية، قد أشبهوا النصارى عباد الصليب فِي اتِّهامهم للمسلمين بأنهم يتنقصون من قدر المسيح عليه السلام، حين قالوا: إنه عبد اللَّه. وذلك -فِي زعمهم- غاية ما يمكن أن يلحقه من النقص، ولكننا لو قلنا كما يقولون: إنه ولد اللَّه، وإنه إله مع اللَّه، وإنه خالق لكل شيء. كنا فِي رأيهم قد وفيناه حقه من المديح، وبذلك صاروا أعداء المسيح، وهم يزعمون أنَّهم أحبابه وأولياؤه.

وكذلك أشباه هؤلاء النصارى من المسلمين من يوم أن غلوا فِي تعظيم المخلوقين، وذلك بتأثير الجهل والطغيان المشين، قد صاروا أعداء للرسول الأمين ولدينه القويم

المتين، فإنَّهم بِهذا الغلو الممقوت قد بدلوا ما جاء به من محض التوحيد شركًا ووثنية، وبدلوا ما جاء به من الإيمان كفرًا وإباحية.

وإن شئت أن تعرف مدى عداوتِهم للرسول ﷺ، ومخالفتهم عن أمره، فانظر إلَى أقواله الَّتِي جرد بِها التوحيد من كل أسباب الشرك، وخلصه من شوائب الوثنية، والَّتِي سد بِها منافذ الإشراك كلها حياطة للتوحيد، وحماية لبيضته.

وذلك كنهيه عن اتخاذ القبور مساجد، ونَهيه عن رفعها وتشييدها، وإيقاد السرج عليها، ونَهيه عن اتخاذ قبره عيدًا، ونَهيه عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبِها، ونَهيه أمته عن إطرائه، والغلو فِي مدحه، ونَهيه الرجل الذي قال له: «ما شاء اللَّه وشئت». بقوله: «**أجعلتني للَّه ندًّا، بل ما شاء اللَّه وحده**». إلَى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من صحيح السنة المطهرة.

ثُمَّ انظر فِي مقالة هؤلاء الضلال الَّتِي تفيض بألوان الشرك من دعائه ﷺ، واستغاثته، والعكوف على قبره، واعتقاد حياته فِي القبر، وسؤاله ما لا يطلب إلا من اللَّه، والغلو فِي مدحه إلَى حد اعتقاد أنه أول خلق اللَّه، وأنه نور عرش اللَّه، وأنه الذي خلقت الأشياء جميعًا من أجله، بل إلَى حد اعتقاد أن الوجود كله بعض فيضه، وأن علم اللوح والقلم قبس من علمه، كما يقول شاعرهم المسمى بالبوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتَها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ثُمَّ اجمع مقالة هؤلاء المفتونين إلَى مقالته، ووازن بينهما، وَأْتِ بجميع النقاد والوزان من العقول الصحيحة والفطرة السليمة، وتحرَّ العدل فِي الميزان؛ فحينئذ يظهر لك بأجلى بيان أي الحزبين -منا ومنهم- هو المنتقص المغبون، ذو الجهل والعدوان.

* * *

رَامِي الْبَرِيءِ بِدَائِهِ وَمُصَابِهِ ... فِعْلَ الْمُبَاهِتِ أَوْقَحِ الْحَيَوَانِ

كَمُعَيِّرٍ لِلنَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي ... هُوَ ضَرْبُهُ فَاعْجَبْ لِذِي الْبُهْتَانِ

يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدْ ... دَعْوَى بِلَا عِلْمٍ وَلَا عِرْفَانِ

وَاللهِ مَا قَدَّمْتُمُ يوْمًا مَقَا ... لَتَهُ عَلَى التَّقْلِيدِ لِلإِنْسَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ الشُّيوخُ وَقَالَ إِلْـ ... لَا كُنْتُمُ مَعْهُمْ بِلَا كِتْمَانِ

وَاللهِ أَغْلَاطُ الشُّيوخِ لَدَيْكُمُ ... أَوْلَى مِنَ الْمَعْصُومِ بِالْبُرْهَانِ

وَكَذَا قَضَيتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ جَهْلًا عَلَى الأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
وَاللهِ إِنَّهُمُ لَدَيكُمْ مِثْلُ مَعْـ صُومٍ وَهَذَا غَايَةُ الطُّغْيَانِ
تَبًّا لَكُمْ مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا لَوْ تَعْرِفُونَ الْعَدْلَ مِنْ نُقْصَانِ
وَاللهِ مَا يرْضِيهِ جَعْلُكُمُ لَهُ تُرْسًا لِشِرْكِكُمُ وَلِلْعُدْوَانِ
وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ الْمَشَايخَ جُنَّةً بِخِلَافِهِ وَالْقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ
وَاللهُ يشْهَدُ ذَا بِجِذْرِ قُلُوبِكُمْ وَكَذَاكَ يشْهَدُهُ أُولُو الإِيمَانِ

الشرح: يعني: أن هؤلاء المتجنين السفهاء حين رمونا بما فيهم من داء، وبَهتونا بما نَحن منه براء، وكانوا بذلك فِي غاية الوقاحة والاجتراء؛ أشبهوا فِي ذلك الغاش الذي يعير الناس بِما فيه من الزغل الذي هو ضربه، أي: مثله وشكله أو سجيته وطبعه، فوا عجبًا لصاحب البهتان يرمي به البرآء؛ ليخفي عن الناس داءه العياء، فيا من ترموننا بتنقيص الرسول بَهتًا ومكابرة، ودعوى مجردة من كل علم ومعرفة، أنتم أولى وأحق أن ترموا بِهذا التنقيص والاتِّهام، فإنكم لَمْ تقدموا يومًا من الأيام قول الرسول -عليه الصلاة والسلام- على قول من تقلدونه من شيخ أو إمام، ولا قال شيوخكم قولًا إلَّا وانحزتم إليهم جهرة بلا كتمان، بل إن أغلاط هؤلاء الشيوخ آثر لديكم من قول المعصوم -عليه الصلاة والسلام- ولِهذا تجعلون أقوالهم أصلًا تحكمون به على الأخبار والقرآن، وتدعون لَهم من العصمة مثل ما له، وهذا غاية الافتراء والبهتان، فهلاكًا لكم، ماذا عسى أن يكون التنقيص بعد فعلكم هذا، لو كنتم تميزون العدل من النقصان؟!

واعلموا واللَّه أن الرسول لا يرضيه منكم أن تجعلوه ترسًا تحتمون وراءه من رميكم بِما هو فيكم من شرك وعدوان، فإن دعواكم محبة الرسول وتعظيمه لا تجعل قبيح أعمالكم حسنًا، ولا تشفع لكم ما تقعون فيه من سوء ونكران، ولا يغني عنكم كذلك أن تجعلوا من اتباعكم للشيوخ جنة، تتقون بِها سوء مخالفتكم للرسول، مع أن قصدكم واضح وهو تعمد المخالفة له، والاستهانة بأقواله، واللَّه يشهد هذا فِي أعماق قلوبكم، ويشهد به أهل الإيمان الذين بلوا أخباركم وفساد سرائركم، فمهما اتَّخذتم من جنة فأمركم مفضوح، فلا تحاولوا التستر والكتمان.

* * *

وَاللهِ مَا عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً ... وَمَحَبَّةً يَا فِرْقَةَ الْعِصْيَانِ
أَنَّى وَجَهْلُكُمُ بِهِ وَبِدِينِهِ ... وَخِلَافُكُمْ لِلْوَحْيِ مَعْلُومَانِ
أَوْصَاكُمُ أَشْيَاخُكُمْ بِخِلَافِهِمْ ... لِوِفَاقِهِ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيوخِ وَقَوْلَهُ ... فَغَدَا لَكُمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ
وَاللهِ أَمْرُكُمُ عَجِيبٌ مُعْجِبٌ ... ضِدَّانِ فِيكُمْ لَيسَ يتَّفِقَانِ
تَقْدِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَيهِ مَعْ ... هَذَا الْغُلُوِّ فَكَيفَ يجْتَمِعَانِ
كَفَّرْتُمُ مَنْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ جَهْـ ... ـلًا مِنْكُمُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
لَكِنْ تَجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْـ ... بِدَعِ الْمُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيطَانِ
وَاللهِ لَمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتْـ ... ـتَوْحِيدِ ذَاكَ وَصِيةُ الرَّحْمَنِ
وَرِضَا رَسُولِ اللهِ مِنَّا لَا غُلُوْ ... وَ الشِّرْكِ أَصْلِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

الشرح: وأنتم واللَّه ما عظمتم رسول اللَّه التعظيم اللائق به، والذي يقوم على طاعته واتباعه وقبول حكمه ومحبته، بل دأبكم العصيان والمخالفة لأمره، وكيف يتاح لكم أن تعظموه هذا التعظيم، وأنتم أجهل الناس بحقائق دينه، وأشدهم خلافًا للوحي المنَزل عليه؟! ولقد أوصاكم أشياخكم من أئمة الهدى -رحمهم اللَّه- فِي الماضي أن تتركوا أقوالهم إذا وجدتموها مخالفة لقول الرسول، وأخبروكم أن مذاهبهم حيث يصح الحديث، فإذا صح الحديث، فلا تلتفتوا إلَى قول أحد كائنًا من كان، ولكن تمكن التقليد منكم، فأنساكم وصية الشيوخ، فخالفتموها مع مخالفتكم لقول الرسول ﷺ وحكمه، فصار لكم بذلك خلافان متفقان.

وواللَّه إن أمركم لجد عجيب، فقد اجتمع فيكم ضدان لا يُمكن أن يتفقا فِي الوجود أبدًا، وهُما تقديمكم آراء الناس على قوله وحكمه مع غلوكم فيه هذا الغلو الذي خرج بكم عن حظيرة التوحيد، فكيف أتيح لكم أن يجتمع فيكم هذان الضدان؟!

ثُمَّ أنتم كذلك تكفرون فِي جرأة وقحة من يجرد التوحيد للَّه ﷻ، فلا يدعو مع اللَّه أحدًا، ولا يجعل له ندًا، ولا يجعل لغيره شركة معه فِي شيء من عبادته؛ وذلك لجهلكم بحقيقة هذا التوحيد، فِي الوقت الذي تتجردون فيه لنصرة الشرك والترويج للبدع، طاعة منكم للشيطان، واجتهادًا فِي إرضائه وموافقته، فأنتم حزبه وأولياؤه.

ونَحن حين نَهينا الناس عن الغلو فِي نبيهم ﷺ، وأمرناهم أن يعرفوا له حقه فِي الطاعة

والاتباع والتعزير والتوقير دون أن يجعلوا له شيئًا من حقوق الإلهية؛ لَمْ نقصد واللَّه سوى تخليص التوحيد من كل شوائب الوثنية، وتلك هي وصية اللَّه لنا حيث قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وذلك هو ما يرضاه منا رسول اللَّه ﷺ الذي كان أعظم داع إلَى التوحيد، والقيام بحقه فِي الإخلاص والتجريد، وأما هذا الغلو فِي تعظيم المخلوقين، والعكوف على أضرحة الموتى المقبورين الذي كان أصل الشرك وعبادة الأوثان فِي جَميع الأديان؛ فذلك ما لا يرضيه.

* * *

وَاللهِ لَوْ يرْضَى الرَّسُولُ دُعَاءَنَا ... إِيَـاهُ بَـادَرْنَـا إِلَـى الإِذْعَـانِ

وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ سُجُودَنَا ... كُـنَّـا نَـخِـرُّ لَـهُ عَـلَـى الأَذْقَـانِ

وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ مِنَّا غَيرَ إخْـ ... ـلاصٍ وَتَـحْـكِـيـم لِـذَا الْـقُـرْآنِ

وَلَقَدْ نَهَى ذَا الْخَلْقَ عَنْ إطْرَائِهِ ... فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدي الصُّلْبَانِ

وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ ... عِيدًا حَذَارِ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

وَدَعَا بِأَلَّا يُجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الْجُدْرَانِ

حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِـي عِـزَّةٍ وَحِـمَـايَـةٍ وَصِـيَـانِ

وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الْوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ الْيَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

وَاللهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ... لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالْحِيطَانِ

قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيمْـ ... ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدَهُ التْـ ... ـتَجْرِيدَ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

الشرح: فلو كان الرسول ﷺ يرضى أن ندعوه مع اللَّه ﷻ؛ لَمْ يكن منا إلا المبادرة إلَى الإذعان والموافقة، ولو كان يرضى منا أن نسجد له؛ لوقعنا على الأذقان سجدًا بلا مهلة، ولكنه -عليه الصلاة والسلام- لا يرضيه منا إلا أن نُجرد التوحيد للَّه، فنجعل عبادتنا كلها له وحده، محبة وتعظيمًا وخوفًا ورجاء، وذلًّا واستكانة وسؤالًا ودعاء، وتوكلًا واستعانة وتوبة وإنابة، ورغبة ورهبة وصلاة وسجودًا، وذبحًا ونذرًا، وحجًّا واعتمادًا،

إلَى غير ذلك من أنواع العبادات الَّتِي لا تنبغي إلا له وحده، ولا يرضيه منا كذلك إلا أن نحكم القرآن العظيم فِي كل شئوننا، وأن نرد إليه كل ما تنازعنا فيه من أحكام ديننا.

ولقد نَهى أمته أن تغلو فيه، كما غلت النصارى فِي نبيهم فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**».

ونَهاهم كذلك أن يتخذوا من قبره عيدًا، يحجون إليه، ويجتمعون عنده، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**». رواه أبو داود.

ودعا اللَّه ﷻ ألَّا يجعل قبره الذي ضم جسده الشريف وثنًا يسجد له، ويطاف به، ويصلى عنده، فقال: «**اللَّهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب اللَّه على قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». رواه مالك فِي الموطأ.

فأجاب اللَّه ﷻ دعاء نبيه ﷺ فأحاط قبره بثلاثة جدران، حَتَّى لا يكون بارزًا فِي المسجد، فأصبحت أنحاء القبر ببركة دعائه فِي منعة وصيانة أن يرتكب عندها شيء من أعمال الوثنية، ولقد صرح -صلوات اللَّه وسلامه عليه- عند موته بلعن من اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، من اليهود والنصارى.

روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، عن عائشة ﵂ قالت: «قال رسول اللَّه ﷺ فِي مرضه الذي لَمْ يقم منه: **لعن اللَّه اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**». فلما مات -صلوات اللَّه عليه وسلامه- بنى أصحابه على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله؛ لئلا يظهر فِي المسجد؛ فيصلي إليه العوام، ويقع المحذور، ثُمَّ بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهُما حَتَّى الْتقيا، حَتَّى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، وكان قصدهم من تسنيم حجرته، وبناء الحيطان عليها؛ ألَّا يتمكن أحد من الصلاة عنده، وذلك موافقة منهم لرسول ﷺ الذي ما قصد بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد إلا تجريد التوحيد للَّه ﷻ.

يقول القرطبي صاحب التفسير ﵀: «ولهذا بالغ المسلمون فِي سد الذريعة فِي قبر النَّبِيِّ ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المدخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثُمَّ خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين؛ وحرفوهما حَتَّى الْتقيا على زاوية مثلثة من

ناحية الشمال، حَتَّى لا يتمكن أحد من استقبال قبره».

* * *

يَا فِرْقَةً جهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ ... وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

فسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ ... بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

لَا تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا ... فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جُبْرَانِ

قُلْنَا الَّذِي قَالَ الأَئِمَّةُ قَبْلَنَا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَتْ عَلَى التِّبْيَانِ

الْقَصْدُ حَجُّ الْبَيْتِ وَهْوَ فَرِيضَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ

وَرِحَالُنَا شُدَّتْ إِلَيْهِ مِنْ بِقَا ... عِ الأَرْضِ قَاصِيهَا كَذَاكَ الدَّانِي

مَنْ لَمْ يَزُرْ بَيْتَ الإِلَهِ فَمَا لَهُ ... مِنْ حَجِّهِ سَهْمٌ وَلَا سَهْمَانِ

وَكَذَا نَشُدُّ رِحَالَنَا لِلْمَسْجِدِ النْ ... نَبَوِي خَيرِ مَسَاجِدِ الْبُلْدَانِ

مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلَاقِ فِيـ ... ـهِ الْخُلْفُ بَينَ الْقَوْمِ مُنْذُ زَمَانِ

وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا لَكِنِ النْ ... نُعْمَانُ يأْبَى ذَا وَلِلنُّعْمَانِ

أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الْوُجُوبَ فَإِنَّهُ ... مَا جِنْسُهُ فَرْضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

وَلَنَا بَرَاهِينٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّذْرِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَاذِرِ طَاعَةٍ ... بِوَفَائِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

الشرح: ينادي المؤلف هذه الطائفة الضالة عن سواء السبيل، فيصفها بالجهل بالآثار النبوية، وقلة البضاعة منها، ثُمَّ بالجهل بمقصود النَّبِيِّ ﷺ ومراده من هذه الأحاديث، ثُمَّ بالجهل بحقائق الإيمان من توحيد اللَّه تعالَى ومعرفته بأسمائه وصفاته، ووجوب تنزيهه عما لا يليق به، ومن أجل جهلهم هذا يستطيلون على ذوي العلم والإيمان من أتباع النَّبِيِّ ﷺ وجنده بالظلم والعدوان والبهتان.

والمؤلف يناديهم أن يتريثوا فِي الحكم على كلام أهل السنة والتوحيد، حَتَّى يتبينوا ويتثبتوا من قصدهم، وإلا وقعوا فِي الخطأ والضلال البعيد، فإنَّهم لَمْ يقولوا إلا ما قالته الأئمة قبلهم، ووردت به النصوص على الإيضاح والتأكيد، وهو أن المسلم يجب أن ينوي بخروجه حج البيت اللَّه الحرام الذي هو أحد أركان الإسلام، والذي هو فرض عين، على كل قادر مستطيع، كما قال تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] . فهو البيت الذي تشد إليه رحال المسلمين من جميع أقطار الأرض، قريبها والبعيد، والذي تعتبر زيارته ركنًا من أركان الحج، فمن لَمْ يزره؛ فليس له من حجه نصيب.

وكذلك نشد رحالنا إلَى المسجد النبوي فِي المدينة لا إلَى القبر الشريف، فإن شد الرحل لا يجوز إلا لأحد المساجد الثلاثة: الَّتِي هي المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، لصحة الحديث بذلك، ويصبح شد الرحل إليه عندنا فرضًا بالنذر؛ لأنه نذر طاعة، ونذر الطاعة يجب الوفاء به، فلو نذر أحد أن يصلي فِي مسجد الرسول ﷺ بالمدينة؛ لزمه الوفاء بذلك، خلافًا لأبي حنيفة، فإنه لا يرى وجوب شيء بالنذر إلا لما كان جنسه فرضًا، كالصلاة والصيام والحج ونحوها، ولنا نَحن براهين تدل على فريضته بالنذر، وهو قوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه، ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه**».

فقوله: «فليطعه». أمر، والأمر يقتضي الوجوب، والرسول ﷺ لَمْ يفرق بين طاعة وطاعة، فسواء كان جنسها فرضًا أم غير فرض تصبح واجبة بالنذر، واللَّه أعلم.

* * *

وَصَلَاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلَا ذَا الْحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

وَكَذَا صَلَاةٌ فِي قُبَا فَكَعُمْرَةٍ ... فِي أَجْرِهَا وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فَإِذَا أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ صَلْـ ... ـلَيْنَا التَّحِيَّةَ أَوَّلًا ثِنْتَانِ

بِتَمَامِ أَرْكَانٍ لَهَا وَخُشُوعِهَا ... وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلِ ذِي الإِحْسَانِ

ثُمَّ انْثَنَيْنَا لِلزِّيَارَةِ نَقْصِدُ الْـ ... ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

فَنَقُومُ دُونَ الْقَبْرِ وَقْفَةَ خَاضِعٍ ... مُتَذَلِّلٍ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

فَكَأَنَّهُ فِي الْقَبْرِ حَيٌّ نَاطِقٌ ... فَالْوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ الْمَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ ... تِلْكَ الْقَوَائِمَ كَثْرَةُ الرَّجَفَانِ

وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ الْعُيُونُ بِمَائِهَا ... وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

وَأَتَى الْمُسَلِّمُ بِالسَّلَامِ بِهَيْبَةٍ ... وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِيمَانِ

لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ

كَلَّا وَلَمْ يُرَ طَائِفًا بِالْقَبْرِ أُسْـ ... ـبُوعًا كَأَنَّ الْقَبْرَ بَيْتٌ ثَانِ

ثُمَّ انْثَنَى بِدُعَائِهِ مُتَوَجِّهًا	لِلّهِ نَحْوَ الْبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ
هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا	بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ
مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ هَاتِيكَ الزِّيَا	رَةُ وَهْيَ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي الْمِيزَانِ
لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ	سُنَنُ الرَّسُولِ بِأَعْظَمِ الْبُرْهَانِ
هَذِي زِيَارَتُنَا وَلَمْ نُنْكِرِ سِوَى الْـ	ـبِدَعِ الْمُضِلَّةِ يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
وَحَدِيثُ شَدِّ الرَّحْلِ نَصٌّ ثَابِتٌ	يَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيهِ بِالْبُرْهَانِ

الشرح: فِي هذه الأبيات يبين المؤلف آداب الزيارة للمسجد النبوي وللقبر الشريف، على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيقول: إن صلاة فِي مسجد الرسول ﷺ بالمدينة تعدل ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ فإن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة؛ لصحة الأحاديث بذلك.

وكذلك صلاة فِي مسجد قباء الذي أنزل فيه قوله تعالَى من سورة براءة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. تعدل ثواب عمرة، ولا حرج على فضل اللَّه، واللَّه يضاعف لمن يشاء.

وكان النَّبِيُّ ﷺ يخرج إليه كل يوم سبت، ويصلي فيه، فإذا دخلنا المسجد النبوي الكريم بدأنا بتحية المسجد، فصليناها ركعتين فِي الروضة المطهرة؛ لقوله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**». مطمئنين فِي الأركان، خاشعين حاضري القلب بين يدي الرحمن، كما هو مقتضى الإحسان الذي فسره النَّبِيُّ ﷺ بقوله: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه**».

ثُمَّ بعد الفراغ من الصلاة نميل إلَى القبر الشريف للزيارة ولو نمشي على رءوسنا، فنقف قريبًا من القبر فِي ذلة وخضوع وأدب واحتشام، فإن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًّا، فكأنه حي يأمر وينهى، ويتكلم بالوحي، فيجب السكون وإطراق الرأس مع استشعار الهيبة والاحترام، ومع استدرار الدمع من عيون طالما غاض ماؤها، وتجمد فِي مآقيه، ثُمَّ نسلم على النَّبِيِّ ﷺ فِي سكينة ووقار، لا نرفع الصوت عاليًا كفعل الجاهلين، فقد أمرنا اللَّه بغض الصوت عنده، وجعل ذلك علامة على كمال التقوى، ولا نخر عند القبر سجدًا كفعل المشركين، فقد نَهى ﷺ أمته عن السجود له، وسأل اللَّه ﷻ ألَّا يجعل قبره وثنًا يعبد، وقال

لمعاذ حين دخل عليه فسجد: «**ما هذا يا معاذ؟ لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولكن لا ينبغي السجود إلا للَّه، أرأيت يا معاذ لو مررت على قبري أكنت ساجدًا له؟** قال: لا يا رسول اللَّه. قال: **لا تفعل**».

ولا نطوف بالقبر سبعًا كفعل الحمقى الغالين، فإن ذلك الطواف مخصوص بالبيت العتيق، ولا ندعو اللَّه مستقبلين القبر، بل نتحول عنه، ونستقبل القبلة، وندعو كما كان يفعل الصحابة ﷺ، هذه هي الزيارة الشرعية الصحيحة الَّتِي يفعلها المتمسكون بشرائع دينهم وهدي نبيهم، لا زيارة هؤلاء السفهاء من أهل البدع والأهواء الذين يرتكبون عند القبر من الأعمال الشركية والعادات الجاهلية مما يبرأ منه اللَّه ورسوله والمؤمنون.

والزيارة حين تؤدى على هذا الوجه الصحيح تكون من أفضل القربات، وأثقلها فِي الميزان يوم القيامة، فيا قوم لا تخلطوا الحق الذي وردت به السنة المطهرة بِما تخترعونه من بدع شركية منكرة، واعلموا أنَّا برآء من بَهتكم لنا بأنا نحرم زيارة القبر الشريف، فما أنكرنا سوى البدع المضلة الَّتِي يرتكبها أهل الجهل والضلال، وأما نَهينا عن شد الرحال لزيارة قبر النَّبِيِّ ﷺ وغيره من القبور فالحديث ثابت فيه، وهو قوله ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلَى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**». وإذا صح الحديث؛ فالواجب هو المصير إليه.

فصل في تعيين ان اتباع السنة والقرآن طريقة النجاة من النيران

يَا مَنْ يرِيدُ نَجَاتَهُ يوْمَ الْحِسَا ... بِ مِنَ الْجَحِيمِ وَمُوقَدِ النِّيرَانِ

اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الأَقْوَالِ وَالْـ ... أَعْمَالِ لَا تَخْرُجْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَخُذِ الصَّحِيحَينِ اللَّذَينِ هُمَا لِعِقْـ ... ـدِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَاسِطَتَانِ

وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى ... وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيطَانِ

وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا وَلَا تَحْكُمْ عَلَى ... مَا فِيهِمَا أَصْلًا بِقَوْلِ فُلَانِ

وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَةِ الْـ ... أَشْيَاخِ تَنْصُرُهَا بِكُلِّ أَوَانِ

وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيرِ مَا بُرْهَانِ

قَدِّرْ رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... وَالْقَوْلُ مِنْهُ إِلَيكَ ذُو تِبْيَانِ

مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

عَـرْضَ الَّـذِي قَـالُـوا عَـلَـى أَقْـوَالِـهِ أَوْ عَـكْـسُ ذَاكَ فَـذَانِـكَ الأَمْـرَانِ
هِـي مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَينَ طَرِيقِنَا وَطَـرِيـقِ أَهْـلِ الـزَّيـغِ وَالْـعُـدْوَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف بِهذه الأبيات كل من يهمه أن يسعى فِي خلاص نفسه من عذاب اللَّه ونيرانه الموقدة يوم القيامة، فيرسم له فيها سبيل النجاة الَّتِي لا سبيل غيرها، وهو أن يتحرى الاتباع لرسول اللَّه ﷺ فِي جَميع أقواله وأفعاله، فهو الذي أمرنا اللَّه ﷻ باتباعه، وجعل اتباعه وسيلتنا إِلَى كل خير وسعادة وفلاح، ونَهانا عن مخالفته، وجعلها سببًا لكل شر وشقاء وخيبة وحرمان، وفِي الحديث الصحيح: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**. فقيل: يا رسول اللَّه، ومن يأبى؟ قال: **من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**». وقال تعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وعلى طالب الخلاص كذلك أن يجعل القرآن العظيم أمامه، فيقيم حدوده، وينفذ أحكامه، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ولا يخرج عما تقتضيه سوره وآياته، ولا يسومها تحريفًا وتأويلًا، ولا يخرج بألفاظه عن مواضعها، وأن يأخذ معه بصحيحي البخاري ومسلم -رحمهما اللَّه- فإنَّهما اللذان تضمنا أوثق الأخبار وقد أجمعت الأمة على تلقيهما بالقبول، فهما من علم الدين والسنة كواسطة العقد الَّتِي تنتظم بِها حباته، ويتم جماله ورواؤه، ولكن ينبغي لمن يقرؤهما إذا كان يريد الانتفاع بِما فيهما من علم؛ أن يتجرد من كل هوى وعصبية، وأن ينبذ كل ما يتقلده من مذاهب وآراء، وأَلَّا تأخذه فِي نصرتِها حمية الجاهلية، فيجعلها حكمًا يزن به الآراء والأقوال، ولا يحكم عليهما بأقوال الرجال، وأن ينتصر لما فيهما من قول الرسول ﷺ وحكمه، كما ينتصر لأقوال شيوخه الذين يقلدهم فِي الدين بغير برهان ولا دليل.

والحاصل: أنه يجب عليه أن يقدر أنه بين يدي الرسول ﷺ، يأخذ عنه مباشرة بلا واسطة أحد، وأن القول منه ﷺ واصل إليه فِي أتم وضوح، وأجلى بيان.

ثُمَّ يتساءل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: ما الذي تراه واجبًا عليك حتمًا إن كنت ممن رزقهم اللَّه الفهم الصحيح والإيمان الوثيق؟ هل هو أن تعرض ما قاله الناس على ما قاله الرسول ﷺ، فتجعل قوله هو الميزان لقولهم، أو ترى عكس ذلك، فتجعل أقوالهم هي الأصل الذي تزن به أقوال المعصوم؟! لا شك أن عقلك وإيمانك سيحملانك على اختيار

الطريق المستقيم، وكان التردد بين هذين الأمرين هو مفرق الطريق بين أهل الاستقامة والحق والإيمان، وبين أهل الزيغ والجور والعدوان، فنحن حكمنا ما قاله رسول الرحْمن، وجعلناه لديننا الأصل والميزان، وهم حكموا ما قالته شيوخهم مما ألقاه إليهم الشيطان، فشتان ما بين الطريقين شتان.

* * *

قَدِّرْ مَقَالَاتِ الْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ ... عَدَمًا وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإيمَانِ

وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَينَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... وَتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بِالإِحْسَانِ

وَتَلَقَّ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّوْهُ هُمُ ... عَنْهُ مِنَ الإيمَانِ وَالْعِرْفَانِ

أَفَلَيْسَ فِي هَذَا بَلَاغُ مُسَافِرٍ ... يَبْغِي الإِلَهَ وَجَنَّةَ الْحَيَوَانِ

لَوْلَا التَّنَافُسُ بَينَ هَذَا الْخَلْقِ مَا ... كَانَ التَّفَرُّقُ قَطُّ فِي الْحُسْبَانِ

فَالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُ ... حَقٌّ وَفَهْمُ الْحَقِّ مِنْهُ دَانِ

وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ الْمُبِيـ ... ـنَ بِغَايَةِ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

مَا ثَمَّ أَوْضَحُ مِنْ عِبَارَتِهِ فَلَا ... يَحْتَاجُ سَامِعُهَا إِلَى تِبْيَانِ

وَالنُّصْحُ مِنْهُ فَوْقَ كُلِّ نَصِيحَةٍ ... وَالْعِلْمُ مَأْخُوذٌ عَنِ الرَّحْمَنِ

فَلأَيِّ شَيءٍ يعْدِلُ الْبَاغِي الْهُدَى ... عَنْ قَوْلِهِ لَوْلَا عَمَى الْخِذْلَانِ

الشرح: وعلى طالب النجاة كذلك أن يتجرد من كل ما درسه من المذاهب والمقالات، وأن يعتبرها عدمًا، وأن يمحوها من صفحة ذهنه، وأن ييمم بعقله وفكره شطر مدينة الرسول ﷺ، وأن يخيل لنفسه كأنه يجلس بين أصحابه يتلقى معهم عنه العلم والهدى بالإحسان والمتابعة، ثُمَّ يتلقى عنهم كذلك ما تلقوه هم من الرسول -عليه الصلاة والسلام- من حقائق الإيمان وأبواب العلم والمعرفة، وأن يجعل هذا العلم النقي المصفى هو زاده فِي رحلته إِلَى اللَّه الذي يبلغه كل ما يتمنى من رضوان اللَّه ورحمته وجنته، وواللَّه لولا ما كتبه اللَّه على بني آدم من الخصومات والعداوة لَمْ يدر بخلد أحد قط أن يتفرق المسلمون فِي دينهم شيعًا، وأن يختصموا هكذا فِي ربِّهم فرقًا ونحلًا، فإن الرب الذي يدينون له رب واحد ليس لَهم رب غيره، وكتابه الذي أنزله على رسوله حق لا ريب فيه، وهو قد أنزله بلسان عربي مبين؛ ليفهمه كل أحد، فأخذ الحق منه دان قريب، قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟

ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

والرسول ﷺ قد أوفى على الغاية فِي إيضاح الحق وبيانه، فكلامه أفصح الكلام وأبينه، لا يحتاج معه سامعه إلَى من يوضحه له، وهو كذلك أعظم الخلق شفقة على الخلق، وأكملهم رغبة فِي نصحهم وإرشادهم إلَى الحق، وهو أيضًا أعلمهم بهذا الحق بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، فإذا كان هو عليه السلام قد كملت فيه هذه الثلاثة: من العلم، والقدرة على البيان، وإرادة النصح؛ فلأي شيء يعدل طالب الهدى عن قوله؟! أليس ذلك دليلًا على خذلانه وعمى قلبه؟ نعوذ باللَّه من الخذلان.

* * *

فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَدَّقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ... ذِي عِصْمَةٍ مَا عِنْدَنَا قَوْلَانِ

وَالْعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَا ... مَنْ يَهْتَدِي هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلَانِ

تَاللهِ قَدْ لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ ... عَينَانِ نَحْوَ الْفَجْرِ نَاظِرَتَانِ

وَأَخُو الْعَمَايَةِ فِي عَمَايَتِهِ يَقُو ... لُ اللَّيلُ بَعْدُ أَيَسْتَوِي الرَّجُلَانِ

تَاللهِ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ الأَعْلَامُ إِنْ ... كُنْتَ الْمُشَمِّرَ نِلْتَ دَارَ أَمَانِ

وَإِذَا جَبُنْتَ وَكُنْتَ كَسْلَانًا فَمَا ... حُرِمَ الْوُصُولَ إِلَيهِ غَيرُ جَبَانِ

فَاقْدُمْ وَعِدْ بِالْوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الْـ ... ـمَقْطُوعَ مِنْهُ قَاطِعُ الإِنْسَانِ

عَنْ نَيلِ مَقْصِدِهِ فَذَاكَ عَدُوُّهُ ... وَلَوَ انَّهُ مِنْهُ الْقَرِيبُ الدَّانِي

الشرح: والنقل عنه ﷺ ثابت بواسطة العدول الثقات الضابطين الأمناء الأثبات، وهو ﷺ الصادق المصدوق، المعصوم من الغواية والضلال، فلا يجهل الحق، ولا يقول خلاف ما يعلم أنه الحق، وأما غيره ممن يأخذ عنهم الناس ويقلدونَهم فِي دين اللَّه فهو بعكس ذلك فِي الأمرين جميعًا، فالنقل عنه ليس موثوقًا به؛ لأنه نقل غير عدول ولا أمناء، وهو كذلك غير معصوم من الخطإ، فقد يجهل الحق، ولا يأمن الكذب، فقد يقول بغير ما يعلم أنه الحق، فواللَّه ليس بعد هذا البيان بيان، وقد أسفر الصبح لكل من له عينان، فسبيل اللَّه واضحة لكل من صح نظره، واستقام فكره، وأما أخو العمى فلا يزال متخبطًا فِي عمايته، يظن أن الليل لا يزال باقيًا، فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟! تاللَّه قد نشرت لك أعلام الحق، ونصبت لك مناراته، ولَمْ يبق إلا أن تشمر عن ساعديك، وتمضي قدمًا فِي غير ونًى ولا فتور، حَتَّى تبلغ ما تشتهي فِي دار الأمان والحبور، أما إذا

ارتديت ثياب الجبن، ورضيت لنفسك أن تعيش إمعة، لا تقول إلا بِما يقول لك الشيوخ والرؤساء، وآثرت الكسل والقعود -فقد قضيت على نفسك بالحرمان، فإن الحرمان نصيب الكسول الجبان، فتقدم غير هيَّاب ولا كسلان، وَمَنِّ النفس بالوصال، واهجر جَميع العوائق الَّتِي تقطعك وتعوقك عن بلوغ الآمال ونيل المنَى والأمان، فتلك هي عدوك اللدود وإن كانت من أقرب المقربين، وأما حبيبك فهو الذي يعينك على بلوغ غرضك، ويساعدك على قطع الطريق إلَى ما تشتهي وتريد.

فصل في تيسير السير إلى الله على المثبتين الموحدين وامتناعه على المعطلين والمشركين

يَا قَاعِدًا سَارَتْ بِهِ أَنْفَاسُهُ ... سَيرَ الْبَرِيدِ وَلَيسَ بِالذَّمَلَانِ
حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَادُ وَقَدْ سَرَى ... وَفْدُ الْمَحَبَّةِ مَعْ أُولِي الإِحْسَانِ
وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ الْعُلَا ... لَا حَادِيَ الرُّكْبَانِ وَالأَظْعَانِ
رَكِبُوا الْعَزَائِمَ وَاعْتَلَوْا بِظُهُورِهَا ... وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوا إِلَى نُعْمَانِ
سَارُوا رُوَيدًا ثُمَّ جَاءُوا أَوَّلًا ... سَيْرَ الدَّلِيلِ يؤُمُّ بِالرُّكْبَانِ
سَارُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيهِ لَا التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالنُّكْرَانِ
عَرَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فَامْتَلأَتْ قُلُو ... بُهُمُ لَهُ بِالْحُبِّ وَالإِيمَانِ
فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ الْقُلُوبُ إِلَيهِ بِالْـ ... أَشْوَاقِ إِذْ مُلِئَتْ مِنَ الْعِرْفَانِ
وَأَشَدُّهُمْ حُبًّا لَهُ أَدْرَاهُمُ ... بِصِفَاتِهِ وَحَقَائِقِ الْقُرْآنِ
فَالْحُبُّ يَتْبَعُ لِلشُّعُورِ بِحَسْبِهِ ... يَقْوَى وَيَضْعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَانِ

الشرح: يخاطب المؤلف هذا القاعد المتخلف الذي تسير به أنفاسه اللاهثة سير ركائب البريد الوانية المتباطئة، لا سير الذوامل النشيطة الساعية، فيقول له: حَتَّى متى تغط فِي نومك، وتَهيم فِي وادي غفلاتك، وقد استيقظ الأكياس المحبون، وجَدُّوا فِي السير مع أهل الإحسان المخلصين، وشحذوا العزائم، فنهضت بِهم نحو العلا صعدًا، ولَمْ يرتضوا لَهم حاديًا غيرها، بل ركبوها وامتطوا ظهورها، وساروا لا يلتفتون إلَى وصل غانية ودار حبيب، حَتَّى لا يقطعهم عن السير إلَى الحبيب القريب، ساروا إليه رويدًا رويدًا سيرًا لينًا متتابعًا، ثُمَّ جاءوا فِي مقدمة الركب كسير الدليل، ساروا إليه بإثبات صفاته العليا، لا

بالتحريف والإنكار والتعطيل، عرفوه بأوصافه كلها، أوصاف كماله وجماله وجلاله، فامتلأت قلوبُهم من محبته والإيمان به، فأطارها الشوق إليه حين أفعمت من كئوس معرفته، وامتلأت من أنوار صفات قدسه.

وهكذا كلما زادت المعرفة فِي القلب؛ زاد معها الشوق والحب، فأشد المحبين له حبًّا، وأكثرهم منه مودة وقربًا؛ أعلمهم بصفاته العليا، من حيث ثبوتِها وكمالها واتساعها وعظمتها وآثارها فِي الخلق، وأعلمهم كذلك بحقائق القرآن، وما تضمنه من أبواب العلم والإيمان، فالحب يتبع الشعور، والعرفان يقوى بقوته، ويضعف بضعفه، وذلك أمر ظاهر للعيان لا يحتاج إلَى توضيح وبيان.

* * *

وَلِذَاكَ كَانَ الْعَارِفُونَ صِفَاتِهِ ... أَحْبَابُهُ هُمْ أَهْلُ هَذَا الشَّانِ

وَلِذَاكَ كَانَ الْعَالِمُونَ بِرَبِّهِمْ ... أَحْبَابُهُ وَبِشِرْعَةِ الإِيمَانِ

وَلِذَاكَ كَانَ الْمُنْكِرُونَ لَهَا هُمُ الْـ ... أَعْدَاءُ حَقًّا هُمْ أُولُو الشَّنَآنِ

وَلِذَاكَ كَانَ الْجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا ... بُغَضَاءَهُ حَقًّا ذَوِي شَنَآنِ

وَحَيَاةُ قَلْبِ الْعَبْدِ فِي شَيْئَيْنِ مَنْ ... يُرْزَقْهُمَا يَحْيَا مَدَى الأَزْمَانِ

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الأُخْرَى يَكُو ... نُ الْحَيَّ ذَا الرِّضْوَانِ وَالإِحْسَانِ

ذِكْرُ الإِلَهِ وَحُبُّهُ مِنْ غَيرِ إشْـ ... رَاكٍ بِهِ وَهُمَا فَمُمْتَنِعَانِ

مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقًّا كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ الْمَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

أَيحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ ... وَعُلُوَّهُ وَكَلامَهُ بِقُرَانِ

لا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... مُتَكَلِّمًا بِالْوَحْيِ وَالْفُرْقَانِ

الشرح: وإذا ثبت أن المحبة تابعة للمعرفة، تزيد بزيادتِها، وتنقص بنقصانِها، فالعارفون بصفاته المثبتون لَهَا هم أحبابه حقًّا، وأهل الخشية منه حقًّا، فإنه لا يحب اللَّه ويخشاه إلا العالمون به، الذين كملت صورة الحق فِي قلوبِهم، وامتلأت من عظمتها وجلالها نفوسهم، وكذلك العالمون بِما شرع لَهم من حقائق الإيمان وموجبات اليقين، وأما المنكرون الجاحدون لصفات رب العالمين فهم أعداؤه حقًّا؛ لأنَّهم جهلوا صفات ربِّهم، وجهلوا ما شرعه لَهم، فاستحقوا بذلك بغضه وشنآنه.

وحياة القلب وغذاؤه فِي أمرين اثنين، من يؤت حظه منهما يظل قلبه حيًّا دائمًا فِي هذه الحياة الدنيا وفِي الآخرة؛ لأنَّهما يمدانه بأسباب الحياة والبقاء، فلا يموت كما تموت قلوب أهل الجهل والغفلة -وهُما ذكر اللَّه وحبه، مع توحيده والإخلاص له، وهذان الأمران لا يتوافران إلا لمن يثبت الصفات للرحمن، ولكنهما يمتنعان ويصعبان على أهل التعطيل والنكران، فهم لا يقدرون على ذلك، كما لا يقدر الطائر المقصوص على الطيران.

وكيف يستطيع حبه وذكره من كان ينكر صفاته العليا الَّتِي وصف بِها نفسه، ومن كان ينكر استواءه وعلوه، ومن كان ينكر كلامه بالقرآن وغيره من كتبه، وكلامه لمن يشاء من خلقه؟!

لا والذي استوى حقًّا على عرشه، وتكلم حقًّا بفرقانه ووحيه، لا يستطيع جاحد معطل أبدًا أن ينعم بذكر اللَّه وحبه، ولا أن يتمتع بأنسه وقربه، كما يتمتع بذلك أهل معرفته.

* * *

اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْ ... تِيهِ لِمَنْ يَرْضَى بِلَا حُسْبَانِ

وَتَرَى الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ تَقُولُ ذَا ... إِحْدَى الأَثَافِي خُصَّ بِالْحِرْمَانِ

اللَّهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللَّهِ يَقْـ ... ضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ

وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الْحَمْدُ فِي الْـ ... أُولَى وَفِي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ

حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَكَذَاكَ حَمْدُ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

يَا مَنْ تَعِزُّ عَلَيهِمُ أَرْوَاحُهُمْ ... وَيَرَوْنَ غَبْنًا بَيْعَهَا بِهَوَانِ

وَيَرَوْنَ خُسْرَانًا مُبِينًا بَيْعَهَا ... فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحَةٍ وَمُهَانِ

وَيَرْونَ مَيدَانَ التَّسَابُقِ بَارِزًا ... فَيُتَارِكُونَ تَقَحُّمَ الْمَيْدَانِ

وَيَرَونَ أَنْفَاسَ الْعِبَادِ عَلَيْهِمُ ... قَدْ أُحْصِيَتْ بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

وَيَرَوْنَ أَنَّ أَمَامَهُمْ يومَ اللِّقَا ... لِلَّهِ مَسْأَلَتَانِ شَامِلَتَانِ

مَاذَا عَبَدْتُمْ ثُمَّ مَاذَا قَدْ أَجَبْـ ... تُمْ مَنْ أَتَى بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

هَاتُوا جَوَابًا لِلسُّؤَالِ وَهَيِّئُوا ... أَيضًا صَوَابًا لِلْجَوَابِ يدَانِ

وَتَيقَّنُوا أَنْ لَيسَ يُنْجِيكُمْ سِوَى ... تَجْرِيدِكُمْ لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
تَجْرِيدُكُمْ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ شِرْكَةِ الشَّيطَانِ وَالأَوْثَانِ
وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ... عَنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ
وَاللهِ مَا يُنْجِي الْفَتَى مِنْ رَبِّهِ ... شَيءٌ سِوَى هَذَا بِلَا رَوَغَانِ

الشرح : أما من آتاه اللَّه حظه من معرفته والإيمان به ، ومن ذكره سبحانه وحبه ، فذلك فضل اللَّه يؤتيه لمن يرضى عنه من خلقه ، عطاء بغير حساب ، ولا تقدير ، ولا تضييق ، ولا تقتير ، وأما المخلفون فِي البيوت ، الذين رضوا بأن يكونوا مع القواعد ؛ فإنَّهم كأثافي القدر ، فقد خصهم اللَّه بالحرمان من ذلك الخير ، وذاك عدله الذي يقضيه على من يشاء من عباده ، الذين علم أنَّهم ليسوا للفضل أهلًا ، ولا للخير والكرامة محلًّا ، وهو سبحانه المحمود على كل ما يقضيه من فضل لأهل طاعته ، وعدل فِي أهل معصيته ، حمدًا دائمًا فِي الأولى والآخرة ، فله الحمد لذاته المقدسة على ما اتصف به من نعوت الكمال ، وله الحمد على عدله وإحسانه وكل ما يصدر عنه من أفعال .

فيا من كرمت عليهم نفوسهم ، وغلت عندهم أرواحهم ، فرأوا أن من الغبن والخسران أن يبيعوها بيع الهوان ، جريًا وراء كل قبيحة يزينها الشيطان ، ويرون فرسان السباق يركضون فِي الميدان ، فيتحاشون تقحم الميدان ، ويرون أعمارهم تمر سريعًا ، قد عدت عليهم أنفاسهم بالدقائق والثواني ، ويرون أن أمامهم يومًا شديد الهول فظيع المطلع ، سيلقون فيه ربَّهم ، فيسألهم -وهو أعلم بِهم- عن مسألتين شاملتين لجميعهم :

أولاهما : يسألهم عما كانوا يعبدون ؛ ليرى ماذا فعلوا بحقه عليهم فِي التوحيد والإخلاص ؟

والثانية : يسألهم عما أجابوا به من أرسلوا إليهم بالبينات والهدى ؛ ليعرف ماذا فعلوا بحق رسله عليهم فِي الطاعة والاتباع ؟ .

فليعد كل إنسان للسؤال جوابًا ، وليهيِّئ للجواب أن يكون صوابًا ، وليعلم علم اليقين أن ليس ينجيه من خزي هذا الموقف سوى تخليصه لحقائق الإيمان من كل أنواع الزيغ والكفران ، وسوى تجريده التوحيد للَّه من كل ما يشرك به من شيطان وأوثان ، وتجريده الاتباع لرسوله من كل ما يَهرف به الناس من أنواع الهراء والهذيان ، فواللَّه لا منجاة للعبد من عذاب النيران ، ولا مخلص له من غضب اللَّه إلا هذان الأمران ، توحيد واتباع ، فاتركوا

التحايل والروغان.

* * *

يَا رَبِّ جَرِّدْ عَبْدَكَ الْمِسْكِينَ رَا ... جِي الْفَضْلِ مِنْكَ وَأَضْعَفَ الْعُبْدَانِ

لَمْ تَنْسَهُ وَذَكَرْتَهُ فَاجْعَلْهُ لَا ... يَنْسَاكَ أَنْتَ بَدَأْتَ بِالإِحْسَانِ

وَبِهِ خَتَمْتَ فَكُنْتَ أَوْلَى بِالْجَمِيـ ... ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الْجَهُولِ الْجَانِي

فَالْعَبْدُ لَيسَ يَضِيعُ بَينَ فَوَاتِحٍ ... وَخَوَاتِمٍ مِنْ فَضْلِ ذِي الْغُفْرَانِ

أَنْتَ الْعَلِيمُ بِهِ وَقَدْ أَنْشَأْتَهُ ... مِنْ تُرْبَةٍ هِي أَضْعَفُ الأَرْكَانِ

كُلٌّ عَلَيهَا قَدْ عَلَا وَهَوَتْ إِلَى ... تَحْتِ الْجَمِيعِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

وَعَلَتْ عَلَيهَا النَّارُ حَتَّى ظَنَّ أَنْ ... يَعْلُو عَلَيهَا الْخَلْقُ مِنْ نِيرَانِ

وَأَتَى إِلَى الأَبَوَينِ ظَنًّا أَنَّهُ ... سَيُصَيِّرُ الأَبَوَينِ تَحْتَ دُخَانِ

فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَينِ رَحْمَتُكَ الَّتِي ... وَسِعَتْهُمَا فَعَلَا بِكَ الأَبَوَانِ

الشرح: بعد أن ذكر ما أعده اللَّه من الفضل والكرامة لمن جرد التوحيد للَّه، فلم يشرك باللَّه شيئًا، وجرد الاتباع لرسوله ﷺ، فلم يقدم على قوله قول أحد من الناس؛ أخذ يناجي ربه بِهذه الأبيات الرائعة الَّتِي تفيض ذلًّا وضراعة، فهو يدعوه أن يخلصه من كل آثار الشرك والوثنية والعصيان والمخالفة، ومن اتباع هوى النفس والشيطان فإنه عبده الخاضع لجناب قهره وعزته، المؤمل الطامع فِي بحبوحة غفرانه ورحمته.

ثُمَّ يقول: إنك لَمْ تنسه أبدًا من رحمتك مذ كان جنينًا فِي بطن أمه، بل سبق الإحسان منك إليه من قبل أن يصعد منه إليك عمل، فأجريت عليه رزقه من غذاء أمه، وحفظته فِي مستقره، ولَمْ يزل يتوالى عليه إحسانك، فكنت المحسن فِي البدء، والمحسن فِي الختام، فكنت أحق بالثناء الحسن الجميل من عبدك الجاني الظلوم الجهول، وأنت أحق أن تغفر لعبدك ما ارتكب من زلات، وأكرم من أن تضيعه بين فواتح وخواتم، بل تعامله فِي البين بِما عاملته به فِي البدايات والنهايات، وأنت العليم بعبدك وقد خلقته من التراب الذي هو أضعف عناصر المخلوقات، فكلها من الماء والهواء، والنار تعلو عليه، وهو يميل إِلَى الهبوط والتسفل والاستقرار والثبات، وقد علت النار الَّتِي خلق منها الجان على التراب الذي خلق منه آدم، حَتَّى إبليس -عليه اللعنات- قال: إنه خير منه. فاستكبر عن السجود له وعارض أمر ربه، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

ثُمَّ سعى إِلَى الأبوين بالفتنة، وحملهما على ارتكاب الزلة حين أغراهما بالأكل من الشجرة، وخيل إليه أنه أهلكهما هلاكًا لا قيامة لهما بعده، وأنه صيرهُما بالغواية والمعصية تحته، ولكن أدركتهما رحمة اللَّه، فجبرت كسرهُما، وداوت جرحهما، وعلت بهما إِلَى مكان العزة والكرامة، فعاد اللعين مغيظًا مخنقًا، يمنِّي نفسه أن يدرك من الأبناء ما فاته من الآباء ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

* * *

هَذَا وَنَحْنُ بَنُوهُمَا وَحُلُومُنَا ... فِي جَنْبِ حِلْمِهِمَا لَدَى الْمِيزَانِ

جُزْءٌ يَسِيرٌ وَالْعَدُوُّ فَوَاحِدٌ ... لَهُمَا وَأَعْدَانَا بِلَا حُسْبَانِ

وَالضَّعْفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْنَا مِنْ جَمِيـ ... ـعِ جِهَاتِنَا سِيمَا مِنَ الأَيمَانِ

يَا رَبِّ مَعْذِرَةً إِلَيكَ فَلَمْ يَكُنْ ... قَصْدُ الْعِبَادِ رُكُوبَ ذَا الْعِصْيَانِ

لَكِنْ نُفُوسٌ سَوَّلَتْهُ وَغَرَّهَا ... هَذَا الْعَدُوُّ لَهَا غُرُورَ أَمَانِ

فَتَيَقَّنَتْ يَا رَبِّ أَنَّكَ وَاسِعُ الْـ ... ـغُفْرَانِ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

وَمَقَالُنَا مَا قَالَهُ الأَبَوَانِ قَبْـ ... ـلَ مَقَالَةِ الْعَبْدِ الظَّلُوم الْجَانِي

نَحْنُ الأُلَى ظَلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرِ الذْ ... ذَنْبَ الْعَظِيمَ فَنَحْنُ ذُو خُسْرَانِ

يَا رَبُّ فَانْصُرْنَا عَلَى الشَّيطَانِ لَيْـ ... ـسَ لَنَا بِهِ لَوْلَا حِمَاكَ يَدَانِ

الشرح: وكما وسعت رحمتك يا رب الأبوين، فلقنتهما توبتهما، ثُمَّ قبلتها منهما، فنحن يا رب بعدهما بنوهما، وأحوج إِلَى رحمتك منهما، فإن عقولنا لا تعد شيئًا إذا قيست إِلَى عقليهما، مع أن عدونا وعدوهُما واحد، لا يزال يَجِدُّ فِي إغوائنا وفتنتنا كما أغواهما، ولنا مع ذلك أعداء كثيرون، كلهم يتربصون بنا، وينتظرون غراتنا وغفلاتنا، والضعف مستو ل علينا من جَميع جهاتنا، لاسيما ما أَلَمّ بنا من ضعف الإيمَان وقلة اليقين.

فمعذرة إليك يا ربنا، ومغفرة منك لذنوبنا الَّتِي لَمْ نقصد أبدًا إِلَى ارتكابِها عمدًا إِلَى عصيانك ومخالفتك، ولكن النفوس الأمارة بالسوء سولتها لنا، وجاء هذا العدو الماكر فغرر بنا، ووعدنا ومنانا بغرور، وقد تيقنا سعة مغفرتك، وعظيم إحسانك وفضلك، ونَحن نتوب إليك منها، ونقول ما قاله الأبوان قبلنا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

﴿مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣] . فاغفر لنا كما غفرت لهما، وأعنَّا على هذا الشيطان الرجيم، وردعنا كيده اللئيم، فإنه لولا فضلك وحمايتك ما نجا من كيده إنسان، ولا كان لأحد على التخلص من إغوائه يدان، فاللَّهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك يا رحيم يا رحمن.

فصل في ظهور الفرق بين الطائفتين وعدم التباسه إلا على من ليس بذي عينين

وَالْفَرْقُ بَينَكُمُ وَبَينَ خُصُومِكُمْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ بِبَيَانِ
مَا أَنْتُمُ مِنْهُمْ وَلَا هُمْ مِنْكُمُ ... شَتَّانَ بَينَ السَّعْدِ وَالدَّبْرَانِ
فَإِذَا دَعَوْنَا لِلْقُرَانِ دَعَوْتُمُ ... لِلرَّأْيِ أَينَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ
وَإِذَا دَعَوْنَا لِلْحَدِيثِ دَعَوْتُمُ ... أَنْتُمْ إِلَى تَقْلِيدِ قَوْلِ فُلَانِ
وَكَذَا تَلَقَّيْنَا نُصُوصَ نَبِيِّنَا ... بِقُبُولِهَا بِالْحَقِّ وَالإِذْعَانِ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا جَحْدٍ وَلَا ... تَفْوِيضِ ذِي جَهْلٍ بِلَا عِرْفَانِ
لَكِنْ بِإِعْرَاضٍ وَتَجْهِيلٍ وَتَأْ ... وِيلٍ تَلَقَّيتُمْ مَعَ النُّكْرَانِ
أَنْكَرْتُمُوهَا جَهْدَكُمْ فَإِذَا أَتَى ... مَا لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى نُكْرَانِ
أَعْرَضْتُمُ عَنْهُ وَلَمْ تَسْتَنْبِطُوا ... مِنْهُ هُدًى لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ
فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ مُكْرَهِينَ بِسَمْعِهَا ... فَوَّضْتُمُوهَا لَا عَلَى الْعِرْفَانِ
لَكِنْ بِجَهْلٍ لِلَّذِي سِيقَتْ لَهُ ... تَفْوِيضَ إِعْرَاضٍ وَجَهْلِ مَعَانِ
فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِاحْتِجَاجِ خُصُومِكُمْ ... أَوَّلْتُمُوهَا دَفْعَ ذِي صَوَلَانِ
فَالْجَحْدُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّأْوِيلُ وَالتْـ ... تَجْهِيلُ حَظُّ النَّصِّ عِنْدَ الْجَانِي
لَكِنْ لَدَينَا حَظُّهُ التَّسْلِيمُ مَعْ ... حُسْنِ الْقَبُولِ وَفَهْمِ ذِي الإِحْسَانِ

الشرح: والفرق بينكم أيها المعطلة الجاحدون، وبين خصومكم من أهل الحق والإثبات: ثابت من كل النواحي ثبوتًا بينًا لا شك فيه، فلستم منهم فِي شيء، ولا هم منكم كذلك، بل بينكم وبينهم من الخلاف كما بين هذين النجمين المعروفين السعد والدبران، ونَحن ندلكم على مواضع الخلاف بيننا وبينكم، ونَحن إذا دعونا للأخذ بنصوص القرآن، واتباع ما فيه من هدى وبيان، دعوتم أنتم إلَى تقليد فلان وفلان، ونَحن إذا تلقينا أحاديث

نبينا بالقبول والتسليم والإذعان من غير تحريف لَهَا عن مواضعها، ولا جحد وإنكار لَهَا، ولا تفويض جاهل بلا عرفان؛ تلقيتموها أنتم بالجحود والتكذيب والنكران، تنكرونَها جهد استطاعتكم، وتطعنون فِي نقلها من أهل العلم والإيمان، فإذا جاءكم ما لا سبيل لكم إلَى إنكاره؛ لثبوته فِي النقل ثبوتًا لا يسوغ معه نكران؛ أعرضتم عنه إعراض الجاهلين، ولَمْ تحاولوا أن تستخرجوا منه بيانًا لحقائق الإيمان، فإذا ابتليتم مكرهين بمن يتلوها على مسامعكم؛ قلتم: نفوض فِي معناها. لكنه ليس تفويض ذي معرفة، بل تفويضًا قائمًا على الإعراض والجهل بالمعاني، أما إذا ابتليتم باحتجاج خصومكم بِها؛ فإنكم تصولون وتجولون فِي دفعها وردها.

وهكذا يتم الخلاف ويستحكم بيننا وبينكم، فالجحد والإعراض والتأويل والتجهيل هو نصيب النص عندكم، أما عندنا فحظه التسليم والرضا، وحسن القبول، وفهم ذي الإحسان.

فصل في التفاوت بين حظ المثبتين والمعطلين من وحي رب العالمين

وَلَنَا الْحَقِيقَةُ مِنْ كَلَامِ إِلَهِنَا ... وَنَصِيبُكُمْ مِنْهُ الْمَجَازُ الثَّانِي

وَقَوَاطِعُ الْوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... وَعَلَيْكُمُ هَلْ يَسْتَوِي الْأَمْرَانِ

وَأَدِلَّةُ الْمَعْقُولِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... أَيْضًا فَقَاضُونَا إِلَى الْبُرْهَانِ

وَكَذَاكَ فِطْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ شَا ... هِدَةٌ لَنَا أَيْضًا شُهُودَ بَيَانِ

وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالأُلَى ... تَبِعُوهُمُ بِالْعِلْمِ وَالإِحْسَانِ

وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ ... هَذَا كَلَامُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

هَذِي الشُّهُودُ فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَنْتُمُ ... مِنْ شَاهِدٍ بِالنَّفْيِ وَالنُّكْرَانِ

وَجُنُودُنَا مَنْ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ... وَجُنُودُكُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ

وَخِيَامُنَا مَضْرُوبَةٌ بِمَشَاعِرِ الْـ ... وَحْيَيْنِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ فَالسْـ ... سُكَّانُ كُلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

الشرح: ونصيبنا من كلام الله ﷻ حقيقة معناه الَّتِي تدل عليها ألفاظه بوضع اللغة،

وأما نصيبكم منه فالمجاز الثاني الذي يصرف إليه الكلام صرفًا من غير مقتض لذلك ولا قرينة تدل عليه .

أما الشهود الذين يشهدون لنا : فهم كثرة كاثرة ، وكلهم شهود عدل ، ليس فيهم مدلس ولا شاهد زور ، فالنصوص القاطعة من الكتاب والسنة شاهدة لنا ، وهي فِي نفس الوقت شاهدة عليكم ، والأدلة العقلية المؤسَّسة على المعقولات الصريحة الخالية من شوائب الوهم والخيال والتقليد شاهدة لنا كذلك ، وإن لَمْ تصدقوا ، فتعالوا نَحن وأنتم نحتكم إلَى البرهان الصريح ، وكذلك فطرة اللَّه الَّتِي فطر الناس عليها ، والَّتِي لا يمكن أن تكذب أو تضل مادامت سليمة خالية من التأثر بعوامل البيئة والتقليد للأبوين ، هي شاهدة لنا شهودًا واضحًا .

ومن شهودنا أيضًا : إجماع الصحابة الذين هم أكمل هذه الأمة ، وأبرها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، والتابعين لَهم بإحسان ممن ورثوا علمهم وفضلهم ، وكذلك أئمة الهدى من بعدهم ، فكلامهم موجود فِي بطون الكتب ، وهو ناطق بصريح الإثبات ، فهذه هي شهودنا الَّتِي تشهد لنا بصحة قولنا فِي إثبات الصفات ، فهل لديكم أنتم ولو شاهد واحد على النفي والإنكار؟!

وأما جنودنا : فمن قد علمتم ممن تقدم ذكرهم من الملائكة المقربين ، وجَميع الأنبياء والمرسلين ، وجَميع من جرى على سنتهم ، واهتدى بِهديهم إلَى يوم الدين .

وأما جنودكم فعساكر الشيطان اللعين .

وخيامنا : مضروبة بمكان ذي صوى وأعلام ، فلا يضل سكانُها مواقع الخيام ، وهو معالم الوحيين من سنة وقرآن .

وأما خيامكم : فمنصوبة فِي تيه لا دليل عليه ، فلا يأوي إليها إلا كل ملدد حيران .

* * *

هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ ... عِنْدَ الْمَمَاتِ وَقَوْلُهُمْ بِلِسَانِ

وَاللهُ يشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيضًا كَذَا ... تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

وَلَنَا الْمَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السْـ ... ـسُنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الْكَلَامِ وَهَذِهِ الْـ ... آرَاءُ وَهْيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ

شُبَهٌ يكَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَبَيْـ ـتٍ مِـنْ زُجَـاجٍ خَـرَّ لِـلأَرْكَـانِ
هَلْ ثَمَّ شَيءٌ غَيرَ رَأْيٍ أَوْ كَلَا مِ بَاطِلٍ أَوْ مَنْطِقِ الْيونَانِ
وَنَقُولُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ فِي كُلِّ تَصْنِيفٍ وَكُلِّ مَكَانِ
لَكِنْ تَقُولُوا قَالَ آرِسْطُو وَقَا لَ ابْنُ الْخَطِيبِ وَقَالَ ذُو الْعِرْفَانِ
شَيخٌ لَكُمْ يُدْعَى ابْنَ سِينَا لَمْ يكُنْ مُتَقَيِّدًا بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ
وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِيْ يُ وَتَشْهَدُونَ عَلَيهِ بِالْبُهْتَانِ
فَالأَشْعَرِي مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْـ ـبِ الْعَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ
فِي غَايَةِ التَّقْرِيرِ بِالْمَعْقُولِ وَالْـ ـمَنْقُولِ ثُمَّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

الشرح: يعني: أن علماءكم يدركهم الندم عند الموت، ويشهدون على أنفسهم أنَّهم أضاعوا أعمارهم فيما لا ينفع من دراسة المذاهب والمقالات، معرضين عن هدي الكتاب والسنة.

وذلك كقول الشهرستاني صاحب كتاب «نِهاية الإقدام فِي علم الكلام»:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقنه أو قارعًا سن نادم

وكقول ابن الخطيب الرازي صاحب التفسير المشهور، وأشهر متكلمي الأشعرية فِي عصره:

«نِهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا فِي وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولَمْ نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جَمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ فِي الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. وأقرأ فِي النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ومن جرب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي».

وكقول إمام الحرمين الجويني عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت فِي الذي نَهوني عنه، والآن إن لَمْ يتداركني ربي برحمته

فالويل لفلان، وهأنا أموت على عقيدة أمي».

والله يشهد عليهم كذلك بِما شهدوا به على أنفسهم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

ونَحن ورثنا علم النبوة كابرًا عن كابر، وألفنا فيه الكتب القيمة، فلنا المسانَد الَّتِي يجمع فيها المحدث فِي ترجمة كل صاحبيٍّ ما يرويه عنه من حديثه، ويجعله على حدة، وإن اختلفت أنواعه مثل: مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند عثمان بن أبِي شيبة، ومسند الحميدي، ومسند عبد بن حميد، والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة، والمسند الكبير لبقي بن مخلد القرطبي... إلخ.

ولنا كذلك الكتب الصحاح مثل: صحيحي البخاري ومسلم -رحمهما الله- وهُما يعتبران أوثق الكتب بعد كتاب الله، ولنا السنن المشهورة مثل: سنن النسائي، وأبِي داود، والترمذي، وابن ماجه القزويني وغيرها.

وأما أنتم فليس لكم إلا تصانيف الكلام الباطل، الَّتِي لا تحوي إلا آراء كلها فشر وهذيان مثل كتب: أبِي المعالي الجويني، وأبِي حامد الغزالي، وابن الخطيب الرازي، والآمدي، ونصير الدين الطوسي، وعضد الدين الإيجي، وسعد الدين التفتازاني، والجلال الدواني وغيرهم، وهي كتب مليئة بالمتناقضات، والإيرادات والشبه الَّتِي يحطم بعضها بعضًا، كأنَّها بيت من زجاج قذفته بحجر، فصار هشيمًا، متداعي الأركان، وليس فيها شيء من العلم النافع، بل كل ما فيها إما رأي قائل، أو كلام باطل، أو أدلة متهافتة ركبت على قواعد المنطق الأرسطي.

ونَحن لا نقول فِي كل كتبنا ومؤلفاتنا إلا: قال الله ﷻ، وقال رسوله ﷺ.

وأما أنتم: فتنقلون عن أساتذتكم فِي الكفر والضلال فتقولون: قال أرسطو، أو قال الفخر الرازي، أو قال الشيخ الرئيس ابن سينا، ذلك الزنديق المتحلل من قيود الدين والإيمان، وأفضل منقولاتكم ما تنقلونه عن الشيخ أبِي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكنكم تشهدون عليه شهادة زور وبُهتان، فتنسبونه إلَى القول بالتعطيل مع أنه يقرر صفة العلو فِي جَميع كتبه أحسن تقرير، فيثبتها بطريق العقل والنقل والفطرة، ويرد على نفاتِها، وينكر تأويل الاستواء بالاستيلاء، ومن يقرأ كتابيه المشهورين: «الإبانة» و«مقالات الإسلاميين» لا يشك فِي أنه كان من المثبتين.

* * *

هَـذَا وَنَـحْـنُ فَـتَـارِكُـو الآرَاءَ لِـلـنْـ ... نَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَمِ الْفُرْقَانِ
لَكِنَّكُمْ بِالْعَكْسِ قَدْ صَرَّحْتُمُ ... وَوَضَعْتُمُ الْقَانُونَ ذَا الْبُهْتَانِ
وَالنَّفْيِ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْـ ... إِثْبَاتُ إِجْمَالًا بِلَا نُكْرَانِ
وَالْمُثْبِتُونَ طَرِيقُهُمْ نَفْيٌ عَلَى الْـ ... إِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ بِالتِّبْيَانِ
فَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا ... وَشَهَادَةَ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمَ الْفُرْقَانِ
فَالْمُحْكَمُ النَّصُّ الْمُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ
لَكِنَّمَا النَّصُّ الْمُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ... مُتَشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِ
وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مُشْكِلٌ ... أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلَانِ
وَاللهِ لَوْ كَانَ الْمُوَافِقَ لَمْ يَكُنْ ... مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلًا بِلِسَانِ

الشرح: والفرق بيننا وبينكم كذلك: أننا نترك آراء الناس وأقوالهم إذا كانت مخالفة للحديث الصحيح عن رسول اللهﷺ، أو للمحكم الصريح من كتاب الله ﷻ، وأما أنتم فقد صرحتم بعكس ذلك تمامًا، ووضعتم فِي ذلك قانونًا جائرًا ظالِمًا، وهو أنه إذا تعارض العقل والنقل؛ وجب تقديم حكم العقل؛ لأنه قطعي عندكم، بخلاف النقل فإنه لا يفيد إلا الظن.

وأنتم كذلك تتوسعون فِي صفات السلب، فتذكرونَها على التفصيل، وتزعمون ذلك مبالغة فِي التنْزيه، مع أن النفي الصرف لا مدح فيه، وأما صفات الإثبات فتذكرونَها إجمالًا، وأما نَحن فطريقتنا عكس ذلك، نقتصر فِي النفي على ما نفاه الله ورسوله، ونتوسع فِي الإثبات، فنثبت كل ما أثبته الله ورسوله، وهذه هي طريقة الكتاب والسنة، إجمال فِي النفي، وتفصيل فِي الإثبات، فتدبروهما إن كنتم من أهل ذلك؛ لتعرفوا هل هما على طريقتنا أو على طريقتكم؟ وأنتم تعرضون ما قاله الله ورسوله على الذي قالته شيوخكم، فإن وافق النص قولهم كان محكمًا غير قابل للتأويل عندكم، وأما إن خالف فهو متشابه يجب تأويله بمعان أُخر، وإذا تصنعتم الأدب مع النص قلتم: إنه مشكل، ولا نخوض فيه. ووالله لو كان موافقًا لقول شيوخكم؛ لَمْ يكن عندكم متشابِهًا، ولا مشكلًا، ولا قابلًا للتأويل.

* * *

لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ
مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ
وَالْمُشْكِلُ الْقَوْلُ الْمُخَالِفُ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لَا التِّبْيَانِ
وَالْعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الْـ آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلَا كِتْمَانِ
لِكِنْ لَدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُهُ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَالْكُفْرُ وَالإِسْلَامُ عَيْنُ خِلَافِهِ وَوِفَاقُهُ لَا غَيْرُ بِالْبُرْهَانِ
وَالْكُفْرُ عِنْدَكُمْ خِلَافُ شُيوخِكُمْ وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ
هَذِي سَبِيلُكُمُ وَتِلْكَ سَبِيلُنَا وَالْمَوْعِدُ الرَّحْمَنُ بَعْدَ زَمَانِ
وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الْـ حَقِّ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الدَّيَّانِ
فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِي سَاعَةٌ فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ
فَالْقَوْمُ مِثْلَكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيطَانِ

الشرح: لكننا بخلافكم نعرض أقوال الناس على ما جاء فِي الكتاب الكريم والسنة المطهرة، فما خالف نصوصهما لَمْ نرفع به رأسًا، ولَمْ نقم له وزنًا.

وقلنا: يكفينا ما جاء به النصان، والمشكل عندنا هو القول المخالف لهما، فهذا عندنا فِي غاية الإشكال، والعزل والإبقاء عندكم مرجعه إلَى آراء الشيوخ، فما وافقها من النصوص أبقيتموه، وما خالفها عزلتموه، فلا يصلح عندكم حجة ولا دليلًا.

وأما عندنا: فالعزل والإبقاء يرجع إلَى النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، فما وافقها من الآراء أبقيناه، واعتددنا به، وما خالفها عزلناه، ولَمْ نعبأ به.

والنصوص عندنا كذلك: هي ميزان كفر الرجل وإسلامه، فمن خالف النصوص الصريحة من الكتاب والسنة حكمنا بكفره، ومن وافقها حكمنا بإسلامه، وأما عندكم فالكفر هو مخالفة أقوال الشيوخ، والاجتراء على نقد آرائهم، والإسلام والإيمان هو اتباعهم وموافقة أقوالهم، هذي سبيلكم وتلك سبيلنا، قد استبان الفرق بينهما، وهو فرق -كما رأيتم- جد كبير، والموعد غدًا للَّه العلي الكبير، يحكم بيننا وبينكم فيما اختلفنا فيه، وستعلمون حينئذ أي الحزبين -منا ومنكم- هو على الحق المبين، وعلى فطرة الديان الَّتِي فطر عليها عباده أجمعين.

فاصبر يا أخا الحق قليلًا، ولا تجزع من قلة الأعوان وكثرة الأعداء، فإنما هي أيام قليلة وينقضي العمر، واعلم أن ما تلقاه في هذه الدنيا من بلاء، وما تقاسيه من أذى الجهلاء، إنَّما هو في مرضاة ربك، فلا يكن أهل الباطل أصبر على باطلهم منك على حقك، فإن القوم مثلك يألمون كما تألم ويصبرون، لكن في طاعة الشيطان، فاجعل صبرك أنت في طاعة الرحمن.

فصل في بيَان الاستغناء بالوحي المنَزَّل من السماء عن تقليد الرجال والآراء

يَا طَالِبَ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَمُؤْثِرًا عِلْمَ الْيَقِينِ وَصِحَّةَ الإيمَانِ
اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ خَبِرَ الَّذِي عِنْدَ الْوَرَى مُذْ شَبَّ حَتَّى الآنِ
مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يدَاهُ إزَارَهُ قَدْ شَدَّ مِيزَرَهُ إلَى الرَّحْمَنِ
وَتَخَلُّلُ الْفَتَرَاتِ لِلْعَزَمَاتِ أَمْـ ـرٌ لَازِمٌ لِطَبِيعَةِ الإنْسَانِ
وَتَوَلُّدُ النُّقْصَانِ مِنْ فَتَرَاتِهِ أَوَلَيسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ
طَافَ الْمَذَاهِبَ يَبْتَغِي نُورًا لِيهْـ ـدِيهِ وَيُنْجِيهِ مِنَ النِّيرَانِ
وَكَأَنَّهُ قَدْ طَافَ يبْغِي ظُلْمَةَ الْـ ـلَيلِ الْبَهِيمِ وَمَذْهَبَ الْحَيرَانِ
وَاللَّيلُ لَا يَزْدَادُ إلَّا قُوَّةً وَالصُّبْحُ مَقْهُورٌ بِذِي السُّلْطَانِ
حَتَّى بَدَتْ فِي سَيْرِهِ نَارٌ عَلَى طُورِ الْمَدِينَةِ مَطْلَعِ الإيمَانِ
فَأَتَى لِيقْبِسَهَا فَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْ تِلْكَ الْقُيودِ مَنَالُهَا بِأَمَانِ

الشرح: ينادي المؤلف كل من يتجرد لطلب الحق، ويسعى في نيله وتحصيله، ويؤثر علم اليقين على القول بالظن والتخمين، ويريد لنفسه إيمانًا صحيحًا بعيدًا عن شوائب الزيغ والكفران، فيقول له: اسمع لنصيحتي، فإنَّها نصيحة مجرب، خبر كل ما عند الناس من المذاهب والمقالات، وطوف مذ شب عن الطوق على الفرق المختلفة يطلب الطريق إلى الله ﷻ.

ولكن الإنسان مهما شد منه العزم فلابد أن تتخلل عزمه فترات، كما في الحديث: «**إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة**». فهذا أمر لازم لنقص الطبيعة الإنسانية وضعفها، والناس كلهم أبناء نقصان، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[النور: ٢١].

والمؤلف يخبر عن نفسه رَحِمَهُ اللهُ أنه قد طاف على جميع أرباب المذاهب والمقالات، يبتغي لنفسه نورًا يهدي قلبه، ويبصره طريق النجاة، ولكنه ما وجد عندهم إلا ظلمات فوق ظلمات، فكأنه ما طاف يبغي نورًا، بل طاف يبغي ظلمة الليل البهيم، وكلما أوغل فِي الطلب كلما ازدادت أمامه الظلمات الَّتِي قهرت بجيوشها العاتية نور الصبح، وما زال هكذا يَهيم فِي وادي الظلمات، حَتَّى ظهر له فِي مسيره نار من جهة المدينة المنورة، كما تراءت لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ النار فِي طور سيناء، فيمم نحوها، ليقبس منها نورًا وهدى يبدد أمامه غياهب الظلمات، فلم يمكنه أن ينالها وهو مقيد بقيود التقليد وأسر العادات.

وهذا الذي يتحدث عنه المؤلف قد حصل لكل من مر بمثل تجربته ممن أوغل فِي دراسة الكلام، وعب مما فِي وردها الآسن من خرافات وأوهام، حَتَّى انبلج له صبح الإسلام.

* * *

لَـوْلَا تَـدَارَكَـهُ الإِلَـهُ بِـلُـطْـفِـهِ	وَلَّى عَلَى الْعَقِبَيْنِ ذَا نُكْصَانِ
لَكِنْ تَوَقَّفَ خَاضِعًا مُتَذَلِّلًا	مُسْتَشْعِرَ الإِفْلَاسِ مِنْ أَثْمَانِ
فَأَتَاهُ جُنْدٌ حَلَّ عَنْهُ قُيودَهُ	فَامْتَدَّ حِينَئِذٍ لَهُ الْبَاعَانِ
وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تُحَلَّ قُيودُهُ	وَتَزُولَ عَنْهُ رِبْقَةُ الشَّيطَانِ
كَانَ الرُّقَى إِلَى الثُّرَيَّا مُصْعِدًا	مِنْ دُونِ تِلْكَ النَّارِ فِي الإِمْكَانِ
فَرَأَى بِتِلْكَ النَّارِ آطَامَ الْمَدِيـ	ـنَةِ كَالْخِيَامِ تَشُوفُهَا الْعَينَانِ
وَرَأَى هُنَالِكَ كُلَّ هَادٍ مُهْتَدٍ	يَدْعُو إِلَى الإِيمَانِ وَالإِيقَانِ
فَهُنَاكَ هَنَّأَ نَفْسَهُ مُتَذَكِّرًا	مَا قَالَهُ الْمُشْتَاقُ مُنْذُ زَمَانِ
وَالْمُسْتَهَامُ عَلَى الْمَحَبَّةِ لَمْ يزَلْ	حَاشَى لِذِكْرَاكُمْ مِنَ النِّسْيَانِ

الشرح: بعد أن ذكر المؤلف أن دراساته السابقة وما شحن به رأسه من الأفكار والآراء واصطلاحات العلماء وقفت حائلًا بينه وبين الوصول إلَى نار الحق ونور الهدى الَّتِي بدت له من المدينة مطلع الإيمان ومركز اليقين -ذكر أن تلك الحوائل كادت تثنيه عن عزمه، وتجعله يرتد ناكصًا على عقبيه، لولا أن تداركه اللَّه بفضله ورحمته، فوقف مظهرًا الخضوع والذلة، مستشعرًا إفلاسه وعجزه، حَتَّى أرسل اللَّه إليه من حل عنه قيوده، وخلصه من ربقة أسره، وهو شيخه وشيخ المفكرين الأحرار جميعًا من بعده أحمد تقي الدين أبِي

العباس بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني -رحمه اللَّه وأجزل مثوبته- فأصبح بعد اتصاله به وأخذه عنه حرًّا طليقًا، قد امتد منه الباعان، ولَمْ يعد يتقيد بقول فلان أو فلان، وواللَّه لو لَمْ تحل عنه هذه القيود، وتزول عنه ربقة الشيطان؛ لكان صعوده إلَى الثريا فِي السماء أهون من وصوله إلَى تلك النار فِي الإمكان، ولما أتى تلك النار شاهد بِها حصون المدينة العالية كأنَّها خيام منصوبة تراها العينان، ورأى على دروبِها أعلام الحق قد نصبت لهداية السالك الحيران، ولقي فيها الغر الميامين من الصحابة الهداة المهتدين، يدعون كل من أمهم إلَى الإيمان واليقين، هنالك حمد السرى، وهنأ نفسه بسلامة الوصول متذكرًا ما كان قد قاله حين برح به الشوق، وأضناه الجوى.

* * *

لَوْ قِيلَ مَا تَهْوَى لَقَالَ مُبَادِرًا ... أَهْوَى زِيَارَتَكُمْ عَلَى الأَجْفَانِ
تَاللهِ إنْ سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِكُمْ ... وَحَلَلْتُ مِنْكُمْ بِالْمَحَلِّ الدَّانِي
لأُعَفِّرَنَّ الْخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى ... وَأُكَحِّلَنَّ بِتُرْبِكُمْ أَجْفَانِي
إنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَغُضَّ طَرْ ... فًا عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالْقُرْآنِ
وَاتْرُكْ رُسُومَ الْخَلْقِ لَا تَعْبَأْ بِهَا ... فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبْرَانِ
حَدِّقْ بِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ حَدَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ
وَاكْحَلْ جُفُونَ الْقَلْبِ بِالْوَحْيَيْنِ وَاحْـ ... ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ الْعُمْيَانِ
فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الْهُدَى ... لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ
لَمْ يُحْوِجِ اللَّهُ الْخَلَائِقَ مَعْهُمَا ... لِخَيَالِ فُلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلَانِ
فَالْوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ ... شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإنْسَانِ
وَتَفَاوُتُ الْعُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ ... لِلْوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

الشرح: فلو قيل لي: ما الذي تحبه وتَهواه؟

لقلت لسائلي مبادرًا إياه: إن الذي أهوى هو زيارتي لكم أيها الأحبة، ولو أن أمشي إليكم على أجفاني، ولو أن الزمان جاد لي بوصلكم، ونزلت منكم بمكان قريب؛ لأسجدن للَّه شكرًا، ممرغًا خدي فِي التراب، ولأكحلن الأجفان من تراب الأحباب.

وقد غلا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه الأبيات، ونَحن لا نقره على هذا الغلو، وإن كنا نعلم

أنه لَمْ يقصد بذلك شيئًا مما يفعله القبوريون عند أضرحة شيوخهم من لثم العتبات، واستمداد البركات.

وإن أردت يا طالب الحق أن تبصر ما ذكرت لك، وأن تصل إِلَى مثل ما وصلت إليه، فأغمض عينك عن كل ما سوى القرآن والآثار، واهجر كل ما تواضع عليه القوم من رسوم واصطلاحات، ولا تجعل لَهَا قيمة، ففي لجة البحر ما يغنيك عن الوشل، وفِي السعد ما يغنيك عن الدبران، وأعمل بصيرة قلبك فِي فهم النصوص وتدبرها، كما أعملوا هم عقولهم فِي فهم الآراء فِي كل زمان، وأكحل بنور الوحيين جفون قلبك، حَتَّى تتفتح له، وتنتفع بِما فيه من جليل العلم وصالح المعرفة، واحذر أن تكحلها بِما عند القوم من ترهات وأوهام، فيصيبك العمى، كما أصاب كثيرًا ممن اكتحلوا بِهذا الرغام.

وكيف تلتمس الهدى فِي غيرهما، والله بين فيهما طرق الهدى كلها لعباده أحسن بيان وأوضحه، بحيث لَمْ يحوج خلقه معهما إِلَى شيء آخر غيرهما من خيال ممرور فلتان، أو رأي أحمق خرفان، فالوحي فيه الكفاية كل الكفاية لِمَنْ يتدبره، ويتجه إليه بعقله وقلبه، ويستشفي به من داء جهله، وإن تفاوت العلماء فِي فهمهم للوحي، واستمدادهم منه بحسب ما قدر لكل منهم من استعداد فِي الذكاء وقدرة فِي الاستخراج لأكثر مما بين الأبدان من تفاوت فِي القوة والضعف، فإن قياس أقوى بدن إِلَى أضعفه أقل بكثير من قياس أكمل فهم إِلَى أنقصه، وكما يقول الشاعر:

ولَمْ أر أمثال الرجال تفاوتًا ... إِلَى المجد حَتَّى عد ألف بواحد

* * *

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي

وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ

وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

وَالْكُلُّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

وَاللَّهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الْهَذَيَانِ

إِنْ قُلْتُمُ تَقْرِيرُهُ فَمُقَرَّرٌ ... بِأَتَمِّ تَقْرِيرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

أَوْ قُلْتُمُ إِيضَاحُهُ فَمُبَيَّنٌ بِأَتَمِّ إِيضَاحٍ وَخَيْرِ بَيَانِ
أَوْ قُلْتُمُ إِيجَازُهُ فَهْوَ الَّذِي فِي غَايَةِ الإِيجَازِ وَالتِّبْيَانِ
أَوْ قُلْتُمُ مَعْنَاهُ هَذَا فَاقْصِدُوا مَعْنَى الْخِطَابِ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ
أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الْـ مَعْنَى بِلَا شَطَطٍ وَلَا نُقْصَانِ
أَوْ قُلْتُمُ بِخِلَافِهِ فَكَلَامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ

الشرح: لا داء أدوأ من الجهل، فهو قاتل لأصحابه شر قتل، وشفاء هذا الداء العياء فِي دواء مركب من عقارين اثنين على سواء، هُما: نصوص الكتاب، ونصوص السنة الغراء، ولابد فِي تحضير هذا الدواء من طبيب نطاسي، وعالم ربانِي بصير بموطن الداء؛ كي تحصل العافية، ويضمن الشفاء.

والعلم النافع يرجع إِلَى أمور ثلاثة ليس لَهَا رابع:

أولها: العلم بأسماء اللَّه ﷻ وصفاته وأفعاله، فذلك هو أصل كل علم وأساسه، وهو علم الأصول والفقه الأكبر.

والثاني: العلم بأحكامه سبحانه وشرائع دينه من كل ما أمر به، أو نَهى عنه، وذلك هو علم الفروع.

والثالث: العلم بشئون المعاد الَّتِي أخبر عنها اللَّه ورسوله من البعث والنشور، والحساب والجزاء، والصراط والميزان، والجنة والنار، وغير ذلك مما ورد الكتاب والسنة بتفصيله.

وهذه العلوم الثلاثة موجودة كلها فِي القرآن والسنة بأتم بيان وأوضح برهان، فكل ما يقوله المتحذلقون فِي هذه الأبواب من العلم مما ليس فِي كتاب ولا سنة؛ فكله فشر وهذيان.

فإن قلتم: إن كلامنا هذا هو تقرير لما فِي الكتاب والسنة، فهو لا يحتاج إِلَى تقريركم، فقد قرره اللَّه ورسوله أعظم تقرير.

وإن قلتم: إن كلامنا إيضاح له وبيان. قلنا: بل هو مبين بأتم إيضاح وخير بيان.

وإن قلتم: إنه تلخيص له وإيجاز، فهو فِي إيجازه وقوة عبارته فِي الدرجة القصوى البالغة حد الإعجاز.

وإن قلتم: إنه كشف عن معناه وتوضيح لمقاصده.

فلماذا لَمْ تقصدوا المعنَى المفهوم من الخطاب، وذهبتم إلَى معان أخر ليست هي الَّتِي تتبادر إلَى الذهن عند ذكر العبارة؟! فإذا كنتم صادقين فِي دعواكم ترجمته وتفسيره؛ فاقصدوا إلَى معناه الذي يدل عليه اللفظ بلا زيادة ولا نقصان، وإن صرحتم بأن كلامكم هذا بخلاف ما فِي الكتاب والسنة، فقد أقررتم على أنفسكم بأن كلامكم فِي غاية الإنكار والبطلان، فإن كلام اللَّه ورسوله هو حق كله، وليس بعد الحق إلا الضلال.

* * *

أَوْ قُلْتُمُ قِسْنَا عَلَيهِ نَظِيرَهُ ... فَقِيَاسُكُمْ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

نَوْعٌ يخَالِفُ نَصَّهُ فَهْوَ الْمُحَا ... لُ وَذَاكَ عِنْدَ اللهِ ذُو بُطْلَانِ

وَكَلَامُنَا فِيهِ وَلَيسَ كَلَامُنَا ... فِي غَيرِهِ أَعْنِي الْقِيَاسَ الثَّانِي

مَا لَا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ ... عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

لَكِنَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لَا يُصَا ... رُ إلَيهِ إلَّا بَعْدَ ذَا الْفُقْدَانِ

هَذَا جَوَابُ الشَّافِعِيِّ لأَحْمَدٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ إمَامِ زَمَانِ

وَاللهِ مَا اضْطَرَّ الْعِبَادُ إلَيهِ فِيـ ... ـمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حَادِثٍ بِزَمَانِ

فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا ... فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَهْوَ الْمُبَاحُ إبَاحَةَ الْعَفْوِ الَّذِي ... مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلَا نُكْرَانِ

فَأَضِفْ إلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالْـ ... ـمَعْنَى وَحُسْنَ الْفَهْمِ فِي الْقُرْآنِ

فَهُنَاكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ ... عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ

الشرح: وإن قلتم: إننا نقيس على المنصوص نظيره، والقياس أحد الأدلة المعتبرة عند كثير من الفقهاء.

قلنا لكم: إن القياس نوعان متباينان:

أحدهما: نوع مخالف لفهم النص، وذلك باطل محال، وكلامنا معكم إنَّما هو فِي هذا النوع؛ لأن معظم أقيستكم ترجع إليه.

وليس كلامنا فِي النوع الثاني من القياس: وهو ما لا يكون مخالفًا للنص، فإن جمهور الفقهاء قد اعتبروه وعملوا بمقتضاه فِي جَميع العصور، وهذا هو الذي يذكره علماء

الأصول فِي كتبهم كأحد الأدلة الفقهية، ويقسمونه إلَى ثلاثة أقسام:

الأول: قياس علة، وهو ما كانت العلة فيه موجبة للحكم ومقتضية له، وذلك كقياس تحريم ضرب الوالدين على التأفيف.

والثاني: قياس دلالة، وهو الاستدلال بأحد النظيرين على الآخر، وهو أن تكون العلة دالة فقط على الحكم، وليست موجبة له كقياس مال الصبِي على مال البالغ فِي وجوب الزكاة فيه.

والثالث: قياس الشبه، وهو أن يتردد الفرع بين أصلين، فيلحق بأكثرهما شبهًا كالعبد المقتول، فإنه متردد فِي الضمان بين الإنسان الحر من حيث إنه آدمي وبين البهيمة من حيث إنه مال، وهو بالثاني أكثر شبهًا، وهذا القياس وإن كان جائزًا لا يصار إليه إلا عند الضرورة بأن يكون النص مفقودًا.

وبِهذا أجاب الإمام الشافعي أخاه الإمام أحمد -رحمهما اللَّه تعالَى- فللَّه در الشافعي من إمام عصره، ومع ذلك فإن العباد لَمْ يضطروا إليه فيما يجري عليهم من الحوادث فِي الأزمنة المختلفة، فإن ما يحدث لَهم مما سكت عنه النص، ولَمْ يبين حكمه؛ فهو مما عفا اللَّه ﷻ عنه، فهو مباح إباحة العفو الذي لا حرج عليهم فيه ولا إنكار، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه فرض فرائض فلا تضيعوها، وحَدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**».

فإذا أضفت إلَى نصوص الوحيين من الكتاب والسنة عموم ألفاظها ومعانيها، وحسن الفهم لدلالات الكتاب، وجودة الاستنباط منه؛ أصبحت بالوحيين فِي غنى تام عن كل ماعداهُما، ولَمْ تحتج معها إلَى رأي أحد ولا حسبانه.

❊ ❊ ❊

وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَمْ يضْمَنْ لَنَا ... تِبْيَانُهَا بِالنَّصِّ وَالْقُرْآنِ

وَهْي الَّتِي فِيهَا اعْتِرَاكُ الرَّأْيِ مِنْ ... تَحْتِ الْعَجَاجِ وَجَوْلَةِ الأَذْهَانِ

لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَمَّا لَمَا احْـ ... تَجْنَا إِلَيْهِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ

جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا الْمُرَا ... دِ بِلَفْظِهَا وَالْفَهْمُ مَرْتَبَتَانِ

إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْظِ وَضْـ ... ـعًا أَوْ لُزُومًا ثُمَّ هَذَا الثَّانِي

فِيهِ تَفَاوَتَتِ الْفُهُومُ تَفَاوُتًا ... لَمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ

فَالشَّيْءُ يَلْزَمُهُ لَوَازِمُ جَمَّةٌ عِنْدَ الْخَبِيرِ بِهِ وَذِي الْعِرْفَانِ
فَبِقَدْرِ ذَاكَ الْخَبْرِ يُحْصِي مِنْ لَوَا زِمِهِ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

الشرح: وأما ما تقدره الأذهان وتجول فيه من وجوه الاحتمال والإمكان، فهذه لَمْ يضمن لنا أن يقع فِي النصوص لَهَا بيان، وهي موضع اعتراك الآراء وتشاجر الأذهان، لكن هنا أمران اثنان لو أنَّهما حصلا على التمام من غير نقصان لَمَا احتجنا إلَى شيء مما تجول فيه الأذهان:

أحدهُما: استيعاب النصوص من السنة والقرآن.

والثاني: فهم معناها المراد بلفظها؛ ولِهذا الفهم درجتان:

إحداهُما: فهم ما يدل عليه اللفظ بطريق الوضع، وهذا لا تختلف فيه الأذهان، فإنه لا يحتاج إلا إلَى العلم بأن هذه الألفاظ موضوعة لتلك المعاني.

وثانيتهما: فهم ما يدل عليه اللفظ بطريق اللزوم، بأن يكون المعنَى المراد لازمًا للمعنَى الموضوع له اللفظ، ولما كان لكل من اللوازم ما لا حصر له، فإن الأفهام تتفاوت فِي هذا النوع من الدلالة تفاوتًا لا ينضبط، ويكون ذلك بحسب الخبرة وطول المراس لِهذا الشأن، فكلما كان الإنسان أكثر خبرًا وأوسع معرفة؛ كان أكثر إدراكًا لتلك اللوازم والعكس بالعكس، وهذا أمر واضح لا يفتقر إلَى بيان.

* * *

وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً عَرَفَ الْوُجُودَ جَمِيعَهُ بِبَيَانِ
وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّذِي يَحْتَاجُهُ الإِنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ
عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلًا تَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِ
وَكِلَاهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا أَعْلَى الْعُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ
وَلِذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَالْـ أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ
مَا لَيْسَ يُعْرَفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ أَبَدًا وَلَا مَا قَالَتِ الثَّقَلَانِ
وَكَذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ صِفَاتِ الْبَعْثِ بِالتْـ تَفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ فِي الْقُرْآنِ
مَا يَجْعَلُ الْيَوْمَ الْعَظِيمَ مُشَاهَدًا بِالْقَلْبِ كَالْمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ
وَكَذَاكَ يُعْرَفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

يَعْرِفْ لَوَازِمَهَا وَيعْرِفُ كَوْنَهَا مَخْلُوقَةً مَرْبُوبَةً بِبَيَانِ
وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي فِيهَا منَ الْـ حَاجَاتِ وَالإعْدَامِ وَالنُّقْصَانِ
وَكَذَاكَ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَصِفَاتِهِ أَيضًا بِلَا مِثْلٍ وَلَا نُقْصَانِ

الشرح: وإذا كانت ألفاظ الكتاب الكريم وعباراته، إما أن يراد منها معانيها الموضوعة لَهَا، وإما أن يراد منها لوازم تلك المعاني، وهي من الكثرة بحيث تستوعب الأشياء كلها، فلذلك كان من عرف كتاب اللَّه ﷻ معرفة حقيقة، ووقف على كل ما تدل عليه ألفاظه من المعاني بطريق الوضع أو الالتزام؛ فإنه يكون قد عرف حقائق الوجود كلها معرفة جلية، وكذلك يعرف كليات الأحكام والشرائع الَّتِي تلائم مصالح الناس وحاجاتِهم فِي كل زمان ومكان علمًا إجْماليًا، ثُمَّ تجيء السنة وهي الوحي الثاني ببيان تلك الأحكام والشرائع بالتفصيل، فكل من السنة والكتاب وحيان من عند اللَّه، قد تكفلا لمن تدبرهُما أن يبلغ ذروة العلم وسنام المعرفة.

ويعرف الواقف على علم الكتاب أيضًا من صفات اللَّه العليا وأفعاله وأسمائه الحسنى ما لا يوجد مثله ولا قريبًا منه فِي كتاب غير القرآن، ولا فِي كل ما قاله الثقلان من الإنس والجان.

ويعرف من صفات البعث وأحوال اليوم الآخر ومشاهد القيامة فِي التفصيل والإجمال ما يجعله كأنه يعاين ذلك اليوم، وكأنه يعيش فيه الآن، ويصير مشهودًا له بالقلب كشهود العيان، ويعرف كذلك من حقيقة نفسه وصفاتِها وأحوالِها الَّتِي تتقلب فيها، ولوازمها الَّتِي لا تنفك عنها من كونِها حادثة مخلوقة للَّه، مربوبة مقهورة فِي قبضة يده، وما يعتريها من الفقر والاحتياج عنها ونواحي النقص والعدم ما لا يقاس به كل ما يَهرف به الفلاسفة فِي هذا الشأن.

ويدرك أيضًا أن نفسه وهي مخلوقة مربوبة محدثة لا تماثل صفاتُها صفات الأجسام، فالرب الخالق الغني أولى بألَّا تماثل صفاته صفات المخلوقين، فيعرف ربه وصفاته معرفة منَزهة عن المماثلة والنقصان.

* * *

وَهُنَا ثَلاَثَةُ أَوْجُهٍ فَافْطِنْ لَهَا ... إنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانِ
بِالضِّدِّ وَالأَوْلَى كَذَا بِالإمْتِنَا ... عِ لِعِلْمِنَا بِالنَّفْسِ وَالرَّحْمَنِ
فَالضِّدُّ مَعْرِفَةُ الإلَهِ بِضِدِّ مَا ... فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ
وَحَقِيقَةُ الأَوْلَى ثُبُوتُ كَمَالِهِ ... إذْ كَانَ مُعْطِيهِ عَلَى الإحْسَانِ

الشرح: يعني: أن من عرف ما جاء فِي الكتاب والسنة من حقيقة النفس وأحوالها وصفاتِها، وما يلازمها من العيب والنقص؛ يستطيع أن يعبر من تلك المعرفة بنفسه إلَى معرفة ربه من ثلاثة أوجه يجب أن يفطن لَهَا كل ذي قدم راسخة فِي العلم والمعرفة.

الوجه الأول: أن يعرف ربه ﷻ بضد ما فِي نفسه من عيب ونقص، فإذا كانت نفسه مخلوقة محدثة مربوبة مملوكة عاجزة فقيرة جاهلة، فيجب أن يعرف ربه بأنه الرب الخالق المالك القادر الغني الحميد... إلخ.

الوجه الثاني: أن يستدل على ثبوت الكمال له سبحانه بطريق الأولى، فإنه إذا كانت نفسه وهي مخلوقة محدثة ناقصة تتصف بأنَّها حية عالمة قادرة مريدة سميعة بصيرة... إلخ، فالرب أولى أن يتصف بذلك، فإن كل كمال ثبت للمخلوق، وأمكن أن يتصف به الخالق؛ كان الخالق أولى به من المخلوق؛ لأن المخلوق إنَّما استفاد هذا الكمال من خالقه، فهو الذي أفاده هذا الكمال إحسانًا منه وفضلًا، وفاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه؛ ولأنه سبحانه لو خلا من هذا الكمال الممكن له مع وجوده فِي المخلوق؛ لكان فِي المخلوقات من هو أكمل منه، وكل هذا باطل محال.

الوجه الثالث: الاستدلال على تنَزهه سبحانه عن النقص بطريق الامتناع، وذلك أن يقال: كل نقص تنَزه عنه المخلوق، فإنه يمتنع أن يتصف به الخالق؛ إذ الخالق أولى بتنَزهه عن النقص من المخلوق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فِي رسالته «التدمرية»:

«والمقصود: أن الروح إذا كانت موجودة حية عالمة قادرة سميعة بصيرة، تصعد وتنْزل، وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها؛ لأنَّهم لَمْ يشاهدوا لَهَا نظيرًا، والشيء إنَّما تدرك حقيقته بمشاهدته أو مشاهدة نظيره، فإذا كانت الروح متصفة بِهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات، فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بِما يستحقه من أسمائه وصفاته».

فصل في بيَان شرط كفاية النصين والاستغناء بالوحيين

وَكِفَايَةُ النَّصَّينِ مَشْرُوطٌ بِتَجْـ ـرِيـدِ التَّـلَـقِّـي عَـنْـهُـمَـا لِـمَـعَـانِ
وَكَـذَاكَ مَـشْـرُوطٌ بِـخَـلْـعِ قُـيُـودِهِـمْ فَـقُـيُـودُهُـمْ غُـلٌّ إِلَـى الأَذْقَـانِ
وَكَـذَاكَ مَـشْـرُوطٌ بِـهَـدْمِ قَـوَاعِـدٍ مَـا أُنْـزِلَـتْ بِـبَـيَـانِـهَـا الْـوَحْـيَـانِ
وَكَـذَاكَ مَـشْـرُوطٌ بِـإِقْـدَامٍ عَـلَـى الْـ آرَاءِ إِنْ عَـرِيَـتْ عَـنِ الْـبُـرْهَـانِ
بِـالـرَّدِّ وَالإِبْـطَـالِ لَا تَـعْـبَـأْ بِـهَـا شَـيْـئًـا إِذَا مَـا فَـاتَـهَـا الـنَّـصَّـانِ
لَـوْلَا الْـقَـوَاعِـدُ وَالْـقُـيُـودُ وَهَـذِهِ الْـ آرَاءُ لَاتَّـسَـعَـتْ عُـرَى الإِيـمَـانِ
لَـكِـنَّـهَـا وَالـلـهِ ضَـيِّـقَـةُ الْـعُـرَى فَـاحْـتَـاجَـتِ الأَيْـدِي لِـذَاكَ تَـوَانِ
وَتَـعَـطَّـلَـتْ مِـنْ أَجْـلِـهَـا وَالـلـهِ أَعْـ ـدَادٌ مِـنَ الـنَّـصَّـيْـنِ ذَاتُ بَـيَـانِ

الشرح: وإذا كانت نصوص الكتاب والسنة فيهما الكفاية والشفاء لمعرفة الدين كله أصوله وفروعه، فإن تلك الكفاية مشروطة بشروط لابد من اعتبارها فِي ذلك.

أولًا: أن يقوم المتلقي عنهما بالتجريد لما يفهم منها من معان، بألَّا يصرف نصوصهما إلَى معان أخر بتأويل لا دليل عليه، ولا موجب له.

ثانيًا: أن يهدم كل القواعد والمصطلحات الَّتِي تواضع عليها الناس، ولَمْ يرد بشأنِها بيان من السنة والقرآن.

ثالثًا: أن يعمد إلَى كل المقالات والآراء الَّتِي لَمْ يقم عليها برهان فيدفعها، ويجتهد فِي إبطالها، ولا يقيم لَهَا وزنًا ما دامت غير قائمة على نصوص من الكتاب والسنة.

ووالله لولا ما عمدت إليه فرق الزيغ والضلال من وضع القواعد والقيود والمذاهب الَّتِي أسست عليها؛ لوجدت عرى الإيمان وقواعده واسعة لا حرج فيها ولا تعقيد، ولكن هؤلاء ضيقوا عراه بِما أحدثوا من المبادئ والاصطلاحات، حَتَّى عطلوا بِها نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة، مع أنَّها فِي غاية الوضوح والبيان.

* * *

وَتَـضَـمَّـنَـتْ تَـقْـيِـيدَ مُـطْـلَـقِـهَـا وَإِطْـ ـلَاقَ الْـمُـقَـيَّـدِ وَهْـوَ ذُو مِـيـزَانِ
وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتْـ ـتَـعْـمِـيـمُ لِـلْـمَـخْـصُـوصِ بِـالأَعْـيَـانِ

وَتضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَتْ وَجَمْـ ـعًا لِلَّذِي وَسَمَتْهُ بِالْفُرْقَانِ
وَتضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْـ ـهُ وَعَكْسُهُ فَلْتَنْظُرِ الْأَمْرَانِ
وَتضَمَّنَتْ تَحْلِيلَ مَا قَدْ حَرَّمَتْـ ـهُ وَعَكْسُهُ فَلْتَنْظُرِ النَّوْعَانِ
سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَفْوًا فَلَمْ تَعْفُ الْقَوَاعِدُ بِاتِّسَاعٍ بِطَانِ
وَتضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا بِالْعَكْسِ وَالأَمْرَانِ مَحْذُورَانِ
وَتضَمَّنَتْ أَيضًا شُرُوطًا لَمْ تَكُنْ مَشْرُوطَةً شَرْعًا بِلَا بُرْهَانِ
فَمِثَالُهَا وَاللهِ فِي قَلْبِ الْفَتَى وَثَبَاتُهَا فِي مَنْبَتِ الإِيمَانِ
كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَهُ دَغَلٌ فَيَمْـ ـنَعُهُ النَّمَا فَتَرَاهُ ذَا نُقْصَانِ
وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى غَرْسٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي الإِنْسَانِ
وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشْـ ـشُبُهَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ
فَيَعُودُ ذَاكَ الْغَرْسُ يَبْسًا ذَاوِيًا أَوْ نَاقِصَ الثَّمَرَاتِ كُلَّ أَوَانِ
فَتَرَاهُ يَحْرُثُ دَائِبًا وَمَغَلُّهُ نَزْرٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ
وَاللهِ لَو نَكَشَ النَّبَاتَ وَكَانَ ذَا بَصَرٍ لِذَاكَ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ
لأَتَى كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ مَغَلُّهُ وَلَكَانَ أَضْعَافًا بِلَا حُسْبَانِ
وَتضَمَّنَتْ أَيضًا مَوَانِعَ لَمْ تَكُنْ مَمْنُوعَةً شَرْعًا بِلَا تِبْيَانِ
إِلَّا بِأَقْيِسَةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ـلِيدٍ بِلَا عِلْمٍ أَوِ اسْتِحْسَانِ

الشرح: يذكر المؤلف فِي هذه الأبيات أنواع الجنايات الَّتِي جنتها القواعد والاصطلاحات على نصوص الكتاب والسنة، وهذه الجنايات كما يأتي:

١- عمدت إلَى ما أطلقته النصوص، فلم تقيد بشرط ولا صفة ولا استثناء، فقيدته بواحد من هؤلاء، وإلَى ما قيدته النصوص كذلك، فأطلقته دون اعتبار للقيود، مع أن كلًا من الإطلاق والتقييد فِي النصوص له ميزان واعتبار.

٢- تضمنت كذلك تخصيص ما عممته النصوص، وتعميم ما خصصته، وجعلته معينًا، ولَمْ تراع ما أرادته النصوص من العموم والخصوص.

٣- فرقت بين ما جمعته النصوص، وجعلته شيئًا واحدًا، وجمعت كذلك ما أرادت النصوص تفريقه.

٤- ضيقت ما وسعته النصوص، ووسعت ما ضيقته، فلينظر ما فِي النصوص من تضييق وتوسيع.

٥- تضمنت أيضًا تحليلًا لما حرمته النصوص، وحرمت ما أحلته بأن سكتت عنه النصوص، وكان سكوتُها عفوًا وتجاوزًا، ولكن القواعد لَمْ تعف، ولَمْ تتسع لما اتسعت له النصوص.

٦- أهدرت ما اعتبرته النصوص، واعتبرت ما أهدرته، وكلاهُما ممنوع، بل الواجب اعتبار ما اعتبرته النصوص، وإهدار ما أهدرته.

٧- تضمنت شروطًا مشروطة فِي الشرع، ولا برهان لَهم عليها.

٨- وتضمنت أيضًا موانع لَمْ يعتبرها الشرع بلا حجة ولا دليل، اللَّهم إلا أقيسة فاسدة وآراء باطلة، وتقليدًا للرجال بلا علم ولا استحسان.

* * *

عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي الْقَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ... ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ

مَا أَسَّسُوا إِلَّا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ ... لَا عَقْلَ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلَانِ

بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ ... لِلَّهِ وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ

أَوَلَيسَ فِي خُلْفٍ بِهَا وَتَنَاقُضٍ ... مَا دَلَّ ذَا لُبٍّ وَذَا عِرْفَانِ

وَاللهِ لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَا اخْـ ... ـتَلَفَتْ وَلَا انْتَقَضَتْ مَدَى الأَزْمَانِ

شُبَهٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا ... حَقًّا وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ

وَاللهِ لَا يَرْضَى بِهَا ذُو هِمَّةٍ ... عَلْيَاءَ طَالِبَةٍ لِهَذَا الشَّانِ

الشرح: يتساءل المؤلف: عمن أُثِرت هذه القواعد؟ الَّتِي أسسها هؤلاء، وبنوا عليها ما بنوا من المذاهب والآراء، إنه لَمْ يقل بِها أحد من صحابة رسول اللَّه ﷺ، ولا من التابعين لَهم بإحسان، فإنَّهم ما أسسوا للناس فِي دينهم إلا اتباع نبيهم الكريم، ولَمْ يأمروهم بالجري وراء عقول الحمقى وآراء السفهاء، بل كلهم شدد النكير على من يأخذ بالرأي فِي دين اللَّه ﷻ، نصحًا منهم للَّه وكتابه ورسوله، عملًا بقوله ﷺ: **«الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول اللَّه؟ قال: للَّه ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»**.

وإن فِي اختلاف هذه الآراء وتناقضها ما يدل كل ذي عقل ومعرفة على أنَّها ليست من دين اللَّه فِي شيء؛ إذ لو كانت من عنده سبحانه ما اختلفت، ولا تناقضت فِي أي عصر ولا زمان، بل هي فِي حقيقتها شبه واهية لا أصل لَهَا، كأنَّها بيت من الزجاج قد سقط على حجر صلب فصار هشيمًا، ووالله ما يرضى بِها من كانت له همة علياء فِي طلب الحق وتسعى لمعرفته، فمثالها فِي قلب أصحابِها وثباتها فِي منبت الإيمان كهذه الحشائش الضارة الطفيلية، الَّتِي تمنع الزرع من النماء والتمام، فلا يعطي غلته كاملة، فالإيمان فِي قلب العبد هو غرس اللَّه، والنفس تنبت من حوله وفِي خلاله أفنانًا كثيرة من الشهوات والشبهات الَّتِي تأكله وتعوق نموه، حَتَّى يرى بعد نضرته يابسًا ذاويًا ناقص الثمرة، فهو يزرع باستمرار، ويتعهد بالسقي والحرث، ولكن مغله قليل بسبب وجود هذه النباتات، الَّتِي لو نكشت وأخرجت، لجاءت غلته أضعافًا مضاعفة.

فصل

هَذَا وَلَيسَ الطَّعْنُ بِالإِطْلَاقِ فِيـ ... هَا كُلِّهَا فِعْلَ الْجَهُولِ الْجَانِي

بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو ... لِ وَمُحْكَمَ الإِيمَانِ وَالْفُرْقَانِ

أَوْ فِي الَّتِي مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي ... تَقْرِيرِهَا يَا قَوْمِ مِنْ سُلْطَانِ

فَهْيَ الَّتِي كَمْ عَطَّلَتْ مِنْ سُنَّةٍ ... بَلْ عَطَّلَتْ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

هَذَا وَنَرْجُو أَنَّ وَاضِعَهَا فَلَا ... يَعْدُوهُ أَجْرٌ أَوْ لَهُ أَجْرَانِ

إِذْ قَالَ مَبْلَغُ عِلْمِهِ مِنْ غَيرِ إِيـ ... جَابِ الْقَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ

بَلْ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَبُولِ كَلَامِهِ ... نَصًّا بِتَقْلِيدٍ بِلَا بُرْهَانِ

وَكَذَاكَ أَوْصَانَا بِتَقْدِيمِ النُّصُو ... صِ عَلَيهِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

نَصَحَ الْعِبَادَ بِذَا وَخَلَّصَ نَفْسَهُ ... عِنْدَ السُّؤَالِ لَهَا مِنَ الدَّيَّانِ

وَالْخَوْفُ كُلُّ الْخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي ... تَرَكَ النُّصُوصَ لأَجْلِ قَوْلِ فُلَانِ

وَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَهَا بِمَا ... لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ

لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ الْعُضَالِ مُنَادِيًا ... بِفَسَادِ مَا قَدْ قَالَهُ بِأَذَانِ

الشرح: وإذا كنا ننكر على هؤلاء ما وضعوا من قواعد واصطلاحات جنوا بِها على

الدين، وخالفوا بِها دلالات النصوص، فإن ذلك الطعن ليس على إطلاقه بحيث يكون متناولًا لجميعها، فإننا لا نريد التجني على أحد، أو غمط ما عنده من حق، وإنَّما نريد بالإنكار والطعن تلك القواعد الَّتِي جاءت مخالفة لأقوال الرسول ﷺ، ومناقضة لمحكم الإيمان وصريح القرآن، وكذلك الَّتِي لَمْ يرد فِي تقريرها حجة من اللَّه ولا برهان، فهذه هي الَّتِي عطلت كثيرًا من النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ومع ذلك يرجو واضعها أن يثاب على اجتهاده فيها، فإن كان قد أخطأ فله أجر، وإن كان قد أصاب فله أجران؛ لأنه قد قال بِما أداه إليه اجتهاده، وما بلغه علمه من غير أن يوجب قبول قوله ومذهبه على إنسان، بل كل واحد من الأئمة المجتهدين نَهى أن يأخذ أحد بكلامه تقليدًا له من غير أن يعرف دليله، وأوصى كل من اطلع على نص يخالف مذهبه أن يأخذ بالنص ويترك مذهبه، فكلهم قالوا: حيث يصح الحديث فهو مذهبنا. نصحًا للعباد؛ لكي يخلصوا بذلك أنفسهم من تبعة السؤال عند اللَّه يوم القيامة.

فهؤلاء المجتهدون على رجاء من المغفرة، ولكن الخوف كله على هؤلاء المقلدين المتعصبين لمذاهب أئمتهم، بحيث يتركون النصوص لأجلها، وإذا أراد أحدهم الإحسان والتوفيق بين هذه النصوص وبين قول إمامه؛ أولها تأويلات بعيدة ومتكلفة، يحمل الألفاظ فيها ما لا تحتمله، وقال فِي ذلك ما لو قاله خصمه ذو الشأن والشهرة لرماه بالحمق وفساد الرأي، ولشنع عليه أعظم التشنيع.

فصل في لازم المذهب هل هو مذهب أم لا؟

وَلَوَازِمُ الْمَعْنَى تُرَادُ بِذِكْرِهِ ... مِنْ عَارِفٍ بِلِزُومِهَا الْحَقَّانِي

وَسِوَاهُ لَيسَ بِلازِمٍ فِي حَقِّهِ ... قَصْدَ اللَّوَازِمِ وَهْيَ ذُو تِبْيَانِ

إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا الْمَجْهُولَ أَوْ ... قَدْ كَانَ يَعْلَمُهُ بِلَا نُكْرَانِ

لَكِنْ عَرَتْهُ غَفْلَةٌ بِلُزُومِهَا ... إِذْ كَانَ ذَا سَهْوٍ وَذَا نِسْيَانِ

وَلِذَاكَ لَمْ يكُ لَازِمًا لِمَذَاهِبِ الْـ ... عُلَمَاءِ مَذْهَبُهُمْ بِلَا بُرْهَانِ

فَالْمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَةِ ذَاكَ مَذْ ... هَبُهُمْ أُولُو جَهْلٍ مَعَ الْعُدْوَانِ

لَا فَرْقَ بَينَ ظُهُورِهِ وَخَفَائِهِ ... قَدْ يَذْهَلُونَ عَنِ اللُّزُومِ الدَّانِي

سِيمَا إِذَا مَا كَانَ لَيسَ بِلَازِمٍ ... لَكِنْ يُظَنُّ لُزُومُهُ بِجَنَانِ

لَا تَشْهَدُوا بِالزُّورِ وَيْحَكُمُ عَلَى مَا تُلْزِمُونَ شَهَادَةَ الْبُهْتَانِ

الشرح: اعلم أن الجهمية المعطلة لا يجدون لَهم سلاحًا يشهرونه فِي وجه أهل الحق والإثبات إلا إيراد اللوازم والرمي بالشناعات، فيقولون لَهم مثلًا: يلزم على إثباتكم صفة العلو للَّه أن يكون فِي جهة، وأن يكون فِي حيز، وأن يكون ذا قدر ونِهاية، وأن يكون جسمًا، كما يلزم على إثبات الوجه واليد والعين أن يكون له جوارح وأعضاء، إلَى غير ذلك مما امتلأت به كتبهم الَّتِي ألفوها فِي نفي الصفات ودفع مذهب أهل الإثبات.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يرد عليهم هنا بأن لوازم المعنَى لا تكون مقصودة عند ذكره إلا ممن يعرف لزومها له، فهذا هو الذي يمكن أن يؤخذ بِما يلزم ما يثبته من معان، وأما غيره ممن يجهل اللزوم بينهما، فليس بلازم فِي حقه القصد إلَى اللوازم عند ذكر المعنَى مهما تكن اللوازم بينة واضحة؛ إذ قد يكون لزومها مجهولًا له، أو يكون معلومًا، ولكن أصابته غفلة عن ذلك اللزوم بسبب كثرة سهوه ونسيانه.

ولذلك قرر العلماء: بأن لازم المذهب لا يكون مذهبًا بلا حجة ولا برهان. وأن من حكى ذلك عنهم فهو من أجهل الجهل والعدوان، ولا فرق فِي ذلك بين اللوازم الظاهرة واللوازم الخفية، فإن الإنسان قد يذهل عن اللازم القريب، وهذا الحكم إنَّما هو بالنسبة إلَى اللوازم الَّتِي ثبت لزومها، أما ما ليس بلازم فِي الحقيقة، ولكن يظن الذهن لزومه، فهذا أولى ألَّا يعتبر لازمًا، فلا تشهدوا أيها المعطلة على ما تلزموننا به شهادة زور وبُهتان، فترموننا بالقول بتلك اللوازم، وأنَّها مذهب لنا، مع أنا لَمْ نقصدها، ولَمْ تخطر لنا فِي الأذهان عند إثبات الصفات للرحمن.

* * *

بِخِلَافِ لَازِمِ مَا يَقُولُ إِلَهُنَا وَنَبِيُّنَا الْمَعْصُومُ بِالْبُرْهَانِ

فَلِذَا دَلَالَاتُ النُّصُوصِ جَلِيَّةٌ وَخَفِيَّةٌ تَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ الْفَهْمَ فِي آيَاتِهِ رِزْقًا بِلَا حُسْبَانِ

وَاحْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَابِ الْكَلَا مِ عَنِ الْخُصُومِ كَثِيرَةِ الْهَذَيَانِ

فَحَكَوْا بِمَا ظَنُّوهُ يُلْزِمُهُمْ فَقَا لُوا ذَاكَ مَذْهَبُهُمْ بِلَا بُرْهَانِ

كَذَبُوا عَلَيْهِمْ بَاهِتِينَ لَهُمْ بِمَا ظَنُّوهُ يُلْزِمُهُمْ مِنَ الْبُهْتَانِ

فَحَكَى الْمُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الإِثْبَاتِ قَوْ لَهُمُ بِأَنَّ اللَّهَ ذُو جُثْمَانِ

وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْـ ... ـنَ اللَّهَ لَيْسَ يُرَى لَنَا بِعِيَانِ
وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا يَجُو ... زُ كَلَامُهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ مَعَانِ
وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ... ـيِيزِ الإِلَهِ وَحَصْرِهِ بِمَكَانِ
وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ ... أَعْضَاءُ جَلَّ اللَّهُ عَنْ بُهْتَانِ
وَحَكَى الْمُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُوَ التْـ ... تَشْبِيهُ لِلْخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ
وَحَكَى الْمُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَمْ يَقُو ... لُوهُ وَلَا أَشْيَاخُهُمْ بِلِسَانِ

الشرح: يعني: إذا كان لازم المذهب قد لا يكون مقصودًا لصاحب المذهب؛ لجواز جهله باللزوم، أو غفلته عنه؛ فإن ذلك لا ينطبق على لوازم الكتاب والسنة، بل كل ما يقوله اللَّه ﷻ ورسوله المعصوم -صلوات اللَّه عليه وسلامه- لابد أن تكون لوازمه كلها مقصودة؛ ولذلك كانت دلالات النصوص منها ما هو جلي ظاهر، ومنها ما هو شديد الخفاء؛ وذلك لتفاوت اللوازم فِي القرب والبعد من المعنَى الأصلي، فبعضها يكون لزومه لِهذا المعنَى واضحًا، وبعضها يكون خفيًّا، واللَّه سبحانه هو الذي يرزق من يشاء من عباده الفهم لمعاني كلامه رزقًا واسعًا بلا تقدير، كما أثر عن علي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سئل: «هل وصى لكم رسول اللَّه ﷺ بشيء؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا أن يعطي اللَّه عبده فهمًا فِي كتابه، وإلا ما فِي هذه الصحيفة».

وكذلك ما عرف عن سعة علم ابن عباس رضي الله عنهما بوجوه التأويل، حَتَّى سمي ترجمان القرآن، وذلك ببركة دعاء رسول اللَّه ﷺ له حين وضع يده على صدره، وقال: «**اللَّهم فقهه فِي الدين، وعلمه التأويل**».

وإذا عرفت أن لازم المذهب لا يصح أن يكون مذهبًا، فضلًا عما يظن لزومه مما ليس بلازم؛ فاحذر ما يحكيه علماء الكلام عن خصومهم من أهل الحق والإثبات من حكايات فيها كثير من الهراء والهذيان، فقد ذكروا ما ظنوه لازمًا لمذاهبهم، وحكوه على أنه مذهب لَهم بلا حجة ولا برهان، فكذبوا بذلك عليهم، وبَهتوهم بِما هم منه براء مما ظنوه يلزمهم من الأقوال والآراء.

فحكوا عنهم أنَّهم قالوا: إن اللَّه تعالَى جسم ذو جوارح وأعضاء. لما رأوهم يثبتون ما أثبته لنفسه من الوجه واليدين والعينين وغير ذلك من الصفات.

وحكوا عنهم كذلك أنَّهم قالوا: إن اللَّه ليس يُرى رؤية حقيقية بالعين. لما رأوهم

ينفون عنه الكيف والإحاطة، ويقولون ما قاله القرآن: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وحكوا عنهم أنَّهم قالوا: يجوز أن يكون كلامه سبحانه مجردًا عن قصد المعاني. لما رأوهم يثبتون لوازم تلك المعاني، ويدخلونَها فِي دلالة الألفاظ.

وحكوا عنهم أنَّهم قالوا: بأن اللَّه متحيز ومحصور فِي المكان. لأنَّهم رأوهم يثبتون له جهة العلو والفوقية.

وحكوا عنهم: بأنَّهم يثبتون للَّه الأعضاء؛ لأنَّهم أثبتوا له من الصفات ما يطلق فينا على الجوارح والأعضاء.

وحكوا عنهم أنَّهم شبهوا اللَّه ﷻ بخلقه، حين رأوهم قد وصفوه بِما وصف به نفسه، وبِما وصفه به رسوله مما يوجد مسماه فِي الإنسان.

وبالجملة: فقد حكى المعطل عنهم ما لَمْ يتلفظوا به، لا هم ولا شيوخهم، وإنَّما هي أمور استنتجها من مذهبهم بالظن والتخمين، فوقع فِي الكذب والبهتان والضلال المبين.

* * *

ظَنَّ الْمُعَطِّلُ أَنَّ هَذَا لَازِمٌ ... فَلِذَا أَتَى بِالزُّورِ وَالْعُدْوَانِ

فَعَلَيْهِ فِي هَذَا مَعَاذِيرٌ ثَلَا ... ثٌ كُلُّهَا مُتَحَقِّقُ الْبُطْلَانِ

ظَنُّ اللُّزُومِ وَقَذْفُهُمْ بِلُزُومِهِ ... وَتَمَامُ ذَاكَ شَهَادَةُ الْكُفْرَانِ

يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْحَكَ لَمْ تَخَفْ ... يَوْمَ الشَّهَادَةِ سَطْوَةَ الدَّيَّانِ

يَا قَائِلَ الْبُهْتَانِ غَطَّ لَوَازِمًا ... قَدْ قُلْتَ مَلْزُومَاتِهَا بِبَيَانِ

وَاللهِ لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ لِلرَّحْمَنِ

وَاللهِ لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الدِّينِ وَالْـ ... قُرْآنِ وَالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ

وَلُزُومُ ذَلِكَ بَيِّنٌ جِدًّا لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ وَاعِيَتَانِ

وَاللهِ لَوْلَا ضِيقُ هَذَا النَّظْمِ بَيْـ ... يَنْتُ اللُّزُومَ بِأَوْضَحِ التِّبْيَانِ

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا يَكْفِي لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

إِنَّ الذَّكِيَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ يَكْتَفِي ... وَأَخُو الْبَلَادَةِ سَاكِنُ الْجَبَّانِ

الشرح: ظن المعطل أن هذه الأمور المتقدمة لازمة لمذاهب أهل الحق والإثبات، فاعتقدها مذهبًا لَهم، وحملهم إياها زورًا وعدوانًا، وارتكب فِي حقهم ثلاث جنايات كلها

باطلة:

الأولى: ظنه لزوم هذه الأمور لمذاهبهم.

والثانية: رميه إياهم بذلك اللزوم.

والثالثة الَّتِي هي تَمام الثلاثة: شهادته عليهم بالكفر، بسبب ما ظنه لازمًا لمذهبهم.

فويحك يا شاهد الزور والبهتان، كيف لَمْ تخف يوم تسأل عن شهادتك سطوة الديان، وبدلًا من أن ترمي خصومك بلوازم مظنونة، ليس لك عليها برهان؛ كان أولى بك أن تستر ما يلزم مذهبك من لوازم فِي غاية البيان، وفِي الدرجة القصوى من الشناعة والنكران، فإن لازمها هو انتفاء الذات والصفات والأفعال للرحمن، بل ولازمها انتفاء الدين والقرآن والإسلام والإيمان، ولزوم هذه اللوازم الشنيعة لمذهبكم بَيِّنٌ جدًّا لمن كانت له عينان، فإن وصفه تعالَى بصفات السلوب والإعدام من كونه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلًا ولا منفصلًا، ولا قريبًا ولا بعيدًا، ولا فِي جهة ولا مكان، وليس بذي مقدار ولا صورة ... إلخ؛ يفضي إلَى نفي وجوده سبحانه فِي الأعيان، ويصبح أمرًا مفروضًا فِي الأذهان، وإذا انتفى وجوده؛ فقد انتفت صفاته وأفعاله.

وأيضًا نفيكم لقيام الفعل بذاته، وجعلكم أفعاله تعلقات للقدرة؛ مستلزم لنفي الفعل عنه، واعتقادكم أنه ليس متكلمًا بِهذا القرآن الذي بين أيدينا؛ يقتضي أنه ليس له بيننا كلام، وذلك يستلزم نفي الرسالة؛ لأن بناءها على تكليم اللَّه لرسله، وإذا انتفت الرسالة انتفت معها شرائع الإسلام والإيمان، وهكذا تجد اللوازم لمذهبهم فِي غاية الوضوح والبيان، ولكن ضيق النظم وقيوده تمنع من ذكرها على التفصيل، ولكن قد تقدم منها ما يكفي لمن كانت له عينان متفتحتان، فإن الذكي تكفيه الإشارة إلَى بعضها، أما أخو البلادة فهو يسكن مع الأموات فِي الجبان.

* * *

يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيوخِكُمْ ... بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ أَفْضَلِ وَقْتِهِ ... فِيكُمْ مَقَالَةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضَ قَبْـ ... ـلَ الْعَرْشِ بِالإِجْمَاعِ مَخْلُوقَانِ

وَاللهِ مَا هَذِي مَقَالَةُ عَالِمٍ ... فَضْلًا عَنِ الإِجْمَاعِ كُلَّ زَمَانِ

مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ... ـخَبَرَ الصَّحِيحَ وَظَاهِرَ الْقُرْآنِ

فَانْظُرْ إِلَى مَا جَرَّهُ تَأْوِيلُ لَفْـ ظِ الإِسْتِوَاءِ بِظَاهِرِ الْبُطْلَانِ
زَعَمَ الْمُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ اسْتَوَى بِالْخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعَ لِسَانِ
كَذَبَ الْمُعَطِّلُ لَيسَ ذَا لُغَةَ الأُلَى قَدْ خُوطِبُوا بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
فَأَحَارَهُ هَذَا إِلَى أَنْ قَالَ خَلْـ قُ الْعَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ
يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ وَإِجْـ مَاعِ الْهُدَاةِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ

الشرح: وكان ينبغي لكم بدلًا من رميكم أهل الإثبات بالجهل والعجز عن إدراك المعقولات؛ أن تعتبروا بما لشيوخكم من فضائح وشناعات، دلت على جهلهم بحقائق الإيمان وصريح الآيات، ولا بد أن تكونوا قد سمعتم بما قاله إمام[1] منكم، كان يعد أفضل عصره علمًا وتدقيقًا مقالة جاهل يبغي الفتنة، وصرف الناس عن صريح الكتاب والسنة، فقد قال هذا الجاهل -ويا شناعة ما قال-: إن السموات والأرض مخلوقة كلها قبل العرش. وادعى في ذلك الإجماع في كل عصر، ووالله ما يصح أن يصدر هذا القول ممن شمَّ رائحة العلم، فضلًا عن أن يدعي فيه الإجماع، بل من قال به فهو مخالف للإجماع وللخبر الصحيح وظاهر القرآن، والذي جره إلى الوقوع في هذه الشناعة أنه أراد أن يصرف لفظ الاستواء عما يدل عليه لغة ووضعًا من العلو والارتفاع إلى معان أخرى باطلة؛ فزعم أن معنى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. أقبل على خلقه، وأن دلالته عليه بوضع اللغة، وهذا كذب صريح على اللغة التي نزل بها القرآن، فليس فيها استوى على كذا بمعنى: أقبل على خلقه. ولكنه أراد أن يتوصل من هذا التفسير العجيب إلى القول: بأن العرش مخلوق بعد السموات والأرض؛ لأن الله سبحانه ذكر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض، فإذا فسر استوى: بخلق؛ دل على أنه خلقه بعد خلقهما.

فليهن هذا الجاهل الكذاب تكذيب الرسول ﷺ له، فقد قال في الصحيح: **«كان الله ولَمْ يكن شيء غيره، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض وكان عرشه على الماء»**. فقد أخبر أنه عند خلقه السموات والأرض كان عرشه على الماء، فدل على أن العرش كان موجودًا قبل خلقهما.

وقد أجمع الأئمة الهداة على ذلك، لَمْ يختلف فيه منهم اثنان، وفي هذا الإجماع تكذيب له أي تكذيب.

---

(١) المراد فخر الدين بن الخطيب الرازي إمام الأشاعرة في وقته.

وليهنه كذلك تكذيب محكم القرآن له، فقد قال تعالى من سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧]. والآية موافقة للحديث في وجود العرش على الماء عند خلق السموات والأرض.

فصل في الرد عليهم في تكفيرهم أهل العلم والإيمان وذكر انقسامهم إلى أهل الجهل والتفريط والبدع والكفران

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّكُمْ كَفَّرْتُمُ ... أَهْلَ الْحَدِيثِ وَشِيعَةَ الْقُرْآنِ

إِذْ خَالَفُوا رَأْيًا لَهُ رَأْيٌ يُنَا ... قِضُهُ لأَجْلِ النَّصِّ وَالْبُرْهَانِ

وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَينَ خِلَافِكُمْ ... وَوِفَاقِكُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ

فَوِفَاقُكُمْ مِيزَانُ دِينِ اللهِ لَا ... مَنْ جَاءَ بِالْبُرْهَانِ وَالْفُرْقَانِ

مِيزَانُكُمْ مِيزَانُ بَاغٍ جَاهِلٍ ... وَالْعَوْلُ كُلُّ الْعَوْلِ فِي الْمِيزَانِ

أَهْوِنْ بِهِ مِيزَانَ جَوْرٍ عَائِلٍ ... بِيَدِ الْمُطَفِّفِ وَيْلَ ذَا الْوَزَّانِ

لَوْ كَانَ ثَمَّ حَيًا وَأَدْنَى مِسْكَةٍ ... مِنْ دِينٍ اوْ عِلْمٍ وَمِنْ إِيمَانِ

لَمْ تَجْعَلُوا آرَاءَكُمْ مِيزَانَ كُفْـ ... ـرِ النَّاسِ بِالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

هَبْكُمْ تَأَوَّلْتُمْ وَسَاغَ لَكُمْ أَيَكْـ ... ـفُرُ مَنْ يخَالِفُكُمْ بِلَا بُرْهَانِ

هَذِي الْوَقَاحَةُ وَالْجَرَاءَةُ وَالْجَهَا ... لَةُ وَيْحَكُمْ يَا فِرْقَةَ الطُّغْيَانِ

اللهُ أَكْبَرُ ذَا عُقُوبَةُ تَارِكِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لِلآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ

الشرح: ومن عجيب أمركم أيها المعطلة الجاحدون: أنكم تعمدون إلى تكفير خير الناس من أصحاب الحديث وأنصار القرآن العظيم، لا لشيء إلا أنَّهم خالفوا آراءكم الضالة المناقضة من أجل ما عندهم من النصوص والأدلة القاطعة.

ومن العجيب: أنكم تجعلون التكفير سيفًا مصلتًا على من يخالفكم في هذه الآراء، وأما من يوافقكم عليها؛ فهو عندكم مؤمن كامل الإيمان، فجعلتم موافقتكم هي الميزان لدين اللّه، لا موافقة رسوله المبعوث من عنده بالبرهان والفرقان، مع أن ميزانكم قائم على أمرين يجعلانه ميزان جور وخسران: وهُما البغي على عباد اللّه، والجهل بدينه.

فبئس الأمران وأهون بميزان يقوم على جهل وعدوان، فهو ميزان جور مائل، وهو بيد

مطفف مخسر للميزان، فويل له يوم يقوم الناس لربنا الديان، ولو كان عندكم بقية من حياء، أو أقل مسكة من دين، أو علم، أو إيمان، لَمْ تجعلوا آراءكم هي ميزان كفر الناس بالبهتان والعدوان، فإنه لو قدر أنكم متأولون، وسوغت لكم عقولكم هذا التأويل، فهل يجوز لمتأول أن يكفر من يخالفه بلا حجة على كفره ولا برهان، لكنها الوقاحة والجراءة والجهالة الَّتِي كانت نصيبكم من الأخلاق يا أمة الطغيان، عقوبة من اللَّه لكم على ترككم الوحيين من السنة والقرآن إلَى آراء كلها فشر وهذيان.

* * *

لَكِنَّنَا نَأْتِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ ... فِيكُمْ لأَجْلِ مَخَافَةِ الرَّحْمَنِ

فَاسْمَعْ إذَنْ يَا مُنْصِفًا حُكْمَيْهِمَا ... وَانْظُرْ إذَنْ هَلْ يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ

هُمْ عِنْدَنَا قِسْمَانِ أَهْلُ جَهَالَةٍ ... وَذَوُو الْعِنَادِ وَذَلِكَ الْقِسْمَانِ

جَمْعٌ وَفَرْقٌ بَيْنَ نَوْعَيهِمْ هُمَا ... فِي بِدْعَةٍ لَا شَكَّ يَجْتَمِعَانِ

وَذَوُو الْعِنَادِ فَأَهْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ ... وَالْجَاهِلُونَ فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ

مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْـ ... أَسْبَابِ ذَاتِ الْيُسْرِ وَالإمْكَانِ

لَكِنْ إلَى أَرْضِ الْجَهَالَةِ أَخْلَدُوا ... وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالْعُمْيَانِ

لَمْ يَبْذُلُوا الْمَقْدُورَ فِي إدْرَاكِهِمْ ... لِلْحَقِّ تَهْوِينًا بِهَذَا الشَّانِ

فَهُمُ الأُلَى لَا شَكَّ فِي تَفْسِيقِهِمْ ... وَالْكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلَانِ

وَالْوَقْفُ عِنْدِي فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالْكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلَا الإيمَانِ

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْبِطَانَةِ مِنْهُمُ ... وَلَنَا ظَهَارَةُ حُلَّةِ الإعْلَانِ

لَكِنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ عِقَابَهُ ... قَطْعًا لأَجْلِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

الشرح: لكننا لا نحكم فيكم بالجور والظلم كما حكمتم فينا، بل نحكم فيكم بالعدل والإنصاف من أجل خوفنا من اللَّه ﷻ، فليسمع إذن كل منصف من الناس حكمنا وحكمكم، ثُمَّ لينظر هل يستوي الحكمان؟

أما حكمكم فينا: فقد عرف ما فيه من شطط وعدوان.

وأما حكمنا فيكم: فأنتم عندنا نوعان: أهل جهالة، وذوو عناد وشقاق وعصيان.

وبينكم قدر مشترك تجتمعون فيه، وهو أنكم أهل بدعة وضلالة خارجون عن السنة

والقرآن.

ثُمَّ تفترقون بعد ذلك فيما يستحقه كل منكم من وصف الكفر أو الإيمان.

فأما أهل العناد والمشاقة؛ فكفرهم ظاهر واضح للعيان.

وأما أهل الجهالة منكم؛ فإنَّهم عندنا نوعان:

نوع: كان متمكنًا من الهدى والعلم قد يسرت له أسبابه من عقل ذكي، وبصر نافذ، وقدرة على فهم معاني السنة والقرآن، لكنهم مالوا إِلَى القعود والكسل، ورضوا بالتخلف، وعطلوا ما وهبهم اللَّه من سلامة العقول وجودة الأذهان، واستسهلوا الجري وراء غيرهم، يقلدونَهم كالعميان، ولَمْ يبذلوا الوسع فِي إدراكهم للحق لقلة اكتراثهم بِهذا الشأن، فهؤلاء لا يشك أحد فِي أنَّهم فساق؛ لخروجهم عما كان ينبغي لَهم من النظر الذي هو خاصة الإنسان، وأما تكفيرهم ففيه لأهل السنة قولان، ولكن المؤلف اختار الوقف فِي شأنِهم، فهو لا يصفهم بكفر ولا إيمان، فوَكَلَ بواطنهم إِلَى اللَّه العليم بالسر والإعلان، ويحكم عليهم بِما يظهر منهم جهرة بلا كتمان، ونعلم أنَّهم مستوجبون للعقاب قطعًا لما ارتكبوه فِي حق المثبتين الموحدين من بغي وعدوان.

* * *

هَبْكُمْ عُذِرْتُمْ بِالْجَهَالَةِ إِنَّكُمْ ... لَنْ تُعْذَرُوا بِالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ

وَالطَّعْنِ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ وَدِينِهِ ... وَشَهَادَةٍ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ

وَكَذَلِكَ اسْتِحْلَالُ قَتْلِ مُخَالِفِيـ ... ـكُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

إِنَّ الْخَوَارِجَ مَا أَحَلُّوا قَتْلَهُمْ ... إِلَّا لِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْعِصْيَانِ

وَسَمِعْتُمْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فِيهِمْ وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

لَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَبَحْتُمْ قَتْلَهُمْ ... بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ الْقُرْآنِ

وَاللهِ مَا زَادُوا النَّقِيرَ عَلَيهِمَا ... لَكِنْ بِتَقْرِيرٍ مَعَ الإِيمَانِ

فَبِحَقِّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِالْعِلْمِ وَالتْـ ... ـتَحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ وَالْعِرْفَانِ

أَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الْخَوَارِجُ بِالَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

هُمْ يَقْتُلُونَ لِعَابِدِ الرَّحْمَنِ بَلْ ... يَدْعُونَ أَهْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

هَذَا وَلَيسُوا أَهْلَ تَعْطِيلٍ وَلَا ... عَزْلِ النُّصُوصِ الْحَقِّ بِالْبُرْهَانِ

الشرح : فإذا فرض أنا عذرناكم بجهلكم أيها الجهلة المقلدون، فكيف نعذركم بِما ارتكبتم فِي حق أهل الإثبات من ظلم وطغيان، وما اجترأتم عليه من الطعن فِي أحاديث الرسول ﷺ ودينه، ومن شهادتكم على خصومكم بالزور والبهتان، وما استحللتموه من سفك دماء مخالفيكم كما يستحل دماء المشركين عبدة الأوثان؟!.

وإن الخوارج ما أباحوا قتل خصومهم إلا لأنَّهم فِي نظرهم صاروا كفارًا بِما ارتكبوا من العصيان، ومع ذلك فقد سمعتم ما قاله الرسول ﷺ في شأن الخوارج، حيث قال: «يَمرقون من الإسلام، كما يَمرق السهم من الرمية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم».

وسمعتم كذلك حكمه فيهم، حيث قال لأصحابه: «إذا لقيتموهم فاقتلوهم قتل عاد، وهم شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى من قتلوه، وأنَّهم كلاب النار».

ولكنكم أنتم أبحتم قتل خصومكم بسبب موافقتهم للقرآن والسنة، ووالله ما زادوا على ما فيهما نقيرًا، إلا أنَّهم آمنوا به، وقرروه تقريرًا.

فنسألكم بحق من أعطاكم ما تزعمون لأنفسكم من العلم والتحقيق والإنصاف والعرفان، أأنتم أم الخوارج أحق بالذي قاله الرسول، وحكم به فِي شأنِهم؟! وضحوا لنا ذلك.

فإنَّهم بقتلهم عباد الرحْمن من الصحابة والتابعين لَهم بإحسان، ويسمونَهم كفارًا كما يسمى عبدة الأوثان، مع أنَّهم ليسوا مثلكم أهل تعطيل وجحد ونكران، ولا عزل للنصوص الثابتة بِما تزعمونه من البرهان.

فصل

وَالآخَرُونَ فَأَهْلُ عَجْزٍ عَنْ بُلُو ... غِ الْحَقِّ مَعْ قَصْدٍ وَمَعْ إِيمَانِ
بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ وَلِقَائِهِ ... وَهُمُ إِذَا مَيَّزْتَهُمْ ضَرْبَانِ
قَوْمٌ دَهَاهُمْ حُسْنُ ظَنِّهِمُ بِمَا ... قَالَتْهُ أَشْيَاخٌ ذَوُو أَسْنَانِ
وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ لَمْ يَجِدُوا سِوَى ... أَقْوَالِهِمْ فَرَضُوْا بِهَا بِأَمَانِ
لَوْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْهُدَى لَمْ يَرْتَضُوا ... بَدَلًا بِهِ مِنْ قَائِلِ الْبُهْتَانِ
فَأُولَاءِ مَعْذُورُونَ إِنْ لَمْ يَظْلِمُوا ... وَيُكَفِّرُوا بِالْجَهْلِ وَالْعُدْوَانِ

وَالآخَرُونَ فَطَالِبُونَ الْحَقَّ لَـ ... كِنْ صَدَّهُمْ عَنْ عِلْمِهِ شَيْئَانِ
مَعْ بَحْثِهِمْ وَمُصَنَّفَاتٍ قَصْدُهُمْ ... مِنْهَا وُصُولُهُمُ إلَى الْعِرْفَانِ
إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الْحَقَائِقِ مِنْ سِوَى ... أَبْوَابِهَا مُتَسَوِّرِي الْجُدْرَانِ
وَسُلُوكُ طُرْقٍ غَيرِ مُوصِلَةٍ إِلَى ... دَرْكِ الْيَقِينِ وَمَطْلَعِ الإِيمَانِ
فَتَشَابَهَتْ تِلْكَ الأُمُورُ عَلَيهِمُ ... مِثْلَ اشْتِبَاهِ الطُّرْقِ بِالْحَيرَانِ
فَتَرَى أَفَاضِلَهُمْ حَيَارَى كُلُّهَا ... فِي التِّيهِ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ
وَيقُولُ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الطُّرْقُ لَا ... أَدْرِي الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ السُّلْطَانِي
بَلْ كُلُّهُمْ طُرْقٌ مَخُوفَاتٌ بِهَا الْـ ... آفَاتُ حَاصِلَةٌ بِلَا حُسْبَانِ
فَالْوَقْفُ غَايتُهُ وَآخِرُ أَمْرِهِ ... مِنْ غَيرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي الرَّحْمَنِ
أَوْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ... وَلِقَائِهِ وَقِيَامَةِ الأَبْدَانِ
فَأُولَاءِ بَينَ الذَّنْبِ وَالأَجْرَينِ أَوْ ... إحْدَاهُمَا أَوْ وَاسِعِ الْغُفْرَانِ

الشرح: وأما الفريق الثاني من أهل الجهالة: فهم قوم عجزوا عن الوصول إِلَى الحق، مع حسن قصدهم وصلاح نياتِهم، ومع إيمانِهم باللَّه ورسوله ورجاء لقائه، وهؤلاء أيضًا ضربان:

قوم: أتوا من حسن ظنهم بأقوال شيوخ من أهل العلم ذوي أسنان وشرف، وحسن تدين واستقامة، ولَمْ يجدوا سوى هذه الأقوال فرضوا بِها، واطمأنوا إليها؛ لحسبانِهم أنَّها هي الحق، ولكنهم لو وجدوا من يدلهم على الحق، ويأخذ بيدهم إِلَى الهدى؛ لَمْ يؤثروا عليه شيئًا، ولَمْ يرضوا به بديلًا من أقوال أهل الكذب والبهتان، وحكم هؤلاء أنَّهم معذورون؛ لعدم تمكنهم من الهدى، بشرط ألَّا يظلموا أهل الحق، ولا يكفروهم بالجهل والعدوان.

وأما الآخرون؛ فقوم: يطلبون الحق، ويتلمسون الطريق إليه، ولكنهم مع اجتهادهم فِي البحث، وقراءتِهم للكتب الَّتِي يقصدون منها الوصول إِلَى المعرفة؛ قد حال بينهم وبين الوصول إليه أمران:

أحدهُما: أنَّهم طلبوا الحقائق من غير أبوابِها، وسلكوا إليها غير طريقها، كمن يتسور الجدران إِلَى الدار، ولا يدخل من الباب.

وثانيهما: أنَّهم سلكوا إليها طرقًا غير موصلة إلَى اليقين بحقائق الإيمان، فالتبست عليهم تلك الأمور كما تلتبس الطرق على السالك الحيران، فترى أفاضل هؤلاء ورؤساءهم حيارى فِي بيداء الضلال، يقرعون أسنانَهم ندمًا، ويقولون: قد كثرت علينا الطرق واشتبهت، فلا ندري أيها الطريق الموصل إلَى اللَّه، بل كلها طرق مخوفة مملوءة بالآفات. فينتهي بِهم الأمر إلَى التوقف مع تحصيلهم لأركان الإيمان الَّتِي هي: الإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، والبعث بعد الموت، فهؤلاء أمرهم مردد بين أن يؤخذوا بذنبهم، وبين أن يؤجروا على اجتهادهم، فلمن أصاب منهم أجران، ولمن أخطأ منهم أجر، وإما أن يتركوا لواسع مغفرة اللَّه وعظيم رحمته.

* * *

فَانْظُرْ إلَى أَحْكَامِنَا فِيهِمْ وَقَدْ ... جَحَدُوا النُّصُوصَ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَانْظُرْ إلَى أَحْكَامِهِمْ فِينَا لِأَجْـ ... ـلِ خِلَافِهِمْ إذْ قَادَهُ الْوَحْيَانِ

هَلْ يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ عِنْدَ اللهِ أَوْ ... عِنْدَ الرَّسُولِ وَعِنْدَ ذِي إيمَانِ

الْكُفْرُ حَقُّ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِالنَّصِّ يَثْبُتُ لَا بِقَوْلِ فُلَانِ

مَنْ كَانَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... قَدْ كَفَّرَاهُ فَذَاكَ ذُو الْكُفْرَانِ

فَهَلُمَّ وَيحَكُمُ نحَاكِمْكُمْ إلَى النْـ ... ـنَصَّينِ مِنْ وَحْيٍ وَمِنْ قُرْآنِ

وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ حَقًّا أَوْ عَلَى الإيمَانِ

فَلْيَهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ... ـلَامٍ وَإيمَانٍ لَهُ النَّصَّانِ

لَكِنَّ غَايَتَهُ كَغَايَةِ مَنْ سِوَى الْـ ... ـمَعْصُومِ غَايَةِ نَوْعِ ذَا الإِحْسَانِ

خَطَأٌ يصَيِّرُ الأَجْرَ أَجْرًا وَاحِدًا ... إنْ فَاتَهُ مِنْ أَجْلِهِ الْكِفْلَانِ

إنْ كَانَ ذَاكَ مُكَفِّرًا يَا أُمَّةَ الْـ ... ـعُدْوَانِ مَنْ هَذَا عَلَى الإيمَانِ

قَدْ دَارَ بَينَ الأَجْرِ وَالأَجْرَينَ وَالتْـ ... ـتَكْفِيرِ بِالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ

كَفَّرْتُمُ وَاللهِ مَنْ شَهِدَ الرَّسُو ... لُ بِأَنَّهُ حَقًّا عَلَى الإيمَانِ

ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُولِ وَخصْلَةٌ ... مِنْ عِنْدِكُمْ أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ

الشرح: فانظر يا أخا العقل والإنصاف إلَى الفرق الواضح بين أحكامنا فِي خصومنا مع جحدهم للنصوص ومخالفتهم لمقتضى القرآن، ثُمَّ انظر إلَى أحكامهم فينا حيث كفرونا

من أجل أننا خالفناهم في آرائهم خلافًا اضطرنا إليه وقوفنا مع الوحيين من السنة والقرآن، فهل يستوي هذان الحكمان عند اللَّه ﷻ وعند رسوله ﷺ وعند ذوي الإيمان؟ إنه ليس لأحد من الناس أن يكفر أحدًا لمخالفته له في رأيه، بل التكفير حق للَّه ورسوله وحدهما، فلا يثبت إلا بالنص، ولا يقع برأي أحد ولا بقوله، فمن كفره اللَّه ورسوله فهو الكافر حقًّا، فتعالوا إذن نحتكم إلى النصين من السنة والقرآن؛ لنعرف أي الحزبين -منا ومنكم- على الكفر أو على الإيمان، فليهنكم أنكم كفرتمونا، وقد شهدت بإسلامنا وإيماننا النصان، لكن غاية ما يمكن أن يحكم به علينا أننا لسنا بمعصومين، فقد نخطئ خطأ يصير لنا به أجر واحد، إن فاتنا من أجرنا الكفلان، فهل هذا يصلح أن يكون مكفرًا يا أمة العدوان؟! فالرسول ﷺ قد حكم لنا بأجر إن أخطأنا، وإن أصبنا فلنا أجران، وأما أنتم فكفرتمونا بالدعوى بلا برهان، فاجترأتم على تكفير من شهد له الرسول بأنه على الإيمان.

فصار لنا من الرسول ثنتان: إما أجر، أو أجران، ولنا من عندكم خصلة واحدة وهي الحكم بالكفران، فهل أنتما بعد متساويان؟!

فصل في تلاعب المكفرين لأهل السنة [illegible] بالدين كتلاعب الصبيان

كَمْ ذَا التَّلَاعُبُ مِنْكُمُ بِالدِّينَ وَالْـ ... إيـمَـانِ مِـثْـلَ تَـلَاعُـبِ الـصِّـبْـيَـانِ

خُسِفَتْ قُلُوبُكُم كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُـكُـمُ فَـلَا تَـزْكُـوا عَـلَـى الْـقُـرْآنِ

كَـمْ ذَا تَـقُـولُـوا مُـجْـمَـلٌ وَمُـفَـصَّـلٌ ... وَظَـوَاهِـرٌ عُـزِلَـتْ عَـنِ الإيـقَـانِ

حَـتَّـى إذَا رَأْيُ الـرِّجَـالِ أَتَـاكُـمُ ... فَـاسْـمَـعْ لِـمَـا يُـوحَـى بِـلَا بُـرْهَـانِ

مِثْلَ الْخَفَافِيشِ الَّتِي إنْ جَاءَهَا ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الْحِيطَانِ

عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ لَا تُطِيـ ... ـقُ هِـدَايَـةً فِـيـهَـا إلَـى الـطَّـيَـرَانِ

حَتَّى إذَا مَا اللَّيـلُ جَاءَ ظَلَامُهُ ... جَـالَـتْ بِـظُـلْـمَـتِـهِ بِـكُـلِّ مَـكَـانِ

فَتَرَى الْمُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ ... وَيَـرَاهُـمُ فِـي مِـحْـنَـةٍ وَهَـوَانِ

وَارَحْـمَـتَـاهُ لِـعَـيْـنِـهِ وَلأُذْنِـهِ ... يَـا مِـحْـنَـةَ الْـعَـيْـنَـيْـنِ وَالأُذُنَـانِ

إنْ قَـالَ حَـقًّـا كَـفَّـرُوهُ وَإنْ يـقُـو ... لُـوا بَـاطِـلًا نَـسَـبُـوهُ لِـلْإِيـمَـانِ

حَـتَّـى إذَا مَـا رَدَّهُ عَـادَوْهُ مِـثْـ ... لَ عَـدَاوَةِ الـشَّـيْـطَـانِ لِـلْإِنْـسَـانِ

الشرح: ولقد هان الدين على قلوبكم، فأنتم تتلاعبون به كما يتلاعب الصبيان بالكرة؛ وذلك لأن قلوبكم قد حصل لَهَا من الخسف وذهاب النور كما حصل لعقولكم؛ فهي لا تطيب وتصلح بِما يتلى عليها من كتاب اللَّه ﷻ.

ولطالما رددتم نصوص الوحيين، ولَمْ تروها صالحة لأخذ العقائد منها؛ بحجة أنَّها يقع فيها الإجمال والتفصيل والإطلاق والتقييد والعموم والخصوص والإبْهام والبيان، وأنَّها ظواهر لا تفيد القطع واليقين، فلا تصلح للاحتجاج بِها فِي باب الاعتقاد، حَتَّى إذا ما وقع لكم رأي لأحد من الشيوخ طرتم به فرحًا، واستمعتم إليه كأنه وحي وتنْزيل، ولَمْ تسألوه على ما قال أي دليل، فأنتم مثل الخفافيش الَّتِي لا تعيش إلا فِي الظلام، فتراها إذا أقبل عليها ضوء النهار لجأت إلَى الطيقان تستتر فيها؛ لأنَّها لا تطيق أن تبصر ضوء الشمس، ولا تستطيع فيها هداية إلَى الطيران، حَتَّى إذا ما أقبل عليها الليل بظلمته؛ خرجت من مكامنها، وأخذت تجول فِي ظلمته فِي جَميع الأمكنة.

ولا شيء يؤذي الموحد، ويستثير حزنه وأشجانه مثل سماعه لسخافات هؤلاء، ورؤيته لقبيح حركاتِهم وسوء أفعالهم، فتراه حين يسمع أقوالهم، ويرى أشخاصهم فِي أشد محنة، فوارحمتاه لعينه مما ترى، ولأذنه مما تسمع، وهو إن قال حقًّا مستمدًّا من نصوص الوحيين؛ كفروه به ما دام مخالفًا لآرائهم، وإن قالوا هم باطلًا نسبوه إلَى الإيمان، فإذا حاول الموحد رده وإبطاله؛ كشروا له عن أنيابِهم، وجاهروه بالعداوة الَّتِي مثل عداوة الشيطان للإنسان.

* * *

قَالُوا لَهُ خَالَفْتَ أَقْوَالَ الشُّيو ... خِ وَلَمْ يُبَالُوا الْخُلْفَ لِلْفُرْقَانِ

خَالَفْتُ أَقْوَالَ الشُّيوخِ فَأَنْتُمُ ... خَالَفْتُمُ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

خَالَفْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ وَإِنَّمَا ... خَالَفْتُ مِنْ جَرَّاهُ قَوْلَ فُلَانِ

يَا حَبَّذَا ذَاكَ الْخِلَافُ فَإِنَّهُ ... عَيْنُ الْوِفَاقِ لِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ

أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَعْدَاءَ الرَّسُو ... لِ عَلَيْهِ عَابُوا الْخُلْفَ بِالْبُهْتَانِ

لِشُيوخِهِمْ وَلِمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَى ... أَسْلَافُهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

مَا الْعَيْبُ إِلَّا فِي خِلَافِ النَّصِّ لَا ... رَأْيِ الرِّجَالِ وَفِكْرَةِ الأَذْهَانِ

أَنْتُمْ تَعِيبُونَا بِهَذَا وَهْوَ مِنْ ... تَوْفِيقِنَا وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فَلْيهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ وَيهْنِنَا ... خُلْفُ الشُّيوخِ أَيسْتَوِي الْخُلْفَانِ
واللهِ مَا تَسْوِي عُقُولُ جَمِيعِ أَهْـ ... لِ الأَرْضِ نَصًّا صَحَّ ذَا تِبْيَانِ
حَتَّى نُقَدِّمَهَا عَلَيْهِ مُعْرِضِيـ ... نَ مُؤَوِّلِينَ مُحَرِّفِي الْقُرْآنِ
وَاللهِ إِنَّ النَّصَّ فِيمَا بَيْنَنَا ... لَأَجَلُّ مِنْ آرَاءِ كُلِّ فُلَانِ

الشرح: يقولون للموحد حين يرد باطلهم، ويدفعه بسلاح الحق هذه القولة الَّتِي تدل على التعصب والجهل: «خالفت أقوال الشيوخ». فتلك عندهم عظيمة من العظائم، مع أنَّهم هم لَمْ يبالوا بمخالفتهم للفرقان الذي هو كتاب ربِّهم، فإذا كان هو قد خالف أقوال الشيوخ الذين يجوز عليهم الخطأ والصواب، ولا يجب على أحد من الناس تقليدهم، فأنتم خالفتم قول المعصوم الذي جاء بالقرآن العظيم -صلوات اللَّه وسلامه عليه- والذي يجب على كل أحد اتباعه، فشتان بين من خالف قول الرسول، وبين من خالف قول فلان من الناس من أجل قول الرسول، وحبذا ذاك الخلاف لأقوال شيوخكم، فإنه محض الموافقة لطاعة اللَّه ﷻ.

وأنتم حين تعيبوننا بمخالفة من مضى من شيوخكم تشبهون المشركين أعداء الرسول ﷺ، حين عابوا عليه مجيئه بدين يخالف ما ورثوه عن أسلافهم الأولين.

وأنتم قد انتكست فطركم وعقولكم، فأصبحتم لا تعرفون مواطن العيب من مواطن المدح، فاعلموا أن العيب كل العيب ليس إلا فِي مخالفة النصوص الَّتِي جاء بِها المعصوم، وليس فِي مخالفة آراء الرجال وأفكار العقول.

فليهنكم أنتم مخالفة النصوص، وليهننا نَحن مخالفة الشيوخ، فهل يستوي الخلفان؟! كلا واللَّه؛ إن جَميع ما أنتجته عقول أهل الأرض من آراء ومذاهب لا تساوي نصًّا واحدًا ثبتت صحته، وكان معناه واضحًا بينًا، فلا نقدمها أبدًا عليه، معرضين عنه محرفين له، وواللَّه إن النص عندنا معشر أهل السنة لأجل وأرفع من آراء جَميع الناس من الأولين والآخرين؛ لأنَّها آراء غير معصومين، فهي محتملة للخطأ والصواب، ولكن النص إذا صح لا يكون إلا عين الصواب.

* * *

وَاللَّهِ لَمْ يَنْقِمْ عَلَينَا مِنْكُمُ ... أَبَدًا خِلَافَ النَّصِّ مِنْ إِنْسَانِ
لَكِنْ خِلَافَ الأَشْعَرِيِّ بِزَعْمِكُمْ ... وَكَذَبْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى الإِنْسَانِ

كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ مَا قَدْ قَالَهُ ... فِي كُتْبِهِ حَقًّا بِلَا كِتْمَانِ

هَذَا وَخَالَفْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ مِثْـ ... ـلَ خِلَافِكُمْ فِي الْفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

فَالأَشْعَرِيُّ مُصَرِّحٌ بِالإسْتِوَا ... ءِ وَبِالْعُلُوِّ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِإِثْبَاتِ الْيَدَيْـ ... ـنِ وَوَجْهِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِأَنَّ لِرَبِّنَا ... سُبْحَانَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِإِثْبَاتِ النُّزُو ... لِ لِرَبِّنَا نَحْوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِإُثْبَاتِ الأَصَا ... بِعِ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ ذُو الْبُرْهَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِأَنَّ اللهَ يَوْ ... مَ الْحَشْرِ يُبْصِرُهُ أُولُو الإيمَانِ

جَهْرًا يَرَوْنَ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَيضًا بِإِثْبَاتِ الْمَجِي ... ءِ وَأَنَّهُ يَأْتِي بِلَا نُكْرَانِ

وَمُصَرِّحٌ بِفَسَادِ قَوْلِ مُؤَوِّلٍ ... لِلإسْتِوَاءِ بِقَهْرِ ذِي سُلْطَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَنَّ الأُلَى قَالُوا بِذَا التْـ ... ـتَأْوِيلِ أَهْلُ ضَلَالَةٍ بِبَيَانِ

وَمُصَرِّحٌ أَنَّ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ... أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ

هُوَ قَوْلُهُ يَلْقَى عَلَيْهِ رَبَّهُ ... وَبِهِ يَدِينُ اللهَ كُلَّ أَوَانِ

الشرح: ومن العجيب: أنه لَمْ ينقم علينا أحد منكم مخالفتنا للنصوص، ولكن تنقمون علينا أننا خالفنا الأشعري بزعمكم، وكذبتم أنتم على الأشعري حين نسبتم إليه التعطيل ونفي الصفات، وكفرتمونا بمخالفة الأشعري مع أننا لَمْ نقل إلا بِما قاله، وصرح به فِي كتبه مثل «الإبانة» و«المقالات».

هذا ونَحن وأنتم فِي مخالفة الأشعري سواء، فنحن خالفناه فِي رأيه فِي القرآن؛ حيث نفى الحرف والصوت، وزعم أنه الكلام النفسي، كما خالفتموه أنتم فِي إثبات صفة الفوقية للَّه ﷻ، فإنه قد صرح فِي جَميع كتبه بإثبات الاستواء والعلو، وأوضح ذلك غاية الإيضاح، كما صرح أيضًا بإثبات اليدين والوجه والعينين، وصرح بإثبات النُّزول إلَى السماء الدنيا فِي كل ليلة، وبإثبات الأصابع؛ لورود الأحاديث الصحيحة بإثبات ذلك، وصرح بأن المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، كما يرى الشمس والقمر ليس دونَهما سحاب، وصرح بإثبات المجيء والإتيان بلا نفي ولا نكران، وصرح بفساد قول

من أول الاستواء بالاستيلاء، ورمى القائلين له بالضلال وفساد الاعتقاد، وصرح بأن مذهب أهل الحديث كالإمام أحمد وغيره هو مذهبه الذي يقول به، ويدين اللَّه عليه إلَى يوم أن يلقاه، ومن أراد أن يعرف مذهب الأشعري فِي الإثبات فليرجع إلى كتابه «الإبانة» و«مقالات الإسلاميين»؛ ليظهر له أن هؤلاء الذين يتظاهرون بالانتساب إلَى مذهبه وتأخذهم حمية الجاهلية على من يخالفه؛ هم أكثر الناس مخالفة له وجهلًا بمذهبه.

❊ ❊ ❊

لَـكِـنَّـهُ قَـدْ قَـالَ إِنَّ كَـلَامَـهُ ... مَـعْـنًـى يـقُـومُ بِـرَبِّـنَـا الـرَّحْـمَـنِ

فِي الْقَوْلِ خَالَفْنَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمُ ... فِـي الْـفَـوْقِ وَالأَوْصَـافِ لِـلـدَّيَّـانِ

لِمَ كَانَ نَفْسُ خِلَافِنَا كُفْرًا وَكَا ... نَ خِلَافُكُمْ هُوَ مُقْتَضَى الإِيمَانِ

هَـذَا وَخَالَفْتُمْ لِنَصٍّ حِينَ خَا ... لَفْنَا لِرَأْيِ الْجَهْمِ ذِي الْبُهْتَانِ

وَاللهِ مَا لَكُمُ جَوَابٌ غَيرُ تَكْـ ... ـفِـيـرٍ بِـلَا عِـلْـمٍ وَلَا إِيـقَـانِ

أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لَكُمْ جَوَا ... بٌ غَيرُ ذَا الشَّكْوَى إِلَى السُّلْطَانِ

فَهْوَ الْجَوَابُ لَدَيكُمُ وَلَنَحْنُ مُنْـ ... ـتَظِرُوهُ مِنْكُمْ يَا أُولِي الْبُرْهَانِ

وَالـلـهِ لَا لِـلأَشْـعَـرِي تَـبِـعْـتُـمُ ... كَـلَّا وَلَا لِـلـنَّـصِّ بِـالإِحْـسَـانِ

يَا قَوْمُ فَانْتَبِهُوا لأَنْفُسِكُمْ وَخَلْـ ... ـلُوا الْجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ

مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالْجَهَالَةِ غَيرُ ضُحْـ ... ـكَـةِ عَـاقِـلٍ مِـنْـكُـمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

لَا تَرْتَضُوا بِرِيَاسَةِ الْبَقَرِ الَّتِي ... رُؤَسَاؤُهَا مِنْ جُمْلَةِ الثِّيرَانِ

الشرح: يعني: أن الأشعري وإن وافق السلف فِي إثبات العلو وغيره من الصفات الخبرية؛ فقد خالفهم فِي صفة الكلام، فلم يثبت إلا كلامًا نفسيًّا قائمًا بذاته تعالَى، من غير حرف ولا صوت؛ فلهذا خالفناه نَحن فِي هذه الصفة، كما خالفتموه أنتم فِي إثباته صفة الفوق وغيرها من الصفات، فلأي شيء كان خلافنا للأشعري كفرًا، وكان خلافكم أنتم له إيمانًا، مع أنكم حين خالفتموه خالفتم النص الذي تمسك هو به، ونَحن حين خالفناه كان خلافنا لما ذهب إليه من رأي الجهم ذي الكذب، فواللَّه لا تجدون على هذا الكلام جوابًا غير التكفير لنا عن جهل وحمية بلا علم ولا إيقان، لا، أستغفر اللَّه، بل لكم جواب آخر: وهو أن تجأروا بالشكوى منا إلَى السلطان، فهو جوابكم دائمًا الذي تلجئون إليه كلما أعوزتكم الحجة، وفاتكم البرهان، ونَحن دائمًا منتظروه، ومستعدون له فِي كل آن.

وأنتم والله لا للأشعري اتبعتم، فقد خالفتم ما صَرَّح به فِي سائر كتبه كما عرفتم، ولا بالنصوص من الوحيين تمسكتم، فما أحراكم أن تنتبهوا لأنفسكم، وأن تتركوا ما أنتم عليه من الجهل والدعاوى العريضة الَّتِي ليس لكم عليها برهان، ولا تظنوا أن ما تتقلبون فيه من مناصب ورئاسات يخفي جهلكم، أو يغطي عن الناس عوراتكم، فإن الرئاسة بالجهالة لا تزيد العقلاء إلا سخرية منكم، وازدراء لكم على أنكم لَمْ ترأسوا أناسًا لَهم عقول وأفهام، وإنَّما رأستم قطعانًا من البقر، وجدير بمن يترأس على البقر أن يكون من جملة الثيران.

فصل في أن أهل الحديث هم أنصار رسول الله ﷺ وخاصته ولا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر

يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الْحَدِيثِ وَشَاتِمًا ... أَبْشِرْ بِعَقْدِ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ
أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُمْ أَنْصَارُ دِيـ ... ـنِ اللهِ وَالإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَنْصَارَ الرَّسُو ... لِ هُمُ بِلَا شَكٍّ وَلَا نُكْرَانِ
هَلْ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ... أَوْ مُدْرِكٌ لِرَوَائِحِ الإِيمَانِ
شَهِدَ الرَّسُولُ بِذَاكَ وَهْيَ شَهَادَةٌ ... مِنْ أَصْدَقِ الثَّقَلَيْنِ بِالْبُرْهَانِ
أَوْمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ خَزْرَجَ دِينِهِ ... وَالأَوْسَ هُمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ
مَا ذَنْبُهُمْ إِذْ خَالَفُوكَ لِقَوْلِهِ ... مَا خَالَفُوهُ لأَجْلِ قَوْلِ فُلَانِ
لَوْ وَافَقُوكَ وَخَالَفُوهُ كُنْتَ تَشْـ ... ـهَدُ أَنَّهُمْ حَقًّا أُولُو الإِيمَانِ
لَمَّا تَحَيزْتُمْ إِلَى الأَشْيَاخِ وَانْـ ... ـحَازُوا إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
نَسَبُوا إِلَيهِ دُونَ كُلِّ مَقَالَةٍ ... أَوْ حَالَةٍ أَوْ قَائِلٍ وَمَكَانِ
هَذَا انْتِسَابُ أُولِي التَّفَرُّقِ نِسْبَةً ... مِنْ أَرْبَعٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ
فَلِذَا غَضِبْتُمْ حِينَمَا انْتَسَبُوا إِلَى ... خَبَرِ الرَّسُولِ بِنِسْبَةِ الإِحْسَانِ
فَوَضَعْتُمُ لَهُمُ مِنَ الأَلْقَابِ مَا ... تَسْتَقْبِحُونَ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ
هُمْ يُشْهِدُونَكُمُ عَلَى بُطْلَانِهَا ... أَفَتُشْهِدُونَهُمُ عَلَى الْبُطْلَانِ
مَا ضَرَّهُمْ وَاللهِ بُغْضُكُمُ لَهُمْ ... إِذْ وَافَقُوا حَقًّا رِضَا الرَّحْمَنِ

الشرح: يا من تعادي أهل الحديث وحملة علم النبوة، وتسبهم بغير حق، وتنبزهم

بألقاب السوء، هنيئًا لك ما عقدت يمينك من ولاية الشيطان ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

أتعاديهم وتشتمهم، وما علمت بأنَّهم أنصار دين اللَّه الذين يذبون عنه أعداءه من الكفار والمنافقين، وأنصار الإيمان الذين يبينونه للناس مجردًا من عقائد أهل الزيغ والمبتدعين، وأنصار القرآن، الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، وتأويل المبطلين، وأنصار رسول اللَّه ﷺ الذين يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ويدفعون عن أحاديثه سهام الطاعنين والمفترين.

فهل يبغض الأنصار عبد شم رائحة الإيمان، وقد شهد لَهم الرسول الذي هو أصدق خلق اللَّه من إنس ومن جان بأنَّهم لا يبغضهم رجل يؤمن باللَّه واليوم الآخر صادق الإيمان، ولا تحسبن أن أنصاره هم الأوس والخزرج وحدهم، بل أنصار دينه موجودون دائمًا بكل زمان.

فهل كل ذنبهم عندك أنَّهم خالفوك أيها المعطل من أجل قول نبيهم، وأنَّهم لَمْ يخالفوا قوله من أجل قول أحد من الناس؟! ولكنهم لو خالفوه ووافقوك أنت؛ كنت تشهد لَهم بكمال الإيمان.

ولما تحيزتم إلَى الشيوخ الذين قلدتموهم فِي دين اللَّه، وانحازوا هم إلَى نبيهم المبعوث بالقرآن؛ صارت نسبتهم إليه دون ما سواه من مقالة أو حالة أو قائل أو مكان، فهذه الأربعة هي نسب أهل التفرق والاختلاف، فمن أجل انتسابِهم إلَى حديث الرسول ﷺ وسنته غضبتم عليهم، ورميتموهم بالألقاب القبيحة المستهجنة، كقولكم: حشوية، ونوابت، ومشبهة، ومجسمة . . . إلخ عدوانًا منكم وظلمًا، وما يضرهم واللَّه يغضكم ولا سبكم شيئًا، ما داموا قد وافقوا رضا اللَّه باتباعهم لرسوله ﷺ.

* * *

يَا مَنْ يُعَادِيهِمْ لأَجْلِ مَآكِلٍ ... وَمَنَاصِبٍ وَرِيَاسَةِ الإِخْوَانِ

تَهْنِيكَ هَاتِيكَ الْعَدَاوَةُ كَمْ بِهَا ... مِنْ حَسْرَةٍ وَمَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

وَلَسَوْفَ تَجْنِي غِبَّهَا وَاللهِ عَنْ ... قُرْبٍ وَتَذْكُرُ صِدْقَ ذِي الإِيمَانِ

فَإِذَا تَقَطَّعَتِ الْوَسَائِلُ وَانْتَهَتْ ... تِلْكَ الْمَآكِلُ فِي سَرِيعِ زَمَانِ

فَهُنَاكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَدْمَانٍ عَلَى التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْتَ السَّيْرِ وَالإِمْكَانِ

وَهُنَاكَ تَعْلَمُ مَا بِضَاعَتُكَ الَّتِي حَصَّلْتَهَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
إِلَّا الْوَبَالُ عَلَيكَ وَالْحَسَرَاتُ وَالْـ خُسْرَانُ عِنْدَ الْوَضْعِ فِي الْمِيزَانِ
قِيلٌ وَقَالٌ مَا لَهُ مِنْ حَاصِلٍ إِلَّا الْعَنَاءُ وَكُلُّ ذِي الأَذْهَانِ
وَاللهِ مَا يُجْدِي عَلَيكَ هُنَاكَ إِلَّا ذَا الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ
وَاللهِ مَا يُنْجِيكَ مِنْ سِجْنِ الْجَحِيـ ـمِ سِوَى الْحَدِيثِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَاللهِ لَيسَ النَّاسُ إِلَّا أَهْلَهُ وَسِوَاهُمُ مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ

الشرح :ينادي المؤلف فِي هذه الأبيات علماء السوء من مقلدة المذاهب الأربعة فِي الفقه، ومذهب الأشعري فِي علم الكلام، وكانوا هم أهل الحظوة فِي دولة الجهل فِي أيامه، حيث يتولون مناصب الإفتاء والتدريس والقضاء وغيرها، وتجرى عليهم الجرايات والأحباس الكثيرة، ويتمتعون بأطيب المآكل والمشارب، ويجالسون السلاطين والأمراء، ويغرونَهم بخصومهم من أهل الحديث والسنة، فيقول لَهم: يا من تعادون أنصار السنة والتوحيد، وتحرضون عليهم أهل الجهل والظلم من الحكام والأمراء، من أجل أن يبقى لكم ما تتمتعون به من مآكل ومناصب ورياسات، هنيئًا لكم هذه العداوة للحق وأهله، فلسوف تنقلب عليكم هوانًا وحسرة ومذلة، ولسوف تجنون عاقبتها قريبًا عند الموت، وحينئذ تذكرون صدق نصيحة أهل الإيمان لكم، فإذا تقطعت بكم تلك الأسباب الَّتِي كانت مودة بينكم فِي الحياة الدنيا، وفنيت عنكم تلك المآكل اللذيذة فِي زمان قريب، وصرتم إِلَى أجداث يأكلكم فيها الدود، ويعفر وجوهكم التراب؛ فهناك تقرعون أسنانكم ندمًا، وتعضون على أيديكم غمًّا على تفريطكم فِي فسحة العمر، وفِي وقت القدرة والإمكان، وهناك تعلمون أي بضاعة فاسدة تلك الَّتِي حصلتموها فِي أيامكم الخوالي، فانقلبت عليكم وبالًا وحسرات، ونقصًا فِي ميزانكم، وزيادة فِي أوزاركم، وما هذه البضاعة الَّتِي عَنَّيْتم بِها أنفسكم طول عمركم، وأتعبتم فيها قرائحكم إلا قيل وقال، لا محصول له، ولا طائل تحته، ولا يغني عنكم من عذاب اللَّه شيئًا، بل لا ينفعكم هناك إلا استمساككم بِما جاء به الوحيان من الكتاب والسنة، ولا يخلصكم من ضيق النار وظلمتها وحرها ولظاها إلا أخذكم بالحديث ومحكم القرآن، فإن أهل الحديث والقرآن هم الناس على الحقيقة، وأما غيرهم من البشر فهم معدودون من جُملة الحيوان.

* * *

وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ بِرَّ ذِي الإِيمَانِ عَنْ قُـرْبٍ وَتَـقْـرَعُ نَـاجِـذَ الـنَّـدْمَـانِ
رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا وَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ أَهْلُ الْكَلَامِ وَمَنْطِقِ الْيُونَانِ
فَهُمُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ مُمَثِّلًا بِالْمَاءِ مَهْبِطَهُ عَلَى الْقِيعَانِ
لَا الْمَاءَ تُمْسِكُهُ وَلَا كَلأً بِهَا يَرْعَاهُ ذُو كَبِدٍ مِنَ الْحَيَوَانِ
هَذَا إِذَا لَمْ يَحْرِقِ الزَّرْعَ الَّذِي بِجِوَارِهَا بِالنَّارِ أَوْ بِدُخَانِ
وَالْجَاهِلُونَ بِذَا وَهَذَا هُمْ زَوَا نُ الزَّرْعِ إِي وَاللهِ شَرُّ زَوَانِ
وَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإِلَهِ كَمِثْلِ غَرْ سِ الدُّلْبِ بَيْنَ مَغَارِسِ الرُّمَّانِ
يَمْتَصُّ مَاءَ الزَّرْعِ مَعْ تَضْيِيقِهِ أَبَدًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ ذَا قِنْوَانِ
ذَا حَالُهُمْ مَعْ حَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْـ صَارِ الرَّسُولِ فَوَارِسِ الإِيمَانِ
فَعَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الإِلَهِ تَحِيَّةٌ وَاللهُ يُبْقِيهِ مَدَى الأَزْمَانِ

المفردات: زوان الزرع -بتثليث الزاي-: أي زينته. الدلب: -بضم الدال-: شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر. القنوان: جمع قنو، وهو العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب.

الشرح: ولسوف تذكر هناك بعد أن تفارق ما أنت فيه من طيبات الحياة ومتعها قريبًا بر أهل الإيمان، واجتهادهم فِي النصيحة لك، وتقرع أسنانك ندمًا على أنك لَمْ تكن تبعتهم فيما دعوك إليه من الاحتفاء بالوحي الذي رفعوا به رأسًا، وجعلوه لدينهم أسًّا، بخلاف أهل الكلام وأصحاب منطق اليونان، فإنَّهم لَمْ يرفعوا بذلك رأسًا، ولَمْ يقبلوا هدى اللَّه الذي جاء به نبيهﷺ، وقد ضرب الرسول لَهم مثلًا[1] بالغيث، ينْزل على أرض سبخة، إنَّما هي قيعان، لا تمسك ماء ليشرب منه الزرع والحيوان، ولا تنبت كلأ ليرعاه بَهيمة الأنعام، هذا إذا اقتصر ضررها عليها، ولَمْ تحرق ما يجاورها من الزرع بنارها ودخانِها، وأما الجاهلون بالوحي وغيره من أبواب العلم، فهم كرواء الزرع وزينته، شر زوان؛ لأنَّهم مع

---

(١) في الحديث الصحيح: «إن مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء؛ فنفع اللَّه به الناس فسقوا وزرعوا، وكان منها طائفة أخرى إنما هي قيعان؛ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين اللَّه، ونفعه ما بعثني اللَّه به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به».

قلة فائدتهم ممتصون ماء الزرع، ويضيقون عليه، ويمنعون عنه الهواء والشمس، فهم مع غرس اللَّه من الإيمان والهدى فِي القلب، كمثل شجر الدلب تراه ضخمًا عظيم الورق مع أنه لا زهر له ولا ثمر، فإذا كان بين أشجار الرمان؛ فإنه يمتص منها الماء، فلا يصل إليها، ويضيق بضخامته عليها، فلا تنمو فروعها، ولا تبسق أغصانُها.

فهذا حال هؤلاء الجهلاء مع حال أهل العلم أنصار الرسول وفوارس الإيمان من أمثال شيخ المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فعليه تحية من اللَّه مباركة طيبة، فسلام اللَّه عليه ورحمته، واللَّه يبقيه مدى الأزمان لسان صدق لدعوة الحق، يذود عنها كيد المضلين، وأكاذيب المفترين.

* * *

لوْلَاهُ مَا سُقِي الْغِرَاسُ فَسَوْقُ ذَا ... كَ الْمَاءِ لِلدُّلْبِ الْعَظِيم الشَّانِ

فَالْغَرْسُ دُلْبٌ كُلُّهُ وَهْوَ الَّذِي ... يُسْقَى وَيُحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِ

فَالْغَرْسُ فِي تِلْكَ الْحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْلَ الْمِيَاهِ مَصَارُهُ الْبُسْتَانِ

لَكِنَّمَا الْبَلْوَى مِنَ الْحَطَّابِ قَطْ ... طَاعِ الْغِرَاسِ وَعَاقِرِ الْحِيطَانِ

بِالْفُوسِ يضْرِب فِي أُصُولِ الْغَرْس كَي ... يَجْتَثَّهَا وَيُظَنُّ ذَا إِحْسَانِ

وَيظَلُّ يحْلِفَ كَاذِبًا لَمْ أَعْتَمِدْ ... فِي ذَا سِوَى التَّثْبِيتِ لِلْعِيدَانِ

يَا خَيْبَةَ الْبُسْتَانِ مِنْ حَطَّابِهِ ... مَا بَعْدَ ذَا الْحَطَّابِ مِنْ بُسْتَانِ

فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى الْبُسْتَانِ فَهْـ ... ـوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْعِ كُلَّ أَوَانِ

فَالْجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْـ ... ـعُلَمَاءُ سَادَتُهُمْ أُولُو الإِحْسَانِ

وَالْجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلَا ... لِ وَشِيعَةُ الْكُفْرَانِ وَالشَّيطَانِ

وَشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُمْ شَرُّ خَلْـ ... ـقِ اللَّهِ آفَةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

الشرح: يقول: إنه لولا أن قيض اللَّه له شيخ الإسلام يبثه من علمه الغزير، ويرشده إلَى الطريق القويم؛ لما سقي غراس قلبه بماء العلم والإيمان، فإن الماء كله كان يساق للدلب الضخم العظيم الشأن فيمتصه، ولا ينتفع به أحد، وقد كان الغراس فِي هذه الأيام كله دلبًا ما عدا شيخ الإسلام، فقد كان هو الذي يسقي ويحفظ فِي علماء عصره، فالغرس فِي تلك الحضارة كان يشرب فضل المياه الَّتِي تفيض من البستان، وهذا كله هين قليل

ضرره، ولكن البلوى كل البلوى فِي ذلك الحطاب الذي لا يهدأ قلبه حَتَّى يقطع الغراس، ويدمر البستان، فهو عامل فأسه فِي أصول الشجرة بقوة؛ ليجتثها من مغارسها، ويظن مع ذلك أنه ذو إحسان فيما يفعل، وإذا نُهي عن هذا الفساد والتدمير؛ أخذ يقسم باللَّه جهد أيمانه: إنه لَمْ يقصد بذلك إلا تثبيت العيدان فِي مغارسها، فيا ويل هذا البستان من حطابه الذي لا يريد أن يبقي منه ولا يذر، حَتَّى يجعله صعيدًا جرزًا؛ لأن قلبه مملوء بالحقد على ذلك البستان، فكأنه موكل بقطعه وتخريبه كل أوان، فالجاهلون من أهل الحق هم شرارهم، وساداتُهم وخيارهم هم العلماء أهل الفضل والإحسان، وأما الجاهلون من أهل الضلالة فهم خيارهم؛ لأن ضررهم أخف، أما علماؤهم فهم شر خلق اللَّه، وهم آفة هذا الوجود كله، والساعون فيه بالفساد.

فصل في تعين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته كما كانت فرضًا من الأمصار إلى بلدته عليه السلام

يَا قَوْمُ فَرْضُ الْهِجْرَتَينِ بِحَالِهِ ... وَاللهِ لَمْ يُنْسَخْ إِلَى ذَا الآنِ

فَالْهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

حَتَّى يكُونَ الْقَصْدُ وَجْهَ اللهِ بِالْـ ... أَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالإِيمَانِ

وَيكُونُ كُلُّ الدِّينِ لِلرَّحْمَنِ مَا ... لِسِوَاهُ شَيءٌ فِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ اللَّذَانِ هُمَا ... لِكُلِّ وَلَايَةٍ وَعَدَاوَةٍ أَصْلَانِ

للهِ أَيضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْـ ... مَنْعُ اللَّذانِ عَلَيهِمَا يقِفَانِ

وَاللهِ هَذَا شَطْرُ دِينِ اللَّهِ وَالتَّـ ... ـحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِ

وَكِلَاهُمَا الإِحْسَانُ لَنْ يَتَقَبَّلَ الرَّ ... حْمَنُ مِنْ سَعْيٍ بِلَا إِحْسَانِ

وَالْهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْـ ... إِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

أَتَرَوْنَ هَذِي هِجْرَةَ الأَبْدَانِ لَا ... وَاللهِ بَلْ هِي هِجْرَةُ الإِيمَانِ

قَطْعُ الْمَسَافَةِ بِالْقُلُوبِ إِلَيهِ فِي ... دَرْكِ الأُصُولِ مَعَ الْفُرُوعِ وَذَانِ

أَبَدًا إِلَيهِ حُكْمُهَا لَا غَيرُهُ ... فَالْحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ

الشرح: صح عنه ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية،

وإذا استنفرتم فانفروا» . فهذه الهجرة من مكة إِلَى المدينة الَّتِي كانت فرضًا فِي أول الأمر قد بطل حكمها بالفتح ؛ لأن مكة أصبحت بعده دار إسلام ، ولكن هناك هجرتين فرضيتهما باقية بحالها ، وحكمهما ماض إِلَى يوم القيامة ، لا يلحقه نسخ أبدًا .

الأولى منهما : الهجرة إِلَى اللَّه ﷻ بإخلاص العبادة له فِي السر والعلانية ، حَتَّى لا يقصد بقوله وعمله وإيمانه إلا وجه اللَّه ، وحَتَّى يخلص دينه كله للَّه ، لا يجعل لغيره شركة معه فِي شيء منه ، وحَتَّى يكون حبه وبغضه للَّه ، وكذلك ما يترتب عليهما من الموالاة والمعاداة ، فيوالي من والى اللَّه ، ويكون أيضًا إعطاؤه ومنعه للَّه ، وفِي الحديث الصحيح : **«من أحب للَّه ، وأبغض للَّه ، وأعطى للَّه ، ومنع للَّه ؛ فقد استكمل الإيمان»** .

فهذا الإخلاص للَّه فِي السر والعلانية ، وتجريد القصد له من كل شائبة ؛ هو نصف الدين وجزؤه الباطن ، وأما نصفه الثاني فهو التحكيم لرسول اللَّه ﷺ ، والرضا بحكمه ، وحسن متابعته ، وموافقته فِي كل ما شرعه بلا زيادة ولا نقص ، وكلا هذين الشطرين هو الإحسان الذي لن يتقبل اللَّه عملًا بدونه .

وأما الهجرة الثانية : فهي الهجرة إِلَى رسول اللَّه ﷺ ، الذي بعثه اللَّه بالإسلام والإيمان والإحسان الَّتِي هي مراتب الدين كله ، وهي الَّتِي وقع السؤال عنها فِي حديث جبريل عليه السلام ، وليست هذه هجرة بالأبدان ، فقد مضى أوان هذه الهجرة ، ولكنها هجرة بالإيمان ، وهي السير إليه بالقلوب والأرواح ؛ ليأخذ عنه أصول الدين وفروعه جميعًا ، فإن الحكم فِي كل منهما ليس إلا له وحده ، وليس لغيره أن يحكم فِي شيء من الدين لا أصلًا ولا فرعًا ، فالحكم هو ما ورد به النصان من السنة والقرآن .

* * *

يَا هِجْرَةً طَالَتْ مَسَافَتُهَا عَلَى ... كَسْلَانَ مَنْخُوبِ الْفُؤَادِ جَبَانِ
يَا هِجْرَةً وَالْعَبْدُ فَوْقَ فِرَاشِهِ ... سَبَقَ السُّعَاةَ لِمَنْزِلِ الرِّضْوَانِ
سَارُوا أَحَثَّ السَّيرِ وَهْوَ فَسَيرُهُ ... سَيرُ الدَّلَالِ وَلَيسَ بِالذَّمَلَانِ
هَذَا وَتَنْظُرُهُ أَمَامَ الرَّكْبِ كَالْـ ... ـعَلَمِ الْعَظِيمِ يُشَافُ فِي الْقِيعَانِ
رُفِعَتْ لَهُ أَعْلَامُ هَاتِيكَ النُّصُو ... صِ رُءُوسُهَا شَابَتْ مِنَ النِّيرَانِ
نَارٌ هِيَ النُّورُ الْمُبِينُ وَلَمْ يَكُنْ ... لِيَرَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ عَينَانِ
مَكْحُولَتَانِ بِمِرْوَدِ الْوَحْيَينِ لَا ... بِمَرَاوِدِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانِ

فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَا لَمْ يلْتَفِتْ ... لَا عَنْ شَمَائِلِهِ وَلَا أَيمَانِ
يَا قَوْمُ لَو هَاجَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... أَعْلَامَ طَيْبَةَ رُؤْيَةً بِعِيَانِ
وَرَأَيْتُمُ ذَاكَ اللِّوَاءَ وَتَحْتَهُ الرْ ... رُسْلُ الْكِرَامُ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
أَصْحَابُ بَدْرٍ وَالأُلَى قَدْ بَايعُوا ... أَزْكَى الْبَرِيةِ بَيعَةَ الرِّضْوَانِ
وَكَذَا الْمُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبَقُوا كَذَا الْ ... أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ
وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا ... لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

الشرح وهذه الهجرة إلَى رسول اللَّه ﷺ لا يستطيع قطع مسافتها وبلوغ غايتها إلا من جرد لَهَا ركائب عزمه، وتوجه إليها بكل همه، ولَمْ يلتفت إلَى شيء مما يعوقه فِي سيره من تقليد لمذهب، أو تعصب لرأي، أو استحسان لبدعة، ولكن مسافتها تطول وتطول جدًّا على من خصهم اللَّه بالحرمان والخذلان، فصرف قلوبَهم عنها، وكره انبعاثهم إليها، فثبطهم، وقال: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فهي هجرة لا ينالها أبدًا كسلان، ولا يقوى عليها كل رعديد الفؤاد جبان، وهي هجرة لا تحتاج أن تعد لها زادًا وراحلة، وتضرب فِي بيد الأرض وقفارها، بل قد يقوم بِها العبد وهو نائم على فراشه، ويسبق فِي مضمارها الساعين إلَى منازل الرحْمة والرضوان، الذين يغذون السير جاهدين، تخب بِهم مطاياهم، وأما هو فيسير سيرًا لينًا رفيقًا، ولكنك تراه مع ذلك قد سبق الركب وسار أمامهم، كأنه الجبل العظيم يراه من فِي القاع تحته، وإنَّما هيأ له السبق فِي المضمار أنه نشرت له أعلام النصوص، وفِي رءوسها أوقدت نيران، هي النور المبين لهداية السالك الحيران، ولكن لا يراها إلا من كانت له عينان بمراود الوحي مكتحلتان، لا بمراود أهل الفشر والهذيان، فلما رآها هرع نحوها، وجرد السعي إليها، فلم يلتفت عنها يمينًا ولا شمالًا حَتَّى بلغها، وأدرك عندها بغيته، وحقق أمله.

فيا أيها المخذولون المحرومون، لو كنتم معنا فِي هذه الهجرة لرأيتم أعلام طيبة بأعينكم قائمة منصوبة، تَهدي الضال، وترشد الحيران، ولرأيتم ذاك اللواء العظيم بيد رسول اللَّه ﷺ تحته كل عبد للَّه صالح من الأنبياء والرسل الكرام، وأصحاب مُحمَّد الذين هم عسكر القرآن وجند الإسلام من أصحاب بدر الكبرى، وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة أزكى الخليقة وأطهرها عليه السلام ثُمَّ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ثُمَّ التابعين لَهم بإحسان ثُمَّ كل من سلك سبيلهم، واقتفى أثرهم فِي كل عصر وزمان.

لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالأَمَانِي وَابْتُلِيـ ـتُمْ بِالْحُظُوظِ وَنَصْرَةِ الإِخْوَانِ
بَلْ غَرَّكُمْ ذَاكَ الْغَرُورُ وَسَوَّلَتْ لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيطَانِ
وَنَبَذْتُمُ غَسْلَ النُّصُوصِ وَرَاءَكُمْ وَقَنِعْتُمُ بِقُطَارَةِ الأَذْهَانِ
وَتَرَكْتُمُ الْوَحْيَينِ زُهْدًا فِيهِمَا وَرَغِبْتُمُ فِي رَأْيِ كُلِّ فُلَانِ
وَعَزَلْتُمُ النَّصَّينِ عَمَّا وُلِّيَا لِلْحُكْمِ فِيهِ عَزْلَ ذِي عُدْوَانِ
وَزَعَمْتُمُ أَنْ لَيسَ يحْكُمُ بَينَنَا إِلَّا الْعُقُولُ وَمَنْطِقُ الْيونَانِ
فَهُمَا بِحُكْمِ الْحَقِّ أَوْلَى مِنْهُمَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الْغِطَاءُ وَحُصِّلَتْ أَعْمَالُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْمِيزَانِ
وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الْغُبَارُ وَصَارَ مَيْـ ـدَانُ السِّبَاقِ تَنَالُهُ الْعَينَانِ
وَبَدَتْ عَلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ سِمَاتُهَا وَسْمَ الْمَلِيكِ الْقَادِرِ الدَّيَّانِ
مُبْيَضَّةٌ مِثْلَ الرِّيَاضِ بِجَنَّةٍ وَالسُّودُ مِثْلَ الْفَحْمِ لِلنِّيرَانِ
فَهُنَاكَ يَعْلَمُ رَاكِبٌ مَا تَحْتَهُ وَهُنَاكَ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ
وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا الَّذِي مَعَهَا مِنَ الأَرْبَاحِ وَالْخُسْرَانِ
وَهُنَاكَ يعْلَمُ مُؤْثِرُ الآرَاءِ وَالشْـ ـشَطَحَاتِ وَالْهَذَيَانِ وَالْبُطْلَانِ
أَي الْبَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَا الَّذِي مِنْهَا تَعَوَّضَ فِي الزَّمَانِ الْفَانِي

الشرح: لكن قعدتم عن تلك الهجرة، وبؤتم بالخسران والخيبة؛ لأنكم رضيتم بالأماني الباطلة، وابتليتم بحب الحظوظ العاجلة، وشغلتم بنصرة الإخوان عن السير إِلَى الرحْمن، وغركم باللّٰه الغرور، وزينت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء الجري وراء ما وسوست لكم به الشياطين، وطرحتم وراءكم غسل النصوص طاهرًا نقيًا، ورحتم تلتمسون رذاذ الأذهان الكدر، الذي لا يذهب درنًا، ولا يحدث ريًا، وهجرتم الوحيين رغبة عنهما، واستثقالًا لهما، ثُمَّ رغبتم فيما أحدث الناس من مذاهب وآراء، وعزلتم النصين من الكتاب والسنة عما جعلت لهما الولاية عليه للحكم فيه عزل معتد ظالم سفيه، وزعمتم أنَّها لا تصلح للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وإنَّما يصلح للحكم بينهم مقررات العقول وأدلة منطق اليونان، فهما أولى من النصين بالحكم فِي هذا الشأن، فسبحانك اللَّهم ذا السبحان، ونبرأ إليك من هذا الإفك والبهتان.

فهذا شأنكم فِي الدنيا غفلة وغرور، وجري وراء الأوهام، وتسل بالأماني والأحلام، حَتَّى إذا انكشف عنكم الغطاء بالموت، وعاينتم الحقائق، ونصبت موازين الأعمال، وانجلى الغبار عن المتسابقين، وانكشف ميدان السباق للناظرين، وبدت على وجوه أهل الحق سماتُها الَّتِي وسمها بِها المليك المقتدر، وجاءت مبيضة مسفرة، ضاحكة مستبشرة، كأنَّها أزاهير الرياض فِي الجنة، وجاءت وجوه أخرى مسودة كالحة، عليها غبرة، ترهقها قترة؛ فهناك يتميز الفريقان، ويعلم كل راكب ما الذي تحته من أعمال، تسعى به إلَى ما أعد له من مآل، وهناك أيضًا تعلم كل نفس مقدار الربح والخسارة فِي تجارتِها، ويعلم المعرض عن الوحيين، المؤثر عليهما آراء الناس وباطلهم وشطحاتِهم وهذيانَهم، أي البضائع النفيسة والجواهر الثمينة قد أضاع، وما الذي استبدله بِها، وتعوض به عنها فِي حياته الأولى الفانية.

* * *

سُبْحَانَ رَبِّ الْخَلْقِ قَاسِمِ فَضْلِهِ ... وَالْعَدْلِ بَينَ النَّاسِ بِالْمِيزَانِ

لَوْ شَاءَ كَانَ النَّاسُ شَيئًا وَاحِدًا ... مَا فِيهِمُ مِنْ تَائِهٍ حَيرَانِ

لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَصُّ بِالْـ ... فَضْلِ الْعَظِيمِ خُلَاصَةَ الإنْسَانِ

وَسِوَاهُمُ لَا يَصْلُحُونَ لِصَالِحٍ ... كَالشَّوْكِ فَهْوَ عِمَارَةُ النِّيرَانِ

وَعِمَارَةُ الْجَنَّاتِ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى ... اللهُ أَكْبَرُ لَيسَ يَسْتَوِيَانِ

فَسَلِ الْهِدَايَةَ مَنْ أَزِمَّةُ أَمْرِنَا ... بِيَدَيْهِ مَسْأَلَةَ الذَّلِيلِ الْعَانِي

وَسَلِ الْعِيَاذَ مِنَ اثْنَتَينِ هُمَا اللَّتَا ... نِ بِهُلْكِ هَذَا الْخَلْقِ كَافِلَتَانِ

شَرُّ النُّفُوسِ وَسَيِّئُ الأَعْمَالِ مَا ... وَاللهِ أَعْظَمُ مِنْهُمَا شَرَّانِ

وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا ... فِي خُطْبَةِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

لَوْ كَانَ يَدْرِي الْعَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُمَا الشَّرَّانِ

جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دِيدَانَهُ ... حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

وَسَلِ الْعِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالْهَوَى ... فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

وَهُمَا يَصُدَّانِ الْفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ ... قِ الْخَيرِ إذْ فِي قَلْبِهِ يَلِجَانِ

فَتَرَاهُ يَمْنَعُهُ هَوَاهُ تَارَةً ... وَالْكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَشْتَرِكَانِ

وَاللهِ مَا فِي النَّارِ إِلَّا تَابِعٌ ... هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ
وَاللهِ لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَكَ مِنْهُمَا ... لأَتَتْ إِلَيكَ وُفُودُ كُلِّ تَهَانِ

الشرح: فسبحان اللَّه رب الخلق، الحكم العدل الذي حكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، فجعلهم فريقين: فريقًا فِي الجنة بفضله، وفريقًا فِي السعير بعدله، فهو قاسم فضله وعدله بين الناس بالميزان السوي الذي لا يضل ولا يجور، ولو شاء لجعلهم جميعًا أمة واحدة متفقة على الحق والإيمان، وليس فيهم من ضال شقي، ولا تائه حيران، ولكنه سبحانه يختص بفضله العظيم من يشاء من خلقه ممن علم أنَّهم للخير أهل، وللفضل محل، من خاصة الناس وخيارهم الذين حققوا إنسانيتهم، وأدركوا الغاية من وجودهم، وقاموا للَّه بحقه عليهم فِي العبودية الكاملة، واستجابوا له حين دعاهم على ألسنة رسله، وعظموا أمره ونَهيه، وأخلصوا دينهم له، وأما سواهم من الناس ممن عاشوا فِي هذه الدنيا هملًا، وعطلوا المواهب والملكات الَّتِي أودعها اللَّه فيهم، ولَمْ يعرفوا لوجودهم غاية، فهم لا يصلحون لشيء من الصالحات، كمثل الشوك الذي لا يصلح إلا حطبًا للنار ووقودًا.

وأما عمار الجنة وسكانُها فهم أهل الهدى، الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يقولون: سلام عليكم، ادخلوا الجنة بِما كنتم تعملون.

فاللَّه أكبر لا يستوي الفريقان أبدًا، أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨- ٢٠].

فاطلب الهدى ممن بيده مقاليد الأمور وأزمة القلوب سبحانه، واسأله سؤال الخاشع الذليل المسكين الفقير أن يفتح قلبك على الهدى، ويثبته على دينه، واستعذ به من خصلتين اثنتين بِهما هلك أكثر الخلق: وهما شر النفوس، وسيئات الأعمال.

فلا شر أعظم منهما؛ ولِهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يستعيذ منهما فِي خطبه، حيث كان يفتتح خطبه بقوله: «**إن الحمد للَّه، نحمده، ونستعينه، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**».

فلو كان يعرف العبد أن بلاءه ومصيبته فِي هذه الدنيا ينبع من هذين الشرين، لجعل التعوذ منهما شغله الشاغل، ووِرده الدائم حَتَّى يدرج فِي أكفانه.

وسَلِ اللَّه كذلك أن يعيذك من أمرين قد صدًّا أعظم الخلق عن اتباع الحق، وهما الكبر والهوى، فهما جامعان لكل شر، وإذا ولجا قلب العبد سدًّا عنه كل مسالك الخير وطرقه، فالكبر حجاب مانع من قبول الحق قد صد عنه ما لا يحصى من الخلق، كما نطقت بذلك آيات الكتاب.

قال تعالَى فِي سورة النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وقال من سورة الأعراف: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال من سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. وقال من نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال من سورة الأحقاف: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. إلَى غير ذلك من الآيات الَّتِي تدل أوضح دلالة على أن الذي صد هؤلاء المجرمين عن قبول الحق والانقياد له هو كبرهم، وهو الذي أدخلهم النار.

وفِي الحديث الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان فِي قلبه مثقال ذرة من كبر**. فقال رجل: يا رسول اللَّه، إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فهل ذلك من الكبر؟ قال: **لا؛ إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**».

وأما الهوى فقد ذكر القرآن أنه إله يعبد من دون اللَّه، قال تعالَى فِي سورة الفرقان: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]. وقال فِي سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فترى العبد يمنعه هواه تارة، ويمنعه كبره تارة ثُمَّ قد يجتمعان ويشتركان فيه، فيصدر ما يصدر عن كبره وهواه، فيكون قد بلغ من السوء والشر غايته ومنتهاه، والعياذ باللَّه.

ولو أنك سألت كل واحد من أهل النار عما سلكه فِي سقر، وأرداه فِي جهنم؛ لَمْ تجده

إلا تابعًا لواحد من هذين أو لهما جميعًا، ولو أنك اجتهدت في تجريد نفسك منهما، فنفيت عن قلبك الكبر، ولَمْ تتبع في دينك الهوى، لبلغت كل ما تؤمل من خير، وجاءتك وفود التهنئة تترى، تزف إليك البشرى بما ظفرت به من فوز ورضوان.

فصل في ظهور الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة المعطلين

وَالْفَرْقُ بَيـنَ الدَّعْوَتَيْنِ فَظَاهِرٌ ... جِـدًّا لِـمَـنْ كَـانَـتْ لَـهُ أُذُنَـانِ
فَـرْقٌ مُـبِـيـنٌ ظَـاهِـرٌ لَا يـخْـتَـفِـي ... إِيـضَـاحُـهُ إِلَّا عَـلَـى الْـعُـمْـيَـانِ
فَـالـرُّسْلُ جَاءُونَـا بِـإِثْـبَـاتِ الْـعُـلُـوْ ... وِ لِـرَبِّـنَـا مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَـكَـانِ
وَكَـذَا أَتَـوْنَـا بِـالـصِّـفَـاتِ لِـرَبِّـنَـا الرْ ... رَحْـمَـنِ تَـفْـصِـيـلًا بِـكُـلِّ بَـيَـانِ
وَكَـذَاكَ قَـالُـوا إِنَّـهُ مُـتَـكَـلِّـمٌ ... وَكَـلَامُـهُ الْـمَـسْـمُـوعُ بِـالآذَانِ
وَكَـذَاكَ قَـالُـوا إِنَّـهُ سُـبْـحَـانَـهُ الْـ ... ـمَـرْئِـيُّ يَـوْمَ لِـقَـائِـهِ بِـعِـيَـانِ
وَكَـذَاكَ قَـالُـوا إِنَّـهُ الْـفَـعَّـالُ حَـقْـ ... ـقًـا كُـلَّ يَـوْم رَبُّـنَـا فِـي شَـانِ
وَأَتَـيْـتُـمُـونَـا أَنْـتُـمُ بِـالـنَّـفْـيِ وَالـتْـ ... ـتَـعْـطِـيـلِ بَـلْ بِـشَـهَـادَةِ الْـكُـفْـرَانِ
لِـلْـمُـثْـبِـتِـيـنَ صِـفَـاتِـهِ وَعُـلُـوَّهُ ... وَنِـدَاءَهُ فِـي عُـرْفِ كُـلِّ لِـسَـانِ
شَـهِـدُوا بِـإِيـمَـانِ الْـمُـقِـرِّ بِـأَنَّـهُ ... فَـوْقَ الـسَّـمَـاءِ مُـبَـايِـنُ الأَكْـوَانِ
وَشَـهِـدْتُـمُ أَنْـتُـمْ بِـتَـكْـفِـيـرِ الَّـذِي ... قَـدْ قَـالَ ذَلِـكَ يَـا أُولِـي الْـعُـدْوَانِ

الشرح: والفرق بين ما تدعون إليه من النفي والتعطيل وبين دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: ظاهر جد الظهور لمن ألقى سمعه، وكان له أذنان واعيتان، وهو من الوضوح والظهور بحيث لا يخفى ولا يلتبس إلا على العميان، فالرسل ﷺ قد اتفقت كلمتهم بأن اللَّه سبحانه فوق عرشه، بائن من خلقه، وأن الوحي ينْزل عليهم من عنده.

وكذلك: جاءوا بإثبات صفات الكمال للَّه سبحانه على جهة التفصيل، وبينوها أوضح بيان، وما منهم من أحد إلا عرف أمته بما يجب أن تعرفه من صفات اللَّه ﷻ.

وكذلك: أثبتوا أنه متكلم بكلام، هو حروف وأصوات مسموعة بالآذان، وأن الذي يتلونه على الناس هو كلام اللَّه تعالَى، لا كلام غيره، تكلم به بصوت نفسه، وكذلك أخبروا أنه سبحانه سيرى يوم القيامة رؤية حقيقية بالأبصار، وبشر كل رسولٍ المؤمنين من أمته

بأنَّهم سيرون ربَّهم فِي الجنة، كما يرى الشمس والقمر ليس دونَهما سحاب ولا ضباب.

وكذلك قالوا: إنه حي فعال، وأن الفعل من صفات الكمال الَّتِي لا يصح تعطيله عنها فِي حال من الأحوال، فهو لَمْ يزل سبحانه فعالًا كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

هذه هي دعوة الرسل كلهم، وهي صريحة فِي إثبات الصفات، وأما أنتم فعلى النقيض من ذلك، جئتمونا بالنفي والتعطيل، والإلحاد والتأويل، بل وزدتم على ذلك أنكم تشهدون بالكفر على من يثبت الصفات، ويثبت للَّه العلو فوق جَميع المخلوقات، ويثبت له النداء بحروف وأصوات، فالرسل يشهدون بالإيمان لمن أقرَّ بعلوه سبحانه فوق جَميع الأكوان، ولكنكم أنتم تشهدون عليه بالكفران يا أمة الظلم والعدوان.

* * *

وَأَتَى بِأَيْنَ اللهُ إِقْرَارًا وَنُطْـ ... قًا قُلْتُمُو هَذَا مِنَ الْبُهْتَانِ

فَسَلُوا لَنَا بِالأَيْنِ مِثْلَ سُؤَالِنَا ... مَا الْكَوْنُ عِنْدَكُمْ هُمَا شَيئَانِ

وَكَذَا أَتَوْنَا بِالْبَيَانِ فَقُلْتُمُ ... بِاللُّغْزِ أَيْنَ اللُّغْزُ مِنْ تِبْيَانِ

إِذْ كَانَ مَدْلُولُ الْكَلَامِ وَوَضْعُهُ ... لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ

وَالْقَصْدُ مِنْهُ غَيرُ مَفْهُوم بِهِ ... مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلَّا ذَانِ

يَا قَوْمِ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ ... وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ

أَتَرَوْنَهُمْ قَدْ أَلْغَزُوا التَّوْحِيدَ إِذْ ... بَيَّنْتُمُوهُ يَا أُولِي الْعِرْفَانِ

أَتَرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ ... وَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ

وَلأَيِّ شَيءٍ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ مَا ... قَدْ قُلْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

وَلأَيِّ شَيءٍ صَرَّحُوا بِخِلَافِهِ ... تَصْرِيحَ تَفْصِيلٍ بِلَا كِتْمَانِ

وَلأَيِّ شَيءٍ بَالَغُوا فِي الْوَصْفِ بِالْـ ... إِثْبَاتِ دُونَ النَّفْيِ كُلَّ زَمَانِ

الشرح: وأتى الرسول ﷺ بلفظ: «الأين» الذي يسأل به عن المكان، مرة إقرارًا، حيث أقر السائل الذي قال له: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ ومرة نطقًا حيث سأل الجارية الَّتِي أراد سيدها أن يعتقها بقوله: «أين اللَّه؟». ولكنكم أنتم تجعلون السؤال بالأين كذبًا وبُهتانًا؛ لأنه إثبات للمكان، وتقولون: إن معنَى قوله: «أين اللَّه؟» فِي الحديث «ما اللَّه!»، فتجعلون السؤال بالأين مثل السؤال بِما، مع أنَّهما شيئان مختلفان،

فإن «ما» يسأل بِها عن الحقيقة، وأما «أين» فيسأل بِها عن المكان.

وكذلك: أتى الرسل ﷺ بالبيان الواضح الصريح، ولكنكم تقولون: إنَّهم عمدوا إلَى الإلغاز والتعمية، ولَمْ يبينوا الحق الذي يجب على الناس اعتقاده. فأين يا قوم الإلغاز من البيان، وهل هما إلا ضدان لا يجتمعان، إن الإلغاز فِي الكلام لا يتم إلا بأمرين:

أحدهما: ألَّا يقصد من اللفظ معناه الذي يدل عليه بوضع اللغة.

وثانيهما: أن يكون المقصود من اللفظ مما لا يفهم من اللفظ عند إطلاقه، فهذا هو الإلغاز الذي يعرفه الناس، فهل كلام الرسل كذلك؟!

يا قوم ألا تستحيون من وصف كلام الرسل الذين بعثوا للبيان بالأحاجي والإلغاز، وهم أعرف منكم بالحق الذي يدعون إليه، وأتم نصحًا للخلق وإرشادًا لَهم، وشفقة عليهم، وأقدر منكم على البيان والأداء لما يريدونه من معان، فهل ترونَهم قد ألغزوا فِي التوحيد، وقصروا فِي بيانه، حَتَّى جئتم أنتم فبينتموه؟!

أم ترونَهم قد أظهروا التشبيه الذي هو عندكم قرين عبادة الأوثان، حَتَّى جئتم أنتم فدللتم الناس على التنْزيه؟!

فإذا كان الحق هو ما قلتم أنتم، فلأي شيء لَمْ يقولوا هم بمثل ما قلتم فِي حق اللَّه ﷻ! ولأي شيء صرحوا هم بخلاف ما قلتم تصريحًا مفصلًا لا كتمان فيه ولا إجمال ولا اشتباه؟! بل ولأي شيء بالغوا فِي الإثبات الذي هو عندكم تجسيم وتشبيه، كما بالغتم أنتم فِي النفي والتعطيل بحجة التنْزيه؟!

* * *

وَلأَيِّ شَيءٍ أَنْتُمُ بَالَغْتُمُ ... فِي النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ بِالْقُفْزَانِ

فَجَعَلْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلًا ... تَفْصِيلَ نَفْيِ الْعَيبِ وَالنُّقْصَانِ

وَجَعلْتُمُ الإثْبَاتَ أَمْرًا مُجْمَلًا ... عَكْسَ الَّذِي قَالُوهُ بِالْبُرْهَانِ

أَتَرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَانِ وَاسْـ ... تَوْلَيتُمُ أَنْتُمْ عَلَى التِّبْيَانِ

أَتَرونَ أَفْرَاخَ الْيهُودِ وَأُمَّةَ التْـ ... تَعْطِيلِ وَالْعُبَّادَ لِلنِّيرَانِ

وَوَقَاحَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... مَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإيمَانِ

مِنْ كُلِّ جَهْمِي وَمُعْتَزِلٍ وَمَنْ ... وَالاهُمَا مِنْ حِزْبِ جَنْكِسْخَانِ

بِاللهِ أَعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْلِ وَالتْ ... تَـوْرَاةِ وَالإِنْـجِـيـلِ وَالْـقُـرْآنِ
فَـسَـلُـوهُـمُ بِـسُـؤَالِ كُـتْـبِـهِـمُ الَّـتِـي ... جَـاءُوا بِـهَـا عَـنْ عِـلْـمِ هَـذَا الـشَّـانِ
وَسَـلُـوهُـمُ هَـلْ رَبُّـكُـمْ فِـي أَرْضِـهِ ... أَوْ فِـي الـسَّـمَـاءِ وَفَـوْقَ كُـلِّ مَـكَـانِ
أَمْ لَـيـسَ مِـنْ ذَا كُـلِّـهِ شَـيءٌ فَـلَا ... هُـوَ دَاخِـلٌ أَوْ خَـارِجُ الأَكْـوَانِ
فَـالْـعِـلْـمُ وَالـتِّـبْـيَـانُ وَالـنُّـصْـحُ الَّـذِي ... فِـيـهِـمْ يـبـيِّـنُ الْـحَـقَّ كُـلَّ بَـيَـانِ
لَـكِـنَّـمَـا الإِلْـغَـازُ وَالـتَّـلْـبِـيـسُ وَالْـ ... كِـتْـمَـانُ فِـعْـلُ مُـعَـلِّـمِ الـشَّـيْـطَـانِ

الشرح: ولأي شيء بالغتم أنتم فِي النفي والتعطيل، ووفيتموه كيلًا، وتقصيتم فيه تقصيًا، فجعلتم نفي الصفات مفصلًا، فقلتم: ليس بكذا، ولا كذا، ولا كذا إِلَى آخر ما أوردتموه من صفات السلوب الَّتِي فصلتم فيها القول، كالتفصيل فِي نفي النقائص والعيوب، ثُمَّ جعلتم الإثبات أمرًا مجملًا عكس ما قاله الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فهل عجز الرسل عن بيان هذه السلوب وتفصيلها، وقدرتم أنتم على هذا البيان؟! أم تظنون أن هؤلاء الحيارى المنهوكين من أفراخ اليهود الضالين وأمة التعطيل من الزنادقة الملحدين والمجوس عباد النار الثنويين وأراذل أهل الكلام الباطل الذي ذمه كل إمام فاضل من أئمة الإيمان والدين، من هؤلاء الجهمية والمعتزلة وكل من شايعهما فِي التجهم والنفي والإلحاد والتعطيل، هل تظنون أن هؤلاء جميعًا أعلم باللَّه سبحانه من جَميع رسله الذين بعثهم بالبينات والهدى، ومن جَميع كتبه الَّتِي أنزلها للناس شفاء ورحمة من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وغيرها؟!

فسلوا هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بسؤال كتبهم الَّتِي جاءوا بِها من عند اللَّه عن علم هذه الأمور، حَتَّى تعرفوا إن كان كلامهم فِي جانب النفي، أم فِي جانب الإثبات؟

وسلوهم عن ربِّهم أين هو؟ هل هو فِي أرضه أم فِي السماء فوق جَميع خلقه؟ أم ليس هو فِي أرضه ولا سمائه، ولا هو داخل هذه الأكوان ولا خارجها؟ فالعلم والبيان والنصح الذي اشتملت عليه كتب اللَّه، وجاءت به رسله؛ يوضح الحق أكمل إيضاح.

أما الإلغاز والتلبيس والكتمان فهو دأبكم أنتم يا أساتذة الشيطان.

❊ ❊ ❊

فصل في شكوى أهل السنة والقرآن أهلَ التعطيل والآراء المخالفين للرحمن

يَا رَبِّ هُمْ يَشْكُونَنَا أَبَدًا بِبَغْـ ... ـيِهِمْ وَظُلْمِهِمُ إِلَى السُّلْطَانِ
وَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَيَظُنُّهُمْ هُمْ نَاصِرُو الإِيمَانِ
فَيُرُونَهُ الْبِدَعَ الْمُضِلَّةَ فِي قَوَا ... لِبِ سُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ وَقُرَانِ
وَيُرُونَهُ الإِثْبَاتَ لِلأَوْصَافِ فِي ... أَمْرٍ شَنِيعٍ ظَاهِرِ النُّكْرَانِ
فَيُلَبِّسُونَ عَلَيهِ تَلْبِيسَيْنِ لَوْ ... كُشِفَا لَهُ بَادَاهُمُ بِطِعَانِ
يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ لَا حُيِّيتُمُ ... أَبَدًا وَحُيِّيتُمْ بِكُلِّ هَوَانِ
لَكِنَّنَا نَشْكُوهُمُ وَصَنِيعَهُمْ ... أَبَدًا إِلَيكَ فَأَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ
فَاسْمَعْ شِكَايَتَنَا وَأَشْكِ مُحِقَّنَا ... وَالْمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ الْبُطْلَانِ
رَاجِعْ بِهِ سُبُلَ الْهُدَى وَالْطُفْ بِهِ ... حَتَّى تُرِيهِ الْحَقَّ ذَا تِبْيَانِ
وَارْحَمْهُ وَارْحَمْ سَعْيَهُ الْمِسْكِينَ قَدْ ... ضَلَّ الطَّرِيقَ وَتَاهَ فِي الْقِيعَانِ

الشرح: يتوجه المؤلف إِلَى ربه بِهذا الدعاء الضارع الذليل، يشكو إليه ظلم أهل النفي والتعطيل، فيقول: إنَّهم يشكوننا ببغيهم وظلمهم إِلَى السلطان، ويغرونه بنا بالإثم والعدوان، ويلبسون عليه الأمر، ويصورون له باطلهم فِي صورة الحق، حَتَّى يظنهم هم فئة الإيمان، ويزينون له البدع، فيضعونَها فِي قوالب السنة النبوية والقرآن، ويهولون عليه الأمر فِي إثبات الصفات، ويسوقونه إليه فِي عبارات شنيعة ظاهرة النكران، وبذلك يلبسون عليه تلبيسين، لو أنَّهما ظهرا له على حقيقتهما لبادأهم هو بالحرب والطعان، وأنزلهم من نفسه بِمنْزل هوان.

فيا أمة التمويه والتلبيس، لا حياكم اللَّه تحية الرحْمن والرضوان، بل حياكم تحية غضب وهوان، إننا نشكوكم كما تشكوننا أبدًا إِلَى السلطان، وإنَّما نشكوكم ونشكو فعالكم القبيحة وعدوانكم علينا إِلَى اللَّه وحده، فهو ذو السلطان الذي لا يدانيه سلطان.

فاسمع يا رب شكايتنا فيهم، وأنصفنا منهم، وردهم عن غيهم وباطلهم، واسلك بِهم سبل الهدى، والطف بِهم حَتَّى يروا كما رأينا الحق ذا تبيان، وارحمهم وأنقذهم مما هم فيه من ضلال السعي وشتات الأمر، فإنَّهم قد ضلوا طريق الحق، وتاهوا فِي بيداء الضلال.

يَا رَبِّ قَدْ عَمَّ الْمُصَابُ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ وَالشَّطَحَاتِ وَالْبُهْتَانِ
هَجَرُوا لَهَا الْوَحْيَينِ وَالْفِطْرَاتِ وَالْـ ... آثَارَ لَمْ يَعْبُوا بِذَا الْهِجْرَانِ
قَالُوا وَتِلْكَ ظَوَاهِرٌ لَفْظِيَّةٌ ... لَمْ تُغْنِ شَيْئًا طَالِبَ الْبُرْهَانِ
فَالْعَقْلُ أَوْلَى أَنْ يُصَارَ إِلَيهِ مِنْ ... هَذِي الظَّوَاهِرِ عِنْدَ ذِي الْعِرْفَانِ
ثُمَّ ادَّعَى كُلٌّ بِأَنَّ الْعَقْلَ مَا ... قَدْ قُلْتُهُ دُونَ الْفَرِيقِ الثَّانِي
يَا رَبِّ قَدْ حَارَ الْعِبَادُ بِعَقْلِ مَنْ ... يَزِنُونَ وَحْيَكَ فَأْتِ بِالْمِيزَانِ
وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيكَ فَكُلُّهُمْ ... قَدْ جَاءَ بِالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
يَا رَبِّ أَرْشِدْنَا إِلَى مَعْقُولِ مَنْ ... يَقَعُ التَّحَاكُمُ إِنَّنَا خَصْمَانِ
جَاءُوا بِشُبْهَاتٍ وَقَالُوا إِنَّهَا ... مَعْقُولَةٌ بِبَدَائِهِ الأَذْهَانِ
كُلٌّ يِنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمَا ... فِي الْحَقِّ مَعْقُولاَنِ مُخْتَلِفَانِ
وَقَضَوْا بِهَا كَذِبًا عَلَيكَ وَجُرْأَةً ... مِنْهُمْ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَى الْقُرْآنِ

الشرح: يشكو المؤلف إِلَى ربه ما وصلت إليه الحال فِي عصره من فوضى اعتقادية لا ضابط لَهَا، ففي محيط الكلام والفلسفة والتصوف وجدت مذاهب وآراء تثير العجب، وتحمل على التساؤل: هل يمكن أن يكون أصحاب هذه الأقوال مسلمين؟! فهي مذاهب وآراء دخيلة كلها على الإسلام، ليست مستمدة من مصادره الأولى، وإنَّما وردت عليه من ثقافات أجنبية، وأولع بِهَا القوم، وافتتنوا بِهَا افتتان بني إسرائيل بعجل السامري، وهجروا من أجلها كتاب ربِّهم وسنة نبيهم ﷺ، وخالفوا بِهَا حكم الفطرة الهادي، وآثار السلف الصالح، ولَمْ يكترثوا لِهذا الهجران، ولقد أمعنوا فِي الضلال والغي حين صرحوا بتقديمها على الوحي، بحجة أن الوحي ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، فلا تغني شيئًا عن طالب البرهان، وأما العقل فحكمه قطعي، فهو أولى أن يذهب إليه من تلك الظواهر.

ومن العجيب: أن هؤلاء الذين اتفقوا على تقديم حكم العقل قد اختلفوا وتناقضت أقوالهم، ثُمَّ ادعت كل فرقة منهم أن الحق ما قالته هي دون غيرها، وأنه هو الموافق لحكم العقل، فبأي عقل من هذه العقول المختلفة توزن إذن نصوص الكتاب والسنة؟! وبأي عقل منها يحكم على اللَّه سبحانه؟! فإن كلًّا منهم يدَّعي أنه قد جاء بالمعقول الصريح والبرهان القاطع، فنحن فِي حيرة من أمر هؤلاء، لا ندري يا رب إِلَى معقول من منهم نتحاكم عند الخصومة.

ومن العجيب : أنَّهم يجيئون بشبهات واهية ليست بنبع إذا عدت ولا غرب، ولا تئول إلَى أي معقول، وإنَّما هي من بنات الوهم ونسيج الخيال، ثُمَّ يدعون أنَّها معقولة ببدائه العقول، وأن العلم بِها ضروري، وأنَّها مكتسبة بالبرهان، وكيف يتأتى أن تكون آراؤهم هذه أحكامًا عقلية صحيحة مع تناقضها واختلافها، وهل يمكن أن يكون فِي الحق معقولان مختلفان؟!

ثُمَّ هم يقضون بأقوالهم هذه على اللَّه كذبًا عليه سبحانه، وإمعانًا فِي الجرأة والوقاحة، معرضين عن حكم القرآن غير ملتفتين إلَى ما فيه من هدى وبيان.

* * *

يَا رَبُّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ... قُـرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيـمَـانِ

يَا رَبُّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ والْـ ... إِيـمَـانَ ظَـهْـرًا مِـنْـهُ فَـوْقَ بِـطَـانِ

يَا رَبُّ قَدْ بَغَتِ النُّفَاةُ وَأَجْلَبُوا ... بِالْخَيـلِ وَالرَّجْلِ الْحَقِيرِ الشَّانِ

نَصَبُوا الْحَبَائِلَ وَالْغَوَائِلَ لِلأُلَى ... أَخَـذُوا بِـوَحْـيِـكَ دُونَ قَـوْلِ فُـلَانِ

وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يطِيعُوهُمْ فَمَنْ ... يَـعْـصِـيـهُـمُ سَـامُـوهُ شَـرَّ هَـوَانِ

وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَمْ يقُلْ بِضَلَالِهِمْ ... بِـاللَّـعْـنِ وَالتَّضْلِيـلِ وَالْكُـفْـرَانِ

وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِكَ بِالَّذِي ... هُـمْ أَهْـلُـهُ لَا عَـسْـكَـرُ الْـفُـرْقَـانِ

وَقَضَوْا بِعَزْلِهُمُ وَقَتْلِهُمُ وَحَبْـ ... ـسِـهِـمُ وَنَـفْـيِـهِـمُ عَـنِ الأَوْطَـانِ

وَتَلَاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلَاعُبِ الْـ ... حُـمُـرِ الَّـتِـي نَـفَـرَتْ بِـلَا أَرْسَـانِ

حَتَّى كَأَنَّهُمُ تَوَاصَوْا بَيْنَهُمْ ... يُـوصِـي بِـذَلِـكَ أَوَّلٌ لِـلـثَّـانِـي

الشرح : يشكو المؤلف إلَى ربه أن هؤلاء النفاة المعطلة قد أوهنوا وشائج القرآن وعقد الآثار والإيمان، وأنَّهم قلبوا الدين والإيمان ظهرًا منه لبطن، فصيروا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه، وأنَّهم بغوا على أهل الحق، وجمعوا لَهم فرسانَهم ورجالتهم ذوي الحقارة، وأنَّهم نصبوا حبائل كيدهم ومؤامرات اغتيالهم لمن أخذ بالوحيين، ولَمْ يأخذ بقول شيوخهم، وأنَّهم دعوا أهل الحق أن يطيعوهم فِي باطلهم، فمن لَمْ يستجب منهم لدعوتِهم، ورفض الدخول فِي طاعتهم؛ ساموه سوء العذاب، وحكموا على كل من لَمْ يأخذ برأيهم ويقل بضلالهم بأنه مستحق للعنة، وأنه ضال وكافر، وقضوا على أتباع وحي اللَّه بِما هم به أولى وأحق دون خصومهم من جند الإيمان وعسكر الفرقان، قضوا عليهم بالعزل والحرمان من

جَميع الوظائف فِي الفتيا والتدريس والقضاء، بل وقضوا بقتلهم واستحلال دمائهم، وبسجنهم ونفيهم عن الأوطان، وكتب التراجم حافلة بِما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية وأمثاله من هذه الألوان.

❊ ❊ ❊

هَجَرُوا كَلَامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالآثَارِ وَالْقُرْآنِ

فَكَأَنَّهُ فِيمَا لَدَيْهِمْ مُصْحَفٌ ... فِي بَيتِ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ

أَوْ مَسْجِدٌ بِجِوَارِ قَوْم هَمُّهُمْ ... فِي الْفِسْقِ لَا فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ

وَخَوَاصُّهُمْ لَمْ يقْرَءُوهُ تَدَبُّرًا ... بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لَا لِفَهْم مَعَانِ

وَعَوَامُّهُمْ فِي الشِّبْعِ أَوْ فِي خَتْمَةٍ ... أَوْ تُرْبَةٍ عِوَضًا لِذِي الأَثْمَانِ

هَذَا وَهُمْ حَرْفِيةُ التَّجْوِيدِ أَوْ ... صَوْتِيةُ الأَنْغَامِ وَالأَلْحَانِ

يَا رَبُّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إسْلَامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ

إِلَّا الْمِدَادُ وَهَذِهِ الأَوْرَاقُ وَالْـ ... جِلْدُ الَّذِي قَدْ سُلَّ مِنْ حَيوَانِ

وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتَ بِقَائِلٍ ... أَصْلًا وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ

إنْ ذَاكَ إِلَّا قَوْلُ مَخْلُوقٍ وَهَلْ ... هُوَ جِبْرَئِيلُ أَوِ الرَّسُولُ فَذَانِ

قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا ... أَشْيَاخُهُمْ يَا مِحْنَةَ الْقُرْآنِ

لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يطَأْ ... إلَّا الْمِدَادَ وَكَاغَدَ الإِنْسَانِ

الشرح: يبين المؤلف فِي هذه الأبيات موقف هؤلاء المعطلة النفاة من كلام اللَّه، فهم قد هجروه وجفوا عنه، كما يجفو المبتدعة الضلال عن أنصار السنة المستمسكين بالآثار والقرآن، فأصبح من هجرهم له كأنه مصحف وضع فِي بيت ملحد زنديق، متحلل من ربقة الدين والإيمان، أو كأنه مسجد فِي محلة قوم لا هَمَّ لَهم إلا ارتكاب المعاصي والفسوق، وإذا قرأه خواصهم؛ فإنَّهم لَمْ يقرءوه تدبرًا لآياته، وتفهمًا لمعانيه، وإنَّما يقرءونه لتحصل لَهم بركته فِي الأولاد والأرزاق.

وأما عوامهم؛ فإنَّهم يأكلون به، ويتخذون منه حرفة لشبع بطونِهم، فيقرءونه فِي الختمات أو على القبور؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا، فبئس ما يشترون، وكل حظهم منه أنَّهم يهتمون بتجويد حرفه، وتحسين الصوت بقراءته، فيقرءونه بأنواع من القراءات مع

التطريب والإيقاع وحسن النغمات، وهم يا رب لا يعظمون حرمة هذه المصاحف؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّها ليس فيها شيء من القرآن؛ لأن القرآن عندهم هو معانٍ قائمة بذاته تعالَى، يسمونَها الكلام النفسي، وأما هذه المصاحف فليس فيها إلا المداد الذي كتبت به، والأوراق التِي كتب عليها، والجلد الذي أخذ من إهاب الحيوان، وكل هذه عندهم مخلوقة، واللَّه ليس بمتكلم أصلًا ولا بحرف واحد من القرآن، بل ألفاظ القرآن وحروفه عندهم حادثة مخلوقة، أنشأها جبريل الرسول الملكي، أو أنشأها مُحمَّد الرسول البشري، فهذان عندهم قولان مشهوران، قالت بكل منهما فرقة من أشياخهم فِي قديم الزمان، فيا لَهَا من محنة أصيب بِها كتاب اللَّه على يد من يزعمونَهم أهل التحقيق والعرفان.

فلو داسه رجل بنعله لما أنكروا عليه، ولما غاروا لحرمة القرآن؛ لأنه فِي نظرهم لَمْ يطأ إلا المداد والورق وكاغد الإنسان.

ولو بُعِثَ المؤلف فِي هذه الأيام ورأى ما بلغه كتاب اللَّه ﷻ من الهوان على أهله، وكيف عطلوا حدوده وأحكامه، واتَّخذوه مهجورًا، لا يستمدون منه نظام حياتِهم، ولا يعرفونه إلا فِي الحفلات والمآتم، وإلا فِي اتِّخاذ الأحجبة والتمائم -لوجد أن ما كان يشكوه من أهل زمانه من امتهان القرآن لا يعد شيئًا إذا قيس بِما أحدثه أهل هذا الزمان، فإلى اللَّه المشتكى وهو المستعان.

* * *

يَا رَبُّ زَالَتْ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ مِنْ ... تِلْكَ الْقُلُوبِ وَحُرْمَةُ الإِيمَانِ

وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ ... مَا بَيْنَنَا لِلَّهِ مِنْ قُرْآنِ

مَا بَيْنَنَا إِلَّا الْحِكَايَةُ عَنْهُ وَالتْـ ... تَعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

هَذَا وَمَا التَّالُونَ عُمَّالًا بِهِ ... إِذْ هُمْ قَدِ اسْتَغْنَوْا بِقَوْلِ فُلَانِ

إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الْحَنَاجِرَ مِنْهُمُ ... فَبِقَدْرِ مَا عَقَلُوا مِنَ الْقُرْآنِ

وَالْبَاحِثُونَ فَقَدَّمُوا رَأْيَ الرِّجَا ... لِ عَلَيْهِ تَصْرِيحًا بِلَا كِتْمَانِ

عَزَلُوهُ إِذْ وَلَّوْا سِوَاهُ وَكَانَ ذَا ... كَ الْعَزْلُ قَائِدَهُمْ إِلَى الْخِذْلَانِ

قَالُوا وَلَمْ يَحْصُلْ لَنَا مِنْهُ يَقِيـ ... نٌ فَهْوَ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ

إِنَّ الْيَقِينَ قَوَاطِعٌ عَقْلِيَّةٌ ... مِيزَانُهَا هُوَ مَنْطِقُ الْيُونَانِ

هَـذَا دَلِـيـلُ الـرَّفْـعِ مِـنْـهُ وَهَـذِهِ ... أَعْـلَامُـهُ فِـي آخِـرِ الأَزْمَـانِ
يَا رَبُّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّا كَيْ يرَى ... أَقْـدَامَـهُـمْ مِـنَّـا عَـلَـى الأَذْقَـانِ
أَهْلُوهُ مَنْ لَا يـرْتَـضِـي مِـنْـهُ بَـدِيـ ... لًا فَـهْـوَ كَـافِـيـهِـمْ بِـلَا نُـقْـصَـانِ
وَهْوَ الدَّلِيلُ لَهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الْـ ... إِيـمَـانِ وَالإِيـقَـانِ وَالْـعِـرْفَـانِ
هُوَ مُوصِلٌ لَهُمُ إِلَى دَرْكِ الْـيـقِـيـ ... نِ حَـقِـيـقَـةً وَقَـوَاطِـعِ الْـبُـرْهَـانِ
يَا رَبُّ نَحْنُ الْعَاجِزُونَ بِحُبِّهِمْ ... يَـا قِـلَّـةَ الأَنْـصَـارِ وَالأَعْـوَانِ

الشرح : يا رب زالت عظمة القرآن من قلوب هؤلاء كما زالت منها حرمة الإيمان، وجرى على ألسنتهم من منكر القول وزوره ما تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا؛ حيث زعموا أن ليس للَّه بيننا قرآن ولا كلام، وليس فِي المصاحف إلا حروف وألفاظ، هي حكاية عن كلام اللَّه، أو عبارة عنه تتلى باللسان، هذا وهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، فلا يقيمونه عملًا واتباعًا؛ لأنَّهم قد استغنوا عنه بِما ورثوا من أقوال شيوخهم، وإن كان قد جاوز حناجر بعضهم، فبقدر ما عقلوا من معانيه، وتفهموا من مقاصده ومراميه، وأما الباحثون منهم فقد قدموا عليه آراء الرجال، وصرحوا بذلك بلا خجل ولا حياء، فعزلوه عن ولايته فِي إفادة العلم واليقين حين ولوا غيره من نفايات العقول وزبالات الأذهان، وكان هذا العزل مما جرهم إِلَى كل خيبة وخذلان.

وقالوا: إنه ظواهر لفظية، لا يحصل منها يقين، ولا يقوم عليها برهان؛ لأن اليقين لا يحصل إلا بقواطع عقلية، وهي لا تستفاد إلا بمنطق اليونان؛ إذ هو عندهم لكل العلوم معيار وميزان.

ولقد قال كبير من أئمتهم، وهو أبو حامد الغزالي: «من لا معرفة له بعلم المنطق؛ لا يوثق بعلمه».

وهذه الاستهانة منهم بالقرآن فِي التلاوة والعمل والاستدلال علامات تدل على قرب رفعه، الذي صح الخبر بحصوله فِي آخر الزمان.

فيا رب مَنْ أهل القرآن حقًّا حَتَّى نعرف لَهم أقدارهم، ونقبل بأذقاننا أقدامهم؟ إن أهله الحقيقيين بالنسبة إليه هم الذين لا يرتضون به بديلًا من الأقوال والآراء، بل يرون فيه الكفاية والشفاء، ويستمدون منه كل دينهم، أصوله وفروعه على السواء، ويتخذون منه دليلًا هاديًا لَهم إِلَى كل إيمان ويقين وعرفان، وموصلًا لَهم إِلَى درك قواطع البرهان.

وما أجمل اعتذار المؤلف فِي البيت الأخير إلَى ربه بعجزه عن القيام بحق القرآن مع حبه، ومع قلة الأنصار والأعوان له على ذلك!

فصل في أذان أهل السنة والإعلام بصريحها جهرًا على رءوس منابر الإسلام

يَا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلَاةُ الْفَجْرِ فَانْـ ... تَبِـهُـوا فَـإِنِّـي مُـعْـلِـنٌ بَـأَذَانِ
لَا بِـالْـمُـلَـحَّـنِ وَالْـمُـبَـدَّلِ ذَاكَ بَـلْ ... تَـأْذِيـنَ حَـقٍّ وَاضِـحِ الـتِّـبْـيَـانِ
وَهْـوَ الَّـذِي حَـقًّـا إجَـابَـتُـهُ عَـلَـى ... كُـلِّ امْـرِئٍ فَـرْضٌ عَـلَـى الأَعْـيَـانِ
اللَّهُ أَكْـبَـرُ أَنْ يَـكُـونَ كَـلَامُـهُ الْـ ... عَـرَبِـيُّ مَـخْـلُـوقًـا مِـنَ الأَكْـوَانِ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَنْ يكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... مَـلَـكِـيُّ أَنْـشَـاهُ عَـنِ الـرَّحْـمَـنِ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَنْ يكُونَ رَسُولُهُ الْـ ... بَـشَـرِيُّ أَنْـشَـاهُ لَـنَـا بِـلِـسَـانِ
هَـذِي مَـقَـالَاتٌ لَـكُـمْ يَـا أُمَّـةَ الـتْـ ... تَـشْـبِـيـهِ مَـا أَنْـتُـمْ عَـلَـى إيـمَـانِ
شَـبَّـهْـتُـمُ الـرَّحْـمَـنَ بِـالأَوْثَـانِ فِـي ... عَـدَمِ الْـكَـلامِ وَذَاكَ لِـلأَوْثَـانِ
مِـمَّـا يَـدُلُّ بِـأَنَّـهَـا لَـيـسَـتْ بِـآ ... لِـهَـةٍ وَذَا الْـبُـرْهَـانِ فِـي الْـفُـرْقَـانِ
فِـي سُـورَةِ الأَعْـرَافِ مَـعْ طَـهَ وَثَـا ... لِـثِـهَـا فَـلَا تَـعْـدِلْ عَـنِ الْـقُـرْآنِ
أَفْـصِـحْ بِـأَنَّ الْـجَـاحِـدِيـنَ لِـكَـوْنِـهِ ... مُـتَـكَـلِّـمًـا بِـحَـقِـيـقَـةٍ وَبَـيَـانِ
هُـمْ أَهْـلُ تَـعْـطِـيـلٍ وَتَـشْـبِـيـهٍ مَـعًـا ... بِـالْـجَـامِـدَاتِ عَـظِـيـمَـةِ الـنُّـقْـصَـانِ

الشرح: ينادي المؤلف هؤلاء التائهين فِي ليل جهلهم، وضلالهم، الغافلين عن حقائق العلم الصحيح بربِّهم ودينهم، بأن ينتبهوا ويستيقظوا من نومهم، فقد وافت صلاة الفجر، وانشق ظلام الليل عن نور الصبح، وأنه مؤذن فيهم بأذان لا تبديل فيه ولا ألحان، ولكنه تأذين بحق واضح التبيان، يجب على كل من سمعه أن يبادر إلَى إجابته بلا كسل ولا توان، وهذه هي ألفاظ الأذان: اللَّه أكبر وأجل من أن يكون قرآنه الذي أنزله بلسان عربي مبين مخلوقًا من جُملة المخلوقات، بل هو صفته القائمة به كغيرها من سائر الصفات، واللَّه أكبر وأجل من أن يكون قرآنه الذي بين أيدينا من اختراع رسوله الملكي وأمين وحيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر به عما تلقاه من معاني القرآن، واللَّه أكبر وأجل من أن يكون رسوله البشري مُحمَّد -عليه الصلاة والسلام- قد أحدثه لنا بلسان!!

فهذه مقالات لكم قلتموها فِي القرآن يا أمة التشبيه والكفران، لقد شبهتم ربكم بالأصنام والأوثان فِي عدم القدرة على الكلام والبيان، فقد استدل القرآن على بطلان إلهية هذه الأصنام بعدم قدرتِها على الكلام والإفهام، قال تعالَى من سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[الأعراف: ١٤٨] . وقال سبحانه من سورة طه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[طه: ٨٩] .

وبعد: فهل ظهر أن المنكرين لكونه تعالَى متكلمًا على الحقيقة بكلام بَيِّن مسموع بالآذان هم أهل تعطيل وتشبيه معًا؟

أما تعطيلهم: فلنفيهم عن اللَّه صفة من أعظم صفات كماله، وهي الكلام.

وأما تشبيههم: فلأنَّهم شبهوه بالجامدات الناقصة، الَّتِي لا تقدر على البيان والإفهام.

* * *

لَا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِيعَةَ الرْ ... رَحْمَنِ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ

إِنَّ الَّذِي نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ عَلَى ... قَلْبِ الرَّسُولِ الوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيـ ... ـعًا إِذْ هُمَا أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ

لَا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْلَهَا الرْ ... رَحْمَنْ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ

وَلَقَدْ شَفَانَا قَوْلُ شَاعِرِنَا الَّذِي ... قَالَ الصَّوَابَ وَجَاءَ بِالإِحْسَانِ

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

الشرح: وإذا ظهر أنكم أنتم المشبهة؛ حيث شبهتم ربكم بالجامدات الَّتِي لا تتكلم ولا تبين، فلا ترموا بدائكم هذا أنصار الرحْمن من ذوي العلم والدين، ولا تتهموهم بِما أنتم به أولى من التجسيم والتشبيه.

وأما قولنا نَحن معشر أهل السنة فِي القرآن: إن الذي نزل به جبريل الأمين على قلب عبد اللَّه ورسوله مُحمَّد ﷺ من القرآن الواضح الحجة والبرهان، هو قول اللَّه وكلامه، تكلم اللَّه بحروفه وألفاظه بصوت، وسمعه منه ملك الوحي، فأداه إلَى الرسول ﷺ كما

سمعه، فلفظه ومعناه جميعًا من عند اللَّه؛ إذ الألفاظ لا تنفك عن المعاني، بل هُما أمران متلازمان، فإن الألفاظ قوالب المعاني، ولا يعقل التكلم بالمعاني وحدها بدون ألفاظ تصب فيها، ولا يقال لأحد: إنه تكلم؛ إلا نطق بحروف وألفاظ مسموعة.

فلا تقطعوا أيها المعطلة وشيجةً تولى اللَّه سبحانه ربطها بفصلكم الألفاظ عن المعاني، فتنسلخوا بذلك عن الإيمان.

ولقد شفى صدور أهل السنة وأثلجها قول شاعرهم الذي جاء بالقول الفصل والمنطق الصواب: إن الذي هو مكتوب فِي المصاحف بأقلام الشيوخ والشبان هو قول اللَّه وكلامه، آيه وحروفه، وأما الكتابة والخط والمداد والرق، فكل ذلك مخلوق.

* * *

وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو الْمَعَارِجِ مَنْ إِلَيْـ ... ـهِ تَعْرُجُ الأَمْلَاكُ كُلَّ أَوَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ يخَافُ جَلَالَهُ ... أَمْلَاكُهُ مِنْ فَوْقِهِمْ بِبَيَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ غَدَا لِسَرِيرِهِ ... أَطٌّ بِهِ كَالرَّحْلِ لِلرُّكْبَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ ... مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سِتِّ ثَمَانِ

نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ ... رَبٍّ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ

وَاللهُ أَكْبَرُ قَاهِرٌ فَوْقَ الْعِبَا ... دِ فَلَا تَضَعْ فَوْقِيَةَ الرَّحْمَنِ

مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تِلْكَ ثَابِتَةٌ لَهُ ... لَا تَهْضِمُوهَا يَا أُولِي الْبُهْتَانِ

قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ فَوْ ... قَ الْعَرْشِ بِالْبُرْهَانِ

فَبِذَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... ثُمَّ اسْتَوَى بِالذَّاتِ فَافْهَمْ ذَانِ

فَضَمِيرُ فِعْلِ الإسْتِوَاءِ يعُودُ لِلذْ ... ذاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ بِلَا فُرْقَانِ

هُوَ ربُّنَا هُوَ خَالِقٌ هُوَ مُسْتَوٍ ... بِالذَّاتِ هَذِي كُلُّهَا بِوِزَانِ

الشرح: واللَّه أكبر وأعظم، فهو الذي استوى على عرشه بذاته، بِمعنى: علا وارتفع، ولكنه مستولٍ على الأكوان كلها -الَّتِي من جملتها العرش- بقهره وقدرته.

واللَّه أكبر فهو ذو المعارج، أي: المصاعد والمراقي الَّتِي هي السموات، تعرج الملائكة فيها إلى اللَّه صاعدة فِي كل وقت بأعمال العباد وأرواحهم لعرضها عليه.

واللَّه أكبر فهو الذي يخاف عظمته وجلاله ملائكته من فوقهم، كما نطقت بذلك الآية الكريمة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٥٠].

واللَّه أكبر فهو الذي يئط به عرشه كأطيط الرحل الجديد براكبه، كما ورد فِي الحديث.

واللَّه أكبر فهو الذي أتانا وحيه وقرآنه من عنده، من فوق ثمان سموات بِما فيها العرش، حيث نزل به الأمين بأمر اللَّه له من عند رب مستوٍ على عرشه، رحمن بخلقه.

واللَّه أكبر فهو القاهر فوق عباده، فوقية ثابتة له من كل وجه، قهرًا وقدرًا واستواء بذاته على عرشه، فلا تَهضموا هذه الفوقية يا أولي العدوان، ولا تقيدوها وقد وردت مطلقة فِي القرآن.

ومما يدل على استوائه بذاته على عرشه قوله تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[يونس: ٣].

فإنه إذا كان بذاته خلق السموات والأرض، فيجب أن يكون أيضًا بذاته استوى، فإن ضمير فعل الاستواء يعود للذات المذكورة كما يعود إليها ضمير فعل الخلق بلا فارق أصلًا، فهو ربنا، هو خالق، هو مستوٍ، كل ذلك بذاته، فهي جميعًا سواء.

* * *

وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ الْـ ... ـمَعْلُوم بِالْفِطْرَاتِ وَالإِيمَانِ

فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ ... فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ رَقَى فَوْقَ الطِّبَا ... قِ رَسُولُهُ فَدَنَا مِنَ الدَّيَّانِ

وَإِلَيهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... لَا تُنْكِرُوا الْمِعْرَاجَ بِالْبُهْتَانِ

وَدَنَا مِنَ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَدَنَا إِلَيهِ الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ

وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... فِي ذَلِكَ الْمِعْرَاجِ بِالْمِيزَانِ

قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبًا أَو الْـ ... ـمِعْرَاجُ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

إِذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ... رَبٌّ إِلَيهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

الشرح: واللَّه أكبر فهو صاحب العلو المطلق المعلوم ثبوته له بالفطرة، فقد فطر عباده سبحانه على رفع الأيدي والأبصار إلَى السماء عند الدعاء، والمعلوم ثبوته له بالآيات

والأحاديث الصحيحة، قال تعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فالثابت له سبحانه هو العلو المطلق من كل وجه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

واللَّه أكبر فهو الذي رقى إليه عبده ورسوله مُحمَّد ﷺ فوق السموات السبع، حَتَّى وصل إلَى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى.

والمعراج ثابت بالأحاديث الصحيحة البالغة حد التواتر، وهو عروج حقيقي بالجسد والروح، فِي اليقظة لا فِي النوم، وهو عروج إلَى اللَّه لا إلَى غيره، فلا تنكروا ذلك كله يا أمة البهتان.

وقد دنا الرسول من الجبار ﷻ كما دنا إليه ربه ذو الفضل والإحسان، ولكنكم لا تؤمنون بذلك كله، وتقولون فِي المعراج أقوالًا أحصاها اللَّه عليكم؛ ليوفيكم حسابَها، فمنكم من زعم أنَّها خيال، ومنكم من كذب به وأنكره، ومنكم من أثبته، لكن قال: إن العروج لَمْ يكن إلَى اللَّه، بل إلَى محل سلطانه ورحمته. إذ ليس عنده فوق السماء رب ينتهي إليه الإنسان.

* * *

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَشَارَ رَسُولُهُ ... حَقًّا إِلَيْهِ بِأُصْبُعٍ وَبَنَانِ
فِي مَجْمَعِ الْحَقِّ الْعَظِيمِ بِمَوْقِفٍ ... دُونَ الْمُعَرَّفِ مَوْقِفَ الْغُفْرَانِ
مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِأُصْبُعٍ ... قُطِعَتْ فَعِنْدَ اللهِ يَجْتَمِعَانِ
وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ شَانِ
وَاللهُ أَكْبَرُ عَرْشُهُ وَسِعَ السَّمَا ... وَالأَرْضَ وَالْكُرْسِيَّ ذَا الأَرْكَانِ
وَكَذَلِكَ الْكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا ... قَ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ بِالْبُرْهَانِ
وَالرَّبُّ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ لَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الإِنْسَانِ
لَا تَحْصُرُوهُ فِي مَكَانٍ إِذْ تَقُو ... لُوا رَبُّنَا حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ
نَزَّهْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ عَنْ عَرْشِهِ ... وَحَصَرْتُمُوهُ فِي مَكَانٍ ثَانِ
لَا تَعْدِمُوهُ بِقَوْلِكُمْ لَا دَاخِلٌ ... فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

اللَّهُ أَكْبَرُ قَدْ هَتَكْتُ سِتَارَكُمْ وَبَدَتْ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَينَانِ

الشرح: والله أكبر، فهو الذي أشار إليه رسوله ﷺ بأصبعه فِي أعظم مشهد شهده المسلمون مع نبيهم فِي حجة الوداع بعرفة، حيث خطبهم خطبته الجامعة المشهورة، وكان أثناء الخطبة يقول لَهم: «**ألا هل بلغت**. ويشير بأصبعه إلَى السماء، ثُمَّ ينكتها إليهم قائلًا: **اللَّهم اشهد**». فمن حكم منكم على من أشار بأصبعه إلَى السماء أن تقطع أصبعه؛ فهو خصم لرسول اللَّه ﷺ، وسيجتمع معه بين يدي اللَّه ﷻ يوم القيامة ليحكم بينهما.

والله أكبر، فهو الظاهر العالي الذي لا شيء فوقه، وشأنه سبحانه أعظم شأن.

والله أكبر، وسع عرشه جَميع كونه، فالأرض والسموات السبع والكرسي كلها فِي جوفه كحلقة فِي فلاة، وكذلك وسع كرسيه السموات والأرض، فهي فِي جوفه كحلقه فِي فلاة، والله ﷻ فوق عرشه وكرسيه، ولا يخفى عليه شيء من أمور خلقه، حَتَّى إنه يعلم خواطر الإنسان وما توسوس به نفسه.

هذا هو مذهب أهل الحق الذي دلت عليه الآيات والآثار والفطر والعقول، وأما أنتم فقد مرج أمركم، واضطربت فِي الله أقوالكم، فمرة تقولون: إنه فِي كل مكان. فحكمتم عليه بذلك الانحصار فِي المكان، وجعلتموه فِي الحشوش والأخلية ومواضع النجاسة والقذر، فقد نزهتموه بجهلكم عن الوجود فوق عرشه، ثُمَّ حصرتموه داخل خلقه.

ومرة تصفونه بصفة المعدوم الذي لا وجود له، فتقولون: ليس داخل العالم ولا خارجه.

فالله أكبر، قد انكشفت فضائحكم، وظهرت سوءاتكم، ولَمْ يعد أمركم يخفى على من كان له عينان ناظرتان.

* * *

وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شَبَهٍ وَعَنْ مَثَلٍ وَعَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالْـ أَوْصَافُ كَامِلَةً بِلَا نُقْصَانِ

وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

وَاللَّهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شَبَهِ الْجَمَا دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

هُمْ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

اللَّهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شَبَهِ الْعِبَا دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ فَكُلْـ لُ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ
نَفَتِ الْوِلَادَةَ وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ وَالْـ كُفْءَ الَّذِي هُوَ لَازِمُ الإِنْسَانِ
وَكَذَاكَ أَثْبَتَتِ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا لِلَّهِ سَالِمَةً مِنَ النُّقْصَانِ
وَإِلَيهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلَا صَمَدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ
لَا شَيءَ يشْبِهُهُ تَعَالَى كَيفَ يُشْـ بِهُ خَلْقَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ
لَكِنْ ثُبُوتُ صِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ وَعُلُوِّهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ
لَا تَجْعَلُوا الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا لَهُ يَا فِرْقَةَ التَّشْبِيهِ وَالطُّغْيَانِ
كَمْ تَرْتَقُونَ بِسُلَّمِ التَنْزِيهِ لِلتْـ تَعْطِيلِ تَرْوِيجًا عَلَى الْعُمْيَانِ
فَاللَّهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ صِفَاتُهُ كَصِفَاتِنَا جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ
هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ لَا إِثْبَاتُ أَوْ صَافِ الْكَمَالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

الشرح: واللَّه أكبر، جل عن التشبيه والمثيل، كما جل عن الإنكار والتعطيل، واللَّه أكبر من له الأسماء الحسنى والصفات العليا الَّتِي بلغت غاية الكمال، فلا يلحقها عيب ولا نقصان.

واللَّه أكبر، تنزه عن أن يكون له ولد، أو صاحبة، أو كفء مساو، أو معين، أو ظهير.

واللَّه أكبر، جل عن المشابَهة للجمادات الَّتِي يشبهه بِها أهل الإنكار والتعطيل، فقد شبهوه بالجمادات الناقصة حين نفوا عنه صفات الكمال من الكلام والفعل والرضا والغضب، والمحبة والكراهية وغيرها، فليتهم إذ وقعوا فِي التشبيه كانوا قد شبهوه بشيء كامل ذي قدر وشأن كالإنسان مثلًا، ومع ذلك فهو أكبر، تنزه عن مشابَهة العباد الأحياء العالمين القادرين، فكلاهما تشبيه ممنوع، تشبيهه بالجمادات الميتة الناقصة، وتشبيهه بذوي الحياة والعلم من خلقه.

واللَّه أكبر فهو واحد لا شريك له، متفرد بِما له من ذات وصفات وأفعال، وهو صمد غني واسع الغنى، تصمد الخلائق كلها إليه؛ ولِهذه الصمدية شأنٌ أي شأنٍ، فإن صفات الكمال كلها راجعة إليها، فهي تنفي عنه الولادة الَّتِي تقتضي تفرع شيء عنه وخروجه منه، وتنفي عنه الأبوة الَّتِي هي تفرعه عن أصل سابق عليه، وتنفي عنه الكفء وهو النظير الذي

يساويه، وهذا من لوازم الإنسان.

وهي تثبت له جَميع صفات الكمال بريئة من كل عيب ونقصان.

وهي تثبت فقر العباد جميعهم إليه، فإليه يصمد كل مخلوق، لا صمد لَهم غيره -عز وجل شأنه-.

وهو سبحانه لا يشبهه شيء من خلقه، ولا يشبه هو شيئًا، فتلك مشابَهة مستحيلة، لكنها لا تقتضي نفي شيء من صفاته الثابتة له، ولا نفي علوه وكلامه، فإن إثبات الصفات لا يستلزم المشابَهة إلا عند هؤلاء الذين أشربوا التشبيه فِي قلوبِهم، فهم لا يفرون منه إلا ليقعوا فيه.

ومن العجيب: أنَّهم يموهون على البسطاء، فيسمون نفيهم للصفات تنْزيهًا، فيجعلون التنْزيه مرقاة يصعدون منها إلَى الإنكار والتعطيل.

فليس التشبيه هو إثبات الصفات، فإن الإثبات حق لا شك فيه، وإنَّما التشبيه هو اعتقاد أن صفاته مثل صفات المخلوقين، بأن يقال له: علم كعلمنا، وقدرة كقدرتنا، ويد كَيَدِنَا... إلخ، فأين هذا من إثبات الكمال له حَتَّى تجعلوهما شيئًا واحدًا؟! إنَّهما شيئان مختلفان، وما هُما عند العاقل المنصف سيان.

فصل في تلازم التعطيل والشرك

وَاعلَمْ بِأَنَّ الشِّرْكَ وَالتَّعْطِيلَ مُذْ ... كَانَا هُمَا لَا شَكَّ مُصْطَحِبَانِ

أَبَدًا فَكُلُّ مُعَطِّلٍ هُوَ مُشْرِكٌ ... حَتْمًا وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

فَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ إلَى مَنْ يَكْشِفُ الْـ ... بَلْوَى وَيغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ

وَإلَيهِ يصْمُدُ فِي الْحَوَائِجِ كُلِّهَا ... وَإلَيهِ يَفْزَعُ طَالِبًا لأَمَانِ

فَإذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ وَفِعَالُهُ ... وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

فَزِعَ الْعِبَادُ إلَى سِوَاهُ وَكَانَ ذَا ... مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّلُ التْـ ... تَوْحِيدِ حَقًّا ذَانِ تَعْطِيلَانِ

قَدْ عَطَّلَا بِلِسَانِ كُلِّ الرُّسْلِ مِنْ ... نُوحٍ إلَى الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ فِي هَذَا ثَلَاثُ طَوَائِفٍ ... مَا رَابِعٌ أَبَدًا بِذِي إمْكَانِ

إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... فَإِذَا دَعَاهُ دَعَا إِلَهًا ثَانِ
هَذَا وَثَانِي هَذِهِ الأَقْسَامِ ذَ ... لِكَ جَاحِدٌ يَدْعُو سِوَى الرَّحْمَنِ
هُوَ جَاحِدٌ لِلرَّبِّ يَدْعُو غَيْرَهُ ... شِرْكًا وَتَعْطِيلًا لَهُ قَدَمَانِ

الشرح: يثبت المؤلف فِي هذه الأبيات أن التعطيل ونفي الصفات أخو الإشراك وعبادة الأوثان، وأنَّهما مذ وجدا أخوان، لا يفترقان، وأن أولهما -وهو التعطيل- مفضٍ إِلَى الشرك ومقتضٍ له، كما تقتضي العلة معلولها، فكل معطل وجاحد للصفات فهو مشرك عابد للطاغوت.

وذلك لأن العبد فِي هذه الحياة الدنيا عرضة لنوائب الخير والشر، وهو لا يستطيع أن يستقل بتحصيل الخير لنفسه، ولا بدفع الشر عنها، فهو محتاج إِلَى من يدفع عنه ضره ويغنيه من عيله، وإليه يقصد فِي كل حوائجه ليقضيها له، ويفزع من مخاوفه ليوفر له الأمان، فإذا نفينا صفات هذا الإله المقصود وأفعاله، ونفينا وجوده فوق عرشه؛ لَمْ يجده العباد أهلًا لأن يفزعوا إليه، بل لَمْ يجدوه شيئًا، فيفزعون حينئذ إِلَى غيره، والذي جرهم إِلَى هذا الشرك هو التعطيل والإنكار.

فمن عطل أوصافه سبحانه فقد عطل توحيده، فهما تعطيلان قد بعث جَميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أولهم نوح إِلَى خاتمهم مُحمَّد لإنكارهما وإبطالهما، والناس بالنسبة لِهذا الأمر ثلاث فرق لا رابع لَهَا:

فأما إحداها: فهو من يشرك بإلهه فِي العبادة، فيدعو معه إِلَهًا آخر، وهذا شرك أكثر المشركين، فإنَّهم يقرون بوجود اللَّه، وبأنه المنفرد بالربوبية فِي الخلق والرزق والتدبير والملك، ولكنهم يعبدون معه غيره.

وأما ثانيتهما: فهو من يجحد الرب -جل شأنه- فينكر وجوده وصفات كماله، فهذا لا يدعوه، وإنَّما يدعو غيره، فهو قد جمع بين الشرك والتعطيل، واتخذ منهما قدمين يقوم عليهما كفره وإلحاده، وهذا شر الفريقين، فإن من يدعو مع اللَّه غيره مع دعائه إياه أهون ممن لا يدعوه، بل يدعو سواه.

* * *

هَذَا وَثَالِثُ هَذِهِ الأَقْسَامِ خَيْـ ... ـرُ الْخَلْقِ ذَاكَ خُلَاصَةُ الإِنْسَانِ
يَدْعُو الإِلَهَ الْحَقَّ لَا يَدْعُو سِوَا ... هُ قَطُّ فِي الأَشْيَاءِ وَالأَكْوَانِ

يدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ	حَـالَاتِ مِـنْ سِـرٍّ وَمِـنْ إعْـلَانِ
تَـوْحِيـدُهُ نَـوْعَـانِ عِـلْـمِـيٌّ وَقَـصْـ	دِيٌّ كَـمَـا قَـدْ جُـرِّدَ الـنَّـوْعَـانِ
فِي سُورةِ الإخْلَاصِ مَعْ تَالٍ لَنَصْـ	رِ الـلـهِ قُـلْ يـأَيـهَـا بِـبَـيَـانِ
وَلِذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا	وَكَـذَاكَ سُـنَّـةِ مَـغْـرِبٍ طَـرَفَـانِ
لِيكُونَ مُفْتَتَحُ النَّهَارِ وَخَتْمُهُ	تَـجْـرِيـدَكَ الـتَّـوْحِـيـدَ لِـلـدَّيَـانِ
وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِخَاتَمِ وَتْرِنَا	خَـتْـمًـا لِـسَـعْـيِ الـلَّـيـلِ بِـالآذَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّوَا	فِ وَذَاكَ تَـحْـقِـيـقٌ لِـهَـذَا الـشَّـانِ
فَهُمَا إذَنْ أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ لَا	يـتَـفَـارَقَـانِ وَلَـيـسَ يَـنْـفَـصِـلَانِ
فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَذَا	ذُو الـشِّـرْكِ فَـهْـوَ مُـعَـطِّـلُ الـرَّحْـمَـنِ
أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ فَحَقْ	قِـقْ ذَا وَلَا تُـسْـرِعْ إلَـى نُـكْـرَانِ

الشرح :وأما ثالث هذه الأقسام: فهم خيرة اللَّه من خلقه، والخلاصة المصطفاة من عباده، الذين أخلصوا توحيدهم للَّه، فهم يدعون إلههم الحق وحده، ولا يدعون سواه، ولا يشركون به شيئًا من خلقه فِي شيء من عبادتِهم، فهم يدعونه رغبًا وطمعًا فِي فضله، ورهبًا وخوفًا من عقوبته وأخذه، ويدعونه فِي جَميع أحوالهم، فِي سرهم وعلانيتهم، وفِي ظعنهم وإقامتهم، لا ملجأ لَهم منه إلا إليه.

وتوحيده سبحانه على نوعين:

أحدهُما :علمي خبري: وهو توحيد الأسْماء والصفات.

والثاني :توحيد قصدي طلبي: وهو توحيد الإلهية والعبادة.

وقد جرد النوعان من كل ما يشوبُهما من أنواع الشرك فِي سورتي: «الإخلاص»، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فالأولى فيها تجريد لتوحيد الأسْماء والصفات، والثانية فيها تجريد لتوحيد العبادة؛ ولِهذا شرعت القراءة بِهما فِي ركعتي الفجر والمغرب؛ لوقوعهما فِي طرفي النهار؛ ليكون مفتتحه ومختتمه تجريد التوحيد بنوعيه للَّه، وكذلك شرعا فِي ختام الوتر -أي: فِي الركعتين الأخيرتين- لأنه آخر عمل الليل، فيكون بذلك قد ختم عمله بتجريد التوحيد وإخلاصه للَّه، وكذلك شرعا فِي ركعتي الطواف؛ تحقيقًا لِهذا الغرض نفسه.

فهما إذن -أعني: التوحيد العلمي الخبري والتوحيد القصدي الطلبي- أخوان متلازمان، لا يفترقان، ولا ينفصلان، فمن أخل بأحدهما أخل بالآخر، ولا يتم توحيد أحد إلا إذا حققهما جميعًا.

فمعطل الأوصاف كلها أو بعضها فهو مشرك، وكذلك المشرك هو معطل، فتأمل هذا الأمر جيدًا وتدبره، ولا تسرع إِلَى إنكاره لعدم فهمك له.

فصل في بيَان ان المعطل شر من المشرك

لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الْـ إِشْـرَاكِ بِـالْـمَـعْـقُـولِ وَالْـبُـرْهَـانِ
إِنَّ الْـمُـعَـطِّـلَ جَـاحِـدٌ لِـلـذَّاتِ أَوْ لِـكَـمَـالِـهَـا هَـذَانِ تَـعْـطِـيـلَانِ
مُتَضَمِّنَانِ الْقَدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُو هَـةِ كَـمْ بِـذَاكَ الْـقَدْحِ مِـنْ نُـقْـصَـانِ
وَالشِّرْكُ فَهْوَ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الزْ زُلْـفَـى مِـنَ الـرَّبِّ الْـعَـظِـيـم الـشَّـانِ
بِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقِ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ بَـشَـرٍ وَمِـنْ قَـبْـرٍ وَمِـنْ أَوْثَـانِ
فَالشِّرْكُ تَعْظِيمٌ بِجَهْلٍ مِنْ قِيَا سِ الـرَّبِّ بِـالأُمَـرَاءِ وَالـسُّـلْـطَـانِ
ظَنُّوا بِأَنَّ الْبَابَ لَا يُغْشَى بِدُو نِ تَـوَسُّـطِ الـشُّـفَـعَـاءِ وَالأَعْـوَانِ
وَدَهَاهُمُ ذَاكَ الْقِيَاسُ الْمُسْتَبِـ ـنُ فَـسَـادُهُ بِـبَـدَاهَـةِ الإِنْـسَـانِ

الشرح: وإذا كان التعطيل كما بَيَّنَّا أخًا للشرك وملازمًا له، فإن المعطل شر من المشرك، وأسوأ منه عقيدة فِي ربه ﷻ، وليست هذه دعوى تقال باللسان، ولكنها مدعمة بالدليل والبرهان.

إن التعطيل نوعان:

أحدهما: جحد الذات، وعدم الإقرار بوجودها، وهو تعطيل الدهرية الذين ينكرون الصانع، ويقولون ما حكاه القرآن عنهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٧].

والثاني: تعطيل الذات عن صفات الكمال الثابتة لَهَا، فهذان تعطيلان يتضمنان الطعن فِي حقيقة الألوهية والتنقيص من شأنِها.

وأما الشرك: فليس فيه طعن فِي ذات الألوهية، فالمشرك مقر بإلهية الرب سبحانه،

ولكنه يظن أنه لا يستطيع أن يبلغ منه مكان الرضا إلا إذا توسل إليه بِما يعبده من حجر، أو بشر، أو قبر، أو وثن، أو كوكب، أو ملك، أو غير ذلك مما يتخذه المشركون وسائط فيما بينهم وبين اللَّه، يزعمون أنَّها تقربُهم إليه زلفى.

فالشرك: تعظيم للمشرك به، ولكنه تعظيم بجهل، نشأ من قياس فاسد، وهو قياس الرب سبحانه بالملوك والأمراء والسلاطين، فلما رأى المشركون أنه لا يمكن الدخول على أحد من هؤلاء، ولا الاتصال به والحظوة لديه، إلا بواسطة بطانته ورجال حاشيته من الحجاب والوزراء، أو أهل بيته من الزوجات والأولاد -ظنوا اللَّه سبحانه كواحد من هؤلاء، فاتَّخذوا له الوسائط والشفعاء، وكان الذي جر عليهم تلك الداهية الدهياء هو ذلك القياس، الذي فساده من الظهور والبيان بحيث تدركه بداهة الإنسان.

* * *

الْفَرْقُ بَينَ اللهِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ ... كُلِّ الْوُجُوهِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

إِنَّ الْمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَا لَهُمْ ... عِلْمٌ بِأَحْوَالِ الدُّعَا بِأَذَانِ

كَلَّا وَلَا هُمْ قَادِرُونَ عَلَى الَّذِي ... يَحْتَاجُهُ الإنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ

كَلَّا وَمَا تِلْكَ الإرَادَةُ فِيهِمُ ... لِقَضَا حَوَائِجِ كُلِّ مَا إنْسَانِ

كَلَّا وَلَا وَسِعُوا الْخَلِيقَةَ رَحْمَةً ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُمْ أُولُو النُّقْصَانِ

فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْكَ الْوَسَا ... ئِطِ حَاجَةً مِنْهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِمٌ لِلْغَيبِ مُقْـ ... ـتَدِرٌ عَلَى مَا شَاءَ ذُو إحْسَانِ

وَتَخَافُهُ الشُّفَعَاءُ لَيسَ يرِيدُ مِنْـ ... ـهُمْ حَاجَةً جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

بَلْ كُلُّ حَاجَاتٍ لَهُمْ فَإلَيهِ لَا ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلِكٍ وَلَا إنْسَانِ

الشرح: ومما يدل على فساد قياسهم: أن هناك فرقًا بين المقيس والمقيس عليه من كل وجه، فكل ما يدعوهم لالتماس الزلفى إلَى الملوك والأمراء باتخاذ الوسائط والشفعاء ليس موجودًا فِي حق اللَّه ﷻ، وكل ما يحتاج الملوك من أجله إلَى اتِّخاذ الأعوان والظهراء، فإن اللَّه غني عنه، فالملوك عاجزون عن تدبير شئون مملكتهم بأنفسهم، فلابد لَهم ممن يعينهم على ذلك، ويرفع إليهم حوائج الناس، الذين لا يستطيعون الوقوف على حاجاتِهم بأنفسهم، وليس لَهم قدرة كذلك على توفير ما يحتاجون إليه فِي كل وقت إلا بمعونة هؤلاء، فهم يقبلون شفاعتهم ووساطتهم بسبب حاجتهم إليهم، وهم كذلك

يخشون منازعتهم إياهم على الملك، فيقبلون شفاعتهم خوفًا منهم، وليس للملوك إرادة لقضاء حوائج كل الناس، فهم يحتاجون إلَى من يرغبهم فِي ذلك، ويغير إرادتَهم، ويحولهم من الغضب إلَى الرضا، وكذلك هم لا يجدون عندهم الرحْمة الَّتِي يمكن أن يبسطوها على الناس، فيحتاجون إلَى من يعطفهم، ويرقق قلوبَهم، ويملؤها بالرحمة والحنان والرغبة فِي الإحسان.

فمن أجل ذلك كله؛ احتاجوا إلَى تلك الوسائط حاجة لا ينفكون عنها فِي وقت من الأوقات، أما اللَّه سبحانه فهو بعكس هؤلاء الملوك العاجزين الجاهلين، فهو عالم الغيب كله، يعلم أحوال جَميع خلقه، لا يحتاجون إلَى من يرفع إليه حوائجهم، وهو سبحانه ذو القدرة التامة على فعل كل ما يشاء، لا يحتاج إلَى معونة أحد فِي تنفيذ ما يريد.

وهو ذو فضل وإحسان، ورحمته وسعت كل شيء من خلقه، وهو سبحانه مريد لنفعهم والإحسان إليهم، بل هو أرحم بعباده من الأم بولدها.

وهو لا يقبل شفاعة الشفعاء خوفًا منهم، ولا رغبة فيما عندهم، فليس له إلَى أحد حاجة، ولن يبلغ أحد ضره أو نفعه، تعالَى اللَّه عن ذلك كله جل شأنه، بل كل حاجات هؤلاء الشفعاء إنَّما هي إليه، لا إلَى غيره من ملك أو إنسان.

* * *

وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهْوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يوَحِّدُهُ وَلَمْ يُشْرِكْ بِهِ ... شَيئًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

سَبَقَتْ شَفَاعَتُهُ إلَيهِ فَهْوَ مَشْـ ... ـفُوعٌ إلَيهِ وَشَافِعٌ ذُو شَانِ

فَلِذَا أَقَامَ الشَّافِعِينَ كَرَامَةً ... لَهُمُ وَرَحْمَةَ صَاحِبِ الْعِصْيَانِ

فَالْكُلُّ مِنْهُ بَدَا وَمَرْجِعُهُ إلَيْـ ... ـهِ وَحْدَهُ مَا مِنْ إلَهٍ ثَانِ

غَلَطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا ... هُ إلَيْهِ دُونَ الإذنِ مِنَ رَحْمَنِ

هَذِي شَفَاعَةُ كُلِّ ذِي شِرْكٍ فَلَا ... تَعْقِدْ عَلَيهَا يَا أَخَا الإيمَانِ

وَاللهُ فِي الْقُرْآنِ أَبْطَلَهَا فَلَا ... تَعْدِلْ عَنِ الآثَارِ وَالْقُرْآنِ

الشرح: والشفاعة كلها للَّه كما قال سبحانه من سورة الزمر: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]. فهو سبحانه الذي يأذن فِي الشفاعة لمن يشاء من خيار خلقه من الملائكة والرسل

والأنبياء والصديقين والشهداء، فلا يشفع من هؤلاء أحد عنده إلا بإذنه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه من خلقه ممن مات على التوحيد فلم يشرك بالله شيئًا، فالشفاعة الَّتِي أثبتها الله فِي كتابه هي تلك الشفاعة المقيدة بالإذن من المشفوع عنده سبحانه، والرضا منه عن المشفوع فيه، واختاره لمن يكرمه بمنصب الشفاعة، فهو سبحانه يقيم الشافعين تكريمًا لَهم، ورحمة بأصحاب الذنوب، فالشفاعة مرجعها إليه سبحانه أولًا وآخرًا، ليس لأحد شركة معه فِي شيء منها؛ إذ ليس معه إله غيره.

وأما الشفاعة الَّتِي يدعيها المشركون لآلهتهم، والنصارى لقسيسيهم ورهبانِهم، وهي الَّتِي تقع بغير إذن منه سبحانه، وتنال كل أحد رضيه أم لَمْ يرضه؛ فلا يجوز لمؤمن أن يعتقدها، ولا أن يعول عليها، فهي الشفاعة الَّتِي أبطلها القرآن الكريم، كما فِي قوله تعالَى من سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]. وقوله من نفس السورة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]. وقوله من سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وقوله من سورة يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. وقوله من سورة المدثر: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. إلَى غير ذلك من الآيات الَّتِي لا يراد بِها نفي مطلق الشفاعة، وإنَّما يراد بِها نفي الشفاعة المطلقة.

❊ ❊ ❊

وَكَذَا الْوَلَايَةُ كُلُّهَا لِلهِ لَا	لِسِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ وَلَا إِنْسَانِ
وَاللهِ لَمْ يَفْهَمْ أُولُو الإِشْرَاكِ ذَا	وَرَأَوْهُ تَنْقِيصًا أُولُو النُّقْصَانِ
إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سِوَى الرْ	رَحْمَنِ بَلْ أَحَدِيَةَ الرَّحْمَنِ
بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ مِنْ لَدُنْ	عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الْحَضِيضِ الدَّانِي
هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ وَدُعَاءُ عَا	بِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبُطْلَانِ
فَلَهُ الْوِلَايَةُ وَالْوَلَايَةُ مَا لَنَا	مِنْ دُونِهِ وَالٍ مِنَ الأَكْوَانِ
فَإِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الْوَرَى	طُرًّا تَوَلَّاهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ
وَإِذَا تَوَلَّى غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ	وَلَّاهُ مَا يَرْضَى بِهِ لِهَوَانِ

فِي هَـذِهِ الـدُّنْـيَـا وَبَـعْـدَ مَـمَـاتِـهِ وَكَـذَاكَ عِـنْـدَ قِـيَـامَـةِ الأَبْـدَانِ
يَـوْمَ الْـمَـعَـادِ فَـيَـسْـمَـعُ الـثَّـقَـلَانِ حَـقًّـا يُـنَـادِيـهِـمْ نِـدًا سُـبْـحَـانَـهُ

الشرح: وكما أن الشفاعة كلها للَّه، فهو الذي يختار الشفعاء، ويأذن لَهم فِي الشفاعة، ويحدد لَهم من يشفعون فيه ممن رضي دينهم وقولهم، فكذلك الولاية كلها له وحده، فلا يجوز لأحد أن يتولى غيره من ملك ولا إنس ولا غيرهما.

ولكن أهل الشرك لَمْ يفهموا ذلك، بل ينكرونه، ويرونه تنقيصًا من قدر أوليائهم؛ إذ هو يتضمن عزلها عن أن تدعى مع اللَّه، بل يتضمن إخلاص الدعاء له واعتقاد أحديته، وكل من يدعى من دون اللَّه من لدن عرشه إلَى فرشه فهو باطل فِي نفسه؛ لأنه قد جعل إلَهًا معه وهو لا يستحق من الإلهية شيئًا، وكذلك دعاء عابديه له من أبطل الباطل، وأضل الضلالة.

فثبت أنه سبحانه له وحده الولاية كلها، ولاية الذل والضراعة، فليس لنا من والٍ يلي أمورنا غيره فِي الوجود كله، بل هو وحده الولي الذي نتولاه عبادة وذلًّا، فإذا تولاه عبده من دون جَميع خلقه؛ تولاه اللَّه سبحانه، وكان له نعم المولى ونعم النصير، أما إذا تولى غيره، ورضي بتلك الولاية للمخلوق؛ ولاه اللَّه ما تولى؛ لهوانه عليه فِي هذه الحياة الدنيا وبعد مماته، وكذلك فِي معاده عند قيامة الأبدان، حيث ينادي سبحانه عباده بنداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، يقول: «**من كان يعبد إلَهًا فليتبع**». كما ورد فِي الحديث.

* * *

يَـا مَـنْ يُـرِيـدُ وِلَايَـةَ الـرَّحْـمَـنِ دُو نَ وِلَايَـةِ الـشَّـيْـطَـانِ وَالأَوْثَـانِ
فَـارِقْ جَـمِـيـعَ النَّـاسِ فِـي إشْـرَاكِـهِـمْ حَـتَّـى تَـنَـالَ وِلَايَـةَ الـرَّحْـمَـنِ
يَـكْـفِـيـكَ مَـنْ وَسِـعَ الْـخَـلَائِـقَ رَحْـمَـةً وَكِـفَـايَـةً ذُو الْـفَـضْـلِ وَالإحْـسَـانِ
يَـكْـفِـيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ أَلْـطَـافُـهُ تَـأْتِـي إلَـيْـكَ بِـرَحْـمَـةٍ وَحَـنَـانِ
يَـكْـفِـيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِـي سِـتْـرِهِ وَيَـرَاكَ حِـيـنَ تَـجِـيءُ بِـالْـعِـصْـيَـانِ
يَـكْـفِـيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِـي حِـفْـظِـهِ وَوِقَـايَـةٍ مِـنْـهُ مَـدَى الأَزْمَـانِ
يَـكْـفِـيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِـي فَـضْـلِـهِ مُـتَـقَـلِّـبًـا فِـي الـسِّـرِّ وَالإعْـلَانِ

الشرح: يوصي المؤلف من يريد أن يظفر بولاية الرحْمن سبحانه، وينجو من ولاية الشيطان والأوثان: أن يفارق جَميع الناس فيما يقعون فيه من ألوان الشرك وصوره، من

تعظيم غير اللَّه ومحبته، واتخاذه ندًّا مع اللَّه يدعوه، ويرغب إليه، ويتقرب إليه بأنواع القربات، فإن ولاية اللَّه لا تنال إلا بتوحيده وإخلاص الدين له، واللَّه سبحانه فيه كل الكفاية لعبده، بحيث لا يحتاج معه إِلَى غيره، فهو الذي شمل الخلائق كلهم برحمته، ووسعهم فضله وإحسانه، وهو الذي لَمْ ينقطع إحسانه عن عبده طرفة عين، بل هو دائم الإحسان وقديمه، وهو الذي لَمْ تزل ألطافه تتوارد على عبده رحمة وحنانًا، وهو الذي لَمْ يزل يضع ستره على عبده وهو مقيم على معصيته، وهو الذي لَمْ يزل عبده فِي حفظه وكلاءته ووقايته طول عمره، وهو لَمْ يزل عبده متقلبًا فِي فضله فِي سره وعلانيته.

فَرَبٌّ هذا شأنه، أليس يكفي عبده حَتَّى يدعو معه غيره، وينْزل حاجاته بباب من سواه؟!

* * *

يدْعُوهُ أَهْلُ الأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ... ءِ فَكُلَّ يَوْم رَبُّنَا فِي شَانِ
وَهْوَ الْكَفِيلُ بِكُلِّ مَا يدْعُونَهُ ... لَا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ
فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالظْ ... ظُهَرَاءِ أَمْرٌ بَيِّنُ الْبُطْلَانِ
مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَشْبِيهٍ لَهُمْ ... بِاللهِ وَهْوَ فَأَقْبَحُ الْبُهْتَانِ
مَعْ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَهُ سُبْحَانَهُ ... مَا عَطَّلُوا الأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ
لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيسَ لَدَيهِ إِلْ ... لَا النَّفْيُ أَيْنَ النَّفْيُ مِنْ إِيمَانِ
وَالْقَلْبُ لَيْسَ يُقِرُّ إِلَّا بِالتَّعَبْ ... بُدِ فَهْوَ يَدْعُوهُ إِلَى الأَكْوَانِ
فَتَرَى الْمُعَطِّلَ دَائِمًا فِي حِيرَةٍ ... مُتَنَقِّلًا فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ
يَدْعُو إِلَهًا ثُمَّ يَدْعُو غَيرَهُ ... ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا مَدَى الأَزْمَانِ
وَتَرَى الْمُوَحِّدَ دَائِمًا مُتَنَقِّلًا ... بِمَنَازِلِ الطَّاعَاتِ وَالإِحْسَانِ
مَا زَالَ يَنْزِلُ فِي الْوَفَاءِ مَنَازِلًا ... وَهْيَ الطَّرِيقُ لَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ
لَكِنَّمَا مَعْبُودُهُ هُوَ وَاحِدٌ ... مَا عِنْدَهُ رَبَّانِ مَعْبُودَانِ

الشرح: فهو سبحانه يدعوه أهل سمائه وأهل أرضه، لا تغلطه المسائل، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يتبرم بإلحاح السائلين، وهو الضامن لعباده بإعطائهم كل ما يسألونه إياه من غير أن ينقص ما عنده، بل يمينه سبحانه ملأى، لا تغيضها نفقة، ولو أن عباده كلهم

قاموا فِي صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كل واحد مسألته؛ ما نقص ذلك من ملكه، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

وإذا كان الأمر كذلك، فاتخاذ العبد وسائط فيما بينه وبين اللَّه من الشفعاء والشركاء والظهراء أمر فِي غاية البطلان؛ لأنه سوء ظن بالرب -جل شأنه- واتِّهام له بالحاجة إلَى من يعلمه بأحوال خلقه، أو يغير إرادته، أو يستخرج لَهم إحسانه ورحمته، وفيه أيضًا تشبيه لَهم باللَّه فِي استحقاق العبادة والتعظيم، وهو من أقبح البهتان.

والمشرك مع تشبيه غير اللَّه به، فهو يقصد تعظيمه سبحانه، ولا يجحد صفاته ولا يعطلها، ولكن المعطل ليس عنده إلا النفي والنكران، وأين النكران من الإيمان؟!

وإذا كان القلب لابد له أن يتعبد لشيء، فإذا لَمْ يعبد اللَّه اتجه إلَى عبادة غيره؛ كان المعطل فِي حيرة من أمره؛ لأنه لما نفى الذات، أو عطلها عن صفاتِها، لَمْ يجد ما يعبده من الإله الحق، فيتنقل بعبادته بين هذه الأعيان المخلوقة، فهو يدعو إلَهًا اليوم، ثُمَّ يدعو غيره غدًا، ويظل هذا شأنه طول عمره يتعبد لآلهة شتى، لا يكاد يثبت على عبادة واحد منها أبدًا، وأما الموحد فلا ينتقل من إله إلَى إله، فحاشاه من هذا الإشراك حاشاه، ولكنه يتنقل فِي منازل الطاعات ومراتب الإحسان، مرتقيًا فيها من درجة إلَى درجة وهو سائر إلَى ربه، ولكن معبوده فِي كل هذه المنازل هو اللَّه ﷻ وحده، ليس له ربان معبودان.

فصل في مَثَل المشرك والمعطل

أَيْنَ الَّذِي قَدْ قَالَ في مَلِكٍ عَظِيـ ... ـم لَسْتَ فِينَا قَطُّ ذَا سُلْطَانِ

مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُلْكِ شَيْ ... ءٌ كُلُّهَا مَسْلُوبَةُ الْوِجْدَانِ

فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ أَوْ ... دَبَّرْتَ أَمْرَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا تُنَفِّذُهُ الرَّعَا ... يَا أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ

أَوْ كُنْتَ ذَا أَمْرٍ وَذَا نَهْيٍ وَتَكْـ ... ـلِيمٍ لِمَنْ وَافَى مِنَ الْبُلْدَانِ

أَوْ كُنْتَ ذَا سَمْعٍ وَذَا بَصَرٍ وَذَا ... عِلْمٍ وَذَا سُخْطٍ وَذَا رِضْوَانِ

أَوْ كُنْتَ قَطُّ مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا ... مُتَصَرِّفًا بِالْفِعْلِ كُلَّ زَمَانِ

أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الْـ ... ـفِعْلِ الَّذِي قَدْ قَامَ بِالأَذْهَانِ

أَوْ كُنْتَ حَيًّا فَاعِلًا بِمَشِيئَةٍ ... وَبِقُدْرَةٍ أَفْعَالَ ذِي السُّلْطَانِ

فِعْلٌ يقُومُ بِغَيرِ فَاعِلِهِ مُحَا ... لٌ غَيرُ مَعْقُولٍ لِذِي الإنْسَانِ
بَلْ حَالَةُ الْفَعَّالِ قَبْلُ وَمَعْ وَبَعْـ ... ـدُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِلَا فُرْقَانِ
وَاللهِ لَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيئًا إِذَا ... مَا كَانَ شَأْنُكَ مِنْكَ هَذَا الشَّانِ
لَا دَاخِلًا فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجٍ ... عَنَّا خَيَالًا دُرْتَ فِي الأَذْهَانِ
فَبِأَيِّ شَيءٍ كُنْتَ فِينَا مَالِكًا ... مُلْكًا مُطَاعًا قَاهِرَ السُّلْطَانِ
اسْمًا وَرَسْمًا لَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... شَأْنُ الْمُلُوكِ أَجَلُّ مِنْ ذَا الشَّانِ

الشرح: يضرب المؤلف فِي هذه الأبيات والَّتِي بعدها مثلين، مثلًا للمعطل الذي ينفي صفات الكمال عن اللَّه ﷻ ويجحدها، ومثلًا للمشرك الذي يقر بِها، ولكنه يتخذ بينه وبين اللَّه وسطاء، يرفعون دعاءه إليه، ويقضون حوائجه، ومنهما يتبين أن المشرك أحسن حالًا من المعطل.

فالمعطل إذا خاطب ربه يقول له: إنك فينا لست ذا تسلط وقدرة، وليس لك من صفات الملك شيء، بل أنت مسلوب هذه الصفات فاقدها، فإنك لَمْ تستو على سرير ملكك تدبر من هناك أمور خلقك، ولَمْ تخاطب عبادك بخطاب يفهمونه عنك، ولَمْ تعهد إليهم بمرسوم ينفذونه كما هو شأن الملوك، فلا أمر لك فيهم ولا نَهي، ولا خطاب ولا تكليم لمن وافوا إليك ليسمعوا منك، ولست كذلك ذا سمع تسمع به أصوات خلقك وشكاياتِهم الَّتِي يجأرون إليك، ولست ذا بصر تبصر به أشخاصهم وأحوالهم وما يتصرفون فيه من أعمالهم، ولست ذا علم بِما يجري فِي مملكتك من شئون وأحداث، بل كلها تتم من وراء ظهرك، ولا تملك أن تسخط وتغضب على من خالفك وعصى أمرك، ولا أن ترضى عمن أطاعك واتبع رسلك، ولست قط مكلمًا بالفعل أحدًا من خلقك، ولا لك قدرة على التكلم والتكليم، وليس لك فِي مملكتك فعل قط ولا تصرف، فلست تفعل ما تشاء كما يفعل الملوك ما يشاءون، بل أنت لا حياة لك ولا مشيئة، ولا قدرة على فعل مما يفعله أصحاب السلطان، وكيف يتأتَّى أن يكون لك فعل والفعل إنَّما قام بغيرك. وهل يقوم الفعل بغير فاعله؟! بل حالك قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل هي هي، لَمْ يعرض لك حال صرت فيها فاعلًا، ولا خالقًا، ولا رازقًا، ولا مدبرًا، فما دام هذا شأنك، ولَمْ تتصف بصفة الفعل، فلست فِي ملكك فاعلًا لشيء، ولا مدبرًا لأمر، كما أنك لا مكان لك، ولا جهة يتجه إليك عبادك نحوها، فلست داخل مملكتك ولا خارجها، بل أنت إن حقق الأمر

عليك؛ لَمْ تزد أن تكون صورة فِي الخيال، لا حقيقة لَهَا فِي عالم الواقع.

فبأيِّ شيء إذن تكون ملكًا علينا واجب الطاعة قاهر السلطان، وما أنت إلا اسم ورسم لا حقيقة تحتهما، بل شأن الملوك أجلُّ من هذا وأعظم؟!

* * *

هَـذَا وَثَـانٍ قَـالَ أَنْـتَ مَـلِـيـكُـنَـا ... وَسِـوَاكَ لَا نَـرْضَـاهُ مِـنْ سُـلْـطَـانِ

إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ جَمِيعَهَا ... وَلأَجْـلِ ذَا دَانَـتْ لَـكَ الـثَّـقَـلَانِ

وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ وَاسْـ ... ـتَـوْلَـيـتَ مَـعْ هَـذَا عَـلَـى الْـبُـلْـدَانِ

لَـكِـنَّ بَـابَـكَ لَـيـسَ يَـغْـشَـاهُ امْـرُؤٌ ... إِنْ لَـمْ يَـجِـئْ بِـالـشَّـافِـعِ الْـمِـعْـوَانِ

وَيَـذِلُّ لِـلْـبَـوَّابِ وَالْـحُـجَّـابِ وَالـشْـ ... ـشُـفَـعَـاءِ أَهْـلِ الْـقُـرْبِ وَالإِحْـسَـانِ

أَفَـيَـسْـتَـوِي هَـذَا وَهَـذَا عِـنْـدَكُـمْ ... وَالـلـهِ مَـا اسْـتَـوَيَـا لَـدَى الإِنْـسَـانِ

وَالْـمُـشْـرِكُـونَ أَخَـفُّ فِـي كُـفْـرَانِـهِـمْ ... وَكِـلَاهُـمَـا مِـنْ شِـيـعَـةِ الـشَّـيـطَـانِ

إِنَّ الْـمُـعَـطِّـلَ بِـالْـعَـدَاوَةِ قَـائِـمٌ ... فِـي قَـالَـبِ الـتَّـنْـزِيـهِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

الشرح: وأما الثاني وهو المشرك: فإنه أقر للَّه بتمام الربوبية والانفراد بالملك والسلطان؛ لأنه حائز لجميع صفات الكمال الَّتِي لابد منها فِي تمام الملك، ومن أجلها خضع له جَميع الخلق، ودان له الثقلان من الجن والإنس، فهو ملك مستوٍ على سرير ملكه، عالٍ على جَميع خلقه، قاهر لَهم، مستولٍ عليهم، بيده أزمة أمورهم، ولا يخرج شيء منهم عن قهره وسلطانه، وهو عظيم فِي سلطانه، لا يستطيع أحد من خلقه أن يصل إليه، ولا أن يغشى بابه، إلا إذا التمس إليه الشفعاء والوسطاء، فيذل لَهم، ويتملقهم، ويقوم لَهم بأنواع العبادة حَتَّى يدخلوه على الملك.

فهل يستوي هذا الذي أقر للَّه بتمام الربوبية، وأثبت له ما أثبت لنفسه من صفات الكمال، ولَمْ يجحد منها شيئًا، لكنه جعل له أندادًا من خلقه -ومن عطله عن صفات كماله، فلم يثبت علوه على خلقه، ولا كلامه لأحد من خلقه، ولا رحمته، ولا غضبه، ولا حكمته، ولا أمره، ولا نَهيه.

لا شك أن المشركين أهون فِي كفرانِهم من هؤلاء المعطلة وإن كان الفريقان من أحزاب الشيطان، فالمعطل عدو للَّه قد ناصب ربه العداوة، ولكنه يتظاهر بأنه يقصد تنْزيهه عما لا يليق به من التشبيه والتجسيم.

فصل فيما أعد الله تعالى من الإحسان للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ عند فساد الزمان

هَذَا وَلِلْمُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّةِ الْـ ... مُخْتَارِ عِنْدَ فَسَادِ ذِي الأَزْمَانِ
أَجْرٌ عَظِيمٌ لَيسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إلَّا الَّذِي أَعْطَاهُ لِلإِنْسَانِ
فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنٍ لَهُ ... وَرَوَاهُ أَيضًا أَحْمَدُ الشَّيبَانِي
أَثَرًا تَضَمَّنَ أَجْرَ خَمْسِينَ امْرَأً ... مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ
إسْنَادُهُ حَسَنٌ وَمِصْدَاقٌ لَهُ ... فِي مُسْلِمٍ فَافْهَمْهُ بِالإحْسَانِ
إنَّ الْعِبَادَةَ وَقْتَ هَرْجٍ هِجْرَةٌ ... حَقًّا إلَيَّ وَذَاكَ ذُو بُرْهَانِ
هَذَا فَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَكَ أَيهَا السُّـ ... ـنِّيُّ بِالتَّحْقِيقِ لَا بِأَمَانِي
هَذَا وَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَهُمُ بِمَا ... قَالَ الرَّسُولُ وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَلَقَدْ أَتَى مِصْدَاقُهُ فِي التِّرْمِذِيـ ... ـي لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ وَاعِيَتَانِ
فِي أَجْرِ مُحْيِي سُنَّةٍ مَاتَتْ فَذَا ... كَ مَعَ الرَّسُولِ رَفِيقُهُ بِجِنَانِ

الشرح: وردت أحاديث كثيرة تدل على ما أعد الله سبحانه من أجر عظيم للمتمسكين بسنَّة نبيه المختار ﷺ عند فساد الزمان، وانحلال عرى الدين، فروى أبو داود رحمه الله في سننه، وروى أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه في مسنده أثرًا تضمن أن للعامل من هذه الأمة عند فساد الزمان أجر خمسين رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولفظ الحديث عند أبي داود: وعن أبي أمية الشيباني قال: «سألت أبا ثعلبة الخشني، فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]؟. قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: **بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حَتَّى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك** -يعني: بنفسك- **ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيها مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**». وزاد في غيره: «قالوا: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: **أجر خمسين منكم**». وله شاهد يقويه فيما رواه مسلم رحمه الله من أن العبادة في وقت الهرج -أي: القتل والفتن- تعدل هجرة إلَى

رسول اللَّه ﷺ.

هذا ولأهل السنة هجرات كثيرة، لا بالأماني والأحلام، ولكن بالتحقيق والتثبيت، فلهم هجرة إلَى اللَّه ﷻ بالإخلاص والتوحيد، ولَهم هجرة إلَى رسول اللَّه ﷺ بالاقتداء والاتباع، ولَهم هجرة من البدع إلَى السنن، ومن المعاصي إلَى الطاعات، ومن الأقوال والآراء إلَى ما قاله الرسول ﷺ وما جاء فِي القرآن.

وله شاهد أيضًا فيما رواه الترمذي من أن الذي يُحيي سنة من سنن رسول اللَّه ﷺ ماتت يكون رفيقه فِي الجنة.

* * *

هَـذَا وَمِـصْـدَاقٌ لَـهُ أَيـضًـا أَتَـى ... فِـي الـتِّـرْمِـذِيِّ لِـمَـنْ لَـهُ عَـيـنَـانِ

تَـشْـبِـيـهُ أُمَّـتِـهِ بِـغَـيْـثٍ أَوَّلٌ ... مِـنْـهُ وَآخِـرُهُ فَـمُـشْـتَـبِـهَـانِ

فَلِذَاكَ لَا يُدْرَى الَّذِي هُوَ مِنْهُمَا ... قَدْ خُصَّ بِالتَّفْضِيلِ وَالرُّجْحَانِ

وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الْفَضْلَ فِي الطْ ... طَـرَفَـيـنِ أَعْـنِـي أَوَّلًا وَالـثَّـانِـي

وَالْوَسْطُ ذُو ثَبَجٍ فَأَعْوَجُ هَكَذَا ... جَاءَ الْحَدِيثُ وَلَيسَ ذَا نُكْرَانِ

وَلَقَدْ أَتَى فِي الْوَحْيِ مِصْدَاقٌ لَهُ ... فِـي الـثُّـلَّـتَـيـنِ وَذَاكَ فِـي الْـقُـرْآنِ

أَهْلُ الْيَمِينِ فَثُلَّةٌ مَعْ مِثْلِهَا ... وَالسَّابِقُونَ أَقَلُّ فِي الْحُسْبَانِ

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ تَابِعَهُمْ هُمُ الْـ ... غُـرَبَـاءُ لَـيـسَـتْ غُـرْبَـةَ الأَوْطَـانِ

لَـكِـنَّـهَـا وَالـلـهِ غُـرْبَـةُ قَـائِـمٍ ... بِـالـدِّيـنِ بَـيـنَ عَـسَـاكِـرِ الـشَّـيـطَـانِ

فَلِذَاكَ شَبَّهَهُمْ بِهِ مَتْبُوعُهُمْ ... فِـي الْـغُـرْبَـتَـيـنِ وَذَاكَ ذُو تِـبْـيَـانِ

لَمْ يُشْبِهُوهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ... مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ لَـيـسَ يَـسْـتَـوِيَـانِ

فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ الْغُرَبَاءَ بِالْـ ... مُـحْـيِـيـنَ سُـنَّـتَـهُ بِـكُـلِّ زَمَـانِ

الشرح: وروى كذلك الترمذي مصداقًا لِهذا الأثر الدال على فضل أهل الغربة العاملين بالسنة عند فساد الأمة قوله عليه السلام فيما رواه عنه عمار بن يسار رضي الله عنه: **«مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره»**.

قال ابن كثير رحمه الله بعد روايته لِهذا الحديث: «فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلَى أول الأمة فِي إبلاغه محتاج إلَى من بعدهم،

كذلك هو محتاج إِلَى القائمين به فِي أواخرها، وتثبيت للناس على السنة ورواياتها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إِلَى المطر الأول وإِلَى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد؛ فإنه لولاه ما نبت فِي الأرض، ولا تعلق أساسه بِها».

ولقد ورد أثر آخر يدل على أن الخير فِي طرفي هذه الأمة -يعني: فِي أولها وآخرها- وأما وسطها فذو ثبج، أي: أحدب معوج.

ولقد أتى مصداق لِهذه الآثار فِي القرآن عند قوله تعالَى من سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

وقوله من نفس السورة فِي شأن أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠]. فلما ذكر أصحاب اليمين جعلهم ثلتين: ثلة من أول هذه الأمة، وثلة من آخرها، وعندما ذكر السابقين جعلهم ثلة من الأولين وقليلًا من الآخرين، وليس ذلك إلا لأن التابع لهؤلاء السابقين فِي آخر الزمن يكونون أهل قلة وغربة، كما قال -صلوات اللَّه وسلامه عليه- فيما رواه مسلم عن أبِي هريرة: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»**.

ووردت روايات عدة فِي تفسير هؤلاء الغرباء، ففي بعضها: أنَّهم النُّزاع من القبائل. وفِي أخرى: أنَّهم الذين يصلحون إذا فسد الناس. وفِي رواية: أنَّهم الذين يفرون بدينهم من الفتن. وفِي أخرى: أنَّهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنة رسول اللَّه ﷺ.

فهذه الغربة المذكورة فِي هذا الحديث ليست غربة عن الأهل والأوطان، ولكنها غربة المتمسك بدينه، العاضّ عليه بناجذيه بين جنود الشيطان، فلذلك شبههم الرسول ﷺ فِي غربتيه الأولى والثانية فِي قلة الأعوان والأنصار.

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي فِي تفسيره لِهذا الحديث:

«قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا**». يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه على ضلالة عامة، كما قال النَّبِيُّ ﷺ فِي حديث عياض بن حمار الذي خرجه مسلم: «**إن اللَّه نظر إِلَى أهل الأرض فمقتهم -عربِهم وعجمهم- إلا بقايا من أهل الكتاب**». فلما بعث النَّبِيُّ ﷺ، ودعا إِلَى الإسلام؛ لَمْ يستجب له فِي أول الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان

المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته، يؤذى غاية الأذى، وينال منه، وهو صابر على ذلك فِي اللَّه ﷻ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين، يشردون كل مشرد، ويهربون بدينهم إلَى البلاد النائية، كما هاجروا إلَى الحبشة مرتين، ثُمَّ هاجروا إلَى المدينة، وكان منهم من يُعذَّب فِي اللَّه، ومنهم من يُقتَل، فكان الداخلون فِي الإسلام حينئذ غرباء، ثُمَّ ظهر الإسلام بعد الهجرة إلَى المدينة وعز، وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك فِي دين اللَّه أفواجًا، وأكمل اللَّه لَهم الدين، وأتم النعمة عليهم.

وتوفي رسول اللَّه ﷺ والأمر على ذلك وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة فِي دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك فِي زمن أبِي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ثُمَّ عمل الشيطان مكائده على المسلمين، وألقى بأسهم بينهم، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات، ولَمْ تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا حَتَّى استحكمت مكيدة الشيطان، وأطاعه أكثر الخلق، فمنهم من دخل فِي طاعته فِي فتنة الشبهات، ومنهم من دخل فِي فتنة الشهوات، ومنهم من جمع بينهما، وكل ذلك مما أخبر النَّبِيُّ ﷺ بوقوعه . . .

إلَى أن يقول:

فلما دخل أكثر الناس فِي هاتين الفتنتين أو إحداهُما؛ أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخوانًا متحابين متواصلين، فإن فتنة الشهوات عمت غالب الخلق، ففتنوا بالدنيا وزهرتِها، وصارت غاية قصدهم، لَهَا يطلبون، وبِها يرضون، ولَهَا يغضبون، ولَهَا يوالون، وعليها يعادون، فقطعوا لذلك أرحامهم، وسفكوا دماءهم، وارتكبوا معاصي اللَّه بسبب ذلك.

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة، فسببها تفرق أهل القبلة، وصاروا شيعًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، وأصبحوا أعداء وفرقًا وأحزابًا، بعد أن كانوا إخوانًا، قلوبُهم على قلب رجل واحد، فلم ينج من هذه الفرق كلها إلا الفرقة الواحدة الناجية، وهم المذكورون فِي قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حَتَّى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك**». وهم فِي آخر الزمان الغرباء المذكورون فِي هذه الأحاديث الذين يصلحون إذا فسد الناس، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن، وهم النُّزاع من القبائل؛ لأنَّهم قلوا، فلا يوجد فِي كل قبيلة منهم إلا الواحد والاثنان، وقد لا يوجد فِي بعض القبائل منهم أحد، كما كان

الداخلون فِي الإسلام فِي أول الأمر كذلك، وبِهذا فسر الأئمة هذا الحديث». اهـ.

* * *

طُوبَى لَهُمْ وَالشَّوْقُ يَحْدُوهُمْ إِلَى ... أَخْذِ الْحَدِيثِ وَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
طُوبَى لَهُمْ لَمْ يَعْبَئُوا بِنُحَاتَةِ الْـ ... أَفْكَارِ أَوْ بِزُبَالَةِ الأَذْهَانِ
طُوبَى لَهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ الْعَزَا ... ئِمِ قَاصِدِينَ لِمَطْلَعِ الإِيمَانِ
طُوبَى لَهُمْ لَمْ يعْبَئُوا شَيْئًا بِذِي الْـ ... آرَاءِ إِذْ أَغْنَاهُمُ الْوَحْيَانِ
طُوبَى لَهُمْ وَإِمَامُهُمْ دُونَ الْوَرَى ... مَنْ جَاءَ بِالإِيمَانِ وَالْفُرْقَانِ
وَاللهِ مَا ائْتَمُّوا بِشَخْصٍ دُونَهُ ... إِلَّا إِذَا مَا دَلَّهُمْ بِبَيَانِ

الشرح: فالعاقبة الطيبة والنهاية الحميدة فِي جنة الخلد الَّتِي عرضها السموات والأرض لهؤلاء الغرباء، الذين حَدَا بِهم الشوق إِلَى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فأكبوا عليهما دراسة وفقهًا وتأملًا، وعولوا عليهما فِي كل أمورهم، ولَمْ يكترثوا لسواهما من هذه الآراء القذرة، الَّتِي هي نحت أفكار معوجة، ووساخة أذهان منحرفة، فهؤلاء الغرباء لَمْ يلتفتوا إِلَى شيء منها، بل امتطوا صهوات العزائم إِلَى حيث مطلع الإيمان ومشرق النور، فاستغنوا بالوحيين عن كل ما سواهما، ولَمْ يتخذوا إمامًا لَهم إلا رسول اللَّه ﷺ الذي بعثه اللَّه معلمًا للإيمان ومبينًا للفرقان.

واللَّه ما عرفوا لَهم إمامًا غيره، إلا رجلًا يدلهم على ما قاله وجاء به من الهدى والعلم والإيمان.

* * *

فِي الْبَابِ آثَارٌ عَظِيمٌ شَأْنُهَا ... أَعْيَتْ عَلَى الْعُلَمَاءِ فِي الأَزْمَانِ
إِذْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ صَحَابَةَ الْـ ... مُخْتَارِ خَيرُ طَوَائِفِ الإِنْسَانِ
ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيسَ فِيهِ الْخُلْفُ بَيْـ ... نَ اثْنَينِ مَا حُكِيَتْ بِهِ قَوْلَانِ
فَلِذَاكَ ذِي الآثَارِ أَعْضَلَ أَمْرُهَا ... وَبَغَوْا لَهَا التَّفْسِيرَ بِالإِحْسَانِ
فَاسْمَعْ إِذَنْ تَأْوِيلَهَا وَافْهَمْهُ لَا ... تَعْجَلْ بِرَدٍّ مِنْكَ أَوْ نُكْرَانِ
إِنَّ الْبِدَارَ بِرَدِّ شَيءٍ لَمْ تُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الْحِرْمَانِ
الْفَضْلُ مِنْهُ مُطْلَقٌ وَمُقَيدٌ ... وَهُمَا لأَهْلِ الْفَضْلِ مَرْتَبَتَانِ

وَالْفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيسَ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَلَى الإطْلَاقِ مِنْ إنْسَانِ
لَا يوجِبُ التَّقْيِيدَ أَنْ يقْضِي لَهُ بِالإسْتِوَاءِ فَكَيفَ بِالرُّجْحَانِ
إذْ كَانَ ذُو الإطْلَاقِ حَازَ مِنَ الْفَضَا ئِلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيدِ بِالإحْسَانِ
فَإذَا فَرَضْنَا وَاحِدًا قَدْ حَازَ نَوْ عًا لَمْ يَحُزْهُ فَاضِلُ الإنْسَانِ
لَمْ يوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْ هِ وَلَا مُسَاوَاةٍ وَلَا نُقْصَانِ
مَا خَلْقُ آدَمَ بِالْيَدَينِ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ كُلِّ رُسْلِ اللهِ بِالْبُرْهَانِ
فَمُحَمَّدٌ أَعْلَاهُمُ فَوْقًا وَمَا حَكَمَتْ لَهُمْ بِمَزِيَّةِ الرُّجْحَانِ
فَالْحَائِزُ الْخَمْسِينَ أَجْرًا لَمْ يَحُزْ هَا فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الإيمَانِ
هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ فَتْحِ الْمُبِينِ وَبَيعَةِ الرِّضْوَانِ
بَلْ حَازَهَا إذْ كَانَ قَدْ فَقَدَ الْمُعِيـ نَ وَهُمْ فَقَدْ كَانُوا أُولِي أَعْوَانِ

الشرح: وقد حار العلماء فِي كل عصر فِي تفسير هذه الآثار العظيمة الَّتِي دلت على زيادة أجر العاملين فِي آخر الزمان على الصحابة ﵃؛ إذ كانوا قد أجمعوا على أن الصحابة هم أفضل خلق اللَّه بعد النبيين، وهذا أمر معلوم بالضرورة، لَمْ يختلف فيه اثنان، ولا حكي فيه قولان، فلذاك أشكل أمر هذه الآثار على العلماء، وحاولوا التوفيق بينها وبين ما هو متفق عليه من ذلك، فإذا أردت أن تعرف تأويل هذه الآثار، وأن تقف على جلية الأمر فيها، فاسمع لما يقال لك من ذلك، وحاول أن تفهمه، ولا تعجل برد هذه الآثار وإنكارها، فإن من أسباب الخيبة والحرمان أن يتعجل الإنسان رد ما لَمْ يحط به علمًا من الأمور.

فالفضل قسمان:

أحدهما: مطلق غير مقيد بعمل أو صفة أو وقت أو نحوها.

والثاني: مقيد بشيء من ذلك.

فالفضل للقيد لا يوجب لصاحبه فضلًا مطلقًا، فلا يصح أن يحكم له بالمساواة مع صاحب الفضل المطلق، فضلًا عن أن يكون راجحًا عليه، فإن ذا الفضل المطلق قد أحرز من الفضائل والمناقب ما لَمْ يحرزه صاحب الفضل المقيد، فإذا فرضنا واحدًا من الناس قد حاز نوعًا من الفضائل لَمْ يحزه الذي هو أفضل منه؛ لَمْ يوجب تخصيصه بِهذا النوع فضلًا

عليه ولا مساواة له.

فخلق اللَّه آدم بيديه ميزة لآدم ﷺ، لَمْ توجب له أن يكون أفضل من نبينا ﷺ، وكذا خصائص الرسل بعد آدم، كتخصيص موسى بالتكليم، وعيسى بأنه روح اللَّه وكلمته، لَمْ يوجب لَهم أن يكونوا أفضل من مُحمَّد، بل هو أعلاهم شرفًا، وأرفعهم عند اللَّه درجات، فكذلك الحائز لأجر خمسين رجلًا من الصحابة، لَمْ يحزها فِي جَميع الأعمال الإيمانية حَتَّى يكون أفضل أو مساويًا للصحابة، فإنه لَمْ يحزها فِي بدر، ولا أحد، ولا فِي فتح مكة، ولا بيعة الرضوان تحت الشجرة، وإنَّما حازها بسبب غربته، وفقده للناصر المعين، على حين كانوا هم يجدون على الحق أعوانًا.

* * *

وَالرَّبُّ لَيسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ... مُتَحَمِّلُونَ لأَجْلِهِ مِنْ شَانِ

فَتَحَمُّلُ الْعَبْدِ الْوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ ... فَيْضِ الْعَدُوِّ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ ... وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

يَكْفِيهِ ذُلًّا وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ ... أَنْصَارِ بَينَ عَسَاكِرِ الشَّيطَانِ

فِي كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إنْ ... تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الْفَرِيقُ الثَّانِي

فَسَلِ الْغَرِيبَ الْمُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي ... يَلْقَاهُ بَينَ عِدًا بِلَا حُسْبَانِ

هَذَا وَقَدْ بَعُدَ الْمَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ... عَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإحْسَانِ

وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ ... أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ ... يَكْفِيهِ عِلْمُ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

فِي الْقَلْبِ أَمْرٌ لَيسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إلَّا الَّذِي آتَاهُ لِلإنْسَانِ

بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضَا ... وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ

سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَينَ الْعِبَا ... دِ فَذَاكَ مُولِي الْفَضْلِ وَالإحْسَانِ

فَالْفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيسَ بِصُورَةِ الْـ ... أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإيمَانِ

وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يقُو ... مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ الْبُرْهَانِ

حَتَّى يَكُونَ الْعَامِلَانِ كِلَاهُمَا ... فِي رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ

هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا ... وَالأَرْضِ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ

وَيكُونُ بَينَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلَا حُسْبَانِ
هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَبِذَاكَ تَعْرِفُ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

الشرح: واللَّه ﷻ أكرم من أن يضيع ما يتحمله عبده لأجله من شئون، فتحمله مرارة الرضا والصبر مع كثرة الأعداء وقلة الأنصار مما يدل على صدق يقينه باللَّه ﷻ، وقوة معرفته ومحبته له، فبحسبه من الذل والغربة قلة أنصاره بين جحافل الشرك الَّتِي تغزوه فرقة بعد فرقة، كلما رجعت عنه فرقة وافته فرقة أخرى.

فسل هذا الكسير المهيض الجناح عما يلقاه من أعدائه الذين لا حصر لَهم مع تطاول الأمد، وبعد العهد بالقرون الفاضلة؛ ولذلك تراه فِي صبر على أذى أعدائه كالقابض على الجمر، وترى فِي أحشائه نارًا متقدة من الحزن والألم، واللَّه سبحانه هو الذي يعلم ما فِي قلبه من أمور عظيمة لا يقدر قدرها إلا هو سبحانه؛ إذ هو موليها ومعطيها فيه بر ووفاء وتوحيد، وإخلاص وصبر ورضًا وشكر وعرفان، وتحكيم للسنة والقرآن.

فسبحان مولى الفضل والإحسان الذي قسم الفضل بين عباده بالقسط والميزان، والفضل عنده ليس بظواهر الأعمال، بل بِما تقوم عليه من حقائق الإيمان، فهي تتفاوت فِي الفضل بقدر ما يكون فِي قلب صاحبها من الإخلاص واليقين والخوف والمحبة والتذلل والخضوع ... إلخ، حَتَّى إن الرجلين ليكونان فِي صلاة واحدة، ركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وإن بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، فإحداهما أداها صاحبها فِي خشوع وخشية وحضور قلبه مع اللَّه، والأخرى أداها صاحبها وهو ساهٍ غافل عن صلاته، إنَّما يؤديها حركات بالجوارح، وأقوالًا باللسان، دون أن يكون حاضر الجنان.

وبين هاتين الدرجتين من المراتب ما لا حصر له، فيكون بين ثواب هذه وتلك من الدرجات ما لا يحصيه إلا اللَّه، فهذا عطاؤه وفضله الذي قسمه بين أهل الفضل من خلقه، وهذه حكمته البالغة فِي تفاوت درجات الأعمال فِي الإحسان، وتفاوتُها تبعًا لذلك فِي الجزاء، قال تعالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وقال سبحانه من سورة آل عمران: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

* * *

فصل فيما أعد الله تعالى في الجنة لأوليائه المتمسكين بالكتاب والسنة

يَا خَاطِبَ الْحُورِ الْحِسَانِ وَطَالِبًا ... لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الْحَيَوانِ
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ خَطَبْتَ وَمَنْ طَلَبْـ ... ـتَ بَذَلْتَ مَا تَحْوِي مِنَ الأَثْمَانِ
أَوْ كُنْتَ تَدْرِي أَيْنَ مَسْكَنُهَا جَعَلْـ ... ـتَ السَّعْيَ مِنْكَ لَهَا عَلَى الأَجْفَانِ
وَلَقَدْ وَصَفْتُ طَرِيقَ مَسْكَنِهَا فَإِنْ ... رُمْتَ الْوِصَالَ فَلَا تَكُنْ بِالْوَانِي
أَسْرِعْ وَحُثَّ السَّيْرَ جَهْدَكَ إِنَّمَا ... مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانِ
فَاعْشَقْ وَحَدِّثْ بِالْوِصَالِ النَّفْسَ وَابْـ ... ـذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ
وَاجْعَل صِيَامَكَ قَبْلَ لُقْيَاهَا وَيَوْ ... مَ الْوَصْلِ يَوْمَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانِ
وَاجْعلْ نُعُوتَ جَمَالِهَا الْحَادِي وَسِرْ ... تَلْقَ الْمَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من بيان عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة الَّتِي تقوم على إثبات كل ما وصف اللّه به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، وبعد أن دحض عقائد أهل الزيغ والتعطيل -أخذ فِي بيان ما أعد اللّه من الجزاء العظيم فِي جنة النعيم للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ.

فهو ينادي من يريد التزوج بالحور الحسان، وينشد الحظوة بوصالهن فِي جنة الحيوان، الَّتِي هي الحياة الحقة، ومنْزل الكرامة والرضوان.

فيقول له: لو كنت تعلم قدر مخطوبتك ونفاستها؛ لبذلت لَهَا كل ما تقدر عليه من أثمان، ولو كنت تعلم أي دار تسكنها، وأنَّها الدار الَّتِي حوت من صنوف النعيم والسرور كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين، ومما لَمْ يخطر على قلب إنسان؛ لجعلت السعي منك إليها على الأرؤس إن لم تسعف القدمان.

ولقد دَلَلْتُكَ على الطريق المؤدي إلَى هذا المسكن الطيب، وهو العمل بالسنة والقرآن، فإن كنت طالبًا للوصول حقًّا، فإن الطريق لا يقطعه كسلان، بل شَمِّر عن ساعد جدك، وأغذ السير على مطية عزمك، ولا تستطل الطريق، فما سيرك إلا ساعة من زمان، فتذكر قدر مخطوبتك، وعلق بِها قلبك، وحدث بطيب وصالها نفسك، ولا تبخل عليها بغالي المهور والأثمان مادمت ذا قدرة وإمكان، ولا تبالِ بِما تلقاه فِي هذه الدنيا من بؤس

وحرمان، بل قدر كأن عمرك هو شهر رمضان، فأنت تصومه لعدته، وتجعل يوم فطرك هو يوم وصال الأحبة والخلان، وتغنَّ بأوصاف حسنها فِي سيرك، واتخذ منه حداء يلهب شوقك، ويجدد نشاط عزمك، وهناك تزايلك المخاوف كلها، وتصبح فِي سكينة وأمان.

* * *

لَا يُلْهِينَّكَ مَنْزِلٌ لَعِبَتْ بِهِ ... أَيدِي الْبِلَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ

فَلَقَدْ تَرَحَّلَ عَنْهُ كُلُّ مَسَرَّةٍ ... وَتَبَدَّلَتْ بِالْهَمِّ وَالأَحْزَانِ

سِجْنٌ يضِيقُ بصَاحِبِ الإيمَانِ لَا ... كِنْ جَنَّةُ الْمَأْوَى لِذِي الْكُفْرَانِ

سُكَّانُهَا أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْبَطَا ... لَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ

وَأَلَذُّهُمْ عَيشًا فَجَاهِلُهُمْ بِحَقْـ ... قِ اللهِ ثُمَّ حَقَائِقِ الْقُرْآنِ

عَمُرَتْ بِهِمْ هَذِي الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتْ ... مِنْهُمْ رُبُوعُ الْعِلْمِ وَالإيمَانِ

قَدْ آثَرُوا الدُّنْيَا وَلَذَّةَ عَيْشِهَا الْـ ... فَانِي عَلَى الْجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ

صَحِبُوا الأَمَانِيَ وَابْتُلُوا بِحُظُوظِهِمْ ... وَرَضُوا بِكُلِّ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

كَدْحًا وَكَدًّا لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ ... مَا فِيهِ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ أَحْزَانِ

الشرح: فلا يشغلنك عن السير إلَى غايتك والجد للقاء محبوبتك هذا المنْزل الفانِي، الذي عصفت به ريح البلى من قديم الزمان، وهو خلوٌ من كل ما يسر القلب، ويبهج النفس، بل ليس حشوه إلا الهموم والأحزان، وهو حبس للمؤمن يضيق به؛ لأنه يلقى فيه المكاره، ويصيم فيه النفس عن مراتع الشهوات، ويثقلها بقيود الطاعات، ولكنه جنة للكافرين، يرتع فيها منطلقًا من كل قيد متبعًا للأهواء والشهوات، وسكان هذا المنْزل المحشو بالآفات هم أهل البطالة الذين لا يشعرون بالمسئوليات، ولا يقدرون التَّبِعات، وأهل الجهالات الذين رضوا لأنفسهم أن يلتحقوا بغمار العجماوات، وأهل السفالة الذين هجروا معالي الأمور، وأخلدوا إلَى المحقرات والدناءات.

وبالجملة: فهم أنجس الحيوان وأخبث البريات.

وأطيبهم عيشًا فِي هذه الدنيا: هو أشدهم جهلًا بحقوق اللّٰه العظيم وحقائق كتابه الكريم، فهو كما يقول الشاعر:

ذُو العقل يَشْقى فِي النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فِي الشقاوة ينعم

ولقد عمروا هذه الدنيا، وافتنوا فِي عمارتِها، حَتَّى لَمْ يتركوا بابًا للرفاهة إلا ولجوه، ولا طريقًا للشهوة إلا سلكوه، فقد يخيل لمن يراهم يلهثون وراءها، ويمعنون فِي عمارتِها وتزيينها؛ أنَّهم يعملون فِي دار خلد ومنْزل إقامة، لا فِي دار بلًى ومنْزل نفاد، وهم مع ذلك هجروا مجالس العلم، وأقفرت منهم ربوع الإيمان؛ لأنَّهم استحبوا الحياة الدنيا ونعيمها الزائل على ما عند اللَّه للمتقين من جنات ورضوان، وغرتْهم الأماني الباطلة، فعاشوا فيها سعيًا وراء الحظوظ العاجلة، ورضًا بكل هوان ومذلة مع بذل غاية التعب والجهد فِي تحصيلها، فإذا وقع بِهم مكروه من مكارهها اغتموا لذلك أعظم الغم، وإذا فاتَهم شيء من محبوباتِها حزنوا أشد الحزن، فهم دائمًا يتقلبون فِي غموم وأحزان.

* * *

وَاللَّهِ لَو شَاهَدْتَ هَاتِيكَ الصُّدُو ... رَ رَأَيْتَهَا كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

وَوَقُودُهَا الشَّهَوَاتُ وَالْحَسَرَاتُ وَالْـ ... آلامُ لَا تَخْبُو مَدَى الأَزْمَانِ

أَبْدَانُهُمْ أَجْدَاثُ هَاتِيكَ النُّفُو ... سِ اللَّاءِ قَدْ قُبِرَتْ مَعَ الأَبْدَانِ

أَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ وَجُسُومُهُمْ ... فِي كَدْحِهَا لَا فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

لَا تَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ ... فَقَدِ ارْتَضَوْا بِالذُّلِّ وَالْحِرْمَانِ

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الْكُفْرَانِ

لَكِنَّهَا وَاللَّهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الْجَنَاحِ الْقَاصِرِ الطَّيَرَانِ

وَلَقَدْ تَوَلَّتْ بَعْدُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... فَالسَّعْدُ مِنْهَا حَلَّ بِالدَّبَرَانِ

لَا يُرْتَجَى مِنْهَا الْوَفَاءُ لِصَبِّهَا ... أَيْنَ الْوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيفَ يَنَالُهَا ... صَفْوٌ أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

يَا عَاشِقَ الدُّنْيَا تَأَهَّبْ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهُ الْعُشَّاقُ كُلَّ زَمَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ بَلْ رَأَيتَ مَصَارِعَ الْـ ... عُشَّاقِ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

الشرح: وواللَّه لو كشف لك ما فِي صدور أهل الدنيا من شهوات وأحقاد لرأيتها تغلي كغلي المراجل، تحتها نار شديدة الإيقاد؛ لأنَّها تمد دائمًا بحطب من الشهوات المستعرة، والحسرات المضطرمة، والآلام الموجعة، فهي لا تنطفئ أبدًا، ولا يخمد لَهَا رماد، وهم

قد حبسوا أنفسهم فِي سجن أبدانِهم، حَتَّى صارت هذه الأبدان قبورًا لِهذه النفوس الَّتِي قبرت مع الأبدان، وأرواحهم تعيش فِي غربة معهم؛ لأنَّهم عزلوها عن عالمها الأصيل، وحرموها غذاءها من الإيمان والمعرفة، وعاشوا لِهذه الأجسام يتعبون فِي تحصيل ما تتطلبه من متع وشهوات، فكدحهم دائمًا فِي صيانة هذه الأبدان لا فِي رضا الرحْمن.

والعجيب: أنَّهم هربوا من العبودية الَّتِي خلقوا لَهَا، وهي العبودية للَّه الَّتِي تورث صاحبها العز والشرف، فرماهم اللَّه بالعبودية للنفس والشيطان، فلا ترضَ أيها العاقل اللبيب أن تسلك سبيل هؤلاء، ولا تختر لنفسك ما اختاروه لأنفسهم من ذل وحرمان، ومن إيثار هذه الدنيا الفانية الَّتِي يقول فيها الرسول ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء**». فدل هذا على أنَّها أهون على اللَّه من ذلك الجناح الضعيف الذي لا يقوى على الطيران.

وهي غرارة خداعة، تتزين لخطابِها، حَتَّى إذا أنسوا إليها، وظنوا أن قد طاب لَهم وصالها؛ كشرت عن أنيابِها، وقلبت لَهم ظهر المجن، وأدبرت عنهم مولية، فهي لا تقبل إلا لتدبر، ولا تبتسم إلا لتتجهم، ولا تَعِدُ إلا لتخلف، وهي دار لا يؤمل منها الوفاء لعشاقها الذين أغرموا صبابة بِها، وكيف ينتظر الوفاء ممن طبيعته الغدر والإخلاف؟! أم كيف يرجى الصفو ممن هو ممتزج بالأقذاء والأكدار؟!

فيا عشاق الدنيا وخطابَها، انتظروا غدرتَها بكم، ووثبتها عليكم كما فعلت بعشاقها قبلكم، فلقد سمعتم من أخبار صرعاها الغابرين، ورأيتم من مصائر قتلاها الكثيرين ما فيه عبرة لكم إن كنتم من المستبصرين.

فصل في صفة الجنة التي أعدها الله ذو الفضل والمنة لأوليَائه المتمسكين بالكتاب والسنة

فَاسْمَعْ إِذَنْ أَوْصَافَهَا وَصِفَاتِ هَا ... تِيكَ الْمَنَازِلِ رَبَّةِ الإِحْسَانِ
هِيَ جَنَّةٌ طَابَتْ وَطَابَ نَعِيمُهَا ... فَنَعِيمُهَا بَاقٍ وَلَيسَ بِفَانِ
دَارُ السَّلَامِ وَجَنَّةُ الْمَأْوَى وَمَنْـ ... ـزِلُ عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ
فَالدَّارُ دَارُ سَلَامَةٍ وَخِطَابُهُمْ ... فِيهَا سَلَامٌ وَاسْمُ ذِي الْغُفْرَانِ

الشرح: فإذا كنت مشوقًا إِلَى معرفة أوصاف تلك الدار الَّتِي هي مسكن الحور

الحسان، ومستقر الرحمة والرضوان، وأوصاف منازلها وغرفها صاحبة الجمال والإحسان -فاعلم أنَّها جنة طيبة قد تمحض طيبها، فلا يلحقها خبث ولا أذى، وطاب نعيمها، فهو باق لا يبيد ولا يفنى، وهو صاف من كل شوب لا يمازجه كدر، ولا يعرض له عطب ولا عفن، ولا تبلى جدته، ولا تذبل نضارته.

ومن أجل أن الجنة طيبة كانت دار الطيبين، فلا يدخلها إلا من صلح وطاب، كما قال تعالَى من سورة الرعد: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]. وكما قال من سورة النحل: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣١-٣٢]. وكقوله من سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وهي تسمى «دار السلام»؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، لا يمسهم فيها نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن؛ ولأن تحيتهم فيها السلام، يسلم عليهم ربُّهم، كما قال تعالَى من سورة يس: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وتسلم عليهم الملائكة، كما قال تعالَى من سورة الرعد: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وتسمى أيضًا «جنة المأوى»، لقوله تعالَى من سورة الم تنزيل السجدة: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩].

ومعنى المأوى: المستقر والمسكن، فهي مأوى الأبرار من عباد اللَّه، ومسكن جنده الذين هم عساكر القرآن والإيمان.

فصل في عدد درجات الجنة وما بين كل درجتين

دَرَجَاتُهَا مِائَةٌ وَمَا بَيْنَ اثْنَتَيْـ ... ـنِ فَذَاكَ فِي التَّحْقِيقِ لِلْحُسْبَانِ
مِثْلُ الَّذِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَبَيْنَ هَا ... ذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ الْبُرْهَانِ
لَكِنَّ عَالِيهَا هُوَ الْفِرْدَوْسُ مَسْـ ... ـقُوفٌ بِعَرْشِ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ
وَسْطَ الْجِنَانِ وَعُلْوُهَا فَلِذَاكَ كَا ... نَتْ قُبَّةً مِنْ أَحْسَنِ الْبُنْيَانِ

مِنْهُ تَفَجَّرَ سَائِرُ الأَنْهَارِ فَالْـ ... ـمَتْبُوعُ مِنْهُ نَازِلٌ بِجِنَانِ

الشرح: هذا بيان لدرجات الجنة ومنازلها، وهي من الكثرة والتفاوت بحيث لا يعلم عظمها وتباهيها إلا اللَّه ﷻ، قال تعالى من سورة آل عمران: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. وقال من سورة النساء: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ٩٦].

وفِي الصحيحين من حديث أبِي سعيد الخدري، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر فِي الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم**. قالوا: يا رسول اللَّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم! قال: **بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا باللَّه، وصدقوا المرسلين**».

ولهما أيضًا من حديث سهل بن سعد: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرفة فِي الجنة، كما ترون الكوكب فِي أفق السماء**».

وفِي المسند من حديث أبِي سعيد يرفعه: «**إن فِي الجنة مائة درجة، ولو أن العالمين اجتمعوا فِي إحداهن وسعتهم**».

وفِي المسند عنه أيضًا مرفوعًا: «**يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حَتَّى يقرأ آخر شيء معه**».

وهذا صريح فِي أن درجات الجنة أزيد من مائة، وأما تحديدها بمائة كما فِي الحديث الذي قبله وفِي غيره؛ فلعل المراد به كما قال المؤلف فِي كتابه «حادي الأرواح»: «إن هذه المائة هي نِهاية الدرجات، وفِي ضمن كل درجة درجة دونَها، أو المراد بِها الدرجات الكبار الَّتِي تتخللَّها درج صغار.

وورد أن بين كل درجتين مسيرة مائة عام، وورد خمسمائة عام، ولا تناقض بينهما، فإن ذلك محمول على اختلاف السير فِي السرعة والبطء». قاله المؤلف.

وأعلى درجات الجنة: هو الفردوس، فهو وسط الجنة وأعلاها، وسقفه عرش الرحْمن، كما روى البخاري فِي صحيحه عن أبِي هريرة، أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إن فِي الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين فِي سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحْمن، ومنه**

تفجر أنْهار الجنة».

وأعلى درجات الفردوس: هي الوسيلة الَّتِي خص بِها نبينا ﷺ، وسميت وسيلة؛ لأنَّها أقرب الدرجات إلَى العرش، فهي أقرب الدرجات إلَى اللَّه ﷻ.

روى مسلم فِي صحيحه من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النَّبِيّ ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثُمَّ صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى اللَّه عليه بِها عشرًا، ثُمَّ سلوا اللَّه لي الوسيلة، فإنَّها منْزلة فِي الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللَّه، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل اللَّه لي الوسيلة؛ حلت عليه شفاعتي»**.

فصل في أبواب الجنة

أَبْـوَابُـهَـا حَـقٌّ ثَـمَـانِـيَـةٌ أَتَـتْ ... فِي النَّصِّ وَهْي لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

بَـابُ الْـجِـهَـادِ وَذَاكَ أَعْـلاَهَـا وَبَـا ... بُ الـصَّـوْمِ يُـدْعَـى الْـبَـابُ بِـالـرَّيَّـانِ

وَلِـكُـلِّ سَـعْـيٍ صَـالِـحٍ بَـابٌ وَرَبْـ ... ـبُ الـسَّـعْـيِ مِـنْـهُ دَاخِـلٌ بِـأَمَـانِ

وَلَسَوْفَ يُدْعَى الْمَرْءُ مِنْ أَبْوَابِهَا ... جَـمْـعًـا إِذَا وَفَّـى حُـلَـى الإِيـمَـانِ

مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذَا ... كَ خَلِيفَةُ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

الشرح: ورد فِي القرآن ذكر أبواب الجنة من غير نص على عددها، قال تعالَى من سورة الرعد: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سبحانه من سورة الزمر: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

ولكن السنة المطهرة بينت أن عددها ثمانية أبواب، وأن أعلاها هو باب الجهاد، ولَهَا باب يقال له: الريان. لا يدخل منه إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق، فلا يدخل منه أحد غيرهم، ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب يدخل منه أهله المبرزون فيه، وقد يدعى المرء من الأبواب كلها إذا وَفَّى بجميع شعب الإيمان، ومن هؤلاء صديق هذه الأمة، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيين أبو بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ، فقد جاء فِي الصحيحين من حديث أبِي حازم عن سهل بن سعد، أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«فِي الجنة ثمانية أبواب، باب**

منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون».

وفيهما أيضًا من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«من أنفق زوجين فِي شيء من الأشياء فِي سبيل اللّه دعي من أبواب الجنة، يا عبد اللّه هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة؛ دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد؛ دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة؛ دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام؛ دعي من باب الصيام. فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»**.

وفِي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: **«ما منكم من أحد يتوضأ، فيبالغ -أو: فيسبغ- الوضوء، ثُمَّ يقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»**.

فصل في مقدار ما بين الباب والباب منها

سَبْعُونَ عَامًا بَينَ كُلِّ اثْنَينِ مِنْـ ... ـهَا قُدِّرَتْ بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ الْمَعْرُوفِ بِالْـ ... ـخَبَرِ الطَّوِيلِ وَذَا عَظِيمُ الشَّانِ

وَعَلَيهِ كُلُّ جَلَالَةٍ وَمَهَابَةٍ ... وَلَكَمْ حَوَاهُ بَعْدُ مِنْ عِرْفَانِ

الشرح: يعني: أن المسافة الَّتِي تفصل بين كل بابين من أبواب الجنة هي مسيرة سبعين عامًا مقدرة بالعد والحساب، كما ورد فِي حديث لقيط بن عامر الذي رواه الطبراني فِي معجمه أنه خرج وافدًا إلَى رسول اللّه ﷺ، قال: **«قلت: يا رسول اللّه، فما الجنة والنار؟ قال: لعمر إلهك إن للنار سبعة أبواب، ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا، وإن للجنة ثَمانية أبواب، ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا»**.

والحديث طويل وهو عظيم القدر جدًّا، وفيه من أنواع المعرفة ما ينبغي أن يجد كل أحد فِي تحصيله، فليرجع إليه من أراد.

* * *

فصل في مقدار ما بين مصراعي الباب

لَكِنَّ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةَ أَرْبَعِيـ ... ـنَ رَوَاهُ حَبْرُ الأُمَّةِ الشَّيْبَانِي
فِي مُسْنَدٍ بِالرَّفْعِ وَهْوَ لِمُسْلِمٍ ... وَقْفٌ كَمَرْفُوعٍ بِوَجْهٍ ثَانِي
وَلَقَدْ رَوَى تَقْدِيرَهُ بِثَلَاثَةِ الْـ ... أَيَّامِ لَكِنْ عِنْدَ ذِي الْعِرْفَانِ
أَعْنِي الْبُخَارِي الرِّضَا هُوَ مُنْكَرٌ ... وَحَدِيثُ رَاوِيهِ فَذُو نُكْرَانِ

الشرح: **أما المسافة بين مصراعي باب الجنة -وهما عضادتاه- فقد قدرت بمسيرة** أربعين سنة فِي عدة أحاديث، بعضها مرفوع، وبعضها موقوف.

أما المرفوع: فروى الإمام أحمد فِي مسنده من طريق حماد بن سلمة قال: سمعت الجريري يحدث عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أنتم موفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللَّه، وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم وله كظيظ**».

وأما الموقوف: فما رواه مسلم عن خالد بن عمير العدوي قال: «خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثُمَّ قال: أما بعد: فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء، ولَمْ يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يصبها صاحبها، وإنكم منقلبون عنها إلَى دار لا زوال لَهَا، فانقلبوا بخير ما بحضرتكم، ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام».

وقد روي تقدير المسافة بثلاثة أيام، فعن سالم بن عبد اللَّه، عن أبيه، أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الباب الذي يدخل منه أهل الجنة مسيرة الراكب المجد ثلاثًا، ثُمَّ إنَّهم ليضغطون عليه حَتَّى تكاد مناكبهم تزول**». رواه عنه أبو نعيم.

وقد اختار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الرأي؛ **لأنه مطابق لما جاء فِي حديث الشفاعة المتفق** على صحته عن أبِي هريرة من قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لَكَمَا بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى**».

قال المصنف: «فإن الراكب المجدَّ غاية الإجادة على أسرع هجين لا يفتر ليلًا ولا **نَهارًا يقطع هذه المسافة فِي هذا القدر أو قريبًا منه**».

لكن هذا الحديث رغم ذلك أنكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وقال عن راويه: إن أحاديثه مناكير، فاللّٰه أعلم.

فصل في مفتاح باب الجنة

هَذَا وَفَتْحُ الْبَابِ لَيسَ بِمُمْكِنٍ إِلَّا بِمِفْتَاحٍ عَلَى أَسْنَانِ
مِفْتَاحُهُ بِشَهَادَةِ الإِخْلَاصِ وَالتَّـ ـوْحِيدِ تِلْكَ شَهَادَةُ الإِيمَانِ
أَسْنَانُهُ الأَعْمَالُ وَهْيَ شَرَائِعُ الْـ إِسْلَامِ وَالْمِفْتَاحُ بِالأَسْنَانِ
لَا تُلْغِيَنْ هَذَا الْمِثَالَ فَكَمْ بِهِ مِنْ حَلِّ إِشْكَالٍ لِذِي الْعِرْفَانِ

الشرح: لكن هذه الأبواب لا تفتح إلا لمن يملك مفتاحها، ولابد لِهذا المفتاح من أسنان حَتَّى يصلح للفتح.

فمفتاح هذه الأبواب: هي كلمة التوحيد وشهادة الإخلاص الَّتِي هي: لا إله إلا اللَّه.

وأما أسنان هذا المفتاح: فهي شرائع الإسلام كلها: من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والعمرة، والجهاد، وبر الوالدين، وأداء الأمانة، والإحسان إِلَى الجار . . . إلخ.

والمفتاح يكون بأسنانه، فقد ذكر البخاري فِي صحيحه عن وهب بن منبه أنه قيل له: «أليس مفتاح الجنة: لا إله إلا اللَّه؟ قال: بلى، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لَمْ يفتح لك».

وهذا المثال الذي ضربه وهب يجب اعتباره؛ لأن فيه حلًا لمشاكل كثيرة وردت فِي بعض الأحاديث، حيث علق دخول الجنة فيها على قول: «لا إله إلا اللَّه»، أو الموت على التوحيد، فيجب ألَّا يفهم منها أن «لا إله إلا اللَّه» بمجردها كافية فِي دخول الجنة والنجاة من النار، بل لابد معها من حقوقها الَّتِي هي أسنان المفتاح.

* * *

فصل في منشور الجنة الذي يوقع به لصاحبها

هَـذَا وَمَـنْ يَـدْخُـلْ فَـلَـيـسَ بِـدَاخِـلٍ ... إِلَّا بِـتَـوْقِـيـعٍ مِـنَ الـرَّحْـمَـنِ
وَكَـذَاكَ يُـكْـتَـبُ لِـلْـفَـتَـى لِـدُخُـولِـهِ ... مِـنْ قَـبْـلُ تَـوْقِـيـعَـانِ مَـشْـهُـورَانِ
إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الْمَمَاتِ وَعَرْضِ أَرْ ... وَاحِ الْـعِـبَـادِ بِـهِ عَـلَـى الـدَّيَّـانِ
فَـيَـقُـولُ رَبُّ الْـعَـرْشِ جَـلَّ جَـلَالُـهُ ... لِـلْـكَـاتِـبِـيـنَ وَهُـمْ أُولُـو الـدِّيـوَانِ
ذَا الإِسْمُ فِي الدِّيوَانِ يُكْتَبُ ذَاكَ دِيـ ... وَانُ الْـجِـنَـانِ مُـجَـاوِرَ الْـمَـنَّـانِ
دِيـوَانُ عِـلِّـيِّـيـنَ أَصْـحَـابُ الْـقُـرَا ... نِ وَسُـنَّـةِ الْـمَـبْـعُـوثِ بِـالْـقُـرْآنِ
فَإِذَا انْتَهَى لِلْجِسْرِ يوْمَ الْحَشْرِ يُعْـ ... طَـى لِـلـدُّخُـولِ إِذَنْ كِـتَـابًـا ثَـانِ
عِـنْـوَانُـهُ هَـذَا الْـكِـتَـابُ مِـنْ عَـزِيـ ... زٍ رَاحِـمٍ لِـفُـلَانٍ بْـنِ فُـلَانِ
فَدَعُوهُ يدْخُلْ جَنَّةَ الْمَأْوَى الَّتِي ارْ ... تَـفَـعَـتْ وَلَـكِـنَّ الْـقُـطُـوفَ دَوَانِ
هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُذْ كَانَ فِي الْـ ... أَرْحَـامِ قَـبْـلَ وِلَادَةِ الإِنْـسَـانِ
بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهْوَ وَقْتَ الْقَبْضَتَيْـ ... نِ كِـلَاهُـمَـا لِـلْـعَـدْلِ وَالإِحْـسَـانِ
سُبْحَانَ ذي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْـ ... إِجْـلَالِ وَالإِكْـرَامِ وَالـسُّـبْـحَـانِ
وَالـلـهُ أَكْـبَـرُ عَـالِـمُ الأَسْـرَارِ وَالْـ ... إِعْـلَانِ وَالـلَّـحَـظَـاتِ بِـالأَجْـفَـانِ
وَالْـحَـمْـدُ للهِ الـسَّـمِـيـعِ لِـسَـائِـرِ الْـ ... أَصْـوَاتِ مِـنْ سِـرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ
وَهْـوَ الْـمُـوَحَّـدُ وَالْـمُـسَـبَّـحُ وَالْـمُـمَـجْـ ... ـدُ وَالْـحَـمِـيـدُ وَمُـنْـزِلُ الْـقُـرْآنِ
وَالأَمْـرُ مِـنْ قَـبْـلٍ وَمِـنْ بَـعْـدٍ لَـهُ ... سُـبْـحَـانَـكَ الـلَّـهُـمَّ ذَا الـسُّـلْـطَـانِ

الشرح : يعني : أن من كان من أهل السعادة، وكتب له دخول الجنة ؛ فإنه لا يدخلها حَتَّى يأتِي توقيع من اللّه، وإجازة له بالدخول، كما روى الطبراني فِي المعجم من حديث سلمان الفارسي رَحِمَهُ اللَّهُ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «**لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز : بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب من اللّه لفلان بن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية**».

وكذلك يكتب له من قبل هذا التوقيع، فهما توقيعان معلومان :

أحدهما : بعد الموت عند عرض روحه على اللّه عَزَّ وَجَلَّ، فيقول سبحانه لملائكته : «**اكتبوا كتاب عبدي فِي عليين**».

والثاني: إذا انتهى إِلَى الصراط يوم الحشر يعطى لدخول الجنة كتابًا آخر عنوانه ما سبق فِي حديث الطبراني.

هذا وقد كتب اسمه عند نفخ الروح فيه، وهو لا يزال جنينًا فِي بطن أمه، حيث يؤمر الملك بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي هو أم سعيد، بل هناك كتب سابق على ذلك أيضًا، وهو عندما أخرج اللَّه ذرية آدم من صلبه، فقبض منها قبضة بيمينه، وقال: «**هؤلاء للجنة**». وقبض قبضة بشماله، وقال: «**هؤلاء للنار**».

روى الإمام أحمد فِي مسنده من حديث البراء بن عازب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إِلَى جنازة، فجلس رسول اللَّه ﷺ على القبر، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: **أعوذ باللَّه من عذاب القبر** -ثلاث مرات- ثُمَّ قال: **إن المؤمن إذا كان فِي إقبال من الآخرة، وانقطاع من الدنيا؛ تنَزلت إليه ملائكة، كأن على وجوههم الشمس، مع كل واحد منهم حنوط وكفن، فجلسوا منه مد بصره، ثُمَّ يجيء ملك الموت حَتَّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إِلَى مغفرة من اللَّه ورضوان.**

قال: **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لَمْ يَدَعوها فِي يده طرفة عين، حَتَّى يأخذوها فيجعلوها فِي ذلك الحنوط وذلك الكفن، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض.**

قال: **فيصعدون بِها، فلا يَمرون بِها** -يعني: على ملإٍ من الملائكة- **إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان؛ بأحسن أسمائه الَّتِي كانوا يسمونه بِها فِي الدنيا، حَتَّى ينتهوا بِها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، ويشيعه من كل سماء مقربوها إِلَى السماء الَّتِي تليها، حَتَّى ينتهى بِها إِلَى السماء الَّتِي فيها اللَّه** ﷻ، **فيقول اللَّه** ﷻ: **اكتبوا كتاب عبدي فِي عليين، وأعيدوه إِلَى الأرض، فإِنِّي منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى.**

قال: **فتعاد روحه فِي جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربِّي اللَّه. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللَّه. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب اللَّه فآمنت به وصدقت.**

قال: **فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من**

الجنة، وافتحوا له بابًا إِلَى الجنة.

قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فِي قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة؛ حَتَّى أرجع إِلَى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان فِي انقطاع من الدنيا، وإقبال على الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثُمَّ يجيء ملك الموت حَتَّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إِلَى سخط من اللَّه وغضب.

قال: فتفرق فِي جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لَمْ يدعوها فِي يده طرفة عين، حَتَّى يجعلوها فِي تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على الأرض، فيصعدون بِها فلا يمرون بِها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان. بأقبح أسمائه الَّتِي كان يسمى بِها فِي الدنيا، حَتَّى ينتهى إِلَى سماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له. ثُمَّ قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠]. فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتابه فِي سجين فِي الأرض السفلى. وتطرح روحه طرحًا، ثُمَّ قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: ٣١].

فتعاد روحه فِي جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إِلَى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حَتَّى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة». ورواه أبو داود بطوله بنحوه.

فهذا هو التوقيع والمنشور الأول، وأما المنشور الثاني فهو ما ذكرنا من حديث الطبراني.

فصل في صفوف أهل الجنة

هَـذَا وَإِنَّ صُـفُـوفَـهُـمْ عِـشْـرُونَ مَـعْ ... مِـائَـةٍ وَهَـذِي الأُمَّـةُ الـثُّـلُـثَـانِ
يَـرْوِيـهِ عَـنْـهُ بُـرَيْـدَةٌ إِسْـنَـادُهُ ... شَرْطُ الصَّحِيحِ بِمُسْنَدِ الشَّيْبَانِي
وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْـ ... ـرَةَ وَابْـنِ مَـسْـعُـودٍ وَحَـبْـرِ زَمَـانِ
أَعْنِـي ابْـنَ عَـبَّـاسٍ وَفِـي إِسْنَـادِهِ ... رَجُـلٌ ضَـعِـيـفٌ غَـيْـرُ ذِي إِتْـقَـانِ
وَلَقَدْ أَتَانَا فِي الصَّحِيحِ بِأَنَّهُمْ ... شَـطْـرٌ وَمَـا الـلَّـفْـظَـانِ مُـخْـتَـلِـفَـانِ
إِذْ قَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَهُمْ ... هَـذَا رَجَـاءٌ مِـنْـهُ لِـلـرَّحْـمَـنِ
أَعْطَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ مَا يَرْجُو وَزَا ... دَ مِنَ الْـعَـطَـاءِ فِـعَـالَ ذِي الإِحْـسَـانِ

الشرح: روى الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًا**».

ولِهذا الحديث شواهد من حديث أبِي هريرة الذي رواه عبد الله بن أحمد قال: «لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]. قال رسول الله ﷺ: **أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة**». قال الطبراني: تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري

وله شاهد أيضًا من حديث ابن مسعود عند الطبراني قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم وربع الجنة لكم، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها؟!** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **كيف أنتم وثلثها؟!** قالوا: ذاك أكثر. قال: **كيف والشطر لكم؟!** قالوا: ذاك أكثر. فقال رسول الله: **أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًا**».

ورواه الطبراني أيضًا عن حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لكن فِي إسناده خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه.

وورد فِي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟! فكبرنا، ثُمَّ قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟! فكبرنا، ثُمَّ قال: إنِّي لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك: ما المسلمون فِي الكفار إلا كشعرة بيضاء فِي ثور أسود، أو كشعرة سوداء فِي ثور أبيض**».

ولا تنافي بين هذا الحديث وبين ما سبق من كونِهم ثلثا أهل الجنة ؛ لأنه ﷺ رجا أولًا أن يكونوا شطر أهل الجنة ، فأعطاه اللَّه سبحانه رجاءه ، وزاد عليه سدسًا آخر ، وفضل اللَّه واسع ، وهو ﷻ ذو الجود والإحسان .

فصل في صفة أول زمرة تدخل الجنة

هَـذَا وَأَوَّلُ زُمْـرَةٍ فَـوُجُـوهُـهُـمْ كَـالْـبَـدْرِ لَـيْـلَ الـسِّـتِّ بَـعْـدَ ثَـمَـانِ
الـسَّـابِـقُـونَ هُـمُ وَقَـدْ كَـانُـوا هُـنَـا أَيْـضًـا أُولِـي سَـبْـقٍ إِلَـى الإِحْـسَـانِ

الشرح : جاء فِي الصحيحين من حديث همام بن منبه ، عن أبِي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**أول زمرة تلج الجنة صورتُهم على صور القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوَّطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبُهم على قلب رجل واحد ، يسبحون اللَّه بكرة وعشيًّا**» .

وهؤلاء هم السابقون ، الذين سبقوا فِي الدنيا إلَى الخيرات ، وسبقوا فِي الآخرة إلَى الجنات ، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا .

فصل في صفة الزمرة الثانية

وَالـزُّمْـرَةُ الأُخْـرَى كَـأَضْـوَإِ كَـوْكَـبٍ فِـي الأُفْـقِ تَـنْـظُـرُهُ بِـهِ الْـعَـيْـنَـانِ
أَمْـشَـاطُـهُـمْ ذَهَـبٌ وَرَشْـحُـهُـمُ فَـمِـسْـ ـكٌ خَـالِـصٌ يَـا ذِلَّـةَ الْـحِـرْمَـانِ

الشرح : وأما الجماعة الَّتِي تلي هؤلاء المقربين فِي دخول الجنة ، فإن أحدهم يرى كأشد الكواكب إضاءة فِي أفق السماء ، وتكون أمشاطهم من ذهب ، وعرقهم مسك خالص ، فما أعظم هذا النعيم ، ويا ذلة من حرمه ولَمْ يظفر به ، إن ذلك هو الخسران المبين .

وفِي الصحيحين من حديث أبِي زرعة ، عن أبِي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونَهم على أشد كوكب دري فِي السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم**

الذهب، ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فِي السماء».

فصل في تفاضل أهل الجنة في الدرجات العلا

وَيرَى الَّذِينَ بِذَيلِهَا مَنْ فَوْقَهُمْ ... مِثْلَ الْكَوَاكِبِ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

مَا ذَاكَ مُخْتَصًّا بِرُسْلِ اللهِ بَلْ ... لَهُمُ وَلِلصِّدِّيقِ ذِي الإيمَانِ

الشرح: سبق أن روينا ما ورد فِي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدريَّ الغابر بالأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**. قالوا: يا رسول اللَّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: **بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا باللَّه، وصدقوا المرسلين**».

فصل في ذكر أعلى أهل الجنة منزلة وأدناهم

هَذَا وَأَعْلَاهُمْ فَنَاظِرُ رَبِّهِ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتُهُ الطَّرَفَانِ

لَكِنَّ أَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِي ... إِذْ لَيسَ فِي الْجَنَّاتِ مِنْ نُقْصَانِ

فَهْوَ الَّذِي تُلْفَى مَسَافَةُ مُلْكِهِ ... بِسِنِينِنَا أَلْفَانِ كَامِلَتَانِ

فَيرَى بِهَا أَقْصَاهُ حَقًّا مِثْلَ رُؤْ ... يَتِهِ لأَدْنَاهُ الْقَرِيبِ الدَّانِي

أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ آخِرَ أَهْلِهَا ... يُعْطِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ ذُو الْغُفْرَانِ

أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًا عَشْرَ أَمْـ ... ـثَالٍ لَهَا سُبْحَانَ ذِي الإحْسَانِ

الشرح: روى الترمذي من حديث ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أدنى أهل الجنة منْزلة لمن ينظر إلَى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف عام، وأكرمهم على اللَّه من ينظر إلَى وجهه غدوة وعشية**. ثُمَّ قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]». وكذا رواه الطبراني فِي معجمه بلفظ: «**إن أدنى أهل الجنة منْزلة لرجل ينظر فِي ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه**...». الحديث.

وفِي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة، عن النَّبِيِّ ﷺ: «**إن موسى سأل ربه**:

ما أدنى أهل الجنة منْزلة؟ فقال: رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتِهم؟!. فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منْزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولَمْ تسمع أذن، ولَمْ يخطر على قلب بشر».

وفي الصحيحين من حديث عبد اللَّه بن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنِّي لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة، رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول اللَّه له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها، فيخيل إليه أنَّها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتُها ملأى. فيقول اللَّه له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها، فيخيل إليه أنَّها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتُها ملأى. فيقول له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشر أمثالها، أو إن لك عشرة أمثال الدنيا. فيقول: أتسخر بي، وتضحك بي، وأنت الملك**. قال ابن مسعود: لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يضحك حَتَّى بدت نواجذه. قال: فكان يقول: **ذلك أدنى أهل الجنة منْزلة**». فسبحان واسع الفضل والإحسان.

فصل في ذكر سِنِّ أهل الجنة

هَــذَا وَسِـنُّـهُـمُ ثَـلَاثٌ مَـعْ ثَـلَا ... ثِـيـنَ الَّـتِـي هِـيَ قُـوَّةُ الـشُّـبَّـانِ
وَصِغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ فِي ذَا عَلَى ... حَـدٍّ سَـوَاءٍ مَـا سِـوَى الْـوِلْـدَانِ
وَلَقَدْ رَوَى الْخُدْرِيُّ أَيضًا أَنَّهُمْ ... أَبْـنَـاءُ عَـشْـرٍ بَـعْـدَهَـا عَـشْـرَانِ
وَكِلَاهُمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَلَيْسَ ذَا ... بِـتَـنَـاقُـضٍ بَـلْ هَـاهُـنَـا أَمْـرَانِ
حَذْفُ الثَّلَاثِ وَنَيْفٍ بَعْدَ الْعُقُو ... دِ وَذِكْـرِ ذَلِـكَ عِـنْـدَهُـمْ سِـيَّـانِ
عِنْدَ اتِّسَاعٍ فِي الْكَلَامِ فَعِنْدَمَا ... يَـأْتُـوا بِـتَـحْـرِيـرٍ فَـبِـالْـمِـيـزَانِ

الشرح: يعني: أن أهل الجنة جميعًا على تفاوت أسنانِهم في الدنيا يكونون على هذه السن الواحدة الَّتِي هي وقت اكتمال الشباب وعنفوانه، وهي ثلاث وثلاثون سنة، ولا يستثنى من ذلك إلا الولدان الذين هم خدم الجنة، فقد جاء في جامع الترمذي من حديث معاذ بن جبل أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا مكحلين أبناء ثلاث**

وثلاثين». وقال: هذا حديث حسن غريب.

وكذلك روى مثله من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يبعث أهل الجنة على صورة آدم فِي ميلاد ثلاث وثلاثين سنة جردًا مردًا مكحلين، ثُمَّ يذهب بِهم إِلَى شجرة فِي الجنة، فيكسون منها، لا تبلى ثيابُهم، ولا يفنى شبابُهم»**.

لكن روى الترمذي فِي جامعه أيضًا من حديث أبِي سعيد الخدري، أن النَّبِيَّ ﷺ قال: **«من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة فِي الجنة، لا يزيدون عليها أبدًا، وكذلك أهل النار»**.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «حادي الأرواح»: «فإن كان هذا محفوظًا لَمْ يناقض ما قبله، فإن العرب إذا قدرت بعدد له نيف، فإن لَهم طريقتين: تارة يذكرون النيف للتحرير، وتارة يحذفونه، وهذا معروف فِي كلامهم وخطاب غيرهم من الأمم» اهـ.

فصل في طول قامات أهل الجنة وعرضهم

وَالطُّولُ طُولُ أَبِيهِمُ سِتُّونَ لَـ ... كِنْ عَرْضُهُمْ سَبْعٌ بِلَا نُقْصَانِ

الطُّولُ صَحَّ بِغَيرِ شَكٍّ فِي الصَّحِيـ ... حَيْنِ اللَّذَينِ هُمَا لَنَا شَمْسَانِ

وَالْعَرْضُ لَمْ نَعْرِفْهُ فِي إِحْدَاهُمَا ... لَكِنْ رَوَاهُ أَحْمَدُ الشَّيْبَانِي

هَذَا وَلَا يخْفَى التَّنَاسُبُ بَينَ هَـ ... ذَا الْعَرْضِ وَالطُّولِ الْبَدِيعِ الشَّانِ

كُلٌّ عَلَى مِقْدَارِ صَاحِبِهِ وَذَا ... تَقْدِيرُ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

الشرح: يعني أن أهل الجنة يكونون على طول أبيهم آدم ستين ذراعًا فِي السماء، وهذا أمر مقطوع به؛ لوروده فِي صحيحي البخاري ومسلم اللذين هُما أوثق كتب السنة، وأما العرض فلم يرد فيهما، لكن روى أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن عرضهم سبعة أذرع كاملة، ولا يخفى ما بين هذا الطول والعرض من التناسب والانسجام، وأن كلًّا منهما موافق لصاحبه على التمام، فتبارك اللَّه الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن صنعة الإنسان.

* * *

فصل في لحاهم وألوانهم

أَلْوَانُهُمْ بِيضٌ وَلَيْسَ لَهُمْ لِحًى ... جُعْدُ الشُّعُورِ مُكَحَّلُو الأَجْفَانِ
هَذَا كَمَالُ الْحُسْنِ فِي أَبْشَارِهِمْ ... وَشُعُورُهُمْ وَكَذَلِكَ الْعَيْنَانِ

الشرح: يعني أن أهل الجنة يدخلونَها بيضًا جردًا، ليس لَهم لحًى، جعد الشعور، فِي شعورهم تكسر، وليست سبطة، مكحلي الأجفان، وهذا هو تمام الحسن فِي هذه الأشياء الثلاثة، فتمام الحسن فِي اللون أن يكون أبيض صافيًا، وتمامه فِي الشعر أن يكون جعدًا، وتمامه فِي العينين أن تكونا مكتحلتين.

روى الإمام أحمد، عن سعيد بن المسيب، عن أبِي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يدخل أهل الجنة الجنة جردًا، مردًا، بيضًا، جعادًا، مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا فِي عرض سبعة أذرع»**.

فصل في لسان أهل الجنة

وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ لِسَانَهُمْ ... بِالْمَنْطِقِ الْعَرَبِي خَيرِ لِسَانِ
لَكِنَّ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرًا فَفِيـ ... ـهِ رَاوِيَانِ وَمَا هُمَا ثَبْتَانِ
أَعْنِي الْعَلاَءَ هُوَ ابْنُ عَمْرٍو ثُمَّ يَحْـ ... ـيَى الأَشْعَرِي وَذَانِ مَغْمُوزَانِ

الشرح: ولقد روي أثر بأن أهل الجنة يتكلمون فيها باللسان العربي الفصيح، فإن لغة العرب هي الَّتِي أنزل اللَّه بِها أفضل كتبه، واختار من العرب أكرم رسله، لأعظم رسالة إلَى خلقه، فالأثر معقول المعنَى، وإن كان فِي إسناده ضعف؛ لوجود راويين فيه ليسا بحجة، وهما العلاء بن عمرو ويحيى الأشعري، فإنَّهما مغموزان، أي: مطعون فيهما، وفِي بعض النسخ: مغموران -بالراء- أي: مجهولان.

روى ابن أبِي الدنيا بإسناده إلَى أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعًا بذراع الملك، على حُسن يُوسُفَ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة، وعلى لسان مُحمَّد ﷺ، جرد مرد مكحلون»**.

وروى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لسان أهل الجنة عربي».

وقال عقيل: قال الزهري: «لسان أهل الجنة عربي».

فصل في ريح أهل الجنة من مسيرة كم يوجد؟

وَالرِّيحُ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِيـ ... ـنَ وَإِنْ تَشَأْ مَائِةً فَمَرْوِيَّانِ
وَكَذَا رُوِي سَبْعِينَ أَيضًا صَحَّ هَـ ... ـذَا كُلُّهُ وَأَتَى بِهِ أَثَرَانِ
مَا فِي رِجَالِهِمَا لَنَا مِنْ مَطْعَنٍ ... وَالْجَمْعُ بَينَ الْكُلِّ ذُو إِمْكَانِ
وَلَقَدْ أَتَى تَقْدِيرُهُ مَائَةً بِخَمْـ ... ـسٍ ضَرْبُهَا مِنْ غَيرِ مَا نُقْصَانِ
إنْ صَحَّ هَذَا فَهْوَ أَيضًا وَالَّذِي ... مِنْ قَبْلِهِ فِي غَايَةِ الإمْكَانِ
إمَّا بِحَسْبِ الْمُدْرِكِينَ لِرِيحِهَا ... قُرْبًا وَبُعْدًا مَا هُمَا سِيَّانِ
أَوْ بِاخْتِلَافِ قَرَارِهَا وَعُلُوِّهَا ... أَيضًا وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ
أَوْ بِاخْتِلَافِ السَّيْرِ أَيضًا فَهْوَ أَنْـ ... ـوَاعٌ بِقَدْرِ إطَاقَةِ الإنْسَانِ
مَا بَيْنَ أَلْفَاظِ الرَّسُولِ تَنَاقُضٌ ... بَلْ ذَاكَ فِي الأَفْهَامِ وَالأَذْهَانِ

الشرح: وردت آثار متعددة فِي مقدار المسافة الَّتِي تشم منها رائحة الجنة، فقد قدرت فِي بعضها بأربعين خريفًا، وفِي بعضها بمائة عام، وفِي بعضها بسبعين وبخمسمائة، ونَحن نورد هاهنا بعض هذه الآثار ثُمَّ نبين ما حاوله المؤلف من التوفيق بينها.

روى الطبراني بإسناده، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**من قتل قتيلًا من أهل الذمة لَمْ يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام**».

ورواه البخاري فِي الصحيح بإسناده أيضًا إلَى عبد اللَّه بن عمرو قال: «**ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**».

وروى الترمذي بإسناده عن أبِي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**ألا من قتل نفسًا معاهدًا له ذمة اللَّه وذمة رسوله؛ فقد أخفر بذمة اللَّه، فلا يراح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا**».

وروى أبو نعيم بإسناده، عن مجاهد، عن أبِي هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن رائحة الجنة توجد من مسيرة خمسمائة عام**».

وكذلك روى أبو داود الطيالسي فِي مسنده، حدثنا شعبة عن الحكم، عن مجاهد،

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، عن النَّبِيّ ﷺ قال: «**من ادعي إِلَى غير أبيه لَمْ يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**».

وأما التوفيق بين هذه الآثار: فقد يكون اختلاف المسافة باختلاف المدركين لرائحتها فِي القرب والبعد، فليسوا كلهم فِي ذلك بدرجة واحدة.

أو بحسب قرارها الذي هو أرضها وعلوها، وهي كما ذكرنا درجات كثيرة، بعضها فوق بعض، فبعضها يشم من مسيرة أربعين، وبعضها من مسيرة سبعين . . . إلخ.

أو يكون اختلاف المسافات راجعًا إِلَى اختلاف السير فِي السرعة والبطء، فتكون الأربعون بالنسبة للجواد الراكض مثلًا، والسبعون بالنسبة لما هو دونه وهكذا.

والحاصل: أنه لا تناقض أصلًا بين ألفاظ الرسول -عليه الصلاة والسلام- وإنَّما التناقض حاصل فِي الأفهام بحسب إدراكها لما يقصده من الكلام.

فصل في اسبق الناس دخولًا إلى الجنة

وَنَظِيرُ هَذَا سَبْقُ أَهْلِ الْفَقْرِ لِلْـ ... جَنَّاتِ فِي تَقْدِيرِهِ أَثَرَانِ

مَائَةٌ بِخَمْسٍ ضَرْبُهَا أَوْ أَرْبَعِيـ ... نَ كِلَاهُمَا فِي ذَاكَ مَحْفُوظَانِ

فَأَبُو هُرَيرَةَ قَدْ رَوَى أُولَاهُمَا ... وَرَوَى لَنَا الثَّانِي صَحَابِيَّانِ

هَذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتِ الْفُقَرَاءِ فِي اسْـ ... تِحْقَاقِ سَبْقِهِمُ إِلَى الإِحْسَانِ

أَوْ ذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتٍ فِي الأَغْنِيَا ... ءِ كِلَاهُمَا لَا شَكَّ مَوْجُودَانِ

هَذَا وَأَوَّلُهُمْ دُخُولًا خَيرُ خَلْـ ... قِ اللهِ مَنْ قَدْ خُصَّ بِالْقُرْآنِ

وَالأَنْبِيَاءُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ مِنَ التْـ ... تَفْصِيلِ تِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ

هَذَا وَأُمَّةُ أَحْمَدٍ سَبَّاقُ بَا ... قِي الْخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِهِمْ بِجِنَانِ

وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الْـ ... إِسْلَامِ وَالتَّصْدِيقِ بِالْقُرْآنِ

وَكَذَا أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ أَسْـ ... بَقُهُمْ دُخُولًا قَوْلَ ذِي الْبُرْهَانِ

الشرح: وشبيه هذا التفاوت فِي تقدير المسافة الَّتِي تنشق منها رائحة الجنة واختلاف الآثار فيها -تفاوت المدة الَّتِي يسبق بِهَا الفقراء الأغنياء إِلَى دخول الجنة، فقد ورد تقديرها بخمسمائة عام، وورد تقديرها بأربعين خريفًا، وكلها آثار محفوظة معلومة.

روى الإمام أحمد فِي مسنده، عن أبِي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام**». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورجال إسناده احتج بِهم مسلم فِي صحيحه.

وفِي صحيح مسلم من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا**».

وكذلك روى الترمذي عن جابر بن عبد اللَّه، أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بأربعين خريفًا**».

وحينئذ يقال: إن الذي فِي الصحيح أن الفقراء يسبقون بأربعين خريفًا، فيجب التعويل عليه، أو نوفق بين هذه الآثار كما وفقنا من قبل، فنقول: إن مدة السبق تختلف بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، كما يتأخر مكث العصاة من الموحدين فِي النار بحسب أحوالهم، واللَّه أعلم.

هذا وأول الناس دخولًا الجنة على الإطلاق هو رسولنا -عليه الصلاة والسلام- فقد روى مسلم فِي صحيحه من حديث أنس بن مالك، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة**».

وله كذلك عن أنس: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: مُحمَّد. فيقول: بلى، أمرت ألَّا أفتح لأحد قبلك**».

وروى الترمذي كذلك عن أنس، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وقائدهم إذا وفدوا، وشافعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر، يطوف عليَّ ألف خادم، كأنَّهم اللؤلؤ المكنون**».

ثُمَّ الأنبياء بعد ذلك على درجاتِهم فِي الفضل، كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقال: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. ثُمَّ أمة مُحمَّد ﷺ هي أول الأمم دخولًا الجنة، ففي الصحيحين من حديث همام بن منبه، عن أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نَحن السابقون الأولون يوم القيامة، بيد أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم**».

وفِي صحيح مسلم من حديث أبِي صالح، عن أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«نَحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونَحن أول من يدخل الجنة، بيد أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا اللَّه لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه».

وأما أول هذه الأمة دخولًا الجنة فهو صديقها، وأفضل الناس بعد النبيين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد روى أبو داود فِي سننه من حديث أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أتاني جبريل، فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي. فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه، وددت أنِّي كنت معك حَتَّى أنظر إليه. فقال رسول اللَّه ﷺ: أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»**.

* * *

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَهُمْ يصَا ... فِحُهُ إِلَهُ الْعَرْشِ ذُو الإِحْسَانِ

وَيكُونُ أَوَّلَهُمْ دُخُولًا جَنَّةَ الْـ ... فِرْدَوْسِ ذَلِكَ قَامِعُ الْكُفْرَانِ

فَارُوقُ دِينِ اللهِ نَاصِرُ قَوْلِهِ ... وَرَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الإِيمَانِ

لَكِنَّهُ أَثَرٌ ضَعِيفٌ فِيهِ مَجْـ ... رُوحٌ يسَمَّى خَالِدًا بِبَيَانِ

لَوْ كَانَ صَحَّ عُمُومُهُ الْمَخْصُوصُ بِالصْـ ... صِدِّيقِ قَطْعًا غَيرَ ذِي نُكْرَانِ

هَذَا وَأَوَّلُهُمْ دُخُولًا فَهْوَ حَمْـ ... مَادٌ عَلَى الْحَالاَتِ لِلرَّحْمَنِ

إِنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ أَصْبَحَ حَامِدًا ... أَوْ كَانَ فِي الضَّرَّا فَحَمْدٌ ثَانِ

هَذَا الَّذِي هُوَ عَارِفٌ بِإِلَهِهِ ... وَصِفَاتِهِ وَكَمَالِهِ الرَّبَّانِي

وَكَذَا الشَّهِيدُ فِسَبْقُهُ مُتَيقَّنٌ ... وَهْوَ الْجَدِيرُ بِذَلِكَ الإِحْسَانِ

وَكَذَلِكَ الْمَمْلُوكُ حِينَ يقُومُ بِالْـ ... حَقَّينِ سَبَّاقٌ بِغَيرِ تَوَانِ

وَكَذَا فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ لَيسَ بِالْـ ... مِلْحَاحِ بَلْ ذُو عِفَّةٍ وَصِيَانِ

الشرح: وأما الحديث الذي رواه ابن ماجه فِي سننه، عن سعيد بن المسيب، عن أبَي ابن كعب، أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«أول من يصافحه الحق عمر، وأول من يسلم عليه، وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة»**. فهو حديث شديد النكارة.

قال الإمام أحمد: داود بن عطاء ليس بشيء، ولو سلم فعمومه مخصوص بالصديق قطعًا، فيكون المراد أن عمر أول من يدخل من هذه الأمة بعد صديقها، فهي أولية نسبية.

هذا وقد وردت آثار بسبق بعض الطوائف من هذه الأمة إلَى الجنة، فمنهم الحمادون

الذين يكثرون حمد الله ﷻ فِي جَميع الحالات، من عسر ويسر، ومنشط ومكره، لا يَفْتَرُون عن حمده والثناء عليه.

روى شعبة عن قيس، عن حبيب بن أبِي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أول من يدعى إلَى الجنة يوم القيامة الحامدون، الذين يحمدون اللَّه فِي السراء والضراء»**. **فهؤلاء هم الذين كملت معرفتهم باللَّه** ﷻ وصفات كماله فلهجوا بحمده.

ومنهم كذلك ما رواه الإمام أحمد، عن أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عرض عليَّ أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لَمْ يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال. وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق اللَّه من ماله، وفقير فخور»**.

فصل في عدد الجنات وأجناسها

وَالْجَنَّةُ اسْمُ الْجِنْسِ وَهْي كَثِيرَةٌ ... جَدًّا وَلَكِنْ أَصْلُهَا نَوْعَانِ
ذَهَبِيَّتَانِ بِكُلِّ مَا حَوَتَاهُ مِنْ ... حَلْي وَآنِيَةٍ وَمِنْ بُنْيَانِ
وَكَذَاكَ أَيضًا فِضَّةٌ ثِنْتَانِ مِنْ ... حَلْي وَبُنْيَانٍ وَكُلِّ أَوَانِ
لَكِنَّ دَارَ الْخُلْدِ وَالْمَأْوَى وَعَدْ ... نٍ وَالسَّلَامُ إِضَافَةٌ لِمَعَانِ
أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَافَتَهَا إِلَيْ ... هَا مِدْحَةً مَعْ غَايَةِ التِّبْيَانِ
لَكِنَّمَا الْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا وَأَوْ ... سَطُهَا مَسَاكِنُ صَفْوَةِ الرَّحْمَنِ
أَعْلَاهُ مَنْزِلَةً لأَعْلَى الْخَلْقِ مَنْـ ... زِلَةً هُوَ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ
وَهْي الْوَسِيلَةُ وَهْي أَعَلَى رُتْبَةً ... خَلُصَتْ لَهُ فَضْلًا مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرح: والجنة إذا أفردت فإنما يراد بِها اسم الجنس الذي يندرج تحته ما لا يحصى من الجنات الخاصة، ولكنها مع كثرتِها ترجع إلَى أصلين:

أولهما: جنتان ذهبيتان بكل ما اشتملتا عليه من آنية وحلي وقصور.

والثاني: جنتان فضيتان كذلك بكل ما احتوتاه من حلي وآنية وبنيان.

روى البخاري فِي صحيحه، عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء -وهي أم حارثة ابن سراقة- أتت رسول اللَّهﷺ فقالت: «يا نبي اللَّه، ألا تحدثني عن حارثة -وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب- فإن كان فِي الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فِي البكاء. قال: **يا أم حارثة، إنَّها جنان فِي الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**».

وفِي الصحيحين من حديث أبِي موسى الأشعري عن رسول اللَّهﷺ قال: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلَى ربِّهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فِي جنة عدن**».

وأما تسمية الجنة: دار الخلد، والمأوى، والسلام، وعدن، والحيوان، والمقامة، ونحوها، فهي ليست أسْماء لجنات مختلفة، ولكنها أسْماء الجنة باعتبار صفاتِها، فالإضافة فيها من قبيل إضافة الموصوف لصفته، فالمسمى واحد باعتبار الذات، وهي من هذا الوجه مترادفة، ولكنها تتغاير بتغاير الصفات، فتكون من هذا الوجه متباينة، وهكذا أسْماء الربﷻ، وأسْماء كتبه، وأسْماء رسله، وأسْماء اليوم الآخر، وأسْماء النار ونحو ذلك.

والفردوس: هو أعلى الجنة ووسطها، وهي مساكن الصفوة المختارة من خلق اللَّه من النبيين والصديقين والشهداء.

روى البخاري فِي صحيحه من حديث أبِي هريرة، عن النَّبِيِّﷺ قال: «**إن فِي الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين فِي سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحْمن، ومنه تفجر أنْهار الجنة**».

وروى الطبراني فِي معجمه بسنده إلَى أبِي الدرداء قال: قال رسول اللَّهﷺ: «**ينْزل اللَّه تعالَى فِي آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل، فينظر اللَّه فِي الساعة الأولى منهن فِي الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت، ثُمَّ ينظر فِي الساعة الثانية إلَى جنة عدن، وهي مسكنه الذي يسكن فيه، ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون، وفيها ما لَمْ تره عين أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثُمَّ يَهبط آخر ساعة من الليل، فيقول: ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ ألا سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأستجيب له؟ حَتَّى يطلع الفجر**».

وأعلى منْزلة فِي الفردوس: هي الوسيلة الَّتِي خص اللَّه بها نبيناﷺ، الذي هو أعلى الخلق منْزلة، فهي خالصة له من دون الناس فضلًا من اللَّهﷻ على حبيبه وأكرم خلقه.

روى مسلم فِي صحيحه من حديث عمرو بن العاص، أنه سمع النَّبِيَّﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثُمَّ صلوا عليَّ، فإن من صلى عليَّ صلاة واحدة، صلى اللَّه عليه عشرًا، ثُمَّ سلوا لي الوسيلة، فإنَّها منْزلة فِي الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللَّه، وأرجو أن أكون هو**».

* * *

وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ... ـصِيلُ الْجِنَانِ مُفَصَّلًا بِبَيَانِ

هِي أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ ثُمْـ ... ـمَ يَلِيهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولَانِ

فَالأَوْلَيَانِ الْفُضْلَيَانِ لأَوْجُهٍ ... عَشْرٍ وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ وَجَدْتَهَا ... فِيهِ تَلُوحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرح: ولقد أتى فِي سورة الرحمن تفصيل للجنان فِي غاية البيان، فذكر الآيات أنَّها أربع جنان، منها جنتان فاضلتان، وهما المذكورتان فِي قوله تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٨]. فهاتان الجنتان قد فضلتا على الأخريين بعشرة أوجه يصعب ذكرها فِي النظم، ولكنها لا تخفى على المتأمل فِي سياق الآيات، وهاتان الجنتان هُما المخصوصتان بالمقربين، وأما الأخريان المفضولتان فهما لأصحاب اليمين، فالأوليان من ذهب، والثانيتان من فضة.

* * *

سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ ... ـفِرْدَوْسِ عِنْدَ تَكَامُلِ الْبُنْيَانِ

وَيَدَاهُ أَيْضًا أَتْقَنَتْ لِبِنَائِهَا ... فَتَبَارَكَ الرَّحْمَنُ أَعْظَمُ بَانِ

هِي فِي الْجِنَانِ كَآدَمٍ وَكِلَاهُمَا ... تَفْضِيلُهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الشَّانِ

لَكِنَّمَا الْجَهْمِي لَيسَ لَدَيهِ مِنْ ... ذَا الْفَضْلِ شَيءٌ فَهْوَ ذُو نُكْرَانِ
وَلَدٌ عَقُوقٌ عَقَّ وَالِدَهُ وَلَمْ ... يُثْبِتْ بِذَا فَضْلًا عَلَى شَيْطَانِ
فَكِلَاهُمَا تَأْثِيرُ قُدْرَتِهِ وَتَأْ ... ثِيرُ الْمَشِيئَةِ لَيسَ ثَمَّ يدَانِ
آلَاهُمَا أَوْ نِعْمَتَاهُ وَخَلْقُهُ ... كُلٌّ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ الْمَنَّانِ

الشرح: ورد في بعض الآثار أن اللَّه ﷻ غرس الفردوس بيده بعد أن تم بناؤها، وأنه سبحانه بناها فأحسن البناء، وجعلها في غاية الجمال والبهاء، فقد روى الحسن بن سفيان، عن أنس بن مالك، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه بنى الفردوس بيده، وحظرها على كل مشرك، وكل مدمن خمر، ومتكبر**».

وروى الدارمي من حديث عبد اللَّه بن الحارث قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلق اللَّه ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثُمَّ قال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر، ولا الديوث**».

قال ابن القيم: المحفوظ أنه موقوف.

وذكر الحاكم عن مجاهد قال: «إن اللَّه تعالَى غرس جنات عدن بيده، فلما تكاملت أغلقت، فهي تفتح في كل سحر، فينظر اللَّه إليها فتقول: قد أفلح المؤمنون».

وبهذا فضلت جنة عدن على سائر الجنات، كما فضل به آدم على سائر البشر، لكن الجهمي الذي ينكر أن يكون للَّه يد يخلق بها ما يشاء، لا يعترف بهذا الفضل لأبيه آدم، بل ينكره غاية الإنكار، فهو ولد عاق يجحد فضل أبيه وخصوصيته، ويرى أنه لا فضل له على الشيطان؛ لأن كلًّا منهما مخلوق بقدرة اللَّه ومشيئته، وليس هناك يدان امتاز آدم على غيره بأنه خلق بهما، بل يفسر اليدين بالقدرة أو النعمة أو نحوهما، ولو تأمل الجهمي قوله تعالَى لإبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. لاستحيا من نفسه، وأدرك أن سر الأمر بالسجود لآدم هو تلك الخصوصية الَّتِي امتاز بها، ولو كان آدم مخلوقًا بمجرد القدرة والمشيئة، وأن اليدين هنا بمعنى القدرة؛ لكان إبليس أعلم من هذا الجهمي بما يجيب به؛ حيث يقول: «وأنا أيضًا خلقتني بيديك، فأي خصوصية لآدم علي».

* * *

لَمَّا قَضَى رَبُّ الْعِبَادِ الْعَرْشَ قَا ... لَ تَكَلَّمِي فَتَكَلَّمَتْ بِبَيَانِ
قَدْ أَفْلَحَ الْعَبْدُ الَّذِي هُوَ مُؤْمِنٌ ... مَاذَا ادَّخَرْتُ لَهُ مِنَ الإِحْسَانِ
وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ ذَا ... كَ عُوَيْمِرٌ أَثَرًا عَظِيمَ الشَّانِ
يَهْتَزُّ قَلْبُ الْعَبْدِ عِنْدَ سَمَاعِهِ ... طَرَبًا بِقَدْرِ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ
مَا مِثْلُهُ أَبَدًا يُقَالُ بِرَأْيِهِ ... أَوْ كَانَ يَا أَهْلًا بِذَا الْعِرْفَانِ
فِيهِ النُّزُولُ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَإِحْـ ... ـدَاهُنَّ يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي
يَمْحُو وَيثْبِتُ مَا يشَاءُ بِحِكْمَةٍ ... وَبِعِزَّةٍ وَبِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
فَتَرَى الْفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ ... ـبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلَانِ
هُوَ نَائِمٌ وَأُمُورُهُ قَدْ دُبِّرَتْ ... لَيْلًا وَلَا يَدْرِي بِذَاكَ الشَّانِ
وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى عَدْنٍ مَسَا ... كِنِ أَهْلِهِ هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ
الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَاءُ وَمَعْهُمُ الصِّـ ... ـدِّيقُ حَسْبُ فَلَا تَكُنْ بِجَبَانِ
فِيهَا الَّذِي وَاللهِ مَا عَينٌ رَأَتْ ... كَلَّا وَلَا سَمِعَتْ بِهِ الأُذُنَانِ
كَلَّا وَلَا قَلْبٌ بِهِ خَطَرَ الْمِثَا ... لُ لَهُ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّمَا ... ءِ يَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ نَدْمَانِ
أَوْ دَاعٍ اوْ مُسْتَغْفِرٍ أَوْ سَائِلٍ ... أُعْطِيهِ إِنِّي وَاسِعُ الإِحْسَانِ
حَتَّى يُصَلَّى الْفَجْرُ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ ... أَمْلَاكِ تِلْكَ شَهَادَةُ الْقُرْآنِ
هَذَا الْحَدِيثُ بِطُولِهِ وَسِيَاقِهِ ... وَتَمَامِهِ فِي سُنَّةِ الطَّبَرَانِي

الشرح: ذكر البيهقي من حديث البغوي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه أحاط حائط الجنة، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وغرس غرسها بيده، وقال لَهَا: تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون. فقال: طوبى لك منْزل الملوك»**.

وأما حديث أبي الدرداء فقد سبقت الإشارة إليه، وهو أثر عظيم يطرب له قلب المؤمن، ومثل هذا لا يقال بالرأي، بل لابد أن يكون أبو الدرداء سمعه من رسول اللَّه ﷺ وهو من علماء الصحابة الأجلاء، وفِي هذا الحديث يخبر الرسول ﷺ عن ربه ﷻ أنه ينْزل لآخر ثلاث ساعات بقين من الليل، وأنه فِي الساعة الأولى ينظر فِي الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو ويثبت، ولِهذا ترى المرء يبيت على حال، ويصبح على أخرى مخالفة

لَهَا، فيكون نائمًا وأموره تدبر من حيث لا يدري ولا يشعر، فسبحان من كل يوم هو فِي شأن، وفِي الساعة الثانية ينظر فِي جنة عدن الَّتِي هي مسكنه ومسكن خواص خلقه من الرسل والأنبياء والصديقين، حيث أعد لَهم فيها ما لَمْ يخطر مثاله بقلب أحد، وأما فِي الساعة الثالثة فينْزل إلَى خلقه يبسط لَهم يد رحمته وعفوه، حَتَّى تصلى الفجر الَّتِي يشهدها اللَّه وملائكته، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فصل في بناء الجنة

وَبِنَاؤُهَا اللَّبِنَاتُ مِنْ ذَهَبٍ وَأُخْـ ... رَى فِضَّةٌ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ
وَقُصُورُهَا مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... أَوْ فِضَّةٍ أَوْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
وَكَذَاكَ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ بِهِ ... نُظِمَ الْبِنَاءُ بِغَايَةِ الإِتْقَانِ
وَالطِّينُ مِسْكٌ خَالِصٌ أَوْ زَعْفَرَا ... نٌ جَا بِذَا أَثَرَانِ مَقْبُولَانِ
لَيْسَا بِمُخْتَلِفَيْنِ لَا تُنْكِرْهُمَا ... فَهُمَا الْمِلَاطُ لِذَلِكَ الْبُنْيَانِ

الشرح: روى الإمام أحمد فِي مسنده، عن أبِي هريرة قال: «قلنا: يا رسول اللَّه، إذا رأيناك رقَّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتنا أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد. قال: **لو بقيتم فِي كل حال على الحال الَّتِي أنتم عليها عندي؛ لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فِي بيوتكم، ولو لَمْ تذنبوا لجاء اللَّه بقوم يذنبون؛ كي يغفر لَهم. قال: قلنا: يا رسول اللَّه، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابُها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**».

وروى أبو بكر بن مردويه من حديث الحسن، عن ابن عمر قال: «سئل رسول اللَّه ﷺ عن الجنة؟ فقال: **من يدخل الجنة يحيا لا يموت، وينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. قيل: يا رسول اللَّه، كيف بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها مسك أذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابُها الزعفران**».

هكذا جاء فِي هذه الأحاديث أن ترابَها الزعفران، وقد ورد فِي بعضها أن ترابَها المسك، ولا تعارض بينها؛ إذ يجوز أن تكون تربتها متضمنة للنوعين، كما قال بعض السلف: ويجوز أن يكون التراب من زعفران، فإذا عجن بالماء صار مسكًا، والطين قد

يسمى ترابًا، ويحتمل أن يكون زعفرانًا باعتبار اللون، ومسكًا باعتبار الرائحة، وهذا من أحسن شيء يكون البهجة والإشراق: لون الزعفران، والرائحة رائحة المسك.

وكذلك ورد تشبيهها بالدرمكة، وهي الخبزة الصافية الَّتي يضرب لونُها إلَى الصفرة، مع لينها ونعومتها.

فصل في أرضها وحصبائها وتُربها

وَالأَرْضُ مَرْمَرَةٌ كَخَالِصِ فِضَّةٍ ... مِثْلَ الْمِرَاتِ تَنَالُهُ الْعَيْنَانِ
فِي مُسْلِم تَشْبِيهُهَا بِالدَّرْمَكِ الصْـ ... ـصَافِي وَبِالْمِسْكِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيـ ... ـبِ الرِّيحِ صَارَ هُنَاكَ تَشْبِيهَانِ
حَصْبَاؤهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ كَذَا ... كَ لآلِئٌ نُثِرَتْ كَنَثْرِ جُمَانِ
وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ الْـ ... ـمِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ

الشرح: سئل ابن عباس ﷺ: «ما أرض الجنة؟ فقال: مرمرة بيضاء من فضة كأنَّها مرآة. قيل له: فما نورها؟ قال: أما رأيت الساعة الَّتي تكون فيها قبل طلوع الشمس؟ فذلك نورها، إلا أنه ليس فيها شمس ولا زمهرير». وكذلك روى ابن عباس، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: **«خلق اللَّه الجنة بيضاء، وأحب الزي إلَى اللَّه البياض، فليلبسه أحياؤكم، وكفنوا فيه موتاكم»**.

وفِي سنن ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ألا هل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا خَطَرَ لَهَا، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تَهتز، وقصر مشيد، ونَهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فِي أبد فِي دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة، ونعمة فِي محلة عالية بَهية. قالوا: نعم يا رسول اللَّه، نَحن المشمرون لَهَا. قال: قولوا: إن شاء اللَّه. قال القوم: إن شاء اللَّه»**.

* * *

فصل في صفة غرفاتِها

غُرُفَاتُهَا فِي الْجَوِّ يُنْظَرُ بَطْنُهَا ... مِنْ ظَهْرِهَا وَالظَّهْرُ مِنْ بَطْنَانِ
سَكَّانُهَا أَهْلُ الْقِيَامِ مَعَ الصِّيَا ... مِ وَطِيبِ الْكَلِمَاتِ وَالإِحْسَانِ
ثِنْتَانِ خَالِصُ حَقِّهِ سُبْحَانَهُ ... وَعَبِيدُهُ أَيْضًا لَهُمْ ثِنْتَانِ

الشرح: قال اللَّه تعالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]. وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفة هنا اسم جنس كالجنة، وهي: المنازل العالية.

روى الترمذي فِي جامعه من حديث عبد الرحْمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن فِي الجنة غرفًا يرى ظهورها من بطونِها، وبطونُها من ظهورها. فقام أعرابي فقال: يا رسول اللَّه، لمن هي؟ قال: لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**».

وروى البيهقي من حديث حفص بن عمرو بن قيس الملائي، عن عطاء بن أبِي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن فِي الجنة لغرفًا، فإذا كان ساكنها فيها؛ لَمْ يخف عليه ما خلفها، وإذا كان خلفها؛ لَمْ يخف عليه ما فيها. قيل: لمن هي يا رسول اللَّه؟ قال: لمن أطاب الكلام، وواصل الصيام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى والناس نيام**».

فهؤلاء هم سكان هذه الغرف؛ لأنَّهم قاموا بحق اللَّه وحق عباده.

فثنتان من هذه الخصال هما خالص حقه سبحانه: وهما أداء الصيام، والصلاة بالليل والناس نيام.

وثنتان من حقوق العبادة: وهما إفشاء السلام، وإطعام الطعام.

* * *

فصل في خيَام أهل الجنة

لِلْعَبْدِ فِيهَا خَيمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ ... قَدْ جُوِّفَتْ هِيَ صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ
سِتُّونَ مِيلًا طُولُهَا فِي الْجَوِّ فِي ... كُلِّ الزَّوَايَا أَجْمَلُ النِّسْوَانِ
يَغْشَى الْجَمِيعَ فَلَا يشَاهِدُ بَعْضُهُمْ ... بَعْضًا وَهَذَا لاِتِّسَاعِ مَكَانِ
فِيهَا مَقَاصِيرٌ بِهَا الأَبْوَابُ مِنْ ... ذَهَبٍ وَدُرٍّ زِينَ بِالْمُرْجَانِ
وَخِيَامُهَا مَنْصُوبَةٌ بِرِيَاضِهَا ... وَشَوَاطِئُ الأَنْهَارِ ذِي الْجَرَيَانِ
مَا فِي الْخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَتْ ... لِلنَّيِّرَينِ لَقُلْتَ مُنْكَسِفَانِ
لِلَّهِ هَاتِيكَ الْخِيَامُ فَكَمْ بِهَا ... لِلْقَلْبِ مِنْ عُلَقٍ وَمِنْ أَشْجَانِ
فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيـ ... ـرَاتٌ حِسَانٌ هُنَّ خَيْرُ حِسَانِ
خَيْرَاتُ أَخْلَاقٍ حِسَانٌ أَوْجُهًا ... فَالْحُسْنُ وَالإِحْسَانُ مُتَّفِقَانِ

الشرح: يعني: أن للمؤمن فِي الجنة خيمة من لؤلؤ مجوف قد صنعها له أحسن الخالقين، وأن طول هذه الخيمة ستون ميلًا، وفِي كل ركن من أركانِها زوجة له من أجمل النساء، فيجامع كل واحدة منهن من غير أن يرى بعضهن بعضًا، وذلك لتباعد ما بينهن.

وهذه الخيام فيها مقاصير، بِها أبواب مصنوعة من ذهب ودر مزين بالمرجان، وهي غير الغرف والقصور، بل هي خيام فِي البساتين، وعلى شواطئ الأنْهار.

فِي الصحيحين من حديث أبِي موسى الأشعري، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إن للمؤمن فِي الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلًا، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا**».

وروى ابن أبِي الدنيا بسنده إلَى عبد اللَّه بن مسعود قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لَمْ تكن قبل ذلك، وليس فِي هذه الخيام سوى الحور العين، الَّتِي لَو التقت إحداهن بالشمس والقمر لأزرت بنورهما، ولخلت أنَّهما منكسفان، فللَّه هاتيك الخيام، كم للقلوب بِها من تعلق وميل، وكم بِها من غرام وأشجان».

فيهن قاصرات الطرف، فلا ينظرن إلَى غير أزواجهن، وهن خيرات حسان، خيرات

أخلاقًا، وحسان وجوهًا، كمل منهن الظاهر والباطن، والْخَلْقُ والْخُلُقُ، فاتفق لهما الحسن والجمال مع الإحسان وكريم الخلال.

فصل في أرائكها وسررها

فِيهَا الْأَرَائِكُ وَهْيِ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ... ـهِـنَّ الْـحِـجَـالُ كَـثِـيـرَةُ الأَلْـوَانِ

لَا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِكِ دُونَ هَا ... تِـيـكَ الْـحِـجَـالِ وَذَاكَ وَضْـعُ لِـسَـانِ

بَشْخَانَةٌ يَدْعُونَهَا بِلِسَانِ فَا ... رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ الْبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

الشرح: الأرائك: جمع أريكة.

قال مجاهد عن ابن عباس فِي تفسير قوله تعالَى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾[الكهف: ٣١]: «لا تكون أريكة حَتَّى يكون السرير فِي الحجلة، فإذا كان السرير بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كانت حجلة بغير سرير لَمْ تكن أريكة، فإذا اجتمعا كانت أريكة».

وقال الليث: «الأريكة: سرير حجلة»، فالحجلة والسرير أريكة، وجمعها أرائك، والحجلة هي البشخانة الَّتِي تعلق فوق السرير بلغة فارس، وفِي الحديث: «إن خاتم النَّبِيِّ ﷺ كان مثل زر الحجلة». وهو الزر الذي يجمع بين طرفيها من جُملة أزرارها، واللَّه أعلم.

فصل في أشجارها وثمارها وظلالها

أَشْجَارُهَا نَوعَانِ مِنْهَا مَا لَهُ ... فِـي هَـذِهِ الـدُّنْـيَـا مِـثَـالٌ ذَانِ

كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُودٌ مَكَا ... نَ الـشَّـوْكِ مِـنْ ثَـمَـرٍ ذَوِي أَلْـوَانِ

هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِنْ خَيْرِ الظِّلَا ... لِ وَنَـفْـعُـهُ الـتَّـرْوِيـحُ لِـلأَبْـدَانِ

وَثِمَارُهُ أَيْضًا ذَوَاتُ مَنَافِعٍ ... مِـنْ بَـعْـضِـهَـا تَـفْـرِيـحُ ذِي الأَحْـزَانِ

وَالطَّلْحُ وَهْوَ الْمَوْزُ مَنْضُودٌ كَمَا ... نُـضِـدَتْ يَـدٌ بِـأَصَـابِـعٍ وَبَـنَـانِ

أَوْ أَنَّهُ شَجَرُ الْبَوَادِي مُوقَرًا ... حَـمْـلًا مَـكَـانَ الـشَّـوْكِ فِـي الأَغْـصَـانِ

وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالأَعْنَابُ وَالنْـ ... ـنَـخْـلُ الَّـتِـي مِـنْـهَـا الْـقُـطُـوفُ دَوَانِ

الشرح: يعني: أن أشجار الجنة نوعان: نوع له شبيه فِي هذه الدنيا، وذلك كالسدر

الذي هو شجر النبق، كما قال تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨].

ومعنى مخضود: قال قتادة: الموقر الذي لا شوك فيه، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة بالعكس من هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن سليمان النجار، عن سليم بن عامر قال: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون: إن اللَّه لينفعنا بالأعراب ومسائلهم. قال: أقبل أعرابي يومًا، فقال: يا رسول اللَّه، ذكر اللَّه فِي الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال رسول اللَّه ﷺ: **ما هي؟** قال: السدر فإن له شوكًا مؤذيًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: **أليس اللَّه تعالَى يقول: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد اللَّه شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنَّها لتنبت ثَمرًا، ففتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيه لون يشبه الآخر**».

هذا ومن فوائد السدر: أن ظلاله من خير الظلال وأنفعها، وأشدها ترويحًا للأبدان، كما أن الأكل من ثمرته يجلب الفرح، ويذهب الأحزان.

ومنها أيضًا: الطلح، وهو شجر الموز، قال تعالَى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩]. يعني: نضد ثمره وتراكم، فتراه فِي سباطته كما نضدت الأصابع والبنان فِي الكف، وتفسير الطلح بالموز هو المعروف عن أبِي سعيد وابن عباس وأبِي هريرة وعكرمة ومجاهد وغيرهم.

وقيل: هو شجر عظام من شجر العضاة واحدته: طلحة، وهو شجر كثير الشوك، فيجعل اللَّه مكان كل شوكة منها ثمرة فيها سبعون لونًا من الطعام، لا يشبه لون منها الآخر، كما ورد فِي الحديث.

وكان علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ: ﴿وَفِي طَلْع مَّنضُودٍ﴾ فعلى هذا يحتمل أن يكون صفة أخرى لسدر.

ومنها أيضًا: الرمان والنخيل والأعناب الَّتِي دنت قطوفها، وتدلت ثمرتُها لآكلها، قال تعالَى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

* * *

هَـذَا وَنَـوْعٌ مَـا لَـهُ فِـي هَـذِهِ الـدْ ... دُنْـيَـا نَـظِـيـرٌ كَـي يُـرَى بِـعِـيَـانِ
يَـكْـفِـي مِـنَ الـتَّـعْـدَادِ قَـوْلُ إِلَـهِـنَـا ... مِـنْ كُـلِّ فَـاكِـهَـةٍ بِـهَـا زَوْجَـانِ
وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْـ ... تَـلِـفَ الـطُّـعُـوم فَـذَاكَ ذُو أَلْـوَانِ
أَوْ أَنَّهُ مُتَشَابِهٌ فِي الإِسْمِ مُخْـ ... تَـلِـفُ الـطُّـعُـوم فَـذَاكَ قَـوْلٌ ثَـانِ
أَوْ أَنَّـهُ وَسَـطٌ خِـيَـارٌ كُـلُّـهُ ... فَـالْـفَـحْـلُ مِـنْـهُ لَـيـسَ ذَا ثِـنْـيَـانِ
أَوْ أَنَّـهُ لِـثِـمَـارِنَـا ذِي مُـشْـبِـهٌ ... فِي اسْمٍ وَلَـوْنٍ لَـيـسَ يـخْـتَـلِـفَـانِ
لَكِنْ لِبَهْجَتِهَا وَلَذَّةِ طَعْمِهَا ... أَمْـرٌ سِـوَى هَـذَا الَّـذِي تَـجِـدَانِ
فَيلَذُّهَا فِي الأَكْلِ عِنْدَ مَنَالِهَا ... وَتَـلَـذُّهَـا مِـنْ قَـبْـلِـهِ الْـعَـيـنَـانِ
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بِالْجَنَّةِ الْـ ... عُـلْـيَـا سِـوَى أَسْـمَـاءِ مَـا تَـرَيَـانِ
يعْنِي الْحَقَائِقَ لَا تُمَاثِلُ هَذِهِ ... وَكِـلَاهُـمَـا فِـي الإِسْمِ مُـتَّـفِـقَـانِ

الشرح: وأما النوع الثاني من أشجار الجنة: فليس له نظير فِي هذه الدنيا، تراه العيون وهو كثير جدًّا، لكن يكفي من عده قول اللَّه تعالَى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

ويؤتى أهل الجنة بالثمر متشابهًا، كما قال تعالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

واختلف فيم يكون التشابه؟

فقيل: يكون متشابِهًا فِي اللون مع اختلاف الطعوم. قال بِهذا طائفة، منهم: ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس، وغيرهم.

قال يحيى بن أبِي كثير: «عشب الجنة الزعفران، وكثبانُها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونَها، ثُمَّ يأتونَهم بمثلها، فيقولون: هذا الذي جئتمونا به آنفًا. فيقول لَهم الخدم: كلوا فإن اللون واحد، والطعم مختلف».

وقيل: إن التشابه فِي الأسْماء مع اختلاف الطعم. ولا أدري من قال بِهذا.

وقيل: معنَى «متشابِهًا»: أي: يشبه بعضه بعضًا فِي الحسن، فهو خيار كله لا رذل فيه. قال بذلك الحسن، وقتادة، وابن جريج، وغيرهم.

وعلى هذا: فالمراد بالتشابه: التوافق والتماثل.

وقالت طائفة أخرى: إن معنَى الآية أن ثمر الجنة يشبه ثمر الدنيا فِي الاسم واللون، ولكنه أبْهج منه منظرًا، وألذ طعمًا، فآكلها يلتذ بِها عند تناولها أعظم لذة، ومن قبل ذلك تلتذ عيناه بحسن مرآها.

قال ابن وهب: قال عبد الرحْمن بن زيد: «يعرفون أسماءه كما كانوا فِي الدنيا، التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، وليس هو مثله فِي الطعم».

وقد صح عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ليس فِي الجنة مما فِي الدنيا إلا الأسْماء».

ومعنى هذا: أن الحقائق مختلفة غير متماثلة، فليس النخل كالنخل، ولا الرمان كالرمان، ولا اللبن كاللبن، ولا العسل كالعسل، وغير ذلك، ولكن الأسْماء متفقة، ولكن يجب أن يكون هناك قدر مشترك بينهما يصحح إطلاق الاسم على كل منهما كما سيأتِي.

* * *

يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّمَارِ وَغَرْسِهَا ... فِي الْمِسْكِ ذَاكَ التُّرْبُ لِلْبُسْتَانِ

وَكَذَلِكَ الْمَاءُ الَّذِي يُسْقَى بِهِ ... يَا طِيبَ ذَاكَ الْوِرْدِ لِلظَّمْآنِ

وَإِذَا تَنَاوَلْتَ الثِّمَارَ أَتَتْ نَظِيـ ... ـرَتُهَا فَحَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ

لَمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَمْ تَرْقُبْ نُزُو ... لَ الشَّمْسِ مِنْ حَمَلٍ إِلَى مِيزَانِ

وَكَذَاكَ لَمْ تُمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى ... أَنْ تَرْتَقِي لِلْقِنْوِ فِي الْعِيدَانِ

بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ الْقُطُوفُ فَكَيْفَمَا ... شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الإِمْكَانِ

وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ ... ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِي بِبَيَانِ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الْجُذُو ... عُ زَمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الأَلْوَانِ

وَمُقَطَّعَاتُهُمُ مِنَ الْكَرْمِ الَّذِي ... فِيهَا وَمِنْ سَعَةٍ مِنَ الْعِقْيَانِ

وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ ... ـثَالِ الْقِلَالِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

وَظِلَالُهَا مُمْتَدَّةٌ لَيْسَتْ تَقِي ... حَرًّا وَلَا شَمْسًا وَأَنَّى ذَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ ... فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْعَجْلَانِ

مِائَةَ سِنِينَ قُدِّرَتْ لَا تَنْقَضِي ... هَذَا لِعَظِيمِ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

وَلَقَدْ رَوَى الْخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّ طُو ... بَى قَدْرُهَا مِائَةٌ بِلَا نُقْصَانِ

تَتَفَتَّحُ الأَكْمَامُ فِيهَا عَنْ لِبَا ... سِهِمُ بِمَا شَاءُوا مِنَ الأَلْوَانِ

الشرح : فما أطيب هذه الثمار الَّتِي غرست أشجارها فِي أرض المسك الذي هو تراب الجنة ، ثُمَّ سقيت بماء هو أطهر ماء وأنقاه ، وأعذب مورد للظامئ الصادي وأحلاه .

وهذه الثمار إذا تناولت منها ثمرة ؛ خلق اللَّه مكانَها أخرى ، فثمارها لا تنقطع أبدًا ، بل هي متجددة دائمًا ، وهي توجد حين توجد نضيجة مهيأة للقطاف ، فلا تنتظر نزول الشمس من برج الحمل إِلَى برج الميزان الذي هو أوان نضج ثمار الدنيا .

وهي أيضًا غير ممنوعة على من أراد تناولها ، فلا يحتاج أن يصعد إِلَى قنوانِها ليقطفها ، كما هو الحال فِي الدنيا ، بل هي قطوف مذللة منقادة ، ودانية قريبة يقطف منها كيف شاء ، قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا ، وينتزعها بأيسر قدرة ، ولقد روى الترمذي فِي جامعه من حديث أبِي حازم عن أبِي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما فِي الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»** .

وقال ابن المبارك : حدثنا سفيان ، عن حماد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : «نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر ، وكربُها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل جنة ، منها مقطعاتُهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ؛ أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى مذاقًا من العسل ، وألين من الزبدة ليس فيها عجم» .

وأما ظلال الجنة فظليلة ممدودة ، لكنها لا تحمى من حر ولا شمس ؛ إذ لا حر ولا شمس هناك ، قال تعالَى : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

روى عكرمة ، عن ابن عباس قال : «الظل الممدود : شجرة فِي الجنة ، على ساق قدر ما يسير الراكب المجدُّ فِي ظلها مائة عام فِي كل نواحيها ، فيخرج إليها أهل الجنة ، أهل الغرف ؛ وغيرهم ، يتحدثون فِي ظلها ، قال : فيشتهي بعضهم ، ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل اللَّه ريحًا من الجنة ، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فِي الدنيا» .

وروى ابن وهب عن أبِي سعيد الخدري قال : «قال رجل : يا رسول اللَّه ، ما طوبى؟ قال : **شجرة فِي الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**» .

* * *

فصل في سماع أهل الجنة

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَيُرْسِلُ رَبُّنَا ... رِيحًا تَهُزُّ ذَوَائِبَ الأَغْصَانِ

فَتُثِيرُ أَصْوَاتًا تَلَذُّ لِمَسْمَعِ الْـ ... إِنْسَانِ كَالنَّغَمَاتِ بِالأَوْزَانِ

يَا لَذَّةَ الأَسْمَاعِ لَا تَتَعَوَّضِي ... بِلَذَاذَةِ الأَوْتَارِ وَالْعِيدَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ سَمَاعَهُمْ فِيهَا غِنَا ... ءُ الْحُورِ بِالأَصْوَاتِ وَالأَلْحَانِ

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ فَإِنَّهُ ... مُلِئَتْ بِهِ الأُذُنَانِ بِالإِحْسَانِ

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ وَطِيبِهِ ... مِنْ مِثْلِ أَقْمَارٍ عَلَى أَغْصَانِ

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ فَكَمْ بِهِ ... لِلْقَلْبِ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ أَشْجَانِ

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ وَلَمْ أَقُلْ ... ذَيَّاكَ تَصْغِيرًا لَهُ بِلِسَانِ

مَا ظَنُّ سَامِعِهِ بِصَوْتٍ أَطْيَبِ الْـ ... أَصْوَاتِ مِنْ حُورِ الْجِنَانِ حِسَانِ

نَحْنُ النَّوَاعِمُ وَالْخَوَالِدُ خَيِّرَا ... تٌ كَامِلَاتُ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

لَسْنَا نَمُوتُ وَلَا نَخَافُ وَمَا لَنَا ... سَخَطٌ وَلَا ضِغْنٌ مِنَ الأَضْغَانِ

طُوبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَذَاكَ طُو ... بَى لِلَّذِي هُوَ حَظُّنَا لَفْظَانِ

فِي ذَاكَ آثَارٌ رُوِينَ وَذِكْرُهَا ... فِي التِّرْمِذِي وَمُعْجَمِ الطَّبَرَانِي

وَرَوَاهُ يَحْيَى شَيْخُ الاَوْزَاعِيِّ تَفْـ ... سِيرًا لِلَفْظَةِ يُحْبَرُونَ أَغَانِ

الشرح: سبق أن ذكرنا الأثر الذي رواه عكرمة عن ابن عباس، أن أهل الجنة حين يشتهون السماع، ويذكرون لهو الدنيا وهم تحت شجرة طوبى، يرسل اللَّه إليهم ريحًا تَهز أفنان الشجرة، فتنطلق منها أنغام وأصوات هي ألذ فِي السمع من كل أنغام الدنيا وألحانِها.

فيا لذة الأسماع لا تستعيضي عن هذا السماع العالي الحلو النشيد بِما تسمعين فِي هذه الدنيا من أوتار وعيدان، ولا تستبدلي الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولقد وردت الآثار أيضًا بأن الحور العين يغنين فِي كل صباح بأعذب الألحان، روى الترمذي بإسناده عن النعمان بن سعد، عن علي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن فِي الجنة لمجتمعًا للحور العين، يرفعن بأصوات لَمْ تسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نَحن الخالدات فلا نبيد، ونَحن الناعمات فلا نبأس، ونَحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له**».

وروى الطبراني من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، وأن مما يغنين به: نَحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام. ينظرون بقُرَّة أعين، وأن مما يغنين به: نَحن الخالدات فلا نمتنه، نَحن الآمنات فلا نخفنه، نَحن المقيمات فلا نظعنه**».

وروى أبو نعيم فِي صفة الجنة من حديث أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن فِي الجنة شجرة، جذوعها من ذهب، وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهب لَهَا ريح فيصطفقن، فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألذ منه**».

وروى الأوزاعي عن شيخه يحيى بن أبِي كثير فِي تفسير قوله تعالَى: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]. قال: «الحبرة: السماع فِي الجنة».

فوا لهفتا على ذلك السماع الذِي تمتلئ منه الآذان لذة ونشوة، ووا لهفتا لذلك السماع وطيبه حين تنطلق به حناجر الحور الحريرية، وتتمايل عنده رءوسهن كأنَّها أقمار على أغصان، ووا لهفتا لذلك السماع الذي ملأ القلوب طربًا وشجنًا، ولَم أقل: بذياك -بصيغة التصغير- تحقيرًا له، وتَهوينًا من شأنه، فما ظنك بأطيب صوت فِي أعذب لحن يخرج من أجْمل امرأة، لا شك أنه قد اجتمعت له كل عناصر اللذة والإمتاع.

* * *

نَزِّهْ سَمَاعَكَ إنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ ذَيْـ ... يَـاكَ الْـغِـنَـا عَـنْ هَـذِهِ الأَلْـحَـانِ

لَا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَتُحْـ ... رَمَ ذَا وَذَا يَـا ذِلَّـةَ الْـحِـرْمَـانِ

إنَّ اخْتِيَارَكَ لِلسَّمَاعِ النَّازِلِ الْـ ... أَدْنَى عَلَى الأَعْلَى مِنَ النُّقْصَانِ

وَاللهِ إنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ وَالْـ ... إيـمَـانِ مِـثْـلُ السُّمِّ فِـي الأَبْـدَانِ

وَاللهِ مَا انْفَكَّ الَّذِي هُوَ دَأْبُهُ ... أَبَـدًا مِـنَ الإشْـرَاكِ بِـالـرَّحْـمَـنِ

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حُـبًّـا وَإخْـلَاصًـا مَـعَ الإحْـسَـانِ

فَـإذَا تَـعَـلَّـقَ بِـالـسَّـمَـاعِ أَصَـارَهُ ... عَـبْـدًا لِـكُـلِّ فُـلَانَـةٍ وَفُـلَانِ

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيسَ يَجْتَمِعَانِ

ثَقُلَ الْكِتَابُ عَلَيهِمُ لَمَّا رَأَوْا ... تَـقْـيِـيـدَهُ بِـشَـرَائِـعِ الإيـمَـانِ

وَاللَّهْوُ خَفَّ عَلَيهِمُ لَمَّا رَأَوْا ... مَـا فِـيـهِ مِـنْ طَـرَبٍ وَمِـنْ أَلْـحَـانِ

قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ قُو ... تُ الْقَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي الْقُوتَانِ
وَلِذَا تَرَاهُ حَظَّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ... جُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ
وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمُ مِنَ الْـ ... عَقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلْ أَخَا الْعِرْفَانِ
يَا لَذَّةَ الْفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ ... أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلَا قُرْآنِ

الشرح: فإن أردت أن تحظى بسماع ذلك الغناء العلوي العبقري النشيد، فنَزه سمعك عن هذه الألحان الدنسة المنطلقة بسعار الشهوة، ولا تؤثر هذا الأدنى الخسيس على الأعلى الشريف النفيس، فيكون مآلك أن تحرمهما جميعًا، وما أقسى الحرمان وما أصعبه، وإن إيثارك هذا السماع الدني المنحط على السماع العلوي الكريم من أمارات نقصانك فِي عقلك وإيمانك، فكيف يؤثر عاقل لذة حقيرة تفوت وتذهب على لذة عالية تبقى وتخلد؟!

واللَّه إن سماع هذه الألحان لأشد فتكًا بالقلب والإيمان من فتك السموم بالأبدان، وإن الذي يجعل هذا السماع ديدنه وهجيراه ويغرم به، لا ينفك أبدًا من الإشراك بالرحمن، فإن القلب هو بيت الرب ﷻ ووعاء محبته ومعرفته والإخلاص له، فهو عرش للمثل الأعلى، فإذا خلا من هذه المعالي الكريمة، وتعلق بالغناء واللَّهو الباطل؛ جعله ذلك عبدًا للمغنين والمغنيات لا يلهج إلا بذكرهم، ولا يفكر إلا فيهم.

واعتبر بِما نراه فِي هذه الأيام من تعلق هذه الأمة بمن نبغوا فِي الغناء والطرب، من أمثال أم كلثوم، وعبد الوهاب، وعبد الحليم حافظ، وصباح، وغيرهم، فإنك لا تجد أغلب هذه الأمة إلا عبيدًا لهؤلاء، قد فتنوا بِهم أعظم فتنة، حَتَّى إن الفتيان والفتيات يحفظون أغنياتِهم عن ظهر قلب، وكثير منهم قد لا يحفظ فاتحة الكتاب.

فحب القرآن وحب الغناء والألحان فِي قلب عبد واحد لا يجتمعان، قال تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧]. والناس قد استثقلوا القرآن لما فيه من قيود التكاليف وشرائع الإيمان، ولكنهم استخفوا اللَّهو والغناء لما فيه من الطرب والألحان.

أما هذا اللَّهو والغناء فهو غذاء النفوس المريضة الأمارة بالسوء ولكن القرآن هو قوت القلوب، ولا يمكن أن يستوي القوتان؛ ولِهذا ترى الغناء هو نصيب أهل النقص القريبين

من درجة العجماوات من الجهال والغلمان والنسوان، وترى أشدهم تعلقًا به، ولذة فيه؛ أقلهم حظًّا من العقل السليم، فاسأل به خبيرًا، وأين لذة الفساق والمجان من لذة الأبرار فِي العقل والقرآن؟!

فصل في أنهار الجنة

أَنْـهَـارُهَـا فِـي غَـيـرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ ... سُبْـحَـانَ مُـمْـسِـكِـهَـا عَـنِ الْـفَـيـضَـانِ

مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاءُوا مُفَجْـ ... ـجَـرَةً وَمَـا لِـلـنَّـهْـرِ مِـنْ نُـقْـصَـانِ

عَـسَـلٌ مُـصَـفًّـى ثُـمَّ مَـاءٌ ثُـمَّ خَـمْـ ... ـرٌ ثُـمَّ أَنْـهَـارٌ مِـنَ الأَلْـبَـانِ

وَالـلـهِ مَـا تِـلْـكَ الْـمَـوَادُّ كَـهَـذِهِ ... لَـكِـنْ هُـمَـا فِـي الـلَّـفْـظِ مُـجْـتَـمِـعَـانِ

هَـذَا وَبَـيـنَـهُـمَـا يَـسِـيـرُ تَـشَـابُـهٍ ... وَهْـوَ اشْـتِـرَاكٌ قَـامَ بِـالأَذْهَـانِ

الشرح: يعني: أن أنهار الجنة تجري على وجه الأرض فِي غير أخاديد، وأما قوله تعالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]. فالمراد: أنَّها تجري تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم، واللَّه سبحانه يمسكها أن تفيض على الجانبين، وهي أنهار مطردة دائمة الجريان، لا يطرأ لَهَا غيض ولا نقصان، وتتفجر لَهم كما شاءوا وأينما كانوا، كما قال تعالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وهي أنهار تجري بأنواع مختلفة من الأشربة، كما قال تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. وليست هذه الأشربة كالمعهود منها فِي الدنيا، بل بينها من التفاوت فِي الطعم والشكل ما لا يعلمه إلا اللَّه، ولا اشتراك بينها إلا فِي اللفظ، كما قال ابن عباس: «ليس فِي الجنة مما فِي الدنيا إلا الأسماء». وبينها كذلك قدر يسير من التشابه، وهو اشتراكها فِي المعنَى الكلي الحاصل فِي الأذهان.

قال المؤلف فِي «حادي الأرواح»: «فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة الَّتِي تعرض له فِي الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلَى الحموضة، وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربِها، وآفة العسل عدم تصفيته».

فصل في طعام أهل الجنة

وَطَعَامُهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ وَلُحُومُ طَيرٍ نَاعِمٍ وَسِمَانِ
وَفَوَاكِهٌ شَتَّى بِحَسْبِ مُنَاهُمُ يَا شَبْعَةً كَمُلَتْ لِذِي الإِيمَانِ
لَحْمٌ وَخَمْرٌ وَالنِّسَا وَفَوَاكِهٌ وَالطِّيبُ مَعْ رَوْحٍ وَمَعْ رَيحَانِ
وَصِحَافُهُمْ ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيهِمُ بِأَكُفِّ خُدَّامٍ مِنَ الْوِلْدَانِ
وَانْظُرْ إِلَى جَعْلِ اللَّذَاذَةِ لِلْعُيو نِ وَشَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ
لِلْعَينِ مِنْهَا لَذَّةٌ تَدْعُو إِلَى شَهَوَاتِهَا بِالنَّفْسِ وَالأَمْرَانِ
سَبَبُ التَّنَاوُلِ وَهْوَ يوجِبُ لَذَّةً أُخْرَى سِوَى مَا نَالَتِ الْعَينَانِ

الشرح: يعني: أن طعام أهل الجنة هو كل ما تتطلبه نفوسهم من لحوم الطير السمان والفواكه المتنوعة، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١]. وكما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧]. ويأكلون منها وفق ما يتمنونه حَتَّى يمتلئون شبعًا، فلهم فيها لحم طيب نضيج، وخمر معتقة لذة للشاربين، ونساء طاهرات من الحيض ومن كل قذر، وفواكه لا يصيبها عفن ولا عطب، ولَهم فيها أريج الطيب، وشذى الروح والريحان، فطاب لَهم فيها كل شيء، من مطعوم، ومشروب، ومنكوح، ومشموم.

ويأتي لَهم الطعام فِي صحاف من الذهب، يطوف عليهم بِها غلمان لَهم كأنَّهم لؤلؤ مكنون، قال تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وتأمل فِي هذه الآية الكريمة حيث جعل اللذة للعين والشهوة للنفس؛ لأن العين إذا التذت شيئًا اشتهته النفس، فلذة العين سبب داع إلَى شهوة النفس، وكلاهما باعث على التناول، وهو مقتض لذة أخرى فوق ما نالته العينان.

وروى مسلم فِي صحيحه من حديث جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس**».

وفِي المسند وسنن النسائي بإسناد صحيح عن زيد بن أبي أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: **نعم والذي نفس مُحمَّد بيده، إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فِي الأكل والشرب والجماع والشهوة.** قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فِي الجنة أذى. قال: **تكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم كرشح المسك، فيضمر بطنه**».

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**إنك لتنظر إلَى الطير فِي الجنة فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًّا**».

وعن عبد اللَّه بن عمرو فِي قوله تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]. قال: «يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب، كل صحفة منها فيها لون ليس فِي الأخرى».

وروى الحاكم بإسناده عن حذيفة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن فِي الجنة طيرًا أمثال البخاتي.** فقال أبو بكر: إنَّها لناعمة يا رسول اللَّه. قال: **أنعم منها من يأكلها، وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر**».

فصل في شرابهم

يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ رَحِيقٍ خَتْمُهُ ... بِالْمِسْكِ أَوَّلُهُ كَمِثْلِ الثَّانِي

مَعْ خَمْرَةٍ لَذَّتْ لِشَارِبِهَا بِلَا ... غَوْلٍ وَلَا دَاءٍ وَلَا نُقْصَانِ

وَالْخَمْرُ فِي الدُّنْيَا فَهَذَا وَصْفُهَا ... تَغْتَالُ عَقْلَ الشَّارِبِ السَّكْرَانِ

وَبِهَا مِنَ الأَدْوَاءِ مَا هِي أَهْلُهُ ... وَيخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الْوِجْدَانِ

فَنَفَى لَنَا الرَّحْمَنُ أَجْمَعَهَا عَنِ الْـ ... خَمْرِ الَّتِي فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ

وَشَرَابُهُمْ مِنْ سَلْسَبِيلٍ مَزْجُهُ الْـ ... كَافُورُ ذَاكَ شَرَابُ ذِي الإِحْسَانِ

هَذَا شَرَابُ أُولِي الْيَمِينِ وَلَكِنِ الْـ ... أَبْرَارُ شُرْبُهُمُ شَرَابٌ ثَانِ

يُدْعَى بِتَسْنِيمٍ سَنَامٌ شُرْبُهُمْ ... شِرْبُ الْمُقَرَّبِ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ

صَفَّى الْمُقَرَّبُ سَعْيَهُ فَصَفَا لَهُ ... ذَاكَ الشَّرَابُ فَتِلْكَ تَصْفِيَتَانِ

لَكِنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَأَهْلُ مَزْ ... جٍ بِالْمُبَاحِ وَلَيسَ بِالْعِصْيَانِ

مُزِجَ الشَّرَابُ لَهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الْـ أَعْـمَـالَ ذَاكَ الْـمَـزْجُ بِـالْـمِـيـزَانِ
هَـذَا وَذُو الـتَّـخْـلِـيـطِ مَـزْجًـا أَمْـرُهُ وَالْـحُـكْـمُ فِـيـهِ لِـرَبِّـهِ الـدَّيَّـانِ

الشرح: قال اللَّه تعالَى من: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢٢-٢٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٥-٦].

وقال -جل ذكره-: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[الصافات: ٤٥-٤٧].

قال ابن عباس: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الخمر. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ليس فيها صداع. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ لا تذهب عقولهم.

وقال فِي تفسير قوله تعالَى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[النبأ: ٣٤]. «ممتلئة». وقوله: ﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾[المطففين: ٢٤].

فهذا شأن خمر الآخرة، تحدث لصاحبها أعظم نشوة، وأصفى لذة من غير أن تغتال عقله، أو تصدع رأسه، أو تجلب له الأمراض.

وأما خمر الدنيا فهذا وصفها: تغتال عقل شاربها، حَتَّى يهذي، ويقدم على ارتكاب العظائم، وتحدث له من الأدواء والعلل ما هي جديرة له، وتورثه العدم والإملاق بعد الغنى واليسار، فنفي لنا الرحْمن ﷻ كل هذه الآفات الَّتِي تحدثها خمر الدنيا عن خمر الجنة: من الصدع، والغول، واللغو، والإنزاف، وعدم اللذة.

وأهل الجنة فريقان: مقرب، وأصحاب يمين.

أما أصحاب اليمين: فيشربون فيها من سلسبيل مزج بالكافور والزنجبيل، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[الإنسان: ٥]. وقال بعد ذلك ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[الإنسان: ١٧-١٨].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حادي الأرواح: «فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين: بالكافور فِي أول السورة، والزنجبيل فِي آخرها، فإن فِي الكافور من البرد وطيب الرائحة،

وفِي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ما يحدث لَهم باجتماع الشرابين، ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر، وما ألطف موقع ذكر الكافور فِي أول السورة، والزنجبيل فِي آخرها، فإن شرابَهم مزج أولًا بالكافور، وفِيه من البرد ما يجيء الزنجبيل بعده فيعدله، والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى، وأنَّهما نوعان لذيذان من الشراب، أحدهما مزج بكافور، والثاني مزج بزنجبيل». اهـ.

وأما المقربون: فيشربون من هذه الكأس صرفًا غير مزيج، كما قال تعالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]. وذلك لأنَّهم أخلصوا الأعمال للَّه؛ فأخلص شرابَهم، وأما الأولون فمزجوا فمزج شرابَهم، ونظير هذا قوله تعالَى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٧-٢٨]. يعني: أن شراب أصحاب اليمين يمزج لَهم من هذه العين الَّتِي تسمى بتسنيم، والَّتِي يشرب منها المقربون صرفًا، فالمقرب أخلص سعيه وصفاه حَتَّى صار كله للَّه، فلهذا صفي له شرابه ولَمْ يمزج، والجزاء من جنس العمل، وأما أصحاب اليمين، فلما مزجوا سعيهم الصالح ببعض المكروهات الَّتِي ليست معصية، مزج لَهم شرابَهم جزاء وفاقًا.

وهناك فريق ثالث: وهم الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢]. وهم الذين قصَّروا فِي بعض الواجبات، وارتكبوا بعض المحرمات، فهؤلاء أمرهم مفوض إلَى اللَّه سبحانه، إن شاء عفا عنهم وتاب عليهم، وإن شاء عذبَهم بقدر ذنوبِهم، ثُمَّ يدخلهم الجنة.

فصل في مصرف طعامهم وشرابهم وهضمه

هَـذَا وَتَـصْـرِيـفُ الْـمَـآكِـلِ مِـنْـهُـمُ ... عَـرَقٌ يَـفِـيـضُ لَـهُـمْ مِـنَ الأَبْـدَانِ

كَرَوَائِحِ الْمِسْكِ الَّذِي مَا فِيهِ خَلْـ ... ـطٌ غَـيْـرُهُ مِـنْ سَـائِـرِ الأَلْـوَانِ

فَـتَـعُـودُ هَـاتِـيـكَ الْـبُـطُـونُ ضَـوَامِـرًا ... تَـبْـغِـي الـطَّـعَـامَ عَـلَـى مَـدَى الأَزْمَـانِ

لَا غَـائِـطٌ فِـيـهَـا وَلَا بَـوْلٌ وَلَا ... مَـخْـطٌ وَلَا بَـصْـقٌ مِـنَ الإِنْـسَـانِ

وَلَـهُـمْ جُـشَـاءٌ رِيـحُـهُ مِـسْـكٌ يَـكُـو ... نُ بِـهِ تَـمَـامُ الْـهَـضْـمِ بِـالإِحْـسَـانِ

هَـذَا وَهَـذَا صَـحَّ عَـنْـهُ فَـوَاحِـدٌ ... فِـي مُـسْـلِـمٍ وَلأَحْـمَـدَ الأَثَـرَانِ

الشرح: يعني أن طعام أهل الجنة وشرابَهم لا يخلف فِي بطونِهم فضلات تؤذيهم، يحتاجون معها إلَى بول أو غائط، بل تخرج عرقًا له رائحة كرائحة المسك الخالص الذي لَمْ يخلط به غيره، فتعود بطونُهم ضوامر خاوية تتطلب الطعام وتشتهيه، وهكذا حالهم على الدوام، أكل وانْهضام، وقد طهر اللَّه الجنة وأهلها من كل قذر الدنيا وخبثها، فلا غائط فيها ولا بول، ولا تمخط ولا بصق، ولا حيض ولا نفاس، ولأهل الجنة جشاء، وهو ذلك الريح الذي يخرج من الفم، يكون كريح المسك، يتم به هضمهم للطعام، وهذا كله صح عنه ﷺ، وقد سبق أن ذكرنا حديث مسلم فِي جشاء أهل الجنة.

ولأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أثران فِي هذا الباب، يدلان على أن طعام أهل الجنة يفيض من جلودهم كرشح المسك، وقد تقدم ذكر ذلك.

فصل في لباس أهل الجنة

وَهُمُ الْمُلُوكُ عَلَى الأَسِرَّةِ فَوْقَ هَا ... تِيكَ الرُّءُوسِ مُرَصَّعُ التِّيجَانِ
وَلِبَاسُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَمِنْ ... إِسْتَبْرَقٍ نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ
مَا ذَاكَ مِنْ دُودٍ بَنَى مِنْ فَوْقِهِ ... تِلْكَ الْبُيُوتَ وَعَادَ ذَا الطَّيَرَانِ
كَلَّا وَلَا نُسِجَتْ عَلَى الْمِنْوَالِ نَسْـ ... ـجَ ثِيَابِنَا بِالْقُطْنِ وَالْكِتَّانِ
لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشُقُّ ثِمَارَهَا ... عَنْهَا رَأَيتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ
بِيضٌ وَخُضْرٌ ثُمَّ صُفْرٌ ثُمَّ حُمْـ ... ـرٌ كَالرِّبَاطِ بِأَحْسَنِ الأَلْوَانِ
لَا تَقْرَبُ الدَّنَسَ الْمُقَرِّبَ لِلْبِلَى ... مَا لِلْبِلَى فِيهِنَّ مِنْ سُلْطَانِ
وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ وَهْوَ خِمَارُهَا ... لَيْسَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِنَ الأَثْمَانِ
سَبْعُونَ مِنْ حُلَلٍ عَلَيهَا لَا تَعُو ... قُ الطَّرْفَ عَنْ مُخٍّ وَرَا السِّيقَانِ
لَكِنْ يَرَاهُ مِنْ وَرَا ذَا كُلِّهِ ... مِثْلَ الشَّرَابِ لِذِي زُجَاجٍ أَوَانِ

الشرح: يعني أن أهل الجنة يكونون ملوكًا فيها، متكئين على أسرتهم، والتيجان المرصعة فوق رءوسهم.

ذكر البيهقي من حديث يعقوب بن حميد بن كاسب، عن أبِي هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**من قرأ القرآن، فقام به آناء الليل والنهار، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، خلطه اللَّه**

بلحمه ودمه، وجعله رفيق السفرة الكرام البررة، وإذا كان يوم القيامة؛ كان القرآن له حجيجًا، فقال: يا رب، كل عامل يعمل فِي الدنيا يأخذ بعمله من الدنيا، إلا فلانًا كان يقوم آناء الليل وأطراف النهار، فيحل حلالي ويحرم حرامي، يقول: يا رب فأعطه. فيتوّج الله تاج الملوك، ويكسوه من حلة الكرامة، ثُمَّ يقول: هل رضيت؟ فيقول -أي: القرآن-: يا رب، أرغب له فِي أفضل من هذا. فيعيطه اللَّه الملك بيمينه والخلد بشماله، ثُمَّ يقول: هل رضيت؟ فيقول: نعم يا رب».

وعن أبِي سعيد الخدري: «أن النَّبِيَّ ﷺ تلا قوله ﷻ: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [فاطر: ٣٣]. فقال: «إن عليهم التيجان، وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب».

وأما ثياب أهل الجنة: فقد قال تعالَى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣]. وقال: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١].

قيل: السندس: ما رق من الديباج، والإستبرق: ما غَلُظَ منه، أو هو الصفيق.

وقال الزَّجَّاج: هما نوعان من الحرير. ولما كان أبْهج الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فقد جمع اللَّه لأهل الجنة بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

ولكن ينبغي أن يعلم أن حرير الجنة -رقيقه وإستبرقه- لَمْ تخرج خيوطه من تلك الدودة المعروفة بدودة القز الَّتِي تبنيه من فوقها، ثُمَّ تخرج منه وتعود لطيرانِها، وكذلك لَمْ ينسج هذا الحرير على أنوال كهذه الَّتِي ننسج عليها ثيابنا الَّتِي نتخذها من القطن أو الكتان، ولكن هذا الحرير صنعة الرحْمن، تخرج حلله من شجرة فِي الجنة تتفتح أكمامها عنه كما تتفتح شقائق النعمان.

روى الإمام أحمد فِي مسنده، عن عبد اللَّه بن عمرو: «أن رجلًا سأل رسول اللَّه ﷺ عن ثياب الجنة أتخلق خلقًا، أم تنسج نسجًا؟ فسكت النَّبِيُّ ﷺ ساعة، ثُمَّ قال: **أين السائل عن ثياب أهل الجنة؟** فقال: ها هو ذا يا رسول اللَّه. قال: **لا، بل يشقق عنها ثمر الجنة.. ثلاث مرات**».

وعن أبِي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة يحدث عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلَى طوبى، فتفتح له أكمامها، فيأخذ من أي ذلك**

شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أخضر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، ومثل شقائق النعمان وأرق وأحسن».

وهذه الحلل فِي بَهائها وحسنها لا يمسها الدنس والوسخ الذي يسرع بِها إِلَى البلى والتمزق؛ إذ ليس للبلى عليها من سبيل، ونصيف الواحدة من نساء الجنة -وهو خمارها على رأسها- لا يقوم بثمن من أثمان هذه الدنيا.

روى الإمام أحمد فِي مسنده عن أبِي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لقيد سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولنصيف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها**. قال: قلت: يا رسول اللَّه، وما النصيف؟ قال: **الخمار**».

وروى الطبراني فِي معجمه من حديث عبد اللَّه بن مسعود عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم ضوء القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دري فِي السماء، لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقها من وراء لحومها، وحللَّها كما يرى الشراب الأحمر فِي الزجاجة البيضاء**». وهذا إسناد على شرط الصحيح.

وفِي الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: «أهدى أكيدر دومة إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جبة من سندس، فتعجب الناس من حسنها، فقال: **لمناديل سعد فِي الجنة أحسن من هذا**».
والمراد: سعد بن معاذ رضي الله عنه.

فصل في فُرُشهم وما يتبعها

فَالْفُرْشُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قَدْ بُطِّنَتْ ... مَا ظَنُّكُمْ بِظَهَارَةٍ لِبِطَانِ
مَرْفُوعَةٌ فَوْقَ الأَسِرَّةِ يَتَّكِي ... هُوَ وَالْحَبِيبُ بِخَلْوَةٍ وَأَمَانِ
يَتَحَدَّثَانِ عَلَى الأَرَائِكِ مَا تَرَى ... حِبَّيْنِ فِي الْخَلَوَاتِ يَنْتَجِيَانِ
هَذَا وَكَمْ زَرْبِيَّةٍ وَنَمَارِقٍ ... وَوَسَائِدٍ صُفَّتْ بِلَا حُسْبَانِ

الشرح: قال اللَّه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وقال: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦].

فقوله تعالَى فِي الآية الأولى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يدل على أمرين:

أحدهما: أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها تلي الأرض، وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

روى سفيان الثوري عن عبد اللّه فِي قوله: تعالَى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال: «هذه البطائن قد خبرتم بِها، فكيف بالظهائر؟!».

والثاني: أنَّها فرش عالية لَهَا سمك وحشو بين البطانة والظهارة، كما قال تعالَى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤].

وقد روي عن أبِي سعيد الخدري مرفوعًا: «**أن ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض**».

وهذه الفرش موضوعة فوق الأسرة، ليتكئ عليها صاحب الجنة هو وحبيبته من الحور العين، حيث يتحدثان، ويتناجيان، ويتطارحان عبارات الغرام، بعيدين عن الناس، وفِي مأمن من العواذل والرقباء، كما يجلس عشيقان من أهل الدنيا فِي خلوة يتناجيان.

هذا وكم فِي الجنة من زرابِي، جمع زربية، بمعنى: البسط والطنافس، ونمارق جمع نُمرقة -بضم النون-.

قال الواحدي: «هي الوسائد».

وقال الكلبي: «وسائد مصفوفة بعضها إلَى بعض».

وقال مقاتل: «هو الوسائد مصفوفة على الطنافس».

فصل في حَلْي أهل الجنة

وَالْحَلْيُ أَصْفَى لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... وَكَذَاكَ أَسْوِرَةٌ مِنَ الْعِقْيَانِ

مَا ذَاكَ يَخْتَصُّ الإنَاثَ وَإنَّمَا ... هُوَ لِلإنَاثِ كَذَاكَ لِلذُّكْرَانِ

التَّارِكِينَ لِبَاسَهُ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا لأَجْلِ لِبَاسِهِ بِجِنَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ حِلْيَتَهُمْ إلَى ... حَيْثُ انْتِهَاءِ وَضُوئِهِمْ بِوِزَانِ

وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيرَةَ كَانَ قَدْ ... فَازَتْ بِهِ الْعَضُدَانِ وَالسَّاقَانِ

وَسِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ قَائِلًا ... مَا السَّاقُ مَوْضِعُ حِلْيَةِ الإنْسَانِ

مَا ذَاكَ إِلَّا مَوْضِعُ الْكَعْبَيْنِ وَالزْ ... زَنْدَيْنِ لَا السَّاقَانِ وَالْعَضُدَانِ
وَكَذَاكَ أَهْلُ الْفِقْهِ مُخْتَلِفُونَ فِي ... هَذَا وَفِيهِ عِنْدَهُمْ قَوْلَانِ
وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُوئِنَا ... لِلْمِرْفَقَيْنِ كَذَلِكَ الْكَعْبَانِ
هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الرَّحْمَنُ فِي الْـ ... قُرْآنِ لَا تَعْدِلْ عَنِ الْقُرْآنِ
وَاحْفَظْ حُدُودَ الرَّبِّ لَا تَتَعَدَّهَا ... وَكَذَاكَ لَا تَجْنَحْ إِلَى النُّقْصَانِ
وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَدْ ... أَبْدَى الْمُرَادَ وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ
وَمَنِ اسْتَطَاعَ يُطِيلُ غُرَّتَهُ فَمَوْ ... قُوفٌ عَلَى الرَّاوِي هُوَ الْفَوْقَانِي
فَأَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ ذَا مِنْ كَيْسِهِ ... فَغَدَا يُمَيِّزُهُ أُولُو الْعِرْفَانِ
وَنُعَيْمٌ الرَّاوِي لَهُ قَدْ شَكَّ فِي ... رَفْعِ الْحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي
وَإِطَالَةُ الْغُرَّاتِ لَيسَ بِمُمْكِنٍ ... أَبَدًا وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

الشرح: وأما حلي أهل الجنة: فمن أصفى الجواهر الكريمة، وأثمنها، من اللؤلؤ، والزبرجد، وأساور العقيان الذي هو الذهب، وأساور الفضة، قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣]. قرئ «لؤلؤًا» بالنصب عطف على محل أساور، أو منصوبًا بفعل محذوف، أي: ويحلون لؤلؤًا، وقرئ بالجر عطفًا على ذهب، وهو يحتمل أمرين:

أن يكون لَهم أساور من لؤلؤ كما لَهم أساور من ذهب.

وأن تكون الأساور مركبة من الأمرين معًا، الذهب المرصع باللؤلؤ، والله أعلم بمراده.

وهذه الحلي لا تختص بالإناث فِي الجنة، بل هي للذكور والإناث جميعًا، بل روي عن الحسن: أن الحلي فِي الجنة على الرجال أحسن منه على النساء، وهم الرجال الذين تركوا لباس الحرير والذهب فِي الدنيا؛ ليظفروا بلباسها فِي الجنة.

وقد ورد أن حلية المؤمن فِي الجنة تبلغ إلَى حيث يبلغ وضوءه، فقد أخرجا فِي الصحيحين -والسياق لمسلم- عن أبِي حازم قال: «كنت خلف أبِي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حَتَّى يبلغ إبطه، فقلت: يا أبا هريرة، ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ، أنتم هاهنا؟ لو أعلم أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**». وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته، وكذا غسل الساق، والصحيح أنه لا يستحب، والحديث لا يدل على الإطالة، فإن الحلية إنَّما تكون زينة في الساعد والمعصم، لا في العضد والكتف، وكذلك لا تكون زينة في الساقين، ولكن في موضع الكعبين.

فالصحيح: أن تمام الوضوء هو غسل اليدين إلى المرفقين، وغسل الرجلين إلى الكعبين، وهذا هو الذي حده الله في كتابه حيث قال في آية الوضوء من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة: ٦]. فالواجب أن يوقف عند ما حدَّه الله تعالَى بلا زيادة ولا نقصان، ولا سيما وقد بيَّنه الرسول ﷺ بفعله أحسن بيان.

وأما قوله في الحديث الآخر: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» بعد قوله: «**يبعث أمتي غرًّا محجلين من آثار الوضوء**». فالصحيح أن هذه الجملة الشرطية موقوفة علي أبي هريرة، وأنَّها ليست من تمام الحديث، بل قالها أبو هريرة بناء على ما فهمه من الحديث، وقد بيَّن ذلك غير واحد من الحفاظ، فقد جاء في مسند الإمام أحمد في هذا الحديث أن نعيمًا راوي الحديث قال: فلا أدري قوله: «من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». من كلام النَّبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة من عنده.

قال ابن القيم: «وكان شيخنا يقول: هذه اللفظة لا يمكن أن تكون من كلام الرسول ﷺ، فإن الغرة لا تكون في اليد، ولا تكون إلا في الوجه، وإطالته غير ممكنة؛ إذ تدخل في الرأس، فلا تسمى تلك غرة».

فصل في صفة عرائس الجنة وحسنهن وجمالهن ولذة وصالهن ومهورهن

يَا مَنْ يطُوفُ بِكَعْبَةِ الْحُسْنِ الَّتِي ... حُفَّتْ بِذَاكَ الْحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

وَيَظَلُّ يسْعَى دَائِمًا حَوْلَ الصَّفَا ... وَمُحَسِّرٍ مَسْعَاهُ لَا الْعَلَمَانِ

وَيرُومُ قُرْبَانَ الْوِصَالِ عَلَى مِنَى ... وَالْخِيفُ يَحْجُبُهُ عَنِ الْقُرْبَانِ

فَلِذَا تَرَاهُ مُحْرِمًا أَبَدًا وَمَوْ ... ضِعُ حِلِّهِ مِنْهُ فَلَيسَ بِدَانِ

يَبْغِي التَّمَتُّعَ مُفْرِدًا مِنْ حُبِّهِ ... مُتَجَرِّدًا يَبْغِي شَفِيعَ قِرَانِ

فَيظَلُّ بِالْجَمَرَاتِ يرْمِي قَلْبَهُ هَذِي مَنَاسِكُهُ بِكُلِّ زَمَانِ
وَالنَّاسُ قَدْ قَضَوْا مَنَاسِكَهُمْ وَقَدْ حَثُّوا رَكَائِبَهُمْ إِلَى الأَوْطَانِ
وَحَدَتْ بِهِمْ هِمَمٌ لَهُمْ وَعَزَائِمٌ نَحْوَ الْمَنَازِلِ أَوَّلَ الأَزْمَانِ
رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ الْوِصَا لِ فَشَمَّرُوا يَا خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ

الشرح: فِي هذا الفصل والذي بعده تظهر عبقرية المؤلف، وترق حواشي شعره، وهو يصف عرائس الجنة وخرائدها الحسان وصفًا يزري بكل ما قيل من غزل ونسيب، ويكثر فِي كلامه هنا التورية، وهي إرادة معان بعيدة غير الَّتِي تعطيها ظواهر الألفاظ، فهو ينادي هذا الذي يَهيم فِي أودية الجمال، وينشد وصل ربات الحجال، وبينه وبينهن حواجز يَعُقْنَه عن الوصال، فيظل يسعى بين صفاء يرجوه وحسرة تلوعه، وينشد بلوغ المنى بقرب وصالها، ولكن خوفه من العواذل والرقباء يمنعه من قربانِها، فيظل يقاسي ألم الحرمان، ويرى يوم الوصل منه غير دان، فهو يطلب التمتع بمحبوبه خاليًا به، وينشد شفيعًا إليه يقربه منه، فيظل قلبه متقدًا بنار الغرام، مشبوبًا بلواذع الهجر والحرمان، وهذه مناسكه على مدى الأيام، لا ينقضي ما بقلبه من وجد وهيام.

ولكن الأكياس الفطناء من الأنام لَمْ يتعلقوا من هذه الدنيا بحسن زائف ولا بجمال زائل، بل جردوا من ذلك قلوبَهم، ورنوا بأبصار بصائرهم إلَى الغايات البعيدة، فحثوا إليها ركائب العزائم، وامتطوا صهوات الهمم، وجدُّوا فِي بلوغ هاتيك المنازل الَّتِي هي المنازل الأولى والأوطان الأصلية الَّتِي كانوا يسكنونَها وهم فِي صلب أبيهم آدم، قبل أن يرتكب الخطيئة، ويَهبط إلَى الأرض، وقد رفعت لَهم فِي سيرهم أعلام الوصال فقربت منهم بعيد الآمال، وشحذت منهم الهمم، فلم يشعروا فِي سيرهم بسأم ولا كلال، على حين باء الكسلان بالخيبة والحرمان.

* * *

وَرَأَوْا عَلَى بُعْدٍ خِيَامًا مُشْرِفَا تٍ مُشْرِقَاتِ النُّورِ وَالْبُرْهَانِ
فَتَيَمَّمُوا تِلْكَ الْخِيَامَ فَآنَسُوا فِيهِنَّ أَقْمَارًا بِلَا نُقْصَانِ
مِنْ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَا تَبْغِي سِوَى مَحْبُوبِهَا مِنْ سَائِرِ الشُّبَّانِ
قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهَا مِنْ حُسْنِهِ وَالطَّرْفُ فِي ذَا الْوَجْهِ لِلنِّسْوَانِ
أَوْ أَنَّهَا قَصَرَتْ عَلَيهِ طَرْفَهُ مِنْ حُسْنِهَا فَالطَّرْفُ لِلذُّكْرَانِ

وَالأَوَّلُ الْمَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الْخِطَا ... بِ فَلَا تَحِدْ عَنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ
وَلَرُبَّمَا دَلَّتْ إِشَارَتُهُ عَلَى الثْـ ... ـثَانِي فَتِلْكَ إِشَارَةٌ لِمَعَانِ
هَذَا وَلَيسَ الْقَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ ... مَقْصُورَةً فَهُمَا إِذَنْ صِنْفَانِ

الشرح: وتراءت لهؤلاء الجادين المشمرين على بعد خيامًا عالية قد أشرق منها النور، وسطع الضياء، فقصدوا نحو تلك الخيام، فأبصروا فيهن نساء، كأنَّهن البدور ليلة التمام، من كل قاصرة طرفها على محبوبها، فلا تتحول عنه إلَى غيره من سائر الأنام، قال تعالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]. وقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩].

وقد اتفق المفسرون كلهم على أن معنَى «قاصرات الطرف»: أنَّهن حبسن أطرافهن على أزواجهن، فلا يطمحن إلَى غيرهم لحسنهم عندهن، فالطرف هنا طرف النساء، لا طرف الرجال.

وقيل: قصرن طرف أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلَى غيرهن.

وهذا الوجه صحيح من جهة المعنَى، وأما من جهة اللفظ فقاصرات صفة مضافة إلَى الفاعل، وأصله قاصر طرفهن، أي: ليس بطامح متعدٍّ، فالوجه الأول هو المألوف من وضع الخطاب، وهو ظاهر الآيات الكريمة، فلا يجوز أن يعدل عنه وإن كان هو قد يدل بالإشارة على المعنَى الثاني، فإن قصر المرأة طرفها على زوجها من شأنه أن يحمله على قصر طرفه عليها.

هذا وقد ورد فِي وصفهن كذلك قوله تعالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]. وفرق بين القاصرات والمقصورات، فإن شأن الَّتِي قصرت طرفها على زوجها أعظم ممن قصرها، أي: حبسها غيرها.

فهما إذن نوعان من النساء:

النوع الأول: للمقربين؛ لأنَّهن ذكرن فِي وصف الجنتين الفضليين.

وأما الثاني: فهو لأصحاب اليمين؛ لأنَّهن ذكرن فِي وصف الجنتين اللتين من دون الأوليين، واللَّه أعلم.

* * *

يَا مُطْلِقَ الطَّرْفَ الْمُعَذَّبَ فِي الأُلَى ... جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ
لَا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الدْ ... دَاءُ الدَّوِيُّ تَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ
قَبُحَتْ خَلَائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا ... شَيطَانَةٌ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ
تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ
مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا ... خُلُقٍ وَلَا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
وَجَمَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا الْعَينَانِ
طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الْحِفَاظِ فَمَا لَهَا ... بِوَفَاءِ حَقِّ الْبَعْلِ قَطُّ يَدَانِ
إِنْ قَصَّرَ السَّاعِي عَلَيهَا سَاعَةً ... قَالَتْ وَهَلْ أَوْلَيْتَ مِنْ إِحْسَانِ
أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَهَا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ ... تَقْبَلْ سِوَى التَّعْوِيجِ وَالنُّقْصَانِ
أَفْكَارُهَا فِي الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ الَّذِي ... قَدْ حَارَ فِيهِ فِكْرَةُ الإِنْسَانِ
فَجَمَالُهَا قِشْرٌ رَقِيقٌ تَحْتَهُ ... مَا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ
نَقْدٌ رَدِيءٌ فَوْقَهُ مِنْ فِضَّةٍ ... شَيءٌ يُظَنُّ بِهِ مِنَ الأَثْمَانِ
فَالنَّاقِدُونَ يَرَوْنَ مَاذَا تَحْتَهُ ... وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْعُمْيَانِ

الشرح: بعد أن رغّب المؤلف فِي عرائس الجنان اللاتي كمل حسنهن وخلائقهن، أخذ يحذر من الانخداع بنساء الدنيا، اللاتي تجردن من كل مزية، فلا حسن فِي الخلقة، ولا إحسان فِي العمل، فهو يوصي صاحب الطرف الطموح المعذب الذي ينطلق وراء كل غانية هيفاء ألّا تخدعه صورة ظاهرة من تحتها الداء العياء، فيرجع بكل خسارة وشقاء، وكيف ينخدع بامرأة قبحت منها الخلائق، فلا أمانة، ولا وفاء، ولا صبر، ولا رضا، ولا طاعة، ولا تواضع، وقبحت منها الفعال؟! بل هي شيطانة فِي صورة إنسان، تخضع وتنقاد لمن يَهواها من الأنذال والأرذال، لأنَّهم هم أشبه بِها، وأقرب إلَى طباعها، دون أهل الخير والفضل فإنَّها لا تريدهم، ولا ترغب فيهم؛ لعدم المشاكلة بينهم وبينها، وهي خالية من كل ما يدفعها إلَى الخير، ويحجزها عن الشر، فلا دين، ولا عقل، ولا خلق، ولا خوف من اللَّه ﷻ، وجمالها ليس بالخلقة والطبيعة، ولكنه جمال مزور، مصنوع من الأصباغ والألوان، حَتَّى إنَّها إذا تركت التزين والتجمل؛ زهدت فيها العيون، وخلت من كل ما يثير الرغبة فيها، وهي مطبوعة على الغدر، وكفران العشير، وعدم الحفاظ عليه، والوفاء بحقه، حَتَّى إنه لو أحسن إليها الدهر كله، ثُمَّ رأت منه شيئًا لا يعجبها ولو مرة واحدة

قالت له: ما رأيت منك خيرًا قط.

وهي مخلوقة من ضلع أعوج، فإن أراد إصلاحها وتقويمها؛ امتنعت عليه، وأبت إلا أن تظل على عوجها ونقصها، وهي لا تعمل فكرها إلا فِي المكر السيئ والكيد الدنيء الذي يعيا الرجل به، فهي كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. فجمالها قشرة رقيقة تحتها من العيوب والقبائح ما شاء اللَّه، فهو يشبه نقدًا رديئًا قوموه بالفضة أو الذهب؛ ليظن أنه منهما، ولكن النقاد الصيارفة لا يروج عليهم هذا البهرج، وإن كان ينطلي على كثير من الناس.

* * *

أَمَّا جَمِيلَاتُ الْوُجُوهِ فَخَائِنَا ... تُ بُعُولِهِنَّ وَهُنَّ لِلأَخْدَانِ

وَالْحَافِظَاتُ الْغَيبِ مِنْهُنَّ الَّتِي ... قَدْ أَصْبَحَتْ فَرْدًا مِنَ النِّسْوَانِ

فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلَا ... مِنْ قَبْلُ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ الْعَالِيَ الْـ ... بَاقِي بِذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِ

إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خُودٌ مِثْلُ مَا ... تَبْغِي وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ

فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خُودًا ثُمَّ قَدْ ... دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيكَ أَيْسَرُ إِنْ يَكُنْ ... لَكَ نِسْبَةٌ لِلْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ... ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلْحُطَامِ الْفَانِي

لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الْخُسْرَانِ

أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ سَلِيمَةٌ ... لَتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِنَ الْحِرْمَانِ

لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ ... دُنْيَا وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

الشرح: أما من رزقت منهن حظًّا من جمال الوجه ورشاقة القد وسحر العيون؛ فقد غرها جمالها، فراحت تبيعه فِي سوق الدعارة والفتون، فسرعان ما تقع فِي أحابيل المعجبين بِها، فتتخذ منهم أخدانًا، تبيح لَهم من نفسها ما حرم اللَّه، فتهدر شرفها، وتخون بعلها، وتغضب ربَّها، وتعيش مطية للشيطان.

والقانتات الصالحات الحافظات للغيب منهن، اللاتي يرعين أزواجهن فِي غيبتهم،

فلا يتعرضن لأحد بفتنة، ولا يأذنَّ لأحد أن يطأ فراشهن، ولا أن يدخل عليهن، فإنَّهن فِي غاية الندرة والقلة، وإن شئت أن تعرف مكائد هؤلاء النساء، وما وقع بسببهن فِي الدنيا من شر وبلاء؛ فاعتبر بمصارع من حولك، وانظر فِي مصائر من خلا قبلك من الشيب والشبان والكبار والصغار.

وإذا كنت ذا عقل سليم وإدراك كامل، فكيف يليق بك أن تبيع العالي بالسافل، وأن تستبدل العاجل الفاني بالذي هو خير وأبقى، وأهنأ وأصفى؟! إن ذلك لا يقدم عليه إلا ذو عقل مدخول، وبصيرة مغلولة، وإيمان مهزول، وإن كنت لا تزال عزبًا لَمْ تنكح النساء، ولَمْ تجد من ترغب فيها منذ ذوات الجمال والعفة والدين والخلق؛ فما عليك إلا أن تصبر عنهن بقية عمرك، وأن تيمم وجهك شطر الخود الغيد من عرائس الجنان، فتخطب لنفسك واحدة منهن من ربك الرحْمن، ثُمَّ تقدم لَهَا مهرها من الإيمان والتقى، ما دمت ذا قدرة وإمكان، فذلك النكاح أيسر وأخف كلفة من خطبة واحدة من نساء هذا الزمان، ولا سيما على من له نسب بالعلم والإيمان.

واعلم أنك لَمْ تخرج إلَى هذه الدنيا لتتخذها دار قرار، تعكف على لذاتِها العاجلة وحطامها الهزيل الفاني، وإنَّما خرجت للابتلاء والامتحان؛ لكي تكسب لنفسك زادًا يؤهلك لبلوغ دار القرار، ولكنك بدلًا من أن تشتغل بِما خلقت له وقفت عند شهواتك الدنيا، وأذهبت طيباتك فِي هذه الحياة، ولَمْ تتخذ الزاد لآخرتك، حَتَّى فات العمر، وذهبت الفرصة، وحَتَّى فاتك الذي ألهاك عن الاستعداد لأخراك، فواللَّه لو أن القلوب سليمة غير معلولة؛ لتقطعت حسرات على ما مر من أيام قضتها فِي التفريط والغفلات، والجري وراء الأوهام والخيالات، ولكنها ثملة بحب ما ترتع فيه من شهوات، وسوف تصحو من سكرتِها بعد حين، ولكن هيهات أن ينفعها ذلك هيهات.

فصل

فَاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِسِ الْجَنَّاتِ ثُمْ ... مَ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ
حُورٌ حِسَانٌ قَدْ كَمُلْنَ خَلَائِقًا ... وَمَحَاسِنًا مِنْ أَجْمَلِ النِّسْوَانِ
حَتَّى يحَارُ الطَّرْفُ فِي الْحُسْنِ الَّذِي ... قَدْ أُلْبِسَتْ فَالطَّرْفُ كَالْحَيْرَانِ
وَيقُولُ لَمَّا أَنْ يشَاهِدَ حُسْنَهَا ... سُبْحَانَ مُعْطِي الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

وَالطَّرْفُ يشْرَبُ مِنْ كُئُوسِ جَمَالِهَا ... فَتَرَاهُ مِثْلَ الشَّارِبِ النَّشْوَانِ
كَمُلَتْ خَلَائِقُهَا وَأُكْمِلَ حُسْنُهَا ... كَالْبَدْرِ لَيلَ السِّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ
وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا ... وَاللَّيلُ تَحْتَ ذَوَائِبِ الأَغْصَانِ
فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهْوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ ... لَيلٍ وَشَمْسٍ كَيفَ يجْتَمِعَانِ
فَيقُولُ سُبْحَانَ الَّذِي ذَا صُنْعُهُ ... سُبْحَانَ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإنْسَانِ
لَا اللَّيلُ يُدْرِكُ شَمْسَهَا فَتَغِيبَ عِنْ ... دَ مَجِيئِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ الثَّانِي
وَالشَّمْسُ لَا تَأْتِي بِطَرْدِ اللَّيلِ بَلْ ... يَتَصَاحَبَانِ كِلَاهُمَا أَخَوَانِ

الشرح: فإن كنت لا تزال مفتونًا بما هاهنا من جمال، مأخوذًا بسحر عيون ربات الحجال، فاسمع ما سأقصه عليك من صفات عرائس الجنان، وما بلغنه من كمال فِي باب الحسن والإحسان، ثُمَّ اختر لنفسك ما يحلو منهن، أو من هؤلاء النسوان، فهن حور حسان قد كملت خلائقهن، فلا يرى من عيب ولا نقصان، وكملت محاسنهن؛ حَتَّى ليحار الطرف فيهن من رقة الجلد وصفاء الألوان، وحَتَّى ليرى مخ سوقهن من وراء ثيابِهن، ويرى الناظر وجهه فِي خد إحداهن كما ترى الصور فِي المرآة، ولا تسل عن جمال العيون، ففيها كل السحر والفتون، قد زانَها الحور فاشتد بياض بياضها، واشتد سواد سوادها، والتأم كل منهما بالآخر، وتناسبا حَتَّى أصبحا يشعان الفتنة.

وبالجملة: ففيهن كل ما شئت من شباب وجمال وحسن ودلال، حَتَّى يقول صاحبها حين يشاهدها، وهو مشدوه حائر الطرف: سبحان من كملك جسمًا ومعنى، وأعطاك هذا الحسن والإحسان.

ويظل طرفه يشرب من كئوس جمالها، ويعب من معين فتنتها وسحرها، حَتَّى يصير ثملًا نشوان فِي مثل الشارب السكران.

كملت خلائقها، فلا يصدر عنها إلا كل جميل من عفة وشرف، وطاعة للزوج، وتحبب إليه، وقصر للطرف عليه، ومناجاته بأحب الكلام إليه، لا يبدر منها إليه ما يسوؤه، ولا يرى منها ما يكرهه، ولا يقع منها دائمًا إلا على كل ما يزيده حبًّا فيها وانجذابًا إليها، واللَّه سبحانه قد جمع فيها بين الليل والنهار، فالشمس تجري فِي محاسن وجهها، والليل تحت ذوائب شعرها الفاحم الجميل، فاعجب لشمس وليل كيف يجتمعان!! وقل: سبحان من هذا صنعه، سبحان متقن صنعة الإنسان.

ومن عجب: أن الشمس والليل باقيان فيها، لا يستطيع كل منهما أن ينسخ الآخر، فلا الليل بمدرك شمسها فتغيب عند إقباله، ولا شمسها تأتي بطرد الليل وإدباره، بل هُما فيها متلازمان، كأنَّهما أخوان.

روى أبو سعيد الخدري، عن النَّبِيِّ ﷺ فِي تفسير قوله تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٥٨]. قال: «**ينظر إلَى وجهه فِي خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبًا ينفذها بصره، حَتَّى يرى مخ ساقها من وراء ذلك**».

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض؛ لافتتن الخلائق بحسنها، ولو أخرجت نصيفها لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيلة فِي الشمس لا ضوء لَهَا، ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض».

* * *

وَكِلَاهُمَا مِرْآةُ صَاحِبِهِ إِذَا ... مَا شَاءَ يُبْصِرُ وَجْهَهُ يَرَيَانِ
فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا ... وَتَرَى مَحَاسِنَهَا بِهِ بِعِيَانِ
حُمْرُ الْخُدُودِ ثُغُورُهُنَّ لَآلِئٌ ... سُودُ الْعُيُونِ فَوَاتِرُ الأَجْفَانِ
وَالْبَرْقُ يَبْدُو حِينَ يبْسِمُ ثَغْرُهَا ... فَيضِيءُ سَقْفُ الْقَصْرِ بِالْجُدْرَانِ
وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ بَرْقًا سَاطِعًا ... يبْدُو فَيَسْأَلُ عَنْهُ مَنْ بِجِنَانِ
فَيُقَالُ هَذَا ضَوْءُ ثَغْرِ ضَاحِكٍ ... فِي الْجَنَّةِ الْعُلْيَا كَمَا تَرَيَانِ
لِلَّهِ لَاثِمُ ذَلِكَ الثَّغْرِ الَّذِي ... فِي لَثْمِهِ إِدْرَاكُ كُلِّ أَمَانِ
رَيَّانَةُ الأَعْطَافِ مِنْ مَاءِ الشَّبَا ... بِ فَغُصْنُهَا بِالْمَاءِ ذُو جَرَيَانِ
لَمَّا جَرَى مَاءُ النَّعِيم بِغُصْنِهَا ... حَمَلَ الثِّمَارَ كَثِيرَةَ الأَلْوَانِ
فَالْوَرْدُ وَالتُّفَّاحُ وَالرُّمَّانُ فِي ... غُصْنٍ تَعَالَى غَارِسُ الْبُسْتَانِ

الشرح: يعنِي: أن كلًا من الرجل وزوجته فِي الجنة يكون مرآة لصاحبه إذا ما شاء أن يرى وجهه فيه رآه، فهو يرى محاسن وجهه فِي وجهها، وهي كذلك ترى محاسنها فِي وجهه، وهن حمر الخدود، فخدودهن أصفى من لون الورود، وثغورهن حين يبسمن

كأنَّهن لؤلؤ منضود، وعندما يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة؛ يسطع منها البرق، فيضيء جوانب القصر وسقفه، ولقد روي أن أهل الجنة يشيمون برقًا ساطعًا، فيسألون عنه، فيقال لَهم: هذا ضوء انبعث من ثغر حوراء ضحكت لزوجها فِي أعلى الجنان.

فطوبى للاثم ذلك الثغر ومقبله، ففي تقبيله تحقيق كل المنى، روى علقمة، عن عبد اللَّه بن مسعود، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «سطع نور فِي الجنة، فرفعوا أبصارهم، فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت فِي وجه زوجها».

وهي أيضًا طرية الجسم بضَّته، تكاد تتفجر شبابًا وصحة وامتلاء، يجري ماء الشباب فِي جسمها الممشوق فيزيده لينًا وطراوة وحسنًا، فهي بيضاء، باكرها النعيم وجرى ماؤه فِي غصنها الناعم الرخيم، فحمل من كل الثمار ففيه ما شئت من ورد على الخدود، وتفاح على الجبين، ورمان فِي الصدور، فتعالى اللَّه غارس ذلك البستان الذي أودعه من كل ما تشتهيه النفس وتلذه العينان.

* * *

وَالْقَدُّ مِنْهَا كَالْقَضِيبِ اللَّدْنِ فِي ... حُسْنِ الْقَوَامِ كَأَوْسَطِ الْقُضْبَانِ
فِي مَغْرَسٍ كَالْعَاجِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... عَالِي النَّقَا أَوْ وَاحِدُ الْكُثْبَانِ
لَا الظَّهْرُ يَلْحَقُهَا وَلَيسَ ثُدِيُّهَا ... بِلَوَاحِقٍ لِلْبَطْنِ أَوْ بِدَوَانِ
لَكِنَّهُنَّ كَوَاعِبٌ وَنَوَاهِدٌ ... فَثُدِيُّهُنَّ كَأَلْطَفِ الرُّمَّانِ
وَالْجِيدُ ذُو طُولٍ وَحُسْنٍ فِي بَيَا ... ضٍ وَاعْتِدَالٍ لَيسَ ذَا نُكْرَانِ
يَشْكُو الْحُلِيُّ بِعَادَهُ فَلَهُ مَدَى الْـ ... أَيَّامِ وَسْوَاسٌ مِنَ الْهِجْرَانِ
وَالْمِعْصَمَانِ فَإِنْ تِشَأْ شَبِّهْهُمَا ... بِسَبِيكَتَيْنِ عَلَيْهِمَا كَفَّانِ
كَالزُّبْدِ لِينًا فِي نُعُومَةِ مَلْمَسٍ ... أَصْدَافُ دُرٍّ دُوِّرَتْ بِوِزَانِ
وَالصَّدْرُ مُتَّسِعٌ عَلَى بَطْنٍ لَهَا ... حُفَّتْ بِهِ خَصْرَانِ ذَاتُ ثَمَانِ
وَعَلَيهِ أَحْسَنُ سُرَّةٍ هِي مَجْمَعُ الْـ ... خَصْرَينِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الأَعْكَانِ
حُقٌّ مِنَ الْعَاجِ اسْتَدَارَ وَحَوْلَهُ ... حَبَّاتُ مِسْكٍ جَلَّ ذُو الإتْقَانِ

الشرح: وأما قدها: فكالغصن الرطيب فِي حسن القوام واعتداله، فلم يشنه قصر ولا طول، وهذا القد الممشوق والقوام المعتدل قد قام على عجيزة بيضاء كالعاج، ثقيلة ممتلئة

كأنَّها كثيب من الرمل، فليس الظهر بلاحق لَهَا، بل هي متميزة منفصلة عنه، وكذلك ثدياها قد بعدا عن بطنها، فليسا بلاصقين فيه، ولا بقريبين منه، بل نساء الجنة كلهن كواعب ونواهد، قد كعبت أثداؤهن ونَهدت، أي: تمت استدارتُها، وبرزت وارتفعت، فصارت كفحول الرمان الجيدة.

وأما أعناقهن: فذو طول وجمال فِي بياض واعتدال، فهن مثل كئوس الفضة، حَتَّى إن الحلي وهو على الصدر يشكو من بعد جيدها، فهو دائمًا من هذا الهجر فِي هم وقلق.

وأما المعصمان: فإن شئت فشبههما بسبيكتين اتُّخِذتا من خالص الفضة، قد ركب فيهما كفان ألين من الزبد مجسًّا، وأنعم من الحرير ملمسًا، فكأنَّهما أصداف در قد دور على قدره.

وأما الصدر: فرحيب متسع فوق بطنها، يحف به من الجانبين خصران دقيقان يشكلان حرف الثماني، وعلى البطن سرة هي أجمل السرر، يلتقي عندها الخصران، وهذه السرة فِي بياضها واستدارتِها وشدة غورها تشبه حُقًّا من العاج مستديرًا، وحوله حبات مسك أسود، فَجَلَّ ربنا الذي خلقها على هذه الصورة من الإبداع والإتقان.

* * *

وَإِذَا انْحَدَرْتَ رَأَيتَ أَمْرًا هَائِلًا ... مَا لِلصِّفَاتِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ

لَا الْحَيضُ يَغْشَاهُ وَلَا بَوْلٌ وَلَا ... شَيءٌ مِنَ الآفَاتِ فِي النِّسْوَانِ

فَخِذَانِ قَدْ حَفَّا بِهِ حَرَسًا لَهُ ... فَجَنَابُهُ فِي عِزَّةٍ وَصِيَانِ

قَامَا بِخِدْمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ بَيْـ ... ـنَهُمَا وَحَقٌّ طَاعَةُ السُّلْطَانِ

وَهْوَ الْمُطَاعُ أَمِيرُهُ لَا يَنْثَنِي ... عَنْهُ وَلَا هُوَ عِنْدَهُ بِجَبَانِ

وَجِمَاعُهَا فَهْوَ الشِّفَاءُ لِصَبِّهَا ... فَالصَّبُّ مِنْهُ لَيسَ بِالضَّجْرَانِ

وَإِذَا يُجَامِعُهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ ... بِكْرًا بِغَيرِ دَمٍ وَلَا نُقْصَانِ

فَهْوَ الشَّهِيُّ وَعُضْوُهُ لَا يَنْثَنِي ... جَاءَ الْحَدِيثُ بِذَا بِلَا نُكْرَانِ

وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي يَس دُونَ بَيَانِ

شُغْلُ الْعَرُوسِ بِعُرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا ... عَبَثَتْ بِهِ الأَشْوَاقُ طُولَ زَمَانِ

بِاللهِ لَا تَسْأَلْهُ عَنْ أَشْغَالِهِ ... تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُهُ ذُو شَانِ

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ ... مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ الْبُلْدَانِ
وَالشَّوْقُ يُزْعِجُهُ إِلَيهِ وَمَا لَهُ ... بِلِقَائِهِ سَبَبٌ مِنَ الإِمْكَانِ
وَافَى إِلَيهِ بَعْدَ طُولِ مَغِيبِهِ ... عَنْهُ وَصَارَ الْوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ
أَتَلُومُهُ إِنْ صَارَ ذَا شُغْلٍ بِهِ ... لَا وَالَّذِي أَعْطَى بِلَا حُسْبَانِ
يَا رَبُّ غَفْرًا قَدْ طَغَتْ أَقْلَامُنَا ... يَا رَبُّ مَعْذِرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ

الشرح: وإذا نزلت قليلًا عن السرة رأيت أمرًا عظيمًا، لا يقادر قدره، ولا يستباح وصفه، رأيت فرجًا محصنًا طاهرًا من كل قذر، فلا يعتريه حيض، ولا يخرج منه بول، ولا شيء من الآفات الَّتِي تصيب نساء الدنيا.

وتراه وقد حف به من الجانبين فخذان مهولان، كأنَّهما له جندان حارسان، فحرمه لا يستباح لإنسان غير صاحبه، بل هو فِي حماية وصيان، وهذان الفخذان يقومان بخدمته؛ لأنه أمير عليهما، ومن الواجب طاعة السلطان.

وأما جماعها: فهو الراحة الكبرى، واللذة العظمى لعاشقها الولهان، اختص بِها، واختصت به من دون الرجال والنسوان، وهو لا يمل أبدًا جماعها، ولا يكسل عنه، بل كلما نزل عنها تجدد له نشاطه كما كان، فهو يشتهيها دائمًا، وعضوه لا يعتريه انثناء ولا غيضان، ورد الحديث بِهذا، ولكن فيه نكران، فقد روى خالد بن يزيد بن أبِي مالك، عن أبيه، عن خالد بن معدان، عن أبِي أمامة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من عبد يدخل الجنة إلا ويزوج ثنتين وسبعين زوجة، ثنتان من الحور العين، وسبعون من أهل ميراثه من أهل الدنيا، ليس منهن امرأة إلا ولَهَا قُبُلٌ شهي، وله ذكر لا ينثني**».

فخالد بن يزيد هذا هو الدمشقي بن عبد الرحْمن قد وهاه ابن معين، وقال: أحمد: ليس بشيء. وقال النسائي: غير ثقة. وقال الدارقطني: ضعيف. وذكر ابن عدي هذا الحديث فِي معرض النكران.

ولكن ورد فِي الصحيح ما يشهد له، فقد روى الترمذي فِي جامعه من حديث قتادة، عن أنس، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**يعطى المؤمن فِي الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**. قيل: يا رسول اللَّه، أويطيق ذلك؟ قال: **يعطى قوة مائة**». وقد ورد فِي تفسير قوله تعالَى من سورة يس: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦]: إن ذلك الشغل هو اشتغال كل منهم بعرسه، وإفضاؤه إليها بعدما قاسى من الحرمان.

فقد روى سليمان التيمي، عن أبِي مجلز: قلت لابن عباس عن قول اللّه تعالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ ما شغلهم؟ قال: «افتضاض الأبكار».

وقال مقاتل: «شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار، فلا يذكرونَهم، ولا يهتمون بِهم».

ولا ينكر على أهل الجنة شغلهم بأزواجهم، وقد تمكنوا من وصالهم بعد طول الغيبة، فإن العاشق الصب من أهل الدنيا إذا غاب عن محبوبه فِي بلاد بعيدة، وأصبح يكابد لواعج الفراق، ويتجرع مرارة الأشواق، وينتظر بفارغ الصبر يوم التلاق، ثُمَّ آب إليه ووافاه بعد هذا الغياب الطويل، وصار وصاله فِي الإمكان بعدما كان أشبه بالمستحيل، فمن ذا يلومه إذا أقبل على محبوبه يطفئ نار أشواقه بالعناق والتقبيل، ويقضي منه أوطاره وحاجاته، ما على المحب المدنف من سبيل.

ولقد استشعر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن قلمه قد جرى به أشواطًا بعيدة فِي التصريح بِما لا يحسن التصريح به، فاستغفر اللّه من جماح قلمه، واعتذر إليه مما جاوز فيه حده.

فصل

أَقْدَامُهَا مِنْ فِضَّةٍ قَدْ رُكِّبَتْ ... مِنْ فَوْقِهَا سَاقَانِ مُلْتَفَّانِ

وَالسَّاقُ مِثْلُ الْعَاجِ مَلْمُومٌ يُرَى ... مُخُّ الْعِظَامِ وَرَاءَهُ بِعِيَانِ

وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالْجُسُومُ نَوَاعِمٌ ... وَاللَّوْنُ كَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ

وَكَلامُهَا يُسْبِي الْعُقُولَ بِنَغْمَةٍ ... زَادَتْ عَلَى الأَوْتَارِ وَالْعِيدَانِ

وَهْيَ الْعَرُوبُ بِشَكْلِهَا وَبِدُلِّهَا ... وَتَحَبُّبٍ لِلزَّوْجِ كُلَّ أَوَانِ

وَهْيَ الَّتِي عِنْدَ الْجِمَاعِ تَزِيدُ فِي ... حَرَكَاتِهَا لِلْعَيْنِ وَالأُذُنَانِ

لُطْفًا وَحُسْنَ تَبَعُّلٍ وَتَغَنُّجٍ ... وَتَحَبُّبٍ تَفْسِيرَ ذِي الْعِرْفَانِ

تِلْكَ الْحَلاوَةُ وَالْمَلاحَةُ أَوْجَبَا ... إِطْلاقَ هَذَا اللَّفْظِ وَضْعَ لِسَانِ

فَمَلاحَةُ التَّصْوِيرِ قَبْلَ غِنَاجِهَا ... هِيَ أَوَّلٌ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِصَبٍّ وَامِقٍ ... بَلَغَتْ بِهِ اللَّذَّاتُ كُلَّ مَكَانِ

الشرح: يعني: أن قدمي هذه الحوراء كالفضة فِي بياضها، وقد ركب من فوقها ساقان

فِي غاية البياض والصفاء والالتفاف، فهي أجمل السوق، وقد بلغ من صفائها أن مخ عظامها يرى من وراء الثياب واللحوم.

وأما ريحها: فنوافج المسك، يفوح أريجه من فمها وثيابِها حَتَّى يتضوع به المكان من حولها.

وأما جسمها: فأشد نعومة من الحرير، لا يرى به آثار خشونة، ولا تشقق، ولا يبوسة.

وأما اللون: فهو كما قال اللَّه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]. والمراد كما قال الحسن وغيره: «صفاء الياقوت فِي بياض المرجان». شبههن فِي صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان.

وأما كلامها: فيسلب اللب بحسن أنغامه، وجمال تطريبه الذي يفوق كل لحن تنطق به آلات الغناء، وهي عروب بشكلها، فهي أحسن شيء صورة وبحسن عشرتِها، فهي دائمًا متحببة إلَى زوجها مطيعة له، وبحسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع، حيث تزيد فِي حركات عينها وآذانِها.

وبالجملة: فهي جامعة لكل صفات العروب من اللطف والرقة، وحسن التبعل للزوج، والتغنج له، والتحبب إليه، فكمال لذة الرجل بِها بأمرين:

أولهما: ملاحة صورتِها.

والثاني: غناجها وحسن مودتِها.

فإذا هما اجتمعا للعاشق الولهان بلغ من اللذة أرفع مكان.

فصل

أَتْـرَابُ سِـنٍّ وَاحِـدٍ مُـتَـمَـاثِـلٍ ... سِـنُّ الـشَّـبَـابِ لأَجْـمَـلِ الـشُّـبَّـانِ

بِكْرٌ فَلَمْ يأْخُذْ بَكَارَتَهَا سِوَى الْـ ... ـمَـحْـبُـوبِ مِـنْ إِنْـسٍ وَلَا مِـنْ جَـانِ

حِصْنٌ عَلَيهِ حَارِسٌ مِنْ أَعْظَمِ الْـ ... ـحُـرَّاسِ بَـأْسًـا شَـأْنُـهُ ذُو شَـانِ

فَـإِذَا أَحَسَّ بِدَاخِلٍ لِلْحِصْنِ وَلْـ ... ـلَـى هَـارِبًـا فَـتَـرَاهُ ذَا إِمْـعَـانِ

وَيعُودُ وَهْنًا حِينَ رَبُّ الْحِصْنِ يَخْـ ... ـرُجُ مِـنْـهُ فَـهْـوَ كَـذَا مَـدَى الأَزْمَـانِ

وَكَـذَا رَوَاهُ أَبُـو هُـرَيْـرَةَ أَنَّـهَـا ... تَنْصَاغُ بِكْرًا لِلْجِمَاعِ الثَّانِي
لَكِنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ الَّذِي ... فِيهِ يُضَعِّفُهُ أُولُو الإتْقَانِ
هَذَا وَبَعْضُهُمْ يصَحِّحُ عَنْه فِي التْ ... تَفْسِيرِ كَالْمَوْلُودِ مِنْ حِبَّانِ
فَحَدِيثُهُ دُونَ الصَّحِيحِ وَإِنَّهُ ... فَوْقَ الضَّعِيفِ وَلَيسَ ذَا إِتْقَانِ

الشرح: يعني: أن نساء الجنة أتراب، أسنانُهن متماثلة، وهي سن الشباب والغضارة، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ ٣٨].

قال ابن عباس: وسائر المفسرين: أي: «مستويات على سن واحد وميلاد واحد، بنات ثلاث وثلاثين سنة.

والمراد من الإخبار باستواء أسنانِهن: أنَّهن ليس فيهن عجائز فات حسنهن، ولا ولائد لا يطقن الوطء، بخلاف الذكور فإن فيهم الغلمان، وهم الخدم لأهل الجنة.

ونساء الجنة كلهن أبكار، حَتَّى من كانت منهن ثيبًا فِي الدنيا، فإن اللَّه يخلقها خلقًا جديدًا، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ وكل منهن لا يفتض بكارتَها إلا محبوبُها الذي اختصه اللَّه بِها، كما قال تعالَى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

ففرجها حصن منيع، يقف عليه حارس ذو بأس شديد، وهو تلك البكارة، فلا يستطيع اقتحام هذا الحصن غير من أعد هو له، فإذا أحس هذا الحارس بداخل للحصن غار بالداخل، وأمعن فِي الهروب، فإذا قضى الرجل حاجته ونزع، عاد الحارس مكانه، ويظل هذا شأنه مدى الأيام.

وقد جاء هذا في حديث رواه أبو هريرة، عن رسول اللَّهﷺ أنه قال: «يا رسول اللَّه، أنطأ فِي الجنة؟ قال: **نعم والذي نفسي بيده دحمًا دحمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا**». لكن الحديث فيه دراج أبو السمح، وقد ضعفه أئمة الجرح والتعديل، ومنهم من يصحح أحاديثه في التفسير كابن حبان، ولكن الحق أن أحاديثه دون الصحيح وفوق الضعيف، فهي خالية من الإتقان.

وقد روى الطبراني أيضًا من حديث أبِي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّهﷺ: «**إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدْن أبكارًا**». وهو ضعيف أيضًا.

يعْطَى الْمُجَامِعُ قُوَّةَ الْمِائَةِ الَّتِي اجْـ ... ـتَمَعَتْ لأَقْوَى وَاحِدِ الإنْسَانِ

لَا أَنَّ قُوَّتَهُ تَضَاعَفُ هَكَذَا ... إذْ قَدْ يَكُونُ لأَضْعَفِ الأَرْكَانِ

وَيكُونُ أَقْوَى مِنْهُ ذَا نَقْصٍ مِنَ الْـ ... إيمَانِ وَالأَعْمَالِ وَالإحْسَانِ

وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّهُ يَغْشَى بِيَوْ ... مٍ وَاحِدٍ مِائَةً مِنَ النِّسْوَانِ

وَرِجَالُهُ شَرْطُ الصَّحِيحِ رَوَوْا لَهُمْ ... فِيهِ وَذَا فِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانِي

هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ قَدْرَ نِسَائِهِمْ ... مُتَفَاوِتٌ بِتَفَاوُتِ الإيمَانِ

وَبِهِ يَزُولُ تَوَهُّمُ الإشْكَالِ عَنْ ... تِلْكَ النُّصُوصِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

وَبِقُوَّةِ الْمِائَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ ... أَفْضَى إلَى مِائَةٍ بِلَا خَوَرَانِ

وَأَعَفُّهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الْـ ... أَقْوَى هُنَاكَ لِزُهْدِهِ فِي الْفَانِي

فَاجْمَعْ قُوَاكَ لِمَا هُنَاكَ وَغَمِّضِ الْـ ... ـعَيْنَيْنِ وَاصْبِرْ سَاعَةً لِزَمَانِ

مَا هَاهُنَا وَاللَّهِ مَا يَسْوِي قُلَا ... مَةَ ظُفْرٍ وَاحِدَةٍ تُرَى بِجِنَانِ

مَا هَاهُنَا إلَّا النِّقَارُ وَسَيِّئُ الْـ ... أَخْلَاقِ مَعْ عَيْبٍ وَمَعْ نُقْصَانِ

هَمٌّ وَغَمٌّ دَائِمٌ لَا يَنْتَهِي ... حَتَّى الطَّلَاقِ أَوِ الْفِرَاقِ الثَّانِي

وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ النِّسَاءَ عَوَانِيًا ... شَرْعًا فَأَضْحَى الْبَعْلُ وَهْوَ الْعَانِي

لَا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَإنْ ... تَفْعَلْ رَجَعْتَ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

الشرح: يعني: أن الرجل من أهل الجنة يعطى قوة مائة من أقوى أهل الدنيا فِي الجماع، وليس المراد أن قوته هو تضاعف مائة ضعف، إذ يكون هو ضعيف البنية فِي الدنيا، ويكون هناك من هو أقوى منه، ولكنه أنقص منه فِي الأعمال والإيمان والإحسان، فيلزم أن يكون الأدنى أقدر على الجماع من الأعلى، ولقد روى الطبراني فِي معجمه من حديث مُحمَّد بن سيرين، عن أبِي هريرة قال: «قيل: يا رسول اللَّه، هل نصل إلَى نسائنا فِي الجنة؟ فقال: **إن الرجل ليصل فِي اليوم إلَى مائة عذراء**».

قال مُحمَّد بن عبد الواحد المقدسي: ورجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح.

وقد حصل هنا إشكال، وهو أنه لَمْ يرد فِي الأحاديث الصحيحة زيادة على زوجتين لكل واحد، فلو صح حديث الطبراني؛ لتعين الجمع بينه وبين ما فِي هذه الأحاديث بأن

يقال: إن أهل الجنة متفاوتون فِي عدد نسائهم بتفاوت درجاتِهم. وبِهذا يندفع الأشكال بفضل اللَّه ومنته.

ويستطيع رجل الجنة بقوة المائة الَّتِي حصلت له أن يفضي إلَى مائة امرأة بلا ضعف ولا فتور، وأقوى أهل الجنة وأقدرهم على الجماع هو أعفهم فِي هذه الدنيا؛ لزهده فِي هذا المتاع الحقير والحطام الفاني.

فإذا أردت أن تحظى بتلك المزية فما عليك إلا أن تستعد لما هنالك بحفظ فرجك، وغض بصرك، وصبرك على مرارة الحرمان، وهذا أمر جدير بالعاقل ألَّا يقصر فيه إذا عرف مقدار التفاوت بين ما هنا وبين ما هناك، فإن ما هنا من أجمل نساء الدنيا، لا يعدل ولا قلامة ظفر واحدة من الحور العين، وماذا هاهنا إلا العراك والشجار، وسوء الخلق، وفحش الكلام، مع ما فيهن من النقائص والعيوب، فالرجل معها فِي غمٍّ دائم، وهمٍّ لازب، لا ينتهي إلا بالطلاق أو الموت.

ومن العجيب: أن الحال قد تبدل، وأصبح الرجال الذين جعلهم اللَّه قوامين على النساء خاضعين لسلطان النساء، فاللَّه قد جعل النساء عَواني فِي أيدي الرجال، كما قال ﷺ فِي خطبته فِي حجة الوداع: «**ألا فاستوصوا بالنساء خيرًا، فإنَّهن عوان فِي أيديكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك**». فأصبح الرجال الآن هم العواني فِي أيدي النساء، فلا تفضل أيها العاقل الناصح لنفسه هذا الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس، فتبوء بكل خيبة وخسران.

ورحم اللَّه المؤلف، فهذا كلامه فِي نساء زمانه وما بلغن من قحة وسوء أدب، وتسلط على الرجال، فماذا عسى أن يقول لو بعث فينا الآن ورأى نساءنا يخرجن كاسيات عاريات، مائلات مميلات، يجبن الشوارع، ويملأن الطرقات، ويغشين دور السينما والمتنَزهات، ويزاحمن الرجال بالمناكب فِي وظائف الحكومة، وفِي أعمال المصانع والشركات، إذن الحمد اللَّه ﷻ على أن تقدم به الزمان، ولَمْ يشهد هذا العصر المنكود، الذي انقلبت فيه كل الأوضاع، واختلت كل القيم، وأصبح فيه المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، فاللَّهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

فصل

وَإِذَا بَدَتْ فِي حُلَّةٍ مِنْ لِبْسِهَا ... وَتَمَايَلَتْ كَتَمَايُلِ النَّشْوَانِ
تَهْتَزُّ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ وَحَمْلُهُ ... وَرْدٌ وَتُفَّاحٌ عَلَى رُمَّانِ
وَتَبَخْتَرَتْ فِي مَشْيِهَا وَيحِقُّ ذَا ... كَ لِمِثْلِهَا فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
وَوَصَائِفٌ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا ... وَعَلَى شَمَائِلِهَا وَعَنْ أَيْمَانِ
كَالْبَدْرِ لَيلَةَ تَمِّهِ قَدْ حُفَّ فِي ... غَسَقِ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْمِيزَانِ
فَلِسَانُهُ وَفُؤَادُهُ وَالطَّرْفُ فِي ... دَهَشٍ وَإِعْجَابٍ وَفِي سُبْحَانِ
فَالْقَلْبُ قَبْلَ زِفَافِهَا فِي عُرْسِهِ ... وَالْعُرْسُ إِثْرَ الْعُرْسِ مُتَّصِلَانِ
حَتَّى إِذَا مَا وَاجَهَتْهُ تَقَابَلَا ... أَرَأَيتَ إِذْ يَتَقَابَلُ الْقَمَرَانِ
فَسَلِ الْمُتَيَّمَ هَلْ يحِلُّ الصَّبْرُ عَنْ ... ضَمٍّ وَتَقْبِيلٍ وَعَنْ فَلَتَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ أَينَ خَلَّفَ صَبْرَهُ ... فِي أَيِّ وَادٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ
وَسَلِ الْمُتَيَّمَ كَيفَ حَالَتُهُ وَقَدْ ... مُلِئَتْ لَهُ الأُذُنَانِ وَالْعَيْنَانِ
مِنْ مَنْطِقٍ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَوَجْـ ... ـهٍ كَمْ بِهِ لِلشَّمْسِ مِنْ جَرَيَانِ
وَسَلِ الْمُتَيمَ كَيفَ عِيشَتُهُ إِذَنْ ... وَهُمَا عَلَى فَرْشَيْهِمَا خَلِوَانِ
يَتَسَاقَطَانِ لآلِئًا مَنْثُورَةً ... مِنْ بَينِ مَنْظُومٍ كَنَظْمِ جُمَانِ
وَسَلِ الْمُتَيمَ كَيفَ مَجْلِسُهُ مَعْ الْـ ... ـمَحْبُوبِ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيحَانِ
وَتَدُورُ كَاسَاتُ الرَّحِيقِ عَلَيهِمَا ... بِأَكُفِّ أَقْمَارٍ مِنَ الْوِلْدَانِ
يَتَنَازَعَانِ الْكَأْسَ هَذَا مَرَّةً ... وَالْخُودُ أُخْرَى ثُمَّ يَتَّكِئَانِ
فَيَضُمُّهَا وَتَضُمُّهُ أَرَأَيتَ مَعْـ ... ـشُوقَيْنِ بَعْدَ الْبُعْدِ يلْتَقِيَانِ

الشرح: فِي هذه الأبيات يتخيل المؤلف حوراء الجنان، وقد برزت فِي أبْهى حللها، وأخذت تختال فِي مشيتها، وتتثنى بقدها الممشوق، كما يتثنى العود الطري، وقد حملت من ورد الخدود ورمان النهود، ويحق لَهَا أن تمشي تياهة بحسنها مزهوة بجمالها، وهي فِي جنة الحيوان، حولها كل ما يسر ويبهج، وخوادمها يحطن بِها من كل جانب، وهي وسطهن كأنَّها البدر ليلة تمامه، قد أحيط فِي ظلمة الليل بالنجوم المتلألئة، هنا تملك محبوبَها

الدهشة، ويأخذه العجب من أقطاره، فلسانه وقلبه وعينه، كل ذلك فِي غاية الدهش والإعجاب، والتسبيح للَّه الكريم الوهاب، ولقد كان القلب منه قبل زفافها إليه فِي أعراس متصلة وأفراح مستمرة، حَتَّى إذا ما تقابلا وجهًا لوجه كما يتقابل القمران، فسله وهو العاشق الولهان هل يملك الصبر حينئذ عن عناق وتقبيل، وإسراع إلَى المحبوب فِي لهفة وشوق؟ بل سله أين خلف صبره؟ وفِي أي مكان تركه؟

ثُمَّ سله كيف هو وقد امتلأت من الفتون والسحر الحلال عيناه وأذناه حين يسمع منطقها الرخيم، وأنغامها الحلوة الَّتِي تزري بأجمل الألحان، وحين توجه إليه ألفاظها العذاب، وتبثه أشواقها وحبها، وحين يرى وجهها المضيء كأن الشمس تجري فِي صفحته؟

ثُمَّ سله كيف عيشته الهانئة الراضية، وقد اتكأ هو وعروسه على فرشيهما منفردين، يتناجيان بأعذب الألحان، وينثران الدر من أفواههما كأنه عقود جمان؟ .

ثُمَّ سله كيف مجلسه مع محبوبه، تحمل إليهما النسائم الندية عبير الروض وشذاه، تدور عليهما كئوس الرحيق المختوم على أيدي غلمان لَهم كأنَّهم لؤلؤ مكنون، فيتنازعان الكأس، يرشفها هو مرة، وترشفها خوده مرة، ثُمَّ يتكئان على الأسرة، فيتضامان ويتلاصقان، فما ظنك بمحبوبين بعد البَيْنِ يتلاقيان؟

❊ ❊ ❊

غَابَ الرَّقِيبُ وَغَابَ كُلُّ مُنَكِّدٍ ... وَهُمَا بِثَوْبِ الْوَصْلِ مُشْتَمِلَانِ
أَتَرَاهُمَا ضَجِرَينِ مِنْ ذَا الْعَيشِ لا ... وَحَيَاةِ رَبِّكَ مَا هُمَا ضَجِرَانِ
وَيَزِيدُ كُلٌّ مِنْهُمَا حُبًّا لِصَا ... حِبِهِ جَدِيدًا سَائِرَ الأَزْمَانِ
وَوِصَالُهُ يَكْسُوهُ حُبًّا بَعْدَهُ ... مُتَسَلْسِلًا لا يَنْتَهِي بِزَمَانِ
فَالْوَصْلُ مَحْفُوفٌ بِحُبٍّ سَابِقٍ ... وَبِلَاحِقٍ وَكِلَاهُمَا صِنْوَانِ
فَرْقٌ لَطِيفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا ... يَدْرِيهِ ذُو شُغْلٍ بِهَذَا الشَّانِ
وَمَزِيدُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حَاصِلٌ ... سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ
يَا غَافِلًا عَمَّا خُلِقْتَ لَهُ انْتَبِهْ ... جَدَّ الرَّحِيلُ فَلَسْتَ بِالْيَقْظَانِ
سَارَ الرِّفَاقُ وَخَلَّفُوكَ مَعَ الأُلَى ... قَنَعُوا بِذَا الْحَظِّ الْخَسِيسِ الْفَانِي

وَرَأَيتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى مُتَخَلِّفًا ... فَتَبِعْتَهُمْ وَرَضِيتَ بِالْحِرْمَانِ
لَكِنْ أَتَيْتَ بِخُطَّتَيْ عَجْزٍ وَجَهْـ ... ـلٍ بَعْدَ ذَا وَصَحِبْتَ كُلَّ أَمَانِ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللِّحَاقِ مَعَ الْقُعُو ... دِ عَنِ الْمَسِيرِ وَرَاحَةِ الأَبْدَانِ
وَلَسَوْفَ تَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الْغِطَا ... مَاذَا صَنَعْتَ وَكُنْتَ ذَا إِمْكَانِ

الشرح: وغاب عنهما العاذل والرقيب، وخلا وصالهما من كل تنكيد، وقد لفهما ثوب الوصال، وصفا لهما العيش وطاب، فهل تحسبهما يملَّان هذا العيش أو يسأمانه؟ لا وحياة ربك، لا يصيبهما منه ضجر ولا ملل، بل يزيد كل منهما حبًّا لصاحبه، حبًّا متجددًا على الدوام، لا يفتر، ولا ينقطع، فكلما حظي منها بوصال هنأ قلبه إِلَى وصال جديد، ويظل هكذا، فوصاله محفوف بحبين: حب سابق، وحب لاحق، وهما صنوان متشابِهان، إلا أن بينهما فرقًا لطيفًا يعرفه كل من له خبرة بِهذا الشأن، فإن الحب السابق حب اللَّهفة والشوق، والحب اللاحق هو حب ما أعقبه الوصال من النشوة والذكريات الحلوة، ويحصل لَهم فِي كل وقت مزيد من الشوق والرغبة، ومن السرور والبهجة، فلا يفنى ما هم فيه ولا يبيد، بل هو دائمًا فِي استمرار وتجديد.

فيا أيها الغر الأحمق، السادر فِي غيه، الغافل عما خلق من أجله من هذه الحياة الناعمة فِي جوار المليك المقتدر، انتبه من غفلتك، وانفض عنك ثوب الكسل ورداء الخمول، فقد جد الرحيل، وشد القوم ركائبهم، وأنت لا تزال تتمطى وتتثاءب، وقد سار الرفاق وأدلجوا، يحدوهم الشوق إِلَى ديار الحبيب، وتركوك مع المخلفين الذين رضوا بالقعود، وقنعوا بِهذا العرض الحقير، ورأيت أكثر الناس قد أخلدوا إِلَى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بِها، وتخلفوا عن الركب السائر إِلَى اللَّه، فتبعتهم فِي تخلفهم، ورضيت لنفسك ما رضوا لأنفسهم من الخيبة والحرمان، وسلكت أشنع خطتين يمكن أن يسلكهما إنسان، وهما خطتا العجز والجهل، فبئس الخطتان، ومع ذلك تُمنِّيك نفسك باللحاق مع هذا القعود، والتخلف عن السباق، ومع إيثار الراحة والسلامة على مشقة السعي والانطلاق، ولسوف تعلم عاقبة تخلفك حين ينكشف لك الغطاء، وتعض بنان الندم على ما ضيعت من فرص كنت عندها ذا قدرة وإمكان!!

* * *

فصل في ذكر الخلاف بين الناس : هل تحبل نساء أهل الجنة أم لا ؟

وَالنَّاسُ بَيْنَهُمُ خِلَافٌ هَلْ بِهَا حَبَلٌ وَفِي هَذَا لَهُمْ قَوْلَانِ
فَنَفَاهُ طَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ ثُمْـ مَ مُجَاهِدٌ وَهُمُ أُولُو الْعِرْفَانِ
وَرَوَى الْعُقَيْلِيُّ الصَّدُوقُ أَبُو رَزِيـ نٍ صَاحِبُ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
أَنْ لَا تَوَالُدَ فِي الْجِنَانِ رَوَاهُ تَعْـ لِيقًا مُحَمَّدٌ الْعَظِيمُ الشَّانِ
وَحَكَاهُ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ إِسْـ حَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ذُو الإِتْقَانِ
لَا يشْتَهِي وَلَدًا بِهَا وَلَوِ اشْتَهَا هُ لَكَانَ ذَاكَ مُحَقَّقَ الإِمْكَانِ
وَرَوَى هِشَامٌ لِابْنِهِ عَنْ عَامِرٍ عَنْ نَاجٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانِ
أَنَّ الْمُنَعَّمَ بِالْجِنَانِ إِذَا اشْتَهَى الْـ وَلَدَ الَّذِي هُوَ نُسْخَةُ الإِنْسَانِ
فَالْحَمْلُ ثُمَّ الْوَضْعُ ثُمَّ السِّنُّ فِي فَرْدٍ مِنَ السَّاعَاتِ فِي الأَزْمَانِ
إِسْنَادُهُ عِنْدِي صَحِيحٌ قَدْ رَوَا هُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ الشَّيْبَانِي
وَرِجَالُ ذَا الإِسْنَادِ مُحْتَجٌّ بِهِمْ فِي مُسْلِمٍ وَهُمُ أُولُو إِتْقَانِ
لَكِنْ غَرِيبٌ مَا لَهُ مِنْ شَاهِدٍ فَرْدٌ بِذَا الإِسْنَادِ لَيسَ بِثَانِ
لَوْلَا حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ كَانَ ذَا كَالنَّصِّ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي التِّبْيَانِ
وَلِذَاكَ أَوَّلَهُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بِالشْـ شَرْطِ الَّذِي هُوَ مُنْتَفِي الْوِجْدَانِ
وَبِذَاكَ رَامَ الْجَمْعَ بَينَ حَدِيثِهِ وَأَبِي رَزِينٍ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ فَإِنْـ نَ إِذَا لِتَحْقِيقٍ وَذِي إِتْقَانِ
وَلَرُبَّمَا جَاءَتْ لِغَيْرِ تَحَقُّقٍ وَالْعَكْسُ فِي إِنْ ذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ

الشرح: يعني: أن العلماء قد اختلفوا: هل سيكون بالجنة حمل وولادة أم لا؟

فنفاه طاوس وإبراهيم النخعي ومجاهد من أئمة العلم والحديث، وروى أبو رزين العقيلي الصحابي المشهور، عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «**إن أهل الجنة لا يكون لَهم فيها ولد**». رواه عنه البخاري تعليقًا، وحكى عنه الترمذي، وقال إسحاق بن إبراهيم فِي قوله ﷺ «**إذا اشتهى المؤمن الولد فِي الجنة كان فِي ساعة كما يشتهي**»: إن ذلك على سبيل الفرض والتقدير، فإن اشتهاء الولد فِي الجنة غير ممكن.

وقد روى أبو نعيم من حديث سفيان الثوري، عن أبان، عن أبِي الصديق الناجي، عن أبِي سعيد الخدري قال: «قيل: يا رسول اللَّه، أيولد لأهل الجنة؟ فإن الولد من تمام السرور. فقال: **نعم والذي نفسي بيده، وما هو إلا كقدر ما يتمنى أحدكم، فيكون حمله ورضاعه وشبابه**».

قال المؤلف: «إسناد حديث أبِي سعيد على شرط الصحيح، فرجاله محتج بِهم فيه، ولكنه غريب جدًّا، وتأويل إسحاق فيه نظر، فإنه قال: «**إذا اشتهى المؤمن الولد**». و«إذا» للمتحقق الوقوع، ولو أريد ما ذكر من المعنَى لقال: «لو اشتهى المؤمن الولد؛ لكان حمله فِي ساعة». فإن ما لا يكون أحق بأداة «لو» كما أن المتحقق الوقوع أحق بأداة إذا». اهـ.

وأقول: إن هذا غير لازم، فإن أدوات الشرط قد تتعاور، وهذه قاعدة أغلبية، وليست مطردة، والأخذ بتأويل إسحاق متعين إذا فرض أن كلًّا من حديث أبِي رزين وحديث أبِي سعيد صحيح، فإن حديث أبِي رزين نفى الولادة صريحًا، وحديث أبِي سعيد علقها بشرط الاشتهاء، وقد يكون الاشتهاء غير واقع، واللَّه أعلم.

* * *

وَاحْتَجَّ مَنْ نَصَرَ الْوِلَادَةَ أَنَّ فِي الْـ   جَنَّـاتِ سَائِرَ شَهْوَةِ الإِنْسَانِ

وَاللهُ قَدْ جَعَلَ الْبَنِينَ مَعَ النِّسَا   مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ فِي الْقُرْآنِ

فَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ لَا يشْتَهِي   وَلَدًا وَلَا حَبَلًا مِنَ النِّسْوَانِ

وَاحْتَجَّ مَنْ مَنَعَ الْوِلَادَةَ أَنَّهَا   مَلْزُومَةٌ أَمْرَينِ مُمْتَنِعَانِ

حَيضٌ وَإِنْزَالُ الْمَنِي وَذَانِكَ الْـ   أَمْرَانِ فِي الْجَنَّاتِ مَفْقُودَانِ

وَرَوَى صُدَي عَنْ رَسُولِ اللهِ أَنْـ   نَ مَنِيَّهُمْ إِذْ ذَاكَ ذُو فُقْدَانِ

بَلْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيةَ هَكَذَا   يرْوِي سُلَيمَانٌ هُوَ الطَّبَرَانِي

وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ نَوْعٌ سِوَى الْـ   مَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا مِنَ النِّسْوَانِ

فَالنَّفْيُ لِلْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْـ   إِيلَادِ وَالإِثْبَاتُ نَوْعٌ ثَانِ

وَاللهُ خَالِقُ نَوْعِنَا مِنْ أَرْبَعٍ   مُتَقَابِلَاتٍ كُلُّهَا بِوِزَانِ

ذَكَرٌ وَأُنْثَى وَالَّذِي هُوَ ضِدُّهُ   وَكَذَاكَ مِنْ أُنْثَى بِلَا نُكْرَانِ

وَالْعَكْسُ أَيضًا مِثْلُ حَوَّا أُمِّنَا   هِي أَرْبَعٌ مَعْلُومَةُ التِّبْيَانِ

وَكَذَاكَ مَوْلُودُ الْجِنَانِ يَجُوزُ أَنْ ... يَأْتِي بِلَا حَيْضٍ وَلَا فَيَضَانِ
وَالأَمْرُ فِي ذَا مُمْكِنٌ فِي نَفْسِهِ ... وَالْقَطْعُ مُمْتَنِعٌ بِلَا بُرْهَانِ

الشرح: وأما الذين قالوا بالتوالد فِي الجنة: فاحتجوا بأن فِي الجنة كل ما يشتهيه الإنسان؛ لقوله تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[فصلت: ٣١]. ومعلوم أن البنين من أعظم الشهوات للإنسان، كما قال تعالَى من سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾[آل عمران: ١٤].

وأجيب عن هذا: بأنه ليس كل ما يشتهى فِي الدنيا يشتهى فِي الآخرة، بل أهل الجنة لا يشتهون فيها ولدًا ولا حبلًا.

وأما المانعون للولادة: فاحتجوا بأمور كثيرة، منها: حديث أبِي رزين أن أهل الجنة لا يكون لَهم فيها ولد، وأن الحمل لا يكون إلا مع الحيض وإنزال المني، ونساء الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قذر، والجماع فِي الجنة يكون بغير إنزال، كما جاء ذلك فِي حديث صدي بن عجلان، عن رسول اللَّهِ ﷺ، وفِي معجم الطبراني من حديث أبِي أمامة أن رسول اللَّهِ ﷺ سئل: «أيجامع أهل الجنة؟ قال: **دحامًا دحامًا، ولكن لا مني، ولا منية**».

وأجيب عن هذا: بأن نفي الولادة فِي حديث أبِي رزين، واشتراط الحيض والإنزال فيها؛ إنَّما هو بالنسبة للولادة المعهودة فِي هذه النشأة، فنفيها لا يستلزم ألَّا يكون هناك ولادة أصلًا؛ لجواز أن يكون هناك ولادة من نوع آخر لا يشترط فيها ذلك.

روى الحاكم، عن أبِي سهل قال: «أهل الزيغ ينكرون هذا الحديث -يعني: حديث الولادة فِي الجنة- وقد روي فيه غير إسناد، وسئل النَّبِيُّ ﷺ عن ذلك فقال: يكون ذلك على نحو مما روينا، واللَّه ﷻ يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[الزخرف: ٧١]. وليس بالمستحيل أن يشتهي المؤمن الممكن من شهواته، المصفى المقرب المسلط على لذاته قرة عين وثمرة فؤاد من الذين أنعم اللَّه عليهم بأزواج مطهرة.

فإن قيل: ففي الحديث أنَّهن لا يحضن، ولا ينفسن، فأين يكون الولد؟

قلت: الحيض سبب الولادة الممتد مدة بالحمل على الكثرة والوضع عليه، كما أن جَميع ملاذ الدنيا من المشارب والمطاعم والملابس على ما عرف من التعب والنصب، وما يعقبه كل منهما مما يحذر منها ويخاف من عواقبه، وهذه خمرة الدنيا المحرمة

المستولية على كل بلية قد أعدها اللَّه تعالَى لأهل الجنة منْزوعة البلية موفرة اللذة، فلم لا يجوز أن يكون على مثله الولد؟» انتهى كلامه.

ويؤيد كلام هؤلاء: أن اللَّه خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أنحاء:

نوع خلق من بين ذكر وأنثى وهو أكثر الخلق.

ونوع خلق بلا ذكر ولا أنثى وهو آدم عليه السلام.

ونوع خلق من أنثى بلا ذكر وهو عيسى روح اللَّه وكلمته الَّتي ألقاها إلَى مريم.

ونوع خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمنا حواء خلقها اللَّه من ضلع آدم.

وعلى هذا يجوز أن تكون الولادة فِي الجنة على نوع غير المعهود فِي الدنيا، لا يحتاج إلَى حيض ولا إنزال.

والذي نرجحه فِي هذا الباب -واللَّه أعلم بالصواب-: هو ما دل عليه حديث أبِي رزين، فإنه صريح فِي نفي الولادة، وأما حديث أبِي سعيد فهو كما عرفت قد علقها بشرط الاشتهاء، وهو لا يستلزم وقوع المعلق ولا المعلق عليه، وإسناده ليس بذاك، فإن أجود أسانيده ما رواه الترمذي وقد حكم بغرابته، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبِي الصديق الناجي، وهو كذلك قد اضطرب لفظه، فتارة يروى بلفظ إذا اشتهى الولد، وتارة أنه ليشتهي الولد، وتارة أن الرجل من أهل الجنة ليولد له... إلخ.

على أن الأمر فِي حد ذاته ممكن وقدرة اللَّه صالحة، والقطع بواحد من هذين القولين لا يمكن إلا ببرهان، فالأولى هو التفويض فيها إلَى اللَّه مع ترجيح النفي، واللَّه أعلم.

فصل في رؤية أهل الجنة ربَّهم -تبارك وتعالى- ونظرهم إلى وجهه الكريم

وَيـرَوْنَـهُ سُبْـحَـانَـهُ مِـنْ فَـوْقِـهِـمْ ... نَـظَـرَ الْـعِـيَـانِ كَـمَـا يُـرَى الْـقَـمَـرَانِ

هَـذَا تَـوَاتَـرَ عَـنْ رَسُـولِ اللـهِ لَـمْ ... يُـنْـكِـرْهُ إِلَّا فَـاسِـدُ الإِيـمَـانِ

وَأَتَـى بِـهِ الْـقُـرْآنُ تَـصْـرِيـحًـا وَتَـعْـ ... رِيـضًـا هُـمَـا بِـسِـيَـاقِـهِ نَـوْعَـانِ

وَهِـيَ الـزِّيَـادَةُ قَـدْ أَتَـتْ فِـي يُـونُـسٍ ... تَـفْـسِـيـرَ مَـنْ قَـدْ جَـاءَ بِـالْـقُـرْآنِ

وَرَوَاهُ عَـنْـهُ مُـسْـلِـمٌ بِـصَـحِـيـحِـهِ ... يَـرْوِي صُـهَـيْـبٌ ذَا بِـلَا كِـتْـمَـانِ

وَهْوَ الْمَزِيدُ كَذَاكَ فَسَّرَهُ أَبُو ... بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذُو الإيقَانِ
وَعَلَيهِ أَصْحَابُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو ... هُمْ بَعْدَهُمْ تَبَعِيَّةَ الإحْسَانِ
وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ اللِّقَاءِ لِرَبِّنَا الرْ ... رَحْمَنِ فِي سُوَرٍ مِنَ الْفُرْقَانِ
وَلِقَاؤُهُ إذْ ذَاكَ رُؤْيَتُهُ حَكَى الْـ ... إجْمَاعَ فِيهِ جَمَاعَةٌ بِبَيَانِ
وَعَلَيهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَةً وَعُرْفًا لَيسَ يَخْتَلِفَانِ

الشرح : والمؤمنون فِي الجنة يرون ربَّهم سبحانه من فوقهم رؤية حقيقية بأبصارهم، كما يرى الشمس والقمر صحوًا، ليس دونَهما سحاب ولا ضباب، وقد تواتر النقل بذلك عن رسول اللَّه ﷺ، فلا ينكره إلا مدخول فِي دينه وإيمانه، روى ذلك عنه جماعة كبيرة من أصحابه، منهم أبو بكر الصديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد اللَّه البجلي، وصهيب بن سنان الرومي، وعبد اللَّه بن مسعود الهذلي، وعلي بن أبِي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم الطائي، وأنس بن مالك، وأبو رزين، وجابر . . . إلخ .

فأما حديث أبِي هريرة وأبِي سعيد ففي الصحيحين من حديث أبِي هريرة : «أن ناسًا قالوا : يا رسول اللَّه، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **هل تضارون فِي رؤية القمر ليلة البدر؟** قالوا : لا يا رسول اللَّه . قال : **هل تضارون فِي رؤية الشمس ليس دونَها سحاب؟** قالوا : لا . قال : **فإنكم ترونه كذلك** . . . » الحديث .

وفِي الصحيحين أيضًا عن أبِي سعيد الخدري : «أن أناسًا فِي زمن رسول اللَّه ﷺ قالوا : يا رسول اللَّه، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول اللَّه ﷺ: **وهل تضارون فِي رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا، ليس دونَها سحاب؟ وهل تضارون فِي رؤية القمر ليلة البدر صحوًا، ليس فيها سحاب؟** قالوا : لا يا رسول اللَّه . قال : **ما تضارون فِي رؤيته -تبارك وتعالَى- يوم القيامة إلا كما تضارون فِي رؤية أحدهما**» .

وأما حديث جرير ففي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبِي خالد، عن قيس بن أبِي حازم، عنه قال : «كنا جلوسًا مع النَّبِيِّ ﷺ، فنظر إلَى القمر ليلة أربع عشرة، فقال : **إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا، لا تضامون فِي رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا** . ثُمَّ قرأ قوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]» .

وأما حديث صهيب فرواه مسلم فِي صحيحه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبِي ليلى، عن صهيب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، يقول اللَّه ﷻ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ يقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟** قال: **فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلَى ربِّهم**. ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] ».

وأما حديث أبِي موسى ففي الصحيحين، عنه ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلَى ربِّهم -تبارك وتعالَى- إلا رداء الكبرياء على وجهه فِي جنة عدن**».

ويطول بنا القول لو ذكرنا بقية الأحاديث، وفيما ذكرنا غنية وشفاء للقلوب المؤمنة المستنيرة، والقرآن كذلك أتى بإثبات الرؤية تصريحًا تارة، وتلميحًا تارة أخرى، فقد قال تعالَى فِي سورة يونس عليه السلام: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦]. وقد فسر النَّبِيُّ ﷺ هذه الزيادة: بأنَّها النظر إلَى وجه اللَّه، كما جاء فِي حديث صهيب المتقدم الذي رواه مسلم.

وقال تعالَى من سورة ق: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥]. وقد فسر علي رضي الله عنه وغيره هذا المزيد: بأنه النظر إلَى وجه اللَّه، روى ذلك عنه ابن جرير.

كما روى البزار وابن أبِي حاتم عن أنس فِي تفسير هذه الآية أنه قال: «**يظهر لَهم الرب كل يوم جمعة**».

ولقد ورد ذكر لقاء العبد لربه فِي كثير من آيات القرآن الكريم، كقوله تعالَى من سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٢٣]. وكقوله من سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يونس: ٧-٨]. وكقوله من سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]. وكقوله من سورة العنكبوت: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾[العنكبوت: ٥].

وقد حكى بعضهم الإجماع على أن هذا اللقاء هو رؤيته تبارك وتعالى، وهو الذي جزم به أهل الحديث جميعًا، وتفسير اللقاء بالرؤية هو المطابق للغة والعرف.

وقد روى إمام الأئمة ابن خزيمة من حديث بريدة بن الحصيب قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا سيخلو اللَّه به يوم القيامة، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان».

* * *

هَـذَا وَيَـكْـفِـي أَنَّـهُ سُـبْـحَـانَـهُ ... وَصَـفَ الْـوُجُـوهَ بِـنَـظْـرَةٍ بِـجِـنَـانِ
وَأَعَـادَ أَيـضًـا وَصْـفَـهَـا نَـظَـرًا وَذَا ... لَا شَـكَّ يُـفْـهِـمُ رُؤْيَـةً بِـعِـيَـانِ
وَأَتَـتْ أَدَاةُ إلَـى لِـرَفْـعِ الْـوَهْـمِ مِـنْ ... فِـكْـرٍ كَـذَاكَ تَـرَقُّـبُ الإنْـسَـانِ
وَإضَـافَـةٌ لَـمَـحَـلِّ رُؤْيَـتِـهِـمْ بِـذِكْـ ... ـرِ الْـوَجْـهِ إذْ قَـامَـتْ بِـهِ الْـعَـيـنَـانِ
تَـالـلـهِ مَـا هَـذَا بِـفِـكْـرٍ وَانْـتِـظَـا ... رِ مُـغَـيَّـبٍ أَوْ رُؤْيَـةٍ لِـجِـنَـانِ
مَـا فِـي الْـجِـنَـانِ مِـنَ انْـتِـظَـارٍ مُـؤْلِـمٍ ... وَالـلَّـفْـظُ يَـأْبَـاهُ لِـذِي الْـعِـرْفَـانِ
لَا تُـفْـسِـدُوا لَـفْـظَ الْـكِـتَـابِ فَـلَـيْـسَ فِـيـ ... ـهِ حِـيـلَـةٌ يَـا فِـرْقَـةَ الـرَّوَغَـانِ
مَـا فَـوْقَ ذَا الـتَّـصْـرِيـحِ شَـيْءٌ مَـا الَّـذِي ... يَـأْتِـي بِـهِ مِـنْ بَـعْـدِ ذَا الـتِّـبْـيَـانِ
لَـوْ قَـالَ أَبْـيَـنَ مَـا يُـقَـالُ لَـقُـلْـتُـمُ ... هُـوَ مُـجْـمَـلٌ مَـا فِـيـهِ مِـنْ تِـبْـيَـانِ

الشرح: قال اللَّه -تبارك وتعالَى- من سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فوصف الوجوه أولًا بالنضرة، كما فِي قوله تعالَى من سورة المطففين: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. ثُمَّ أعاد وصفها بالنظر فِي الآية الثانية، وهذا يفهم من غير شك أنه النظر إلَى وجه اللَّه سبحانه، ولكي يرفع توهم أن المراد بالنظر الانتظار كما يدعيه المعطلة نفاة الرؤية، أتى بالحرف «إلَى» فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. والذي يتعدى بـ«إلى» هو النظر بمعنى الإبصار، يقال: نظرت إليه بمعنى: أبصرته. وأما النظر بمعنى الانتظار فإنه يتعدى بنفسه، كما فِي قوله تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

كذلك أضاف الرؤية إلَى الوجه الذي هو محل الرؤية، إذ هو مشتمل على العينين اللتين تقع بِهما، مما ينفي كل توهم، ويزيل كل لبس، فلا تحتمل الآية أبدًا ما تأولها به المعطلة من قولهم: إن معناها: إلَى ثواب ربِّها منتظرة، فإن الانتظار آلم شيء للنفس، واللَّه قد وعد أهل الجنة بأنَّهم: «لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب».

هذا وليس هناك أفسد للنصوص وأكبر جناية عليها من مثل هذه التأويلات السخيفة، الَّتِي يعمد إليها هؤلاء المعطلة الزائغون؛ ليروغوا بِها عن الحق روغان الثعالب، مع أن

الآية بلغت الغاية من الصراحة فِي الإفهام والدلالة على المعنَى المراد، وليس بعد هذا البيان بيان أبدًا، ولكن هؤلاء دأبُهم مع هذه النصوص الَّتِي هي أبين وأصرح ما يكون أن يدعوا فيها الإجمال والاشتباه، مادامت لَمْ توافق ما قضت به عقولهم المريضة بداء الإنكار والتعطيل، ومن يضلل اللَّه فما له من سبيل.

* * *

وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْـ ... ـنَ الْقَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ

فَيدُلُّ بِالْمَفْهُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنِيـ ... ـنَ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ

وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدٌ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الأَزْمَانِ

وَأَتَى بِذَا الْمَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ ... خِرِهَا فَلَا تُخْدَعْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَأَتَى بِذَاكَ مُكِذِّبًا لِلْكَافِرِيـ ... ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ

ضَحِكُوا مِنَ الْكُفَّارِ يوْمَئِذٍ كَمَا ... ضَحَكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ

وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيهِ ضِدَّ مَا ... قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُو الْكُفْرَانِ

فَلِذَاكَ فَسَّرَهَا الأَئِمَّةُ أَنَّهُ ... نَظَرٌ إِلَى الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

لِلهِ ذَاكَ الْفَهْمُ يؤْتِيهِ الَّذِي ... هُوَ أَهْلُهُ مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ

الشرح: قال اللَّه تعالَى فِي سورة المطففين فِي شأن الفجار والمكذبين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فهذا يدل بمفهومه على أن المؤمنين لا يحجبون عنه سبحانه، بل يرونه فِي جنة الخلد الَّتِي وعدها عباده المتقين، وبِهذا احتج الشافعي وأحمد -رحمهما اللَّه- وغيرهما من علماء أهل السنة.

روى الحاكم قال: حدثنا الأصم: أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت مُحمَّد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: «ما تقول فِي قول اللَّه ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء فِي السخط؛ كان فِي هذا دليل على أن أولياءه يرونه فِي الرضا. قال الربيع: فقلت: يا أبا عبد اللَّه، وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين اللَّه، ولو لَمْ يوقن مُحمَّد بن إدريس أنه يرى اللَّه لما عبد اللَّه ﷻ».

ولقد ورد التصريح بِهذا المفهوم فِي آخر السورة حيث يقول سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

فقد جاءت هذه الآيات تكذب الكفار فِي سخريتهم من المؤمنين، ورميهم إياهم بالضلال، فهم يضحكون يومئذ من الكفار كما كان الكفار يضحكون منهم، ويتغامزون عليهم فِي الدنيا، ولما صبروا فِي الدنيا على ما كانوا يسمعونه من الأذى وسوء القالة والغمز واللمز، جزاهم اللَّه على ذلك بالنظر إلَى وجهه الكريم؛ فلهذا ذهب أئمة العلم إلَى أن المراد بقوله تعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين: ٣٥] . أنه النظر إلَى وجه اللَّه سبحانه، فللَّه ما أحسن هذا الفهم لآيات الكتاب وإشاراته، الذي يؤتيه اللَّه من هو أهل له من ذوي الفضل والإحسان.

* * *

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مُسْنِدًا عَنْ جَابِرٍ ... خَبَرًا وَشَاهِدُهُ فَفِي الْقُرْآنِ

بَينَا هُمُو فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ فِي لَذَّةٍ وَتَهَانِي

وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعٍ قَدْ أَشْرَقَتْ ... مِنْهُ الْجِنَانُ قَصِيُّهَا وَالدَّانِي

رَفَعُوا إِلَيهِ رُءُوسَهُمْ فَرَأَوْهُ نُو ... رَ الرَّبِّ لَا يَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

وَإِذَا بِرَبِّهِمُ تَعَالَى فَوْقَهُمْ ... قَدْ جَاءَ لِلتَّسْلِيمِ بِالإِحْسَانِ

قَالَ السَّلَامُ عَلَيكُمُ فَيَرَوْنَهُ ... جَهْرًا تَعَالَى الرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ

مِصْدَاقُ ذَا يس قَدْ ضَمِنَتْهُ عِنْـ ... ـدَ الْقَوْلِ مِنْ رَبٍّ بِهِمْ رَحْمَنِ

مَنْ رَدَّ ذَا فَعَلَى رَسُولِ اللهِ رَدْ ... دَ وَسَوْفَ عِنْدَ اللهِ يَلْتَقِيَانِ

فِي ذَا الْحَدِيثِ عُلُوُّهُ وَمَجِيئُهُ ... وَكَلَامُهُ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

هَذِي أُصُولُ الدِّينِ فِي مَضْمُونِهِ ... لَا قَوْلَ جَهْمٍ صَاحِبِ الْبُهْتَانِ

الشرح: روى ابن ماجه فِي سننه من حديث مُحمَّد بن المنكدر، عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**بينا أهل الجنة فِي نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الرب** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول اللَّه** عَزَّ وَجَلَّ: **﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾**[يس: ٥٨] . **فلا يلتفتون إلَى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حَتَّى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره**». ومصداق هذا الحديث فِي سورة يس عند قوله تعالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

فمن رد هذا الحديث فقد رد على رسول اللَّه ﷺ، ودفع كلامه، وسوف يكون خصمه يوم القيامة، وقد تضمن هذا الحديث أصولًا عظيمة من عقائد الدين، فأثبت علوه سبحانه

على خلقه ومجيئه وتكليمه، ورؤية عباده المؤمنين له بأبصارهم، وهذه هي أصول الدين الَّتِي تضمنتها الآيات والأحاديث، لا قول المعطلة -قبحهم اللَّه- الذين ينفون علوه سبحانه وكلامه ورؤيته.

* * *

وَكَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيرَةَ ذَلِكَ الْـ ... خَبَرُ الطَّوِيلُ أَتَى بِهِ الشَّيخَانِ

فِيهِ تَجَلِّي الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَمَجِيئُهُ وَكَلَامُهُ بِبَيَانِ

وَكَذَاكَ رُؤْيَتُهُ وَتَكْلِيمٌ لِمَنْ ... يَخْتَارُهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

فِيهِ أُصُولُ الدِّينِ أَجْمَعُهَا فَلَا ... تَخْدَعْكَ عَنْهُ شِيعَةُ الشَّيطَانِ

وَحَكَى رَسُولُ اللهِ فِيهِ تَجَدُّدَ الْـ ... غَضَبِ الَّذِي لِلرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ

إِجْمَاعَ أَهْلِ الْعَزْمِ مِنْ رُسْلِ الإِلَـ ... ـهِ وَذَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى الْبُرْهَانِ

لَا تُخْدَعَنَّ عَنْ الْحَدِيثِ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ فَهْيَ كَثِيرَةُ الْهَذَيَانِ

أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَا ... قُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو الْبُهْتَانِ

يَكْفِيكَ أَنَّكَ لَوْ حَرَصْتَ فَلَنْ تَرَى ... فِئَتَينِ مِنْهُمْ قَطُّ يَتَّفِقَانِ

إِلَّا إِذَا مَا قَلَّدَا لِسِوَاهُمَا ... فَتَرَاهُمُ جِيلًا مِنَ الْعُمْيَانِ

وَيقُودُهُمْ أَعْمَى يُظَنُّ كَمُبْصِرٍ ... يَا مِحْنَةَ الْعُمْيَانِ خَلْفَ فُلَانِ

هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمُبْصِرُ رُشْدِهِ ... اللهُ أَكْبَرُ كَيفَ يَسْتَوِيَانِ

الشرح: روى الشيخان عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أتي رسول اللَّه ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منها نَهشة، ثُمَّ قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع اللَّه الأولين والآخرين فِي صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إِلَى ربكم؟ فيقول بعض الناس: عليكم بآدم.**

فيأتون آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إِلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربِي قد غضب اليوم غضبًا، لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده

مثله، وإنه قد نَهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلَى غيري؛ اذهبوا إلَى نوح.

فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلَى أهل الأرض، وقد سماك اللَّه عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربِّي قد غضب اليوم غضبًا، لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لِي دعوة دعوتُها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا على غيري؛ اذهبوا إلَى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي اللَّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربِي قد غضب اليوم غضبًا، لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلَى غيري، اذهبوا إلَى موسى.

فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى، أنت رسول اللَّه، اصطفاك اللَّه برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لَهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا، لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي قد قتلت نفسًا لَمْ أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلَى غيري، اذهبوا إلَى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عسى، أنت رسول اللَّه، وكلمته ألقاها إلَى مريم، وروح منه، وكلمت الناس فِي المهد صبيًّا، فاشفع لنا إلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا. فيقول لَهم عيسى: إن ربِّي قد غضب اليوم غضبًا، لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -ولَمْ يذكر ذنبًا- نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلَى غيري، اذهبوا إلَى مُحمَّد ﷺ.

فيأتون مُحمَّدًا ﷺ، فيقولون: يا مُحمَّد، أنت رسول اللَّه وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلَى ربك، ألا ترى ما نَحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتِي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربِّي عز وجل، ثُمَّ يفتح اللَّه علي، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا ما لَمْ يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا مُحمَّد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا مُحمَّد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم

شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثُمَّ قال: والذي نفس مُحمَّد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى». أخرجاه فِي الصحيحين.

فهذا الحديث قد تضمن أصولًا كبيرة من وجود اللَّه فوق عرشه، وتجليه وتكليمه لخير خلقه وأشرف رسله مُحمَّد ﷺ، وقد أخبر الرسول فيه عن إخوانه من أولي العزم أنَّهم يخشون غضب الرب الذي بلغ من الشدة مبلغًا لَمْ يبلغه من قبل، ولن يبلغه من بعد، فلا تخدع أيها السني عن هذه الأحاديث العظيمة الَّتِي تملأ القلب نورًا وبصيرة، ولا تنصرف عنها إلَى هذه الآراء الضالة الكثيرة السقط والهراء، وهي لَمْ تصدر عن أحد ممن يعتد بِهم فِي العلم والمعرفة، ولكن عن قوم كثر تخرصهم فِي دين اللَّه، وعظم تناقضهم واضطرابُهم، واشتدتْها ترهم بالكذب والبهتان، ويكفيك دليلًا على حيرتِهم واضطرابِهم أنك لن تجد طائفتين منهم تلتقيان عند رأي واحد، إلا إذا كانا قد قلدا غيرهُما فيه بلا بينة ولا دليل، فهم كجماعة من العميان، يقودهم أعمى مثلهم يحسب أنه بصير، فيا محنة هؤلاء مما يقودهم إليه هذا الأحمق الغرير! فهل يستوي هذا الضال المضل، ومن ألهمه اللَّه رشده، فهو يمشي على هدى من اللَّه ونور؟ كلا لا يستويان أبدًا فِي عقل المتأمل البصير.

* * *

أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإيمَانِ يُخْـ ... ـبِـرُ عَـنْ مُـنَـادِي جَـنَّـةِ الْـحَـيَـوَانِ

يَا أَهْلَهَا لَكُمُ لَدَى الرَّحْمَنِ وَعْـ ... ـدٌ وَهْـوَ مُـنْـجِـزُهُ لَـكُـمْ بِـضَـمَـانِ

قَـالُـوا أَمَـا بَـيَّـضْـتَ أَوْجُـهَـنَـا كَـذَا ... أَعْـمَـالُـنَـا أَثْـقَـلْـتَ فِـي الْـمِـيـزَانِ

وَكَـذَاكَ قَـدْ أَدْخَـلْـتَـنَـا الْـجَـنَّـاتِ حِـيـ ... ـنَ أَجَـرْتَـنَـا مِـنْ مَـدْخَـلِ الـنِّـيـرَانِ

فَـيَـقُـولُ عِـنْـدِي مَـوْعِـدٌ قَـدْ آنَ أَنْ ... أُعْـطِـيـكُـمُـوهُ بِـرَحْـمَـتِـي وَحَـنَـانِـي

فَـيَـرَوْنَـهُ مِـنْ بَـعْـدِ كَـشْـفِ حِـجَـابِـهِ ... جَـهْـرًا رَوَى ذَا مُـسْـلِـمٌ بِـبَـيَـانِ

وَلَـقَـدْ أَتَـانَـا فِـي الـصَّـحِـيـحَـيـنِ اللَّـذَيـ ... ـنِ هُـمَـا أَصَـحُّ الْـكُـتْـبِ بَـعْـدَ قُـرَانِ

بِـرِوَايَـةِ الـثِّـقَـةِ الـصَّـدُوقِ جَـرِيـرٍ الْـ ... ـبَـجَـلِـي عَـمَّـنْ جَـاءَ بِـالْـقُـرْآنِ

أَنَّ الْـعِـبَـادَ يَـرَوْنَـهُ سُـبْـحَـانَـهُ ... رُؤْيَـا الْـعِـيَـانِ كَـمَـا يـرَى الْـقَـمَـرَانِ

فَـإِنِ اسْـتَـطَـعْـتُـمْ كُـلَّ وَقْـتٍ فَـاحْـفَـظُـوا الْـ ... ـبَـرْدَيْـنِ مَـا عِـشْـتُـمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

وَلَـقَـدْ رَوَى بِـضْـعٌ وَعِـشْـرُونَ امْـرَأً ... مِـنْ صَـحْـبِ أَحْـمَـدَ خِـيـرَةِ الـرَّحْـمَـنِ

أَخْبَارَ هَذَا الْبَابِ عَمَّنْ قَدْ أَتَى بِالْوَحْيِ تَفْصِيلًا بِلَا كِتْمَانِ
وَأَلَذُّ شَيءٍ لِلْقُلُوبِ فَهَذِهِ الْـ أَخْبَارُ مَعْ أَمْثَالِهَا هِي بَهْجَةُ الإيمَانِ

الشرح: أوما سمعت منادي الإيمان وهو رسول اللَّه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- يخبر عن ذلك المنادي الذي ينادي أهل الجنة: «**يأهل الجنة، إن ربكم -تبارك وتعالَى- يستزيركم، فحي على زيارته. فيقولون: سمعًا وطاعة. وينهضون إلَى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لَهم، فيستوون على ظهورها مسرعين، حَتَّى إذا انتهوا إلَى الوادي الأفيح الذي جعل لَهم موعدًا، وجمعوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب -تبارك وتعالَى- بكرسيه فنصب هناك، ثُمَّ نصبت لَهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم -وحاشاهم أن يكون فيهم دنيء- على كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم فِي العطايا، حَتَّى إذا استقرت بِهم مجالسهم، واطمأنت بِهم أماكنهم؛ نادى المنادي: يأهل الجنة، إن لكم عند اللَّه موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار.**

فبينما هم كذلك؛ إذ سطع لَهم نور أشرقت له الجنة، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار -جل جلاله وتقدست أسماؤه- قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يأهل الجنة، سلام عليكم. فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام. فيتجلى لَهم الرب -تبارك وتعالَى- يضحك إليهم، ويقول: يأهل الجنة. فيكون أول ما يسمعون منه تعالَى: أين عبادي الذي أطاعوني بالغيب ولَمْ يروني؟ فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: أن قد رضينا فارض عنا. فيقول: يأهل الجنة، لو لَمْ أرض عنكم لَمْ أسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد، فاسألوني. فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه. فيكشف لَهم الرب رَحِمَهُ اللَّهُ الحجب، ويتجلى لَهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أن اللَّه تعالَى قضى ألَّا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقى فِي ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالَى محاضرة، حَتَّى إنه ليقول له: يا فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ يذكره ببعض غدواته فِي الدنيا، فيقول: يا رب، ألَم تغفر لِي؟ فيقول: بِمغفرتي بلغت منْزلتك هذه. . .» الحديث.

ولقد جاء فِي صحيحي البخاري ومسلم اللذين هما أصح الكتب على الإطلاق بعد

كتاب اللَّه ﷻ من رواية الصحابي الجليل جرير بن عبد اللَّه البجلي: «**إن المؤمنين يرون ربَّهم بأبصارهم يوم القيامة عيانًا**». وقد تقدمت رواية الحديث.

وبالجملة: فأحاديث الرؤية متواترة فِي المعنَى، رواها أكثر من عشرين صاحبيًّا قد ذكرنا أسْماء بعضهم وأحاديثهم فيما سبق، ولا شيء ألذ للقلوب ولا أبْهج للنفوس من رواية مثل هذه الأحاديث، الَّتِي تحرك شوق المؤمن إلَى شهود ذلك الجناب الأقدس، الَّتِي تتضاءل دونه أنواع المتع واللذات.

* * *

وَاللَّهِ لَوْلَا رُؤْيَةُ الرَّحْمَنِ فِي الْـ ... جَنَّاتِ مَا طَابَتْ لِذِي الْعِرْفَانِ

أَعْلَى النَّعِيمِ نَعِيمُ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ ... وَخِطَابِهِ فِي جَنَّةِ الْحَيَوانِ

وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْعَذَابِ حِجَابُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ سَاكِنِي النِّيرَانِ

وَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ نَسُوا الَّذِي ... هُمْ فِيهِ مِمَّا نَالَتِ الْعَيْنَانِ

فَإِذَا تَوَارَى عَنْهُمُ عَادُوا إِلَى ... لَذَّاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الأَلْوَانِ

فَلَهُمْ نَعِيمٌ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ سِوَى ... هَذَا النَّعِيمِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ سُؤَالَ أَعْرَفِ خَلْقِهِ ... بِجَلَالِهِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

شَوْقًا إِلَيهِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ الَّتِي ... بِجَلَالِ وَجْهِ الرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ

فَالشَّوْقُ لَذَّةُ رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا وَيَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

تَلْتَذُّ بِالنَّظَرِ الَّذِي فَازَتْ بِهِ ... دُونَ الْجَوَارِحِ هَذِهِ الْعَيْنَانِ

وَاللهِ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَلَذْ ... ذُ مِنَ اشْتِيَاقِ الْعَبْدِ لِلرَّحْمَنِ

وَكَذَاكَ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ سُبْحَانَهُ ... هِيَ أَكْمَلُ اللَّذَاتِ لِلإِنْسَانِ

لَكِنَّمَا الْجَهْمِيُّ يُنْكِرُ ذَا وَذَا ... وَالْوَجْهَ أَيضًا خَشْيَةَ الْحِدْثَانِ

تَبًّا لَهُ الْمَخْدُوعُ أَنْكَرَ وَجْهَهُ ... وَلِقَاءَهُ وَمَحَبَّةَ الدَّيَّانِ

وَكَلَامَهُ وَصِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ ... وَالْعَرْشَ عَطَّلَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

فَتَرَاهُ فِي وَادٍ وَرُسْلُ اللهِ فِي ... وَادٍ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرَانِ

الشرح: وأشد شيء فِي عذاب أهل النار هو احتجاب الرب -تبارك وتعالَى- عنهم وحرمانُهم من النظر إلي وجهه الكريم، وإذا تجلى الرب لعباده المؤمنين فِي الجنة نسوا

كل ما هم فيه من ألوان النعيم ، من أجل ما ظفرت به أعينهم من اللذة الكبرى بالنظر إِلَى وجه اللَّه ﷻ ، فإذا ما احتجب عنهم عادوا إِلَى ما كانوا فيه من ألوان السرور والنعيم .

فلهم نعيمان فِي الجنة : نعيم عند رؤيته سبحانه ، وهو أجلهما وأشرفهما .

ونعيم عند احتجابه بِما هم فيه من ظلال وفواكه وحور وولدان إِلَى آخره ، فحبذا النعيمان .

ولقد روى الإمام أحمد من حديث أبِي مجلز قال : صلى بنا عمار صلاة فأوجز فيها ، فأنكروا ذلك ، فقال : ألم أتم الركوع والسجود؟ قالوا : بلى . قال : أما إنِّي قد دعوت فيها بدعاء كان رسول اللَّه ﷺ يدعو به : «**اللَّهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي ، وأسألك خشيتك فِي الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فِي الغضب والرضا ، والقصد فِي الغنى والفقر ، ولذة النظر إِلَى وجهك الكريم ، والشوق إِلَى لقائك فِي غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللَّهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين**» . وأخرجه ابن حبان والحاكم فِي صحيحيهما .

فالشوق إِلَى لقاء اللَّه ﷻ هو لذة الروح فِي هذه الدنيا للمؤمن ، وفِي يوم القيامة يلتذ بالنظر إِلَى وجه اللَّه الكريم ، الذي هو حظ العين من دون الجوارح كلها ، وليس فِي هذه الدنيا لدى أهل المعرفة باللَّه لذة تعدل لذة الشوق إِلَى لقاء اللَّه ، كما أنه ليس فِي الآخرة لذة تعدل لذة النظر إِلَى وجهه سبحانه .

لكن الجهمي المعطل لا يؤمن لا بلقاء ، ولا بنظر ، ولا بوجه ؛ لأنَّها عنده من مستلزمات الحوادث ، فهلاكًا لِهذا المغرور الذي استمسك بشبه واهية ظنها معقولات صحيحة ، فنفى من أجلها ما ثبت بالنصوص الصريحة القطعية من الوجه ، واللقاء ، والمحبة ، والكلام ، والعلو ، وسائر الصفات ، حَتَّى عطل العرش عن أن يكون فوقه إله يعبد ، ورب يصلى له ويسجد ، فهو بإنكاره وتعطيله فِي واد ، ورسل اللَّه وأتباعهم فِي إثباتِهم لكمالات الرب كلها فِي واد ، ومخالفة الرسل ﷺ ومشاقتهم واتباع غير سبيلهم من أقبح أنواع الكفر الذي باء به هذا الجهمي العنيد .

فصل في كلام الرب جَلَّ جَلَالُهُ مع أهل الجنة

أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... حَقًّا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ بِجِنَانِ

فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ هَلْ أَنْتُمُ ... رَاضُونَ قَالُوا نَحْنُ ذُو رِضْوَانِ

أَمْ كَيفَ لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيتَنَا ... مَا لَمْ يَنَلْهُ قَطُّ مِنْ إنْسَانِ

هَلْ ثَمَّ شَيءٌ غَيرَ ذَا فِيكُونُ أَفْـ ... ـضَلَ مِنْهُ نَسْأَلُهُ مِنَ الْمَنَّانِ

فَيقُولُ أَفْضَلُ مِنْهُ رِضْوَانِي فَلَا ... يَغْشَاكُمُ سُخْطٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

وَيذَكِّرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ بِمَا ... قَدْ كَانَ مِنْهُ سَالِفَ الأَزْمَانِ

مِنْهُ إلَيهِ لَيسَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ ... مَا ذَاكَ تَوْبِيخًا مِنَ الرَّحْمَنِ

لَكِنْ يعَرِّفُهُ الَّذِي قَدْ نَالَهُ ... مِنْ فَضْلِهِ وَالْعَفْوِ وَالإحْسَانِ

وَيُسَلِّمُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ ... حَقًّا عَلَيهِمْ وَهْوَ فِي الْقُرْآنِ

وَكَذَاكَ يُسْمِعُهُمْ لَذِيذَ خِطَابِهِ ... سُبْحَانَهُ بِتِلَاوَةِ الْفُرْقَانِ

فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ قَبْلَ ذَا ... هَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ الطَّبَرَانِي

هَذَا سَمَاعٌ مُطْلَقٌ وَسَمَاعُنَا الْـ ... ـقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا فَنَوْعٌ ثَانِ

وَاللهُ يُسْمِعُ قَوْلَهُ بِوَسَاطَةٍ ... وَبِدُونِهَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

فَسَمَاعُ مُوسَى لَمْ يكُنْ بِوَسَاطَةٍ ... وَسَمَاعُنَا بِتَوَسُّطِ الإنْسَانِ

مَنْ صَيَّرَ النَّوْعَينِ نَوْعًا وَاحِدًا ... فَمُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ

الشرح: اعلم أن تكليم اللَّه لأوليائه فِي الجنة هو كرؤيته، كل ذلك حق لا ريب فيه؛ فإن اللَّه ﷻ نفى تكليمه لأعدائه يوم القيامة، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين فِي الجنة؛ لكانوا هم وأعداؤه فِي ذلك سواء.

وتكليمه لأهل الجنة تكليم خاص للتحية والتكريم، فهو لا ينافي أنه سيكلم عباده جميعًا فِي عرصات القيامة، وقد جاء فِي حديث عدي بن حاتم: «**ما من عبد إلا سيكلمه اللَّه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان**». ولكن حين يدخل أهل النار النار، يحتجب ﷻ

عنهم، ولا يكلمهم، بل حين يستغيثون به، ويطلبون منه الخروج من النار، يقول لَهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وفِي الصحيحين من حديث أبِي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ﷻ يقول لأهل الجنة: يأهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لَمْ تعط أحدًا من خلقك؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**».

وقد سبق فِي حديث زيارة أهل الجنة لربِّهم أنه سبحانه يحاضر كل واحد منهم، حَتَّى يقول له: يا فلان، ألم تفعل كذا يوم كذا. يذكره بغدراته لا على جهة التوبيخ والتقريع، ولكن يذكر بفضله وإحسانه عليه فِي العفو والمغفرة.

وفِي الصحيح من حديث ابن عمر: «**إن اللَّه ﷻ يدني المؤمن، ويضع عليه كنفه، ثُمَّ يقرره بذنوبه، فيقول: ألم تفعل كذا يوم كذا. حَتَّى إذا قرره بذنوبه، وأيقن أنه قد هلك، قال له: سترتُها عليك فِي الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**».

وقد ورد أيضًا أن اللَّه ﷻ يتجلى لأهل الجنة، ويسلم عليهم، كما قال تعالَى فِي سورة يس: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]. بل وقد ورد أنه سبحانه يقرأ القرآن لأهل الجنة بصوت نفسه، يسمعهم لذيذ خطابه، فإذا سمعوه منه فكأنَّهم لَمْ يسمعوه قبل ذلك، روى أبو الشيخ عن صالح بن حبان، عن عبد اللَّه بن بريدة قال: «**إن أهل الجنة يدخلون كل يوم مرتين على الجبار** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزبرجد والذهب والزمرد، فلم تقرَّ أعينهم بشيء، ولَمْ يسمعوا شيئًا قط؛ أعظم ولا أحسن منه**».

وهذا سماع مطلق، وهو أكمل السماع، وأما سماعنا للقرآن فِي الدنيا فهو نوع آخر؛ لأن سماع كلام اللَّه نوعان:

نوع: بوساطة القارئين له، المبلغين عن اللَّه ﷻ.

ونوع: بالمباشرة بلا وساطة أحد، كتكليمه لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه كان كفاحًا بلا واسطة.

وأما سماعنا نَحن لكلامه فِي الدنيا فهو بواسطة التالين له، فمن جعل النوعين نوعًا

واحدًا، وزعم أن اللَّه لا يتكلم بكلام مسموع، وأنه لا يمكن سماع كلامه إلا بواسطة من يقرؤه من الناس؛ فهو مخالف للعقل الذي يقضي بأنه لا يسمى متكلمًا إلا من قام به الكلام، والكلام لا يكون إلا حروفًا وألفاظًا مسموعة.

ومخالف للقرآن أيضًا، فقد ذكر اللَّه أنواع وحيه إِلَى رسله، وجعل منها تكليمه لمن يشاء منهم من غير وساطة الملك، قال تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فصل في يوم المزيد وما اعد لهم فيه من الكرامة

أَوَمَا سَمِعْتَ بِشَأْنِهِمْ يَوْمَ الْمَزِيـ ... ـدِ وَأَنَّهُ شَأْنٌ عَظِيمُ الشَّانِ

هُوَ يَوْمُ جُمْعَتِنَا وَيَوْمُ زِيَارَةِ الرْ ... رَحْمَنِ وَقْتَ صَلَاتِنَا وَأَذَانِ

وَالسَّابِقُونَ إِلَى الصَّلَاةِ هُمُ الأُلَى ... فَازُوا بِذَاكَ السَّبْقِ بِالإِحْسَانِ

سَبْقٌ بِسَبْقٍ وَالْمُؤَخَّرُ هَاهُنَا ... مُتَأَخِّرٌ فِي ذَلِكَ الْمَيْدَانِ

وَالأَقْرَبُونَ إِلَى الإِمَامِ فَهُمْ أُولُو الزْ ... زُلْفَى هُنَاكَ فَهَاهُنَا قُرْبَانِ

قُرْبٌ بِقُرْبٍ وَالْمُبَاعِدُ مِثْلُهُ ... بُعْدٌ بِبُعْدٍ حِكْمَةُ الدَّيَّانِ

وَلَهُمْ مَنَابِرُ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... وَمَنَابِرُ الْيَاقُوتِ وَالْعِقْيَانِ

هَذَا وَأَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِي ... مِنْ فَوْقِ ذَاكَ الْمِسْكِ كَالْكُثْبَانِ

مَا عِنْدَهُمْ أَهْلُ الْمَنَابِرِ فَوْقَهُمْ ... مِمَّا يَرَوْنَ بِهِمْ مِنَ الإِحْسَانِ

فَيَرَوْنَ رَبَّهُمُ تَعَالَى جَهْرَةً ... نَظَرَ الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

وَيُحَاضِرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ مُحَا ... ضَرَةَ الْحَبِيبِ يَقُولُ يَابْنَ فُلَانِ

هَلْ تَذْكُرُ الْيَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ... ـهِ مُبَارِزًا بِالذَّنْبِ وَالْعِصْيَانِ

فَيَقُولُ رَبِّ أَمَا مَنَنْتَ بِغَفْرَةٍ ... قِدْمًا فَإِنَّكَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ

فَيُجِيبُهُ الرَّحْمَنُ مَغْفِرَتِي الَّتِي ... قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى الْمَحَلِّ الدَّانِي

الشرح: روى الإمام الشافعي فِي مسنده من حديث أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «أتى جبريل رسول اللَّه ﷺ بمرآة بيضاء فيها نكتة، فقال النَّبِيُّ ﷺ: ما هذه؟ فقال: هذه يوم الجمعة فضلت بِها أنت وأمتك، والناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى، ولكم فيها خير،

وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو اللَّه بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. فقال النَّبِيُّ ﷺ: **وما يوم المزيد يا جبريل**؟ قال: إن ربك اتخذ فِي الفردوس واديًا أفيح، فيه كثب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل اللَّه ﷻ ما شاء من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول اللَّه ﷻ: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم. فيقولون: ربنا نسألك رضوانك. فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنيتم، ولديَّ مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربُّهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربك على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

وذكر أبو نعيم من حديث المسعودي، عن المنهال، عن أبِي عبيدة، عن عبداللَّه قال: «سارعوا إلَى الجمعة فِي الدنيا، فإن اللَّه -تبارك وتعالَى- يبرز لأهل الجنة فِي كل جمعة على كثيب من كافور أبيض، فيكونون منه سبحانه فِي القرب على قدر سرعتهم إلَى الجمعة، ويحدث لَهم من الكرامة شيئًا لَمْ يكونوا رأوه قبل ذلك، فيرجعون إلَى أهليهم وقد أحدث لهم».

فالسابقون إلَى الصلاة يوم الجمعة هم السابقون فِي الذهاب إلَى اللَّه ﷻ يوم المزيد، الذي هو يوم زيارة الرب تعالَى، والمتأخرون هنا متأخرون هناك جزاء وفاقًا.

وكذلك الأقربون إلَى الإمام فِي يوم الجمعة يكونون هم أهل الزلفى والقرب عند اللَّه، فقربُهم هناك بحسب قربِهم من الإمام، وبعدهم بحسب بعدهم كذلك.

ولَهم هناك فِي هذا الوادي الذي يسمى وادي المزيد منابر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد والذهب، وأدناهم منْزلة -وليس فيهم دنيء ولا ناقص- يجلسون على كثبان المسك، ولا يجدون لأهل المنابر فضلًا عليهم، فيتجلى لَهم الرب -تبارك وتعالَى- ويطلب إليهم أن يسألوه.

وقد ذكرنا فيما سبق محاضرة الرب -جل شأنه- لَهم، وأنه يسأل أحدهم فيقول: «**يا فلان بن فلان، ألم تفعل كذا يوم كذا -من غدراته فِي الدنيا-. فيقول: يا رب، ألم تغفره لي؟ فيقول: بلى، فمغفرتي لك الَّتِي أوصلتك إلَى ما أنت فيه**».

* * *

فصل في المطر الذي يصيبهم هناك

وَيُظِلُّهُمْ إِذْ ذَاكَ مِنْهُ سَحَابَةٌ تَأْتِي بِمِثْلِ الْوَابِلِ الْهَتَّانِ
بَينَا هُمُ فِي النُّورِ إِذْ غَشِيَتْهُمُ سُبْحَانَ مُنْشِيهَا مِنَ الرِّضْوَانِ
فَتَظَلُّ تُمْطِرُهُمْ بِطِيبٍ مَا رَأَوْا شَبَهًا لَهُ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ
فَيَزِيدُهُمْ هَذَا جَمَالًا فَوْقَ مَا لَهُمُ وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْمَنَّانِ

الشرح: روى بقية بن الوليد، عن كثير بن مرة قال: «إن من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة، فتقول: ماذا تريدون أن أمطركم؟ فلا يتمنون شيئًا إلا أمطروا».

وروى عبد اللَّه بن المبارك من حديث شفي بن ماتع قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من نعيم أهل الجنة أنَّهم يتزاورون على المطايا والنجب، وأنَّهم يؤتون فِي الجنة بخيل مسرجة ملجمة، لا تروث، ولا تبول، يركبونَها حَتَّى ينتهوا حيث شاء اللَّه، فيأتيهم مثل السحابة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، فيقولون: أمطري علينا. فما يزال المطر عليهم حَتَّى ينتهي ذلك فوق أمانيهم**».

ويزيدهم هذا حسنًا فوق ما بِهم، حَتَّى إن الرجل منهم ليرجع إِلَى أهله بعد الزيارة، فتقول له: لقد خرجت من عندنا على صورة، ورجعت على غيرها.

فصل في سوق الجنة الذي ينصرفون إليه من ذلك المجلس

فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ قُومُوا إِلَى مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِنَ الإِحْسَانِ
يأْتُونَ سُوقًا لَا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى فِيهِ فَخُذْ مِنْهُ بِلَا أَثْمَانِ
قَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ أَثْمَانَ الْمَبِيـ ـعِ بِعَقْدِهِمْ فِي بَيعَةِ الرِّضْوَانِ
لِلَّهِ سُوقٌ قَدْ أَقَامَتْهُ الْمَلَا ئِكَةُ الْكِرَامُ بِكُلِّ مَا إِحْسَانِ
فِيهَا الَّذِي وَاللهِ لَا عَينٌ رَأَتْ كَلَّا وَلَا سَمِعَتْ بِهِ أُذُنَانِ
كَلَّا وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ امْرِئٍ فَيَكُونَ عَنْهُ مُعَبِّرًا بِلِسَانِ
فَيَرَى امْرَأً مِنْ فَوْقِهِ فِي هَيئَةٍ فَيَرُوعُهُ مَا تَنْظُرُ الْعَينَانِ
فَإِذَا عَلَيهِ مِثْلُهَا إِذْ لَيسَ يلْـ ـحَقُ أَهْلَهَا شَيءٌ مِنَ الأَحْزَانِ

وَاهًا لِذَا السُّوقِ الَّذِي مَنْ حَلَّهُ نَالَ التَّهَانِي كُلَّهَا بِأَمَانِ
يُدْعَى بِسُوقِ تَعَارُفٍ مَا فِيهِ مِنْ صَخَبٍ وَلَا غِشٌّ وَلَا أَيْمَانِ
وَتِجَارَةٌ مَنْ لَيسَ تُلْهِيهِ تِجَا رَاتٌ وَلَا بَيْعٌ عَنِ الرَّحْمَنِ
أَهْلُ الْمُرُوَّةِ وَالْفُتُوَّةِ وَالتُّقَى وَالذِّكْرِ لِلرَّحْمَنِ كُلَّ أَوَانِ
يَا مَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالسُّوقِ الَّذِي رُكِزَتْ لَدَيهِ رَايَةُ الشَّيطَانِ
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّوقِ لَمْ تَرْكَنْ إِلَى سُوقِ الْكَسَادِ الْفَانِي

الشرح: يعني: أن أهل الجنة بعد انتهاء زيارتِهم للرب -جل شأنه- يقول لَهم: قوموا إلَى ما ذخرت لكم من الكرامة. فينصرفون إلَى سوق لا بيع فيه ولا شراء، فتأخذ منها ما شئت بلا عوض، ولا ثمن؛ لأن التجار هناك قد دفعوا ثمن البيع مقدمًا عند مبايعتهم للرب -جل شأنه- كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية.

فللَّه در ذلك السوق الذي نصبته الملائكة لأولياء اللَّه وحزبه، كم فيه من تحف وهدايا، مِمَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويرى الرجل من هو أعلى منه منْزلة فِي هيئة من الحلي والحلل تروعه وتدهشه، ويتمنى لو كان له مثلها، فإذا هو قد ألبس منها؛ وذلك لأن الجنة ليست دار حزن، بل يجد الإنسان فيها كل ما يشتهي، فوا لهفتا على هذه السوق الَّتِي من ظفر بِها وصل إلَى منتهى البغية وأطيب الأمل.

وهو سوق تعارف بين أهل الجنة، فلا صخب، ولا غش، ولا أيمان فاجرة، ولا غير ذلك مما يجري فِي أسواق الدنيا.

روى الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة، فقال أبو هريرة: «أسأل اللَّه أن يجمع بيني وبينك فِي سوق الجنة. فقال سعيد: أوفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول اللَّه ﷺ: **«أن أهل الجنة إذا دخلوها، نزلوها بفضل أعمالهم، فيؤذن لَهم بِمقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون اللَّه -تبارك وتعالَى- فيبرز لَهم عرشه، ويتبدى لَهم فِي روضة من رياض الجنة، فيوضع لَهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ياقوت، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم -وما فيهم من دنيء- على كثبان المسك والكافور، ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا**. قال أبو هريرة: وهل نرى ربنا ﷻ؟ قال: **نعم، هل تمارون فِي رؤية الشمس**

والقمر ليلة البدر؟ قلنا: لا. قال: فكذلك لا تمارون فِي رؤية ربكم، ولا يبقى فِي ذلك المجلس أحد إلا حاضره اللَّه محاضرة، حَتَّى يقول: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ فيذكره ببعض غدراته فِي الدنيا، فيقول: بلى، ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبمغفرتي بلغت منْزلتك هذه.

قال: فبينما هم على ذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبًا، لَمْ يجدوا مثل ريحه شيئًا قط.

قال: ثُمَّ يقول ربنا -تبارك وتعالَى-: قوموا إلَى ما أعددت لكم من الكرامة، فخذوا ما اشتهيتم.

قال: فيأتون سوقًا قد حفت بِها الملائكة، فيها ما لَمْ تنظر العيون إلَى مثله، ولَمْ تسمع الآذان، ولَمْ يخطر على القلوب.

قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه ولا يشترى، وفِي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا.

قال: فيقبل ذو البزة المرتفعة، فيلقى من هو دونه -وما فيهم دني- فيروعه ما يرى عليه من اللباس والهيئة، فما ينقضي آخر حديثه حَتَّى يتمثل عليه أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها.

قال: ثُمَّ ننصرف إلَى منازلنا، فيلقانا أزواجنا، فيقلن: مرحبًا وأهلًا بحبنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فنقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ﷻ، ويحقنا أن ننقلب بِمثل ما انقلبنا».

فصل في حالهم عند رجوعهم إلى أهليهم ومنازلهم

فَـإِذَا هُـمُ رَجَـعُـوا إِلَـى أَهْـلِـيـهِـمُ ... بِـمَـوَاهِـبٍ حَـصُـلَـتْ مِـنَ الـرَّحْـمَـنِ

قَـالُـوا لَـهُـمْ أَهْـلًا وَرَحْـبًـا مَـا الَّـذِي ... أُعْـطِـيـتُـمُ مِـنْ ذَا الْـجَـمَـالِ الـثَّـانِـي

وَالـلـهِ لَازْدَدْتُـمْ جَـمَـالًا فَـوْقَ مَـا ... كُـنْـتُـمْ عَـلَـيْـهِ قَـبْـلَ هَـذَا الآنِ

قَـالُـوا وَأَنْـتُـمْ وَالَّـذِي أَنْـشَـاكُـمُ ... قَـدْ زِدْتُـمُ حُـسْـنًـا عَـلَـى الإِنْـسَـانِ

لَـكِـنْ يَـحِـقُّ لَـنَـا وَقَـدْ كُـنَّـا إِذَنْ ... جُـلَـسَـاءَ رَبِّ الْـعَـرْشِ ذِي الـرِّضْـوَانِ

فَهُمُو إِلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ أَشَدُّ شَوْ ... قًا مِنْ مُحِبٍّ لِلْحَبِيبِ الدَّانِي

الشرح: يعني: أن أهل الجنة حين يرجعون إِلَى أهليهم بعد زيارة الرب -تبارك وتعالَى- يقلن لهم: أهلًا ومرحبًا بحبنا، ما هذا الجمال الذي أضفى عليكم فوق ما كنتم عليه قبل مفارقتنا، لقد ازددتم فِي أعيننا جمالًا وحسنًا. فيقولون لَهن: وأنتن كذلك والذي أنشأكن، لقد ازددتن فِي أعيننا جمالًا وملاحة، لكننا يحق لنا أن نرجع إليكن بِهذه الصورة، فقد كنا قبل قليل جلساء رب العرش، فخلع علينا من نوره وجماله ما ملأ عيونكن وقلوبكن.

فأهل الجنة يشتاقون ليوم المزيد أشد مما يشتاق المحب لقرب حبيبه، وذلك لما يخلع اللَّه عليهم من كرامته.

روى مسلم فِي صحيحه من حديث ثابت البناني، عن أنس بن مالك، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن فِي الجنة لسوقًا يأتونَها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو فِي وجوههم وثيابِهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إِلَى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لَهم أهلوهم: واللَّه لقد ازددتم حسنًا وجمالًا. فيقولون: واللَّه وأنتم لقد ازددتم حسنًا وجمالًا**».

فصل في خلود أهل الجنة ودوام صحتهم ونعيمهم وشبابهم واستحالة النوم والموت عليهم

هَذَا وَخَاتِمَةُ النَّعِيمِ خُلُودُهُمْ ... أَبَدًا بِدَارِ الْخُلْدِ وَالرِّضْوَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ يُخْـ ... ـبِرُ عَنْ مُنَادِيهِمْ بِحُسْنِ بَيَانِ

لَكُمُ حَيَاةٌ مَا بِهَا مَوْتٌ وَعَا ... فِيَةٌ بِلَا سَقَمٍ وَلَا أَحْزَانِ

وَلَكُمْ نَعِيمٌ مَا بِهِ بُؤْسٌ وَمَا ... لِشَبَابِكُمْ هَرَمٌ مَدَى الأَزْمَانِ

كَلَّا وَلَا نَوْمٌ هُنَاكَ يَكُونُ ذَا ... نَوْمٌ وَمَوْتٌ بَيْنَنَا أَخَوَانِ

هَذَا عَلِمْنَاهُ اضْطِرَارًا مِنْ كِتَا ... بِ اللهِ فَافْهَمْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَالْجَهْمُ أَفْنَاهَا وَأَفْنَى أَهْلَهَا ... تَبًّا لِذَاكَ الْجَاهِلِ الْفَتَّانِ

طَرْدًا لِنَفْيِ دَوَامِ فِعْلِ الرَّبِّ فِي الْـ ... ـمَاضِي وَفِي مُسْتَقْبَلِ الأَزْمَانِ

وَأَبُو الْهُذَيْلِ يَقُولُ يَفْنَى كُلُّ مَا ... فِيهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ لِلسُّكَّانِ
وَتَصِيرُ دَارُ الْخُلْدِ مَعْ سُكَّانِهَا ... وَثِمَارِهَا كَحِجَارَةِ الْبُنْيَانِ
قَالُوا وَلَوْلَا ذَاكَ لَمْ يَثْبُتْ لَنَا ... رَبٌّ لأَجْلِ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ
فَالْقَوْمُ إِمَّا جَاحِدُونَ لِرَبِّهِمْ ... أَوْ مُنْكِرُونَ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

الشرح: هذا وتمام نعيم أهل الجنة خلودهم فيها، وبقاؤهم أبد الآباد، ولا يفنون، ولا يخرجون، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، فإن الآيات والأحاديث فِي هذا الباب من الكثرة والصراحة بحيث لا تقبل جدلًا ولا تأويلًا، كقوله تعالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧]. ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]. إلَى غير ذلك من الآيات الَّتِي لا تحصى كثرة.

وعن أبِي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يأهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون، وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. ثُمَّ يقال: يأهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون، وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ثُمَّ يقال: يأهل الجنة، خلود فلا موت، ويأهل النار، خلود فلا موت. ثُمَّ تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]**».

قال المؤلف فِي «حادي الأرواح»: «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأً قبيحًا، وقال: الموت عرض، والعرض لا يتجسم، فضلًا عن أن يذبح. وهذا لا يصح، فإن اللَّه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورًا معاينة يثاب بِها ويعاقب، واللَّه تعالَى ينشئ من الأعراض أجسامًا، تكون الأعراض مادة لَهَا، وينشئ من الأجسام أعراضًا، كما ينشئ سبحانه من الأعراض أعراضًا، ومن الأجسام أجسامًا، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالَى». اهـ.

وأهل الجنة كذلك فِي عافية دائمة، لا تصيبهم الآفات، ولا الأمراض، ولا الآلام والأوصاب، كما قال تعالَى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]. ونعيمهم

باق، فلا يلحقهم بؤس ولا شقاء، وشبابُهم لا يفنى، ولا يحول، ولا تنسخه شيخوخة ولا فناء، وهم كذلك لا ينامون، فإن النوم والموت فيما بيننا أخوان.

روى ابن مردويه من حديث سفيان الثوري، عن مُحمَّد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول اللَّهﷺ: «**النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون**».

وهذا الذي ذكرناه من دوام حياة أهل الجنة، ونعيمهم، وسرورهم، وشبابِهم، وانتفاء الموت، والنوم، والأسقام، والأحزان، والتعب، والنصب عنهم؛ هو ما علم بالاضطرار من كتاب اللَّه وسنة نبيهﷺ.

ولكن جهمًا -قبحه اللَّه- قضى بفناء الجنة وأهلها؛ محتجًا بأن كل ما له ابتداء لابد أن يكون له انتهاء، وبأن التسلسل فِي الحوادث كما هو ممتنع فِي الماضي، فكذلك فِي المستقبل، فلابد أن يأتي وقت لا يكون فيه إلا اللَّه ﷻ وحده، وتفنى الجنة والنار وأهلهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام الَّتِي استدلوا بِها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لَمْ يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتَهم فِي حدوث العالم، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لَهَا فِي الماضي؛ يمنع فِي المستقبل، فدوام الفعل عنده ممتنع على الرب -تبارك وتعالَى- فِي المستقبل كما هو ممتنع عليه فِي الماضي، وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات؛ لكونِها متعاقبة شيئًا بعد شيء، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حَتَّى يصيروا فِي سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة».

وقال الجهم وأبو الهذيل ومن وافقهما فِي امتناع دوام فاعلية الرب فِي الماضي والمستقبل جميعًا: إنه لولا القول بحدوث العالم، وامتناع التسلسل لما كان لنا طريق إلَى إثبات وجود اللَّه ﷻ، فإن إثباته إنَّما هو من طريق حدوث العالم المحوج له إلَى محدث يخرجه من العدم إلَى الوجود، فوقعوا بِهذا بين أمرين أحلاهما مر:

فهم إما جاحدون منكرون لوجود اللَّه تعالَى.

وإما منكرون لحقائق الإيمان الثابتة المعلوم ثبوتُها بالضرورة.

* * *

فصل في ذبح الموت بين الجنة والنار والرد على من قال إن الذبح لملك الموت وان ذلك مجاز لا حقيقة له

أَوَمَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلْمَوْتِ بَيـ ... نَ الْمَنْزِلَينِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّانِ
حَاشَى لِذَا الْمَلَكِ الْكَرِيمِ وَإِنَّمَا ... هُوَ مَوْتُنَا الْمَحْتُومُ لِلإِنْسَانِ
وَاللَّهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشًا أَمْلَحًا ... يَوْمَ الْمَعَادِ يُرَى لَنَا بِعِيَانِ
يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَذَا ... بِالْعَكْسِ كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ
أَفَمَا تُصَدِّقُ أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَا ... دِ تُحَطُّ يَوْمَ الْعَرْضِ فِي الْمِيزَانِ
وَكَذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْـ ... رَى ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ
وَلَهُ لِسَانٌ كِفَّتَاهُ تُقِيمُهُ ... وَالْكِفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ
مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا بَلْ هُوَ الْـ ... مَحْسُوسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيمَانِ
أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ تَسْبِيحَ الْعِبَا ... دِ وَذِكْرَهُمْ وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ
يُنْشِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ فِي صُوَرٍ يُجَا ... دِلُ عَنْهُ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَوْلَ عَرْ ... شِ الرَّبِّ ذُو صَوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ
يَشْفَعْنَ عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَيُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِ الإِحْسَانِ
أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ مُؤْنِسٌ ... فِي الْقَبْرِ لِلْمَلْفُوفِ فِي الأَكْفَانِ
فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الْجَمِيلِ الْوَجْهِ فِي ... سِنِّ الشَّبَابِ كَأَجْمَلِ الشُّبَّانِ
أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَا نَتْلُوهُ فِي ... أَيَّامِ هَذَا الْعُمْرِ مِنْ قُرْآنِ
يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الْحَشْرِ لِلرْ ... رَحْمَنِ كَي يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ
فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ شَاحِبٌ ... يَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّفِيعُ الدَّانِي

الشرح: تقدم حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في أنه: **«يُجاء بالموت على هيئة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يأهل الجنة، خلود فلا موت، ويأهل النار، خلود فلا موت»**.

وقد ذكرنا كلام المؤلف رحمه الله في أن الذي يذبح هو الموت حقيقة، بأن ينشئ الله منه صورة كبش، وليس هذا بممتنع على قدرة الله، فهي صالحة لأن تنشئ من الأعراض

أجسامًا وبالعكس؛ لأن ذلك كله ممكن مقدور، وقد وردت النصوص الكثيرة بانقلاب بعض الأعراض أجسامًا، فمن ذلك أعمال العباد الَّتِي عملوها فِي الدنيا من خير وشر، توضع يوم القيامة فِي ميزان حقيقي له لسان وكفتان، وتوصف حينئذ بالخفة أو الرجحان، قال تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ومعلوم أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، ولكن اللَّه سبحانه يحولها يوم القيامة أعيانًا محسوسة.

ومن ذلك أيضًا: أن ما يقع من العبد من تسبيح وذكر للَّه وقراءة للقرآن ينشئه اللَّه فِي صور طير لَهَا دوي ودوران حول العرش، تجادل عن صاحبها يوم القيامة.

ومن ذلك: ما تقدم فِي حديث البراء بن عازب من أن عمل المؤمن يجيئه فِي قبره فِي صورة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، ويقول له: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت فوجهك الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح. ويكون مؤنسًا له فِي قبره، وعمل الكافر بعكس ذلك.

ومن ذلك: أن ما نتلوه من القرآن فِي الدنيا يأتي يوم القيامة فِي صورة رجل شاحب اللون، يجادل عن صاحبه لكي ينجيه من النار، فيا حبذا القرآن من شفيع مقرب، نسأل اللَّه ﷻ أن يجعلنا من أهل شفاعته.

* * *

أَوَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى ... فِـي سُـورَتَـيـنِ مِـنَ اوَّلِ الْـقُـرْآنِ

فَـرْقَـانِ مِـنْ طَـيـرٍ صَـوَافٍ بَـيـنَـهَـا ... شَـرْقٌ وَمِـنْـهُ الـضَّـوْءُ ذُو تِـبْـيَـانِ

شَبَّـهْـهُـمَـا بِـغَـمَـامَـتَـينِ وِإنْ تَـشَـأْ ... بِـغَـيَـابَـتَـيـنِ هُـمَـا لِـذَا مَـثَـلَانِ

هَـذَا مِـثَـالُ الأَجْـرِ وَهْـوَ فِـعَـالُـنَـا ... كَـتِـلَاوَةِ الْـقُـرْآنِ بِـالإحْـسَـانِ

فَـالْـمَـوْتُ يُـنْـشِـيـهِ لَـنَـا فِـي صُـورَةٍ ... خَـلَّاقُـهُ حَـتَّـى يُـرَى بِـعِـيَـانِ

وَالْمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الْوَحْيِ وَالْـ ... ـمَـخْـلُـوقُ يَـقْـبَـلُ سَـائِـرَ الأَلْـوَانِ

فِـي نَـفْـسِـهِ وَبِـنَـشْـأَةٍ أُخْـرَى بِـقَـدْ ... رَةِ قَـالِـبِ الأَعْـرَاضِ وَالأَلْـوَانِ

أَوَمَا سَمِعْتَ بِقَلْبِهِ سُبْحَانَهُ الْـ ... أَعْـيَـانَ مِـنْ لَـوْنٍ إِلَـى أَلْـوَانِ

وَكَـذَلِـكَ الأَعْـرَاضُ يَـقْـلِـبُ رَبُّـهَـا ... أَعْـيَـانَـهَـا وَالْـكُـلُّ ذُو إِمْـكَـانِ

لَمْ يفْهَمِ الْجُهَّالُ هَذَا كُلَّهُ ... فَأَتَوْا بِتَأْوِيلَاتِ ذِي الْبُطْلَانِ
فَمُكَذِّبٌ وَمُؤَوِّلٌ وَمُحَيَّرٌ ... مَا ذَاقَ طَعْمَ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ
لَمَّا فَسَا الْجُهَّالُ فِي آذَانِهِ ... أَعْمَوْهُ دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ
فَثَنَى لَنَا الْعِطْفَينِ مِنْهُ تَكَبُّرًا ... وَتَبَخْتُرًا فِي حُلَّةِ الْهَذَيَانِ
إِنْ قُلْتَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فَيقُولُ جَهْلًا أَيْنَ قَوْلُ فُلَانِ

الشرح: جاء فِي الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ: «**أن البقرة وآل عمران تجيئان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، تحاجان عن قارئهما يوم القيامة**». و«أو» هنا ليست للشك من الراوي، ولكنها من كلامه ﷺ للتخيير.

والمعنَى: إن شئت شبهتهما بِهذه أو تلك، فهما مثلان لا مثل واحد.

وقوله: «**أو فرقان من طير صواف**»: مثل ثالث.

وإذا ثبت أن الأعمال والقراءة وغيرهما من الأعراض يقلبها اللَّه أعيانًا توزن وتجيء وتتكلم؛ فلا مانع أبدًا أن ينشئ اللَّه الموت الذي هو عرض فِي صورة كبش حَتَّى يراه أهل الجنة والنار؛ ليزداد أهل الجنة فرحًا، وليزداد أهل النار غمًّا ويأسًا، فالموت مخلوق بنص القرآن، قال تعالَى من سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ولا شك أن المخلوق قابل فِي نفسه لكل أنحاء الوجود، وقابل أيضًا لأن ينشئه اللَّه نشأة أخرى، فيحيله من عرض إلَى جسم، ومن جسم إلَى عرض، بل قد قال بعض المتكلمين كالنظام: إن الجسم مجموعة من الأعراض.

ومنهم من رأى أن الأعراض من اللون والطعم والرائحة أجسام، فلا يمتنع على قدرة الخالق -جل شأنه- التصرف فِي عالم الإمكان بِما يشاؤه من الصور والألوان.

ولكن الجهلة الأغبياء لَمْ يقدروا اللَّه حق قدره، وظنوا أن قلب الأعيان محال، فأتوا بتأويلات باطلة متكلفة لكل ما قدمنا من النصوص، فمنهم من كذب بِها، ومنهم من اشتغل بتأويلها، ومنهم من بقي متحيرًا لا يدري ما يقول؛ لأن ترهات الجهال ملأت أذنه، فأعمته عن تفهم القرآن وتدبره، وهو مع ذلك يظن أنه على شيء من العلم، فيمشي تياهًا متكبرًا، يختال فِي حلل جهله وهذيانه، وإذا احتج له بِما قال اللَّه ﷻ فِي كتابه، وبِما قاله رسوله ﷺ؛ لَمْ يقنعه هذا، وراح يسأل عما قاله فلان وفلان؛ لأن آراء الناس عنده مقدمة على ما جاء به الوحيان، فما أقبح الجهل والغرور بالإنسان.

فصل في أن الجنة قيعان وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح

أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا الْقِيعَانُ فَاغْـ رِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الْفَانِي
وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ تَحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ
تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ
يَا مَنْ يُقِرُّ بِذَا وَلَا يَسْعَى لَهُ بِاللهِ قُلْ لِي كَيفَ يَجْتَمِعَانِ
أَرَأَيتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ الْبُسْتَانِ
وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا تَرْجُو الْمُغِلَّ يكُونُ كَالْكِيمَانِ
مَا قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدُهُ هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَتَأَمَّلِ الْبَاءَ الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ سَبَبَ الْفَلَاحِ لِحِكْمَةِ الْفُرْقَانِ
وَأَظُنُّ بَاءَ النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ذَاكَ الْحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيخَانِ
لَنْ يدْخُلَ الْجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ
وَاللهِ مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ وَالْكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ
لَكِنَّ بِالإِثْبَاتِ وَالتَّسْبِيبِ وَالْـ بَاءِ الَّتِي لِلنَّفْيِ بِالأَثْمَانِ
وَالْفَرْقُ بَينَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ الْعِرْفَانِ

الشرح: يعني: أن الجنة أرض مستوية ليس فيها غراس، وأن الإنسان بسعيه وعمله فِي أيام عمره يغرس لنفسه ما يشاء، وقد ورد أن غراسها: «سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر». فهذه الكلمات الأربع ورد الحديث الصحيح بأنَّها أفضل الكلام بعد القرآن، وهنَّ من القرآن، وصح أيضًا أنَّها الباقيات الصالحات الَّتِي يقول اللَّه ﷻ فِي شأنِها: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فالويل لمن أهمل أن يغرس لنفسه فِي أيام قدرته وإمكانه، لقد ضيع على نفسه أعظم فرصة!

فيا من يؤمن إيمانًا جازمًا بأنه سيجني هناك ما قدم لنفسه هنا، ثُمَّ لا يسعى لذلك سعيه، ولا يهتم له اهتمامه بأمر دنياه، قل لي بربك: كيف يجتمع إيمان وإهمال؟! أرأيت لو كان لك بستان، فعطلته من الغراس؛ هل كنت تجني منه شيئًا؟! وكذلك لو كان لك أرض،

فعطلتها من البذر؛ فهل كنت ترجو أن تغل لك غلة كثيرة؟! ما قال اللَّه هذا، ولا قاله رسوله ﷺ بل جعل اللَّه الأعمال سببًا للجزاء، وجعل الجزاء من جنس العمل وعلى وفاقه وقدره، قال تعالَى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤]. ولا تعارض بين هذا وبين ما قاله الرسول -عليه الصلاة والسلام- فيما رواه عنه الشيخان: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**. فقيل له: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ فقال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل**».

فإن «باء» الإثبات فِي مثل الآية السابقة هي «باء» السبب، فالأعمال أسباب فقط فِي دخول الجنة، و«باء» النفي الَّتي فِي الحديث للمقابلة، يعني: أن الأعمال لا تصلح أن تكون ثمنًا للجنة، ولا سببًا لدخولها، لولا فضل اللَّه ورحمته.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «حادي الأرواح»: «وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه: وهو أن الجنة إنَّما تدخل برحمة اللَّه تعالَى، وليس عمل العبد مستقلًّا بدخولها، وإن كان سببًا؛ ولِهذا أثبت اللَّه دخولها بالأعمال فِي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ونفى رسول اللَّه ﷺ دخولها بالأعمال بقوله: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**». ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو اللَّه، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثاني: أن الباء الَّتي نفت الدخول هي باء المعاوضة، الَّتي يكون فيها أحد العوضين مقابلًا للآخر، والباء الَّتي أثبتت الدخول هي باء السببية، الَّتي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لَمْ يكن مستقلًّا بحصوله، وقد جمع النَّبِيُّ ﷺ بين الأمرين بقوله: «**سددوا، وقاربوا، وأبشروا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجو بعمله**. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته**».

ومن عرف اللَّه تعالَى، وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك، وجزم به، واللَّه ﷻ المستعان.

* * *

فصل في إقامة المأتم على المتخلفين عن رفقة السابقين

بِاللهِ مَا عُذْرُ امْرِئٍ هُوَ مُؤْمِنٌ حَقًّا بِهَذَا لَيسَ بِالْيقْظَانِ
بَلْ قَلْبُهُ فِي رَقْدَةٍ فَإِذَا اسْتَفَا قَ فَلُبْسُهُ هُوَ حُلَّةُ الْكَسْلَانِ
تَاللهِ لَوْ شَاقَتْكَ جَنَّاتُ النَّعِيـ ـم طَلَبْتَهَا بِنَفَائِسِ الأَثْمَانِ
وَسَعَيتَ جَهْدَكَ فِي وِصَالِ نَوَاعِمٍ وَكَوَاعِبٍ بِيضِ الْوُجُوهِ حِسَانِ
جُلِيتْ عَلَيكَ عَرَائِسٌ وَاللَّهِ لَوْ تُجْلَى عَلَى صَخْرٍ مِنَ الصَّوَّانِ
رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَعَادَ لِوَقْتِهِ ينْهَالُ مِثْلَ نَقًا مِنَ الْكُثْبَانِ
لَكِنَّ قَلْبَكَ فِي الْقَسَاوَةِ جَازَ حَدْ دَ الصَّخْرِ وَالْحَصْبَاءِ فِي أَشْجَانِ
لَوْ هَزَّكَ الشَّوْقُ الْمُقِيمُ وَكُنْتَ ذَا حِسٍّ لَمَا اسْتَبْدَلْتَ بِالأَهْوَانِ
أَوْ صَادَفَتْ مِنْكَ الصِّفَاتُ حَيَاةَ قَلْـ ـبٍ كُنْتَ ذَا طَلَبٍ لِهَذَا الشَّانِ
خُودٌ تُزَفُّ إِلَى ضَرِيرٍ مُقْعَدٍ يَا مِحْنَةَ الْحَسْنَاءِ بِالْعُمْيَانِ
شَمْسٌ لِعِنِّينٍ تُزَفُّ إِلَيهِ مَا ذَا حِيلَةُ الْعِنِّينِ فِي الْغَشَيَانِ

الشرح: بعد أن أفاض المؤلف فِي وصف الجنان وعرائسها من الحور العين، وأتى فِي ذلك بِما يَهز الشوق، ويثير الأشجان، ويطير بالأرواح إلا بلاد الأفراح، الَّتِي صاغها ربنا -جل وعلا- لأوليائه، فأحسن صوغها، ونقاها من كل دنس، وصفاها من كل كدر، ووفر لَهم فيها كل رفاهية ومتعة لأبدانِهم، فِي المطاعم والمشارب والمناكح والملابس والمناظر البهيجة والملك الكبير، وكل سرور ولذة لأرواحهم وقلوبِهم برضوانه، والنظر إلَى وجهه.

وما أروع قوله ﷺ فِي وصف الجنة فيما رواه عنه أسامة رضي الله عنه: **«ألا هل من مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خَطَرَ لَهَا، وهي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تَهتز، وقصر مشيد، ونَهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فِي أبد فِي دار سليمة، وفاكهة وخضر، وحبرة ونعمة فِي محلة عالية بَهية»**.

أقول: بعد أن صاغ المؤلف هذه الأبيات من أشواق قلبه، ونظمها من فيض عواطفه وآهات وجده -قال: أي عذر لمن صدق بِهذا النعيم والبهجة والعاقبة الحميدة الحسنة، ثُمَّ

ظل قلبه فيما هو فيه من رقدة وغفلة، فإذا أفاق وصحا، لَمْ يصح إِلَى جد وتشمير وعمل، بل إِلَى خمود وبلادة وكسل، أليس هذا دليلًا على جمود قلبه ويبسه، وأنه لَمْ يتحرك فيه الشوق إِلَى بلوغ هاتيك المنازل الرفيعة والجنات الناعمة، إذ لو شاقته لَبَذَل فِي سبيلها كل غال ونفيس، وسعى جهده فِي وصال عرائسها المجلوة الناعمات، وكواعبها البيض الفاتنات، اللائي يتفجرن شبابًا، ويتألقن جمالًا، ويفضن رقة وعذوبة، واللائي لو جليت صفاتِها ومحاسنها لجلمود صخر لرقَّت جوانبه، وعاد من فوره كثيبًا مهيلًا.

لكن القلوب أصبحت فِي قساوتِها وجمودها ويبسها أشد من الصخر، فلا تَهتز بشوق، ولا تتحرك بعاطفة؛ إذ لو هزك الشوق، وكنت ذا حس مرهف لما تعوضت عن هذا النعيم الأعلى بالحقير الدون من متاع هذه العاجلة، ولو صادفت منك هذه الصفات قلبًا ينبض بالحياة والحركة، ويدرك مقدار هذا المطلوب الأعظم؛ لجد غاية الجد فِي طلبه، وسعى إِلَى تحصيله بكل ممكن، وإلا فهل يليق بتلك الخود أن تزف إِلَى ضرير مقعد، فما أشد حينئذ محنتها به، وما أنكد عيشها معه، وهل يليق بشمس تتفجر حياة وبضاضة أن تزف إِلَى عنِّين، لا حركة له، ولا شهوة؟! كلا واللَّه، لن تزف هذه الشموس إلا لخطابِها الحقيقيين، الذين دفعوا أثمانَها غالية، وقدموا لهن المهور المجزية.

* * *

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الْكَسْلَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيس ينَالُهَا ... فِي الأَلْفِ إلَا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَاذَا كُفْؤُهَا ... إلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الإيمَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ ... بَيْنَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الْحَيَوَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَينَ الْمُشْتَرِي ... فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيسَرِ الأَثْمَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِن خَاطِبٍ ... فَالْمَهْرُ قَبْلَ الْمَوْتِ ذُو إمْكَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيفَ تَصَبُّرُ الْـ ... خُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إيمَانِ

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَوْلَا أَنَّهَا ... حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الإنْسَانِ

مَا كَانَ عَنْهَا قَطُّ مِنْ مُتَخَلِّفٍ ... وَتَعَطَّلَتْ دَارُ الْجَزَاءِ الثَّانِي

لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... لِيُصَدَّ عَنْهَا الْمُبْطِلُ الْمُتَوَانِي

وَتَنَالُهَا الْهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إلَى ... رَبِّ الْعُلَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

الشرح: صح عن رسول اللَّهﷺ أنه قال: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنْزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**».

فالمؤلف يخاطب سلعة الرحْمن الَّتِي هي جنته بأنَّها ليست رخيصة مبتذلة، ولا مزهودًا فيها، بل هي غالية جدًّا على أهل الكسل والبلادة، الذين لَمْ يقدموا من السعي ما يرشحهم للظفر بِها، وهي لعلوها وتمنعها وغلاء مهرها لا يستطيع أن ينالها من كل ألف إلا واحد فقط، كما ورد فِي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه ﷻ يقول لآدم ﷺ: يا آدم، اذهب فأخرج بعث ذريتك إلَى النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**».

وليس من خاطب كفوء لسلعة اللَّه الغالية، بل لا ينالها من عباده إلا أولو التقوى والإيمان، فهما ثمنها الذي لا تنال إلا به من دون سائر الأثمان، ولكنها سلعة بائرة عند الأخساء من أهل الكفر والفجور والعصيان.

فيا سلعة الرحْمن أين مشتريك، فقد عرضك مولاك بأيسر الأثمان، ولكنه ليس يسيرًا إلا على كل موفق ذي ثقة، ولا يستطيعه أهل الخيبة والخذلان، وأين خطابك الذين يقدمون لك المهر فِي حال الحياة، فإنه قبل الموت ذو إمكان؟ وكيف سلو هؤلاء الخطاب واصطبارهم عنك، إذا كانوا بك ذوي إيمان؟! فواللَّه لولا أنك حففت بالمكاره والشدائد لما تخلف عنك إنسان، ولتعطلت النار الَّتِي هي دار الجزاء الثاني، وخلت من السكان، ولكن اللَّه حجبك بكل كريهة، حَتَّى لا يطيقك إلا كل مشمر مقدام، غير متوان ولا جبان، وحَتَّى يعرض عنك كل مبطل كسلان، وهل ينالك فِي علاك إلا كل عالي الهمة، غير مخلد إلَى الأرض والحطام الفاني، بل ساعيًا إلَى ربه بمشيئة الرحْمن؟!

* * *

فَاتْعَبْ لِيوْمِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّانِ نَفْسُكَ فَاتَّهِمْـ ... ـهَا ثُمَّ رَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيلَ بَعْدُ وَصُبْحُهُ ... مَا انْشَقَّ عَنْهُ عَمُودُهُ لأَذَانِ

وَالنَّاسُ قَدْ صَلُّوا صَلاَةَ الصُّبْحِ وَانْـ ... ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعَينَ قَدْ عَمِيتْ فَنَا ... شِدْ رَبَّكَ الْمَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ

وَاسْأَلْهُ إِيمَانًا يبَاشِرُ قَلْبَكَ الْـ ... ـمَحْجُوبَ عَنْهُ لِتَنْظُرَ الْعَينَانِ

وَاسْأَلْهُ نُورًا هَادِيًا يَهْدِيكَ فِي ... طُرُقِ الْمَسِيرِ إِلَيهِ كُلَّ أَوَانِ

وَاللهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... لَعَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ
لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلَاخَ الْقَلْبِ مِنْ ... تَحْكِيمِ هَذَا الْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا ... لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

الشرح: وإذا كانت الجنة لا ينالها إلا من شمر لَهَا، وسعى لَهَا سعيها، وجد فِي طلبها؛ فكن ممن يؤثر الآجلة على العاجلة، ويتحمل كل ما يصادفه فِي سيره إلَى اللَّه من المتاعب والآلام إلَى يوم معاده القريب بالموت، لتعقبه الراحة الكبرى يوم معاده الثاني بالبعث والنشور، وإذا استعصت عليك نفسك، وأبت إلا الركون والإخلاد إلَى عرض هذا الأدنى، ولَمْ ترد إلا الحياة الدنيا، فأسئ بِها الظن واتَّهمها، وامتحن إيمانك، فلعله أن يكون مدخولًا، فإذا رأيت نفسك لا تزال تعيش فِي ليل لَمْ ينشق فجره، ولَمْ يسفر صبحه، والناس من حولك قد صلوا صلاة الصبح، وأخذوا يرقبون طلوع الشمس، فاعلم بأن عينك قد أصابَها العمى، وجعلت عليها غشاوة تمنعها من الرؤية، فاضرع إلَى ربك ذي الكرم والجود، واسأله أن يَهبك إيمانًا صادقًا يباشر قلبك، حَتَّى تنفتح عيناك على الحق، وترى الأشياء رؤية صحيحة، واسأله نورًا يَهديك وأنت سائر إليه، حَتَّى لا تضل، ولا تعوج، فليس الخوف على العبد من ذنوب يلم بِها، فإنَّها مهما عظمت فِي معرض العفو والمغفرة، ولكن الخوف كل الخوف من أن يزيغ قلبه، فيخرج عن تحكيم الكتاب والسنة، ولا يرضى بحكمهما، بل يرضى بآراء الرجال وظنونِهم الكاذبة، فلا قَدَّر اللَّه علينا ذلك بفضله ورحمته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

فَبِأَيِّ وَجْهٍ أَلْتَقِي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الْوَحْيِ طُولَ زَمَانِ
وَعَزَلْتُهُ عَمَّا أُرِيدَ لأَجْلِهِ ... عَزْلًا حَقِيقِيًّا بِلَا كِتْمَانِ
صَرَّحْتُ أَنَّ يَقِينَنَا لَا يُسْتَفَا ... دُ بِهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ
أَوْلَيْتُهُ هَجْرًا وَتَأْوِيلًا وَتَحْـ ... رِيفًا وَتَفْوِيضًا بِلَا بُرْهَانِ
وَسَعَيْتُ جَهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ ... بِعُرَاهُ لَا تَقْلِيدَ رَأْيِ فُلَانِ
يَا مُعْرِضًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ وَقَدْ ... جَدَّ الْمَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِ
جَذْلَانُ يَضْحَكُ آمِنًا مُتَبَخْتِرًا ... فَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ

خَلَعَ السُّرُورُ عَلَيهِ أَوْفَى حُلَّةٍ ... طَرَدَتْ جَمِيعَ الْهَمِّ وَالأَحْزَانِ

يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الْمَسَرَّةِ نَاسِيًا ... مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الأَكْفَانِ

مَا سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ الْعَيشِ فِي الدْ ... دُنْيَا وَلَوْ أَفْضَى إِلَى النِّيرَانِ

قَدْ بَاعَ طِيبَ الْعَيشِ فِي دَارِ النَّعِيـ ... ـمِ بِذَا الْحُطَامِ الْمُضْمَحِلِّ الْفَانِي

إِنِّي أَظُنُّكَ لَا تُصَدِّقُ كَوْنَهُ ... بِالْقُرْبِ بَلْ ظَنٌّ بِلَا إِيقَانِ

بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوا جَنَّةٌ ... أَيضًا وَنَارٌ بَلْ لَهُمْ قَوْلَانِ

وَالْوَقْفُ مَذْهَبُكَ الَّذِي تَخْتَارُهُ ... وَإِذَا انْتَهَى الإِيمَانُ لِلرُّجْحَانِ

أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيهِ وَقَالَتِ النْـ ... ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشَّيطَانِ

أَتَبِيعُ نَقْدًا حَاصِلًا بِنَسِيئَةٍ ... بَعْدَ الْمَمَاتِ وَطَيِّ ذِي الأَكْوَانِ

لَوْ أَنَّهُ بِنَسِيئَةِ الدُّنْيَا لَهَا ... نَ الأَمْرُ لَكِنْ فِي مَعَادٍ ثَانِ

دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ وَخُذْ ... مَا قَدْ رَأَيتَ مُشَاهِدًا بِعِيَانِ

الشرح: يعرض المؤلف فِي هذه الأبيات الأولى بخصومه الذين أعرضوا عن حكم الوحي، ورضوا بالتقليد والتبعية الذليلة، وعزلوا نصوص الوحي عما أريد بها من الإرشاد والبيان عزلًا حقيقيًّا، صرحوا به بلا حياء ولا كتمان، وقالوا: إنَّها ظواهر لفظية، لا يستفاد منها الإيقان، وهي خطابيات لَمْ تَسْمُ إِلَى درجة البرهان. فأوسعوها هجرًا وتعطيلًا، وساموها تحريفًا وتأويلًا، وتفويضًا وتجهيلًا بلا بينة ولا برهان، ولَمْ يكتفوا بذلك الجرم الشنيع، ولا بالجناية على النصوص، بل سعوا كذلك جهدهم فِي عقوبة أهلها المتمسكين بها، الذين ربئوا بأنفسهم عن مهانة التقليد ولَمْ يقبلوا، وقد خلقهم اللَّه أحرارًا أن يكونوا من جملة العبيد.

ثُمَّ يلتفت بعد ذلك إِلَى أهل الغرور والغفلة، الذين مد لَهم الشيطان فِي حبل الأماني والأمان، فأذهلهم عما يراد بِهم، وعن قافلة الحياة الَّتِي تسير بِهم، فتطوي أعمارهم طيًّا، وتدنيهم من نِهايتهم، ترى الواحد منهم يمشي بين الناس جذلان ضاحكًا ملء شدقيه، متبخترًا فِي حلله مزهوًّا بنفسه، كأنه قد أمن العاقبة، واتخذ عند اللَّه عهدًا ألَّا يعذبه، وتراه دائمًا مفعمًا بالسرور والنشوة، خالي القلب من جَميع الهموم والأحزان عاكفًا على سروره ولهوه، غير مفكر فِي عاقبة أمره، كل همه وسعيه إنَّما هو فِي هناءة هذا العيش ورغده ولو أفضى به إِلَى جهنم فِي غده، فهو قد باع حظه من نعيم الجنة وصفو سرورها بمتاع هذه الحياة

القليل، الذي لا يلبث أن يتلاشى ويزول، والظن بِهذا الأحمق الغرير أنه لَمْ يصدق بقرب وقوع ما وعد به من الثواب، وأوعد به من العقاب، بل هو ممن قال اللَّه خبرًا عنهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

بل هو قد سمع الناس يذكرون الجنة والنار، وقد افترقوا فِي شأنِهما بين كفر وإيمان، فاختار الوقف له مذهبًا، فلا صدق، ولا كذب، بل وقف متحيرًا مؤثرًا للأدنى على الأعلى، تزين له نفسه السوء، وتمد له فِي حبل الغرور، وتركب له من منطقها السقيم قياسًا فاسدًا غير مستقيم، وتقول له: أتبيع ما فِي يدك من لهو الحياة ومتعها بشيء بينك وبينه أهوال ثقال وآماد طوال؟! فهو لا يجيء إلا بعد الموت، وخراب هذه الدنيا، وحصول نشأة أخرى، لا يدرى ماذا سيكون من حالك فيها، فلو أن هذا الجزاء الآجل يحصل فِي الدنيا، لهان الأمر، وخف البيع على ما فيه من مخاطرة، ولكن كيف الإقدام، وهذا الجزاء إنَّما يتم فِي حياة آخرة، فدع ما يقوله الناس، ويمنون به أنفسهم، واقطف زهرة هذه الحياة، واطرح ذكر العواقب جانبًا، فإن هذا بيع ظاهر غبنه، غير مأمون العاقبة.

* * *

وَاللهِ لَوْ جَالَسْتَ نَفْسَكَ خَالِيًا ... وَبَحَثْتَهَا بَحْثًا بِلَا رَوَغَانِ

لَرَأَيتَ هَذَا كَامِنًا فِيهَا وَلَوْ ... أَمِنَتْ لَأَلْقَتْهُ إِلَى الآذَانِ

هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اخْـ ... ـتَارَتْ عَلَيهِ الْعَاجِلَ الْمُتَدَانِ

نَقْدٌ قَدِ اشْتَدَّتْ إِلَيهِ حَاجَةٌ ... مِنْهَا وَلَمْ يَحْصُلْ لَهَا بِهَوَانِ

أَتَبِيعُهُ بِنَسِيئَةٍ فِي غَيرِ هَـ ... ـذِي الدَّارِ بَعْدَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

هَذَا وَإِنْ جَزَمَتْ بِهَا قَطْعًا وَلَـ ... ـكِنْ حَظُّهَا فِي حَيِّزِ الإِمْكَانِ

مَا ذَاكَ قَطْعِيًّا لَهَا وَالْحَاصِلُ الْـ ... ـمَوْجُودُ مَشْهُودٌ بِرَأْيِ عِيَانِ

فَتَأَلَّفَتْ مِنْ بَينِ شَهْوَتِهَا وَشُبْـ ... ـهَتِهَا قِيَاسَاتٌ مِنَ الْبُطْلَانِ

وَاسْتَنْجَدَتْ مِنْهَا رَضًا بِالْعَاجِلِ الْـ ... أَدْنَى عَلَى الْمَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانِ

وَأَتَى مِنَ التَّأْوِيلِ كُلُّ مُلَائِمٍ ... لِمُرَادِهَا يَا رِقَّةَ الإِيمَانِ

الشرح: وهذا الذي تعلله به النفس من باطل هذا العيش وغروره، ومطالبتها إياه أن يحرص عليه، وألَّا يضحى به فِي سبيل آجل غير مضمون؛ ليس أمرًا فرضيًّا تقديريًّا، بل لو أنه خلا بنفسه، وبحث أغوارها فِي غير مخادعة؛ لوجده مستقرًّا فِي أعماقها، ولكنها تخفيه

خوفًا من الاتِّهام بالإلحاد والزندقة، ولو أنَّها أمنت لتحدثت به فِي غير مواربة ولا خفاء، وهذا هو حقيقة السر الذي جعلها تختار هذا العاجل القريب على المؤمل البعيد، فهو متاع حاضر قد اشتدت رغبتها فيه، وتعبت فِي تحصيله، فكيف تطيب أن تبيعه بنسيئة، لا فِي هذه الدنيا، ولكن فِي دار أخرى لا تجيء إلا بعد فناء هذه الأجسام، وقيامها من قبورها فِي نشأة أخرى؟!.

هذا ولو أنَّها جزمت بوجود هذا النعيم فِي العقبى، لكنها لا تدري إن كانت ستكون من أهله أم لا، فنصيبها منه غير مقطوع به، بل هو فِي حيز الإمكان، فكيف يقاس عندها بالحاصل الموجود الذي تحسه وتراه؟!

وهكذا استطاعت النفس من بين الشهوات والشبهات أن تؤلف هذه الأقيسة الباطلة، وأن تستنتج منها هذه النتيجة الكاذبة، وهي اختيار هذا العاجل والرضا به على المؤمل الموعود، الذي لن يجيء إلا بعد زمان بعيد، ثُمَّ وجدت من تأويلات الباطنية والفلاسفة لنصوص الوعد، واعتقاد أنَّها أمور متخيلة لا حقيقة لَهَا؛ ما يناسب مرادها فِي الإنكار والجحود، فجرت وراءها، وتعللت بِها؛ لرقة دينها، وضعف يقينها.

وهذا واللَّه حال أغلب الناس، وإن كانوا لا يتحدثون به، ولكن أعمالهم وتصرفاتِهم تشهد عليهم بِما يكتمونه فِي صدورهم، فإن الواحد منهم يدأب ليله ونَهاره فِي عمل دنياه وخدمة جسده، ولكنه يمل ويستثقل أن يطول عليه إمام فِي خطبة أو صلاة، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه!

* * *

وَصَغَتْ إِلَى شُبُهَاتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتْـ ... تَـعْـطِـيـلِ مَعْ نَقْصٍ مِنَ الْعِرْفَانِ
وَاسْتَنْقَصَتْ أَهْلَ الْهُدَى وَرَأَيتهُمْ ... فِي النَّاسِ كَالْغُرَبَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَرَأَتْ عُقُولَ النَّاسِ دَائِرَةً عَلَى ... جَمْعِ الْحُطَامِ وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ
وَعَلَى الْمَلِيحَةِ وَالْمَلِيحِ وَعِشْرَةِ الْـ ... أَحْبَابِ وَالأَصْحَابِ وَالإِخْوَانِ
فَاسْتَوْعَرَتْ تَرْكَ الْجَمِيعِ وَلَمْ تَجِدْ ... عِوَضًا تَلَذُّ بِهِ مِنَ الإِحْسَانِ
فَالْقَلْبُ لَيسَ يقَرُّ إِلَّا فِي إِنَا ... ءٍ فَهْوَ دُونَ الْجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ
يَبْغِي لَهُ سَكَنًا يَلَذُّ بِقُرْبِهِ ... فَتَرَاهُ شِبْهَ الْوَالِهِ الْحَيرَانِ
فَيحِبُّ هَذَا ثُمَّ يَهْوَى غَيرَهُ ... فَيَظَلُّ مُنْتَقِلًا مَدَى الأَزْمَانِ

لَوْ نَالَ كُلَّ مَلِيحَةٍ وَرِيَاسَةٍ ... لَمْ يَطْمَئِنَّ وَكَانَ ذَا دَوَرَانِ
بَلْ لَوْ ينَالُ بِأَسْرِهَا الدُّنْيَا لَمَا ... قَرَّتْ بِمَا قَدْ نَالَهُ الْعَيْنَانِ
نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإنْسَانِ
فَالْقَلْبُ مُضْطَرٌّ إلَى مَحْبُوبِهِ الْـ ... أَعْلَى فَلَا يُغْنِيهِ حُبٌّ ثَانِ
وَصَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ وَنَعِيمُهُ ... تَجْرِيدُ هَذَا الْحُبِّ لِلرَّحْمَنِ
فَإذَا تَخَلَّى مِنْهُ أَصْبَحَ حَائِرًا ... وَيعُودُ فِي ذَا الْكَوْنِ ذَا هَيَمَانِ

الشرح: والنفس حين يكون فيها شهوة خفية إلَى الاقتناع بشيء من الأشياء؛ فإنَّها تتلمس كل الوسائل الَّتِي تبرر هذا الاقتناع، فتراها تنْزع وتميل إلَى شبهات أهل الشرك والتعطيل ممن لا يؤمنون بحشر الأجساد، ولا يقرون بنعيم حسي، ولا بآلام جسدية ستجري على العباد، هذا مع نقصها فِي العلم والعرفان، وعدم قدرتِها على إدراك ما فِي هذه الآراء من فساد وبطلان، وتراها كذلك تستنقص أهل الهدى والإيمان، وتزدريهم حين تشاهد قلتهم وغربتهم بين الأهل والأوطان، ثُمَّ هي مع ذلك تأتسي بمن حولها من الناس، الذين لا هم لَهم إلا جمع هذا الحطام الفاني، والسعي فِي خدمة من تنشد الزلفى لديه من أمير أو سلطان، والحرص على الظفر بِما تعلقت به النفس من مليحة حسناء أو مليح حسن، وعشرة ما أنست به من الأصحاب والخلان.

فهي تستوحش أن تفارق هذا كله، وأن تقطع كل هذه العلائق، وتعيش وحدها في عزلة، لاسيما وهي فارغة، ليس فيها من المعاني ما يعوضها عما فارقت، ويصلح أن يقوم بدله.

وشأن القلب ليس كشأن الجسم، بل هو دائم القلق والاضطراب، لا يستقر على حال إلا ويتطلع إلَى أحسن منها، فهو يطلب ما يسكن إليه، وينعم بقربه، كمثل العاشق الولهان، ولكنه لا يسكن إلَى شيء أبدًا، بل يحب هذا الآن، ثُمَّ ينتقل منه إلَى غيره مما هو أطيب وألذ، وهكذا يظل متنقلًا على مدى الأزمان، بل لو ظفر بكل مليحة ورياسة لَمْ يقر قراره، وظل فِي اضطراب وجولان، بل لو حيزت له الدنيا كلها بِما فيها من متع ورغائب لما قرت منه العينان، فلا قرار للقلب ولا سكن إلا بالوصول إلَى محبوبه الأول وهو اللَّه -جل شأنه- فمعرفته والقرب منه هو غذاء القلوب وقوتُها وسكنها وراحتها، وغاية مطلوبِها الذي لا تطمح إلَى شيء وراءه، فمهما جلت بفؤادك بين مغاني الهوى، وارتدت له آنق المرعى،

وجلبت له كل ما على الأرض من حسن؛ فهو شاعر بالفقر والحرمان؛ لأنه مضطر إِلَى محبوبه الأعلى -جل شأنه- فلا يتعوض عنه بأي حب كان، فصلاحه وفلاحه ونعيمه وأنسه وراحته وسكنه فِي توحيد حبه للرحمن، فإذا ما أقفر من هذا الحب عاودته الحيرة والاضطراب، ورجع إِلَى حاله من الاضطراب والجولان.

فصل في زهد أهل العلم والإيمان وإيثارهم الذهب الباقي على الخزف الفاني

لَكِنَّ ذَا الإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ هَـ ... ـذَا كَالظِّلَالِ وَكُلُّ هَذَا فَانِ
كَخَيَالِ طَيْفٍ مَا اسْتَتَمَّ زِيَارَةً ... إِلَّا وَصُبْحُ رَحِيلِهِ بِأَذَانِ
وَسَحَابَةٍ طَلَعَتْ بِيَوْمٍ صَائِفٍ ... فَالظِّلُّ مَنْسُوخٌ بِقُرْبِ زَمَانِ
وَكَزَهْرَةٍ وَافَى الرَّبِيعُ بِحُسْنِهَا ... أَوْ لَامِعًا فَكِلَاهُمَا أَخَوَانِ
أَوْ كَالسَّرَابِ يَلُوحُ لِلظَّمْآنِ فِي ... وَسَطِ الْهَجِيرِ بِمُسْتَوَى الْقِيعَانِ
أَوْ كَالأَمَانِي طَابَ مِنْهَا ذِكْرُهَا ... بِالْقَوْلِ وَاسْتِحْضَارِهَا بِجَنَانِ
وَهِيَ الْغُرُورُ رُءُوسُ أَمْوَالِ الْمَفَا ... لِيسِ الأُلَى اتَّجَرُوا بِلَا أَثْمَانِ
أَوْ كَالطَّعَامِ يَلَذُّ عِنْدَ مَسَاغِهِ ... لَكِنَّ عُقْبَاهُ كَمَا تَجِدَانِ
هَذَا هُوَ الْمِثَالُ الَّذِي ضَرَبَ الرَّسُو ... لُ لَهَا وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

الشرح: أما أهل العلم والإيمان؛ فهم يعرفون هذه الدنيا على حقيقتها، فلا يغرهم منها بَهرج، ولا يخدعهم منها رواء، وهم يضربون لَهَا الأمثال الَّتِي تكشف عن جوهرها، وتدل على قصر عمرها.

فهم يشبهونَها بتلك الأفياء الَّتِي تكون ممتدة، ثُمَّ تتقلص رويدًا رويدًا حَتَّى تذهب وتزول.

أو بخيال طيف ألم برأس نائم، فما استتم زورته حَتَّى آذن بالرحيل.

أو بسحابة طلعت فِي يوم قيظ، فما أن انتشر ظلها حَتَّى طلعت عليها الشمس، فمحت هذا الظل القليل.

أو بزهرة فِي الروض أقبل الربيع بنضرتِها وازدهارها، ثُمَّ آل أمرها إِلَى تصوُّح وذبول.

أو ببرق لمع من خلال السحاب، فأضاء الأفق، ثُمَّ انطفأ، فانتشر بعده ظلام ثقيل.

أو سراب يتراءى فِي القيعان، فيهرع إليه الظمآن يحسبه ماء، فإذا جاءه لَمْ يرو منه الغليل.

أو بالأماني الحلوة، ينعم بذكرها اللسان، ويستحضر صورتَها الجنان، ثُمَّ لا يرى لَهَا فِي الواقع تأويل.

والدنيا هي متاع الغرور كما سماها اللَّه ﷻ، وهي رأس مال العجزة المفاليس، الذين أقفرت نفوسهم من كل معنًى نبيل، وهي أشبه بالطعام يحلو لآكله عند مضغه، ويجد له حلاوة على لسانه، ثُمَّ تكون نِهايته عند غائط أو بول.

هذا هو المثل الذي ضربه لَهَا الرسول ﷺ وهل هناك بعد القرآن أوضح وأبين من أمثال الرسول؟!

* * *

وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى حَقِيقَتَهَا فَخُذْ ... مِـنْـهُ مِـثَـالًا وَاحِـدًا ذَا شَـانِ

أَدْخِلْ بِجَهْدِكَ أُصْبُعًا فِي الْيَمِّ وَانْـ ... ظُـرْ مَـا تَـعَـلَّـقَـهُ إِذَنْ بِـعِـيَـانِ

هَـذَا هُوَ الـدُّنْـيَا كَـذَا قَـالَ الرَّسُو ... لُ مُـمَـثِّـلًا وَالْـحَـقُّ ذُو تِـبْـيَـانِ

وَكَـذَاكَ مَـثَّـلَـهَـا بِـظِلِّ الـدَّوْحِ فِـي ... وَقْـتِ الْـحَـرُورِ لِـقَـائِـلِ الـرُّكْـبَـانِ

هَـذَا وَلَـوْ عَـدَلَـتْ جَـنَـاحَ بَـعُـوضَـةٍ ... عِـنْـدَ الإِلَـهِ الْـحَـقِّ فِـي الْـمِـيـزَانِ

لَـمْ يَسْـقِ مِـنْـهَـا كَـافِرًا مِـنْ شَـرْبَـةٍ ... مَـاءً وَكَـانَ الْـحَـقُّ بِـالْـحِـرْمَـانِ

تَـاللهِ مَـا عَـقْـلُ امْـرِئٍ قَـدْ بَـاعَ مَـا ... يَـبْـقَـى بِـمَـا هُـوَ مُـضْـمَـحِـلٌّ فَـانِ

هَـذَا وَيُـفْـتِـي ثُـمَّ يَـقْـضِـي حَـاكِـمًـا ... بِـالْـحَـجْـرِ مِـنْ سَـفَـهٍ لِـذَا الإِنْـسَـانِ

إِذْ بَـاعَ شَـيْـئًـا قَـدْرُهُ فَـوْقَ الَّـذِي ... يَـعْـتَـاضُـهُ مِـنْ هَـذِهِ الأَثْـمَـانِ

فَـمَنِ السَّـفِيـهُ حَـقِيـقَـةً إِنْ كُـنْـتَ ذَا ... عَـقْـلٍ وَأَيْـنَ الْـعَـقْـلَ لِـلـسَّـكْـرَانِ

وَاللَّـهِ لَـوْ أَنَّ الْـقُـلُـوبَ شَـهِـدْنَ مِـنْـ ... نَـا كَـانَ شَـأْنٌ غَـيْـرُ هَـذَا الـشَّـانِ

نَـفَـسٌ مِـنَ الأَنْـفَـاسِ هَـذَا الْـعَـيْـشُ إِنْ ... قِـسْـنَـاهُ بِـالْـعَـيْـشِ الطَّـوِيـلِ الـثَّـانِـي

يَـا خِـسَّـةَ الـشُّـرَكَـاءِ مَـعْ عَـدَمِ الْـوَفَـا ... ءِ وَطُـولِ جَـفْـوَتِـهَـا مِـنَ الْـهِـجْـرَانِ

هَـلْ فِـيـكَ مُـعْـتَـبَـرٌ فَـيَـسْـلُـو عَـاشِـقٌ ... بِـمَـصَـارِعِ الْـعُـشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ

لَـكِـنْ عَـلَـى تِـلْـكَ الْـعُـيُـونِ غِـشَـاوَةٌ ... وَعَـلَـى الْـقُـلُـوبِ أَكِـنَّـةُ الـنِّـسْـيَـانِ

الشرح: وإذا أردت أن تعرف حقيقة الدنيا، وخسة قدرها، وقلة متاعها، فخذ لَهَا مثالًا واحدًا، ضربه الرسول ﷺ بقوله: «**ما الدنيا فِي الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه فِي اليم، فلينظر بم يرجع؟**». فماذا يعلق بأصبعه من ماء البحر إن هو أدخله فيه، إن ذلك لا يعدو أن يكون قطرة، لا تقاس بذلك الخضم الكبير.

وكذلك شبهها ﷺ بظل شجرة قال تحتها الراكب، ثُمَّ انصرف عنها، قال -عليه الصلاة والسلام-: «**ما لي وللدنيا، إنَّما أنا فيها كراكب قال تحت شجرة فِي يوم صائف، ثُمَّ راح وتركها**».

وقال -صلوات اللَّه وسلامه عليه- فيما صح عنه: «**لو كانت الدنيا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة؛ ما سقى الكافر منها جرعة ماء**». فجعلها أهون شأنًا عند اللَّه من أحقر المحقرات، وهو جناح البعوض.

فباللَّه أي عقل يمكن أن يدعى لرجل باع ما يبقى أبد الآباد فما له من نفاد بعرض قصير الأمد، سريع الزوال؟! ثُمَّ هو مع ذلك يفتي ويقضي على فلان بالحجر، والمنع من التصرف فِي ماله؛ لأنه سفيه، وسفاهته أنه باع شيئًا من ماله بأقل مما يستحقه من ثمن، فمن الأحق باسم السفيه إذن؟! أأنت يا من بعت أشرف اللذات وأدومها بلعاعات من الدنيا، وتفاهات من العيش، أم ذاك الذي حكمت بسفهه والحجر عليه؛ لأنه غبن فِي دراهم معدودات؟! وواللَّه لو أن بصائر القلوب مفتوحة تشهد هذه الحقائق وتتدبرها؛ لكان شأننا غير هذا الشأن، فإن من الحمق والسفه قياس فان بباق، ولو جاز لنا أن نقيس لقلنا: إن هذا العيش فِي عيش الآخرة كنفس واحد من الأنفاس، فهو متاع خسيس، لا وفاء لأهله، ولا حفاظ على مودة، ولا رعاية لعشير أو شريك، فيا موله القلب فِي حب الدنيا، أما لك معتبر فيمن مضي قبلك من عشاقها، وقد شهدت مصارعهم وسمعت عنها؟! ولكن على البصر منك غشاوة، وعلى قلبك غطاء من النسيان.

* * *

وَأَخُو الْبَصَائِرِ حَاضِرٌ مُتَيَقِّظٌ	مُتَفَرِّدٌ عَنْ زُمْرَةِ الْعُمْيَانِ
يسمُو إِلَى ذَاكَ الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الْـ	أَعْلَى وَخَلَّى اللَّعْبَ لِلصِّبْيَانِ
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فَصِبْيَانٌ وَإِنْ	بَلَغُوا سِوَى الأَفْرَادِ وَالْوِحْدَانِ
وَإِذَا رَأَى مَا يَشْتَهِيهِ قَالَ مَوْ	عِدُكَ الْجِنَانُ وَجَدَّ فِي الأَثْمَانِ

وَإِذَا أَبَتْ إِلَّا الْجِمَاحَ أَعَاضَهَا ... بِالْعِلْمِ بَعْدَ حَقَائِقِ الإِيمَانِ
وَيرَى مِنَ الْخُسْرَانِ بَيْعَ الدَّائِمِ الْـ ... بَاقِي بِهِ يَا ذِلَّةَ الْخُسْرَانِ
وَيرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا مِنْ حَوْلِهِ ... وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ
حَسَرَاتُهَا هُنَّ الْوَقُودُ فَإِنْ خَبَتْ ... زَادَتْ سَعِيرًا بِالْوَقُودِ الثَّانِي
جَاءُوا فُرَادَى مِثْلَ مَا خُلِقُوا بِلَا ... مَالٍ وَلَا أَهْلٍ وَلَا إِخْوَانِ
مَا مَعَهُمْ شَيءٌ سِوَى الأَعْمَالِ فَهْـ ... يَ مَتَاجِرٌ لِلنَّارِ أَوْ لِجِنَانِ
تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ سَوْقًا إِلَى الدْ ... دَارَيْنِ سَوْقَ الْخَيْلِ بِالرُّكْبَانِ
صَبَرُوا قَلِيلًا فَاسْتَرَاحُوا دَائِمًا ... يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلإِنْسَانِ
حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ الْمَمَاتِ كَذَا السُّرَى ... عِنْدَ الصَّبَاحِ فَحَبَّذَا الْحَمْدَانِ
وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ الْعُلَا ... وَسَرَوْا فَمَا نَزَلُوا إِلَى نُعْمَانِ
بَاعُوا الَّذِي يَفْنَى مِنَ الْخَزَفِ الْخَسِيـ ... سِ بِدَائِمٍ مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ السَّعَا ... دَةِ وَالْهُدَى يَا ذِلَّةَ الْحَيْرَانِ
فَتَسَابَقَ الأَقْوَامُ وَابْتَدَرُوا لَهَا ... كَتَسَابُقِ الْفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ
وَأَخُو الْهُوَيْنَى فِي الدِّيَارِ مُخَلَّفٌ ... مَعَ شَكْلِهِ يَا خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ

الشرح: وأما أخو البصيرة؛ فهو دائمًا حاضر القلب يقظان، لا يجري مع أهل اللَّهو فِي لهوهم، ولا يسير مع جماعة السكارى والعميان، ولا ينحط إِلَى طلب هذا المتاع الأرضي الحقير الفاني، بل يسمو دائمًا بِهمته وروحه إِلَى الرفيق الأرفع فِي أعلى الجنان، وقد ترك اللعب فِي هذه الدنيا، وخلاه للصبيان، والناس كلهم صبيان العقول، وإن كبرت أجسامهم، إلا أفرادًا قليلين فِي كل زمان.

وإذا رأى العاقل البصير ما تشتهيه نفسه؛ لَمْ ينقد لَهَا، ولَمْ يسرع إِلَى تلبية ندائها، ولكنه يقول لَهَا: موعدك الجنان، ثُمَّ يجد فِي تحصيل ما تتطلبه الجنة -تلك السلعة الغالية- من مهر وأثمان.

وإذا أبت نفسه إلا العناد والجماح، ولَمْ تستنم لِهذه العدة الكريمة؛ أعاضها عن ذلك بلذة العلم والعرفان، ويرى بحق أن بيع الدائم الباقي بذلك العرض الفاني من أفحش الغبن وأقبح الخسران.

ويشاهد مصارع أهل الدنيا من حوله، وما تغلي به صدورهم من سعير الشهوات، ولاذع الحسرات، وجمر الأحقاد والعداوات، فكلما خبت وضعف لهبها جاءها الوقود؛ فازدادت به اشتعالًا واتقادًا، ثُمَّ إن هؤلاء الأكياس الفطناء تخففوا من هذه الدنيا، فجاءوا إِلَى اللَّه فرادى، كما خلقهم أول مرة، لا مال ولا أهل ولا إخوان، بل ليس معهم سوى أعمالهم الَّتِي هي متاجر وأثمان للجنان أو للنيران، فأعمالهم هي الَّتِي تسعى بِهم وتسوقهم، إما إِلَى هذه الدار أو تلك، كما تساق الخيل قد امتطاها الفرسان، فهم صبروا قليلًا على لأواء هذه الدنيا وشدتِها، فاستراحوا الراحة الكبرى بتوفيق العزيز المنان، حمدوا عند الممات استمساكهم بعرى التقوى، كما يحمد القوم عند الصباح السرى، فيا لَهُما حمدان.

ونَهضت بِهم عزائمهم نحو العلا، فسروا إليها مدلجين، ولَمْ ينْزلوا بشيء من منازل الطريق مستريحين، ولكنهم واصلوا السير إِلَى غايتهم معرضين عن هذا الخزف الخسيس، مؤثرين عليه الذهب النفيس، وقد رفعت لَهم فِي سيرهم رايات السعادة والهداية، فتبينوا معالم الطريق، فساروا قاصدين غير متعثرين، ولا معوجين، ولا وانين، ولا متخلفين، حَتَّى وصلوا إِلَى غايتهم سالمين.

وأما البطيء الكسلان، الذي قعدت به همته، فلم يستطع اللحاق بركب الصاعدين، بل بقي مخلفًا فِي الديار مع المخلفين؛ إن هذا لهو الخسران المبين.

فصل في رغبة قائلها إلى من يقف عليها من أهل العلم والإيمان أن يتجرد لله ويحكم عليها بما يوجبه الدليل والبرهان فإن راى حقًّا قَبِلَهُ وحمد الله عليه وإن راى باطلًا عرَّف به وأرشد إليه

يأَيُّهَا الْقَارِي لَهَا اجْلِسْ مَجْلِسَ الْـ ... حَكَمِ الأَمِينِ أَتَى لَهُ الْخَصْمَانِ

وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الْـ ... عَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ الْقُرْآنِ

وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ ... حَتَّى تُعَارِضَهَا بِلَا عُدْوَانِ

فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا ... فَنِزَالِ آخِرَ دَعْوَةِ الْفُرْسَانِ

فَالْكُفْرُ لَيسَ سِوَى الْعِنَادِ وَرَدِّ مَا ... جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لِقَوْلِ فُلَانِ

فَانْظُرْ لَعَلَّكَ هَكَذَا دُونَ الَّذِي ... قَدْ قَالَهَا فَتَفُوزَ بِالْخُسْرَانِ

فَالْحَقُّ شَمْسٌ وَالْعُيونُ نَوَاظِرٌ لَا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى الْعُمْيَانِ
وَالْقَلْبُ يَعْمَى عَنْ هُدَاهُ مِثْلَ مَا تَعْمَى وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْعَيْنَانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من نظم هذه القصيدة الجامعة، الَّتِي عالج فيها القضايا الإيمانية، ونصر مذهب السلف بِما لا يحصى من البراهين العقلية والنقلية، ودحض مذاهب المعطلة النفاة، ورد عليهم بأدلة حاسمة قوية، توجه إِلَى من قرأها وتأمل أبياتَها أن ينصب من نفسه حكمًا أمينًا منزهًا من الهوى والتعصب، وأن يحكم لَهَا أو عليها حكمًا قائمًا على العقل الصريح الخالي من شوائب الوهم، وعلى النصوص القرآنية الواضحة.

ثُمَّ طلب إليه ألَّا يتسرع فِي رمي قائلها بالكفر، حَتَّى يقوم بمعارضتها معارضة نَزيهة، لا يقصد بِها إلا وجه الحق فِي غير ظلم ولا عدوان، فإن هو فعل ذلك -ولا أخاله يفعل- فسيجد عنده من أمثالها ما يهدم معارضته، ويفل غربَها؛ لأنه مستعد لقراع الأبطال ومنازلتهم فِي مضمار الحجاج والجدال، على أنه لا يستحق أحد اسم الكفر، إلا إذا عاند الحق، ورد ما جاء به الرسول ﷺ من أجل آراء الناس وأقوالهم.

فانظر إذن أيها المتسرع بالتكفير، لعلك أن تكون أنت المتصف بِما يوجب الكفر دون قائلها، فترجع بالخيبة والخذلان، فالحق فِي ظهوره ووضوحه كالشمس فِي رأد الضحى صحوًا، ليس دونَها قتر ولا سحاب، والعيون السليمة تراها وتنظر إليها، فلا تخفى إلا على العميان، فكذلك بصيرة القلب فِي إدراكها للحق إذا كانت سليمة غير مدخولة، ولكنها أحيانًا تعمى وتنطمس، مثل ما تعمى العينان، بل أشد وأعظم، كما قال تعالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. فقوله: «أعظم»: عطف على «مثل». وقوله: «هذه العينان»: فاعل «تعمى».

* * *

هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بَأَرْ بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ
فَظٌّ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ضَخْمُ الْعِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ
مُتَفَيهِقٌ مُتَضَلِّعٌ بِالْجَهْلِ ذُو ضَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ مِنَ الْعِرْفَانِ
مُزْجَى الْبُضَاعَةِ فِي الْعُلُومِ وَإِنَّهُ زَاجٍ مِنَ الإِيهَامِ وَالْهَذَيَانِ
يَشْكُو إِلَى اللهِ الْحُقُوقَ تَظَلُّمًا مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ
مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الْوَرَى وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ

عَجَّتْ فُرُوجُ الْخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ ... وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ

مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتْـ ... ـتَبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْبُهْتَانِ

فَإِذَا تَيقَّنَ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ عِنْـ ... ـدَ تَقَابُلِ الْفُرْسَانِ فِي الْمَيدَانِ

قَالَ اشْتَكُوهُ إِلَى الْقُضَاةِ فَإِنَّهُمْ ... حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ

قُولُوا لَهُ هَذَا يُحِلُّ الْمِلْكَ بَلْ ... هَذَا يُزِيلُ الْمِلْكَ مِثْلَ فُلَانِ

فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ مِنْـ ... ـهُ بِقُوَّةِ الأَتْبَاعِ وَالأَعْوَانِ

وَإِذَا دَعَاكُمْ لِلرَّسُولِ وَحُكْمِهِ ... فَادْعُوهُ كُلُّكُمُ لِرَأْيِ فُلَانِ

وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي الْمَجَالِسِ فَالْغَطُوا ... وَالْغَوْا إِذَا مَا احْتَجَّ بِالْقُرْآنِ

وَاسْتَنْصِرُوا بِمَحَاضِرٍ وَشَهَادَةٍ ... قَدْ أُصْلِحَتْ بِالرِّفْقِ وَالإِتْقَانِ

لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيفَ تَحَمَّلُوا ... وَبِأَيِّ وَقْتٍ بَلْ بِأَي مَكَانِ

وَارْفُوا شَهَادَتَهُمْ وَمَشُّوا حَالَهَا ... بَلْ أَصْلِحُوهَا غَايَةَ الإِمْكَانِ

وَإِذَا هُمُ شَهِدُوا فَزَكُّوهُمْ وَلَا ... تُصْغُوا لِقَوْلِ الْجَارِحِ الطَّعَّانِ

قُولُوا الْعَدَالَةُ مِنْهُمُ قَطْعِيَّةٌ ... لَسْنَا نُعَارِضُهَا بِقَوْلِ فُلَانِ

ثَبَتَتْ عَلَى الْحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا ... فَالطَّعْنُ فِيهَا لَيسَ ذَا إِمْكَانِ

مَنْ جَاءَ يقْدَحُ فِيهِمُ فَلْيتَّخِذْ ... ظَهْرًا كَمِثْلِ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ

وَإِذَا هُوَ اسْتَعْدَاهُمُ فَجَوَابُكُمْ ... أَتَرُدُّهَا بِعَدَاوَةِ الدَّيَّانِ

الشرح: يذكر المؤلف فِي هذه الأبيات والَّتِي بعدها كيف امتحن بتألُّب الخصوم، والأعداء عليه، وعلى شيخه العظيم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما اللَّه- وكيف كانوا يدبرون لهما المكايد، وَيَسْتَعْدُون عليهما الشعوب والحكام، فللَّه كم لقي هذان الإمامان الجليلان من عداوات وإحن صنعها الجهل والتعصب الأعمى، من الفقهاء الجامدين وزنادقة المتكلمين والصوفية المارقين، ومن كان يسمع لَهم من الأمراء والسلاطين، وكثير غير هؤلاء من العامة والدهماء الذين كانوا يدينون دين الخرافة من عبادة القبور، والعكوف عليها، وتأليه شيوخ الصوفية، والخضوع لَهم، فصبرا على ما امتحنا، وثبتا فِي وجه الباطل، وتحملا الاضطهاد والحبس، حَتَّى أقاما حجة اللَّه فِي أرضه، وتركا من بعدهما ثروة علمية، هي لباب العلم، وخلاصة المعرفة، وهي الإسلام نقيًا من كل شائبة،

فجزاهما اللَّه عن كل من انتفع بعلمهما خير ما يجزي به العلماء العاملين.

يذكر المؤلف أنه امتحن بأربعة أصناف من الناس، وكلهم ذوو ضغن وأحقاد عليه:

أما الأول: فهو من ذلك النوع الذي يستر جهله بالكبر والنفخة، ويتوارى وراء الثياب الواسعة الفضفاضة، والكلمات الفخمة الطنانة، فهو كما يقول: فظ غليظ الطبع، جاهل يتظاهر بالعلم، حسن المظهر والرواء، فهو ضخم العمامة، واسع الأكمام، متفيهق يتشدق بالكلام، وهو راسخ فِي الجهل، ومع ذلك من يراه يظنه من أهل المعرفة لصلع رأسه، وهو قليل البضاعة فِي العلم، ولكنه ذو ثروة هائلة من الأوهام والخرافات، وهو إذا كان قاضيًا، لا يعرف وجوه القضاء، فكم ضيع من حقوق، حَتَّى إن الحقوق لتشكو إلَى اللَّه متظلمة من جهله، كما تشكو الأبدان من طبيب جاهل، لا يعرف كيف يشخص الداء؛ ليصف له الدواء المناسب، فهو يقتل الناس بجهله، ويحمل ذلك على القضاء والقدر، وكم ضجت منه فروج الناس ودماؤهم وحقوقهم الَّتِي ضيعها إلَى اللَّه الملك الديان.

وقصارى علمه رمي خصومه بأشنع التهم من التكفير والتبديع والتضليل، وبَهتهم بالإثم والعدوان، فإذا دعي إلَى المناظرة، وأيقن أنه منهزم مغلوب؛ لجأ إلَى حيلة العاجز الضعيف، وهي الجأر بالشكوى مرة إلَى القضاء، ومرة إلَى السلطان، وهو يستعدي عليه السلطان بأن كلامه هذا يثير فتنة تحل عقد الملك، بل تزيله، وأن الواجب هو عقره والقضاء عليه، قبل أن يجتمع عليه الناس، ويكثر أتباعه وأعوانه.

وهو يوصي من معه، ويرسم لَهم الخطط، فيقول: إذا دعاكم إلَى الكتاب والسنة، فادعوه إلَى ما قال الغزالي والرازي وغيرهما، وإذا اجتمعتم معه فِي مجلس فشوشوا عليه؛ حَتَّى لا يسمع كلامه، وإذا ما ساق حجج القرآن، فالغوا فيها، وردوها عليه بأنَّها ظواهر لفظية، لا تفيد اليقين، ثُمَّ استنصروا عليه بِما حرر ضده من محاضر، وبشهادات الزور الَّتِي أديت ضده بإحكام وإتقان، ولا تسألوا هؤلاء الشهود كيف تحملوها، ولا عن وقت تحملها ومكانه، بل أصلحوا ما فيها من خلل، وسووها تسوية حَتَّى تقبل، وإذا هم شهدوا عليه بالزور، فزكوا شهادتَهم، ولا تلتفتوا إلَى قول من يجرحهم، أو يطعن فيهم، وقولوا له: إن عدالتهم قطعية، قد حكم بِها الحكام، وقبلها القضاة، فالطعن فيها مستحيل، ومن أراد أن يقدح فِي عدالتهم؛ فليستند على ظهر متين.

* * *

فصل في حال العدو الثاني

أَوْ حَاسِدٍ قَدْ بَاتَ يغْلِي صَدْرُهُ ... بِـعَـدَاوَتِـي كَـالْـمِـرْجَـلِ الْـمَـلآنِ
لَوْ قُلْتُ هَذَا الْبَحْرُ قَالَ مُكَذِّبًا ... هَـذَا الـسَّـرَابُ يـكُـونُ بِـالْـقِـيـعَـانِ
أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَالَ مُبَاهِتًا ... الـشَّـمْـسُ لَـمْ تَـطْـلُـعْ إِلَـى ذَا الآنِ
أَوْ قُـلْـتُ قَـالَ الـلـهُ قَـالَ رَسُـولُـهُ ... غَضِبَ الْخَبِيثُ وَجَاءَ بِالْكِتْمَانِ
أَوْ حَـرَّفَ الْـقُـرْآنَ عَـنْ مَـوْضُـوعِـهِ ... تَـحْـرِيـفَ كَـذَّابٍ عَـلَـى الْـقُـرْآنِ
صَالَ النُّصُوصُ عَلَيهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا ... مُـتَـوَكِّـلٌ بِـالـدَّأْبِ وَالـدِّيـدَانِ
فَكَلَامُهُ فِي النَّصِّ عِنْدَ خِلَافِهِ ... مِـنْ بَـابِ دَفْـعِ الـصَّـائِـلِ الـطَّـعَّـانِ
فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَدْلُولِهِ ... كَيْ لَا يـصُـولَ إِذَا الْـتَـقَى الزَّحْـفَـانِ

الشرح: وأما الصنف الثاني من الخصوم: فهو حاسد شانئ، قد رأى تفوق المؤلف فِي العلم وبزه للأقران، فامتلأ قلبه منه بالحسد والشنآن، وباتت مراجل غيظه تغلي منه كغلي المرجل الملآن، فجعل همه وكده دفع كلامه ورده ولو كان فِي غاية الوضوح والبيان، وكان صدقه باديًا للعيان، فلو قال: هذا هو البحر. لقال هذا العدو الكاشح: إنه ليس بحرًا، بل هو سراب بقيعة. ولو قال: هذه الشمس طالعة تملأ الأفق. لقال هذا الخبيث مباهتًا: إننا لا نزال بليل، وأن الشمس لَمْ تطلع بعد. ولو أورد المؤلف النصوص من الكتاب والسنة محتجًا بِها، عمد هذا الشرير إلَى كتمانِها، أو حرَّف الكلم عن مواضعه تحريف مكذب بِها، فهو يخشى صولة النصوص على آرائه المتهافتة، فيبادر إلَى ردها.

ويجعل ذلك هجيراه وديدنه، فكلامه فِي النص بالتحريف والتأويل عند مخالفته لرأيه الهزيل من قبيل الدفع للصائل الطعان، فقصده كله هو دفع النص ورده عن مدلوله، كي لا يصول عليه إذا التقت الفئتان، وتناجز الخصمان.

❊ ❊ ❊

فصل في حال العدو الثالث

وَالثَّالِثُ الأَعْمَى الْمَقَلِّدُ ذَينِكَ الرْ ... رَجُلَيـنِ قَـائِدُ زُمْـرَةِ الْـعُـمْـيَـانِ
فَاللَّعْنُ وَالتَّكْفِيرُ وَالتَّبْدِيعُ وَالتْ ... تَـضْلِيـلُ وَالـتَّفْسِيـقُ بِـالْـعُدْوَانِ
فَـإِذَا هُـمُ سَـأَلُـوهُ مُـسْـتَـنَـدًا لَـهُ ... قَـالَ اسْـمَـعُـوا مَـا قَـالَـهُ الـرَّجُـلَانِ

الشرح: وأما الصنف الثالث: فأعمى القلب والبصيرة، لا علم عنده ولا معرفة، بل رضي أن يعيش ذليلًا لذينك الرجلين السابقين، ويقلدهم فيما يقولونه، وهو يقود جماعة من الجهلة المتعصبين مثله، وهذا الصنف لجهله وقلة بضاعته من العلم لا شغل له إلا أن يردد اتِّهامات السابقين، باللعن والتكفير والتبديع والتضليل والرمي بالفسوق ظلمًا وعدوانًا فِي غير تحرج ولا حياء.

فإذا سئل دليلًا على ما يقول؛ لَمْ يجد حيلة إلا أن يحيل سائله على ما قاله الرجلان السابقان فيه.

فصل في حال العدو الرابع

هَـذَا وَرَابِـعُـهُـمْ وَلَـيـسَ بِـكَـلْـبِـهِـمْ ... حَـاشَـى الْـكِـلَابَ الآكِـلِـي الأَنْـتَـانِ
خِنْزِيرُ طَبْعٍ فِي خَلِيقَةِ نَاطِقٍ ... مُـتَـسَـوِّفٍ بِـالْـكِـذْبِ وَالْـبُـهْـتَـانِ
كَالْكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يُمَشْمِشُ أَعْظُمًا ... يَـرْمُـونَـهَـا وَالْـقَـوْمُ لِـلُّـحْـمَـانِ
يـتَـفَـكَّـهُـونَ بِـهَـا رَخِـيـصًا سِعْـرُهَـا ... مَـيْـتًـا بِـلَا عَـوَضٍ وَلَا أَثْـمَـانِ
هُوَ فَضْلَةٌ فِي النَّاسِ لَا عِلْمٌ وَلَا ... دِيـنٌ وَلَا تَـمْـكِـيـنُ ذِي سُـلْـطَانِ
فَـإِذَا رَأَى شَـرًّا تَـحَـرَّكَ يَـبْـتَـغِـي ... ذِكْـرًا كَـمِـثْـلِ تَـحَـرُّكِ الـثُّـعْـبَـانِ
لِيزُولَ مِنْهُ أَذَى الْكَسَادِ فَيَنْفَقُ الْـ ... كَـلْـبُ الْـعَقُـورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ
فَبَقَاؤُهُ فِي النَّاسِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... مِـنْ عَـسْـكَـرٍ يُـعْـزَى إِلَـى غَـازَانِ
هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ فِي الأَرْضِ يَبْـ ... غِـي تَـاجِـرًا يَـبْـتَـاعُ بِـالأَثْـمَـانِ
وَجَدَ التُّجَارَ جَمِيعَهُمْ قَدْ سَافَرُوا ... عَـنْ هَـذِهِ الْـبُـلْـدَانِ وَالأَوْطَـانِ
إِلَّا الـصَّـعَـافِـقَـةَ الَّـذِيـنَ تَـكَـلَّـفُـوا ... أَنْ يَـتْـجَـرُوا فِـيـنَـا بِـلَا أَثْـمَـانِ

فَهُمُ الزُّبُونُ لَهَا فَبِاللهِ ارْحَمُوا مِنْ بَيْعَةٍ مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ
يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ تَاجِرًا قَدْ طَافَ بِالآفَاقِ وَالْبُلْدَانِ
مَا كُلُّ مَنْقُوشٍ لَدَيهِ أَصْفَرٍ ذَهَبًا يَرَاهُ خَالِصَ الْعِقْيَانِ
وَكَذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الْغَوَّاصِ فِي تَمْيِيزِهِ مَا إنْ هُمَا مِثْلَانِ

الشرح: وأما الصنف الرابع: فهو رذل خسيس الطبع كالخنْزير الذي يتقمم المزابل، وإن كان فِي صورة إنسان ناطق، يتسول القوم، ويجري وراءهم كالكلب عسى أن يصيب منهم عظمًا يفرح به، وينهش فيه، تاركًا لَهم قطعان اللحم وافرة من عرض المؤلف، فهم يتمتعون بِها رخيصة السعر، كالميت الذي لا عوض له ولا ثمن.

وهذا الصنف من سقط الناس وحشوهم ليس له حيثية ولا قدر، فلا علم ولا دين ولا سلطة، ولكنه يبغي الظهور والشهرة، فإذا هاج الشر، وثارت الفتنة؛ تحرك نحوها كما تتحرك الحية؛ لينفق سوقه، ويزول عنه معرة الكساد، كما ينفق الكلب العقور هجم على ذكور الضأن، فهذا الصنف وجوده فِي الناس أعظم بلية، وأقسى محنة، بل هو شر من وجود عسكر التتار، فهو يضرب فِي الأرض يبتغي مشتريًا لشره وفساده، فلما وجد التجار جميعًا قد رحلوا عن هذه الأوطان، ولَمْ يبق فيها إلا هؤلاء المفاليك الذين يتجرون فِي أعراض أفاضل الناس بلا عوض ولا أثمان؛ قدم نفسه زبونًا لَهم، يشتري منهم، ويروج لتجارتِهم.

فيا من يرحم هذه الأعراض واللحمان من أن تباع بيع السماح لعاجز مفلس قد ركبته الديون، فيا رب ارزقها بتاجر بصير، قد جوب الآفاق، وطاف بالأمصار، حَتَّى اكتسب خبرة ومهارة، فهو يستطيع أن يميز الجيد من الزيف، فليس كل منقوش أصفر يعده ذهبًا، ولا يسوي بين الزجاج ودرة الغواص.

* * *

فصل في توجه أهل السنة إلى رب العالمين أن ينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين

هَـذَا وَنَـصْـرُ الـدِّيـنِ فَـرْضٌ لَازِمٌ ... لَا لِـلْـكِـفَـايَـةِ بَـلْ عَـلَـى الأَعْـيَـانِ

بِـيَـدٍ وَإِمَّـا بِـالـلِّـسَـانِ فَـإِنْ عَـجَـزْ ... تَ فَـبِـالـتَّـوَجُّـهِ وَالـدُّعَـا بِـجَـنَـانِ

مَـا بَـعْـدَ ذَا وَالـلـهِ لِلإِيـمَـانِ حَـبْـ ... بَـةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِـرَ الإِيـمَـانِ

بِحَيَاةِ وَجْهِكَ خَيرِ مَسْئُولٍ بِهِ ... وَبِـنُـورِ وَجْـهِـكَ يَـا عَـظِـيـمَ الـشَّـانِ

وَبِـحَـقِّ نِـعْـمَـتِـكَ الَّـتِـي أَوْلَـيـتَـهَـا ... مِـنْ غَـيـرِ مَـا عِـوَضٍ وَلَا أَثْـمَـانِ

وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ جَمِيـ ... ـعَ الْخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الْجَانِي

وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَكَ الْحُسْنَى مَعَا ... نِـيـهَـا نُـعُـوتُ الْـمَـدْحِ لِـلـرَّحْـمَـنِ

وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهْوَ حَمْدٌ وَاسِعُ الْـ ... أَكْـوَانِ بَـلْ أَضْـعَـافُ ذِي الأَكْـوَانِ

وَبِـأَنَّـكَ الـلـهُ الإِلَـهُ الْـحَـقُّ مَـعْـ ... بُـودُ الْـوَرَى مُـتَـقَـدِّسٌ عَـنْ ثَـانِ

بَـلْ كُـلُّ مَـعْـبُـودٍ سِـوَاكَ فَـبَـاطِـلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَانِي

وَبِـكَ الْـمَـعَـاذُ وَلَا مَـلَاذَ سِـوَاكَ أَنْـ ... تَ غِـيَـاثُ كُـلِّ مُـلَـدَّدٍ لَـهْـفَـانِ

مَنْ ذَاكَ لِلْمُضْطَرِّ يَسْمَعُهُ سِوَا ... كَ يُـجِـيـبُ دَعْـوَتَـهُ مَـعَ الْـعِـصْـيَـانِ

إِنَّـا تَـوَجَّـهْـنَـا إِلَـيْـكَ لِـحَـاجَـةٍ ... تُـرْضِـيـكَ طَـالِـبُـهَـا أَحَـقُّ مُـعَـانِ

فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي ... سَـبَـغَـتْ عَـلَـيـنَـا مِـنْـكَ كُـلَّ زَمَـانِ

الشرح: بعد أن فرغ المؤلف من ذكر صنوف أعداء التوحيد والسنة وطريق سلف الأمة من أهل الزيغ والضلال والإلحاد والبدعة؛ توجه إلَى إخوانه من أهل السنة المحمدية، وأنصار الطريقة السلفية، الَّتِي هي الفرقة الناجية المنصورة إلَى قيام الساعة موصيًا لَهم بالدفاع عن الإسلام، والجهاد لإعلاء كلمته ضد خصومه من سائر فرق الضلال وأشياع الباطل، مبينًا أن هذا فرض حتم على كل أحد، وليس فرضًا على الكفاية حَتَّى يكفي قيام جماعة به، ويسقط الحرج عن بقيتهم.

وهذا النصر للإسلام والجهاد لإزالة كل ما يخالفه له ثلاث مراتب:

فأولها وأعلاها: أن يكون باليد مع القدرة والإمكان.

وأوسطها: أن يكون بالإرشاد والنصح والبيان لمن عجز عن إزالته باليد.

وأدناها: أن يكون إنكارًا بالقلب، وتوجهًا بالدعاء إِلَى اللَّه أن ينصره ويعليه.

وقد بين النَّبِيُّ ﷺ هذه المراتب بقوله فِي الحديث الصحيح: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لَمْ يستطع فبلسانه، فإن لَمْ يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

وبقوله فِي الحديث الصحيح الآخر: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**».

ولما كان المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ومن معه من إخوانه الموحدين ليس فِي مقدورهم القيام بالدرجة الأولى، وهي نصر دين اللَّه بالسيف والسنان، وذلك لقلتهم وضعفهم وسط جيوش الجهل والظلم الَّتِي لَهَا الصولة والدولة، فقد توجه إِلَى اللَّه ﷻ بِهذا الدعاء الضارع والنداء الذليل، متوسلًا إليه بأحب الوسائل لديه وهي أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، فهو يسأله بحياة وجهه، ونوره، وبعظمة جلاله وشأنه، وقديم سلطانه، وبحق نعمه وآلائه الَّتِي أولاها ووهبها من غير سابق عمل ولا سعي تكون جزاء له، وبحق رحمته الَّتِي وسعت جَميع خلقه فِي الدنيا، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، وبحق أسمائه الحسنى كلها الدالة على صفات كماله الَّتِي يمدح، ويثنى عليه بِها، وبحق حمده الذي ملأ الأكوان كلها، بل هو أضعاف أضعافها، ويسأله كذلك بحق إلهيته الَّتِي تفرد بِها، وتنَزه عن أن يكون له شريك فيها، فليس معه إله غيره، بل كل ما عبد سواه، فعبادته محض الباطل، وعين الضلال والافتراء من العرش إِلَى الفرش، وبه وحده العوذ والتحصن من كل شر وسوء، وهو الملاذ لعبده من كل خوف ومكروه، وهو الغياث لكل مكروب وملهوف، فمن غيره للمضطر يسمعه، ويجيب دعوته مع عصيانه ومخالفته.

ثُمَّ قال بعد هذه التوسلات القوية الَّتِي تزيح الجبال من أماكنها: إنا قد توجهنا إليك بحاجة فيها حبك ورضاك، وطالبها أحق بعونك من كل من دعاك، فاجعل قضاءها من جملة النعم الَّتِي أوليتها فِي جَميع الأوقات.

* * *

انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الْـ عَالِي الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالْبُرْهَانِ
وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ تَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ
وَرَضِيتَهُ دِينًا لِمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ هَذَا الْوَرَى هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ
وَأَقِرَّ عَينَ رَسُولِكَ الْمَبْعُوثِ بِالدْ دِينِ الْحَنِيفِ بِنَصْرِهِ الْمُتَدَانِ
وَانْصُرْهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَمِثْلِ مَا قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ
يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلَالِ وَعَسْكَرِ الشَّيطَانِ
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدًى لِخِيَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ الْقُرْآنِ
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ الْمَنْصُورَ أَهْـ لَ تَرَاحُمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ
يَا رَبِّ وَاحْمِهِمُ مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ
يَا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا الَّتِي تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى النِّيرَانِ
يَا رَبِّ وَاهْدِهِمُ بِنُورِ الْوَحْيِ كَيْ يَصِلُوا إِلَيكَ فَيَظْفَرُوا بِجِنَانِ
يَا رَبِّ كُنْ لَهُمْ وَلِيًّا نَاصِرًا وَاحْفَظْهُمُ مِنْ فِتْنَةِ الْفَتَّانِ
وَانْصُرْهُمُ يَا رَبُّ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ يَا مُنْزِلَ الْقُرْآنِ

الشرح: هذه هي الحاجة الَّتِي يريد المؤلف من اللَّه ﷻ قضاءها: وهي أن ينصر كتابه المبين، فيقيض له من يظهر حججه، ويوضح أغراضه ومقاصده، وينفي عنه تحريف الزائغين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وينصر رسوله الأمين بنصر سنته وإظهارها وتأييد العاملين بِها، وينصر دينه القويم الذي أنزله مؤيدًا بالحجة والبرهان، واختاره لنفسه دينًا، واصطفى من جاء به، وأقامه على الخلق أجمعين، ورضيه دينًا لمن رضي عنهم من خلقه، وجعله مهيمنًا على الدين كله، وأن يقر عين رسوله الذي بعثه بِهذا الدين الحنيف بنصره العاجل القريب وأن ينصره النصر العزيز المؤزر، كما نصره فِي كل العصور، وأن ينصر من يعلم أنه خير الحزبين وأفضل الفريقين منا ومن حزب الضلال وعسكر الشيطان، وأن يجعل شر الحزبين فداء لخيرهم من جند الإيمان وعسكر القرآن، وأن يؤلف بين قلوب أوليائه من أهل التوحيد، فيجعلهم متواصلين متراحمين متقاربين، وأن يقيهم شر المحدثات والبدع المضلة، وأن يجنبهم مسالكها وشعابَها، الَّتِي تفضي بأصحابِها إِلَى النار، وأن يهديهم بنور الوحي، حَتَّى يستقيموا على صراط اللَّه، فيظفروا برحمته ورضاه، وأن يكون وليهم وناصرهم، وحافظًا لَهم من كل فتنة، وأن ينصرهم

بالحق الذي أنزله، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

يَا رَبُّ إِنَّهُمُ هُمُ الْغُرَبَاءُ قَدْ لَجَئُوا إِلَيكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

يَا رَبُّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ هَذَا الْخَلْقِ إِلَّا صَادِقَ الإِيمَانِ

قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ دُنْيَا إِلَيهِمْ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

وَرَضُوا وَلَايتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَهَا نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِي

وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضَوْا بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الْهَذَيَانِ

يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْعَلْهُمْ هُدَاةَ التَّائِهِ الْحَيْرَانِ

وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ النُّفَاةِ عَسَاكِرَ الْإِثْبَاتِ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْعِرْفَانِ

وَأَقِمْ لأَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْأَنْصَارَ وَانْصُرْهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ

تَهْدِي بِأَمْرِكَ لَا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا وَدَعَوْا إِلَيهِ النَّاسَ بِالْعُدْوَانِ

وَأَعِزَّهُمْ بِالْحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ فَلأَنْتَ أَهْلُ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

وَلَكَ الْمَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا يُرْضِيكَ لَا يَفْنَى عَلَى الأَزْمَانِ

مِلْءَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَالأَرْضِ وَالْمَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ

مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ حَمْدًا بِغَيرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ

وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ

وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

الشرح: يذكر المؤلف من أحوال أهل التوحيد والسنة وما هم فيه من ضعف وقلة، ما يستدر به رحمة اللّٰه عليهم، ونظره إليهم، فيقول: يا رب، إنَّهم هم الغرباء فِي أوطانِهم وبين أهليهم، وقد لجئوا إلَى بابك، وأنزلوا حاجاتِهم بكريم رحابك، وأنت مولي الفضل والإحسان، وقد عادوا من أجلك كل الناس حَتَّى الآباء والأبناء والأهل والعشيرة، ووالوا فيك من كان على شاكلتهم من أهل طاعتك وتوحيدك، وقد فارقوا الناس وهم أحوج ما يكونون إليهم؛ ليعينوهم على شئون دينهم الَّتِي فيها رضاك، ولَمْ يتخذوا من دونك وليًّا

يتولونه، بل رضوا بولايتك الَّتِي تنيل صاحبها أمنه وأمانيه، واكتفوا فِي دينهم بوحيك، لَمْ يعبئوا بغيره، ولا اتخذوا بديلًا منه آراء الهاذين والمخلطين.

فثبتهم يا رب على الإيمان، فأنت مقلب القلوب كلها بين أصبعيك، تحولها كما تشاء، واجعلهم هداة كل تائه وضال، وانصر حزبك من أهل الإثبات أهل الحق والمعرفة على حزب النفاة الزائغين، وهيئ لأهل السنة النبوية الجند والأعوان، وانصرهم فِي كل مكان، واجعلهم للمتقين إمامًا، وارزقهم ما به يستأهلون منصب الإمامة فِي الدين من الصبر واليقين، كما قلت سبحانك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

نعم يهدون الناس بأمرك ووحيك، لا بِما أحدثه أهل البدع والضلال، ودعوا إليه الناس بالعدوان، وأعزهم بعزة الحق، وانصرهم به النصر العزيز، فأنت رب العزة والسلطان، وصل اللَّهم على رسولك مُحمَّد وصحابته، والحمد للَّه رب العالمين.

❊ ❊ ❊

خاتمة ورجاء

وبعد: فهذا مبلغ ما يسر اللَّه من الجهد فِي شرح هذه القصيدة الجامعة، الَّتِي حوت من أبواب العلم، وعويص المسائل، وفنون الحجاج والجدل، وصنوف المذاهب والمقالات؛ ما جعلها فريدة فِي بابِها، وهو شرح لا أدَّعي أنه بلغ درجة الكمال ونِهاية الإتقان، فإن درك الكمال فِي هذا المجال محال، ولكنه على كل حال محاولة فيها النجاح أغلب من الفشل، والنصر أكبر من الهزيمة، رغم قلة الوسائل، وكثرة العوائق والشواغل، فهو تمهيد صالح لمن يريد أن يسلك الطريق إلَى زيادة أو إجادة، ويعلم اللَّه كم من مرة وقفت أمام عصًا شموس من أبياتِها، أقلب فيه الفكر، وأجيل الخاطر، حَتَّى سلس لي مقاده، واطمأن نافره.

وقد التزمت فِي هذا الشرح ما سبق أن وعدت به فِي المقدمة: وهو ألَّا يكون طويلًا إلَى حد الإملال، ولا قصيرًا إلَى درجة الإخلال، كما توخيت فيه بساطة الأسلوب، وسهولة التعبير، حَتَّى يتيسر فهمه لكل قارئ مهما كانت درجته من الثقافة، وسيجد القارئ فيه أحيانًا نوعًا من السجع الذي لَمْ أتكلفه، وإنَّما كان يجيء عفوًا، فتزيد العبارة به حسنًا، والأسلوب رونقًا، وإذا كان لي ما أرجوه من القارئ الكريم، فهو أن يقرأه منصفًا، وأن يحاول جهد الطاقة أن يطابق بين الأبيات وبين شرحها، فسيجد الثوب على قدر الجسد، اللَّهم إلا فِي بعض الأحيان قد يفيض ويتسع، إذا وجدت حاجة إلَى الزيادة والاستطراد، وقد يقصر عنه إذا ركدت ريح الفهم، وجنحت الملكة إلَى الشراد، فما وجدت أيها القارئ من عيب أو قصور فلا تعجل باللوم والتثريب، فإننا بشر نخطئ ونصيب، ولا تفعل بفعل الجاهل المغرور، إذا رأى هفوة طار بِها فرحًا، واتخذها مادة للطعن والتشهير، وما وجدت من حسن فهو من فضل اللَّه وتوفيقه، فاذكره بالخير لصاحبه، ولا تحاول غمطه والتهوين من شأنه، كما يفعل الحاقد الموتور.

واللَّه أسأل أن ينفع به كل من قرأه، وأن يجعله مرآة تنعكس عليها ما حوته هذه القصيدة من حقائق مطوية، فلا ترتد عنها إلَى بصيرة القلب ألا وهي ظاهرة جلية.

واللَّه أسأل أن يغفر لنا وإخواننا، إنه سميع الدعاء.

المؤلف

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊